كليـــة الآداب والعلوم الإنسانيـــة – مراكش
FACULTÉ DES LETTRES ET DES SCIENCES HUMAINES– MARRAKECH
جامعة القاضي عياض
UNIVERSITÉ CADI AYYAD
MARRAKECH

# الهدايات القرآنية

# في سورة الحج

# وأثرها في مستجدات الواقع المعاصر

رسالةٌ مُقدَّمةٌ لنيل درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية

**من إعداد الطالب:** رشيد الحمداوي

**تحت إشراف: الأستاذ الدكتور:** توفيق العبقري

الموسم الجامعي:

٢٠٢١ – ٢٠٢٢م

# إهداء

أهدي هذا البحث إلى والدي الكريميْن، أطال الله عمرهما في طاعته، وشفاهما الله وعافاهما من كل سوء.

كما أهديه إلى زوجتي المصونة، جعلها الله من الصالحات القانتات.

# شكر وتقدير

أتوجه بالشكر الجزيل والثناء الجميل وفائق التقدير والتوقير لأستاذنا المفضال الذي تولى الإشراف على هذا البحث: الدكتور توفيق العبقري، سائلا الله جل جلاله أن يبارك في علمه وعمره، ويجزيه عنا خير الجزاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

## المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل القرآن، هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان، والصلاة والسلام على من أرسله الله هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، سيدنا محمد، وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، ومن تبعهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار.

أما بعد، فإنَّ القرآن الكريم هو أعظم كتاب، أنزله الله سبحانه وتعالى على أشرف رسول، وجعله موعظة وشفاء لما في الصدور، وهدىً ورحمة للمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [سورة يونس: ٥٧].

وإنَّ هداية القرآن الكريم هي أعظم الهدايات وأقومها وأوضحها وأقواها؛ (فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره)[(١)]، ومن الأهداف السامية لتلك الهدايات إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وتحقيق الشفاء للأمة على مستوى الفرد أو الجماعة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [سورة الإسراء: ٩]، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [سورة المائدة: ١٥ – ١٦].

والقرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، ولا تحصى معانيه وفوائده، فقد نهلت منه أمة الإسلام منذ أن أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم، ولا يزال المجال مفتوحًا لاستخراج الهدايات والفوائد من معينه الصافي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ ولا عجب في ذلك فهو المعجزة الخالدة التي تخاطب القلوب والعقول، وإعجازه باقٍ ما بقيت الدنيا.

والأمة في أمس الحاجة – لا سيما في عصرنا – إلى هدايات القرآن الكريم وتمثلها في واقعها العملي؛ فإنَّ كل كمال ديني أو دنيوي عاجل أو آجلٍ مفتقرٌ إلى تلك الهدايات؛ إذ إنها لازمة لكل صلاح وإصلاح في هذه الأرض، سواء كان في مجال العقيدة أو العبادة أو الأخلاق أو المعاملات أو غير ذلك من سائر جوانب الحياة، وبهذه الهدايات تتحقق السعادة الحقيقة على وجه الأرض.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن السعدي: (ص٤٥٤).

ولأهمية دراسة هدايات القرآن الكريم سيكون بحثي لمرحلة الدكتوراه متعلقًا بهذا الموضوع من خلال **دراسة الحزب (٣٤) من الجزء السابع عشر** من القرآن الكريم، تحت عنوان: **"الهدايات القرآنية في سورة الحج وأثرها في مستجدات الواقع المعاصر"**، حسب خطة علمية معتمدة من لدن مجموعة من الباحثين بهدف إخراج موسوعة عالمية في الهدايات القرآنية.

**أولا: أهمية الموضوع:**

يمكن إجمال أهمية البحث في هذا الموضوع فيما يأتي:

١ – أنَّ فيه جمعًا لما تفرق في كتب التفسير في مجال الهدايات، وضمًّا لشتاتها في موضع واحد؛ للاستفادة المثلى منها.

٢ – أنه يُعنى باستنباط هدايات جديدة من كتاب الله تعالى الذي لا تنقضي عجائبه وفوائده، وصياغتِها بصورة واضحة وميسَّرة يستفيد منها الجميع في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم وفكرهم؛ حيث إنَّ إبراز الهدايات القرآنية لم يأخذ حقه في بعض كتب التفسير.

٣ – أنَّ فيه إبرازًا لجوانب البلاغة والإعجاز، وتوظيف ذلك في خدمة الهدايات القرآنية.

٤ – أنه يُعنى بجعل التفسير يلامس قضايا الواقع، ويضع حلولًا مناسبة لمشكلاته وفق هدايات القرآن الكريم، لا سيما في زمن التطور العلمي والتقني وتسارع الاكتشافات البحثية.

٥ – أنَّ في استنباط هدايات القران الكريم لفتَ الانتباه إلى فحوى النص القرآني، وإرشاد مبتغيه – استدلالًا أو استنباطًا – إلى اعتبار هدايات النصّ عند الأخذ به.

**ثانيا: أسباب اختيار الموضوع:**

يعود اختيار هذا الموضوع للأسباب الآتية:

١ – هناك جهود ضخمة لعلماء الأمة عبر التاريخ في مجال التفسير، لكن بعض تلك الجهود اختلط فيها الصحيح بالسقيم، والحق بالباطل، والقوي بالضعيف، وهذا يتطلب دراسة

منتقاة تأخذ الصحيح وتدع السقيم، وتتجنب الخلل، وتكمل النقص، لا سيما في هدايات القرآن الكريم التي هي أهم أهدافه.

٢ – لا يزال علم التفسير في حاجة لمزيد من الدراسات، ومن ذلك بذل الجهود لإبراز جوانب الهدايات القرآنية؛ حيث إنها لم تجد الحظ من العناية الكافية من خلال كتب التفسير القديمة والحديثة؛ فقد كان جلُّ اهتمام المفسرين منصبًّا على بيان المعاني، أما الهدايات فإنها تذكر ضمنًا، وهذا يتطلب إبرازها في دراسة خاصّة بها.

٣ – حاجة هذا العصر لربط واقعه بمعاني القرآن وهداياته؛ حتى تعود الأمة لمجدها وعزتها كما كانت عليه يوم أن كان القرآن هاديًا وشافيًا لعللها وأمراضها.

٤ – الحاجة الملحة إلى رؤية علمية مثلى، تقوم على أصح الطرق في الفهم والاستنباط، وتأخذ من كل منهج واتجاه في التفسير أحسنه، ويتم من خلالها كتابة الهدايات القرآنية؛ لتكون موردًا عذبًا للمهتدين بهديه القويم.

**ثالثا: أهداف البحث:**

١ – إظهار ما يتوافق مع هدايات ومقاصد القرآن الكريم من خلال الإفادة من الجهود السابقة للعلماء في التفسير.

٢ – إبراز ما في آيات القرآن الكريم من هدايات ومقاصد بصورة تقرب فهم القرآن للناس، وبطريقة ميسرة، ومنهجية علمية.

٣ – إظهار ما في آيات القرآن الكريم من جوانب الإعجاز والأسرار في ألفاظه، وتراكيبه، ومعانيه؛ بما يظهر جماليات القرآن في هذا الباب الرحب، وسبر أعماقه وأغواره.

٤ – ربط الواقع بمعاني القرآن الكريم، وتفعيل دوره في معالجة مشكلات الفرد، والأسرة، والجماعة.

٥ – فتح آفاق جديدة في التدبر والاستنباط لمعاني القرآن الكريم ومقاصده.

٦ – الوقوف على الهدايات القرآنية في سورة الحج – الآيات التي في حدود البحث – للاهتداء بهديها القويم.

**رابعا: حدود البحث:**

ستكون الدراسة التطبيقية في هذا البحث من خلال سورة "الحج".

**خامسا: الدراسات السابقة للموضوع:**

لم يتطرق أحد من الباحثين – في حدود اطلاعي – إلى إفراد الهدايات القرآنية في سورة الحج بدراسة علمية، وتأتي هذه الدراسة ضمن مشروع الموسوعة العالمية للهدايات القرآنية.

لكن ثمة دراسات متعددة عن سورة الحج تدرسها من زوايا متعددة، وأقربها إلى موضوع الهدايات:

– الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج: عبد الحميد محمود طهماز، رحمه الله[(١)].

– منهجيات الإصلاح والتغيير في سورتي الأنبياء والحج: دراسة موضوعية: بلال خليل ياسين[(٢)].

– الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف الحزب الرابع والثلاثين من القرآن الكريم سورة الحج: غسان تيسير إبراهيم قويدر[(٣)].

– تدبر سورة الحج: الدكتورة رقية العلواني[(٤)].

– نظرات في سورة الحج: الدكتور أحمد نوفل[(١)].

---

(١) دار القلم، دمشق، ط١، عام ١٩٨٨م. وقد أدرجه في كتابه الشامل: "التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم".

(٢) رسالة لنيل درجة الماجستير في قسم التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بغزة، عام ٢٠١٢م. تحت إشراف: د. عبد السلام حمدان عودة.

(٣) رسالة لنيل درجة الماجستير في قسم التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بغزة، عام ٢٠١٥م. تحت إشراف: د. زكرياء إبراهيم الزحيلي.

(٤) موقع الدكتورة رقية طه العلواني على الأنترنت: https://ruqaia.com/.

- آيات الحج: وقفات تدبرية: إيمان بنت محمد القثامي[٢].

**سادسا: الإضافة التي يقدمها هذا البحث:**

١ - هذا الموضوع يمثل دراسة نوعية في مجال التفسير، تفيد مما كتبه المفسرون قديمًا وحديثًا؛ للخروج بهدايات آيات الكتاب العزيز، وحِكَمه، وأسراره.

٢ - إضافة ما يوفق الله تعالى إلى استنباطه، بعد الاستعانة بالله جلَّ جلاله، ثم الاستنارة بما دونه مفسرو القرآن وعلماء الأمة.

٣ - السعي لربط الواقع بهدي القرآن الكريم، بهدف تقويم هذا الواقع وإصلاحه.

**سابعا: المنهج المتبع في هذا البحث:**

المنهج المتبع في البحث هو (المنهج الاستقرائي الاستنباطي)، وذلك من خلال دراسة الآيات القرآنية الداخلة ضمن حدود البحث لاستنباط الهدايات القرآنية منها.

وسأتبع بإذن الله في هذا البحث مجموعة من الخطوات الإجرائية، من أهمها:

١ - الالتزام بأحسن طرق التفسير التي ذكرها العلماء، وهي بيان القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين، ثم بما يوافق لغة العرب.

٢ - الاعتماد على الأحاديث والآثار الصحيحة في بيان القرآن بالسنة، وبأقوال الصحابة والتابعين، وتجنب الروايات الموضوعة والضعيفة.

٣ - الرجوع لما كتب في التفسير بمختلف مدارسه واتجاهاته المختلفة، ومحاولة الاستفادة من ذلك بما يتوافق مع قواعد الترجيح والاختيار في جمع وكتابة الهدايات القرآنية.

٤ - تجنب الأقوال الشاذة والأفكار المنحرفة والأقوال المرجوحة في التفسير.

---

(١) مقال في العدد ١٧٥ من مجلة الفرقان القرآنية الأردنية، ذو الحجة ١٤٣٦هـ – أيلول ٢٠١٦م.

(٢) شبكة الألوكة: https://www.alukah.net/library/0/75425/ . وهنالك محاضرات عن سورة الحج تم تفريغها مثل: "نفحات من سورة الحج" للدكتور عويض العطوي: في مدونة في رحاب التنزيل: http://rehabtanzyl.blogspot.com/2012/11/blog-post_7.html.

٥ – الالتزام بمنهج السلف من الصحابة والتابعين وأئمة أهل السنة في تناول الهدايات القرآنية.

٦ – الالتزام بأصول التفسير وقواعده في الاختيار والترجيح والاستنباط.

٧ – تجنب تفريعات علوم العقيدة والفقه واللغة وغيرها في تناول التفسير والهدايات، وعدم الخروج عن دلالة النص القرآني.

٨ – اعتماد القراءات القرآنية في استخراج الهدايات.

٩ – الاعتماد في كتابة الآيات على الرسم العثماني، برواية حفص عن عاصم.

١٠ – عزْو الآيات القرآنية بذكر اسم السورة ورقم الآية في متن البحث.

١١ – إذا تكرر ذكر الآية في الصفحة نفسها فسأكتفي بعزوها في المرة الأولى.

١٢ – تخريج الأحاديث الشريفة تخريجًا علميًّا موجزًا، فإذا كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما فسأكتفي بهما، وإذا كان في غير الصحيحين أو أحدهما، فإني سأذكرُ تخريجَه من بقية كتب الحديث المعتبرة، مراعيًا عدم الإطالة، والبعد عن الإكثار في ذكر المصادر التي خرّجته، ولكني أذكرُ طرفًا منها، مع بيان درجة الحديث من خلال ذِكر كلام أهل الاختصاص، قدرَ المستطاع.

١٣ – الترجمة للأعلام الواردة في البحث ترجمة موجزة، وعدم الترجمة للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ومشهوري الصحابة رضوان الله عنهم، والأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى؛ لشهرتهم، وعدم الإحالة إلى مكان الترجمة إذا ورد ذكر علَمٍ مرة أخرى.

١٤ – ضبط ما يحتاج إلى ضبط بالشكل، بحسب ما يوضح السياق قدر الإمكان.

١٥ – توثيق النصوص المنقولة من مصادرها الأصيلة.

١٦ – المعوَّل عليه في معرفة طبعات المصادر والمراجع هو الفهرس الخاص بذلك آخر الرسالة.

**ثامنا: خطة البحث:**

يتكون البحث من مقدمة، وتمهيد، وبابين، وخاتمة، وفهارس، وهي كما يأتي:

- المقدمة: وتشمل أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف البحث، وحدوده، والدراسات السابقة، والمنهج المتبع في البحث، وخطة البحث.
- التمهيد: وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالهدايات القرآنية.

المبحث الثاني: أهمية الهدايات القرآنية.

المبحث الثالث: منهج العلماء في استخراج الهدايات القرآنية.

المبحث الرابع: إطلاقات العلماء للهدايات القرآنية، وطرق تناولهم لها.

الباب الأول: مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات سورة الحج:

ويتكون من فصلين:

الفصل الأول: اسم السورة، وفضلها، وأحوال نزولها.

المبحث الأول: اسم السورة.

المبحث الثاني: فضائل السورة.

المبحث الثالث: أحوال نزول السورة.

الفصل الثاني: معاني السورة ومقاصدها.

المبحث الأول: مقاصد السورة العامة.

المبحث الثاني: معاني مفردات السورة.

المبحث الثالث: المعنى الإجمالي لآيات السورة بما يتوافق مع هدايات السورة.

الباب الثاني: دراسات تطبيقية في هدايات السورة، وربط ذلك بواقع الأمة:

ويتكون من ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الهدايات الجزئية والكلية في السورة.

المبحث الأول: الهدايات الخاصة بآيات السورة.

المبحث الثاني: الهدايات الكلية في السورة.

الفصل الثاني: مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها في عرض هداياتها.

المبحث الأول: المناسبات المتعلقة بهدايات آيات السورة.

المبحث الثاني: خصائص هدايات آيات السورة.

المبحث الثالث: أساليب السورة في عرض هداياتها.

الفصل الثالث: واقع الأمة في ضوء هدايات السورة، وأثر ذلك عليها.

المبحث الأول: واقع الأمة من هدايات آيات السورة.

المبحث الثاني: سبل تحقيق هدايات آيات السورة في واقع الأمة.

المبحث الثالث: أثر تطبيق هدايات آيات السورة على واقع الأمة.

- الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.
- الفهارس: وتتضمن الآتي:

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث.
- فهرس الأعلام.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

**تاسعا: صعوبات الموضوع:**

تمثلت الصعوبات التي واجهتني في هذا البحث في:

– غزارة المادة التفسيرية المتعلقة بسورة الحج، وكثرة المصادر والمراجع التي تناولت السورة، مما يجعل الاطلاع عليها كلها والإفادة منها جميعا أمرا صعبا، ويأخذ تتبعها وقتا طويلا، مع ما في كثير من ذلك من التكرار، مما يسبب الملل وضعف التركيز.

– تعدد الأقوال التفسيرية في تفسير الآية الواحدة، وتعدد الوجوه الإعرابية وما تستلزمه من المعاني، واختلاف المفسرين في الترجيح بعضها.

* * * * *

وبعد، فإنني أحمد الله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، على أن وفقني وأعانني على كتابة هذا البحث، ولا يفوتني أن أشكر أستاذي الجليل الدكتور توفيق العبقري الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث وتتبع مراحله، وأن أشكر جميع الأساتذة الفضلاء الذين اطلعوا على أجزاء هذا البحث، وقدموا لي ملحوظاتهم وتنبيهاتهم، وأسأل الله تعالى أن يجعل ما قاموا به في موازين حسناتهم.

وفي الختام، فإن هذا البحث وهو لا يعدو أن يكون عملا بشريا يعتريه ما يعتري عمل، فما كان فيه من صواب فهو بتوفيق الله، وما كان فيه من خطأ أو سهو فهو من تقصيري، وأسأله تعالى أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين، ويرزقه القبول على ما فيه، إنه قريب مجيب.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله، والحمدُ لله رب العالمين.

# التمهيد

## المبحث الأول: التعريف بالهدايات القرآنية.

"الهدايات القرآنية" هي مركب وصفي مكون من كلمتين: "الهدايات"، و"القرآنية"؛ ولذلك سنعرف الهداية أولا لغةً وشرعا، ثم نميز بينها وبين ما يقاربها، ثم نعرف "الهدايات القرآنية" باعتباره مصطلحا معاصرا يُراد به مفهومٌ خاصٌّ في هذا المشروع الذي يُعَدّ هذا البحث إسهاما في وضع إحدى لَبِناته.

### المطلب الأول: تعريف الهداية في اللغة والاستعمال الشرعي:

بادئ ذي بدء سنتحدث عن معنى الهداية لغةً، ثم عن معناها في الاستعمال الشرعي، ثم نذكر مدلولاتها المتعددةَ في القرآن الكريم حسب سياق الآيات من خلال العناصر الآتية:

**١ – مفهوم الهداية في اللغة:**

الهدايات جمع هداية، والهداية اسم مصدر، من هدى يهدي هَدْيا وهُدى وهِداية وهِدْية[(١)]، وهداه: أرشده[(٢)]، و(الهاء والدال والحرف المعتلّ أصلان، أحدهما: التقدم للإرشاد، والآخر بَعثة لَطَف.

فالأول قولهم: هديته الطريقَ هدايةً، أي تقدمتُه لأُرشده. وكل متقدم لذلك هادٍ...وينشعب هذا فيقال: الهدى: خلافُ الضلالة. تقول: هديته هُدى. ويقال: أقبلَتْ هوادي الخيل، أي أعناقُها، ويقال هاديها: أولُ رعيل منها، لأنه المتقدم. والهادية: العصا، لأنها تتقدم ممسِكَها كأنها ترشده...

والأصل الآخر الهديّة: ما أهديت من لطَف إلى ذي مودّة. يقال: أهديت أهدي إهداءً. والمِهْدَى الطبق تُهدى عليه. ومن الباب: الهَدِيُّ: العروس، وقد هُدِيت إلى بعلها هِداءً...)[(٣)].

---

(١) لسان العرب، لابن منظور (١٥/ ٣٥٤).

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس، لمرتضى الزبيدي (٤٠/ ٢٨٣).

(٣) معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس (٦/ ٤٢).

وقد جمع الراغب الأصفهاني رحمه الله (ت٥٠٢هـ)[١] بين المعنيين، وفسر الهداية بأنها (دلالة بلُطْف)[٢]، ولذلك خُصت بالدلالة لما فيه خير المدلول؛ لأن التلطف يناسب من أريد به الخير[٣]. والهدى بمعناه، ولذلك فسره بأنه: (الرشاد والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب)[٤].

وفعل "هدى" يتعدى إلى مفعول واحد – وهو المهديُّ – بنفسه، أما المفعول الثاني – وهو المهديُّ إليه، فيتعدى بحرفين:

الأول: "إلى"، فيقال: هديته إليه، أي أرشدته إليه[٥]، أو: أوصلته إليه. وقد جاء ذلك في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة الأنعام: ٨٧]، وقوله: ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [سورة النحل: ١٢١]، وقوله: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الأحقاف: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [سورة الجن: ٢].

الثاني: "اللام"، فيقال: هداه له هداية: أي دلّه عليه وبيّنه له[٦]. وقد جاء ذلك في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ [سورة الأعراف: ٤٣]، وقوله

---

(١) هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفَضَّل، الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب، أديب، من الحكماء العلماء، من أهل أصبهان. سكن بغداد، واشتهر حتى كان يُقْرَن بالغزالي، صنف: محاضرات الأدباء، وجامع التفاسير، والمفردات في غريب القرآن، والذريعة إلى مكارم الشريعة، توفي سنة: ٥٠٢ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/ ١٢٠)، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (٢/ ٢٩٧)، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/ ٣٢٩).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٨٣٥). ثم قال: (إن قيل: كيف جعلت الهداية دلالة بلطف وقد قال الله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٣]، ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج: ٤]؟ قيل: ذلك استُعمل فيه استعمال اللّفظ على التّهكّم مبالغة في المعنى كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: ٢١]).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٨٧).

(٤) تاج العروس (٤٠/ ٢٨٢).

(٥) تاج العروس (٤٠/ ٢٨٤).

(٦) المصدر السابق (٤٠/ ٢٨٤).

سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ [سورة يونس: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [سورة الإسراء: ٩]، وقوله: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [سورة النور: ٣٥].

وقد يُتوسَّع فيه فيُحذف الحرف، ويُعدّى الفعل بنفسه[(١)]، فيقال: هديتُه الطريقَ هدايةً: أي عرّفْتُه[(٢)]. ومنه قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [سورة الفاتحة: ٦]، وقوله سبحانه حكايةً على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨﴾ [سورة غافر: ٣٨]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [سورة الإنسان: ٣]، وقوله: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [سورة البلد: ١٠].

وحكى الأخفش[(٣)] رحمه الله (ت٢١٥هـ) أن تعديته بنفسه لغةُ أهل الحجاز، وتعديته ب"إلى" و"اللام" لغةُ غيرهم[(٤)].

والظاهر أن اختلاف هذه الأساليب ترجع إلى المعاني الملحوظة مع معنى الهداية على سبيل التضمين، قال أبو البقاء الكفَوي (ت١٠٩٤هـ)[(٥)] رحمه الله: (إن فعل الهداية متى عُدِّيَ ب"إلى" تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة، فأتي بحرف الغاية، ومتى عُدِّيَ باللام تضمن

---

(١) ينظر "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز"، للفيروزآبادي (٥/ ٣١٢)، وتاج العروس (٤٠/ ٢٨٤).

(٢) ينظر معاني القرآن للأخفش (١/ ١٦)، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٦/ ٢٥٣٣)، وتاج العروس (٤٠/ ٢٨٤)

(٣) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء، البلخي، المعتزلي، المعروف بالأخفش، نحوي لغوي عروضي، حافظ للأخبار، أخذ عن الخليل، ولزم سيبويه حتى برع، وشرح كتابه ونشره بين الناس، وكان مُعَظَّماً عند البصريين والكوفيين، واتخذه الكسائي مُعَلِّماً لولده، توفي سنة ٢١٥هـ. من مصنفاته: كتاب الأوسط في النحو، ومعاني القرآن، والاشتقاق، والعروض، والمقاييس في النحو. ينظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي (١١/ ٢٢٤)، وإنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (٢/ ٣٦)، ووفيات الأعيان لابن خلّكان (٢/ ٣٨٠).

(٤) ينظر معاني القرآن للأخفش (١/ ١٦)، والصحاح (٦/ ٢٥٣٤)، وتاج العروس (٤٠/ ٢٨٤).

(٥) هو أبو البقاء أيوب بن سليمان الحسيني القريمي الكفوي، الحنفي، كان قاضياً في القدس، وله من المؤلفات كتابه الذي شهره: الكليات، توفي أبو البقاء في القدس سنة ١٠٩٤هـ. ينظر: مقدمة تحقيق "الكليات"، للدكتور عدنان درويش ومحمد المصري، و"معجم المعاجم" لأحمد الشرقاوي إقبال (ص ٤٩).

التخصيص بالشيء المطلوب، فأتي باللام الداخلة على الاختصاص والتعين، وإذا تعدّى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كلِّه، وهو التعريف والبيان والإلهام)[1].

وقال العلامة محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله (ت١٣٩٣هـ)[2] رحمه الله: (وهدى متعد لواحد لا محالة، وإنما الكلام في تعديته لثانٍ، فالحق أنه إن اعتُبر فيه معنى الإراءة والإبانة تعدى بنفسه، وإن اعتبر فيه مطلق الإرشاد والإشارة فهو متعدٍّ بالحرف، فحالة تعديته هي المؤْذنة بالحدث المتضمن له)[3].

**ب – مفهوم الهداية في الشرع:**

نقل معنى الهدى اللغوي إلى المعنى الشرعي، فقال الشريف الجرجاني رحمه الله (ت ٨١٦هـ)[4]: (الهداية: الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، وقد يقال: هي سلوك طريق يوصل

---

(١) الكليات (ص: ٩٥٤).

(٢) هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور: مفسر، لغوي، نحوي، أديب، من دعاة الإصلاح الاجتماعي والديني، ولد بضواحي تونس سنة ١٢٩٦هـ. درَس بجامع الزيتونة، ثم تولى التدريس به، كما درس بالمدرسة الصادقية، وتولى القضاء والإفتاء، وعين شيخ الإسلام المالكي، ثم عين في السنة نفسها مديرا للجامع الأعظم. له قرابة الأربعين مؤلفا منها: التحرير والتنوير، ومقاصد الشريعة الإسلامية، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام، وأصول الإنشاء والخطابة، وغيرها، توفي بتونس عام ١٣٩٣هـ. ينظر الأعلام للزركلي (٦/ ١٧٤)، ومعجم المفسرين (٢/ ٥٤١)، والتفسير والمفسرون في غرب أفريقيا (١/ ٣٤٧ – ٣٤٨).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٨٨).

(٤) علي بن محمد بن علي الحسيني، أبو الحسن، المعروف بالشريف الجرجاني، فيلسوف، عالم بالعربية والتفسير والمنطق، مشارك في أنواع من العلوم. ولد قرب إستراباذ، وتعلم بجرجان، وأخذ عن علماء مصر، ثم رحل إلى بلاد الروم، واستوطن شيراز ودرس فيها، ثم أقام بسمرقند مدة، ثم عاد إلى شيراز فأقام بها إلى أن توفي. تصدى للإقراء والتصنيف والفتيا، وتخرج به أئمة. له نحو خمسين مصنفا، منها: حاشية على تفسير للبيضاوي، وحاشية على الكشاف للزمخشري، وشرح المواقف في الكلام للعضد الإيجي. ت٨١٦هـ. ينظر البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني (١/ ٤٨٨)، والضوء اللامع للسخاوي (٥/ ٣٢٨)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي (٧/ ٧٠).

إلى المطلوب)[١]. وفسرها الراغب الأصفهاني فقال: (هي الإرشاد إلى الخيرات قولاً وفعلاً)[٢]، وعرفها ابن عاشور رحمه الله في تفسيره فقال: (الهداية في اصطلاح الشرع حين تسند إلى الله تعالى هي: الدلالة على ما يرضي الله من فعل الخير، ويقابلها الضلالة)[٣]. وعرّفها في موضع آخر فقال: (هو الإرشاد إلى ما فيه صلاح العاجل الذي لا ينقض صلاحَ الآجل)[٤].

واختلف علماء الكلام في اعتبار قيد الإيصال إلى الخير في حقيقة الهداية، فالأشاعرة لم يعتبروه، وقالوا: الهداية هي (الدلالة على طريقٍ من شأنه الإيصال، سواء حصل الوصول بالفعل في وقت الاهتداء أو لم يحصل)[٥]. وذهب جماعة منهم الزمخشري[٦] (ت٥٣٨هـ) رحمه الله إلى أنه لا بد من الإيصال[٧]، وأن الهداية (هي الدلالة الموصلةُ إلى المطلوب، فإن لم تكن موصلةً إلى المطلوب فليست بهداية عندهم)[٨]، وإلا لما امتازت عن الضلالة، ولو كانت الهداية مجرد الدلالة لأمكن اجتماعها بالضلالة التي هي فقدان المطلوب[٩].

---

(١) التعريفات (ص: ٢٥٦).

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٦٠).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٨٨).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٢٢٥).

(٥) الكليات (ص: ٩٥٢).

(٦) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، مفسر، متكلم، نحوي، كان واسع العلم، غاية في الذكاء، معتزليا مجاهرا باعتزاله، قدم بغداد وسمع الحديث وتفقه، ورحل إلى مكة وجاور بها. من تصانيفه: "الكشاف" في التفسير، والفائق في غريب الحديث، وأساس البلاغة، والمفصّل في النحو، وغيرها، (ت ٥٣٨هـ). ينظر معجم الأدباء (٥/ ٤٨٩ – ٤٩٥)، ووفيات الأعيان (٥/ ١٦٨)، وسير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٥١ – ١٥٦).

(٧) قال الزمخشري في تفسيره (١/ ٣٥): (الهدى مصدر على فُعَل، كالسُّرى والبُكى، وهو الدلالة الموصلة إلى البغية، بدليل وقوع الضلالة في مقابلته).

(٨) لوامع الأنوار البهية، للسفاريني (١/ ٣٣٥).

(٩) الكليات (ص: ٩٥٢).

(ومرجع الخلاف إلى اختلافهم في أصل آخر، وهو أصل معنى رضى الله ومشيئته وإرادته وأمره، فأصحاب الأشعري اعتبروا الهداية التي هي من متعلَّق الأمر، والمعتزلة نظروا إلى الهداية التي هي من متعلَّق التكوين والخلق)[1].

ولا خلاف في أن الهداية مع الوصول هي المطلوبة شرعا من الهادي والمهْديّ، مع أنه قد يحصل الخطأُ للهادي وسوءُ القَبول من المهْديّ. ولا نزاع في أن الهداية تستعمل في كلا المعنيين: بقيد الإيصال، وبدونه، (لكن الكلام في أنها حقيقة فيهما، أو في أحدهما، أو في أيّهما)[2].

**المطلب الثاني: استعمال مشتقات الهدى في القرآن الكريم:**

تقدم لنا أن "الهداية" في اللغة: الإرشاد، (لكنها تتصرف على وجوه يعبر عنها المفسرون بغير لفظ الإرشاد، وكلها إذا تُؤمِّلت رجعت إلى الإرشاد)[3] كما قال ابن عطية[4] رحمه الله (ت٥٤٢هـ)، ومن هذه الوجوه التي استعملت فيها مشتقات الهدى وتصاريفه في القرآن الكريم:

- **الإرشاد والدلالة:** نحو قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾ [سورة القصص: ٢٢]، أي: أن يدلّني. ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [سورة

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٨٨).

(٢) الكليات (ص: ٩٥٣).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٧٣). وعلق عليه الفيروزآبادي في "بصائر ذوي التمييز" (٥/ ٣١٢) فقال: (وهو صحيح، ولم يذكر أهل اللغة فيها إلا أنها بمعنى الإرشاد، والأصل عدم الاشتراك).

(٤) هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي، كان فقيها، عارفا بالأحكام والحديث والتفسير، بصيرا بلسان العرب، طلب العلم ببلده، ثم رحل إلى المشرق، وتصدّر بغرناطة للفتيا والتدريس والإسماع، وانتفع به الناس، وتولى القضاء في بعض نواحي الأندلس، وشارك في الغزو، وله مؤلفات، أجلّها تفسيره "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، توفي سنة ٥٤٢هـ. ينظر: بغية الملتمس للضبي (ص ٣٧٦ - ٣٧٨)، والصلة لابن بشكوال (١/ ٣٦٧)، وطبقات المفسرين للداوودي (٢ / ٢٦٥ – ٢٦٧).

الشورى: ٥٢]، أي: لَتُرشد[١]؛ وقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [سورة الفاتحة: ٦] ، أي: دُلّنا إليه وأرشدنا إليه؛ وقيل: (أي: ثبّتنا عليه)[٢].

– **البيان:** مثل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [سورة البقرة: ٥]، أي: على بيان؛ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ [سورة فصلت: ١٧]، أي: بيّنا لهم طريق الهدى وطريق الضلالة[٣]؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [سورة الإنسان: ٣]، يعني: بَيَّنَّا له السبيل؛ وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾ [سورة البلد: ١٠]، يعني: بيَّنَّا له[٤]؛ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ﴾ [سورة الأعراف: ١٠٠]، أي: ألم يُبَيَّن[٥]، أو أم يتبين؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [سورة الكهف: ٥٥]، أي: البيان، والمعنيّ به القرآن[٦]؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٣﴾ [سورة الليل: ١٢]، أي علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال[٧]، وقيل: أي علينا الدلالة على الحق، (وفي هذا كله معنى الإرشاد)[٨].

---

(١) ينظر الوجوه والنظائر، لأبي هلال العسكري (ص: ٤٩٨)، ونزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي (ص: ٦٢٨).

(٢) نزهة الأعين النواظر (ص: ٦٣٠).

(٣) ينظر تفسير الطبري (٢١/ ٤٤٨)، وتهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري (٦/ ٢٠١)، ولسان العرب (١٥/ ٣٥٤).

(٤) ينظر لسان العرب (١٥/ ٣٥٤).

(٥) التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه (ص: ٩٦). وبهذا فسر ابن عباس هذه الكلمة كما في تفسير الطبري (١٠/ ٣٣٥).

(٦) الوجوه والنظائر للعسكري (ص: ٤٩٧).

(٧) ينظر معاني القرآن للزجاج (٥/ ٣٣٦)، ولسان العرب (١٥/ ٣٥٤).

(٨) المحرر الوجيز (١/ ٧٣).

– **خلق الإيمان في القلب**[1]: وهو ما يعبر عنه بهداية التوفيق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾ [سورة يونس: ٢٥]، وقوله سبحانه: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ [سورة الأعراف: ١٧٨]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ [سورة القصص: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ [سورة السجدة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ ١٢٥﴾ [سورة الأنعام: ١٢٥]. قال الإمام الجويني رحمه الله (ت٤٧٨هـ)[2]: (فهذه آية لا يتجه حملها إلا على خلق الإيمان في القلب، وهو محض الإرشاد)[3].

– **الدليل وما تهتدي به:** كما في قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠﴾ [سورة طه: ١٠] ، أي: دليلًا يدلني على الطريق[4]؛ وقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥] ، وقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾ [سورة الحج: ٨][5].

– **الطريق الموصل:** كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾ [سورة الحج: ٦٧]، أي: على طريق قويم، وهو الإسلام. ومثله قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ﴾

---

(١) وعبّر عنه الفراهي في مفردات القرآن (ص: ٣٢٨) ب(النور والبصيرة في الفؤاد).

(٢) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، أبو المعالي الجويني النيسابوري، من كبار الأصوليين المتكلمين، كان أعلم المتأخرين من فقهاء الشافعية، له تآليف نافعة، منها: البرهان في أصول الفقه، والغياثي، والإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، وغيرها (ت٤٧٨هـ). ينظر: طبقات الفقهاء للشيرازي (ص٢٣٨)، ووفيات الأعيان (٣/ ١٦٧ – ١٧٠)، وطبقات الشافعية الكبرى لابن السُّبْكي (٥/ ١٦٥ – ٢٢٢).

(٣) المحرر الوجيز (١/ ٧٣).

(٤) ينظر نزهة الأعين النواظر (ص: ٦٢٩).

(٥) مفردات القرآن للفراهي (ص: ٣٢٨ – ٣٢٩).

[سورة البقرة: ١٢٠]، أي: السبيل الذي أمر الله بسلوكه هو السبيل المرضيّ، وهو الإسلام، ويحتمل أن تكون بمعنى البيان؛ لأنه يقال: إنه لَعلى هدى، أي: على بيان[(١)].

– **التوفيق**: مثل قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾ [سورة البقرة: ١٥٧]، يعني: هم الْموفَّقون إلى الاسترجاع والصّبر؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [سورة التغابن: ١١]، يعني: يوفِّق قلبه إلى الاسترجاع عند المصيبة، فيُسلِّم ويرضى ويعرف أنها من الله[(٢)].

– **الدعاء**: نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ [سورة السجدة: ٢٤]، أي: يدعون؛ وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ٧﴾ [سورة الرعد: ٧]، أي: داعٍ[(٣)]؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء: ٩]، أي: يدعو؛ وقوله تعالى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ٣٠﴾ [سورة الأحقاف: ٣٠] يعني: يدعو، وقوله تعالى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [سورة الجن: ٢]، أي: يدعو[(٤)]؛ وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٨١﴾ [سورة الأعراف: ١٨١]، أي: يدعون[(٥)]؛ ويجوز أن يكون معناه: يرشدون بالقول الحق، وكذلك قوله سبحانه: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [سورة السجدة: ٢٤]. وهذا المعنى في جميع هذه الأمثلة يرجع إلى معنى الإرشاد كما قال ابن عطية، (لأنه ابتداء إرشاد، أجابَ المدعوُّ أو لم يجب)[(٦)].

---

(١) الوجوه والنظائر للعسكري (ص: ٤٩٨).

(٢) التصاريف لتفسير القرآن (ص: ١٠١).

(٣) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي (٤/ ٢٤٣).

(٤) التصاريف لتفسير القرآن (ص: ٩٨)، ونزهة الأعين النواظر (ص: ٦٢٧).

(٥) الوجوه والنظائر للعسكري (ص: ٤٩٨).

(٦) المحرر الوجيز (١/ ٧٣).

– **الدين:** وهو الإسلام، وبه فُسِّر قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الحج: ٦٧]، يعني: على دين مستقيمٍ[(١)]، حقٍّ. ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [سورة البقرة: ١٢٠]، أي: إن دين الله –يعني الإسلام – هو الدِّين الحق[(٢)]؛ وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ [سورة القصص: ٥٧]، يعني: دينه، وهو راجع إلى البيان، وقيل: هو التوحيد[(٣)].

– **الإيمان:** كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [سورة مريم: ٧٦]، يعني: يزيدهم إيمانا[(٤)]. وكقوله سبحانه: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [سورة الكهف: ١٣]، يعني: إيمانا. وقوله تعالى: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ﴾ [سورة سبأ: ٣٢]، أي: عن الإيمان[(٥)]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الزخرف: ٤٩]، أي: إنَّنا لمؤمنون[(٦)].

– **التوحيد:** وفسر به قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ [سورة القصص: ٥٧]، وهو التوحيد[(٧)]. ومثله قوله تعالى: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ [سورة سبأ: ٣٢]، وقوله تعالى:

---

(١) وهو تفسير السدي، ينظر تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٨٨)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٩)، والتفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٧٩)، تفسير السمعاني (٣/ ٤٥٤).

(٢) ينظر التصاريف لتفسير القرآن (ص: ٩٧).

(٣) الوجوه والنظائر للعسكري (ص: ٤٩٨)، وقال: (وكانوا لا يسمّونه هدى، وإنما قالوا ذلك على ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم، أي: الهدى بزعمك).

(٤) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٢/ ٦٣٧)، وتفسير يحيى بن سلام (١/ ٢٤٠)، وتفسير ابن أبي زمنيْن (٣/ ١٠٤)، والكشف والبيان عن تفسير القرآن، للثعلبي (٦/ ٢٢٨)، وتفسير البغوي (٥/ ٢٥٣).

(٥) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٥٣٤)، وتفسير السمرقندي (٣/ ٩٢)، والتفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٤٩٦).

(٦) التصاريف لتفسير القرآن (ص: ٩٨)، ونزهة الأعين النواظر (ص: ٦٢٧).

(٧) وهو تفسير السُّدي، ينظر تفسير يحيى بن سلام (٢/ ٦٠١)، وتفسير ابن أبي زمنين (٣/ ٣٣٠).

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ [سورة التوبة: ٣٣]، أي: بالتوحيد[١]، ويجوز أن يكون الهدى هاهنا: البيان[٢].

- **الرسل والكتب:** نحو قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾ [سورة البقرة: ٣٨]، أي: رسُل وكتب[٣].

وقيل: أي: رَسُول[٤]. وقد يراد به الكتاب المنزل على أحد الرسل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [سورة غافر: ٥٣]، أي التوراة[٥].

أو يراد به القرآن الكريم، كما في قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣﴾ [سورة النجم: ٢٣]، يعني: القرآن، فيه بيان كل شيء[٦]؛ وقوله تعالى حكاية على ألسنة مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [سورة الجن: ١٣]؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [سورة الإسراء: ٩٤][٧]. وإنما يصح أن يطلق "الهدى" على القرآن لأنه يرشد إلى الخير والرشاد. قال الفراهي رحمه الله (ت١٣٤٩هـ)[٨]: (العرب تسمي الأشياء ببعض وصفها

---

(١) التصاريف لتفسير القرآن (ص: ١٠٢)، ونزهة الأعين النواظر (ص: ٦٢٨).

(٢) الوجوه والنظائر للعسكري (ص: ٤٩٩).

(٣) التصاريف لتفسير القرآن (ص: ١٠٠). وينظر الهداية إلى بلوغ النهاية، لمكي بن أبي طالب (١/ ٢٤٧).

(٤) نزهة الأعين النواظر (ص: ٦٢٩).

(٥) التصاريف لتفسير القرآن (ص: ١٠١)، ونزهة الأعين النواظر (ص: ٦٢٨).

(٦) التصاريف لتفسير القرآن (ص: ١٠٠).

(٧) ينظر نزهة الأعين النواظر (ص: ٦٢٨)، ومفردات القرآن للفراهي (ص: ٣٣٠).

(٨) هو حميد الدين عبد الحميد بن عبد الكريم الأنصاري الفراهي، ولد سنة ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٤م، في قرية بالهند، فحفظ القرآن صغيرا، وبرع في الفارسية، ثم اشتغل بالعربية وعلومها على يد العلامة شبلي النعماني، كما أخذ العلم عن أبي الحسنات اللّكنوي وغيره من العلماء، ثم تعلم الإنجليزية، والتحق بكلية "عليكره" الإسلامية، وحصل على الليسانس في الفلسفة الحديثة من جامعة "إله آباد"، واشتغل في التدريس في مدارس متعددة، ثم اعتزل في بلدته عاكفا على التأليف، منقطعا إلى تدبر القرآن، وأسس مدرسة الإصلاح. من مؤلفاته الإمعان في أقسام القرآن، والرأي الصحيح فيمن هو

الظاهر، فعلى هذا الأسلوب سمّى الله تعالى كتابه "هدى" من جهة هذه الوجوه كلّها، لكونه جامعاً لها)[1].

– **الصَّوَاب**: ومنه قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [سورة العلق: ١١][2].

– **السُّنة**: نحو قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [سورة الأنعام: ٩٠]، يعني: بسُنّتهم[3]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الزخرف: ٢٢]، أي: مستنّون سُنّتَهم في الكفر[4].

– **الإصلاح**: نحو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة يوسف: ٥٢]، أي: لا يصلحه[5]؛ (فاستعار الهداية للإصلاح، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة يونس: ٨١]، والمعنى: لا يوفقهم لعمل أهل الخير)[6].

– **الإلهام**: نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة طه: ٥٠]، أي ألهم الحيواناتِ كلَّها منافعَها[7]، وأمورَ معايشها[8]، (وهذا أيضا بيِّنٌ فيه معنى الإرشاد)[1].

---

الذبيح، وتفسيره نظام الفرقان وتأويل القرآن بالقرآن، توفي سنة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م. ينظر الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٨/ ١٢٦٧).

(١) مفردات القرآن (ص: ٣٣٠).

(٢) نزهة الأعين النواظر (ص: ٦٣٠).

(٣) ينظر تفسير السمرقندي (١/ ٤٦٦)، والكشف والبيان (٤/ ١٦٧).

(٤) ينظر التصاريف لتفسير القرآن (ص: ١٠٢)، والوجوه والنظائر للعسكري (ص: ٤٩٩)، ونزهة الأعين النواظر (ص: ٦٢٩).

(٥) التصاريف لتفسير القرآن (ص: ١٠٣)، والوجوه والنظائر للعسكري (ص: ٤٩٩).

(٦) عمدة الحفاظ (٤/ ٢٤٥).

(٧) المحرر الوجيز (١/ ٧٣).

(٨) ينظر تهذيب اللغة (٦/ ٢٠١)، والوجوه والنظائر للعسكري (ص: ٤٩٩)، ونزهة الأعين النواظر (ص: ٦٢٩).

– **أمر النبي عليه الصلاة والسلام**: وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ [سورة محمد: ٢٥]، يعني: من بعد ما تبين لهم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم أنه رسول الله[٢]. ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ [سورة محمد: ٣٢]. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [سورة البقرة: ١٥٩]؛ يعني: يكتمون الإسلام ويكتمون أمر محمد صلى الله عليه وسلم أنَّه رسول الله وهم يجدونه مكتوبا عندهم[٣].

أما صيغة الاهتداء فقد وردت بمعنيين آخرين، وهما:

– **المعرفة**: نحو قول الله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة النمل: ٤١] ، أي: أتعرفه أم لا[٤]؛ وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة النحل: ١٦)، أي: يعرفون الطرق[٥]؛ وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٣١]، يعني: لعلَّهم يعرفون الطَّريق[٦].

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ٧٣).

(٢) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٤/ ٤٩)، وتفسير السمرقندي (٣/ ٩٢)، والتفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٤٩٦).

(٣) ينظر التصاريف لتفسير القرآن (ص: ٩٩ – ١٠٠)، والوجوه والنظائر للعسكري (ص: ٤٩٩). وينظر تفسير الطبري (٢/ ٧٢٩)، والتفسير البسيط للواحدي (٣/ ٤٤٥).

(٤) ينظر تفسير مجاهد (ص: ٥١٩)، وتفسير يحيى بن سلام (٢/ ٥٤٦)، وتفسير الطبري (١٨/ ٧٧)، وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٣/ ٣٠٣).

(٥) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٢/ ٤٦٢)، وتفسير يحيى بن سلام (١/ ٥٦)، والتصاريف لتفسير القرآن (ص: ٩٩)، والوجوه والنظائر للعسكري (ص: ٤٩٨)، واللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (١/ ٢٧٣).

(٦) التصاريف لتفسير القرآن (ص: ٩٩)، ونزهة الأعين النواظر (ص: ٦٢٧).

– **الاستبصار**: ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ [سورة البقرة: ١٦][(١)]، ويحتمل أن يكون المراد: عدم المعرفة، وهو معناها الأصلي في اللغة[(٢)].

وفي الجملة فإن "الهداية" لا تخرج عن معاني الإرشاد والدلالة والبيان المجرد عن الإيصال إلى المطلوب أو المقترن به، وما تقدم من المعاني المتعددة إطلاقاتٌ على وجه من وجوه التجوّز لعلاقة ما، وجميعها يُلحَظ فيها المعنى الأصلي، فرسُل الله عليهم الصلاة والسلام هم الهُداة المرشدون إلى الخير والداعون إليه، والكتب السماوية هي التي تتضمن هذه الإرشادات، والمعرفة والاستبصار هي ثمرة الإرشاد، والتوفيق للإيمان هو الدلالة المقترنة بالإيصال، والدليل هو الذي يدل على المرغوب، والطريق هو الذي يوصل إلى المطلوب، وسلوكه والاهتداء به هو الذي يوصل إلى الغاية، والاقتداء بسالكيه هو الذي يوصل إلى ما وصلوا إليه...

وقد ذكر المصنفون في "الوجوه والنظائر" معاني أخرى، كالاسترجاع[(٣)]، والحجة[(٤)]، والتوبة[(٥)]، والتعليم، والفضل، والتقديم، والثواب، والأذكار، والموت على الإسلام[(٦)]. وإنما هي واردة على وجه يحكمه السياق، أو على صيغة صرفية مفارقة لها[(٧)]، أو على قولٍ مرجوح من أقوال المفسرين التي خولفوا فيها، والله أعلم.

---

(١) نزهة الأعين النواظر (ص: ٦٢٩).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١/ ٣٠١).

(٣) ينظر البرهان في علوم القرآن (١/ ١٠٤).

(٤) ينظر التصاريف لتفسير القرآن (ص: ١٠١)، والكليات (ص: ٩٥٤).

(٥) التصاريف لتفسير القرآن (ص: ١٠٣)، والوجوه والنظائر للعسكري (ص: ٤٩٩).

(٦) ينظر نزهة الأعين النواظر (ص: ٦٣٠).

(٧) مثل ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ (الأعراف: ١٥٦)، فهو مِن هاد يهود، لا من هدَى يهدِي. ينظر البحر المحيط (٥/ ١٩٠).

**المطلب الثالث: الفرق بين الهدى والهداية والاهتداء في اللغة والقرآن الكريم:**

الهدى والهداية والاهتداء كلمات مشتقة من نفس الجذر اللغوي، وقد وردت تصاريفها في القرآن الكريم إلا أن بينهما فروقا في المعنى، وسنتحدث عن الفروق بينها من خلال العناصر الآتية:

**1 – الفرق بين الهداية والهدى:**

(الهدى على التحقيق هو: الدلالة التي من شأنها الإيصالُ إلى البغية)[1]. والهداية والهدى معناهما واحد[2] كما تقدم لنا، إلا أن العرب فرقوا بينهما في الاستعمال، فإنّ قائلهم يقول: (هديتُ القومَ الطريقَ هدايةً، وفي الدين هُدى)[3].

وعن ذلك عبَّر ابن المرحل رحمه الله (٦٩٩هـ)[4] فقال:

وقد هدَيتُ الرجلَ الطريقا هدايةً عرَّفْتُه تحقيقا

وقد هديت المرء من ضلاله هُدىً فبشرْه بحسْن حالِه[5]

إذاً، الهدايةُ تستعمل في كلام العرب في التعريف بالطريق الظاهر المحسوس والإرشاد إليه؛ أما الهدى فهو يستعمل في التعريف بالطريق المعنوي، وهو الصراط المستقيم وسبيل الإيمان، وهذا المعنى هو الأوفق بما يرشد إليه القرآن الكريم؛ ولذلك عبر الله به في كتابه، ولا نجد لفظ الهداية البتة. وقد صح في حديث عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: ((قل:

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٢٥).

(٢) المفردات (ص: ٨٣٨).

(٣) الفصيح، لثعلب (ص: ٢٧٤).

(٤) هو مالك بن عبد الرحمن بن علي، أبو الحكم بن المرحل المالقي: أديب زمانه وإمام وقته، كان ذاكرا للآداب واللغة، شاعرا رقيقا مطبوعا، سريع البديهة، حسن الكتابة، والشعر أغلب عليه، مشاركا في الفقه، قائما على الفرائض. تحرف بصناعة التوثيق، وولي القضاء بجهات غرناطة، وله نظم فصيح ثعلب، والتبيين والتبصير في نظم كتاب التيسير في القراءات، و"الواضحة" نظم في الفرائض، (ت ٦٩٩هـ). ينظر الإحاطة في أخبار غرناطة، للسان الدين ابن الخطيب (٣/ ٢٣١ – ٢٤٧)، وغاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجزري (٢/ ٣٦)، وبغية الوعاة (٢/ ٢٧١).

(٥) متن موطّأة الفصيح (ص: ٣٦).

اللهم إني اسألك الهُدى والسداد، واذكرْ بالهدى هدايتَك الطريق، وبالسدادِ سدادَك السهم))[1]، وسياقه ظاهرٌ في أن كلمة "الهدى" تستعمل أصلاً في غير ما تستعمل فيه كلمة "الهداية".

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: (قد خص الله عز وجل لفظة الهدى بما تولاه وأعطاه واختص هو به، دون ما هو إلى الإنسان، نحو: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [سورة البقرة: ٢]، ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ﴾ [سورة البقرة: ٥]، ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥]، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ [سورة البقرة: ٣٨]، ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ﴾ [سورة الأنعام: ٧١]، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾ [سورة آل عمران: ١٣٨]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [سورة الأنعام: ٣٥]، ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ﴾ [سورة النحل: ٣٧]، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ [سورة البقرة: ١٦][2].

وهذا بخلاف الهداية، فتطلق كذلك على إرشاد الإنسان لأبناء جنسه، والله أعلم.

### ب – الفرق بين الهداية والإرشاد:

تقدم لنا أن الهداية معناها هو الإرشاد، إلا أنهما ليسا مترادفين، بل يختلفان في مواضع الاستعمال؛ والفرق بينهما أن الإرشاد إلى الشيء هو التعريف به والتبيين له والدلالة عليه، والهداية هي الدلالة عليه بما يمكّن المهْدِيّ من الوصول إليه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، ح ٢٧٢٥، ٤/ ٢٠٩٠). وغيره. وقد شرح أبو موسى المديني الحديث في "المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث (٣/ ٤٨٧) فقال: (إذا سألتَ الله عز وجل الهدى، فأخْطِر بقلبك هدايةَ الطريق، وسَلِ الله تعالى الهدى والاستقامة، كما تتحراه في هداية الطريق إذا سلكتها، وكذلك الرامي إذا رمى غرضا سدّد السهم نحوه ليصيبه، فأخطِر بقلبك؛ ليكون ما تنويه من ذلك على شاكلة ما تستعمله في الرمي). وينظر كذلك لسان العرب (١٥/ ٣٥٤).

(٢) المفردات (ص: ٨٣٨ – ٨٣٩).

ويُستعمل فعل الهداية لمن لم يسلك الطريق، وكذلك لمن سلكه وهو يرجو الثبات عليه والوصولَ إلى منتهاه، كما في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [سورة الفاتحة: ٦]، فذكر تعالى أن عباده يسألونه الهداية وهم مهتدون لا محالة، ولم يجئ مثل ذلك في الإرشاد.

ويستعمل فعل "هدى" في المحبوب، وكذلك في المكروه، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [سورة الحج: ٤]، وقوله سبحانه: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ الصافات: ٢٣]، أي: أوصلوهم إليه، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسۡتَقِيمٍ ۝٦٧﴾ [سورة الحج: ٦٧]. والهدى: الدلالة، فإذا كان مستقيما فهو دلالة إلى الصواب، ومفهومه أنه ثمة من يكون على هدى غير مستقيم. أما فعل "أرشد" فلا يقال أرشده إلا إلى المحبوب[(١)].

### ج – الفرق بين الهداية والاهتداء:

المعنى الأصلي للاهتداء في اللغة هو (معرفةُ الطريقِ الموصل للمقصود)[(٢)]، وهو افتعال من الهدى، يقال: (هداه من الضلالة فاهتدى)[(٣)]. فالمتقون يهتدون بهديه، والمعاندون لا يهتدون[(٤)].

قال الراغب: (والاهتداء: يختص بما يتحرّاه الإنسان على طريق الاختيار، إما في الأمور الدنيوية أو الأخروية)[(٥)]، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [سورة الأنعام: ٩٧]، فقد يهتدون بها في أسفارهم لمعرفة الجهات وما يسلكونه من الطرق، وقد يهتدون بها إلى الجهة التي يستقبلونها عند عبادة الله تعالى[(٦)].

---

(١) ينظر معجم الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري (ص: ٤٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٠١).

(٣) أساس البلاغة، للزمخشري (٢/ ٣٦٨).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٢٢٥).

(٥) المفردات (ص: ٨٣٩).

(٦) ينظر عمدة الحفاظ (٤/ ٢٤٦).

ويقال أيضًا: اهتدى، إذا طلب الهداية. ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الأنعام: ٥٦]؛ وكذلك إذا تحرّى الهداية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة البقرة: ٥٣]، أي لعلكم تتحرَّون هدايتكم فيهما. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [سورة البقرة: ١٥٠]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [سورة آل عمران: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [سورة البقرة: ١٣٧] [(١)].

ويُراد بالاهتداء في بعض المواضع: الاقتداء بالعلماء. ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [سورة البقرة: ١٧٠]، (تنبيها أنهم لا يعلمون بأنفسهم، ولا يقتدون بعالم)[(٢)].

أما قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [سورة النمل: ٩٢]، وقوله سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [سورة الزمر: ٤١]؛ فإن الاهتداء هاهنا يتناول وجوه الاهتداء المتقدمة بأسرها من طلب الهداية، وتحرّيها والاقتداء بالعلماء[(٣)]. وكذا قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة النمل: ٢٤].

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة طه: ٨٢]، فمعناه: (ثم أدام طلب الهداية[(٤)]، ولم يفتُر عن تحرّيها، ولم يرجع إلى المعصية)[(٥)].

---

(١) ينظر عمدة الحفاظ (٤/ ٢٤٦).

(٢) المفردات (ص: ٨٣٩).

(٣) ينظر عمدة الحفاظ (٤/ ٢٤٦).

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٣٠٢).

(٥) المفردات (ص: ٨٣٩).

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة البقرة: ١٥٧]، أي الذين تحرّوا هدايته تعالى وقبِلوها وعملوا بها ولم يُخِلُّوا بشرائطها[(١)].

والقرآن هدى بمعنى عامّ وبمعنى خاصّ، ولهذا يأتي في بعض الآيات أنه أنزل ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥]، ويأتي في أخرى أنه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [سورة البقرة: ٢]، وأنه ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [سورة فصلت: ٤٤]، وأنه أنزل ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ النمل: ٢]، ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [سورة لقمان: ٣]، فالقرآن في نفسه هُدىً، فمن اهتدى به فهو هُدىً له بالفعل، ومن لم يهتد به فهو هُدىً له بالقوة، وهو يسمى هدى لأن من شأنه أن يهدي، وإنما يهتدي به المتقون، ويتذكر به المؤمنون، ويتعظ به الموقنون. والاهتداء به يكون بالعمل بما فيه، فمن لم يعمل بما تضمنه لم يكن مهتديا به[(٢)].

**المطلب الرابع – تعريف الهدايات القرآنية اصطلاحا:**

اصطلح الباحثون القائمون على مشروع "الموسوعة العالمية للهدايات القرآنية" على جعل هذا المركب الوصفي عَلَما يراد به ما ترشدنا إليه الآيات القرآنية – بمنطوقها ومفهومها وإشارتها وتنبيهها ولوازمها وسائر أوجه دلالاتها – مما ينفعنا في الاعتقادات والعبادات والمعاملات والأخلاق والآداب والعمران وسائر الأمور العملية التي يتحقق بها انتظام حياتنا الدنيا والفلاح في الآخرة.

والهداية هنا من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول، أي: ما هدت إليه الآيات القرآنية. والمصدر لا يجمع، وإنما جُمِع باعتبار ما ذكرنا، وهو كثرة ما ترشد إليه آيات القرآن الكريم.

وقد عرّفها مؤلفو "الدراسة التأصيلية الهدايات القرآنية" بأنها:

---

(١) المفردات (ص: ٨٣٩)، وعمدة الحفاظ (٤/ ٢٤٦).

(٢) ينظر إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم (٢/ ١٧٠).

"**الدلالة المبيّنة لإرشادات القرآن الكريم التي توصل لكل خير، وتمنع من كل شر**"[1].

فعنوا ب"**الدلالة**": (ما يُتوصل به إلى معرفة الشيء)[2]، فهي تبين الوسائل والطرق والكيفيات[3].

و"**المبينة**": من البيان، لأن الهدف من الدلالة إظهار وإيضاح الهداية للعمل، وتمييزها عن طرق الضلال[4].

"**لإرشادات**": والمراد به ما يرشد القرآن إلى فعله، وما ينبه على تركه.

"**القرآن الكريم**": يشمل ما دلّت عليه آياته وأبعاضها بجميع أوجه دلالتها الظاهرة والخفية. وهذا يقتضي أن الهدايات بعضها دل عليها ظاهر النص، وبعضها يستفاد من إشاراته وتنبيهاته وتلويحاته...الخ.

"**التي توصل لكل خير**": لأن القرآن يهدي للتي هي أقوم، بما يحقق سعادة الدنيا والآخرة[5].

"**وتمنع من كل شر**": لأن القرآن يبين أسباب الشر، ويكشف مواطن السوء، ويحذر من كل ما يعود على الإنسان بالضرر والفساد في الدنيا والآخرة؛ ولذلك تكفل الله تعالى لمن اتبعه بالسلامة من الضلال والشقاء فقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [سورة طه: ١٢٣].

ولكي نفرق بين الهدايات التي نستخرجها من الآيات و"الهدايات" باعتبارها نمطا تدبريا لاستخراج إرشادات القرآن الكريم أقترحُ أن تُعرَّف الهدايات القرآنية بأنها: "**المعاني والدلالاتُ**

---

(١) الهدايات القرآنية: (١/٤٤).

(٢) المفردات (ص: ٣١٦).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية: (١/٤٥).

(٤) ينظر المرجع السابق: (١/٤٥).

(٥) ينظر المرجع السابق: (١/٤٧).

**الاعتقادية والعمَلية التي يرشد إليها القرآنُ الكريم بجميع أوجه دلالاته بما يُسعِد الإنسانَ في الدّارَيْن"**.

أما باعتبارها منهجاً يُوكل إليه جمع الهدايات وضبط مسالكها، فقد عرفها أستاذنا د. توفيق العبقري بقوله: (**هي مرتسم تفسيري ومسلك تدبري وسبيل استنباطي، يعمد فيه بشرطه إلى قفو إرشادات التنزيل، ودرسها من خلال لوازم دلالات آيِه، بما يتحقق به أصيل مقصده من الإنزال**)[(١)].

ويمكن اختصار هذا التعريف بأن علم الهدايات القرآنية: "**مسلكٌ تدبري يُعْنى باستخراج جميع إرشادات القرآن الكريم على قدر الوُسْع البشري وفْق ضوابطَ علميّةٍ محدَّدة**".

هذا، وقد تستفاد الهداية من جملة قرآنية واحدة، وقد تؤخذ من آية قرآنية كاملة، وقد تستفاد هداية من مجموعة آيات، وقد تقتنص من ربط آية بأخرى، وقد تستنبط من تناسب آية بأخرى أو تناسب بضع آيات مع آيات أخرى ملتئمة معها في سياق السورة.

وكل آية قرآنية لا تخلو من أن تتضمن هدايات متعددة، قد تبلغ عشراتِ الهدايات، والأمر في ذلك مرهونٌ بالتدبر وإعمال الفكْر بعد توفيق الله تعالى.

وقد استعملَ بعض العلماء مصطلح الهدايات في كتبهم، فقد استعمله الشيخ عبد العظيم الزرقاني[(٢)] رحمه الله (ت١٣٦٧هـ) في كتابه "مناهل العرفان"[(٣)]، وعَدّ التفسيرَ الخليقَ باسم التفسير هو الذي (يجعل هدفَه الأعلى تجليةَ هداياتِ القرآن وتعاليمِ القرآن وحكمةِ الله فيما شرع للناس في هذا القرآن على وجهٍ يجتذب الأرواحَ ويفتح القلوبَ ويدفع النفوسَ إلى الاهتداء

---

(١) نظرات في الموازنة بين التفسير الموضوعي والهدايات: (ص٩).

(٢) هو محمد عبد العظيم الزرقاني: من علماء الأزهر بمصر، تخرج بكلية أصول الدين، وعمل بها مدرسا لعلوم القرآن والحديث، من كتبه مناهل العرفان في علوم القرآن، وبحث في الدعوة والإرشاد، توفي بالقاهرة سنة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م. يُنظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٢١٠).

(٣) ينظر مناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ٨٢)، (٢/ ١٢٥)، (٢/ ١٦٨)، (٢/ ٣٤٩)، (٢/ ٣٥٤).

بهدي الله)[1]. وهو إنما تأثر بالاتجاه التفسيري للشيخ محمد عبده[2] الذي كان يرى أنه يجب أن تتوجه العناية الأولى في التفسير إلى هداية القرآن[3]، وكان في دروسه في (يتكلم في الآية أو الآيات المنزلة في معنى واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية وعبرة)[4].

وكذلك استعمله الشيخ أبو بكر الجزائري[5] رحمه الله (ت١٤٣٩هـ) في تفسيره "أيسر التفاسير"، حيث يخصص فقرة بعد تفسير جملة الآيات ليذكر هداياتها تحت عنوان: "هداية الآيات"[6]، ويذكر أثناء كلامه أن القرآن مشتمل على أنواع من الهدايات[7].

كما استعمل هذا المصطلحَ بعض الباحثين المشاركين في تأليف كتاب "التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم"، حيث يوردون - بعد بيان مضمون كل مقطع من السورة -

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ٦).

(٢) هو محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني: فقيه، مفسر، متكلم، أديب، لغوي، صحفي سياسي. ولد عام ١٢٦٦هـ، وتعلم بالجامع الأحمدي بطنطا، ثم بالأزهر، وأخذ الفلسفة عن جمال الدين الأفغاني، وعمل في التدريس والصحافة، ونفي إلى بلاد الشام بعد الثورة العرابية، وسافر إلى باريس، وعاد إلى بيروت فاشتغل بالتدريس والتأليف، ثم عاد إلى مصر، فعين قاضيا، ثم مستشارا في محكمة الاستئناف، فمفتيا للديار المصرية، إلى أن توفي سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م. من تصانيفه: تفسير جزء عمّ، ورسالة التوحيد، وشرح نهج البلاغة. ينظر الأعلام للزركلي (٦/ ٢٥٢)، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (١٠/ ٢٧٢)، ومعجم المفسرين، لعادل نويهض (٢/ ٥٦٦).

(٣) تفسير المنار (١/ ١٤).

(٤) تفسير المنار (١/ ١٤).

(٥) هو الشيخ أبو بكر جابر بن موسى الجزائري، المدرس بالمسجد النبوي الشريف. ولد سنة ١٣٤٠هـ/ ١٩٢١م، بقريةٍ جنوبَ الجزائر، ونشأ يتيما، فبدأ بحفظ القرآن وبعض المتون، ثم درس على مشايخ بسكرة، والجزائر العاصمة، ثم سافر إلى السعودية سنة ١٩٥٣، ودرس على بعض علمائها، ثم تولى التدريس في بعض المدارس، وفي دار الحديث في المدينة المنورة، كما عمل أستاذا بالجامعة الإسلامية فيها منذ ١٩٦٠م حتى تقاعده سنة ١٩٨٦م، وتولى التدريس بالمسجد النبوي لمدة خمسين عاما. له مؤلفات أشهرها: منهاج المسلم، وعقيدة المؤمن، وهذا الحبيب يا محب، وأيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، توفي سنة ٢٠١٨م. ينظر ترجمة "إمام المسجد النبوي" في موقع صيد الفوائد.

(٦) أيسر التفاسير (١/ ٢٢)، و(٤/ ٦٢٥).

(٧) أيسر التفاسير (٢/ ٥١٩)، و(٣/ ١٨٤) و(٥/ ٧٣)، و(٥/ ٤٩٠).

الهدايات المستنبطة منه[1]، بينما اقتصر على بعضهم على استعمال مصطلح: "الدروس والعبر المستفادة"[2].

**المطلب الخامس: الفرق بين مفهوم الهدايات والمصطلحات المقاربة له:**

ثمة مصطلحات متعددة استعملها المفسرون والمصنفون في علوم القرآن والباحثون في الدراسات القرآنية بصفة عامة، وأروم في هذا المطلب التمييزَ بين تلك المصطلحات ومصطلح "الهدايات القرآنية" وبيانَ العلاقات بينها.

**١ ـ العلاقة بين التفسير والهدايات القرآنية:**

**أ – التفسير في اللغة والاصطلاح:**

التفسير مصدر، «فسَّر»، يقال: فسّر الشيء تفسيرًا. وفعله الثلاثي «فسَر»، ومصدره: الفسْر. قال ابن فارس رحمه الله (ت٣٩٥هـ) [3]: (الفسْر كلمة تدلّ على بيان الشيء وإيضاحه)[4]. وقال الراغب الأصفهاني: (الفسر: إظهار المعنى المعقول...والتفسير في المبالغة كالفسْر)[5].

(١) ينظر مثلا (٥/ ٧٩ و٨١ و٨٤ و٨٧ و٩٢ و٩٨ و١٠٢ و١٠٥).

(٢) ينظر مثلا (٥/ ٧ و١٢ و٢٤ و٣٥).

(٣) هو أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، أبو الحسين: من أئمة اللغة والأدب، من تصانيفه مقاييس اللغة، والمجمل في اللغة، والصاحبي في علم العربية، ألفه لخزانة الصاحب بن عباد، وجامع التأويل في تفسير القرآن، وغيرها، توفي سنة ٣٩٥هـ. انظر: معجم الأدباء (١/ ٤١٠)، وإنباه الرواة (١/ ١٢٧ – ١٢٩)، وسير أعلام النبلاء (١٧/ ١٠٣).

(٤) معجم مقاييس اللغة: (٤/ ٥٠٤).

(٥) مفردات ألفاظ القرآن: (ص: ٦٣٦).

وقال ابن منظور[1] رحمه الله (ت٧١١هـ): (الفَسْر: البيان. يقال فسَر الشيءَ وفسَّره، أي: أبانه...وكلّ شيء يعرف به تفسير الشيء ومعناه، فهو تفسرته. والتفسير: البيان، وهو: كشف المراد عن اللفظ المشكل)[2].

وقال أبو البقاء الكَفَوي رحمه الله: (التفسير: الاستبانة والكشف، والعبارة عن الشيء بلفظ أيسر وأسهل من لفظ الأصل. قال أهل البيان: التفسير هو أن يكون في الكلام لَبْس وخفاء، فيؤتى بما يزيله ويفسّره)[3].

أما في الاصطلاح فقد عُرِّف التفسير بتعاريف متعددة، منها ما ينحو منحى الإجمال، ومنها ما ينحو منحى التفصيل وذِكْرِ ما يورده المفسرون في العصور المتعاقبة من علوم القرآن عند تفسير كل آية من الآيات.

أما التعاريف التي تنحو منحى الإجمال، فمنها:

١ – قول ابن جُزَيّ[4] رحمه الله (ت٧٤١هـ) في مقدمة تفسيره: (ومعنى التفسير: شرح القرآن وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصه أو إشارته أو فحواه)[1].

---

(١) هو محمد بن مُكَرَّم بن علي، الشهير بابن منظور الأنصاري الإفريقي المصري، أديب لغوي مشارك في علوم. ولد سنة ٦٣٠ هـ بالقاهرة، وخدم في ديوان الإنشاء مدة عمره، وولي قضاء طرابلس، وكان صدرا رئيسا، فاضلا في الأدب، مليح الإنشاء، واختصر كثيرا من كتب الأدب المطولة، ومن أشهر مصنفاته: لسان العرب، ومختار الأغاني، ومختصر تاريخ دمشق. توفي سنة ٧١١ هـ. يُنظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني (٦/ ١٥)، والمقفّى الكبير للمقريزي (٧/ ١٥٧ – ١٥٩)، وبغية الوعاة (١/ ٢٤٨).

(٢) لسان العرب (٥/ ٥٥).

(٣) الكليات (ص: ٢٦٠).

(٤) هو أبو القاسم محمدُ بنُ أحمدَ بن محمد بن جُزَي الكلبي الغرناطي، تتلمذ على أبي جعفر بن الزبير وابن رُشَيْد السبتي، وكان خطيبا بجامع غرناطة وأحدَ أهل الفتيا بها، وكان قائما على التدريس، فقيها محصلا مشاركا في عدة علوم. قتل يوم معركة طريف سنة ٧٤١هـ، ومن كتبه: التسهيل لعلوم التنزيل، والقوانين الفقهية، وتقريب الوصول إلى علم الأصول، وغيرها. توفي سنة ٧٤١هـ. يُنظر: الإحاطة (٣/ ١٠)، والديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون (٢/ ٢٧٤)، والدرر الكامنة (٥/ ٨٨).

٢ – قول بدر الدين الزَّرْكَشِيُّ[٢] رحمه الله (ت٧٩٤هـ) في موضعٍ من كتابِه "البرهانِ في علومِ القرآن": إنه (علمٌ يُعرفُ به فَهْمُ كتابِ اللهِ المنَزَّلِ على نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وبيانُ معانيه، واستخراجُ أحكامِه وحِكَمِهِ)[٣].

٣ – قول بدر الدين العَيْنِيُّ[٤] رحمه الله (٨٥٥هـ): إنه (التكشيف عن مدلولات نظم القرآن)[٥].

٤ – قول الشريف الجُرجاني رحمه الله في شرح مقدمة "الكشاف": (التفسير: علم يُبحث فيه عن أحوالِ كلامِ اللهِ المجيدِ من حيثُ دلالتُه على مراده)[٦]. ويبدو أن هذا التعريف هو الذي أخذه الشيخ عبد العظيم الزرقاني، وأضاف إليه قيدا مهما فقال: (علم يبحث فيه عن

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل: (١/١٥).

(٢) محمد بن بَهادُر بن عبد الله، المصري، بدر الدين الزركشي، كان فقيهاً أصولياً أديباً، له مشاركةٌ في الحديثِ والتفسير، ودرس وَأفْتى، وَولي مشيخة خانقاه كريم الدِّين بالقرافة الصُّغْرَى. له مصنفات في عدة فنون، منها: البرهان في علوم القرآن، والمنثور في القواعد، والبحر المحيط في أصول الفقه، وغيرها، توفي بالقاهرة سنة ٧٩٤هـ. ينظر: الدرر الكامنة (٤/ ١٧)، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٣/ ١٦٧ – ١٦٨). وشذرات الذهب (٦/ ٣٣٥).

(٣) (١/١٣).

(٤) هو بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى العنتابي العيني الحنفي: العلامة قاضي القضاة، ولد سنة ٧٦٢هـ بعنتاب، ونشأ بها وتفقه، واشتغل بالفقه وبرع ومهر، ثم رحل إلى حلب، ثم إلى القاهرة فأخذ عن مشايخها، وولي نظر الحسبة بها، ثم نظر الأحباس، ثم قضاء الحنفية بها، ودرّس الحديث بالمؤيدية، ثم صرف عن وظائفه، وعكف على التدريس والتصنيف إلى وفاته؛ وكان إماما عالما عارفا بالعربية والتصريف وغيرهما، حافظا للتاريخ واللغة؛ مشاركا في فنون. وله مصنفات كثيرة منها: شرح البخاري، وشرح معاني الآثار، وشرح كنز الدقائق، وشرح الهداية في الفقه. توفي سنة ٨٥٥هـ. ينظر الضوء اللامع (١٠/ ١٣١ – ١٣٥)، وبغية الوعاة (٢/ ٢٧٥) والبدر الطالع (٢/ ٢٩٤).

(٥) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٨/ ٧٩).

(٦) الكشاف مع حاشية للجرجاني وابن المنيّر (١/١٥).

أحوال القرآن الكريم، من حيث دلالته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية)[1]. وهو تعريف شامل لكلّ ما يتوقف عليه فهم معاني القرآن الكريم.

٥ – ومنها قول الكَافِيَجِيُّ[2] رحمه الله (ت٨٧٩هـ): (وأمَّا التَّفسيرُ في العُرْفِ، فهو كشفُ معاني القرآنِ، وبيانُ المرادِ)[3].

وقد بيّن المراد بذلك فقال: (والمرادُ من معاني القرآنِ أعمُّ، سواء كانت معاني لغويَّةً أو شرعيَّةً، وسواءً كانت بالوضعِ أو بمعونةِ المقامِ وسَوْقِ الكلامِ وبقرائنِ الأحوالِ؛ نحو: السماء والأرض والجنَّة والنَّار، وغير ذلك. ونحو: الأحكام الخمسة. ونحو: خواصِّ التَّركيب اللازمة له بوجه من الوجوه)[4].

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ٣)، وقد بين التعريف بقوله: (وخرج بقولنا "يبحث فيه عن أحوال القرآن" العلوم الباحثة عن أحوال غيره.

وخرج بقولنا "من حيث دلالته على مراد الله تعالى" العلومُ التي تبحث عن أحوال القرآن من جهة غير جهة دلالته، كعلم القراءات فإنه يبحث عن أحوال القرآن من حيث ضبط ألفاظه وكيفية أدائها، ومثل علم الرسم العثماني فإنه يبحث عن أحوال القرآن الكريم من حيث كيفية كتابة ألفاظه.

وخرج بهذه الحيثية أيضا المعارف التي تبحث عن أحوال القرآن من حيث إنه مخلوق أو غير مخلوق، فإنها من علم الكلام، وكذلك المعارف الباحثة عن أحوال القرآن من حيث حرمة قراءته على الجنب ونحوها فإنها من علم الفقه.

وقولنا "بقدر الطاقة البشرية" لبيان أنه لا يقدح في العلم بالتفسير عدم العلم بمعاني المتشابهات ولا عدم العلم بمراد الله في الواقع ونفس الأمر).

(٢) هو محيي الدين محمد بن سليمان بن سعد الرومي البرعمي الكافِيَجي الحنفي. ولد سنة ٧٨٨هـ، واشتغل بالعلم، ورحل إلى بلاد العجم والتتر، ولقي العلماء، ودخل إلى القاهرة، وولي المشيخة بتربة الأشرف برسباي، ثم مشيخةَ الشيخونية. وكان إماما كبيرا في علوم العربية والمعقولات، وله اليد الحسنة في الفقه والتفسير والنظر في علوم الحديث، له مؤلفات كثيرة جلها مختصر، منها شرح قواعد الإعراب؛ وشرح كلمتي الشهادة، والتيسير في علوم التفسير، وحاشية على تفسير البيضاوي، وحاشية على الكشاف، توفي سنة ٨٧٩هـ. ينظر الضوء اللامع (٧/ ٢٥٩ – ٢٦١)، وبغية الوعاة (١/ ١١٧– ١١٨)، والبدر الطالع (٢/ ١٧١).

(٣) التيسير في قواعد التفسير (١٢٤ – ١٢٥).

(٤) المصدر نفسه (١٢٤ – ١٢٥).

٦ – ومنها قول العلامة ابن عاشور في مقدمة تفسيره: (التفسير: اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها، باختصار أو توسع)[(١)].

٧ – وعرَّفه بعض الباحثين فقال: (هو الكشف عن معاني ألفاظ القرآن الكريم في سياقاتها حسب قواعد وأصول معروفة لفهم مراد الله تعالى من وحيه المنزل)[(٢)].

أما الذين نحوْا منحى التفصيل فقِلّة، منهم:

١ – أبو حيان الأندلسي[(٣)] رحمه الله (ت٧٤٥هـ) إذ عرَّفَهُ فقال: (التفسيرُ: علمٌ يُبحثُ فيه عن كيفيةِ النطقِ بألفاظِ القرآنِ، ومدلولاتِها، وأحكامِها الإفراديَّةِ والتركيبيَّةِ، ومعانيها التي تُحمَلُ عليها حالَ التركيبِ، وتتمّاتُ ذلك.

فأشار بقوله: (يُبحثُ فيه عن كيفيَّةِ النُّطقِ بألفاظِ القرآنِ) إلى علم القراءاتِ.

وأشار بقوله: (ومدلولاتها) أي: مدلولاتِ تلك الألفاظِ التي تعرف من علم اللُّغةِ.

وأشار بقوله: (وأحكامها الإفرادية والتَّركيبية): إلى ما يُستفاد من علم التَّصريفِ وعلم الإعرابِ وعلم البيانِ وعلم البديعِ.

وأشار بقوله: (ومعانيها التي تحمل عليها حال التَّركيب): إلى ما دلالته عليه بالحقيقةِ، وما دلالتُه عليه بالمجازِ.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ١١).

(٢) التيسير في أصول واتجاهات التفسير، لعماد علي عبد السميع (ص: ١٠).

(٣) محمد بن يوسف بن علي، أبو حيان الغرناطي: كان إمام زمانه في النحو واللغة، عارفًا بالقراءات والحديث، رحل إلى المشرق، وانتقل إلى القاهرة، وبها توفي سنة ٧٤٥هـ، له تصانيف كثيرة، من أشهرها البحر المحيط في التفسير، ومختصره "النهر المادّ"، وارتشاف الضرَب من لسان العرَب، وغيرها. ينظر الدرر الكامنة (٦/ ٥٨ – ٦٥)، وطبقات الشافعية الكبرى (٩/ ٢٧٥ – ٢٧٨)، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٣/ ٦٧ – ٧٠).

وأشار بقوله: (وتتمات ذلك) إلى معرفة النَّسخِ، وأسباب النُّزولِ، والقصص التي توضِّحُ ما انبهَم في القرآنِ، ونحو ذلك[1]. وهو كما ترى قد أدخل علم القراءات في ماهية التفسير، وليس منه، وإنما هو من آلاته.

٢ – ومنهم الزَّرْكَشِيُّ رحمه الله إذ عرَّف التفسير في موضعٍ آخر من "البرهان"، فقال: (هو عِلْمُ نُزولِ الآيةِ وسورتِها وأقاصيصِها والإشاراتِ النَّازلةِ فيها، ثُمَّ ترتيبُ مكِّيِّها ومدنيِّها، ومُحكَمِها ومتشابِهِها، وناسخِها ومنسوخِها، وخاصِّها وعامِّها، ومطلقِها ومقيدِها، ومجملِها ومفسرِها.

وزادَ فيه قومٌ، فقالوا: علمُ حلالِها وحرامِها، ووعدِها ووعيدها، وأمرِها ونهيِها، وعِبَرِها وأمثالِها)[2].

٣ – ومنهم ابنُ عَرَفَة الوَرْغَمي[3] رحمه الله (ت٨٠٣هـ) إذ عرفه باختصار فقال: (هو العلمُ بمدلولِ القرآنِ وخاصِّيَةِ كيفيةِ دلالتِه، وأسبابِ النُّزولِ، والنَّاسخِ والمنسوخِ)[4].

وأراد ب(خاصيةِ كيفيَّةِ دلالتِه): إعجازه، ومعانيه البيانيَّة، وما فيه من علمِ البديعِ[5].

---

(١) البحر المحيط (٢٦/١)، وقد نقل عنه ـ باختصار ـ الكفَويُّ في الكليات (ص:٢٦٠).

(٢) البرهان (١٤٨/٢).

(٣) محمد بن محمد بن عرفة الوَرْغمي التونسي، إمام تونس ومفتيها، ولد بتونس سنة ٧١٦هـ، ولازم شيوخها، ومهر في العلوم، وأتقن المعقول والمنقول، إلى أن صار المرجوع إليه في الفتوى ببلاد المغرب، وتصدى لنشر العلوم، وكان لا يمل من التدريس وإسماع الحديث والفتوى، مع الجلالة والدين المتين والصلاح، وظل إماما بجامع الزيتونة خمسين سنة، وتوفي عام ٨٠٣هـ. له تآليف منها: المختصر الكبير في المذهب المالكي، ومختصر في المنطق، وكتاب الحدود، ومختصر فرائض الحوفي، وغيرها. ينظر الديباج المذهب (٢/ ٣٣١ – ٣٣٣)، والضوء اللامع (٩/ ٢٤٠)، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج، للتنبكتي (ص٤٦٣ – ٤٧١، ت ٥٧٧).

(٤) تفسير ابن عرفة، برواية الأبي (٥٩/١).

(٥) المصدر نفسه (٥٩/١).

ونلْحظ أنّ هذه التعاريف تتحدث عن تفصيلات ومباحث علم التفسير، وعن موارده ومصادره، أكثر مما تتحدث عن تعريف ماهيته تعريفا موجزا يدلّ على طبيعته.

**ب – الصلة بين التفسير والهدايات:**

لا شك أن التفسير نشأ أولا، وهو يضم – كما رأينا في التعاريف التي نحت منحى التفصيل – أمورا متعددة؛ أما الهدايات القرآنية فلا صلة لها بهذه الأمور، وإنما نجدها في ثنايا كلام بعض المفسرين، أو تلوح من بعض أقوالهم؛ ولذلك فإن مرجعنا في هذا البحث وأمثاله هو كتب التفسير بالدرجة الأولى. ولكن ليس كل تفسير تجد فيه الهدايات، وليس بالضرورة أن يتضمنها؛ لأن إظهارها لم يكن مقصودا للمفسرين أصالةً، وإنما قد تجد بعضهم يصرح ببعضها على سبيل التكملة، وقد تستفاد بعض الهدايات من كلامهم من غير تصريح.

ثم إن الهدايات شيءٌ غير التفسير، فالتفسير هو بيان المعاني، أما الهدايات فهي ما ترشد إليه هذه المعاني، أو ما يستفاد منها مما ينفع المسلم في اعتقاده وعمله؛ ومن ثَمّ فإن التفسير مقدمة لاستخراج الهدايات، واستخراج الهدايات مرحلة ثانية بعد التفسير. وقد تعددت كتب التفسير وتنوعت مضامينها بحسب اختلاف مناهج المفسرين وتوجهاتهم العلمية. ولا مناص للناظر في الهدايات من معرفة تفسير الآيات التي ينظر فيها أوّلاً، وبتعدد أوجه التفسير المقبولة تتعدد الهدايات المستفادة منها.

والتفسير يعتمد على ظاهر الألفاظ، بينما الهدايات تستفاد من ظواهر الآية، وكذلك من لوازمها وتنبيهاتها وإيماءاتها وتلويحاتها وإشاراتها ومفاهيمها ونحو ذلك.

وللتفسير طرق متعينة معروفة، كالتفسير بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال السلف، ثم بمقتضى اللغة...الخ، ولاستخراج الهدايات طرق أخرى.

وقد لخص د. العبقري وجه الصلة بين الهدايات والتفسير بقوله: (إن الهدايات في اصطلاح البحث تعتبر جزءا أصيلا من علوم التفسير، وشعبةً وثيقة من شُعَبه، بيْد أن لها

شُفوفا وتميزا في أنها تقع منه على ثمرات المعاني ومغاني الأنظار ودقائق المستنبَط وغائر الدلالات)[1].

## ٢ ـ العلاقة بين الاستنباط والهدايات القرآنية:

من المصطلحات التي شاعت مؤخرا في مجال الدراسات القرآنية مصطلح "الاستنباطات"، وقد ألف الإمام جلال الدين السيوطي[2] رحمه الله (ت٩١١هـ) منذ القرن العاشر كتابًا جمع فيه طائفة من هذه الاستنباطات، سماه "الإكليل في استنباط التنزيل"، وقال في مقدمته: (فعزمت على وضع كتابٍ في ذلك مهذب المقاصد، محرر المسالك، أورد فيه كل ما استُنبط منه أو استُدل به عليه من مسألة فقهية أو أصلية أو اعتقادية، وبعضًا مما سوى ذلك، مقرونًا بتفسير الآية حيث توقف فهم الاستنباط عليه...)[3].

وإذا كان السيوطي ركز على الاستنباطات العلمية، فإن الاستنباطات تشمل كل ما يستنبط من القرآن الكريم، وكل ذلك خارجٌ عن حدِّ البيانِ؛ ولا يشمله مصطلح التفسير الذي شرحناه فيما تقدم.

### ١ – معنى الاستنباط لغة واصطلاحا:

---

(١) نظرات في الموازنة بين التفسير الموضوعي والهدايات (ص١٦).

(٢) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري السيوطي، جلال الدين: الحافظ المسند المحقّق المدقّق، ولد في القاهرة سنة ٨٤٩هـ، ودرس على طائفة من علماء عصره، وأجيز بالإفتاء والتدريس، وَولي المشيخة فِي مَواضع مُتعدِّدة من الْقَاهِرَة. ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، وترك الإفتاء والتدريس، وانقطع للتأليف والعبادة، وبقي على ذلك إلى أن توفي سنة ٩١١هـ. وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه. له نحو ٦٠٠ مصنف، منها الإتقان في علوم القرآن، وتناسق الدرر في تناسب السور، والتحبير لعلم التفسير، وتدريب الراويّ في شرح تقريب النواوي، وغيرها. ينظر الضوء اللامع (٤/ ٦٥)، والنور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص: ٥١)، وشذرات الذهب (١٠/ ٧٤).

(٣) (ص: ٢٠).

تدورُ مادَّةُ «نَبَطَ» على أصلٍ واحدٍ، وهو: استخراجُ شيءٍ[(١)]، والألف والسين والتاء في استنبط تدلُّ على تطلُّبِ الشيءِ لأجلِ حصولِه، وكأنَّ فيها معنى التَّكلُّفِ في إعمالِ العقلِ الذي يحتاجُه المستنبطُ حال الاستنباطِ، واللهُ أعلمُ. ويَظْهَرُ من استعمالات العلماء لمادة «نَبَطَ» أن لفظ الاستنباط في اللغة يُستخدم لكل ما أُخْرِجَ أو أُظْهِرَ بعد خفاءٍ[(٢)].

وأما الاستنباط في الاصطلاح بصفة عامة فقد عرفه غير واحد من العلماء، بتعاريف متنوعة:

١ – فقد قال الماوردي[(٣)] رحمه الله (ت٤٥٠هـ): (والاستنباط: مختصٌّ باستخراج المعاني من النصوص)[(٤)].

٢ – وعرفه الزمخشري رحمه الله بأنه: (ما يستخرجه الرجلُ – بفضلِ ذهنِه – من المعاني والتدابيرِ فيما يَعْضُلُ ويُهِمّ)[(٥)].

---

(١) مقاييس اللغة (٣٨١/٥).

(٢) ينظر مقاييس اللغة (٣٨١/٥)، والصحاح (٣/ ١١٦٢)، وغريب الحديث للخطابي (١/ ٥٢١)، وشمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم للحميري (١٠/ ٦٤٧٥)، والعباب الزاخر واللباب الفاخر، للصغاني (حرف الطاء: ٢٠٧)، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير: (٥/ ٧).

(٣) هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، الماوردي، القاضي الشافعيُّ، أحد أئمة أصحاب الوجوه في المذهب الشافعي، كان إماما في الفقه والأصول والتفسير، بصيرا بالعربية. ولي قضاء بلاد كثيرة، ثم سكن بغداد، وله منزلة عند ملوك بني بويه، وعاش ستا وثمانين سنة، ومات سنة ٤٥٠هـ. له مصنفات كثيرة في الفقه والتفسير وأصول الفقه والأدب، منها «الحاوي» في الفقه الشافعي، والأحكام السلطانية، وكتابُ النُّكت والعيون في التفسير، وأدب الدنيا والدين، توفي سنة ٤٥٠هـ. ينظر: تاريخ بغداد (١٢/ ١٠٢)، وطبقات الشَّافعية الكبرى (٥/ ٢٦٧ – ٢٨٥)، وطبقات الشافعية ابن قاضي شهبة (١/ ٢٣٠).

(٤) أدب القاضي (١/ ٥٣٥). ويقصد بالمعاني العلل كما ذكر ما يدل عليه في: (١/ ٥٣٦) منه.

(٥) الكشاف (٢/ ١١٧). وهذا التعريف ذكره غير واحد من العلماء منهم: النسفيُّ في: مدارك التنزيل (١/ ٣٥٠)، والخازنُ في: لباب التأويل (٢/ ١١٩)، وعلاءُ الدين البخاري في كشف الأسرار (١/ ٦٥).

٣ – حكى الإمام النووي[١] رحمه الله (ت٦٧٦هـ) عن العلماء أنهم عرفوه فقالوا: (الاستنباط استخراج ما خفي المرادُ به من اللفظ)[٢].

٤ – عرفه ابن القيم[٣] رحمه الله (ت٧٥١هـ) بأنه: (استخراج الأمر الذي من شأنه أن يخفى على غيرِ المسْتَنْبِط)[٤].

٥ – عرفه الشريف الجرجاني رحمه الله فقال: (استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن وقوة القريحة)[٥].

أما الاستنباط من القرآن الكريم خاصةً، فقد عرفه د. فهد الوهبي[٦] بقوله: (الاستنباط هو: استخراج ما خفي من النص القرآني بطريق صحيح)[١].

---

(١) هو محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي: الإمام الحافظ المؤرّخ الفقيه، ولد سنة ٦٣١هـ بِنَوى، وقرأ القرآن بها، وقدم دمشق، وقرأ الفقه وأصوله والحديث وعلومه والمنطق والنحو وأصول الدين، وولي مشيخة دار الحديث، وقد كان رأسًا في العلم والورع والزهد، صنف كتبا منها: المجموع شرح المهذب، والأذكار، وتهذيب الأسماء واللغات، والمنهاج في شرح صحيح مسلم، توفي سنة ٦٧٦ هـ. يُنظر: طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٣٩٥ – ٤٠٠)، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٢/ ١٥٣ – ١٥٧)، وشذرات الذهب (١/ ٥٥).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات: (ق ٢/ ١ / ١٥٨).

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، ولد عام ٦٩١هـ، لازم ابن تيمية، ونشر علمه، وامتحن من أجله، وبرع في جميع العلوم، وتبحر في مذاهب السلف، درس بالصدرية، وأمّ بالجوزية زمانا طويلا، ومن أخص تلاميذه ابن كثير، وله تصانيفه كثيرة، منها: إعلام الموقعين عن رب العالمين، وزاد المعاد في هدي خير العباد، ومدارج السالكين، وغيرها، توفي عام ٧٥١هـ. ينظر: البداية والنهاية (١٨/ ٥٢٣)، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٢/ ٤٤٧)، والدرر الكامنة (٤/ ٢١).

(٤) إعلام الموقعين: (١/ ١٧٢).

(٥) التعريفات (ص: ٢٢).

(٦) هو فهد بن مبارك بن عبد الله الوهبي: باحث سعودي في التفسير وعلوم القرآن، نال الدكتوراه من جامعة أم القرى، يعمل مدرسا بجامعة طيبة بالمدينة المنورة، وهو وكيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية للشؤون التعليمية. له أبحاث ومؤلفات منها: المسائل المشتركة بين أصول الفقه وعلوم القرآن وأثرها في التفسير، ومنهج الاستنباط من القرآن الكريم.

وعرفه د. نايف الزهراني[٢] بأنه: (استخراج ما وراء ظواهر معاني الألفاظ من الآيات القرآنية)[٣].

وعرفه د. مساعد الطيار[٤] ببيان كيفيته وصوره فقال: (الاستنباطُ ربط كلامٍ له معنى بمدلول الآيةِ، بأي نوع من أنواع الربطِ، كأن يكون بدلالة إشارةٍ أو دلالة مفهومٍ، أو غيرها)[٥].

وبيَّن ما يشمله فقال: (وقد يكون استنباطَ حكمٍ فقهيٍّ، أو يكونُ استنباطَ أدبٍ تشريعيٍّ عامٍّ، أو يكونُ استنباطَ أدبٍ أخلاقيٍّ في معاملةِ الناسِ، أو يكونُ استنباطَ فوائدَ تربويةٍ تتعلق بتزكيةِ النفوسِ، أو يكون استنباطَ فائدةٍ علميةٍ)[٦].

وقد قسم د. الوهبي الاستنباط باعتبار الفائدة المستنبطة إلى خمسة أقسام:

الأول: الاستنباطات العقدية.

الثاني: الاستنباطات الإعجازية.

الثالث: الاستنباطات اللغوية.

---

(١) منهج الاستنباط من القرآن الكريم: (ص: ٤٥).

(٢) هو نايف بن سعيد الزهراني: باحث سعودي في الدراسات القرآنية، ولد بالباحة عام ١٣٩٧هـ، نال الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ويعمل رئيسا لقسم الدراسات الإسلامية في كلية العلوم والآداب بالمندق بجامعة الباحة. له عدة كتب، منها: الاستدلال في التفسير، واستدراكات السلف في التفسير في القرون الثلاثة الأولى. أوّل تدبر. بالإضافة إلى أبحاث منشورة في عدد من المجلات المحكمة.

(٣) معالم الاستنباط في التفسير، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد الرابع، ذو الحجة ١٤٢٨.

(٤) هو مساعد بن سليمان الطيار، باحث سعودي في التفسير وعلوم القرآن. ولد عام ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م، ونال الدكتوراه من قسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين بالرياض. والتحق للتدريس بقسم الدراسات القرآنية، بكلية المعلمين بالرياض، وهو عضو الجمعية السعودية للقرآن وعلومه. له مؤلفات قيمة، منها: التفسير اللغوي للقرآن الكريم، وفصول في أصول التفسير، والمحرر في علوم القرآن، وتفسير جزء عم.

(٥) مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسِّر (ص: ١٦١).

(٦) المرجع السابق (ص: ١٦١).

الرابع: الاستنباطات الفقهية والأصولية.

الخامس: الاستنباطات التربوية والسلوكية[1].

## ب – الفرق بين الهدايات والاستنباطات:

لا شك أن الجامع بين الهدايات والاستنباطات القرآنية أنها مستخرجةٌ من القرآن الكريم بوجه من أوجه دلالاته، وكثير من الهدايات إنما تستخرج بالاستنباط، إلا أن ثمة فروقا يسيرة بينهما:

– الهدايات القرآنية تشمل كل ما يستفاد من الآيات القرآنية، سواء ما أخذ من ظواهر ألفاظها أو ما استنبط من خفيّ دلالاتها، والاستنباطات محصورةٌ فيما استخرج بطريق خفيّ.

– الهدايات القرآنية مقصورة على ما يترتب عليه ثمرة عملية في جانب العقائد والعبادات والمعاملات وجوانب الحياة المختلفة، أما الاستنباطات فتشمل ذلك، وتزيد عليه بالفوائد النظرية، كالفوائد اللغوية والأصولية التي تدل عليها الآية.

إذاً، بين الهدايات والاستنباطات عمومٌ وخصوص وجهيٌّ، فالهدايات أعم من الاستنباطات من وجه، وأخص منها من وجه. والله أعلم.

### ٣ ـ العلاقة بين التدبر والهدايات القرآنية:

من المصطلحات التي شاعت في مجال الدراسات القرآنية مصطلح التدبر، ولِنعرفَ صلته بالهدايات فلْنبتدئْ أوّلا بتعريفه:

#### ١ – التدبُّر في اللغة:

التدبُّر لغة: (مشتقّ من الدُّبُر، أي الظَّهر، فقالوا: تدبّر إذا نظر في دُبُر الأمر، أي في غائبه أو في عاقبته)[1]، ومادة (د ب ر) تدور حول أواخر الأمور وعواقبها وأدبارها[2].

(١) ينظر منهج الاستنباط من القرآن الكريم (ص: ١٥٥ – ١٨٣).

وأصل التَّدبُّرُ: التأمل في أدبارِ الشَّيء، والنَّظرُ في عاقبتِه. وقد استُعملَ في كلِّ تأمُّلٍ يقعُ من الإنسانِ، سواء كان نظراً في حقيقةِ الشَّيءِ وأجزائه، أو سَوابِقِه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه[٣].

قال الشريف الجُرجاني رحمه الله في تعريفه مُفرِّقا بينه وبين التفكر: (التدبر عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكرَ تصرُّفُ القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرُّفه بالنظر في العواقب)[٤].

وقال العلامة ابن عاشور رحمه الله: (والتدبر: إعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نُصبت له)[٥].

**ب – "تدبر القرآن" في الاصطلاح:**

بيّن كثير من العلماء المراد بهذا المركب الإضافي، فقال الزمخشري رحمه الله: (وتدبر الآيات: التفكر فيها، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة)[٦].

وقال أبو عبد الله القرطبي[٧] رحمه الله (ت٦٧١هـ): (هو التفكر فيه وفي معانيه)[١].

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٤٨٣).

(٢) ينظر العين للخليل (٢/ ١١٧)، ومعجم مقاييس اللغة (٢/ ٢٦٦)، والصحاح (١/ ١٩٧)، والقاموس المحيط (١/ ٤٠٣).

(٣) ينظر روح المعاني: (٤/ ١٥٠).

(٤) التعريفات (١٧).

(٥) التحري والتنوير (٩/ ٣٨٥).

(٦) الكشاف (٤/ ٩٠). وقال في موضع آخر (١/ ٥٤٠): (فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصر ما فيه).

(٧) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الأنصاري، الخزرجي، الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي: الفقيه المفسر الزاهد، من كبار المفسرين، من أهل قرطبة. رحل إلى الشرق، واستقر بمنية ابن خصيب بمصر، وتوفي فيها. من كتبه الجامع لأحكام القرآن، والتذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، والكتاب الأسنى في أسماء الله الحسنى، وغيرها. وكان ورِعا

وقال الخازن[٢] رحمه الله (ت٧٤١هـ): (ومعنى تدبر القرآن: تَأَمُّل معانيه، وتَفَكُّر في حِكَمِه، وتَبَصُّر ما فيه من الآيات)[٣].

وقال أبو حيّان رحمه الله: (هو التفكر في الآيات، والتَّأَمُّل الذي يُفْضِي بصاحبه إلى النظر في عواقب الأشياء)[٤].

- وعرفه ابن القيِّم رحمه الله: (هو تحديق ناظر القلب إلى معاني القرآن، وجمع الفكر على تأمُّله وتعقُّله)[٥].

- وقال السِّعدي[٦] رحمه الله (ت١٣٧٦هـ): (هو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك)[١].

---

متعبِّدا، طارحا للتكلف، توفي عام ٦٧١هـ. ينظر: الديباج المذهب (٢/ ٢٤٣)، والوافي بالوفيات (٢/ ١٢٢)، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/ ٦٩).

(١) تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٠).

(٢) هو علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم الشيحي، المعروف بالخازن: من فقهاء الشافعية. ولد ببغداد سنة ٦٧٨هـ، وسمع بها من ابن الدواليبي، وانتقل إلى دمشق، فسمع من أهل الحديث، وكان خازن الكتب بخانقاه السميساطية فيها، فاشتهر بالخازن لذلك. له تصانيف، منها تفسيره "لباب التأويل في معاني التنزيل"، وشرح عمدة الأحكام، و"مقبول المنقول" في الجمع بين بعض كتب الحديث، وكان صالحا، خيّرا، ذا تودّد وسمت حسن. توفي بحلب سنة ٧٤١هـ. ينظر الدرر الكامنة (٤/ ١١٥ - ١١٦)، وطبقات المفسرين للداوودي (١/ ٤٢٧)، وشذرات الذهب (٨/ ٢٢٩).

(٣) تفسير الخازن (١/ ٥٦٣).

(٤) البحر المحيط (٧/ ٣٧٩).

(٥) مدارج السالكين، لابن القيم (١/ ٤٧٥).

(٦) هو عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي، عالم مفسر، من فقهاء الحنابلة، ولد في عنيزة بالقصيم سنة ١٣٠٧هـ، وأخذ عن علماء نجد، ثم درّس ووعظ وأفتى وخطب في جامع عنيزة، تخرج على يديه الكثير من المشايخ، وأنشأ ببلده أول مكتبة فيها سنة ١٣٥٨هـ. له نحو ٣٠ كتابا، منها: تيسير الكريم الرحمن، والقواعد الحسان في تفسير القرآن، وطريق الوصول إلى العلم المأمول، وتوفي ببلده سنة ١٣٧٦هـ، يُنظر: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٤٠)، ومعجم المؤلفين (١٣/ ٣٩٦)، ومعجم المفسرين (١/ ٢٧٩).

- وقال ابن عاشور رحمه الله: (هو تَعَقُّب ظواهر الألفاظ؛ لِيُعْلَم ما يَدْبُر ظواهرَها من المعاني المكنونة والتأويلات اللائقة)[٢].

وعرفه عبد الرحمن حسن الميداني[٣] رحمه الله (ت١٤٢٥هـ) بقوله: (هو التفكُّر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الألفاظ والكلمات والآيات والسور القرآنية ومراميها البعيدة)[٤].

وعرفه د. محمد الربيعة[٥] بقوله: (الوقوف مع الآيات والتأمل فيها، والتفاعل معها؛ للانتفاع والامتثال)[٦].

وعرفه د. خالد السبْت[٧] بقوله: (النظر إلى ما وراء الألفاظ من المعاني والعِبَر والمقاصد، الذي يثمر العلوم النافعة والأعمال الزاكية)[٨].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ١٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٢٥٢).

(٣) عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني: عالم دمشقي، درس على والده وأقرانه من علماء دمشق، ثم درس بالأزهر، وعمل بمديرية التعليم الشرعي ببلده، ثم انتقل إلى السعودية حيث عمل مدرسا بجامعة الإمام، ثم بجامعة أم القرى وظل بها ٣٠ عاما، وتتلمذ عليه الكثير من طلاب العلم. له مؤلفات متعددة، منها: كواشف زيوف، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، وتفسير: معارج التفكر ودقائق التدبر، توفي بدمشق سنة ١٤٢٥هـ.

(٤) قواعد التدبر الأمثل، للميداني (ص ١٠).

(٥) محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الربيعة: باحث سعودي حاصل على الدكتوراه في القرآن وعلومه، وهو أستاذ مشارك في جامعة القصيم، كلية الشريعة وأصول الدين، قسم القرآن وعلومه، وهو كذلك عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم. من بحوثه: "علم مقاصد السور".

(٦) مفهوم التدبر في ضوء القرآن والسنة وأقوال السلف وأحوالهم: موقع ملتقى أهل التفسير.

(٧) خالد بن عثمان السبت: باحث سعودي حائز على الدكتوراه في علوم القرآن والتفسير. يعمل أستاذا بكلية التربية قسم الدراسات القرآنية بجامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل بالدمام، له مؤلفات منها: قواعد التفسير جمعا ودراسة، ومناهل العرفان دراسة وتقويما، والعذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير.

(٨) الخلاصة في تدبر القرآن الكريم (ص: ١٣).

إذا عرفنا ذلك، فإن علاقة التدبر بالهدايات القرآنية هي علاقة وسيلة بمقصد، فالتدبر هو الذي يقود الناظر في الآيات القرآنية الى الوصول إلى ما يستفاد منها من هدايات، لا سيما ما خفي منها ولم يتبادر إلى الفهم من أول وهلة. والتوصل إلى الهدايات هي إحدى ثمرات التدبّر وأوجه الانتفاع بالقرآن الكريم.

## المبحث الثاني: أهمية الهدايات القرآنية.

تتجلى أهمية الهدايات القرآنية من خلال المطالب الآتية:

### المطلب الأول: موضوع الهدايات القرآنية:

موضوع الهدايات القرآنية هو القرآن الكريم، وقد أنزل الله تعالى هذا الكتاب على قلب نبيّه ﷺ، لمقاصد عالية، وحكم سامية، وأغراض شريفة، من أهمها أن يكون هذا القرآن هدايةً للإنس وللجن في كل زمان ومكان إلى الصراط المستقيم، وإلى السعادة التي تصبو إليها النفوس، وتتطلع إليها الأفئدة والقلوب، مصداقا لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [سورة المائدة: ١٥ – ١٦].

وقد أودع تعالى في هذا الكتاب من العقائد السليمة، والعبادات القويمة، والأحكام الجليلة، والآداب الفاضلة، والعظات البليغة، والتوجيهات الحكيمة، ما به قِوام الملة الكاملة، والأمة الفاضلة، والجماعة الراشدة، والفرد السليم في عقيدته وسلوكه وفي كل شئونه[1]. فمتى ما آمنوا به، وأخذوا بما فيه من الشرائع والأحكام، هداهم إلى سبل السعادة والسلام، ودلّهم على ما فيه صلاحُهم وفلاحُهم في الدنيا والآخرة، وأرشدهم إلى الخير الذي جُبلوا على حبه والرغبة فيه ما استقامت فطرُهم وسلِمت أرواحُهم من الخبث والشر. وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [سورة النساء: ١٧٤ – ١٧٥].

---

(١) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (١/ ٥).

**المطلب الثاني: صفات الهدايات القرآنية:**

إن كل هداية استُفيدت من القرآن الكريم بطريقة صحيحة فإنها تتصف بما للقرآن الذي استُمِدّت منه من صفات. وبناءً على ذلك سنعدد صفات الهدايات كما يأتي:

– **هدايات مستقيمة:** فقد وصف الله تعالى كتابه العزيز بالاستقامة، وافتتح سورة من سوره بالتنويه بهذه الصفة فقال عز من قائل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾ [سورة الكهف: ١ – ٢]، ونفى العوج عنه فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٢٨﴾ [سورة الزمر: ٢٧ – ٢٨]، ونفيُ العوج معناه أنه تعالى لم يجعل فيه شيئا من الاختلاف أو التناقض، لا في لفظه، ولا في معناه، وإنما جعله في أسمى درجات الاستقامة والإحكام[(١)]. وذلك يقتضي أنه (ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث)[(٢)]، وليس فيما اشتمل عليه من التكاليف إفراطٌ حتى يشقّ على العباد، ولا تفريطٌ فيه بإهمال ما تمس الحاجة إليه[(٣)]. بل هي قائمة على السماحة واليسر، متجاوبة مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها[(٤)].

وأخباره تملأ القلوب معرفة وإيمانا وعقلا، وأوامره ونواهيه (تزكي النفوس، وتطهرها وتنميها وتكملها، لاشتمالها على كمال العدل والقسط، والإخلاص والعبودية لله رب العالمين)[(٥)]، وهداياته تهدي إلى صراط مستقيم.

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي (٨/ ٤٦٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٦٩).

(٣) تفسير المراغي (١٥/ ١١٤).

(٤) التفسير القرآني للقرآن (٨/ ٥٨٠).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٦٩ – ٤٧٠).

– **هدايات قيِّمة:** فقد وصف الله تعالى كتابه بأنه قيّم فقال في مطلع سورة الكهف: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ۝٢﴾ [سورة الكهف: ١ – ٢]. وقال سبحانه: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ۝٣﴾ [سورة البينة: ٢ – ٣]، والمراد أن الله تعالى جعل القرآن قَيِّما على هدي الأمة وإصلاحها، كفيلًا بمصالح العباد الدينية والدنيوية وببيانها لهم، كشأن القيِّم على الأمور الكفيل بها.

فهو يشتمل على ما ينتظم به المعاش والمعاد، ويرشد الخلق إلى ما يجلب لهم النفع ويدرأ عنهم الفساد، ويهذب الأفراد، وينظم الجماعات الإنسانية وفق قواعد الأخلاق والفضائل، وبما يجنبهم المساوئ والرذائل[(١)].

وهذا يقتضي أن ما يؤخذ منه من هدايات لا تخلو من أن تتضمن مصلحة أو تنبه على مفسدة.

وكونه مستقيما وقيما وصفان متكاملان، لأن وصفه بكونه قيما يقتضي أن كماله متعد بالنفع[(٢)]، (فكان ذلك وصفا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال)[(٣)].

– **هدايات كريمة:** قال الله تعالى في وصف كتابه المجيد: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧﴾ [سورة الواقعة: ٧٧]، ووصفُه بأنه كريمٌ ذُكِر في تفسيره أقوال[(٤)]، وهي كلها يمكن أن تجمع بأن القرآن رفيعُ الشأن، فقد رفع الله قدره وكرّمه وفضّله على سائر الكتب السماوية السابقة، (وفضْلُه عليها بأنه فاقها في استيفاء أغراض الدين وأحوال المعاش والمعاد وإثبات المعتقدات بدلائل التكوين، والإبلاغ في دحض الباطل دحضًا لم يشتمل على مثله كتاب سابق، وخاصةً

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٥/ ٢٤٨)، ومحاسن التأويل (٧/ ٤)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٤٨٥)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٥/ ٨٣٠).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٥/ ٢٤٨).

(٣) التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٥/ ٨٣٠).

(٤) ينظر فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٩٢).

الاعتقاد، وفي وضوح معانيه، وفي كثرة دلالته مع قلة ألفاظه، وفي فصاحته، وفي حسن آياته، وحسن مواقعها في السمع، وذلك من آثار ما أراد الله به من عموم الهداية به والصلاحية لكل أمة ولكل زمان)[1].

قال الأزهري[2] رحمه الله (ت٣٧٠هـ): (الكريم اسم جامع لكل ما يحمد، والقرآن كريم يُحمد ما فيه من الهدى والبينات والعلم والحكمة)[3]. فالفقيه يستدل به ويأخذ منه، والحكيم يستمد منه ويحتج به، والأديب يستفيد منه ويستشهد به، فكل عالم يطلب أصل علمه منه.

فالقرآن كريم إذاً غزير العلم، عظيم الخير، جم المنافع، كثير الفوائد؛ لأنه اشتمل على مكارم الأخلاق ومعالي الأمور، وأمهات الحِكَم والأحكام، وما يوفِّي بحاجات الأنام، ويحقق صلاحهم على الدوام[4].

– **هدايات مباركة:** فقد وصف الله تعالى كتابه بأنه مبارك، فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [سورة الأنعام: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٥٥]، وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ص: ٢٩]، وقال: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٥٠]، أي أنه كثير الخير، عظيم

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٣٣).

(٢) هو محمد بن أحمد بن الأزهر، أبو منصور الأزهري الهروي: الإمام اللغوي، كان رأسًا في اللغة والفقه، ثقة، ثبتًا دينًا. أدرك الزجاج ونفطويه وابن دريد وطبقتهم، وأسرته العرب، وبقي بينهم مدة مديدة، فحفظ من لغاتهم، وأملى وحدث، وهو حجة فيما يقوله وينقله. وصنف كتبا نفيسة، منها كتاب التهذيب في اللغة، وكتاب التقريب في التفسير، وكتاب علل القراءات. توفي سنة ٣٧٠ هـ. ينظر معجم الأدباء (٥/ ٢٣٢٢)، وإنباه الرواة (٤/ ١٧٧ – ١٨١)، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، للفيروزآبادي (ص: ٢٥٢).

(٣) تهذيب اللغة (١٠/ ١٣٢).

(٤) البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٩٢)، وتفسير أبي السعود (٨/ ٢٠٠)، ومحاسن التأويل (٩/ ١٢٨)، وتفسير المراغي (٢٧/ ١٥٠)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣٦).

المنافع الدينية والدنيوية، جامعٌ لأسباب الهداية الدائمة، وفيه مصالح الناس في معاشهم[١]، (ما ترك صغيرة ولا كبيرة من أمر الدين إلا بيّنها وفصلها تفصيلا، ففيه ما يطهر الروح والجسم، وفيه ما يطهر الجماعة وينمّيها، وفيه ما يجمع الناس على الود والرحمة، وفيه ما يحقق العدالة والميزان في هذا الوجود)[٢]، (وهو الذي تستمد منه سائر العلوم، وتستخرج منه البركات، فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه، وذكر الحكم والمصالح التي تحث عليه، وما من شر إلا وقد نهى عنه وحذر منه، وذكَر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الوخيمة)[٣].

قال أبو حيان رحمه الله: (وبركة القرآن بما يترتب عليه من النفع والنماء بجمع كلمة العرب به والمواعظ والحكم والإعلام بأخبار الأمم السالفة والأجور التالية والشفاء من الأدواء والشفاعة لقارئه وعده من أهل الله وكونه مع المكرمين من الملائكة، وغير ذلك من البركات التي لا تحصى)[٤].

وبناءً على ما تقدم فهداياته مباركة، ومن أخذ بها آل أمره إلى خير في الدنيا والآخرة.

– **هدايات مُذكِّرة:** قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ [سورة يوسف: ١٠٤، ص: ٨٧، التكوير: ٢٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٠﴾ [سورة يس: ٦٩ – ٧٠]، وقال عز وجلّ: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٥٢﴾ [سورة القلم: ٥٢]، أي هو عظة وتذكرة من الله للجن والإنس[٥]، يشتمل على العظات البالغة والمراشد القويمة[٦]، (يذكرهم بحقيقة وجودهم، وحقيقة نشأتهم، وحقيقة الكون من حولهم)[١]،

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود (٣/ ٢٠١)، وفتح القدير للشوكاني (٢/ ٢٠٥)، وتفسير المراغي (٨/ ٧٨).

(٢) زهرة التفاسير (٥/ ٢٧٤٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٨١).

(٤) البحر المحيط في التفسير (٤/ ٦٩٥).

(٥) ينظر تفسير القرطبي (٩/ ٢٧١)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤١٧)، والسراج المنير (٣/ ٣٦٣)، وتفسير أبي السعود (١٧٨/٧)، وفتح القدير للشوكاني (٤/ ٥١٣).

(٦) محاسن التأويل (٦/ ٢٢٦).

ويتذكرون به ما في فُطروا عليه من التوحيد، وما غُرز في طباعهم من الميل إلى الخير[٢]، ويذكرون خالقهم وما له عليهم من حق العبادة وواجب الشكر، ويتنبهون به إلى كل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم[٣]، و(ينتفعون به في صلاح اعتقادهم، وطاعة الله ربهم، وتهذيب أخلاقهم، وآداب بعضهم مع بعض، والمحافظة على حقوقهم، ودوام انتظام جماعتهم، وكيف يعاملون غيرهم من الأمم الذين لم يتبعوه)[٤]. وبالاهتداء به يحصل لهم العز والشرف في الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم رحمه الله: (أخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين، وفي موضع آخر تذكرة للمتقين، وفي موضع آخر لرسوله ولقومه، وفي موضع آخر ذكر مطلق، وفي موضع آخر ذكر مبارك، وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر.

وبجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكراً عاما وخاصا وكونه ذا ذكر؛ فإنه يذكّر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم، ويذكرهم بالمبدأ والمعاد، ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وحقوقه على عباده، ويذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه، ويذكرهم بنفوسهم وأحوالها وآفاتها وما تكمل به، ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم، ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفَساً واحداً، ويذكرهم بنعمه عليهم ويدعوهم بها إلى نعمٍ أخرى أكبر منها، ويذكرهم بأسه وشده بطشه وانتقامه ممن عصى أمره وكذب رسله، ويذكرهم بثوابه وعقابه)[٥].

– **هدايات ميسَّرة:** مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [سورة القمر: ١٧، و٣٢، و٤٠]، والمراد أن الله تعالى سهَّل القرآنَ وهيّأه للذكر لمن أراد التذكر به،

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٨٤٣).

(٢) ينظر محاسن التأويل (٩/ ٣٠٧)، وتفسير المراغي (٣٠/ ٦١)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (١٠/ ١٨١٠).

(٣) ينظر أيسر التفاسير (٥/ ٥٢٨)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٧١٧).

(٤) التحرير والتنوير (٣٠/ ١٦٥).

(٥) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٢٨).

وبيّنه وفصّله، وجمعَ فيه أنواع الوعد والوعيد والمواعظ الشافية والعبر الزاجرة الكافيةِ لاتعاظ من أراد أن يتّعظ به، وألانَ تلاوتَه وحفظَه[1]، (بحيث يعلق بالقلوب، ويُسْتلذّ سماعه، ومن لا يفهم يتفهمه، ولا يسأم من سمعه وفهِمه، ولا يقول قد علمت فلا أسمعه، بل كل ساعة يزداد منه لذةً وعلما)[2].

قال ابن عاشور رحمه الله: (فالذكر هو تذكُّر ما في تذكُّره نفع ودفع ضر، وهو الاتعاظ والاعتبار. فصار معنى ﴿يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ أن القرآن سهلت دلالته لأجل انتفاع الذكر بذلك التيسير، فجعلت سرعة ترتب التذكر على سماع القرآن بمنزلة منفعة للذكر؛ لأنه يشيع ويروج بها كما ينتفع طالب شيء إذا يسرت له وسائل تحصيله، وقربت له أباعدها)[3].

وعلى أية حال، فإن هذه بعض الصفات التي استمددناها من صفات القرآن الكريم، وقد وصف القرآن بأنه حق ونور ورحمة وشفاء إلى غير ذلك، وكل ذلك ينطبق على الهدايات القرآنية.

### المطلب الأول: موضوع الهدايات القرآنية:

للهدايات القرآنية عدة غايات، أهمها ما يأتي:

**أولا: إخراج الناس من الظلمات إلى النور:**

من مقاصد إنزال القرآن الكريم أن يبصر به أهلُ الجهل والعمى سبل الرشاد والهدى، ويخرجهم الله به من ظلمات الكفر والضلالة والغواية إلى نور الإيمان وضياء الرشد والهداية، ومن متاهات الجهل والشك إلى بصائر العلم واليقين؛ وينقلهم من الظلم إلى العدل، ومن مساوئ

---

(١) ينظر تفسير الطبري (٢٢/ ١٣٠)، والهداية الى بلوغ النهاية (١١/ ٧١٩٠)، وتفسير المراغي (٢٧/ ٨٥)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٩/ ١١٧٧).

(٢) تفسير الرازي (٢٩/ ٣٠٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٩٠).

الأخلاق إلى محاسنها، ومن البدع والمحدثات إلى سنّة المرسلين[1]؛ وينقذهم من ظلمات الوهم والخرافة، والأوضاع والتقاليد، وظلمات الحيرة في تيه الأرباب المتفرقة، واضطراب التصورات والقيم والموازين، ويقودهم إلى النور الذي يكشف تلك الظلمات في عالم الضمير ودنيا التفكير وواقع الحياة والقيم[2]، مصداقا لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ [سورة إبراهيم: ١]، وقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾ [سورة الحديد: ٩].

وإنما كان القرآن سببا لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، لما اشتمل عليه من طرق الهداية وواضح الآيات البينات التي تحث على التفكر والتدبر، وترشد إلى النظر في حقائق الكون الدالة على وحدانية الله تعالى، وتفرده بالخلق والإبداع، واستحقاقه للعبادة والطاعة، ولما احتوى عليه من المنهج السديد الذي تسعد به البشرية كلما سلكته، وتشقى كلما ابتعدت عنه، سواء في الدنيا أم في الآخرة[3]. قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [سورة المائدة: ١٥ – ١٦].

**ثانيا: هداية العباد للتي هي أقوم:**

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [سورة الإسراء: ٩]، أي أنه يرشد إلى الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب، وإلى السبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وهو هذا الدين القيم الذي يقوم

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٥٨٨)، والنكت والعيون الماوردي (٣/ ١٢٠)، وتفسير السمعاني (٣/ ١٠٢)، وتفسير القرطبي (٩/ ٣٣٨)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٢١)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٧/ ٥١٠).

(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٠٨٥).

(٣) ينظر تفسير المراغي (١٣/ ١٢٣)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٥/ ٤٦٠).

على توحيد الله، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم [(١)]، ويتضمن أعدل العقائد والعبادات، وخير الأخلاق والآداب، وأفضل المناهج والأعمال، ويفضي إلى الحال التي هي أحسن الحالات للإنسان في عاجله وآجله، ومعاشه ومعاده[(٢)]، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره[(٣)].

قال سيد قطب[(٤)] رحمه الله (ت١٣٨٦هـ): (﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء: ٩]...هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم، فيشمل الهدى أقواما وأجيالا بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطْلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم، متطلعة إلى أعلى وهي

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٤/ ٥١٠)، وتفسير السمعاني (٣/ ٢٢٢)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٢٢٥)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٥١)، وتفسير المراغي (١٥/ ١٧).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٨/ ٤٣٤١)، والتفسير الحديث (٣/ ٣٦٢)، والأساس في التفسير (٦/ ٣٠٤٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٥٤).

(٤) من كبار الكتاب والمفكرين في القرن العشرين، درس بالقاهرة، وتخرج بكلية دار العلوم سنة ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م). وعمل في الصحافة، ثم عين مدرسا، فموظفا في ديوان وزارة المعارف، ثم مراقبا فنيا للوزارة، وبعد عودته من أمريكا استقال، وانضم إلى جماعة الإخوان المسلمين، وتولى تحرير جريدتهم، واعتقل معهم، فعكف على التأليف، ثم أطلق سراحه، ثم اعتقل مرة أخرى، وبقي كذلك إلى أن أعدم رحمه الله سنة ١٩٦٦م. له كتب كثيرة، منها تفسيره "في ظلال القرآن"، والعدالة الاجتماعية في الإسلام، والتصوير الفني في القرآن. ينظر الأعلام للزركلي (٣/ ١٤٧ - ١٤٨)، ومعجم المفسرين (١/ ٢١٩ - ٢٢٠).

مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعا واستمتاعا بالحياة.

ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء. ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار. ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض: أفرادًا وأزواجًا، وحكوماتٍ وشعوبًا، ودوَلًا وأجناسا، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشنآن، ولا تصرفها المصالح والأغراض، الأسسِ التي أقامها العليم الخبير لخلقه، وهو أعلم بمن خلق، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.

ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها، فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام)[1].

وفي هذا البيان الإلهي (إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم؛ لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان، لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلكا إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضا أو تحذيرا، بحيث لا يعدم المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه، وبتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة كانت الطريقة التي يهدي إلى سلوكها أقوم من الطرائق الأخرى وإن كانت الغاية المقصود الوصول إليها واحدة.

وهذا وصف إجمالي لمعنى هدايته إلى التي هي أقوم، لو أريد تفصيله لاقتضى أسفارا)[1].

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢١٥).

**ثالثا: تحقيق الشفاء لأمراض الفرد والجماعة.**

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [سورة يونس: ٥٧]، فقد جعله الله للمؤمنين شفاء يستشفون بمواعظه من العقائد الفاسدة، ويطهرون به قلوبهم من الأمراض والوساوس الشيطانية، ويتخلصون به من الشك والنفاق، والخلاف والشقاق، وبواعث الإعراض، وداء العناد، والزيغ والإلحاد، والعتوّ عن النظر في آيات الله، فيكفيهم ويغنيهم عن كل ما عداه من المواعظ ببيان آياته[٢]؛ لأن فيه إزالة للجهالة، وَهُدىً من الضلالة، وبه تكشف الحجُب عن القلب، ويزول كل شك وريب؛ لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدين والدنيا، وبما يتضمنه من بيان الحقائق وإقامة البراهين وذكر المعجزات والأمور الدالة على الله المقررة لدينه، وسائر الأدلة التي صرفها الله غاية التصريف، وبيّنها أحسن بيان، مما يزيل الشبه القادحة في الحق، ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين، فصار القرآن لعِلَل القلوب كالدواء الشافي لعِلَل الأجسام[٣].

وكذلك فإن القرآن شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادّة عن الانقياد للشرع، وأمراضِ الشبهات القادحة في العلم اليقيني، فإن ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، مما يوجب للعبد الرغبة إلى الله والرهبة منه تعالى.

وفي القرآن دواء لإزالة أدران الأمراض النفسية من حسد وحقد وتباغض وتنازع وخوف تبتدئ في الصدور، وتنتهي إلى أن تكون أسقاما في المجتمع البشري تفسد بناءه وتقوّضه[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٤٠). وقد ذكر الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ١٧ - ٥٤) جملا وافرة في جهات مختلفة كثيرة من هدى القرآن للطريق التي هي أقوم، بيانًا لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، فليرجع إليه.

(٢) ينظر تفسير الطبري (١/ ٦٢)، والكشاف (٢/ ٣٥٣)، والمحرر الوجيز (١٢٦/٣)، ومفاتيح الغيب (٢/ ٢٦٢)، وتفسير القرطبي (٨/ ٣٥٣)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٥/ ٧٩٥).

(٣) ينظر بحر العلوم للسمرقندي (٢/ ١٢١)، والبحر المحيط في التفسير (٧/ ١٠٤)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٠٠)، ومحاسن التأويل (٦/ ٤٩٦)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٦٧).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٦٧)، وزهرة التفاسير (٧/ ٣٥٩٥).

وفيه (شفاء النفوس من أوهام الباطل، وشفاء العقول من رجس الوثنية والأخلاق الجاهلية ومفاسد الأخلاق والرذائل الأثيمة)[1].

قال سيد قطب رحمه الله: (في القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة...وفي القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان ...وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلة في الشعور والتفكير...وفي القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء الجماعات وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها)[2].

فالقرآن إذاً عبارةٌ عن مجموع الأدوية التي تعالج بتركيبها القلوب المريضة، لتتطهر من العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة والأخلاق الذميمة[3]. وإنما يستشفي به المؤمنون كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الإسراء: ٨٢]. وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [سورة فصلت: ٤٤].

واستشفاء المؤمنين به يكون لأرواحهم ولأبدانهم كذلك؛ قال الفخر الرازي رحمه الله: (واعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية، وشفاء أيضا من الأمراض الجسمانية. أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر، وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان: الاعتقادات الباطلة والأخلاق المذمومة، أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادا الاعتقادات الفاسدة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر، والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة فيها، ولما كان أقوى الأمراض الروحانية هو الخطأ في هذه المطالب والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما في هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني. وأما الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة

(١) زهرة التفاسير (٨/ ٤٤٤٢).

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٤٨).

(٣) ينظر مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٦٨).

الكاملة والأعمال المحمودة فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية.

وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيرا من الأمراض...)[1].

**رابعا: سد حاجة الأمة إلى الهدايات القرآنية:**

لا ريب أن الأمة كلها بأفرادها ومجموعها محتاجة إلى هدايات القرآن الكريم، فإنهم لن يظفروا بالخير، ولن ينجوا من الشر إلا باتباع هداياته، ولن يقيموا مصالحهم ولن يدفعوا المفاسد عنهم إلا بالاهتداء بإرشاداته، ومهما بلغ علمهم أو اتسعت مداركهم أو عظمت عقولهم، فإنها لن تصل إلى ما يدلنا القرآن عليه، فهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو كلام الحكيم العليم الذي وسع كل شيء رحمة، وأحاط بكل شيء علما؛ فإدراك المصلحة على وجه الكمال لا يمكن أن يتم إلا بالتمسك بحبله، والاستضاءة بنوره؛ فمن أخذه بهُداه حصلت له السعادة في الحياة الدنيا والدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [سورة طه: ١٢٣]، وقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة البقرة: ٣٨].

ولا يوجد شيء يحتاج إليه الخلق في مصالح دينهم ودنياهم[2] إلا وقد دلهم عليه، إما تفصيلا أو تأصيلا[3]، كما نبه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة النحل: ٨٩].

أما أمر الدين، فما ترك اللهُ تعالى شيئا من ضروب الهداية وأصول الدين وعقائده وكليات التشريع وقواعده التي ترسل الرسل لأجلها إلا وقد بينها فيه، وما ترك شيئا يتعلق بإصلاح

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٣٨٩).

(٢) ينظر مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٠٧).

(٣) ينظر تفسير القرطبي (٦/ ٤٢٠).

النفوس وإكمال الأخلاق وتقويم المجتمع وتبين الحقوق إلا ودل عليه، وما ترك حكما من أحكام الحوادث إلا وقد دلّ عليه في كتابه، إما دلالة مبيَّنة مفصَّلة، وإما دلالة مجملة، يتلقى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب[(١)]. فما من قضيةٍ إلا ولله فيها حكم، وقد بيّنه في كتابه، أو بيّن الطريق إلى الوصول إليه في كتابه، عرَفه من عرفه، وجهِله من جهله[(٢)].

أما مصالح الدنيا فقد أشار إلى أصولها ومعاقدها، وأرشد إلى استعمال القوى البدنية والعقلية في الاستفادة من تسخير الله كل شيء للإنسان، ومراعاة سُننه تعالى في خلقه التي يتم بها الكمال المدني والعقلي، وأومأ إلى الحقائق العلمية والدقائق الكونية، ووصف أحوال الأمم وحضاراتها، ونبّه على أسباب رَفاهها وهلاكها، وقد بين الله ذلك كله في القرآن كله بالنص أو الفحوى[(٣)]، قال ابن مسعود رضي الله عنه: (أنزل في هذا القرآن كل علم، وكل شيء قد بين لنا في القرآن، ثم تلا هذه الآية)[(٤)]. وصدق رحمه الله؛ (فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع، من خبر ما سبَق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم)[(٥)].

والقرآن كتاب عظيم الشان، نيّر البرهان، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [سورة النساء: ١٧٤]، فهو ضياء يظهر الحق، ويدحض الشبهات، ويقيم على الناس الحُجة، ويبين لهم بحسن بيانه واضح المحَجّة، ويدلهم على الطريق المستقيم، والنهج القويم، ويحذرهم من ظلمات الكفر ومهاوي الضلالة، مما يجنبهم الوقوع فيها، وينجيهم من الشرور كلها في معاشهم

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (٦/ ٤٢٠)، والبحر المحيط في التفسير (٦/ ٥٨٢)، والسراج المنير (٢/ ٢٥٧)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٢٤)، والتحرير والتنوير (١٤/ ٢٥٣)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٨/ ٢١٨).

(٢) الأساس في التفسير (٥/ ٢٧٠٩) و(٦/ ٢٩٦٣).

(٣) ينظر تفسير المنار (٧/ ٣٣٠)، والتحرير والتنوير (١٤/ ٢٥٣).

(٤) تفسير الطبري (١٤/ ٣٣٤).

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٩٤).

ومعادهم إن اهتدوا به واستناروا بضوئه[1]؛ وتنجلي لهم بأساليبه البليغة الحقائق كلها، فيعلم في ضوئه الحق من الباطل، والحسن من القبيح، والنافع من الضارّ، والرُّشد من الغي، بحيث لا يشتبه فيها من تدبره وعقَل معانيَه، ولا تخفى إلا على من عمي قلبه، وانطمست بصيرتُه، وفسدت مداركه، فلَا يرى معها النور الساطع[2]؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [سورة الشورى: ٥٢].

وهو مشتمل على ما فِيهِ ذِكْرُنا، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠﴾ [سورة الأنبياء: ١٠]، أي فيه تذكير وعظة لنا بما تضمنه من المواعظ البالغة والحجج الدامغة، وما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق، وفاضل الآداب، وسديد الشرائع والأحكام، التي تنظم العلاقات بين العباد، مما فيه سعادة البشر في حياتهم الدنيويّة والأخرويّة[3].

وفيه كذلك ذكرٌ لنا بين الأمم والشعوب، فبالقرآن يتم لنا الشرف، وتحصل لنا العز والرفعة، فإن تذكرنا به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدناها، وامتثلنا ما فيه من الأوامر، واجتنبنا ما فيه من النواهي، ارتفع قدرنا، وعظم أمرنا[4]، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ [سورة الزخرف: ٤٤].

وكتاب هذا شأنه جدير بأن نعتني به تلاوة وتدبرا، ونستمسك به وننتفع به امتثالا واعتبارا.

---

(١) ينظر تفسير الطبري (٧/ ٧١١)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٨١)، وروح المعاني (٣/ ٢١٦)، ومحاسن التأويل (٣/٤٨٦)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٢١٧).

(٢) ينظر تفسير المنار (٦/ ٨٢)، وأضواء البيان (٧/ ٢٦٣)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٣/ ٤٠٨).

(٣) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١١)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٨٣٥ - ٤٨٣٦)، والتفسير الحديث (٥/ ٢٥٧).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥١٩)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ١٩٠)، والتفسير المنير للزحيلي (٢١/١٧)، وأيسر التفاسير (٣/ ٣٩٨).

**المطلب الرابع: أثر الهدايات القرآنية:**

للهدايات القرآنية آثار طيبة عظيمة، على الفرد والمجتمعات، أبينها في العنصرين الآتيين:

**١ – أثر الهدايات القرآنية على الفرد:**

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [سورة طه: ١٢٣ – ١٢٤]، واتباع الهدى يكون بتصديق الإخبار وعدم معارضتها بالشبهات، وبامتثال الأوامر وعدم مخالفتها اتباعا للشهوات[(١)]، فمن اهتدى بهدي الله تعالى (حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهُدى، وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف، والحزن، والضلال، والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هُداه، فكفر به وكذب بآياته)[(٢)].

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [سورة طه: ١٢٣])[(٣)]. فمن اتبع هدايات القرآن في أمان من الضلال والشقاء.

فالقرآن يصل القلب بالله، فيسكن ويطمئن، ويستشعر الأمن والطمأنينة، ويرضى فيستروِح الرضى من الله والرضى عن الحياة.

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥١٥).

(٢) المرجع السابق (ص: ٥٠).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٥٠ رقم ٣٤٧٧٠)، واللفظ له، والطبريّ بنحوه في تفسيره (١٦/ ١٩١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٧/ ٢٤٣٨، رقم ١٣٥٦١)، وأخرجه بمعناه الحاكم في المستدرك: (كتاب التفسير، تفسير سورة طه، ح ٣٤٣٨، ٢/ ٤١٣)، وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان: (تعظيم القرآن، فضل إدمان تلاوة القرآن، رقم ١٨٧١، ٣/ ٤٠٠). وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٥٥٦)، وعزاه للفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وهو يعصم العقل من الشطط، ويطلق له الحرية في مجالاته المثمرة، ويكفّه عن إنفاق طاقته فيما لا يجدي، ويأخذه بمنهج سليم مضبوط، يجعل نشاطه مأمونا من الخطل، معصوما من الشطط والزلل. وكذلك يضبط حركة الجسد، فيوجهه إلى إنفاق طاقته في اعتدال بلا كبت ولا شطط، ويحفظه سليما معافى، ويدخر جهوده للإنتاج المثمر[(١)].

**ب – أثر الهدايات القرآنية على المجتمع:**

كما أن أفراد الناس ينتفعون بهدايات القرآن الكريم، فكذلك المجتمع المكون من هؤلاء الأفراد ينتفع بهدايات القرآن ويستضيء بأنواره؛ ففي ظل النظام الاجتماعي القرآني وعدالته تعيش الجماعة في الشاملة في سلامة وأمن وطمأنينة.

ويكفي نموذجا على ذلك ما حصل للمجتمع العربي حين بُعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم وأخذوا بُهدى الله تعالى واتبعوا كتابه، فقد كانوا يتخبطون في ظلمات الجهالة وأوهام الخرافة، فلما اتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم، وساروا على المنهج الذي جاء به، بدّل حالهم التي كانوا عليها، وطمس ملامح الجاهلية، ومحا رواسبها في حياتهم ونفوسهم، ونظم مجتمعهم وفق ملامح الإسلام الجديدة في الجماعة المسلمة[(٢)]، وقد عبر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه عن ذلك أمام النجاشي حيث قال له: ((أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، ونهانا عن

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٤٨).

(٢) في ظلال القرآن (١/ ١٣٧٠)، و(٤/ ٢٣٧٠).

الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام))، قال: فعدّد عليه أمور الإسلام)[1].

كما أنه رسم صورة جديدة للأمة الإسلامية بناء على التصور الإسلامي الذي ميزها بخصائص الأمة التي أخرجت للناس، لتدعوهم إلى الخير، وتقودهم إلى الله، فصاروا في مقدمة الأمم، وارتفع شأنهم حين حملوا رسالة القرآن فشرقوا بها وغربوا. ولم يكن لهم قبله ذكْر ولا مكانة، ولم يكن معهم ما يعطونه للبشرية فتعرفه لهم وتذكرهم به. ولقد ظلت البشرية تذكرهم وترفعهم طالما استمسكوا بالقرآن الكريم، وقادوا به البشرية قرونا طويلة، فسعدوا وسعدت بهم الحياة.

ولولا القرآن لما خرجت العرب من ظلمات جاهليتها وبداوتها ووثنيّتها إلى ذلك النور الذي صلحت به وأصلحت أمما كثيرة بالدين والعلوم والفنون والآداب بما أحيت من علوم الأوائل وفنونها، وأصلحت من فاسدها كما شهد بذلك التاريخ، وأقره المؤرخون المنصفون[2].

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ [سورة الزخرف: ٤٤].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ٢٠١، رقم ١٧٤٠) و (٥/ ٢٩٠، رقم ٢٢٥٥١)، وعلق عليه محققو طبعة الرسالة (٣/ ٢٦٦ رقم ١٧٤٠): (إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن إسحاق، فقد روى له مسلم متابعةً، وهو صدوق حسن الحديث إلا أنه مدلس، لكنه هنا صرح بالتحديث، فانتفت شبهةُ تدليسه).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٣٥٠).

## المبحث الثالث: منهج العلماء في استخراج الهدايات القرآنية.

لم تكن الهدايات القرآنية غائبة عن المفسرين، وإنما كانت ترد في تضاعيف كلامهم عن الآيات، يصرحون بها حينًا، ويومئون إليها أحيانًا كثيرة. وقد توصلوا إليها عبر طرق علمية وقواعد لغوية ومسالك تفسيرية متنوعة. وسنتحدث في هذا المبحث عن منهج العلماء رحمهم الله في استخراج الهدايات القرآنية، من خلال ما وقفت عليه من استنباطاتهم من سورة الحج.

### المطلب الأول: الطرق المتعلقة بالمفردة القرآنية:

وتتجلى الطرق المتعلقة بالمفردة القرآنية فيما يأتي:

- دلالات الألفاظ.
- التنوع في الأساليب.
- الاستفادة من أوجه الإعراب.
- التأمل في الرسم القرآني.

ولنتحدث عن كل طريق من هذه الطرق، ولنضرب عليها أمثلة من كلام العلماء في تفسيرهم وتدبرهم لسورة الحج:

**١ – النظر في دلالات الألفاظ:**

إن فهم معاني الألفاظ ودلالاتها في اللغة، ثم ضبط ذلك بمراعاة دلالاتها في السياق الذي وردت فيه، هو الطريق الذي سلكه العلماء في استخراج الهدايات[(١)]، وكلما تبين الناظر في الآية الفروق الدقيقة بين معاني الألفاظ التي ظاهرها الترادف تجلّت له هدايات أكثر. وكلما نظر الناظر إلى تلك الألفاظ من خلال السياق الذي وردت فيه تبينت له دلالات أخرى، وتكشفت له هدايات متعددة.

(١) طرق العلماء في استخراج الهدايات القرآنية (ص٩٤).

وطرق دراسة الكلمة القرآنية هي:

الأولى: دراسة معاني الكلمة في اللغة.

الثانية: دراسة الكلمة في السياق الموضعي.

الثالثة: دراسة الكلمة في السياق القرآني العام.

الرابعة: دراسة ما يترتب على تلك المعاني وما يتفرع عنها.

ولنضرب أمثلة على ذلك من خلال كلام المفسرين في تفسيرهم لسورة الحج:

***الأولى: دراسة معاني الكلمة في اللغة.***

فمثلا تؤخذ فضيلة التواضع من قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤﴾ [سورة الحج: ٣٤]، فقد قال أبو إسحاق الزجاج[(١)] رحمه الله في تفسيرها: (قيل: المخبتون المتواضعون، وقيل: المخبتون المطمئنون بالإيمان بالله عز وجل، وقيل: المخبتون الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا. وكل ذلك جائز. واشتقاقه من الخبت من الأرض، وهي المكان المنخفض منها، فكل مخبت متواضع)[(٢)].

(١) هو إبراهيم بن محمد بن السري، أبو إسحاق الزجاج النحوي، بصريّ المذهب، من أصحاب سيبويه، تلميذ المبرد، وشيخ النحاس، كان من أهل الفضل والدين حسن الاعتقاد، له من التصانيف: معاني القرآن، والاشتقاق، وخلق الإنسان، وشرح أبيات سيبويه، وتفسير جامع المنطق، (ت٣١٦هـ). ينظر: إنباه الرواة (١/ ١٩٠)، وسير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٦٠)، وبغية الوعاة (١/ ٤١١).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٤٢٧. وقال الثعالبي في الجواهر الحسان (٤/ ١٢٣): (والمخبت المتواضع الذي مشيه متطامن كأنه في حدور من الأرض). وقال ابن عاشور في "التحرير والتنوير" (١٧/ ٢٦٠): (والمخبت: المتواضع الذي لا تكبر عنده. وأصل المخبت من سلك الخبْت، وهو المكان المنخفض ضد المصعد، ثم استعير للمتواضع، كأنه سلك نفسه في الانخفاض، والمراد بهم هنا المؤمنون، لأن التواضع من شيمهم كما كان التكبر من سمات المشركين).

وقال العلامة برهان الدين البِقاعي(ت ٨٨٥هـ) [١] رحمه الله رابطا هذا المعنى بالسياق: (ولما أمر بالإسلام من يحتاج إلى ذلك إيجاداً أو تكميلاً أو إدامة، وكان الإسلام هو سهولة الانقياد من غير كبر ولا شماخة، وكان منشأ الطمأنينة والتواضع اللذين هما أنسب شيء لحال الحجاج المتجرد من المخيط المكشوف الرأس الطالب لوضع أوزاره، وتخفيف آصاره لستر عُواره، أقبل سبحانه وتعالى على الرأس من المأمورين، الحائز لما يمكن المخلوقين أن يصلوا إليه من رُتب الكمال، وخِلال الجَمال والجلال، إشارةً إلى أنه لا يلحقه أحد في ذلك فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾، أي المتواضعين المنكسرين، من الخبْت – للأرض المنخفضة الصالحة للاستطراق وغيره من المنافع) [٢].

ومن أمثلة ذلك قول محمد الأمين الشنقيطي [٣] رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الحج: ٣٠]: (أمر في هذه الآية الكريمة باجتناب قول الزور، وهو الكذب والباطل كقولهم: إن الله حرم البحيرة والسائبة، ونحو ذلك، وكادعائهم له الأولاد والشركاء، وكل قول مائل عن الحق فهو زور، لأن أصل المادة التي هي الزور من الازورار بمعنى الميل والاعوجاج) [٤].

---

(١) هو أبو الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط البقاعي، مفسر مؤرخ أديب، ولد في سهل البقاع، سكن دمشق، ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة، ثم عاد إلى دمشق وتوفي بها سنة ٨٨٥هـ. له مصنفات كثيرة، أشهرها نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور. ينظر الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١/ ١٠١ – ١١١)، وشذرات الذهب (٧/ ٣٣٩ – ٣٤٠)، والبدر الطالع (١/ ١٩ – ٢١).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٣/ ٤٨).

(٣) هو العلامة محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، ولد عام ١٣٢٥هـ في موريتانيا، سكن المدينة النبوية، ودرس بالجامعة الإسلامية، كان على علم غزير في اللغة التفسير والعقيدة والفقه وأصوله وغيرها، ومن مؤلفاته: أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، وكتاب منع المجاز، وغيرها. توفي بمكة عام ١٣٩٣هـ، ينظر: ترجمته في مقدمة "أضواء البيان"، وكتاب "علماء ومفكرون عرفتهم"، لمحمد المجذوب (ص ١٧١).

(٤) أضواء البيان (٥/ ٢٥٥).

ومنها قول البقاعي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الحج: ٢٦]: (أي قدرنا له ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي الكعبة وجعلناه له مباءة، أي منزلاً يبوء إليه أي يرجع، لأنه – لما نودعه فيه من اللطائف – أهل لأن يرجع إليه من فارقه ويحن إليه، ويشتاق من باعده وينقطع إليه بعض ذريته، من المباءة بمعنى المنزل، وبوأه إياه وبوأه له، أي أنزله، قال في ترتيب المحكم: وقيل: هيأته ومكنت له فيه)[(١)].

ويؤخذ استحباب اختيار الإبل والبقر الضخمة السمينة؛ من كلمة "البُدْن" في قول الله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [سورة الحج: ٣٦]، قال أبو بكر ابن العربي رحمه الله: (البُدْن جمع بدنة، وهي الواحدة من الإبل، سميت بذلك من البدانة وهي السِّمن، يقال: بدُن الرجل بضم العين: إذا سمن، وبدّن بتشديدها: إذا كبر وأسنّ، وإنما سماها بصفتها الله بصفتها دون اسمها لينبه بذلك على اختيارها، وتعيين الأفضل منها؛ فإن الله أحقُّ ما اختير له)[(٢)].

ويؤخذ من الآية السالفة الذكر أن إهداء الشاة دون الناقة والبقرة في الفضل، لأنها صغيرة الجسم، فلا تسمى بدَنة؛ والله تعالى إنما قال: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [سورة الحج: ٣٦]؛ قال الإمام فخر الدين الرازي[(٣)] رحمه الله (ت٦٠٦هـ): (وقال قوم: البُدْن الإبلُ والبقرُ التي يُتقرب بها إلى الله تعالى في الحج والعمرة، لأنه إنما سمي بذلك لعِظَم البدن،

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٥ – ٣٦).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٩٠ – ٢٩١).

(٣) محمد بن عمر التيمي البكري، فخر الدين الرازي: الإمام المفسر، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. له نحو مائتي مصنف، منها: مفاتيح الغيب في التفسير، ولوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات، ومعالم أصول الدين، والمحصول في علم الأصول، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، وغيرها (ت٦٠٦هـ). ينظر وفيات الأعيان (٤/ ٢٤٨ – ٢٥٢)، وسير أعلام النبلاء (٢١/ ٥٠٠ – ٥٠١)، وطبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٨٠ – ٨١).

فالأولى دخولها فيه، أما الشاة فلا تدخل وإن كانت تجوز في النسك، لأنها صغيرة الجسم، فلا تسمى بدنة)[1].

ومن ذلك قول الشنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ [سورة الحج: ٢٩]: (وعلى التفسير المذكور فالآية تدل على أن الأظفار كالشعر بالنسبة إلى المحرَّم، ولا سيما أنها معطوفة بـ ﴿ثُمَّ﴾ على نحر الهدايا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [سورة الحج: ٢٨]، والمراد بذكر اسمه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام التسمية عند نحر الهدايا والضحايا، ثم رتب على ذلك قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾، فدلّ على أن الحلق وقص الأظافر ونحو ذلك ينبغي أن يكون بعد النحر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [سورة البقرة: ١٩٦]، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن من حلق قبل أن ينحر لا شيء عليه...ويؤيد التفسير المذكور الدال على ما ذكرنا كلام أهل اللغة.

قال الجوهري في صحاحه: التفث في المناسك: ما كان من نحو قص الأظفار، والشارب وحلق الرأس، والعانة، ورمي الجمار، ونحر البُدْن، وأشباه ذلك. قال أبو عبيدة: ولم يجئ فيه شعر يحتج به انتهى منه.

قال صاحب «القاموس»: التفث محركة في المناسك: الشعث، وما كان من نحو قص الأظفار، والشارب، وحلق العانة، وغير ذلك. وككتف الشعث والمغبر، اهـ.

وقال صاحب «اللسان»: التفث: نتف الشعر وقص الأظفار، إلخ.

وقال أبو عبد الله القرطبي في تفسيره في الكلام على معنى التفث: قال ابن العربي: وهذه اللفظة غريبة لم يجد أهل العربية فيها شعرا، ولا أحاطوا بها خبرا، لكني تتبعت التفث لغة فرأيت أبا عبيدة معمر بن المثنى قال: إنه قص الأظفار وأخذ الشارب، وكل ما يحرم على المحرم إلا النكاح، ولم يجئ فيه شعر يحتج به. وقال صاحب «العين»: التفث: هو الرمي والحلق،

(١) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٦).

والتقصير، والذبح، وقص الأظفار، والشارب، والإبط. وذكر الزجاج والفراء نحوه، ولا أراهم أخذوه إلا من قول العلماء، وقال قطرب: تفث الرجل: إذا كثر وسخه)[1].

***الثانية: دراسة الكلمة في السياق الموضعي.***

فالكلمة قد يكون لها مدلول لغوي، ولكن يكون لها أسضا مدلول خاص في سياق معين، ومن ذلك قول الإمام الواحدي[2] في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ [سورة الحج: ٣٦]: (وقوله ﴿صَوَآفَّ﴾ جمع صافّة، وهي فاعلة من الصَفّ، وهو جعل الأجسام يلي أحدها الآخر على منهاج واحد.

قال ابن عباس في رواية ابن أبي مليكة: قيامًا. وقال ابن عمر: قيامًا مقيدة، سنة محمد صلى الله عليه وسلم. وقال مجاهد: الصَّواف: إذا عُقلت إحدى يديها وقامت على ثلاث، وتنحر كذلك.

وعلى هذا هي صواف، لأنها قد صفت أيديها وأرجلها إذا وقفن على منهاج واحد، كما روى ليث، عن مجاهد قال: يسوى بين أوظافها[3]. يعني لئلا يتقدم بعضها على بعض فلا تكون صواف.

وفي هذا دليل على أنها تُنْحر قائمةً واقفةً مصفوفةً، لأنها إن كانت باركة أو ماشية لا تكون صافة، ولا يتصور الصف في البدنة الواحدة إلا أن يقال إنها إذا وقفت صفت يديها أو

---

(١) أضواء البيان (٥/ ٤٨).

(٢) هو أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري، المفسر النحوي، إمام عصره في التفسير، تصدر للتدريس مدة، وعظم شأنه، صنف كتبا متعددة، منها تفاسيره الثلاثة: البسيط، والوسيط، والوجيز، وأسباب النزول، وغيرها، توفي سنة ٤٦٨هـ. ينظر وفيات الأعيان (٢/ ٤٦٤)، وطبقات المفسرين للسيوطي (٧٨/١)، وطبقات المفسرين للداودي (٣٩٤/١).

(٣) الأوظاف: جمع وَظيف، قال الجوهري في الصحاح (٤/ ١٤٣٩) "وظف": "الوظيف: مستدق الذراع والساق من الخيل والإبل ونحوها".

رجليها إذا لم يعقل إحداهما، ولكن يتصور في البدن إذا وقفن فصففن أيديهن معقولة وغير معقولة)[1].

ومن ذلك مثلا أن قوله تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ [سورة الحج: ٣٠]، يستفاد منه تحريم جميع صور الكذب والبهتان، لأن الزور لفظ عام يشمل كل وجوه الكذب[2]. ولكن السياق يشير إلى إحدى الصور التي تدخل في الزور دخولا أوليا، وفي ذلك قال ابن عطية رحمه الله: (و ﴿ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ عام في الكذب والكفر، وذلك أن كل ما عدا الحق فهو كذب وباطل وزور، وقال ابن مسعود وابن جريج: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((عدلت شهادة الزور بالشرك))، وتلا هذه الآية، والزُّورِ مشتق من الزور، وهو الميل ومنه في جانب فلان زور، ويظهر أن الإشارة في زور أقوالهم في تحريم وتحليل مما كانوا قد شرعوه في الأنعام)[3].

وقال البقاعي: (فقال: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ أي بكل اعتبار ﴿قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ أي جميعه، وهو الانحراف عن الدليل كالشرك المؤدي إلى لزوم عجز الإله وتحريم ما لم ينزل الله به سلطاناً من السائبة وما معها، وتحليل الميتة ونحوها مما قام الدليل السمعي على تحريمه)[4].

ومن ذلك قول الفخر الرازي عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ [سورة الحج: ٣٠ – ٣١]: (فقد تقدم ذكر تفسير ذلك، وأنه الاستقامة على قول بعضهم، والميل إلى الحق على قول البعض، والمراد في هذا الموضع ما قيل من أنه الإخلاص؛ فكأنه قال: تمسكوا بهذه الأمور التي أمرت ونهيت على وجه العبادة لله

---

(١) التفسير البسيط (١٥/ ٤٠٩ – ٤١٠).

(٢) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٢١)، ونظم الدرر (١٣/ ٤٣)، وروح المعاني (٩/ ١٤٢)، والقول بالتعميم أولى من التخصيص وإن لاءم المقام، ينظر روح المعاني (٩/ ١٤٢).

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ١٢٠).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٤٣).

وحده، لا على وجه إشراك غير الله به. ولذلك قال: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾، وهذا يدل على أن الواجب على المكلف أن ينوي بما يأتيه من العبادة الإخلاص)[1].

ويؤخذ وجوب طواف الإفاضة من أمر الله تعالى بالطواف في قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الحج: ٢٩]، وهو محمول على طواف الإفاضة بدلالة السياق، قال الكيا الهراسي[2] رحمه الله (ت٥٠٤هـ): (وقد رتبه الله تعالى هذا الترتيب، فبيّن حكم النحر، ثم عطف عليه بأمور ثلاثة منها: قضاء التفث، والوفاء بالنذر، والطواف، فيجب حمل الطواف على ما يفعل بعد النحر، وهو طواف الزيارة، فإذا أتى به مع ما تقدم حل له النساء والطيب)[3]. وقال الشنقيطي بناءً على ذلك: (دلت هذه الآية الكريمة على لزوم طواف الإفاضة، وأنه لا صحة للحج بدونه)[4].

ومن ذلك استخراج هداية فقهية من دلالة كلمة ﴿شعائر﴾ حسب السياق، ومن ذلك قول الواحدي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة الحج: ٣٣]: (وله أن يحلب لبنها، والآية تدل على هذا؛ لأن قوله ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الشعائر، فالكناية عنها، ولا

(١) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٣).

(٢) هو عماد الدين، أبو الحسن عليّ بن محمد بن عليّ الطبري، المعروف بالكيا الهرّاسي، الفقيه الشافعي، وإلْكِيا معناه: الكبير القدر، بلغة الفرس. ولد سنة ٤٥٠هـ بطبرستان، ثم رحل إلى نيسابور، وتفقه على إمام الحرمين الجويني مدة حتى برع في الفقه والأصول والخلاف، ثم خرج إلى بيهق، ودرس بها مدة، ثم تولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد إلى أن توفي سنة ٥٠٤ هـ. وكان بارعا قوي البحث دقيق النظر. له كتاب في أصول الفقه، وشفاء المسترشدين، وكتاب أحكام القرآن. ينظر وفيات الأعيان (٣/ ٢٩٠)، وطبقات الشافعية الكبرى (٧/ ٢٣١)، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (١/ ٢٨٨، رقم ٢٥٧).

(٣) أحكام القرآن للكيا الهراسي (٤/ ٢٨١).

(٤) أضواء البيان (٥/ ٢٥٤).

تسمى شعائر قبل إيجابها وتسميتها. وهذا يدل على إباحة الانتفاع بها، وهي تسمى شعائر)[1].

ومن ذلك تفريع الهداية عن معنى "كتب" في السياق الذي يدل على القضاء، ومن ذلك قول الواحدي في تفسير قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [سورة الحج: ٤]: (وهذه الآية دليلٌ على أنَّ الله قد كتب في الأزل وقضى على الشيطان إضلال من تولاه، وأنَّ ذلك من الله تعالى حكم لا نكير عليه فيه. وفيه تكذيب للقدرية في امتناعهم عن إضافة القدر إلى الله تعالى في الضلال والكفر)[2].

***الثالثة: دراسة ما يترتب على تلك المعاني وما يتفرع عنها.***

ومن ذلك ما استفاده البقاعي من كلمة ﴿خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ [سورة الحج: ٣١]، حيث قال: (ودلّ على عظمة التوحيد وعلوه، وفظاعة الشرك وسفوله، بقوله زاجراً عنه عاطفاً على ما تقديره: فمن امتثل ذلك أعلاه اعتداله إلى الرفيق الأعلى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي يوقع شيئاً من الشرك ﴿بِٱللَّهِ﴾ أي الذي له العظمة كلها، لشيء من الأشياء في وقت من الأوقات ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لِعُلُوِّ ما كان فيه من أوْج التوحيد وسفول ما انحط إليه من حضيض الإشراك)[3].

ومن ذلك قول الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج: ٧٨): (قوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾، ومعناه أن التكليف تشريف من الله تعالى للعبد، فلمّا خصكم بهذا التشريف فقد خصكم بأعظم التشريفات واختاركم لخدمته والاشتغال بطاعته، فأي رتبة أعلى من هذا، وأي سعادة فوق هذا؟)[4].

---

(١) التفسير البسيط (١٥/ ٣٩٤).

(٢) التفسير البسيط (١٥/ ٢٥٢).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٤٣ - ٤٤).

(٤) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٥).

ومن ذلك ما يؤخذ من التعبير بكلمة "حرف" في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ [سورة الحج: ١١]، قال الواحدي: (وتفسير الحرف في اللغة: الطرف، وهو منتهى الجسم، والحرف والطرف والجانب نظائر في اللغة. والانحراف: الانعدال إلى الجانب، وقلم محرف: قد عدل بقطعه عن الاستواء، والحرف منعدل إلى الجانب عن الوسط... وسمي الطرف حرفًا لميله عن الوسط)[(١)]. فالمنافق إذًا مائل عن الوسط. ويستفاد من ذلك أن للدين وسطًا وطرفا، فالمنافق يكون على الطرف، خلافا للمؤمن فإنه يأخذ الوسط.

**٢ – النظر في اختلاف القراءات:**

من المعلوم أن من الكلمات القرآنية ما يقرأ بوجوه متعددة، وفي كثير منها يتغاير المعنى، فتكون لكل قراءة معنى يختلف عن معنى القراءة الأخرى، وحينئذ تكون القراءتان بمنزلة آيتين، ولكل واحدة منهما دلالات قد تختلف عن الأخرى، ولذلك قالوا: (إن تنوع القراءات يقوم مقام تعدد الآيات)[(٢)].

ومن ثَم فإن القراءات المتعددة للآية الواحدة سبيل لاستخراج هدايات متنوعة منها حسب ما تفيده كل قراءة منها من المعاني.

واختلاف القراءات يأتي على صور متعددة: فقد تختلف في حرف من حروف الكلمة، وقد تختلف في تصريفها، وقد تختلف حركة إعرابية في كلمة معينة كالفتح والضم، وقد تختلف في كلمة فترد واحدة موضع أخرى، وقد تختلف بزيادة في موضع، أو نقص في موضع، وقد تختلف كلمة واحدة في قراءتين أو أكثر بالتقديم والتأخير أو الإفراد والجمع.

ومن أمثلة أثر اختلاف القراءات فيما يستنبط من هدايات في كلام المفسرين في تفسيرهم لسورة الحج:

---

(١) التفسير البسيط (١٥/ ٢٨٤ – ٢٨٥).

(٢) مناهل العرفان (١/ ١٤٩).

***الاختلاف في الكلمة:***

ومن ذلك قول الواحدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ [سورة الحج: ٣٦]: (وقوله ﴿صَوَآفَّ﴾ جمع صافّة، وهي فاعلة من الصَفّ، وهو جعل الأجسام يلي أحدها الآخر على منهاج واحد.

وعلى هذا هي صواف، لأنها قد صفت أيديها وأرجلها إذا وقفْن على منهاج واحد... وفي هذا دليل على أنها تُنْحر قائمة واقفة مصفوفة، لأنها إن كانت باركة أو ماشية لا تكون صافة، ولا يتصور الصف في البدنة الواحدة إلا أن يقال إنها إذا وقفت صفت يديها أو رجليها إذا لم يعقل إحداهما، ولكن يتصور في البدن إذا وقفن فصففن أيديهن معقولة وغير معقولة، والدليل على أنها تعقل إحدى يديها قراءة عبد الله: "صوافن"، وهي القائمة على ثلاث قوائم، ونذكر تفسيرها عند قوله: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١﴾ ص: ٣١]...

وكثير من الصحابة قرأوا "صوافي" على معنى: خالصة لله، جمع صافية، أي: لا يشركوا في التسمية على نحرها أحدًا. وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين. ويدل من الآية على أنها تُنْحر قيامًا)[(١)].

وقال ابن عطية[(٢)]: (وقرأ جمهور الناس «صوافّ» بفتح الفاء وشدها جمع صافّة، أي مصطفة في قيامها، وقرأ الحسن ومجاهد وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعري وشقيق وسليمان التيمي والأعرج «صوافي» جمع صافية أي خالصة لوجه الله تعالى لا شركة فيها لشيء كما كانت الجاهلية تشرك، وقرأ الحسن أيضا «صوافٍ» بكسر الفاء وتنوينها مخففة، وهي بمعنى التي قبلها، لكن حذفت الياء تخفيفا على غير قياس، وفي هذا نظر، وقرأ ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وأبو جعفر محمد بن علي «صوافن» بالنون جمع صافنة، وهي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب، والصافن من الخيل الرافع لفراهيته إحدى يديه وقيل إحدى رجليه،

(١) التفسير البسيط (١٥/ ٤٠٩ - ٤١١).

(٢) تقدمت ترجمته.

ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١﴾ [ص: ٣١] )[1]. ويؤخذ من قراءة صوافن أنها تنحر معقولة إحدى يديها.

***الاختلاف في تصريف الكلمة:***

ومن ذلك قول الماتريدي[2] في تفسيره لقوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [سورة الحج: ٣٨]: (وقوله: وفي بعض القراءات: (إن الله يدفع عن الذين آمنوا) بغير ألف، وتأويل (يدفع)، أي: يدفع عن الذين آمنوا جميع شرور الكفرة وأذاهم، وتأويل (يدافع)، أي: يدافع الكفار عنهم بنصر المؤمنين عليهم، وكأن قوله: ﴿يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إنما نزل بمكة، وعدٌ للذين آمنوا هنالك بالنصر والدفع عنهم في حال قلتهم وضعفهم وكثرة أولئك الكفرة وقوتهم)[3].

ومن ذلك قول الفخر الرازي مستنبطا من قراءة ابن كثير[4] وأبي عمرو بن العلاء[5]: ﴿يدْفع عن الذين آمنوا﴾: (هذه الآية بشارةٌ للمؤمنين بإعلائهم على الكفار وكفِّ بوائقهم عنهم)[1].

---

(١) المحرر الوجيز (٤/ ١٢٢).

(٢) هو أبو منصور محمد بن محمد بن محمود، الماتريدي السمرقندي، والماتريدي نسبة إلى (ماتريد)، محلة قرب سمرقند، يلقب بإمام الهدى وإمام المتكلمين، وهو معاصر للأشعري، ومذهبه قريب من مذهبه، وهو في الفقه على مذهب أبي حنيفة، من كتبه: تفسيره "تأويلات أهل السنة"، وكتاب "التوحيد"، وكتاب "المقالات"، توفي سنة ٣٣٣ على الأرجح. ينظر في ترجمته: الجواهر المضية للقرشي (٣/ ٣٦٠)، والفوائد البهية (ص١٩٥)، وتاج التراجم لابن قطلوبغا (ص٤٣).

(٣) تأويلات أهل السنة (٧/ ٤٢٢).

(٤) هو أبو معبد عبد الله بن كثير المكي: إمام أهل مكة في القراءة، وأحد القُرّاء السبعة المشهورين، كان فصيحا بليغا مفوها عليما بالعربية، وكانت حرفته العطارة، فعرف بالداري، وهو فارسي الأصل، وتوفي بها سنة ١٢٠هـ، ولد بمكة سنة ٤٥هـ، وتوفي سنة (١٢٠هـ). ينظر: وفيات الأعيان (١/ ٣١٤)، ومعرفة القراء الكبار، للذهبي (١/ ٨٦)، وغاية النهاية (١/ ٤٤٣).

(٥) هو زبان بن العلاء بن عمار أبو عمرو التميمي المازني البصري: أحد القراء السبعة، ولد سنة ٦٨هـ، وتوجه مع أبيه لما هرب من الحجاج، فقرأ بمكة والمدينة وقرأ أيضا بالكوفة والبصرة على جماعة كثيرة، فليس في القراء السبعة أكثر

ومن ذلك قول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [سورة الحج: ٦٧] مستنبطا من قراءة أبي مجلز[٢]: ﴿فلا ينزعِنُّك في الأمر﴾: (وقرئ: ﴿فلا ينزعِنُّك﴾، أي اثبت في دينك ثباتا لا يطمعون أن يجذبوك ليزيلوك عنه. والمراد: زيادة التثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم بما يهيج حميته ويلهب غضبه لله ولدينه)[٣]. ويستفاد منه أن في الآية دعوة للدعاة إلى الثبات على الدين حتى ينقطع رجاء المخالفين في أن يجذبوهم ليزيلوهم عنه.

ومن ذلك ما يستنبط من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾ [سورة الحج: ٥١]، فقد قرأها ابن كثير وأبو عمرو: ﴿مُعَجِّزين﴾ بكسر الجيم المشددة[٤]. أي يجعلونهم عاجزين عن الإيمان بسبب تثبيطهم عن ذلك[٥]. ويؤخذ من هذه القراءة أن من صنيع أهل الباطل في كل زمان ومكان تثبيطَ الناس عن اتباع الحق وسماع الدعاة إليه بالترغيب والترهيب[٦].

**٣ – النظر في الرسم القرآني:**

---

شيوخا منه. توفي بالكوفة سنة ١٥٤هـ. ينظر: وفيات الأعيان (٣/ ٤٦٦)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ١٠٠) وغاية النهاية (١/ ٢٩٠).

(١) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٨).

(٢) أبو مِجْلَز، مشهور بكنيته، واسمه: لاحق بن حُمَيد بن سعيد السدوسي، البصري، إمام تابعي، ثقة مشهور بكنيته، توفي سنة ١٠٩هـ، وقيل: قبل ذلك. ينظر: الجرح والتعديل (٩/ ١٢٤)، وتهذيب الكمال للمزي (٣١/ ١٧٦)، وتهذيب التهذيب لابن حجر (٤/ ٣٣٥).

(٣) الكشاف (٣/ ١٦٩).

(٤) أضواء البيان (٥/ ٢٨٣).

(٥) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٣)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٤)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤٥١)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢٨).

(٦) روي عن مجاهد أنه قال في معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ [سورة الحج: ٥١]: يثبّطون الناس عن متابعة النبي صلى الله عليه وسلم. ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٥).

يتميز الرسم العثماني بكتابة بعض الكلمات بطريقة مختلفة عما استقرت عليه قواعد الإملاء، وهو توقيفي عند طائفة من العلماء، مما جعل بعضهم يبحثون عن فوائده وأسراره.

ومن هذه الفوائد دلالته على معانٍ خفية دقيقة، وقد تنبه إليها بعض أهل العلم، وعلى رأسهم ابن البنّاء المراكشي[1] رحمه الله. وذكروا هدايات بديعة استفيدت من رسم المصحف. إلا أنه لا توجد له قواعد واضحة، وإنما هو إشراقات واجتهادات، ولذلك لا بد للناظر فيها من الحذر من الخوض فيها حتى لا يقع في التكلف المنهيّ عنه.

وليس ثمة مثال على استنباط الهداية من رسم كلمة ما في كلام المفسرين في تفسيرهم لسورة الحج.

ولكن من المواضع التي استأنس فيها بمرسوم المصحف استمداد بعض المفسرين من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗا﴾ [سورة الحج: ٢٣]، أنه مما يجب الإيمان به أن أهل الجنة رجالا نساءً يحلون باللؤلؤ، وأن أساور أهل الجنّة قد تكون من لؤلؤ مصمت لا يخالطه شيء، وهو ظاهر قراءة نافع[2] وعاصم[3] وأبي جعفر[1] ويعقوب[2] بالنصب: ﴿وَلُؤۡلُؤٗا﴾[3]، ويؤيده كتابة الألف

---

(١) أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي العددي، المعروف بابن البناء: عالم في الرياضة والفلك، مشارك في كثير من العلوم، من أهل مراكش، نشأ وهو منصرف إلى العلم، فنبغ في علوم شتى. كان إماما معظما عند الملوك، آخذ من علوم الشريعة حظا وافرا، وبلغ في العلوم القديمة رتبة عليا. له حاشية على الكشاف، ومنتهى السول في علم الأصول، والروض المريع في صناعة البديع، وعنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل. ت ٧٢١هـ. ينظر الوفيات لابن قنفذ (ص٣٤٣)، والدرر الكامنة (١/ ٣٣٠)، ونيل الابتهاج (ص٨٣ – ٨٩).

(٢) هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي مولاهم، المقرئ المدني، أحد القراء السبعة المشهورين، وأصله من أصفهان، ونشأ بالمدينة، وأقام بها، أخذ القراءة عرضًا عن جماعة من تابعي أهل المدينة، وكان إمام المسجد النبوي (ت١٦٩هـ). ينظر: السبعة (ص٥٣ – ٦٤)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ١٠٧ – ١١١)، وغاية النهاية (٢/ ٣٣٠ – ٣٣٤).

(٣) هو عاصم بن أبي النّجود، أبو بكر الأسدي مولاهم الكوفي، شيخ الإقراء بالكوفة، وأحد القراء السبعة، وأبو النجود اسم أبيه، وبهدلة اسم أمه. جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد، وكان أحسن الناس صوتا بالقرآن، (ت١٢٧هـ). ينظر: معرفة القراء الكبار (١/ ٨٨ – ٩٤)، وغاية النهاية (١/ ٣٤٦ – ٣٤٩).

في الرسم بعد الواو[٤]. وقد نقل القرطبي عن القشيري[٥] أنه قال: (والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ، ولا يبعد أن يكون في الجنة سوار من لؤلؤ مُصْمَت). ثم عقبه بقوله: (وهو ظاهر القرآن، بل نصه)[٦].

**المطلب الثاني: الطرق المتعلقة بالجملة القرآنية:**

كما تتميز الكلمة القرآنية بإفادتها لمجموعة من الهدايات من خلال المعاني التي تدل عليها، فكذلك تتميز الجملة القرآنية بإفادتها لهدايات متعددة من خلال تركيبها ورصف كلمها وترتيب عباراتها.

وثمة خمسة طرق لاستخراج الهدايات تتعلق بالجملة القرآنية:

١ - تنوع الأساليب.

٢ – النظر في دلالة السياق.

٣ – النظر في المناسبات.

---

(١) هو يزيد بن القعقاع أبو جعفر المدني الإمام القارئ، أحد القراء العشرة، تابعي مشهور كبير القدر، انتهت إليه رئاسة الإقراء بالمدينة. عرض القرآن على مولاه عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وعبد الله بن عباس وأبي هريرة وروى عنهم. وروى القراءة عنه نافع بن أبي نعيم وسليمان بن مسلم بن جمّاز وعيسى بن وردان وغيرهم، (ت١٣٠هـ). ينظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٥)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ٥٨)، وغاية النهاية (٢/ ٣٨٢).

(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ٢٩).

(٣) ينظر السبعة في القراءات (ص: ٤٣٥)، والمبسوط في القراءات العشر (ص: ٣٠٦)، وتحبير التيسير في القراءات العشر لابن الجزري (ص: ٤٧٠).

(٤) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٢٩)، والبحر المحيط في التفسير (٧/ ٤٩٧)، والتفسير المظهري (٦/ ٢٦٦).

(٥) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن، النيسابوري، ولد سنة ٣٧٦ هـ، الصوفي الزاهد، شيخ خراسان، كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والتصوف، أخذ عن أبي بكر الطوسي وابن فورك والإسفرائيني، ولازم أبا علي الدقاق وأخذ عنه طريق التصوف، وسلك بعد وفاته مسلك المجاهدة. من مصنفاته: التيسير في علم التفسير، والرسالة، ولطائف الإشارات، وتوفي سنة ٤٦٥ هـ. ينظر وفيات الأعيان (٣/ ٢٠٥)، وطبقات الشافعية الكبرى (٥/ ١٥٣)، وطبقات المفسرين للداوودي (١/ ٣٤٤).

(٦) تفسير القرطبي (١٢/ ٢٩).

٤ – التأمل في ورود أسماء الله الحسنى.

٥ – النظر في أوجه الإعراب المحتملة.

ولنضرب أمثلة على كل طريق من هذه الطرق من خلال كلام المفسرين في تفسيرهم لسورة الحج:

**أولا: تنوع الأساليب:**

من أعظم ما يميز القرآن الكريم طريقته في اختيار ألفاظه وتأليف كلماته، وأساليبه في ذلك كثيرة متنوعة، وبقدر معرفة الناظر في القرآن بها يطلع على أسرار آياته وبديع هداياته، لأنها إنما تتنوع لتفيد أغراضا بلاغية متعددة.

ومن نماذج دلالات الأساليب القرآنية على الهدايات في سورة الحج:

فمن أمثلة دلالة أسلوب التشبيه على الهدايات قول ابن القيم رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الحج: ٣١]: (ويجوز لك في هذا التشبيه أمران:

...الثاني: أن يكون من التشبيه المفرق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به.

وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه. فمنها هبط إلى الأرض وإليها يصعد منها.

وشبّه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين، من حيث التضييق الشديد والآلام المتراكمة. والطير التي تتخطف أعضاءه وتمزقه كل ممزق بالشياطين التي يرسلها سبحانه وتعالى عليه تؤزه أزّا وتزعجه وتدفعه إلى مظان هلاكه. فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه والريح التي تهوى به في مكان سحيق: هو هواه الذي يحمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء) [(١)].

(١) الأمثال في القرآن (ص: ٤٦).

ومن ذلك قول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الحج: ٣١]: (وهو إيماءٌ إلى أن من المشركين من شركه لا يرجى منه خلاص كالذي تخطفته الطير، ومنهم من شركه قد يخلص منه بالتوبة، إلا أن توبته أمر بعيد عسير الحصول)[(١)].

ومن أمثلة دلالة استنباط هداية من أسلوب التشبيه المدمج قول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [سورة الحج: ٦١]: (وفي ذكر الليل والنهار في هذا المقام إدماج تشبيه الكفر بالليل والإسلام بالنهار لأن الكفر ضلالة اعتقاد، فصاحبه مثل الذي يمشي في ظلمة، ولأن الإيمان نور يتجلى به الحق والاعتقاد الصحيح، فصاحبه كالذي يمشي في النهار، ففي هذا إيماء إلى أن الإيلاج المقصود هو ظهور النهار بعد ظلمة الليل، أي ظهور الدين الحق بعد ظلمة الإشراك، ولذلك ابتدئ في الآية بإيلاج الليل في النهار، أي دخول ظلمة الليل تحت ضوء النهار)[(٢)].

ومن أمثلة دلالة أسلوب الإيجاز على الهدايات قول الزمخشري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٣٤]: (وكنّى عن النحر والذبح بذكر اسم الله، لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا أو ذبحوا. وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله أنْ يذكر اسمه، وقد حسن الكلام تحسينا بينا: أن جمع بين قوله ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾، ولو قيل: لينحروا في أيام معلومات بهيمة الأنعام، لم تر شيئا من ذلك الحسن والروعة)[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٥).

(٣) الكشاف (٣/ ١٥٣)، ونقله عنه الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٢١) وأبو حيان في البحر المحيط (٧/ ٥٠٢).

ومن أمثلة دلالة أسلوب الحذف على الهدايات: قول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [سورة الحج: ٥]: (وورود الفعل غير معدَّى إلى المبيَّن: إعلامٌ بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنهه الذكرُ ولا يحيط به الوصف)[١].

ومن ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥]: (ومفعول ﴿يُرِدْ﴾ متروكٌ ليتناول كلَّ متناول، كأنه قال: ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد ظالما نذقه من عذاب أليم، يعنى أن الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده)[٢].

ومن ذلك قول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [سورة الحج: ٣]: (أي الناس فريقان: فريق يمتثل الأمر فيتقي الله ويخشى عذابه، وفريق يعرض عن ذلك ويعارضه بالجدل الباطل في شأن الله تعالى من وحدانيته وصفاته ورسالته...والاقتصار على ذكرهم إيماء إلى أنهم لولا تضليلهم قومهم وصدهم إياهم عن متابعة الدين لاتبع عامة المشركين الإسلام لظهور حجته وقَبولها في الفطرة)[٣].

ومن أمثلة الاستفادة من أسلوب التنكير قول أبي السعود[٤] رحمه الله (ت٩٨٢هـ) في تفسيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [سورة الحج: ١]: (وفي التعبيرِ عنها بالشيءِ إيذانٌ بأنَّ العقولَ قاصِرةٌ عنْ إدراكِ كُنهِها)[١].

---

(١) الكشاف (٣/ ١٤٤).

(٢) الكشاف (٣/ ١٥١).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٢).

(٤) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السعود: الإمام العلامة، خطيب المفسرين. لم يكن له نظير في زمانه في العلم والرئاسة والديانة، ولد بقرية بالقرب من القسطنطينية، وقرأ على والده كثيرا، ودرس في مدارس متعددة، ثم تقلد القضاء في بروسة، فالقسطنطينية، فقضاء العسكر في ولاية الروم إيلي مدة ثمان سنين. وأضيف إليه الإفتاء سنة ٩٥٢هـ. كان عالما عاملا، شديد التحري في فتاويه، ذا مهابة عظيمة. توفي بالقسطنطينية سنة ٩٨٢هـ، من

ومن أمثلة الاستفادة من ذكر الخاص قبل العام قوله ابن عاشور عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧﴾ [سورة الحج: ٧٧]: (وتخصيص الصلاة بالذكر قبل الأمر ببقية العبادات المشمولة لقوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ تنبيهٌ على أن الصلاة عماد الدين)[٢].

ومن أمثلة الاستدلال بأسلوب الكناية على الهداية قول الواحدي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ [سورة الحج: ٣٧]: (وحقيقة معنى هذا الكلام يعود إلى القبول. وذلك أنّ ما يقبله الإنسان يقال: قد ناله ووصل إليه. فخاطب الله تعالى الخلق كعادتهم في تخاطبهم والمعنى. لن يقبل الله اللحوم ولا الدماء إذا كانت من غير تقوى الله، وإنما يقبل منكم ما تتقونه به. وهذا دليل على أن شيئًا من العبادات لا يصح إلا بالنية، وهو أن ينوي بها التقرب إلى الله وأداء أمره واتقاء عقابه)[٣].

ومن أمثلة دلالة الإيماء على الهدايات قول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ [سورة الحج: ٢٧ – ٢٨]: (﴿وَأَذِّن﴾ عطف على ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ﴾ [سورة الحج: ٢٦]. وفيه إشارة إلى أن من إكرام الزائر تنظيف المنزل وأن ذلك يكون قبل نزول الزائر بالمكان)[٤].

---

آثاره "معاقد الطراف في أول تفسير سورة الفتح من الكشاف"، و"تحفة الطلاب"، و"إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم". ينظر شذرات الذهب (١٠/ ٥٨٤)، والكواكب السائرة (٣/ ٣١)، ومعجم المفسرين (٢/ ٦٢٥).

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ٩١)، ونقله عنه عدد من المفسرين كابن عجيبة في البحر المديد (٣/ ٥١٠)، والشوكاني في فتح القدير (٣/ ٥١٤)، والألوسي في روح المعاني (٩/ ١٠٨) وغيرهم.

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٦).

(٣) التفسير البسيط (١٥/ ٤٢١).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٢).

ومن أمثلة استفادة الهدايات من العدول من أسلوب إلى آخر قول الماتريدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [سورة الحج: ٣٤): (دل قوله: ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ أن ذكر اسم الله من شرط الذبيحة، حيث ذكر اسم الله ولم يذكر الذبح، ففهموا من ذكر اسم الله الذبح؛ دل أنه من شرط جوازه وحِلّه)[(١)].

ومن أمثلة استفادة الهدايات من أسلوب العدول عن الفعل المضارع إلى اسم الفاعل قول البقاعي: (ولما كان ذلك (أي معاناة متاعب رحلة الحج) شاغلاً عن الصلاة، قال: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾، أي وإن حصل لهم من المشاق بأفعال الحج وغيره ما عسى أن يحصل، ولذلك عبر بالوصف دون الفعل إشارة إلى أنه لا يقيمها على الوجه المشروع مع ذلك المشاق والشواغل إلا الراسخ في حبها، فهم – لما تمكن من حبها في قلوبهم والخوف من الغفلة عنها – كأنهم دائماً في صلاة)[(٢)].

ومن أمثلة دلالة أسلوب الاكتفاء[(٣)] على الهدايات قول الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [سورة الحج: ٤٦): (فالمقصود منه ذكر ما يتكامل به ذلك الاعتبار؛ لأن الرؤية لها حظ عظيم في الاعتبار وكذلك استماع الأخبار فيه مدخل، ولكن لا يكمل هذان الأمران إلا بتدبُّر القلب، لأن من عاين وسمع ثم لم يتدبر ولم يعتبر لم ينتفع ألبتة، ولو تفكر فيما سمع لانتفع، فلهذا قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾)[(٤)].

(١) تأويلات أهل السنة (٧/ ٤١٧).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٤٩).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٩).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٣).

**ثانيا: تنوع أوجه الدلالة:**

للألفاظ وجوه متعددة في الدلالة على المعاني، فقد تدل على المعنى بمنطوقها، وقد تدل عليه بمفهومها، والمنطوق يتنوع إلى دلالة المطابقة أو التضمن أو الالتزام، والمفهوم يتنوع إلى مفهوم موافقة ومفهوم مخالفة، وقد يدل اللفظ بدلالة الإشارة، أو بدلالة الإيماء. ولذلك أمثلة متعددة:

فمن أمثلة الاستدلال بمنطوق الآية على الهداية قول الشنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠ – ٤١]: (وما دلت عليه هذه الآية الكريمة: من أن من نصر اللهَ نصره اللهُ جاء موضَّحا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [سورة محمد: ٧]...)[(١)].

ومن أمثلة الاستدلال بمفهوم المخالفة على الهداية قول الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [سورة الحج: ٣]: (هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة؛ لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة، فالمجادلة الباطلة هي المراد من قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ [سورة الزخرف: ٥٨]، والمجادلة الحقة هي المراد من قوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥])[(٢)].

ومثله قول الشنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [سورة الحج: ٨]: (واعلم أنه يفهم من دليل خطاب هذه الآية الكريمة، أعني مفهوم مخالفتها: أنه من يجادل بعلم على ضوء هدى كتاب منير، كهذا القرآن العظيم؛ ليحق

(١) أضواء البيان (٤/ ٢٦٦).

(٢) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٢).

الحق ويبطل الباطل بتلك المجادلة الحسنة – أن ذلك سائغ محمود؛ لأن مفهوم قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أنه إن كان بعلم فالأمر بخلاف ذلك، وليس في ذلك اتباع للشيطان، ويدل لهذا المفهوم المذكور قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [سورة النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦]) [(١)].

ومن أمثلة استعمال دلالتي المنطوق والمفهوم معًا قول الشنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠ – ٤١]: (وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، دليلٌ على أنه لا وعد من الله بالنصر، إلا مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فالذين يمكن الله لهم في الأرض ويجعل الكلمة فيها والسلطان لهم، ومع ذلك لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر فليس لهم وعد من الله بالنصر؛ لأنهم ليسوا من حزبه، ولا من أوليائه الذين وعدهم بالنصر، بل هم حزب الشيطان وأولياؤه، فلو طلبوا النصر من الله بناء على أنه وعدهم إياه، فمثلهم كمثل الأجير الذي يمتنع من عمل ما أجر عليه، ثم يطلب الأجرة، ومن هذا شأنه فلا عقل له) [(٢)].

ومن أمثلة الاستدلال بدلالة الالتزام على الهداية قول الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [سورة الحج: ٣]: (دلّت الآية على أن المجادل في الله إن كان لا يعرف الحق فهو مذموم معاقب، فيدل على أن المعارف ليست ضرورية) [(٣)].

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٢٦٣).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٢٦٦).

(٣) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٢). والقول بأن المعارف ليست ضرورية ليس على إطلاقه، فمعرفة الله تعالى معرفة ضرورية فطر الناس عليها، ينظر درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٨/ ٤٨٢).

ومن ذلك قول الماتُريدي في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [سورة الحج:٣٦]: وقوله: (﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقطت، والسقوط إنما يكون من القيام، فدل أنها تُنحَر قياما لا مضطجعة، والله أعلم)[(١)].

ومنه قول الشوكاني[(٢)] رحمه الله (ت١٢٥٠هـ) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الحج: ٤٢ – ٤٤]: (وفيه إرشاد له صلى الله عليه وسلم إلى الصبر على قومه والاقتداء بمن قبله من الأنبياء في ذلك)[(٣)].

ومنه استنباط السعدي من قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠] أن المؤمنين عليهم أن يسألوا النصر والفتح من الله تعالى، وأن يتوكلوا عليه ولا يعتمدوا على عدد أو عدة[(٤)].

ومنه قول الشنقيطي: (وقد يؤخذ بدلالة الإيماء: الوعد بفتوحات شاملة، لمناطق شاسعة من قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الحج: ٢٧]؛ لأن الإتيان من كل فج عميق، يدل على الإتيان إلى الحج من بعيد،

---

(١) تأويلات أهل السنة (٧/ ٤٢٠).

(٢) هو محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فقيه مجتهد، أصولي مفسر، من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء. ولد بهجرة شوكان ونشأ بصنعاء. وولي قضاءها سنة ١٢٢٩هـ، ومات حاكما بها. وكان يرى تحريم التقليد. له ١١٤ مؤلفا، منها نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، وفتح القدير في التفسير، وإرشاد الفحول في تحقيق الحق من علم الأصول، والسيل الجرار في نقد كتاب الأزهار، توفي عام ١٢٥٠هـ. ينظر البدر الطالع (٢/ ٢١٥ – ٢٢٤)، والأعلام للزركلي (٦/ ٢٩٨)، ومعجم المفسرين (٢/ ٥٩٣).

(٣) فتح القدير (٣/ ٥٤٢).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٩)، وتيسير اللطيف المنان (١٠٨).

والإتيان إلى الحج يدل على الإسلام، وبالتالي يدل على مجيء المسلمين من بعيد، وهو محل الاستدلال والله تعالى أعلم)[1].

ومن أمثلة الاستدلال بدلالة الإيماء على الهداية قول الشنقيطي في تفسير مطلع السورة: (وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١﴾ [سورة الحج: ١] يدل على أن عظم الهول يوم القيامة موجب واضح للاستعداد لذلك الهول بالعمل الصالح في دار الدنيا قبل تعذر الإمكان؛ لما قدمنا مرارا من أن "إنّ" المشددة المكسورة تدل على التعليل، كما تقرر في الأصول في مسلك الإيماء والتنبيه، ومسلك النص الظاهر؛ أي: اتقوا الله؛ لأن أمامكم أهوالا عظيمة، لا نجاة منها إلا بتقواه جلَّ وعلا)[2].

ومن أمثلة الاستدلال بدلالة الاقتران على الهداية استنباط الواحدي وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدلالة اقترانهما بفرائض مجمع عليها، وذلك حيث قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ۝٤١﴾ [سورة الحج: ٤١]: (وهذه الآية تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذ قُرنا بالصلاة والزكاة)[3].

### ثالثا: النظر في دلالة السياق:

كلما تأمل المستنبط في سياق الألفاظ والجمل والآيات، وأجال نظره في سوابقها ولواحقها لاحت له مجموعة من الدلالات والهدايات القرآنية، وترجحت له احتمالات على

(١) أضواء البيان (٩/ ١٤٠).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٢٦١).

(٣) التفسير البسيط (١٥/ ٤٣٦).

أخرى[1]؛ لأن السياق (يرشد إلى تبيين المجمَل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة)[2].

وللسياق أنواع: سياق الجملة، وسياق الآية، وسياق الموضوع الذي تدور عليه مجموع آيات متصلة، وسياق السورة كلها.

ومن أمثلة دلالة السياق على الهدايات في سورة الحج: قول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧﴾ [سورة الحج: ٧٧]: (وتخصيص الصلاة بالذكر قبل الأمر ببقية العبادات المشمولة لقوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ تنبيهٌ على أن الصلاة عماد الدين)[3].

ومن ذلك قول الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ [سورة الحج: ٥٢]: (يرجع حاصل البحث إلى أن الغرض من هذه الآية بيان أن الرسل الذين أرسلهم الله تعالى وإن عصمهم عن الخطأ مع العلم فلم يعصمهم من جواز السهو ووسوسة الشيطان، بل حالهم في جواز ذلك كحال سائر البشر، فالواجب أن لا يتبعوا إلا فيما يفعلونه عن علم، فذلك هو المحكم)[4].

ومنها قول إسماعيل حقّي[5] في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [سورة الحج: ١١]: (و﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾ أي شيء

---

(١) ينظر طرق العلماء في استخراج الهدايات القرآنية (ص ١٥٠).

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٥ - ٣٤٦).

(٤) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤١).

(٥) إسماعيل حقّي بن مصطفى الإسلامبوليّ، المولى أبو الفداء: مفسر تركي، حنفي المذهب، متصوفٌ خلْوتي الطريقة، سكن القسطنطينية ثم انتقل إلى بروسة. وفيما كان يبحث عن مسائل تتعلق بالتصوف وشى به بعض العلماء، فنفي إلى نكفور طاغ، وأوذي هناك من عامة الشعب، ثم عاد إلى بروسة فمات بها سنة ١١٢٧هـ. له تصانيف عربية

يفتن به من مكروه يعتريه فى نفسه أو أهله أو ماله، فالمراد بالفتنة ما يستكرهه الطبع ويثقل على النفس، والا لما صح أن يجعل مقابلا للخير لأنه أيضا فتنة وامتحان، وإن أصابه شر مع أنه المقابل للخير، لأن ما ينفر عنه الطبع ليس شرا في نفسه، بل هو سبب القربة ورفع الدرجة بشرط التسليم والرضى بالقضاء)[1].

ومن أمثلة دلالة السياق على الهدايات قول شرف الدين الطِّيبي[2] في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [سورة الحج: ٣٤]: (وإنما قيّد ﴿أَسْلِمُوا﴾ – وهو مطلقٌ – بأخلصوا الذكر؛ لأن قوله: أسلموا مترتبٌ على قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾.. وهاهنا لما كانت الجملةُ الأولى– أعني قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ – متضمنةً لمعنى الإخلاص؛ لأن المقصود الأولى من الذبح ذكرُ اسم الله، ولا ارتياب أن الذكر لا يكونُ معتدّاً به إذا كان مشوباً بشيء من الرياء، ولذلك قال[3]: "أي: يذبحوا لوجهه على وجه التقرب" جعل قوله: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ المفيد للإخلاص منطوقاً ومفهوماً مسبباً عنها، ولما أُريد مزيدُ الحض، والبعثُ على الأمر أوقع قوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ في البين تمهيداً للثاني، وجعله مسبباً عن السابق، وسبباً للاحق... فكأنهُ قيل: شرع لكل أمةٍ من الأمم السابقة والحاضرة منكم ومن غيركم أن ينحروا النسيكة خالصاً لوجه الله تعالى، وتُخلصوا له الذكر، وإذا كان كذلك فأنتم– أيتها العصابةُ من أمة محمدٍ صلى

---

وتركية، فمن العربية: روح البيان في تفسير القرآن، وشرح تفسير الفاتحة، وحاشية على تفسير سورة النبأ للبيضاوي. ينظر الأعلام (١/ ٣١٣)، ومعجم المفسّرين (١/ ٨٨)، ومعجم المؤلفين (١/ ٣٦٢).

(١) روح البيان (٦/ ١١).

(٢) هو العلامة شرف الدين الحسين بن محمد الطيبي، من علماء الحديث والتفسير والبيان، من عراق العجم، كان شديد الرد على المبتدعة، ملازماً لتعليم الطلبة والإنفاق على ذوي الحاجة منهم، آية في استخراج الدقائق من الكتاب والسنة، من كتبه: فتوح الغيب بكشف قناع الريب، والتبيان في المعاني والبيان، وشرح مشكاة المصابيح، وغيرها، (ت ٧٤٣هـ). ينظر الدرر الكامنة (٢/ ١٥٦)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ١٤٣)، والبدر الطالع (١/ ٢٢٩).

(٣) يعني الزمخشري، وكلامه المنقول عنه في الكشاف (٣/ ١٥٧).

الله عليه وسلم -أحرى بذلك؛ لأن إلهكم إلهٌ واحدٌ، فأخلصوا له الذكر خاصة، واجعلوه لوجهه سالماً خالصاً لا تشوبوه بإشراك)[1].

وقريب منه قول أبي حيان الغرناطي في تفسير الآية الآنفة الذكر: (﴿لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ (معناه أمرناهم عند ذبائحهم بذكر الله، وأن يكون الذبح له لأنه رازق ذلك، ثم خرج إلى الحاضرين فقال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ﴾ أي انقادوا، وكما أن الإله واحد يجب أن يخلص له في الذبيحة ولا يشرك فيها لغيره)[2].

ومن ذلك قول الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الحج: ٧٦]: (فقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ إشارة إلى العلم التام وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ إشارة إلى القدرة التامة والتفرد بالإلهية والحكم، ومجموعهما يتضمن نهاية الزجر عن الإقدام على المعصية)[3].

ومن ذلك قول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الحج: ٢٤]: (والصراط المحمود هو صراط دين الله. وفي هذه الجملة إيماء إلى سبب استحقاق تلك النعم أنه الهداية السابقة إلى دين الله في الحياة الدنيا)[4].

ومن أمثلة دلالة سياق الآيات على الهدايات قول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٠]: (وجملة ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾ إلخ ... معترضة عطفا على جملة ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [سورة الحج:

---

(١) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٨٦).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٥٠٨).

(٣) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٣٥).

٢٦] عطف الغرض على الغرض. وهو انتقال إلى بيان ما يجب الحفاظ عليه من الحنيفية والتنبيه إلى أن الإسلام بني على أساسها)[١].

ومن ذلك قول البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ [سورة الحج: ٣٠]: (﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ تعميم بعد تخصيص، فإن عبادة الأوثان رأس الزور، كأنه لما حث على تعظيم الحرمات أتبعه ذلك رداً لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب وتعظيم الأوثان والإفتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك)[٢].

وكذلك تدل الآية على وجوب اجتناب الألفاظ الشركية في التلبية ونحوها، فهي من الزور، وذلك مثل قول المشركين في تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك)[٣]، ويؤخذ هذا من أن السياق في أحكام الحج والنهي عما كان يفعله المشركون من أمور خارجة عن ملة إبراهيم عليه السلام[٤].

ومن أمثلة دلالة سياق السورة كلها على الهدايات قول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [سورة الحج: ٧٧]: (لما كان خطاب المشركين فاتحا لهذه السورة وشاغلا لمعظمها عدا ما وقع اعتراضا في خلال ذلك، فقد خوطب المشركون ب ﴿يا أيها الناس﴾ أربع مرات، فعند استيفاء ما سيق إلى المشركين من الحجج والقوارع والنداء على مساوي أعمالهم، ختمت السورة بالإقبال على خطاب المؤمنين بما يصلح أعمالهم وينوه بشأنهم. وفي هذا الترتيب إيماءٌ إلى أن الاشتغال بإصلاح الاعتقاد مقدم على الاشتغال بإصلاح الأعمال)[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٢).

(٢) تفسير البيضاوي (٤/ ٧٠).

(٣) رواه مقاتل بن سليمان في تفسيره (٣/ ١٢٤) عن محمد بن علي، وذكره الثعلبي في الكشف والبيان (٧/ ٢١)، والزمخشري في الكشاف (٣/ ١٥٤).

(٤) ينظر التفسير الحديث (٦/ ٤٥).

(٥) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٦).

**رابعا: النظر في المناسبات:**

لا شك أنه تكشفت في التراث التفسيري مناسبات بديعة سواء بين الآيات، أم بين السور، وهي تنطوي على معانٍ دقيقة، ونكات لطيفة.

وللمناسبات أنواع ترد إلى قسمين:

الأول: مناسبات بين أجزاء السورة الواحدة: ويشمل أنواعا متعددة، منها: اسم السورة لموضوعها، ومناسبة مطلع السورة لمقصدها العام، ومناسبة آيات السورة لبعضها، ومناسبة فاتحة السورة لخاتمتها، والمناسبة بين موضوعات الآية الواحدة إن تضمنت أكثر من موضوع. ومناسبة الفاصلة للآية التي ختمت بها. والمناسبة بين موضوعات السورة الجزئية ومقصدها الكلي[(١)].

والثاني: المناسبات بين السور: وهي كذلك تشمل أنواعا متعددة، منها: مناسبة السورة لما قبلها، ومناسبة السورة لما بعدها، ومناسبة ختام السورة لمطلع السورة التي تليها، ومناسبة مطلع السورة لمطلع السورة التي تليها، ومناسبة فواتح وخواتم عدد من السور المتوافقة فيما بينها في المقصد، والمناسبة بين موضوع السورة وما سبقها، والمناسبة بين موضوع السورة وما يتلوها، إلى غير ذلك[(٢)].

ولنضرب أمثلة على ذلك من كلام المفسرين في تفسيرهم لسورة الحج:

ومن أمثلة دلالة مناسبة خاتمة الآية لما تقدمها في الآية نفسها قول الرازي في تفسير قوله عز وجل: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤]: (أي أخلصوا له الذكر خاصة بحيث لا يشوبه إشراك البتة، والمراد الانقياد لله تعالى في جميع تكاليفه، ومن انقاد له كان مخبتا، فلذلك قال بعده: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤﴾[سورة الحج: ٣٤][(٣)].

(١) ينظر طرق العلماء في استخراج الهدايات القرآنية (ص ١٥٦ – ١٥٧).

(٢) ينظر المرجع السابق (ص ١٥٧).

(٣) التفسير الكبير (٢٣/ ٢٢٥).

ومن دلالة ترتيب الصفات وتناسبها على الهدايات قول القشيري في تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥]، حيث أشار إلى وجه مجيء مدحهم بإقامة الصلاة بعد وصفهم بالصبر فقال: (أي إذا اشتدت بهم البلوى فزعوا إلى الوقوف في محلّ النجوى)[(١)].

ومن أمثلة الاستفادة من مناسبة آية لآيات جاءت بعدها في ترتيب المصحف قول سيد قطب في بيان التناسب بين قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾ [سورة الحج: ٦٠]، وقوله تعالى بعدها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٦١﴾ [سورة الحج: ٦١]، يقول رحمه الله: (بعد ذلك يربط السياق بين وعد الله بالنصر لمن يعاقب بمثل ما عوقب به ثم يقع عليه البغي .. يربط بين هذا الوعد وسنن الله الكونية الكبرى، التي تشهد بقدرة الله على تحقيق وعده، كما تشهد بدقة السنن الكونية المطردة مما يوحي بأن ذلك النصر هو إحدى هذه السنن التي لا تتخلف)[(٢)]. ثم يقول: (والسياق يوجه النظر إلى تلك الظاهرة الكونية المكرورة التي يمر عليها الناس غافلين. ليفتح بصائرهم ومشاعرهم على يد القدرة، وهي تطوي النهار من جانب وتسدل الليل من جانب. وهي تطوي الليل من جانب وتنشر النهار من جانب. في دقة عجيبة لا تختل، وفي اطراد عجيب لا يتخلف .. وكذلك نصر الله لمن يقع عليه البغي وهو يدفع عن نفسه العدوان .. إنه سنة مطردة كسنة إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل. فكذلك يزوي الله سلطان المتجبرين وينشر سلطان العادلين. فهي سنة كونية كتلك السنة، يمر عليها الناس غافلين، كما يمرون على دلائل القدرة في صفحة الكون وهم لا

(١) لطائف الإشارات (٢/ ٥٤٥).

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٣٩).

يشعرون! ذلك مرتبط بأن الله هو الحق. فالحق هو المسيطر على نظام هذا الكون. وكل ما دون الله باطل يختل ويتخلف ولا يطرد أو يستقيم)[1].

ويستخلص من ذلك كله أن نصرة الله للمؤمنين وإنصافه لهم من الظالمين سنة من السنن الربانية المطردة التي لا تتخلف.

ثم قال مبينا وجه الإتيان بالآيات الكونية بعد الحديث عن نصرة الله للمظلومين وتأييده للمهاجرين والمجاهدين في سبيله تعالى، في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾ [سورة الحج: ٦١ – ٦٦]؛ قال: (والسياق يستعرض هذه الدلائل كلها، ويوجه القلوب إليها في معرض التوكيد لنصرة الله لمن يقع عليه البغي وهو يرد عن نفسه العدوان. وذلك على طريقة القرآن في استخدام المشاهد الكونية لاستجاشة القلوب، وفي ربط سنن الحق والعدل في الخلق بسنن الكون ونواميس الوجود)[2].

ومن أمثلة استنباط هداية من تناسب مجموعة من الآيات مع آية أخرى قول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١﴾ [سورة الحج: ٦١]: (والجمع بين ذكر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل للإيماء إلى تقلب أحوال الزمان فقد يصير المغلوب غالبا، ويصير ذلك الغالب مغلوبا. مع ما فيه من التنبيه على تمام القدرة بحيث تتعلق بالأفعال المتضادة ولا تلزم طريقة واحدة

(١) المرجع السابق (٤/ ٢٤٣٩).

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٤١ – ٢٤٤٢).

كقدرة الصناع من البشر. وفيه إدماج التنبيه بأن العذاب الذي استبطأه المشركون منوط بحلول أجله، وما الأجل إلا إيلاج ليل في نهار ونهار في ليل)[1].

وكأنه يشير إلى أن هذا هو وجه مناسبة هذه الآية لآيات سابقة لها في السورة وهي قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الحج: ٤٥ – ٤٨].

**خامسا: التأمل في ورود أسماء الله الحسنى وختمها للآيات:**

مما يسترعي انتباه قارئ القرآن الكريم ختم كثير من آياته بأسماء الله الحسنى، ولا شك أن هذا التذييل ينطوي على حكمة إلهية، وفوائد دلالية، يلزم المتدبرَ أن يقف عندها ويتأمل فيها ويستنبط الدلالات والمعاني التي تومئ إليها هذه الفواصل، ومن ثم فهي باب عظيم لاستخراج الهدايات لمن وفّق لاقتناصها واكتشافها.

ولورود الأسماء الحسنى في القرآن صور متعددة:

الأول: دلالة اقتران صفة واحدة من صفاته تعالى.

الثاني: دلالة اقتران اسمين من أسماء الله الحسنى.

الثالث: دلالة اقتران أسماء متعددة من أسماء الله الحسنى.

الرابع: ورود اسم من أسمائه الحسنى في السورة خاصة دون غيره.

ومن أمثلة دلالة تذييل الآية بأحد الأسماء الحسنى على الهدايات قول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة الحج: ٦٤]: (ونبه بوصف الغنى على أنه غير مفتقر إلى غيره، وهو معنى الغنى في صفاته تعالى

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٥).

أنه عدم الافتقار بذاته وصفاته لا إلى محل ولا إلى مخصص بالوجود دون العدم والعكس، تنبيها على أن افتقارَ الأصنام إلى من يصنعها ومن ينقلها من مكان إلى آخر ومن ينفض عنها القتام والقذر دليلٌ على انتفاء الإلهية عنها)[1].

ومن ذلك قول السيوطي في بيان بعض النكت البيانية لقوله تعالى: ﴿۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوّٞ غَفُورٞ ٦٠﴾ [سورة الحج: ٦٠]: (فإن قلت: أي مناسبة لختم هذه الآية بالعفو والمغفرة؟

والجواب من وجهين: أحدهما: أن في ذكر هذين الوصفين إشعاراً بأن العفو أفضل من المعاقبة كما قدمنا، فهو حضٌّ عليه.

والثاني: أن في ذكرهما إعلاماً بعَفْوٍ عن المعاقب حين عاقب، ولم يأخذ بالعفو الذي هو أولى)[2].

ومن أمثلة ذلك قول السعدي في تفسير الآية السالفة الذكر: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوّٞ غَفُورٞ ٦٠﴾، أي: يعفو عن المذنبين، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم فيزيلها، ويزيل آثارها عنهم، فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة، فينبغي لكم أيها المظلومون المجني عليهم، أن تعفوا وتصفحوا وتغفروا ليعاملكم الله كما تعاملون عباده ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [سورة الشورى: ٤٠])[3].

ومن أمثلة ما يمكن أن يستفاد من اقتران اسمين من الأسماء الحسنى وتقديم أحدهما على الآخر أن درء المضار مقدم على جلب المصالح، ويشير الألوسي[4] إلى هذا المعنى فيقول في

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢٠).

(٢) معترك الأقران (٢/ ٣٧٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٣).

(٤) أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود أفندي الألوسي، الإمام العالم، ولد ببغداد سنة ١٢١٧هـ، كان شيخ العلماء في العراق. أكثر من العلوم حتى أصبح علامة المنقول والمعقول، فهّامة في الفروع والأصول. واشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وقلّد إفتاء الحنفية ببغداد، وتتلمذ له خلق كثير. من مؤلفاته: شرح السلم في المنطق،

تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الحج: ٦٥]: (والرأفة قيل: ما تقتضي درء المضار، والرحمة قيل: ما تقتضي جلب المصالح. ولكون درء المضرة أهم من جلب المصلحة قدم ﴿رؤوف﴾ على ﴿رحيم﴾، وفي كل ما امتن به سبحانه درءٌ وجلب، نعم، قيل: إمساك السماء عن الوقوع أظهر في الدرء، ولتأخيره وجه لا يخفى)[(١)].

**سادسا: النظر في أوجه الإعراب المحتملة:**

ما من شك أن الموقع الإعرابي لأي كلمة يحدد معناها، وأن تعدد الأوجه الإعرابية يجعل المعاني التي تدل عليها الجملة متعددة بقدر ذلك، ولهذا اعتنى العلماء بإعراب القرآن الكريم وأفردوه بالتأليف، واحتفل المفسرون بذكر الأوجه الإعرابية المتعددة وذكر الأوجه التفسيرية التي تترتب عليها.

وقد تختلف الأعاريب وتتعدد وجوه التقدير، وبناءً على ذلك تتعدد الأقوال التفسيرية في الجملة الواحدة. ويكون لهذا أثر بيّنٌ في تعدد الدلالات وتنوع الهدايات المستفادة من الآية.

ومن أمثلة الهدايات المستفادة من بعض الأوجه الإعرابية في سورة الحج:

استنباط أن أعظم مقصود من بناء الكعبة إظهار توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة[(٢)]؛ من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾، على القول بأن ﴿أَن﴾ مصدريةٌ موصولة بالنهي، أي: فعلنا ذلك لئلا تشرك بي في العبادة شيئا[(٣)].

---

والنفحات القدسية في المباحث الإمامية، والفوائد السنية في علم آداب البحث، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. توفي سنة ١٢٧٠هـ. ينظر: الأعلام للزركلي (٧/ ١٧٦)، ومعجم المؤلفين (١٢/ ١٧٥).

(١) روح المعاني (٩/ ١٨٥).

(٢) ينظر تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٦٣٤)، وفي ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٨)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٤١)، والتفسير المنير (١٧/ ١٩٧).

(٣) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٦٩)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٣).

ومن ذلك ما يفيده قول الله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٠]، من أن الله تعالى أحل أكل الأنعام باستثناء ما حرم منها لعارض كالميتة وما أهل به لغير الله تعالى، وهذا بناء على أن الاستثناء في الآية استثناءٌ متصل كما اختاره الأكثرون(١). وبناءً على أن الاستثناء منقطع تفيد الآية أن الله تعالى أحلّ للناس أكلَ الأنعام إذا ذكَّوْها، إلا ما ذكر تحريمه في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [سورة المائدة: ٣](٢)؛ لأن ما حرم في آية المائدة فيه ما ليس من جنس الأنعام كالخنزير(٣).

ومن ذلك أن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢]، يدل على أن تعظيم شعائر الله من علامات تقوى القلوب(٤)، بناء على أن ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ تفيد التبعيض(٥)، ويدل على أن تعظيمَ شعائر الله ناشئ من التقوى المتمكنة من القلب(٦)، وهذا بناءً على أن ﴿مِن﴾ للابتداء.

ومن أمثلة استخراج الهدايات من التقديرات النحوية قول الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢]: (والوجه الثاني في تعظيم شعائر الله تعالى أن يعتقد أن طاعة الله تعالى في التقرب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد وأن يحتفل به ويتسارع فيه فإنها من تقوى القلوب أي إن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى

---

(١) ينظر اللباب (١٤/ ٨٠)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٥)، وروح المعاني (٩/ ١٤١).

(٢) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٢٣)، وتفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٧٠)، ومعاني القرآن للفراء (٢/ ٢٢٤)، وغريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٩٢)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٣٤).

(٣) ينظر روح المعاني (٩/ ١٤١).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٤١)، وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٦/ ٢٩٥)، وروح المعاني (٩/ ١٤٥).

(٥) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٢٦)، وتفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٧١)، وعزاه إلى السُّدّي، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٩). ونسبه الماوردي في النكت والعيون (٤/ ٢٣) كذلك إلى الكلبي.

(٦) فتوح الغيب (١٠/ ٤٨٣)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٦)، وروح البيان (٦/ ٣٢).

القلوب فحذفت هذه المضافات، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لا بد من راجع من الجزاء إلى من ارتبط به.

وإنما ذكرت القلوب لأن المنافق قد يظهر التقوى من نفسه. ولكن لما كان قلبه خاليا عنها لا جرم لا يكون مجدا في أداء الطاعات، أما المخلص الذي تكون التقوى متمكنة في قلبه، فإنه يبالغ في أداء الطاعات على سبيل الإخلاص)[1].

ومنها قول الألوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [سورة الحج: ١٨]: (وقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾، قيل: مرفوع بفعل مضمر يدل عليه المذكور، أي ويسجد له كثير من الناس سجود الطاعة المعروف...وعطفه بعضهم على المذكورات قبله وجعل السجود بالنسبة إليه بمعنى السجود المعروف وفيما تقدم بمعنى الدخول تحت التسخير أو الدلالة على عظمة الصانع جل شأنه. واستدل بذلك على جواز استعمال المشترك في معنييه أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه...

وقيل: المقام يقتضي تكثير الرائين لما يذكر في حيز الرؤية، والتخصيص أوفق بذلك، فلذا خص الكثير بكونهم من الناس، والكل كما ترى. والأولى أن يقال: تخصيص الكثير من الناس بنسبة السجود بالمعنى المعروف إليهم على القول بأن كثيرا من الجن كذلك للتنويه بهم...

وقيل: إن ﴿كَثِيرٌ﴾ مرفوع على الابتداء حذف خبره ثقةً بدلالة خبر قسيمه عليه نحو: حق له الثواب، ويفيد الكلام كثرة الفريقين؛ والأول أولى لما فيه من الترغيب في السجود والطاعة للحق المعبود، وجوز أن يكون ﴿كَثِيرٌ﴾ مبتدأ و ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾ خبره، والتعريف فيه للحقيقة والجنس، أي وكثير من الناس الذين هم الناس على الحقيقة، وهم الصالحون المتقون...

والظاهر أن ﴿كَثِيرٌ﴾ الثاني مبتدأ، والجملة بعده خبره، وقد أقيمت مقام لا يسجد، فكأنه قيل: ويسجد كثير من الناس، ولا يسجد كثير منهم، ولا يخفى ما في تلك الإقامة من

---

(١) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٤).

الترهيب عن ترك السجود والطاعة، ولا يخفى ما في عدم التصريح بتقييد الكثير بكونه من الناس، مما يقوي دعوى أن التقييد فيما تقدم للتنويه)[1].

**المطلب الثالث: الطرق المتعلقة بأصول فهم الوحي:**

من المعلوم أن القرآن يفسر بعضه بعضا، ويصدق بعضه بعضا، وأن السنة بيان لآياته، وتقييد لمطلقاته، وتخصيص لعموماته. ولذلك كان من شأن العلماء أن يفهموا الخطاب الشرعي في ضوء مجموع خطاباته الواردة في ذلك الموضوع.

وكذلك فإن استخراج بعض الهدايات القرآنية إنما يكون من خلال النظر في مجموع الأدلة، من جهة ضم آية إلى آية أخرى.

ولذلك صور متعددة:

الأولى: استنباط هداية من مجموع أدلة متفرقة.

الثانية: استنباط هداية من مجموع أدلة متوالية.

الثالثة: استنباط هداية من مجموع آيات قرآنية متوالية ومتفرقة.

الرابعة: استنباط هداية من مجموع أدلة متفرقة ظاهرها التعارض.

الخامسة: استنباط الهداية من مجموع أدلة القرآن والسنة.

***الأول: استنباط هداية من مجموع أدلة متفرقة.***

ومن أمثلة ذلك قول الشنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الحج: ٢٩]: (عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ قال: (يعني بالتفث: وضع إحرامهم من حلق الرأس، ولبس الثياب، وقص الأظفار، ونحو ذلك)...عن محمد بن كعب قال: التفث: حلق العانة ونتف الإبط، والأخذ من الشارب، وتقليم الأظفار، اهـ... وعلى التفسير المذكور فالآية تدل

(١) روح المعاني (٩/ ١٢٦).

على: أن الأظفار كالشعر بالنسبة إلى المحرم، ولا سيما أنها معطوفة بـ «ثم» على نحر الهدايا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾، والمراد بذكر اسمه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام التسمية عند نحر الهدايا والضحايا، ثم رتب على ذلك قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾، فدلّ على أن الحلق وقص الأظافر ونحو ذلك ينبغي أن يكون بعد النحر كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [سورة البقرة: ١٩٦]، وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم: أن من حلق قبل أن ينحر لا شيء عليه[١])[٢].

ومن ذلك استفادة وجوب السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ١٥٨)؛ وفي ذلك يقول السعدي رحمه الله: (أمر الله بتعظيم شعائره فقال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾، فدلَّ مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره، من تقوى القلوب. والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة، كما عليه الجمهور)[٣].

ومن ذلك قول الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحج: ٨ – ٩]: (ويفهم من هذه الآية الكريمة أن من ثنى عِطفه استكبارا عن الحق وإعراضا عنه عامله الله بنقيض قصده فأذله وأهانه. وذلك الذل والإهانة نقيض ما كان يؤمله من الكبر والعظمة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب العلم، باب الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها، ح ٨٣، ١/ ٤٣)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب من حلق قبل النحر أو نحر قبل الرمي، ح ١٣٠٦، ٢/ ٩٤٨).

(٢) أضواء البيان (٥/ ٤٧ – ٤٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٦).

وهذا المفهوم من هذه الآية دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [سورة غافر: ٥٦]، وقوله لإبليس لما استكبر: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٣]، والصغار: الذل والهوان)[(١)].

ومن ذلك قول الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الحج: ٣٠]: (فاعلم أنه هنا قال: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ بصيغة عامة، ثم بين في بعض المواضع بعض أفراد قول الزور المنهي عنه، كقوله تعالى في الكفار الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [سورة الفرقان: ٤]، فصرح بأن قولهم هذا من الظلم والزور... وقد جمع تعالى هنا بين قول الزور والإشراك به تعالى في قوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [سورة الحج: ٣٠ -٣١]، وكما أنه جمع بينهما هنا، فقد جمع بينهما أيضا في غير هذا الموضع كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الأعراف: ٣٣]، لأن قوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ هو قول الزور، وقد أتى مقرونا بقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، وذلك يدل على عظمة قول الزور؛ لأن الإشراك بالله قد يدخل في قول الزور، كادعائهم الشركاء، والأولاد لله، وكتكذيبه - صلى الله عليه وسلم - فكل ذلك الزور فيه أعظم الكفر والإشراك بالله)[(٢)].

ومن ذلك قول سعيد حوّى[(٣)] مستنبطا من مجموع آيات متعددة في السورة: (وفي عملية تفصيل قضية التقوى، وتحديد مشاعر المتقين، وبعض شعائرهم، عرضت السورة لقضية مهمة

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٢٨١ - ٢٨٢).

(٢) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢٥٥ - ٢٥٦).

(٣) داعية إسلامي، وُلد بحماة عام ١٩٣٥م، تتلمذ على الشيخ محمد الحامد، ثم انضم إلى جماعة "الإخوان المسلمين" وهو في المرحلة الثانوية. وبعد تخرّجه من كلية الشريعة عمل بالتدريس في مناطق متعددة، ثم سافر إلى المملكة السعودية، حيث درّس خمس سنوات، وبعد عودته إلى سوريا اعتُقل، وبعد خروجه من السجن غادر إلى عمان،

وهي وحدة المتقين، ووحدة هدفهم، وضرورة سيرهم في طريق الصراع مع الكفر، فالنصر الرباني موعود به المتقون؛ إذا تحققوا بمواصفات خاصة، هذه المواصفات ضرورية كيلا تفسد الأرض، فمن طلب النصر الرباني بدون تحقيق الشروط في نفسه من المسلمين، أو عجب من عدم نزول النصر دون بذل وعطاء، وتحقق وفداء، وعمل مشترك مستقيم، فإنما هو من الجاهلين، ومن ارتد استبطاء للنصر فإنه من الكافرين)[1].

ويؤخذ ذلك من الجمع بين قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحج: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾ [سورة الحج: ١١][2].

### الثاني: استنباط هداية من مجموع أدلة متوالية.

ومن أمثلة ذلك قول الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[سورة الحج: ٣٢]: (من أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر لفظ عام، ثم يصرح في بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه، فيكون ذلك الفرد قطعي الدخول لا يمكن إخراجه بمخصص،...لأن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الحج: ٣٢) عام في جميع شعائر الله، وقد نص تعالى على أن البُدْن فرد من أفراد هذا العموم، داخل فيه قطعا، وذلك في قوله: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الحج: ٣٦]، فيدخل في الآية تعظيم البدن

---

وظل بها إلى أن توفي عام ١٩٨٩م. له مؤلفات عدة، منها: الأساس في التفسير، الله جل جلاله، الرسول، تربيتنا الروحية، المستخلص في تزكية الأنفس، جند الله ثقافة وأخلاقًا، وغيرها. ينظر التفسير والمفسرون في العصر الحديث لفضل عباس (٣/٤٩ - ٥٠).

(١) الأساس في التفسير (٧/ ٣٦٠٧).

(٢) المرجع السابق (٧/ ٣٦٠٦ - ٣٦٠٨).

واستسمانها واستحسانها كما قدمنا عن البخاري: أنهم كانوا يسمّنون الأضاحي[(١)]، وكانوا يرون أن ذلك من تعظيم شعائر الله، وقد قدمنا أن الله صرح بأن الصفا والمروة داخلان في هذا العموم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ١٥٨]، وأن تعظيمها المنصوص في هذه الآية: يدل على عدم التهاون بالسعي بين الصفا والمروة)[(٢)].

ومن ذلك استفادة الجمع بين التسمية والتكبير عند نحر الهدي من آيات متواليات من سورة الحج، وهي قول الله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٢٨]، وقوله عز وجل: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ [سورة الحج: ٣٦]، وقوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾؛ قال القرطبي رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾، ذكر سبحانه ذكر اسمه عليها من الآية قبلها فقال عز من قائل: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾، وذكر هنا التكبير. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يجمع بينهما إذا نحر هديه فيقول: بسم الله والله أكبر، وهذا من فقهه رضي الله عنه. وفي الصحيح عن أنس قال: ((ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين. قال: ورأيته يذبحهما بيده، ورأيته واضعا قدمه على صفاحهما، وسمّى وكبّر))[(٣)])[(٤)].

***الرابع: استنباط هداية من مجموع أدلة متفرقة ظاهرها التعارض.***

ومن ذلك ما استفاده العلماء من قوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ [سورة الحج: ٧٨)، مع معارضة ظاهر عمومه لقوله صلى الله عليه وسلم: قال القرطبي في تفسير الآية: (أُمِروا بوفاء

---

(١) رواه البخاري في صحيحه تعليقا: (كتاب الأضاحي، باب في أضحية النبي صلى الله عليه وسلم بكبشين أقرنين ويذكر سمينين، ٥/ ٢١١١).

(٢) أضواء البيان (٥/ ٢٥٧ - ٢٥٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الأضاحي، باب التكبير عند الذبح، ح ٥٢٤٥، ٥/ ٢١١٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الأضاحي، باب استحباب الضحية...، ح ١٩٦٦، ٣/ ١٥٥٧).

(٤) تفسير القرطبي (١٢/ ٦٦).

النذر مطلقا إلا ما كان معصية، لقوله عليه السلام: ((لا وفاء لنذر في معصية الله))[1]، وقوله: ((من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه))[2] [3].

ومن ذلك أيضا استنباط جواز ركوب الهدي عند الحاجة من مجموع قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الحج: ٣٣]، والأحاديث الواردة في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال الشنقيطي رحمه الله: (أظهر الأقوال دليلا عندي في ركوب الهدي واجبا أو غير واجب: هو أنه إن دعته ضرورة لذلك جاز وإلا فلا؛ لأن أخص النصوص الواردة في ذلك بمحل النزاع وأصرحها فيه ما رواه مسلم في صحيحه: ...سمعت جابر بن عبد الله، سئل عن ركوب الهدي؟ فقال: سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول: ((اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها حتى تجد ظهرا))[4]. وفي رواية عنه في صحيح مسلم: ((اركبها بالمعروف حتى تجد ظهرا)) اهـ. فهذا الحديث الصحيح فيه التصريح منه صلى الله عليه وسلم بأن ركوب الهدي إنما يجوز بالمعروف، إذا ألجأت إليه الضرورة، فإن زالت الضرورة بوجود ظهر يركبه غير الهدي ترك ركوب الهدي، فهذا القيد الذي في هذا الحديث تقيد به جميع الروايات الخالية عن القيد؛ لوجوب حمل المطلق على المقيد، عند جماهير أهل العلم. ولا سيما إن اتحد الحكم والسبب كما هنا.

...وأما حجة من أجاز الركوب مطلقا، فهو قوله صلى الله عليه وسلم: ((ويلك اركبها))[5]، وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة الحج: ٣٣]، على أحد التفسيرين، ولا تنهض به الحجة فيما يظهر؛ لأنه محمول على كونه تدعوه الضرورة إلى ذلك،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب النذر، باب لا وفاء لنذر في معصية الله، ح ١٦٤١، ٣/١٢٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، ح ٦٣١٨، ٦/ ٢٤٦٣).

(٣) تفسير القرطبي (١٢/ ٥٠).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب جواز ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها، ح ١٣٢٤، ٢/ ٩٦١).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الحج، باب ركوب البدن، ح ١٦٠٤، ٢/ ٦٠٦)، ورواه بنحوه عن أنس رضي الله عنه: (ح ٢٦٠٣، وح ٥٨٠٨).

بدليل حديث جابر عند مسلم الذي ذكرناه آنفا فهو أخص نص في محل النزاع، فلا ينبغي العدول عنه، والعلم عند الله تعالى.

وإنما قلنا: إن الظاهر أنه لا فرق في الحكم المذكور بين الهدي الواجب وغيره؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال لصاحب البدنة: ((اركبها))، وهي مقلدة نعلا، وقد صرح له تصريحا مكررا بأنها بدنة، ولم يستفصله النبي صلى الله عليه وسلم: هل تلك البدنة من الهدي الواجب أو غيره؟ وترك الاستفصال ينزل منزلة العموم في الأقوال)[1].

***الخامس: استنباط هداية من مجموع أدلة القرآن والسنة.***

ومن ذلك قول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢]: (تعظيم الشعائر- وهي الهدايا، لأنها من معالم الحج-: أن يختارها عِظامَ الأجرام حِسانًا سِمانًا غاليةَ الأثمان، ويترك المِكاس في شرائها، فقد كانوا يغالون في ثلاث- ويكرهون المِكاس فيهنّ-: الهدى، والأضحية، والرقبة. وروى ابن عمر عن أبيه رضي الله عنهما أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا. فنهاه عن ذلك وقال: ((بل أهدِها))[2]، (وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة، فيها جمل لأبي جهل في أنفه بُرَة من ذهب)[3]. وكان ابن عمر

---

(١) أضواء البيان (٥/ ١٧٧).

(٢) أخرجه بنحوه أحمد في مسنده: (٢/١٤٥ ح ٦٣٢٥)، وأبو داود في سننه: (كتاب المناسك، باب في الهدي، ح ١٧٥٦، ٢/ ٣٦٠). وابن خزيمة في صحيحه: (كتاب المناسك، باب استحباب المغالاة بثمن الهدي وكرائمه، ح ٢٩١١، ٤/ ٢٩١).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه: (كتاب المناسك، باب في الهدي، ح ١٧٤٩، ٢/ ٣٦٠). وفي إسناده محمَّد بن إسحاق ولم يصرح بالتحديث، وقد توبع ابن إسحاق على رواية هذا الحديث من طريق ابن أبي ليلى من الحكم عن مقسم عن ابن عباس عند أحمد في مسنده (١/ ٢٦٩، رقم ٢٤٢٨)، وكذلك عن مجاهد عن ابن عباس عند أحمد أيضًا (١/ ٢٦٩)، وبه يكون الحديث حسنًا. والبُرَة: حلقة في أنف البعير أو في لحمة أنفه (لسان العرب: ١٤/ ٧١).

يسوق البدن مجللة بالقباطى فيتصدق بلحومها وبجلالها[1]، ويعتقد أن طاعة الله في التقرب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد أن يقام به ويسارع فيه)[2].

ومن ذلك قول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة القلم: ١٧ – ١٨]: (في هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان، لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥). وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)) قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: (إنه كان حريصا على قتل صاحبه))[3])[4].

وقول الشنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥): (ويحتمل أن يكون معنى الإرادة في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ العزم المصمم على ارتكاب الذنب فيه، والعزم المصمم على الذنب ذنب يعاقب عليه في جميع بقاع الله؛ مكة وغيرها. والدليل على أن إرادة الذنب إذا كانت عزما مصمما عليه أنها كارتكابه حديث أبي بكْرة الثابت في الصحيح: ((إذا التقى المسلمانِ بسيفيهما فالقاتلُ والمقتول في النار)). قالوا: يا رسول الله، قد عرفنا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: ((إنه كان حريصًا على

---

(١) رواه مالك في الموطأ: (كتاب الحج، باب العمل في الهدي حين يساق، ١ / ٣٧٩ و٣٨٠)، وإسناده صحيح.
والقباطي: (ثياب بيض دقاق من كتان تتخذ بمصر، واحدها: قبطية، ويجوز أن يكون هذا النسب فيها إلى القبط)، جامع الأصول (٣/ ٣٨٣).

(٢) الكشاف (٣/ ١٥٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الإيمان، باب ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ (الحجرات: ٩)، ح ٣١، ١/ ٢٠)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الفتن، باب إذا توجه المسلمان بسيفيهما، ح ٢٨٨٨، ٤/ ٢٢١٤).

(٤) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ٢٤١)، وأضواء البيان (٤/ ٢٩٥).

قتل صاحبه))[1]. فقولهم: ما بال المقتول: سؤال عن تشخيص عين الذنب الذي دخل بسببه النار مع أنه لم يفعل القتل، فبين النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ((إنه كان حريصا على قتل صاحبه)) أن ذنبه الذي أدخله النار هو عزمه المصمم وحرصه على قتل صاحبه المسلم. وقد قدمنا مرارا أن «إنّ» المكسورة المشددة تدل على التعليل كما تقرر في مسلك الإيماء والتنبيه.

ومثال المعاقبة على العزم المصمم على ارتكاب المحظور فيه، ما وقع بأصحاب الفيل من الإهلاك المستأصل، بسبب طير أبابيل ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤﴾ [سورة الفيل: ٤] لعزمهم على ارتكاب المناكر في الحرم، فأهلكهم الله بذلك العزم قبل أن يفعلوا ما عزموا عليه، والعلم عند الله تعالى)[2].

### ٣ الاستفادة من آثار الصحابة والتابعين:

لا ريب أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أعلم هذه الأمة بمعاني القرآن الكريم، وأعرفهم بتفسيره؛ لأنهم صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم، وتلقوا عنه ألفاظ كتاب الله، ورأوا منه بيانه العملي له، وشهدوا مواقع التنزيل، وعرفوا أسباب النزول، ومكنتهم السليقة العربية من فهمه بيسر. وقد اختصوا بذلك عمن جاء بعدهم، ومنهم أخذ التابعون، ولذلك كانوا بمنزلتهم. ولذلك كان الصحابة وتابعوهم أسبق إلى استخراج الهدايات وبيانها، ومن أمثلة الهدايات القرآنية المستفادة من الآثار المروية عن الصحابة والتابعين.

ومن ذلك استفادة أن شهادةَ الزور تعدل الشركَ بالله وتُساويه في القبح والشناعة، مما قاله ابن مسعود رضي الله عنه، مستدلا بآية من سورة الحج: (شهادة الزور تعدل بالشرك بالله، ثم قرأ ابن مسعود هذه الآية: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ [سورة الحج: ٣٠))[3]، وروي مرفوعا بسند ضعيف[1]، ووجه دلالة الآية على ذلك: أنه لما كان قول الزور

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أضواء البيان (٤/ ٢٩٥).

(٣) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (١/ ١٣٣، رقم ٣٠٥)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٣٦).

معادلا للكفر لم يعطف على الرجس، بل أفرد بأن كرر له العامل اعتناءً باجتنابه[٢]. وقد جاءت نصوص قرن فيه قول الزور بالشرك[٣]، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الأعراف: ٣٣]، ومنها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: ((الإشراك بالله وعقوق الوالدين -وكان متكئًا فجلس، فقال: - ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور)). فما زال يكررها، حتى قال جلساؤه من الصحابة: ليته سكت[٤].

ومنها استفادة أن الشرك يبعد المشرك فيه عن الهدى والحق، فلا يصل إليه بحال؛ من قول قتادة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الحج: ٣١]: (هذا مثل ضربه الله لمن أشرك بالله في بعده من الهدى وهلاكه ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾

---

(١) عن أيمن بن خريم الأسدي رحمه الله: أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قام خطيباً، فقال: ((أيُّها الناسُ، عَدَلت شهادةُ الزُّورِ إشراكاً بالله، ثم قرأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾)). أخرجه أحمد في المسند (١٧٨/٤، رقم ١٧٦٤٠)، والترمذي في سننه: (كتاب الشهادات، باب ما جاء في شهادة الزور، ح ٢٢٩٩، ٥٤٧/٤) وقال: (غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد. وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعا من النبي صلى الله عليه وسلم)، وأخرجه من حديث خُرَيم بن فاتك: أحمد في مسنده (٣٢١/٤، رقم ١٨٩١٨)، وأبو داود في سننه: (كتاب الأقضية، باب في شهادة الزور، ح ٣٥٩٩، ٣٠٥/٣)، وابن ماجة في سننه: (كتاب الأحكام، باب شهادة الزور، ح ٢٣٧٢، ٧٩٤/٢). وعلته حبيب بن النعمان الأسدي، وهو مجهول، ولذلك قال عنه ابن القطان في "بيان الوهم والإيهام" (٤/ ٥٤٨): (وهو لا يصح)، وقال ابن الملقن في "البدر المنير" (٩/ ٥٧٦ – ٥٧٧): (فإسناده واهٍ؛ لأنه دائر بين مجهول وضعيف).

(٢) البحر المحيط في التفسير (٧/ ٥٠٥).

(٣) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢٥٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، ح ٥٦٣١، ٢٢٢٩/٥)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، ح ٨٧، ٩١/١)

[سورة الحج: ٣١]) [(١)]، وكذلك المشرك يسقط من سماء التوحيد ويلقى في مهاوي الشرك، ويكون بعيدا عن إصابة الحق، كبُعد الذي وقع من علوّ، فاختطفته الطير أو ألقته الريح في مكان بعيد.

ومنها استفادة أن قبول الله تعالى للهدي إنما يكون إذا تقرب بها الحاج على وجه التعظيم لله تعالى، من قول ابن زيد رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ٣٧]: (إن اتقيتَ الله في هذه البُدْن، وعملتَ فيها لله، وطلبتَ ما قال الله تعظيمًا لشعائر الله ولحرمات الله، فإنه قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾، وقال: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ قال: وجعلته طيبا، فذلك الذي يتقبل الله. فأما اللحوم والدماء، فمن أين تنال اللهَ؟) [(٢)].

ومنها استفادة أن مَنْ نصر دين الله وشريعته قولا وعملاً، فإن الله تعالى ينصره كائناً من كان، سواء بأسباب أم بغير أسباب [(٣)]. من قول الحسن البصري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [سورة الحج: ٤٠]: (من حكمه أن من نصر الله نصره) [(٤)].

**المطلب الرابع: الطرق المتعلقة بقرائن الوحي:**

تنقسم الطرق المتعلقة بقرائن الوحي إلى أربعة طرق:

الأول: أحوال النزول.

الثاني: تدبر قراءة النبي صلى الله عليه وسلم في الصلوات وغيرها.

---

(١) قال قتادة: (هذا مثلٌ ضربه الله لمن أشرك بالله في بعده من الهدى وهلاكه). رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٣٨) بسند حسن، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩١، رقم ١٣٩١٩).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٧٠).

(٣) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤٣٤)، ونظم الدرر (١٣/ ٥٨).

(٤) تفسير الماتريدي (٧/ ٤٢٥).

الثالث: تأمل الآيات من خلال مكتشفات العلوم التطبيقية.

الرابع: الواقع وأثره في استنباط الهدايات[1].

ولنتحدث عما يتعلق بمنهج العلماء في استنباط الهدايات بمراعاة قرائن الوحي من خلال تفسيرهم واستنباطاتهم من سورة الحج.

**١ – العلم بأحوال النزول:**

إن الأحوال التي تكتنف نزول الآيات القرآنية – كالمكان الذي تنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم فيه، والزمان الذي نزلت فيه، والحال الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون حين أنزلت – لها دلالات وحكم دقيقة، وهي تفتح للمتدبر فُيُوضًا من الهدايات التي لا يتوصل إليها من خلال منطوق الألفاظ ومفهومها[2].

وتشتمل أحوال النزول على ما يأتي:

ا – زمان النزول: الليل أم النهار، والصيف أم الشتاء، قبل الهجرة أم بعدها، في أول الفترة المكية أو المدنية أو في آخرها...

ب – مكان النزول: في مكة أم في المدينة أم في غيرها، في السفر أم في الحضر؟ الخ.

ج – أسباب النزول: أي ما نزلت الآيات في شأنه خاصة.

د – حال المخاطبين: في حرب أم في سلم، في قوة أم في ضعف، في خوف أو في أمن؟ إلى غير ذلك.

ولنضرب على ذلك أمثلة من خلال كلام المفسرين لسورة الحج:

ومن ذلك قول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحج: ١٥]:

---

(١) ينظر طرق العلماء في استخراج الهدايات القرآنية (ص ١٩٥).

(٢) ينظر المرجع السابق (ص ١٩٦).

(وذكر الفخرُ عن مقاتل أن نفرا من أسد وغطَفان قالوا: نخاف أن لا ينصر الله محمدا، فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود، فلا يميروننا فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ [سورة الحج: ١٥] الآيات[(١)].

وعن الضحاك: أن الآية نزلت في المؤلفة قلوبهم، منهم: عيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس قالوا: ندخل في دين محمد، فإن أصبنا خيرا عرفنا أنه حق، وإن أصبنا غير ذلك عرفنا أنه باطل. وهذا كله ناشئٌ عن الجهل وتخليط الأسباب الدنيوية بالأسباب الأخروية، وجعل المقارنات الاتفاقية كالمعلومات اللزومية. وهذا أصل كبير من أصول الضلالة في أمور الدين وأمور الدنيا. ولنعم المعبر عن ذلك قولُه تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾؛ إذ لا يهتدي إلى تطلُّب المسببات من أسبابها)[(٢)].

ومن ذلك ما ذكره الطيبي في شرحه لسبب النزول الذي ذكره الزمخشري[(٣)] في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحج: ١٥]: من أن الآية دلّت على أن من استبطأ نصر الله، وطلب الموعود عاجلًا، فإنه لا يملك الإتيان به في غير أوانه، لأن لذلك وقتًا لا يجوز إيقاعه إلا فيه[(٤)].

ومن مراعاة أحوال النزول قولُ سيد قطب رحمه الله تعليقًا على قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ [سورة الحج: ٣٠]: (ولما كان المشركون يحرمون بعض الأنعام – كالبَحِيرة والسائبة والوصيلة والحامي – فيجعلون لها حرمة، وهي ليست من حرمات الله بينما هم يعتدون على حرمات الله – فإن

(١) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١١٩)، وتفسير الطبري (١٦/ ٤٨٤).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢١١).

(٣) قال في الكشاف (٣/ ١٤٨): (وقيل: كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسوله من النصر، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون أن لا يثبت أمره، فنزلت).

(٤) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٥٥).

النص يتحدث عن حل الأنعام إلا ما حرم الله منها – كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٠]. وذلك كي لا تكون هنالك حرمات إلا لله، وألا يشرع أحد إلا بإذن الله، ولا يحكم إلا بشريعة الله)[(١)].

ومن ذلك قول أبي بكر الجزائري في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الحج: ١٩] وما بعدها: (من هداية الآيات:

١- إثبات حقيقة هي أن المؤمن خصم الكافر والكافر خصم المؤمن في كل زمان ومكان، حيث إن الآية نزلت في علي وحمزة وعبيدة بن الحارث هذا الخصم المؤمن، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وهذا الخصم الكافر، وذلك أنهم تقاتلوا يوم بدر بالمبارزة ونصر الله الخصم المؤمن على الكافر)[(٢)].

**٢ – تأمل الآيات من خلال مكتشفات العلوم التطبيقية:**

مع تطور العلم التجريبي التطبيقي ظهرت اكتشافات كثيرة مطابقة لما نص عليه القرآن الكريم، إما صراحة أو بشكل دقيق، وقد وجهت تلك الاكتشافات مدارك الباحثين في علم التفسير ووسعت نظرهم ونبهتهم إلى دلالات وهدايات لم يكن لهم أن يدركوها قبل ذلك، لا سيما فيما يتعلق بالمخلوقات والآيات الكونية.

ومن أمثلة ذلك في كلام المفسرين لسورة الحج:

قول الأستاذ سيد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [سورة الحج: ٥): (فإذا نزل عليها الماء ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾، وهي حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تتشرب الماء وتنتفخ فتربو، ثم تتفتح

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٢١).

(٢) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٦٥).

بالحياة عن النبات ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧﴾. وهل أبهج من الحياة وهي تتفتح بعد الكمون، وتنتفض بعد الهمود؟)[1].

ومنها قول سعيد حوّى فيما يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: ٤٧]: (إن الناس في عصرنا أصبحت لديهم تصورات واسعة حول الكون وعمره، وحول الزمن كأثر من تطور مئات العلوم، ومن ثم تجدهم يتحدثون عن كوكب، أو عن نجم بأن يومه كذا، ويقصدون بيومه الزمن، الذي تستغرقه دورته حول نفسه، وتجدهم يتحدثون عن يوم من أيام نجم أو كوكب بالأيام أو بالشهور أو بالسنين بالنسبة ليوم الكرة الأرضية، فعند ما نجد في القرآن مثل هذا النص الذي يقول: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، ندرك مباشرة أن مثل هذا النص ما كان ليوجد في كتاب قبل أربعة عشر قرنا، وفي جزيرة العرب لولا أنه من عند الله المحيط علما بكل شيء والخالق لكل شيء والمنزل هذا القرآن بعلمه قال تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [سورة النساء: ١٦٦]، ومن ثم فإنك تجد فيه آثار علم الله المحيط، فالحمد لله على نعمة القرآن والإسلام)[2].

ومنها قول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [سورة الحج: ٥]: (وكون الإنسان مخلوقا من النطفة لأنه قد تقرر في علم الطب أن في رحم المرأة مدة الحيض جزءا هو مقر الأجرام التي أعدت لأن يتكون منها الجنين، وهذا الجزء من الرحم يسمى في الاصطلاح الطبي (المبيض) – بفتح الميم وكسر الموحدة على وزن اسم المكان– لأنه مقر بيضات دقيقة هي حبيبات دقيقة جدا وهي من المرأة بمنزلة البيضة من الدجاجة أو بمنزلة حبوب بيض الحوت، مودعة في كرة دقيقة كالغلاف لها يقال لها (الحُوَيْصِلة) – بضم الحاء بصيغة تصغير حوصلة– تشتمل على سائل تسبح فيه البيضة فإذا حاضت المرأة ازدادت كمية ذلك السائل الذي تسبح فيه البيضة فأوجب ذلك انفجار غلاف الحويصلة، فيأخذ ذلك

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١١).

(٢) الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٧٧).

السائل في الانحدار يحمل البيضة السابحة فيه إلى قناة دقيقة تسمى (بوق فلوبيوس) لشبهه بالبوق، وأضيف إلى (فلوبيوس) اسم مكتشفه وهو البرزخ بين المبيض والرحم، فإذا نزل فيه ماء الرجل وهو النطفة بعد انتهاء سيلان دم الحيض لقحت فيه البيضة واختلطت أجزاؤها بأجزاء النطفة المشتملة على جرثومات ذات حياة وتمكث مع البيضة متحركة مقدار سبعة أيام تكون البيضة في أثنائها تتطور بالشكل بشبه تقسيم من أثر ضغط طبيعي. وفي نهاية تلك المدة تصل البيضة إلى الرحم وهنالك تأخذ في التشكل، وبعد أربعين يوما تصير البيضة علقة في حجم نملة كبيرة طولها من ١٢ إلى ١٤ مليمتر، ثم يزداد تشكلها فتصير قطعة صغيرة من لحم هي المسماة (مضغة) طولها ثلاثة سنتيمتر تلوح فيها تشكلات الوجه والأنف خفية جدا كالخطوط، ثم يزداد التشكل يوما فيوما إلى أن يستكمل الجنين مدته فيندفع للخروج وهو الولادة.

فقوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ صفة مضغة، وذلك تطور من تطورات المضغة. أشار إلى أطوار تشكل تلك المضغة فإنها في أول أمرها تكون غير مخلقة، أي غير ظاهر فيها شكل الخلقة، ثم تكون مخلقة، والمراد تشكيل الوجه ثم الأطراف، ولذلك لم يذكر مثل هذين الوصفين عند ذكر النطفة والعلقة، إذ ليس لهما مثل هذين الوصفين بخلاف المضغة. وإذ قد جعلت المضغة من مبادئ الخلق تعين أن كلا الوصفين لازِمَان للمُضغة، فلا يستقيم تفسير من فسر غير المخلقة بأنها التي لم يكمل خلقها فسقطت)[1].

ومنها قول عبد الكريم يونس الخطيب[2] في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [سورة الحج: ٥]: (هذا، وتتطلع الإنسانية دائما إلى كشف هذا السرّ- سرّ الحياة- ويحاول العلماء والباحثون أن يصلوا إلى تلك الحقيقة، وأن يضبطوا قوانينها، وأن يضعوا أيديهم عليها، حتى يكون لهم أن يخلقوا ما يشاءون من مخلوقات، وأن يتحكموا فيما يخلقون.. من إناث أو ذكور، على اختلاف الألوان والصور!

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٧ - ١٩٨).

(٢) تقدمت ترجمته.

وقد أجرى كثير من العلماء تجارب عديدة في هذا المجال، وزرعوا واستنبتوا في مخابرهم خمائر للحياة.. ولكن ذلك كلّه لم يصل بهم إلى شيء مما أرادوا، وكلّ ما أمسكوا به في أيديهم، هو صور باهتة، إن دلّت على شيء، فإنما تدلّ على تأكيد هذه الحقيقة، وهي أن «الخلق» لله وحده، وأن غاية العلم، لا تتجاوز أبدا أكثر من هذه الوقفة على شاطئ الحياة، بعيدا عن لمس بحرها العميق..

إن كلّ ما يجريه العلماء من بحوث، وما يضعونه من موادّ في مخابيرهم وأنابيبهم، هو من عناصر الحياة نفسها، التي خلقها الخالق جلّ وعلا.. وأن هذه الأطياف من الحياة التي تطلّ على العلماء من مخابيرهم وأنابيبهم، إنما هي من بذور الحياة التي أوجدها الخالق، وقدّر لها سبلا تسلكها، لتثمر ثمر الحياة، فغيّر العلماء سبيلها، وعدلوا بها عن طريقها المرسوم، الذي خطّته لها القدرة الإلهية..!

فإذا نجح العلم في هذا التدبير، واستطاع أن يصل إلى شيء من صور الخلق- وهيهات- فإن ذلك لا يعدو أن يكون نبتة من نبات تلك البذرة التي أوجدها الخالق، وكل ما كان من العلم والعلماء، هو أشبه بنقل نبات من تربة غير تربته، واستنبات نوع من النبات في غير موطنه)[1].

وثمة صورة أخرى وهي تفنيد بعض ما يذكره أصحاب العلوم الكونية بما يستفاد من ظواهر الآيات القرآنية، ومن أمثلة ذلك قول الشنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [سورة الحج: ٦٥]: (هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [سورة الحج: ٦٥]، وقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [سورة فاطر: ٤١]، وقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة سبأ: ٩]، وقوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ [سورة النبأ: ١٢]، وقوله ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الذاريات: ٤٧]

(١) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٨٥ - ٩٨٦).

، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [سورة الأنبياء: ٣٢]، ونحو ذلك من الآيات، يدل دلالة واضحة، على أن ما يزعمه ملاحدة الكفرة، ومن قلدهم من مطموسي البصائر ممن يدعون الإسلام أن السماء فضاء لا جرم مبنيّ، أنه كفر وإلحاد وزندقة، وتكذيب لنصوص القرآن العظيم، والعلم عند الله تعالى)[1].

### ٣ – الاستفادة من الوقائع في استخراج الهدايات:

من المعلوم أن القرآن الكريم نزل لمعالجة واقع الناس في كل زمان ومكان، وهو يتناول بعموم عباراته وشمول آياته كل أحوال الناس إلى يوم القيامة مهما تجددت واختلفت.

وللواقع أثر في استخراج الهدايات القرآنية وبيانها، وللاستفادة منها في ذلك أمثلة متعددة، من خلال عدة أوجه:

**الوجه الأول – توجيه عموم الآية بما يلبي متطلبات الواقع:** ومن أمثلة ذلك من كلام المفسرين في تفسيرهم لسورة الحج:

قول الشنقيطي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الحج: ٢٦]: (يؤخذ من هذه الآية الكريمة: أنه لا يجوز أن يترك عند بيت الله الحرام قذر من الأقذار، ولا نجس من الأنجاس المعنوية ولا الحسية، فلا يترك فيه أحد يرتكب ما لا يرضي الله، ولا أحد يلوثه بقذر من النجاسات.

ولا شك أن دخول المصورين في المسجد الحرام حول بيت الله الحرام بآلات التصوير يصورون بها الطائفين والقائمين والركع السجود – أن ذلك مناف لما أمر الله به من تطهير بيته الحرام للطائفين والقائمين والركع السجود، فانتهاك حرمة بيت الله بارتكاب حرمة التصوير عنده لا يجوز؛ لأن تصوير الإنسان دلت الأحاديث الصحيحة على أنه حرام، وظاهرها العموم في كل أنواع التصوير، ولا شك أن ارتكاب أي شيء حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من

---

(١) أضواء البيان (٥/ ٢٩٧).

الأقذار والأنجاس المعنوية التي يلزم تطهير بيت الله منها. وكذلك ما يقع في المسجد من الكلام المخل بالدين والتوحيد لا يجوز إقرار شيء منه ولا تركه) [1].

ومن ذلك قول السعدي في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [سورة الحج: ٤٠]: (فإن قلت: نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تخرب، مع أنها كثير منها إمارة صغيرة، وحكومة غير منظمة، مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج، بل نرى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة، وأهلها آمنون مطمئنون، مع قدرة ولاتهم من الكفار على هدمها، والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لهدمت هذه المعابد، ونحن لا نشاهد دفعا.

أجيب بأن هذا السؤال والاستشكال، داخل في عموم هذه الآية وفرد من أفرادها، فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها، وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها، وداخل في حكمها، تعتبره عضوا من أعضاء المملكة، وجزء من أجزاء الحكومة، سواء كانت تلك الأمة مقتدرة بعددها أو عددها، أو مالها، أو عملها، أو خدمتها، فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب، الدينية والدنيوية، وتخشى إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها، وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصا المساجد، فإنها -ولله الحمد- في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار.

وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة، نظرا لخواطر رعاياهم المسلمين، مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصارى، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة، فتبقى الحكومة المسلمة، التي لا تقدر تدافع عن نفسها، سالمة من ضررهم، لقيام الحسد عندهم، فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها، خوفا من احتمائها بالآخر، مع أن الله تعالى لا بد أن يري عباده من نصر الإسلام والمسلمين، ما قد وعد به في كتابه.

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٢٩٨). وقد أوردت هذا النص مثالا على توجيه عموم الآية بما يلبي الواقع، وإلا فإن رأي الشيخ بهذا الإطلاق فيه نظر.

وقد ظهرت -ولله الحمد- أسبابه [بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم والشعور مبدأ العمل]، فنحمده ونسأله أن يتم نعمته، ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، أي: يقوم بنصر دينه، مخلصا له في ذلك، يقاتل في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا)[(١)].

ومن ذلك قول الشيخ أبي زهرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ [سورة الحج: ٣]: (على أي حال فالآية الكريمة عامة، ونرى هذا الصنف من الناس في كل عصر، يمضغون الحقائق بجدل عقيم يثيرونه حولها، واختص هذا الصنف من الناس اليهود الذين اتبعهم الأوربيون والأمريكان وحذوا حذوهم؛ لأن ملهمهم واحد وهو الشيطان، فتشابهوا وتشاكلوا، لوحدة المصدر.

ومن يجادلون في ذات الله على النحو الذي أشرنا إليه، كالذي جاء خبره عن النضر بن الحارث لَا يكون جدلهم قائما على علم علموه، أو رسالة بلغوها، ولكنه التقليد المجرد للمبطلين، ولذا قال تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ الشيطان هنا عام يشمل شيطان الإنس من القادة والأمراء والرؤساء الضالين المضلين، ويشمل شياطين الجن الذين يوسوسون بالشر، ويزينونه، وقوله تعالى: ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ﴾، الكلية تدل على أنهم يتبعون المنحرف من الأفكار والأقوال، فيتبعون أحيانا شياطين الوجودية، وأحيانا شياطين الشيوعية ورئيسها اليهودي، وأحيانا شياطين التحلل من كل خلق كريم)[(٢)].

ومن ذلك قول وهبة الزحيلي[(٣)] في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٧٨]: (وهو فرض كفاية على جماعة المسلمين، يجزي فيه قيام بعضهم إذا تحقق

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٩ - ٥٤٠).

(٢) زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٤٠).

(٣) وهبة الزحيلي: من الفقهاء المعاصرين، ولد في بلدة من نواحي دمشق عام ١٩٣٢م، ودرس المرحلة الثانوية في الكلية الشرعية بدمشق، ثم تابع دراسته في كلية الشريعة بالأزهر، وحصل على الشهادة العالية عام ١٩٥٦م. وحصل كذلك على الماجستير عام ١٩٥٩م من كلية الحقوق بجامعة القاهرة. ثم على شهادة الدكتوراة في الحقوق (الشريعة

المقصود، وطرد العدو، وتم دفعه عن بقية المسلمين وأموالهم وأعراضهم وبلادهم، فإن لم يتحقق ذلك كان فرض عين على كل واحد من القادرين على القتال. وهذا حينما كان الاعتماد على العنصر البشري في الحروب أمرا ضروريا وأساسيا، أما اليوم حيث تطورت وسائل القتال، فلا يصح حشد المسلمين في جبهة واحدة مثلا لحصادهم بقنبلة واحدة أو بغيرها من الوسائل الحربية الفتاكة الحديثة، وإنما ينظر الحاكم فيما يحقق المصلحة، وتقتضيه الحاجة، بعد الأخذ بوسائل الإعداد الحديثة المكافئة لما هو موجود عند الأعداء)[1].

**الوجه الثاني – تقويم الواقع من خلال ما يستفاد من دلالات آية قرآنية:** ومن أمثلة ذلك من كلام المفسرين في تفسيرهم لسورة الحج:

قول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥]: (هذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [سورة الأنفال: ٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الزمر: ٢٣]. هذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير، ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير، فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجْدٌ وخشوعٌ: إنك لم تبلغ أن تساويَ حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حال أصحابه في المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفا من الله. وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا

---

الإسلامية) عام ١٩٦٣م. وعين مدرسًا بجامعة دمشق عام ١٩٦٣م ثم ترقى إلى أن صار أستاذاً عام ١٩٧٥م. له كتب كثيرة، منها: آثار الحرب في الفقه الإسلامي، وأصول الفقه الإسلامي، ونظرية الضرورة الشرعية، والفقه الإسلامي وأدلته، والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، توفي بدمشق سنة ٢٠١٥م.

(١) التفسير المنير (١٧/ ٢٩٢).

على طريقتهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ [سورة المائدة: ٨٣]. فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم، فمن كان مستنًّا فليستنَّ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسِّهم حالا، والجنون فنون)[1].

ومن ذلك قول الألوسي في تفسير الآية السالفة: (﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥] حسبما يحصل لهم من التجلي عند ذلك، وقد يحصل من الذكر طمأنينة القلب لاقتضاء التجلي إذ ذلك، وذكر بعضهم أن لكل اسم تجليا خاصا فإذا ذكر الله تعالى حصل حسب الاستعداد ومن هاهنا يحصل تارة وجل وتارة طمأنينة وإذا لا تقتضي الكلية بل كثيرا ما يؤتى بها في الشرطية الجزئية، وقيل: العارف متى سمع الذكر من غيره تعالى وجل قلبه ومتى سمعه منه عز وجل اطمأن. ويفهم من ظاهر كلامهم أن السامع للذكر إما وجِلٌ أو مطمئنٌّ، ولم يصرح بقسم آخر، فإن كان فالباقي على حاله قبل السماع، وأكثر مشايخ زماننا يرقصون عند سماع الذكر فما أدري أن يشأ رقصهم عن وجل منه تعالى أم عن طمأنينة؟ وسيظهر ذلك يوم تبلى السرائر وتظهر الضمائر)[2].

**الوجه الثالث – فهم هداية الآية في ضوء السنن الإلهية المتكررة في الواقع:**

ومن هذه السنن سنن النصر والهزيمة، ومن أمثلة الاستفادة من الواقع في ضوء هذه السنن من كلام المفسرين في تفسيرهم لسورة الحج:

قول سيد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [سورة الحج: ٣٨]: (والنصر قد يبطئ على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله. فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله.

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ٥٩ – ٦٠).

(٢) روح المعاني (٩/ ١٥٣).

قد يبطئ النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات. فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكا لعدم قدرتها على حمايته طويلا! وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزا ولا غاليا، لا تبذله هينا رخيصا في سبيل الله.

وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر. إنما يتنزل النصر من عند الله عند ما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله.

وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل ولا تجد لها سندا إلا الله، ولا متوجها إلا إليه وحده في الضراء. وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عند ما يتأذن به الله. فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله.

وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه، أو تقاتل حمية لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها. والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله، بريئا من المشاعر الأخرى التي تلابسه. وقد سئل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى. فأيها في سبيل الله. فقال: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله))[1].

كما قد يبطئ النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصا، ويذهب وحده هالكا، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار! وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماما. فلو

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالما جالسا، ح ١٢٣، ١/ ٥٨)، واللفظ له، وأخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل، ح ١٩٠٤، ٢/ ١٥١٣ – ١٥١٣).

غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارا من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة. فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عاريا للناس، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية! وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة. فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار. فيظل الصراع قائما حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر، ولاستبقائه! من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله، قد يبطئ النصر، فتتضاعف التضحيات، وتتضاعف الآلام. مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية)[1].

**الوجه الرابع – استخراج هداية يؤكدها الواقع**: ومن أمثلة ذلك قول الفخر الرازي رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠ – ٤١]: (قد ثبت أن الله تعالى مكّن الأئمة الأربعة من الأرض وأعطاهم السلطنة عليها فوجب كونهم آتين بهذه الأمور الأربعة؛ وإذا كانوا آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر وجب أن يكونوا على الحق، فمن هذا الوجه دلت هذه الآية على إمامة الأربعة)[2].

وهذا لا يعني أن نصرة الله لهم دون سواهم، وإنما يعني أن تمكين الله لهم في الأرض وقيامهم بالأمر المعروف والنهي عن المنكر دل على أنهم منصورون من لدنه. قال الشنقيطي: (وهذه الآيات تدل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين؛ لأن الله نصرهم على أعدائهم، لأنهم نصروه فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وقد مكن لهم،

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٢٦ – ٢٤٢٧).

(٢) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي (٢٣/ ٢٣١)، وينظر البحر المحيط في التفسير (٧/ ٥١٨) حيث قال أبو حيان: (وقالوا: فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين؛ لأن الله تعالى لم يجعل التمكن ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة لغيرهم من المهاجرين لا حظ في ذلك للأنصار والطُّلَقاء).

واستخلفهم في الأرض كما قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور: ٥٥] الآية، والحق أن الآيات المذكورة تشمل أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وكل من قام بنصرة دين الله على الوجه الأكمل، والعلم عند الله تعالى)[(١)].

**المطلب الخامس: الطرق المتعلقة بمقاصد القرآن وأصول التشريع وحكمه:**

وهذه الطرق تتمثل فيما يأتي:

**أولا: مقاصد القرآن:**

أنزل القرآن الكريم لمقاصد عظيمة وغايات سامية، ويلزم الناظرَ فيه أن يستحضرها عند تفسير سوره وتدبر آياته، ومن باب أولى أنه يلزم لمن أراد استخراج الهدايات من آي سورة معينة أن يستحضر مقاصد القرآن الكريم بصفة عامة، والمقصد العام لتلك السورة.

ذلك أن معرفة مقاصد القرآن بجملته وأجزائه تعين على استنباط الهدايات الجزئية، وتدفع الناظر فيها إلى مزيد النظر والبحث لاستيفاء مكملات ولوازم لا بد منها في اكتمال الهدايات الكلية، لأنه لا يمكن التوصل إليها بالنظر إلى آيات الموضوع أو السورة مجتمعة.

ومن أمثلة أثر المقصد في استخراج الهدايات الجزئية للسورة:

استنباط أن استبطاء النصر أو اليأس منه صارفان عن التقوى والسير إليها والتحقق فيها. وقد أخذت هذه الهداية من ربط قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحج: ١٥] بمقصد السورة الذي هو الدعوة إلى التقوى وبيان معالمها وقواطعها؛ لأن كثيرا ممن أسلم يتركون دعوة الله لاستبطائهم النصر لها، أو يأسهم منها[(٢)].

---

(١) أضواء البيان (٥/ ٢٦٦).

(٢) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٣٧).

ومنها استنباط أن مرض القلوب وقسوتها من موانع التقوى حيث يقول سعيد حوّى في بيان سياق قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الحج: ٥٣- ٥٤]: (ثم الصلة بين هذه المعاني ومحور السورة واضح، فإن الدعوة عامة، ولكن السائرين قليلون، والمستجيبين قليلون، والسير على طريق العبادة والتقوى يحول دونه قسوة القلب ومرضه، والظلم والكفر والجهل)[1].

ومن أمثلة أثر المقصد في استخراج الهدايات الكلية للسورة:

استنباط هداية كلية من آيات متفرقة في سورة الحج، تتمثل في التحذير من العوارض التي تقطع على الناس طريق التقوى، فقد رأى الشيخ سعيد حوّى بنظرة شاملة مرتبطة بمقصد السورة أن وجه اتساق الآيات المتقدمة بما سبقها أن الله تعالى لما دعانا إلى تقواه عزّ وجل بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [سورة الحج: ١]، وبيّن ما يبعثنا علي سلوك طريقها بقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [سورة الحج: ١ – ٢]، نبّه على العوارض التي تقطع على الناس طريق التقوى، فذكر نموذجا من الناس يحاول أن يضل الناس عن دين الله، ويجادل في شأن الله بغير علم، والحاملُ له على ذلك الكبر، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [سورة الحج: ٨ – ٩]، وذكر جزاء هذا الصنف من الناس، تحذيرا للناس أن يكونوا مثلهم، وتحذيرا للمؤمنين أن يصرفهم هذا الصنف عن طريق التقوى: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحج: ٩]، ثم نبّه إلى قاطع آخر يقطع طريق التقوى وهو ربط الإيمان بصلاح الدنيا، فبين الخسران الذي يحيق بأولئك الذين يتركون عبادة الله إذا ما تعرضوا لشدة أو

(١) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٨٢).

محنة، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [سورة الحج: ١١][(١)].

ثم أشار إلى قاطع آخر باطني وهو الظلم والكفر والجهل وما يكون في القلوب من قسوة ومرض، فقال: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣﴾ [سورة الحج: ٥٣]؛ لأن ذلك هو المناخ الملائم لإلقاء الشيطان لوساوسه، وهي تقطع طريق العبادة والتقوى بلا شك[(٢)].

وقد زاد في موضع آخر صوارف أخرى فقال: (عالج المقطع قضية الشك في اليوم الآخر، وهي العقبة الأولى في طريق العبادة والتقوى، ثم عرض لصنف من الناس جاهل في الله، والجهل بالله من أعظم الصوارف عن التقوى لأهله وللناس، ثم عرض لصنف من الناس يعبد الله على حرف، فعالج شأنه إذ هذا الشأن من أعظم القواطع عن الاستمرار في الطريق الموصلة إلى التقوى، ثم عرض لموضوع اليأس من النصر، وهو موضوع خطير ينقطع بسببه الكثير عن السير إلى الله فعالجه معالجة طويلة...)[(٣)].

ومن ذلك إشارته – رحمه الله – أن معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ونعمه الفُضلى سبيل إلى اكتساب التقوى، وذلك عند بيان موقع الآيات التي تذكر ببعض آياته في الكون مذيلة بأسماء الله الحسنى، وهي قوله سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾ [سورة الحج: ٦٣ – ٦٦]. قال رحمه الله: (والآيات عرّفت على الله بما يستخرج العبادة والتقوى، إذ العبادة والتقوى أثر المعرفة لله، وعرَّفت على الله بما يستجيش

(١) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٣٢ و٣٥٣٤).

(٢) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٨٢ و٣٥٩٦ – ٣٥٩٧).

(٣) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٧٥).

الشكر، والعبادة والتقوى بهما يكون الشكر)[1]. وهذا ربط لهذه الآيات بمقصد السورة العام وهو الدعوة إلى التقوى.

**ثانيا: الصدور عن أصول الشريعة:**

لا شك أن المقصد من الشريعة هو تحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد، فقد جاءت لتكفل مصالحهم الضرورية والحاجية والتحسينية.

وما دام الأمر كذلك فيجب استحضار أصول التشريع عند استنباط الهدايات، لأمرين:

١ – معرفة الوجوه التي ورد عليها التشريع من الحكم والمعاني لبيانها وتعريف الناس بها.

٢ – مراعاتها عند الاستنباط والنظر في النوازل والمستجدات ليوافق الحكم المستنبط مقاصد الشرع وتنسجم مع أصوله وقواعده الكلية.

ومن أمثلة أثر معرفة أصول الشريعة في استخراج الهدايات:

قول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤]: (وقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ﴾ أي: معبودكم واحد، وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضا، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده، لا شريك له، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٢٥])[2]. أي أن الشرائع السماوية وإن اختلفت فروعها، فكلها قائمة على التوحيد، متفقة على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وألوهيته، والدعوة إلى عبادته وحده لا شريك له[3].

ومن أمثلة الصدور عن الأصول الاعتقادية لأهل السنة والجماعة، كما في قول الشنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ﴾ [سورة الحج: ٤٧]:

---

(١) الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٨٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٤).

(٣) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٤٧)، والسراج المنير (٢/ ٥٥٣)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٨).

(وأوضحنا أن ما أوعد به الكفار لا يخلف بحال، كما دلت عليه الآيات المذكورة، أما ما أوعد به عصاة المسلمين، فهو الذي يجوز ألا ينفذه وأن يعفو كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء: ٤٨])[1].

ومن أمثلة استحضار القواعد الشرعية ذلك قول السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [سورة الحج: ٧٨]: (ويؤخذ من هذه الآية قاعدة شرعية، وهي أن "المشقة تجلب التيسير"، و"الضرورات تبيح المحظورات"، فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية شيءٌ كثير معروف في كتب الأحكام)[2].

**النظر في حكم التشريع وأسراره:**

حكم التشريع وأسراره يراد بها الغايات التي من أجلها شرعت الأحكام، والنظر في حكم التشريع تنبه المتدبر إلى معان دقيقة وتعينه على استنباط هدايات رائقة.

ومن أمثلة دلالة النظر في حكم التشريع وأسراره في استخراج الهدايات:

قول الرازي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ [سورة الحج:٣٦]: (أما قوله: ﴿صَوَآفَّۖ﴾، فالمعنى: قائماتٍ قد صففن أيديهن وأرجلهن... ولا يبعد أن تكون الحكمة في إصفافها ظهور كثرتها للناظرين فتقوى نفوس المحتاجين ويكون التقرب بنحرها عند ذلك أعظم أجرا وأقرب إلى ظهور التكبير وإعلاء اسم الله وشعائر دينه)[3].

ومنها قول الكرجي في معرض الاستدلال بالآية على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: (قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [سورة

(١) أضواء البيان (٥/ ٢٧٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٢٦).

الحج: ٤٠ – ٤١] دليلٌ على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن نصرة الله لا محالة نصرة دينه. إذ هو – جل وتعالى – قوي عزيز كما قال. لا يرام فإنما الواجب على أهل دينه نصرة دينه الذي شرعه لهم، ولا وصول إليه إلا بإيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ لو كانا غير مفترضين لاتّسع القعودُ عنهما، وارتفعت المآثم في تضييعهما من أجل أن أحدًا لا يجبر على عمل تطوع، ولا يحرج بتركه، وفي ذلك زوال النصرة عن دين الله، ودخول الوَهَن عليه، وسببه قعود الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر عنه وهم قادرون على التغيير لم يجز أن يسمى نهوضهم إليه تطوعًا)[(١)].

ومنها قول أبي زهرة[(٢)] في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [سورة الحج: ٣٦]: (أي أن سوْقها في الحج من شعائر الله، وهي جمع شعيرة، وهي العبادة المعلمة التي يجمع فيها بين البينة، والإعلام بمناسك الحج؛ وذلك لأن أيام الحج كلها أيام إعلام، وإشعار بمناسك الحج، يلتقي فيها المظهر الإعلامي، وتقوى القلوب، فهي باعتبارها، وكون العبد قائما في ضيافة الله، واستشعار عظمته وجلاله في كل عمل من أعماله، وطاعته، وتكبيره، وإهلاله وترتيبه، في كل هذا تقوى القلوب؛ ولأنها مظهر حِسِّي، كانت شعيرة معلمة كالقيام والقراءة والركوع والسجود شعائر معلمة؛ ولأنها مناجاة العبد لربه كان فيها تقوى القلوب)[(٣)].

---

(١) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام (٢/ ٣٢٨ – ٣٢٩).

(٢) هو محمد بن أحمد أبو زهرة: أكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره. ولد سن ١٨٩٨هـ وتخرج من مدرسة القضاء الشرعي سنة ١٩٢٥م، وانتقل للتدريس بكلية أصول الدين سنة ١٩٣٣م، ومنها إلى كلية الحقوق جامعة القاهرة سنة ١٩٣٥، وتدرج في مراتبها إلى أن صار وكيلًا للكلية لمدة خمس سنوات انتهت ببلوغه سن التقاعد سنة ١٩٥٨م، واستمر بالتدريس بها وبغيرها إلى وفاته عام ١٩٧٤م. وكان بالإضافة إلى ذلك عضوا للمجلس الأعلى للبحوث العلمية، ووكيلا لمعهد الدراسات الإسلامية. وقد ألف أكثر من ٤٠ كتابا، منها: تاريخ المذاهب الإسلامية، والملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية، و"المعجزة الكبرى: القرآن"، ومحاضرات في النصرانية، وزهرة التفاسير، ولم يتمه. ينظر الأعلام للزركلي (٦/ ٢٥ – ٢٦).

(٣) زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٨٧).

## المبحث الرابع: إطلاقات العلماء للهدايات القرآنية وطرق تناولهم لها.

كان بعض المفسرين يوردون بعض الهدايات القرآنية في ثنايا تفسيرهم للآيات، ولكنهم كانوا يعبرون عن دلالة الآية عليها بتعابير متعددة[(١)]، نورد أهمها:

**أولا: الدلالة:** ومن أمثلة ذلك قول أبي الليث السمَرْقَنْدي[(٢)] رحمه الله (ت٣٧٣هـ) في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ [سورة الحج: ٣٦]: (والآية تدلّ على أن الإبل تنحر قائمة)[(٣)].

ومن ذلك قول الفخر الرازيّ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠ – ٤١]: (قد ثبت أن الله تعالى مكّن الأئمة الأربعة من الأرض وأعطاهم السلطنة عليها، فوجب كونهم آتين بهذه الأمور الأربعة؛ وإذا كانوا آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر وجب أن يكونوا على الحق، فمن هذا الوجه دلت هذه الآية على إمامة الأربعة)[(٤)].

---

(١) الخلاصة في تدبر القرآن الكريم (ص: ١٣).

(٢) هو أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي. الفقيه الحنفي المتصوف، المعروف بإمام الهدى. تفقه على أبي جعفر الهندواني، وهو الإمام الكبير صاحب الأقوال المفيدة، والتصانيف المشهورة. له تفسير القرآن العظيم، والنوازل في الفقه، وخزانة الفقه، وتنبيه الغافلين، وغيرها، وتوفي سنة ٣٩٣هـ. ينظر سير أعلام النبلاء (١٦/ ٣٢٢)، وتاج التراجم (ص٧٩)، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/ ٣٤٦).

(٣) بحر العلوم (٢/ ٤٦٠).

(٤) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣١)، وينظر البحر المحيط في التفسير (٧/ ٥١٨) حيث قال: (وقالوا: فيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين؛ لأن الله تعالى لم يجعل التمكن ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة لغيرهم من المهاجرين لا حظ في ذلك للأنصار والطلقاء).

ومنها قول ابن جُزَيّ رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [سورة الحج: ٤٦]: (﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الحج: ٤٦) دليلٌ على أن العقل في القلب، خلافا للفلاسفة في قولهم: العقل في الدماغ)[(١)].

**ثانيا: الإرشاد:** ومن أمثلة ذلك قول الشوكاني رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الحج: ٤٢ – ٤٤]: (وفيه إرشاد له صلى الله عليه وسلم إلى الصبر على قومه والاقتداء بمن قبله من الأنبياء في ذلك)[(٢)].

**ثالثا: الإفادة:** ومن أمثلة ذلك قول سيد طنطاوي[(٣)] رحمه الله (ت١٤٣١هـ) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ﴾ [سورة الحج: ٤٠]: (فالآية الكريمة تفيد أن الله- تعالى- قد شرع القتال لإعلاء الحق وإزهاق الباطل، ولولا ذلك لاختلّ هذا العالم، وانتشر فيه الفساد)[(٤)].

**رابعا: التبيين:** ومن أمثلة ذلك قول سيد طنطاوي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ

---

(١) التسهيل (٢/ ٤٢).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٤٢).

(٣) هو محمد سيد عطية طنطاوي، ولد سنة ١٩٢٨م، تابع دراسته بعد حفظه للقرآن الكريم في الأزهر إلى أن نال درجة الدكتوراه في التفسير سنة ١٩٦٦م، ثم عمل أستاذا بكلية أصول الدين بأسيوط، ثم رئيسا لقسم التفسير بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٩٨٠م، ثم عين مفتيا لجمهورية مصر سنة ١٩٨٦م، ثم صار شيخا للأزهر سنة ١٩٩٦م، وظل على ذلك إلى أن توفي سنة ٢٠١٠م، ودفن بالبقيع. من مؤلفاته: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، بنو إسرائيل في الكتاب والسنة، المنهج القرآني في بناء المجتمع.

(٤) التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣١٨).

عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الحج: ٤١]: (فالآية الكريمة تبين أن أولى الناس بنصر الله، هم هؤلاء المؤمنون الصادقون، الذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر)[١].

**خامسا: الإشارة:** ومن أمثلة ذلك قول الشوكاني رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٢٨]: (وفيه إشارة إلى أن القربان لا يكون إلا من الأنعام دون غيرها)[٢].

ومنها قول ابن عجيبة[٣] رحمه الله (ت١٢٢٤هـ) نقلا عن الإمام أبي القاسم القشيري رحمه الله (ت٤٦٥هـ) في قوله تعالى: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [سورة الحج: ٢٥]: (فيه إشارة إلى أن التفاوت إنما يكون في الطريق، وأما بعد الوصول فلا تفاوت)[٤].

**سادسا: الفهم:** ومن ذلك قول الكيا الهراسي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [سورة الحج: ٣٦]: (ويمكن أن يُفهَم منه تجزئة المذبوح ثلاثة أجزاء: للأكل، وإطعام القانع، والمعترّ)[٥].

---

(١) المرجع السابق (٩/ ٣١٩).

(٢) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٣٥).

(٣) هو أحمد بن محمد بن المهدي، ابن عجيبة، الحسني الأنجري: العلامة المحقق البارع المدقق، صوفي مشارك في أنواع من العلوم من أهل المغرب. توفي عام ١٢٢٤هـ. ودفن ببلدة أنجرة (بين طنجة وتطوان). له كتب كثيرة، منها: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، وأزهار البستان في طبقات الأعيان، والفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، وإيقاظ الهمم في شرح الحكم. ينظر شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (١/ ٥٧١)، وإتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع (١/ ١٠٤)، والأعلام للزركلي (١/ ٢٤٥).

(٤) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٥٢٧). ونص القشيري في لطائف الإشارات (٢/ ٥٣٧): (ومشهد الكرام يستوي فيه الإقدام، فمن وصل إلى تلك العقوة فلا ترتيب ولا ردّ، وبعد الوصول فلا زجر ولا صدّ، أمّا في الطريق فربما يعتبر التقدم والتأخر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (الحجر: ٢٤)، ولكن في الوصول فلا تفاوت ولا تباين، ثم إذا اجتمعت النفوس فالموضع الواحد يجمعهم، ولكن لكلّ حال ينفرد بها).

(٥) أحكام القرآن للكيا الهراسي (٤/ ٢٨٢).

**سابعا: الأخذ:** ومن أمثلة ذلك قول السعدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج: ٧٨]: (ويؤخذ من هذه الآية قاعدةٌ شرعية وهي أن «المشقة تجلب التيسير»، و«الضرورات تبيح المحظورات»)[١].

ومنها قول سيد طنطاوي رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥]: (ويؤخذ من هاتين الآيتين: أن التواضع لله- تعالى-، والمراقبة له- سبحانه- والصبر على بلائه، والمحافظة على فرائضه.. كل ذلك يؤدي إلى رضاه عز وجل، وإلى السعادة الدنيويّة والأخرويّة)[٢].

**ثامنا: الإيماء:** ومن أمثلة ذلك قول البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [سورة الحج: ٥]: (وحذف المفعول إيماءٌ إلى أن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وحكمته ما لا يحيط به الذكر)[٣].

ومنها قول ابن عاشور رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ [سورة الحج: ٣١]: (وهو إيماءٌ إلى أن من المشركين من شِرْكه لا يرجى منه خلاص كالذي تخطّفتْه الطير، ومنهم من شِرْكه قد يخلص منه بالتوبة، إلا أن توبته أمر بعيد عسير الحصول)[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٧).

(٢) التفسير الوسيط (٩/ ٣١٢).

(٣) تفسير البيضاوي (٤/ ٦٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٥).

ومنها قوله في موضع آخر: (وفي قوله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ٣٧] إيماءٌ إلى أن إراقة الدماء وتقطيع اللحوم ليسا مقصودين بالتعبد، ولكنهما وسيلة لنفع الناس بالهدايا)[١].

ومنها أيضا قوله عند تفسيره لخواتيم سورة الحج: (وفي هذا الترتيب إيماءٌ إلى أن الاشتغال بإصلاح الاعتقاد مقدم على الاشتغال بإصلاح الأعمال)[٢].

**تاسعا: التنبيه:** ومن أمثلة ذلك قول الزمخشري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤): (وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله أنْ يذكر اسمه)[٣].

ومنها قول ابن عاشور عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧﴾ [سورة الحج: ٧٧): (وتخصيص الصلاة بالذكر قبل الأمر ببقية العبادات المشمولة لقوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ تنبيه على أن الصلاة عماد الدين)[٤].

**عاشرا: التضمن:** ومن ذلك ما نقله القرطبي رحمه الله في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٦).

(٣) الكشاف (٣/ ١٥٣)، ونقله عنه أبو حيان في البحر المحيط (٧/ ٥٠٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٦).

﴿٤٠﴾ [سورة الحج: ٤٠]عن ابن خُوَيْز مِنداد[(١)] رحمه الله (ت٣٩٠هـ) قال: (تضمنت هذه الآية المنعَ من هدم كنائس أهل الذمة وبِيَعهم وبيوت نيرانهم...)[(٢)].

وفي معناه قول أبي حيان رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤١]: (وفي الآية أخذ العهد على من مكّنه الله أن يفعل ما رتب على التمكين في الآية)[(٣)].

**الحادي عشر: الإيذان:** ومنه قول الزمخشري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: ٤٧]: (فيه إيذان بحلم الله تعالى ووقاره واستقصاره الأمدَ الطويل، حتى إن يومًا واحدا عنده كألف سنة)[(٤)].

ومنه قول أبي السعود رحمه الله في تفسيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [سورة الحج: ١]: (وفي التعبيرِ عنها بالشيءِ إيذانٌ بأنَّ العقولَ قاصِرةٌ عنْ إدراكِ كُنهِها)[(٥)].

---

(١) محمد بن أحمد، أبو عبد الله، ابن خويز مِنداد، فقيه مالكي، تفقه بالأبهري، وعنده شواذ عن مالك، وله اختيارات وتأويلات على المذهب في الفقه والأصول، لم يرجع إليها الحذاق. له كتاب كبير في الخلاف، وكتاب في أصول الفقه، وكتاب في أحكام القرآن، (ت ٣٩٠هـ تقريبا). ينظر ترتيب المدارك (٢/ ٢١٧)، والديباج المذهب (٢/ ٢٢٩)، والوافي بالوفيات (٢/ ٥٢)، وقد انفرد بتاريخ وفاته.

(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ٧٠).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٥١٨).

(٤) حاشية الكشاف (٣/ ١٦٣)، وتعقبه ابن المنيّر بقوله: (الوقار المقرون بالحلم يفهم لغة: السكون وطمأنينة الأعضاء عند المزعجات والأناة والتُّؤَدة، ونحو ذلك مما لا يطلق على الله تعالى إلا بتوقيف. وأما الوقار في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ (نوح: ١٣)، فقد فسر بالعظمة فليس من هذا، وعلى الجملة فهو موقوف على ثبت في النقل).

(٥) تفسير أبي السعود (٦/ ٩١)، ونقله عنه عدد من المفسرين، كابن عجيبة في "البحر المديد" (٣/ ٥١٠)، والشوكاني في "فتح القدير" (٣/ ٥١٤)، والألوسي في "روح المعاني" (٩/ ١٠٨) وغيرهم.

**الثاني عشر: الغرض:** ومنه قول الألوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾: (والغرض الحث على الرضا بما قسم الله تعالى)[1].

(١) روح المعاني (٩/ ١٢٢).

# القسم الأول: الهدايات القرآنية في سورة الحج من الآية الأولى إلى آخر السورة.

# الباب الأول: مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات السورة.

## الفصل الأول: اسم السورة، وفضلها، وأحوال نزولها.

### المبحث الأول: اسم السورة.

من المعلوم للسور القرآنية أسماءً تميزها وتومئ إلى بعض ما فيها، وقد يكون للسورة اسم واحد، وقد يكون لها اسمان أو أكثر[(١)]، منها ما هو توفيقي، ومنها ما هو اجتهادي، وإذا توخينا الدقة فإن هذه الأسماء على ثلاثة أقسام[(٢)]:

الأول: ما ثبت عن النبي صلّى الله عليه وسلّم، كالبقرة وآل عمران، وهذا كثير، وقد ادعى السيوطي أن جميع أسماء السور ثبتت بالتوقيف من الأحاديث والآثار[(٣)].

الثاني: ما ثبتت تسميته عن الصحابي، كتسمية ابن عباس سورة الحشر: سورة النضير[(٤)].

الثالث: ما جاء من تسمية بعض التابعين أو من بعدهم، كتسمية سورة البينة: سورة "لم يكن".

#### المطلب الأول: تسمية السورة:

سُمِّيت هذه السورة سورةَ الحج في زمن النبي صلى الله عليه وسلم[(٥)]، فعن عقبة بن عامر الجُهَني رضي الله عنه قال: ((قلت: يا رسول الله، أُفُضِّلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: نعم...))[(٦)]. والحديث – وإن كان في سنده ضعف – فقد حسّنه بعض

---

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٦٩)، والإتقان في علوم القرآن (١/ ١٨٧).

(٢) المحرر في علوم القرآن (ص: ١٦٩).

(٣) ينظر الإتقان (١/ ١٨٧).

(٤) ينظر صحيح البخاري (كتاب المغازي، باب حديث بني النضير، ح ٣٨٠٥، ٤/ ١٤٧٨)، و(كتاب التفسير، سورة الحشر، ح ٤٦٠١، ٤/ ١٨٥٢).

(٥) التحرير والتنوير (١٧/ ١٧٩).

(٦) أخرجه أحمد في مسنده بهذا اللفظ (٤/ ١٥١، رقم ١٧٤٠٢) و(٤/ ١٥٥ رقم ١٧٤٤٨)، وأبو داود بنحوه في سننه: (كتاب الصلاة، باب تفريع أبواب السجود، ح ١٤٠٢، ٢/ ٥٨)، بلفظ: (قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أفي سورة الحج سجدتان؟) والترمذي في سننه: (أبواب السفر، باب في السجدة في الحج، ح ٥٧٨،

المحدثين[1]، ويشهد له ما روي عن خالد بن مَعْدانَ مُرسَلاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((فُضِّلت سورةُ الحج على القرآن بسجدتين))[1]. وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال:

---

٤٧٠/٢)، وقال: (إسناده ليس بذاك القوي)، ولكن الشيخ أحمد شاكر صححه، وناقش رجالَ إسناده تفصيلا. وأخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب الصلاة، حديث عبد الوهاب، ح ٨٠٥، ٣٤٣/١)، و(كتاب التفسير، تفسير سورة الحج، ح ٣٤٧٠، ٢/ ٤٢٣) وقال: (هذا حديث لم نكتبه مسندا إلا من هذا الوجه، وعبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضْرمي أحد الأئمة، إنما نُقم عليه اختلاطه في آخر عمره). وقد أشار النووي إلى ضعفه في "خلاصة الأحكام" (٢/ ٦٢٥ رقم ٢١٥٣) فقال: (وهو من رواية ابن لهيعة، وهو ضعيف بالاتفاق لاختلال ضبطه). وتعقب ابن كثير كلام الترمذي في تفسيره (٣/ ٢١١) فقال: (وفي هذا نظر، فإن ابن لهيعة قد صرح فيه بالسماع، وأكثر ما نقموا عليه تدليسه)، والحق أنه ضُعِّف لاختلاطه بعد احتراق كتبه، لكن الراويَ عنه عبد الله بن وهب سمع منه قبل ذلك، وحديثه عنه صحيح كما نص عليه عبد الغني الأزدي وغيره كما في "المجروحين" لابن حبان (٢/ ١١)، و"سير أعلام النبلاء" (٨/ ١٤ و٢١)، و"التهذيب" (٥/ ٣٧٨). وللحديث علة أخرى، فقد ذكر ابن الملقن في "البدر المنير" (٢٥٣/٤) أن في سنده كذلك مِشرَح بن هاعان وهو "لا يحتج به، قال ابن حبان: انقلبت عليه صحائفه؛ فكان يحدث بما سمع من هذا عن ذاك وهو لا يعلم). ولكن الألباني أورده في صحيح أبي داود (٥/ ١٤٨)، وقرر بأن كلام ابن حبان لا يُنزل حديثه عن مرتبة الحسن؛ لأنه لما أورده في "الثقات" (٥/ ٤٥٢ رقم ٥٦٧٧) قال: (يخطئ ويخالف)؛ وقد وثقه جمع كابن معين وغيره. والحاصل أن الشطر الأول للحديث يوجد ما يشهد له، والذي يُنكر في هذا الحديث هو قوله: ((من لم يسجدهما فلا يقرأهما))، فهذا مما انفرد به، وهو ضعيف، والله أعلم. ولذلك قال محققو المسند (٢٨/ ٥٩٣) في حكمهم على الحديث: (حسن بطرقه وشواهده دون قوله: ((فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما)).

(١) أكده الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٣) فقال: (وقد صحت الرواية فيه من قول عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود وأبي موسى، وأبي الدرداء وعمار رضي الله عنهم)، وفي هذا شاهد قوي لرفع الحديث، لأنه لا يؤخذ ذلك إلا عن توقيف، وأكده البيهقي بما رواه في "معرفة السنن والآثار" من طريق خالد بن معْدان مُرسَلا، وكذلك ابن الصلاح، فقد نقل عنه ابن الملقن في "البدر المنير" (٤/ ٢٥٦) أنه قال في «مشكله»: (في إسناده من لا حجة فيه...لكنْ له شاهد يقويه، وقد روي ذلك عن جماعة من الصحابة). وكذلك قوّاه ابن الملقن (٤/ ٢٥٦) فقال: (ولا ينتهي إلى هذا كله؛ بل هو قوي لشاهده وأقوال الصحابة). وقال الحافظ الذهبي: (صحت الرواية في هذا من قول عمر وطائفة). وكذلك الألباني فهو وإن ضعفه في "ضعيف الجامع الصغير" (ص: ٥٨٠ رقم ٣٩٨٢)، إلا أنه تراجع عن ذلك، وقد قال في تخريج "مشكاة المصابيح" (١/ ٣٢٤ رقم ١٠٣٠) لما ذكر تضعيف الترمذي قال: (والظاهر أنه من أجل أن فيه ابن لهيعة، وهو ضعيف من قبل حفظه، لكن الراويَ عنه عند أبي داود عبدُ الله بن وهب، وحديثه عنه صحيح كما نص عليه بعض الأئمة، فالحديث صحيح).

((أقرأني النبي صلى الله عليه وسلم خَمْسَ عشْرة سجدةً في القرآن، منها ثلاث في المفصَّل، وفي سورة الحج سجدتان))[٢]. وهذه الأحاديث كلها تدل على أن هذه التسمية توقيفية، وأنها كانت جارية على ألسنة الصحابة رضي الله عنهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

وليس لهذه السورة اسمٌ غيرُ هذا الاسم[٣]. وهي السورة الوحيدة التي سميت بِرُكن من أركان الإسلام، وهو الحج، ولم تُسمَّ سورة من سور القرآن غيرُها بمثل ذلك[٤].

**المطلب الثاني: وجه تسمية سورة الحج بهذا الاسم:**

من المعلوم أنه (ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به)[٥] ما دام اسمها توقيفيًّا، وقد جرت أسماء سور القرآن الكريم على ما جرت عليه العرب في تسمية الكثير من المسميات، كأخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء، من خلقٍ أو صفة تخصه، أو

---

(١) أخرجه أبو داود في "المراسيل" (كتاب الطهارة، باب ما جاء في السجود، ح ٧٨، ص ١١٣)، وأبو عبيد في "فضائل القرآن" (ص ١٨٠)، وذكره البيهقي في السنن الكبرى (كتاب الصلاة: باب سجدتي سورة الحج، رقم ٣٥٤٥، ٤٤٩/٢)، و"معرفة السنن والآثار" (١٥٣/٢)، وقال: (وهذا المرسل إذا ضم إلى رواية ابن لهيعة صار قويا). وقد جود الألباني إسناده في صحيح أبي داود – الأم (٥/ ١٤٨). وقال محققو مسند أحمد ط. الرسالة (٢٨/ ٥٩٤): (وهو مرسل رجاله ثقات).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه: (كتاب الصلاة، باب تفريع أبواب السجود وكم سجدة في القرآن، ح ١٤٠١، ٥٨/٢)، وابن ماجه في سننه: (كتاب إقامة الصلاة، باب عدد سجود القرآن، ح ١٠٥٧، ٣٣٥/١)، وأخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب الصلاة، باب خمس عشرة سجدة في القرآن، ح ٨١١، ٣٤٥/١)، وقال: (رواته مصريون، قد احتج الشيخانِ بأكثرهم). وفي سنده عبد الله بن مُنَيْن، لم يوثقه غير يعقوب بن سفيان، ولم يرو عنه سوى الحارث بن سعيد العتقي، وهو مجهول لا يعرف كما في "ميزان الاعتدال" (١/ ٤٣٤)، ولذلك ضعفه عبد الحق الإشبيلي وابن القطان في "بيان الوهم والإيهام" (٣/ ١٥٩)، وقال ابن عبد الهادي في "تنقيح التحقيق" (٣٣٥/٢): (وإسناد الحديث لا بأس به، لكن عبد الله بن مُنين فيه جهالة). ولكن لبعضه شاهد من حديث عقبة، وحسّن إسنادَه المنذريُّ في "مختصر سنن أبي داود" (٢/ ١١٧)، والنووي في "الخلاصة" (٢/ ٦٣٠ رقم ٢١٣٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ١٧٩).

(٤) ينظر خواطر قرآنية، للأستاذ عمرو خالد (ص ٢٤٧).

(٥) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٧٠).

تكون معه أحكم، أو أكثر، أو أسبق لإدراك الرائي للمسمّى، وكتسمية الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها[(١)].

ولا شكَّ أن المتأمل في أسماء السور يجد لطائف من العلم[(٢)]، وتبرز له مناسبات بديعة تزيده إيقانا بإحكام القرآن الكريم وحِكْمة المتكلم به سبحانه.

ووجه تسمية هذه السورة ب: "سورة الحج" أن الله تعالى ذكر فيها كيف أمر رسوله إبراهيم عليه السلام بالتأذين في الناس ودعوتهم إلى حج البيت الحرام حين انتهى من بنائه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الحج: ٢٧]، ولما تضمنته من ذِكْر بعض مناسك الحج وأحكامه والتنويه بمنافعه وأهمية تعظيم شعائره وغير ذلك، مما يشير إلى مقاصده وأسراره[(٣)].

ولكن ينبغي أن نشير هنا إلى أن سورة الحج نزلت قبل أن يفترض اللهُ تعالى عبادةَ الحجّ[(٤)] على المسلمين بالاتفاق؛ لأن الحج إنما فُرِض بالآيات التي في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [سورة آل عمران: ٩٧]، وذلك في أواخر سني الهجرة، فكمل به بناء الدين[(٥)].

---

(١) ينظر المصدر السابق (١/ ٢٧٠).

(٢) ينظر المحرر في علوم القرآن (ص: ١٧١).

(٣) ينظر محاسن التأويل للقاسمي (٧/ ٢٢٩)، والتحرير والتنوير (١٧/ ١٧٩)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٢)، والتيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٥٣)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٦٧)، والتفسير المنير (١٧/ ١٤٨)، وتفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (١٨/ ٢٣١).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٧٩).

(٥) ينظر نظم الدرر (٣/ ١٥). وقد ذكر القرطبي في تفسيره (٤/ ١٤٤) الاختلاف في وقت فرض الحج على ثلاثة أقوال، فقال: (فقيل: سنة خمس. وقيل: سنة سبع. وقيل: سنة تسع)، ورجح ابن القيم في "زاد المعاد في هدي خير العباد" (٢/ ٩٦) أن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر، وعلله بقوله: (لأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود، وفيه قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم وصالحهم على أداء الجزية، والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع، وفيها نزل صدر سورة آل عمران، وناظر أهل الكتاب ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة، ويدل عليه أن

أما في سورة البقرة فقد أشار الله تعالى إلى أنه مشروع، وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه[1]، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [سورة البقرة: ١٩٦] ثم شرع في بيان بعض مناسكه ابتداءً من قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [سورة البقرة: ١٩٧]، إلى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٣].

ومع ذلك كله فقد اختصت سورة الحج بهذا الاسم دون غيرها. ولا عجب، فإن الحج شعيرة تعبدية، شرعت في شريعة إبراهيم عليه السلام، وبقيت مستمرة إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم، والعرب جميعا كانوا يعرفونه، ولكنهم بدلوا أعظم أركانه وهو توحيد الله تعالى وإفراده بهذه القُرْبة؛ ولذلك جاءت هذه السورة لتُذكِّر المشركين بأصل قصة بناء البيت الحرام، وأن المقصد من ذلك هو التقرب إلى الله تعالى وحده بالطواف والعكوف والركوع والسجود، ويمتنّ عليهم بما أنعم الله عليهم به من منافع، وأن الله تعالى هو الذي ينبغي أن يُتقرَّب إليه وحده، كما يُحَجّ إلى بيته وحده، وأنه ينبغي أن يُعَظّم كما تُعظّم شعائرُه، وأن الناس يجب أن يحجوا إليه ويقصدوا بابه ويطلبوا رضاه وحده بظواهرهم وبواطنهم وقلوبهم وقوالبهم.

والظاهر من اسم "الحج" أن المراد به هو ما يتبادر إلى الذهن عند إطلاقه، وهو حقيقته الشرعية التي يفهم منها القربة المعروفة ذات الطواف والسعي والوقوف بعرفة. وقد يراد بها المعنى

---

أهل مكة وجدوا في نفوسهم على ما فاتهم من التجارة من المشركين لما أنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ (التوبة: ٢٨)، فأعاضهم الله تعالى من ذلك بالجزية. ونزول هذه الآيات، والمناداة بها، إنما كان في سنة تسع، وبعث الصديق يؤذن بذلك في مكة في مواسم الحج، وأردفه بعلي رضي الله عنه، وهذا الذي ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف. والله أعلم).

(١) ينظر زاد المعاد (٢/ ٩٦)، وأسرار ترتيب القرآن (ص: ٥٣).

اللغوي، وهو القصد إلى مُعظَّم، وهو الله تبارك وتعالى[(١)]، وهذا المعنى حاضر في عبادة الحجّ، مبثوث في الأوامر الإلهية الأخرى الواردة في هذه السورة.

وإنما اختصت هذه السورة بهذا الاسم لأنها تشتمل على أكثر أحكام الحج، ولأن عبادة الحج في هذه السورة هي العماد الذي يقوم عليه مقصود السورة، بخلاف ذكر الحج في سورتي البقرة وآل عمران، فإنما ذكر فيها الحج على سبيل التتمة والتكميل والتفريع لمحاور السورة الكبرى، والله تعالى أعلم.

فسورة الحج تتضمن موضوعاتٍ متعددة، ولكن لها صلة بشعيرة الحج، فقد تحدثت في مطلعها عن البعث ويوم القيامة، والحج كأنه صورة مُصغَّرة من يوم القيامة[(٢)]، وحالُ الحجيجِ عند إفاضتهم يشابه حالَ الناس عند بعثهم من قبورهم، وهيئةُ الحُجّاجُ وهم يلبسون ملابسَ الإحرام تذكِّر بحال الناس إذا بُعثوا من مراقدهم وعليهم ما تبقى من أكفانهم، واجتماعُهم في عرفات وغيرها يذكِّر باجتماع الناس على صعيد واحد يوم القيامة، ووقوفهم في ذلك الموضع على هيئة واحدة – لا فرق بين شريف ووضيع ولا بين غني وفقير – يماثل حالهم عند انتظار الحساب، وازدحامُهم تحت وهَج الشمس اللافحة وما يعانونه من شدة الحر وغزارة العرق يشبه حالَ ازدحام الخلق يوم العرض حيث تُدْنى الشمس من رؤوسهم، ويكون العرَق بقدر أعمالهم[(٣)]، ومنظرُهم وهم يدْعون ويبتهلون إلى الله تعالى كمنظرهم وهم ينتظرون الحساب[(٤)].

---

(١) ينظر العين (٣/ ٩)، ومعاني القرآن للزجاج (١/ ٤٤٧)، ومقاييس اللغة (٢/ ٢٩)، وجمهرة اللغة لابن دريد (١/ ٨٦)، وتهذيب اللغة (٣/ ٢٥٠)، والصحاح (١/ ٣٠٣)، والمحكم والمحيط الأعظم (٢/٤٨٠)، ولسان العرب (٢/ ٢٢٦).

(٢) ينظر تفسير النسفي (٢/ ٤٣٦ – ٤٣٧)، والتفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠١٨).

(٣) ينظر الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب صفة الجنة، باب صفة يوم القيامة، ح ٢٨٦٤، ٤/٢١٩٦)، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((تُدْنى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل...فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حِقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما، وأشار رسول الله – صلى الله عليه وسلم- بيده إلى فيه)).

(٤) ينظر خواطر قرآنية، للأستاذ عمرو خالد: (ص ٢٤٧ – ٢٤٩).

كما تحدثت السورة عن الجهاد، والحجُّ نوع من أنواع الجهاد الذي يُقصَد به إعلاء كلمة الله تعالى، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((جهادُ الكبير والصغير والضعيف والمرأة: الحجُّ والعُمرة))[(١)]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ألا نخرج فنجاهد معك، فإني لا أرى عملاً في القرآن أفضلَ من الجهاد، قال: ((لا، ولكن أحسن الجهاد وأجمله، حجُّ البيت، حج مبرور))[(٢)].

من جهة أخرى فإن سياق سورة الحج يدور على إثبات التوحيد وإبطال الشرك واستنكار صنيع المشركين، فالحج يعبر عن التوحيد، وقد جاء التفصيل في بعض القضايا المتعلقة بالحج ردا على تلك الأوهام التي تصور بقاء شعيرة الحج في الإسلام على أنها من بقايا الجاهلية، وهي في الوقت نفسه ترد على مزاعم الذين يدعون أن الحج في الإسلام ما هو إلا استمرار لطقوس الحج عند العرب قبل الإسلام[(٣)].

أما في سورة البقرة فقد جاء ذكر الحج ضمن مجموعة من التشريعات التي تبين معالم الصراط المستقيم الذي تكفلت السورة ببيانه، وتفاصيل التشريع الذي اقتضاه كونُ المسلمين جماعةً متميزة عن غيرها في عبادتها ومعاملاتها وعاداتها.

فقد ذكر الله سبحانه الحجَّ ضمن أحكام كثيرة في السورة بعد آية البِرّ، بدءًا بحكم القصاص في القتل العمد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ [سورة البقرة: ١٧٨] ومرورا بأحكام الوصية والصيام والاعتكاف، والتحذير من أكل أموال الناس بالباطل، وبعدما بيّن تعالى حكمة خلق الأهلّة، وأنّها جُعلت ليَعتمِد الناس عليها في أوقات

---

(١) أخرجه النسائي في سننه: (كتاب الحج، باب فضل الحج، ح ٢٦٢٦، ٥/ ١١٣)، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه النسائي في سننه: (كتاب الحج، باب فضل الحج، ح ٢٦٢٨، ٥/ ١١٤)، وإسناده صحيح. وأصله في صحيح البخاري (كتاب الجهاد والسير، باب جهاد النساء، ح ٢٧٢٠، ٣/١٠٥٤) بلفظ: استأذنتُ النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد، فقال: ((جهادُكنَّ الحجُّ)).

(٣) ينظر الحج في دراسة السياق القرآني: د. عماد الدين رشيد، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد ٢٧، عدد الأول، ٢٠١١م (ص ٣٣٥ و٣٣٧).

العبادة وغيرها، ذكر أحكام الحجّ والعمرة، بعد أن تطرق السياق إلى ذكر القتال وسببه الذي يدعو إليه، وغايتِه التي ينتهي إليها[1]، ثم ذكر الخمر والميسر واليتامى، وحكم مصاهرة المشركين، وذكرت حيض النساء والتطهر منه، والطلاق والعدّة والخلع والرّضاع، وذكر الأيمان وكفّارة الحنث فيها، ثم ذكر الإنفاق في سبيل الله، ثم انتهى السياق ببيان حرمة الربا وطرق الاستيثاق في الديون بالكتابة والاستشهاد والرهن[2].

وقد تميزت سورة البقرة أنها ذكرت طائفة من أحكام الحج لأن الفترة المدنية زمنُ تشريع؛ ولأن الدين أوشك على الاكتمال، فلا بد من بيان أحكام الركن الخامس منه، وقد فتح المسلمون حينئذٍ مكة أو كادوا، وسيُمكّنون من حج بيت الله الحرام دون أن يصدهم عنه أحد. أما سورة الحج فقد نزل كثير من آياتها في مكة والمسلمون مأمورون بتثبيت دعائم العقيدة في النفوس والثبات عليها أمام إيذاء المشركين، وعباداتُ الجوارح لم يقعْ تفصيلُها بعد، فاقتصر الله تعالى على التنبيه إلى صلة الحج بالتوحيد وبيانِ ما وراءه من منافعَ تحمل العقلاء على الإقرار بها وشُكر الله عليها، وأشار إلى سوء صنيع المشركين حين عظموا الأصنام التي أحاطوا بها الكعبةَ المشرفة وتقربوا إليها بالأضاحي من الأنعام التي خلقها الله لهم. وما كان يقع من حج النبي

---

(١) قال البقاعي في "نظم الدرر" (٣/ ١٢٤): (ولما ختم آيات القتال بالنفقة في سبيل الله لشدة حاجة الجهاد إليها وكان سبيل الله اسماً يقع على الحج كما يقع على الجهاد كما ورد في الحديث ((الحج من سبيل الله)) رجع إلى الحج والعمرة المشير إليهما ﴿ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ (البقرة: ١٢٥)، و قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ ﴾ (البقرة: ١٥٨) الآية، و ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾، ولا سيما وآيات القتال هذه إنما نظمت ههنا بسببهما توصيلاً إليهما وبعضها سببه عمرة الحديبية التي صدّ المشركون عنها، فكان كأنه قيل: مواقيت للناس والحج فحجوا واعتمروا، أي تلبّسوا بذلك وإن صُددتم عنه، وقاتلوا في سبيل الله من قاتلكم في وجهكم ذلك لينفتح لكم السبيل، ولما كان ذلك بعد الفتح ممكناً لا صادّ عنه عبّر بالإتمام فقال: ﴿ وَأَتِمُّواْ ﴾ أي بعد فتح السبيل بالفتح ﴿ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ ﴾ بمناسكهما وحدودهما وشرائطهما وسننهما).

(٢) ينظر الموسوعة القرآنية خصائص السور (١/ ٤٦).

صلى الله عليه وسلم والمسلمين قبل نزول هذه الآية، فإنما كان تقربًا إلى الله، واستصحابًا للحنيفية[1].

أما ذِكْر الحج في سورة آل عمران فقد جاء تتمةً للكلام عن البيت الحرام الذي جاء في سياق الرد على اليهود والنصارى الذين كانوا يدّعون أنهم يتبعون ملة إبراهيم عليه السلام، مع أنهم كانوا يتركون أعظم شعائره التي سنّها وهو الحج: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾ [سورة آل عمران: ٦٥ – ٦٨] ثم أمرهم بعد جملة من التوجيهات الإلهية باتباعه عليه السلام فقال: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٥﴾ [سورة آل عمران: ٩٥]. ومِن أظهرِ شعائر دين إبراهيم عليه السلام الحجُّ إلى البيت الذي بناه في مكة بأمر ربه، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [سورة آل عمران: ٩٦ – ٩٧].

قال أبو حيّان الأندلسي رحمه الله[2] في توجيه مناسبة آية الحج لسوابقها من الآيات: (ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، وهو أنه لما أمر تعالى باتباع ملة إبراهيم وكان حجُّ البيت

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (٤/ ٢١).

(٢) هو أبو حيان محمد بن يوسف بن علي ابن حيان، أثير الدين الغرناطي. الإمام الحافظ العلامة، وإمام النحاة في عصره. نشأ بالأندلس وطلب العلم بها إلى أن أقرأ في حياة شيوخه، ثم رحل إلى المشرق وأخذ عن علمائه، ودرّس بمدارس مصر والشام ومساجدها. وكان عارفا باللغة، إماما مجتهدا في النحو والتصريف، خدم هذا الفن أكثر عمره، وله يد طولى في التفسير والحديث، وتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم. توفي بالقاهرة سنة ٧٤٥هـ. من كتبه "البحر المحيط" في التفسير، و"التذييل والتكميل في شرح التسهيل"، و"ارتشاف الضرَب من لسان العرَب". ينظر الوافي بالوفيات (٥/ ١٧٥)، والدرر الكامنة (٦/ ٥٨)، وبغية الوعاة (١/ ٢٨٠ – ٢٨٥).

من أعظم شعائر ملة إبراهيم ومن خصوصيات دينه، أخذ في ذكر البيت وفضائله ليبني الحج ووجوبه. وأيضا فإن اليهود حين حوّلت القبلة إلى الكعبة طعنوا في نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: بيت المقدس أفضل وأحق بالاستقبال لأنه وضع قبل الكعبة، وهو أرض المحشر، وقبلة جميع الأنبياء، فأكذبهم الله في ذلك بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٦]، كما أكذبهم في دعواهم قبل: إنما حرم عليهم ما كان محرما على يعقوب من قبل أن تنزل التوراة، وأيضا فإن كل فرقة من اليهود والنصارى زعمت أنها على ملة إبراهيم، ومن شعائر ملته حجُّ الكعبة، وهم لا يحجونها، فأكذبهم الله في دعواهم تلك)[(١)].

ومن جهة أخرى: فإن عدد آيات سورة البقرة هو ٢٨٦ آية في عد الكوفيّين[(٢)]، وعدد الآيات المتصلة التي ذكرت فيها أحكام الحج ٧ آيات، والآيات التي فيها إشارة للحج في مواضع أخرى هي ٣ آيات، فالمجموع ١٠ آيات من ٢٨٦ آية، أي بنسبة ٣،٤٩%.

أما سورة آل عمران فعدد آياتها ٢٠٠ آية بإجماع العادِّين[(٣)]، وعدد الآيات التي ذكر فيها شأن الحج آيتان، أي بنسبة ١%.

أما سورة الحج فعدد آياتها ٧٨ في عد الكوفيين[(٤)]، وعدد آيات الحج فيها ثلاث عشْرة آية، أي بنسبة ١٦،٦٦%. فإذا ضممْنا هذا الأمر إلى ما تقدم ذكره فإن هذه السورة أولى أن تسمى بهذا الاسم. وهذا الوجه وإن كان غير مطرد في جميع السور، إلا أنه يؤيد ما تقدم في أحقية سورة الحج بهذا الاسم، والله تعالى أعلم.

---

(١) البحر المحيط في التفسير (٣/ ٢٦٧).

(٢) بصائر ذوي التمييز (١/ ١٣٣).

(٣) بصائر ذوي التمييز (١/ ١٥٨).

(٤) المصدر السابق (١/ ٣٢٣)، أما عند غيرهم فقد قال الداني في "البيان" (ص: ١٨٩): (وهي سبعون وأربع آيات في الشامي، وخمس في البصري، وست في المدنيّيْن، وسبع في المكي، وثمان في الكوفي).

**المطلب الثالث: مناسبة اسم سورة الحج لمقصودها ومضمونها:**

قرر العلامة البِقاعي رحمه الله أن اسمَ كلِّ سورةٍ مترجِمٌ عن مقصودها[1]؛ (لأن اسم كل شيء تُظْهِر المناسبةُ بينه وبين مسماه عنوانَه الدالَّ إجمالا على تفصيل ما فيه)[2].

ومقصد السورة على وجه الإجمال هو" الدعوة إلى تقوى الله تعالى ظاهرا وباطنا"، كما دل عليه مطلع هذه السورة المباركة حيث قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ١]، والحج من أعظم العبادات التي يُكتسَب بها التقوى، ولذلك كان جزاء الحج المبرور هو الجنة، وقد قال الله تعالى في شأن الحج: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [سورة البقرة: ١٩٧][3].

وكذلك فإن اسم سورة الحج مناسب لمضمونها، فقد تضمنت الدعوةَ إلى توحيد الله تعالى، وفي الحج يتجلى توحيد الله تعالى بهذه القُربة، وتضمنت السورةُ إثباتَ البعث واليوم الآخر، والحجُّ يذكِّر بمشهد يوم القيامة، وتضمنت تعظيمَ الله تعالى، والحجُّ تجتمع فيه كثير من مظاهر تعظيمِ الله عز وجل وتعظيمِ شعائره ومحرماته. وقد بين تعالى أن الحجّ لا بد أن ينطوي على تعظيم شعائر الله ليكون دليلا على التقوى فقال: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [سورة الحج: ٣٢].

---

(١) نظم الدرر (١/ ١٩)، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١/ ٢٠٩).

(٢) نظم الدرر (١/ ١٩).

(٣) ينظر الفصل الأول من البحث.

## المبحث الثاني: فضائل السورة.

الفضائل جمع فضيلة، وفضائل السورة ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضلها وفضل تلاوتها، وتشمل ما ورد في فضل بعض آياتها. ومعرفة هذه الفضائل ترغب في ترداد تلاوة تلك السورة، وتحفز على تدبرها. ولنذكر في هذا المبحث ما ورد من ذلك في سورة الحج.

### المطلب الأول: فضل سورة الحج

لم يذكر جُلّ المفسِّرين في فضل سورة الحج شيئا إلا أنها هي السورة الوحيدة من بين سور القرآن الكريم التي جمعت بين سجدتين من سجدات التلاوة، سجدةً في أولها، عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الحج: ١٨]، وسجدةً في آخرها، عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة الحج: ٧٧]، فقد روي عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: ((نعم، فمن لم يسجدْهما فلا يقرأهما))[(١)]. وقد تقدم لنا أن في إسناده مقالا، ولكنه معتضد بغيره من الأحاديث التي سبق ذكرها في المبحث الأول، وبآثار الصحابة رضي الله عنهم، فقد ثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه صلى بالناس صلاة الصبح، فقرأ سورة الحج، فسجد فيها سجدتين، ثم قال: (إنّ هذه السورةَ فُضِّلت على السور بسجدتين)[(٢)]، وعن زِرّ بن حبيش رضي الله عنه قال: (سجد عمر وعثمان رضي الله عنهما في

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: (كتاب الصلوات، باب من قال في الحج سجدتان، وكان يسجد فيها مرتين، ح ٤٢٨٧، ١/ ٣٧٢)، وإسناده صحيح، وأبو عبيد في فضائل القرآن: (باب فضل سورة الحج وسورة النور، ص٢٤٨)، وعزاه السيوطي كذلك في الدر (٦/ ٣) إلى سعيد بن منصور وابن مردويه والبيهقي. وأورد الإمام مالك

الحج سجدتيْن)[1]. وعن نافع أن عمر وابن عمر رضي الله عنهما كانا يسجدان في الحج سجدتين[2]، قال: وقال ابن عمر رضي الله عنهما: (لو سجدت فيها واحدة كانت السجدة الآخرة أحب إليّ)[3]، قال: وقال ابن عمر رضي الله عنهما: (إن هذه السورة فُضِّلت بسجدتين)[4]. وعن عبد الله بن دينار رحمه الله قال: (رأيت ابن عمر يسجد في الحج سجدتين)[5]. وكان ابن عمر أكثر الصحابة اقتداء واتباعا للنبي صلى الله عليه وسلم[6].

وقد جاء عن عددٍ من الصحابة الكرام أنهم يسجدون في هذه السورة سجدتين، منهم عليٌّ وعبد الله بن مسعود وأبو الدرداء وعبد الله بن عمرو بن العاص وزِرّ بن حُبَيْش، رضي الله عنهم[7].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (فُضِّلت سورة الحج بسجدتين)[1]. وقال: (قد كان قوم يركعون ويسجدون في الأخيرة كما أُمِروا)[2]. أما ما يُروى عنه أنه قال في سجود

---

أثرين عن عمر وابنه أنهما سجدا سجدتين في الحج. ينظر الموطأ: (كتاب الصلاة، باب الآيات التي يؤثر السجود فيها وإذا قرأها في الصلاة سجد فيها، ٢٣٥/١).

(١) فضائل القرآن للمستغفري (٢/ ٨١٢ رقم ١٣١٣).

(٢) فضائل القرآن للمستغفري (٢/ ٥٧٣ رقم ٨٣٦) و(٢/ ٨٠٦ رقم ١٣٠٦).

(٣) كذا روى عبد الرزاق في مصنفه (كتاب فضائل القرآن، باب كم في القرآن من سجدة، ح ٥٨٩٠، ٣/ ٣٤١)، وأخرج أبو عبيد نحوه في فضائله (باب فضل سورة الحج وسورة النور، ص٢٤٩) بلفظ: (لو كنت تاركا إحداهما لتركتُ الأولى).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (كتاب فضائل القرآن، باب كم في القرآن من سجدة، ح ٥٨٩١، ٣/ ٣٤١)، وإسناده صحيح.

(٥) أخرجه مالك في الموطأ: (كتاب القرآن، باب ما جاء في سجود القرآن، ١/ ٢٠٦)، ومن طريقه عبد الرزاق (كتاب فضائل القرآن، باب كم في القرآن من سجدة، ح ٥٨٩٠، ٣/ ٣٤١).

(٦) ينظر أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٣٠٨).

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: (كتاب الصلوات، باب من قال في الحج سجدتان، وكان يسجد فيها مرتين، ح ٤٢٨٩ و٤٢٩١ و٤٢٩٢، و٤٢٩٣ و٤٢٩٦، ١/ ٣٧٣)، وإسناده صحيح. وينظر المهذب في اختصار السنن الكبير للحافظ الذهبي (٢/ ٧٥٥ – ٧٥٦).

الحج: (الأولى عَزْمة[٣]، والأخرى تعليم) فضعيف[٤]. وقال أبو إسحق السَّبِيعي رحمه الله: (أدركتُ الناسَ منذ سبعين سنة يسجدون في الحج سجدتين)[٥]. فهذه الشواهد يشدُّ بعضها بعضا.

ولم يختلف السلف وفقهاء الأمصار في السجدة الأولى من الحج أنها موضع سجود، وإنما اختلفوا في الثانية[٦]، فمِمّن قال بأن فيها سجدتين: ابنُ المبارَك، والشافعيُّ، وأحمد، وإسحاق بن راهويْهِ، والليث بن سعْد، وأبو ثور، وداودُ الظّاهريُّ، والطبريُّ، رحمهم الله[٧]، وكذلك ابن وهب وابن حبيب من المالكية[٨]، رحمهم الله جميعا.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه من طريق أبي العالية (كتاب فضائل القرآن، باب كم في القرآن من سجدة، ح ٥٨٩٤، ٣/ ٣٤٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه: (كتاب الصلوات، باب من قال في الحج سجدتان، وكان يسجد فيها مرتين، ح ٤٢٩٠، ١/ ٣٧٣)، وأخرجه أبو عبيد كذلك في فضائله كذلك (باب فضل سورة الحج وسورة النور، ص ٢٤٨)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (كتاب التفسير، تفسير سورة الحج، ح ٣٤٧٢، ٢/ ٤٢٣) عن ابن عباس بلفظ: (في الحج سجدتان)، كما في نصب الراية (٢/ ١٨٠).

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائله (باب فضل سورة الحج وسورة النور، ص٢٤٩).

(٣) في "الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف" لابن المنذر (٥/ ٢٦٥ رقم ٢٨٤٨) بلفظ: (عزيمة).

(٤) ذكره البيهقي بسنده في "معرفة السنن والآثار" (٣/ ٢٤٥ رقم ٤٤٣٤)، وضعّفه لأنه من رواية عبد الأعلى الثعلبي، وينظر الكلام عنه في "تقريب التهذيب" (ص: ٣٣١، رقم ٣٧٣١).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: (كتاب الصلوات، باب من قال في الحج سجدتان، وكان يسجد فيها مرتين، ح ٤٢٩٥، ١/ ٣٧٣)، وإسناده صحيح.

(٦) ينظر أحكام القرآن للجصّاص (٥/ ٥٥)، وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٥/ ٤٥٤).

(٧) ينظر الإشراف على مذاهب العلماء لابن المنذر (٢/ ٢٨٦ – ٢٨٧)، والاستذكار (٢/ ٥٠٦)، والمغني لابن قدامة (١/ ٤٤٢).

(٨) ينظر التبصرة للخمي (٢/ ٤٢٥)، وشرح التلقين (١/ ٧٩٢). ومن متأخري المالكية ابن العربي كما ذكر ذلك في أحكام القرآن (٣/ ٣٠٧).

وقال أبو حنيفة ومالك وسفيانُ الثوريُّ رحمهم الله: إنّ الآية الثانية ليست آية سجدة. وقد روي ذلك عن سعيد بن جبير والحسن البصري والنخَعي وجابر بن زيد[1] رحمهم الله[2]، وجاء ذلك في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما[3].

والسجود المذكور في هذه الآية هو سجود الصلاة، لا سجود التلاوة، ولكن مع ذلك يشرع سجود التلاوة هنا لما ورد في الأحاديث والآثار المتقدمة؛ قال ابن القيم رحمه الله: (فإرادة سجود الصلاة بآية السجدة لا تمنع كونها سجدة، بل تؤكدها وتقوّيها.

يوضحه أن مواضع السجدات في القرآن نوعان: إخبار، وأمر؛ فالإخبار خبر من الله تعالى عن سجود مخلوقاته له عموما أو خصوصا، فسُنّ للتالي والسامع وجوبًا أو استحبابًا أن يتشبه بهم عند تلاوة آية السجدة أو سماعها، وآيات الأوامر بطريق الأوْلى. وهذا لا فرق فيه بين أمر وأمر، فكيف يكون الأمر بقوله: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ ۩ ٦٢﴾ [سورة النجم: ٦٢] مقتضيا للسجود دون الأمر بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ [سورة الحج: ٧٧]، فالساجد إما متشبه بمن أخبر عنه، أو ممتثل لما أُمِر به، وعلى التقديريْن يُسنّ له السجود في آخر الحج كما يُسنّ له السجود في أولها؛ فلما سوّت السنةُ بينهما سوّى القياسُ الصحيح والاعتبارُ الحقُّ بينهما.

وهذا السجود شرعه الله ورسوله عبوديةً عند تلاوة هذه الآيات واستماعها، وقُربةً إليه، وخضوعًا لعظمته، وتذلُّلا بين يديه، واقترانُ الركوع ببعض آياته مما يؤكد ذلك ويقويه، لا يضعفه ويوهيه، والله المستعان)[1].

---

(١) هو: جابر بن زيد الأزدي اليحمدي مولاهم، البصري، المعروف بأبي الشعثاء، كان عالم أهل البصرة في زمانه، وفي طبقة الحسن البصري وابن سيرين، ومن كبار تلاميذ ابن عباس، كان لبيبًا مجتهدًا في العبادة، توفي سنة ٩٣هـ. ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/ ١/ ١٣٠)، والتاريخ الكبير (١/ ٢/ ٢٠٤)، و"حلية الأولياء" (٣/ ٨٥)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٤٨١)، و"تهذيب التهذيب" لابن حجر (٢/ ٢٧٩).

(٢) ينظر الإشراف (٢/ ٢٨٧)، والاستذكار (٢/ ٥٠٦)، والمغني (١/ ٤٤٣).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (كتاب الصلوات، باب من قال هي واحدة وهي الأولى، ح ٤٢٩٧، ١/ ٣٧٣).

فالحق أن السجود حيث ثبت، فليس من مقتضى خصوص معنى في تلك الآية؛ لأن دلالة الآية غير مقيدة بحال التلاوة البتة، بل إنما يثبت ذلك بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قوله، فلا مانع من كون الآية دالة على فرضية سجود الصلاة. ومع ذلك يشرع السجود عند تلاوتها، لما ثبت من الرواية فيه، والله أعلم[٢].

وقد ذكر بعضُ المفسّرين في فضل سورة الحج حديثًا آخر، وهو ما ذكره الثعلبي[٣] رحمه الله (ت٤٢٧هـ) رحمه الله بسنده مرفوعا من حديث أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه الطويل: ((من قرأ سورة الحج أُعطِيَ من الأجر كحجّة حجّها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي))[٤]، ونقله الزمخشري رحمه الله أيضا بغير إسناد[٥]، وذكر الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ)[٦] رحمه الله أن بعض المفسرين يذكرونه بزيادة: (...ويُكتب له بعدد كلّ واحد

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ٢٩٥).

(٢) ينظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٦/ ٣١٥).

(٣) هو أحمد بن محمّد بن إبراهيم أبو إسحاق النيسابوري الثعلبي، المقرئ المفسِّر الواعظ الأديب الثقة الحافظ، كان أحد أوعية العلم، رأسًا في التفسير والعربية، متين الديانة. له الكشف والبيان عن تفسير القرآن" ويعرف بتفسير الثعلبي، وكتاب عرائس المجالس في قصص الأنبياء، ت٤٢٧هـ. ينظر وفيات الأعيان (١/ ٧٩)، وإنباه الرواة (١/ ١١٩)، والوافي بالوفيات (٧/ ٣٠٧).

(٤) الكشف والبيان (٧/ ٥). وقد رواه الواحدي (ت٤٦٨هـ) بالسند نفسه في التفسير الوسيط (٣/ ٢٥٧ رقم ٦٢٧)، وذكر الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف (٢/ ٣٩٦) أن ابن مردويه رواه في تفسيره بسنديْه في آل عمران.

(٥) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ١٧٣).

(٦) هو أبو طاهر، محمد بن يعقوب، مجد الدين الشيرازي الفيروزابادي، من أئمة اللغة والأدب، ولد سنة ٧٢٩، رحل في طلب العلم حتى استقر به المقام في زبيد وتولى قضاءها، وأكرمه ملكها الأشرف، ومن أشهر كتبه: "القاموس المحيط"، وله "بصائر ذوي التمييز"، وغيرها. توفي سنة ٨١٧ ينظر: الضوء اللامع (١٠/ ٧٩)، والبدر الطالع (٢/ ٢٨٠).

منهم حجَّة وعمرة، وله بكلِّ آية قرأَها مثلُ ثواب مَنْ حَجّ عن أَبويه)[1]. ولكن هذا الحديث موضوع باتفاق أهل العلم، كما ذكر العلامة ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير[2].

وقد أضاف بعض المعاصرين فضيلة أخرى لسورة الحج، وهي أنها من المثاني التي أُوتيها النبي – صلى الله عليه وسلم – مكان الإنجيل[3]: فقد حدث واثلة بن الأسقع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، ومكان الإنجيل المثاني ...))[4]، وهي سمة ترتبط بالقسم الذي تنتمي إليه سورة الحج من أقسام القرآن الأربعة، وفي عدّها فضيلةً لها شيء من التسامح، والله أعلم.

□

(١) بصائر ذوي التمييز (١/ ٣٢٨).

(٢) (ص ٣١). قال ابن الجوزي في "الموضوعات" (١/ ٢٤٠): "حديث فضائل السور مصنوع بلا شك، وفى إسناد الطريق الأول بديع. قال الدارقطني: وهو متروك، وفى الطريق الثاني مخلد بن عبد الواحد. قال ابن حبان: منكر الحديث جدا، ينفرد بمناكير لا تشبه أحاديث الثقات، وقد اتفق بديع ومخلد على رواية هذا الحديث عن علي بن زيد، وقد قال أحمد ويحيى: علي بن زيد ليس بشيء. وبعد هذا فنفس الحديث يدل على أنه مصنوع؛ فإنه قد استقرأ السور، وذكر في كل واحدة ما يناسبها من الثواب بكلام ركيك في نهاية البرودة لا يناسب كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم). وينظر المنار المنيف في الصحيح والضعيف (ص: ١١٣)، والأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (ص: ٤٧٥)، والفتح السماوي في تخريج أحاديث القاضي البيضاوي، للمناوي (٢/ ٨٥٢ رقم ٧٣٠).

(٣) موسوعة فضائل سور وآيات القرآن – القسم الصحيح، محمد بن رزق بن طرهوني (٢/ ١٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٠٧/٤، رقم ١٧٠٢٣). قال الهيثمي في المجمع (٤٦/٧): (فيه عمران القطان، وثقه ابن حبان وغيره وضعفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات)، والتحقيق أنه صدوق يهِم. وقد تابعه سعيد بن بشير عن قتادة به: أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٧٥/٢٢، رقم ١٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٦٥/٢، رقم ٢٤١٥ مكرر)، وسعيد بن بشير ضعيف من قبَل حفظه. وقد أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٩٧) من طريق اللَّيث بن أبي سليم، وهو ضعيف، والحديث بمجموع طرقه لا ينزل عن درجة الحسن. وقد صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٤٦٩، رقم ١٤٨٠). والمثاني هي السور التي تقل آياتها عن مائة آية باستثناء سور المفصل.

## المبحث الثالث: أحوال نزول السورة.

المراد بأحوال نزول السورة ما يشمل زمانَ نزولها، ومكانَ تنزّل آياتها، والجوَّ العام وقت نزولها[1]. ولنتحدث عن ذلك في المطالب الآتية:

### المطلب الأول: مكان نزول آيات سورة الحج:

تعدّ سورة الحج (من أعاجيب سور القرآن، لأنها نزلت ليلًا ونهارا، وفيها مكيّ ومدنيّ، وسفريّ وحضريّ، وحربيّ وسِلميّ، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه)[2].

وقد نزلت آياتها (في مواطن مختلفة)[3]، ولذلك اختلف المفسرون: هل هي مكية أو مدنية؟ حتى إن ابن عطيةَ وابن الجوزي حكَيا في ذلك ستةَ أقوالٍ[4]. والتحقيق الذي عليه جمهور المفسرين أنها مختلطة[5]، بعضها مكيٌّ، وبعضها مدنيّ.

فقد روى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها مكية كلُّها، غير آيتين نزلتا بالمدينة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ [سورة الحج: ١١]، والّتي تليها[1]،

---

(١) ينظر دليل الكتابة في رسائل الموسوعة: ص ٨.

(٢) الناسخ والمنسوخ لهبة الله بن سلامة المقري (ص: ١٢٦). وقد فصل هذا الإجمال فقال: (فأما المكي منها فمن رأس الثلاثين منها إلى آخرها، وأما المدني منها فمن رأس خمسة عشر إلى رأس ثلاثين، وأما الليلي منها فمن أولها إلى رأس خمس آيات، وأما النهاري فمن رأس خمس إلى رأس تسع، وأما السفري فمن رأس تسع إلى رأس تسع إلى اثنتي عشرة، وأما الحضري منها فإلى رأس العشرين نسبت إلى المدينة لقرب مدته، وتحتوي على ثلاث آيات منسوخات)، وهذا التفصيل تعوزه الآثار التي استند إليها.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٠٥)، وزاد المسير (٣/ ٢٢٠) وتفسير القرطبي (١٢/ ١).

(٥) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٠٥)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٥١٣)، وتفسير المنار (٧/ ٢٤٠)، وهو ما رجحه ابن القيم في "زاد المعاد" (٣/ ٦٤)، وينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٠)، حيث قال ابن عاشور: (ليس هذا القول مثل ما يكثر أن يقولوه في بضع آيات من عدة سور: أنها نزلت في غير البلد الذي نزل فيه أكثر السورة المستثنى منها، بل أرادوا أن كثيرا منها مكي، وأن مثله أو يقاربه مدني، وأنه لا يتعين ما هو مكي منها وما هو مدني، ولذلك عبروا بقولهم: هي مختلطة).

وروي عنه رضي الله عنه أنه قال: (سورة الحج نزلت بمكة سوى ثلاث آيات منها، فإنهنّ نزلن بالمدينة... وهُنّ: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [سورة الحج: ١٩]. إلى تمام الآيات الثلاث)[٢]. وروي مثل هذا عن مجاهد، إلا أنهما لم يذكرا أين انتهت هذه الآيات[٣]، وروي عن عطاء بن يسار أنها مكية إلا أربع آيات منها، تبتدئ بقوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [سورة الحج: ١٩]، وتنتهي بقوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾ [سورة الحج: ٢٤][٤]، وبهذا قال الثعلبي في تفسيره، إلا أنه ذكر أنها ست آيات[٥]، ويبدو أن الخلاف إنما هو في العدّ[٦]. وعدّ النقاش[٧] (ت٣٥١هـ) ما نزل بالمدينة عشر آيات[٨]، وهذا يقتضي أن ما سواها مكي.

---

(١) زاد المسير (٣/ ٢٢٠).

(٢) رواه أبو جعفر النحاس بسنده في "الناسخ والمنسوخ" (ص: ٥٦١).

(٣) البيان للداني (ص: ١٨٩)، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٢٠) أن عطاء بن السّائب رحمه الله قال: (نزلت بمكة إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة: ﴿هذانِ خَصْمان﴾ واللتان بعدها)، والظاهر أن قائل ذلك هو عطاء بن يسار، والله أعلم.

(٤) البيان في عد آيِ القرآن (ص: ١٨٩)، وبهذا قال مَكّي بن أبي طالب القيسي رحمه الله (ت٤٣٧هـ) في الهداية الى بلوغ النهاية (٧/ ٤٨٣٣).

(٥) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٥).

(٦) فالكوفيون يعدون قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾ [الحج: ١٩] آية، ويعدون قوله تعالى: ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠﴾ [سورة الحج: ٢٠] آيةً، خلافا للباقين. ينظر البيان (ص: ١٨٩).

(٧) محمد بن الحسن بن محمد، أبو بكر النقاش: كان إمام أهل العراق في القراءات والتفسير، وكان في مبدأ أمره يتعاطى نقش السقوف والحيطان فعرف بالنقاش. ولد ببغداد سنة ٢٦٦هـ ونشأ بها، وسمع الحديث بالشام ومصر والجزيرة وما وراء النهر. كان يُقصد في قراءة ابن كثير وابن عامر لعلو إسناده، إلا أنه مع جلالته ونبله متروك ليس بثقة. من تصانيفه "شفاء الصدور المهذب في تفسير القرآن"، و"الإشارة في غريب القرآن"، و"الموضح في معاني القرآن". ت٣٥١ هـ. ينظر وفيات الأعيان (٤/ ٢٩٨)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٥٧٣)، وطبقات المفسرين للداودي (٢/ ١٣٥).

(٨) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٥).

وقد أخرج ابن مَرْدويه[(١)] رحمه الله (ت٤١٠هـ) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (نزلت سورة الحج بالمدينة)[(٢)]، وأخرج عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما مثله[(٣)]. وقد عُدَّت السورة الخامسة بعد المئة في ترتيب نزول سور القرآن في رواية جابر بن زيد رحمه الله[(٤)]، وجاء في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت بعد سورة النور، ونزلت بعدها سورة "المنافقون"[(٥)]. وهذا يقتضي أنها عنده مدنيةٌ. وعدَّها كذلك عَليّ ابْن أبي طَلْحَة رحمه الله من السور التي نزلت بِالمدينة[(٦)].

وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها مدنية إلا أربع آيات نزلت بمكة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٥٢]، إلى آخر الأربع[(٧)]، وهو قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾ [سورة الحج: ٥٥]. وروي مثل هذا عن قتادة رحمه الله[(٨)].

---

(١) أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهاني، أبو بكر، ويقال له ابن مردويه الكبير: محدث، حافظ، مفسر، مؤرخ، ولد سنة ٣٢٣هـ. قال الذهبي: "عمل المستخرج على صحيح البخاري، وكان قيما بمعرفة هذا الشأن، بصيرا بالرجال، طويل الباع، مليح التصانيف...فهما يقظا متقنًا، كثير الحديث جدًّا". منها "التفسير الكبير"، و"التاريخ"، و"الأبواب"، و"الشيوخ". ت٤١٠ هـ. ينظر الكامل (٩/ ٣١٣)، والسير (١٧/ ٣٠٨)، وطبقات المفسرين للداوودي (١/ ٩٤).

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦/ ٣).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) البيان للداني (ص: ١٣٧).

(٥) رواه ابن الضريس في "فضائل القرآن" (ص: ٣٣ رقم ١٧). وروي ذلك أيضا عن ابن شهاب الزهري في "الناسخ والمنسوخ وتنزيل القرآن" المنسوب له (ص: ٤٢)، وروي عن جابر بن زيد كما رواه الداني في "البيان" (ص: ١٣٧).

(٦) رواه أبو عبيد في "فضائل القرآن" (ص: ٣٦٥) وعلق عليه ابن كثير في تفسيره (١/ ١٩) و"فضائل القرآن" له (ص: ٣٩) فقال: (هذا إسناد صحيح عن ابن أبي طلحة مشهور، وهو أحد أصحاب ابن عباس الذين رووا عنه التفسير). وروي مثله عن قتادة، ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٩٨) وعزاه إلى أبي بكر ابن الأنباري.

(٧) زاد المسير (٣/ ٢٢٠).

(٨) الدر المنثور (٦/ ٣) وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر.

ويشهد لنزول هذه الآيات بمكة ما ورد عن سعيد بن جبير رحمه الله أنه قال: ((قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة "النجم"، فلما بلغ هذا الموضع: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة النجم: ١٩ – ٢٠]. قال: فألقى الشيطان على لسانه: "تلك الغرانيق العُلى، وإن شفاعتهنّ تُرتَجى". قالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم. فسجد وسجدوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٥٢]))[(١)]، وفي رواية عنه: (إلى قوله: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة الحج: ٥٥][(٢)]. وهذا ما صرح به ابن القيم رحمه الله[(٣)].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٥٠٠، رقم ١٣٩٩٨)، ونقله عنه ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٤٢).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٦٠٧)، وهو إن كان مرسلا، إلا أن (سنده صحيح) كما قال السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٥)، ولباب النقول (ص ١٥٠)، ويشهد له:

١ – ما أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٥٣/١٢ رقم ١٢٤٥) والبزار في مسنده (١١/ ٢٩٦ رقم ٥٠٩٦)، وقال: (وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل عنه يجوز ذكره إلا بهذا الإسناد...)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ٢٣٤ رقم ٢٤٧) وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما نحوه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٥/٧ رقم ١١٣٧٦): (رواه البزار والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح، إلا أنّ الطبراني قال: لا أعلمه إلا عن ابن عباس عن النبي – صلى الله عليه وسلم)، وقال السيوطي في الدر (٦/ ٦٥): (رجاله ثقات).

٢ – ما أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٦٠٧) عن أبي العالية مرسلاً بنحوه، و(سنده صحيح) كما قال السيوطي في الدر (٦٨/٦).

٣ – ما أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢١/٩ رقم ٨٣١٦) عن عروة بن الزبير مرسلاً بمعناه، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٢/٧): (وفيه ابن لهيعة، ولا يحتمَل هذا من ابن لهيعة).

٤ – ما أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٦٠٤) عن محمد بن كعب القُرَظي مرسلاً مطوّلاً بمعناه، وإسناده ضعيف لضعف ابن حميد، وفيه ابن إسحاق، وهو مدلس، وقد عنْعن.

ومع ذلك فقد ضعف هذه القصةَ بعضُ المحدثين كالبيهقي وابن خزيمة كما نقل الرازي في تفسيره (٢٣٧/٢٣)، وأطال القاضي عياض في توهينه في "الشفا" (١٢٤/٢ – ١٣٢)، وألف الألباني رسالة فيه بعنوان: "نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق".

(٣) قال في زاد المعاد (٣/ ٦٤): (وسياق السورة يدل على أن فيها المكي والمدني، فإن قصة إلقاء الشيطان في أمنية الرسول مكية، والله أعلم).

وقد وردت هذه القصة من طرق متعددة وبألفاظ مختلفة، أغلبها مرسل[(١)]، وبعضها لا يخلو من نكارة، ولكنها بمجموعها تدل على أن أصل القصة ثابت كما أشار الحافظ ابن حجَر رحمه الله (ت٨٥٢هـ)[(٢)] في "الفتح"[(٣)]. وسجود المشركين معه عند قراءته صلى الله عليه وسلم سورة النجم في الصحيح[(٤)].

والحق الذي لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم تجْرِ على لسانه تلك الكلمات، فإن الأمة أجمعت (فيما طريقه البلاغُ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه، لا قصدًا ولا عمدًا ولا سهوًا ولا غلَطًا)[(٥)]، ولو جوّزنا ذلك لارتفع الأمان عما يبلغه إلينا من الوحي[(٦)]. وإنما اغتنم الشيطانُ سكتةَ النبي صلى الله عليه وسلم بين الآيات، ونطق بتلك الكلمات على وزنها، محاكيًا نغمتَه صلى الله عليه وسلم في التلاوة، ف (أوقع في مسامع

---

(١) تنظر هذه الطرق بتفصيل في "أنيس الساري في تخريج وتحقيق الأحاديث التي ذكرها الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري" (٥/ ٣٨٠٣ - ٣٨١٠).

(٢) أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، المعروف بابن حجر، إمام الحفاظ في زمنه، انتهت إليه معرفة الرجال وعلل الحديث، تولى القضاء مرات بمصر، وزادت مصنفاته في الحديث والتاريخ وغيرها على ١٥٠ كتابا، أشهرها فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ت ٨٥٢هـ). ينظر ترجمته في الضوء اللامع: (٢/ ٣٦ – ٤٠)، وشذرات الذهب: (٧/ ٢٧٠ – ٢٧٣)، والبدر الطالع: (١/ ٨٧ – ٩٢).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٨/ ٤٣٩). وقد رد رحمه الله على من ضعف القصة مطلقا فقال: (وجميع ذلك لا يتمشى على القواعد؛ فإنّ الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أنّ لها أصلا، وقد ذكرتُ أنّ ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسَل، وكذا من لا يحتجّ به لاعتضاد بعضها ببعض).

(٤) أخرج البخاري في صحيحه (كتاب سجود القرآن، باب ما جاء في سجود القرآن وسنتها، ح ١٠١٧، ١/ ٣٦٣)، ومسلم في صحيحه (كتاب المساجد، باب سجود التلاوة، ح ٥٧٦، ١/ ٤٠٥) عن ابن مسعود – رضي الله عنه –: (أن النبي – صلى الله عليه وسلم– قرأ ﴿ وَٱلنَّجۡمِ ﴾ فسجد فيها، وسجد من كان معه، غير أن شيخا من قريش أخذ كفا من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا...)، وأخرج البخاري (١/٣٦٤ رقم ١٠٢١) عن ابن عباس – رضي الله عنهما –: (أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– سجد بـ (النجم)، وسجد معه المسلمون والمشركون، والجن والإنس).

(٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ١٢٣).

(٦) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٨ و٢٣٩).

المشركين ذلك، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس كذلك في نفس الأمر، بل إنما كان من صنيع الشيطان، لا من رسول الرحمن صلى الله عليه وسلم، والله أعلم)[1].

وقد ثبت عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٥٢]: (إذا حدّث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته)[2]، (أي يسمع الكفار ما ألقى الشيطان ولا يسمعه المؤمنون؛ لأنه ليس للشيطان على المؤمنين من سلطان)[3].

وروي عن قتادة رحمه الله أنه قال: بلغني أن أبيّ بن كعب رضي الله عنه كان يقول: (أربع آيات نزلت في يوم بدر هذه إحداهنّ: ﴿يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾ [سورة الحج: ٥٥]...)[4]. ولكن هذه العبارة لا تنص على أنها نزلت بسببها، وإنما نزلت تخبر بشأنها، وتحذر المشركين منها.

وقد رد بعض العلماء المعاصرين ذلك، وقال: (وما قاله بعض العلماء بأن هذه الآيات الأربع نزلت بين مكة والمدينة بعيد عن الثبوت، إذ لا مناسبة بينهما وبين ما وقع في الطّريق أثناء الهجرة، وكذلك لا يصح القول بأنها نزلت يوم بدر، لأنه لا يجوز أن يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾ [سورة الحج: ٥٥] الآية المارّة، لأنه من المعلوم أنهم في مرية بعد يوم بدر، كما أن ما جاء في تفسير بعض المفسرين بأن هذه

---

(١) تفسير البغوي (٥/٣٩٤)، ونقله عنه ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٤٣ -٤٤٤). وينظر لطائف الإشارات للقشيري (٢/٥٥٤)، وكشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١/ ٢٧٤)، والفتح (٨/ ٤٤٠).

(٢) رواه البخاري في صحيحه معلقا: (كتاب التفسير، باب سورة الحج، ٨/ ٢٩٢)، ووصله الطبري بسند حسن في تفسيره (١٦/ ٦٠٩)، دون الجزء الأخير ((فيبطل...)) الخ.

(٣) الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور (٣/ ٤٢١).

(٤) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٤١٠ رقم ١٩٤٨).

السّورة مكية عدا الآيات الخمس ١٢ و ١٣ و ٤٠ و ٤١ و ٧٨ والآيات من ٢٠ إلى ٢٥ غير سديد؛ لأن الحج لم يفرض بمكة، والحوادث المشيرة إليها بعض الآيات منها لم تقع في مكة، ومن المعلوم أن كل ما نزل بعد الهجرة يسمى مدنيا، كما أن كلّ ما نزل قبلها يسمى مكيا. واعلم أن السّبب الدّاعي لعدّها مكية بدؤُها بـ﴿يا أيها النّاس﴾، وتكرار هذه اللّفظة بها أربع مرات، وإن هذه من مميزات المكي على المدني على أننا أشرنا في المقدمة بأن المكيَّ لا يوجد فيه﴿يا أيها الّذين آمنوا﴾ البتة، والمدني لا يخلو من لفظ ﴿يا أيها النّاس﴾، وإشارة بعض الآيات إلى أحوال أهل مكة، وإلّا في الحقيقة هي مدنية عدا الآيات الأربع التي نحن بصددها، وأنهنّ على القول نزلن بعد سورة النّجم كما أشرنا إليه آنفا في هذه السّورة وفي سورة النّجم أيضا، كما هو الواقع، والله أعلم)[(١)].

وقد ذكر بعضهم – وعلى رأسهم مقاتلُ بن سليمان رحمه الله (ت١٥٠هـ) – أن ابتداء نزول سورة الحج كان في غزوة بني المصْطَلِق[(٢)]. فقد ذكر رحمه الله أن مطلع السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ [سورة الحج: ١ – ٢]. نزلت في غزوة بني المصطلق، ولذلك عُدّت من الآيات المدنية في السورة.

وقد ذكر العلماء أن من سورة الحج ما نزل في السفر، والمؤكد أن الآية الأولى منها نزلت أثناء سفره صلى الله عليه وسلم، ويدل على ذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١﴾ [سورة الحج: ١] على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسير له، فرفع بها صوته حتى ثاب إليه أصحابه، ثم قال: ((أتدرون أي يوم هذا؟ يوم يقول الله جل وعلا لآدم: يا آدم، قم فابعث بعث النار، مِن كل

(١) بيان المعاني، لعبد القادر آل غازي العاني (٦/ ١٨٥ – ١٨٦).

(٢) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١١١)، وجمال القراء وكمال الإقراء للسخاوي (١/ ١٢٩)، وبصائر ذوي التمييز (١/ ١٠٢).

ألف تسعَ مائةٍ وتسعة وتسعين))؛ فكبُر ذلك على المسلمين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((سدِّدوا وقاربوا وأبشروا، فوالذي نفسي بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو كالرقمة في ذراع الدابة، وإن معكم لخليقتيْن ما كانتا مع شيء قطُّ إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من كفَرة الجن والإنس))[1].

وجاء تعيين مقدار ما نزل عليه صلى الله عليه وسلم في رواية الترمذي عن عمران بن حصين رضي الله عنه، ((أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [سورة الحج: ١]، إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [سورة الحج: ٢]، قال: أنزلت عليه هذه الآية وهو في سفر، فقال: أتدرون أي يوم ذلك؟...)) الحديث[2]. وقد أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه نحو هذا الحديث دون تصريح بالآية، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبّيْك وسعديْك، والخير بين يديك، فيقول: أخرج بعث النّار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كلّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. فعنده يشيب الصغير، وتضع كلّ ذات حمل

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة، باب ذكر الإخبار عن وصف قلة أهل الجنة في كثرة أهل النار، ح ٧٣٥٤، ١٦/ ٣٥٢)، وقال محققه: (صحيح على شرط الشيخين). وأخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب الأهوال، ح ٨٦٩٢، ٤/ ٦١٠). وصححه على شرط الشيخين. ومسند أبي يعلى الموصلي (٥/ ٤٣٠ رقم ٣١٢٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٩٤/١٠): (ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن مهدي، وهو ثقة).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: (كتاب التفسير، باب ومن سورة الحج، ح ٣١٦٨، ٥/ ٣٢٢) وقال: (هذا حديث حسن صحيح، قد روي من غير وجه عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم). وقد أخرجه كذلك أحمد في مسنده بلفظ: ((حتى بلغ آخر الآيتين)) (٤٣٥/٤، رقم ١٩٩١٥)، والطبراني في الكبير (١٤٤/١٨، رقم ٣٠٦)، والحاكم في المستدرك بلفظ: "وقرأ أبو موسى إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [الحج: ٢]): (كتاب الأهوال، ح ٨٦٩٥، ٤/ ٦١١)، ووافقه الذهبي.

حملها، وترى الناس سُكارى وما هم بسُكارى ولكنّ عذاب الله شديد. قالوا: يا رسول الله، وأيّنا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإنّ منكم رجلا ومن يأجوج ومأجوج ألفًا...))[1].

ولكن لم يرِدْ تعيين هذا السفر في أي من هذه الروايات، وإنما جاء في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت ليلا في غزوة بني المصطلق، ولكن إسنادها واهٍ[2]. وهذه الغزوة كانت في سنة أربع أو خمس للهجرة، وعمران بن حصين رضي الله عنه لم يُسلم إلا عام خيبر في السنة السابعة للهجرة[3]، فإما أن يكون عمران رضي الله عنه قد رواه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أو غيره من الصحابة ولم يصرح بذكره، وإما أن تكون الآية نزلت قبل ذلك، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها في ذلك السفر، وذكّر بها الصحابة رضي الله عنهم كما يُفهم من قول عمران رضي الله عنه في رواية: (كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فتفاوت بين أصحابه في السير، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بهاتين الآيتين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [سورة الحج: ١]، إلى قوله:

---

(١) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في صحيحه (كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، ح ٣١٧٠، ٣/١٢٢١)، وكرره في مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب قوله: (يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، ح ٢٢٢، ١/٢٠١).

(٢) ذكر السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦) أن ابن مردويه أخرجه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، العجاب في بيان الأسباب (١/ ٢٠٩) والكلبي اتهموه بالكذب، وقد مرض فقال لأصحابه في مرضه: (كل شيء حدثتكم عن أبي صالح كذِب). ينظر ترجمته في "ميزان الاعتدال" (٣/ ٥٥٦-٥٥٩) و"التهذيب" (٩/ ١٧٨)، و"التقريب" (ص٤٧٩).

(٣) ينظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/ ١٢٠٨)، والإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٥٨٥).

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [سورة الحج: ٢]، فلما سمع ذلك أصحابه حثّوا المطِيّ[١] وعرفوا أنه عند قول يقوله، فقال: «هل تدرون أي يوم ذلك»؟...))[٢]، والله أعلم.

وقد نظر بعض المفسرين إلى أسلوب الآية، فوجدها أشبه ما تكون بأسلوب السور المكية؛ قال الشيخ محمد عِزّت دروزة رحمه الله (ت١٤٠٤هـ): (وأسلوب الآيتين من الأساليب المكية، وصلتهما قويّة بالآيات التالية لهما التي تذكر البعث وارتياب الناس وجدَلهم فيه، وتبرهن على قدرة الله تعالى عليه حتى ليصحّ أن يقال إنهما مقدمة لما بعدهما. مما يجعلنا نستبعد نزولهما في العهد المدني، ونرجّح نزولهما في العهد المكي، ونفسّر ما جاء في الروايات بأن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها عليهم في أثناء الغزوة، وفي موقف أو ظرف شاءت حكمته أن يذكر أصحابه بهول يوم القيامة ويعظهم ويبشرهم ويطمئنهم في الوقت نفسه، فالتبس الأمر على الرواة)[٣].

ومن قال بأن هذه الآيات مكية لأنها استهلت بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [سورة الحج: ١]، فإنما أخذ بضابط أسلوبي مروي عن السلف، ولكنه أغلبي، ولكن لا يتعين أن تكون مكية. قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: (ويشبه أن يكون أولها نزل بمكة؛ فإن افتتاحها ب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [سورة الحج: ١] جارٍ على سَنن فواتح السور المكية. وفي أساليب نظم كثير من آياتها ما يلائم أسلوب القرآن النازل بمكة. ومع هذا فليس الافتتاح ب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ بمعيّن أن تكون مكية، وإنما قال ابن عباس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يراد به المشركون؛ ولذا فيجوز أن يوجه الخطاب به إلى المشركين في المدينة في أول مدة حلول النبي صلى الله عليه وسلم بها، فإن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [سورة الحج: ٢٥] يناسب أنه نزل بالمدينة حيث صد المشركون النبي والمؤمنين عن البقاء معهم بمكة. وكذلك قوله:

---

(١) قال صاحب تحفة الأحوذي (٩/ ١٠): (أي حضُّوها، والمطي جمع المطية، وهي الدابة تمطو في سيرها، أي تجد وتسرع في سيرها).

(٢) سنن الترمذي: (كتاب التفسير، باب ومن سورة الحج، ح ٣١٦٩، ٥/ ٣٢٣)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح).

(٣) التفسير الحديث (٦/ ١٠).

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٩ – ٤٠] فإنه صريح في أنه نزل في شأن الهجرة)[١].

ومن الآيات التي يظهر بأنها نزلت في مكة قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [سورة الحج: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [سورة الحج: ٨]، وقد ذكر كثير من المفسرين أنها نزلت في النضر بن الحارث، بل إن ابن عاشور جزم بأنها مكيةٌ لا محالة[٢].

**المطلب الثاني: آيات سورة الحج التي نزلت بالمدينة النبوية:**

من الآيات التي يظهر أنها نزلت بالمدينة قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الحج: ١١]. والظاهر أن هذه الآية نزلت بالمدينة، ويدل على ذلك أن ابن عباس رضي الله عنهما قال في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ﴾: (كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاما ونُتِجَت خيلُه قال: هذا دين صالح، وإن لم تَلِد امرأته ولم تُنْتَج خيلُه قال: هذا دين سوء)[٣]. وقوله هذا وإن لم يكن صريحا في السببية إلا أنه يفيد أن أوائل مدة مقام الصحابة بالمدينة هو الحال الذي نزلت في شأنه هذه الآيات. وأصرح منه ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عنه رضي الله عنهما بسند صحيح أنه قال: (كان ناس من الأعراب يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا: إن ديننا هذا صالح فتمسكوا به؛ وإن وجدوا عام جدب وعام وِلَادِ سوء وعام قحط قالوا: ما في ديننا هذا خير، فأنزل الله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ﴾)[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٠ – ١٨١).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب التفسير، باب ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ﴾، ح ٤٤٦٥، ٤/١٧٦٨).

(٤) الدر المنثور (٦/ ١٣).

ولا يبعد عنه ما روي عن الضحاك بن مُزاحم رحمه الله (ت١٠٥هـ) أنه قال في تفسيرها: (كان ناس من قبائل العرب وممن حول المدينة من القرى، كانوا يقولون: نأتي محمدا صلى الله عليه وسلم فننظر في شأنه، فإن صادفْنا خيرا ثبتنا معه، وإلا لحقنا بمنازلنا وأهلينا. وكانوا يأتونه فيقولون: نحن على دينك فإن أصابوا معيشة، ونتجوا خيلهم، وولدت نساؤهم الغلمان، اطمأنوا وقالوا: هذا دين صدق؛ وإن تأخر عنهم الرزق وأزلقت خيولهم، وولدت نساؤهم البنات، قالوا: هذا دين سوء، فانقلبوا على وجوههم)[(١)]. وهذا الأثر يدل أيضا على أن هذه الآيات مدنية.

ومن الآيات التي نزلت بعد الهجرة النبوية -كما تقدمت الإشارة إلى ذلك- قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ [سورة الحج: ٣٩] الآية. فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ((لما أُخرِج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة، قال أبو بكر: أخرَجوا نبيَّهم؟ إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! لَيَهْلِكُنَّ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [سورة الحج: ٣٩] الآية))[(٢)]. وفي رواية أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (هي أول آية نزلت في القتال)[(٣)].

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٤٧٤)، وفي تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٨): (نزلت في المؤلفة قلوبهم، منهم عُيَيْنة بن بدر والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس قال بعضهم لبعض...).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: (أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحج، ح ٣١٧٠ (٥/٣٢٥)، وقال: (هذا حديث حسن. وقد رواه غير واحد عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير مرسلا، وليس فيه عن ابن عباس). وهو موصول عند غيره ممن سيأتي ذكرهم في تخريج الرواية الأخرى.

(٣) أخرجه أحمد في "المسند" (١/ ٢١٦ رقم ١٨٦٥)، وصحح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٣/ ٣٥٨)، والنسائي في سننه (كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، ح ٣٠٨٥، ٦/ ٢)، وابن حبان في صحيحه: (تابع لكتاب السير، ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن فرض الجهاد كان بعد قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، ح ٤٧١٠، ١١/ ٨)، والحاكم في المستدرك (كتاب الجهاد، ح ٢٣٧٦، ٢/ ٧٦) و(من كتاب قراءات النبي صلى الله عليه وسلم مما لم يخرجاه وقد صح سنده، ح ٢٩٦٨، ٢/ ٢٦٩)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

والآية التي تليها تستهل بهذا الصفة التي تساق مساق التعليل للإذن بالقتال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [سورة الحج: ٤٠]، وهي صريحة في أن المسلمين قد أخرجوا من مكة، وهذا دليل على أن هذه الآيات نزلت بعد هجرتهم إلى المدينة.

ومن الآيات التي نزلت بعد الهجرة النبوية إلى المدينة قوله تعالى: ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [سورة الحج: ١٩]، إلى قوله سبحانه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾ [سورة الحج: ٢٢]، فقد نزلت في المتبارزين من المسلمين والمشركين قبيْل معركة بدر. قال قيس بن عبّاد رحمه الله: سمعت أبا ذر رضي الله عنه يُقسم قسَمًا: إن هذه الآية ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة)[(١)].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: (أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة) وقال قيس بن عباد: وفيهم أنزلت: ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [سورة الحج: ١٩]. قال: (هم الذين تبارزوا يوم بدر: حمزة، وعلي، وعبيدة، أو أبو عبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة)[(٢)].

وحدث قيس بن عَبّاد رحمه الله في رواية أخرى عن عليٍّ ﷺ أنه قال: (فينا نزلت هذه الآية: ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [سورة الحج: ١٩])[(٣)].

ولا شك أن الصحابة أعرف من غيرهم بأسباب النزول[(٤)]. ومع تواطؤ هذه الروايات على كونها نزلت في أهل بدر، إلا أن الإمام الطبري رحمه الله (ت٣١٠هـ) صوب قول مجاهد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، ح ٣٧٥١، ١٤٥٩/٤). ومسلم في صحيحه: (كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾، ح ٣٠٣٣، ٤/ ٢٣٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، ح ٣٧٤٧، ١٤٥٨/٤). والنسائي في السنن الكبرى (٤١٠/٦، رقم ١١٣٤٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، ح ٣٧٤٩، ١٤٥٩/٤).

(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن (٩/ ٢٨).

وعطاء بأنها عامة في المؤمنين والكافرين[1]، وبناءً على ذلك رأى بعض المعاصرين أن رواية الشيخين وإن كانت تقتضي أن الآية مدنية، إلا أنه لا توجد رواية تصرح بذلك، (والأسلوب والطابع المكيان بارزان عليها، والنفس مطمئنة بتصويب الطبري)[2].

والحق أن الطبري إنما صوب أن المراد بالآية عام، نظرا لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولكنه لم ينكر كون المتبارزين في معركة بدر سبب نزول هذه الآية، بل إنه قال: (فإن قال قائل: فما أنت قائل فيما روي عن أبي ذرٍّ في قوله: إن ذلك نزل في الذين بارزوا يوم بدر؟ قيل: ذلك إن شاء الله كما روي عنه، ولكن الآية قد تنزل بسبب من الأسباب، ثم تكون عامة في كل ما كان نظير ذلك السبب. وهذه من تلك، وذلك أن الذين تبارزوا إنما كان أحد الفريقين أهل شرك وكفر بالله، والآخر أهل إيمان بالله وطاعة له، فكل كافر في حكم فريق الشرك منهما في أنه لأهل الإيمان خصمٌ)[3].

وقد جاء في رواية أبي ذر رضي الله عنه المشار إليها أن الآيات التي نزلت في ذلك هي من قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [سورة الحج: ١٩]، إلى آخر قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [سورة الحج: ٢٣][4].

---

(١) قال رحمه الله في تفسيره (١٦/ ٤٩٣): (وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب وأشبهها بتأويل الآية قول من قال: عني بالخصمين جميع الكفار من أي أصناف الكفر كانوا، وجميع المؤمنين. وإنما قلت ذلك أولى بالصواب، لأنه تعالى ذكره ذكر قبل ذلك صنفين من خلقه: أحدهما أهل طاعة له بالسجود له، والآخر: أهل معصية له قد حق عليه العذاب، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ [الحج: ١٨]، ثم أتبع ذلك صفة الصنفين كليهما وما هو فاعل بهما، فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ [الحج: ١٩]، وقال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الحج: ١٤]، فكان بينا بذلك أن ما بين ذلك خبر عنهما).

(٢) التفسير الحديث (٦/ ٣١).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٤٩٣ - ٤٩٤).

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٤٩٠).

وفي رواية عن مجاهد رحمه الله (ت١٠٤هـ) أنها نزلت إلى تمام الآيات الثلاث من ذلك، إلى قوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾ [سورة الحج: ٢٢]. وفي رواية عن عطاء بن يسار رحمه الله أنها نزلت إلى قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾ [سورة الحج: ٢٤][(١)].

هذا، وقد ذكر المفسرون أن بعض الآيات نزلت بالمدينة، ولكن لم أجد لذلك ما يشهد له من الروايات المسنَدة، وهي:

- قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة الحج: ١٥]، ويفهم ذلك مما روي في سبب نزولها، فقد (ذُكِر أن هذه الآية نزلت في أسد وغطفان، تباطأوا عن الإسلام، وقالوا: نخاف أن لا ينصر محمد صلى الله عليه وسلم، فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود، فلا يميروننا[(٢)]، ولا يَروونا..)[(٣)].

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ [سورة الحج: ٢٥]. وقد ذكر بعض المفسرين أن (هذه الآية مدنية)[(٤)]، وأنها شبيهة بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة البقرة: ٢١٧][(٥)]. وقد استندوا في ذلك إلى سبب نزول الآية، ونقلوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (نزلت هذه الآية في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدّوا رسول الله صلى الله

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٧٩ رقم ١٣٨١٦).

(٢) أي لا يبيعوننا الطعام، يقال: مار أهله يميرهم ميراً: إذا أتاهم بميرة، أي بطعام. تاج العروس (١٤/ ١٦٢).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٤٨٤)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣١٣)، ويبدو أن أول من ذكر ذلك هو مقاتل بن سليمان في تفسيره (٣/ ١١٩).

(٤) تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٥)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٩).

(٥) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٩).

عليه وسلم عن عمرته عام الحديبية)[1]. ولم أقف على هذه الرواية مسندةً، لا في كتب التفسير، ولا في كتب الحديث، ولا في كتب أسباب النزول.

ويتأيد كونها مدنيةً بأنه (لم يُعلَم لهم صدٌّ قبل ذلك الجمع، إلا أن يُراد صدهم لأفراد من الناس، فقد وقع ذلك في صدر المبعث)[2].

والحق أن الآية يحتمل أن تكون مكيّة، ويحمل الصد عن المسجد الحرام على أن الكفار كانوا يمنعون المسلمين من الصلاة عند الكعبة والحجّ إليها والطواف حولها، فما كان الصحابة يجرأون على الصلاة عند الكعبة والطواف حولها إلّا بعد إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه[3].

وكونها نزلت بعد الحديبية فيه بعد، وذلك قال ابن عاشور: (وقد قيل: إن الآية نزلت في ذلك. وأحسب أن الآية نزلت قبل ذلك سواء نزلت بمكة أم بالمدينة)[4].

ورجّح الأستاذ محمد عِزّت دروزة أن هذه الآية مكية في ضوء التناسب بين هذه الآيات وسابقاتها[5].

- قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥]. قال مقاتل رحمه الله: (نزلت في عبد الله بن أنَس بن خَطَل القُرَشي، من بنى تيْم بن مُرّة، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبدَ الله مع رجلين، أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب ابن خطَل فقتل الأنصاري، ثم هرب إلى مكة كافرا،

---

(١) النكت والعيون (٤/ ١٦). وينظر درج الدرر في تفسير الآي والسور (٣/ ١٢٥٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢١٦).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ١١٥)، ونقله عنه القرطبي (١٢/ ٣١) وأبو حيان (٧/ ٤٩٩) في تفسيريهما دون عزو.

(٣) ينظر التفسير الحديث (٦/ ٣٤ - ٣٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٣٦).

(٥) ينظر التفسير الحديث (٦/ ٣٥).

ورجع المهاجر إلى المدينة، فأمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بقتل عبد الله يوم فتح مكة، فقتله أبو بَرْزة الأسْلَمِيُّ وسعدُ بن حُرَيْث القرشي)[1].

- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ۝٥٩ ۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٦٠﴾ [سورة الحج: ٥٨ – ٦٠].

أما أولى هذه الآيات ففيها (ذِكْر الهجرة وذكر من يقتل من المهاجرين، وذلك مُؤْذن بجهاد مُتوقَّع)[2]. وقد (ذُكِر أن هذه الآية نزلت في قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في حكم من مات في سبيل الله، فقال بعضهم: سواء المقتول منهم والميت، وقال آخرون: المقتول أفضل. فأنزل الله هذه الآية على نبيه صلى الله عليه وسلم، يعلمهم استواء أمر الميّت في سبيله، والمقتول فيها في الثواب عنده)[3]. وقال مقاتل رحمه الله: (وذلك أن نفرا من المسلمين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: «نحن نقاتل المشركين فنقتل منهم، ولا نستشهد فما لنا شهادة» فأشركهم الله- عز وجل- جميعا في الجنة، فنزلت فيهم آيتان، فقال: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ لقولهم ﴿حَلِيمٞ ۝٥٩﴾ [سورة الحج: ٥٩] عنهم، لقولهم: «إنا نقاتل ولا نستشهد»)[4].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٢١ – ١٢٢). وذكر ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤١٢)، والسيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٢٧) أن ابن أبي حاتم أخرجه بسنده عن ابن عباس بلفظ: (نزلت في عبد الله بن أنيس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصاري، ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ١٨١).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٦١٩).

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٣٤).

أما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ﴾ [سورة الحج: ٦٠]، فقد روى الطبري رحمه الله بسنده عن ابن جريج رحمه الله[(١)] أنه قال فيها: (هم المشركون، بغوْا على النبي صلى الله عليه وسلم، فوعده الله أن ينصره)[(٢)].

وذكر مقاتل رحمه الله (أن مشركي مكة لقوا المسلمين لِلَيلةٍ[(٣)] بقيت من المحرم، فقال بعضهم لبعض: «إن أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام، فاحملوا عليهم»، فناشدهم المسلمون أن يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا القتال. فبغوا على المسلمين فقاتلوهم وحملوا عليهم، وثبت المسلمون فنصر الله- عز وجل- المسلمين عليهم، فوقع في أنفُس المسلمين من القتال في الشهر الحرام، فأنزل الله- عز وجل: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ﴾ [سورة الحج: ٦٠] هذا جزاء من عاقب ﴿بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾ [سورة الحج: ٦٠] لِقِتالهم في الشهر الحرام)[(٤)].

ولا شك بأن الآيات التي تضمنت الإذن بالقتال والعقاب بالمثل أو أشارت إلى نحو ذلك (مدنيةٌ قطعا، فالمسلمون لم يُؤذن لهم في القتال والقصاص إلا بعد الهجرة وقيامِ الدولة الإسلامية في المدينة، أما قبل ذلك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بايعه أهل يثرب بيعة العقبة الثانية، وعرضوا عليه أن يميلوا على أهل مِنىً من الكفار بسيوفهم فيقتلوهم: ((لم نُؤمَر

---

(١) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي مولاهم المكي، أصله رومي. الإمام العلامة شيخ الحرم، ولد سنة ٨٠هـ، كان من فقهاء أهل الحجاز وقرائهم ومتقنيهم. أدرك صغار الصحابة ولم يحفظ عنهم، روى له الجماعة، يقال: إنه أول من صنف الكتب في العلم بمكة، وألف في التفسير ثلاثة أجزاء كبار، توفي سنة ١٥٠هـ. ينظر تذكرة الحفاظ (١/ ١٦٠)، وتهذيب التهذيب (٦/ ٤٠٢)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ٣٥٨ - ٣٥٩).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٦٢٠).

(٣) في تفسير الطبري (١٦/ ٦٢٠): (لليلتين).

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٣٥)، ونقله الطبري (١٦/ ٦٢٠) وصدَّره بقوله: (وكان بعضهم يزعم...) الخ.

بذلك))[1]، (حتى إذا صارت المدينة دارَ إسلام شرع الله القتال لردِّ أذى المشركين عن المسلمين والدفاع عن حرية العقيدة وحرية العبادة للمؤمنين)[2].

وهناك من عدّ من المدنيّ في هذه السورة قولَه سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧﴾ [سورة الحج: ٧٧]، فإن من سمات السور المدنية النداءَ بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾.

والخلاصة مما تقدم أن سورة الحج قد ابتدأ نزول طائفة من آياتها بمكة، وذلك في آخر الفترة المكية، ثم تواصل نزول باقي آياتها في المدينة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إليها. وهذا هو ما خلص إليه العلامة ابن عاشور رحمه الله حيث قال: (وأحسب أنه لم تتعين طائفة منها متوالية نزلت بمكة ونزل ما بعدها بالمدينة، بل نزلت آياتها متفرقة. ولعل ترتيبها كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم، ومثل ذلك كثير... ولذلك فأنا أحسب هذه السورة نازلا بعضها آخر مدة مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة كما يقتضيه افتتاحها ب﴿يا أيها الناس﴾، فقد تقرر أن ذلك الغالب في أساليب القرآن المكي، وأن بقيتها نزلت في مدة مقام النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة)[3].

وفي مرحلة الهجرة كان النبي صلى الله عليه وسلم يعمل على بناء المجتمع الإسلامي، ووضع نواة الأمة المسلمة ومن ثم فإن سورة الحج نزلت لتضع الأسس الكبرى للمجتمع المسلم، وترسم الطريق الذي سيقود الأمة الإسلامية إلى الظهرو والتمكين[4].

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٤٨)، بإسناد حسن، وقد صححه ابن حبان كما في فتح الباري (٧/ ٢٢١). وأخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٤٦٠ - ٤٦٣). من طريق ابن إسحق أيضاً، وصحح الألباني سنده في تحقيقه ل"فقه السيرة" (ص١٦١).

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٠٥ - ٢٤٠٦).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ١٨١- ١٨٢).

(٤) ينظر التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، للشيخ عبد الحميد محمود طهماز (٥/ ٤١٦).

**المطلب الثالث: الصبغة العامة لآيات سورة الحج:**

تقدم لنا أن سورة الحج مختلطة، منها ما هو مكي، ومنها ما هو مدني، ولكن لو تأملنا في معاني كثير من آيات هذه السورة لوجدنا أن (الذي يغلب على السورة هو موضوعات السور المكية وجو السور المكية؛ فموضوعات التوحيد، والتخويف من الساعة، وإثبات البعث، وإنكار الشرك، ومشاهد القيامة، وآيات الله المبثوثة في صفحات الكون، بارزةٌ في السورة. وإلى جوارها الموضوعات المدنية من الإذن بالقتال، وحماية الشعائر، والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغي وهو يرد العدوان، والأمر بالجهاد في سبيل الله)[1].

أما الظلال الواضحة في جو السورة كلها فهي ظلال القوة والشدة والعنف والرهبة، والتحذير والترهيب، واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والاستسلام.

وتبدو هذه الظلال بارزة في المشاهد والأمثال، فمشهد البعث الذي تستهل به السورة مشهد مزلزل عنيف رهيب، تذهل فيه الأم عن وليدها وهو بين يديها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾. [سورة الحج: ١ – ٢].

وكذلك مشهد تعذيب الكافرين الذي يجيء في مطلع الربع الثاني مشهد تلوح منه ظلال الشدة والرهبة: ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ۝١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٢٢﴾ [سورة الحج: ١٩ – ٢٢].

وكذلك المشاهد التي جاءت في الربع الثالث من السورة وتبين مصارع المكذبين ومشاهد القرى المدمرة على الظالمين، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٠٦).

خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ [سورة الحج: ٤٥]. وقوله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ [سورة الحج: ٤٨].

والأمر نفسه بالنسبة للأمثال التي وردت في السورة، نجد فيها ظلال الشدة، ومن ذلك مثل الذي يشرك بالله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ [سورة الحج: ٣١].

وكذلك حركة من ييأس من نصر الله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ [سورة الحج: ١٥] [(١)].

وتجتمع هذه المشاهد العنيفة المرهوبة إلى قوة الأوامر والتكاليف، وتجويز الدفع بالقوة، وتأكيد الوعد بالنصر والتمكين، إلى عرض الحديث عن قوة الله وضعف الشركاء المزعومين

ففي الأولى يقول تعالى في مطلع الربع الثالث من السورة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ [سورة الحج: ٣٩ – ٤٠]

ويقول تعالى في مطلع الربع الأخير منها: ﴿* ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ [سورة الحج: ٦٠].

وفي الثانية يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ [سورة الحج: ٧٣ – ٧٤].

وينضم إلى ذلك الإنذار بالعذاب الدنيوي في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ [سورة الحج: ٥٥]، وقوله

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٠٦)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٧٠ – ٢٧١).

سبحانه: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الحج: ٤٤]. والإنذار بالعذاب الأخرويّ الذي تردد كثيرا في جميع أجزاء هذه السورة كقوله تعالى: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحج: ٩]، وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [سورة الحج: ٥١]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الحج: ٥٧]، وقوله: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الحج: ٧٢].

ووراء هذا وذاك، الدعوةُ إلى تقوى الله والوجل منه، واستجاشةُ مشاعر الرهبة والاستسلام والامتثال لأمر الله، تبدأ بها السورة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [سورة الحج: ١].

ثم تتناثر هذه السمة في ثناياها، ويبدو ذلك واضحا عند الحديث عن بعض شعائر الحج وما وراءها من استجاشة مشاعر التقوى في القلوب، كما نلمسه في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٧].

ويضاف إلى هذا استعراض مشاهد الكون التي تظهر عظمة الله وبديع صنعه وجليل قدرته التي تستثير في النفس مشاعر التعظيم والإجلال والخشية، وذلك في أوائل السورة وأواخرها.

أما أوائلها ففي قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ الحج: ٥].

أما أواخرها ففي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥﴾ [سورة الحج: ٦١ – ٦٥].

هذا هو الروح الساري في جو السورة كلها، والذي يطبعها ويميزها[1].

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٠٦ – ٢٤٠٧).

# الفصل الثاني: معاني السورة ومقاصدها.

## المبحث الأول: مقاصد السورة العامة ومدى دلالتها على هداياتها.

### المطلب الأول □ تعريف مقاصد السور:

"مقاصد السور" مركب إضافي من جزأين: "مقاصد"، و"السور"، ولذلك سنُعرِّف كل جزء على حدة، ثم نُعرِّف المصطلح المركب منهما:

**١ □ تعريف المقاصد في اللغة:**

المقاصد لغةً جمع مقصَد، وهو مصدر ميمي لفعل "قصد"، بمعنى القَصْد، وله في اللغة عدةُ معانٍ:

فالقَصْدُ إتيان الشيء، تقول: قصَدْتُه، وقصدْتُ له، وقصدْتُ إليه، بمعنى واحد، أي: طلبته بعينه، وإليه قصدي ومَقْصَدي.

والقصْد: الاعتماد والأَمُّ، ومن معانيه كذلك: استقامةُ الطريق، والعدل، والتوسط في الأمور[١].

والمِقْصِدُ – بكسر الصاد – اسم المكان، بمعنى المكان المقصود[٢]، ومنه قولهم: بابُكَ مَقْصِدي.

وقد نقل ابن سِيدَه (ت٤٥٨هـ)[٣] عن ابن جِنّيّ (ت٣٩٣هـ)[١] أن مادة «ق ص د» تقع في كلام العرب بمعنى (الاعتزام والتوجه والنهود والنهوض[٢] نحو الشيء، على اعتدالٍ كان

---

[١] – ينظر الصحاح: مادة (قصد)، (٥٢٤/٢ – ٥٢٥)، ولسان العرب: مادة (قصد)، (٣٥٣/٣)، والقاموس المحيط للفيروزابادي: (ص٣١٠).

[٢] – لسان العرب: مادة (قصد)، (٣٥٣/٣)، والمصباح المنير للفيومي: (٥٠٤/٢).

[٣] – هو أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي الأندلسي المعروف بابن سيده، كان إمام زمانه في اللغة والنحو، وكان ضريراً، من مصنفاته: المخصص، والمحكم والمحيط الأعظم في اللغة، وشرح إصلاح المنطق، وشرح الحماسة، وغيرها.

ذلك أو جوْرٍ؛ هذا أصله في الحقيقة، وإن كان قد يخَصّ في بعض المواضع بقصد الاستقامة دون الميْل...فالاعتزامُ والتوجُّه شامِلٌ لهما جميعا)[٣].

**٢ ـ تعريف السورة في اللغة والاصطلاح:**

السُّوَر جمع، واحدها سورة، والسورة: المنزلة الرفيعة[٤]، والسورة من البناء: ما حسن وطال[٥]. قال ابن فارس: (السين والواو والراء أصل واحد يدل على علو وارتفاع، من ذلك: سار يسور، إذا غضب وثار، وإنّ لِغضبه لَسوْرة، والسّور جمع سورة، وهي كل منزلة من البناء)[٦].

وسميت سورة القرآن كذلك، لأنها يُرْتفع فيها من منزلة إلى منزلة[٧]، وكل سورة درجة يُفضى منها إلى غيرها[٨].

وقيل: سميت بذلك لشرفها وارتفاعها، كما يقال لما ارتفع من الأرض: سور[٩].

---

توفي سنة ٤٥٨هـ، وقيل غيرها. ينظر: جذوة المقتبس (ص:٣١١)، والصلة لابن بشكوال (٢ /٤١٧ – ٤١٨)، وإنباه الرواة (٢/ ٢٢٦).

(١) – هو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، النحوي اللغوي، صاحب التصانيف البديعة في الأدب والنحو، صحب أبا علي الفارسي طويلاً واستوطن بغداد، وتوفي سنة ٣٧٢هـ. من مصنفاته: "الخصائص"، و"سر صناعة الإعراب"، و"المصنف في شرح تصريف المازني"، والمحتسب في إعراب شواذ القراءات. ينظر: معجم الأدباء (١٢/ ٨١)، وإنباه الرواة (٢/ ٣٣٥)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٤٦).

(٢) – قال الخليل في "العين" (٤/ ٢٨): إن (النُهوضَ قيامٌ عن قُعودٍ ومُضِيٌّ، والنُّهُودُ: مُضِيٌّ على كلّ حال).

(٣) – المحكم والمحيط الأعظم (٦/ ١٨٧)، ونقله كذلك ابن منظور في لسان العرب (٣/٣٥٣).

(٤) – المفردات (ص: ٤٣٤).

(٥) – لسان العرب (٤/٣٨٦).

(٦) – مقاييس اللغة (٣/ ١١٥).

(٧) – ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة (١/ ٢٠)، وغريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٣٤)، والبيان للداني (ص: ١٢٥).

(٨) – جمهرة اللغة (٢/ ٧٢٣).

(٩) – البيان للداني (ص: ١٢٥)، وينظر إعراب القرآن للأصبهاني (ص: ٢٦٦).

وقيل: سميت بذلك لتمامها وكمالها، من قول العرب للناقة التامة: سورة[1].

وأفاد الراغب أن سورة القرآن سميت بذلك تشبيها لها بسور المدينة؛ لكونها محيطة بآيات وأحكام إحاطةَ السور بالمدينة[2]، ومنه السوار لإحاطته بالساعد[3]. وبناءً عليه عرّف الحرَالّي[4] السورة فقال: (السورة تمام جملة من المسموع يحيط بمعنى تام بمنزلة إحاطةَ السور بالمدينة)[5].

وقال الفيروزابادي: إنها مشتقة (من سَوْرة الأسد، وسَوْرة الشراب، بمعنى القوة؛ لأن قوة السورة أكثر من قوة الآية؛ أو من السور بمعنى الجماعة، يقال: لفلان سور من الإبل أي جماعة؛ لأن السورة مشتملة على جماعة الآيات)[6].

وروى الأزهري عن أَبي الْهَيْثَم[7] أنه قال: (والسُّورة من سُوَر الْقُرْآن عندنَا: قِطعةٌ من الْقُرْآن سَبَق وُحْدانُها جَمْعَهَا، كما أنّ الغُرْفة سَابق للغُرَف. وأنزلَ الله جلّ وعزّ القرآنَ على نبيّه صلى الله عليه وسلم شَيْئا بعد شَيْء، وجعَلَه مفصَّلاً، وبيَّن كلَّ سُورة منها بخاتِمتِها وبادِئتِها، وميّزها من الّتي تَلِيها)[8]. وكأنه أراد أن أصلها "سؤرة" بالهمز، من قول العرب للبقية: سؤر[1]،

---

[1] – البيان للداني (ص: ١٢٥).

[2] – المفردات (ص: ٤٣٤)، وينظر بصائر ذوي التمييز (١/٨٤ – ٨٥).

[3] – البرهان للزركشي (١/ ٢٦٤).

[4] – هو أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي المراكشي الحرَالّي الأندلسي، ولد بمراكش. جال في البلاد، وشارك في عدة فنون، ومال إلى النظريات وعلم الكلام. تصوف وعاد إلى المغرب، ثم رحل إلى مصر، ثم أخرج منها فتوجه إلى الشام وأقام بحماة، حتى توفي سنة (٦٤٧هـ). صنف في كثير من الفنون، ومن كتبه: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل، وسعد الواعي وأنس القاري، والتوشية والتوفية، وتفهيم معاني الحروف، وشرح الأسماء الحسنى. ينظر عنوان الدراية للغِبريني (ص١٤٣)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/ ٤٧)، وطبقات المفسرين للداوودي (١/ ٣٩٢).

[5] – نقله عنه البقاعي في نظم الدرر (١/ ١٦٢).

[6] – بصائر ذوي التمييز (١/ ٨٤).

[7] – هو: خالد بن يزيد الرازي، كان نحويًا إمامًا علامة، اشتهر بكنيته، روى عنه الأزهري من طريق أبي الفضل المنذري، توفي سنة ٢٧٦ هـ. ينظر: إنباه الرواة (٤/ ١٨٨)، ومقدمة تهذيب اللغة (١/ ٤٢).

[8] – تهذيب اللغة (١٣/ ٣٦).

وقولك: أسأرت في الإناء أي: أبقيت فيه بقية[٢]، إلا أن كلمة السورة (لما كثرت في الكلام وفي كتاب الله ترك فيها الهمز كما ترك في الملك، وأصله ملأك)[٣]. والقراء مجمعون على ترك الهمزة فيها[٤]، وسميت السورة بذلك لأنها مقطوعة من الأخرى[٥].

أما السورة في الاصطلاح، فقد عرفها ابن عطية فقال: (السورة عبارة عن آيات مسرودة لها بدء وختم)[٦]. وعرفها الرُّمّاني[٧] فقال: (والسورة منزلة محيطة بآيات من أجل الفاتحة والخاتمة كإحاطة سور البناء)[٨]. وعرفها السمين الحلبي[٩] فقال: (السورة من القرآن: القطعة منه المفتتحة بالبسملة المختتمة بخاتمتها)[١٠]، وهذا التعريف جارٍ على القول بأن البسملة آية من

---

[١] – البيان للداني (ص: ١٢٥).

[٢] – مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٦٨).

[٣] – تهذيب اللغة (١٣/ ٣٦ – ٣٧).

[٤] – مشكل إعراب القرآن (١/ ٦٨).

[٥] – مجاز القرآن (١/ ٢٠).

[٦] – المحرر الوجيز (٤/ ١٦٠).

[٧] – هو أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني النحوي، ولد سنة ٢٩٦هـ، كان محباً للعلم، واسع الاطلاع، متقناً للأدب وعلوم اللغة والنحو لذلك لقب بالنحوي المتكلم، صنف كتبًا كثيرة منها: "شرح كتاب سيبويه"، و"معاني الحروف"، والتفسير الكبير، والنكت في إعجاز القرآن. وكان متهمًا بالاعتزال. توفي سنة ٣٨٤هـ. ينظر: معجم الأدباء (١٤/ ٧٣ – ٧٨)، وسير أعلام النبلاء (١٦/ ٣٥٥)، وبغية الوعاة (٢/ ١٨٠ – ١٨١).

[٨] – نقله عنه البقاعي في نظم الدرر (١/ ١٦٢).

[٩] – هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف، المعروف بالسمين الحلبي، كان فقيها بارعا في النحو والتفسير وعلم القراءات، خيّرا ديّنا، نشأ في حلب ورحل إلى مصر، وولي تدريس القراءات والنحو بالجامع الطولونيّ، والإعادة بالشافعيّ، وناب في الحكم بالقاهرة وولي نظر الأوقاف. من كتبه "الدر المصون في علم الكتاب المكنون"، و"عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ"، "وتفسير القرآن"، و"أحكام القرآن". ت ٧٥٦هـ، ينظر: حسن المحاضرة للسيوطي (١/ ٥٣٦)، وبغية الوعاة (١/ ٤٠٢)، وطبقات المفسرين للداوودي (١/ ١٠١).

[١٠] – عمدة الحفاظ (٢/ ٢٣٢).

كل سورة أو أنها آية مستقلة للفصل بين السور. وقال الجعبري[1]: (حد السورة قرآنٌ يشتمل على آيٍ ذواتِ فاتحة وخاتمة، وأقلُّها ثلاث آيات)[2].

وعرفها ابن عاشور تعريفًا مطوّلا فقال: (السورة قطعةٌ من القرآن معينة بمبدأ ونهاية لا يتغيران، مسماة باسم مخصوص، تشتمل على ثلاث آيات فأكثر في غرض تام ترتكز عليه معاني آيات تلك السورة، ناشئ عن أسباب النزول، أو عن مقتضيات ما تشتمل عليه من المعاني المتناسبة)[3]. ويبدو أن الجزء الأخير من هذا التعريف شرح وبيان للغرض التامّ، والأولى أن يفصل عنه.

وعرفها الزرقاني بأنها (طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع)[4]، يعني ذات بداية ونهاية.

**٣ □ تعريف مقاصد السور في الاصطلاح:**

لم يُعْنَ المفسرون المتقدمون كثيرا بمقاصد السور، ولذلك لا نجد لها تعريفاً عندهم، بل إننا لا نكاد نرى أحداً من الذين اهتموا بها يُعرّفونها اكتفاءً منهم بالمعنى اللغوي، وأقدم من يستشف من كلامه تعريفٌ لمقصود السورة هو أبو الفضل المِشَذّالي البِجائي (ت٨٦٥هـ)[5]، حيث أومأ إلى أنه (**الغرض الذي سيقت له السورة**)[1].

---

[1] – هو أبو إسحاق إبراهيم بن عمر الجعبري، فقيه مقرئ محقق في علم القراءات، وله معرفة بالحديث، سكن دمشق، ثم انتقل إلى بلدة الخليل، فولي مشيختها إلى أن مات، له نحو من مائة كتاب في أنواع من العلم، غالبها مختصر، أهمها: كنز المعاني في شرح حرز الأماني، وشرحه للعقيلة، (ت ٧٣٢هـ). ينظر غاية النهاية (١/٢٥ – ٢٦ رقم ٨٤)، والدرر الكامنة (١ / ٥٥ – ٥٦)، وشذرات الذهب (٦ / ٩٩).

[2] – نقله عنه الزركشي في "البرهان" (١/ ٢٦٤).

[3] – التحرير والتنوير (١/ ٨٤).

[4] – مناهل العرفان (١/ ٣٥٠).

[5] – محمد بن محمد بن أبي القاسم المِشَذّالي، العلامة، أحد الأئمة في الدنيا في علوم عديدة سيما المعقولات. ولد في بجاية سنة ٨٢١هـ، وتعلم بها وبتلمسان. ثم تصدر للإقراء والتدريس. وفي سنة ٨٤٥هـ دخل عنابة وقسنطينة وتونس،

أما تلميذه الإمام برهان الدين البقاعي، فقد أبدع علمًا جديدا من علوم القرآن يختص بذلك، وسماه: علم مقاصد السور[٢]، وألّف فيه كتابا نفيسا حاول فيه أن يكشف مقصود كل سورة من سور القرآن الكريم، وسماه: "مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور".

ومع ذلك كله فإنه لم يعرِّف مقاصد السور، وإنما بين في مقدمة هذا الكتاب أن (كلَّ سورة لها مقصدٌ واحدٌ يُدار عليه أولُها وآخرُها، ويستدلّ عليه فيها، فترتَّب المقدِّمات الدالةُ عليه على أتقن وجْه وأبدع نَهْج، وإذا كان فيها شيء يحتاج إلى دليل استدلّ عليه، وهكذا في دليل الدليل، وهلمّ جرا. فإذا وصل الأمر إلى غايته، ختم بما منه كان ابتدأ، ثم انعطف الكلام إليه وعاد النظر عليه، على نهج آخر بديع، ومرقى غير الأول منيع)[٣].

أما المعاصرون فلم أجد إلا تعريف د. محمد الربيعة، حيث عرف مقاصد السور بأنها: (مغزى السورة الذي ترجع إليه معاني السورة ومضمونها)[٤].

وأختار أن أعرف المراد بمقصود السورة بأنه: (**الغرض المحوريُّ الذي تدور عليه جميع آيات السورة تدليلًا أو تكميلًا**).

ولا بد من التنبيه على أن المفسرين المعاصرين والكاتبين في الدراسات القرآنية يعبرون عن مقاصد السور بعبارات متعددة، فقد يعبر عنه بسياق السورة، وغرض السورة، والوحدة

---

ثم توجه إلى المشرق، فدخل الشام، وسكن بيت المقدس مدة. وحج سنة ٨٤٩ هـ وجاور، ثم دخل القاهرة، وأقرأ بها وأبان عن تفنن في العلوم فقهًا وأصولًا وكلامًا ونحوًا وغير ذلك، ثم غادر مصر وتشتت في البلاد إلى أن مات في "عين تاب" سنة ٨٦٥هـ. ينظر الضوء اللامع (٩/ ١٨٠ – ١٨٨)، ونيل الابتهاج (ص: ٥٤١، ت ٦٥٨).

[١] – نظم الدرر: ١ / ١١.

[٢] – مصاعد النظر (١/ ١٥٥)، وقال: (إذا تقرر ذلك، فتعريف هذا العلم، اسمُ هذا الكتاب المصنَّف فيه، فهو: علم يعرف منه مقاصد السور).

[٣] – مصاعد النظر (١ / ١٤٩).

[٤] – علم مقاصد السور: (ص:٧).

الموضوعية، وموضوع السورة العام، وعمدة السورة، وهدف السورة، ومحور السورة، ومضمون السورة، ومدار السورة، وفلك السورة، وجو السورة، وشخصية السورة، وروح السورة[١].

**٤ – مميزات مقصود السورة:**

قد يشتبه مقصود السورة ببعض مواضيع السورة، ولذلك نبه الشيخ الفراهيّ إلى أن المقصود –الذي يسميه عمود الكلام –له مميزات، وقد ذكرت في أحد بُحوثي ثلاث خصائص لمقصود السورة:

أولها: أن مقصود السورة لا يكون إلا أمرا كليا، لا يتعلق بوقت ولا زمان[٢]. فذِكْرُ القصص مثلاً لا يكون مقصودا للسورة؛ لأن القصص نفسَها وردت في القرآن لغاية، ولهذا قد ترد في أكثر من موضع، وفي كل موضع تخدم الغرض المحوري للسورة، فسورة الكهف – مثلاً – استغرقت القصصُ جُلَّ آياتها[٣]، كقصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة موسى والخضر، وقصة ذي القرنين، والإشارة إلى قصة آدم وإبليس، وباقي آيات السورة تعليقٌ أو تعقيب عليها، ولكن ليس مقصود السورة هو إيراد القصص أو تسلية النبي عليه السلام بها، وإنما هو أمر كلي ترتبط به تلك القصص كلها، وتدور حوله آياتُها، وهو عند سيد قطب (تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة)[٤].

وكذلك الأحكام الخاصة لا تكون مقصودا للسورة، وإنما تجيء مندرجةً تحت مقصود كلي، ولذلك لا تجد الأحكام مجردةً في أي سورة، وإنما ترد ممتزجة بمواضيع أخرى، فسورة النور

---

[١] – علم مقاصد السور: (ص:٩).

[٢] – دلائل النظام: ٦٢.

[٣] – فهي تشغل إحدى وسبعين آيةً من أصل عشر ومائة آية.

[٤] – في ظلال القرآن (٤ / ٢٢٥٦).

مثلا وإن شغلت الأحكام الفرعيةُ قسطًا كبيرًا منها إلا أنها اقترنت بوصايا وعِظاتٍ تصب في الغرض المحوري للسورة[١].

ثانيها: أن مقصود السورة جامع لمطالب السورة، بحيث تكون كلّ آياتها كلاما واحدا[٢] من أولها إلى آخرها؛ قال الفراهي: (فإليه مجرى الكلام، وهو المحصول والمقصود منه. فليس من أجزائه الترتيبية، ولكنه يسري فيه كالروح والسرّ، والكلام شرحه وتفصيلُه، وإنتاجه وتعليلُه)[٣].

ومن ثَمّ فيلزم المتدبرَ للسورة أن يستوفي جميع أجزاء السورة بالنظر، ويستبين الروح التي تربط بين موضوعات السورة كلها، وأن يعبر عنها بما يستوعب مقاصدها المتعددة، وألّا يكتفيَ بنظرة عجْلى إلى بعضها، أو تحديد مقصود السورة في موضوع غلب على كثير من آياتها.

ثالثها: أن مقصود السورة معنى خفيٌّ في الغالب، ويحتاج كشفُه إلى تدبر السورة، وإجالة النظر في مطالبها المتشابهة والمتجاورة الكَرّة تلو الكَرّة، واستيفاء مجموع آياتها كلها بنظرة شاملة لتقف على الرابط الذي يربط موضوعاتها المتنوعة، ويحقق لها وحدةَ نسقها. وما يظهر باديَ الرأي أنه مقصود للسورة قد يكون موضوعا أو طابعا يغلب عليها فحسب[٤].

وقد ذكرت في ذلك البحث سبعة مسالك تعين المتدبر على الكشف عن مقصود السورة:

١ – معرفة الفترة الزمنية التي نزلت فيها معظم آيات السورة.

٢ – تقسيم السورة إلى أقسام حسب مضمونها.

٣ – التمييز بين معاقد السورة والمعاني التي انجرّ إليها السياق لداع من الدواعي.

---

[١] – ينظر دلائل النظام: (ص ٦٢). ويرى الفراهي (ص٩٦) أن مقصودها "الطاعة في أحكام المعاشرة والتمدن"، فهي تضم تنظيمات لبناء المجتمع الإسلامي على الطهر والعفاف.

[٢] – ينظر دلائل النظام: (ص٧٣ و٧٥).

[٣] – دلائل النظام: (ص٧٣).

[٤] – مسالك الكشف عن مقاصد السورة القرآنية، مجلة الترتيل، العدد الأول: (ص: ١٢٠ – ١٢٢).

٤ – تدبُّر فواتح السور ودلالاتها.

٥ – تدبر خواتيم السورة وملاحظة تناسبها مع مطلعها.

٦ – التأمل في تكرار بعض الآيات أو المعاني في السورة.

٧ – الاستئناس باسم السورة أو أسمائها المتعددة إن كانت[١].

**المطلب الثاني: مقصود سورة الحج:**

ذكر البقاعيُّ رحمه الله أن مقصود هذه السورة هو: (الحثُّ على التقوى المعْليةِ عن درَكَة الاستحقاق للحكْم بالعدل، إلى درجة استئهال الإنعام بالفضل، في يوم الجمع للفصل)[٢].

وقد أشار الأستاذ سيد قطب إلى أن الهدف المقصود هو استجاشة مشاعر التقوى في القلوب[٣]، وكذلك رأى الشيخ سعيد حوَّى أن هذه السورة (تهيّج على التقوى وتبعث عليها) كما (تدل على منعرَجات الطريق ومزالقه، وعلى الصوارف وأمثال ذلك)[٤]. ونبّه إلى أن سورة الحج – حسب نظريته في الوحدة القرآنية – تفصِّل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [سورة البقرة: ٢١]، فهي مثل سورة النساء، إلا أن سورة النساء حددت معالم التقوى، وسورة الحج تُحفِّز على التقوى.

ويؤكد هذا التشابهَ التوافقُ بين مطلع السورتين في دعوة الناس إلى التقوى، فسورة النساء تبتدئ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [سورة النساء: ١]. وسورة الحج تبتدئ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ

---

[١] – ينظر البحث السابق: (ص: ١٢٩ – ١٤٧).

[٢] – نظم الدرر (١٣/ ١)، ومصاعد النظر (٢/ ٢٩٤).

[٣] – في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٠٧).

[٤] – الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٢٠).

كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ [سورة الحج: ١ – ٢].

كما لاحظ رحمه الله أنه لم تَرِد في القسم الأول – الذي هو السبع الطوال – إلا سورةٌ واحدة مبدوءة ب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾، وهي سورة النساء، وأنه لم تَرِدْ في القسم الثاني – الذي هو الثلث الثاني من القرآن بمجموعاته الثلاث – إلا هذه السورة مبدوءة بهذا الخطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾، واستخلص من ذلك أن (التأمل الدقيق لمعاني هذه السورة مهم في موضوع بناء التقوى، كما أن التأمل الدقيق في سورة النساء في القسم الأول مهم في الموضوع نفسه)[1].

كما نبّه إلى التوافق في الأمر بالعبادة بين الآيتين الأخيرتين من سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [سورة الحج: ٧٧ – ٧٨]، مع آية البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [سورة البقرة: ٢١][2].

وقد لاحظ الشيخ سعيد أن سورة الحج دلت على طريق التقوى، وفصلت في ماهيتها وعلاماتها وآثارها، وعرضت في غضون ذلك لقضية وحدة المتقين، ووحدة هدفهم، وضرورة سيرهم في طريق الصراع مع الكفر، فالمتقون موعودون بالنصر الرباني إذا تحققوا بصفات خاصة، فمن طلب من المسلمين نصرة الله له دون تحقيق الشروط في نفسه، أو عجب من عدم نزول النصر دون بذل وعطاء، وتحقق وفداء، وعمل مشترك مستقيم، فإنما هو من الجاهلين، ومن ارتدّ استبطاءً للنصر فإنه من الكافرين، وهذا كله عرض في السورة.

ولما كانت نقطة البداية في السير نحو التقوى هي عبادة الله، وكانت نقطة الانحراف الكبرى هي عبادة غير الله، فقد تناولت السورة هذا الموضوع، واختتمت بتسفيه الشرك

---

[1] – الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٢٠).

[2] – الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٢١).

والمشركين، كما اختتمت بالأمر بما هو من مقتضيات التقوى أو ما يوصل إليها أو ما يبعث على السير في طريقها، فشعور المسلم بالاعتزاز – إذ يصطفيه اللهُ وإذ يعطيه اسمَه – يبعث على السير، والأمر بالركوع والسجود والعبادة، وفعل الخير والجهاد الشامل المخلص، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والاعتصام بالله، كلها من مقتضيات من التقوى، ووسائل إليها كذلك.

ولما كان الأمر بالعبادة للوصول إلى التقوى متوقفا على معرفة الله تعالى، فقد ركزت سورة الحج على التعريف بالله والرد على من يخوض في شأنه بغير علم، اقرأ قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ [سورة الحج: ٣]. وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ [سورة الحج: ٨]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ الآية [سورة الحج: ٥)، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣﴾ [سورة الحج: ٦٣]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥﴾ [سورة الحج: ٦٥] [(١)].

أما شرفُ الدين الطِّيبي فقد انتبه إلى أمر آخر تكرَّر في هذه السورة فقال: (والذي يدور عليه قطبُ هذه السورة الكريمة الكلامُ في مجادلة القوم ومعاندتهم، والنعي عليهم بشدة شكيمتهم. ألا ترى كيف افتتحها بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وكررها وجعلها أصلاً للمعنى المهتم به، وكلّما شرع في أمر كرَّ إليه تثبيتاً لقلبِ الرسول صلوات الله عليه، ومسلاةً لصدره)[(٢)]، وسلَّم له الألوسيُّ ذلك[(٣)]. والذي أراه أن ما ذكره موضوعٌ من مواضيع السورة استدعاه موضوع السورة المحوريّ.

---

(١) – الأساس في التفسير (٧/ ٣٦٠٦ – ٣٦٠٨).

(٢) – فتوح الغيب (١٠/ ٥٢٦).

(٣) – روح المعاني (٩/ ١٨٧).

أما الفيروزابادي فإنه حين أراد أن يبين مقصود هذه السورة ذكر الموضوعات التي تشملها فقال: (مقصود السورة على طريق الإجمال: الوصيّة بالتَّقوى، والطَّاعة، وبيان هَوْل السّاعة، وزلزلة القيامة، والحجّة على إثبات الحشر والنشر، وجدال أَهل الباطل مع أَهل الحقِّ...)[١] الخ.

أما الفراهي فقد ذكر أن مقصودها هو (الجهاد وهلاك القرى)[٢]. وهو في الحقيقة أحد موضوعات السورة، وليس غرضها المحوري.

أما ابن عجيبة فقد أشار في ثنايا تفسيره للسورة إلى أن المقصود منها هو أحكام الحج[٣]، وإلى الأمر نفسه ذهب صاحب "التفسير المأمون" حين قال: إن موضوع السورة هو (تشريع الحج إلى بيت الله الحرام وإحياء ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام)[٤]؛ وأرى كذلك أن هذا ليس إلا موضوعا من مواضيع السورة البارزة.

أما الشيخ عادل محمد خليل فقد توصل إلى أن موضوع السورة المحوري هو (دور الحج في بناء الأمة)[٥]، وكأن السورة تقول لقارئيها: حجوا حجة صحيحة مثل حجة النبي صلى الله عليه وسلم، لتبنوا أنفسكم وتدربوها على معاني عظيمة، لتكون عاملا أساسيا في بناء الأمة كلها[٦].

---

[١] – بصائر ذوي التمييز (١/ ٣٢٣ – ٣٢٤).

[٢] – دلائل النظام (ص٩٦).

[٣] – البحر المديد (٣/ ٥٢٥).

[٤] – التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون، للدكتور مأمون حموش (٥/ ١٤٦).

[٥] – "أول مرة أتدبر القرآن" (ص: ١١٤). وهذا ما ذكره أيضا د. عمرو خالد في كتابه "خواطر قرآنية" (ص٢٤٧ – ٢٤٨).

[٦] – خواطر قرآنية (ص٢٤٧ – ٢٤٨).

وتنبه أصحاب "المختصر في تفسير القرآن الكريم" إلى ملحظ آخر، فذهبوا إلى أن مقصود السورة هو: (ذكر التعظيم والاستسلام لله من خلال عرض مشاهد العظمة والقدرة الإلهية)[١].

وذكر مؤلفو "التفسير المحرر" أن من أهم مقاصد السورة (بيان التوحيد وإقامة الأدلة عليه، وإثبات البعث)[٢].

وذهب د. عويض العطوي إلى الموضوع الأشمل الذي يمكن أن يكون ظاهرا في هذه السورة الرئيس هو العبودية لرب العالمين[٣].

وبعد تأملي في آيات السورة ومضامينها اخترت أن أُعرِب عن مقصد السورة بما يجمع أنحاءها، فقلت: مقصد سورة الحج هو: **دعوة الناس إلى توحيد الله وتقواه والتوجه إليه بالقلب خشيةً وتعظيمًا، والتقربِ إليه بالحجّ وسائر العبادات استعداداً ليوم القيامة.**

وتفصيل ذلك فيما يلي:

"**دعوة الناس**": ابتدأت هذه السورة بدعوة الناس جميعا حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ١]، وقال بعدها ببضع آيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [سورة الحج: ٥]، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخاطبهم فقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٤٩﴾ [سورة الحج: ٤٩]، وفي ختامها جاء النداء العام لجميع الأنام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ [سورة الحج: ٧٣]. فكأنّ الله تعالى يقصد من هذه السورة هدفاً مهماً ينادي من أجله جميع الناس[٤].

---

[١] – المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٣٣٢).

[٢] – التفسير المحرر للقرآن الكريم، إعداد: القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية (١٨/ ٩).

[٣] – نفحات من سورة الحجّ/ مدونة في رحاب التنزيل، د. عويض العطوي.

[٤] – ينظر نور البيان في مقاصد القرآن للدكتور عبد البديع أبو هاشم، حررها أحمد الجوهري عبد الجواد في موقع الألوكة على الأنترنت: https://www.alukah.net/sharia/0/126154/#ixzz5ljOXf6yE.

"**إلى توحيد الله**": والسورة من أولها إلى آخرها تتضمن الدعوة إلى التوحيد، وطائفة من آياتها تبدأ بهذا الأمر أو تختتم به، أو تجد آية بعدها تعقب على هذه القضية، ففي مطلع السورة نجد أمر الناس بتقوى الله، (وأول تقواه هو تنزيهه عن النقائص، وفي مقدمة ذلك تنزيهه عن الشركاء باعتقاد وحدانيته في الإلهية)[1]. وفي وسط الربع الأول منها نجد الإنكار على المشرك الذي يدعو من دون الله ما لا يملك له نفعا: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحج: ١٢ – ١٣].

ونجد في آخره تنبيهًا على مخالفة الكافر المعاند لجميع المخلوقات التي تدور في فلك التوحيد لله سبحانه، وتخضع له وحده بسجودٍ لا ندركه، وتسبح بحمده على نحوٍ لا نفقهه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الحج: ١٨].

وتحدثت السورة أيضًا عن الحج الذي يعد معْلمًا ظاهرًا من معالم التوحيد الجليّة، ولذلك **نجد ربط شعائر الحج بعدم الإشراك بالله** منذ أن بوأ الله مكان البيت لخليله إبراهيم عليه السلام، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الحج: ٢٦]. وفي هذا تقريعٌ وتوبيخ لمن عبَد غير الله، وأشرك به من قريش في البقعة التي أسست أولَ يومٍ على توحيد الله وعبادته وحده دون سواه، وفيه إشارة إلى وجوب تطهير البيت الحرام من الشرك وسائر الأدناس ليعبدَ الحجيج اللهَ وحده لا شريك له.

ومعلوم أن الحجُّ عبادة يشترط فيها الإخلاص، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [سورة البقرة: ١٩٦]، أي مخلصين لله، والإخلاص لب التوحيد.

---

[1] – التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٦).

وكما تقدم لنا فإن السياقَ القرآنيَّ أراد أن يذكِّر المشركين بأصل قصة بناء البيت الحرام، وأن المقصد من ذلك هو التقرب إلى الله تعالى وحده بالطواف والعكوف والركوع والسجود، وأن الله تعالى هو الذي ينبغي أن يتقرب إليه وحده، كما يحج إلى بيته وحده.

ونبّه أن من مقاصده تعالى أن تساق الأنعام وتذبح تقرُّبا إلى الله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ [سورة الحج: ٢٨]، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ [سورة الحج: ٣٤].

ثم يأمر تعالى بتجنب الأوثان، ويبين سوء حال المشركين: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الحج: ٣٠ – ٣١].

ثم يذكرهم بوحدانيته تعالى ويأمرهم بالاستسلام والانقياد له: ﴿فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤].

وهكذا يرتبط الحج بالتوحيد الخالص، ونفهم كيف يخدم موضوع الحجّ محور السورة.

وفي الربع الثالث من السورة نجد الآيات تعلن بوضوح عن وحدانية الله تعالى واستحقاقه للعبادة دون سواه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الحج: ٦٢].

وفي الربع الأخير يعود السياق من جديد إلى استنكار الخلل الاعتقادي عند المشركين: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ [سورة الحج: ٧١].

ثم يفجؤهم بهذا المثل الذي يكشف زيف تلك الآلهة حيث يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الحج: ٧٣].

"**وتقواه**": لقد افتتحت السورة بدعوة الناس إلى تقوى الله تعالى، وذكَّرتْهم بما يحملهم على ذلك من مشاهد البعثِ وزلزلةِ الساعة.

وجاءت آيات أخر تذكر بثواب المتقين، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [سورة الحج: ٢٣].

ثم انتقل السياق إلى الحج، والحج عبادة يراد منها اكتساب التقوى كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [سورة البقرة: ١٩٧]. والحجّ يؤكد أنه لا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى، فحينما يترك المسلمُ دنياهُ، ويتجردُ عن ملابسه وكلِّ ما يظهر غناه؛ يتساوى في مناسكِ الحجّ ومواقفهِ الغنيُّ والفقيرُ، والجليل والحقير، ولا يكون لأحدٍ فضلٌ على غيره إلا بتقواه.

وبين أن الحجّ لا بد أن ينطوي على تعظيم شعائر الله ليكون دليلا على التقوى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [سورة الحج: ٣٢].

وقد نبه الله تعالى في شأن الأضاحي أن المراد ليس هو تحصيل اللحم أو إراقة الدم، وإنما المقصود هو تحقيق التقوى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ٣٧].

"**والتوجه إليه**": وهذا يظهر أولا من اسم السورة، فاسم "الحج" وإن كان يتبادر إلى الذهن عند إطلاقه حقيقته الشرعية التي يفهم منها القربة المعروفة ذات الطواف والسعي...إلا

أن العرب يفهمون بسليقتهم أن أصل الحج في كلامهم هو القصد[1]، فكل قصدٍ حج[2].

(والحَجُّ: كثرة القَصْد إلى من يُعَظَّم)[3]. ومنه حج البيت: أي القصد إليه[4].

وحينما وردت عبادة الحج فقد تمّ التركيز فيها على وجوب القصد القلبي فيها إلى الله، وأن الناس مأمورون بأن يحجوا إليه تعالى بقلوبهم وجوارحهم، ويقصدوا بيته ويطلبوا رضاه وحده بظواهرهم وبواطنهم، خلافا لما يفعله المشركون من الاقتصار على الحج بأبدانهم.

وهذا ما يستشف من قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ [سورة الحج: ٣١]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤].

فكأن السورة تدعو الناس أن يتوجهوا إلى الله ويحجوا إليه بأرواحهم وأبدانهم، فيعبدوه ويعظموه ويخلصوا له قصدهم.

"**بالقلب**": ولذلك تردد في السورة ذكر القلب، وأنه مستقر التقوى، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [سورة الحج: ٣٢]، وأنه محل العقل، في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [سورة الحج: ٤٦]. وأثنى على أصحاب القلوب الوجِلة التي توجل عند ذكر الله فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥]. وتوعّد في المقابل الذين في قلوبهم مرض أو قسوة تمنعهم عن ذكر الله فقال تعالى:

---

(١) – ينظر جمهرة اللغة (١/ ٨٦)، والصحاح (١/ ٣٠٣)، والمحكم (٢/ ٤٨٠)، ولسان العرب (٢/ ٢٢٦)، وقد حَجَّ بنو فُلانٍ فلاناً، إذا أطالوا الاختلاف إليه. ويستشهدون بقول المخبَّل السعدي:

وأشهد من عوفٍ حلولا كثيرة  يحجُّون سِبَّ الزِّبرِقانِ المزعفرا

أي يقصدونه ويزورونه.

(٢) – مقاييس اللغة (٢/ ٢٩).

(٣) – العين (٣/ ٩)، ثم قال: (حَجُّوا عِمامتَه: أي عظَّمُوه).

(٤) – ينظر معاني القرآن للزجاج (١/ ٤٤٧)، وتهذيب اللغة (٣/ ٢٥٠).

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الحج: ٥٣].

وكذلك أشارت إلى أعمال القلوب كالإخلاص والإسلام لله والإخبات له وتعظيم شعائره؛ فقد أمر المؤمنين بالاستسلام لله والإخبات له فقال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الحج: ٣٤].، وقال تعالى مبينا أهمية التقوى المتمكنة في القلوب: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٧].

والملحوظ أن عرض أحكام الحج في هذه السورة تتميز عن طريقة عرضها في سورة البقرة بأن هذه السورة ركزت على أعمال الباطن في الحج، بخلاف آيات البقرة فقد ركزت على أعمال الجوارح.

"**خشيةً**": ففي آيات سورة الحج إشارة إلى أن الله أهل لأن يتقى ويخشى. فبيان قدرته تعالى في الخلق والإفناء والإحياء وما فعله الله بالمكذبين تبعث على خشيته سبحانه، وفي المقابل أثنى الله على الذين يخشونه فتوجل قلوبهم عند ذكره: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥].

"**وتعظيمًا**": السورة تؤكد على تعظيم أمرين:

الأول: **تعظيم الله تعالى وإجلاله**: فبعض الآيات تصور عظمة الله وجليل قدرته فيما يحدثه من آيات يوم القيامة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [سورة الحج: ١].

وتشير إلى دلائل قدرته في الخلق وإحياء الأرض اليابسة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [سورة الحج: ٥]، ثم يتبعها الله تعالى بقوله:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [سورة الحج: ٦ – ٧].

ثم يقول مثل ذلك في الربع الأخير من السورة حيث يشير إلى آية تعاقب الليل والنهار: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [سورة الحج: ٦١ – ٦٢].

ثم يشير تعالى إلى إحيائه الأرض وانفراده بالملك وتصرفه في الكون: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥﴾ [سورة الحج: ٦٣ – ٦٥].

ويشير سبحانه إلى سعة علمه وإحاطته بكل شيء: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾ [سورة الحج: ٧٠].

ونجد آية تصور تعظيم المخلوقات لله وسجودها له سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝١٨﴾ [سورة الحج: ١٨].

وفي آية أخرى إشارة إلى أن من مقاصد تسخير الأنعام تكبيرَ الله وإظهارَ تعظيمه: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٧﴾ [سورة الحج: ٣٧].

وفي ختام السورة نجد الإنكار على المشركين الذين لم يعظموا الله ولم يقدروه حق قدره حيث قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤﴾ [سورة الحج: ٧٤].

**الثاني: تعظيم شعائر الله وحرماته** وأركان دينه العظام، كالصلاة، والزكاة، والحج، والجهاد، ونحوها.

وقد تكررت الآيات في هذه السورة العظيمة على وجوب تعظيم شعائر الحج:

- ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٠].

- ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢].

كما أشار إلى وجوب تعظيم المسجد الحرام من خلال ذمّ الذين يصدون عنه حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ﴾ [سورة الحج: ٢٥]. بل إن الله تعالى توعد من يهم فيه بالمعصية فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥].

وبين تعالى أن هذا البيت بيته، وهو الذي اختار موضعه، وعيّن لإبراهيم عليه السلام مكانه ليرفع قواعده: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الحج: ٢٦].

**"والتقربِ إليه بالحج"**: وهذا يظهر من اسم السورة، فقد اختصت سورة الحج بهذا الاسم، والحج شعيرة تعبدية، شرعت في شريعة إبراهيم عليه السلام، وبقيت مستمرة إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم، والعرب جميعا كانوا يعرفونه، ولكنهم بدلوا أعظم أركانه وهو توحيد الله تعالى وإفراده بهذه القربة. فلذلك جاءت هذه السورة لتذكر المشركين بأصل قصة بناء البيت الحرام، وأن المقصد من ذلك هو التقرب إلى الله تعالى وحده بالطواف والعكوف والركوع والسجود، ويمتنّ عليهم بما أنعم الله عليهم به من منافع، وأن الله تعالى هو الذي ينبغي أن يتقرب إليه وحده، كما يحج إلى بيته وحده. وفي الحج يُتقرب إلى الله بالمال والبدن، وتشتغل الجوارح كلها بالطاعات، وفيه يتجلى توحيد الله، وتتوجه القلوب إليه، وتتحقق بالتقوى.

**"وسائر العبادات"**: فقد تكرر في هذه السورة الثناء على المؤمنين بأدائهم للعمل الصالح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الحج: ١٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [سورة الحج: ٢٣].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠﴾ [سورة الحج: ٥٠].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦﴾ [سورة الحج: ٥٦].

وأثنى على الذين ينصرونه فينصرهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [سورة الحج: ٤١].

وفي ختام هذه السورة جاء بآية جمعت جميع الواجبات والمستحبات فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧﴾ [سورة الحج: ٧٧]. والخير يشمل الصالحات كلها، الواجب منها والمستحب، ولذلك قال العلامة ابن تيمية رحمه الله: (فهذه الآية وما بعدها لم تترك خيراً إلا جمعته، ولا شراً إلا نفته)[1].

ثم أمر في ختام السورة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة باعتبارهما أعظم العبادات بعد الشهادتين فقال: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [سورة الحج: ٧٨].

"**استعدادا ليوم القيامة**": إن آيات سورة الحج تهز القلوب هزّاً من خلال التذكير باليوم الآخر، فمطلعها: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [سورة الحج: ١ – ٢].

وفي وسط السورة: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾ [سورة الحج: ١٩ – ٢١].

---

[1] – مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٦٦).

وأما المؤمنون فيذكر ما سيكون لهم من النعيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [سورة الحج: ٢٣]. والآيات في هذا المعنى في السورة متعددة.

وإذا تأملنا ما بسطته آنفا فإن مدار ذلك كله على الدعوة إلى التقوى، فتوحيد الله رأس التقوى، وخشية الله وتعظيمه بواعث تبعث المؤمن على التقوى، والإخلاص من تقوى الله بالباطن، والتقرب إلى الله بالعبادات من تقوى الله بالظاهر، والنجاة من العذاب يوم القيامة ثمرة التقوى، وتذكر اليوم الآخر تحمل المؤمن على التقوى. ولذلك يمكن إجمال مقصد السورة في: **دعوة العباد إلى تقوى الله تعالى ظاهرا وباطنا**.

### المطلب الثالث: مواضيع السورة الرئيسية:

تتضمن السورة مواضيع جزئية، نسردها تفصيلا على هذا النحو:

- الوصية بالتقوى استعدادًا ليوم الجزاء.
- الإنذار بأهوال الساعة وزلزلة القيامة.
- ذمّ المجادلين في وحدانية الله، المتبعين لكل شيطان، والإنباء بسوء مصيرهم.
- إقامة الدليل على إثبات الحشر والنشر، بالاستدلال على البعث ببدء الخلق، ومراحل خلق الإنسان وإنبات الأرض.
- بيان مجادلة أهل الباطل لأهل الحق في وحدانية الله تعالى بغير علم ولا حجة.
- ذم حال أهل النفاق في صلتهم المضطربة بالله، ومدحُ المؤمنين.
- ذمّ عُبّاد الأوثان الذين يدعون من الله ما لا ينفعهم.
- بيان رعاية الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، ونصرته لدينه رغم أنف الحاقدين.
- الإخبار بأن يوم القيامة هو يوم الفصلِ بين أتباع الملل ومجازاة أهل الهدى وأهل الضلال.

- بيان اتفاق جميع المخلوقات في السجود لله والخضوع له، وامتناع الكافرين الذين حقّ عليهم الخزي والعذاب.
- بيان اختصام فريقيْ المؤمنين والكافرين في شأن الله تعالى، واستحقاق الأولين للنعيم، والآخرين لعذاب الجحيم.
- إظهار حرمة المسجد الحرام وذَمُّ الصادّين عنه وعن سبيل الله.
- الإخبار بأمْر الله إبراهيمَ عليه السلام بعمارة البيت ودعوة الناس إلى الحج من جميع البلدان. والتعريض بالمشركين بتكبرهم عن سنة إبراهيم الذي ينتمون إليه ويحسبون أنهم حماة دينه وأمناء بيته، وهم يخالفونه في أصل الدين.
- تذكير العرب بما منّ الله عليهم في مشروعية الحج من المنافع فكفروا نعمته.
- بيان بعض أحكام الحج.
- بيان فضل تعظيم الحرمات والشعائر.
- بيان ما في نحر الهدي وذبح الأضاحي من مصالح شرعية معتبرة.
- بيان دفاع الله تعالى عن المؤمنين، وبغضه للخائنين الكافرين.
- الإذن للمؤمنين بالقتال في سبيل الله؛ دفاعاً عن النفس وعن الدين وشعائره ومقدساته، وعن أراضي المسلمين وأموالهم وأعراضهم، ودفعا لظلم المتجبرين في الأرض بغير الحق.
- وعْدُ المجاهدين في سبيل الله بالنصر، ووعد المؤمنين بالتمكين إذا أتوا بشروط ذلك وأسبابه.
- الإخبار بإهلاك كثير من القرى بسبب ظلم أهلها وفسوقهم.
- الإشارة إلى مصارع الغابرين من الكفار المكذبين والبغاة الظالمين، وإلى سنن الله تعالى في ذلك التي لا تتخلف. وفي ذلك تسلية للرسول صلّى الله عليه وسلم عمّا نالهم من أذى قومه وتكذيبهم له، وبشارةٌ للمؤمنين بعاقبة النصر عليهم.
- بيان استعجال المشركين للعذاب وأنهم لن يعجزوا الله، وأن لهم في الآخرة عذاب الجحيم.

- إنذار المكذبين بالقرآن بالنار، وتبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجنة والنعيم.
- إبطال الله لوساوس الشيطان وما يلقيه على مسامع المشركين، وإحكامه سبحانه لآياته.
- التنويه بالقرآن والمتلقين له بخشية وصبر، ووصف الكفار بكراهيتهم القرآن وبغض المرسَل به.
- تثبيت الله للمؤمنين، واستمرار الكفار في الشك والريب من هذا القرآن، حتى تنزل بهم ساعة الانتقام.
- ثناء الله على المهاجرين والمجاهدين، ووعدهم بالنصر المبين في الدنيا والرزق الكريم في الآخرة.
- ربْطُ النصر بأمر الله، وأنه تعالى هو الحق.
- تقرير الله الشرائع في كل أمة، وجعله شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - ناسخةً لكل ما تقدمها، وتهديد ووعيد للذين جعلوا دأبَهم جدالَ المرسلين.
- إخبارُ الله عن كمال قدرته والاستدلال على ذلك بخلق الليل والنهار، والسماء والأرض، والإحياء والإماتة، وبيان إحاطة علمه بجميع مكنونات الكون، وتفرده تعالى بالحساب والفصل والحكم بين الناس.
- بيان مدى تبرم الكفار بآيات الله، وإظهار الغضب على وجوههم، وسوء سلوكهم تجاه المؤمنين، وتوعدهم بعذاب النار.
- بيان عجز آلهة المشركين المزعومة وعبّادها وتسفيهُ عقولهم، من خلال تحّديهم بأن يخلقوا الذبابة التي هي من أصغر المخلوقات.
- بيان أن الله تعالى اختار خلقا من الملائكة ومن الناس لتبليغ الرسالة الإلهية على أتم وجه، وإخباره تعالى بعلمه بأعمالهم وأن مصير جميع العباد إليه تعالى.
- إرشاد المؤمنين إلى أنواع من العبادات كالصلاة والزكاة والجهاد وفعل الخيرات.

- الثناء على المؤمنين والامتنان عليهم بأن الله جعلهم أتباع أبيهم إبراهيم، وأنه تعالى سماهم بالمسلمين.
- التذكير بسماحة الإسلام، وأن الدين يسر لا عسر.
- بيان أن الرسول شهيد على أمته يوم القيامة، وأن أمته تشهد على الأمم المتقدمة بتبليغ أنبيائهم لهم دعوةَ الله ورسالته.
- ترغيبهم في الالتجاء إلى الله والتمسك بدينه.
- الإخبار بأن الله هو مولاهم وناصرهم[1].

أما إذا أردنا أن نجمع هذه المواضيع الجزئية في مطالب كلية، فإن التأمل في هذه السورة الكريمة يقودنا إلى أن من أبرز ما اهتمت بالحديث عنه ما يأتي:

(ا) بيان أنواع الناس في هذه الحياة، وعاقبة كل نوع، ونجد ذلك واضحا في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾ [سورة الحج: ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨﴾ [سورة الحج: ٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [سورة الحج: ١١].

(ب) إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى أن البعث حق بالبراهين المحسوسة التي تقنع العقل وتزيل الريب.

نجد ذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ

---

[1] - ينظر بصائر ذوي التمييز (١/ ٣٢٣ - ٣٢٤)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٥٠ - ١٥١)، والتحرير والتنوير (١٧/ ١٨٣ - ١٨٥)، والتفسير الحديث (٦/ ٧)، والموسوعة القرآنية خصائص السور (٦/ ٧ - ٨)، والتفسير المنير (١٧/ ١٤٩ - ١٥٠)، والتفسير المأمون (٥/ ١٤٦).

مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [سورة الحج: ٥ - ٧].

(ج) الحديث المفصل عن فريضة الحج، وما اشتملت عليه هذه الفريضة من منافع وآداب وأحكام.

(د) المقارنة بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين، ونرى ذلك في آيات متعددة، منها قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩﴾ [سورة الحج: ١٩] وما بعدها. ثم يليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٢٣﴾ [سورة الحج: ٢٣].

(هـ) بيان سنن الله في خلقه، ومن أعظمها: دفاعه تعالى عن المؤمنين، ونصرته لهم، ونرى ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [سورة الحج: ٤٠].

ومن سننه تعالى كذلك عدم إخلاف وعده، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝٤٨﴾ [سورة الحج: ٤٧ - ٤٨][1].

(فكأن السورة الكريمة بمعالجتها لهذه الموضوعات ترسم الطريق المؤدي إلى بناء المجتمع الإسلامي وظهور الأمة المسلمة، الأمة التي يجمعها الإيمان بالله تعالى الواحد الأحد، والتصديق برسالة الإسلام، ويمثل وحدتها وقوتها الحجُّ بمشاعره ومناسكه، ويحمي كيانها ويصون حرماتها الجهادُ في سبيل الله تعالى)[2]. والله تعالى أعلم وأحكم.

---

[1] - ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٧٠).

[2] - التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، للشيخ عبد الحميد محمود طهماز (٥/ ٤١٦).

## المبحث الثاني: معاني مفردات سورة الحج ومدى دلالتها على هداياتها:

سأشرح في هذا المبحث بإذن الله المفردات الغريبة الواردة في سورة الحج، وقد سعيت إلى شرح كل كلمة يمكن أن يستفاد منها عند استنباط الهدايات من خلال المعاجم والتفاسير وكتب الغريب والوجوه والنظائر. وسأحاول أن أبين المعاني التي قد يستفاد منها أو يعتمد عليها في استخراج هدايات الآي التي سأوردها في الباب الثاني إن شاء الله تعالى[١].

### المطلب الأول: معاني مفردات الربع الأول من سورة الحج

**الزلزلة:** قال أبو السعود[٢]: (والزلزلةُ التحريكُ الشديدُ والإزعاجُ العنيفُ بطريقِ التكريرِ بحيث يزيلُ الأشياءَ من مقارّها ويُخرجُها عن مراكزِها)[٣]. وإنما قال: (بطريق التكرير) لأن الحروف تكررت، فزلزل مضاعف زلّ[٤]، (وتضعيف الحروف دليل على تضعيف المعنى، كأنه ضوعف زلل الأشياء عن مقارّها)[٥].

وحقيقة الزلزلة: (تحرك عنيف في جهة من سطح الأرض من أثر ضغط مجاري الهواء الكائن في طبقات الأرض القريبة من ظاهر الأرض. وهي من الظواهر الأرضية المرعبة ينشأ عنها تساقط البناء وقد ينشأ عنها خسف الأشياء في باطن الأرض)[٦].

---

[١] – التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٧).

[٢] – هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السعود: فقيه مفسر، ولد عام ٨٩٨هـ، تولى التدريس مدة بعدة مدارس، ثم ولي القضاء، وصار يتنقل فيه من بلد إلى بلد، ثم تولى الإفتاء بالقسطنطينية سنة ٩٥٢هـ، فمكث فيه ٣٠ سنة، وتوفي عام (٩٨٢هـ)، أشهر ما ألفه تفسيره: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. ينظر: الكواكب السائرة، للغزي (٣/ ٣١)، والشذرات (٨/٨٩٣)، والبدر الطالع (١ / ٢٦١).

[٣] – تفسير أبي السعود (٦/ ٩١).

[٤] – روح البيان (٦/ ٢).

[٥] – غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري (٥/ ٦٣).

[٦] – التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٧).

وفي القرآن الكريم، وردت المادة فعلاً ومصدراً ست مرات: ثلاث منها في وصف يوم الهول الأكبر، في آية الزلزلة، وآية الحج، وثلاث في وصف موقف الشدة القاسية والذعر البالغ في هول الحرب: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [سورة الأحزاب: ١٠ - ١١]. ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ٢١٤]. وفي المرات الثلاث التي استعمل فيها الفعل، جاء ماضياً مبنياً للمجهول[١].

وإضافة الزلزلة إلى الساعةِ إمَّا أن تكون من إضافة المصدر إلى فاعله إن كان من زلزل اللازم، الذي بمعنى: تزلزل. والتقدير: إنّ تَزلزُلَ الساعة[٢]؛ أو من زلزل المتعدي كأنَّها هي التي تزلزلُ الأشياءَ، على سبيل المجازِ في النسبة لأن المحرك في الحقيقة هو الله تعالى[٣]، ويكون المفعول محذوفًا، والتقدير: إن زلزال الساعةِ الناسَ، كما قدره العكبري[٤]، وأحسن من هذا أن يقدر: إن زلزال الساعة الأرضَ، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [سورة الزلزلة: ١][٥]. ويجوز أن يكونَ المصدرُ مضافاً الى المفعولِ به، على طريقةِ الاتّساع في الظرف[٦]، ويكون من إضافة الحدث إلى زمن حدوثه، فإن الساعة زمن حدوث تلك الزلزلة الكبرى، كما أُضيف المكر إلى الليل والنهار في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سورة سبأ: ٣٣][٧].

---

[١] – التفسير البياني للقرآن الكريم، لعائشة بنت الشاطئ (١/ ٨٢).

[٢] – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٨/ ٢٢١).

[٣] – ينظر روح المعاني (٩/ ١٠٦).

[٤] – ينظر التبيان في إعراب القرآن (٢/ ٩٣١).

[٥] – ينظر البحر المحيط (٧/ ٤٨٠)، والدر المصون (٨/ ٢٢١).

[٦] – ينظر الكشاف (٣/ ١٤١)، والدر المصون (٨/ ٢٢١).

[٧] – ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٢).

وعلى هذه التقديرات يكون ثمة زلزالٌ حقيقةً. والجمهور على أنها الزلزلة المعروفة التي هي إحدى أشراط الساعة، والتي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة. وقيل: الزلزلة استعارة، والمراد شدة الخوف والفزع وأهوال يوم القيامة[1]. فتكون (مجازا عن الأهوال والمفزعات التي تحصل يوم القيامة فإن ذلك تستعار له الزلزلة، قال تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ﴾ [سورة البقرة: ٢١٤] أي أصيبوا بالكوارث والأضرار لقوله قبله: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾)[2].

وقال تعالى فيما وقع بالمسلمين يوم الأحزاب من الخوف: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [سورة الأحزاب: ١٠ - ١١]؛ أي: زلزالَ فزع وخوف، لا زلزال حركة الأرض[3].

والساعة: (عَلَم بالغلَبة في اصطلاح القرآن على وقت فناء الدنيا والخلوص إلى عالم الحشر الأخروي)[4].

﴿تَذْهَلُ﴾ (الذهول: الغفلة عن الشيء بطريان ما يشغل عنه من هم أو وجع أو غيره)[5]. وزاد الإيجي قيدا آخر فقال[6]: (الذهول الذهاب عن الأمر مع دهشة)[7]. وفصل

---

[1] – البحر المحيط (٧/ ٤٨٠).

[2] – التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٧).

[3] – أضواء البيان (٤/ ٢٦١).

[4] – التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٧).

[5] – المحرر الوجيز (٤/ ١٠٦).

[6] – هو الشيخ معين الدين محمد بن عبد الرحمن الحسني الحسيني الإيجي الشافعي، مفسر، من فقهاء الشافعية. ولد ب"إيج" بنواحي شيراز سنة ٨٣٢هـ، وتعلم بها وبكرمان وخراسان. وتولى الإفتاء ببلده. وحج سنة ٨٦٧هـ وسكن مكة أكثر من عشر سنين. وانتفع به جماعة، له تفسير "جامع البيان في تفسير القرآن"، توفي سنة ٩٠٥هـ. ينظر الضوء اللامع (٨/ ٢) والكواكب السائرة (١/ ٥٣)، والشذرات (٨/ ١٥).

[7] – تفسير الطبري (٣/ ٤٢).

ابن عاشور في شرحه فقال: (والذهول: نسيان ما من شأنه أن لا ينسى لوجود مقتضى تذكره، إما لأنه حاضر أو لأن علمه جديد، وإنما ينسى لشاغل عظيم عنه، فذكر لفظ الذهول هنا دون النسيان لأنه أدل على شدة التشاغل)[1]. يقال: ذَهَلَ ذَهلاً وذُهولاً، إذا ترك الشيء وتناساه على عمد أو شغله عنه شغل[2]. وفي معنى الآية قولان: أحدهما: تسلو عن ولدها وتتركه، والثاني: تُشْغَل عنه[3]، وإلى الأول ذهب الطبري[4]، والمعنى متقارب.

﴿مُرْضِعَةٍ﴾ المرضعة: المرأة المباشرة للإرضاع بالفعل، والمرضع: هي التي من شأنها الإرضاع، لكن لم تلابس الفعل، نظير حائض وحائضةٍ[5]. قال الزمخشري: (فإن قلت: لم قيل مرضعة دون مرضع؟ قلت: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي. والمرضع: التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به، فقيل: مرضعة، ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة)[6].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: (المرضع: من لها ولد تُرضعه، والمرضعة من ألقمت الثدي للرضيع. وعلى هذا فقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أبلغ من موضع في هذا المقام؛ فإن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة، فإذا التقم الثدي واشتغلت برضاعه لم تذهل عنه إلا لأمر هو أعظم عندها من اشتغالها بالرَّضاع)[7].

---

[1] – التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٩).

[2] – التفسير البسيط (١٥/ ٢٤٢).

[3] – زاد المسير (٣/ ٢٢٢)، وينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٤).

[4] – قال الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٥٤): (ويعني بقوله: {تذهل} تنسى وتترك من شدة كربها).

[5] – ينظر روح البيان (٦/ ٢).

[6] – الكشاف (٣/ ١٤٢).

[7] – بدائع الفوائد (٤/ ٢١ – ٢٢).

﴿عما أرضعت﴾ قيل: «ما» مصدرية، أي: تذهل عن إرضاعها، وقيل: إنها موصولة، أي: عن الذي أرضعته، وهو الطفل[١]. (فعبّر عن العقلاء بما إرادةً للوصفية، أي: عن مولودها وقُرة عينها، وفلذة كبدها، ونحوها تصويراً لشدة الأمر)[٢]. وقيل: (والتعبير عنه ب«ما» دون «من» لتأكيد الذهول، كأنها من شدة الهول لا تدري من هو بخصوصه)[٣]. وهذا الوجه أدل على شدة الهول وكمال الانزعاج.

والمراد -والله أعلم- (ذهولُ كل ذي عِلْقٍ نفيس عن عِلْقه على طريقة الكناية)[٤].

﴿وَتَضَعُ﴾ أي تلقي وتسقط[٥].

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ﴾ الحمل: مصدر بمعنى المفعول، بقرينة تعلقه بفعل ﴿تضع﴾[٦]، وكل ذات حمل: أي كل حامل. (والمعنى أنها تسقط ولدها لتمام أو لغير تمام من هول ذلك اليوم)[٧]. قال البقاعي: (وهي من ماتت حاملاً - والله أعلم، فإن كل أحد يقوم على ما مات عليه)[٨]، ورجحه الخطيب الشِّربيني[٩].

---

[١] - الكشاف (٣/ ١٤٢).

[٢] - فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، للطيبي (١٠/ ٤٣٠).

[٣] - البحر المديد (٣/ ٥١٠).

[٤] - التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٩).

[٥] - روح البيان (٦/ ٣).

[٦] - التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٠).

[٧] - تفسير الفخر الرازي (٢٣/ ٢٠١).

[٨] - نظم الدرر (١٣/ ٥).

[٩] - السراج المنير (٢/ ٥٣٦). والخطيب الشربيني هو: الشيخ العلامة شمس الدين محمد بن محمد الشربيني، الخطيب، مفسر من فقهاء الشافعية، نشأ بالقاهرة، أجازه شيوخه بالتدريس والفتوى، وانتفع به خلق كثير. ومن مؤلفاته: شرح كتاب المنهاج، وشرح كتابه التنبيه، و"السراج المنير" في التفسير، توفي سنة ٩٧٧هـ. ينظر الكواكب السائرة (٣/ ٧٩)، وشذرات الذهب (٨/ ٣٨٤)، وهدية العارفين (٢/ ٢٥٠).

وإنما قال: ﴿كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ﴾ دون: كل حامل، ليكون نصا في موضع الجنين؛ فإن الحمل بالفتح هو ما كان في بطن أو على رأس شجرة، والثاني خارج بدليل العقل، فبقي الأول)[1].

قال ابن القيم: (وتأمل – رحمك الله – السر البديع في عدوله سبحانه عن كل حامل إلى قوله: ذاتِ حَمْلٍ فإن الحامل قد تطلق على المهيأة للحمل، وعلى من هي في أول حملها ومباديه. فإذا قيل: ذات حمل لم يكن إلا لمن قد ظهر حملها وصلح للوضع كاملا، أو سقطا. كما يقال: ذات ولد. فأتى في المرضعة بالتاء التي تحقق فعل الرضاعة دون التهيؤ لها. وأتى في الحامل بالسبب الذي يحقق وجود الحمل وقبوله للوضع. والله سبحانه وتعالى أعلم)[2].

(وقيل: المتبادر وضع الجنين بأي عبارة كان التعبير، إلا أن ذات حمل أبلغ في التهويل من حامل أو حاملة، لإشعاره بالصحبة المشعرة بالملازمة، فيشعر الكلام بأن الحامل تضع إذ ذاك الجنين المستقر في بطنها المتمكن فيه هذا مع ما في الجمع بين ما يشعر بالمصاحبة وما يشعر بالمفارقة وهو الوضع من اللطف)[3].

﴿حَمْلَهَا﴾ جنينها[4]، والحَمل بفتح الحاء: ما كان في البطن أو على رأس الشجر[5].

﴿سُكَارَى﴾: جمع سكران، وهو الذي اختل شعور عقله من أثر شرب الخمر[6]، والسكر: حالة تعرض بين المرء وعقله، وأكثر ما يستعمل ذلك في الشراب[7].

---

[1] – غرائب القرآن (٥/ ٦٣).

[2] – التفسير القيم (ص: ٣٨٣).

[3] – روح المعاني (٩/ ١٠٨).

[4] – تفسير البيضاوي (٤/ ٦٤).

[5] – البحر المحيط (٧/ ٤٨٢).

[6] – التحرير والتنوير (١٧/ ١٩١).

[7] – المفردات (ص: ٤١٦)، وروح البيان (٦/ ٣).

(والمعنى: وتراهم سكارى على التشبيه، وما هم بسكارى على التحقيق، ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه)[١].

(وقرأ حمزة والكسائي ﴿سكْرى﴾ في الموضعين)[٢]. فجعلوا ﴿سكْرى﴾ مثل مرْضى وصرْعى وجرْحى، إجراءً للسُّكْر مجرى العلل[٣]، فإن الصفة تجمع على فَعلى إذا كانت من الآفات والأمراض، كقَتلى ومَوتى وحَمقى، والسكْرُ جارٍ مجرى ذلك لما فيه من تعطيل القوى والمشاعر[٤]، وكما أن الصرعَ والجُرْحَ علةٌ لحقت أجسامهم، فالسُّكْرَ علةٌ لحقت عقولهم[٥]، ولهذا جُمع سكران هذا الجمع.

﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ قال أبو حيّان: (وجاء هذا الاستدراك بالإخبار عن عذاب الله أنه شديد لما تقدم ما هو بالنسبة إلى العذاب كالحالة اللينة وهو الذهول والوضع ورؤية الناس أشباه السُّكارى، وكأنه قيل: وهذه أحوال هينة ولكن عذاب الله شديد، وليس بهين ولا لين؛ لأن "لكن" لا بد أن تقع بين متنافيين بوجه)[٦]. ولكن الألوسي تعقبه وقال: (وهو خلاف الظاهر جدا)[٧].

---

[١] – الكشاف (٣/ ١٤٢).

[٢] – المحرر الوجيز (٤/ ١٠٦).

[٣] – تفسير البيضاوي (٤/ ٦٤).

[٤] – روح المعاني (٩/ ١٠٩).

[٥] – فتوح الغيب (١٠/ ٤٣٢).

[٦] – البحر المحيط (٧/ ٤٨٢).

[٧] – روح المعاني (٩/ ١٠٩).

﴿يُجَادِلُ﴾ أي: يخاصم[1]، والمجادلة: المخاصمة والمحاجة[2]، والمفاوضة على سبيل المنازعة والمقاتلة؛ وأصله من جدلت الحبل، أي: أحكمت فتله، كأن المتجادليْن يفتل كل واحد منهما الآخر عن رأيه[3].

﴿مَرِيدٍ﴾ عاتٍ متمرد، متجرد للفساد، مستمر في الشر[4]، لا شغل له غيره، فهو في غاية الضراوة عليه[5]. سمي بذلك لخلوه عن كل خير[6]. (يقال: مَرُد الشيء، إذا بلغ في الشر غايته. ويقال: مرد الشيء إذا جاوز حد مثله)[7]، وأصله: العُرْي المنبئ عن التمحض له كالتّشمرِ[8]. يقال: غلام أمرد إذا عري من الشعر[9]، (وشجرة مردى أي عارية من الورق، وصرح ممرد أي ملس من زجاج، وصخرة مرداء أي ملساء)[10]. والمارد من عري عن الخير وظهر شره[11].

---

[1] – تفسير السمرقندي (٢/ ٤٤٨).

[2] – المحرر الوجيز (٤/ ١٠٧)، والتحرير والتنوير (١٧/ ١٩٢).

[3] – المفردات (ص: ١٨٩)، وروح البيان (٦/ ٤).

[4] – ينظر الهداية (٧/ ٤٨٤٣)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٦٤)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٤٨)، وتفسير أبي السعود (٦/ ٩٢).

[5] – نظم الدرر (١٣/ ٧).

[6] – غرائب القرآن (٥/ ٦٤).

[7] – تفسير السمرقندي (٢/ ٤٤٩)، وينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٣).

[8] – تفسير أبي السعود (٦/ ٩٢).

[9] – غريب القرآن للسجستاني (ص: ٤١٣)، وروح البيان (٦/ ٤).

[10] – المحرر الوجيز (٤/ ١٠٧).

[11] – غريب القرآن للسجستاني (ص: ٤١٣).

(والظاهر أن الشيطان في هذه الآية، يشمل كل عات يدعو إلى عذاب السعير ويضل عن الهدى، سواء كان من شياطين الجن أو الإنس، والله تعالى أعلم)[١]. (والمراد إبليس وجنوده أو رؤساء الكفار الذين يدعون أشياعهم إلى الكفر)[٢].

﴿كتب عليه﴾ يعني: كتب عليه كتابة قدرية[٣] في أم الكتاب[٤]. أو قضي عليه وقدر على سبيل الحتم الذي لا بد منه، تعبير باللازم عن الملزوم[٥]. وقال ابن عاشور: (والكتابة مستعارة للثبوت واللزوم، أي لزمه إضلال متوليه ودلالته على عذاب السعير، فأطلق على لزوم ذلك فعل كتب عليه أي وجب عليه)[٦].

والضمير في ﴿عليه﴾ اختلف فيه، فمن المفسرين من يجعله عائدا للشيطان[٧]، ومن يجعله عائدا على من اتبعه وتولاه.

﴿تولاه﴾ أي اتخذه وليا له[٨]، والولي: النصير، أي من استنصر به[٩]. وقال أكثر المفسرين: يعني: اتبعه وقلده[١٠].

﴿فإنه يضله﴾ أي فإنه يضله عن طريق الجنة إلى النار، وعن طريق الإيمان إلى الكفر[١١].

---

[١] – أضواء البيان (٤/ ٢٦٤).

[٢] – غرائب القرآن (٥/ ٦٤).

[٣] – تفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٤).

[٤] – مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، لمحمد بن عمر نووي الجاوي (٢/ ٦٥).

[٥] – غرائب القرآن (٥/ ٦٤)، ونظم الدرر (١٣/ ٧).

[٦] – التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٣).

[٧] – مثل مكي في "الهداية" (٧/ ٤٨٤٣).

[٨] – غرائب القرآن (٥/ ٦٤)، والبحر المديد (٣/ ٥١٢).

[٩] – التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٣).

[١٠] – تفسير الخازن (٣/ ٢٤٨)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٤).

[١١] – أضواء البيان (٤/ ٢٦١).

﴿ويهديه﴾ أي: يدعوه[1]، أو يسوقه إليه بطاعته له، ومعصيته لله إلى عذاب السعير[2]،

﴿عذاب السعير﴾ أي: النار الشديدة الوقود[3]. وهو الحار المؤلم المزعج المقلق[4]. قال الشنقيطي: (والظاهر أن أصل السعير فعيل، بمعنى مفعول، من قول العرب: سعر النار يسعرها، كمنع يمنع: إذا أوقدها... أي: النار المسعرة؛ أي: الموقدة إيقادا شديدا؛ لأنها بشدة الإيقاد يزداد حرُّها)[5].

﴿رَيْبٍ﴾ الريب: الشك[6]. (يقال: رابني كذا، وأرابني، فالريب: أن تتوهم بالشيء أمرا ما، فينكشف عما تتوهمه)[7].

﴿الْبَعْثِ﴾ البعث مصدر بعثه يبعثه بعثا، بمعنى أحياه؛ ويوم البعث: هو يوم القيامة[8]. قال الراغب: (أصل البعث: إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث، ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علق به، فبعثت البعير: أثرته وسيرته، وقوله عز وجل: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة الأنعام: ٣٦]، أي: يخرجهم ويسيرهم إلى القيامة، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [سورة مجادلة: ٦]، ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [سورة التغابن: ٧]، ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [سورة لقمان: ٢٨])[9].

---

[1] – تفسير السمرقندي (٢/ ٤٤٩).

[2] – الهداية (٧/ ٤٨٤٣).

[3] – أضواء البيان (٤/ ٢٦١).

[4] – تفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٤).

[5] – أضواء البيان (٤/ ٢٦٣).

[6] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤١١)، والتفسير البسيط (١٥/ ٢٥٧)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٠٧).

[7] – المفردات (ص: ٣٦٨).

[8] – معجم وتفسير لغوى لكلمات القرآن، لحسن عز الدين الجمل (١/ ١٩٥).

[9] – المفردات (ص: ١٣٢).

﴿نُطْفَةٍ﴾ يراد بها هنا ماء الرجل، وهو المني الذي يكون من البشر[١]. وقد سمي نطفة لقلته[٢]، قال الواحدي: (معنى النطفة في اللغة: الماء القليل، يقال: في الغدير نطفة زرقاء، أي بقية ماء صاف. وأصلها من النَّطف وهو: القطر، يقال: نطفت السحابة وهي تُنْطُفُ – بالضم– نَطْفًا. وليلةٌ نَطُوف: تمطر حتى الصباح، والذي يخلق منه الولد يسمى نطفة، لأنه ماء يقطر)[٣]. وقد يطلق على الكثير من الماء، ومنه الحديث: ((حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى جورا))[٤]، أراد بحر المشرق وبحر المغرب[٥].

﴿عَلَقَةٍ﴾ (العلق: الدم الجامد قبل أن ييبس، والقطعة علقة منه)[٦]؛ (والعلق: الدم العبيط، أي الطري)[٧]. والعلقة: القطعة الجامدة من الدم[٨]. وذلك أن النطفة المخلوق منها الولد تصير دمًا غليظًا[٩].

---

[١] – الهداية (٧/ ٤٨٤٤)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٠٧).

[٢] – تفسير القرطبي (١٢/ ٦).

[٣] – التفسير البسيط (١٥/ ٢٥٨). وقال ابن عطية في المحرر الوجيز (٤/ ١٠٧): (و«النطفة» تقع على قليل الماء وكثيره).

[٤] – أخرجه ابن عساكر من حديث أبي أمامة الباهلي في تاريخ دمشق (باب تبشير المصطفى عليه الصلاة والسلام أمته المنصورة بافتتاح الشام، ٣٩١/١)، وهو في مختصر تاريخ دمشق (١/ ١٤٦). وعزاه السيوطي في "الجامع الكبير" (٢٢/ ٣٠٩، رقم ٦١٠)، والمتقي الهندي في كنز العمال (١٢/ ٣٨٤، رقم ٣٥٤٠٧) إلى ابن النجار في تاريخه، ولم أقف على من نص على حكمه، ولكن السيوطي ذكر في مقدمة «الجامع الكبير» (١/ ٤٤) أن ما عزي إلى ابن عساكر أو ابن النجار، فهو ضعيف، فيستغنى بالعزو إليها عن بيان ضعفه.

[٥] – تفسير القرطبي (١٢/ ٦).

[٦] – التفسير البسيط (١٥/ ٢٥٨).

[٧] – تفسير القرطبي (١٢/ ٦).

[٨] – الكشاف (٣/ ١٤٤).

[٩] – التفسير البسيط (١٥/ ٢٥٨).

﴿مُضْغَةٍ﴾ المضغة: القطعة الصغيرة من اللحم بقدر ما يمضغ[1]. (وإذا صارت العلقة لحمة فهي مضغة)[2].

﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ المخلّقة: التام الخلقة والأعضاء[3].

وفي الآية أربعة تأويلات: أحدها: أن المخلقة ما صار خلقاً، وغير مخلقة ما دفعته الأرحام من النطف فلم يصر خلقاً، وهو قول ابن مسعود.

والثاني: معناه تامة الخلق وغير تامة الخلق، وهذا قول قتادة.

والثالث: معناه مصورة وغير مصورة كالسقط، وهذا قول مجاهد.

والرابع: يعني التام في شهوره وغير التام، قاله الضحاك[4].

واختار الطبري أن تكون المخلقة المصورة خلقاً تاماً، وغير مخلقة السقط قبل تمام خلقه فيكون مخلقة وغير مخلقة من نعت المضغة، لأنه ليس بعد المضغة إلا التصوير[5]. وإلى هذا القول ذهب أكثر المفسرين.

---

[1] – الهداية (٧/ ٤٨٤٤)، والكشاف (٣/ ١٤٤)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٠٧).

[2] – التفسير البسيط (١٥/ ٢٥٨).

[3] – قال الشنقيطي في "أضواء البيان" (٥/ ٢٣ – ٢٤) عن هذا القول: إنه أولى الأقوال في الآية وهو القول الذي لا تناقض فيه؛ لأن القرآن أنزل ليصدق بعضه بعضًا لا ليتناقض بعضه مع بعض. وعزاه إلى قتادة والضحاك. قال: واقتصر عليه الزمخشري. ثم نقل الشنقيطي عنه في "الكشاف" (٣/ ١٤٤) أنه قال: (والمخلقة: المسوّاة الملساء من النقص والعيب، يقال: خلق السواك والعود: إذا سواه وملسه، من قولهم: صخرة ملساء، إذا كانت ملساء، كأنَّ الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة، منها ما هو كامل الخلقة أملس من الجوب ومنها ما هو على عكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم). ثم ذكر الشنقيطي شواهد من شعر العرب وكلامهم في هذا المعنى.

[4] – النكت والعيون (٤/ ٧).

[5] – تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٣).

قال ابن عطية: (مُخَلَّقَةٍ معناه متممة البنية، وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ غير متممة أي التي تستسقط... فاللفظة بناء مبالغة من خلق، ولما كان الإنسان فيه أعضاء متباينة، وكل واحد منها مختص بخلق حسُن في جملته تضعيف الفعل لأن فيه خلقا كثيرة)[1]، ويدل على صحة هذا التفسير ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله -عَزَّ وَجَلَّ- ملكًا فقال: يا رب مخلقة أم غير مخلقة؛ فإن قال غير مخلقة مجّتْها الأرحامُ، وإن قال مخلقة، قال: يا رب ما صفة هذه النطفة؟ أذكر أم أنثى؟ ما رزقها؟ ما أجلها؟ أشقيٌّ أم سعيدٌ؟...))[2].

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ (أي ذكرنا أحوال خلق الإنسان لنبين لكم قدرتنا على ما نشاء ونعرّفكم ابتداءنا خلقكم)[3]. أو: (لنبين لكم أثر الصنعة والقدرة)[4]. وقيل: (لنبين لكم أن البعث حق)[5]. قال الزمخشري: (وورود الفعل غير معدًّى إلى المبين: إعلامٌ بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنهه الذكرُ ولا يحيط به الوصف)[6].

﴿وَنُقِرُّ﴾ يقال: أقره في مكانه فاستقر[7]. والثلاثي قر، يقال: (قر في مكانه يقر قرارا، إذا ثبت ثبوتا جامدا... والإقرار: إثبات الشيء)[8]، وقوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ

---

[1] - المحرر الوجيز (٤/ ١٠٨).

[2] - رواه بهذا اللفظ الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٦١)، قال ابن حجر في "الفتح" (١/ ٤١٩): (وإسناده صحيح، وهو موقوف لفظا، مرفوع حكمًا). ورواه بنحوه مطولاً ابن أبي حاتم (كما في تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٠٧، والدر المنثور: ٦/ ٩). والأثر لا يدل كما قال الواحدي على صحة هذا التفسير؛ لأنّ الأثر في النطفة: (إذا وقعت النطفة...)، وظاهر القرآن أن قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥] وصفٌ للمضغة لا للنطفة، والله أعلم.

[3] - التفسير البسيط (١٥/ ٢٦٤).

[4] - الهداية (٧/ ٤٨٤٦).

[5] - التفسير البسيط (١٥/ ٢٦٤).

[6] - الكشاف (٣/ ١٤٤).

[7] - الصحاح (٢/ ٧٩١)، والمحكم (٦/ ١٢٢).

[8] - المفردات (ص: ٦٦٢).

أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة الحج: ٥]، أي نبقي ونثبت في الأرحام من نشاء حياته فلا يكون سقطا[١]. وقرئ ﴿ونقرَّ﴾ بالنصب معطوف على ﴿لِّنُبَيِّنَ﴾: قال الزمخشري: (ومعناه: خلقناكم مدرّجين هذا التدريج لغرضين، أحدهما: أن نبين قدرتنا. والثاني: أن نقر في الأرحام من نقر، حتى يولدوا وينشأوا ويبلغوا حد التكليف فأكلفهم. ويعضد هذه القراءة قوله: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ وحده لأن الغرض الدلالة على الجنس)[٢].

﴿أجل مسمى﴾ قال ابن عطية: (هو مختلف بحسب جنينٍ جنينٍ، فثم من يسقط، وثم من يكمل أمره ويخرج حيا)[٣]. وقال بعض المفسرين: أي إلى أجل الولادة[٤].

﴿طِفْلًا﴾ الطفل: يطلق على الولد من حين انفصاله إلى البلوغ، ويطلق على الواحد والجمع[٥]. والمعنى: (نخرج كل واحد منكم طفلاً)[٦].

﴿أَشُدَّكُمْ﴾ (أي: ثم نعمركم لتبلغوا أشدكم)[٧]. والأشد: القوة، وهو في الأصل جمع شدة، كأنعم جمع نعمة[٨]. قال الزمخشري: (الأشد: كمال القوة والعقل والتمييز، وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأسدة والقتود والأباطيل وغير ذلك، وكأنها شدة في غير شيء واحد، فبنيت لذلك على لفظ الجمع)[٩].

---

[١] – الهداية (٧/ ٤٨٤٦)، والتفسير البسيط (١٥/ ٢٦٥).

[٢] – الكشاف (٣/ ١٤٥).

[٣] – المحرر الوجيز (٤/ ١٠٨).

[٤] – التفسير البسيط (١٥/ ٢٦٥).

[٥] – تفسير القرطبي (١٢/ ١٢)، والبحر المحيط (٧/ ٤٧٨).

[٦] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤١٢)، والهداية (٧/ ٤٨٤٧).

[٧] – الهداية (٧/ ٤٨٤٧).

[٨] – الهداية (٧/ ٤٨٤٧).

[٩] – الكشاف (٣/ ١٤٥).

واختلف مفسرو السلف في «الأشدّ» (من ثمانية عشر إلى ثلاثين، إلى اثنين وثلاثين، إلى ستة وثلاثين، إلى أربعين، إلى خمسة وأربعين، واللفظ تقال باشتراك، فأشُد الإنسان على العموم غير أشد اليتيم الذي هو الاحتلام، و «الأشد» في هذه الآية يحتمل المعنيين)[١]، ومال الفراء[٢] إلى أنه سن الأربعين[٣]. ورجح الزجاج أنه ما بين الثلاثين إلى الأربعين[٤]. وقريب منه قول الزمخشري: (وبلوغ الأشد: أن يكتهل ويستوفيَ السن التي تستحكم فيها قوتُه وعقله وتمييزه، وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين)[٥]، وهذا القول يوافق قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ (الأحقاف: ١) لأنه يشعر بأنه منتهٍ إلى الأربعين، وهي سن الوقوف فينبغي أن يكون مبدؤه قبل ذلك، والتحقيق أن الأشد ليس اسما لعدد من سِني العمر، وإنما سِنو العمرِ مظنة له[٦]، وبلوغ الأشد في الأصل هو الانتهاء إلى حد القوة، وذلك وقت انتهاء النمو وغايته، وهذا مما يختلف باختلاف الأقاليم والأزمنة والأحوال، ولذلك فسر بتفاسير

---

[١] – المحرر الوجيز (٤/ ١٠٨)، ونقل الماتريدي في تفسيره (٧/ ٣٩١) عن بعضهم: (أن الأشد من ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة).

[٢] – هو أبو زكريا يحيى بن زياد الفرَّاء الديلمي، أعلم الكوفيين بالنحو واللغة وفنون الأدب، فقيه، متكلم، عالم بأيام العرب وأخبارها، انتقل إلى بغداد، واتخذه المأمون مؤدبا لولديه، صنف: "معاني القرآن"، و"الحدود"، و"اللغات"، وغير ذلك، توفي بطريق مكة سنة ٢٠٧هـ. ينظر: معجم الأدباء (٩/ ٢٠)، وإنباه الرواة (٤/ ٧)، ووفيات الأعيان (٦/ ١٧٦).

[٣] – قال في معاني القرآن (٣/ ٥٢): (والأول أشبه بالصواب؛ لأن الأربعين أقرب في النسق إلى ثلاث وثلاثين، منها إلى ثماني عشرة، ألا ترى أنك تقول: أخذت عامة المال أو كله، فيكون أحسن من أن تقول: أخذت أقل المال أو كله. ومثله قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ (المزمل: ٢٠)، فبعض ذا قريب من بعض، فهذا سبيل كلام العرب).

[٤] – معاني القرآن (٣/ ٤١٣).

[٥] – الكشاف (٤/ ٣٠٢).

[٦] – التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٣).

متعددة في كتب اللغة والتفسير، (ولعل الأولى على ما قيل: أن يقال إن بلوغ الأشد عبارة عن بلوغ القدر الذي يتقوى فيه بدنه وقواه الجسمانية وينتهي فيه نموه المعتد به)[١].

﴿أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أدنؤه وأردؤه، وهو (الهرم والخرف، حتى يعود كهيئته الأولى في أوان طفولته: ضعيف البنية، سخيف العقل، قليل الفهم)[٢]، ونحى ابن عطية منحى آخر فقال: (والرد إلى أرذل العمر هو حصول الإنسان في زمانة واختلال قوة حتى لا يقدر على إقامة الطاعات، واختلال عقل حتى لا يقدر على إقامة ما يلزمه من المعتقدات، وهذا أبدا يلحق مع الكبر، وقد يكون أَرْذَلِ الْعُمُرِ في قليل من السن بحسب شخص ما لحقته زمانة)[٣].

(وروي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: أرذل العمر، خمسة وسبعون عاماً)[٤]. وعلق عليه ابن عطية قائلا: (وهذا فيه نظر، وإن صح عن علي رضي الله عنه فلا يتوجه إلا أن يريد على الأكثر، فقد نرى كثيرا أبناء ثمانين سنة ليسوا في أرذل العمر)[٥].

﴿هَامِدَةً﴾؛ أي: ميتة يابسة لا نبات فيها[٦]، من همدت الأرض، إذا يبست ودرست، وهمد الثوب إذا بلي، وهمدت أصواتهم إذا سكنت، والهمود السكون والخشوع[٧]. (وأصل الهمود: الدروس والدثور)[٨].

---

[١] – روح المعاني (٦/ ٤٠٠).

[٢] – الكشاف (٣/ ١٤٥).

[٣] – المحرر الوجيز (٤/ ١٠٨).

[٤] – الهداية (٧/ ٤٨٤٧).

[٥] – المحرر الوجيز (٤/ ١٠٨).

[٦] – الهداية (٧/ ٤٨٤٧)، والكشاف (٣/ ١٤٥).

[٧] – الدر المصون (٨/ ٢٣٤).

[٨] – الهداية (٧/ ٤٨٤٧).

﴿اهْتَزَّتْ﴾؛ الاهتزاز شدة الحركة[1]، واهتزت: أي: تحركت[2]، وتجوّز به هنا، عن إنبات الأرض نباتها بالماء[3]؛ والمعنى على هذا: تحركت بالنبات عند وقوع الماء عليها[4]. يقال: (اهتزت الأرض إذا أنبتت)[5].

(وقال المبرد[6]: أراد اهتز نباتها. وعلى هذا حذف المضاف الذي هو النبات فقيل: اهتزت. والاهتزاز في النبات أظهر، ويقال: اهتز النبات إذا طال)[7].

﴿وَرَبَتْ﴾؛ أي: ارتفعت وازدادت ونمت[8]، لما يتداخلها من الماء والنبات. ويقال: ربا الشيء، إذا زاد[9]، ومنه الربوة، وهو المكان المرتفع[10].

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع «وربأت» بالهمز، قال ابن عطية: (وهي غير وجيهة، ووجهها أن تكون من ربأت القوم إذا علوت شرفا من الأرض طليعة، فكأن الأرض بالماء تتطاول وتعلو)[11].

---

[1] – تفسير القرطبي (١٢/ ١٣).

[2] – الهداية (٧/ ٤٨٤٧).

[3] – الدر المصون (٨/ ٢٣٤).

[4] – التفسير البسيط (١٥/ ٢٧٣)، والغريبين في القرآن والحديث (٦/ ١٩٢٩).

[5] – تهذيب اللغة (٥/ ٢٣٠).

[6] – هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي، أبو العباس المبرد: إمام أهل العربية، كان غزير الحفظ والمادة، قرأ كتاب سيبويه على الجرمي ثم على المازني، فلم يكن في وقته ولا بعده مثله، وعنه أخذ الزجاج، وأبو بكر بن السراج، وتصانيفه كثيرة مشهورة، من أهمها كتاب "الكامل" في الأدب، (ت٢٨٥هـ). ينظر: إنباه الرواة (٣/ ٢٤١)، ومعجم الأدباء (١٩/ ١١١)، وبغية الوعاة (١/ ٢٦٩).

[7] – التفسير البسيط (١٥/ ٢٧٣).

[8] – الكشاف (٣/ ١٤٥).

[9] – التفسير البسيط (١٥/ ٢٧٣).

[10] – المحرر الوجيز (٤/ ١٠٩).

[11] – المحرر الوجيز (٤/ ١٠٩).

﴿زَوْجٍ﴾ أي: نوع[1].

﴿بَهِيجٍ﴾ (بمعنى مبهج، أي: يبهج من رآه حسنُه)[2]، حسنٌ سارٌّ للناظر إليه[3]، تتمتع العين برؤيته[4]. وهو فعيل من البهجة[5]، وهو حسن اللون وظهور السرور فيه، وابتهج بكذا سرورًا، بأن ظهر أثره في وجهه[6].

﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ الحق: هو الثابت الوجود، الذي يحق ثبوته، ويجب وجوده، على وجه لا يقبل الزوال والعدم[7].

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ العلم المراد به هنا: العلم الضروري أو البديهي الفطري[8].

﴿وَلَا هُدًى﴾ الهدى: الاستدلال والنظر الصحيح الموصل إلى المعرفة.

﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ الكتاب المنير: هو الوحي المظهر للحق[9].

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ الثني: الليُّ، يقال: ثنى الشيء يثنيه، رد بعضه على بعض[10]. و(العِطف: الجانب. وعِطفا الرجل: جانباه عن يمين وشمال، وهو الموضع الذي يعطفه الإنسان ويلويه عند إعراضه عن الشيء)[11]، (وثنيُ العطف: عبارة عن الكبْر والخيلاء، كتصعير الخدّ

---

[1] – المحرر الوجيز (٤/ ١٠٩).

[2] – الهداية (٧/ ٤٨٤٨).

[3] – الكشاف (٣/ ١٤٥).

[4] – التفسير البسيط (١٥/ ٢٧٤).

[5] – المحرر الوجيز (٤/ ١٠٩).

[6] – روح البيان (٦/ ٨.

[7] – ينظر تفسير النسفي (٢/ ٤٢٩)، وتفسير أبي السعود (٦/ ٩٥)، وروح البيان (٧/ ١٠).

[8] – روح البيان (٦/ ٩).

[9] – الكشاف (٣/ ١٤٦)، والبحر المحيط (٧/ ٤٨٨)، وتفسير أبي السعود (٦/ ٩٦)، وروح المعاني (٩/ ١١٧).

[10] – المحكم (١٠/ ١٩٣)، ولسان العرب (١٤/ ١١٥)، والقاموس المحيط (ص: ١٢٦٧).

[11] – زاد المسير (٣/ ٢٢٤).

وليّ الجيد)[1]. والمعنى هنا: (لاويًا عُنُقَهُ عن طاعة الله كبرًا وعُتوًا، أو عاطفًا بجانبه، وطاويًا كَشْحَهُ، معرضًا متكبرًا)[2].

ومثل قوله ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ في المعنى قولُه تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ (لقمان: ٧)وقوله سبحانه: ﴿لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ [سورة المنافقون: ٥] الآية[3].

﴿خِزْيٌ﴾ الخزي: الهوان والذل والفضيحة[4]. والمراد به عند المفسرين ما أصابهم من الصغار والأسر والقتل بأيدي المؤمنين يوم بدر[5]. (وينطبق الخزي على ما حصل لأبي جهل يوم بدر من قتله بيد غلامين من شباب الأنصار وهما ابنا عفراء، وباعتلاء عبد الله بن مسعود على صدره وذبحه وكان في عظمته لا يخطر أمثال هؤلاء الثلاثة بخاطره)[6]. وينطبق الخزي أيضا على ما حل بالنضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعيْط من الأسر يوم بدر وقتلهما صبرا[7]. وحمَله القرطبي على الهوان والذل بما يجري له من الذكر القبيح على ألسنة المؤمنين إلى يوم القيامة، كما قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ [سورة القلم: ١٠]، وكقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [سورة المسد: ١][8].

---

[1] – الكشاف (٣/ ١٤٦).

[2] – البحر المديد (٣/ ٥١٥)، وينظر الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية (١/ ٥٤٨).

[3] – التفسير البسيط (١٥/ ٢٨١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٦).

[4] – التفسير البسيط (٣/ ١٢٦)، روح البيان (٦/ ٩).

[5] – ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٧١)، والهداية (٧/ ٤٨٥٠)، والكشاف (٣/ ١٤٦).

[6] – التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٩).

[7] – تفسير القرطبي (١٢/ ١٦)، واللباب في علوم الكتاب (١٤/ ٢٨)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٩).

[8] – تفسير القرطبي (١٢/ ١٦)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٢٠).

﴿فذوقوا﴾ (الذوق: مماسّةٌ يحصل معها إدراك الطعم، وهو هنا توسع، والمراد به إدراكهم الألم)[1].

﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾؛ أي: عذاب النار التي تحرق داخليها[2]، (فيحتمل أن يكون من إضافة المسبَّب إلى سببه، على أن يكون الحريق عبارة عن النار، وأن يكون من إضافة الموصوف إلى صفته، والأصل العذاب الحريق؛ أي: المحرق)[3]. (مثل الأليم والوجيع. وقيل: الحريق الاسم من الاحتراق. تحرق الشيء بالنار واحترق، والاسم الحرقة والحريق)[4].

﴿عَلَى حَرْفٍ﴾؛ قال أكثر المفسرين: أي: على شك، وأصله من حرف الشيء، وهو طرفه[5].

وقال الثعلبي: (أي طرف واحد وجانب في الدين لا يدخل فيها على الثبات والتمكين، والحرف: منتهى الجسم)[6]. فهو مزلزل كزلزلة من يكون على حرف شفير أو جبل أو غيره لا استقرار له[7]، وبين الزمخشري وجه الاستعارة هنا فقال: (على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه. وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم، لا على سكون وطمأنينة، كالذي

---

[1] – تفسير القرطبي (١٢/ ٢٨).

[2] – تفسير المراغي (١٧/ ٩١).

[3] – روح البيان (٦/ ٩)، وروح المعاني (٩/ ١١٨).

[4] – تفسير القرطبي (١٢/ ٢٨).

[5] – اللباب (١٤/ ٣٠)، وينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٢).

[6] – الكشف والبيان (٧/ ١٠).

[7] – السراج المنير (٢/ ٥٤٠). وقال صاحب التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٢): (وقوله تعالى: ﴿يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ [سورة الحج: ١١] تمثيلٌ لحال المتردد في عمله، يريد تجربة عاقبته بحال من يمشي على حرف جبل أو حرف واد، فهو متهيئ لأن يزلّ عنه إلى أسفله فينقلب).

يكون على طرف من العسكر، فإن أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن، وإلا فر وطار على وجهه)[1].

وقال ابن عطية: (معناه على انحراف منه عن العقيدة البيضاء، أو على شفا منها معدّى للزهوق)[2].

﴿خَيْرٌ﴾ أي: أصابه رخاء وعافية وخصب[3].

﴿فِتْنَةٌ﴾ الفتنة: أي شيء يفتن به من مكروه يعتريه في نفسه أو أهله أو ماله، فالمراد بالفتنة ما يستكرهه الطبع ويثقل على النفس، والا لما صح أن يجعل مقابلا للخير، لأن الخير أيضا فتنة وامتحان[4]، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [سورة الأنبياء: ٣٥)، وإنما وردت الآية على ما يعتقده المنافقون، فالمنافق ليس عنده الخير إلا الخير الدنيوي، وليس عنده الشر إلا الشر الدنيوي، لأنه لا دين له[5].

ولما كانت الشدة ليست بقبيحة لم يقل تعالى: (وإن أصابه شر) مع أنه المقابل للخير؛ لأن ما ينفر عنه الطبع ليس شرا في نفسه، بل هو سبب القربة ورفع الدرجة، بشرط التسليم والرضى بالقضاء[6].

﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ الانقلاب: الانصراف والرجوع، والوجه بمعنى الجهة والطريقة[7]. والمعنى (رجع سريعاً إلى جهة أخرى فهو مجاز، وقيل: معناه أسرع مستوليا على الجهة التي

---

[1] – الكشاف (٣/ ١٤٦).

[2] – المحرر الوجيز (٤/ ١١٠).

[3] – التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٦١).

[4] – روح البيان (٦/ ١١).

[5] – تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٨).

[6] – روح البيان (٦/ ١١)، ومراح لبيد (٢/ ٦٦).

[7] – روح البيان (٦/ ١١).

تواجهه غير ملتفت، وهو كناية عن الهزيمة، وقيل: هو هنا عبارة عن القلق لأنه في مقابلة اطمأن)[1]. وأيّا ما كان فالمراد: ارتد رجع عن دينه إلى الكفر[2].

قال ابن عاشور: (والانقلاب: مطاوع قلبه إذا كبّه، أي ألقاه على عكس ما كان عليه بأن جعل ما كان أعلاه أسفله كما يقلب القالَب- بفتح اللام-. فالانقلاب مستعمل في حقيقته، والكلام تمثيل. وتفسيرنا الانقلاب هنا بهذا المعنى هو المناسب لقوله: ﴿عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾، أي سقط وانكب عليه، كقول امرئ القيس[3]: يكبُّ على الأذقان دوحَ الكَنَهْبَل[4].

وكقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن هذا الأمر في قريش، لا ينازعهم فيه أحد إلا كبه الله على وجهه))[5]...ويطلق الانقلاب كثيرا على الانصراف من الجهة التي أتاها إلى الجهة التي جاء منها، وهو مجاز شائع، وبه فسر المفسرون. (ولا يناسب اعتباره هنا؛ لأن مثله يقال فيه: انقلب على عقبيه، لا على وجهه، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾ [سورة البقرة: ١٤٣]؛ إذ الرجوع إنما يكون إلى جهة غير جهة الوجه)[6].

---

[1] – حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٦/ ٢٨٥).

[2] – روح المعاني (٩/ ١١٩).

[3] – هو امْرُؤُ القيس بن حُجْرٍ بن الحارث: الشاعر الجاهلي المشهور، من الطبقة الأولى من فحول شعراء الجاهلية، وهو أشهرهم وأجودهم شعرًا، وهو من أكثر من احتج المفسرون بشعره. مات مسمومًا عام ٥٤٠م. ينظر: طبقات فحول الشعراء لابن سلام (١/ ٥١)، والشعر والشعراء، لابن قتيبة (١/ ١٠٥ – ١٣٦).

[4] – وصدره هذا البيت: وأضْحى يَسُحُّ الماءَ عن كلِّ فيقةٍ. والكنهبل، بفتح الباء وضمها: شجر عظام، وهو من العضاه؛ وقال أبو حنيفة: أخبرني أعرابي من أهل السراة قال: (الكنهبل صنف من الطلح جفر قصار الشوك). ينظر لسان العرب (١١/ ٦٠٣). والمعنى: أن المطر ينهمر ويقتلع شجر الكنهبل من أصوله، ويلقيه على أم رأسه لشدة سحِّه.

[5] – أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب المناقب، باب مناقب قريش، ح ٣٣٠٩، ١٢٨٩/٣).

[6] – التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٣).

﴿يَدْعُو﴾ الأولى يراد به يعبد[1]. و﴿يَدْعُو﴾ الثانية يراد بها يقول[2]، أي: (يقول يوم القيامة هذا الكلام، إذا رأى مضرة الأصنام)[3]. ويحتمل أن تكون مثل الأولى.

﴿الْمَوْلَى﴾ المولى يطلق على عدة معانٍ على سبيل الاشتراك اللفظي. وقيل: على التواطؤ. فالمولى: الناصر، والمنعم، وابن العم، والحليف، والعقيد[4]. وهو هنا بمعنى: الناصر[5].

﴿الْعَشِيرُ﴾ الصاحب والمخالط والمعاشر[6].

﴿بِسَبَبٍ﴾ أصل السبب في اللغة: الحبل، (قال أبو عبيدة[7]: السببُ: كلُّ حَبْل حَدَرْتَه من فوق. وقال خالدُ بنُ جَنَبَة: السبب من الحبال: القوي الطويل، قال: ولا يدعى الحبل سببًا حتى يُصْعَدَ به وُينْزَل)[8].

﴿السماء﴾: حمله كثير من المفسرين على سقف البيت[1]؛ لأن كل شيء علاك وأظلّك فهو سماء[2]، (والسحاب: سماء، يقول الله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [سورة ق: ٩]، وقال سلامة بن جندل[3] يذكر قتل كسرى النعمانَ:

---

[1] – تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٨).

[2] – فتوح الغيب (١٠/ ٤٥١)، وتفسير أبي السعود (٦/ ٩٨).

[3] – البحر المديد (٣/ ٥١٦).

[4] – عمدة الحفاظ (٤/ ٣٤١).

[5] – الكشف والبيان (٧/ ١٠)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٠٦).

[6] – تفسير الطبري (١٦/ ٤٧٧)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٠٦)، والكشاف (٣/ ١٤٧)، واللباب (١٤/ ٣٦)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٢١).

[7] – هو أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي بالولاء البصري النحوي، العلامة البحر، من أئمة أهل العلم بالأدب واللغة، ولد سنة ١١٠هـ، رُمي بالشعوبية، وأنه من الخوارج، وأشياء أُخَر، قارَبَتْ مصنفاته مئتي مصنَّفٍ، منها: "مجاز القرآن"، و"معاني القرآن"، و"إعراب القرآن" وغيرها. (ت٢١٠هـ). ينظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، للأنباري (ص١٠٤)، وإنباه الرواة (٣/ ٢٧٦)، والسير (٩/ ٤٤٥).

[8] – تهذيب اللغة (١٢/ ٢٢٠).

هُوَ المُدْخِلُ النُّعمانَ بيتًا سماؤه ... نُحورُ الفُيول بعد بَيْتِ مُسَرْدَق

يعني: سقفه، وذلك أنه أدخله بيتًا فيه فيَلة، فتوطأتْه حتى قتلتْه)[٤]. والمعنى: ليمدد بحبل إلى سقف بيته.

وقال آخرون: المراد به السماء نفسها؛ فحمله عليها أولى من حمله على سقف البيت، (لأن ذلك لا يفهم منه إلا مقيدا، ولأن الغرض ليس الأمر بأن يفعل ذلك، بل الغرض أن يكون ذلك صارفا له عن الغيظ إلى طاعة الله تعالى، وإذا كان كذلك فكل ما كان المذكور أبعد من الإمكان كان أولى بأن يكون هو المراد، ومعلوم أن مد الحبل إلى سماء الدنيا والاختناق به أبعد في الإمكان من مده إلى سقف البيت، لأن ذلك ممكن)[٥].

﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ذهب جمهور المفسرون على أن تأويل هذه الكلمة: ثم ليختنق، ووجّه الأزهري ذلك فقال: (ومعنى ﴿لْيَقْطَعْ﴾ ليمد الحبل مشدودًا على حلقه مدًا شديدًا حتى يقطع حياته ونفسه خنقًا)[٦]. وعلى هذا معنى ﴿لْيَقْطَعْ﴾ ليقطع نفسه[٧]. (وسمى الاختناق قطعًا؛ لأن المختنق يقطع نفسه، بحبس مجاريه)[٨]. وحمل الزجاج أن القطع يرجع إلى الحبل، أي بقطعه

---

[١] – ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٨١)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٢)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣١٠)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٥٠)، والبحر المحيط (٧/ ٤٩٢).

[٢] – ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٢)، والكشف والبيان (١/ ١٦٢)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣١٠)، وعمدة الحفاظ (٢/ ٢٢٤).

[٣] – هو من بنى عامر بن عبيد بن الحارث، جاهلي قديم، وهو من فرسان تميم المعدودين. وكان أحد من يصف الخيل فيحسن. عده ابن سلام في الطبقة السابعة، ممن هم محكمون وفي شعرهم قلة. ينظر طبقات فحول الشعراء (١/ ١٥٥)، والشعر والشعراء (١/ ٢٦٤).

[٤] – التفسير البسيط (١٥/ ٣١٠ – ٣١٢).

[٥] – تفسير الرازي (٢٣/ ٢١١).

[٦] – تهذيب اللغة: (قطع) (١/ ١٨٨).

[٧] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٠٩).

[٨] – الكشاف (٣/ ١٤٧)، تفسير أبي السعود (٦/ ٩٩).

بجذبه إياه حتى ينقطع، فيموت اختناقًا[1]. وقيل: ليقطع الحبلَ بعد الاختناقِ، على أنَّ المرادَ به فرضُ القطعِ[2]. وقيل: (أي: ثم ليقطع النصر إن تهيأ له)[3].

﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ المراد: تقدير النظر وتصوره؛ لأن الأمر بالنظر بعد الاختناق، غير معقول؛ أي: فليتصور في نفسه، وليقدر النظر إن فعل.

﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾؛ أي: فعلُ ذلك بنفسه، وسماه كيدا: لأنه وضعه موضع الكيد، حيث لم يقدر على غيره، أو على وجه الاستهزاء؛ لأنه لم يكد به محسود، وإنما كاد به نفسه، والمراد: ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه[4].

﴿يَغِيظُ﴾ الغيظ أشد غضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه؛ أي: ما يغيظه من النصرة لمحمد صلى الله عليه وسلم[5].

﴿وَالْمَجُوسَ﴾ هم عبدة النار والشمس والقمر[6]. قال الأزهري: (والمجوس معرب، أصله: منْج كُوش، وكان رجلاً صغير الأذنين، هو أول من دان بدين المجوس، ودعاهم إلى المجوسية، فعربته العرب فقالت: مجوس)[7].

﴿يسجد﴾: (السجود: لغة التطامُن والتذلل، ثم أطلق على التذلل لله وعبادته، وهو ضربان: سجود بالاختيار: وهو خاص بالإنسان وبه يستحق الثواب، وسجود بالتسخير والانقياد لإرادته سبحانه: وهو دال على الذلة والافتقار إلى عظمته جلت قدرته[1].

---

[1] – معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٧.

[2] – الكشف والبيان (٧/ ١١)، وتفسير أبي السعود (٦/ ٩٩).

[3] – إعراب القرآن" للنحاس (٣/ ٩٠)، واستحسنه الشوكاني في "فتح القدير" (٣/ ٥٢٢).

[4] – الكشاف (٣/ ١٤٨).

[5] – روح البيان (٦/ ١٥).

[6] – المحرر الوجيز (٤/ ١١٢).

[7] – تهذيب اللغة: (مجس) (١٠/ ٦٠١ – ٦٠٢).

﴿وَالدَّوَابُّ﴾ جمع دابّة، بتشديد الباء؛ لأنه مشتق من الدبيب، والدب والدبيب: مشي خفيف[٢]، والدابة: اسم لما دبّ من الحيوان، مميزة وغير مميزة، وفي التنزيل: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ [سورة النور: ٤٥] ولما كان لمن يعقل ولما لا يعقل قيل: ﴿فَمِنْهُم﴾، ثم قال: ﴿مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ وإن كان أصلها لما لا يعقل؛ لأنه لما خلط الجماعة، فقال: ﴿فَمِنْهُم﴾ جعلت العبارة بمن، والمعنى: كل نفس دابة. وقوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [سورة فاطر: ٤٥]. قيل: إنما أراد العموم، يدل على ذلك ما ينسب إلى ابن عباس أنه قال: (كاد الجُعْل أن يهلك في جُحره من خطيئة ابن آدم)[٣]. وقد غلب هذا الاسم على ما يركب من الدواب، وهو يقع على المذكر والمؤنث، وحقيقته الصفة[٤].

### المطلب الثاني: معاني مفردات الربع الثاني من سورة الحج

﴿خَصْمَانِ﴾ واحده خصم، والخصم في اللغة (ناحية الشيء وطرفه، والخصم طرف الراوية، وطرف الفراش)[٥]، وقيل للخصمين خصمان؛ لأن (كلا من المتخاصمين يأخذ في ناحيةٍ وجانبٍ غير الذين أخذ به صاحبه)[٦].

و﴿خَصْمَانِ﴾: صفة لمحذوف، فكأنه تعالى قال: هذا فريقان خصمان، أي مختصمان، فالخصم صفة وصف بها الفريق، والمراد: فريق المؤمنين، وفريق الكفرة بأقسامه الخمسة[٧]،

---

[١] – ينظر المفردات (ص: ٣٩٦).

[٢] – المفردات (ص: ٣٠٦).

[٣] – أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده في "العقوبات" عن أبي عبيدة بن عبد الله (ص: ١٨٠ رقم ٢٧٣).

[٤] – المحكم (٩/ ٢٧٩).

[٥] – التفسير البسيط (٧/ ٧٢).

[٦] – عمدة الحفاظ (١/ ٥٠٧).

[٧] – تفسير النسفي (٢/ ٤٣٣)، والبحر المديد (٣/ ٥٢٣).

فالمؤمنون خصم، والكفار خصم[1]. ولما كان كل خصم فريقًا يشمل أفراداً، قال: ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾ بصيغة الجمع مراعاة للمعنى، كقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ [سورة الحجرات: ٩][2].

والخصْم يطلق على الواحد والاثنين والجماعة، لأنه في الأصل مصدر، تقول: خصمته أخصمه خصْما[3]، والغالب أنه يوحد ويذكر، وعليه قوله تعالى: ﴿۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١﴾ [سورة ص: ٢١][4]، (فمن ثنّاه وجمعه حمَله على الصفات والأسماء)[5]. ولا يثنّى إلا إذا اختلف النوعان[6] كما في هذه الآية.

﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ﴾؛ أي: قدرت لهم على قدر جثثهم؛ لأن الثياب الجدد تقطع على مقدار بدن من يلبسها، فالتقطيع مجاز عن التقدير بذكر المسبَّب وهو التقطيع، وإرادة السبب وهو التقدير والتخمين، والظاهر أنه بعد ذلك جعل تقطيعها استعارة تمثيلية تهكُّمية شبه إعداد النار وإحاطتها بهم بتفصيل ثياب لهم[7].

﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾: الحميم: الماء الحار الذي انتهى حره واشتد غليانه[8]. والحميم عند ابن الأعرابي[1] من الأضداد، يكون الماء الحار والبارد[2]. وقال سعيد بن جبير[3]: (هو النحاس المذاب)[4].

---

[1] – التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٦٣).

[2] – التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٦٣)، والبحر المحيط (٧/ ٤٩٥)، والدر المصون (٨/ ٢٤٧).

[3] – معاني القرآن للزجاج (٤/ ٣٢٥).

[4] – ينظر الدر المصون (٨/ ٢٤٧).

[5] – التبيان في إعراب القرآن (٢/ ٩٣٧).

[6] – غرائب التفسير وعجائب التأويل، لبرهان الدين الكرماني (٢/ ٧٥٥).

[7] – فتح البيان في مقاصد القرآن (٩/ ٢٩).

[8] – تهذيب اللغة (٤/ ١١)، وتفسير الماتريدي (٧/ ٤٠٢)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٣٢)، والكشاف (٤/ ٢٨١)، وزاد المسير (٤/ ٩٤).

﴿يُصْهَرُ بِهِ﴾؛ الصهر: الإذابة[٥]، وصهر الشحم ونحوه يصهره صهرا: أذابه[٦]. والصهارة: ما ذاب او أذيب منه[٧]. و(المعنى المحوري تميُّع الجامد المتماسك وذوبانه (بحرارة تبلغ ذلك))[٨]. وعلى هذا معنى قول الله: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠﴾، أي يذاب بالحميم الذي يصب من فوق رءوسهم ما في بطونهم من الشحوم[٩].

وروى الأزهري عن ابن السكيت[١٠] أنه يقال: صهرتْه الشمس: إذا اشتد وقعُها عليه. وعن أبي زيد[١] أن الصهر هو الإحراق، يقال: صهرتُه بالنار: أنضجته[٢]. وهذه المعاني لا

---

[١] – هو أبو عبد الله محمد بن زياد الكوفي النحوي، المعروف بـ"ابن الأعرابي"، ولد بالكوفة سنة ١٥٠هـ كان إمامًا في اللغة والنحو والنَّسَب، كثير السماع والرواية، من تصانيفه: النوادر، ومعاني الشعر، والأنواء. توفي سنة (٢٣١هـ). ينظر: طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (ص١٩٥ – ١٩٧)، وإنباه الرواة (٣/ ١٢٨)، ووفيات الأعيان (٤/ ٣٠٦).

[٢] – تهذيب اللغة (٤/ ١١) (حم).

[٣] – هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدي، بالولاء، الكوفي، أبو عبد الله: من سادات التابعين علما، وفضلا، وصدقا، وعبادة، وواحد من كبار مفسري السلف. حبشي الأصل، أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر، أخرج له أصحاب الكتب الستة. قتله الحجاج صبرا عام ٩٥هـ. ينظر وفيات الأعيان (٢/ ٣٧١)، وتذكرة الحفاظ (١/ ٧٦)، وطبقات المفسرين للداودي (١/ ١٨١).

[٤] – تفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٦).

[٥] – العين (٣/ ٤١٢).

[٦] – المحكم (٤/ ٢٠٧).

[٧] – غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، وتهذيب اللغة (٦/ ٦٩)، والمحكم (٤/ ٢٠٧).

[٨] – المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٢٦٤).

[٩] – تفسير الطبري (١٦/ ٤٩٦).

[١٠] – هو يعقوب بن إسحاق، ابن السكيت، أبو يوسف الكوفي: إمام في اللغة والنحو والأدب، ومن أهل الدين والخير والتقوى، لقي فصحاء الأعراب وأخذ عنهم، كان معلما للصبيان في بغداد، ثم أدّب أولاد المتوكل، له: إصلاح المنطق، والألفاظ، والقلب والإبدال، والأمثال. توفي مقتولا سنة ٢٤٤هـ. ينظر: إنباه الرواة (٤/٥٦ – ٦٣)، والبلغة (٣١٨ – ٣١٩)، وبغية الوعاة (٢/ ٣٤٩).

تعارض بينها، ويصح حمل الآية عليها جميعا، ولذلك قال الواحدي: (فمعنى ﴿يُصْهَرُ﴾: يُنضج، وُيحرَّق، وُيذَاب، وُيغْلى. كل هذا صحيح مروي. والمعنى: أن أمعاءهم وشحومهم تذاب وتحرق بهذا الحميم)[٣].

﴿مَقَامِعُ﴾ جمع مِقمعة بكسر الميم، ومِقْمَع أيضا كالمحجن، وهي آلة القمع، يقال: قمَعه يقمعه إذا ضربه بشيء يزجره به ويذله[٤]. والقمع: ضرب الرأس حتى يقعي فينكبّ، أو ينحطّ[٥]، والمقمعة شيء يضرب به على رأس الفيل[٦]. وهي كالهراوة العظيمة، تسمّى: جرزا[٧]، وقيل: المقمعة المطرقة[٨]، أو المقرعة[٩]، أو المرزبة[١٠]. وعبر عنها البقاعي فقال: (هي عمود حديد يضرب به الرأس والوجه ليرد المضروب عن مراده رداً عنيفاً)[١١]. وقال الثعلبي: المقامع سياط من حديد، وسميت بذلك لأنها يقمع بها المضروب، أي يذلل[١٢].

---

[١] – هو سعيد بن أوس بن ثابت، أبو زيد الأنصاري، كان إمامًا نحويًّا، صاحب تصانيف أدبية ولغوية، وغلبت عليه اللغة والنوادر، وكان أنحى من أبي عبيدة والأصمعي، وأغزر في اللغات منهما، توفي سنة ٢١٥هـ عن ثلاث وتسعين سنة. ينظر ترجمته في: طبقات النحويين واللغويين (ص ١٦٥)، وإنباه الرواة (٢/ ٣٠).

[٢] – تهذيب اللغة (٦/ ٦٩).

[٣] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٣٥).

[٤] – الدر المصون (٨/ ٢٥٠).

[٥] – النكت والعيون (٤/ ١٤)، وتفسير العز بن عبد السلام (٢/ ٣٤٩).

[٦] – تفسير القرطبي (١٢/ ٢٧).

[٧] – درج الدرر في تفسير الآي والسور (٢/ ٣٣٣)، والجرز: عمود من حديد أو فضة. (الآلة والأداة: ٦٦).

[٨] – الدر المصون (٨/ ٢٥٠).

[٩] – التسهيل لابن جزي (٢/ ٣٦).

[١٠] – تفسير السمعاني (٣/ ٤٣٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٧).

[١١] – نظم الدرر (١٣/ ٣٠).

[١٢] – الكشف والبيان (٧/ ١٤)، والكشاف (٣/ ١٥٠).

﴿غَمٍّ﴾ (الغم في الأصل: ستر كل شيءٍ. ومنه الغمام لأنه يستر الضوء والشمس)[1].
ويطلق الغم على الحزن الذي يغمُّ القلبَ – أي يستره ويغشيه – بسبب خوف أو فوات مقصود، (وفرق بينه وبين الهم بأنه من أمر ماض، والهم من أمر مستقبل، وظاهر كلام كثيرٍ عدمُ الفرق وشمولُ كل ما يكون من أمر ماض وأمر مستقبل)[2].

﴿يُحَلَّوْنَ﴾ قرأ الجمهور ﴿يُحَلَّوْنَ﴾بضم الياء وشد اللام، مشددة من حلّاه تحلية إذا ألبسه الحلي[3]. والتحلية، وهو التزين، والمعنى: تحليهم الملائكة بأمره تعالى[4].

وقرأ ابن عباس: ﴿يَحْلَون﴾، بفتح الياء واللام وتخفيفها، (وفيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه من حليت المرأة تحلى فهي حال، وكذلك حلي الرجل فهو حال، إذا لبسا الحلي (أو صارا ذوي حلي).

الثاني: أنه من حَلِي بعيني كذا يحلى إذا استحسنه، و«من» مزيدة في قوله: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ فيكون المعنى: يستحسنون فيها الأساور الملبوسة. ولما نقل أبو حيان هذا الوجه عن أبي الفضل الرازي[5] قال: وهذا ليس بجيد، لأنه جعل حلي فعلا متعديا، ولذلك حكم بزيادة ﴿مِنْ﴾ في الواجب، وليس مذهب البصريين، وينبغي على هذا التقدير أن لا يجوز، لأنه لا يحفظ بهذا المعنى إلا لازما، فإن كان بهذا المعنى كانت ﴿مِنْ﴾ للسبب، أي بلباس أساور الذهب يحلون بعين من رآهم، أي يحلى بعضهم بعين بعض[6].

---

[1] – عمدة الحفاظ (٣/ ١٧٤ – ١٧٥).

[2] – روح المعاني (٨/ ٥٠٥).

[3] – المحرر الوجيز (٤/ ١١٥).

[4] – البحر المديد (٣/ ٥٢٤).

[5] – عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن العجلي الرازي: إمام مقرئ جوّال، عالم بالأدب والنحو، كان حسن السيرة متعبدا، يقرئ أكثر أوقاته، له تصانيف منها: جامع الوقوف، واللوامح، وغيرهما (ت ٤٥٤هـ). ينظر غاية النهاية: (١/ ٣٥٨ – ٣٥٩ ت ١٤٨٩)، وبغية الوعاة (٢/ ٧٥).

[6] – البحر المحيط (٧/ ٤٩٧).

وهذا الذي نقله عن أبي الفضل قاله أبو البقاء العكبري[1]، وجوز في مفعول الفعل وجها آخر فقال: ويجوز أن يكون من حلي بعيني كذا إذا حسن، وتكون ﴿مِنۡ﴾ مزيدة، أو يكون المفعول محذوفا و﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ نعت له. فقد حكم عليه بالتعدي ليس إلا، وجوز في المفعول الوجهين المذكورين.

والثالث: أنه من حلي بكذا إذا ظفر به، فيكون التقدير: يحلون بأساور، و﴿مِنۡ﴾ بمعنى الباء، ومن مجيء حلي بمعنى ظفر قولهم: لم يحل فلان بطائل أي: لم يظفر به)[2].

﴿أَسَاوِرَ﴾ أساور جمعُ الجمع، واحده أَسْوِرَة، وواحد أَسْوِرَة سَوار وسِوَار، وهما لغتان فيه[3]. ويقال: بالضم والكسر. أما إسوار فالمعروف أنه واحد أساورة الفرس[4].

قال سعيد بن جبير: (على كل واحد منهم ثلاثة من الأساور: واحد من فضة، وواحد من ذهب، وواحد من لؤلؤ ويواقيت)[5]. وقال أهل المعاني: (السوار: زينة تلبس في الزند من اليد، وهو من زينة الملوك، تسور في اليد وتتوج على الرأس)[6].

---

[1] – هو عبد الله بن الحسين بن عبد الله محب الدين أبو البقاء العُكْبَريّ البغداديّ. المقرئ الفقيه المفسر الفرَضيّ اللغويّ، ولد ببغداد في أوائل سنة ٥٣٨هـ. ووفاته ببغداد. تفقه على مذهب ابن حنبل، وكان معيدا للشيخ أبي الفرج ابن الجوزي في المدرسة، وكان ضريرا. له تصانيف كثيرة منها: التبيان في إعراب القرآن، وتفسير القرآن، وشرح اللمع لِابْنِ جني، واللّباب فِي علل النّحو وغيرها (ت٦١٦هـ). ينظر إنباه الرواة (٢/ ١١٦)، ووفيات الأعيان (٢/ ٢٨٦)، وطبقات المفسرين للداوودي (١/ ٢٣١).

[2] – اللباب (١٤/ ٥١ – ٥٢).

[3] – معاني القرآن للزجاج (٤/ ٢٧٠)، والهداية (٩/ ٥٩٨١).

[4] – الهداية (٦/ ٤٣٧٦).

[5] – التفسير البسيط (١٣/ ٦١٣)، وتفسير البغوي (٥/ ١٦٩)، وزاد المسير (٥/ ١٣٧).

[6] – التفسير البسيط (١٣/ ٦١٣ – ٦١٤).

وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [سورة فاطر: ٣٣]، وقال سبحانه: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [سورة الإنسان: ٢١). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء))[١].

﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والمراد به مكة، وعبر به عنها؛ لأنه المقصود المهم منها.

﴿بِإِلْحَادٍ﴾ الإلحاد: الميل والعدول عن القصد[٢]، يقال: (ألحد فلان: مال عن الحق)[٣]، وأصله إلحاد الحافر، (من اللحد، وهو الحفرة المائلة عن الوسط. وقد لحد القبر: حفَره كذلك، وألحده: جعل له لحدًا[٤]. قال الراغب: (والإلحاد ضربان: إلحاد إلى الشرك بالله، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب. فالأول ينافي الإيمان ويبطله. والثاني: يوهن عُراه ولا يبطله. ومن هذا النحو قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥)، وقوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٠])[٥]. إلا أن الله تعالى بين أن الميل بالظلم هو المراد[٦]. أي بميلٍ إلى الظلم[٧]. قال الشنقيطي: (والمراد بالإلحاد في الآية: أن يميل ويحيد عن دين الله الذي شرعه، ويعم ذلك كل ميل وحيدة عن الدين، ويدخل في ذلك دخولا أوليا الكفر بالله، والشرك به في الحرم، وفعل شيء مما حرمه، وترك شيء مما أوجبه. ومن أعظم ذلك: انتهاك حرمات الحرم)[٨].

---

[١] – أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، ح ٢٥٠، ٢١٩/١)، وينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٢٩).

[٢] – تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٥)، والهداية (٧/ ٤٨٧١)، والبحر المحيط (٧/ ٥٠٠)، واللباب (١٤/ ٦٣)، وغرائب القرآن (٥/ ٧٦)، والقصد (أي الاستقامة المعنوية) كما في روح المعاني (٩/ ١٣٤).

[٣] – المفردات (ص: ٧٣٧).

[٤] – عمدة الحفاظ (٤/ ١٣).

[٥] – المفردات (ص: ٧٣٧).

[٦] – تفسير القرطبي (١٢/ ٣٤).

[٧] – تفسير الخازن (٣/ ٢٥٤).

[٨] – أضواء البيان (٤/ ٢٩٤).

(ومفعول ﴿يُرِدْ﴾ متروك ليفيد العموم، أي ومن يرد فيه مرادا ما جائرا ظالما. وفائدة الحال الثانية أن العدول عن القصد قد يكون بالحق كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ﴾ [سورة الشورى: ٤٠])[١].

﴿بظلم﴾ بغير حق، قال القرطبي: (واختلف في الظلم، فروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾ قال: الشرك. وقال عطاء: الشرك والقتل. وقيل: معناه صيد حمامه، وقطع شجره، ودخوله غير محرم. وقال ابن عمر: (كنا نتحدث أن الإلحاد فيه أن يقول الإنسان: لا والله! وبلى والله! وكلا والله! ولذلك كان له فسطاطان، أحدهما في الحل والآخر في الحرم، فكان إذا أراد الصلاة دخل فسطاط الحرم، وإذا أراد بعض شأنه دخل فسطاط الحل، صيانة للحرم عن قولهم: كلا والله وبلى والله، حين عظّم الله الذنبَ فيه). وكذلك كان لعبد الله بن عمرو بن العاص فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل، وإذا أراد أن يصلي صلى في الحرم، فقيل له في ذلك فقال: إن كنا لنتحدث أن من الإلحاد في الحرم أن نقول كلا والله وبلى والله)، والمعاصي تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات، فتكون المعصية معصيتين، إحداهما بنفس المخالفة، والثانية بإسقاط حرمة البلد الحرام... وروى أبو داود عن يعلى بن أمية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه))[٢]. وهو قول عمر بن الخطاب)[٣].

---

[١] – غرائب القرآن (٥/ ٧٦).

[٢] – أخرجه أبو داود في سننه: (في المناسك، باب تحريم حرم مكة، ح ٢٠٢٠، ٢/٢١٢). وفي سنده ثلاثة مجاهيل كما قال ابن القطان في "بيان الوهم والإيهام" (٣/ ١٦٧)، وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير القسم الأول من المجلد الرابع، ص ٢٥٥، رقم (١٠٨٣)، موقوفا على عمر، وكأنه علَّل المسند بالوقف كما قال المنذري في مختصر سنن أبي داود (٢/ ٤٣٨): وقال الذهبي في الميزان (١/ ٤٢٠): "حديث واهي الإسناد". وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢/ ١٣٢)، وقال الهيثمي عنه في مجمع الزوائد (٤/ ١٠١): (وفيه عبد الله بن المؤمل؛ وثقه ابن حبان، وغيره، وضعفه جماعة). والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (ص: ٢٨، رقم ١٨٤).

[٣] – تفسير القرطبي (١٢/ ٣٤ – ٣٥).

(والأولى حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على الحصر؛ إذ الكلام يدل على العموم)[1].
فيشمل الظلم في هذا الموضع كل معصية لله، (وذلك أن الله عم بقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾، ولم يخصص به ظلما دون ظلم في خبر ولا عقل، فهو على عمومه)[2]. فيدخل في الظلم كل مخالفة بترك واجب، أو فعل محرم، وأما الجائزات كعتاب الرجل امرأته مثلا فليس من الإلحاد، ولا من الظلم[3].

﴿بَوَّأْنَا﴾: «بوأ» هي تعدية باء بالتضعيف، و«باء» معناه رجع، فكأن المبوِّئ يردّ المبوَّأَ إلى المكان. واستعملت اللفظة بمعنى سكن، ومنه قوله تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [سورة الزمر: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [سورة العنكبوت: ٥٨].

وقال الشاعر:

كم من أخٍ ليَ صالح بوّأتُه بيديّ لحدا[4]

والمبوأ المنزل، وبوأه إياه وبوأه له، أي أنزله[5]، (وبوأ تتعدى إلى مفعولين، ولكن دخلت اللام في إبراهيم حملاً على معنى: جعلنا لإبراهيم)[6]. فمعنى الآية: جعلنا مكان البيت مبوأً لإبراهيم[7]، وقال بعض المفسرين وعلى رأسهم الطبري: وطأنا له ومكنا له مكانَ البيت[8].
وقال بعض أهل اللغة: تفسير ﴿بَوَّأْنَا﴾ هاهنا: بيّنا له مكان البيت[9]، وعيَّناه له، وأريناه أصله

---

(١) – البحر المحيط (٧/ ٥٠٠).
(٢) – تفسير الطبري (١٦/ ٥١٠).
(٣) – أضواء البيان (٤/ ٢٩٤).
(٤) – المحرر الوجيز (٤/ ١١٧)، والبحر المحيط (٧/ ٥٠٠).
(٥) – تفسير القرطبي (١٢/ ٣٦).
(٦) – الهداية (٧/ ٤٨٧١).
(٧) – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٢).
(٨) – تفسير الطبري (١٦/ ٥١١)، والكشف والبيان (٧/ ١٧)، والهداية (٧/ ٤٨٧١)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٧٨).
(٩) – التفسير البسيط (١٥/ ٣٥٥).

ليبنيه، حتى بناه في مكانه مسامتًا للبيت المعمور، حيث كان بناه آدم عليه السلام، وكان قد درس بالطوفان وغيره، فلما جاءت مدة إبراهيم عليه السلام أمره الله ببنيانه، فجاء إلى موضعه وجعل يطلب أثرا، فبعث الله ريحا فكشفت عن أساس آدم عليه السلام، فرتب قواعده عليه[1].

وفيه (ما يدل على أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم. وإنما هدي إبراهيم إليها وبوئ لها. وقد ذهب إلى ذلك ذاهبون) كما بين ابن كثير[2] رحمه الله في تفسيره[3]. ويشهد لذلك ما ثبت عن أبي قلابة أنه قال: (لما أهبط الله تعالى آدم قال: (يا آدم، إني مُهبطٌ معك بيتًا يُطاف حوله كما يطاف حول عرشي، ويُصلَّى عنده كما يُصلَّى عند عرشي). فلم يزل كذلك حتى كان الطوفان رفع، فكانت الأنبياء تحجه، يأتونه فلا يعرفون موضعه، حتى بوأه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام)[4].

وقال بعض أهل المعاني: أي (جعلنا مكان البيت له مبوَّأ يرجع إليه بعلامة)[5]. وقال الزمخشري: (واذكر حين جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة، أي: مرجعا يرجع إليه للعمارة

---

[1] – تفسير القرطبي (١٢/ ٣٦)، والبحر المديد (٣/ ٥٢٦)، وينظر ما رواه الطبري عن السدي في ذلك في تفسيره (٢/ ٥٥٨).

[2] – هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي: حافظ محدث، مؤرخ مفسر، من فقهاء الشافعية، قدم دمشق وتتلمذ لكثير من العلماء، على رأسهم المزي وابن تيمية، ولي مشيخة أم الصالح، ثم مشيخة دار الحديث الأشرفية مدة يسيرة، ثم أخذت منه. من مؤلفاته: تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية، واختصار علوم الحديث، وغيرها توفي عام ٧٧٤هـ. ينظر: الدرر الكامنة (١/ ٤٠٠)، وطبقات المفسرين (١/ ١١١ – ١١٣)، وشذرات الذهب (٦/ ٢٣٢).

[3] – تفسير ابن كثير (١/ ٤٣٣).

[4] – أخرجه الطبراني موقوفًا على عبد الله بن عمرو بن العاص في المعجم الكبير (جـ ١٣، ١٤/ ٣٤٣ رقم ١٤١٥٧)، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٢٨٨/٣): (ورجاله رجال الصحيح)، ورواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في "كتاب العرش" (ص٤٠)، والطبري في "تفسيره" (٥٥١/٢)؛ والأزرقي في "أخبار مكة" (٦٣/١)، وقال الذهبي في مختصر العلو للعلي الغفار (١٢٩): (وهو ثابت عن أبي قلابة).

[5] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٥٦).

والعبادة)[1]؛ لأنه لما أودعه الله فيه من اللطائف أهلٌ لِأن يرجع إليه من فارقه ويحنّ إليه، ويشتاق من باعده وينقطع إليه بعض ذريته[2].

﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ المكان مشتق من الكون، أي الموضع الذي يكون فيه[3]، والمكان المتعارف: ما يستقر عليه الشيء ويمنعه من النزول[4].

﴿رِجَالًا﴾؛ جمع راجل، مثل صَاحِب وصِحَابٍ، وقائِم وقِيَام[5]. أي: مُشاة على أرجلهم، ويدل عليه في مقابله: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [سورة الحج: ٢٧]. قال الراغب: (اشتق من الرِّجْل؛ رَجِل وراجل للماشي بالرجل)[6].

﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾؛ أي: وركبانًا على كل بعير ضامر؛ والضامر من الضمور، وهو الهزال، يقال ضمَر يضمر ضمورا، والضامر هنا صفة للبعير المهزول الذي أتعبه السفر وطول السير لبعد الشقة وعظم المشقة[7]، فلا يدخل الحرم إلا وقد ضمَر من طول الطريق[8]. فوصف الله تعالى رواحل الحجاج (بالمآل الذي انتهت عليه إلى مكة، وذكر سبب الضمور فقال: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الحج: ٢٧]، أي أثر فيها طول السفر)[9].

---

[1] – الكشاف (٣/ ١٥٢).

[2] – نظم الدرر (١٣/ ٣٥ – ٣٦).

[3] – ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٠).

[4] – روح المعاني (٩/ ١٣٥).

[5] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٢).

[6] – المفردات (ص: ٣٤٥).

[7] – ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٩)، ونظم الدرر (١٣/ ٣٧).

[8] – تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٦)، والنكت والعيون (٤/ ١٨).

[9] – تفسير القرطبي (١٢/ ٣٩).

وقال الراغب: (الضامر من الفرس: الخفيف اللحم من الأصل لا من الهزال)[1]، والضمور – بهذا المعنى – من محاسن الرواحل والخيل لأنه يعينها على السير والحركة[2].

﴿يأتين﴾: الظاهر عود الضمير على كل ضامر، (لأن الغالب أن البلاد الشاسعة لا يتوصل منها إلى مكة بالركوب)[3]، ولكن قالت طائفة: الضامر وصف للناقة، يقال: ناقة ضامر. ومنه قول الأعشى[4]:

عهدي بها في الحي قد ذرعت ... هيفاء مثل المهرة الضامر[5]

قال القرطبي: (ورد الضمير إلى الإبل تكرمةً لها لقصدها الحج مع أربابها، كما قال: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝١﴾ [سورة العاديات: ١] في خيل الجهاد تكرمةً لها حين سعت في سبيل الله)[6].

وقالت طائفة «الضامر»: هو كل ما اتصف بالضمور من جمل أو ناقة وغير ذلك، لكنه يتضمن معنى الجماعات أو الرفاق، فيحسن لذلك قوله: ﴿يَأۡتِينَ﴾، وهذا هو الذي استظهره ابن عطية[7].

﴿فَجٍّ﴾ قال الزجاج: (كل مُنخرَق بين جبلين فهو فج)[1]. وقال الليث[2]: الفج: الطريق الواسع بين الجبلين[3]. والفج في كلام العرب: تفريجك بين الشيئين، يقال: فججت رجلي

---

[1] – المفردات (ص: ٥١٢).

[2] – التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٤).

[3] – البحر المحيط (٧/ ٥٠٢).

[4] – هو أبو بَصير، ميمون بن قيس، ويدعى (الأعشى الكبير) تمييزًا له عن غيره: من فحول شعراء الجاهلية، من أصحاب المعلقات، وكان يلقب بصناجة العرب، أدرك الإسلام آخر عمره، ولكنه مات قبل أن يسلم. ينظر ترجمته في: الشعر والشعراء (ص ١٥٤)، ومعجم الشعراء (ص: ٤٠١)، وخزانة الأدب (١/ ١٧٥).

[5] – المحرر الوجيز (٤/ ١١٨).

[6] – تفسير القرطبي (١٢/ ٣٩).

[7] – المحرر الوجيز (٤/ ١١٨).

أفجهما فجًّا، إذا وسعت بينهما. ومنه قيل للطريق بين جبلين: فج؛ لأنه كأنه فرج بين الجبلين[٤]. ويجمع الفجّ على فِجاج بكسر الفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٣١]. إذاً الفج: الطريقُ الواسعُ الذي يكتنفه جبلان، ثم استعمل في سائر الطرق اتساعا[٥].

﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد[٦]، ومنه قول الشاعر:

إذا الخيل جاءت من فجاج عميقة يمد بها في السير أشعث شاحبُ[٧]

وأصل العمق: البعد سفلًا، يقال: بئر عميق، إذا كانت بعيدة القعر[٨].

﴿تَفَثَهُمْ﴾؛ أي: أوساخهم، التفث (قيل: أصله من التف، وهو وسخ الأظفار، قلبت الفاء ثاء ك(مغثور) في مغفور)[٩]. (وحكى قطرب[١٠]: تفث الرجل، أي: كثر وسخه في

---

[١] – معاني القرآن (٣/ ٣٩٠)، وفي تفسير السمرقندي (٢/ ٤٢٥)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٥٩): (مخترق).

[٢] – هو الليث بن نصر بن سيار الخراساني، ويقال: الليث بن المظفر بن نصر بن سيّار، إمام لغوي، صاحب نحو وغريب وشعر، ومن أصحاب الخليل، ويقال: إنه هو الذي ألف كتاب "العين". ولم تؤرخ وفاته. ينظر: معجم الأدباء (١٧/ ٤٣)، وإنباه الرواة (٣/ ٤٢)، وبغية الوعاة (٢/ ٢٧٠).

[٣] – ينظر تهذيب اللغة (١٠/ ٥٩٧ – ٥٠٨).

[٤] – تهذيب اللغة (١٠/ ٢٧١)، والتفسير البسيط (١٥/ ٦١).

[٥] – تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٠).

[٦] – تفسير الطبري (١٦/ ٥١٩)، ومعاني القرآن للنحاس (٤/ ٣٩٩)، والكشف والبيان (٧/ ١٨)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٥٩).

[٧] – البحر المحيط (٧/ ٤٧٨).

[٨] – المفردات (ص: ٥٨٧)، والبحر المحيط (٧/ ٤٧٨).

[٩] – الدر المصون (٨/ ٢٦٨).

[١٠] – هو: أبو علي محمد بن المستنير البصري الملقب بقطرب، من الموالي: أحد أئمة اللغة والنحو، تتلمذ على سيبويه وغيره من علماء البصرة، وكان على مذهب المعتَزلة، له من التصانيف: النوادر، الصفات، والأصوات، والعلل في النحو، وإعراب القرآن، وغير ذلك. توفي سنة ٢٠٦هـ. ينظر: نزهة الألباء (ص ٧٦)، وإنباه الرواة (٣/ ٢١٩ – ٢٢٠)، وبغية الوعاة (١/ ٢٤٢).

سفره... وقال المبرد: أصل التفث في كلام العرب كل قاذورة تلحق الإنسان فيجب عليه نقضها...قال نفطويه[1]: سألت أعرابيا فصيحا ما معنى قوله: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾ [سورة الحج: ٢٩]، فقال: ما أفسر القرآن، ولكنا نقول للرجل: ما أتفثك، أي: أوسخك وما أدرنك)[2]. يقال: امرأة تفثة: إذا كانت خبيثة الريح[3]. والمراد بقضاء التفث إذاً: إزالة الوسخ والقذارة[4]. قال أمية بن الصلت:

ساخين آباطهم لم يقذفوا تفثا وينزعوا عنهم قملا وصئبانا[5]

وفسر النضْر بن شُمَيل التفث: الشعث[6]، قال: (رجل تَفِث: أي: مُغْبرٌّ شعِث، لم يدَّهن ولم يستحدّ)، وجعل قضاء التفث إذهاب الشعث بالحلق وما أشبهه.

والمقصود به في تفسير الآية على أصح الأقوال التحلل من الإحرام و(حلق الرأس، وأخذ الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وقص الأظفار، والأخذ من العارضين)[7].

---

[1] – هو إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي العتكي، أبو عبد الله: إمام في النحو، ولد سنة٢٤٤هـ، وكان فقيهًا، رأسًا في مذهب داود، مسندا في الحديث ثقة، جالس الملوك والوزراء، وأتقن حفظ السيرة ووفيات العلماء، مع المروءة والفتوة والظرف، وكان يؤيد مذهب سيبويه في النحو، فلقبوه (نفطويه)، له عدة كتب، منها: كتاب التاريخ، وغريب القرآن، وكتاب الوزراء، وأمثال القرآن، (ت٣٢٣هـ) ببغداد. ينظر: تاريخ بغداد (٦/ ١٥٩ – ١٦٢)، وإنباه الرواة (١/ ٢١١ – ٢١٧)، ووفيات الأعيان (١/ ١١).

[2] – تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢١ – ٢٢٢).

[3] – تفسير الماتريدي (٧/ ٤١٠).

[4] – زاد المسير (٣/ ٢٣٤)، والكشاف (٣/ ١٥٣)، واللباب (١٤/ ٧٧). وإنما فسر القضاء بالإزالة (لأنّ القضاء في الأصل القطع والفصل، فأريد به ذلك مجازاً)، كما قال الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي (٦/ ٢٩٣)، وعبر الزمخشري عنه (٣/ ١٥٣) بأن المراد (قضاء إزالة التفث...والتعبير بالقضاء لأنه لمضي زمان إزالته عد قضاء لما فات). وقد فسر غلام ثعلب قضاء التفث في "ياقوتة الصراط" (ص: ٣٦٩) بقوله: (قَضَاء حوائجهم من الْحلق، والتنظيف، وَأخذ الشّعْر، وَرفع الْوَسخ).

[5] – الكشف والبيان (٧/ ٢٠).

[6] – الغريبين (١/ ٢٥٦).

[7] – زاد المسير (٣/ ٢٣٤).

وقيل: قضاؤه نقضه وادِّهانه، فالحاج أشعث أغبر، لم يدَّهن ولم يستحدَّ، فإذا قضى نسكه، وخرج من إحرامه بالحلق، والقلْم، وقص الأظفار، ولبس الثياب، ونحو ذلك، فهذا قضاء تفثه)[1].

وقال ابن عمر وابن عباس: قضاء التفث مناسك الحج كلها. وقال مجاهد: هو مناسك الحج وأخذ الشارب ونتف الإبط وحلق العانة وقلم الأظفار. وبين ابن عطية وجه التلازم بينها فقال: (و«التفث» ما يصنعه المحرم عند حله من تقصير شعر وحلقه وإزالة شعث ونحوه من إقامة الخمس من الفطرة حسب الحديث، وفي ضمن ذلك قضاء جميع مناسكه إذ لا يقضى التفث إلا بعد ذلك)[2].

ورجح ابن عاشور أن المراد بالتفث أعمال الحج فقال: (وعندي: أن فعل ﴿لْيَقْضُواْ﴾ ينادي على أن التفث عمل من أعمال الحج، وليس وسخا ولا ظفرا ولا شعرا. ويؤيده ما روي عن ابن عمر وابن عباس آنفا. وأن موقع ﴿ثُمَّ﴾ في عطف جملة الأمر على ما قبلها ينادي على معنى التراخي الرُّتبي فيقتضي أن المعطوف ب﴿ثُمَّ﴾ أهم مما ذكر قبلها فإن أعمال الحج هي المهم في الإتيان إلى مكة، فلا جرم أن التفث هو من مناسك الحج)[3].

﴿نُذُورَهُمْ﴾ (النذر: التزام قربة لله تعالى لم تكن واجبة على ملتزمها بتعليق على حصول مرغوب أو بدون تعليق، وبالنذر تصير القربة الملتزمة واجبة على الناذر. وأشهر صيغة: لله عَلَيَّ ...)[4].

(ثم يحتمل ذلك ما أوجبه الدخول في الحج من أنواع المناسك، ويحتمل أن يكون المراد ما أوجبوه بالنذر الذي هو القول، وهذا القول هو الأقرب؛ فإن الرجل إذا حج أو اعتمر فقد

---

[1] – زاد المسير (٣/ ٢٣٤).

[2] – المحرر الوجيز (٤/ ١١٩).

[3] – أحكام القرآن (٣/ ٣٠٤)، ومثله في البحر المحيط (٧/ ٥٠٣).

[4] – التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٠).

يوجب على نفسه من الهدي وغيره ما لولا إيجابه لم يكن الحج يقتضيه فأمر الله تعالى بالوفاء بذلك)[1]. وبهذا جاء التفسير عن مجاهد حيث قال: (نذر الحج والهدي، وما نذر الإنسان على نفسه من شيء يكون في الحج)[2].

(وقال بعضهم: يعني الذين نذروا أعمال البر في أيام حجهم أمرهم الله بالوفاء بها. وربما ينذر الرجل أن يتصدق إن رزقه الله لقاء الكعبة. وإن كان على الرجل نذور مطلقة لا يتقيد بأهل بلدة مخصوصة فالأفضل أن يتصدق ويهدي إلى الكعبة وأهلها فذلك قوله: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾، أي: وليتموها بقضائها، ولذلك لم يقل بنذورهم كما قال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: ١١١]، وقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ﴾ [سورة الفتح: ١٠]؛ لأن المراد به الإتمام. والإتمام لا يقتضي الجارة)[3].

﴿وليطوفوا﴾ هذا الطواف هو طواف الإفاضة، ولا خلاف في ذلك بين المتأولين[4].

﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أصل "العتق" التقدم في الزمان أو المكان أو الرتبة. ومن ثم قيل للقديم: عتيق[5]. وبذلك فسر الحسن وابن زيد فقالا: البيت القديم، ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [سورة آل عمران: ٩٦][6]. وعلى هذا القول

---

[1] – تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٢).

[2] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٢٩).

[3] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٧٣). ونحوه في زاد المسير (٣/ ٢٣٤).

[4]– فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٣١).

[5] – عمدة الحفاظ (٣/ ٢٧).

[6] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٤).

﴿ٱلۡعَتِيقِ﴾: فعيل، من عتق يعتق إذا صار عتيقًا قديمًا[1]. ومال إليه ابن عطية فقال: (وهذا قول يعضده النظر)[2].

وقيل: العتيق الذي أعتق من الغرق أيام الطوفان، ودليل هذا القول: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [سورة الحج: ٢٦]، وهذا دليل أن البيت رفع وبقي مكانه[3].

وقيل: أُعتق من الجبابرة، فلم يسلط عليه جبار أراد دخوله، ولكن يذل له ويتواضع. وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة[4]، وهو أكثر ما جاء في التفسير، وروي في ذلك حديث مرفوع، ولكنه ضعيف[5]. وهذا يشهد له التاريخ، فكم جبار سار إليه ليهدمه فأهلكه الله[6].

---

[1] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٧٦).

[2] – المحرر الوجيز (٤/ ١١٩).

[3] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٤).

[4] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٧٥).

[5] – روى ابن الزبير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما سَمَّى الله البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة، فلم يظهر عليه جبار قط). رواه الترمذي في سننه: (كتاب التفسير، سورة الحج، ح ٣١٧٠، ٣٢٤/٥) وقال: (حسن صحيح)، والحاكم في مستدركه (كتاب التفسير، سورة الحج، ح ٣٤٦٥، ٤٢١/٢) وصححه على شرط البخاري، وتعقبه الذهبي أنه على شرط مسلم. والبزار في مسنده (٦/ ١٧٢، ح ٢٢١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (كتاب الإيمان، حديث الكعبة والمسجد الحرام والحرم كله، ح ٣٧٢١، ٥/ ٤٦٣). وضعفه الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٣/ ٢٩٦)، بعبد الله بن صالح كاتب الليث. وضعف هذا الحديث الألباني كما في "ضعيف الجامع" (٢/ ٢١٠).

[6] – تفسير البيضاوي (٤/ ٧٠)، والبحر المحيط (٧/ ٥٠٣). وقال أبو حيان: (قصده تُبّع ليهدمه فأصابه الفالج، فأشار الأخيار عليه أن يكف عنه وقالوا: له ربٌّ يمنعه؛ فتركه وكساه وهو أول من كساه، وقصده أبرهة فأصابه ما أصابه وأما الحجاج فلم يقصد التسليط على البيت لكن تحصن به ابن الزبير فاحتال لإخراجه ثم بناه). وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٥٢): (فإن ذكر ذاكرٌ الحجاجَ بن يوسف ونصبَه المنجنيق على الكعبة حتى كسرها قيل له: إنما أعتقها عن كفار الجبابرة، لأنهم إذا أتوا بأنفسهم متمردين ولحرمة البيت غير معتقدين، وقصدوا الكعبة بالسوء فعصمت منهم ولم تنلها أيديهم، كان ذلك دلالة على أن الله عز وجل صرفهم عنها قسرا. فأما المسلمون الذين اعتقدوا حرمتها فإنهم إن كفوا عنها لم يكن في ذلك من الدلالة على منزلتها عند الله مثل ما يكون منها في كف الأعداء، فقصر الله تعالى هذه الطائفة عن الكف بالنهي والوعيد، ولم يتجاوزه إلى الصرف بالإلجاء والاضطرار، وجعل الساعة موعدهم، والساعة أدهى وأمر).

وقال سفيان بن عيينة: سمي بذلك لأنه لم يُمْلَك قط. وقال مجاهد في رواية عبيد المكتب عنه: (إنما سمي البيت العتيق لأنه ليس لأحد فيه شيء)[١]. وعلى هذا سمي بذلك لأنه لم يدَّعِه أحد من الناس[٢]. فمعنى العتيق: المحرَّر[٣].

وعلى هذه الأقوال كلها العتيق بمعنى: المعتَق. يقال: أعتقت المملوك فهو معتق وعَتِيقٌ. فالبيت مُعتقٌ من الجبابرة، ومن مُلك الناس، ومن الغرق[٤].

وقيل: العتيق: الجيد، من قولهم: عتاق الخيل وعتاق الطير، وردّه الواحدي فقال: (وقول من قال إن العتيق: بمعنى الكريم من قولهم: فرس عتيق ليس بشيء؛ لأن معنى العتيق في الخيل: السابق، يقال عتقت الفرس إذا سبقت الخيل فنجت، وليس يحسن هذا المعنى في البيت)[٥].

وقيل: الذي يُعتق الله فيه رقاب المذنبين من العذاب. ورده ابن عطية من جهة التصريف[٦]. وتعقبه أبو حيان فقال: (ولا يردُّه التصريف لأنه فسره تفسيرَ معنى، وأما من حيث الإعراب فلأن العتيق فعيل بمعنى مُفعِل، أي مُعتِق رقاب المذنبين، ونسب الإعتاق إليه مجازا، إذ بزيارته والطواف به يحصل الإعتاق، وينشأ عن كونه معتقا أن يقال فيه: يعتق فيه رقاب المذنبين)[٧].

(وقيل: العتيقُ الكريمُ، والعتقُ الكرمُ. قال طرَفة[٨] يصف أذُن الفرس:

---

[١] – تفسير الطبري (١٨/ ٦١٥).

[٢] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٧٥).

[٣] – البحر المحيط (٧/ ٥٠٣).

[٤] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٧٦).

[٥] — المصدر نفسه (١٥/ ٣٧٦).

[٦] – المحرر الوجيز (٤/ ١١٩).

[٧] – البحر المحيط (٧/ ٥٠٣).

[٨] – هو طرفة بن العبد بن سفيان أبو إسحاق البكري الوائلي. وطرفة لقبه، واسمه عمرو، شاعر جاهلي مقلّ، من شعراء المعلقات. يعدّ بعد امرئ القيس في الشعر. ينظر: طبقات فحول الشعراء (١/ ١٣٧).

مؤلَّلتـــان تعـــرِف العتـــقَ فيهمـــا كسـامعتيْ مـذعورةٍ وسـط ربـرب[1]

وقال ابن عطية: (ويحتمل أن يكون الْعَتِيقِ صفة مدح تقتضي جودة الشيء، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (حملت على فرس عتيق) الحديث، ونحوه قولهم: كلام حرّ وطين حرّ)[2].

وجميع هذه الأقوال لها وجه صحيح لائق بالكعبة[3]، وأقواها هو القول الأول والثاني.

﴿حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ الحرمات بضمتين: جمع حُرُمة- بضمتين-: وهي ما يجب احترامه ولا يحل هتكه[4].

(قال الليث: الحرمة ما لا يحل انتهاكه، وتقول: فلان له حُرمة، أي تحرّم منا بصحبة أو بحق وذمة)[5]. وقال الزجاج: (الحرمة: ما وجب القيام به وحرم تركه والتفريط فيه)[6].

وأما معنى الحرمات – هاهنا - فيحتمل الخصوص بما يتعلق بالحج[7]، وأن الحرمات المقصودة هنا هي أفعال الحج المشار إليها في قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [سورة الحج: ٢٩]، بدلالة اتصالها بها[8]، وهذا ما فسره به الكلبي[9] قال: فعل ما أمر به من

---

[1] – تفسير القرطبي (١٢/ ٥٣)، والمؤللتان: مثنى المؤللة، وهي الحادة. ينظر ديوان طرفة بن العبد (ص: ٢٣)، إلا أن شطره الثاني على هذا النحو: (كسامعتيْ شاة بحوْمل مُفرَد) .

[2] – المحرر الوجيز (٤/ ١١٩).

[3] ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٣١)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٤)، وتيسير البيان لأحكام القرآن (٤/ ٢٩).

[4] – الكشاف (٣/ ١٥٤)، وروح المعاني (٩/ ١٤١)، ومحاسن التأويل (٧/ ٢٤٣)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٢).

[5] – العين (٣/ ٢٢٣)، وتهذيب اللغة (٥/ ٣٠) (حرم).

[6] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٤)، ونحوه عند الهروي في الغريبين (٢/ ٤٢٨).

[7] – الكشاف (٣/ ١٥٤)، والبحر المحيط (٧/ ٥٠٤).

[8] – التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٦٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٤).

[9] – هو أبو النضر محمد بن السائب بن بشر الكلْبي الكوفي، العلامة الأخباري، برز في علم النسب والتفسير، إلا أنه اتهم بالكذب ورمي بالرفض، فتركت روايته، ألف في تفسير القرآن، وتوفي عام (١٤٦هـ). ينظر في ترجمته: وفيات الأعيان (١/ ٦٢٤)، وتهذيب التهذيب (٣/ ٥٦٩)، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/ ١٤٩).

المناسك[1]، ويدخل في ذلك تعظيم المواضع، فعن ابن زيد قال: (الحرمات: المشعر الحرام، والبيت الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، هؤلاء الحرمات)[2].

وقال عطاء: (هي معاصي الله)[3]. وعلى هذا الحرمات: هي ما نهي عنها، ومنع من الوقوع فيها وانتهاكها[4]، وتعظيمها: ترك ملابستها[5].

وقال مجاهد: (الحرمة مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه)[6]. فزاد مجاهد المناسك والمأمور بقيامها، وقد جمع في هذا القول المأمورَ به والمنهي عنه، فالمأمور به من مناسك الحج حرم التفريط فيه، والمنهي عنه من المعاصي حرم ملابستها، فهي كلها حرمات)[7].

(وقال ابن عباس في رواية عطاء: يريد فرائض الله عز وجل وسننه. وهذا القول هو أجمع الأقوال لأنه يجمع المأمور به والمنهي عنه)[8]. (ومعنى التعظيم: العلم بأنها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها)[9].

---

[1] – النكت والعيون (٤/ ٢١).

[2] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٤). قال ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٢): (فقصره على الذوات دون الأعمال. والذي يظهر أن الحرمات يشمل الهدايا والقلائد والمشعر الحرام وغير ذلك من أعمال الحج، كالغسل في مواقعه، والحلق ومواقيته ومناسكه).

[3] – ذكره السيوطي في "الدر المنثور" ٦/ ٤٤ عنه، وعزاه لعبد بن حميد.

[4] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٧٧).

[5] – التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٦٩)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٣).

[6] – تفسير مجاهد (ص: ٤٨٠)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٣٤).

[7] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٧٧).

[8] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٧٧)، وهذا ما قواه القرطبي في تفسيره (١٢/ ٥٤).

[9] – الكشاف (٣/ ١٥٤).

ومعنى الآية كما قال الطبري: (ومن يجتنب ما أمره الله باجتنابه في حال إحرامه تعظيما منه لحدود الله أن يواقعها وحُرَمه أن يستحلها، فهو خير له عند ربه في الآخرة)[1]. (والظاهر من الآية عموم كل حرمة في الحج وغيره كما يفيده اللفظ وإن كان السبب خاصا)[2].

﴿الرِّجْسَ﴾ الرِّجْسُ: الشيء القذر، وكل قذر رجس[3]. قال الراغب: (والرِّجْسُ يكون على أربعة أوجه: إمّا من حيث الطّبع، وإمّا من جهة العقل، وإمّا من جهة الشرع، وإمّا من كلّ ذلك كالميتة، فإنّ الميتة تعاف طبعا وعقلا وشرعا، والرِّجْسُ من جهة الشّرع: الخمر والميسر، وقيل: إنّ ذلك رجس من جهة العقل، وعلى ذلك نبّه بقوله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [سورة البقرة: ٢١٩]، لأنّ كلّ ما يوفي إثمه على نفعه فالعقل يقتضي تجنّبه، وجعل الكافرين رجسا من حيث إنّ الشّرك بالعقل أقبح الأشياء، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [سورة التوبة: ١٢٥])[4]، قال الزمخشري: (وسمى الأوثان رجساً وكذا الخمر والميسر والأزلام على طريق التشبيه؛ يعني أنكم كما تنفرون بطباعكم من الرجس وتجتنبونه فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة، ونبه على هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [سورة المائدة: ٩٠] جعل العلة في اجتنابه أنه رجس، والرجس مجتنب)[5].

وقال الرازي: (وسمى الأوثان رجسا لا للنجاسة، لكن لأن وجوب تجنبها أوكد من وجوب تجنب الرجس، ولأن عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات. ثم قال الأصم[6]: إنما وصفها

---

[1] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٤).

[2] – فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٣٤).

[3] – تهذيب اللغة (١٠/ ٣٠٧).

[4] – المفردات (ص: ٣٤٢).

[5] – الكشاف (٣/ ١٥٤)، والسراج المنير (٢/ ٥٥١).

[6] – هو عبد الرحمن بن كيسان، أبو بكر الأصم، شيخ المعتزلة. كان من أفصح الناس وأورعهم وأفقههم، ديّناً وقوراً، صبوراً على الفقرِ، منقبضاً عن الدولة، وكان فيه ميلٌ عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه. وله من الكتب: كتاب

بذلك لأن عادتهم في المتقربات أن يتعمدوا سقوط الدماء عليها، وهذا بعيد وقيل: إنه إنما وصفها بذلك استحقارا واستخفافا وهذا أقرب)[١].

وقيل: إنما قال الرجس من الأوثان؛ (لأنها سبب الرجس، وهو المأثم في قول الكلبي)[٢]، أو لأنها تؤدي إلى الرجس الذي هو العذاب[٣] في قول عطاء وابن زيد[٤].

وقال الزجاج: (﴿مِّنَ﴾ هاهنا لتخليص جنس من أجناس، المعنى: فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن)[٥].

وهذا قول أكثر المفسرين، جعلوا ﴿مِّنَ﴾ هاهنا تبيينًا للجنس؛ (وعلى هذا الرجس: الوثن، سمي رجسًا كما سمي عبادتها رجسًا في القول الأول. وليس الرجس في هذه الآية من القذارة والاستقذار في شيء)[٦].

﴿الأوثان﴾: جمع وثن. و(أصل الأوثان عند العرب: كل تمثال من خشب أو حجارة أو ذهب أو فضة أو نحاس ونحوها، وكانت العرب تنصبها وتعبدها. وكانت النصارى تنصب الصليب، وهو كالتمثال، تعظمه وتعبده، ولذلك سماه الأعشى وثنا، فقال:

تطـــوف العُفـــاة بأبوابـــه ... كطـوْف النصـارى ببيـتِ الـوثنْ

---

"تفسير القرآن"، وكتب كثيرة ذكرها ابن النديم. توفي سنة (٢٠٠ هـ)، وقيل: (٢٠١ هـ). ينظر "الفهرست" لابن النديم (ص ٢٩٨)، وسير أعلام النبلاء (٩/ ٤٠٢)، ولسان الميزان لابن حجر (٢/ ٤٢٧).

[١] – تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٣).

[٢] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٨١). وقول الكلبي نسبه إليه كذلك الثعلبي في الكشف والبيان (٤/ ١٨٨)، والبغوي في تفسيره (٣/ ١٨٧).

[٣] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٨١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٤).

[٤] – قول ابن زيد رواه عنه الطبري في تفسيره (٩/ ٥٥٢)، وقول عطاء نسبه إليه البغوي في تفسيره (٣/ ١٨٧).

[٥] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٥).

[٦] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٨٢).

أراد بالوثن: الصليب)[1]. وسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصليبَ وثنًا، حيث قال عدي بن حاتم رضي الله عنه وقد قدم عليه وفي عنقه صليبٌ من ذهب: ((اطرح عنك هذا الوثن))[2]، أراد به الصليبَ.

واشتقاق هذا اللفظ من قولهم: وَثَن الشيء بالمكان، إذا أقام به وثبت[3]. والواثن: الشيء المقيم الراكد في مكانه. قال رؤبة[4]:

..... على أخلاء الصَّفاء الوُثَّن[5]

(وسمي الصنم وثنا لأنه ينصب ويركز في مكان، فلا يبرح عنه)[6].

﴿الزُّورِ﴾ الزور: الباطل والكذب[7]. و(الزاء والواو والراء أصل واحد يدل على الميل والعدول)[8]. والزُّور مشتق من الزَّوَرُ[9]، وهو: ميل في الزَّوْر، والزَّوْر أعلى الصدر، (والْأَزْوَرُ: المائلُ الزّوْر، وقوله: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ﴾ [سورة الكهف: ١٧]، أي: تميل...يقال: تَزَاوَرَ عنه،

---

[1] – تهذيب اللغة (١٥/ ١٠٥)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٨٠).

[2] – أخرجه الترمذي في سننه (كتاب: التفسير، باب سورة براءة، ح ٣٠٩٥، ٥/ ٢٧٨)، والطبراني في "الكبير" (١٧/ ٩٢). وقد حسّنه ابن تيمية في كتابه "الإيمان" (ص ٦٤)، والألباني في "غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام" ص ١٩، ٢٠.

[3] – جمهرة اللغة (١/ ٤٣٤)، التفسير البسيط (١٥/ ٣٨٠).

[4] – هو أبو العجاج رؤبة بن العجاج عبد الله بن رؤبة التميمي: الراجز المشهور، كان رأسًا في اللغة، وكان هو ووالده أرجز الناس، وكان أكثر شعرا من أبيه وأفصح، لحق الدولة العباسية كبيرا، وكان مقيما بالبصرة، قيل إنه توفي سنة ١٤٥ هـ. ينظر الشعر والشعراء (ص ٣٩٢)، والخزانة (١/ ٨٩).

[5] – العين (٨/ ٢٤٢)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٨٠).

[6] – تفسير القرطبي (١٢/ ٥٤).

[7] – تهذيب اللغة (١٣/ ١٦٣)، والمحكم (٩/ ١٠١).

[8] – مقاييس اللغة (٣/ ٣٦)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٥).

[9] – ينظر الكشاف (٣/ ١٥٥)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢٠).

وانْزَوَرَّ عنه، ورجلٌ أَزْوَرُ، وقومٌ زَوَّرٌ، وبئرٌ زَوْرَاءُ: مائلة الحفر)[1]، وسمي الكذب زورا لأنه مائل عن الحق[2]، منحرف عن الواقع[3]، و(كل ما عدا الحق فهو كذب وباطل وزور)[4].

(وفي المراد بقول الزور أربعة أقوال: أحدها: شهادة الزور، قاله ابن مسعود. والثاني: الكذب، قاله مجاهد. والثالث: الشرك، قاله أبو مالك. والرابع: أنه قول المشركين في الأنعام: هذا حلال، وهذا حرام، قاله الزجاج)[5]، واستظهره ابن عطية[6]. والراجح أن المراد هنا قول الزور على العموم، وأعظمه الشرك بالله بأي لفظ كان[7]. (وجمعا في قران واحد لأن الشرك من باب الزور؛ لأن المشرك يزعم أن الوثن يستحق العبادة، فكأنه قال: فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور، واجتنبوا قول الزور كله)[8].

﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ فهو من خَطِفَ يخطَفُ، والخَطْفُ والاختطاف: الأَخْذُ والاختلاس بسرعة[9]، ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [سورة البقرة: ٢٠].

وقرأ نافع ﴿فتَخَطَّفه﴾ بالتشديد، وهو في الأصل ("فَتَخْتَطِفه" فأدغم التاء في الطاء، وألقى حركة التاء على الخاء ففتحها، ومن قَالَ بكسر الخاء والطاء، كسر الخاء لسكونها

---

[1] – المفردات (ص: ٣٨٧).

[2] – مقاييس اللغة (٣/ ٣٦)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٥).

[3] – الكشاف (٣/ ١٥٥)، وروح المعاني (٩/ ١٤٢).

[4] – تفسير القرطبي (١٢/ ٥٥).

[5] – زاد المسير (٣/ ٢٣٥).

[6] – ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٢٠).

[7] – فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٣٤)، وروح المعاني (٩/ ١٤٢).

[8] – البحر المحيط (٧/ ٥٠٤).

[9] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٥)، المفردات (ص: ٢٨٦).

وسُكُون الطاء، ومن كسر التاء والخاء والطاء – وهي قراءة الحسن – فهو على أن الأصل تَخْتَطِفُه)[1].

والمعنى كما قال ابن عباس: تخطف لحمه. وفسره السمرقندي يعني: تختلسه الطير[2]، وقال الشربيني: (أي: تأخذه بسرعة وهو نازل في الهواء قبل أن يصل إلى الأرض)[3]، وقال القرطبي: (أي تقطعه بمخالبها. وقيل: هذا عند خروج روحه وصعود الملائكة بها إلى سماء الدنيا، فلا يفتح لها فيرمى بها إلى الأرض، كما في حديث البراء)[4].

﴿مكان سحيق﴾ السحيق: البعيد، ومنه قولهم: أسحقه الله، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [سورة الملك: ١١]، ومنه قوله عليه السلام ((فسحقا فسحقا))[5]، ومنه: نخلة سَحُوق، للبعيدة في السماء[6]. ويحتمل أن يكون من السحق بمعنى التفتيت، والسحيق المكان الذي صير الساقط فيه مسحوقا مكسرا[7].

﴿شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ واحدُها شَعِيرة، وهي من قولهم: شعرتُ به، أي: علمتُه[8]، فشعائر الله: مُتَعَبَّداته التي أشعرها الله، أي: جعلها أعلامًا لنا[9]، وهي كل شيء جُعل علَمًا من أعلام

---

[1] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٥).

[2] – بحر العلوم (٢/ ٤٥٨).

[3] – السراج المنير (٢/ ٥٥١).

[4] – تفسير القرطبي (١٢/ ٥٥).

[5] – أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الرقاق، باب في الحوض، ح ٦٢١٢، ٥/٢٤٠٦)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم وصفاته، ح ٢٢٩١، ٤/ ١٧٩٣).

[6] – المحرر الوجيز (٤/ ١٢٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٥).

[7] – ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٨١)، وبيان المعاني (٦/ ١٧١).

[8] – معاني القرآن للزجاج (١/ ٢٣٣)، والغريبين (٣/ ١٠٠٧) (٣/ ١٠٠٨).

[9] – معاني القرآن للزجاج (٢/ ١٤٢)، والتفسير البسيط (٣/ ٤٣٥).

طاعته[1]. وتشمل كلّ ما كان من مَشعر، أو موقف، أو مسعًى، أو منحر، وهي كلّها معلومات[2].

ويحتمل أن تكون الشعائر مشتقة من الإشعار، فشعيرة (فعيلة بمعنى مُفْعَلَة، والمِشْعَرة: المِعْلَمة، والإشعار: الإعلام من طريق الإحساس، والشعر: العلم من طريق الحس...وكل شيء أُعلِم فقد أشعر. ومنه السنّة في إشعار الهدي، هذا معنى الشعائر في اللغة، ثم كل شيء جُعل علماً على شيء، أو أعلم بعلامة جاز أن يُسمّى شعيرة)[3].

ولهذا تسمى الهدايا التي تهدى إلى مكة من البُدْن: شعائر؛ لأنها مُشعَرةٌ بالدم، فهي تُطعن بحديدة في سنامها من جانبها الأيمن حتى يخرج الدم، وتُجَلَّل وتُقَلَّد علامةً على إهْدَائها[4]، ومنه قول الكميت:

نُقَــتّلهم جــيلًا فجــيلًا تــراهم  شــعائرَ قُــربانٍ بِهِــم يُتَقَــرَّبُ[5]

قال الهرَوي: (وسمعت الأزهري يقول: الشعائر: المعالم التي ندب الله إليها وأمر بالقيام بها. وقال الفراء والأخفش: هي أمور الحج. وكل هذه التفاسير واحد)[6].

أما تفسيرها في هذا السياق، فمن المفسرين من يحملها على المعنى العام[7]، وأنها تشمل جميع التكاليف، (فشعائر الله: أعلام دينه لا سيما ما يتعلق بالمناسك)[1]، (وتعظيمها التزامها)[2].

---

[1] – غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٣٢)، وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (١/ ١٩٠).

[2] – التفسير البسيط (٣/ ٤٣٥).

[3] – التفسير البسيط (٧/ ٢٢٢).

[4] – ينظر غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٣٢)، والتفسير البسيط (٣/ ٤٣٦).

[5] – تفسير الطبري (٢/ ٧١٠)، والكشف والبيان (٢/ ٢٥)، والتفسير البسيط (٧/ ٢٢٣).

[6] – الغريبين (٣/ ١٠٠٨).

[7] – وهو قول الحسن: (دين الله كله)، يعني شرائعه التي حدها لعباده.

ومنهم من يخصها بالحج، قال الزمخشري: (وهي اسم ما أُشعِر، أي جُعِل شعارا وعلَما للنسك، من مواقف الحج ومرامي الجمار، والمطاف، والمسعى، والأفعال التي هي علامات الحج يعرف بها من الإحرام، والطواف، والسعي، والحلق، والنحر)[٣]. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ١٥٨]، (وتعظيمها: الوقوف والعمل بها في الأوقات المفروضة والمسنونة)[٤]، و(توقيرها، وترك الاستهانة بها)[٥].

وقال طائفة كالثعلبي والسمرقندي[٦] وغيره: المراد ب«الشعائر» في هذه الآية الهدي والأنعام المشعَرة[٧]، (ومعنى تعظيمها استعظامُها واستحسانُها واستسمانُها والاهتبالُ بأمرها والمغالاةُ بها)[٨]، كما قال ابن عباس ومجاهد وجماعة. ولكن قصر الشعائر على البُدْن ضعيف؛ لأن الآية بعدها وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [سورة الحج: ٣٦] نصّت على أن البدن من الشعائر، لا أنها هي.

---

[١] – تفسير القرطبي (١٢/ ٥٦).

[٢] – النكت والعيون (٤/ ٢٣)، والبحر المحيط (٧/ ٥٠٦).

[٣] – الكشاف (١/ ٦٠١). وهذا ما رجحه الطبري (١٦/ ٥٤١) بقوله: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن تعظيم شعائره، وهي ما جعله أعلاما لخلقه فيما تعبدهم به من مناسك حجهم، من الأماكن التي أمرهم بأداء ما افترض عليهم منها عندها، والأعمال التي ألزمهم عملها في حجهم: من تقوى قلوبهم، لم يخصص من ذلك شيئا).

[٤] – الهداية (٧/ ٤٨٨٥).

[٥] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٩٦).

[٦] – هو نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، أبو الليث السمرقندي، الملقب بإمام الهدى: فقيه صوفي، من أئمة الحنفية، له بحر العلوم في التفسير، والنوازل في الفقه، وخزانة الفقه، وتنبيه الغافلين. (ت٣٩٣هـ). ينظر تاج التراجم لابن قطلوبغا (ص٧٩)، والجواهر المضية للقرشي (١/ ١٩٦)، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/ ٣٤٦).

[٧] – وهو قول مجاهد، ينظر بحر العلوم (٢/ ٤٥٩)، والكشف والبيان (٧/ ٢١)، والنكت والعيون (٤/ ٢٣).

[٨] – الكشف والبيان (٧/ ٢١)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٦).

والراجح أنها عامة لا تخص أعمال الحج وإن كانت داخلة فيها دخولا أوليا؛ قال الطبري: (فإنه يعني من معالم الله التي جعلها تعالى ذكرُه لعباده معلما ومشعرا يعبدونه عندها، إما بالدعاء، وإما بالذكر، وإما بأداء ما فرض عليهم من العمل عندها)[1].

﴿مَحِلُّهَا﴾ مكان نحرها[2]، أي: حيث يحل نحرها[3]. ف(ما كان من هديٍ للعمرة أو للنذر فإذا بلغ البيت نُحِر، وما كان للحج نُحِر بمنى)[4]. هذا على القول بأن الشعائر هي البدن. أما على القول بأن المراد بها أعمال الحج، فيعني: محل الناس من إحرامهم[5]، فالمحل مصدر ميميٌّ من حل يحُل إذا بلغ المكان واستقر فيه[6]، (أضيف إلى المفعول، أي: الحِلّ من هذه الأعمال إلى البيت العتيق، وهو الطواف به بعد قضاء المناسك)[7]، (والمعنى أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق)[8].

وبهذا فسر الطبري الآية فقال: (ثم محل الشعائر التي لكم فيها منافع إلى أجل مسمى إلى البيت العتيق، فما كان من ذلك هديا أو بدنا فبموافاته الحرم في الحرم، وما كان من نسك فالطواف بالبيت)[9].

---

[1] – تفسير الطبري (٢/ ٧١٠).

[2] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٦).

[3] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٩٤). قال الزمخشري في الكشاف (٣/ ١٥٧): (أي وجوب نحرها. أو وقت وجوب نحرها في الحرم منتهية إلى البيت، كقوله: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ (المائدة: ٩٥)، والمراد نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت؛ لأن الحرَم هو حريم البيت).

[4] – معاني القرآن للفرّاء (٢/ ٢٢٥).

[5] – تفسير الخازن (٣/ ٢٥٧).

[6] – التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٨).

[7] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٩٦ – ٣٩٧).

[8] – تفسير القرطبي (١٢/ ٥٧).

[9] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٤٩).

﴿أمة﴾ قال الراغب: (الأُمّة: كل جماعة يجمعهم أمر ما، إمّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أو اختيارا)[١]، (ولم يرد هنا جميع الأمم)[٢]، وإنما أراد متبعي الرسل، والمعنى: (ولكل جماعة مؤمنة جعلنا منسكا)[٣].

﴿مَنْسَكًا﴾ النون والسين والكاف - كما قال ابن فارس - (أصل صحيح يدل على عبادة وتقرب إلى الله تعالى)[٤]. (قال الليث: النسك: العبادة، رجل ناسك: عابد، وقد نسك ينسك نسكا)[٥]. ثم غلب النسك في الاستعمال على الحج[٦].

والذبيحة التي تتقرب بها إلى الله نسيكة[٧]؛ (يقال: من فعل كذا وكذا فعليه نسك، أي دم يهريقه بمكة)[٨]، وجمعها نُسُك، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [سورة البقرة: ١٩٦][٩]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢].

والمنسَك: بفتح السين مصدر ميمي مثل المدخل والمخرج، ومعناه (النسك نفسه)[١٠]. والمنسك: الموضع الذي تذبح فيه النسائك[١١]، (ولا يكون ذلك إلا في القربان)[١٢].

---

[١] - المفردات (ص: ٨٦)، وينظر تفسير السمعاني (٢/ ٣٨٧) حيث قال: (الأمة: هي الجماعة إذا كانوا على منهج واحد ومقصد واحد).

[٢] - تفسير السمعاني (٢/ ٣٨٧).

[٣] - تفسير القرطبي (١٢/ ٥٨).

[٤] - مقاييس اللغة (٥/ ٤٢٠).

[٥] - تهذيب اللغة (١٠/ ٤٤).

[٦] - عمدة الحفاظ (٤/ ١٧١).

[٧] - مقاييس اللغة (٥/ ٤٢٠).

[٨] - تهذيب اللغة (١٠/ ٤٥).

[٩] - تفسير القرطبي (١٢/ ٥٨).

[١٠] - تهذيب اللغة (١٠/ ٤٥).

[١١] - تهذيب اللغة (١٠/ ٤٥).

[١٢] - مقاييس اللغة (٥/ ٤٢٠).

وقال ابن الأعرابي: (النسك: سبائك الفضة، وكل سبيكة منها: نسيكة، وقيل للمتعبِّد: ناسك، لأنه خلّص نفسه وصفاها من دنس الآثام، كالسبيكة المخلصة من الخبث)[١].

وقال النضْر بن شُمَيْل[٢]: (نسك الرجل إلى طريقة جميلة، أي داوم عليها، وينسكون البيت: يأتونه)[٣].

وهذا المعنى الأخير هو الذي ذكره الفراء فقال: (والمنسَك فِي كلام العرب: الموضع الَّذِي تعتاده وتألفه، ويقال: إن لفلان مَنْسِكًا يعتاده فِي خير كان أو غيره. والمناسك بذلك سميت- والله أعلم- لترداد الناس عليها بالحج والعمرة)[٤]. وبهذا شرح السجستاني[٥] هذه الآية فقال: (أَي مألفا يألفونه، ومكانا يعتادونه لعبادتي فِيهِ، وَقَضَاء فرائضي)[٦]. أما ابن قتيبة[٧] فقال: (منسكا أَي عيدا)[٨].(يعني وقتًا للذبح. فعلى هذا المنسك، اسم لزمان الذبح)[٩].

---

[١] – تهذيب اللغة (١٠/ ٤٥).

[٢] – هو النضر بن شميل بن خَرَشة بن يزيد التميمي، من أهل مرو، كان صاحب غريب وشعر، ورواية للحديث، من أصحاب الخليل بن أحمد، توفي سنة ٢٠٣هـ. ينظر ترجمته في: نزهة الألباء (ص ٧٣)، وإنباه الرواة (٣/ ٣٤٨)، ووفيات الأعيان (٥/ ٣٩٧).

[٣] – تهذيب اللغة (١٠/ ٤٥).

[٤] – معاني القرآن للفراء (٢/ ٢٣٠). ولكن قال ابن فارس: (وزعم ناس أن المنسك: المكان يألفه. وفيه نظر).

[٥] – هو محمد بن عُزيْز، أبو بكر السجستاني، اللغوي، اختُلِفَ في اسم أبيه، صنف كتابه في غريب القرآن في خمسة عشر سنة، وقرأه على ابن الأنباري، وله أيضا: "معرفة اشتقاق أسماء نطق بها القرآن"، توفي سنة ٣٣٠هـ. ينظر: نزهة الألباء (ص:٢٣١ – ٢٣٢)، وبغية الوعاة (١/ ١٧١ – ١٧٢)، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/ ١٩٥).

[٦] – غريب القرآن (ص: ٤١٠).

[٧] – هو محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو محمد الدِّينَوَري، من أئمة الأدب، ومن المصنفين المكثرين، عالم مشارك في أنواع من العلوم. ولد سنة (٢١٣هـ)، وسكن بغداد وحدث بها، وتولى قضاء الدِّينَوَر مدة فنسب إليها، مؤلفاته كثيرة يغلب عليها اللغة والأدب، منها: عيون الأخبار، وتأويل مشكل القرآن، وغريب القرآن، (ت٢٧٦هـ). ينظر: نزهة الألباء (ص: ١٥٩ – ١٦١)، وإنباه الرواة (٢/ ١٤٣ – ١٤٧)، ووفيات الأعيان (٣/ ٤٢).

[٨] – غريب القرآن (ص: ٢٩٤). ونسبه الماوردي في النكت والعيون (٤/ ٢٥) إلى الكلبي.

[٩] – التفسير البسيط (١٥/ ٣٩٩).

وقال ابن عرفة[1] في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ [سورة الحج: ٣٤]: (أي مذهبا من طاعة الله تعالى، يقال: نسَك نسُك قومه إذا سلك مذهبهم)[2].

ورجح الطبري المعنى الأول فقال: (جعلْنا ذبحا يهريقون دمَه)[3]. واستظهره القرطبي[4]. وقال الزجاج: (والمنسك في هذا الموضع يدل على معنى النحر، فكأنه قال: جعلنا لكل أُمَّةٍ أن تتقربَ بأن تَذْبح الذبَائح لِلَّه)[5].

وقرأ حمزة[6] والكسائي[7] ﴿مَنسِكا﴾ بكسر السين في هذا الموضع وفي آخر السورة، على معنى اسم المكان، مثل المسجد، (أي: مذبحا، وهو موضع القربان)[8].

﴿بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ البهيمة اسم لكل ذات أربع قوائم من دواب البر والماء[9]، و(سميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها وعدم تمييزها وعقلها)[1]، يقال استبهم الشيء:

---

[1] – وهو الملقب بنفطويه، وقد تقدمت ترجمته.

[2] – تفسير القرطبي (١٢/ ٥٨).

[3] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٤٩).

[4] – تفسير القرطبي (١٢/ ٥٨).

[5] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٦).

[6] – هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات القارئ، الكوفي التيمي مولاهم، أحد القراء السبعة المشهورين، وعنه أخذ الكسائي القراءة، ولد سنة ٨٠ هـ، وأدرك بعض الصحابة، وإليه صارت إمامة القراءة بعد عاصم في الكوفة، وتوفي سنة ١٥٦هـ، أو نحوها. ينظر مشاهير علماء الأمصار (ص ١٦٨)، ومعرفة القراء الكبار (١/ ١١١)، وغاية النهاية (١/ ٢٦١).

[7] – هو: أبو الحسن علي بن أحمد بن حمزة الأسدي الكوفي: أحد القراء السبعة، وكان إمامًا في النحو واللغة والقراءات. روى عن أبي بكر بن عباس وحمزة الزيات وغيرهم، أخذ عنه القراء أبي عبيد والفراء وغيرهما، له مصنفات منها "معاني القرآن"، و"مختصر النحو"، و"كتاب القراءات"، توفِي سنة ١٨٩ بالرّي. ينظر: تاريخ بغداد (١١/ ٤٠٣)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٩٥).

[8] – الكشف والبيان (٧/ ٢٢)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٥).

[9] – المحكم (٤/ ٣٣٨)، والكشاف (٣/ ١٥٣)، وتفسير القرطبي (٦/ ٣٤).

إذا استغلق[٢]، واستبهم عليه: استعجم فلم يقدر على الكلام، واستبهم عليهم الأمر: لم يدروا كيف يأتون له[٣]. ومنه (باب مبهم: لا يُهتدَى لفتحه إذا أغلق، وليل بهيم: لا ضوء فيه إلى الصباح)[٤]، وحائط مبهم: لا باب له[٥].

والإضافة إلى الأنعام بيانية، وإنما خص هنا بهيمة الأنعام؛ لأنها المشروعة في القُرَب[٦]، و(لأن من البهائم ما ليس من الأنعام، كالخيل والبغال والحمير)[٧]، ومن البهائم ما لا يجوز ذبحه في القرابين، وإن جاز أكله[٨].

و"الأنعام": الإبل والبقر والضأن والمعز، (سميت بذلك للين مشيها)[٩]، وقد بينها الله تعالى فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾، ثم قال في الآية التي تليها: ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٣ – ١٤].

﴿ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ (الخاء والباء والتاء أصل واحد يدل على خشوع، يقال: أَخْبَتَ يخبت إخباتا، إذا خشع)[١٠]. وفيه خَبْتَةٌ، أي تواضُع[١١]. وأخْبَت لله تواضَع[١]، وأيضاً: اطمأنَّ

---

[١] – تفسير القرطبي (٦/ ٣٤).

[٢] – الغريبين (١/ ٢٢٩).

[٣] – المحكم (٤/ ٣٣٨).

[٤] – تفسير القرطبي (٦/ ٣٤). وينظر تهذيب اللغة (٦/ ١٧٨)

[٥] – المحكم (٤/ ٣٣٨).

[٦] – زاد المسير (٣/ ٢٣٦).

[٧] – الكشف والبيان (٧/ ٢٢)، والهداية (٧/ ٤٨٨٧).

[٨] – الكشف والبيان (٧/ ٢١).

[٩] – تفسير القرطبي (٦/ ٣٤).

[١٠] – مقاييس اللغة (٢/ ٢٣٨). وبهذا فسر الفراء الإخبات في معاني القرآن (٢/ ٩ – ١٠): (وقوله: ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ معناه: تخشعوا لربهم وإلى ربهم. وربما جعلت العرب (إلى) في موضع اللام...وقد يجوز في العربية أن تقول: فلان يخبت إلى الله، تريد: يفعل ذلك بوجهه إلى الله، لأن معنى الإخبات: الخشوع).

[١١] – الصحاح (١/ ٢٤٧).

وسكن[٢]. وأصله من أخبت: أي، نزل الخَبْتَ وهو المكان المنخْفِض من الأرض، فكلّ مُخْبِت متواضع[٣]. أو من أَخْبَتَ الرجل إذا صار في الخبت، وهو المطمئن من الأرض الذي يكون فيه رمل[٤]، قال شمر: (الخبت ما تطامن من الأرض وغمض، فإذا خرجت منه أفضيت إلى سعة)[٥].

(ثمّ استعمل الإخبات استعمال اللّين والتّواضع، قال الله تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [سورة هود: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤﴾ [سورة الحج: ٣٤]، أي: المتواضعين، نحو: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٦]، وقوله تعالى: ﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [سورة الحج: ٥٤]، أي: تلين وتخشع، والإخبات هاهنا قريب من الهبوط في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ [سورة البقرة: ٧٤])[٦].

وبهذا جاء التفسير عن السلف، فقال مجاهد: (المطمئنين إلى الله)[٧]، وقال قتادة: (المتواضعين)[٨]، وقال السدي: (الوجلين)[٩]، وقال عمرو بن أوس[١٠]: (الذين لا يظلمون،

---

[١] – كتاب الأفعال (١/ ٣١١).

[٢] – كتاب الأفعال (١/ ٣١١).

[٣] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٧).

[٤] – الصحاح (١/ ٢٤٧).

[٥] – تهذيب اللغة (٧/ ١٣٦).

[٦] – المفردات (ص: ٢٧٢).

[٧] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٥١).

[٨] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٥١)، وروى عبد الرزاق مثله عن مجاهد في تفسيره (٢/ ٤٠٧)، وأخرج ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٢٠، رقم ٣٥٤٩٢) مثله عن الضحاك، وكذلك ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٦/ ٤٩).

[٩] – رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٣، رقم ١٣٩٣٤).

[١٠] – عمرو بن أوس بن أبي أوس الثقفي الطائفي: تابعي كبير ثقة. قال أبو هريرة: (تسألوني وفيكم عمرو بن أوس؟!). توفي بعد سنة ٩٠هـ. ينظر الجرح والتعديل (٦/ ٢٢٠)، وتهذيب التهذيب (٣/ ٢٥٧).

وإذا ظُلموا لم ينتصروا)[1]. ونسب إلى الحسن أنه فسره ب(الخاشعين)[2]، ونسب إلى إبراهيم النخعي أنه قال: المخلصين، ونسب إلى الكلبي أنهم: الرقيقة قلوبهم[3].

قال الطبري بعدما ذكر أقوال السلف في قوله تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [سورة هود: ٢٣]: (وهذه الأقوال متقاربة المعاني، وإن اختلفت ألفاظها؛ لأن الإنابة إلى الله من خوف الله، ومن الخشوع والتواضع لله بالطاعة، والطمأنينة إليه من الخشوع له، غير أن نفس الإخبات عند العرب الخشوع والتواضع)[4].

وقال ابن القيم: (وهذه الأقوال تدور على معنيين: التواضع، والسكون إلى الله عز وجل ولذلك عدّي ب «إلى» تضمينا، لمعنى الطمأنينة والإنابة، والسكون إلى الله)[5].

والخلاصة أن ﴿ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ هم المتواضعون لربهم الخاشعون له المطمئنون إليه[6]. (والفرق بين التواضع والخشوع أن التواضع في الأخلاق، والخشوع في الأبدان)[7].

أما فعل "أخبت" فالظاهر أنه إذا عدّي بإلى، فمعناه: اطمأن إليه، وإذا عدي باللام فمعناه: خشع وخضع له[8]. ومنه قوله تعالى: ﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [سورة الحج: ٥٤]. يقول

---

[1] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٥١). وقد رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢١٩، رقم ٣٥٤٨٧)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (كتاب حسن الخلق، فصل في التجاوز والعفو وترك المكافأة، ح ٧٧٣٣، ١٠/ ٤٢٣)، وعزاه السيوطي (٤/ ٦٤٩)، لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في "ذم الغضب"، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

[2] – وروى الطبري في تفسيره عن قتادة: ({وأخبتوا إلى ربهم} (هود: ٢٣)، الإخبات: التخشع والتواضع).

[3] – النكت والعيون (٤/ ٢٥).

[4] – تفسير الطبري (١٢/ ٣٧٥).

[5] – التفسير القيم (ص: ٣٢٣).

[6] – درج الدرر (٢/ ٣٣٨)، والكشاف (٣/ ١٥٧)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٥).

[7] – النكت والعيون (٤/ ٢٥).

[8] – ينظر السراج المنير (٢/ ٥٢).

الطبري: (فتخضع للقرآن قلوبهم، وتذعن بالتصديق به، والإقرار بما فيه)[1]. وقال الرازي: (أي تخضع وتسكن لعلمهم بأن المقضي كائن، وكل ميسر لما خلق له)[2]. ومنهم عبر عنه بنحوه فقال: (أي: فتسكن إليه قلوبهم)[3].

ومنهم من يرى أنه ضُمّن معنى اللين والرقة، قال الكلبي: ترق للقرآن قلوبهم[4]. أي (ترق قلوبهم للقرآن فينقادوا لأحكامه، بخلاف المشركين الذين قيل فيهم: ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الحج: ٥٥])[5].

الوجل: استشعار الخوف. يقال: وجل يوجل وجلا، فهو وجِل[6]. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٢]، أي خافت وفزعت[7]. وقيل: (أي: خشعت قلوبهم وجلاً من عقابه)[8].

﴿الْبُدْنَ﴾ بضم الباء جمع بدَنة، والبَدنةُ: ناقةٌ أو بَقَرةٌ، الذكر والأنثى فيه سواءٌ، يُهدَى إلى مَكَّةَ[9]، سميت بدنة لعظمها[10]، أو لأنَّهم كانوا يُسَمِّنُونَها[1]، وتجمع على البُدُنُ بضم الدال

---

[1] – تفسير الطبري (١٦/ ٦١٣). ويعبر عن هذا المعنى بعبارات مثل: تخشع، وتذل؛ ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٣٤)، وتفسير ابن أبي زمنين (٣/ ١٨٧)، وزاد المسير (٣/ ٢٤٦)،

[2] – تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤١).

[3] – تفسير السمعاني (٣/ ٤٥٠)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٩٦).

[4] – التفسير البسيط (١٥/ ٤٧٢).

[5] – التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٧٧).

[6] – تهذيب اللغة (١١/ ١٣٠)، والمفردات (ص: ٨٥٥).

[7] – معاني القرآن للزجاج (٢/ ٤٠٠)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٩)، والتفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٤٤٤)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٩).

[8] – الهداية (٧/ ٤٨٨٩).

[9] – العين (٨/ ٥٢).

[10] – تهذيب اللغة (١٤/ ١٠٢). وقال الماتريدي في تفسيره (٧/ ٤١٨): (والبدنة سميت: بدنة؛ لما تعظم في أنفسها وتبدن، ويقال للرجل إذا عظم في نفسه: بدن فلان).

وكسرها. ولا تقع على الشاة[٢]، فالبدنة من الإبل والبقر، والأضحية من الغنم[٣]. وأصله من: بدَنت المرأة وبدُنت بَدْنا وبدانة، أي سمِنت[٤]. والبدَن: هو الضخم من كل شيء[٥].

وعلى ما تقدم فإن البدنة تطلق على الناقة والبقرة كما ذكر أهل اللغة[٦]. ولكن كثيرا من العلماء قالوا إنها تختص بالإبل[٧]، أما البقر فقد قيست عليها في الحكم؛ قال الزمخشري: (وهي الإبل خاصة، ولأن رسول الله ﷺ ألحق البقر بالإبل حين قال: ((البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة))[٨]، فجعل البقر في حكم الإبل، صارت البدنة في الشريعة متناولة للجنسين عند أبي حنيفة وأصحابه، وإلا فالبدن هي الإبل، وعليه تدل الآية)[٩].

﴿صَوَافَّ﴾؛ صوافّ: جمع صافّة، وهي فاعلة من الصَفّ، والصَّفُّ: أن تجعل الشيء على خط مستو، كالناس والأشجار ونحو ذلك[١٠]، أي قد صفت قوائمها، وذلك إذا قرنت أيديها عند الذبح[١١]، فالمراد به أنها قائمة قد صفَّت بدنها، لأنها إن كانت باركة أو ماشية لا

---

[١] – الصحاح (٥/ ٢٠٧٧).

[٢] – تهذيب اللغة (١٤/ ١٠٢).

[٣] – جمهرة اللغة (١/ ٣٠٢).

[٤] – تهذيب اللغة (١٤/ ١٠٢).

[٥] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٣).

[٦] – تهذيب اللغة (١٤/ ١٠٢).

[٧] – ونسبه الماوردي في النكت والعيون (٤/ ٢٦) إلى الجمهور.

[٨] – أخرجه مسلم بمعناه في صحيحه (كتاب الحج، باب الاشتراك في الهدي، ح ١٣١٨، ٢/ ٩٥٥). ووجه الدلالة أنه فرق بين البدنة والبقرة في الذكر فدل على تغايرهما، ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤١٩).

[٩] – الكشاف (٣/ ١٥٧). ويشهد له ما روى ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٣، رقم ١٣٩٣٨) عن مجاهد رضي الله عنه قال: (ليس البدْن إلا من الإبل). ونقل ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٣٧) عن القاضي أبي يعلى أنه قال: (البدنة: اسم يختص الإبل في اللغة، والبقرة تقوم مقامها في الحكم).

[١٠] – المفردات (ص: ٤٨٦).

[١١] – غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٩٣)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٨)، وغريب القرآن للسجستاني (ص: ٢٩٩).

تكون صافة[1]، ولم يرد أنها مصطفة لإجماع الناس أنها يجوز نحرها غير مصطفة. فأما السُّنَّة في نحر الإبل أن تنحر قائمة[2]. قال الواحدي: (ولا يتصور الصف في البدنة الواحدة إلا أن يقال: إنها إذا وقفت صفت يديها أو رجليها إذا لم يعقل إحداهما، ولكن يتصور في البدن إذا وقفن فصففن أيديهن معقولة وغير معقولة)[3].

قال ابن عاشور: (ولعلهم كانوا يصفونها في المنحر يوم النحر بمنى، لأنه كان بمنى موضع أعد للنحر وهو المنحر. وقد ورد في حديث مسلم عن جابر بن عبد الله في حجة الوداع قال فيه: (ثم انصرف رسول الله إلى المنحر، فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ثلاثا وستين بدنة، جعل يطعنها بحربة في يده، ثم أعطى الحربة عليا فنحر ما غبر – أي ما بقي – وكانت مائة بدنة)[4]، وهذا يقتضي أنها كانت مجتمعة متقاربة.

...وفائدة هذه الحال ذكر محاسن من مشاهد البدن؛ فإن إيقاف الناس بدنهم للنحر مجتمعة ومنتظمة غير متفرقة مما يزيد هيئتها جلالا. وقريب منه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [سورة الصف: ٤])[5].

وروي عن الحسن ومجاهد وزيد بن أسلم وجماعة أخر أنهم قرأوا ذلك (صوافيَ) بالياء منصوبة[6]، وهو جمع صافية، والمعنى: صافيةً لله خالصة له، لا يشرك به في التسمية على نحرها أحد[7]، خلافا لما كان يفعله المشركون.

---

[1] – التفسير البسيط (١٥/ ٤١٠).

[2] – ينظر زاد المسير (٣/ ٢٣٨).

[3] – التفسير البسيط (١٥/ ٤١٠).

[4] – صحيح مسلم (كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ح ١٢١٨، ٤/ ٣٨).

[5] – التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٤).

[6] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٥).

[7] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٥)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٨)، ومعاني القرآن للنحاس (٤/ ٤١٣)، والغريبين (٤/ ١٠٨٦).

وروي عن ابن مسعود أنه قرأه: ﴿صوافن﴾، وواحدها صافنة، أي معقولة بإحدى يديها، فَالبَعِير إذا أرادوا نحَره تعقل إحدى يديه لئلا يضطرب، فَهُو صَافِن[1] على سبيل الاستعارة، وأصل هذا الوصف في الخيل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ [سورة ص: ٣١]؛ (يقال: صفن الفرس فهو صافن إذا قام على ثلاث قوائم، وثنى سنبكَ الرابعة)[2].

﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سقطت[3]. يقال: وجب الحائط، أي سقط ووقع[4]. ومنه يقال: وَجَبت الشمس: إذا سقطت في المغيب[5]. ووجب القلب وجيبًا إذا خفق وتحرك من فزع[6].

والمعنى: إذا سقطت جنوبها على الأرض عند خروج الروح منها بعد نحرها فكلوا منها[7]. وذلك (لأنها تقف ما دامت الروح تبقى فيها، فإذا سقطت إلى الأرض فذلك حين تهدأ وتسكن حركتها، وهو وقت الأكل منها)[8].

﴿الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾؛ القانع في الآية يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه من القُنُوع، بمعنى المسألة. يقال: قنَع يقنِع قُنوعًا، إذا سأل. والقانع: السائل[9]. قال أبو عبيد[1]: (القُنوع: الرجل يكون مَعَ الرجل يطْلب فَضله وَيسْأل معروفه)[2]، وأنشد:

---

[1] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٨)، والغريبين (٤/ ١٠٨٦)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢٢).

[2] – غريب القرآن للسجستاني (ص: ٢٩٩).

[3] – غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٩٣).

[4] – تفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٠)، وتهذيب اللغة: (وجب) (١١/ ١٥١)، وعمدة الحفاظ (٤/ ٢٨٣).

[5] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٦٠)، والغريبين (٦/ ١٩٧١).

[6] – تهذيب اللغة: (وجب) (١١/ ١٥١).

[7] – ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٦٠)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٦).

[8] – التفسير البسيط (١٥/ ٤١٣).

[9] – غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٩٣).

لمـــالُ المـــرء يُصـــلِحُه فيغـــني مَفَـــاقِرَهُ أعـــفُّ مـــن القُنُـــوع[٣]

أي: من مسألة الناس.

وقال عدي بن زيد[٤]:

وَمَـا خُنْـت ذَا عهـدٍ وأبـت بعهـده وَلم أحـرم الْمُضْـطَر إِذْ جَـاءَ قانعـا[٥]

يَعْنِي سَائِلًا.

ومن هذا قول لبيد[٦]:

وإعطـائي المِـوْلَى علـى حـين فقـره إذا قـال أبْصِـرْ خَلَّـتي وقُنُـوعي[٧]

---

[١] – هو أبو عبيد: القاسم بن سلّام الأنصاري مولاهم البغدادي، الإمام الكبير الحافظ أحد الأعلام المجتهدين، وصاحب التصانيف في القراءات والحديث والفقه واللغة والشعر، ولد سنة ١٥٠هـ، له من التصانيف: الغريب المصنف، وغريب الحديث، وفضائل القرآن، معاني القرآن، والناسخ والمنسوخ، والمقصور والممدود، القراءات، المذكر والمؤنث، وغيرها. (ت ٢٢٤هـ). ترجمته في وفيات الأعيان: (٤/ ٦٠)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٩٠)، وبغية الوعاة (٢/ ٢٥٢).

[٢] – غريب الحديث (٢/ ١٥٦).

[٣] – غريب الحديث للقاسم بن سلام (٢/ ١٥٦)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٦٦).

[٤] – عَدي بن زيد بن حمار بن زيد العبادي التميمي أبو عمير، من أهل الحيرة، شاعر جاهلي فصيح، نصراني، مقدم على شعراء عصره؛ لكونه أول من كتب بالعربية والفارسية لدى كسرى، قتله النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وقال ابن قتيبة: (علماؤنا لا يرون شعره حجة). ينظر: طبقات فحول الشعراء (١/ ١٣٥ – ١٤٠)، والشعر والشعراء (ص١٣٠).

[٥] – غريب الحديث للقاسم بن سلام (٢/ ١٥٦).

[٦] – هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن كلاب العامري، ويُكنى أبا عقيل، صاحب أحد المعلقات، كان من شعراء الجاهلية وفرسانهم، وأدرك الإسلام وأسلم، وقدم على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في وفد بني كلاب، فأسلموا ورجعوا إلى بلادهم، ثم قدم لبيد الكوفة فأقام بها إلى أن مات سنة ٤١هـ، وهو ابن مائة وسبع وخمسين سنة، ولم يقل في الإسلام إلا بيتا واحدًا. ينظر: طبقات فحول الشعراء (١/ ١٣٥)، والشعر والشعراء (ص ١٦٧)، والإصابة (٣/ ٣٢٦).

[٧] – مجاز القرآن (٢/ ٥٢).

وإعطائي المؤْلَى على حين فقره ... إذا قال أبْصِرْ خَلَّتي وقُنُوعي[1]

قال بعضهم: (الْقَانِعُ هو السّائل الذي لا يلحّ في السّؤال، ويرضى بما يأتيه عفوا)[2].

المعنى الثاني: أن القانع الذي لا يسأل، وهو من القناعة. يقال: قَنِعَ يَقْنَعُ قَنَاعَةً وَقَنعًا وقَنَعَاناً وقُنعَانًا، إذا رضي بما قُسم له وترك المسألة والتعرُّض[3].

وقال بعضهم: (أصل هذه الكلمة من الْقِنَاعِ، وهو ما يغطّى به الرّأس، فَقَنِعَ، أي: لبس القِنَاعَ ساترا لفقره كقولهم: خفِي، أي: لبس الخفاء، وقَنَعَ: إذا رفع قِنَاعَهُ كاشفا رأسه بالسّؤال نحو خفَى إذا رفع الخفاء)[4].

وقد نبه الفخر الرازي في كتابه "لوامع البرهان" أن القاف والنون والعين في اللغة تدل على الإقبال على الشيء، ثم تختلف معانيه مع اتفاق القياس، فالقانع: السائل، لإقباله على من يسأله، والقانع: الراضي الذي لا يسأل، كأنه مقبل على الشيء الذي هو راض به[5].

وأما المعترّ: فهو اسم فاعل من اعترّ، قال ابن الأعرابي[6]: (يقال: عروت فلانا واعتريته، وعررته واعتررته، إذا أتيته تطلب معروفه)[7]. وقد نقل الأزهري عن أهل اللغة أنهم قالوا:

---

[1] – مجاز القرآن (٢/ ٥٢).

[2] – المفردات (ص: ٦٨٥).

[3] – ينظر تهذيب اللغة (١/ ١٧٢)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤١٦).

[4] – المفردات (ص: ٦٨٦).

[5] – نقله عنه البقاعي في نظم الدرر (١٣/ ٥١).

[6] – هو محمد بن زياد الأعرابي، مولى العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، كان راوية للأشعار، نحويا، من أحفظ الكوفيين للغة، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين. ينظر ترجمته في: طبقات النحويين واللغويين (ص ١٩٥ – ١٩٧)، ونزهة الألباء (ص ١١٩)، وإنباه الرواة (٣/ ١٢٨).

[7] – تهذيب اللغة (١/ ٧٥).

(القانع: الذي يسأل. والمعترّ: الذي يطيف بك يطلب ما عندك، سألك أو سكت عن السؤال)[1]. وقال ابن قتيبة: (المعتر، الذي يَعتريك: أي يُلِمُّ بك لتعطيه ولا يَسْأَل)[2].

ومنه قول حسان بن ثابت[3]:

لعمــرُك مــا المعــترّ يأتي بيوتنــا لنمنعــه بالضّــايع المتهضِّــم[4]

وقد قرأ الحسن: ﴿والمعتري﴾، وهما بمعنى واحد.

قال الواحدي: (فحصل من هذا أن القانع يجوز أن يكون السائل وغير السائل، وكذا المعتر، إلا أنه لا ينفك من تعرض ونوع طلب)[5].

وقال الإمام مالك: (وسمعت أن المعتر هو الزائر، أي فتكون من عرا إذا زار)، (والمراد زيارة التعرض للعطاء. وهذا التفسير أحسن، ويرجحه أنه عطف المعتر على القانع، فدل العطف على تغايرهما، ولو كانا في معنى واحد لما عطف عليه كما لم يعطف في قوله: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ [سورة الحج: ٢٨])[6].

وعلى هذا اختلف المفسرون في المراد على ستة أقوال:

---

[1] – تهذيب اللغة (١/ ٧٥).

[2] – غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٩٣).

[3] – هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد: شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم، وأحد فحول الشعراء المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، دافع بشعره عن الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم، ينظر: طبقات فحول الشعراء (١/ ٢١٥)، والشعر والشعراء (١/ ٣٠٥)، والإصابة (١/ ٣٢٦).

[4] – مجاز القرآن (٢/ ٥٢).

[5] – التفسير البسيط (١٥/ ٤١٧).

[6] – التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٦).

أحدها: أن القانع: الذي يسألك، فما أعطيته من شيء قبِله. والمعترّ: الذي يتعرَّض لك عند الذبيحة ولا يسألك، رواه بكر بن عبد الله المزني[١] عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير[٢]، وروي عن الحسن[٣]، واختاره الفرّاء[٤]. ورجحه الطبري[٥].

والثاني: أن القانعَ المتعفّف الذي يقعد في بيته ولا يسأل شيئا، والمعترّ: الذي يعتريك ويسألك، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس[٦]، وبه قال قتادة[٧]، والنخعي[٨]. وروي كذلك عن الحسن[٩].

والثالث: أن القانع: المستغني بما أعطيته وهو في بيته. والمعترّ: الذي يتعرَّض لك ويُلِمُّ بك وأن تطعمه من اللحم ولا يسأل، رواه العوفي عن ابن عباس[١٠]. وقال مجاهد: القانع: جارك الذي يقنع بما أعطيته، والمعترّ: الذي يتعرَّض لك ولا يسألك[١١]، وهذا مذهب القرظي[١٢]. فعلى هذا يكون معنى القانع: أن يقنع بما أُعطي. ومن قال: هو المتعفف، قال: هو القانع بما عنده[١٣].

---

[١] – تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٧٨).

[٢] – تفسير عبد الرزاق (٢/ ٤٠٧).

[٣] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٦٥).

[٤] – معاني القرآن للفراء (٢/ ٢٢٦).

[٥] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٦٩).

[٦] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٦٣).

[٧] – تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٧٨)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٦٣).

[٨] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٦٤).

[٩] – تفسير سفيان الثوري (ص: ٢١٤).

[١٠] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٦٣).

[١١] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٦٣).

[١٢] – زاد المسير (٣/ ٢٣٩).

[١٣] – زاد المسير (٣/ ٢٣٨ – ٢٣٩).

والرابع: القانع: أهل مكة، والمعترّ: الذي يعترُّ بهم من غير أهل مكة، رواه خصيف عن مجاهد[١].

والخامس: القانع: الجار وإن كان غنيّاً، والمعترّ الذي يعترُّ بك، رواه ليث عن مجاهد[٢].

والسادس: القانع: المسكين الطوّاف، والمعترّ: الصَّديق الزائر، قاله زيد بن أسلم[٣].

وقد رجح الطبري القول الأول فقال: (وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: عني بالقانع: السائل؛ لأنه لو كان المعني بالقانع في هذا الموضع المكتفي بما عنده والمستغني به، لقيل: وأطعموا القانع والسائل، ولم يقل: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾. وفي إتباع ذلك قوله: ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ الدليل الواضح على أن القانع معني به السائل... وأما المعتر: فإنه الذي يأتيك معترا بك لتعطيه وتطعمه)[٤]. وهذا هو ما مال إليه الشنقيطي من المعاصرين[٥].

---

[١] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٦٣).

[٢] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٦٦).

[٣] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٦٧).

[٤] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٦٩).

[٥] – أضواء البيان (٥/ ٢٥٩ – ٢٦٠).

**المطلب الثالث: معاني مفردات الربع الثالث من سورة الحج**

﴿يُدَافِعُ﴾؛ جمهور المفسرين على أن معناها: يدفع عن الذين آمنوا غائلة المشركين، فلا ينالون منهم شيئاً[(١)]. كما دلت عليه قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب: ﴿يدْفع﴾ [(٢)].

ولكن لماذا جاءت في قراءة جمهور القراء بصيغة المفاعلة ﴿يُدَافِعُ﴾؛ وهذه الصيغة (تقتضي بحسب الوضع العربي اشتراك فاعلين في المصدر، والله – جل وعلا – يدفع كل ما شاء من غير أن يكون له مدافع يدفع شيئا)[(٣)]؟

وقد أجاب المفسرون بعدة أجوبة:

فأجاب أهل اللغة ممن يوجه القراءات بأن صيغة المفاعلة (فاعل) قد ترد بمعنى (فعل) المجرد، نحو: جاوزت المكان بمعنى جزته، وعاقبت اللص، وسافرت، وعافاك الله، وقاتله الله، ونحو ذلك، فإن فاعل في جميع ذلك بمعنى المجرد، فيدافع مثل يدفع[(٤)].

وقال مكي بن أبي طالب[(٥)]: (أي: يصرف عن المؤمنين مرة بعد مرة غائلة المشركين وما يريدون بالمؤمنين. فيكون ﴿يُدَافِعُ﴾ على معنى: تكرير الفعل من الله، لا على معنى مدافعة

---

(١) – تفسير الطبري (١٦/ ٥٧١)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٦١).

(٢) – جامع البيان في القراءات السبع (٣/ ١٣٨٢)، والنشر في القراءات العشر (٣٢٦/٢).

(٣) – أضواء البيان (٥/ ٢٦١).

(٤) – ينظر "الحجة" للفارسي (٥/ ٢٧٩)، وعلل القراءات للأزهري (٢/ ١٨٢)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤٢٢)، و"إعراب القراءات السبع وعللها" لابن خالويه (٢/ ٧٩)، و"الكشف" لمكي بن أبي طالب (٢/ ١٢٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٦٧)، واللباب (١٤/ ٩٨)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٤٠).

(٥) – هو أبو محمد مكي بن أبي طالب حمّوش بن محمد القيسي: المقرئ النحوي المفسر، كان من أهل التبحر الراسخين في علوم القرآن والعربية، ولد بالقيروان ٣٥٥هـ، وأقرأ ببلده، ثم دخل قرطبة (سنة ٣٩٣ هـ) وخطب وأقرأ بجامعها، فعلا ذكره، ورحل الناس إليه. من تصانيفه "الهداية إلى بلوغ النهاية"، والتبصرة في القراءات، والإبانة عن معاني القراءات، و"مشكل إعراب القرآن"، وغيرها. مات بقرطبة عام٤٣٧هـ. ينظر جذوة المقتبس (ص٣٢٩)، والصلة (٢/ ٥٩٧)، وترتيب المدارك (٤/ ٧٣٧).

اثنين. وهذا كقوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾، فيفاعل للتكرير. أي: يضعف له مرة بعد مرة، لا أن ثم فاعليْن مثل: قاتل)[1].

والجواب الثالث: أنه أخرج على زنة المفاعلة مبالغة فيه؛ لأن فعل المبالغة أبلغ من غيره[2].

قال الزمخشري: (ومن قرأ ﴿يُدَٰفِعُ﴾ فمعناه يبالغ في الدفع عنهم، كما يبالغ من يغالب فيه، لأن فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ)[3]. وبهذا المعنى فسر الراغب هذه الكلمة في "المفردات"[4].

وجمع أبو السعود بين القولين الأخيرين فقال: (وصيغةُ المفاعلةِ إمَّا للمبالغةِ أو الدلالة على تكرُّرِ الدَّفع؛ فإنَّها قد تُجرَّدُ عن وقوعِ الفعلِ المتكرّرِ من الجانبينِ فيبقى تكرُّره كما في الممارسةِ، أي يبالغ في دفع غائلة المشركين وضررِهم الذي من جُملته الصدُّ عَن سَبِيلِ الله مبالغةَ من يغالب فيه، أو يدفعها عنهم مرَّةً بعد أُخرى حسبما تجدَّدَ منهم القصدُ إلى الإضرارِ بالمسلمينَ كما في قولِه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [سورة المائدة: ٦٤][5].

وقال ابن عطية: (فحسن في الآية ﴿يُدَٰفِعُ﴾ لأنه قد عنّ للمؤمنين من يدفعهم ويؤذيهم، فتجيء معارضته ودفعه مدافعة عنهم)[6]، يعني: فيكون فاعل لاقتسام الفاعلية والمفعولية لفظا، والاشتراك فيهما معنى[7].

وقريب منه قول الشنقيطي حيث قال: (ولا يبعد عندي أن يكون وجه المفاعلة أن الكفار يستعملون كل ما في إمكانهم لإضرارهم بالمؤمنين، وإيذائهم، والله – جل وعلا – يدفع

---

[1] – الهداية (٧/ ٤٨٩٥)، وذكر هذا الوجه قبله ابن زنجلة في "حجة القراءات" (ص: ٤٧٨).

[2] – اللباب (١٤/ ٩٩).

[3] – الكشاف (٣/ ١٥٩).

[4] – (أي: يبالغ في دفع ضرر المشركين عن المؤمنين، ويحميهم أشد الحماية من أذاهم).

[5] – تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٨).

[6] – المحرر الوجيز (٤/ ١٢٤).

[7] – البحر المحيط (٧/ ٥١٤ – ٥١٥).

كيدهم عن المؤمنين، فكان دفعه – جل وعلا – لقوة عظيمة أهلُها في طغيان شديد، يحاولون إلحاق الضرر بالمؤمنين، وبهذا الاعتبار كان التعبير بالمفاعلة، في قوله: ﴿يُدَٰفِعُ﴾، وإن كان – جل وعلا – قادرا على إهلاكهم، ودفع شرهم عن عباده المؤمنين، ومما يوضح هذا المعنى الذي أشرنا إليه قول كعب بن مالك[1] رضي الله عنه:

زعمت سخِينةُ أن ستغلب ربها ولَيغلبَنّ مُغالِب الغلّاب)[2]

﴿خَوَّانٍ﴾ فعّال من الخيانة[3]، أي كثير الخيانة[4] في أماناته تعالى، وهي أوامرُه ونواهيه، أو في جميعِ الأماناتِ التي هي معظمُها[5].

﴿كَفُورٍ﴾ بليغ الكفران لنعمته، فلا يرضى فعلهم ولا ينصرهم. والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالًا، والكفر في الدين أكثر، والكفور فيهما جميعًا[6].

قال الألوسي: (وصيغة المبالغة فيهما لبيان أن المشركين كذلك، لا للتقيد المشعر بمحبة الخائن والكافر، أو لأن خيانة أمانة الله تعالى وكفران نعمته لا يكونان حقيرين، بل هما أمران عظيمان؛ أو لكثرة ما خانوا فيه من الأمانات وما كفروا به من النعم؛ أو للمبالغة في نفي المحبة على اعتبار النفي أولاً وإيراد معنى المبالغة ثانيا، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة فصلت: ٤٦])[7].

---

[1] – هو كعب بن مالك بن أبي كعب، الأنصاري الخزرجي، شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه، وأحد الثلاثة الذين خلفوا، فتاب الله عليه، (ت٥٠هـ)، وقيل: غير ذلك، ينظر: الاستيعاب (١/ ٢١٦)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٥٢٣)، والإصابة (٨/ ٣٠٤، رقم ٤٧٢٧).

[2] – أضواء البيان (٥/ ٢٦٢).

[3] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٩).

[4] – تفسير السمعاني (٣/ ٤٤١).

[5] – تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٨).

[6] – روح البيان (٦/ ٣٧).

[7] – روح المعاني (٩/ ١٥٤).

﴿دِيَارِهِمْ﴾ المراد بديارهم هنا: مكة. وتسمى البلاد الديار؛ لأنه يدار فيها للتصرف. يقال: ديار بكر لبلادهم، وتقول العرب الذين حوالي مكة، نحن من عرب الدار، يريدون من عرب البلد[١]. قال الراغب: (المنزل اعتبارا بدورانها الذي لها بالحائط، وقيل: دارة، وجمعها ديار، ثم تسمّى البلدة دارا، والصّقع دارا)[٢].

﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ الهَدَم: مصدر هدمت البناء، إذا نقضته. يقال: هدمته فانهدم. والهدم: المهدوم[٣].

وقد قرأ ابن كثير ونافع: ﴿لهُدِمت﴾ بتخفيف الدال، وقرأ الباقون ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ بتشديد الدال[٤]. قال ابن عطية: (وهذه تحسن من حيث هي صوامع كثيرة، ففي هدمها تكرار وكثرة)[٥]. وليس كذلك، فإن التخفيف يكون للقليل والكثير أيضا، (يدلك على ذلك أنّك تقول: ضربت زيدًا ضربة، وضربته ألف ضربة. فاللفظ في الكثرة والقلة على حال واحدة. والتشديد يختص به الكثير)[٦].

والأولى أن يقال: إن قراءة التشديد للدلالة على المبالغة في الهدم، (أي لهدمت هدما ناشئا عن غيظ بحيث لا يبقون لها أثرا)[٧].

---

[١] – روح البيان (٦/ ٣٩).

[٢] – المفردات (ص: ٣٢١).

[٣] – ينظر: (هدم) في: تهذيب اللغة (٦/ ٢٢٢)، والصحاح (٥/ ٢٠٥٧)، ولسان العرب (١٢/ ٦٠٣).

[٤] — السبعة، لابن مجاهد (ص ٤٣٨)، والتبصرة، لمكي (ص ٢٦٧)، والتيسير، للداني: (ص ١٥٧).

[٥] – تفسير ابن عطية (٤/ ١٢٥).

[٦] – الحجة (٥/ ٢٧٩).

[٧] – التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧٧).

﴿صَوَامِعُ﴾ جمع، مفرده صوْمَعَةُ، وهي: (كلّ بناء مُتَصَمِّع الرّأسِ، أي: متلاصقه)[1].

قال الأزهري: (الصومعة من البناء سميت صومعة لتلطيف أعلاها. وصَمَّع الثريدة، إذا رفع رأسها وحدَّده... وتسمى الثريدة إذا سويت كذلك صومعة)[2].

وحقيقة الصومعة بناء مستطيل مرتفع، حديد الأعلى، منفرد عن البلد، يصعد إليه بدرج، وبأعلاه بيت، كان رهبان النصارى – وعباد الصابئين كذلك على قول قتادة[3] – يسكنونه لينفردوا فيه عن الناس ويتخذونه متعبدا، وقد جاء ذكرها في حديث جريج العابد[4]. وكانوا يوقدون به مصابيح للإعانة على السهر للعبادة ولإضاءة الطريق للمارّين[5].

وقد فسره السجستاني بأنه (منازل الرهبان)[6]. ثم استعملت "الصومعة" في مئذنة المسلمين[7].

﴿بيع﴾ جمع بيعة بكسر الباء، والبيع: كنائس النصارى[8].

والفرق بين الصوامع والبيع على القول بأنها جميعا معابد للنصارى من عدة أوجه:

أولها: أن الصوامع تكون في الصحراء وعلى الطرق، والبيع تكون داخل البلد[9].

---

[1] – المفردات (ص: ٤٩٣).

[2] – تهذيب اللغة (٢/ ٣٨).

[3] – تفسير عبد الرزاق (٢/ ٤٠٨ رقم١٩٣٨).

[4] – أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ح ٣٢٥٣، ١٢٦٨/٣)، ومسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة، ح ٢٥٥٠، ١٩٧٦/٤).

[5] – المحرر الوجيز (٤/ ١٢٥)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٧٧).

[6] – غريب القرآن للسجستاني (ص: ٣٠٠).

[7] – المحرر الوجيز (٤/ ١٢٥)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٧١).

[8] – المحرر الوجيز (٤/ ١٢٥).

[9] – ينظر تفسير الخازن (٣/ ٢٥٨)، واللباب (١٤/ ١٠٤).

وثانيها: أن الصوامع تكون صغيرة، ولا يكون فيها غالبا إلا راهب واحد، والبيع تكون أوسع منها، وعدد العباد فيها أكثر[1].

﴿وَصَلَوَاتٌ﴾: في المراد بالصلوات قولان: أحدهما: مواضع الصلوات.

ثم فيها قولان: أحدهما: أنها كنائس اليهود، قاله قتادة، والضحاك[2]، وهي كلمة معربة، أصلها بالعبرانية، «صَلُوثا»[3]، وبه قرئ في الشواذ. ومعناه في لغتهم: المصلى، فلا يكون مجازًا[4].

والثاني: أنها مساجد الصابئين، قاله أبو العالية[5].

وقال أبو عبيدة: (الصلوات بيوت تبنى للنصارى في البراري يصلون فيها في أسفارهم، تسمى صلوتا)[6].

والقول الثاني: أنها الصلوات حقيقة، جمع صلاة، والمعنى: لولا دفع الله عن المسلمين بالمجاهدين لانقطعت الصلوات في المساجد[7].

---

[1] – ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٣٥).

[2] – ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٨٤).

[3] – معاني القرآن للأخفش (٢/ ٤٥١)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٨٦).

[4] – حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي (٦/ ٣٠٠).

[5] – ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٨٤). وأبو العالية هو رفيع بن مهران، الرياحي، بصري محدث مقرئ مفسر، من كبار التابعين. أسلم بعد النبي –صلى الله عليه وسلم– بسنتين، وأخذ القرآن عرضًا عن أبي بن كعب وزيد بن ثابت وابن عباس. له تفسير رواه عنه الربيع بن أنس البكري. مات سنة ٩٠، وقيل: سنة ٩٦. ينظر ترجمته في تذكرة الحفاظ (١/ ٥٨)، وغاية النهاية (١/ ٢٨٤)، وطبقات المفسرين للداوودي (١/ ١٧٨).

[6] – تفسير القرطبي (١٢/ ٧١).

[7] – زاد المسير (٣/ ٢٤١)، وهو قول ابن زيد؛ ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٨٥).

وقد مال أبو حيان إلى تفسيرها بذلك فقال: (وينبغي أن تكون قراءة الجمهور يراد بها الصلوات المعهودة في الملل، وأما غيرها مما تلاعبت فيه العرب بتحريف وتغيير، فينظر ما مدلوله في اللسان الذي نقل منه فيفسر به)[1].

وقال الطبري: (وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: لهدمت صوامع الرهبان، وبيع النصارى، وصلوات اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرا. وإنما قلنا هذا القول أولى بتأويل ذلك؛ لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب المستفيض فيهم، وما خالفه من القول وإن كان له وجهٌ فغيرُ مستعمل فيما وجهه إليه من وجهه إليه)[2].

أما ابن عطية قال: (وذهب خصيف إلى أن هذه الأسماء قصد بها متعبدات الأمم، و«الصوامع» للرهبان، وقيل: للصابئين، و«البيع» للنصارى، و«الصلوات» لليهود و«المساجد» للمسلمين، والأظهر أنها قصد بها المبالغة بذكر المتعبدات، وهذه الأسماء تشترك الأمم في مسمياتها إلا البيعة، فإنها مختصة بالنصارى في عرف لغة العرب، ومعاني هذه الأسماء هي في الأمم التي لها كتاب على قديم الدهر، ولم يذكر في هذه المجوس ولا أهل الإشراك؛ لأن هؤلاء ليس لهم ما تجب حمايته، ولا يوجد ذكر الله إلا عند أهل الشرائع)[3].

﴿فَأَمْلَيْتُ﴾: أمهلتُهم وأخَّرت العقوبة عنهم ولم أعاجل بها[4]. (يقال: أمْلى الله لفلان في العمر، إذا أخَّر عنه أجله. وأصل هذا من الملَوين)[5]. قال ابن عطية: (معناه: فأمهلت، وكأن الإمهال أن تمهل من تنوي فيه المعاقبة، وأنت في حين إمهالك عالم بفعله)[1].

---

[1] – البحر المحيط (٧/ ٥١٧).

[2] – تفسير الطبري (١٦/ ٥٨٦).

[3] – المحرر الوجيز (٤/ ١٢٥).

[4] – غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٢٨)، والسراج في بيان غريب القرآن (ص: ١٦٣)

[5] – التفسير البسيط (١٥/ ٤٣٧).

﴿أَخَذْتُهُمْ﴾ الأخذ حقيقته: التناول لما لم يكن في اليد[٢]، وهو هنا (كناية عن العقاب والإهلاك)[٣].

﴿نَكِيرِ﴾ النكير اسم مصدر، (بمعنى الإنكار والتغيير)[٤]، وهو بناء مبالغة[٥]؛ فالنكير: (الإنكار الزجري لتغيير الحالة التي عليها الذي يُنكَر عليه)[٦].

ومعنى ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٤﴾ [سورة الحج: ٤٤]: فانظر كيف أنكرت عليهم بالعقوبة، وغيرت ما كانوا فيه من النعم بالعذاب، وأبدلتهم بالنعمة محنة، وبالعمارة خرابا، وبالحياة هلاكا[٧].

﴿خَاوِيَةٌ﴾: أي ساقطة متهدِّمة، وأصل الخواء: الخلاء. يقال: خوت الدار: إذا خلت وبقيت بلا أنيسٍ[٨]. (ثم يقال للبيت إذا سَقَطَ وتَهَدَّم: خوي؛ لأنه بِتَهَدُّمه يَخْلُو من أهله)[٩].

﴿عُرُوشِهَا﴾ العروش جمع عرش، والعَرْشُ في الأصل: شيء مسقّف[١٠]. قال الزمخشري: (كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة أو كرم فهو «عرش»)[١١]. وعروشها: أي سقوفها[١].

---

[١] – المحرر الوجيز (٤/ ١٢٦).

[٢] – التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٣).

[٣] – البحر المحيط (٧/ ٥١٩).

[٤] – الكشاف (٣/ ١٦١).

[٥] – المحرر الوجيز (٤/ ١٢٦).

[٦] – التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٤).

[٧] – ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤٣٧)، والكشاف (٣/ ١٦١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٧٣).

[٨] – عمدة الحفاظ (١/ ٥٤٤).

[٩] – التفسير البسيط (٤/ ٣٨٢).

[١٠] – المفردات (ص: ٥٥٨).

[١١] – الكشاف (٣/ ١٦١).

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [سورة الحج: ٤٥] لا يخلو من أن يتعلق بخاوية، فيكون المعنى أنها ساقطة على سقوفها[٢]، أي: قد تهدمت سقوفها وخرّت على الأرض، ثم انقعرت الحيطان من قواعدها، فتساقطت على السقوف المتهدمة[٣].

ويحتمل أن يكون المعنى: فهي خالية من أهلها مع بقاء عروشها وسلامتها، فتكونُ على بمعنى مع[٤].

(وإما أن يكون خبرا بعد خبر، كأنه قيل: هي خالية، وهي على عروشها، أي قائمة مطلة على عروشها، على معنى أن السقوف سقطت إلى الأرض فصارت في قرار الحيطان وبقيت الحيطان ماثلة، فهي مشرفة على السقوف الساقطة)[٥].

﴿وَبِئْرٍ﴾ البئر حفرة في الأرض عظيمة، يستقى منها الماء[٦].

﴿مُعَطَّلَةٍ﴾ التعطيل: الترك من العمل[٧]. قال الليث: (عطلت المرأة تعطل عطلا وعطولا وتعطلت إذا لم تلبس الزينة، وإذا ترك الثغر بلا حام يحميه فقد عطل. والمواشي إذا أهملت بلا راع فقد عطلت، وكذلك الرعية إذا لم يكن لها وال يسوسها فهم معطلون، وقد عطلوا أي أهملوا. وبئر معطلة: لا يستقى منها ولا ينتفع بمائها)[٨].

---

[١] – غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٩٤)، وغريب القرآن للسجستاني (ص: ٣٤٢)، والغريبين (٤/ ١٢٥٠).

[٢] – الكشاف (٣/ ١٦١).

[٣] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٢)، والغريبين (٤/ ١٢٥٠)، والتفسير البسيط (٤/ ٣٨٢).

[٤] – الكشاف (٣/ ١٦٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٣)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١١١).

[٥] – الكشاف (٣/ ١٦١ – ١٦٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٢).

[٦] – الكشاف (٣/ ١٦١).

[٧] – التفسير البسيط (١٥/ ٤٤٠).

[٨] – تهذيب اللغة (٢/ ٩٨)، وينظر مقاييس اللغة (٤/ ٣٥١) حيث قال: (العين والطاء واللام أصل صحيح واحد يدل على خلو وفراغ)، ثم ذكر قريبا مما قال الليث.

والمعنى: أنها متروكة من الاستقاء لهلاك أهلها، عطل الانتفاع بها، مع صلاحها للانتفاع، فهي عامرة بالماء، وحولها وسائل السقي، ولكنها لا يستقى منها لأن أهلها هلكوا[١].

وقد وجد المسلمون وهم في طريقهم إلى تبوك آبارا في ديار ثمود، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن الشرب منها إلا بئرا واحدة، وهي تلك التي شربت منها ناقة صالح عليه السلام[٢].

وقيل المعنى: خالية من أهلها لهلاكهم. وقيل: غائرة الماء. وقيل: معطلة من دلائها وأرشيتها، والمعنى متقارب[٣].

قال الزمخشري: (والمعنى: كم قرية أهلكنا؟ وكم بئر عطلنا عن سقاتها؟ وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه؟ فترك ذلك لدلالة معطلة عليه. وفي هذا دليل على أن ﴿على عروشها﴾ بمعنى «مع» أوجه)[٤].

﴿وَقَصْرٍ﴾ القصر: المسكن المبني بالحجارة المجعول طباقا[٥].

﴿مَشِيدٍ﴾؛ المشيد: المبني بالشِّيد، وهو الجص[٦]؛ قال الجوهري[٧]: (الشِّيد، بالكسر: كل شئ طَلَيْتَ به الحائِطَ من جِصٍّ أو مِلاطٍ، وبالفتح المصدر. تقول: شاده يشيده شيدا:

---

[١] – الكشاف (٣/ ١٦٢)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٦).

[٢] – التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٦).

[٣] – النكت والعيون (٤/ ٣١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٧٤).

[٤] – الكشاف (٣/ ١٦٢)، وينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٣)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١١١).

[٥] – التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٦).

[٦] – المحرر الوجيز (٤/ ١٢٧).

[٧] – هو أبو نَصْر، إسماعيل بن حمَّاد الجوهري، إمام اللغة، كان من أعاجيب الدنيا ذكاء وعلما، أصله من "الفاراب" إحدى بلاد التُرك، أكثَرَ من مخالطة قبائل العرب في البوادي وخاصة ربيعة ومضر، وصنف كتاب "الصِّحاح" المشهور، وله مقدمة في النحو، توفي بنيسابور سنة (٣٩٨هـ) أو بعدها. ينظر: نزهة الألباء (ص٣٤٤)، ومعجم الأدباء (٦/ ١٥١ – ١٦٥)، وإنباه الرواة (١/ ١٩٤).

جصّصه. والمشِيد: المعمول بالشِيدِ)[1]، وإنما يبنى به البناء من الحجر لأن الجص أشد من التراب، فبشدة مسكه يطول بقاء الحجر الذي رص به[2].

وقيل: القصر المشيد: هو الطويل المرفوع البنيان، من قولهم: شاد بناء إذا رفعه، ومنه قوله تعالى: ﴿بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [سورة النساء: ٧٨][3]. والحق أنه مِن شيّد بالتضعيف، لا مِن شاد.

وقيل: المشِيد: الحصين[4]. وقيل «المشيد»: المعلى بالآجر ونحوه[5].

(والقصور المشيدة – وهي المخلفة عن القرى التي أهلكها الله – كثيرة مثل: قصر غمدان في اليمن، وقصور ثمود في الحِجر، وقصور الفراعنة في صعيد مصر)[6].

﴿كَرِيمٌ﴾ قال أهل اللغة: الكرَم اسم جامع لكل ما يحمد ويستحسن[7]، والكريم: المحمود فيما يحتاج إليه فيه، والرزق الكريم: هو الشريف الفاضل الحسن الممدوح[8]. وقال هشام بن عُروة[9] في تفسير هذه الكلمة: (يعني ما أعد الله لهم في الجنة من لذيذ المآكل والمشارب وهنيء العيش)[10].

---

[1] – الصحاح (٢/ ٤٩٥).

[2] – التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٦).

[3] – التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٧٥).

[4] – فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٤٣).

[5] – المحرر الوجيز (٤/ ١٢٧).

[6] – التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٦).

[7] – تهذيب اللغة (١٠/ ١٣٢)، والتفسير البسيط (١٠/ ٢٤).

[8] – التفسير البسيط (١٠/ ٢٤).

[9] – هو هشام بن عروة بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، أبو المنذر، تابعي، من كبار العلماء وأئمة الحديث، كان ثقة ثبتاً كثير الحديث حجة. توفي سنة ١٤٦هـ. ينظر: وفيات الأعيان (٦/ ٨٠)، وسير أعلام النبلاء (٦/ ٣٤)، وتهذيب التهذيب (١١/ ٤٨).

[10] – الكشف والبيان (٤/ ٣٢٨).

قال ابن عطية: (و(الرزق الحسن) يحتمل أن يريد به رزق الشهداء عند ربهم في البرزخ ويحتمل أن يريد بعد يوم القيامة في الجنة)[1]، وهو النعيم فيها.

وقال الرازي: (وأما الرزق الكريم فهو إشارة إلى الثواب، وكرمه يحتمل أن يكون للصفات السلبية، وهو أن الإنسان هناك يستغني عن المكاسب وتحمل المشاق والذل فيها وارتكاب المآثم والدناءة بسببها، وأن يكون للصفات الثبوتية، وهو أن يكون رزقا كثيرا دائما خالصا عن شوائب الضرر، مقرونا بالتعظيم والتبجيل. والأولى جعل الكريم دالا على كل هذه الصفات)[2].

﴿سَعَوْا﴾ السعي: المشي السريع، وهو دون العدو، ويستعمل للجد في الأمر، خيرا كان أو شرا[3]. (ويقال لمن بذل جهده في أمر: إنه سعى فيه توسعا من حيث بلغ في بذل الجهد النهاية، كما إذا بلغ الماشي نهاية طاقته فيقال له سعى. وذكر الآيات وأراد التكذيب بها مجازا)[4].

وعلى ذلك فمعنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ [سورة الحج: ٥١]: عملوا وجَدّوا في إبطالها[5]. وقال ابن عطية: (معناه: تحيلوا وكادوا، من السعاية)[6]. يقال: (سعى بفلان سعاية أي تحيل، وكاد في إيصال الشر إليه)[7].

---

[1] – المحرر الوجيز (٤/ ١٣٠)، والبحر المحيط (٧/ ٥٢٩).

[2] – تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٥).

[3] – المفردات (ص: ٤١١).

[4] – تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٥).

[5] – التفسير البسيط (١٥/ ٤٤٩)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٩٢).

[6] – المحرر الوجيز (٤/ ١٢٨).

[7] – البحر المحيط (٧/ ٥٢٤).

قال الزمخشري: (والمعنى: سعوا في معناها بالفساد من الطعن فيها، حيث سموها: سحرا وشعرا وأساطير، ومن تثبيط الناس عنها سابقين أو مسابقين في زعمهم وتقديرهم، طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم)[١].

وقال ابن عاشور: (والكلام تمثيل، شبهت هيئة تفننهم في التكذيب بالقرآن وتطلب المعاذير لنقض دلائله من قولهم: هو سحر، هو شعر، هو أساطير الأولين، هو قول مجنون، وتعرضهم بالمجادلات والمناقضات للنبي صلى الله عليه وسلم، بهيئة الساعي في طريق يسابق غيره ليفوز بالوصول)[٢].

﴿مُعَاجِزِينَ﴾؛ بالألف والتخفيف على قراءة الجمهور، من المعاجزة، وهي مفاعلة من العجز، ومعناها في اللغة: (محاولة عجز المغالب)[٣]، أي: (مغالبة اثنين أحدهما صاحبه، أيهما يعجزه فيغلبه الآخر ويقهره)[٤]. وعلى ذلك فمعنى معاجزين: (مغالبين)[٥]؛ وقال الزمخشري: (وعاجزه: سابقه، لأن كل واحد منهما في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به، فإذا سبقه قيل: أعجزه وعجزه)[٦]. وسر الإتيان بصيغة المفاعلة (كأنهم طلبوا عجز صاحب الآيات، والآيات تقتضي تعجيزهم، فصارت مفاعلة)[٧].

---

[١] – الكشاف (٣/ ١٦٣ – ١٦٤).

[٢] – التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٥).

[٣] – التفسير البسيط (١٥/ ٤٤٩).

[٤] – تفسير الطبري (١٦/ ٦٠٢).

[٥] – المحرر الوجيز (٤/ ١٢٨).

[٦] – الكشاف (٣/ ١٦٣).

[٧] – المحرر الوجيز (٤/ ١٢٨).

والمعنى: أي ظانّين ومقدّرين أنهم يعجزوننا ويفوتوننا لأنهم ظنوا أنهم لا يبعثون، وأنه لا جنة ولا نار[1]. وهذا في المعنى كقوله: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ [سورة العنكبوت: ٤][2].

قال الرازي: (واختلفوا في المراد: هل معاجزين لله أو للرسول وللمؤمنين؟ والأقرب هو الثاني لأنهم إن أنكروا الله استحال منهم أن يطمعوا في إعجازه، وإن أثبتوه فيبعد أن يعتقدوا أنهم يعجزونه ويغلبونه، ويصح منهم أن يظنوا ذلك في الرسول بالحيل والمكايد. أما الذين قالوا المراد معاجزين لله، فقد ذكروا وجوها: أحدها: المراد بمعاجزين مغالبين مفوتين لربهم من عذابهم وحسابهم حيث جحدوا البعث وثانيها: أنهم يثبطون غيرهم عن التصديق بالله ويثبطونهم بسبب الترغيب والترهيب وثالثها: يعجزون الله بإدخال الشبه في قلوب الناس والجواب: عن الأول أن من جحد أصل الشيء لا يوصف بأنه مغالب لمن يفعل ذلك الشيء، ومن تأول الآية على ذلك فيجب أن يكون مراده أنهم ظنوا مغالبة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما كان يقوله من أمر الحشر والنشر والجواب: عن الثاني والثالث أن المغالبة في الحقيقة ترجع إلى الرسول والأمة، لا إلى الله تعالى)[3].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿مُعجِّزين﴾ بغير ألف والتشديد في جميع القرآن، من التعجيز، وهو التفعيل من العجز[4]. وقد فسرها أبو علي الفارسي أنهم يُعجّزون من اتبع النبي –صلى الله عليه وسلم–، أي: ينسبونهم إلى العجز، كقولهم: جهّلته نسبته إلى الجهل، وفسّقته: نسبته إلى الفسق[5]. وتأولها بعض المفسرين: أنهم كانوا يعجزون من اتبع النبي – صلى الله عليه وسلم –

---

[1] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٣)، والحجة للقراء السبعة (٥/ ٢٨٤).

[2] – التفسير البسيط (١٥/ ٤٥٠).

[3] – تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٥).

[4] – تفسير الطبري (١٦/ ٦٠٢).

[5] – الحجة للقراء السبعة (٥/ ٢٨٤)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤٥٠).

ويثبطونهم عنه[1]. أي جاعلوهم بالتثبيط عجزة عن الإيمان[2]، (وعلى هذا ليس المراد بالتعجيز النسبة إلى العجز، والمراد به طلب عجزهم وجعلهم عاجزين بالتثبيط وأسبابه؛ كي يعجزوا فلا يؤمنوا)[3].

والقراءتان (متقاربتا المعنى؛ وذلك أن من عجز عن آيات الله فقد عاجز الله، ومن معاجزة الله التعجيز عن آيات الله والعمل بمعاصيه وخلاف أمره. وكان من صفة القوم الذين أنزل الله هذه الآيات فيهم أنهم كانوا يبطئون الناس عن الإيمان بالله واتباع رسوله، ويغالبون رسول الله صلى الله عليه وسلم، يحسبون أنهم يعجزونه ويغلبونه، وقد ضمن الله له نصره عليهم، فكان ذلك معاجزتهم الله)[4].

﴿مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الظاهر (أن الرسول أخص من النبي، وكثير من الأنبياء لم يرسلوا، وكل رسول نبي)[5]. وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦﴾ [سورة الزخرف: ٦]، وذلك يدل على أنهم كانوا أنبياء، ثم جعلهم الله مرسلين، ولذلك كان عدد الرسل أقل من عدد الأنبياء، وسأل أبو ذر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، كم النبيون؟ قال: ((مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي))، فقال: كم المرسلون منهم؟ قال: (ثلاث مائة وثلاثة عشر))[6].

---

[1] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٣)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٤).

[2] – المحرر الوجيز (٤/ ١٢٨).

[3] – التفسير البسيط (١٥/ ٤٥١).

[4] – تفسير الطبري (١٦/ ٦٠٢).

[5] – المحرر الوجيز (٤/ ١٢٩).

[6] – أخرجه الحاكم (كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ح ٤١٦٦، ٢/٦٥٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (كتاب السير، باب مبتدأ الخلق، ح ١٧٤٨٩، ٩/٤)، وأخرجه أيضًا في شعب الإيمان (الإيمان برسل الله صلوات الله عليهم عامة، ح ١٣١، ١/١٤٨).

قال الواحدي: (الرسول: الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليه عيانًا، ومحاورته إيَّاه شفاهًا. والنبي: الذي تكون نبوته إلهامًا أو منامًا. فكلّ رسول نبيّ، وليس كل نبيٍّ رسولاً)[1].

وهذا معنى قول الفراء: (الرسول: النبي المرسل، والنبي: المحدَّث الذي لم يرسل)[2]. ولكن يُبطل هذا الفرقَ وجوهٌ، (أحدها: هذه الآية فإنها دالة على أن النبي قد يكون مرسلا، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ [سورة الأعراف: ٩٤].

وثانيها: أن الله تعالى خاطب محمدا مرة بالنبي ومرة بالرسول، فدل على أنه لا منافاة بين الأمرين، وعلى القول الأول المنافاة حاصلة.

وثالثها: أنه تعالى نص على أنه خاتم النبيين.

ورابعها: أن اشتقاق لفظ النبي إما من النبأ وهو الخبر، أو من قولهم نبأ إذا ارتفع، والمعنيان لا يحصلان إلا بقبول الرسالة)[3].

إذا ثبت هذا فنقول: ذكر العلماء في الفرق بين الرسول والنبي عدة أقوال:

أحدها: أن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو إلى كتاب من قبله.

والثاني: أن من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرسول، ومن لم يكن مستجمعا لهذه الخصال فهو النبي غير الرسول، وهؤلاء يلزمهم أن لا يجعلوا إسحاق ويعقوب وأيوب ويونس وهارون وداود وسليمان رسلا لأنهم ما جاءوا بكتاب ناسخ.

---

[1] – تفسير الطبري (١٦/ ٦٠٢).

[2] – معاني القرآن للفراء (٢/ ٢٢٩).

[3] – تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٦).

والثالث: أن من جاءه الملك ظاهرا وأمره بدعوة الخلق فهو الرسول، ومن لم يكن كذلك بل رأى في النوم كونه رسولا، أو أخبره أحد من الرسل بأنه رسول الله، فهو النبي الذي لا يكون رسولا، وهذا هو الأولى)[1].

وقيل: الرسول: صاحب الشرع، والنبي هو الذي يأمر باتباع شرع سابق[2]، وقيل: الرسول: هو الذي يأتيه الملك، والنبي هو الذي يرى في المنام ما يوحى إليه)[3].

﴿تَمَنَّى﴾؛ تمنى من التمني؛ و(الميم والنون والحرف المعتلّ أصل واحد صحيح، يدل على تقدير شيء ونفاذ القضاء به)[4]. قال الراغب: (والتمني: تقدير شيء في النفس وتصويره فيها، وذلك قد يكون عن تخمين وظن، ويكون عن روية وبناء على أصل، لكن لما كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أملك، فأكثر التمني تصور ما لا حقيقة له. قال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤﴾ [سورة النجم: ٢٤]، ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ [سورة البقرة: ٩٤]، ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾ [سورة الجمعة: ٧]، والأمنية: الصورة الحاصلة في النفس من تمني الشيء، ولما كان الكذب تصور ما لا حقيقة له وإيراده باللفظ صار التمنّي كالمبدأ للكذب، فصح أن يعبر عن الكذب بالتمني)[5].

(ومنه قول عثمان رضي الله عنه: (ما تَغَنَّيْتُ ولا تَمَنَّيْت) أي: ما اخْتَلَقْتُ الباطل)[6].

أما في هذه الآية فقد فسر التمني على وجهين:

---

[1] – الكشاف (٣/ ١٦٤).

[2] – نسبه الماوردي في تفسيره (٤/ ٣٥) إلى الجاحظ، وبه قال نجم الدين النيسابوري في "إيجاز البيان عن معاني القرآن" (٢/ ٥٨١).

[3] – غرائب التفسير وعجائب التأويل (٢/ ٧٦٣).

[4] – مقاييس اللغة (٥/ ٢٧٦).

[5] – المفردات (ص:٧٧٩ – ٧٨٠).

[6] – غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٥٥).

الوجه الأول: بمعنى تلا، وعليه أكثر مفسري السلف، أي إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته[1]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [سورة البقرة: ٧٨]، أي (لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة ولا يعملون به، وليسوا كمن يتلوه حَقَّ تلاوته: فيُحِلُّ حلالَه ويُحَرِّم حرامَه، ولا يحرفه عن مواضعه)[2]. قال الفرّاء: (والأمنية في المعنى التلاوة)[3]، واحتج رواة اللغة على هذا المعنى بقول كعب بن مالك في عثمان رضي الله عنه حين قتل:

تمـــنّى كتـــابَ الله أول ليلـــهِ وآخـــرَه لاقـــى حِمـــامَ المقـــادر[4]

وقال الشاعر:

تمنى كتاب الله أول ليلة تمنّيَ داودَ الزّبورَ على رِسْل[5]

(أي تلا كتاب الله مترسلا فيه، كما تلا داود الزبورَ مترسلا فيه)[6].

---

[1] – غريب القرآن لابن قتيبة (٥٥)، ومعاني القرآن للزجاج (١/ ١٥٩)، والكشف والبيان (١/ ٢٢٤)، والهداية (١/ ٣٢٠).

[2] – غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٥٦).

[3] – معاني القرآن (١/ ٤٩ – ٥٠)، وقال في موضع آخر (٢/ ٢٢٩): (التمني: التلاوة، وحديث النفس أيضا).

[4] – الكشف والبيان (٧/ ٣٠)، والنكت والعيون (١/ ١٥٠)، ونسبه الرازي ومن تبعه إلى حسان بن ثابت، وليس كذلك، وإنما هو لكعب بن مالك كما في ديوانه: (ص٢٩٤).

[5] – الغريبين (٦/ ١٧٨٢)، وزاد المسير (١/ ٨١). وقد علق ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٧/ ٣٠٦) على هذا المعنى فقال: (وهو ادعاء لا يوثق به ولا يوجد له شاهد صريح في كلام العرب. وأنشدوا بيتًا لحسان بن ثابت في رثاء عثمان رضي الله عنه:

تمنى كتاب الله أول ليله... وآخره لاقى حمام المقادر

وهو محتمل أن معناه تمنى أن يقرأ القرآن في أول الليل على عادته فلم يتمكن من ذلك بتشغيب أهل الحصار عليه وقتلوه آخر الليل. ولهذا جعله تمنيا لأنه أحب ذلك فلم يستطع. وربما أنشدوه برواية أخرى فظن أنه شاهد آخر، وربما توهموا الرواية الثانية بيتا آخر).

[6] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٥).

قال الرازي: إن التلاوة ترجع إلى معنى التقدير؛ (فإن التاليَ مقدِّرٌ للحروف ويذكرها شيئا فشيئا)[1]. و(قيل: إنما سميت القراءة أمنية لأن القارئ إذا انتهى إلى آية رحمة تمنى حصولها، وإذا انتهى إلى آية عذاب تمنى أن لا يبتلى بها)[2].

وحاول الراغب أن يرجع هذا الوجه من التفسير إلى المعنى الأصلي للتمني فقال: (تقدم أن التمنيَ كما يكون عن تخمين وظن فقد يكون عن روية وبناء على أصل، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما كان يبادر إلى ما نزل به الروح الأمين على قلبه حتى قيل له: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ [سورة طه: ١١٤]، ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾ [سورة القيامة: ١٦] سمى تلاوته على ذلك تمنيا، ونبه أن للشيطان تسلطًا على مثله في أمنيته، وذلك من حيث بين أن «العجلة من الشيطان»)[3].

الوجه الثاني: التمني: تشهي حصول الأمر المرغوب فيه[4]، وحديث النفس بما يكون وبما لا يكون[5]. وهذا المعنى هو الأشهر في الاستعمال، وهو راجع إلى معنى التقدير: (قال أبو بكر: تمنيت الشيء، أي: قدرته وأحببت أن يصير إلي، من "المنا" وهو "القدْر")[6]. و(قال أبو

---

[1] – تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٨).

[2] – تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٨).

[3] – المفردات (ص:٧٧٩ – ٧٨٠)، والحديث أخرجه الترمذي في سننه: (كتاب البر، باب ما جاء في التأني والعجلة، ح ٢٠١٢، ٣٦٧/٤)، وقال: (هذا حديث غريب)، وفي سنده عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد الساعدي، وهو ضعيف، كما قال الحافظ في التقريب (ص: ٣٦٦ رقم ٤٢٣٥)، ولكن للحديث شواهد يرتقي بها للحسن كما قال محققو جامع الأصول (٦٩١/١١).

[4] – النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٦٧).

[5] – تهذيب اللغة (١٥/ ٣٨٣).

[6] – تهذيب اللغة (١٥/ ٣٨٣).

مسلم[1]: التمني هو التقدير، وتمنى هو تفعل من منيت، والمنية وفاة الإنسان في الوقت الذي قدره الله تعالى، ومنى الله لك أي قدر لك)[2].

واختلف ما الذي كان النبي يتمناه؟ فقال جماعة: (ذلك التمني من النبي صلى الله عليه وسلم ما حدثته نفسه من محبته مقاربة قومه في ذكر آلهتهم ببعض ما يحبون)[3].

وروى الثعلبي عن أبي الحسن علي بن مهدي الطبري[4] أنه قال: (ليس هذا التمنّي من القرآن والوحي في شيء، وإنّما هو أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم كان إذا صفرت يده من المال ورأى ما بأصحابه من سوء الحال تمنّى الدنيا بقلبه وسوسةً من الشيطان)[5].

(وقيل: معنى الآية، أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا حدث نفسه، ألقى الشيطان في حديثه على جهة الحيلة فيقول: لو سألت الله أن يغنمك كذا ليتسع المسلمون، ويعلم الله الصلاح في غير ذلك)[6].

وقال جعفر الصادق[1] رحمه الله: (كل نبي يتمنى إيمان قومه، فيلقي الشيطان في أمنيته بما يوسوس إلى قومه، ثم يحكم الله آياته)[2].

---

[1] – هو أبو مسلم الأصفهانيّ، واسمه: محمّد بن بحر، كان عالمًا بالتفسير وبغيره من صنوف العلم، وله في التفسير: "جامع التأويل لمحكم التنزيل"، له آراء غريبة على مذهب المعتزلة، ولد سنة (٢٥٤هـ) وتوفّي سنة (٣٢٢هـ)، ينظر معجم الأدباء (١٨/ ٣٥ – ٣٨)، وبغية الوعاة (١/ ٥٩).

[2] – تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٨).

[3] – تفسير الطبري (١٦/ ٦٠٩).

[4] – علي بن محمد بن مهدي الطبري الأشعري، تلميذ أبي الحسن الأشعري، صحبه بالبصرة وأخذ عنه، كان من المبرزين في علم الكلام والقوّامين بتحقيقه، وله كتاب تأويل الأحاديث المشكلات الواردات في الصفات، كان حافظًا للفقه والتفاسير والمعاني وأيام العرب، فصيحًا مبارزًا في النَّظر، توفي في حدود سنة (٣٨٠هـ) ينظر: طبقات الشافعية للسبكي (٣/ ٤٦٦)، والوافي بالوفيات، للصفدي (٢٢/ ١٤٣).

[5] – الكشف والبيان (٧/ ٣٠).

[6] – الهداية (٧/ ٤٩١٧)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٨٥).

﴿فَيَنْسَخُ﴾؛ (النسخ: إزالة شيء بشيء يتعقبه، كنسخ الشمس الظل، والظل الشمس، والشيب الشباب. فتارة يفهم منه الإزالة، وتارة يفهم منه الإثبات، وتارة يفهم منه الأمران. ونسخ الكتاب: إزالة الحكم بحكم يتعقبه)[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [سورة الحج: ٥٢]، أي: يبطله ويُذهبه[٤] بعصمته عن الركون إليه والإرشاد إلى ما يزيحه[٥]. ويزيل تلك الشبه شيئا فشيئا حتى يسلم الناس[٦]، فالمراد إذهابه وإزالة تأثيره، وهو النسخ اللغوي، لا النسخ الشرعي المستعمل في رفع ما استقر من الأحكام[٧].

وقال ابن عرفة: (فالمراد ننسخ سببه، وما نشاء منه، وما حصل في اعتقاد من بعض المؤمنين، ومن كانت في نفسه ريبة وشك)[٨].

وفسرها بعض المعاصرين: (أي فيزيل الله العراقيل التي يضعها الشيطان في سبيل دعوة الرسول)[٩].

---

[١] – أبو عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، الهاشمي القرشي، المعروف ب«جعفر الصادق»: فقيه إمام، كان من أجلاء التابعين، ومن سادات أهل البيت فقها وعلما وفضلا. ولد عام ٨٠هـ، وتوفي عام (١٤٨هـ). ينظر صفة الصفوة (٢/ ١٦٨)، والتهذيب (٢/ ١٠٣).

[٢] – باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن (٢/ ٩٦١)، وينظر محاسن التأويل (٧/ ٢٦٦ –٢٦٨).

[٣] – المفردات (ص: ٨٠١).

[٤] – تفسير الطبري (١٦/ ٦١١)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٥)، والكشف والبيان (٧/ ٣٠)، والهداية (٧/ ٤٩١٧)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤٧٠).

[٥] – تفسير البيضاوي (٤/ ٧٥).

[٦] – البحر المحيط (٧/ ٥٢٥).

[٧] – المحرر الوجيز (٤/ ١٢٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٤١).

[٨] – تفسير ابن عرفة (٣/ ١٩٤).

[٩] – معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن (٤/ ١٨٤).

﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٥٢]. قال الواحدي: (إن قلنا إن الشيطان تكلم بهذا على لسانه فهو ظاهر، وإن قلنا إنّه سهى وغلط؛ فإن ذلك السهو من جهة الشيطان ووسوسته فهو من إلقائه. ومفعول ﴿أَلۡقَى﴾ غير مذكور في اللفظ لأنه كان معلومًا للنبي – صلى الله عليه وسلم – ولأصحابه حين نبه على غلطه، ألا ترى أنه نقل نقلًا مستفيضًا)[١].

وجنح القاسمي[٢] إلى تفسير الإلقاء وفق فهمه للآية فقال: (غير أن الإلقاء لا يكون على المعنى الذي ذكروه، بل على المعنى المفهوم من قولك (ألقيت في حديث فلان) إذا أدخلت فيه ما ربما يحتمله لفظه، ولا يكون قد أراده. أو نسبت إليه ما لم يقله تعللا بأن ذلك الحديث يؤدي إليه. وذلك من عمل المعاجزين الذين ينصبون أنفسهم لمحاربة الحق، يتبعون الشبهة، ويسعون وراء الريبة، فالإلقاء بهذا المعنى دأبهم، ونسبة الإلقاء إلى الشيطان لأنه مثير الشبهات بوساوسه، مفسد القلوب بدسائسه، وكل ما يصدر من أهل الضلال يصح أن ينسب إليه)[٣].

﴿يحكم﴾ (حكم أصله: منع منعا لإصلاح، ومنه سميت اللجام: حكمة الدابة، فقيل: حكمته وحكمت الدابة: منعتها بالحكمة، وأحكمتها: جعلت لها حكمة، وكذلك: حكمت السفيه وأحكمته، قال الشاعر:

أبني حنيفةَ أحكموا سفهاءَكم)[٤] .....

---

[١] – التفسير البسيط (١٥/ ٤٧٠).

[٢] – هو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، علامة الشام في عصره، كان متضلعا في علوم الدين وفنون الأدب. ولد بدمشق عام ١٢٨٣هـ، وكان إماما ومدرسا بجامع السنانية، له مصنفات كثيرة، منها: دلائل التوحيد، والفتوى في الإسلام، وإصلاح المساجد من البدع والعوائد، وقواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، ومحاسن التأويل في تفسير القرآن الكريم، توفي عام ١٣٣٢هـ. ينظر: الأعلام للزركلي (٢/ ١٣٥)، ومعجم المؤلفين (٣/ ١٥٧).

[٣] – محاسن التأويل (٧/ ٢٦٤).

[٤] – المفردات (ص: ٢٤٨). والشطر الثاني من البيت هو: إني أخاف عليكمُ أن أغضبا. وقائل البيت هو جرير بن عطية الخطفي. ينظر العين (٣/ ٦٧)، وغريب الحديث (٥/ ٤٧٤)، وديوان جرير بشرح محمد بن حبيب (١/ ٤٦٦).

و﴿يحكم﴾ أي: يثبت الله آياته[1]، والمراد بالآيات في قوله تعالى ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ [سورة الحج: ٥٢]: آيات القرآن، (أي يجعلها بحيث لا يختلط بها شيء من كلام غيره، فتكون ثابتة في مظانها، أو يجعلها بحيث لا يتطرق إليها تأويل فاسد معمول به عند الأمة)[2].

وقال أبو حيان: (أي معجزاته، يظهرها محكمة لا لبس فيها)[3].

وقال ابن عاشور: (وفي كلتا الجملتين حذف مضاف، أي ينسخ آثار ما يلقي الشيطان، ويحكم آثار آياته)[4].

والفتنة ها هنا بمعنى البلية والمحنة[5].

والمرضُ: الشك والنفاق[6].

﴿وَٱلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ القسوة: الصلابة في كل شيء، يقال: حجر قاسٍ: صلب، وأرض قاسية: لا تنبت شيئا، وعامٌ قَسِيٌّ: ذو قحط[7]، وقلب قاس وجاس وعاس وعات، أي صلب يابس جاف عن الذّكر غير قابل له[8]، والقساوة: غلظ القلب وصلابته[9]، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ [سورة البقرة: ٧٤]، والمراد بقسوة القلوب:

---

[1] – تفسير السمعاني (٣/ ٤٤٩)، والكشاف (٣/ ١٦٥)، وجامع البيان للإيجي (٣/ ٦٥).

[2] – غرائب القرآن (٥/ ٩٢).

[3] – البحر المحيط (٧/ ٥٢٥).

[4] – التحرير والتنوير (١٧/ ٣٠١).

[5] – زاد المسير (٣/ ٢٤٦).

[6] – زاد المسير (٣/ ٢٤٦)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٨٦).

[7] – تهذيب اللغة (٩/ ١٧٩ – ١٨٠).

[8] – التبيان في تفسير غريب القرآن (ص: ٨٢).

[9] – المفردات (ص: ٦٧١)، والتبيان (ص: ٨٢).

ذهاب اللين والرحمة والخشوع منها[1]، وخلوها من الإذعان لآيات الله تعالى[2]، ونبوُّها عن الاعتبار، وأن المواعظ لا تؤثر فيها[3] كما لا يؤثر الماء في الحجارة الصلدة.

والمعنى: الجافية قلوبهم عن الإيمان[4]، فلا تلين لأمر الله تعالى[5]. والمراد بهم الكفار.

﴿شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؛ أصل الشقاق من الشِّق؛ قال الراغب: (والشقاق: المخالفة، وكونك في شق غير شق صاحبك، أو من: شق العصا بينك وبينه. قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [سورة النساء: ٣٥]، ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [سورة البقرة: ١٣٧)، أي: مخالفة، ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ [سورة هود: ٨٩])[6].

والشقاق في القرآن يفسر بثلاثة أوجه:

الأول: الضلال؛ وقيل: الشِقاق: الضلال بلغة جُرهم[7]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة البقرة: ١٧٦]، أي في ضلال طويل[8]. ويجوز أن يكون أراد المجانبة والمباعدة، أي: هم في بعد عن الحق وعن صاحب الحق شديد، أو (يتباعد بعضهم في مشاقة بعض)[9].

---

(١) – معاني القرآن للزجاج (١/ ١٥٥).

(٢) – المحرر الوجيز (١/ ١٦٦).

(٣) – الكشاف (١/ ١٥٥).

(٤) – زاد المسير (٣/ ٢٤٦).

(٥) – التفسير البسيط (١٥/ ٤٧١).

(٦) – المفردات (ص: ٤٥٩ – ٤٦٠).

(٧) – اللغات في القرآن (ص: ٢١).

(٨) – ينظر التصاريف لتفسير القرآن (ص: ١٥٤).

(٩) – الغريبين (١/ ١٩٣).

الثاني: الخلاف، كما قيل في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [سورة النساء: ٣٥]، أي خلافا بينهما[١]، ويجوز أن يكون بمعنى الفُرْقة. وقوله حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ [سورة هود: ٨٩]، أي خلافي[٢]، وقد فسر الشقاق البعيد: في خلاف طويل عن الحق[٣].

الثالث: العداوة، كما في قوله تعالى: ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ [سورة محمد: ٣٢]، أي: عادوه[٤]. وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [سورة الحشر: ٤]، أي عادوا الله ورسوله[٥]. وقد فسر الشقاق البعيد: عداوة شديدة، وخلاف بعيد عن الصواب[٦].

كما في قول الشاعر:

وإلّا فـــــاعلموا أنّا وأنـــــتمُ بغـــاة مـــا حيينـــا في شـــقاق[٧]

وقد فُسِّر الشقاق في هذه الآية من سورة الحج بأنه: غاية العداوة[٨]. وقال ابن عطية: (الشقاق: البعدُ عن الخير والضلالُ، والكونُ في شق الصلاح)[٩].

و﴿بَعِيدٍ﴾، معناه أنه انتهى بهم وتعمق، فرجعتهم منه غير مرجوة[١٠].

---

[١] – ينظر الكشف والبيان (١/ ٢٨٤) و(٣/ ٣٠٣)، والتفسير البسيط (٦/ ٤٩٥).

[٢] – الكشف والبيان (١/ ٢٨٤).

[٣] – تفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٦).

[٤] – الوجوه والنظائر للعسكري (ص: ٢٦٧).

[٥] – الكشف والبيان (١/ ٢٨٤).

[٦] – السراج (ص: ١٦٤).

[٧] – الكشف والبيان (١/ ٢٨٤).

[٨] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٤)، وزاد المسير (٣/ ٢٤٦).

[٩] – المحرر الوجيز (٤/ ١٢٩).

[١٠] – المصدر السابق (٤/ ١٢٩).

قال ابن عاشور: (والبعيد هنا مستعمل في معنى: البالغ حدا قويا في حقيقته. تشبيها لانتشار الحقيقة فيه بانتشار المسافة في المكان البعيد)[1].

﴿مِرْيَةٍ﴾؛ أي: شكٍ وريبٍ. والمصنفون في الغريب يفسرون المرية بالشك[2]، إلا أن الراغب رأى أنها أخص منه فقال: (المرية: التردد في الأمر، وهو أخص من الشك)[3]. ولكن تعقبه السمين الحلبي فقال: (وفيه نظرٌ؛ فإن الشك تردد أيضًا مع تساوي الطرفين)[4].

﴿يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾؛ قال الزجاج: (أصل العقم، العقم في الولادة، يقال: هذه امرأة عقيم، كما قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩﴾ [سورة الذاريات: ٢٩]. وكذلك رجل عقيم إذا كان لا يولد له، قال الشاعر:

عقِم النساء فلن يلدن شبيهه إن النساء بمثله عُقُمُ

والريح العقيم التي لا تأتي بسحاب يمطر، وإنما تأتي بالعذاب)[5]. (يقال: ريح عقيم إذا لم تنشئ مطرا ولم تلقح شجرا)[6].

ثم منهم من فسره بأنه يوم القيامة على سبيل الاستعارة لأنه ليس له ليلة، ولا بعده يوم[7]، ولما كان الولد يكون بين الأبوين وكانت الأيام تتوالى قبل وبعد، جعل الاتباع فيها

---

[1] – التحرير والتنوير (١٧/ ٣٠٢).

[2] – ينظر غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)؛ غريب القرآن للسجستاني (ص: ٤٥٧)، وياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن (ص: ٤٥٦)، والغريبين (٦/ ١٧٤٦)، وتحفة الأريب بما في القرآن من الغريب (ص: ٢٨٩).

[3] – المفردات (ص: ٧٦٦).

[4] – عمدة الحفاظ (٤/ ٨٥).

[5] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٤).

[6] – الكشاف (٣/ ١٦٦).

[7] – تفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٧).

بالبعدية كهيئة الولادة، كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقيما، ولما لم يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقيم. وهذه استعارة[١].

(واليوم العقيم هو الذي لا يأتي فيه خير، فيوم القيامة عقيم على الكفار كما قال الله عز وجل: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾، وليس هو على المؤمنين الذين أدخلوا في رحمة الله كذلك)[٢]؛ (كأنه عَقُمَ عن أن يكون فيه خير أو فرج للكافرين)[٣].

ولكن الطبري رد هذا التفسير؛ (لأنه لا وجه لأن يقال: لا يزالون في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة، أو تأتيهم الساعة؛ وذلك أن الساعة هي يوم القيامة، فإن كان اليوم العقيم أيضا هو يوم القيامة فإنما معناه ما قلنا من تكرير ذكر الساعة مرتين باختلاف الألفاظ، وذلك ما لا معنى له)[٤].

وقيل: يعني يوم بدر. وهذا القول مروي عن السلف، وهو الذي رجحه الطبري[٥] وغيره لأنه سالم من التكرار.

واختلفوا: لم سُمّي يوم بدر عقيمًا؟ (فقال ابن عباس: لأنّه ليس ليوم بدر نظير من الأيام لا قبله ولا بعده، لم تقاتل الملائكة مع نبيّ قط إلاّ مع محمد -صلى الله عليه وسلم-، ولم تقاتل مع محمد إلا يوم بدر. وعلى هذا سمي عقيمًا، لأنه لا نظير له في عِظَمِه بقتال الملائكة فيه، فكأنَّ الدهر عقيم عن مثل ذلك اليوم)[٦].

---

[١] - تفسير القرطبي (١٢/ ٨٧)، وينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٣٠)، وروح المعاني (٩/ ١٦٧).

[٢] - معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٤ - ٤٣٥).

[٣] - غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٩٤)، وينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٧).

[٤] - تفسير الطبري (١٦/ ٦١٧ - ٦١٨).

[٥] - ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦١٧ - ٦١٨)، والكشف والبيان (٧/ ٣١).

[٦] - التفسير البسيط (١٥/ ٤٧٧).

وقيل: لأنه لا فرج لهم فيه ولا راحة ولا رحمة ولا رأفة[1]، فكأنه عقيم من الخير، وهذا عائد الى اختيار الزَّجَّاج في تفسير اليوم العقيم[2].

وقيل: وصف بالعقيم (لأنه لا ليلة لهم بعده ولا يوم، لأنهم يقتلون فيه)[3]؛ (وعلى هذا القول سُمّي عقيمًا لانقطاع أعمارهم وفناء آجالهم، فلم يروا بعد ذلك اليوم ليلاً ولا نهارًا، فكأنَّ ذلك اليوم عليهم يومًا لا ليل لهم بعده)[4].

فتأويل الآية إذاً: ولا يزال الذين كفروا في شك منه، حتى تأتيهم الساعة بغتة فيصيروا إلى العذاب الأليم، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم، فلا ينظرون فيه إلى الليل، ولكنهم يقتلون قبل المساء[5].

وقال الزمخشري: (إنما وصف يوم الحرب بالعقيم لأن أولاد النساء يقتلون فيه، فيصرْن كأنهن عقُم لم يلدْن[6]، أو لأن المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب، فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز)[7].

﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا﴾ قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر[1]: ﴿مَدْخَلًا﴾بفتح الميم، وقرأ الباقون بالضم[2]. وهذا الخلاف جار أيضا في قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [سورة النساء: ٣١].

---

[1] – تفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٦)، ونسبه الواحدي إلى الكلبي، ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤٧٧)، ونسبه ابن الجوزي إلى الضحاك في زاد المسير (٣/ ٢٤٧).

[2] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٤).

[3] – التسهيل (٢/ ٤٤). وهذا ما عبر عنه ابن جريج بقوله: (لأنهم لم يُنظَروا فيه إلى الليل، بل قتلوا قبل المساء)؛ تفسير الطبري (١٦/ ٦١٦)، والكشف والبيان (٧/ ٣١).

[4] – التفسير البسيط (١٥/ ٤٧٨).

[5] – تفسير الطبري (١٦/ ٦١٧).

[6] – وهذا التوجيه هو مؤدى قول السمرقندي في تفسيره (٢/ ٤٦٦): (لأنه أعقم كثيراً من النساء).

[7] – الكشاف (٣/ ١٦٦).

أما على قراءة الجمهور فالمدخل يجوز أن يكون مصدراً للفعل المزيد بمعنى الإدخال، والمدخلُ فيه محذوف، فيكون المعنى: ليدخلنهم الجنةَ إدخالاً يُكْرَمون به فيرضوْنه[٣]، كما قرئ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [سورة الإسراء: ٨٠] بمعنى الإدخال والإخراج[٤].

ويجوز أن يكون اسم مكان للإدخال، (ويرضونه لأن لهم فيه ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، فهو خلاف المدخل الذي قيل فيه: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ [سورة غافر: ٧١])[٥]. وقد ورد المدخل بمعنى الموضع في قوله تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة التوبة: ٥٧].

وأما على قراءة نافع فالمدخَل بفتح الميم (اسم مكان من دخل المجرد)[٦]. ودل ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم﴾ على الدخول؛ لأنَّهم إذا أُدخِلوا دخَلوا، فكأنه قال: ليُدْخلنّهم فيَدخُلون مَكاناً يرضونه[٧].

ويحتمل أن يكون مصدر "دخل" المطاوع لأدخل، والتقدير: وليدخلنكم فتدخلون دخولا ترضونه، وحذف فتدخلون لدلالة المطاوع عليه، ولدلالة مصدره أيضا[٨].

---

[١] – هو: أبو بكر بن عياش الكوفي المقرئ الأسدي الحنَّاط: اختُلِف في اسمه على عشرة أقوال؛ أصحها قولان: أن اسمه كنيته، أو شُعبة، ولد سنة ٩٤هـ، كان من مشاهير القراء، وقرأ القرآن ثلاث مرات على عاصم، وكان عالما فقيهًا في الدين، وكان يبيع الحنطة في الكوفة، توفي سنة ١٩٣ هـ. ينظر: معرفة القراء الكبار للذهبي (١/ ٨٠ – ٨٣)، وغاية النهاية (١/ ٣٢٥).

[٢] – تفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٨).

[٣] – التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٧٨)، والبحر المحيط (٣/ ٦١٦).

[٤] – تفسير الطبري (٦/ ٦٦٢).

[٥] – الحجة للقراء السبعة (٥/ ٢٨٥).

[٦] – التحرير والتنوير (١٧/ ٣١١).

[٧] – الحجة للقراء السبعة (٥/ ٢٨٥)، والتفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٧٨).

[٨] – البحر المحيط (٣/ ٦١٦).

والأقرب أنه اسم مكان، لأن المفسرين من السلف قالوا في قوله تعالى: ﴿مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾: (هو الجنة)[1].

[1] – تفسير الطبري (٦/ ٦٦٣)، والتفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٤٣).

**المطلب الرابع: معاني مفردات الربع الأخير من سورة الحج**

﴿عاقب﴾ يقال: عاقبت الرجل معاقبة وعقوبة وعقابا، وهذه المصادر تختص بالعذاب[١]. وإنما سميت عقوبة لأنها تكون بعقِب اكتساب الذنب[٢].

أما ﴿عوقب﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٦٠]، فهو في الحقيقة ليس عقوبة، لأنه ابتداء بالشر، والعقوبة هي الجزاء عن الجناية[٣]، والمعنى: (من جازى الظالم بمثل ما ظلمه)[٤]. قال الزمخشري: (تسمية الابتداء بالجزاء لملابسته له من حيث إنه سبب وذاك مسبَّب عنه، كما يحملون النظير على النظير والنقيض على النقيض للملابسة)[٥].

ومثله ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [سورة الشورى: ٤٠]، فالأولى سيئة والمجازة عليها حسنة، إلا أنها سميت سيئة لأنها وقعت إساءة بالمفعول به لأنه فعل ما يسوءه[٦].

﴿بُغِيَ عَلَيۡهِ﴾ البغي في الأصل: الحسد. يقال بغيت على أخيك بغيا: أي حسدته بغيا. ومنه قوله تعالى: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [سورة البقرة: ٢١٣]. ثم سمي الظلم بغيا لأن الحاسد يظلم المحسود جهده إرادة زوال نعمة الله عليه عنه[٧]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾ [سورة الشورى: ٣٩].

---

[١] – المفردات (ص: ٥٧٥).

[٢] – مقاييس اللغة (٤/ ٧٨)، والغريبين (٤/ ١٣٠٤).

[٣] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٥).

[٤] – تفسير القرطبي (١٢/ ٩٠).

[٥] – الكشاف (٣/ ١٦٧).

[٦] – الغريبين (٤/ ١٣٠٤).

[٧] – تهذيب اللغة (٨/ ١٧٩)، والغريبين (١/ ١٩٩).

والفعل حين يجيء متعديا بعلى يكون بمعنى ظلم وعدا عن الحق واستطال[1]. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [سورة القصص: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ [سورة الحجرات: ٩].

﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ يرى الفراهي أن المنازعة قد تبدل معناها، فصارت غالبة في معنى الخصام والجدال. والصحيح أن التنازع (هو التداول والجذب عموماً)[2]. يقال: (نزع الشيء إذا جذبه من مقره، كنزع القوس عن كبده)[3].

ثم استعملت المنازعة في معنى المجادلة، (لأن كلاً من المتجادلين ينزع صاحبه عن غرضه)[4].

والنهي هنا يحتمل معنى التخويف، وتحتمل معنى احتقار الفاعل وأنه أقل من أن يفاعل، وهذا هو المعنى الذي رجحه ابن عطية في هذه الآية[5]، وقال الزجاج: (وقوله: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ [سورة الحج: ٦٧] أي لا يجادلنك فيه، ومعناه لا تنازعهم، والدليل على أن المعنى لا يجادلنك ولا تجادلنهم قوله: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨﴾ [سورة الحج: ٦٨] ...فإن قال قائل: فهم قد جادلوه فلم قيل: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ وهم قد نازعوه؟ فالمعنى أنه نهي له – صلى الله عليه وسلم – عن منازعتهم كما يقول: لا يخاصمنك فلان في هذا أبدا، وهذا جائز في الفعل الذي لا يكون إلا من اثنين لأن المجادلة والمخاصمة لا تتم إلا باثنين، فإذا

---

[1] – معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن (١/ ٢٠٣).

[2] – مفردات القرآن للفراهي (ص: ١٦٠).

[3] – المفردات (ص: ٧٩٨)، وينظر أساس البلاغة (٢/ ٢٦٢).

[4] – عمدة الحفاظ (٤/ ١٦١).

[5] – المحرر الوجيز (٤/ ١٣٢).

قلت لا يجادلنّك فلان، فهو بمنزلة لا تجادلنّه)[1]. وهذا التقدير الذي قدر إنما يحسن مع معنى التخويف.

وقال الزمخشري: (هو نهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أي: لا تلتفت إلى قولهم ولا تمكنهم من أن ينازعوك. أو هو زجر لهم عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنازعة في الدين وهم جهال لا علم عندهم)[2]. وأن عليهم اتباعه وترك مخالفته فيما يشرع لأمته فشريعته هي القائمة، وهي ناسخة لما سبقها من الشرائع[3].

وقرأ أبو مجلز[4]: ﴿فلا ينزعِنُّك في الأمر﴾، من النزع، قال الزجاج: (معناه لا يغلبنك في المنازعة فيه، يقال: نازعني فلان فنزعته)[5]. أي اثبت في دينك ثباتا لا يطمعون أن يخدعوك ليزيلوك عنه[6].

وقال أبو حيان: معناه (فلا يقلعنك فيحملونك من دينك إلى أديانهم، من نزعته من كذا)[7].

﴿الْمُنْكَرَ﴾ بوزن اسم المفعول من أنكَر، ويحتمل معنيين:

---

[1] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٧).

[2] – الكشاف (٣/ ١٦٩).

[3] – تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٩٣).

[4] – أبو مجلز: لاحق بن حميد السدوسي البصري، أحد علماء البصرة في عصره، أدرك كبار الصحابة كأنس وابن عباس وابن عمر، وسمع منهم. وردت عنه الرواية في حروف القرآن ت١٠٦هـ على خلاف. ترجمته في الطبقات لابن سعد (٧/ ٢١٦)، وغاية النهاية (٢/ ٣٦٢)، وتهذيب التهذيب (١١/ ١٧١).

[5] – معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٧).

[6] – الكشاف (٣/ ١٦٩).

[7] – البحر المحيط (٧/ ٥٣٤).

إما أن يكون مصدرا ميميا، بمعنى الإنكار، كالمكرم بمعنى الإكرام[١]، وهو على حذف مضاف؛ (والتأويل: أثر الإنكار من الكراهية والعبوس)[٢].

وإما أن يكون هاهنا مفعول الإنكار، وليس بمعنى المصدر، أي الشيء الذي تنكره الأنظار والنفوس فيكون هنا اسما، وإليه ذهب الطبري حيث قال في تفسير الآية: (يقول: تتبين في وجوههم ما ينكره أهل الإيمان بالله من تغيرها، لسماعهم بالقرآن)[٣].

(والمحملان آيِلان إلى معنى أنهم يلوح على وجوههم الغيظ والغضب عند ما يتلى عليهم القرآن ويدعون إلى الإيمان. وهذا كناية عن امتلاء نفوسهم من الإنكار والغيظ حتى تجاوز أثره بواطنهم فظهر على وجوههم)[٤].

﴿يَسْطُونَ﴾؛ (السين والطاء والحرف المعتل أصل يدل على القهر والعلو. يقال: سطا عليه يسطو، وذلك إذا قهره ببطش)[٥]. وقيل: أصله إظهار ما يهول للإخافة[٦]. ويقال: لفلان سطوة أي: تسلط وقهر.

ويقال: فرس ساطٍ، إذا سطا على سائر الخيل وقام على رجليه وسطا بيديه. والفحل يسطو على طروقته[٧]. والأيدي السواطي: التي تتناول الشيء. والساطي من الرجال الذي يسطو بقِرنه فيبطش به ويتناوله. والله ذو سطوات أي: أخذات شديدة[٨]. وسطا بقرنه وعلى

---

[١] – الكشاف (٣/ ١٧٠)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٣٣٤).

[٢] – التفسير البسيط (١٥/ ٤٩٤).

[٣] – تفسير الطبري (١٦/ ٦٣٢).

[٤] – التحرير والتنوير (١٧/ ٣٣٤).

[٥] – مقاييس اللغة (٣/ ٧١).

[٦] – الدر المصون (٨/ ٣٠٥).

[٧] – تهذيب اللغة (١٣/ ٢٠).

[٨] – التفسير البسيط (١٥/ ٤٩٥).

قرنه: وثب عليه وبطش به[1]. وقال المبرد: يقال سطا زيد على عمرو وبعمرو. إذا تطاول عليه ليضع منه[2].

وخصه الراغب باليد فقال: (السطوة: البطش برفع اليد...وأصله من: سطا الفرسُ على الرمكة يسطو، إذا أقام على رجليه رافعا يديه، إما مرحا، وإما نزوا على الأنثى)[3].

ومنهم من حكى عن أهل اللغة العموم، وأنه يقال: سطا به إذا بطش به، سواء كان ذلك بضرب أم بشتم[4].

وفعل "سطا" متعدٍّ في الأصل ب"على"، يقال: سطا عليه. ولكنه في هذه الآية ضُمّن معنى يبطشون، فعدي تعديته[5].

وقد فسر الفراء والزجاج ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ [سورة الحج: ٧٢] بأن معناه: يكادون يبطشون بهم[6]. وقال ابن قتيبة: (أي يتناولونهم بالمكروه من الشتم والضرب)[7]. وقال مجاهد ومقاتل: يكادون يقعون بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، أي: يبسطون إليهم أيديهم بالسوء[8]. وكلها بمعنى واحد.

﴿مَثَلٌ﴾ المثل في الأصل بمعنى المِثل، وهو النظير، ويقال: مثل ومثل ومثيل، كشبْه وشبَه وشبيه، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده: مثَل، وشرطه أن يكون قولا فيه غرابة. ولا

---

[1] - أساس البلاغة (١/ ٤٥٤).

[2] - التفسير البسيط (١٥/ ٤٩٥).

[3] - المفردات (ص: ٤١٠).

[4] - معاني القرآن للنحاس (٤/ ٤٣١). وينظر التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٨٠).

[5] - الدر المصون (٨/ ٣٠٥).

[6] - معاني القرآن للفراء (٢/ ٢٣٠)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٨).

[7] - غريب القرآن (ص: ٢٩٥).

[8] - التفسير البسيط (١٥/ ٤٩٤).

يضرب إلا ما فيه غرابة من بعض الوجوه، ولذلك حوفظ عليه من التغيير، ثم استعير لكل حال أو قصة أو صفة لها شأن وفيها غرابة[١].

والمقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقا للعقل وذلك في نهاية الإيضاح[٢].

﴿يَسْلُبْهُمُ﴾؛ قال ابن فارس: (السين واللام والباء أصل واحد، وهو أخذ الشيء بخفة واختطاف. يقال سلبته ثوبه سلبا)[٣]. والاستلاب: الاختلاس[٤]. ولحظ الراغب معنى القهر فقال: (السلب: نزع الشيء من الغير على القهر)[٥].

والمعنى: إنْ يأخذِ الذُّبابُ منهم شيئاً ويخطفه[٦] بسرعة.

﴿الذُّبَاب﴾ اسم للحشرة الطائرة المعروفة. قيل: سُمي هذا الطائر ذبابًا لكثرة حركته واضطرابه وسرعة انتقاله إلى الموضع الذي يُذَبّ عنه وينحى[٧].

وأصل (ذب ب) على هذا الترتيب موضوع في كلام العرب لسرعته في الحركة والانتقال والاضطراب والمجيء والذهاب، ومنه قولهم: ذبب الرجل وذبذب، إذا أخذ في السير وأسرع.

---

[١] – الكشاف (١/ ٧٢)، وتفسير الرازي (٢/ ٣١٢)، وتفسير البيضاوي (١/ ٤٩).

[٢] – تفسير الرازي (٢/ ٣١٢).

[٣] – مقاييس اللغة (٣/ ٩٢).

[٤] – الصحاح (١/ ١٤٨).

[٥] – المفردات (ص: ٤١٩).

[٦] – تفسير أبي السعود (٦/ ١٢١)، وروح البيان (٦/ ٦١).

[٧] – التفسير البسيط (١٥/ ٤٩٨).

وذباذبُ الهودج: ما تعلق منه فيتردد في الهواء. والذَّبْذَبُ: ذكر الرجل، سُمّي بذلك لتردده. الذبّ: الرجل الخفيف الحركة[1].

ويرى صاحب المعجم الاشتقاقي المؤصل أن المعنى المحوري للذباب هو (حادٌّ دقيقُ الجِرم يسبق أو ينفذ باندفاع: كحَدّ طَرَف السيفِ وكالنابِ وحَدّ الأسنان)، وبين أن الذباب (لَحَظُوا فيه دِقّته وحِدَّة اندفاعه (امتداد) ولَدْغَه أحيانًا، والاشمئزازَ منه -وكل ذلك حدّة)[2].

﴿يَسْتَنْقِذُوهُ﴾ الاستنقاذ: استفعال بمعنى الإفعال، يقال: أنقذه واستنقذه من كذا، أي: أنجاه وخلّصه منه، ومثله: أبل المريض واستبل[3].

والمعنى: (لا يستردُّوه منه لعجزهم)[4].

﴿يَصْطَفِي﴾ قال الراغب: (أصل الصفاء: خلوص الشيء من الشوب، ومنه: الصفا، للحجارة الصافية... والاصطفاء: تناول صفو الشيء... واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إياه صافيا عن الشوب الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه وإن لم يتعر ذلك من الأول، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [سورة الحج: ٧٥]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا﴾ [سورة آل عمران: ٣٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٤٢]، ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٤]، واصطفيت كذا على كذا، أي: اخترت. ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ١٥٣﴾ [سورة

---

[1] - ينظر مادة (ذبب) في: تهذيب اللغة (١٤/ ٢٩٧)، والصحاح (١/ ١٢٦ – ١٢٧)، ومقاييس اللغة (٢/ ٣٤٨ – ٣٤٩)، والمحكم (١٠/ ٥٣).

[2] - المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٦٩٧).

[3] - الصحاح (٢/ ٥٧٢)، والتفسير البسيط (١٨/ ٤٩٠)، والدر المصون (٨/ ٣٠٨).

[4] - الوجيز للواحدي (ص: ٧٤١).

الصافات: ١٥٣]، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [سورة النمل: ٥٩]، ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [سورة فاطر: ٣٢])[١].

﴿وَجَاهِدُوا﴾ الجهاد مأخوذ من "الجُهد" بالضم على لغة الحجاز، والفتح عند غيرهم، ومعناه: الوُسع والطاقة. وقد يكون مأخوذا من تحمل الجَهد بفتح الجيم، وهو المشَقّة، وقيل: المبالغة والغاية، ومنه قوله عزّ وجل: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [سورة المائدة: ٥٣]، أَي بالغوا في اليمين واجتهدوا فيها. والجَهْد بلوغُك غايةَ الأَمر الذي لا تألُو على الجهد فيه؛ تقول: جَهَدْت جَهْدي، واجْتَهَدتُ رأيي ونفسي حتى بلغت مجهودي، وهو مصدر من جهِد في الأمر جَهْدا، إذا طلبه حتى بلغ الغاية في الطلب[٢].

(وقيل: الجَهد بالفتح: المشقة، والجُهد: الوسع)[٣].

والأرض الجهاد: اليابسة؛ لأن الرجل لا يحفرها إلا إذا بلغ مجهوده.

وجاهدت العدو إذا استفرغت قوتك في دفعه، والمفاعلة تكون من اثنين غالبا. قال الراغب في حقيقة الجهاد: (الجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو، والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس. وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٧٨])[٤].

والجهاد في القرآن على ثلاثة أوجه:

---

[١] – المفردات (ص:٤٨٧ – ٤٨٨).

[٢] – ينظر: لسان العرب، مادة (جهد): ١٣٣/٣.

[٣] – المفردات (ص: ٢٠٨)، وهو الذي جزم به ابن الأثير في "النهاية في غريب الحديث والأثر" (١/ ٣٢٠).

[٤] – المفردات (ص: ٢٠٨).

الأول: الجهاد بالقول، قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾ [سورة الفرقان: ٥٢]، والجهاد هو بذل المجهود في الشيء، وترك التقصير فيه، والمعنى: جاهد الكافرين بالقرآن[١].

الثاني: الجهاد بالسلاح، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: ٩٥].

الثالث: الاجتهاد في العمل، قال الله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ [سورة العنكبوت: ٦). أي: من يعمل الخير مجتهدا فإنما يعمل لنفسه، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩]، وقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [سورة الحج: ٧٨]، أي: اعملوا لله حق العمل، هكذا فسرت هذه الآيات، ويجوز أن تكون بمعنى جهاد المشركين[٢].

﴿ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾؛ الاجتباء هو أن تأخذ الشيء بالكلية، وهو افتعال من جبيت[٣]، و(الجيم والباء وما بعده من المعتل أصل واحد يدل على جمع الشيء والتجمع. يقال جبيت المال أجبيه جباية، وجبيت الماء في الحوض. والحوض نفسه جابية... والجِبا بكسر الجيم: ما جمع من الماء في الحوض أو غيره. ويقال له: جبوة وجباوة)[٤]. ومنه جباية الخراج، أي جمعه وتحصيله[٥]. ومنه قوله تعالى: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [سورة القصص: ٥٧].

---

[١] – ينظر تفسير الطبري (١٧/ ٤٧٠).

[٢] – الوجوه والنظائر للعسكري (ص: ١٦٥ – ١٦٦).

[٣] – تفسير الرازي (٢٠/ ٢٨٤).

[٤] – مقاييس اللغة (١/ ٥٠٣).

[٥] – تهذيب اللغة (١١/ ١٤٦).

واجتبى الشيء، بمعنى جباه لنفسه: أي جمعه، كقولك: اجتمعه[1]، ويقولون: اجتبت الفرس نفسها إذا اجتمعت نفسها راجعة بعد النفار[2].

واستعمال صيغة الافتعال فيه للمبالغة مثل الاضطرار، (ووجه الاشتقاق أن الجمع إنما يكون لشيء مرغوب في تحصيله للحاجة إليه)[3]. ولذلك صار يستعمل الاجتباء في معنى الاصطفاء والاختيار، قال الراغب: (الاجتباء: الجمع على طريق الاصطفاء. قال عز وجل: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ﴾ [سورة القلم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٣]، أي: يقولون: هلا جمعتها، تعريضا منهم بأنك تخترع هذه الآيات، وليست من الله.

واجتباء الله العبد: تخصيصه إياه بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ﴾ [سورة يوسف: ٦]، ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ﴾ [سورة يوسف: ٦]، ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠﴾ [سورة القلم: ٥٠]، ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧﴾ [سورة الأنعام: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾ [سورة طه: ١٢٢]، وقال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [سورة الشورى: ١٣])[4].

ومعنى قوله: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ [سورة الحج: ٧٨] (أي: اختاركم واصطفاكم واستخلصكم لدينه)[5].

---

[1] – الكشاف (٢/ ١٩٢).

[2] – فتوح الغيب (١٠/ ٢٦٣).

[3] – التحرير والتنوير (٧/ ٣٥٠).

[4] – المفردات (ص: ١٨٦ – ١٨٧).

[5] – التفسير البسيط (١٥/ ٥٠٦).

﴿مِلَّةَ﴾ الملة: الدين والشريعة[1]؛ وقال ابن دريد: (والملة: النحلة التي ينتحلها الإنسان من الدين)[2]. قال الراغب: (الملة كالدين، وهو اسم لما شرع الله لعباده على لسان الأنبياء، ليتوصلوا به إلى جوار الله تعالى، والفرق بينها وبين الدين، أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي الذي تسند إليه، نحو: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٥]، ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ [سورة يوسف: ٣٨]. ولا يكاد يوجد مضافًا إلى الله تعالى، ولا إلى آحاد أمة النبي، ولا يستعمل إلا في جملة الشرائع دون آحادها، ولا يقال: ملة الله، ولا ملتي وملة زيد، كما يقال: دين الله ودين زيد، ولا يقال: الصلاة ملة الله. وأصل الملة من: أمللت الكتاب، قال تعالى: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢] ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢]. وتقال الملة اعتبارا بالشيء الذي شرعه الله. والدين يقال اعتبارا بمن يقيمه إذ كان معناه الطاعة)[3].

﴿تُفۡلِحُونَ﴾ الفلاح: الظفر بالبغية والفوز بما يغتبط به وفيه صلاح الحال[4]، والفعل منه أفلح، أي دخل في الفلاح[5]، أو صار ذا فلاح[6]. يقال: أفلح وأنجح إذا أدرك مطلوبه[7]، وأفلح الرجل: ظفر[8]. و(يقال لكل من أصاب خيرا: مُفلح)[9].

ومنه قول لبيد:

---

[1] – الصحاح (٥/ ١٨٢١).

[2] – جمهرة اللغة (١/ ١٦٨).

[3] – المفردات (ص: ٧٧٣ – ٧٧٤).

[4] – غريب القرآن للسجستاني (ص: ٤٣٢)، والمحكم (٣/ ٣٥١)، والمفردات (ص: ٦٤٤)، والمحرر الوجيز (١/ ٨٦).

[5] – الكشاف (٣/ ١٧٤).

[6] – التحرير والتنوير (١/ ٢٤٧).

[7] – جمهرة اللغة (١/ ٥٥٥).

[8] – المحكم (٣/ ٣٥١).

[9] – معاني القرآن للزجاج (١/ ٧٥).

اعقلـــي إن كنـــت لمـــا تعقلـــي ولقـــد أفلـــح مـــن كـــان عقـــلْ[1]

وهو ضربان: دنيوي وأخروي[2]، والمراد به في غالب الاستعمال القرآني (الفوز بالنجاة من العذاب في الآخرة)[3].

وورد الفلاح الدنيوي في قوله جل وعز: ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤﴾ [سورة طه: ٦٤]، (أي ظفر بالمُلْك من غلَب)[4].

وأصل الفلاح في اللغة البقاء[5]، وقد ورد الفلاح في بعض أشعار العرب بهذا المعنى، كقول بعضهم:

لـــو أن حيـــا مـــدركُ الفـــلاح أدركـــــه ملاعـــــبُ الرمـــــاح

وقال آخر:

نحـــلُّ بـــلادا كلهـــا حـــل قبلنـــا ونرجـــو الفـــلاح بعـــد عـــاد وحِمْـــير

وقال آخر:

لكـــل هـــم مـــن الهمـــوم ســـعَهْ والمســـي والصـــبح لا فـــلاح معَـــهْ

وقال آخر:

ولـــئن كنـــا كقـــوم هلكـــوا مـــا لحـــي يا لقـــوم مـــن فلَـــح[6]

---

[1] – الزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ٣٨).

[2] – المفردات (ص: ٦٤٤).

[3] – التحرير والتنوير (١/ ٢٤٧).

[4] – تهذيب اللغة (٥/ ٤٧). وقال الراغب في المفردات (ص: ٦٤٤): (فيصح أنهم قصدوا به الفلاح الدنيوي، وهو الأقرب).

[5] – غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٣٩)، ومعاني القرآن للنحاس (١/ ٨٦)، وتهذيب اللغة (٤٧/٥).

[6] – تنظر الأبيات المتقدمة في معاني القرآن للزجاج (١/ ٧٦)، وجمهرة اللغة (١/ ٥٥٥)، والمحرر الوجيز (١/ ٨٦)، والدر المصون (١/ ١٠٤).

(والفلاح: السحور. قالوا: سمي فلاحا، لأن الإنسان تبقى معه قوّته على الصوم)[١].

وقيل للمؤمنين: مفلحون، لفوزهم بالبقاء في النعيم المقيم، وهو نعيم الجنة[٢]. وقول المؤذن «حي على الفلاح»، أي: هلموا إلى سبب البقاء في الجنة، وهو الصلاة في الجماعة[٣]. ولذلك فسر ابن سيده الفلاح الوارد في الآيات بهذا المعنى فقال: (والفلاح: البقاء في النعيم والخير)[٤]، وفسر الزجاج قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١﴾ [سورة المؤمنون: ١]، (أي قد نالوا البقاء الدائم في الخير)[٥].

(والبقاء يعمه إدراك الأمل والظفر بالبغية، إذ هو رأس ذلك وملاكه)[٦]، وحكى الخليل[٧] الفلاح على المعنيين.

وقيل: أصل الفلاح الشق والقطع[٨]؛ يقال: فلحت الشيء أفلحه فلْحا إذا شققته أو قطعته. ومنه المثل السائر: (إن الحديد بالحديد يُفلَح)، وقول الشاعر:

قد علمت خيلُك أني الصَّحْصح  إن الحديد بالحديد يفلحُ

---

[١] – تهذيب اللغة (٥/ ٤٧).

[٢] – غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٣٩)، ومعاني القرآن للنحاس (١/ ٨٦)، وتهذيب اللغة (٥/ ٤٧).

[٣] – الغريبين (٥/ ١٤٧١).

[٤] – المحكم (٣/ ٣٥١).

[٥] – معاني القرآن للزجاج (٤/ ٥).

[٦] – مقاييس اللغة (٤/ ٤٥٠).

[٧] – هو الخليل بن أحمد الفَرَاهِيدِي، أبو عبد الرحمن: كان إمام أئمة أهل اللغة والأدب في عصره، وهو واضع علم العروض، وأستاذ سيبويه، من تصانيفه: كتاب الإيقاع، وكتاب الشواهد، وكتاب العروض، وكتاب العين في النحو واللغة، وكتاب النقط والشكل. ولد ومات بالبصرة سنة: ١٧٠هـ. ينظر نزهة الألِباء (ص٥٤)، ومعجم الأدباء (١١/ ٧٢)، وإنباه الرواة (١/ ٣٤١).

[٨] – مقاييس اللغة (٤/ ٤٥٠)، والبحر المحيط (١/ ٧٢).

وسمي الأكّار فلّاحا لأنه يشق الأرض شقا، والفلح الشق في الشفة السفلى، والرجل الأفلح: من شفته مشقوقة[١].

ورجح صاحب "المعجم الاشتقاقي المؤصل" أن المعنى المحوري (شق بجفاف أو جفاء في جِرْم ملتئم)، ويلزمه إمكان النفاذ. ولما كانوا يعبرون عن الفوز والنجح بما يدل على النفاذ والفتح – كما عبروا عن النصر بالفتح قالوا هنا أيضا أفلح، أي فاز وعَبرَ أمرًا شديدًا[٢]. وفي هذا التوجيه تكلف، والله أعلم.

﴿حَرَجٍ﴾؛ "الحرَج" في اللغة أضيق الضيق[٣]، أو: الشديد الضِّيق[٤]. والأصل في الحرَج من الحَرَجة: وهي شجرة تلتفّ بها الأشجار، من شدة التفافها لا يقدر أحد أن ينفذ إليها، فلا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، حتى يمنع الراعي من أن يصل إليها[٥].

وقد ذهب ابن جني إلى أن حروف الحاء والراء والجيم –كيفما تصرفت – تدل معانيها كلها على (الشدة والضيق والاجتماع)[٦]. وبين البقاعي أن مادة (حرج) بهذا الترتيب (تدور على المكان الضيّق الكثير الشجر، ويلزمه الشخوصُ على وجه الأرض، والارتفاعُ، والجمعُ والمنعُ، والشدةُ والحيرةُ، والحرُّ والبردُ)[٧].

---

[١] – معاني القرآن للزجاج (١/ ٧٦)، وجمهرة اللغة (١/ ٥٥٥)، ومقاييس اللغة (٤/ ٤٥٠)، وتهذيب اللغة (٥/ ٤٧)، والمحكم (٣/ ٣٥٢).

[٢] – (٣/ ١٧١١).

[٣] – معاني القرآن للزجاج (٢/ ٢٩٠).

[٤] – التفسير البسيط (٨/ ٤٢١)، والبحر المحيط (٤/ ٦٣٩).

[٥] – ينظر تفسير الطبري (١٢/ ١٠٢)، والتفسير البسيط (٨/ ٤٢٤).

[٦] – المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها (١/ ٢٣٢).

[٧] – نظم الدرر (٧/ ٢٦٠ – ٢٦٢).

﴿وَاعْتَصِمُوا﴾؛ الاعتصام: افتعال من العصم، وهو المنع من الضر[1]، قال ابن فارس: (العين والصاد والميم أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمة. والمعنى في ذلك كله معنى واحد)[2]. (والعصمة في كلام العرب: المنع. وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه. واعتصم فلان بالله إذا امتنع به. واستعصم إذا امتنع وأبى، قال الله تعالى حكاية عن امرأة العزيز في أمر يوسف حين راودته عن نفسه: ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [سورة يوسف: ٣٢]، أي تأبّى عليها ولم يجبها إلى ما طلبت)[3]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة المائدة: ٦٧]، (أي يمنعك، والعصمة المنعة، ومنه يقال للبدرقة: عصمة)[4]، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [سورة هود: ٤٣]، أي يمنعني.

(وتقول العرب: أعصمت فلانا، أي هيأت له شيئا يعتصم بما نالته يده، أي يلتجئ ويتمسك به. قال النابغة[5]:

يظل من خوفه الملاحُ معتصِما بالخيزرانة من خوف ومن رعَدْ

والمعصَم من الفرسان: السيئ الحال في فروسته، تراه يمتسك بعرف فرسه أو غير ذلك)[6].

(ويقال للراكب إذا تقحم به بعير صعب فامتسك بواسط رحله أو بقربوس سرجه لئلا يصرع: قد أعصم فهو معصم... وروى أبو عبيد عن أبي عمرو: أعصم الرجل بصاحبه إعصاما

---

[1] – التحرير والتنوير (١٧/ ٣٥٢).

[2] – مقاييس اللغة (٤/ ٣٣١).

[3] – تهذيب اللغة (٢/ ٣٤).

[4] – الغريبين (٤/ ١٢٨٦).

[5] – هو: أبو أمامة زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني، من الطبقة الأولى من فحول شعراء الجاهلية، كان يحكم بين الشعراء في سوق عكاظ ويفاضل بينهم. توفي في زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – قبل أن يبعث. تنظر ترجمته في طبقات فحول الشعراء (١/ ٥١)، والشعر والشعراء (ص ٨٣).

[6] – مقاييس اللغة (٤/ ٣٣١).

إذا لزمه...وقول الله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣]، أي تمسكوا بعهد الله. وكذلك قوله: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: ١٠١] أي من يتمسك بحبله وعهده)[١].

وأيضا (العصم: الإمساك، والاعتصام: الاستمساك)[٢]. وأصله مما يتم به إمساك الشيء ويمتنع سقوطه. (وعصام المحمل: شكاله. وعصام الدلو والقربة والإداوة: حبل تشد به. وعصَم القربةَ: جعل لها عصاما. وأعصمها: شدّها بالعِصام. وكل شيء عصم به شيء: عصام... وعصام الوعاء: عروته التي يعلق بها... والمعصم: موضع السوار من اليد)[٣]، لإمساكه السوار.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [سورة الحج: ٧٨] أي امتنعوا به من عدوكم[٤]، واجعلوه عصمة لكم مما تحذرون، والتجئوا إليه في جميع أموركم[٥]. وقيل: معناه تمسّكوا بدين الله[٦]. والأول هو مدلول اللفظ، والثاني هو مقتضاه.

---

[١] – تهذيب اللغة (٢/ ٣٤).

[٢] – المفردات (ص: ٥٦٩).

[٣] – المحكم (١/ ٤٥٨).

[٤] – الهداية (٧/ ٤٩٣٩)، والنكت والعيون (٤/ ٤٣).

[٥] – فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٥٧).

[٦] – الكشف والبيان (٧/ ٣٦)، والنكت والعيون (٤/ ٤٣)، والتفسير البسيط (١٥/ ٥١٢).

## المبحث الثالث: المعني الإجمالي لآيات سورة الحج بما يتوافق مع هداياتها:

تشتمل سورة الحج كما تقدم لنا على مواضيع جزئية متعددة، ولكن سنعمد إلى تقسيم السورة إلى أقسام رئيسية كما قبل أن نعرض المعاني الإجمالية لآياتها:

### المطلب الأول: مقاطع سورة الحج الرئيسية

من أوجه التدبر في السورة القرآنية وطرق التفكر في مقصدها وأغراضها تقسيم السورة إلى مقاطع رئيسية، وسبيل ذلك هو التوافق في المعاني الكلية لمجموعة من الآيات، وقد رأى الشيخ المراغي[(١)] أن سورة الحج تنتظم بحسب موضوعاتها من ثلاثة أقسام:

(١) البعث والدليل عليه وما يتبع ذلك.

(٢) الحج والمسجد الحرام.

(٣) أمور عامة كالقتال وهلاك الظالمين والاستدلال بنظام الدنيا على وجود الخالق وضرب المثل بعجز الأصنام وعدم استطاعتها خلق الذباب[(٢)].

وظاهر أن القسم الثالث يتضمن أكثر من موضوع، ولا يصلح أن تجعل ضمن قسم واحد.

أما الشيخ سعيد حوى فقد عمد إلى تقسيم السورة حسب العلامات التي رأى أنها تدل على بداية المعنى ونهايته، ويعني بها الكلمات المتكررة في مواضع من السورة، التي رأى اعتمادها بناءً على أنها علامة لابتداء مقطع جديد كما نص على ذلك في بعض المواضع من تفسيره[(٣)].

---

(١) – هو الشيخ أحمد بن مصطفى بن محمد بن عبد المنعم القاضي، ولد ببلدة المراغة سنة ١٣٠٠هـ من أسرة عريقة في خدمة العلم والقضاء. كان أستاذًا للغة العربية والشريعة الإسلامية بمدارس دار العلوم، ونُدب لإقراء علوم البلاغة في كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف، له عدة مؤلفات: منها تفسير القرآن الكريم، وعلوم البلاغة، وتهذيب التوضيح، وغيرها، توفي عام ١٩٥٢م. ينظر الأعلام (١/ ٢٥٨)، ومعجم المفسرين (١/ ٨٠).

(٢) – تفسير المراغي (١٧/ ٨٣).

(٣) – الأساس (١٥٦٧/٣).

ومن ثمّ لاحظ أن السورة تكرر فيها النداء ب ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أربع مرات، أولاها في الآية الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾، وثانيها في الآية الخامسة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [سورة الحج: ٥]، وثالثها قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٤٩﴾ [سورة الحج: ٤٩]، ورابعها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ [سورة الحج: ٧٣][1].

واعتبر أن ورود كلمة ﴿يا أيها الناس﴾ هي العلامة على بداية المقطع، ومن ثم فقد جعل السورة من أربعة مقاطع:

المقطع الأول، يمتد من الآية الأولى إلى الآية الرابعة.

والمقطع الثاني يمتد من الآية (٥) إلى (٤٨)، ولطوله قسّمه إلى سبع مجموعات:

والمجموعة الأولى تمتد من الآية (٥) إلى نهاية الآية (٧).

والمجموعة الثانية تمتد من الآية (٨) إلى نهاية الآية (١٠).

والمجموعة الثالثة تمتد من الآية (١١) إلى نهاية الآية (١٤).

والمجموعة الرابعة تمتد من الآية (١٥) إلى نهاية الآية (٢٤).

والمجموعة الخامسة تمتد من الآية (٢٥) إلى نهاية الآية (٣٧).

والمجموعة السادسة تمتد من الآية (٣٨) إلى نهاية الآية (٤١).

والمجموعة السابعة تمتد من الآية (٤٢) إلى نهاية الآية (٤٨).

أما المقطع الثالث فهو يمتد من الآية (٤٩) إلى نهاية الآية (٧٢)، ولذلك قسمه إلى أربع مجموعات:

المجموعة الأولى تمتد من الآية (٤٩) إلى نهاية الآية (٥١).

المجموعة الثانية تمتد من الآية (٥٢) إلى نهاية الآية (٥٧).

---

[1] – الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٢٠).

المجموعة الثالثة تمتد من الآية (٥٨) إلى نهاية الآية (٦٠).

المجموعة الرابعة تمتد من الآية (٦١) إلى نهاية الآية (٧٢).

أما المقطع الرابع فهو يمتد من الآية (٧٣) إلى نهاية الآية (٧٨) وهي نهاية السورة.

ولكنه هو نفسه لاحظ أن المقطع الثاني والثالث طويلان، خلافا للمقطع الأول والرابع. ولذلك اضطر إلى عرض مقاطع السورة على شكل مجموعات[١]، ولذلك رأيت أن أعدل عن هذا التقسيم.

أما الأستاذ سيد قطب رحمه الله فقد قسم السورة إلى أربعة أقسام كبيرة:

**القسم الأول:**

ويمتد من مستهل السورة إلى الآية ٢٤، وهي قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾ [سورة الحج: ٢٤]. ويبدأ هذا القسم بنداء الناس جميعا إلى تقوى الله، وتخويفهم من زلزلة الساعة، ووصف الهول المصاحب لها، ثم ينتقل إلى استنكار الجدل في الله بغير علم، واتّباع كل شيطان محتوم على من يتّبعه الضلال، ثم يعرض دلائل البعث من أطوار في حياة الإنسان وحياة النبات، ويربط بين تلك الأطوار المطّردة الثابتة، وبين كون الله هو الحق، وأنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

ثم يعود إلى استنكار الجدل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، بعد هذه الدلائل المستقرة في الكون ونظام الوجود، وإلى استنكار بناء العقيدة على حساب الربح والخسارة، والانحراف عن الاتجاه إلى الله عند وقوع الضّرّاء، والالتجاء إلى غير حماه، واليأس من نصرة الله وعقباه ... وينتهي هذا الشوط بتقرير أن الهدى والضلال بيد الله، وأنه سيحكم بين أصحاب

---

[١] – الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٢١).

العقائد المختلفة يوم الحساب. وهنا يعرض مشاهد العذاب للكافرين، وإلى جواره مشهد النعيم للمؤمنين[1].

**القسم الثاني:**

يمتد هذا القسم من الآية ٢٥، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ إلى الآية ٤١، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾. ويبدأ بالحديث في هذا القسم عن الذين كفروا ويصدّون عن سبيل الله والمسجد الحرام، ويستنكر هذا الصّدّ عن المسجد الحرام الذي جعله الله للناس جميعا، يستوي في ذلك المقيمون به والطارئون عليه. وبهذه المناسبة يذكر طرفا من قصة بناء البيت، وتكليف إبراهيم عليه السلام أن يقيمه على التوحيد ويطهّره من الشرك، ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وما وراءها من غرس التقوى في القلوب، وهو الهدف المقصود، وينتهي هذا القسم بالإذن للمؤمنين في القتال، لحماية المعابد وصيانة الشعائر ومدافعة الذين يصدون عن سبيل الله ويعتدون على المؤمنين[2].

**القسم الثالث:**

يمتد هذا القسم من الآية ٤٢، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾، إلى الآية ٥٩، وهي قوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾. ويبدأ بعرض نماذج من تكذيب المكذبين من قبل، ومن مصارع المكذبين ومشاهد القرى المدمرة على الظالمين. وذلك لبيان سنة الله في الدّعوات، وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من صدّ وإعراض، وطمأنة المسلمين بالعاقبة التي لا بد من أن تكون،

---

[1] – في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٠٧).

[2] – المرجع السابق (٤/ ٢٤٠٧).

كذلك يتضمن عرض طرف من كيد الشيطان للرسل والنبيين في دعوتهم، وتثبيت الله لدعوته، وإحكامه لآياته، حتى يستيقن بها المؤمنون، ويفتن بها الضّعاف والمستكبرون[1].

**القسم الرابع:**

يمتد هذا القسم من الآية ٦٠، وهي قوله تعالى: ﴿۞ ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾، إلى الآية الأخيرة، وهي الآية ٧٨. ويتضمن هذا القسم وعد الله بنصرة من وقع عليه البغي فقام يدفع عن نفسه العدوان، ويتبع هذا الوعد بعرض دلائل القدرة في صفحات الكون، وإلى جوارها يعرض صورة مزرية لضعف الآلهة التي يركن إليها المشركون، وينتهي هذا القسم وتنتهي السورة معه بنداء الذين آمنوا ليعبدوا ربهم، ويجاهدوا في الله حق جهاده، ويعتصموا بالله وحده، وهم ينهضون بتكاليف عقيدتهم العريقة منذ أيام شيخ الأنبياء إبراهيم عليه السلام[2].

ومن هذا العرض نجد تعاقب موضوعات السورة وتناسقها في حلقات متساوقة، تسلم كل حلقة للتي تليها، ليكون في مجموعها سورة كاملة هي سورة الحج[3].

وهذا التقسيم تقسيم حسن، متوازن في الأجزاء، متكامل في الموضوعات.

أما أصحاب "التفسير الموضوعي" فقد قسموا السورة إلى اثني عشر مقطعا، متفاوتة في مقدارها:

المقطع الأول: الأمر بالتقوى والإيمان بالساعة وأهوالها، الآيتان: ١ - ٢.

المقطع الثاني: المجادلة بغير علم، الآيتان: ٣ — ٤.

المقطع الثالث: الأدلة على البعث، الآيات: ٥ — ٧.

المقطع الرابع: تابع المقطع الثاني: المجادلة بغير علم، الآيات: ٨ — ١٦.

---

[1] - المرجع السابق (٤/ ٢٤٠٧).

[2] - المرجع السابق (٤/ ٢٤٠٧ - ٢٤٠٨).

[3] - الموسوعة القرآنية: خصائص السور (٦/ ٧).

المقطع الخامس: الفصل بين الأمم والاعتبار بهم، الآيات: ١٧ – ٢٤.

المقطع السادس: الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام، الآيات: ٢٥ – ٣٧.

المقطع السابع: الإذن بالقتال والدفاع عن المؤمنين، الآيات: ٣٨ – ٤١.

المقطع الثامن: الاعتبار بهلاك الأمم السابقة، الآيات: ٤٢ – ٤٨.

المقطع التاسع: إحكام الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم، الآيات: ٤٩ – ٦٠.

المقطع العاشر: تابع المقطع الثالث، مزيد من دلائل قدرة الله تعالى، الآيات: ٦١ – ٦٦.

المقطع الحادي عشر: بطلان شريعة ومنهاج المشركين، الآيات: ٦٧ – ٧٦.

المقطع الثاني عشر: أوامر الله للمؤمنين، الآيتان: ٧٧ – ٧٨.

**المطلب الثاني: التفسير الإجمالي لسورة الحج**

افتتحت السورة الكريمة بدعوة الناس جميعا إلى تقوى الله، وتحذيرهم من هول الساعة وما يصاحبها من أحداث جسام، وبيان أحوال الناس فيه[(١)]؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ [سورة الحج: ١ – ٢].

ثم بيّن تعالى أن أولئك الذين يجادلون في انفراد الله تعالى بالألوهية وقدرته على البعث لا يستندون إلى علم ثابت، وإنما يتبعون كل شيطان متمرد على ربه؛ ومن اتبع شياطين الإنس والجن فلن يهتدي إلى الحق، وإنما سيضل في الدنيا، ويقودونه إلى عذاب النار في الآخرة[(٢)]:

---

(١) – ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٨٩)، وفتح القدير (٣/ ٥١٤)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٦٧)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٦٩)، والتفسير المنير (١٧/ ١٤٩).

(٢) – ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٤)، والمنتخب في تفسير القرآن الكريم (ص: ٤٨٨).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [سورة الحج: ٣ – ٤].

ثم ساق سبحانه أهم القضايا التي جادل فيها المشركون بغير علم، واتبعوا في جدالهم خطوات الشيطان، وهي قضية البعث، وأقام الأدلة على صحتها، وبيَّن أن تعاقب أطوار خلق الإنسان ومراحل إخراج النبات من الأرض دليل قاطع على قدرة الله على الإحياء بعد الموت[(١)]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [سورة الحج: ٥].

وأشار إلى أن هذه الآيات التي يشهدها الناس في الكون وفي أنفسهم تثبت أن الله ثابت الوجود، وأنه قدير على كل شيء، ومن مظاهر قدرته أنه سبحانه يحي الموتى يوم القيامة، ويبعث الذين بليت أجسادهم في القبور للحساب والجزاء[(٢)]: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [سورة الحج: ٦ – ٧].

ثم ذكر حال رؤوس الشر الذين يدعون إلى الكفر والضلال، ويجادلون في وحدانية الله بغير برهان من عقل ولا حجة من نقل، ويتولون معرضين ويضلون عن سبيل الله، وأنهم سيعاقبون في الدنيا بالذل والفضيحة، وفي الآخرة بعذاب النار[(٣)]: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ

---

(١) – ينظر البحر المحيط في التفسير (٧/ ٤٨٤)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/٢٧٧ – ٢٧٨)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٦٩)، والتفسير المنير (١٧/ ١٦٣).

(٢) – ينظر اللباب (١٤/ ٢٥)، وتفسير المراغي (١٧/ ٩٠)، والأساس في التفسير (٧/ ٣٥٢٩)، والمنتخب (ص: ٤٨٩).

(٣) – ينظر تفسير المراغي (١٧/ ٩٧)، وصفوة التفاسير (٢/ ٢٥٨).

عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩﴾ [سورة الحج: ٨ – ٩].

وبعد ذلك ذكر تعالى أولئك المذبذبين في دينهم، المضطربين في عقيدتهم، من الأعراب الوافدين إلى المدينة رجاء المنفعة الدنيوية، وأخبر أنهم يعبدون الله على وجه الشك، فإن أصابهم خير فرحوا به وركنوا إليه، وإن أصابتهم شدة أو بلاء ارتدوا إلى الكفر، وحينئذ يخسرون الدنيا والآخرة معًا، وذلك هو الخسران البيّن[1]: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [سورة الحج: ١١].

ثم بيَّن أن الأصنام التي يدعوها هؤلاء وأولئك لَا تضرهم ولا ينفعهم، وأن عبادتها ضرر محض وضلال ظاهر، وأن الطواغيت الذين يطيعونهم ضرر أقرب من النفع الذي يرجونه منهم[2]: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ۝١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ۝١٣﴾ [سورة الحج: ١٢ – ١٣].

ثم أَردف ذلك ببيان ما يقابل ذلك من حسن مآل المؤمنين الصادقين، الذين آمنوا بقلوبهم وصدّقوا إيمانهم بأعمالهم، وأنه سيثيبهم بنعيم الجنة[3]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ۝١٤﴾ [سورة الحج: ١٤].

بعد ذلك أبطل سبحانه أوهام الذين يظنون أنه لَن ينصره الله رسولَه على من كفر به، فلو فعلوا أقصى ما يستطيعون فإن الله سيظهر دينه وينصر نبيه لا محالة[4]، فقال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ۝١٥﴾

---

[1] – ينظر تفسير المراغي (١٧/ ٩٣)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٣)، والتفسير المنير للزحيلي (١٧/ ١٦٧)، والمنتخب (ص: ٤٨٩).

[2] – ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ٩٨)، ومحاسن التأويل (٧/ ٢٣٦)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٨٧).

[3] – ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٦٨)، والتفسير المنير (١٧/ ١٧٠).

[4] – ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٣)، التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٨٩)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٦٩)، والتفسير المنير (١٧/ ١٧٤).

[سورة الحج: ١٥]، ثم أشار سبحانه إلى شأن كتابه وأن آياته واضحات ترشد إلى سواء السبيل، وأن الله يهدي من يريد هدايته إلى الصراط المستقيم[١]: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحج: ١٦].

ثم أتبع سبحانه ما تقدم ببيان من يهديهم الله ومن يخذلهم، فذكر سبحانه المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين، وبين تعالى أنه هو الذي سيحكم بينهم يوم القيامة بالعدل، فيجازي كل واحد منهم بما يستحقه، إذ هو عليم بحالهم، حفيظ لأقوالهم، شهيد على أفعالهم[٢]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الحج: ١٧].

ثم بين تعالى أنه المستحق للعبادة دون سواه، وأن كل شيء في هذا الكون من جميع الكائنات في العوالم العلوية والسفلية ينقاد لمشيئته، وتخضع لأمره، ويسجد لعظمته سبحانه، وأن كثيرا من الناس يسجدون له سجود طاعة فحق لهم الثواب، وكثير منهم حق عليهم العذاب بسبب كفرهم وفسوقهم وعدم خضوعهم لشرائع ربهم[٣]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الحج: ١٨].

ثم بين تعالى مصير المختلفين في شأنه تعالى ودينه من المؤمنين والكافرين، فذكر أن الكفار تفصل لهم ثياب من نار، ويعذبون فيها بمختلف ألوان العذاب[٤]: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ

---

[١] – ينظر تفسير المراغي (١٧/ ٩٧)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٥٧)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٩٠).

[٢] – ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٦٧)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٢)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٠٠)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٣)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٩٠).

[٣] – ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٣)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٠)، والتفسير الحديث (٦/ ٢٩)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٦٩).

[٤] – ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٠٩)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٦٩).

مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحج: ١٩ – ٢٢].

وبين بعد ذلك في المقابل جزاء المؤمنين، وأَن لهم ألوانا من النعيم في الجنة، فهم يحلون فيها بالذهب واللؤلؤ ويلبسون الحرير، ويلهمون فيها القول الطيب من مثل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [سورة الزمر: ٧٤]، ويهتدون إلى طريق الله الحميد في سلوكهم، فأَقوالهم دائما طيبة، وأَعمالهم حسنة، وعيشتهم مرضية[(١)]، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الحج: ٢٣ – ٢٤].

ثم انتقل السياق إلى بيان عظيم حرمة المسجد الحرام وتنزيهه عن الشرك والحديث المفصل عن الحج إليه، حيث أنكر الله على المشركين الذين يصدون المؤمنين عن سبيل الله ويمنعونهم من إتيان المسجد الحرام مع أنهم يدعون أنهم أولياؤه، وتوعد الذين يهمون بالمعصية فيه، فضلا عمن يقترفها[(٢)]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥].

ثم أردف ذلك بتوبيخهم على ما يفعلون من ظلم وإشراك، فبيّن أنه ما كان ينبغي لهم ذلك، فإن أباهم إبراهيم الذي يفخرون به وينتسبون إليه هو الذي ابتنى الكعبة بأمر الله تعالى حيث عرَّفه بمكانها البيت وأمره بتطهيرها من الأصنام من أجل الطائفين والعاكفين والمصلين[(٣)]: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الحج: ٢٦].

---

(١) – ينظر التفسير المنير (١٧/ ١٨٥)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٦٩).

(٢) – ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٩)، والسراج المنير (٢/ ٥٤٦)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٣٦)، والتفسير المنير (١٧/ ١٨٨).

(٣) – ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٣)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٠٧)، والتفسير المنير (١٧/ ١٩٣).

وأن الله تعالى أَمره أَن يدعو الناس إلى حجه ليقصدوه من كل مكان مُشاة وركبانا، وينعموا بما فيه من منافع دينية ودنيوية، وينحروا ما أهدوه من بهيمة الأَنعام ذاكرين اسم الله عليها في العشر الأول من ذي الحجة[1]: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٢٧ – ٢٨].

ثم أمرهم أَن يطعموا الفقراء البائسين من تلك الذبائح، فإذا فعلوا ذلك فليقلّموا أظفارهم وليزيلوا شعورهم، وليتطهروا من أوساخهم، ثم ليوفّوا بما نذروه من أعمال البر في حجهم، ثم ليطوفوا طواف الإفاضة حول الكعبة المشرفة، وبذلك يكونون قد أكملوا مناسك الحج[2]: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الحج: ٢٩].

ثم قفىّ على ذلك ببيان أن اجتناب المحرمات حال الإحرام وغيره خير عند الله مثوبة وأعظم أجرا، وأن ذبح بهيمة الأنعام وأكلها حلال إلا ما جاء النص بتحريمه، ثم أمر سبحانه باجتناب عبادة الأوثان وقول الزور بجميع صوره، وأن يكونوا حنفاء لله موحدين له[3]: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ﴾ [سورة الحج: ٣٠ – ٣١]، ووصف من يشرك بالله بسوء الحال فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الحج: ٣١].

---

[1] – ينظر غرائب القرآن (٥/ ٧٧)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٠٧ و١٠٩)، والتفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٤١).

[2] – ينظر غرائب القرآن (٥/ ٧٨)، ومحاسن التأويل (٧/ ٢٤٢)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٠٧ و١٠٩)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٠٤).

[3] – ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٤)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٠٦)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٦٩).

وبين سبحانه أن تعظيم شعائر الله علامة على أن القلوب مليئة بالتقوى وخشية الله، وأن في تلك الهدايا منافع من الدرّ والصوف والنسْل إلى أجل مسمّى، وهو أن تنحر بمكة ثم تؤكل ويتصدق بلحومها[1]: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٣٣﴾ [سورة الحج: ٣٢ – ٣٣].

ثم ختم الله تعالى كلامه عن فريضة الحج ببيان أن منسك أهل الحق والإيمان الحج إلى بيت الله الحرام، وأن ذبح النسك على وجه التقرب إليه تعالى ليس خاصا بهذه الأمة، بل هو مشروع في كل الشرائع، ولكل أمة ذبائح شرعت ليذكروا اسم الله عند ذبحها ويشكروه على ما رزقهم، فما على الناس إلا الانقياد للإله الواحد[2]: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤].

ثم أمر تعالى رسوله أن يبشر المتواضعين الخاشعين لله الذين يقيمون الصلاة وينفقون من أموالهم ويصبرون على ما أصابهم بالثواب العظيم[3]: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥].

وبعد أن حث الله سبحانه على التقرب بالأنعام كلها، خص من بينها الإبل والبقر، لأنها أعظمها خلقا، وأكثرها نفعا، وأنفسها قيمة[4]. وبين تعالى أن البُدْن التي يهديها الحجاج من شعائر الله تعالى، وأمر بأَن تنحر وهي قائمة ذاكرين عليها اسم الله، وبين أنه لن يصل إليه شيء من لحومها، وإنما تصل إليه التقوى ممن يهْدونها، فينبغي لهم أَن يشكروه على تسخيرها لهم وعلى سائر نعمه، ويكبروه على ما هداهم، وبين أَن هؤُلاء الحجاج الشاكرين المكبرين لهم

---

[1] – ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٠٩)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٠٨)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٠٦).

[2] – ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٤)، وتفسير المراغي (١٧/ ١١٢)، والتفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٤٥).

[3] – ينظر فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٣٥)، وتفسير المراغي (١٧/ ١١٢)، التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣١١).

[4] – تفسير المراغي (١٧/ ١١٤).

البشرى على إحسانهم[1]: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الحج: ٣٦ – ٣٧].

وبعد أن ذكر تعالى صدّ المشركين عن دين الله وعن المسجد الحرام، وبين مناسك الحج، قفّى على ذلك ببيان ما يزيل الصدّ عنه ويؤمن معه من التمكن من أداء تلك الفريضة على أتم الوجوه[2].

فبين تعالى أنه قد تكفل بالدفاع عن عباده المؤمنين، وأنه سيجعل العاقبة لهم، ثم عقب ذلك ببيان أنه تعالى لا يحب كل خوان للأمانات جحود للنعم[3]: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الحج: ٣٨].

ثم صرح سبحانه وتعالى بالإذن للمهاجرين بقتال المشركين الذين أخْرجوهم من ديارهم بغير حق: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٩ – ٤٠]، وبين تعالى أنه قد شرع لعباده المظلومين شرعة مدافعة الكفار في كل زمان، ولولا ذلك لهدمت المعابد وانتهكت المقدسات وانمحى ذكر الله من الأرض[4]: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ﴾ [سورة الحج: ٤٠].

---

[1] – ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٥ و٤٣١)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٠).

[2] – تفسير المراغي (١٧/ ١١٧)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٢٦).

[3] – ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٣٣)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٠).

[4] – ينظر تفسير البغوي (٥/ ٣٨٩)، وتفسير المراغي (١٧/ ١١٩)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٠).

ثم وعد الله تعالى بأنه سينصر الذين ينصرون دينه ويسعون عند تمكينهم في الأرض إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1]: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠ – ٤١].

ثم أخذت السورة الكريمة في تسلية الرسول صلّى الله عليه وسلّم عما أصابه من قومه، فقد ذكّره الله أنه ليس وحده في تكذيب قومه إياه، فقد كذَّبت كثير من الأمم رسلها، فأمهلهم الله ثم أهلكهم، بما فيه عبرة لمن اعتبر وتذكر، مما يشاهدون آثاره بأعينهم في حلهم وترحالهم، وغدوهم ورواحهم[2]: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الحج: ٤٢ – ٤٤].

ثم دعا الله تعالى المشركين إلى أن يسيروا في الأرض، فينظروا إلى مصارع المكذبين، فيعقلوا بقلوبهم ما يرونه من آثار، ويسمعوا بآذانهم ما يروى من أخبار، لعلهم يتعظون ويعتبرون[3]: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الحج: ٤٦].

ثم ذكر سبحانه حال المشركين في استعجالهم العذاب بدل أن يعملوا للثواب تكذيباً بيوم القيامة، وأنّبهم على إنكار ذلك العذاب وقد سبق به وعد الله، فكان لزاما عليهم ألا يستعجلوه، فإنهم لو عرفوا ما ينالهم من آلامه وشدائده ما استعجلوا به، فيوم عند ربك تصيبهم

---

[1] – ينظر التفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٥١)، والتفسير المأمون (٥/ ١٤٧).

[2] – ينظر البحر المحيط في التفسير (٧/ ٥١٨)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٢٥)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٢)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٥)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٦٩).

[3] – ينظر الوجيز للواحدي (ص: ٧٣٦)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٥)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٣٨)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٣١).

فيه المحن والشدائد كألف سنة لو بقوا وعذبوا في الدنيا[1]: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: ٤٧].

وبيّن سبحانه أنه أَمهل كثيرا من القرى الظالم أهلها لعلهم يرجعون عن غَيّهم، ثم أَخذهم بالعذاب في الدنيا، – وإليه مصيرهم – ليعاقبهم في الآخرة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الحج: ٤٨]. والمقصود مما ذكر تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم، وتنبيه قريش إلى أن يعتبروا بهلاك من سبقوهم إلى الشرك واضطهاد أهل الإيمان ومعاندة الرسل، ووعيد للمشركين بأَنهم إن لم يؤمنوا أَصابهم ما أَصاب الأُممَ التي قبلهم، وأَن عليهم أَن لا يَغْتَرُّوا بإمهالهم[2].

ثم أمر الله تعالى رسوله بأن يمضي في طريقه دون أن يهتم بأذى المشركين، وأن يجابههم بكلمة الحق دون خوف أو وجل، وأن ينبههم أن عمله هو الإنذار والتحذير، وليس عليهم من حسابهم من شيء، فإن شاء الله عجل لهم العذاب، وإن شاء أخره عنهم، والناس بعد ذلك سعداء أو أشقياء[3]، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [سورة الحج: ٤٩ – ٥١][4].

ثم بين تعالى أَن الشيطان كما يوسوس للمشركين من أُمته – صلى الله عليه وسلم – فيلقي في نفوسهم الشَّبَه والتخيلات، أو يلقي بعض الكلمات أَثناء قراءَته ليجادلوه بالباطل ويوقعوا الفتنة، فإنه فعل مثل ذلك مع أُمم الأَنبياءِ والمرسلين السابقين، وأَنه تعالى يبطل ما يلقي الشيطان من الشبه بتوفيق النبي – صلى الله عليه وسلم – لرده، أَو بإنزال ما يرده، ثم يأتي الله

---

[1] – ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٢٤)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٥)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٢٦)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٣٧).

[2] – التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٠).

[3] – ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٢١)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٠).

[4] – ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٢٥)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٧٠).

بآياته محكمةً لا تنال منها شبهة من الشياطين وأَوليائهم[1]: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ [سورة الحج: ٥٢].

وبيّن سبحانه أن الحكمة من ذلك هي التمييز بين من اهتدى ومن ضل، وما يلقيه الشيطان لَا يكون فتنة للأنبياء، وإنما يكون فتنة للذين في قلوبهم مرض وقسوة تمنعهم من الانتفاع بآيات الله والاتعاظ بها[2]: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣﴾ [سورة الحج: ٥٣]. أما الذين آتاهم الله العلم فإنهم يعلمون أن القرآن من عند الله فتطمئن قلوبهم إليه وتذعن له: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [سورة الحج: ٥٤].

ثم بين أَنه لا يزال الذين كفروا في شك من القرآن لعماهم عن الحق حتى تأتيهم الموت بغتة، أو يأْتيهم عذاب لا يُسْر بعده، وأن الملك لله يوم القيامة، يتفرد به سبحانه يومئذ، فيحكم بين المؤمنين والكافرين، ويجزي كل امرئٍ بما قدمت يداه، ويجازي الذين كذبوا بآياته وكانوا في شك من رسالة رسوله بالعذاب المهين جزاء وفاقا على تدنيس أنفسهم بالعقائد الفاسدة والأعمال السيئة[3]: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾ [سورة الحج: ٥٥ – ٥٧].

ثم أفرد المهاجرين المجاهدين بالذكر، فوعد تعالى من أَدركه الموت بعد الهجرة – سواءٌ أَمات حتْفَ أَنفِه أَو قُتِل في سبيل الله – بأن يرزقه في الجنة رزقًا حسنا بسبب هجرته، ووعد

---

[1] – ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٠)، وصفوة التفاسير (٢/ ٢٧٠)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٤٩).

[2] – ينظر فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٤٧)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٥).

[3] – تفسير المراغي (١٧/ ١٢٨).

من قاتل من ظلمه واعتدى عليه بأَن ينصره على من بغى عليه[1]: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ۝٥٩ * ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٦٠﴾ [سورة الحج: ٥٨ – ٦٠].

ثم ذكر سبحانه أنواعا من الدلائل على قدرته البالغة، وبيّن أن من قدر على إدخال الليل في النهار وإدخال النهار في الليل – بأن يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر – يقدر على نصرة المؤمنين، وهو الثابت الإلهية وحده، إذ لا يصلح لها إلا من كان كامل القدرة كامل العلم، وأن ما سواه مما يعبده المشركون باطل لا يقدر على شيء[2]: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [سورة الحج: ٦١ – ٦٢].

ثم أتبع الله تعالى ذلك بحديث مستفيض عن ألوان نعمه على خلقه، فبين سبحانه وتعالى أنه ينزل المطر على الأرض فتصبح مخضرة بالنبات، وأنه سخر للناس ما في السماوات والأَرض، ويمسك السماءَ حتى لا تقع على الأرض، وأنه هو الذي يحيي ويميت، ومع ذلك فإن الإنسان جحود بطبعه[3]، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ۝٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٦٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۚ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٦٥ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ۝٦٦﴾ [سورة الحج: ٦٣ – ٦٦].

ثم ذكر تعالى نعمته فيما كلف به الخلق، وبين أَنه جعل لكل أُمة منسكا وشريعة خاصة، فلا يصح أن ينازع أَحد محمدا صلى الله عليه وسلم فيما شرعه الله لأُمته من الشريعة العامة

---

[1] – ينظر غرائب القرآن (٥/ ٩٣)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٠)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٥٧).

[2] – ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٣٢)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٥).

[3] – ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٣٢)، والتفسير المنير (١٧/ ١٤٩).

الخاتمة، ثم أمره نبيه بأن يثبت على دينه ويواصل دعوته إلى عبادة الله، فهو على طريق لا عوج فيه[1]: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الحج: ٦٧].

وأمره تعالى ألّا يجادلهم بعد ما تبين لهم الحق، فإن جادلوه فليفوّض الأمر إلى الله، فسوف يحكم بينه وبينهم يوم القيامة فيما كانوا يختلفون فيه[2]: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الحج: ٦٨ – ٦٩].

ثم أعقب هذا ببيان أنه تعالى لَا يخفى عليه شيء، وأنه العليم بما يستحقه كل منهم، فيقع حكمه بينهم بالعدل: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الحج: ٧٠].

ثم أرشد إلى أنهم – على وضوح الدلائل وعظيم النعم عليهم – عبدوا من دون الله ما لا حجة لهم عليه من الوحي، ولا دليل عليه من العقل، وأنهم مع جهلهم إذا نبّهوا إلى الحق، وعرضت عليهم المعجزة، وتلي عليهم القرآن الكريم ظهر في وجوههم الغيظ والغضب، وهمّوا أن يبطشوا بمن يذكّرهم بآياته، إنكارا منهم لما خوطبوا به، ثم أبان لهم أن ما ينالهم من النار التي يقتحمونها بأفعالهم وأقوالهم أعظم مما ينالهم من الغم والغيظ حين تلاوة هذه الآيات[3]؛ فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الحج: ٧١ – ٧٢].

---

[1] – ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٣٩)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٦)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧١)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٦٩).

[2] – ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٦)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧١).

[3] – ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٤١ – ١٤٢)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٧٥).

ثم ختم الله سبحانه هذه السورة بنداءيْن[1]: أحدهما: وجهه إلى الناس جميعا، وضرب مثلا بيّن لهم فيه أَن معبودات المشركين لا تصلح للعبادة لأَنها ضعيفة، وقد بلغ من ضعفها أَنها لا تستطيع أَن تخلق ذبابا ولو اجتمعت لخلقه، وإن سلبها الذباب شيئًا لا تستطيع استعادته منه[2]؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الحج: ٧٣]، وبين أَن منشأ شركهم إقفار قلوبهم من تعظيمه الله وإجلاله: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الحج: ٧٤].

ثم بين سبحانه أن خلق الله تعالى بالنسبة له على سواء، ولكنه يختار من الملائكة رسلا إلى الأَنبياء، ويختار من الناس رسلا إلى الخلق، يكونون دعاة للحق، ومبلغين عن الله تعالى بينهم، وأنه سبحانه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، وإليه ترجع الأمور[3]، فلا وجه لاعتراض مشركي مكةَ على اختيار محمد – صلى الله عليه وسلم – للرسالة: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الحج: ٧٥ – ٧٦].

والنداء الثاني: وجهه– سبحانه– إلى المؤمنين، وأمرهم فيه بمداومة الركوع والسجود والعبادة له– عز وجل– وبالمواظبة على فعل الخير وعلى المجاهدة في سبيله حق المجاهدة؛ لأَنه اختارهم، مشيرا إلى كون رسالة محمد – صلى الله عليه وسلم – امتدادا لرسالة إبراهيم، وأنه سبحانه ما جعل عليهم في الدين من حرج، وأَنه سماهم المسلمين في القرآن وما قبله من الكتب السماوية السابقة ليكون الرسول شهيدا عليهم ويكون المسلمون شهداءَ على الناس، ولهذا

---

[1] – ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٦٩).

[2] – التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧١)، والتفسير المنير (١٧/ ١٤٩).

[3] – زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٦)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٧٥).

يجب عليهم أَن يقيموا الصلاة ويؤْتوا الزكاة ويعتصموا بالله الذي هو مولاهم[1]؛ قال- تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [سورة الحج: ٧٧ – ٧٨].

[1] – ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧١).

# الباب الثاني: دراسات تطبيقية في هدايات سورة الحج، وربط ذلك بواقع الأمة

## الفصل الأول: الهدايات الجزئية والكلية في آيات السورة.

### المبحث الأول: الهدايات الجزئية في آيات السورة.

سنخصص بإذن الله هذا المبحث لاستخراج الهدايات الجزئية المأخوذة من سورة الحج، وسنقسمها إلى أربعة مطالب، نخصص كل مطلب لربع من أرباع السورة، ونورد تحت كل آية الهدايات التي تستفاد منها.

#### المطلب الأول: الهدايات الجزئية الخاصة بالربع الأول من سورة الحج:

يبتدئ الربع الأول من سورة الحج من مطلعها إلى الآية الثامنة عشرة.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [سورة الحج: ١].

(١) تؤذن الآية بأن القرآن خطاب موجه إلى الناس أجمعين في عصر النبوة وما جاء بعده إلى يوم القيامة، وذلك لأنها افتتحت بنداء الناس جميعا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [(١)]، فهو يشمل المؤمنين والكافرين، والعربَ والعجم، والكبارَ والصغار، والشيوخَ والشباب، والرجالَ والنساء.

(٢) تُؤْذِن الآية بأن الذين يؤمنون بالآخرة مطالبون بأن يتذكروا هول يوم القيامة، وأن يجتهدوا ويزدادوا من الطاعات؛ فإنهم – على إيمانهم باليوم الآخر وأدائهم للعمل الصالح– أشبه بالغافلين؛ لأن هول القيامة عظيم لا يمكن تصوره، ومهما عملوا من الطاعات فهي أقل من أن تنجي من أهوال ذلك اليوم[(٢)]. ويؤخذ هذا من أن الله تعالى شملهم بالخطاب ولم يخص الذين كفروا به.

---

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٧).

(٢) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٧٢).

(٣) تفيد الآية أن التقوى واجبة، لأن الله سبحانه أمر الناس بها، ثم علل ذلك بذكر ما يكون عند قيام الساعة من أهوال، إشارةً إلى أن التقوى تقتضي دفع ذلك الضرر العظيم عن النفس، ودفعُ الضرر عن النفس واجب، فيلزم أن تكون التقوى كذلك واجبة[١].

(٤) تدل الآية على أن تقوى الله مطلوبة من العبد على قدر استطاعته، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ظاهرا وباطنا[٢]، لأن الله تعالى أمر بتقواه في هذه الآية، والأمر يفيد الوجوب، والوجوب منوط بالقدرة، وقد جاء هذا القيد في آيات أخرى، منها قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [سورة التغابن: ١٦].

(٥) تؤذن الآية بأن تقوى الله هي أولى ما يؤمر به الخلق، فهي تجمع كل ما يطلب من المكلف من عمله وتركه من الأمور الاعتقادية والقولية والفعلية، ووجه دلالة الآية أن الله اختص هذا الأمر بالذكر في هذا النداء العام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾، ويؤيد ذلك أن التقوى هي ما أوصى الله به الأولين والآخرين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [سورة النساء: ١٣١].

(٦) تدل الآية بدلالة التضمن على أن الناس مأمورون بالإيمانِ بالله واليومِ الآخرِ؛ لأنه يندرجُ في التقوى المأمور بها حسبما وردَ به الشرعُ اندراجًا أوليًا[٣].

(٧) تشير الآية إلى أن الخشية ينبغي أن تغلب على قلوب العباد – وهم في الدنيا – أكثر من الرجاء؛ لأن الله تعالى أمرهم فيها باتقاء عذابه، وحذرهم من زلزلة الساعة، ولا يتقى عذاب الله وسخطه إلا بخشيته سبحانه.

---

(١) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٠).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ١٩٩)، والتفسير المنير (١٧/ ١٥٤).

(٣) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ٩١).

(٨) في الآية إيماء إلى استحقاق الله أن يُتقى لربوبيته للخلق وتربيته لهم بالنِّعم[١]، وإلى جدارة الناس بأن يتقوه لأنهم عباده، وهو تعالى بصفة تدبير الربوبية لا يأمر ولا ينهى إلا لرعي مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم. ويؤخذ هذا من التعبير عن الذات العليّة بصفة الربّ دون غيره مضافًا إلى المخاطبين[٢] في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾.

(٩) يؤخذ من الآية أن الترهيب من العقاب والتخويف من العذاب من الوسائل التي يجب استعمالها في التربية؛ لأن طبيعة البشر أنهم يحبون السلامة من الضر، ولا يحملهم على العمل إلا خوف مقلق أو طمع مزعج. وإنما يفهم ذلك من الآية لأن الله تعالى لم يقل: "أطيعوا ربكم"، وإنما أمر الناس أن يتقوه، وحذّرهم من حسابه وشدة عذابه.

(١٠) يستفاد من الآية أن التربية لا بد أن تشتمل على معاقبة المُرَبَّى وتحذيره من عاقِبة المخالفة. ويؤخذ هذا من أن الله تعالى قال: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾، ولم يقُلْ: "اتقوا الله"؛ لأن الرب هو المتولِّي للرعاية وللتربية، فالذي يُحذّرك هو الذي يُحبك ويُعطيك، وهو الذي خلقك وربَّاك ورعاك، فأولْى بك أن تتقيه، لأنه قدَّم لك الجميل[٣].

(١١) تومئ الآية إلى أن تذكُّرَ زلزلةِ يوم القيامة وهولِها مما يحمل الناس على تقوى الله ويُعينهم عليه، لأنهم لا ينجون من عذاب الله إلا بها[٤]، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ سيق مساقَ التعليل لما تقدم من أمر الناس بالتقوى[٥].

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٢).

(٢) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ٩١)، وروح المعاني (٩/ ١٠٦)، ومحاسن التأويل (٧/ ٢٣٠)، والتحرير والتنوير (١٧/ ١٨٦).

(٣) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٦٨٦).

(٤) ينظر الكشاف (٣/ ١٤١)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٦٤)، والبحر المحيط (٧/ ٤٨١)، وتفسير أبي السعود (٦/ ٩١)، وروح المعاني (٩/ ١٠٦)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٢).

(٥) ينظر الكشاف (٣/ ١٤١)، والبحر المديد (٣/ ٥٠٩)، وفتح القدير (٣/ ٥١٤)، ومحاسن التأويل (٧/ ٢٣٠)، وأضواء البيان (٤/ ٢٦١)، والتحرير والتنوير (١٧/ ١٨٦).

(١٢) تدل الآية – بناءً على اختيار طائفة من المفسرين المستند إلى أحاديث نبوية[١] – على أنّ الناس بعد قيامهم من القبور يفزعون فزعا شديدا في عرصات يوم القيامة بعد النفخة الثانية، التي قال تعالى في شأنها: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الزمر: ٦٨] وذلك حين يأمر الله تعالى آدم عليه السلام أن يخرج من ذريته بعْثا إلى النار، من كل ألفٍ منهم تسعَمائة وتسعةً وتسعين[٢]. والفزع الشديد عبر عنه في الآية بالزلزلة، كما عبر عنه بالزلزال في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [سورة الأحزاب: ١١][٣].

(١٣) تدل الآية بناء على قول بعض المفسرين من السلف وغيرهم[٤] أن الأرض تتزلزل بمن فيها في الدنيا بقوة هائلة آخر الزمان قبيل طلوع الشمس من مغربها إيذانا بقرب قيام الساعة، وأضيفت الزلزلة إلى الساعة لقربها منها. وهذا ما تدل عليه بعض الأحاديث التي

---

(١) هذا ما اختاره الطبري (١٦/ ٤٤٩)، ورجحه ابن كثير في تفسيره (٥/ ٣٩٠)، واختاره الشنقيطي في أضواء البيان (٤/ ٢٥٩ – ٢٦٠).

(٢) أخرج البخاري في صحيحه: (كتاب التفسير، تفسير سورة الحج، ح ٤٤٦٤، ٤/ ١٧٦٧) عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك – فينادى بصوت– إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف– أراه قال:– تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ...)) الحديث، وهو بهذا اللفظ فيه تصريح (بأن الوقت الذي تضع فيه الحامل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى: هو يوم القيامة لا آخر الدنيا) (أضواء البيان: ٤/ ٢٥٩)، وأن البعث متقدم على الزلزلة (التفسير المظهري (٦/ ٢٥٣).

(٣) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٣).

(٤) ممن قال بهذا القول: علقمة، والشعبي، وإبراهيم، وعبيد بن عمير، وابن جريج (ينظر الدر المنثور: ٦/ ٧)، واختاره مكي (الهداية: ٧/ ٤٨٣٧)، والواحدي (الوجيز ص: ٧٢٧)، وعزاه القرطبي (١٢/ ٣) وأبو حيان (٧/ ٤٨٠) إلى الجمهور، وهذا القول من حيث المعنى له وجه من النظر، إلا أن الأحاديث النبوية توافق القول الآخر. ينظر تفسير الطبري (١٦/٤٤٦ – ٤٤٧)، وأضواء البيان (٤/ ٢٥٧).

ذكرت أشراط الساعة[(١)]، واستدل على حمل الزلزلة على هذا المعنى بأنه لا تكون حُبلى ولا مرضعٌ بعد البعث[(٢)].

(١٤) تدل الآية بدلالة التضمن على أن للساعة زلزلةً قبل النفخة الثانية، وهي ما ذكره الله في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [سورة الزلزلة: ١ – ٤]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾ [سورة النازعات: ٦ – ٩]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ [سورة الواقعة: ٤ – ٦] والجمهور على أن زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ كالزلزلة المعهودة في الدنيا، إلا أنها في غاية الشدة[(٣)].

(١٥) تدل الآية بضميمة الآيات السالفة الذكر وغيرها أن الساعة إذا قامت رجفت الأرض وارتجّت، وزُلزلت زلزالها، وتصدّعت الجبال واندكّت، وكانت كثيبا مهيلا، ثم تصير هباءً منبثًّا، وتنفطِر السماء، وتكور الشمسُ والقمر، وتنتثر النجوم، ويكون من الأحداث ما تنصدِع له القلوب، وتشيب منه الوِلدان[(٤)].

(١٦) تومئ الآية إلى أن الساعة هي الميعاد الذي يجزي الله فيه من اتقاه ومن عصاه؛ لأن التعليل الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ (يقتضي أن لزلزلة الساعة أثرا في الأمر بالتقوى، وهو أنه وقتٌ لحصول الجزاء على التقوى وعلى العصيان)[(٥)].

---

(١) ينظر فتح القدير (٣/ ٥١٤).

(٢) ينظر التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٥٧)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٦٤)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٠٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠١)، وزاد المسير (٣/ ٢٢٢)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٥١٤). ولكن اعتُرض عليه بأن الزلزلة التي هي من أشراط الساعة يراها أهل ذلك الزمن وحدهم، فلا يناسب أن يكون ذلك علة لأمر الناس جميعا بالتقوى؛ ينظر روح المعاني (٩/ ١٠٧).

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ١٠٦).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٢).

(٥) التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٦).

(١٧) تدل الآية على أن العبد في حاجة إلى استحضار يوم القيامة وتذكر أهواله حتى ينتهي عن الذنوب كبيرها وصغيرها، ويزداد من العمل الصالح، لأنه (مهما أكثر من عمل، فإنه قليل إلى المطلوب منه لهذا اليوم، لو علم هوله، وتصور صورته)[١].

(١٨) تدل الآية أنه يجب على الناس أن يستعدوا ليوم الحساب، وأن يتزودوا له بالأعمال الصالحة قبل حلول الأجل، وألّا يُلهيَهم الأمل فيتركوا العمل[٢]، وذلك لأن الآية تتضمن التحذير من هول يوم القيامة الذي يحاسب الناس فيه على أعمالهم[٣]، وذلك يستلزم الاستعداد له.

(١٩) تومئ الآية إلى أن العاقل هو من ينظر ما قدم لمستقبله الأخروي[٤]، ويعمل لما ينتظره في يوم القيامة من حساب وجزاء، وفي هذا المعنى ورد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [سورة الحشر: ١٨].

(٢٠) تفيد الآية أن زلزلة الساعة أمرٌ عظيم في غاية العظمة؛ إذ لا شيءَ أعظمُ مما وصفه الله بالعظمة[٥]، فهو عظيمٌ بمقاييس الله، لا بمقاييس البشر[٦].

(٢١) تدل الآية على أن قيام الساعة أمر مُفزعٌ فزعًا يفوق ما يتخيله الناس، ويخالف ما يعهدونه[٧]؛ ولذلك فإنه يثير الفزع في القلوب والرعب في النفوس على نحوٍ عظيم كما

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٧٢).

(٢) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٤)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٢)، وأضواء البيان (٤/ ٢٦١).

(٣) ينظر التفسير الحديث (٦/ ٩).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٢)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٤).

(٥) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٠)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٤٧)، وبيان المعاني (٦/ ١٥٦).

(٦) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٦٨٧).

(٧) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٧٢).

تصوِّره الآية الثانية: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ الآية، إما على وجه الحقيقة، وإما على جهة التمثيل[(١)].

(٢٢) تفيد الآية أن شأن الساعة وما يقع فيها أمر هائل لا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه[(٢)]؛ لأن الله تعالى أتى في وصفها بلفظ ﴿شَيْءٌ﴾ المتوغل في التنكير لإفادة التهويل، كأنه قال: إن زلزلة الساعة لا يعرف كنهها إلا بأنها شيء عظيم[(٣)].

(٢٣) تفيد الآية بدلالة اللزوم عظمةَ قدرة الله تعالى وشدة قوته؛ لأن عظمة زلزلة الساعة على هذا النحو الموصوف في الآية دليل على عظم قدرة الله الذي يحدثها.

(٢٤) تفيد الآية أن زلازل الدنيا شيء هيِّنٌ بالنسبة إلى زلزلة الساعة[(٤)]؛ لأن الله تعالى وصف زلزلة الساعة بأنها شيء عظيم، ومفهومه أن ما عداها من الزلازل هيِّنٌ إذا ما قورنت بها، وإذا كانت الزلازل في الدنيا أمرا مرعبا، فما بالُنا بزلزلة يوم القيامة؟!

(٢٥) تفيد الآية أن القلوب تتزلزل وترتجف من الخوف والفزع كما تتزلزل الأرض وتضطرب بما عليها، ويُؤخَذ ذلك من حمل الزلزلة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ على الفزَع، فاستعيرت الزلزلة للقلوب بجامع الاضطراب في كلٍّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [سورة الأحزاب: ١٠ - ١١][(٥)].

---

(١) قال النيسابوري في غرائب القرآن (٥/ ٦٣): (وفي هذا تصويرٌ لهول الزلزلة كأنه بلغ مبلغا لو ألقمت المرضعة الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الخوف)، ونحوه في تفسير البيضاوي (٤/ ٦٤).

(٢) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ٩١)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٢).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٧).

(٤) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٦٨٧).

(٥) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٧).

(٢٦) في الآية تنبيهٌ على أن أمر المعاد هو محطُّ الحكمة، وما خُلِق الخلقُ إلا من أجله؛ لتظهر الأسماء الحُسْنَى والصِّفاتِ العُلَى أتمَّ ظُهورٍ يمكن للبشر الاطلاعُ عليه؛ وذلك لأن الله تعالى استفتح السورة بالأمر بالتقوى، ثم علَّلَ ذلك بتصوير أهوال القيامة تصويرًا لا مزيد عليه، وفي سورة النساء أمر بالتقوى وأتبعه ببيان شأن مبدأ الخلق، فدلّ فيهما على المبدأ والمعاد[(١)].

(٢٧) في الآية إشارة إلى أن المتقيَ لا يتوقى من العقاب إلا إذا كان يعرف أسباب العقوبات، ولا ينجو من الألم إلا إذا كان يعلم الأمور التي تترتب عليها الآلام. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى لم يكتف بالأمر بالتقوى، وإنما بيّن في هذه السورة طريقة التقوى والأسباب التي ينشأ عنها عذابه.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [سورة الحج: ٢].

(٢٨) تفيد الآية أن قيام الساعة أمر واضح يدركه كل أحد بمجرد حدوثه ولو كان في شغل شاغل، فيرون ما يحدث فيها من المرئيات من حضور الناس للحشر وما يتبعه، ويشاهدون ما يحدث من تغيرات كونية، ويسمعون الأصوات العظيمة التي تحدثها[(٢)]، ويستفاد هذا من التعبير بفعل ﴿تَرَوْنَهَا﴾ الراجع على أحد التفسيرين إلى الساعة؛ هذا على القول بأن المراد بالزلزلة تلك التي تسبق قيام الساعة.

(٢٩) تومئ الآية إلى أن أقوى علاقة عاطفية في الدنيا هي علاقة الأم برضيعها[(٣)]، ولذلك خصها الله تعالى بالذكر دلالة على شدة هول القيامة، وأنه يقطع هذه الصلة الوجدانية، فتذهل المرضعة عن رضيعها مع أنها في حال إرضاعه.

---

(١) ينظر نظم الدرر (٥/ ١٧٣).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٨).

(٣) الكشاف (٣/ ١٤٢).

(٣٠) تفيد الآية بدلالة اللزوم أن الشأن في المرأة المرضعة حال الرضاع أنْ تكون مشفقة على رضيعها، مقبلةً عليه، ولا يُذهلها عنه إلا أمر عظيم جِدًّا. ويستفاد هذا من التعبير ب ﴿مُرۡضِعَةٍ﴾، وهي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديَها للصبي، بخلاف "المرضع" فإنها (التي من شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به) [(١)].

(٣١) تدل الآية على أن الذهول الذي يصيب الناس يصل إلى درجة أن المرضعة وهي حال الإرضاع لا تدري ما الذي تفعله وماذا تحمل بين ذراعيها اشتغالا بنفسها، ويستفاد هذا من التعبير ب"ما" في قوله تعالى: ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾، بناء على القول بأن "ما" هنا موصولة، فكأن المرضعة تعرف شيئيته، ولكن لا تعلم مِن شدة الهول مَن هو بخصوصه[(٢)].

(٣٢) تومئ الآية إلى أن محبة الأم المرضعة لرضيعها وشفقتها عليه أشدّ من محبتها وشفقتها على غيره من أولادها[(٣)]؛ لأن الله تعالى لم يقل: "يوم تذهل كل أم عن ولدها"، وإنما خص الرضيع بالذكر، دلالةً على كونها معه في أعلى درجات الرعاية والإشفاق.

(٣٣) في الآية إشارة إلى أن محبةَ الأم لأولادها وعاطفتها تجاههم تزداد بقدر حاجتهم إليها؛ لأن الله تعالى ضرب المثل بالحامل والمرضع؛ لأن حياة الطفل تتوقف على تصرف الأم تجاهه، ولذلك تحتاط الحامل في تحركاتها وطعامها حتى لا يتأذى الجنين، وتحرص المرضع على إرضاع طفلها والعناية به، لأن حياته تتوقف على إرضاعها له[(٤)].

---

(١) الكشاف (٣/ ١٤٢).

(٢) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ٩١)، والبحر المديد (٣/ ٥١٠)، وروح المعاني (٩/ ١٠٨).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٩).

(٤) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ٤).

(٣٤) تومئ الآية إلى أن شفقة الأم على رضيعها أعظم من شفقة الأب عليه[١]؛ لأن الله تعالى خص الأم المرضعة بالذكر دلالةً على كونها أشد إشفاقا ورحمة برضيعها من غيرها ولو كان والده.

(٣٥) تومئ الآية إلى أن الأصل أن ترضع الأم طفلها وتُلقِمه ثديها، وأن ذلك باقٍ في جميع العصور إلى يوم القيامة، ويؤخذ ذلك من أن الله أخبر عند قيام الساعة بوجود نساء مرضعات، لكنهن ينشغلن عن أطفالهن حال إرضاعهنّ لهم، وهذا على القول بأن الزلزلة المذكورة في الآية التي تكون قبل قيام الساعة.

(٣٦) تدل الآية بدلالة الأوْلى على ذهول الناس كلهم نساءً ورجالًا من جرّاء رؤيتهم للساعة وأهوالها[٢]؛ لأنه إذا كانت زلزلة الساعة تذهل المراضع عن أولادهن، فمن باب أولى أن تذهل غيرهنّ ممن هم دونهنّ في الانشغال[٣].

(٣٧) تفيد الآية أن شدة الفزع والهلع قد تجعل الإنسان يذهل عما يفعله وهو في أعلى درجات التيقظ، وذلك لأن المرأة لشدة شفقتها كثيرة الاستحضار لما تشفق عليه، وأنها في حال ملابسة الإرضاع أبعد شيء عن الذهول، ومع ذلك ذهلت عن رضيعها لشدة ما تراه من الهول[٤].

(٣٨) تفيد الآية أن الأهوال والشدائد قد تجعل الإنسان ينشغل عن أحب الناس إليه، كما تغفل المرضعة عن طفلها الرضيع الذي هو أعز الناس وأحبهم إليها[٥].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٩).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٩).

(٣) ينظر اللباب (١٤/ ٦).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٠).

(٥) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٣)، وصفوة التفاسير (٢/ ٢٥٧).

(٣٩) تفيد الآية أن الفزع والخوف والدهشة قد تُنسي الإنسانَ نفسَه أو جزءًا من ذاته، ويؤخذ ذلك من أن المرضعة تذهل ناسيةً رضيعَها الذي هو قطعة منها وتفديه بنفسها[١]. ويُقتنَص هذا المعنى مما في التعبير ب ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ﴾ من التنبيه على شدة اتصال الحمل بالحامل[٢].

(٤٠) تدل الآيةُ على أن الجنين يسقط من بطن أمه من شدة الهول مع استقراره فيه وتمكنه منه، ويؤخذ هذا مما يشعر به التعبير ب ﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾ دون "حامل" من الصحبة المشعرة بالملازمة والتي تستلزم تمكنَه من رحم أمه[٣]، على خلاف ما يكون عادة من سقوط الأجنة التي لم تتمكن من الرحم خاصة في الأسابيع الأولى، خلافًا لمن صار عمره أربعة أشهر أو أكثر.

(٤١) تفيد الآية أن أهوال الساعة لا يملك أحدٌ معها – لشِدَّتها – شيئا من نفسه، فتتعطل فيه أجهزة أجسامهم العاملة، الإرادية منها وغير الإرادية[٤]. ويؤخذ ذلك مما ذكره الله تعالى من ذهول المراضع عن أولادهن وإسقاط أولات الحمل لحملهنّ عند رؤيتهم لأهوال الساعة.

(٤٢) تفيد الآية أن الإرادة قد تتعطل في الإنسان فيفعل أفعالا غير إرادية، فما وصفه الله عند يوم القيامة يدل على أن تلك الأمور صدرت عنهم بغير إرادتهم بسبب عظم ما رأوه.

---

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٨).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٩١).

(٣) ينظر روح المعاني (٩/ ١٠٩).

(٤) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٧٢).

(٤٣) تفيد الآية أنه لا بد من مراعاة الجانب النفسي عند الحوامل، وتجنيبهنَّ بواعثَ الخوف والقلق، لأن الآية أشارت إلى أنه قد تتعطل أَجهزةُ الإمساك في أَرحامهن من فرط الفزع والخوف، فتنحدر الأَجنّة دون إرادة منهن مع أنها في قرار مكين[١].

(٤٤) تفيد الآية أن الجسد قد يتأثر تأثرا سلبيا بالشعور النفسي السلبي، حتى إن العضلات لا تؤدي عملها كما كانت. ووجه دلالة الآية على ذلك أن عضلات الرحم من شأنها أن تمسك الجنين إلى حين موعد وضعه، ولكن الفزع الشديد يجعل هذه العضلات ترتخي فيوضع المولود لغير أوانه[٢].

(٤٥) تدل الآية بضميمة آيات أخرى على أن وضع الجنين له أجل معلوم، فلا يوضع قبل أوانه إلا لسبب، ومعرفة أسباب ذلك تعين على حفظ حياة الأجنة وتفادي حالات الإجهاض، ومن ذلك تفادي ما يفزع الحامل حتى لا يؤدي الفزع الشديد إلى سقوط الجنين.

(٤٦) تفيد الآية – بناءً على قول لبعض المفسرين المستند إلى ظاهر الآية – أن النساء اللائي يَمُتْن وهن حوامل، والنساء اللائي يمُتن هن وأولادهن الرضع في وقت واحد، يحشرون على ما ماتوا عليه، فإذا بعثوا ذهلت كل مرضعة عن رضيعها وأسقطت كل حامل حملها[٣]. ويؤخذ ذلك من ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾.

(٤٧) تفيد الآية أن الفزع الشديد قد يجعل الإنسان يفقد عقله وتمييزه حتى يصير أشبه بالسكران في حركاته واضطرابه؛ لأن الله تعالى ذكر أن الناس يوم القيامة يكونون أشبه

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٠)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٤).

(٢) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٥).

(٣) هذا الأمر ذكره المبرّد والقفّال على أنه احتمال (تفسير الرازي: ٢٣/ ٢٠١)، وقال به بعضهم كالنقّاش، وضعفه ابن عطية؛ ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٠٦)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٤)، وتفسير أبي السعود (٦/ ٩٢)، والأساس في التفسير (٧/ ٣٥٢٦).

بالسكارى لخوفهم من عذاب الله، ونفى أن يكونوا سكرى من الخمْر فقال: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [سورة الحج: ٢].

(٤٨) تشير الآية إلى أن في جسم الإنسان أجزاءً مسؤولة عن التوازن في الجسم، وقد تتعطل أو تتأثر بسبب مسكر أو مخدر أو فزع، فيفقد الإنسان توازنه فيتمايل ويضطرب[(١)]؛ لأن تشبيه حال الناس بحال السكارى من الخمر إنما هو بجامع اضطرابهم وتمايلهم.

(٤٩) تدل الآية على أن سكر الناس يوم القيامة إنما يكون من خوفهم من عذاب الله عند معاينتهم ما عاينوا من كرب ذلك وعظيم هوله؛ لأن الله تعالى ختم الآية بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [سورة الحج: ٢][(٢)].

(٥٠) تدل الآية على أن حال الاضطراب والتمايل الذي يشبه حال السُّكارى لا يراه الناس من أنفسهم، لأن الشأن في السكران أنه لا يميز[(٣)]، وإنما يراه من له أهلية الخطاب بالرؤية وقتئذٍ، ولعله ليس إلا النبي صلى الله عليه وسلم[(٤)]؛ لأن الخطاب متوجه إليه بصيغة الإفراد حيث قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾.

(٥١) يؤخذ من الآية أنه يجوز التعبير عن حال معينة بما يشبهها على سبيل المبالغة وإن لم تكن كذلك، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى في هذه الآية وصف الناس يوم القيامة بكونهم سكارى مع أنهم ليسوا سكارى على الحقيقة، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [سورة الحج: ٢][(٥)].

---

(١) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٦٩٢).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٥٨)، والتفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٥٨)، وتفسير السمعاني (٣/ ٤١٧)، وزاد المسير (٣/ ٢٢٢).

(٣) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٧٩).

(٤) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٦٤)، وقد جعله الماتريدي في تفسيره وجها من الأوجه المحتملة (٧/ ٣٨٨).

(٥) ينظر النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام (٢/ ٣١٤).

(٥٢) تفيد الآية أن الفزع من أهوال يوم القيامة سيمس الناس جميعًا، مؤمنهم وكافرهم؛ لأن الله تعالى عمّهم بالذكر فقال: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾، ولم يخص الكفار منهم[(١)].

(٥٣) تفيد الآية بضميمة آية أخرى أن الفزع الذي يكون يوم القيامة عند النفخة الأولى يشمل أهل الأرض والسماوات، ويستثنى من ذلك من شاء الله تعالى أن يستثنيه، لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة النمل: ٨٧]، وهذا على أن القول بأن المراد في آية الحج هو زلزلة الساعة قبل النفخة الثانية.

(٥٤) تشير الآية إلى أن أحداث الآخرة وإن كانت تماثل أحداث الدنيا في أسمائها، إلا أن بينهما فرقا شاسعا في حقيقتها[(٢)]، ويؤخذ هذا من أن زلزلة الساعة وإن كانت تسمى زلزلة كزلزلة الدنيا، إلا أنها تجاوزها في الشدة والهول بدرجة لا توصف.

(٥٥) تفيد الآية بدلالة اللزوم أن الذين لا يتقون الله تعالى في غفلة عظيمة عن عظمة الله وشدة عذابه وما في يوم القيامة من شدائد وأهوال. يؤخذ ذلك من الاستدراك بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [سورة الحج: ٢][(٣)].

(٥٦) تفيد هذه الآية أن الغافلين في الدنيا سينكشف عنهم الغطاء حين يرون الساعة وأحداثها، وسيعلمون مدى غفلتهم عن الآخرة، كما تشير إليه الآية في أواخر سورة الأنبياء التي تسبق سورة الحج حيث قال تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧﴾ [سورة الأنبياء: ٩٧].

---

(١) ينظر التفسير البياني للقرآن الكريم (١/ ٨٧). وقد ذكر الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٠١) وغيره في المسألة قولين، فقال: (إن قيل: أتقولون إن شدة ذلك اليوم تحصل لكل أحد أو لأهل النار خاصة؟ قلنا: قال قوم إن الفزع الأكبر وغيره يختص بأهل النار، وإن أهل الجنة يحشرون وهم آمنون. وقيل بل يحصل للكل لأنه سبحانه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله، وليس لأحد عليه حق)!

(٢) ينظر روح البيان (٦/ ٣).

(٣) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٩).

(٥٧) تنبه الآية على عظمة ما يكون بعد قيام الساعة من الحشر والحساب والجزاء على الأعمال، لأنه إذا كان زلزلة الساعة بهذه الشدة فما بالك بما يأتي بعدها[١].

(٥٨) تفيد الآية مع ما تقدمها أنه لا يوجد نقصٌ في التقوى إلا وسببه نقص في معرفة الله عزّ وجل، ووجه دلالة الآيات على ذلك أنها أمرت بالتقوى وبينت الحامل عليها، وذكرت ما يصرف الناس عنها، وهو الجهل بالله واتباع الشيطان، بدليل قوله تعالى بعد الآيتين الأوليين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾ [سورة الحج: ٣]، فلا تقوى إلا بعبادة، ولا عبادة إلا بعلم صحيح بالله جل شأنه، فمن لم يعرف أسماءه وصفاتِه وأفعالَه سبحانه لن يعبده حق العبادة، ولن يتحقق بالتقوى[٢].

(٥٩) تفيد الآيتان الأوليان من سورة الحج تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحوالهما وأهوالهما[٣].

(٦٠) تومئ الآيتان إلى أن المسلم عليه أن يسأل الله تعالى أن يؤمّنه يوم الفزع الأكبر، وألا يخزيه الله في ذلك اليوم العصيب، وقد أخبر الله تعالى عن المؤمنين أن من دعائهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝١٩٤﴾ [سورة آل عمران: ١٩٤]. ويروى أن من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: ((أسألُكَ الأمنَ يومَ الوعيد))[٤].

---

(١) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ٨٥).

(٢) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٢٤).

(٣) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٥١).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه: (كتاب الدعوات، باب رقم (٣٠)، ح ٣٤١٩، ٥/ ٤٨٢)، وإسناده ضعيف، وقال الترمذي: (هذا حديث غريب لا نعرفه مثل هذا من حديث ابن ليلى إلا من هذا الوجه). وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى سيئ الحفظ). وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه (كتاب الصلاة، باب الدعاء بعد ركعتي الفجر، ح ١١١٩، ٢/ ١٦٥)، ودعوى تفرد ابن أبي ليلى به مردودة، فقد أخرجه البيهقي في الدعوات الكبير (باب الدعاء بعد الفراغ من ركعتي السنة قبل صلاة الفجر، ح ٦٩، ١/ ١٣٢). ولكن فيه الحسن بن عمارة وهو متهم بالوضع، ينظر "الأجوبة المرضية فيما سئل السخاوي عنه من الأحاديث النبوية" (٣/ ١١٤١). وقد ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (ص: ١٦٩، رقم ١١٩٤).

(٦١) يستفاد من الآية أنه يجدر بالدعاة والخطباء والوعاظ تذكيرُ الناس باليوم الآخر ومنازله وأهواله، لما لذلك من أثر في ضبط سلوكهم وترشيد تعاملهم مع الآخرين.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [سورة الحج: ٣ – ٤].

(٦٢) ترشد الآية إلى إخفاء أسماء العصاة وعدم التشهير بهم رجاءَ اهتدائهم ورجوعهم إلى الحق، ويؤخذ ذلك من استعمال اسم الموصول "مَن" في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دون تصريح بهم[(١)]، ويؤيد هذه الهداية صنيع النبي عليه الصلاة والسلام، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: ((كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إذا بلغه عن الرجل شيء، لم يقل: ما يقول فلان؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟))[(٢)].

(٦٣) تشير الآية أنه لا ينبغي أن يستغرب من وجود طائفة من الناس يُكذّبون بالقيامة ويستخفُّون بشأنها ويجادلون في قدرة الله على البعث بغير علم ولا برهان مع وضوح الأدلة على ذلك، وتكرُّر التحذير الشديد من شدائدها. ويؤخذ هذا المعنى من ورود هذه الآية عقب الآيتين اللّتيْن تضمنتا بيان زلزلة الساعة ووصف أهوالها[(٣)].

(٦٤) يستفاد من الآية حرمة الجدال بالباطل لإدحاض الحق وإبطاله[(٤)]. كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [سورة الكهف: ٥٦].

---

(١) ينظر من بلاغة القرآن (ص: ١٠٧ – ١٠٨).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه: (كتاب الأدب، باب في حسن العشرة، ح ٤٧٨٨، ٤/ ٢٥٠)، وحسّن إسنادَه محققو جامع الأصول (١١/ ٧٣٦).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٢)، والتفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٧٤).

(٤) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٥١).

(٦٥) تفيد الآية بمنطوقها حرمةَ الكلام في ذات الله وصفاته وأفعاله بغير علم من وحي إلهي أو كلام نبوي صحيح[(١)].

(٦٦) تفيد الآية بفحْواها ذم الجدل عمومًا بغير علم أو برهان[(٢)]؛ لأن مناط الذم هو كونُهم جادلوا بغير علم، وهو الذي يصدق عليه مثل قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾ [سورة الزخرف: ٥٨].

(٦٧) تومئ الآية إلى أن الجدال غير مذموم لنفسه، وإنما يذم لكونه بغير علم، ويستفاد هذا من تقييد الجدال بهذا القيد في هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

(٦٨) تفيد الآية بمفهومها أن الجدالَ الصادرَ عن علم وتحقيق وبرهان سائغٌ[(٣)]؛ لأن ذم المجادلة مع عدم العلم بالأدلة يدل على أن المجادلة بالعلم جائزة، لأن مفهوم قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أنه إن كان بعلم فالأمر بخلاف ذلك، وليس في ذلك اتباع للشيطان. ويؤيد هذا المفهوم المذكور قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦][(٤)].

(٦٩) تفيد الآية بمفهومها أن من الناس من يجادلون بعلم من أجل إحقاق الحق؛ لأن الله تعالى حين قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، دل على أن هناك أناسا بعكسهم.

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٢)، وأيسر التفاسير (٣/ ٤٥١).

(٢) ينظر الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية (ص: ٤٤٤).

(٣) ينظر الإشارات الإلهية (ص: ٤٤٤).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٢)، وغرائب القرآن (٥/ ٦٤)، وتفسير المراغي (١٧/ ٨٦)، وأضواء البيان (٤/ ٢٦٣)، والتفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٢٥).

(٧٠) تفيد الآية أن المعارف ليست كلها ضرورية، بل كثير منها نظريٌّ يفتقر إلى الاستدلال، ويجب أن يستند إلى العلم، ويُفهَم هذا من قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [١].

(٧١) تشير الآية إلى أن من يجادل في الله ليس له علم بالله ولا معرفة به، وإلا لم يجادل فيه ولم يعاند، وانما يجادل لاتباعه شياطين الجن والإنس [٢].

(٧٢) تشير الآية إلى أن الناس لو بنوا تفكيرهم وكلامهم على العلم والبرهان لما جادلوا في الله تعالى. ولكنهم لم يتفكروا في الكون، ولم ينظروا حق النظر، ولم يبحثوا عن الحجة، فجادلوا فيه بغير علم [٣]. لأنه جاء في خاتمة الآية قوله سبحانه: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾، فهو متبع إذًا للمُضلِّين، لا يلوي على شيء من الرأي [٤].

(٧٣) تشير الآية إلى أن الإعراض عن العلم وإهمال النظر والتفكر يفضي بصاحبه إلى اتباع الشيطان وتقليد أئمة الضلال والمجادلة في المعتقدات الثابتة [٥].

(٧٤) تفيد الآية أنه لا بد لمن يجادل المكذبين ويناضل عن الدين أن يكون على علم بالأدلة والحجج النقلية والعقلية، عارفا بمذهب المخالفين، ليستطيع ردَّ الشبهات والانفصالَ عن الاعتراضات، وإلا كان ممن يجادل بغير علم. وقد استدلّ به بعض العلماء على وجوب تعلم العلم الذي يتضمن تلك الحجج، وهو علم الكلام [٦].

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٢)، وغرائب القرآن (٥/ ٦٤).

(٢) روح البيان (٦/ ٤).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٨٩).

(٤) ينظر التفسير والمفسرون في العصر الحديث، للدكتور فضل عباس (١/ ٣٧٩).

(٥) ينظر من بلاغة القرآن، لأحمد البيلي البدوي (ص: ١٣٦).

(٦) لطائف الإشارات (٢/ ٥٣١).

(٧٥) يفيد ما روي في سبب نزول الآية أن من الجدال في الله المجادلةَ في قدرته تعالى على إحياء الموتى[١]؛ لأن ابن جريج ذكر أن المعنيّ في الآية هو النضر بن الحارث[٢]، وأن معنى قوله: ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾: (يخاصم في الله، فيزعم أن الله غير قادر على إحياء من قد بَلِي وصار ترابا)[٣].

(٧٦) تدل هذه الآيات على ذمِّ الله تعالى للذين يجادلون في ألوهيته واستحقاقه للعبادة، ويكذبون بالبعث والنشور، ويُنكرون قدرة الله تعالى على إحياء مَنْ في القبور، وَهُمْ بذلك مُتَّبعون كل شيطان متمرد من شياطين الجن أو الإنس[٤].

(٧٧) تفيد الآية بعمومها ذمَّ كلِّ من تعاطى الجدال في شأن الله تعالى وصفاته من غير أن يرجع إلى علم ثابت، أو يستند إلى دليل صحيح[٥]، لأن الاسم الموصول ﴿مَن﴾ من أدوات العموم، والمعتبر في الآية هو عموم لفظها، أما ما يروى في سبب نزولها فلا يقضي بتخصيصها به[٦].

---

(١) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٠٧) والجواهر الحسان (٤/ ١٠٨).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٤٥٩)، وروى مثله ابن أبي حاتم في تفسيره عن أبي مالك (٨/ ٢٤٧٤ رقم ١٣٧٧٦).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٤٥٩). والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإنما ذكرنا من نزلت فيه الآية ليتضح مقصودُها. وقد أضاف الشيخ أبو زهرة في تفسيره (٩/ ٤٩٤٠) في تنزيل هذه الآية فقال: (وعلى أي حال فالآية الكريمة عامة، ونرى هذا الصنف من الناس في كل عصر، يمضغون الحقائق بجدل عقيم يثيرونه حولها، واختص هذا الصنف من الناس اليهود الذين اتبعهم الأوربيون والأمريكان وحذَوْا حذْوهم؛ لأن ملهمهم واحد وهو الشيطان، فتشابهوا وتشاكلوا، لوحدة المصدر).

(٤) ينظر التفسير الحديث (٦/١١)، والتفسير المأمون (٥/ ١٥١).

(٥) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٣)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٠٧).

(٦) روح المعاني (٩/ ١١٠).

(٧٨) تفيد الآية أن المجادلةَ لِلّه (مع أعداء الحق وجاحدي الدّين من موجبات القربة، والمجادلة في الله والمماراة مع أوليائه، والإصرار على الباطل بعد ظهور الدلائل من أمارات الشقوة)[١].

(٧٩) تومئ الآية إلى أن تجنب الجدل عموما أولى وأحرى، لأن الجدل (في أمرٍ من شأنه أن يذهب لبّ الحقيقة في وسط شد الجدل وجذبه)[٢]، فيلتهي الناس عن الحقائق بدلا من تلقيها.

(٨٠) تومئ الآية إلى أن الجهل والإعراض عن النظر يؤدي بصاحبه إلى اتباع الشيطان في طرق الضلال الموصلة إلى النار[٣].

(٨١) تفيد الآية أن الإنسان قد يتمادى في البعد عن الله والتمرد على شرعه والاجتراء على معصيته ويبلغ درجة يستحق أن يطلق عليه اسم الشيطان، كما يطلق على الواحد من ذرية إبليس؛ لأن الله تعالى عبر بلفظ ﴿كُلَّ شَيۡطَٰنٖ﴾ الذي يفيد العموم، وهو يشمل شياطين الإنس والجن[٤]، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيّٖ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [سورة الأنعام: ١١٢].

(٨٢) تفيد الآية أن شيطان الإنس قد يبلغ درجةً يصير فيها نائبا لإبليس حقا، لأن الله وصف الشيطان المريد فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾، ووصف إبليس فقال: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [سورة فاطر: ٦].

---

(١) لطائف الإشارات (٢/ ٥٢٩).

(٢) زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٤٠).

(٣) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٢٤).

(٤) ينظر أضواء البيان (٤/ ٢٦٤)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٤٠).

(٨٣) تفيد الآية أن أولئك الشياطين المتمردين هم الذين يأمرون أولئك بالمجادلة في الله بغير علمٍ[(١)]، ويلقون إليهم بالحجج الواهية، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [سورة الأنعام: ١٢١][(٢)].

(٨٤) تدل الآية على أن اتباع عُتاة الشياطين قد يتمادى بالإنسان إلى الخوض في الذات الإلهية والمجادلة في ألوهيته ووحدانيته بغير برهان؛ لأن وصف المجادلين في الله بغير علم بذلك جاء في معرض الذم.

(٨٥) تفيد الآية أن التقليد في شأن أصول العقائد مذموم، لأن الله تعالى ذمّ الذين يقلدون رؤساء الضلال في المجادلة في شأن الله ويعرضون عن العلم والنظر الذي يوقفهم على الحق[(٣)]. وإلى مثل هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٢٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٢١﴾ [سورة لقمان: ٢٠ – ٢١].

(٨٦) تشير الآية إلى أن مَرَدة شياطين الإنس والجن يقودون من اتبعهم إلى طرق الغواية، ويصرفونهم عن سبيل الهداية، ويزينون لهم الأعمال التي تهوي بهم في النار[(٤)]، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝٢٤﴾ [سورة النمل: ٢٤].

---

(١) ينظر التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٥٩)، وزاد المسير (٣/ ٢٢٢).

(٢) ينظر حجج القرآن، لبدر الدين الرازي (ص: ٣٣).

(٣) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٧٤)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٤٠).

(٤) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ٨٦).

(٨٧) تدل الآية بمنطوقها على أن الله تعالى قضى على الشيطان أنه يضلُّ أتباعه ولا يهديهم إلى الحق أبدًا[١]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

(٨٨) تشير الآية إلى أن العاقل هو من اتبع الرسل الذين يرشدون الناس إلى الخير ويهدونهم إلى الجنة، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣﴾ [سورة طه: ١٢٣] وقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَاتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٥﴾ [سورة الأعراف: ٣٥].

(٨٩) تفيد الآية إثبات القضاء؛ لأن الله تعالى عبر في أمر الشيطان بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ الآية، ومعنى كتب: قضي عليه[٢].

(٩٠) تدل الآية على الزجر عن اتباع خطوات الشياطين؛ لأن من اتبعه فلا بد أن يوقعه في الضلال والعصيان[٣]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾. وقال في آية أخرى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ ۝٢١﴾ [سورة النور: ٢١].

(٩١) تفيد الآية بضميمة آيات أخرى أن من وافق الشيطان بمتابعة دواعيه فإنه لا يقوده في الآخرة إلا إلى النار، ثم يتبرأ من موافقته، ويلعن جميع متّبعيه[٤]؛ وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾. وقال

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٠)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٤١١)، والتفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٥٩)، والنكت الدالة على البيان للكرجي (٢/ ٣١٥).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٠).

(٣) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٢)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٤٨)، والتفسير المنير (١٧/ ١٥٥).

(٤) ينظر لطائف الإشارات (٢/ ٥٢٩).

في آيـــة أخـــرى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٢].

(٩٢) تفيد الآية أنه يجب على (العاقل أن ينظر في العواقب، فلا يجعل نفسه تابعا لذي رأي فاسد، ومذهب ملحد لينجو من سوء المصير)[١].

(٩٣) تدل هذه الآية الكريمة على ذم أهل الضلال، (المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، الذين يتركون ما أنزل الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤساء الضلالة الدعاة إلى البدع والأهواء والآراء)؛ لأن العبرة - كما تقدم - بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[٢].

(٩٤) تفيد الآية أن اتباع الشيطان وأتباعه من رؤساء الضلالة في الدنيا يفضي إلى عذاب النار في الآخرة[٣]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾، وقد فسر بأنهم شياطين الإنس من رؤساء الكفر الذين يدعون من دونهم إلى الكفر[٤]. ومن وجه آخر فسر قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ بأن معناه [أن هذا المجادل لكثرة جداله بالباطل واتباعِه الشيطانَ صار إماما في الضلال لمن يتولاه]، فشأنه أن يضل أولياءه وأتباعه[٥].

(١) التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٦).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٢٦٢)، وينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٤)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٣).

(٣) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٥١)، والتفسير المأمون (٥/ ١٥٢).

(٤) أضواء البيان (٤/ ٢٦٢).

(٥) البحر المحيط (٧/ ٤٨٣).

(٩٥) تفيد الآية ذم رؤساء أهل الأهواء، لأنه يصدق عليهم أنهم من أشد الشياطين إضلالا لأتباعهم وأقطعهم لطريق الحق، لأنهم دونوا الضلالات في الكتب، ولقنوها لأتباعهم وأمدوهم بالحجج للدفاع عن المعتقدات الباطلة[(١)].

(٩٦) تفيد الآية أن الشيطان يدعو من يتبعونه إلى النَّار بما يُزيّن لهم من الباطل[(٢)]. وهذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾.

(٩٧) تدل الآية على أن الله تعالى حكم على كل شيطان مَتمرد ألا يتولاه ويستجيب له إلا الضالّون الخاسرون من عباده، كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝٤٢﴾ [سورة الحجر: ٤٢][(٣)].

(٩٨) تومئ الآية إلى أنه لولا تضليل هؤلاء المجادلين في الله بغير علم لقومهم وصدّهم إياهم عن اتباع الدين لاستجاب عامة المشركين للإسلام لظهور حجته وموافقته للفطرة؛ وذلك أن الاقتصار على ذكر الذين يجادلون بغير علم دون من عداهم من المشركين يومئ إلى ذلك، والله أعلم[(٤)].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾ [سورة الحج: ٥].

---

(١) الكشاف (٣/ ١٤٣).

(٢) الوجيز للواحدي (ص: ٧٢٧).

(٣) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٧٤ - ٩٧٥).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٢).

(٩٩) تومئ الآية إلى أن من الناس من ينكرون البعث، ومنهم من يصدقون به ولكنهم يعملون وكأنهم لا يؤمنون بالبعث، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى خاطب الناس كلهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾، وليس جميع الناس منكرين للبعث، وإنما عمم الخطاب إشارة إلى أن المنكِر والعامل عمله – وإن كان مصدقًا – هم أكثر الناس[(١)].

(١٠٠) تؤذن الآية بأن أقصى ما يُحتمل صدوره من الكفّار في شأن البعث – وإن بلغوا غاية المكابرة والعناد – هو الارتياب فيه، أما الجزم بعدم إمكانه فلا يدور بخَلَدِ عاقل على حال. ويستفاد ذلك من وصف الله إيّاهم بالريب مع أنهم جازمون بعدم إمكانه فضلا عن عدم وقوعه[(٢)]. والريب: هو الشك حيث يترددون بين التصديق به وإنكاره. أما ما هم عليه من الإنكار الجازم فخارج عن دائرة الاحتمال.

(١٠١) تومئ الآية إلى أنه ما كان ينبغي للناس أن ينكروا البعث مع ظهور الأدلة عليه، ويستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾، فأتى- سبحانه- ب"إِنْ" الشرطية المفيدة للشك مع أنهم في ريب أمر محقق تنزيلًا للمحقق منزلة المشكوك فيه، وتنزيها لشأن البعث عن أن يتحقق الشك فيه من أي عاقل، وتوبيخًا لهم لوضعهم الأمور في غير مواضعها[(٣)].

(١٠٢) تشير الآية إلى أنه ينبغي الصبر على المنكرين وإقامة الحجة عليهم من أقرب الأشياء التي يعهدونها ويشاهدونها بحواسهم، ويستفاد ذلك من أن الله تعالى احتج على منكري

---

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٨).

(٢) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ٨٨)، والتفسير الوسيط (٦/ ١١٧٨).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٦)، ونظم الدرر (١٣/ ٩ – ١٠)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٧٨)، والتفسير الواضح (٢/ ٥٦٦).

البعث ببراهين ظاهرة في الأنفس والأرض هم عنها غافلون[1]. فالإنسان يجدها في نفسه هو من مولده إلى مماته، فإن أعياه النظر إلى نفسه، وجدها في الأرض التي يمشى عليها[2].

(١٠٣) تومئ الآية إلى أن السبب في إنكار بعض الناس للبعث مع اعترافهم بوجود الخالق هو غفلتهم عن الأدلة المشهودة في خلقهم وما حولهم، وتدل على قدرة الله على الإحياء بعد الموت[3].

(١٠٤) تفيد الآية أن أول مخلوق من جنس الإنسان – وهو آدم عليه السلام – خلق من تراب، ويؤكد ذلك آيات أخرى كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة آل عمران: ٥٩].

(١٠٥) تفيد الآية بضميمة آيات أخرى أن آدم عليه السلام خلق عبر مراحل، فقد خلق من طين، ثم صار كحمأ مسنون، أي أسود متغيرا، ثم صار يابسا تسمع له صلصلة كالفخار، ثم شكل خلقه ونفخ فيه الروح. فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾﴾ [سورة الصافات: ١١] وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الحجر: ٢٦] وقال ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الرحمن: ١٤][4].

(١٠٦) تشير الآية إلى أن أفراد الناس يختلفون في طباعهم كما نجد اختلافا في أنواع تربة الأرض، وعلينا أن نراعي ذلك في التعامل معهم؛ وذلك لأن الله تعالى أخبر في هذه الآية وغيرها أنه خلق الإنسان من تراب، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن ذلك سبب في

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٠٩).
(٢) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٨٥).
(٣) ينظر المرجع السابق (٩/ ٩٧٥).
(٤) ينظر أضواء البيان (٢/ ٢٧٥).

اختلاف طبائع الناس فقال: ((إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحَزْن وبين ذلك))[1].

(١٠٧) تدل الآية على أن جميع ذرية آدم – وإن كانوا خلقوا مباشرة من المنيّ – أصل خلقهم من تراب عنصرا وهيكلا وغذاء، وقد بين العلم أنه ليس في جسم الإنسان من عنصر محسوس إلا له نظيره في عناصر الأرض[2]؛ والمنيُّ نفسُه يتولد مما يأكله الإنسان من نبات الأرض وثمراتها ولحوم الحيوانات التي يتغذى منها، فتتحول تلك العناصر المختلفة إلى منيّ، فيكون أصله هو الأرض[3]. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى قال مخاطبا الناس كلهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾، ولم يخص أباهم آدم بذلك هنا.

(١٠٨) تفيد الآية أن الله تعالى خلق الإنسان الأول – وهو آدم عليه السلام – من تراب، ثم خلق ذريته من النطف، وهي ماء التناسل في الكائن الحي[4]، لأن الله تعالى عبر بثُمّ الدالة على التفريق بين الطورين[5] فقال: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ٤٠٠ و٤٠٦ رقم١٩٥٩٧ و١٩٦٥٩)، وأبو داود في السنن (كتاب السنة، باب في القدَر، ح ٤٦٩٣، ٥/ ٦٧)، والترمذي في السنن: (كتاب تفسير القرآن، باب "من سورة البقرة"، ح ٢٩٥٥، ٥/ ٢٠٤)، وقال: (حسن صحيح). والحاكم في المستدرك (كتاب التفسير، باب من سورة البقرة، ح ٣٠٣٧، ٢/ ٢٨٨) وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي، وصحّحه ابن حِبّان (كتاب التاريخ، باب بدء الخلق، ح ٦١٦٠، ١٤/ ٢٩)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ١٧٢، رقم ١٦٣٠). والحزْن: الغليظ.

(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٠٩).

(٣) ينظر البحر المحيط (٧/ ٤٨٤)، وتفسير المراغي (١٧/ ٨٨)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٤٣)، الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٢٨)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٨). ولكن الشنقيطي قال في أضواء البيان (٤/ ٢٥): (وكذلك ما يزعمه بعض المفسرين من أن معنى خلقهم من تراب أن المراد أنهم خلقوا من الأغذية التي تتولد من الأرض فهو ظاهر السقوط كما ترى)، وينظر أيضا (٤/ ٢٦٥).

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤١٢)، والكشف والبيان (٧/ ٨)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٦٦)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٦)، والتفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٧٦)، وأضواء البيان (٣/ ٢٧٥).

(٥) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٧).

وبذلك أفصح الله تعالى في قوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [سورة السجدة: ٧ – ٨].

(١٠٩) تشير الآية إلى أن النطفة خلاصة الخلاصة في الإنسان، وأن الخالق – عَزَّ وَجَلَّ – صَفَّاها ونقَّاها لأنها ستكون أصْلًا لأكرم مخلوقاته. ويؤخذ من ذلك من تسميتها بالنطفة، وهي القطرة من الماء الصافي[(١)]، وكذلك نطفة المنِيّ هي خلاصة الخلاصة، لأن جسم الإنسان تحدث فيه عملية الاحتراق وعملية الأيض، أي: الهدم والبناء بصفة مستمرة، حيث يمتص الجسم خلاصة الغذاء، وينقلها إلى الدم. ومن هذه الخلاصة يُستخلص منيُّ الإنسان الذي تؤخذ منه النطفة، فهو – إذًا – أصفى شيء فيه[(٢)].

(١١٠) تومئ الآية إلى أن كل واحد من الناس فيه ذرة من أبيهم آدم؛ لأن الله جعل نَسْله من النطفة الحية التي وضعها في زوجه حواء، ثم أتى منها كل الخَلْق بعده، ولو طرأ على تلك الذرة موت ما كان نَسْلٌ بعد آدم، فهذه الذرة موجودة في النطفة التي يأتي منها الولد، وهي أصْفى شيء في الإنسان؛ لأنها الذَّرة التي شهدتْ خَلْق آدم عليه السلام، وشهِدت العهد الأول الذي أخذه الله على عباده كما ذكر تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢][(٣)].

---

(١) المفردات (ص ٨١١)، والدر المصون (٧/ ٤٩٠)، وروح البيان (٦/ ٦). كما جاء في قول جابر بن رالان الطائي:

بَقَّايَا نِطَافٍ أودَعَ الغيمُ صَفْوَهَا... مُصقَّلَةُ الأرجَاء زُرْقُ الجَوانبِ

ينظر ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي (ص: ٥٦٠)، وزهر الآداب وثمر الألباب (١/ ١٧٨)، والحماسة البصرية (٢/ ٣٥٣). ولا تظهر زرقة الماء إلا إذا كان الماء صافيا لا يشوبه شيء.

(٢) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٠٣ – ٩٧٠٤).

(٣) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٠٤ – ٩٧٠٥). وقد قرّب الشعراوي رحمه الله هذا الأمر فقال: (لو أنك أخذت سنتيمترًا من مادة ملونة، ووضعته في قارورة ماء، ثم أخذتَ ترجُّ القارورة حتى اختلط الماء بالمادة الملونة فإن كل قطرة من الماء بها ذرة من هذه المادة، وهكذا لو ألقيتَ القارورة في برميل... الخ. إذن: فكل إنسان مِنّا فيه ذرة من أبيه آدم عليه السلام).

(١١١) تدل الآية على مدى قدرة الله تعالى حيث خلق الإنسان وجعله خلقا سويا كامل الأعضاء الباطنة والظاهرة من قطرة من المني التي تلقح البويضة فتصير نطفة لا تكاد ترى[(١)]؛ ويؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ لأن النطفة في الأصل هي الماء القليل[(٢)]، ويقال: نطفت القربة، إذا تقاطر الماء منها بقِلّة. وقد وصفها الله تعالى في آيات أخرى بأنه ماء يستهان به لقلته فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [سورة السجدة: ٨].

(١١٢) تشير الآية إلى أن الإنسان مخلوق ضعيف، وما ينبغي له أن يجادل في قدرة ربه؛ لأن أصل خلقه من نطفة مني مهين، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧﴾ [سورة يس: ٧٧].

(١١٣) تدل الآية على مدى عجز الناس عن القيام بأي مرحلة من مراحل الخلق؛ لأن تحويل الماء إلى دم غليظ، ثم إلى قطعة لحم صغير أمر لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى. وقد قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾ [سورة الواقعة: ٥٨ – ٥٩][(٣)]. وما يقوم به العلماء به من تجارب ومحاولات لا يعدو أن يكون نبتة من نبات تلك البذرة التي أوجدها الخالق، وعملهم أشبه بنقل نبات من تربة غير تربته، واستنبات نوع من النبات في غير موطنه، فالله هو المنفرد بالخلق كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤][(٤)].

---

(١) ذكر ذلك ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٨). (وحجم البويضة أكثر من ضعف حجم الحيوان المنوي، وكلاهما في غاية الصغر، فالحيوان المنوي يساوي ٦/ ١٠٠٠ "ستة على ألف" من المليمتر، ولا يرى إلا بمنظار مكبر)، التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٩)

(٢) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٨)، والتفسير البسيط (١٥/ ٢٥٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٤)، وأحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٧١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٦)، وأضواء البيان (٤/ ٢٦٦).

(٣) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٧٨).

(٤) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٨٦).

(١١٤) تشير الآية إلى أن منتهى عمل الإنسان أن يقوم بالأسباب، أما المسببات فوقوعها بيد الله تعالى[١]، فالتناكح سبب مقدور له، أما النسل فأمر بيد الله تعالى وحده، لا يملك الإنسان منه شيئا. والحرث سبب مقدور له، أما إنبات النبات وإخراج الثمرات فأمر بيد الله تعالى وحده، وإلى ذلك أشار تعالى بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ الواقعة: [٦٣ – ٦٧].

(١١٥) تفيد الآية أن من قدر على ابتداء خلق الإنسان من التراب أو من النطفة من غير سبب يوجد فيه ولا أثر – لقادر على إعادتهم؛ لأن إعادة الشيء أهون وأيسر من ابتداء خلقه، فمن قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر[٢]. ولذلك قال تعالى في آية أخرى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٤] وقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة القيامة: ٣٧ – ٤٠].

(١١٦) تفيد الآية أن التفكر في أمر ابتداء خلق الإنسان يقود الإنسان إلى الإيمان بقدرة الله على البعث، لأنه لا يوجد في القدرة فرق بين ابتداء الخلق وإعادته[٣].

(١١٧) تدل الآية على جواز الاستدلال بالأقيسة العقلية، فقد تضمنت الآية قياسين: أولهما قياس إعادة الخلق على ابتداء الخلق من نطفة ثم من مضغة ثم من علقة، والجامع بينهما الإمكان والمقدورية، وثانيهما: قياس إخراج الموتى أحياء من الأرض على إخراج الزرع من الأرض، والجامع كذلك هو الإمكان والمقدورية[٤]. كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ

---

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١١).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩١)، والتحرير والتنوير (١٧/ ١٩٦).

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤١٢)، ومعاني القرآن للنحاس (٤/ ٣٧٦)، والهداية (٧/ ٤٨٤٤)، وزاد المسير (٣/ ٢٢٣)، والإشارات الإلهية (ص: ٤٤٤).

(٤) ينظر الإشارات الإلهية (ص: ٤٤٤ – ٤٤٥).

أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٩].

(١١٨) تفيد الآية أن قياس الدلالة من الأقيسة الصحيحة إذا توفرت شروطه، لأن الاستدلال على البعث بإحياء الأرض من باب قياس الدلالة. وقياس الدلالة هو الجمع بين الأصل والفرع بدليل العلة وملزومها؛ فدل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء، واعتبار الشيء بنظيره؛ والعلة الموجبة هي عموم قدرته سبحانه، وكمال حكمته؛ وإحياء الأرض دليل العلّة[1].

(١١٩) تفيد الآية أن أصول مسائل الغيب يقف فيها الإنسان على الحق إذا تدبَّر في نفسه وتفكر في خلق الله من حوله.

(١٢٠) تدل الآية بضميمة آيات أخرى على أن الجنين يتدرج في مراحل الخلق، فيكون نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم يجعل منه العظام، ثم تكسى العظام لحما، فيصر خلقا سويا. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ﴾ [سورة المؤمنون: ١٣ – ١٤]

(١٢١) تدل الآية على أن الجنين يكون في رحم أمه نطفة مدة من الزمن، ثم يكون علقة مدة أخرى، ثم يكون مضغة مدة أخرى، لأن الله تعالى عطف ب "ثم" التي تفيد الترتيب والتراخي، فقال: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ (﴾، وقد جاء بيان ذلك في الحديث الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن أحدكم يُجمَع خلقُه

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٠٧).

في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح...))[1].

(١٢٢) تفيد الآية – باستحضار ما توصل إليه علم الأجنّة – أن النطفة – وهي البويضة الملقحة – تستغرق الأيام الستة الأولى من الحمل، ويبدأ بعد ذلك التحول إلى طور العلقة في اليوم الرابع عشر، وتأخذ شكلًا يشبه العلقة في اليوم الحادي والعشرين، ثم تظهر الكتل البدنية في اليوم الرابع أو الخامس والعشرين، وفي اليوم الثامن والعشرين يتكون الجنين من عدة فلقات تظهر بينها انبعاجات، مما يجعل شكل الجنين شبيهًا بالعلكة الممضوغة. ويزداد اكتساب الجنين في تطوره شكل المضغة تدريجيًا من حيث الحجم، بحيث يكتمل هذا الطور في بقية الأيام الأربعين الأولى من حياته، وينتهي ذلك بنهاية الأسبوع السادس[2].

(١٢٣) تفيد الآية أن النطفة تعلق بجدار الرحم، ويؤخذ ذلك من صيرورتها إلى ما سماه الله علقة، وهي مشتقة من العلوق[3]، فبعد أنْ كان للبويضة تعلُّق بالأم، وللحيوان المنوي تعلُّق بالأب، اجتمعا في تعلُّق جديد والتقيَا ليتشبَّثا بجدار الرحم، وكأن فيها ذاتية تجعلها تعلَق بنفسها، ويكون ذلك بعد سبعة أيام ونصف من تلقيح البويضة تقريبا[4]. وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة القيامة: ٣٧ – ٣٧].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، ح ٢٦٤٣، ٤/ ٢٠٣٦). وهذه الرواية هي التي توافق ما توصل إليه علم الأجنة، خلافا لظاهر رواية الشيخين عن ابن مسعود والتي توهم أن كل طور يمتد أربعين يوما، ويكون التخلق بعد ١٢٠ يوما، ينظر كتاب "علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة": ٦٩ – ٧٣.

(٢) ينظر كتاب "علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة": (٦٩ – ٧٣).

(٣) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٧).

(٤) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٠٦)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٧ و١١٧٩).

(١٢٤) تفيد الآية –باستحضار ما توصل إليه الطب الحديث – أن العلقة هو أول مبادئ الجنين؛ لأنه يشبه دودة عالقة بجدار الرحم، فقد حدث له بعض التصوير الأولي في هذا الطور، وليس مجرد دم جامد كما يقول بعض المفسرين[(١)].

(١٢٥) تدل الآية على أن الله تعالى إنما يخلق الإنسان على التدريج – مع قدرته تعالى على إكمال خلقه في لحظة واحدة، فيقول: كن فيكون – من أجل أن يعرفنا ابتداءه لخلقنا ويبين لنا عظيم قدرته وسعة حكمته[(٢)]. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى قدَّم التبيين ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ على ما بعده، مع أن حصوله بالفعل بعد الكل، للإيذان بأنه غاية الغايات ومقصود بالذات[(٣)]. وحذف مفعول ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ لتذهب النفس في تقديره كل مذهب مما يرجع إلى بيان ما في هذه التصرفات من القدرة والحكمة[(٤)].

(١٢٦) تفيد الآية أن الله الذي اقتدر على تحويل الإنسان من حال التراب إلى حال البشرية، ومن حال النطفة إلى حال العلقة، إلى آخر ما ذكر – مع ما بين هذه الأحوال من التباين – لقادرٌ على إحيائهم، ولا يتعذر عليه إعادتهم بعد فنائهم، كما كانوا أحياء قبل الفناء[(٥)].

(١٢٧) تفيد الآية أن الله تعالى هو الذي يأذن بتمام تسوية خلقة الجنين أو سقوطه قبل أن يتم خلقه، يستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[(٦)].

---

(١) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٩). وقد ذكروا أن العلقة تكون في حجم نملة كبيرة طولها من ١٢ إلى ١٤ مليمتر.

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٣، وتفسير البغوي (٥/ ٣٦٦)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٤).

(٣) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ٩٤)، وروح المعاني (٩/ ١١٣).

(٤) ينظر نظم الدرر (١٣/ ١٠)، والتحرير والتنوير (١٧/ ١٩٩)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٨٠).

(٥) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦١)، وتفسير الماتريدي (٧/ ٣٩١)، والكشاف (٣/ ١٤٤)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٠٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٤).

(٦) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٣)، والهداية (٧/ ٤٨٤٤)، والتفسير البسيط (١٥/ ٢٦٠).

(١٢٨) تفيد الآية بضميمة آثار الصحابة أنه ينبغي أن نؤمن أن من الملائكة ملَكًا موكَّلا بالأرحام، فإذا وقعت النطفة في الرحم، بعثه الله، فيقول الملك: يا ربّ، مخلَّقة أو غير مُخلَّقة؟ فإن قال: غير مخلقة، مجَّتْها الأرحامُ دمًا، وإن قال: مخلّقة، قال الملَك: يا ربّ، فما صفة هذه النطفة؟ فيأمره الله تعالى أن ينطلق إلى أم الكتاب، فيستنسخ منه صفة هذه النطفة. وبذلك صرح ابن مسعود رضي الله عنه[(١)].

(١٢٩) تفيد الآية أن التخليق يقع للمضغة؛ لأن الله تعالى جعل التخلق نعتا لها فقال: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، ولم يذكر هذا الوصف عند ذكر النطفة والعلقة[(٢)].

(١٣٠) يفهم من الآية أن الرحم إذا مجت النطفة في طورها الأول قبل أن تكون علقة، فلا يترتب على ذلك حكم من أحكام إسقاط الحمل، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء. وذلك لأن النطفة لا يتعلق بها حكم إذا ألقتها المرأة إذا لم تجتمع في الرحم، فهي كما لو كانت في صلب الرجل[(٣)].

(١٣١) يفهم من الآية أن النطفة إذا سقطت في حال كونها علقة؛ أي: قطعة جامدة من الدم، لا يصلى عليها، ولا تغسل، ولا تكفن، ولا تورث. ولا خلاف في ذلك بين العلماء[(٤)]؛ لأن العلقة لم تخلّق ولم يظهر فيها صورة الآدمي بعد، وإنما التخليق يكون للمضغة كما تقدم.

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦١).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٣)، والهداية (٧/ ٤٨٤٤)، والتحرير والتنوير (١٧/ ١٩٨).

(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٨)، وأحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٧١)، وأضواء البيان (٤/ ٢٧٤).

(٤) ينظر أضواء البيان (٤/ ٢٧٤). وذهب الإمام مالك إلى اعتبار سقوط العلقة، فتنقضي بها العدة، وفيها الضمان، وذهب جمهور أهل العلم منهم الأئمة الثلاثة وغيرهم: إلى أن وضع العلقة لا تنقضي به العدة، ولا ضمان فيها، قالوا: لأنها دم جامد، ولا يتحقق كونه جنينا. واختلافهم إنما هو: هل هو حمل أو لا؟ وهذا من قبيل الاختلاف في تنقيح المناط. ينظر أحكام القرآن للكيا الهراسي (٤/ ٢٧٧)، وأحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٧٣)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٨)، وأضواء البيان (٤/ ٢٧٥).

(١٣٢) يفهم من الآية أن وضع المضغة المخلّقة – وضع حمل، تبرأ به الرحم، وتنقضي به العدة؛ لأن تخليق المضغة أن تتمايز أعضاؤه وتظهر عليه صورة الآدمي، فاذا ظهر بعضها ثبت لها حكم الإنسانية. وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم[(١)]. لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: ٤] أي الولد.

(١٣٣) تفيد الآية أن الله تعالى يحول الجنين حين يكون شبيها بالمضغة من اللحم إلى خلق تام الأعضاء والجوارح؛ لأن الله تعالى وصفها فقال: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ﴾، ومخلّقة جاءت من الفعل المضعف خلّق، وهو يفيد تكرير الفعل، وهو هنا خلْق كل الأعضاء، أي خلقا بعد خلق، وشكلا بعد شكل[(٢)]. لأنه لما كان الإنسان فيه أعضاء متباينة، وكل واحد منها مختص بخلق، حسُن في جملته تضعيف الفعل لأن فيه أجزاء كثيرة[(٣)].

(١٣٤) تدل الآية على أن الله فاعل مختار، قادر قهار، ويؤخذ ذلك من أن اختلاف أحوال الأجنة يدل على أن ذلك ليس كائنًا عن الطبيعة، لأنها لو كان عنها لم تختلف، فلما كانت مختلفة دل اختلافها على أن الله فاعل مختار[(٤)].

(١٣٥) تدلُّ الآية على إحاطة علم الله تعالى بما يقع في الأرحام، وأن المسلم يجب أن يؤمن بذلك؛ لأن الله تعالى أخبر في هذه الآية بأطوار خلق الجنين، وفصّل ذلك في آيات أخرى، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ [سورة لقمان: ٣٤]، وقال:

---

(١) ينظر أحكام القرآن للكيا الهراسي (٤/ ٢٧٨)، وأضواء البيان (٤/ ٢٧٦).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩١)، والتحرير والتنوير (١٧/ ١٩٨).

(٣) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٠٨)، وروح المعاني (٩/ ١١٢). وبين الشنقيطي ذلك فقال في أضواء البيان (٤/ ٢٧٠): (فقد ركب تعالى عظام الإنسان بعضها ببعض، وكساها اللحم، وجعل فيها العروق والعصب، وفتح مجاري البول والغائط، وفتح العيون والآذان والأفواه وفرق الأصابع وشد رؤوسها بالأظفار إلى غير ذلك من غرائب صنعه وعجائبه).

(٤) ينظر ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٢/ ٣٥٨)، ونظم الدرر (١٣/ ١٠). ولكن الألوسي استبعد هذا المعنى في روح المعاني (٩/ ١١٢).

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ﴾ [سورة الرعد: ٨]، أما الإنسان فلم يطلع على تلك التفاصيل إلا في العصر الحديث، ولا يحيط علمه بمصائر الأجنّة.

(١٣٦) تدل الآية على مطابقة ما قرره الله في كتابه لما توصل إليه العلم الحديث في شأن مراحل تخلُّق الجنين، ولا عجب، فإن الله هو العالم الخبير المنشئ الخالق، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [سورة الملك: ١٤][(١)]. وصدق الله تعالى إذ قال: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾ [سورة فصلت: ٥٣].

(١٣٧) تفيد الآية أن من الأجنة ما لا يتمّ الله خلق جميع أعضائه، فيولد ناقصا من عضو أو أكثر، لأن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾، وغير المخلقة أي التي لم يتم خلق جميع أعضائها[(٢)].

(١٣٨) تفيد الآية أن ما يقضيه الله في تخليق المضغة هو ما ينتج عنه تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم، وتمامهم ونقصانهم[(٣)]. وهذا على تفسير المخلقة بأنها المسواة الملساء من النقصان والعيب، أخذا من الصخرة الخلقاء، أي الملساء التي لا وصم فيها ولا كسر، والسهم المخلق: أي الأملس المستوي[(٤)]، فكأن الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة: منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك[(٥)]. وقوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٖ

---

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٤٤)، والتيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٥٦).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩١)، والتفسير البسيط (١٥/ ٢٦٣)، وملاك التأويل (٢/ ٣٥٧)، وينظر كذلك "أضواء البيان" (٥/ ٢٢ – ٢٣).

(٣) روي هذا القول عن قتادة كما نقله عنه ابن جرير وغيره، وعزاه الرازي (٢٣/ ٢٠٤) لقتادة والضحاك. وهو الذي اقتصر عليه الزمخشري في تفسيره (٣/ ١٤٤)، ورجحه الشنقيطي في أضواء البيان (٤/ ٢٦٨).

(٤) ينظر العين (٤/ ١٥١)، وتهذيب اللغة (٧/ ١٨)، والصحاح (٤/ ١٤٧٢)، والكشاف (٣/ ١٤٤)، والبحر المحيط (٧/ ٤٧٨)، وأضواء البيان (٤/ ٢٦٨).

(٥) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٤)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٤)، تفسير المراغي (١٧/ ٨٩).

﴿وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ محمولٌ على من سيصير إنسانا لأنه تعالى قال في أول الآية: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم﴾.

(١٣٩) تومئ الآية إلى أن جميع خصائص المولود وما سيكون عليه في كبره تكمن في مراحل الخلق الأولى منذ أن كان نطفة، فتتضمن صفاته الجسدية وسماته من طول وقصر، وضخامة وضآلة، وقبح ووسامة، وعلة وصحة، كما تكمن صفاته العصبية والعقلية والنفسية: من ميول ونزعات، وطباع واتجاهات، وانحرافات واستعدادات[(١)].

(١٤٠) تومئ الآية إلى عظم إعجاز الله في الخلق من خلال ذكر النقلة الكبيرة بين الطور الأول والطور الأخير، والاختلاف الشاسع بين طبيعة النطفة وطبيعة الطفل، تلك النطفة التي لا ترى بالعين المجردة، وذلك المخلوق البشري المعقد المركب، ذي الأعضاء والجوارح، والسمات والملامح، والصفات والاستعدادات، والميول والنزعات[(٢)]. ويؤخذ من ذلك من أن الله تعالى ذكر مرحلة المضغة وعلّلها بقوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾، ثم ذكر مرحلة الطفولة فقال: ﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾.

(١٤١) تشير الآية إلى أن التفكر في أطوار الخلق جدير بأن يجعل الإنسان يعظم ربه، ولذلك عرفنا بها في غير ما آية ليبين لنا عظمته سبحانه، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤﴾ [سورة نوح: ١٣ – ١٤].

(١٤٢) تفيد الآية أن من الأجنة ما يسقط من الرحم قبل تمامه؛ إذ لما كان التقدير: فنجهض منه ما لا نشاء إتمامه، عطف عليه قوله: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ﴾، ومفهومه أنه لا يقر ما يشاء إسقاطه[(٣)].

---

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٠).

(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٠).

(٣) ينظر ملاك التأويل (٢/ ٣٥٧)، ونظم الدرر (١٣/ ١٠).

(١٤٣) تفيد الآية أن من الأجنة ما لا ينفخ فيه الروح فيسقط ميتا، فتارة يسقط نطفة أو علقة، وتارة يسقط وقد صُوِّر بعضه، وتارة يسقط وقد اكتمل تصويره[(١)]، ويستفاد ذلك من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، وهذا على تفسير "غير المخلقة" بما لم يكمل خلقه بنفخ الروح فيه[(٢)]. وقال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾، ولم يقل: "من نشاء"، وإنما عبر ب ﴿مَا﴾ لتشمل المضغة وهي جماد، فكنى عنها بلفظ "ما"، ولو عبر ب"منْ" لكان راجعًا إلى الحمل[(٣)].

(١٤٤) تفيد الآية أن الموت ليس له سن معينة، ويؤخذ ذلك من أن الله أشار إلى من الأجنة ما يسقط من الرحم قبل موعد ولادته، ومن الناس من يتوفاهم الله قبل بلوغ أشدهم، ومنهم من يتوفاهم بعد بلوغهم مرحلة الهرَم، كل ذلك حسب الأجل الذي قدره لكل واحد[(٤)].

(١٤٥) تفيد الآية بضميمة الحديث النبوي أنه لا يجوز قطعًا إجهاض الجنين بعد مرور بضعة وأربعين يوما، لأن المضغة تُخلّق بعد مضي هذه المدة على الحمل، ففي حديث حذيفة بن أُسَيْد الغفاري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا مرّ بالنطفة ثِنْتان وأربعون ليلةً بعث الله إليها ملَكا، فصورها، وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب، أذكر أم أنثى؟))[(٥)]. وفي رواية أخرى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يدخل الملَك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين[(٦)] ليلة فيقول: يا رب، أشقي أو سعيد؟))[(٧)] الحديث.

---

(١) ينظر زاد المسير (٣/ ٢٢٣)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١١)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٨٢).

(٢) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٢٦١).

(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ١١)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٥١٦).

(٤) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٠٨).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، ح ٢٦٤٥، ٤/٢٠٣٧).

(٦) الشك من سفيان بن عيينة كما بينت رواية أبي عوانة في مستخرجه: (٢٠/ ٢٠١ ح ١١٥٧٦).

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، ح ٢٦٤٤، ٤/٢٠٣٧).

(١٤٦) تومئ الآية أن الجنين إن لم يثبت في الرحم فإنه يسقط؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، وأقر معناه: أثبته في مقرّه[(١)].

(١٤٧) تفيد الآية أن الله تعالى هو الذي يُبْقي الأجنة في الأرحام إلى الميعاد المعلوم الذي قدره حسب حكمته، فيولد حيا أو يسقط ميتا[(٢)]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾.

(١٤٨) تفيد الآية أن الله تعالى من رحمته بعباده يُبقي الأجنة في الأرحام حتى يستوي خلقها ويكتمل نموها وتصبح صالحة لأن تعيش خارج الرحم، وحينها يكون موعد الولادة[(٣)].

(١٤٩) تشير الآية إلى أن الإنسان يبتدئ مرحلة الطفولة وهو ضعيف معدوم العقل والقدرة، ثم ينمو ويبلغ كمال ذلك بالتدريج مع تقدم العمر حتى يبلغ أشده[(٤)]، لأن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾، أي ولدوا وكانوا أطفالا لم يبلغوا أشدهم، ثم بلغوه بعد ذلك. وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [سورة النحل: ٧٨].

(١٥٠) تدل الآية على أن لكل جنين وقتا محددا يولد فيه، وهم فيه متفاوتون[(٥)]، لأن الله تعالى قال: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فأجمل ولم يعين مدة من

---

(١) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٢٦٥)، وتفسير السمعاني (٣/ ٤٢١)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٨٠)، وصفوة التفاسير (٢/ ٢٥٨).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٤)، والكشاف (٣/ ١٤٤)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٠٨) وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٤).

(٣) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٨٠).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٤).

(٥) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٢٦٥ - ٢٦٦)، والكشاف (٣/ ١٤٤)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٠٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٥)، والتحرير والتنوير (١٧/ ١٩٩).

الزمن[١]، وأجمع العلماء على أن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر، ووافقهم الأطباء[٢]، وبيّن الطب الحديث أن أكثر الحمل عشرة أشهر[٣]. وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨﴾ [سورة الرعد: ٨].

(١٥١) تدل الآية على أن لكل جنين أجلًا سمّاه الله تعالى أزلًا قبل خلْقه، وكَتَبه في اللوح المحفوظ[٤]، لأن الله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، أي: معلوم معين في علمنا[٥]، و﴿مسمى﴾ بصيغة اسم المفعول، من سمّاه إذا جعل له اسما، ويستعار المسمى للمعين المضبوط تشبيها لضبط الأمور غير المشخصة بعدد معين أو وقت محسوب، بتسمية الشخص بوجه شبه يميزه عما شابهه[٦].

(١٥٢) تومئ الآية إلى مشابهة إخراج الأجساد من القبور بالبعث بعد استقرارها فيها بإخراج الطفل من قرارة الرحم بعد استقراره فيه مدة من الزمن؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾، وعدل عن فعل الماضي الذي عبر به

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٩).

(٢) ينظر الهداية (١١/ ٦٨٤١)، والنكت والعيون (٥/ ٢٧٦)، والكشاف (٤/ ٣٠٢)، والمحرر الوجيز (٣/ ٢٩٩)، وتفسير القرطبي (٥/ ٢٦٢)، وأضواء البيان (٧/ ٢٢٣)، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن، د. محمد علي البار (ص ٤٥١-٤٥٢)، وقد استنبط العلماء ذلك من أن الله تعالى قال: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ (الأحقاف: ١٥)، وقال: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ (البقرة: ٢٣٣)، فأخبر بمدة الرضاعة الكاملة، فالذي يبقى من الثلاثين شهرًا التي ذكر الله هنا هو ستة أشهر فهي للحمل، وقد روي هذا الاستدلال عن علي وابن عباس رضي الله عنهما، ينظر تفسير الرازي (٦/ ٤٦٠)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٢٨٠).

(٣) ينظر نظرية التقريب والتغليب للدكتور أحمد الريسوني (ص ٢٧٦). أما في الشرع فليس فيه ما يدل على أكثر الحمل، كما ذكر أبو حيان في البحر المحيط (٩/ ٤٤٠).

(٤) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٢٦٥)، وروح البيان (٦/ ٨).

(٥) أضواء البيان (٤/ ٢٦٩).

(٦) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٩).

في بداية الآية ﴿خَلَقْنَٰكُم﴾ إلى الفعل المضارع ﴿وَنُقِرُّ﴾ ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾، للدلالة على استحضار تلك الحالة لما فيها من المشابهة لما يرونه في مولد كل طفل[1].

(١٥٣) تبين الآية أن الله تعالى كما قدر على أن يُرقّي الإنسان في درجات الزيادة حتى يبلغه حد التمام، فهو قادر على أن يحطه حتى ينتهي به إلى الحالة السفلى[2].

(١٥٤) تفيد الآية أن عقل الإنسان وجسده وقوته تزداد شيئا فشيئا حتى تبلغ منتهى كمالها، وهو الذي عبر عنه في هذه الآية وغيرها ببلوغ الأشد؛ وذلك أن قوله: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ يدل على التدرج والبلوغ إلى الغاية[3]، والأشُد: من ألفاظ الجموع التي ليس لها مفرد، (وكأنها شدة في غير شيء واحد، فبنيت لذلك على لفظ الجمع)[4]. ومن الآيات كذلك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾؛ وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [سورة القصص: ١٤].

(١٥٥) تومئ الآية إلى أصالة مرحلة البلوغ بالنسبة إلى الإقرار والإخراج؛ إذ عليه يدور التكليف المؤدى إلى السعادة والشقاوة، وهي الجديرة بأن تكون مقصودة من الإنشاء كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الذاريات: ٥٦]، ويؤخذ هذا من إعادة اللام في ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ﴾، مع تجريد ﴿وَنُقِرُّ﴾ ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾ من اللام[5].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٩).

(٢) الكشاف (٣/ ١٤٥).

(٣) فتوح الغيب (١٠/ ٤٤١).

(٤) الكشاف (٣/ ١٤٥)، وكذلك تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٥).

(٥) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٤٠)، وروح المعاني (٩/ ١١٣)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٨١).

(١٥٦) تفيد الآية أن الإنسان لا يستوفي نموه الجسدي والعقلي والنفسي حتى يكبر ويقارب الأربعين من العمر[(١)]؛ لأن الله تعالى قال في هذه الآية: ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ﴾، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ [سورة الأحقاف: ١]، فهو يشعر بأن الأشُد منتهٍ إلى الأربعين، وهي سن الوقوف، فينبغي أن يكون مبدؤه قبل ذلك[(٢)].

(١٥٧) تؤذن الآية بأن بلوغ الأشد أفضل الأحوال، وإخراج الطفل أبدعُها، والرد إلى أرذل العمر أسوأها، ويؤخذ هذا من تغيير العبارة عن ذلك، فقد نسب الإخراج إلى ذاته العلية، وحذف المعلل في الثاني، ولم ينسب الثالث إلى ذاته عز وجل، وسلب فيه ما أثبت للإنسان في تلك الحالة من اتصافه بالعلم والقدرة المومأ إليه بالأشد، كأنه قيل: ثم نخرجكم من تلك الأطوار الخسيسة طفلًا، أي: إنشاءً بديعًا غريبًا، كما قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [سورة المؤمنون: ١٤] ثُم لتبلغوا أشدكم دبر ذلك الإنشاء العجيب؛ لأنه أوانُ رسوخ العلم والمعرفة، والتمكن من العمل والطاعة، ثم يميتكم، أو يردكم إلى أرذل العمر الذي يسلبُ به العلم والقدرة على العمل[(٣)].

(١٥٨) تفيد الآية بدلالتي المفهوم والمنطوق أن عقل الإنسان وجسده وقوته تنقص بعد بلوغ الأشُد شيئا فشيئا حتى تبلغ أدنى درجاتها عند الهرَم[(٤)]، فيفقد الإنسان قواه وينقص عقله،

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٥)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٤١٣)، والتفسير البسيط (١٥/ ٢٦٩)، والكشاف (٤/ ٣٠٢). فسن الأشد بين الثلاثين والأربعين، وفي تفسير السمرقندي (٢/ ٤٤٩): (ويقال: إلى ست وثلاثين سنة).

(٢) ينظر روح المعاني (١٠/ ٢٦١).

(٣) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٤٢)، وروح المعاني (٩/ ١١٣).

(٤) ذكر مكي في الهداية (٧/ ٤٨٤٧) أنه (روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: أرذل العمر، خمسة وسبعون عامًا)، ولكن ابن عطية تعقبه في تفسيره (٤/ ١٠٨) فقال: (وهذا فيه نظر، وإن صح عن علي رضي الله عنه فلا يتوجه إلا أن يريد على الأكثر، فقد نرى كثيرا أبناء ثمانين سنة ليسوا في أرذل العمر).

وهو ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾. وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [سورة التين: ٤ – ٥] وقوله: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [سورة يس: ٦٨] والخلق يشمل كل ما هو من الخلقة، ولا يختص بالجسم[(١)].

(١٥٩) تشير الآية إلى أن دوام الحال في هذه الدنيا محال، فالإنسان يكون في غاية الضعف إذا ولد، ثم يزداد قوة شيئا فشيئا حتى يبلغ أشده، ثم يبدأ في الضعف شيئا فشيئا حتى يبلغ أشد درجات ضعفه عند بلوغه سن الهرَم، فقوة الآدمي محفوفة بضعفين، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ۝٥٤﴾ [سورة الروم: ٥٤][(٢)].

(١٦٠) تشير الآية إلى أن حدود الحياة الإنسانية تنتهي غالبا عند مرحلة الشيخوخة، حيث يستوفي الإنسان غايته، ويعطى الحياة كلّ ما عنده، ويأخذ منها كلّ ما قدر له أخذه منها، ومن الناس من يموتون قبل ذلك، تماما كما تتساقط بعض ثمار الفاكهة، زهوا، أو حِصْرما، أو رطبا[(٣)]. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى قال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾.

(١٦١) تفيد الآية أن تقليب الخلق من حال إلى حال ليس عبثا، وإنما هو لأمر مقصود، ولو لم يكن بعث – كما يزعمون – لكان خلقهم طورا بعد طور عبثًا؛ والخالق حكيم منزه عن العبث، وقد قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [سورة المؤمنون: ١١٥][(٤)].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٢).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٤).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٠).

(٤) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٠).

(١٦٢) في الآية إشارة إلى أن العبد عليه أن يؤمن بأن الله ينفرد بالخلق والإحياء والإماتة، ولا يشاركه أحد في ذلك، وذلك لأن الله تعالى أخبر بأنه هو الذي خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة، وهو الذي يخرجه طفلا وهو الذي يقلبهم في أطوار الخلق إلى أن يتوفاهم.

(١٦٣) تفيد الآية أن الله تعالى نبههم على تدرج مراحل الخلق ليبين حكمته وتدبيره في خلق الإنسان، وليعلموا أنه حكيم بذاته وعالم قادر بذاته، لا بتعليم غيره، ولا بإقدار غيره، ومن كان هذا سبيله لا يعجزه شيء[(١)].

(١٦٤) في الآية إيماء إلى أن العبد عليه أن يشكر ربه على تربيته ورعايته له ونقله من طور إلى طور حتى صار خلقا سويا، ثم تنمية جسمه وعقله حتى بلغ منتهى قوته[(٢)]؛ لأنها نعمٌ يتفرد بها الله سبحانه. وشكر الخالق إنما يكون بالإيمان به وعبادته وحده دون سواه.

(١٦٥) تدل الآية بضميمة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾ [سورة غافر: ٦٧]، أن من الناس من يميتهم الله قبل سن الهرم، ومنهم من يموت قبل أن يبلغوا أشدهم[(٣)]؛ لأن الله تعالى أشار إلى ما قبل بلوغ الأشد وما بعده بقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾، فقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾، أي من قبل أن يبلغ الأشد[(٤)]، أو قبل أن يبلغوا الهرم[(٥)] بدلالة مقابله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾، وقال في آية أخرى[(٦)].

---

(١) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٢).

(٢) ينظر التفسير المنير (١٧/ ١٦٣).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٥)، وتفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٢).

(٤) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٢)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٤٩)، والهداية (٧/ ٤٨٤٧)، والتفسير البسيط (١٥/ ٢٦٩).

(٥) هذا هو القول الأول الذي ذكره الماوردي في معنى الآية في النكت والعيون (٤/ ٨)، وهو الذي اقتصر عليه البقاعي في نظم الدرر (١٣/ ١١).

(٦) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ٥٦٨)، وتفسير ابن كثير (٧/ ١٥٧).

(١٦٦) تومئ الآية إلى أن الإنسان ينبغي أن يستعد للموت لأنه لا يعلم متى ينتهي أجَلُه، فقد ينتهي قبل أن يبلغ سنّ الهرم، لأن الله تعالى قال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾.

(١٦٧) تدل الآية أن من الناس من يطيل الله أعمارهم إلى أن يبلغوا إلى سن الهرم ويصيبهم الخرف؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾. تدل الآية على أن أرذل العمر هي الحال التي تصيب الإنسان في كبر سنه، فتضعف قواه البدنية والعقلية، وليس لذلك سن معين، بل يختلف ذلك باختلاف الناس، فمنهم من يبلغ المائة أو يقاربها وهو في غاية جودة الذهن والإدراك مع بقية نشاط، ومنه من يبلغ سن الكهولة وقد ضعف بدنه[(١)].

(١٦٨) تفيد الآية أن مرحلة الهرم وحال الخرَف- بحيث لا يعقل شيئا – أسوأ مرحلة في حياته؛ لأن الله تعالى سماه أرذل العمر فقال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾، أي أخسه وأدونه[(٢)]، وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من أن يرد إلى أرذل العمر[(٣)].

(١٦٩) تشير الآية إلى أن مرحلة أرذل العمر هي وجه مقابل لمرحلة الطفولة في حياة الإنسان، حيث ينحدر الإنسان شيئا فشيئا، حتى يرجع إلى ما كان عليه عند ولادته ضعيفًا لا يعلم شيئا؛ لأن الله تعالى قال في شأن الهرم: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، وقال في شأن المولود: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [سورة النحل: ٧٨][(٤)].

---

(١) ينظر البحر المحيط (٧/ ٤٨٦).

(٢) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٢٦٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٢)، والتفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٨٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الدعوات، باب التعوذ من البخل، ح ٦٠٠٩، ٥/٢٣٤٢).

(٤) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٨٢ – ٩٨٣).

(١٧٠) تدل الآية على أن الذاكرة تضعف مع تقدم العمر، حتى إنه ربما ينسى ما كان يعلمه[١]، كما أفصح به قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [سورة الحج: ٥].

(١٧١) تفيد الآية أن في ضعف العقل مراتب بحسب توغله في أرذل العمر، تبلغ إلى مرتبة انعدام قبوله لأي معلوم جديد، وقبلها مراتب من الضعف متفاوتة، كمرتبة نسيان الأشياء، ومرتبة التخليط بين المعلومات، وغير ذلك. وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، و ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي تعمُّ كلَّ معلوم، أي لا يستفيد معلوما جديدا[٢].

(١٧٢) تشير الآية إلى أن من بلغوا أرذل العمر قد ينسون ما علموه بعد وقت قصير، ويؤخذ هذا من التعبير ب ﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، فأثبت «مِنْ» الابتدائية للدلالة على قرب زمن الجهل من زمن العلم، فربما بات الإنسان في غاية الاستحضار لما يعلم، فيعود في صبيحة ليلته أو بعد أيام يسيرة لا يعلم شيئًا، وربما نسيه بعد وقت يسير حتى إنه يسأل عنه من ساعته فلا يتذكره[٣].

(١٧٣) في الآية إيماءٌ إلى أن العبد لا بد أن يظهر الافتقار إلى الله تعالى والتذلل له؛ لأن الرد إلى الشيخوخة والهرم دون خرف أو مع الخرف عبرة وعظة تدل على أن تصرف الله في خلقه مطلق[٤]، فهو يفعل بعباده ما شاء كما شاء في الوقت الذي يشاء.

(١٧٤) تومئ الآية إلى أنه يسوغ كراهية البلوغ إلى أرذل العمر؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، ولم يقل: "يبلغ

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٥).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٢).

(٣) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٥)، ونظم الدرر (١٣/ ١١).

(٤) ينظر التفسير المنير (١٧/ ١٦٣).

أرذل العمر"؛ (لأن بلوغ أرذل العمر ليس بلوغ غاية تتغي وصالحة في ذاتها، وعبر بقوله: ﴿يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾؛ لأنه رجعة إلى الوراء، وعودة إلى الضعف في جسمه، فيهن العظم، ويتقوس الظهر، ويضعف العقل، ويضل الفكر، وينسى بعد أن كان يعلم)[1].

(١٧٥) تومئ الآية إلى أنه يجوز التعوذ من الهرم؛ لأن الله تعالى أشار بهذه الآية إلى أن ترك المرحلة من العمر مذمومة، وسماها سبحانه: ﴿يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾، (أي العمر المرذول الذي يكون عبئا على صاحبه)[2]. ويؤيده أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوّذ بالله من الهرَم[3]، ومن أن يُرَدَّ إلى أرذل العمر[4].

(١٧٦) تشير الآية إلى أن علم الإنسان ليس صفة ذاتية، إنما وهبه الله له وأقدره عليه، ولذلك يلحقه الزيادة والنقص والتغير والنسيان حسب الأحوال والأطوار التي يمر بها، وكذلك القوة وغيرها من الصفات[5].

(١٧٧) تومئ الآية إلى سخافة الإنسان حينما ينكر الحق بمقتضى تفكيره المحدود وعقله القاصر، لأن الله تعالى نبه بقوله: ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ على أن العلم الذي ربما اختال به وتطاول وجادل في الله وصفاته بالباطل يفلت من عقله ووعيه، فلا يعلم شيئا[6]!

---

(١) زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٤٥).

(٢) زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٤٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص: (كتاب الجهاد والسير، باب التعوذ من أرذل العمر، ح ٦٠١٠، ٥/ ٢٣٤٣)، وأخرجه كذلك من دعاء طويل في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: (كتاب الجهاد والسير، باب التعوذ من المأثم والمغرم، ح ٦٠٠٧، ٥/ ٢٣٤١). وأخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر الفتن وغيرها، ح ٥٨٩، ٤/ ٢٠٧٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الجهاد والسير، باب ما يتعوذ من الجبن، ح ٢٦٦٧، ٣/ ١٠٣٨)، وأخرجه في مواضع أخرى من الصحيح.

(٥) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٠٩)

(٦) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٠).

(١٧٨) تشير الآية إلى أن العاقل هو الذي يغتنم السنوات التي بلغ فيها أشده حيث يتمتع بسائر قواه، قبل أن يهرم فيضعف بدنه ويتغير عقله ويقلّ عمله، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [سورة الحج: ٥]، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((اغتنم خمسًا قبل خمس))، وذكر منها: ((شبابَك قبل هرَمِك))[(١)].

(١٧٩) تومئ الآية – على قول – إلى أن الذين يحفظون القرآن لا يصيبهم الخرف، والله أعلم، وذلك ما ذهب إليه بعض السلف، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا، وذلك قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [سورة التين: ٥ – ٦] قال: إلا الذين قرأوا القرآن)[(٢)]. وقد روي من قول عكرمة رحمه الله بلفظ: (كان يقال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر...) الخ[(٣)].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب الرقاق، ح ٧٨٤٦، ٤/٣٤١)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن أبي الدنيا في "قصر الأمل" (ص: ٨٩)، وقد حسن إسنادَه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (ص: ١٨٣٧)، ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (الزهد وقصر الأمل، ح ٩٧٦٧، ١٢/ ٤٧٦). وأخرجه من مرسل عمرو بن ميمون الأوْدي ابنُ المبارك في "الزهد": (باب التحضيض على طاعة الله عز وجل، ح ٢، ص٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (كتاب الزهد، ما ذكر عن نبينا صلى الله عليه وسلم في الزهد، رقم ٣٤٣١٩، ٧/ ٧٧)، والنسائي في السنن الكبرى: (كتاب المواعظ، ح ١١٨٣٢، ١٠/ ٤٠٠). وصحح الحافظ إسناده في الفتح (٩/ ١٤). والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٢٤٤، رقم ١٠٧٧). وينظر كلام ابن الصديق الغماري عنه في "المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي" (٢/ ٣١ – ٣٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب التفسير، باب تفسير سورة {والتين}، ح ٣٩٥٢، ٢/ ٥٧٦)، وصححه، ووافقه الذهبي، ورواه كذلك البيهقي في شعب الإيمان (تعظيم القرآن، فصل تنوير مواضع القرآن، ح ٢٤٥٠، ٤/ ٢٣٤). وصححه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٢/ ١٦٩، رقم ١٤٣٥).

(٣) رواه ابن أبي شيبة بنحوه في مصنفه (كتاب فضائل القرآن، باب في فضل من قرأ القرآن، رقم ٢٩٩٥٧، ٦/ ١٢٠)، ورواه بهذا اللفظ: الطبري في تفسيره (٢٤/ ٥١٧)، ورواه ابن أبي حاتم بنحوه في تفسيره (١٠/ ٣٤٤٨، رقم ١٩٤١٠)، وعزاه السيوطي في الدُّرّ (٨/ ٥٦٦) كذلك إلى سعيد بن منصور وابن المنذر. قال الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٠٥): (ومن الناس من قال هذه الحالة لا تحصل للمؤمنين لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾، وهو ضعيف؛ لأن معنى قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ (التين: ٥)،

(١٨٠) تشير الآية إلى صورة من صور إخراج الحيّ من الميت، وإخراج الميت من الحيّ، في مسيرة الإنسان على طريق الحياة، من طفولته إلى هرمه، فهو في بدء طفولته ميت حيّ وهو في أرذل عمره حيّ ميت! والله تعالى يصف نفسه فيقول: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [سورة الأنعام: ٩٥][(١)].

(١٨١) تدل الآية على أن الأرض من دون نبات وزرع كالميت الذي لا روح فيه؛ وذلك لأن الله تعالى وصفها في هذه الآية بالهمود فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾، وهمودها ألا يكون فيها حياة[(٢)]، وقد وصفها الله بالموت في آيات أخرى فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة يس: ٣٣].

(١٨٢) تدل الآية على أن الله تعالى يحيي الأرض بإنزال المطر وإخراج النبات؛ وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

(١٨٣) تفيد الآية أن من شأن العقلاء الاستدلالَ على الغائب بالحاضر المحسوس[(٣)]؛ لأن الله تعالى خاطب المنكرين بالطريقة التي تقبلها عقولهم القاصرة ويستدلون بها في كثير من أمورهم، فاستدل على البعث -وهو قضية غيبية- بأمر محسوس مشاهد وهو إحياء الأرض الجافة بإنزال المطر وإنبات النبات، ولذلك عبر بالرؤية فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾. وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار، وهي بصرية لا علمية[(٤)]. وقد استعمل النبي عليه الصلاة والسلام هذا الدليل حينما سأله رجل عن إحياء الله للموتى، فقال: ((أما مررت

---

هو دلالة على الذم، فالمراد به ما يجري مجرى العقوبة، ولذلك قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ (التين: ٦)).

(١) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٨٣).

(٢) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٢٧١).

(٣) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٥٥).

(٤) روح المعاني (٩/ ١١٤).

بوادي أهلك محْلا، قال: بلى. قال: ثم مررت به يهتز خَضِرا؟ قال: بلى. قال: فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه))[1].

(١٨٤) تومئ الآية من خلال الاستدلال بإحياء الأرض إلى التشابه بين الإنسان وأمه الأرض لأنه خلق من ترابها، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب))[2].

(١٨٥) تشير الآية إلى تشابه عملية خلق الإنسان والإنبات، فالحبة تبذر في الأرض المهيأة للإنبات، ثم تسقى بالماء، ثم تبدأ في النمو شيئا فشيئا حتى تصير نبتة يانعة، وكذلك الإنسان يتخلق عن طريق بويضة مودعة في الرحم المهيأ للولادة، فإذا سقيت بماء الرجل تخلق الجنين بإذن الله تعالى إلى أن يولد طفلا سويا[3].

(١٨٦) تشير الآية إلى القرابة الوثيقة بين جميع الأحياء، وأنها دليل على وحدة عنصر الحياة ووحدة الإرادة الدافعة لها هنا وهناك. ويؤخذ ذلك من أن الله سلك خلق الإنسان وخلق النباتات في الذكر في هذه الآية دلالةً على ارتباطهما[4].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠/٤ ح ١٦٢٨٥)، وضعف إسنادَه محققو طبعة الرسالة (٢٦/ ١١٣) لجهالة حال وكيع بن عدس، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٢٠٦، ح ٤٦٦)، وعلق عليه الهيثمي في المجمع (١/ ٨٥) فقال: (ورجاله موثقون)، ورواه ابن أبي عاصم في "السنة" (١/ ٢٩٠، رقم ٦٣٩)، وضعفه الألباني في تعليقه عليه، وأخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب الأهوال، ح ٨٦٨٢، ٤/ ٦٠٥)، وصحّح إسناده ووافقه الذهبي. وقد جزم الألباني بأنه حسن في صحيح الجامع (١/ ٢٨٤، رقم ١٣٣٤).

(٢) تقدم تخريجه، وهذا لفظ الترمذي في سننه: (كتاب التفسير، باب ومن سورة البقرة، ح ٢٩٥٥، ٥/٢٠٤).

(٣) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٧٨)، وأيسر التفاسير (٣/ ٤٥٥).

(٤) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١١).

(١٨٧) في بيان مراحل خلق الإنسان في هذه الآية ومثيلاتها برهان قاطع على أن القرآن كلام خالق البشر[١]. ذلك أن هذا الوصف الدقيق لمراحل تخلُّق الجنين لا يمكن لإنسان في زمن النزول أن يعرفه إلا بالوحي من الله الذي خلق الناس وعلم دقائق الأمور عن خلقتهم، اللطيف الخبير سبحانه.

(١٨٨) تفيد الآية أن الله تعالى ينزل الماء من السماء؛ وذلك لأن الله تعالى عبر بالإنزال قال: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾، وصرح في آيات أخرى أنه ينزله من السحاب الذي يكون في السماء، فقال مثلا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [سورة الروم: ٤٨].

(١٨٩) تفيد الآية أن الماء مادة لاستبقاء حياة الأرض ومن عليها من الكائنات، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠].

(١٩٠) تفيد الآية أن الأرض تتحرك وتهتز وتزداد وترتفع بهطول الماء عليها بعد أن كانت ساكنة[٢]؛ لأن الله تعالى وصفها بذلك في هذه الآية وغيرها فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾. (ولا يكاد يستعمل الاهتزاز إلا في حركة تصدر عن سرور ونشاط، وَرَبَت: انتفخت وزادت)[٣]، وقد سجلت الملاحظة العلمية أن التربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك ذراتها حركة اهتزاز، وهي تتشرب الماء وتنتفخ، فتربو وترتفع[٤].

(١٩١) تفيد الآية حسن فصل الربيع وفضلَه على سائر الفصول، لأنه هو الفصل الذي تهتز فيه الأرض وتربو بالنبات.

---

(١) ينظر تفسير المدينة المنورة، لنخبة من العلماء (٢/ ٩٤).

(٢) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٤٩)، والكشف والبيان (٧/ ٩)، والتفسير البسيط (١٥/ ٢٧٨)، وتفسير السمعاني (٣/ ٤٢٢).

(٣) غرائب القرآن (٥/ ٦٦).

(٤) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١١)، والأساس في التفسير (٧/ ٣٥٢٩). ينظر آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم، للدكتور زغلول النجار (ص ٣٥١ – ٣٦٤).

(١٩٢) تنبه الآية على أن تعدد النباتات والزروع والثمار واختلاف ألوانها نعمة عظيمة؛ لأن الله تعالى لم يجعل ما تنبته الأرض صنفا واحدا، وإنما جعله أصنافا متعددة، بألوان متنوعة، وبذلك امتن علينا فقال: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧﴾، أي صنف عادلناه بصنف آخر جعلنا تمام نفعه به[(١)]، وقد ذكر الله تعالى هذه النعمة في آية أخرى فقال: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ﴾ [سورة النحل: ١٣] وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾ [سورة فاطر: ٢٧].

(١٩٣) تدل الآية على أن المخلوقات كلها – سواء أكانت جمادًا أو نباتًا أو حيوانًا – لا بُدَّ أن يكون فيها زوجان، كما قال الله في آية أخرى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ [سورة الذاريات: ٤٩]، حتى فيما نرى أنه جمادٌ لا حركةَ فيه، فإنه يتكَّون من زوجين: سالب وموجب في الكهرباء، وفي الذرة، وفي المغناطيس، ولذلك قال سبحانه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٦﴾ [سورة يس: ٣٦]. والزوج في الأصل: كلمة مفردة تدل على واحد معه مثله من جنسه، وهما زوجان[(٢)].

(١٩٤) تدل الآية أن تنوع النباتات والزروع والأزهار واختلاف ألوانها تُبهج النفوس، وتُمْتِع رؤيتُه العيون، وتسر جميع الناظرين[(٣)]؛ وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ

---

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ١٣).

(٢) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧١٢). قال الراغب في المفردات (ص: ٣٨٤): (يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة زوج، ولكل قرينين فيها وفي غيرها زوج، كالخُفّ والنعل، ولكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضاد زوج). وينظر تهذيب اللغة (١١/ ١٠٦)، ولسان العرب (٢/ ٢٩٣).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٧)، والهداية (٧/ ٤٨٤٨)، والتفسير البسيط (١٥/ ٢٧٤)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٦٧)، والكشاف (٣/ ١٤٥)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٠٩).

زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾، أي مبهج[1]. والإبهاج يحصل لكل من يراها، بخلاف جنيها واستعمالها وأكلها فهو خاص بمن يمتلكها[2].

(١٩٥) تشير الآية إلى أن من به كآبة أو حزن فلْيُجِل بصرَه في الحقول والحدائق والبساتين ليزول ما بنفسه ويشعر بالبهجة والسرور؛ وذلك لأن الله تعالى وصف تنوع النباتات بالإبهاج فقال: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾، وقال: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ﴾ [سورة النمل: ٦٠].

(١٩٦) تفيد الآية إلى أن المؤمن ينبغي أن يتفكر فيما يستمتع به من مناظر طبيعية، لا سيما في فصل الربيع، وأن يتذكر عاقبة ذلك كله. وقد قال تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٩٩﴾ [سورة الأنعام: ٩٩].

(١٩٧) يشير التنبيه على إحياء الأرض بإنزال الماء إلى أن البعث سيكون على نحو ذلك، وهو ما أفصح به النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ((ثم يرسل الله – أو قال ينزل الله – مطرا كأنه الطَّل أو الظل فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون))[3]، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في حديث طويل: ((فيرسل الله ماء من تحت العرش كمنيّ الرجال، فتنبت لُحمانهم وجُسمانهم من ذلك الماء، كما ينبت الأرض من

---

(١) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٣)، والهداية (٧/ ٤٨٤٨)، والتفسير البسيط (١٥/ ٢٧٤)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٥).

(٢) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧١٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الفتن من أشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض، ونزول عيسى وقتله إياه، وذهاب أهل الخير والإيمان، وبقاء شرار الناس وعبادتهم الأوثان، والنفخ في الصور، وبعث من في القبور، ح ٢٩٤٠، ٤/ ٢٢٥٨).

الثرى))، ثم قرأ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾ [سورة فاطر: ٩][(١)].

(١٩٨) تومئ الآية إلى مشابهة إخراج الأجساد من القبور بالبعث لإخراج النبات من الأرض؛ ويؤخذ ذلك من أن الله استدل بالإنبات على البعث، وقد جاء هذا المعنى صريحا في آيات، منها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾ [سورة الأعراف: ٥٧].

(١٩٩) تؤذن الآية بأن النبات كما يتوجه من نقص إلى كمال، فكذلك الآدمي يترقى من نقص إلى كمال، وإنما يصل إلى كماله في المعاد الذي أعد له من البقاء والغنى والعلم والصفاء والخلود[(٢)].

(٢٠٠) تشير الآية إلى أن الإرادة المدبرة للأطوار المختلفة التي يمر بها الإنسان إلى وفاته ستأخذه إلى حيث يبلغ كماله الممكن في دار الكمال؛ إذ إن الإنسان لا يبلغ كماله في حياة الأرض، فهو يقف ثم يتراجع ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾، فلا بد من دار أخرى يتم فيها تمام الإنسان وهي الآخرة[(٣)].

---

(١) روى هذا الجزء نعيم بن حماد في "الفتن" (٢/ ٦٤٨، رقم ١٨٢٥)، وأخرجه من حديث طويل ابن أبي شيبة في مصنفه (كتاب الفتن، باب ما ذكر في فتنة الدجال، ح ٣٧٦٣٧، ٧/ ٥١١)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٣٥٤، ح ٩٧٦١)، وعلق عليه الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٣٠): (وهو موقوف، مخالف للحديث الصحيح، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا أول شافع»). وأخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب الفتن والملاحم، ح ٨٥١٩، ٤/ ٥٤١)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وأخرجه كذلك البيهقي في البعث والنشور (بابُ ما جاء في انقضاء الدُّنيا والنفخ في الصُّور، ح ٢٤٩، ص: ٢١٠). وصحح إسناده في شعب الإيمان (١/ ٥٤١).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ١٣)، وقد عزاه للرازي، والسراج المنير (٢/ ٥٣٩).

(٣) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١١).

(٢٠١) في الآية تنبيه على أن من لم يعجزه إيجاد أصناف الأحياء والنباتات، لا يعجزه إعادة الأموات إلى الحياة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [سورة فصلت: ٣٩][(١)].

(٢٠٢) تنبه الآية على أن الله تعالى كما يحيي الأرض والموتى بالماء الحسي، كذلك يحي القلوب القاسية بالماء المعنوي وهو الذكر، فالعاقل يجتهد في إحياء قلبه وتزكيته بالطاعات والأذكار كي يتخلص من ظلمات الشكوك والشرك جليا كان أم خفيا[(٢)].

(٢٠٣) في الآية دلالةٌ على أن ما يتضمنه القرآن الكريم موافق لما هو موجود في الكون، ولا يوجد تناقض بينهما؛ لأن منزل القرآن هو خالق الكون؛ قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣﴾ [سورة الرحمن: ١ – ٣].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧﴾ [سورة الحج: ٦ – ٧].

(٢٠٤) تبين الآية أن غاية ما ذكر الله به من مراحل الخلق وأحوال الإنسان المتعاقبة من حياته إلى موته، وما نبّه عليه من إحياء الأرض بالنبات المقصود منه هو أن يصدّق الناس بأن الله الذي فعل ذلك هو الحق الذي لا شك فيه، كما قال في آية أخرى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [سورة فصلت: ٥٣] وأن يعلموا أن الله تعالى الذي فعل ذلك لا يصعب عليه أن يحيي الموتى، وأنه تعالى قادر على ذلك وعلى كل ما أراد، وليوقنوا بذلك أن الساعة واقعة بلا شك، وأنه تعالى يبعث الموتى من قبورهم[(٣)].

(٢٠٥) في الآية تنبيه على أن لخلق الإنسان أسبابا فاعلية وأسبابا غائية، أما الأولى فهي أنه تعالى واجب الوجود الحق، وأنه قادر على كل مقدور، لا سيما إحياء الموتى، وأن

---

(١) ينظر تفسير الخازن (٣/ ٢٤٩)، والتفسير المنير (١٧/ ١٦٠).

(٢) ينظر روح البيان (٦/ ٩).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٨)، وتفسير ابن عرفة (٣/ ١٨٢).

قدرته لا تظهر إلا إذا تعلقت بالمقدور، فوجب في الحكمة والقدرة إيجاده ثم إيجاد ما يتوقف عليه بقاؤه واستكماله. وأما علته الغائية فهي أن داره الأولى كانت دار تكليف، وقد هيأ الله له دارا أخرى لأجل الجزاء، وذلك لا يحصل إلا بالبعث والنشور[1].

(٢٠٦) تدل الآية على أن الله تعالى هو الحقُّ الثابتُ الوجود، الذي يحِقُّ ثبوته، ويجب وجودُه، على وجهٍ لا يقبل الزوال والعدم[2]، المحققُ لما سواه من الأشياء، ويستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾.

(٢٠٧) في الآية تنبيه على أن كل ما سوى الله تعالى -وإن كان موجودا حقا - فإنه لا حقيقة له من نفسه، لأنه مسخَّر مصرَّف، وهو يستمد وجوده من واجب الوجود، الغني عما سواه، وهو الله تعالى[3]. ويؤخذ ذلك من مفهوم القصر في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، (والقصر إضافي، أي دون غيره من معبوداتكم فإنها لا وجود لها، قال تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [سورة النجم: ٢٣])[4].

(٢٠٨) تومئ الآية إلى أن الإنسان عليه أن يوقن بأن ما يوصف بأنه حقٌّ لا بد أن يكون مستمدا من الله تعالى، وما عدا ذلك فهو باطل، لأنه تعالى وصف نفسه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، فهو الحق المطلق الحقيقي بذاته، ومنه تعالى يأخذ كل حق حقيته[5].

---

(١) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٦٧).

(٢) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٩)، والكشاف (٣/ ١٤٥)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٥)، وتفسير أبي السعود (٦/ ٩٥)، وروح البيان (٧/ ١٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٤).

(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ١٤)، وغرائب القرآن (٥/ ٦٧)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٥١٧)، والتيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٥٨).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٥).

(٥) ينظر المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، لأبي حامد الغزالي (ص: ١٢٧).

(٢٠٩) تدل الآية على أنه لا تنبغي العبادة إلا لله تعالى، لأن عبادة الله حق، وعبادة غيره باطلة[١]؛ وذلك لأن الله تعالى وصف نفسه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، وما دام أنه تعالى حق، فعبادته حق.

(٢١٠) تدل الآية على أنَّ جميع ما يأمر به الله حق، وجميع أفعاله سبحانه حق، وليست من الباطل في شيء[٢]، لأن الله تعالى وصف نفسه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، وقد فسر بأنه "ذو الحق"[٣].

(٢١١) تدل الآية على أن ما ذكر دليل على أن الله هو الحق المبين، (وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله)[٤]. ويؤخذ ذلك من أن الله علّل ما سبق في الآية التي قبلها فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، فعبر باسم الحق، وعدل عن اسم الخالق.

(٢١٢) تومئ الآية إلى أن الله تعالى الذي خلق الإنسان والنباتات وسائر الكائنات هو الحق الذي لا تختلُّ سننه ولا تتخلَّف؛ لأن ما ذكره قبل هذه الآية من تطور الجنين في مراحل تكونه، وتطور الطفل في أطوار حياته، وإنبات النباتات بعد يبسها من السنن الكونية المطردة التي لا تتخلف[٥].

---

(١) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٠)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٦٣)، وتيسير الكريم الرحمن (ص ٥٣٤).

(٢) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٢٧٧).

(٣) ينظر النكت والعيون (٤/ ٣٨)، والتفسير البسيط (١٥/ ٢٧٦)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٤)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٦٣).

(٤) إعلام الموقعين (١/ ١١٢).

(٥) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١١).

(٢١٣) تدل الآية بدلالة المفهوم أن ما سوى الله تعالى مما يعبده المشركون من الأوثان والحيوانات والكواكب والنجوم باطل؛ لأن هذه المعبودات لا تقدر على فعل شيء مما ذكر[(١)]. وهذا ما جاء مصرحا به في آخر السورة حيث قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [سورة الحج: ٦٢]. وفي هذا نقضٌ للشرك الذي هو الأصل لجميع ضلالات أهله[(٢)].

(٢١٤) تدل الآية بدلالة المنطوق أن الله تعالى يحي الموتى بعد موتهم حياة حقيقية ويعيد أجسامهم كما كانت بعد أن صارت رميما، كما قال تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سورة يس: ٧٨ – ٧٩].

(٢١٥) تدل الآية على أن العبد عليه أن يؤمن أن الله تعالى قادر على أن يبعث الموتى ولو تبددت أشلاؤهم، وتقطعت أوصالهم، أو تناثرت ذرات أبدانهم، أو تداخلت مع أجسام أخرى، لأن الله على كل شيء قدير[(٣)].

(٢١٦) تدل الآية على أنه يجب على العبد أن يؤمن بأن الله تعالى متصف بكمال القدرة، فهو قدير على كل شيء، لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه مما أراده شيء[(٤)]، ويستفاد ذلك من منطوق قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٢١٧) تفيد الآية أن المسلم عليه أن يؤمن بأن الله تعالى يختص وحده بالقدرة على كل شيء على الإطلاق، ويؤخذ هذا من تقديم الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ على ﴿قَدِيرٌ﴾ في

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٨)، وتفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٣)، والهداية (٧/ ٤٨٤٩)، وتفسير المراغي (١٧/ ٩٠).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٥).

(٣) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٤٨)، والتفسير المنير (١٧/ ١٦٤).

(٤) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٣)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٥).

قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [1]، وتقديم الجار والمجرور يدل على تأكيد الاختصاص [2].

(٢١٨) تشير الآية أنه لا ينبغي للمؤمن أن يتشكك في كمال قدرة الله تعالى، أو يستبعد على قدرته شيئا، أو ينسبه إلى ما يلزم منه العجز، فإنه منزه عن ذلك، ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى قال: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، فأكد قدرته عز وجل بـ"أنّ" المؤكدة، وذكر لفظ الجلالة الذي يشتمل على وصفه بالكمال، وتنزيهه من كل نقص، ثم أكده بتقديم الجار والمجرور على خبر "أن" [3] كما تقدم.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧﴾ [سورة الحج: ٧].

(٢١٩) تدل الآية بدلالة المنطوق على أن قيام الساعة واقعٌ بلا ريب، فلا ينبغي أن يشك ويمتري فيه الناس [4]، ويستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾. فالتعبير بلفظ ﴿ءَاتِيَةٞ﴾ بدلا من لفظ "ستأتي" للدلالة على تحقق إتيانه، والمراد من نفي الريب في الساعة أنها لا ينبغي أن يحدث فيها شيء من الشك لوضوح أدلتها [5]. فساعة فناء العالم واقعةٌ قياسا على انعدام المخلوقات بعد تكوينها، وعلم أن الله يعيدها قياسا على إيجاد النسل وانعدام أصله [6].

---

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٤٧).

(٢) ينظر روح البيان (١٠/ ٣).

(٣) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٤٧).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٨)، والهداية (٧/ ٤٨٤٩).

(٥) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٨٤ - ١١٨٥).

(٦) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٥).

(٢٢٠) تدل الآية على وجوب الإيمان بقيام الساعة على المسلم، لأن الله تعالى أخبر بقيام الساعة في هذه الآية وغيرها إخبارا قطعيا، والمسلم يجب عليه الإيمان بما أخبر الله تعالى به في كلامه.

(٢٢١) تدل الآية بدلالة المنطوق أن الله تعالى يبعث الموتى جميعًا، فيعيدهم للحياة ليقفوا من أجل الحساب، ثم الثواب أو العقاب[(١)]، ويستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾. ولو لم يكن البعث لضاع على كل ذي حقٍّ حقُّه، ولَتساوى المحسنُ بالمسيء في مصيره، وذلك منافٍ لعدالة الله وحكمته[(٢)].

(٢٢٢) تدل الآية على وجوب الإيمان بالبعث على المسلم، لأن الله تعالى أخبر بالبعث بعد الموت في هذه الآية وغيرها إخبارا قطعيا، والمسلم يجب عليه الإيمان بما أخبر الله تعالى به في كلامه من غير شك أو ارتياب.

(٢٢٣) تفيد الآية بضميمة الآية التي قبلها أن المطالب الخمسة المذكورة فيها مما يجب أن يؤمن به الإنسان، فهي من أصول الاعتقاد التي لا تصح العقيدة بدونها. وقد روي عن معاذ بن جبل أنه قال: (مَن علِم أن الله هو الحق المبين، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور -دخل الجنة)[(٣)].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ [سورة الحج: ٨].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٨)، والإشارات الإلهية (ص: ٤٤٥).

(٢) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٤٦)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٨٥).

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد للإمام أحمد (ص: ١٤٨، رقم ١٠٠٩)، وعزاه ابن كثير في تفسيره (٥/ ٣٩٩) إلى ابن أبي حاتم.

(٢٢٤) تفيد الآية أنه مع سطوع الأدلة العقلية التي احتج بها الله على البعث يبقى فريق من الناس يجادل في الله بغير علم، وهم أئمة الكفر ودعاة الضلال. ويؤخذ ذلك من أن الآية جاءت نسقا بعد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ [(١)].

(٢٢٥) تفيد الآية أن من يُجادل بلا عقل صحيح ولا نقل صريح، إنما يجادل بالباطل اتباعا للرأي والهوى[(٢)]، ولا يتوخّى البحث عن الحق.

(٢٢٦) تشير الآية أن العلم الضروري يُستند إليه في الحِجاج؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾، والمراد بالعلم هنا هو: العلم الضروري[(٣)].

(٢٢٧) تفيد الآية أن الحجج العقلية معتبرة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨﴾، والهدى هو الاستدلال والنظر العقلي الصحيح الموصل إلى المعرفة[(٤)].

(٢٢٨) تفيد الآية أن الحجج النقلية معتبرة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨﴾، والكتاب المنير يشير إلى الكتاب السماوي المظهر للحق[(١)].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٦).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٩)، ونظم الدرر (١٣/ ١٥)، وتفسير المراغي (١٧/ ٩١).

(٣) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٧)، والبحر المحيط (٧/ ٤٨٨)، وأضواء البيان (٤/ ٢٨٠).

(٤) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٧)، وأضواء البيان (٤/ ٢٨٠) زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٤٩).
وقد ذهب الشوكاني (٣/ ٥١٩) إلى تفسير هذه الكلمة بمقتضى اللغة فحسب، فقال: (والأولى حمل العلم على العموم، وحمل الهدى على معناه اللغوي، وهو الإرشاد. والمراد بالكتاب المنير هو القرآن، والمنير: النيّر البيّن الحجة الواضح البرهان، وهو وإن دخل تحت قوله: بغير علم فإفراده بالذكر كإفراد جبريل بالذكر عند ذكر الملائكة، وذلك لكونه الفرد الكامل الفائق على غيره من أفراد العلم. وأما من حمل العلم على الضروري والهدى على الاستدلالي، فقد حمل الكتاب هنا على الدليل السمعي، فتكون الآية متضمنة لنفي الدليل العقلي ضروريا كان أو استدلاليا، ومتضمنة لنفي الدليل النقلي بأقسامه، وما ذكرناه أولى).

(٢٢٩) تفيد الآية ذم الذين يجادلون من غير مقدمة ضرورية ولا نظرية ولا سمعية[٢]، وفي الحديث أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: ((إن أبغض الرجال إلى الله الألَدُّ الخَصِم))[٣].

(٢٣٠) تفيد الآية أن مصادر العلم للإنسان هي أحد هذه الأمور الثلاثة: العلم الضروري، أو الاستدلال العقلي، أو الوحي[٤]. فالعلم الضروري أشير إليه بقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، والاستدلال العقلي أشير إليه بقوله: ﴿وَلَا هُدًى﴾، والوحي أشير إليه بقوله: ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾[٥].

(٢٣١) تدل الآية على أنه يوجد في الناس صنف جاهل يجادل بغير علم، ويتصدّى لكل قضية، آخذًا الطّرف المنحرف منها، دون أن يكون له رأيٌ نظَر فيه بعقله، وهُدىَ إليه بتفكيره[٦].

(٢٣٢) تدل الآية على أن المشركين يجادلون في وحدانية الله بغير علم يثبت بالضرورة، منكرين كل أمر تهدي إليه الفطرة، متجاهلين البدَهيات والحقائقَ الثابتة التي تقرر أن الأوثان لَا تضرُّ ولا تنفع[٧].

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٧)، والبحر المحيط (٧/ ٤٨٨)، وتفسير أبي السعود (٦/ ٩٦)، وروح المعاني (٩/ ١١٧)، أضواء البيان (٤/ ٢٨٠) زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٤٩).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: {وهو ألد الخصام}، ح ٢٣٢٥، ٢/٨٦٧)، ومسلم في صحيحه: (كتاب العلم، باب في الألد الخصم، ح ٢٦٦٨، ٤/٢٠٥٤).

(٤) ينظر تفسير النسفي (٢/ ٤٢٩)، والتفسير المظهري (٦/ ٢٥٦).

(٥) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٧)، والبحر المحيط (٧/ ٤٨٨).

(٦) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٩٢).

(٧) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٤٩).

(٢٣٣) تدل الآية على أن أسوء أنواع المجادلين وأكثفهم طبعًا الذين يجادلون بغير علم من أنفسهم، ولا بهدى من غيرهم، ولا عن كتاب صحيح في أيديهم، لأن جمع الواحد منهم لهذه الجهالات كلها دليلٌ على إغراقه في الجهل وانهماكه في الضلال[(١)].

(٢٣٤) تشير الآية إلى أن من المجادلين في شأن الله من يجادلون بغير علم، ولكنهم يستندون إلى ما علَّمهم إياه المضلّون دون أن يُعملوا عقولهم ويتعرفوا على ما فيه من هدى أو ضلال[(٢)].

(٢٣٥) تشير الآية إلى أن من المجادلين في شأن الله من يجادلون بغير علم، ولكنهم يستندون إلى كتاب محرف قد دخل عليه الافتراء والكذب، فاختلط فيه الحق بالباطل، كشأن اليهود الذين يجادلون في نبوة النبي عليه السلام. ويؤخذ ذلك من مفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨﴾.

(٢٣٦) تفيد الآية بدليل الخطاب جواز المجادلة في الله إذا كان المجادل على علم بالدليل والحجة ليستطيع المدافعة عن دينه، ولذلك قال سبحانه لنبيّه: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [سورة النحل: ١٢٥][(٣)].

(٢٣٧) تدل الآية على أن الجدال الذي يستند إلى العلم أو الهدى أو الكتاب المنير محمودٌ[(٤)]. ويؤخذ ذلك من مفهوم الآية.

(٢٣٨) تومئ الآية إلى أن الجهل وقلة العلم سبب للوقوع في الجدال في الحق، ومن ثم كلما قل العلم زاد الجدال المذموم في الحقائق البينة[(٥)].

---

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ١٥)، وروح البيان (٦/ ٩)، والتفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٩٢).

(٢) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٩٢).

(٣) ينظر لطائف الإشارات (٢/ ٥٣١).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٧)، وروح البيان (٦/ ١٠).

(٥) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ٥).

(٢٣٩) تشير الآية إلى أن مجادلة المقلد – إذا كان مقلدًا هاديا للحق مثل أتباع الرسل – دون مرتبة من يجادل في الله بعلم[١].

(٢٤٠) تفيد الآية أن من الكتب ما يكون له نور يستضاء به في ظلمات الشبهات، ومنه ما لا يكون كذلك. ويؤخذ هذا من منطوق ومفهوم الصفة في قوله تعالى: ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾، أي: نير بين الحجة، ينور قلبه ويضيء له طريق الحق[٢].

(٢٤١) تومئ الآية أن من لم يكن له علم، فعليه ألا يتأبّى على من يهديه إلى الرشد، وألا يعرض عن النظر في الكتب النافعة[٣]؛ لأن الله تعالى ذكر العلم أولا، ثم ذكر الهدى بعده.

(٢٤٢) تفيد الآية أن الجهالة لها درجات، فقد لا يكون عارفًا بالوحي، ولكن له نظر عقلي يهديه إلى الحق، وقد لا يكون قادرا على الاستدلال، ولكنه يعرف البدهيات ويبني عليها.

(٢٤٣) تومئ الآية إلى أن كل جدال لا يقوم على علم يقيني ضروري، أو استدلال عقلي، أو كتاب سماوي، فهو منهار، وصاحبه في ضلال مبين[٤].

(٢٤٤) تشير الآية إلى أن هؤلاء الذين يجادلون في الله – بغير علم بدهي ولا استدلال عقلي، ولا وحي من الله – أهل جدل عقيم لا فائدة منه، وعلى العاقل ألّا يجادلهم؛ لأنه لن يصل معهم إلى شيء، وإنما عليه أنْ ينقلهم إلى مجال لا يحتمل السفسطة[٥]. كما فعل إبراهيم

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٨).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٨)، والهداية (٧/ ٤٨٤٩)، والتفسير البسيط (١٥/ ٢٧٨)، وتفسير السمعاني (٣/ ٤٢٣)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٥)، والفواتح الإلهية (١/ ٥٤٨).

(٣) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٩٢).

(٤) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٨٧).

(٥) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧١٧). والسفسطة: قِيَاس مركب من الوهميات وَالْغَرَض مِنْهُ تغليط الحضم وإسكاته، ينظر التعريفات للجرجاني (ص: ١١٨)، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص: ١٩٤)، وجامع العلوم في اصطلاحات الفنون للتهانوي (٢/ ١٢٣).

عليه السلام مع النمروذ[1]. ويؤخذ ذلك من أن الله أثبت لهم الجهالة من جميع الجهات، ووصفهم بأنهم يفتقدون أي مستند معقول في جدالهم، وهذا يدل على أن شأنهم هو اللجج والمكابرة.

(٢٤٥) تفيد الآية أن العلم الصحيح، والهدى الخالص، والكتاب المنير، كل منهم يوصل إلى معرفة الله التي هي أساس العبادة، التي هي طريق التقوى. ويؤخذ هذا من الربط بين هذه الآية ومقصد السورة من جهة، وبين هذه الآية ومحورها من سورة البقرة من جهة أخرى[2].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾ [سورة الحج: ٩].

(٢٤٦) تفيد الآية أن ثني العطف وليّ العنق مذموم، ولذلك نهى لقمان ابنه عن نحو ذلك فقال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [سورة لقمان: ١٨][3]، أي: لا تمل وجهك عنهم استكبارا عليهم[4].

(٢٤٧) تفيد الآية بضميمة آيات أخرى أن لَيَّ العنق وإمالةَ الخدّ ولَيَّ الرأس والنأي بالجانب كلها من أمارات الصدود والإعراض والاستكبار عن سماع دعوة الحق[5]. كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ [سورة المنافقون: ٥] وقوله تعالى عن لقمان في وصيته لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [سورة لقمان: ١٨]. وقوله تعالى عن فرعون: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾

---

(١) وهو ما قصه الله تعالى علينا حيث قال: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

(٢) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٣٢). ويعني به قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ (البقرة: ٢١).

(٣) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ٩٢).

(٤) ينظر أضواء البيان (٤/ ٢٨١).

(٥) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٧١).

فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ [سورة الذاريات: ٣٨ – ٣٩] وهو بمعنى: ثنى عطفه. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [سورة فصلت: ٥١] إلى غير ذلك من الآيات[١].

(٢٤٨) تفيد الآية بضميمة الآيات الأخرى أن التدرج الطبيعي للإعراض عن الحق يبدأ بلَيِّ الرأس، ثم الجانب، ثم بتولية الدُبُر وجعله من وراء ظهره، كل ذلك فرارا من الجدل، حين لا يقوى على الإقناع[٢].

(٢٤٩) تومئ الآية إلى أن الحركات الظاهرة تدل على المشاعر الباطنة، لأن ثني العطف هو أثر للصدود والإعراض، فأول ما يظهر فيه الصدود عنق الإنسان، يلويها ويصرف وجهه عن الشيء بليّها[٣].

(٢٥٠) تفيد الآية أن الاستكبار من صفات الذين يجادلون في شأن الله بغير علم؛ لأن الله تعالى وصف الذي يجادل بغير علم ولا هدى بأنه يثني عطفه استكبارا عن الحق.

(٢٥١) تفيد الآية إلى أن الاستكبار عن الحق واحتقار الخلق من الذنوب؛ لأن الله تعالى أشار إليه في معرض الذم بقوله: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾.

(٢٥٢) تفيد الآية أن من لا يستند إلى علم أو هدى وليست لديه الحجة ليواجه الحق يحاول تغطية ذلك بالعجرفة والتكبر، ولا يملك إلا ليّ عنقه ونحو ذلك من الحركات[٤].

(٢٥٣) تدل الآية على أن الكبر علةُ الضلال، ولا يصل الإنسان إلى حقيقة الإسلام وفي قلبه مثقال ذرة من كبْر[٥]. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى وصف هؤلاء الضالين المضلين بالاستكبار. وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ

---

(١) ينظر أضواء البيان (٤/ ٢٨١).

(٢) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧١٩).

(٣) ينظر أضواء البيان (٤/ ٢٨٠).

(٤) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١١)، وتفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧١٨).

(٥) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٣٣).

بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٦] وقال عليه الصلاة والسلام: ((لا يدخُلُ الجنةَ من كان في قلبِه مثقالُ ذرّةٍ مِنْ كِبْر))[(١)].

(٢٥٤) تشير الآية إلى أن التكبر عمومًا خلُقٌ مذموم[(٢)]، إذ يئول بصاحبه إلى الإعراض عن الناصحين وردّ الحقّ، ولذلك ورد ذم المتكبرين في القرآن صراحةً في آيات متعددة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة النحل: ٢٣] وقوله سبحانه: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الزمر: ٧٢].

(٢٥٥) تفيد الآية أن من أراد أن يهتدي إلى الحق ويتبع سبيل الله فليحرّر نفسه من الكبْر، وليتبع العلم والهدى والوحي؛ لأن الكبر حجابٌ عن الاهتداء والإذعان للحق.

(٢٥٦) يفهم من هذه الآية أن من ثنَى عِطفه استكبارًا عن الحق وإعراضًا عنه، عامَله الله بنقيض قصده فأذله وأهانه، وذلك الذل هو نقيض ما كان يؤمِّله من الكبر والعظمة. ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ﴾ [سورة غافر: ٥٦]، وقوله لإبليس لما استكبر: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٣][(٣)].

(٢٥٧) تفيد الآية إلى أن دعاة الضلال يلوون رؤوسهم ويُوَلّون ظهورهم لئلا يسمعوا ما يخاطبون به من دلائل الحق؛ لأن الله تعالى وصف هذا الصنف فقال: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود: (كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، ح ٩١، ٩٣/١).

(٢) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٥٩).

(٣) ينظر أضواء البيان (٤/ ٢٨١).

وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝﴾ [سورة المنافقون: ٥] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [سورة لقمان: ٧][(١)].

(٢٥٨) تومئ الآية إلى أن رءوس الضلال يتصفون بالجبروت، ولا يعطفون على الناس ولا يرحمونهم، ويؤخذ ذلك من قراءة الحسن البصري: ﴿ثانيَ عَطفه﴾، بفتح العين، أي: مانعٌ تعطُّفَه[(٢)]، فهو كنايةٌ عن الكبرياء والجبروت؛ لأن ذا الجبروت لا تعطُّفَ له ولا رحمة، كأنه قيل: من الناس من يجادل في الله متجبّرًا في نفسه، ولا يعطِفُ على أحد[(٣)].

(٢٥٩) تدل الآية على أن المجادلين في شأن الله تعالى لا يجادلون دفاعًا عن حق يعتقدونه، وإنما يريدون بجدلهم أن يوهموا الغوغاء ببطلان الإسلام كيلا يتبعوه[(٤)].

(٢٦٠) تومئ الآية إلى أن جُرم الإضلال أقبح وأسوأ من جرم الضلال؛ لأن الله تعالى وصف هذا الصنف فقال: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، بضم الياء: ﴿لِيُضِلَّ﴾، فكأنه لم يكتف بما عليه من جهالة وضلالة، بل زاد إليها إضلال غيرهم وصرفهم عن الحق[(٥)].

(٢٦١) تومئ الآية إلى أن استعلاء الباطل يُغري باتباعه، وإذلال أهل الحق يغري بتركه إلا من ربط الله تعالى على قلبه. ويؤخذ ذلك من أن الله وصف هؤلاء المضلين بالتفاخر بالباطل والكبرياء والاستعلاء، وعلله بأنهم يضلون غيرهم لضعفهم، ولذا قال تعالى: ﴿لِيُضِلَّ

---

(١) ينظر قول ابن زيد في تفسير الطبري (١٦/ ٤٧٠).

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٦).

(٣) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٤٧).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٩).

(٥) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٧).

عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي ليُضل غيره عن طريق الحق ويصدهم عن دين الله[١]، على القول بأن اللام لام التعليل[٢].

(٢٦٢) تومئ الآية إلى أن الضال يجمع بين الجدال بالباطل والتكبر عن سماع الحق ليبقى مستمرا في ضلاله وغيّه. ويؤخذ ذلك من أن الله علّل ما تقدم فقال: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ بفتح الياء: ﴿لِيَضِلّ﴾، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو، في رواية[٣]. أي: يجادل ليَضل في نفسه[٤]، واللام هنا لام العاقبة[٥]، وقيل: لام تعليل، وإنما عبر بها لأنه لما أدّى جداله إلى الضلال، جعل كأنه علة له[٦].

(٢٦٣) تدل الآية على أن الله تعالى يُعاقِب بعض عباده في الدنيا قبل الآخرة، لا سيما إذا كافرا بالبعث، لأن الدنيا أكبرُ همِّه ومبلغ علمه[٧]

(٢٦٤) تفيد الآية أن الخزي والهوان من العقوبات التي يعاقب الله بها بعض عباده في الدنيا؛ لأن الله تعالى ذكر عذاب الخزي فقال: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾[٨]. وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: ((بينما رجل يمشي في حُلة تُعْجِبُهُ نفسُه، مُرَجِّلٌ رأسَهُ، يختال في مِشْيَتِهِ، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة))[٩].

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٧)، زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٥٠).

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٦).

(٣) ينظر السبعة في القراءات (ص: ٢٦٧)، وحجة القراءات (ص: ٤٧٢)، والنشر في القراءات العشر (٢/ ٢٩٩).

(٤) تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٠)، وفتوح الغيب (١٠/ ٤٤٧).

(٥) تفسير القرطبي (١٢/ ١٦)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٢٠).

(٦) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٦)، والبحر المحيط (٧/ ٤٨٨).

(٧) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٩)، والأساس في التفسير (٧/ ٣٥٣١).

(٨) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٣١).

(٩) رواه البخاري في صحيحه: (كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء، ح ٥٤٥٢، ٥/ ٢١٨٢)، ومسلم في صحيحه (كتاب اللباس، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه، ح ٢٠٨٨).

(٢٦٥) تفيد الآية أن الخزي ونحوه من العقوبات الدنيوية لا تكون كفارةً لذنوب الكفار؛ إذ لو كانت مكفرةً عن سيئاتهم لما عذبهم في الآخرة بعذاب النار[١].

(٢٦٦) تدل الآية على أن من الخزي الذي يصيب أئمة الكفر في الدنيا القتلَ والأسْرَ على أيدي المؤمنين. يؤخذ ذلك من أن جمهور المفسرين حملوا الخزي في الآية على ما أصاب زعماء المشركين من الهزيمة والأسر والقتل بأيدي المؤمنين يوم بدر[٢]. كما حصل لأبي جهل من قتله بيد غلامين من شباب الأنصار[٣]، وما حل بالنضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعيْط من أسرهما وقتلهما صبرا[٤].

(٢٦٧) في الآية دلالة على علم الله تعالى بالغيب؛ لأن الله تعالى أخبر في هذه الآية بأمر مستقبل فكان كما أخبر تعالى، فإن كلاً من أبي جهل والنضر بن الحارث قد أذلهما الله وأخذهما ببدر، فأبو جهل قتل وأخذ رأسه، والنضر قتل صبراً، والآية قطعاً نزلت بمكة، فهي من معجزات القرآن الكريم[٥].

(٢٦٨) تدل الآية على أن رءوس الضلال يلحقهم الهوان والذل بما يجري لهم من الذم والذكر القبيح على ألسنة المؤمنين إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠﴾ [سورة القلم: ١٠]، وكقوله تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١﴾ [سورة المسد: ١][٦].

(٢٦٩) تفيد الآية أن دعاة الكفر والضلال يفتضحون في الدنيا قبل الآخرة[١]؛ لأن الله تعالى أخبر أنه يخزيهم في الدنيا فقال: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾، والفضيحة من صور الخزي.

---

(١) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٠).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٧١)، والهداية (٧/ ٤٨٥٠)، والكشاف (٣/ ١٤٦)، والبحر المحيط (٤/ ٤٨٨).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٩).

(٤) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ١٦)، واللباب (١٤/ ٢٨)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٩).

(٥) أيسر التفاسير (٣/ ٤٥٧) الهامش رقم ٢.

(٦) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٧)، تفسير القرطبي (١٢/ ١٦)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٢٠).

(٢٧٠) تفيد الآية أن الله تعالى يعاقب المستكبر في الدنيا بنقيض قصده، وذلك أن الله تعالى أشار في الآية أن الكافر لما استكبر عن آيات الله وثنى رقبته استعلاءً على الحق، لقّاه الله المذلةَ والخزي في الدنيا قبل الآخرة[٢]، فقال: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾. حتى وإن طال زمن استدراجه بتنعيمه حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه[٣].

(٢٧١) تشير الآية إلى أن الحق سيظهر، وأن الباطل سيضمحل، لأنه لا يحصل الخزي لأهل الضلال إلا حين يظهر الحق ويرتفع لواؤه، ويُبطل باطلَه ويُزيل أثرَه[٤].

(٢٧٢) تدل الآية على أنه ما من داعية من دعاة الكفر والضلال، إلا وله من المقت والذم من الناس ما هو حقيق به، وكلٌّ بحسب حاله[٥]. وهذا من الخزي الذي ذكر في الآية.

(٢٧٣) يفهم من الآية أن الله تعالى لا يدع المتكبرين المتعجرفين الضالين المضلّين حتى يخزيهم ويفضحهم ولو بعد حين[٦]؛ فإن الله تعالى أمهل صناديد المشركين، ثم أخزاهم في يوم بدر.

(٢٧٤) يفهم من الآية أن من العباد من يجمع لهم بين العقوبة الدنيوية والعقوبة الأخروية؛ لأن الله تعالى ذكر أن رؤساء الضلال يعذبون بالخزي في الدنيا والنار في الآخرة فقال: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩﴾.

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٤).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٩)، والأساس في التفسير (٧/ ٣٥٣١).

(٣) السراج المنير (٢/ ٥٤٠).

(٤) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٨٧).

(٥) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٤).

(٦) ينظر نظم الدرر (١٣/ ١٥ - ١٦)، وفي ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٢).

(٢٧٥) تفيد الآية أن الناس يقومون في يوم الحساب، ويؤخذ ذلك من أن الله سمّى ذلك اليوم بيوم القيامة؛ وهذا ما بينه قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [سورة المطففين: ٤ – ٦][(١)].

(٢٧٦) تفيد الآية أن عذاب النار في الآخرة عذاب حقيقي لا مجازي؛ لأن الله تعالى ذكر أنه يعذب هؤلاء بالإحراق، وعبر عن إحساسهم بالنار وإدراكهم للألم بالذوق، فقال: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩﴾، أي يجعله يحس بألم الإحراق بالنار كما يحس الذائق بالشيء الحارّ[(٢)].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝١٠﴾ [سورة الحج: ١١]:

(٢٧٧) تفيد الآية أن إضلال الناس يترتب عليه مضاعفة العذاب وفظاعته، إذ عليه وزر من عمل به[(٣)]. ويؤخذ ذلك من الإشارة ب ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي ما ذكر من العذابِ الدنيويّ والأُخرويّ وما فيه من معنى البعد للإيذان بكونه في الغايةِ القصيّةِ من الهول والفظاعةِ[(٤)].

(٢٧٨) تشير الآية إلى أن الأعمال تسبق المكلف إلى دار الجزاء قبل أن يبعث، فإذا جاء يوم القيامة وجد ما عمله حاضرا كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ [سورة الكهف: ٤٩]، ويؤخذ ذلك من التعبير ب ﴿قَدَّمَتۡ﴾ بمعنى: أسلفت[(٥)].

(٢٧٩) تفيد الآية أن ما يلقاه الإنسان من العذاب المعجل والمؤجل إنما هو جزاء ما فعله من الذنوب والمعاصي[(١)].

---

(١) ينظر أضواء البيان (٤/ ٢٨٢).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ١٦)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٥٠).

(٣) ينظر البحر المحيط (٧/ ٤٨٨).

(٤) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ٩٧).

(٥) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٠).

(٢٨٠) تفيد الآية أن المعاصي التي يكتسبها الإنسان سبب لكل شر في الدنيا والآخرة؛ لأن الله تعالى رتب عليها الخزي في الدنيا والإحراق في الآخرة فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، والباء للسببية، أي: ذلك العذاب النازل بك بسبب ما قدمته يداك من الكفر والمعاصي[٢].

(٢٨١) تدل الآية على أن الله تعالى مقسطٌ، لا يعاقب أحدا في الدنيا ولا في الآخرة بغير جرم اقترفه[٣]، وإنما يجزي كل إنسان بما اكتسب، ولذلك قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾.

(٢٨٢) تفيد الآية أن الله تعالى لا يظلم أحدا مثقال ذرة، وإنما يجزيهم بما كسبته أيديهم[٤]، ويؤيد قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الكهف: ٤٩] وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الزخرف: ٧٦].

(٢٨٣) تفيد الآية أن الله تعالى لو عاقب من غير ذنب – معاذ الله – لكانت عقوبته ظلما شديدا لا يتحمله أحد، ولكان ظلّاما، لعظمة قدرته وشدة قوته، ولذلك نفي عنه الظلم بصيغة المبالغة، فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾[٥]. فلو عذب من لا يستحق العذاب لكان قليل الظلم منه كثيرا لاستغنائه عن فعله وتنزيهه عن قبحه[٦].

---

(١) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ٩٢).

(٢) ينظر فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٢٠).

(٣) ينظر الوجيز للواحدي (ص: ٧٢٩).

(٤) ينظر أضواء البيان (٤/ ٢٨٢).

(٥) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٢٣).

(٦) ينظر تفسير النسفي (٢/ ٤٣٠)، وإيجاز البيان (٢/ ٥٧٠)، وباهر البرهان في معاني مشكلات القرآن (٢/ ٩٤٤)، وروح البيان (٦/ ١٠).

(٢٨٤) تشير الآية إلى أن اليد هي الجارحة التي يزاول بها الإنسان أكثر الأعمال، وبها تكون أكثر صور الاعتداء[١]؛ ويؤخذ ذلك من أنها غُلّبت على غيرها وخصت بالذكر فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، مع أن بعض الذنوب ليست من فعل اليد، وإنما هي من فعل القلب واللسان[٢]. ولكن عبر عن الذات باليد، من باب التعبير عن الكل باسم الجزء، وهو من المجاز المرسل، إذْ كان لذلك مزيد اختصاص فيما يساق له القول[٣].

(٢٨٥) تفيد الآية أن الله تعالى يتصف بالعدل؛ لأنه تعالى نفى الظلم عن نفسه، ونفيُ الظلم كناية عن العدل[٤].

(٢٨٦) تفيد الآية أن الله تعالى لا يعذب أحدًا من عباده بغير ذنب فعله[٥]. وإلا لكان ظالما، وقد نفى الظلم عن نفسه فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾.

(٢٨٧) تفيد الآية أن الله تعالى لا يعذب أحدًا من عباده بذنب غيره، لأن الله تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، لا يدي غيرك[٦].

(٢٨٨) تفيد الآية أن الله لا يعاقب بعض عبيده على جرم وهو يغفر مثله من غيره، ولا يحمل ذنب مذنب على غير مذنب فيعاقبه به، ويعفو عن صاحب الذنب، ولكنه لا يعاقب أحدا إلا على جرمه، ولا يعذب أحدا على ذنب يغفر مثله لآخر إلا بسبب استحق به

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ١٦)، ونظم الدرر (١٣/ ١٦).

(٢) ينظر أضواء البيان (٤/ ٢٨٣)، وتفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٢٢)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٨٤).

(٣) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٥٠).

(٤) ينظر التفسير المظهري (٦/ ٢٥٧).

(٥) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٧٢)، وتفسير المراغي (١٧/ ٩٢).

(٦) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٤).

مغفرته، وإلا لكان ظالما، وقد نفى الظلم عن نفسه فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾[1].

(٢٨٩) تفيد الآية أن الله تعالى عادل، يجزي العباد بما عملوه من حسن أو سوء، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٣١﴾ [سورة النجم: ٣١][2]. أما الظالم فقد يترك عقاب المسيء للعصبية كما يترك إثابة المحسن[3].

(٢٩٠) تدل الآية بضميمة آيات أخرى على أن الله يعامل عباده بالعدل والفضل، فعدله أنه لا يعاقبهم إلا بما عملوا من الذنوب، وفضله أنه يضاعف الحسنات، ويعفو عن كثير من السيئات[4].

(٢٩١) تفيد الآية أن الله تعالى بعدله القويم لا يزيد في العقوبة عن مقدار الجرائم والآثام؛ لأن الزيادة عليها ظلم، وقد نفى تعالى الظلم عن نفسه، وقال في آية أخرى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [سورة البقرة: ٢٨١].

(٢٩٢) تومئ الآية إلى أن إنزال العقوبة على إنسان ينبغي أن يكون مرتبا على ما فعله من جُرم، وخلاف ذلك جورٌ وظلم. ويؤخذ هذا المعنى من أن الله تعالى أثبت معاقبة الكفار بما فعلوه، ونفى عن نسه الظلم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾.

(٢٩٣) تدل الآية على أن الكافر يُوبّخ ويقرع ويُهان يوم القيامة، ولذلك يقال له: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ الآية[5]، ومثل ذلك: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ٥٠﴾ [سورة الدخان: ٤٩ – ٥٠] ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٧٢).

(٢) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٩٤)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٥٠).

(٣) ينظر تفسير الإيجي (٣/ ٤٤).

(٤) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٨٤).

(٥) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٥٠)، والفواتح الإلهية (١/ ٥٤٨).

تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾ [سورة الطور: ١٤ – ١٦]، والآيات بمثل ذلك كثيرة[(١)].

(٢٩٤) تشير الآية إلى أن ما يلقاه المضلون من العذاب في الآخرة عذاب شديد، لم يعرفه الناس في حياتهم الدنيا، ويؤخذ ذلك من نفى المبالغة في الظلم عن الله في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾، كأن الناظر إلى عظم هذا العذاب- ليستكثره، ويرى أن لا ذنب- وإن عظم- يستحق به صاحبه بعض هذا العذاب، وحتى إنه لَيقع في نفسه أن ظلما شديدا وقع على هذا الإنسان المنكود، الذي يشوى بنار جهنم على مدى الدهور[(٢)].

(٢٩٥) تشير الآية إلى أن الناس ظلّامون لأنفسهم، فهم الذين يظلمون أنفسهم ويرتكبون المعاصي التي يجزون عليها بالعذاب الشديد. وقد جاء التصريح بهذا المعنى في آيات أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة يونس: ٤٤]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [سورة النحل: ١١٨][(٣)].

(٢٩٦) تدل الآية على أن الله تعالى قادر على أن يظلم، ولكنه امتنع منه، ويؤخذ ذلك من أنه سبحانه تمدّح بأنه لا يفعل الظلم، فوجب أن يكون قادرا عليه[(٤)].

(٢٩٧) تفيد الآية أن الله تعالى لو تصرّف في عباده على أي وجه فتصرفه عدل وهو غير ظالم لهم، لأنهم عبيده، وهو مالكهم، وإليه الإشارة بقوله: ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾. وإنما الظالم: المتعدّي المتحكّم في غير ملكه[(٥)].

---

(١) ينظر أضواء البيان (٤/ ٢٨٣).

(٢) ينظر تفسير الإيجي (٣/ ٤٥)، والتفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٩٤).

(٣) ينظر روح البيان (٦/ ١٠)، وتفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٢٢).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٧).

(٥) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٩)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٦٨)، والبحر المديد (٣/ ٥١٦).

(٢٩٨) تفيد الآية أن تسوية الذين يجادلون في الله ليضلوا الناس مع غيرهم ظلم للعبيد، ولذلك اقتضى عدل الله تعالى أن يعاقبوا بالعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة.

(٢٩٩) تفيد الآية أن الناس لا يملكون أمام حكم الله فيهم شيئا لأنهم عبيده، فهم متصفون بالمسكنة والضعف والعجز وانعدام الحيلة[(١)].

(٣٠٠) تفيد الآية أن الله تعالى لا يعاقب عباده على أمر حتى ينهاهم عنه ويحذرهم منه؛ لأنه لو عاقبهم دون أن ينبههم لكان ظالما لهم، وقد نفى عن نفسه الظلم، ولذلك بين الله تعالى أنه أرسل الرسل ليقوموا بواجب الإنذار، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [سورة الإسراء: ١٥][(٢)].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الحج: ١١].

(٣٠١) تفيد الآية أن الثبات في الدين إنما يكون لو كان غرض المرء منه إصابة الحق وطاعة الله والخوف من عقابه، أما إذا كان غرضه الخيرَ المعجَّل فإنه يُظهر الدين عند السراء ويرجع عنه عند الضرّاء، فلا يكون إلا منافقا مذموما، وهو مثل قوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [سورة النساء: ١٤٣] وكقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النساء: ١٤١][(٣)].

---

(١) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٠٩).

(٢) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٢٢).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٨)، وتفسير المراغي (١٧/ ٩٤).

(٣٠٢) تفيد الآية أن أداء العبادات بشكل ظاهري لا يدل على التقى، فمن الناس من يؤدون العبادات في الظاهر، ولكنهم مذبذبون لا يثبتون على الدين، فيرتدّون عند أول فتنة[١]؛ بل إن المنافقين يؤدون العبادات بشكل ضعيف؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، قال بعض أهل المعاني: يريد على ضعف في العبادة، كضعف القائم على حرف وهو مضطرب فيه[٢].

(٣٠٣) في الآية دلالة على ذم النفاق والتقلّب في الحقّ وعدم الاستقامة عليه، وجعل الموقف منوطا بالنفع الشخصي العاجل ثباتا وانحرافا، والحثّ على والاستمساك بالحقّ والاستقامة على دين الله في السراء والضراء[٣].

(٣٠٤) تفيد الآية أن العبادة لا بد أن يتواطأ عليها القلب واللسان؛ لأن الله تعالى قال في شأن الأعراب الذين يسلمون ولما يثبت الإيمان في قلوبهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، فكأنه يعبد الله بلسانه ويعصيه بقلبه[٤]. وبيانه أن المرء في باب الدين معتمده القلب واللسان فهما حرفا الدين، فإذا وافق أحدهما الآخر فقد تكامل في الدين، وإذا أظهر بلسانه الدين لبعض الأغراض وفي قلبه النفاق جاز أن يقال فيه على وجه الذم: يعبد الله على حرف[٥].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٧٢)، وروح المعاني (٩/ ١١٩).

(٢) ينظر الكشف والبيان (٧/ ١٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٧)، ونسبه الماوردي في النكت والعيون (٤/ ١٠) إلى عليّ بن عيسى.

(٣) ينظر التفسير الحديث (٦/ ١٨).

(٤) ينظر النكت والعيون (٤/ ١٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٧)، وهذا التفسير منسوب إلى الحسن البصري.

(٥) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٨).

(٣٠٥) تفيد الآية أن الأداء الظاهري للعبادات لا يفي بالفلاح إذا لم يسنده التقوى في الباطن. وروي عن الحسن أنه قال: ﴿يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، أي على إيمان ظاهر وكفر باطن[١].

(٣٠٦) تشير الآية إلى أن المحمود في العبد أن يعبد الله في كل الأحوال، شاكرا له عند النعمة، صابرا على المصيبة، راضيا بالقضاء. ويؤخذ ذلك من أنه ذمَّ الذي يعبد الله على وجه الرخاء فقط فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾، أي: من الناس من يعبد الله على الخير يصيبه من تثمير المال، وعافية البدن، وإعطاء السّؤل، فهو مطمئن ما دام ذلك له. وإن امتحنه الله تعالى باللّأواء في عيشه، والضّراء في بدنه وماله، كفر به. فهذا عبد الله على وجه واحد، فدل على أن خلافه محمود[٢].

(٣٠٧) تفيد الآية أن ما كان في باطن النفس من رياء ونفاق ينكشف بعد حين بما يتعرض له من الشدائد؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾، ومعنى انقلابه على وجهه، أن عبادته كانت ظاهرة فقط، ولم يكن يعبده في الباطن في حال السعة، فلما أصابته الشدة ترك عبادته ظاهرا على ما كان باطنه، والله أعلم[٣].

(٣٠٨) تفيد الآية أن من صفات المنافق أنه لا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، فإن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وأصابته شدة أو فتنة أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر[٤].

---

(١) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٠).

(٢) ينظر تأويل مشكل القرآن (ص: ٣١).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٦).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٧٥).

(٣٠٩) تفيد الآية أن من قواطع طريق التقوى تعليق الاستقامة على الدين بحصول الخير الدنيوي. ويؤخذ هذا المعنى من ربط مقصود السورة بالمعنى الإجمالي للآية[١].

(٣١٠) تفيد الآية أن الشك يتنافى مع الإيمان الذي يقتضي الجزم. ويؤخذ هذا من أن الله تعالى وصف المنافقين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، أي: على شك[٢]، وليس على يقين في وعده ووعيده[٣]، فقيل للشاك في دينه أنه يعبد الله على حرف؛ لأنه لو عبده على يقين وبصيرة لم يكن في حرف يسقط عنه بأدنى شيء يصيبه[٤].

(٣١١) تفيد الآية أن المؤمن جازم في إيمانه بالله، موقن بوعده ووعيده. ويؤخذ ذلك من عكس حال المنافقين المذكور في الآية.

(٣١٢) تفيد الآية أنه لا ينبغي أن يلتزم الإنسان بالدين على سبيل التجربة والتردد؛ ويؤخذ ذلك من أن قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ تمثيلٌ لحال المتردد في عمله[٥].

(٣١٣) تفيد الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يشترط على ربه أن يعطيه أمله في الدنيا إن عبده وأطاعه. ويؤخذ هذا من أن الله تعالى قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، وفسره بعضهم، أي: على شرط[٦]، أي: يعبده على شرط إعطاء الرزق والصحة والعافية؛ يقول إن أعطاني أملي عبدته، وإن لم يعطني ذلك لم أعبده[٧].

---

(١) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٣٤).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٥)، والهداية (٧/ ٤٨٥١)، والتفسير البسيط (١٥/ ٢٨٢). وهو قول مجاهد: ينظر النكت والعيون (٤/ ١٠).

(٣) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٢٨٥).

(٤) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٢٨٥).

(٥) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ٩٤)، وفي ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٣)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢١٢).

(٦) وهو قول ابن كامل: ينظر النكت والعيون (٤/ ١٠).

(٧) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٥).

(٣١٤) تفيد الآية أن المنافق يعبد الله تعالى على حالة السعة والرخاء دون حال الضراء؛ لأنه لا يعرف ربه حق المعرفة، فإنما يعبد السعة والرخاء، لأن الله تعالى قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، أي على حال واحدة، وعلى جهة واحدة[(١)]، كأنَّ الخير والخصب ناحية، والضر والشر والمكروه ناحية أخرى، فهما حرفان[(٢)]، فإذا أصابه خير عبده، وإذا أصابه شر ترك عبادته. وبينها تعالى بقوله: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [(٣)].

(٣١٥) تشير الآية إلى أن الشيطان يفتن العبد ويحدثه بالتهوين من شأن الدين إذا أصابته مصيبة أو نائبة. ويؤخذ هذا من قول ابن عباس رضي الله عنه في تفسير الفتنة المذكورة في الآية: (وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت على دينك هذا إلا شرا، وذلك الفتنة)[(٤)].

(٣١٦) تفيد الآية أن كل ما بني على أمر يلحقه التغير فإنه يزول بزواله؛ إذ لما بنى المنافق ثباته على الدين على حصول رغائبه الدنيوية – وكانت الدنيا لا تستقيم على السراء، وإنما تتعاقب فيها أحوال الخير والشر – ارتد عن دينه.

(٣١٧) تفيد الآية أن المؤمن بخلاف ضعيف الإيمان مستسلم لربه ابتداء في كل ما يجريه عليه، راضٍ ابتداء بكل ما يناله من السراء والضراء؛ لأن عبادته لله مبنية على إسلام الوجه لمن له الخلق والأمر سبحانه[(٥)].

---

(١) ينظر غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٧).

(٢) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٢٨٦).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٥)، والكشف والبيان (٧/ ١٠).

(٤) هو جزء من أثر رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٧٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٧٧، رقم ١٣٧٩٩). قال ابن كثير (٥/٤٠١) بعدما نقله عن العوفي عن ابن عباس –: (وهكذا ذكر قتادة، والضحاك، وابن جريج، وغير واحد من السلف، في تفسير هذه الآية).

(٥) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٣).

(٣١٨) تفيد الآية أن المؤمن – ما دام مقرًّا بأن له خالقا يصرفه كيف يشاء، وأنه إن امتحنه بالشدة فهو في ذلك عادل غير ظالم – ينبغي أن يعبده في حال السراء والضراء معًا[(١)]، لا على حال الرخاء؛ لأن المؤمن ينبغي أن يكون بخلاف حال المنافق.

(٣١٩) تفيد الآية أن الراسخ في الإيمان ينبغي أن يعبد الله في حال السراء بالشكر، وفي حال الضراء بالصبر[(٢)]. ويدل على ذلك أن المنافق لا يشكر ربه على الخير، ولا يصبر في حال الشدة، وإنما ينقلب على وجهه. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [سورة إبراهيم: ٥].

(٣٢٠) تفيد الآية أن الصبر على البلاء واجب كل مؤمن، وميزة كل تقى. ويفهم هذا من أن المنافق لا يصبر عند المصيبة وإنما ينقلب على وجهه، والمؤمن بعكسه، يصبر ويحتسب[(٣)].

(٣٢١) تفيد الآية أن تخليط الأسباب الدنيوية بالأسباب الأخروية، وجعل المقارنات الاتفاقية كالمعلومات اللزومية (أصل كبير من أصول الضلالة في أمور الدين وأمور الدنيا؛ لأن الآية نزلت فيمن كان يربط صحة الدين بتيسير أمور دنياه)[(٤)]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كان أحدهم إذا قدم المدينة، فإن صح جسمه ونتجت فرسه مهرًا حسنًا وولدت امرأته غلامًا، رضي به واطمأن إليه. وقال: ما أصبتُ منذ كنت على ديني هذا إلا خيرًا، وإن أصابه وجع وولدت امرأته جارية، وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبتَ مُذْ كنت على دينك هذا إلا شرًا، فذلك الفتنة)[(٥)].

---

(١) ينظر الكشف والبيان (٧/ ١٠)، وتهذيب اللغة (٥/ ١١).

(٢) ينظر تفسير البغوي (٥/ ٣٦٨)، ونظم الدرر (١٣/ ١٧).

(٣) التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٩٠).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢١١).

(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٧٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٧٧، رقم ١٣٧٩٩)، وقد أخرجه البخاري بنحوه مختصرا في صحيحه: (كتاب التفسير، باب ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، ح ٤٤٦٥، ٤/١٧٦٨).

(٣٢٢) تشير الآية إلى أن التشاؤم بما يحل من مصائب وشدائد منافٍ للإيمان، قاطع لطريق عبادة الرحمن. ويؤخذ ذلك مما روي في سبب النزول. وروى عن أبي سعيد الخدري أنه قال: (أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده، فتشاءم من الإسلام، فأتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال: أَقِلْني. فقال: إن الإسلام لا يقال، فقال: لم أصب من ديني هذا خيرا، ذهب بصري ومالي ومات ولدي...)[(١)].

(٣٢٣) تفيد الآية أن للدين طرَفًا ووسطًا، فالمنافق يكون على الطرف، خلافا للمؤمن فإنه يأخذ الوسط. ويؤخذ هذا من التعبير: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، والحرف في اللغة: الطرف، وهو منتهى الجسم، والحرف والطرف والجانب نظائر في اللغة[(٢)]. والانحراف: الانعدال إلى الجانب[(٣)]، وقلم محرف: قد عدل بقطعه عن الاستواء، والحرف منعدل إلى الجانب عن الوسط. وعلى هذا القول أصل الحرف من الميل، وسمي الطرف حرفًا لميله عن الوسط[(٤)]. فالمنافق إذًا مائل عن الوسط.

(٣٢٤) تفيد الآية أن للدين عمقًا من لم يستمسك به فهو معرَّض للافتتان والردة. ويؤخذ هذا من التعبير: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، أي على طرف وجانب منه[(٥)]، ولم يدخل فيه دخول متمكن[(٦)]. وبين الزمخشري وجه الاستعارة هنا فقال: (على طرَف من

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٧٧، رقم ١٣٧٩٩)، والواحدي في أسباب النزول (ص: ٣٠٧). وعزاه الحافظ في الفتح (٨/ ٤٤٣)، والسيوطي في لباب النقول (ص: ١٣٤) إلى ابن مردويه، وذكر الحافظ أن إسناده ضعيف. وعلته فيما يظهر عطية العوفي، قال الحافظ في التقريب (ص: ٣٩٣، رقم ٤٦١٦): (صدوق يخطئ كثيراً، وكان شيعياً مدلساً). وللحديث شاهد ضعيف من حديث جابر أخرجه العقيلي في الضعفاء (٣/ ٣٦٨) والذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ٣٠٠، ترجمة رقم ٦٥٠٣).

(٢) ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٣٦٩)، ولسان العرب (٩/ ٤١)، وتاج العروس (٢٣/ ١٢٨).

(٣) ينظر المغرب في ترتيب المعرب (ص: ١١٢).

(٤) ينظر المحكم (٣/ ٣٠٧)، والتفسير البسيط (١٥/ ٢٨٤ – ٢٨٥).

(٥) ينظر الكشف والبيان (٧/ ١٠)، والهداية (٧/ ٤٨٥٢).

(٦) معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤١٤).

الدين لا في وسطه وقلبه. وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم، لا على سكون وطمأنينة، كالذي يكون على طرف من العسكر، فإن أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن، وإلا فرّ وطار على وجهه)[1].

(٣٢٥) تفيد الآية أن المعتبر في العبادة هو الثبات عليها؛ لأن الله تعالى ذم المنافقين فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، وفسره أبو عبيدة: أي لا يثبت ولا يدوم[2]. والمعتبر هو الثبات القلبي، لأن قوله تعالى: ﴿ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ يشير إلى أنه ثبت على ما هو عليه من عبادة ثباتا ظاهريا، ولكنه ليس ثباتا قلبيا حقيقيا كما هو شأن المؤمنين الصادقين الذين لا يزحزحهم عن إيمانهم خوف أو طمع[3].

(٣٢٦) تفيد الآية أن المنافق لا يحرمه الله من خير الدنيا، فإنه يصيبه ما قدره له منه[4]؛ لأن الله أثبت أنه يصيبه في الدنيا خيرٌ يسكن إليه فقال: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾.

(٣٢٧) تفيد الآية أن المنافق لا يطمئن إلا بالمنفعة الدنيوية: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾، فالمنافق ليس عنده الخير إلا الخير الدنيوي[5].

(٣٢٨) تفيد الآية أن المنافق يغفل عن كون الخير الدنيوي فتنةً يختبر الله بها العباد كذلك، ويؤخذ ذلك من أن التعبير القرآني فرّق بين الخير وجعل مقابله الفتنة وفقا لاعتقاد المنافق: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾، مع أن الخير

---

(١) الكشاف (٣/ ١٤٦).

(٢) مجاز القرآن (٢/ ٤٦)، ونقله عنه بعض المفسرين ينظر تأويلات أهل السنة للماتريدي (٧/ ٣٩٧)، والتفسير البسيط (١٥/ ٢٨٥)، وزاد المسير (٣/ ٢٢٥).

(٣) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٨٥).

(٤) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٢٨٧).

(٥) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٨).

والشر كلاهما فتنة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [سورة الأنبياء: ٣٥][(١)].

(٣٢٩) تفيد الآية أن الشدة ليست قبيحة في ذاتها، وليست شرا محضا، ولذلك لم يقل تعالى: "وإن أصابه شر" مع أنه المقابل للخير؛ لأن ما ينفر عنه الطبع ليس شرا في نفسه، بل هو سبب القربة ورفع الدرجة بشرط التسليم والرضى بالقضاء[(٢)].

(٣٣٠) تشير الآية إلى أن سنة الله في خلقه جاريةٌ بامتحان المنتسبين إلى الإسلام وابتلائهم تمحيصا لهم، وإظهارا لصدق دعواهم للإيمان، ولذلك قال تعالى في آية أخرى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [سورة العنكبوت: ٢]، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾ [سورة محمد: ٣١].

(٣٣١) تومئ الآية إلى أن الحكمة من الفتن هي تمييز الصادقين من المنافقين والمخلصين من المرائين؛ لأن الله تعالى ذكر أن المذبذب حين تصيبه فتنة فإنه يرتد عن الدين ويخلع لباس العابدين. وقد صرح سبحانه بذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ [سورة العنكبوت: ٣].

(٣٣٢) تفيد الآية أن المنافقين لا يرون في ما يختبر الله به العباد إلا وجه الشر فيه، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾، والمراد بالفتنة: البلية والضيق في المعيشة، فيرتد على عقبه، لأن الشر عنده هو الشر الدنيوي فحسب، لأنه لا إيمان له[(٣)].

(٣٣٣) تشير الآية إلى أن قلق النفس عند حلول الشدائد ناشئ عن كون القلب مذبذبَ الإيمان. ويؤخذ ذلك وصف الذي يعبد الله على حرف بأنه: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٨).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٩)، وروح البيان (٦/ ١١)، ومراح لبيد (٢/ ٦٦).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٨).

ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾، وقد فسر الانقلاب على الوجه هنا بأنه عبارة عن القلق، لأنه في مقابلة ﴿ٱطۡمَأَنَّ﴾ [1].

(٣٣٤) تدل الآية على أن الصادق في عبوديته لربه يعبد الله لمراد الله منه، لا لمراده من الله، فمن عبد ربه لمراده منه فهو ممن يعبد الله عَلَى حرف، إن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب عَلَى وجهه، ومتى قويت المعرفة والمحبة لم يُرد صاحبها إلا ما يريده مولاه عز وجل [2].

(٣٣٥) تفيد الآية أن المذبذب في دينه يسقط سقوطًا لا رجوع له إليه ولا حركة له معه، لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾، والإنسان مجبول على المدافعة بكل عضو من أعضائه عن وجهه، فلا يُمكِّن منه إلا بعد نهاية العجز، والمعنى أنه رجع إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر أو الشك رجوعًا متمكنًا [3].

(٣٣٦) تفيد الآية أن المنافق يعاقب في الدنيا قبل مماته بخسارة الدنيا التي كان يحرص عليها وفوات ما كان يؤمّله منها ويسعى إليه من العز والكرامة والغنيمة والذكر الحسن [4]. وقد قال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾: (خسر دنياه التي كان لها يحزن، وبها يفرح، ولها يسخط، ولها يرضى، وهي همُّه وسَدَمه [5]، وطَلِبتُه ونيته، ثم أفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يُعطى بها خيرا، فذلك ﴿هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾) [6].

---

(١) ينظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٦/ ٢٨٥).

(٢) ينظر مجموع رسائل ابن رجب (٣/ ٦٢).

(٣) ينظر نظم الدرر (١٣/ ١٧).

(٤) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٦).

(٥) السدم: الهم، وقيل: هم مع ندم. ويقال: وما له هَمٌّ ولا سَدَمٌ إلاّ ذلك. ينظر الصحاح (٥/ ١٩٤٨)، والمحكم (٨/ ٤٦١).

(٦) تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٧٧، رقم ١٣٨٠٠)، والدر المنثور (٦/ ١٥).

(٣٣٧) تفيد الآية أن أعظم الخسران هو خسران الدنيا والآخرة جميعا، فالمنافق يخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضى، إلى جوار خسارة المال أو الولد، أو الصحة، أو أعراض الحياة الأخرى التي يفتن الله بها عباده، ويخسر الآخرة وما فيها من نعيم وقربى ورضوان[١]. ويؤخذ ذلك من استعمال ضمير الفصل ﴿هو﴾ في قوله تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [سورة الحج: ١١].

(٣٣٨) تفيد الآية أن من الخسارة ما لا عِوضَ له، فهو لا ينحصر في الدنيا فقط، فيمكن أنْ تُعوِّضه أو تصبر عليه، وإنما يمتد للآخرة حيث لا عِوضَ لخسارتها، ولا صَبْر على شِدَّتها. وهذا هو ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾. ومن الخسارة ما يعوَّض، وهي خسارة الدنيا وحدها دون الآخرة[٢].

(٣٣٩) تفيد الآية أن بعض الناس يسهل عليه الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، لكن يصعب عليه الصبر على المصائب لتعلقه بالدنيا[٣].

(٣٤٠) تفيد الآية أن المؤمن يربح الدنيا والآخرة معًا حسب ما قدر له، حتى إن أصيب بمصيبة في الدنيا فإنه سيجد في الصبر عليها والتسليم لله والرضا بقضائه، عزاءً يخفف من مُصابه، ويهوّن من مصيبته[٤].

(٣٤١) تفيد الآية أن المصاب بالمحنة بترك التسليم لقضاء الله والخروج إلى ما يسخط الله: يجمع على نفسه محنتين، إحداهما: ذهاب ما أصيب به، والثانية: ذهاب ثواب الصابرين، وبهذا يخسر الدارين[٥].

---

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٣).

(٢) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٢٨).

(٣) ينظر تفسير العثيمين: جزء عم (ص: ٣١٣).

(٤) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٩٥).

(٥) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٧).

(٣٤٢) تفيد الآية عدم جدوى عِبَادةٍ صاحبُها شاكٌّ في نفعها، غيرُ مؤمن بوجوبها ومشروعيتها[١]. ويؤخذ ذلك من أن الذي كان يعبد الله على حرف لم تنفعه عبادته، بل خسر الدنيا والآخرة.

(٣٤٣) في الآية تنبيه على أنه لا يصحّ أن يؤمن الإنسان إلّا على شرط أن لا يناله إلّا الخير، فالإيمان بالله مسألة مستقلة لا علاقة لها بأعراض الدنيا المتقلّبة على الناس[٢].

(٣٤٤) تفيد الآية أن الله تعالى لا يقبل النفاق في الدين، والمتاجرة بالعقيدة، وإنما يقبل الدين الخالص، والعقيدة الثابتة[٣]؛ لأن هذه الآية الكريمة ذمّت المذبذبين في عقيدتهم، الذين يقيسون العقيدة بميزان الصفقات التجارية، إن ربحوا من ورائها فرحوا، وإن خسروا فيها أصابهم الغم والحزن[٤].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾ [سورة الحج: ١٢ – ١٣].

(٣٤٥) تدل الآية على سخافة عقول المشركين ومن لفّ لفّهم، لأنهم يدعون الأوثان التي لا تضرهم ولا تنفعهم شيئا: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢﴾[٥].

(٣٤٦) تدل الآية على أن كل ما يعبد من دون الله لا تضر الإنسان إن لم يعبدها في الدنيا، ولا تنفعه في الآخرة إن عبدها[١]. فقوله في الآية الأولى: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا

---

(١) أيسر التفاسير (٣/ ٤٥٩).

(٢) ينظر التفسير الحديث (٦/ ١٩).

(٣) التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٩٠).

(٤) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٨٥).

(٥) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٨).

يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾، أي: لا يضره ترك عبادته، وقوله: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾، أي: ضر عبادته.

(٣٤٧) تدل الآية على أن ما سوى الله تعالى لا يضرون أحدًا بشيء، وقد جاء هذا المعنى في آيات أخرى.

(٣٤٨) تفيد الآية أن الاستغناء عن الاستعانة بالله تعالى خسارة في الدنيا وخسارة في الآخرة[٢].

(٣٤٩) تفيد الآية أن الداعية عليه أن يُنفِّر المشركين من الشرك بالله ببيان أنه لا نفع يعود عليهم من ذلك، بل إن ضرر المعبودات الباطلة يعود عليهم في الدنيا والآخرة[٣]: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢﴾.

(٣٥٠) تفيد الآية أن رجاء النفع وخوف الضر أمرٌ تبنى عليه اختيارات الإنسان واتجاهاته. ولذلك ذم الله هؤلاء الذين يدعون ما لا يضرهم ولا ينفعهم.

(٣٥١) تفيد الآية أن المنفرد بالضر والنفع جدير بأن يعبد ويتقرب إليه. ويؤخذ ذلك من مفهوم قوله تعالى: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾.

(٣٥٢) تفيد الآية أن الله تعالى هو نعم الناصر لعباده، لأنه هو الذي ينفعهم ويضرهم. ويؤخذ ذلك من مفهوم قوله تعالى: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾. وقد

---

(١) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٦)، والكشف والبيان (٧/ ١٠)، والهداية (٧/ ٤٨٥٣)، والتفسير البسيط (١٥/ ٢٨٩)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٦٨).

(٢) ينظر تفسير المدينة المنورة (٢/ ٩٦).

(٣) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٥٤).

جاء في آخر السورة التصريح بهذا المعنى حيث قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾.

(٣٥٣) تفيد الآية أن اتقاء الضرر مقدمٌ على تحصيل النفع. ويؤخذ ذلك من تقديم نفي الضر على نفي النفع في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾، فدَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة؛ لأن المفسدة خروج الشيء عن استقامة تكوينه، والنفع يزيدك ويضيف إليك، أما الضر فينقصك، لذلك خَيْر لك أنْ تظل كما أنت لا تنقص ولا تزيد، فإذا وقفتَ أمام أمرين: أحدهما يجلب خيرًا، والآخر يدفع شرًا، فلا شَكَّ أنك ستختار دَفْع الشر أولًا، وتشتغل بدَرْءِ المفسدة قبل جَلْب المصلحة[١]. وفي ذلك إيماء إلى أن المنافق ترك الإسلام عندما أصابته فتنة تجنبا للضر، لتوهمه أن ما لحقه من الضر بسبب الإسلام وبسبب غضب الأصنام عليه، فعاد إلى عبادة الأصنام حاسبا أنها لا تضره[٢].

(٣٥٤) تفيد الآية أن الضلال مراتب، وهي وإن كانت تشترك في البعد عن الحق والصواب، فبعضه أبعد عن الحق من البعض، ويؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢﴾، ومفهومه أن من الضلال ما ليس ببعيد. واستعير الضلال البعيد من ضلال من أبعد في التيه، وطالت مسافة ضلاله[٣].

(٣٥٥) تفيد الآية على أحد الأقوال في تفسيرها أن عبادة الأوثان تضر في الآخرة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾، والمعنى: لمن ضره في الآخرة أقرب من نفعه. وقد قال قبل ذلك: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾، والمراد بذلك أنها لا تضره في الدنيا[٤].

---

(١) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٣١).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٥).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٩).

(٤) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٥٦).

(٣٥٦) تفيد الآية أن الأصنام والأوثان جماداتٌ لا تنفع ولا تضر بوجه من الوجوه، وأن من عُبِد من طغاة البشر المدعين الإلهية كفرعون وغيره -وإن كان منهم نفعٌ ما لعابديهم في دار الدنيا- فضررهم أعظم وأقرب من نفعهم، ويؤخذ هذا من التعبير بـ"مَن" التي هي لمن يعقل في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾. وأتى التعبير عن الأصنام بـ"ما" التي لا تكون لآحاد من يعقل: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ [(١)].

(٣٥٧) تدل الآية على أن بين المرتد وما ارتد إليه نوع سيادة وصحبة، فهو قد أعطى آلهته الجديدة العبودية، وأعطاها الصحبة. يؤخذ ذلك من قوله تعالى عن تلك المعبودات: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾.

(٣٥٨) تفيد الآية أن في دعاء البشر والاستنصار والاستغاثة بهم ضررا أكبر من نفعهم؛ لأن الاعتماد عليهم فيه ضرر عقليٌّ ونفسيٌّ؛ لأن الاعتماد على غير الله تعالى رقٌّ لهذا المخلوق يحدّ من الحرية، ويمنع الانطلاق إلى العمل الصالح؛ ولأنه ضعيف مثله، لَا ينتصر له، ولأنه يجره إلى الشر، وقد يقوده إلى نار جهنم [(٢)].

(٣٥٩) تشير الآية إلى أن بعض ما يعبده الناس من دون الله قد خلقه الله أسبابا لبعض المنافع [(٣)]، ولكن المشركين بعبادتهم إياها يتضررون بها أكثر من انتفاعهم بها.

(٣٦٠) تفيد الآية أن النفع الذي يتوهمه المشركون في عبادة الأوثان ليس له تحصيل ولا حقيقة؛ لأن الله تعالى نفى النفع في موضع فقال: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾، وأثبته في موضع فقال: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾. فالنفع موجود في ظنهم، ولكنه لا يوجد على الحقيقة.

---

(١) ينظر البحر المحيط (٧/ ٤٩٠).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٥٣).

(٣) ينظر درج الدرر في تفسير الآي والسور (٢/ ٣٣٢).

(٣٦١) تشير الآية أن كل من رجا نفعا في غير الله، وغفل عن الله تعالى والاستعانة به، فلن يجد أي نفع، بل سيجد ضرر ذلك[١].

(٣٦٢) تفيد الآية أن الكافر يقول يوم القيامة نادما بدعاء وصراخ، حين يعذَّب بسبب معبوده الذي ارتد إليه، ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها لها واعتقد أنه سينتفع بها: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾، أي المولى الذي ضرره أقرب تحققا من نفعه، والله لبئس المولى الذي يتخذه الإنسان لنفسه ناصرا، ولبئس الصاحب الذي يصطفيه لنفسه عشيرا، فكيف بما هو ضرر محض لا نفع فيه؟[٢] وهذا على تفسير ﴿يَدۡعُواْ﴾ هنا ب: يقول[٣]. والجملة في موضع نصب محكية ب﴿يَدۡعُواْ﴾ [٤].

(٣٦٣) تفيد الآية أن الولاية الكاملة لا تنبغي إلا لمن يكون توقع النفع منه والضر على حدٍّ سواء، لقدرته على كل منهما باختياره، ويؤخذ هذا من أنه المدعو من دون الله لما كان لا يضر ولا ينفع، ولو فرض توقع نفعه أو ضره لكان خوف ضره أقرب من رجاء نفعه، استحق غاية الذم فلذلك استأنف تعالى وصفه بقوله معبرًا في ذمه بالأداة الموضوعة لمجامع الذم فقال: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ [٥].

---

(١) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ٧).

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٧)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٦٧)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٣١)، وتفسير أبي السعود (٦/ ٩٨)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٩٠).

(٣) وهو قول الأخفش في معاني القرآن (٢/ ٤٥٠)، وتبعه عليه بعض المفسرين، وعلى رأسهم الزمخشري (٣/ ١٤٧).

(٤) ولكن تعقب أبو حيان هذا التفسير في البحر المحيط (٧/ ٤٩١) فقال: (قيل: هو فاسد المعنى، لأن الكافر لم يعتقد قط أن الأوثان ضرها أقرب من نفعها).

(٥) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٢٠).

(٣٦٤) تفيد الآية أن العشير لا يصلح إلا إن كان مأمون العاقبة مرجو النفع، ويؤخذ هذا من أن المدعو لما كان يخشى ضرره ذمه الله بقوله: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾، لكونه ليس مأمون الضر فهو غير صالح للعشرة بوجه من الوجوه[(١)].

(٣٦٥) تفيد الآية أن المقصود من المولى والعشير حصولُ النفع ودفعُ الضرر، فإذا لم يحصل شيء من هذا، فإنه مذموم ملوم على موالاته ومعاشرته؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [(٢)].

(٣٦٦) تفيد الآية أن من لا يعينك وقت الشدة، ولا يساعدك وقت الضيق، ولا ينصرك إذا احتجتَ لِنُصْرته، لا يستحق أن تتولاه[(٣)]. والمولى: هو كل من انعقد بينك وبينه سبب، يجعلك تواليه ويواليك، وتناصره ويناصرك[(٤)].

(٣٦٧) تفيد الآية أن العشير بخلاف المولى، لا يقوى على نصرتك، وإنما يراد منه أنْ يصاحبك ويُسليك ويجالسك وتأنس به. ويؤخذ هذا من عطف العشير على المولى، والعطف يدل على المغايرة[(٥)].

(٣٦٨) تفيد الآية بعمومها أن كل ما عبد من دون الله وصرفت له العبادة والتعظيم – من الأوثان وطواغيت الإنس والجن – فإنه بئس الناصر الصاحب، وبئس المعاشر المصاحب؛ لأن الآية جاءت بالاسم الموصول "ما" الذي يفيد العموم لكل مشمولاته[(٦)].

---

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٢٠)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢١٦).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٥)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢١٦) حيث قال ابن عاشور: (شأن المولى جلب النفع لمولاه، وشأن العشير جلب الخير لعشيره فإذا تخلف ذلك منهما نادرا كان مذمة وغضاضة، فأما أن يكون ذلك منه مطردا فذلك شر الموالي).

(٣) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٣٢).

(٤) التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٨٦).

(٥) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٣٣).

(٦) ينظر التفسير المأمون (٥/ ١٦٣).

(٣٦٩) تدل الآية على أن الشيطان لا يفارق من يعبده، فهو يصاحبه ويخالطه في كل وقت، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾، فأثبت له أنه كالصاحب الذي يعاشره ويصاحبه ويخالطه، ولا يكاد يفارقه[(١)].

(٣٧٠) تفيد الآية أن الرؤساء الذين يطيعهم المشركون والمنافقون ويفزعون إليهم بئس مصاحبتهم ومخالطتهم؛ ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى قال: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾، ووصف المعاشرة أليق بالرؤساء، لأن ذلك لا يكاد يستعمل في الأوثان[(٢)].

(٣٧١) يستفاد من الآيتين السابقتين أن رأس تقوى الله هو تنزيهه عن النقائص، وفي مقدمة ذلك تنزيهه عن الشركاء باعتقاد وحدانيته في الإلهية[(٣)]، وعبادته وحده دون سواه. ويؤخذ ذلك من ربط موضوع هاتين الآيتين ونحوهما بمقصد هذه السورة الذي أعلن عنه مطلعها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الحج: ١٤].

(٣٧٢) تفيد الآية أن عبادة المؤمنين حقيقية لا صورية، وأن معبودهم ينفعهم ويعطيهم أعظم المنافع في الآخرة، وهو الجنة. ويؤخذ هذا من الإتيان بهذه الآية عقب الآيات السابقة التي بينت زيفَ عبادة المذبذبين، وأن معبودات المشركين تضرهم في الدار الآخرة[(٤)].

(٣٧٣) تفيد الآية أن الإيمان- لكي يكون إيمانا صحيحا- لا بد أن يصحبه عمل، فالإيمان بلا عمل، كلا إيمان[(١)]؛ لأن الله تعالى دائما يقرن الإيمانَ بالعمل الصالح كما في هذه الآية وغيرها.

---

(١) ينظر غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، وتفسير الطبري (١٦/ ٤٧٧)، وتفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٧).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٩)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٥٠).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٦).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٠).

(٣٧٤) تفيد الآية أن الإيمان والعمل الصالح هو السبب الذي يستحق به العباد أن يرحمهم الله ويدخلهم الجنة؛ لأن الله وصف هؤلاء العباد بالإيمان والعمل الصالح تنبيها على علة دخولهم للجنة.

(٣٧٥) تفيد الآية أنه لا بد من أداء الفرائض وبعض النوافل لدخول الجنة، لأن الله لم يخص الفرائض وحدها، وإنما قال: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهي تشمل الفرائض التي افترضها الله عليهم والنوافل التي رغبهم فيها[٢].

(٣٧٦) تفيد الآية أن الأعمال التي تكون على الوجه الذي تعلّق به الإيمان، هي التي تصلح للقَبول، وتصلح للثواب، وأخذ من تسمية الأعمال بالصالحات: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٣].

(٣٧٧) تفيد الآية أن لكل مؤمن جنتَه. ويؤخذ هذا من الإتيان بصيغة الجمع: ﴿جَنَّٰتٍ﴾، فتعددت بتعدد أصحابها[٤].

(٣٧٨) تفيد الآية أن مستقر المؤمنين فيه أشجار مثمرة على وجه الحقيقة، ويؤخذ ذلك من تسميتها بجنات، (والجنة البستان الذي فيه أشجار مثمرة، سميت بها لاجتنانها وسترها بالأشجار)[٥].

(٣٧٩) تفيد الآية أن في الجنة أنهارا جارية على وجه الحقيقة، ويؤخذ ذلك من منطوق هذه الآية ومثيلاتها في القرآن الكريم[٦].

---

(١) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٠٣).

(٢) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٦٠).

(٣) ينظر لطائف الإشارات (٢/ ٥٣٣).

(٤) ينظر الكشاف (٤/ ١٤٧).

(٥) تفسير البغوي (١/ ٧٣).

(٦) ينظر حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم (ص: ١٧٨).

(٣٨٠) تفيد الآية أن الأنهار تجرى في أرجاء الجنة وتنساب في جوانبها، وتحت أشجارها، وبين قصورها. فيصفو جوها ويرق هواؤها، وتطيب إقامة أهلها فيها، ويكتمل نعيمهم فيها[(١)]. لأن الله تعالى قال: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾، وإن أريد بالجنات الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر، وإن أريد بها الأرض، فلا بد من تقدير مضاف؛ أي: من تحت أشجارها؛ وإن جُعلت عبارةً عن مجموع الأرضِ والأشجارِ، فاعتبارُ التَّحتيَّةِ بالنَّظرِ إلى الجزءِ الظاهِرِ المصحِّح لإطلاقِ اسمِ الجنَّةِ على الكلِّ[(٢)].

(٣٨١) تفيد الآية أن الماء ذاتي في الجنة، لا يأتيها من مكان آخر ربما ينقطع عنها، بل هو دائم، ويؤخذ من زيادة "من" في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ [(٣)]. خلافا لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [سورة التوبة: ١٠٠] فالتعبير ب ﴿مِن﴾ في الآية الأولى يشير إلى تضمين فعل آخر وهو: ينبع، فمعنى الآية: أي ينبع الماء من تحتها ثمّ يجري تحت الأشجار[(٤)].

(٣٨٢) تفيد الآية أن الجنات تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهارُ الماء واللبن والخمر والعسل، الخالية من الآفات المعهودة في الدنيا. ويؤخذ هذا من الآية بضميمة قوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [سورة محمد: ١٥]الآية[(٥)].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٧٨)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٨)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٠٢).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ٩٩).

(٣) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٣٥). وقد ذكر الرازي في تفسيره (٢٨/ ٤٤) هذا المعنى على أنه مما تحتمله الآية: (ذكرنا مرارا أن من في قوله: ﴿مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ يحتمل أن يكون صلة، معناه: تجري تحتها الأنهار، ويحتمل أن يكون المراد أن ماءها منها، لا يجري إليها من موضع آخر).

(٤) الكشف والبيان (٥/ ٨٦).

(٥) ينظر صفوة التفاسير (٢/ ٢٥٩). قال ابن القيم في حادي الأرواح (ص: ١٧٩): (فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة، ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا، فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه، وآفة

(٣٨٣) تشير الآية أن جريان الأنهار وسط البساتين يضفي عليها جمالا، ويُشعر المتنزهين فيها بالراحة، ويدخل السرور على النفوس. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى ما جعل هذا الأمر في الجنة لأنه جزء من النعيم الذي يسعد به أهلها[١].

(٣٨٤) تومئ الآية إلى أن المؤمن عليه أن يعتقد أن الله تعالى يدخر للمؤمنين من النعيم في الآخرة ما هو خير من عرض الحياة الدنيا كله[٢]، وأن خسارة شيء من متاع الدنيا في سبيل الله لا يساوي شيئا في جنب نعيم الجنة. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى ذكر هذه الآية في مقابل الآيات السابقة التي ذكر فيها عقاب المنافقين في الدنيا والآخرة، ولكنه ذكر ثواب المؤمنين في الاخرة فقط.

(٣٨٥) يستفاد من الآية أن نعيم الدنيا ليس لها شأن عند المؤمنين؛ لأن الله تعالى اقتصر في هذه الآية (على ذكر ما للمؤمنين من ثواب الآخرة دون ذكر حالهم في الدنيا، لعدم أهمية ذلك لديهم ولا في نظر الدين)[٣]. وفي الحديث: ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء))[٤].

(٣٨٦) تفيد الآية إثبات صفة الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن الله تعالى أثبت هذه الصفة لنفسه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾.

---

اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة، وأن يصير قارصا، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي في اللذة وشربها، وآفة العسل عدم تصفيته).

(١) ينظر الثواب والعقاب في سورة الحج: دراسة موضوعية، د. عبد الله بن إبراهيم الوهيبي، مجلة جامعة الإمام، العدد ٣٨، سنة ١٤٢٣هـ (ص ٦٢).

(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٧).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه: (كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل، ح ٢٣٢٠، ٤/ ٥٦٠)، واللفظ له، وأخرجه ابن ماجه في سننه: (كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، ح ٤١١٠، ٢/ ١٣٧٧).

(٣٨٧) تفيد الآية أن إرادة الله ماضية، لا دافع له ولا مانع[١]. كما قال تعالى في آيات أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾.

(٣٨٨) تشير الآية إلى سلطان الله وقدرته ومشيئته المطلقة، وأنه يفعل ما يريد، دون معترض أو معوق، أو معقب[٢].

(٣٨٩) في الآية تعريض بالآلهة التي يعبدها الضالون من دون الله، حيث هي في قيد العجز، لا تملك ضرّا ولا نفعا[٣].

(٣٩٠) تفيد الآية أن الله تعالى يفعل ما يريد من إكرام من يطيعه، وإهانة من يعصيه، فيعطي ما شاء من كرامته لأهل طاعته، ويمنحهم ضُروبًا من الفضل والإحسان، زيادة على أجورهم، كما قال تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾ [سورة النساء: ١٧٣] ويحرم أهل معصيته من فضله، ويذيقهم ما شاء من العذاب والهوان[٤]؛ لأن الله تعالى عقب ذكر إثابته لأهل الإيمان بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾، وهذه الجملة تعليل لما قبلها؛ أي: يفعل ما يريده من الأفعال، لا يسأل عما يفعل، فيثيب من يشاء، ويعذب من يشاء[٥].

(٣٩١) تدل الآية على أن المؤمن لا يستوجب دخول الجنة بطاعته على الله، وإنما يدخلها بفضل الله ورحمته[٦]. كما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: ((لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة. قالوا: ولا أنت؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضلٍ ورحمة))[١].

---

(١) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٦٧).

(٢) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٩٩).

(٣) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٩٩).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٧٨). والهداية (٧/ ٤٨٥٦)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٠٦)، وتفسير أبي السعود (٦/ ٩٩)

(٥) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ٩٩)، وحدائق الروح والريحان (١٨/ ٢٦٢).

(٦) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٠٧).

(٣٩٢) احتج بعض أهل السنة بهذه الآية على خلق أفعال العباد، لأنهم مجمعون على أنه سبحانه يريد من عباده الإيمان إرادة شرعية، ولفظة "ما" في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ موصولية تفيد عموم المراد، فوجب أن يكون فاعلا للإيمان[٢].

(٣٩٣) تفيد الآية أن الله تعالى ينعم عباده المؤمنين بما شاء من أنواع النعيم، وكل ذلك يسير عليه ولا يمتنع منه؛ لأن الله تعالى ذكر أنه يفعل ما يريد بعدما ذكر أنه يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، ولما كان هذا أمرًا باهرًا دل على سهولته بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾[٣].

(٣٩٤) تفيد الآية أن الأمور بيد الله، فلا ينبغي لأحد أن يسخط من قضاء الله، ولا ينقلب إذا أصابته فتنة، ويؤخذ هذا من ربط قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾، بالآية التي سبقتها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، ح ٥٣٤٩، ٥/٢١٤٧)، ومسلم في صحيحه: (صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، ح ٢٨١٦، ٤/٢١٧٠).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٠). وينظر كذلك الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، لأبي الحسين العمراني (١/ ٣٠٨). وأظهر دليل على خلق أفعال العباد هو قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ (الصافات: ٩٦)، ينظر خلق أفعال العباد للبخاري (ص: ٤٦)، والإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري (ص: ٢٣)، والتوحيد للماتريدي (ص: ٢٤٧)، وتمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل للباقلاني (ص: ٣٤٣)، وقواعد العقائد للغزالي (ص: ١٩٤)، والفتاوى الكبرى لابن تيمية (٦/ ٦٥٦)، وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ١١٠)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (ص: ٤٤٢).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٢١).

(٤) ينظر التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٥)، والبحر المديد (٣/ ٥٢٠).

(٣٩٥) تفيد الآية أنه سبحانه هو المتصرِّف كما يريد هو، لَا كما يريد ذوو الأهواء، ومنهم من يدعو ما لَا يضر وما لا ينفع، ومنهم من يستنصرون بالموالي والعشراء، ويحسبون فيهم القوة والنصرة. ويستفاد هذا من الربط بين هذه الآية وسابقاتها[(١)].

(٣٩٦) تفيد الآية أن الله سبحانه فاعل مختار، لَا تصدر عنه الأشياء صدور العِلَّة عن معلولها، ولا السبب عن سببه، كما ضل الفلاسفة وغيرهم ممن اتبعهم. وقد أكد سبحانه القول بتأكيدات ثلاثة، أولها: ﴿إِنَّ﴾، وثانيها: لفظ الجلالة الذي يتضمن الوصف بكل كمال، وثالثها: التعبير بالمضارع ﴿يَفْعَلُ﴾ الذي يدل على أنه سبحانه فعل ما أراد، ويفعل دائما ما يريد[(٢)].

(٣٩٧) تدل الآية أن كل إنسان يقول بأنه يفعل ما يريد إما واهم أو كاذب، مهما بلغت قدراته وإمكاناته[(٣)]؛ لأن الله تعالى وصف نفسه بأنه يفعل ما يريد، والله جل جلاله لا يماثله ولا يشابهه أحد في صفاته.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحج: ١٥].

(٣٩٨) في الآية دلالة على أن الله تعالى هو الذي ينصر عباده في الدنيا، وفي مقدمتهم النبي عليه الصلاة والسلام. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [سورة غافر: ٥١].

(٣٩٩) في الآية تنبيه على أن النبي صلى الله عليه وسلم منصورٌ لا يُغلَب، وأن النصر لن يَمنع منه مانعٌ، مهما فعل الكافرون[(٤)]. فقد قيل في معنى الآية: من كان يظن أن الله لن

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٥٥).
(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٥٥).
(٣) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ٧).
(٤) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٨٩).

ينصر نبيه في الدنيا والآخرة، فليطلب سببًا يصل به إلى السماء، وليقطع نصر الله عن نبيه، ولينظر هل يتهيأ له هذا أو ذاك، أو هل يستطيع أن يزيل بكيده وحيلته ما يغطيه من نصر الله لنبيه، فإنما هذا دلالة على ما لا يتهيأ لهم، ولا يقدرون عليه[(١)].

(٤٠٠) في الآية إشارة إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام منصور في الآخرة بعلو المنزلة وتبوء المقام المحمود، والحوض المورود، والاختصاص بالشفاعة العظمى[(٢)].

(٤٠١) تفيد الآية أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، لأن الآية فيها نوع من الاختصار، والتقدير: إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، فمن كان يظن من حاسديه وأعدائه أن الله يفعل خلاف ذلك ويغيظه أنه يظفر بمطلوبه، فليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيظه، بأن يفعل ما يفعله من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مد حبلا إلى سماء بيته فاختنق، فلينظر إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه؟[(٣)]. هذا على القول بأن الهاء ترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قول أكثر المفسرين[(٤)]. (ويجوز في اللغة الإضمار في الكناية وإن

---

(١) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٥٨).

(٢) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥١)، والنكت والعيون (٤/ ١٢)، وأوضح التفاسير (١/ ٤٠٢).

(٣) الكشاف (٣/ ١٤٧)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٦٧).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٧٩)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٤١٧)، والكشف والبيان (٧/ ١١)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٠٧). روى الطبري (١٦/ ٤٨٠) عن التميمي قال: (قلت لابن عباس: أرأيت قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحج: ١٥). قال: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدًا، فليربط حبلًا في سقف، ثم ليختنق به حتى يموت). وأخرجه الحاكم مختصرًا في المستدرك: (كتاب التفسير، تفسير سورة الحج، ح ٣٤٥٣، ٢/ ٤١٨)، وصححه ووافقه الذهبي، وعلقه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٦٦) مختصرًا بصيغة الجزم، فقال: وقال ابن عباس (بسبب): (بحبل إلى سقف البيت).

لم تكن مذكورة إذا كان الأمر ظاهرًا)[1]. واختصر الكلام دلالة على أنه صلّى الله عليه وسلّم العلَم الذي لا يشتبه، وأن الكلام فيه وله ومعه وإن ذُكِر غيرُه بتبعية ذكره[2].

(٤٠٢) تفيد الآية أنه مهما فعل الحساد والأعداء من مكايد لإحباط دعوة الإسلام وهزيمة المسلمين فإنهم لن يفلحوا ولن يصلوا إلى شيء، لأن الله سيُظهر دينه وينصر جنده[3]؛ ذلك لأن تقدير الآية: من كان يغيظه ذلك من حساده وأعدائه ويظن أن الله تعالى لن ينصره بسبب ما يفعله ليرده به من المكايد، فليبالغ في استفراغ جهده، (فقصارى أمره وعاقبة مكره أن يختنق حنقًا مما يرى من ضلال مساعيه وعدم إنتاج مقدماته ومباديه)[4].

(٤٠٣) تفيد الآية أن دين الله ظاهر على سائر الملل، لأن نصرة الله لنبيه تكون بإظهار دينه وغلبته لها[5]؛ لأن بعض المفسرين فسروا الآية: ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجته والانتقام ممن كذبه[6].

(٤٠٤) تتضمن الآية تيئيس الكافرين، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره، ولو كره الكافرون، فإنهم مهما فعلوا لن يمنعوا الدين من الظهور أو يدفع نصرة الله لنبيه وأتباعه[7]؛ لأن المقصود من قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ

---

(١) تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥١). قال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٢١): (والنبي صلى الله عليه وسلم وإن لم يجر ذكره فجميع الكلام دال عليه، لأن الإيمان هو الإيمان بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم، والانقلاب عن الدين انقلاب عن الدين الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم).

(٢) روح المعاني (٩/ ١٢١).

(٣) ينظر التفسير المنير (١٧/ ١٧٤).

(٤) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ٩٩).

(٥) ينظر معاني القرآن للفراء (٢/ ٢١٨)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٠٨).

(٦) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٠).

(٧) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٥).

﴿يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾ زجر للكفار عن الغيظ فيما لا فائدة فيه[١]، والمعنى أنه إذا لم يتهيأ له الكيد والحيلة بأن يفعل مثل هذا لم يصل إلى قطع النصر[٢].

(٤٠٥) تدل الآية على أن الله تعالى سيرزق نبيه في الدنيا والآخرة. ويؤخذ هذا من تفسير النصرة في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بالرزق، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن معناها: (أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة)[٣]. وهو قول أبي عبيدة، وحكى أهل اللغة أنه يقال: أرض منصورة، أي ممطورة، كأن الله أعطاها المطر، وذكروا عن بعض الأعراب أنه قال: من ينصرني نصره الله، أي من يعطني أعطاه الله. وحكوا أيضا سماعا منهم: نصر المطر أرض كذا: إذا جادها وأحياها. واستشهد لذلك ببيت الفقعسي[٤]:

وإنك لا تعطي امرَأً فوق حظه... ولا تملك الشقَّ الذي الغيثُ ناصرُه[٥]

(٤٠٦) تفيد الآية أن أصل النصر من السماء. ويؤخذ هذا من تفسير ابن زيد للآية حيث قال: (من كان يظن أن لن ينصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم، ويكابد هذا الأمر ليقطعه عنه ومنه، فليقطع ذلك من أصله من حيث يأتيه، فإن أصله في السماء، فليمدد بسبب إلى السماء...[٦]. أي (فليقطع مادة النصرة منا، فإن النصرة ثابتة من السماء)[١].

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١١).

(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ٢١).

(٣) وروي مثله عن مجاهد، ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٨١).

(٤) هو سبرة بن عمرو الفقعسي، وهو شاعر جاهلي. ينظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي (١/ ٨٠).

(٥) ينظر مجاز القرآن (٢/ ٤٦ – ٤٧). ومشكل القرآن لابن قتيبة (ص ٣٦٥)، وتفسير الطبري (١٦/ ٤٨٠)، ومعاني القرآن للنحاس (٤/ ٣٨٨).

(٦) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٧٩). وقد رد الواحدي في التفسير البسيط (١٥/ ٣١٤): (وهذا التفسير لا يوافق معنى قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ لأن من ظن ذلك لا يقال له: إن كنت تظن أنه غير منصور فاقطع النصر عنه. ولو كان أول الكلام: من يغيظه أن ينصره الله، أو ما أشبه هذا؛ حج تفسير ابن زيد، وليس في أوائل الآية: من أراد أن يكايده، أو يقطع النصر عنه، أو شيء من هذا المعنى الذي بني ابن زيد تفسير باقي الآية عليه). وقال أبو السعود في تفسيره (٦/ ٩٩): (ويأباه أن مساق النظم الكريم بيان أن الأمور المفروضة على تقدير وقوعها وتحققها

(٤٠٧) تفيد الآية أن أساس قوة هذا الدين هو الوحي الذي يستند إليه من الله تعالى. ويؤخذ هذا من تفسير ابن زيد للآية حيث قال في بيان مفعول ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾: (...فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع عن النبي صلى الله عليه وسلم الوحي الذي يأتيه...)[٢].

(٤٠٨) تفيد الآية أن استعجال المتشككين نصْر الله محمدا ودينه لن يؤخر ما قضى الله له من ذلك عن ميقاته، ولا يعجل قبل حينه؛ وذلك أن الله تعالى ذكر قوما يعبدونه على حرف، وأنهم يطمئنون بالدين إن أصابوا خيرا في عبادتهم إياه، وأنهم يرتدون عن دينهم عندما تصيبهم شدة فيه، ثم أتبع ذلك هذه الآية توبيخا لهم على ارتدادهم عن الدين أو شكهم ونفاقهم، استبطاءً منهم للسعة في العيش أو الوفرة في الرزق. فمعنى الكلام إذن: من كان يحسب أن لن يرزق الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته في الدنيا فيوسع عليهم من فضله فيها، ويرزقهم في الآخرة من سني عطاياه، استبطاءً منه فعل الله ذلك به وبهم، فلْيمدُدْ بحبل إلى سماء فوقه، إما سقف بيت أو غيره، ثم يختنق إذا اغتاظ من بعض ما قضى الله فاستعجل انكشاف ذلك عنه، فلينظر: هل يذهب كيده ما يغيظه؟ فإن لم يذهب ذلك غيظه، حتى يأتي

---

بمعزل من إذهاب ما يغيظ، ومن البين أن لا معنى لفرض وقوع الأمور الممتنعة وترتيب الأمر بالنظر عليه، لا سيما قطع الوحي فإن فرض وقوعه مخل بالمرام قطعا)، وعلق عليه الألوسي في روح المعاني (٩/ ١٢٢): (ونوقش في ذلك بما لا يخفى على الناظر، نعم المعنى السابق هو الأولى). وكذلك ضعفه الشنقيطي في أضواء البيان (٤/ ٢٨٨) وقال: (وهذا القول الأخير ظاهر السقوط).

(١) حكى هذا القولَ الكِرماني في غرائب التفسير (٢/ ٧٥٤).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٧٩ - ٤٨٠)، والكشف والبيان (٧/ ١١)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٧٠). وقد تعقب الواحدي في التفسير البسيط (١٥/ ٣١٤) تفسير ابن زيد فقال: (وهذا التفسير لا يوافق معنى قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾؛ لأن من ظن ذلك لا يقال له: إن كنت تظن أنه غير منصور فاقطع النصر عنه. ولو كان أول الكلام: من يغيظه أن ينصره الله، أو ما أشبه هذا؛ حجَّ تفسير ابن زيد، وليس في أوائل الآية: من أراد أن يكايده، أو يقطع النصر عنه، أو شيء من هذا المعنى الذي بني ابن زيد تفسير باقي الآية عليه).

الله بالفرج من عنده فيذهبه، فكذلك استعجاله نصر الله لنبيه ودينه لن يؤخر ما قضى الله له من ذلك عن ميقاته ولا يعجل قبل حينه[(١)].

ويؤيد هذا ما رووه في سبب النزول أنها نزلت في نفر من بني أسد وغَطَفان تباطأوا عن الإسلام، وقالوا: نخاف أن لا ينصر محمد صلى الله عليه وسلم، فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا، ولا يرْوُوننا[(٢)].

(٤٠٩) تدل الآية على أن من استبطأ نصر الله، وطلب الموعود عاجلًا، فإنه لا يملك الإتيان به في غير أوانه، لأن لذلك وقتًا لا يجوز إيقاعه إلا فيه[(٣)]. ويؤخذ هذا من ربط الآية بما قيل في سبب نزولها من أنه كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسوله من النصر، فنزلت هذه الآية[(٤)].

(٤١٠) تفيد الآية أن ستبطاء النصر، أو اليأس من النصر صارفان عن التقوى، والسير إليها، والتحقق فيها. ويؤخذ ذلك من ربط الآيتين بمقصد السورة[(٥)].

(٤١١) تومئ هذه الآية مع نظائرها في السورة أن المتقين موعودون بالنصر الرباني إذا تحققوا بصفات خاصة، فمن طلب من المسلمين نصرة الله له دون تحقيق الشروط في نفسه، أو عجِب من عدم نزول النصر دون بذل وعطاء، فإنما هو من الجاهلين، ومن ارتدّ استبطاءً للنصر فإنه من الكافرين. ويؤخذ ذلك من الجمع بين قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحج: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٨٣ - ٤٨٤)، والكشف والبيان (٧/ ١١). ورجح ابن كثير هذا القول في تفسيره (٥/ ٤٠٢) فقال: (وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم).

(٢) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١١٩)، وتفسير الطبري (١٦/ ٤٨٤).

(٣) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٥٥).

(٤) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢١٠). واستبعد هذا النيسابوري في تفسيره (٥/ ٦٩).

(٥) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٣٧).

[سورة الحج: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [سورة الحج: ١١] (١).

(٤١٢) في الآية تنبيه لخُلَّص المؤمنين أن لا ييأسوا من الظفر في نصر الله في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة فقط. ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٣ – ٢٤] الآية (٢).

(٤١٣) تدل الآية على أنه يجب على المؤمن أن يأمل في رحمة الله ونصره في الدنيا والآخرة، لأن ذلك مما وعده الله به، وألا يجزع إن أبطأ النصر عنه، ولا ييأس من مجيئه؛ لأن ذلك يتنافى مع الإيمان بالله والثقة به والاعتماد عليه (٣).

(٤١٤) تشير الآية أنه يجوز أن تخاطب المعاند بما يفيد تبكيته وتعجيزه، كأن تقول له: إن لم ترض فاضرب رأسك بالجدار، ونحو ذلك وهذا على جهة المثل السائر في قولهم للحاسد أو المعاند الذي يريد من الأمر ما لا يمكنه: دونك الحبل فاختنق (٤). أي: إنْ غاظك ما تراه ولا ترضاه فخذ الحبل واختنق حتى تستريح، فإنه لا سبيل إلى تغييره (٥). ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ﴾ [سورة آل عمران: ١١٩] (٦)، والأمر على هذا الوجه للإهانة (٧).

---

(١) الأساس في التفسير (٧/ ٣٦٠٧).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢٠).

(٣) ينظر التفسير الحديث (٦/ ١٩).

(٤) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١١). وهو جزء من بيت شعري سائر:

إن كنت لا ترضى بما قد ترى...فدونك الحبلَ به فاختنقْ

(٥) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣١٢ – ٣١٣).

(٦) أضواء البيان (٤/ ٢٨٧).

(٧) فتوح الغيب (١٠/ ٤٥٥).

(٤١٥) تشير الآية أن صيغة الأمر قد ترد ولا يراد بها الإلزام، وأن الكلام قد يطلق ولا يراد به حقيقته، وإنما يراد به لازمه؛ لأن قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ مقترنة بلام الأمر، وكذلك: ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [(١)]، أي ليختنق، ولكنه لا يراد به الإلزام بذلك. فالآية على سَنن كلام العرب في الاختصار [(٢)]. وإنّما معنى الآية: فليصوّر هذا الأمر في نفسه، لا أنه يفعله؛ لأنّه إذا اختنق ومات لا يمكنه القطع والنظر [(٣)]، والأمرُ على هذا المعنى للتعجيز [(٤)]، فيعلم أن تعليق الجواب على حصول شرط لا يقع، كقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [سورة الرحمن: ٣٣] [(٥)].

(٤١٦) تفيد الآية أنه لا خير في حياة تخلو من عون الله. ويؤخذ هذا من أن تأويل الآية: من كان يظن أن الله لا يرزقه فليقتل نفسه، فلا حياة بدون رزق الله ومعونته [(٦)].

(٤١٧) في الآية إشارة إلى أنه لا حيلة للإنسان في أن يتوصل إلى تقديم النصر قبل وقته، وإخراج ما يظن من أن محمدًا – صلى الله عليه وسلم – لا ينصر عن قلبه، فلم يبق له إلا الخنق ليستريح من غيظه بتأخر النصر عن محمد صلى الله عليه وسلم [(٧)].

ومما يشهد لهذا القول من القرآن قولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ [سورة ص: ١٠ – ١١] [(١)].

---

(١) (قرأ ابن عامر، وأبو عمرو، وورش عن نافع، ورويس عن يعقوب: (لِيَقْطَعْ) بكسر اللام؛ لأنها لام أمر أصلها الكسر، كما لو ابتدأ بها، ولا اعتداد بحرف العطف، والباقون: بإسكانها تخفيفًا، واعتدادًا بحرف العطف مبتدأ به) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٤/ ٤٠٨).

(٢) تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٢).

(٣) ينظر الكشف والبيان (٧/ ١١)، وزاد المسير (٣/ ٢٢٧).

(٤) فتوح الغيب (١٠/ ٤٥٥).

(٥) التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٩).

(٦) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٢١).

(٧) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣١٢).

(٤١٨) تفيد الآية أنه لا أحد يدفع شيئا مما أراد الله تعالى، كما أن غيظ الحاسد لا يدفع ما أراد الله تعالى من نصر رسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة. ويؤخذ هذا من أن جملة ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ إلى آخرها تأكيد لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ [٢].

(٤١٩) في الآية تنبيه على أن عبادة الله على حرف ناشئة عن الظن بأن الله لن ينصره في الدنيا والآخرة إن صمم على الاستمرار في اتباع الإسلام، لأنه غير واثق بوعد النصر للمسلمين [٣].

(٤٢٠) تدل الآية على ذم سوء الظن بالله والاستمرار على ذلك [٤]؛ لأن الآية تصف من أساء الظن بربه، وخاف أن لا يرزقه. فيقال له تبكيتًا: فليمدد بحبل إلى سماء البيت، فلينظر هل يذهب فعله ذلك ما يغيظ، وهو خيفة أن لا يرزق [٥]. وموجب الاختناق – على هذا – القنوطُ والسخط من القضاء، وسوء الظن بالله تعالى، حتى يئس من نصره [٦]. ويؤخذ معنى الاستمرار في هذا الظن من التعبير بـ ﴿كَانَ يَظُنُّ﴾ [٧].

(٤٢١) تشير الآية أنه لا سبيل إلى احتمال البلاء إلا بالرجاء في نصر الله، ولا سبيل إلى الفرج إلا بالتوجه إلى الله، ولا سبيل إلى الاستعلاء على الضر إلا بالاستعانة بالله. وكل

---

(١) ينظر أضواء البيان (٤/ ٢٨٨).

(٢) ينظر التفسير المظهري (٦/ ٢٦٠).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٩).

(٤) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣١٧)، وبيان المعاني (٦/ ١٦٣).

(٥) ينظر تفسير السمعاني (٣/ ٤٢٧)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٧١).

(٦) ينظر البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٥١٩).

(٧) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٥٦).

حركة يائسة لا ثمرة لها إلا زيادة الكرب، ومضاعفة الشعور به، والعجز عن دفعه بغير عون الله[1].

(٤٢٢) تفيد الآية أن المنافق يستبعد ألا يرزق وهو على الدين، وهذا على القول بأن الهاء قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ﴾ راجعة إلى ﴿مَن﴾[2]، أي أن لن يرزقه الله، ويجعله صلة لقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، لأنه يجعل الآية في أهل النفاق، والمعنى: من كان يظن من أهل النفاق أن الله لا يرزقه إذا كان في ذلك الدين الذي كان فيه ودام – فليمدد بما ذكر[3].

(٤٢٣) تفيد الآية أن من كان قانطا من رزق الله ورحمته فليس له سبيل إلى استجلاب الرزق إلا سؤال الله وحسن الظن به؛ لأن الله تعالى قال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾، فكأنه قال: من كان قانطًا من رزق الله ورحمته، فليفعل ذلك ولينظر هَلْ تُذهب حيلته غيظه لتأخير الرزق عنه[4].

(٤٢٤) في الآية الحث على الرضا بما قسم الله تعالى، لأنها تومئ إلى أن الأرزاق بيد الله، لا تنال إلا بمشيئته، ولا بد للعبد من الرضا بقسمته، فمن ظن أن الله غير رازقه وليس به

---

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٤).

(٢) ينظر الكشف والبيان (٧/ ١١). قال ابن جزي في التسهيل (٢/ ٣٥): (وهذا القول أرجح من الأول لوجهين: أحدهما: أن هذا القول مناسبٌ لمن يعبد الله على حرف لأنه، إذا أصابته فتنة، انقلب وقنط، حتى ظنّ أن لن ينصره الله. ويؤيده من فسّر ﴿أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾، أي: لن يرزقه إذ لا خير في حياة تخلو من عون الله عزّ وجلّ، فيكون الكلام، على هذا، متصلًا بما قبله. ويؤيده أيضًا قوله تعالى قبله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾، أي: الأمور بيد الله، فلا ينبغي لأحد أن يسخط من قضاء الله، ولا ينقلب إذا أصابته فتنة، والوجه الثاني: أن الضمير في ﴿يَنصُرَهُ﴾، على هذا، يعود على ما تقدّمه ذكر، دون الأول).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٨).

(٤) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٢).

صبر واستسلام، فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق، فإن ذلك لا يقلب القسمة، ولا يرده مرزوقا[1].

(٤٢٥) تفيد الآية الحث على الرضا بما قسم الله تعالى لا كمن يعبده على حرف[2].

(٤٢٦) تفيد الآية أن الإنسان إن لم يصبر على المصائب لله طوعًا صبر عليها كرهًا مع ما ناله من أسباب الشقاء[3].

(٤٢٧) تفيد الآية أنه لا يجوز للمسلم أن يشك في نصر الله، وأن عليه أن يصبر في كل الظروف لأمر الله تعالى[4].

(٤٢٨) تشير الآية إلى أن الله هو القابض الباسط، وأنه وحده الذي بيده جلب النفع وكشف الضر[5]. كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة يونس: ١٠٧].

(٤٢٩) تشير الآية إلى أن من أصابه آفات في بدنه أو ماله أو عرضه لأجلها؛ فليتب عن ذلك، وليرض بحاله؛ فإنه إن لم يرض فليس له إلا أن يقتل نفسه وسخطه لن يصلح من أمره شيئا؛ لأن الآية وإن خرجت على سبب فإنها تتناول من اتصف بمثل ذلك السبب، فيدخل تحتها ما ذكر[6].

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٨)، وروح المعاني (٩/ ١٢٢).

(٢) ينظر روح المعاني (٩/ ١٢٢).

(٣) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٢٢).

(٤) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٣٧).

(٥) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٥٦).

(٦) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٨٤).

(٤٣٠) تفيد الآية أن الحاسد لا يكيد بما يفعله محسودَه، وإنما يكيد به نفسَه، وليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾، وسمى فعله كيدًا لأنه وضعه موضع الكيد، حيث لم يقدر على غيره، أو على سبيل الاستهزاء تهكُّما به، لأن وبال الكيد راجع إليه[(١)].

(٤٣١) تفيد الآية أن المشركين والمنافقين يغتاظون بما يحصل للمؤمنين من نصرة وخير. كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ [سورة آل عمران: ١٢٠].

(٤٣٢) تفيد الآية أن عدم الاستراحة من ضنك المعيشة مما يغيظ[(٢)].

(٤٣٣) تفيد الآية أن غيْظ الكفار من نصْر الإيمان سوف يَبْقى في قلوبهم، ولا يوجد سبيل لإزالته؛ لأن الله تعالى لم يرسل رسولًا إلا وهو ضامن أنْ ينصره[(٣)].

(٤٣٤) تفيد الآية أن المؤمن في معرض النجاة ما دام ممسكا بحبل النجاة الذي يصله بالله؛ وذلك أن الآية تصور الإنسان كمن مدّ حبلا بينه وبين ربه، وأمسك بالسبب الذي يستطيع به أن ينال من الله ما وعده، من عزة ونصر في الدنيا، وخير ونعيم كبير في الآخرة. فإذا شك في أن ينال موعود الله، فليقطع هذا الحبل، ثم لينظر ماذا يكون من أمره؟ فإنه سيجد نفسه قد سقط على التراب، ولصق به، ثم لا يكون له بعد ذلك سبيل إلى أن يتحرك نحو هذا الخير القائم على طريق هذا السبب الممدود بينه وبين السماء! والصورة قائمة على التمثيل والتخييل[(٤)].

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٧ - ١٤٨).

(٢) ينظر درج الدرر (٢/ ٣٣٣).

(٣) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٣٩).

(٤) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٠٠ -١٠٠١).

(٤٣٥) تشير الآية على التفسير السابق أن الإيمان بالله هو السبب الذي يمكن أن ينال به الإنسان القرب من ربه، والتعرض لفضله وإحسانه، ولا سبب غيره، فإذا قطع هذا السبب، فقد قطع كل سبب يُدْنيه من الله، ويفتح له مغاليق السعادة والرضوان[(١)].

(٤٣٦) تدل الآية على زجر الإنسان عن الغيظ فيما لا فائدة فيه[(٢)]، لأن معنى الآية: (فلينظر هل يتهيّأ له الوصول إلى السماء بحيلة وهل يقدر على إذهاب غيظه بهذا الفعل، فإذا كان ذلك ممتنعا كان غيظه عديم الفائدة)[(٣)].

(٤٣٧) تفيد الآيات السابقة التي تبين أحوال الفئات الثلاث وتبعث العقل على الموازنة بينهم، أن العاقل هو من اختار طريق الإيمان بالله واستمسك بحبل الله، لأنه سينال الخير في الدنيا والآخرة[(٤)].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحج: ١٦].

(٤٣٨) تفيد الآية أن القرآن يتضمن أدلة واضحة دالة على صدقه في دعواه النبوة والرسالة والتشريع العام والإرشاد التام، فالآيات معناها: الأدلة[(٥)].

(٤٣٩) تفيد الآيات السابقة التي تبين أحوال الفئات الثلاث وتبعث العقل على الموازنة بينهم، أن العاقل هو من اختار طريق الإيمان بالله واستمسك بحبل الله، لأنه سينال الخير في الدنيا والآخرة[(٦)].

---

(١) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٠١).

(٢) ينظر تفسير الخازن (٣/ ٢٥١).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١١).

(٤) ينظر التفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٣٠).

(٥) ينظر الفواتح الإلهية (١/ ٥٤٩).

(٦) ينظر التفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٣٠).

(٤٤٠) تفيد الآية أنه كما ينصر الله رسوله في الدنيا والآخرة فإنه قد أيده بالمعجزة الباهرة القاطعة التي تتحدى الأجيال كلها أن يأتوا بمثله، وأنزل آيات واضحات، يهدي بها من يشاء ابتداء، ويزيد بها الذين اهتدوا هدى. ويؤخذ هذا المعنى من أن المشابهة بقوله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ هي بين نصر الله لنبيه في الدنيا والآخرة وإقامة الحجة لرسالته في الدنيا[(١)].

(٤٤١) تفيد الآية أن الله أنزل هذا القرآن آيات بينات لأن الله يوفق لسبيل الحق من أراد من خلقه؛ ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾[(٢)].

(٤٤٢) تفيد الآية أن الله أنزل القرآن كذلك مبيّنًا، ولأن الله يهدي به الذين يعلم أنهم يؤمنون أو يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى[(٣)]. وذلك لأن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ تعليلٌ لكون القرآن بيانًا، ومعلله محذوفٌ يدل عليه المذكور، والجملة المكونة من التعليل والمعلَّل معطوفةٌ على ما قبلها، على طريقة: أعجبني زيدٌ وكرمُه. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة الأنعام: ٥٥][(٤)].

(٤٤٣) تفيد الآية أن آيات الله مع وضوحها وبيانها، لا يهتدي بها، إلا من أراد الله له الهداية، وفتح بصره وقلبه إليها، وأراه الهدى والنّور منها[(٥)]. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾: يريد لأهل التوحيد[(٦)]. فمن أراد الله هدايته،

---

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٥٧ - ٤٩٥٨).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٨٤).

(٣) ينظر تفسير النسفي (٢/ ٤٣٢).

(٤) فتوح الغيب (١٠/ ٤٥٦).

(٥) ينظر لطائف الإشارات (٢/ ٥٣٤)، والتفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٠٢).

(٦) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣١٩).

اهتدى بهذا القرآن، وجعله إماما له وقدوة، واستضاء بنوره، ومن لم يرد الله هدايته، فلو جاءته كل آية ما آمن، ولم ينفعه القرآن شيئا، بل يكون حجة عليه[(١)].

(٤٤٤) تفيد الآية أن القرآن آية بينة لمن نظر واهتدى، لا ليقترح معها ويستعجل القدر[(٢)]. ويؤخذ هذا من ربط هذه بالآية التي سبقتها.

(٤٤٥) تشير الآية إلى أن من جادل في آيات الله فإنما يجادل عن جهل أو عناد أو نفاق؛ لأنها آيات بينات تقنع كل ذي عقل رشيد، وتتجاوب مع كل فطرة سليمة[(٣)].

(٤٤٦) تفيد الآية أن القرآن الكريم كامل البيان في جميع أبوابه، لا في أمر البعث وحده[(٤)].

(٤٤٧) تفيد الآية أن الله يهدي من أراد هدايته، خلافا للمعتزلة الذين يقولون: إن الله أراد هداية جميع الخلق ثم لم يهتد بعضهم. ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾[(٥)]، والاسم الموصول "مَنْ" يفيد العموم.

(٤٤٨) تفيد الآية أن الله يثبت من يريد ثباته على الهداية ويزيدهم هدى[(٦)].

(٤٤٩) تدل هذه الآية على أن مِلاك الهدى والضلالة منوطٌ بالإرادة، خلافا لما يراه القدَرية[(٧)]. فإن الله يقول: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [سورة النحل: ٩٣]،

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٥).

(٢) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١٢).

(٣) ينظر التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٦١).

(٤) ينظر روح المعاني (٩/ ١٢٣).

(٥) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٨).

(٦) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٨)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٦٧)، والتفسير المظهري (٦/ ٢٦٠).

(٧) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣١٧)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٢).

ولكن هدايته للعبد فضل، وإضلاله إياه عدل وحكمة، (وهو أعلم بمن هو محل الهداية فيهديه، ومن هو محل الإضلال فيضله)[1].

(٤٥٠) تدل هذه الآية على أن الله تعالى هو المنفرد بهداية التوفيق، فلا هادي سواه[2].

(٤٥١) تفيد الآية أن الهداية غير واجبة على الله، بل هي معلقة بمشيئته سبحانه؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾، ووضع الأدلة عند الخصم واجب، فبقي أن المراد منه خلق المعرفة[3].

(٤٥٢) تفيد الآية أن الله تعالى يخلق الإيمان في قلوب من شاء من عباده؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾، والمراد من الهداية إما نصب الأدلة أو خلق المعرفة، والأول غير جائز لأنه تعالى نصب الأدلة لجميع المكلفين، ولأن وضع الأدلة عند الخصم واجب، والهداية غير واجبة عليه كما تقدم، فبقي أن المراد منه خلق المعرفة[4].

(٤٥٣) تفيد الآية أن الله تعالى يرشد إلى دينه مَنْ كان أهلًا لذلك، فيوفقه لذلك. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾ [سورة يونس: ٢٥][5].

(٤٥٤) تفيد هذه الآية بضميمة آيات أخرى أن الله إنما يهدي من ينيب إليه ومن يستمع القول فيتبع أحسنه، أي من حسنت نيته وصدقت رغبته في هدى الله، ومنها قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ [سورة الرعد: ٢٧] وقوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [سورة الشورى: ١٣] وقوله

---

(١) ينظر مختصر معارج القبول (ص: ٤٩).

(٢) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٢٢)، والبحر المحيط (٧/ ٤٩٣).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١١).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١١).

(٥) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٢).

سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ [سورة الزمر: ١٨][(١)].

(٤٥٥) تدل الآية على أن من لا يريد الله هدايته فإنه لا يهديه؛ لأن إثبات الهداية لمن يريد يدل على نفيها عمّن لا يريد[(٢)].

(٤٥٦) تدل الآية على أن الله تعالى يضل من يريد إضلاله؛ لأن التقدير في الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ ليُعلَم إذا ضل ضال مع هذا البيان أن الله يضل من يريد، ثم عطف عليه قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾ أي لتتبين قدرتُه واختيارُه، إزاحةً لغمّ من يقول: إذا كانت الآيات المرئية والمسموعة في هذا الحد من البيان فما لأكثر الناس على ضلالهم يتخلف فيهم المسببات عن أسبابها؟[(٣)].

(٤٥٧) تشير الآية أنه ليس على الرسول صلى الله عليه وسلم ومن يقوم مقامه في دعوة الخلق إلا البلاغ والدلالة على الحق، أما هداية التوفيق فعلى الله عزّ وجل، فلا يُتعبْ أحدٌ نفسه في هداية من أحب؛ لأن أمر الهداية والضلال مُفوَّض إلى الله تعالى[(٤)]. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ [سورة القصص: ٥٦].

(٤٥٨) تدل الآية على أن المسلم عليه أن يستشعر مقدار نعمة الله عليه إذْ كان ممن أراد الله أن يهديهم[(٥)].

---

(١) ينظر التفسير الحديث (٦/ ٢٠).

(٢) ينظر البحر المحيط (٧/ ٤٩٣).

(٣) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٢٣)، والفواتح الإلهية (١/ ٥٤٩).

(٤) ينظر الفواتح الإلهية (١/ ٥٥٠).

(٥) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ٧).

(٤٥٩) تومئ الآية إلى أن الداعية ليس عليه أن يتحسر على من سلك طريق الضلال[١]، فإن هداية التوفيق بيد مقلب المقلوب، وإنما عليه أن يرشد الناس إلى طريق الهدى، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾ [سورة فاطر: ٨].

(٤٦٠) في الآية إيماءٌ إلى أن تدبر آيات الله البينات سبيلٌ إلى نيل هداية الله إلى الصراط المستقيم[٢].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝١٧﴾ [سورة الحج: ١٧].

(٤٦١) تفيد الآية أن الأديان الحاصلة بسبب الاختلافات في الأنبياء ستة، فأتباع الأنبياء هم المسلمون واليهود والنصارى، والصابئون يعبدون الكواكب السبعة، ويضيفون الآثار إليها، وينفون الصانع المختار، وعبَدة النِّيران الذين يتبعون المتنبِّئ هم المجوس، والمنكرون للأنبياء على الإطلاق: هم عبدة الأوثان، وهم المسمّون بالمشركين، ويدخل فيهم البراهمة على اختلاف طبقاتهم[٣].

(٤٦٢) تفيد الآية أن الأديان ستة: واحد للرحمن، وباقيها للشيطان، ويؤخذ هذا من أن الذين آمنوا هم الذين يعبدون الله كما أراد، أما الأصناف الأخرى فقد أطاعوا الشيطان، واتبعوا أهواءهم، وعبدوا غير الله. وقد رُوي عن قتادة أنه قال في تفسير هذه الآية: (والأديان ستة: خمسة للشيطان، وواحد للرحمن)[٤].

---

(١) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ٧).

(٢) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ٧).

(٣) ينظر مراح لبيد (٢/ ٦٨).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٨٥)، وينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٢)، وأيسر التفاسير (٣/ ٤٦١).

(٤٦٣) تفيد الآية أن الصابئة نوعان: صابئة حنفاء موحدون، وصابئة مشركون؛ فالصابئة المشركون هم المذكورون في هذه الآية مع اليهود والنصارى والمجوس والمشركين. أما الصابئة الموحدون، فهم الذين أثنى الله عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة البقرة: ٦٢]، والصابئون هنا هم الحنفاء الموحدون الذين كانوا قبل أهل الكتب السماوية، كالمتبعين لملة إبراهيم عليه السلام قبل نزول التوراة والإنجيل[(١)].

(٤٦٤) تفيد الآية أنه لَا عبرة في إجابة النبيين إلى اختلاف الملل والنحل، بل الجميع أمام الرسالات الإلهية على سواء، فمن أسرف وظلم كان حسابه عسيرا، ومن آمن واهتدى كان من الله قريبا، وإن الله سيفصل بينهم[(٢)].

(٤٦٥) تفيد الآية هؤلاء أنه لا فضل لأمة على أمة، ولا لجنس على جنس، ولا لعِرْق على عرق. وإنما المعتبر هو توحيدهم لربهم وطاعتهم لرسله، وبناء على ذلك يفصل الله بينهم جميعا بحكمه العدل، ويقضي بينهم يوم القيامة[(٣)]. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحجرات: ١٣].

(٤٦٦) تفيد الآية أن أصناف الناس على اختلاف مراتبهم – الوليّ والعدوّ، والموحّد والجاحد – يجمعون يوم الحشر، ثم يعامل الحقّ سبحانه كلّا بما وعده[(٤)].

(٤٦٧) تفيد الآية أن الله يفصل بين أتباع الملل المتعددة، فلا يجازيهم جزاء واحدا بغير تفاوت، بل يجزي المؤمنين بما يليق بهم، واليهود بما يليق بهم، وهكذا؛ ولا يجمعهم في موطن

---

(١) ينظر الرد على المنطقيين (ص: ٢٨٨).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٥٩).

(٣) ينظر التفسير الواضح (٢/ ٥٧٥).

(٤) ينظر لطائف الإشارات (٢/ ٥٣٤).

واحد، بل يجعل المؤمنين في الجنة، وكلًّا من الفرق الكافرة في طبقة من طبقات النار[١]. ويؤخذ هذا من أن الفصل مطلق، فيحتمل الفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعا[٢].

(٤٦٨) تفيد الآية أن الله تعالى يحكم يوم القيامة بين أهل الأديان المختلفين في الدنيا، فيظهر المحق من المبطل، فيدخل أهل الحق الجنة، ويدخل أهل الباطل النار. وقد أظهر الله اختلافهم في الدين وفصله في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [سورة البقرة: ١١٣] ثم قال: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [سورة البقرة: ١١٣][٣]. وفسر الزجاج هذا الفصل بين هؤلاء الفرق بإدخال المؤمنين الجنة والآخرين النار، واحتج بقوله بعد هذا: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ الآية[٤]. فللمؤمنين الجنة بحكم وعده الصادق وبفضله، وللكافرين النار بما سبق من عدلُه، لا أن فعل الرب معلل بفعل العبيد[٥].

(٤٦٩) تفيد الآية أن الله عَزَّ وجَلَّ يفصل بين الخصوم في الدين يوم القيامة بأن يعرفهم المحق من المبطل بمعرفة ضرورية، فيبيضُّ وجه المحق، ويسْوَدّ وجه المبطِل[٦]. أما في الدنيا فإن المحق يتميز عن المبطل بالنظر والاستدلال[٧].

---

(١) ينظر روح المعاني (٩/ ١٢٤).

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٨).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٩)، وتفسير القرآن لابن أبي زمنين (٣/ ١٧٤)، والمحرر الوجيز (٤/ ١١٢).

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤١٧)، والبحر المحيط (٧/ ٤٩٣).

(٥) تفسير القرطبي (١٢/ ٢١).

(٦) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٢٣).

(٧) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٢٢).

(٤٧٠) تدل الآية على أن الله تعالى شاهد على أعمال جميع الناس على اختلاف أديانهم[١]؛ لأن الله تعالى وصف نفسه بذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾.

(٤٧١) تدل الآية على أن "الشهيد" اسم من أسماء الله الحسنى؛ لأن الله تعالى أثبته لنفسه في هذه الآية وغيرها.

(٤٧٢) تفيد الآية أن الله تعالى رقيب على العباد محيط بأعمالهم وأقوالهم ونياتهم، لأن كل شيء خاضع له سبحانه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ فيه التعدية بـ"على"، إشارة إلى معنى الرقابة عليهم، والإحاطة بهم[٢].

(٤٧٣) في ذكر اسم الله "الشهيد" في ختام هذه الآية دعوةٌ لاستشعار عظمة الله في كل حين، ومراقبته في كل شيء من قول وعمل، حتى في خلجات النفوس، وتقواه في كل صغيرة وكبيرة[٣]؛ فشهوده سبحانه شامل لكل شيء، ولذلك قال بصيغة مؤكَّدة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾.

(٤٧٤) تفيد الآية أن اللَّه وحده هو الذي يبين يوم القيامة الحق فيثيب أهله، والباطلَ فيعذب الذين تردَّوا فيه؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾، والفصل بين الأشياء والأشخاص إبانة كل بخيره وشره، والفصل بين الأقوال تبيُّن صادقها من كاذبها، وحقها من باطلها، وكذلك الفصل بين النِّحَل وأصحابها، أي بيان الحق فيها والباطل منها، وجزاء أهل الباطل، وثواب أهل الحق[٤].

---

(١) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٥٩)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٢٣).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٥٩). وقد قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في "الحق الواضح المبين" (ص٥٨): («الرقيب» و«الشهيد» مترادفان، وكلاهما يدلُّ على إحاطة سمع الله بالمسموعات، وبصره بالمبصرات، وعلمِه بجميع المعلومات الجليّة والخفية).

(٣) ينظر أسماء الله الحسنى في فواصل سورة الحج: (ص١١).

(٤) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٥٩).

(٤٧٥) تفيد الآية أنه لا يجري في الفصل بين أتباع الملل المختلفة ظلم ولا حيف؛ لأن الله تعالى يفصل بينهم وهو عالم بما يستحقه كل منهم[(١)]. و(الشهادة رؤية خبرة بطية الشيْء ودخلته ممن له غنى في أمره، فلا شهادة إلا بخبرة وغنى ممن له اعتدال في نفسه بأن لا يحيف على غيره، فيكون ميزان عدل بينه وبين غيره، فيحق له أن يكون ميزانًا بين كل متداعيين ممن يحيط بخبرة أمرهما)[(٢)].

(٤٧٦) تفيد الآية أن الله تعالى محيط بتفاصيل ما صدر عن كل فرد من أفراد الفرق المذكورة، ويجري جزاءه اللائق به عليه، وهذا ما يقتضيه كونه شهيدا عليهم[(٣)].

(٤٧٧) تفيد الآية أنه لا يجوز أن يجعل الله المسلمين كالمجرمين، ولا المحق بمنزلة من المبطل، مع كمال علمه بظواهر أحوالهم وبواطنها[(٤)].

(٤٧٨) تفيد الآية أن واجب العبد أن يخشى الله تعالى حق الخشية؛ لأن الله تعالى وصف نفسه بأنه شهيد على أعمال العباد، وبحسب إحاطة علم الشهيد ترهب شهادته، وهو سبحانه محيط ببواطنهم وظواهرهم، ولذلك أرهب شهادةٍ هي شهادة الله على خلقه، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [سورة الأنعام: ١٩][(٥)].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الحج: ١٨].

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٣).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٢٤).

(٣) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٠).

(٤) ينظر التفسير المظهري (٦/ ٢٦١).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ٢٤ - ٢٥).

(٤٧٩) تفيد الآية أن علم الإنسان بالشيء إذا بلغ درجة اليقين يكون مساويًا لما يراه الإنسان بعينيه. يؤخذ هذا من استهلال الآية بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، مع أن سجود كثير من المخلوقات لا نراه بأبصارنا، وإنما عرفناه بإخبار الله تعالى، ومعنى الآية: اعلم أيها السامع علما يقوم مقام العيان أن هذه المخلوقات تسجد لله[(١)].

(٤٨٠) في الآية تنبيهٌ على مخالفة الكافر المعاند لجميع المخلوقات التي تدور في فلك التوحيد لله سبحانه. فهي جميعا في موكب خاشع تسجد كلها لله، وتتجه إليه وحده دون سواه، إلا الإنس، فهم وحدهم الذين يشذّون عن هذا الموكب المتناسق، فيكفر بعضهم ويمتنعون عن السجود لله[(٢)].

(٤٨١) تدل الآية على أن الله تعالى هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، لأن كل شيء يسجد لعظمته طوعًا وكرهًا، كما قال في آية أخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة النحل: ٤٨ – ٤٩][(٣)].

(٤٨٢) تفيد الآية أن لكل مخلوق –كيفما كان – سجودًا يتناسب وطبيعته[(٤)]، ويؤكد هذا قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ﴾ [سورة النور: ٤١]. بناء على أن السُجود من هذه الأشياء سجود على حقيقته، لكن على هيئة لا يعلمها إلا خالقها عَزَّ وَجَلَّ[(٥)]. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((أتدري أين تذهب هذه الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب فتسجد

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٣)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٣٢)، والبحر المديد (٣/ ٥٢١).

(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٤).

(٣) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٣).

(٤) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٣).

(٥) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٥٠ – ٩٧٥٢)، والتفسير المنير (١٧/ ١٧٧)، وأيسر التفاسير (٣/ ٤٦٣).

تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت))[1]. وقال أبو العالية: (ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلاَّ يقع لله ساجدًا حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له)[2].

(٤٨٣) تدل الآية على أن القلب والعقل يرى أن جميع ما في العوالم العلوية والسفلية من الكواكب والجمادات والنباتات والإنسان والحيوان يسجد لله تعالى سجودَ تذللٍ وانقيادٍ لتدبيره عز وجل في جميع الأحوال من ضعف وقوة، وصحة وسقم، وحسن وقبح، وسجود خضوع لعظمته وسلطانه وجبروته[3]. لأن الآية استهلت بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، والرؤية هنا بمعنى العلم، وذلك لأن سجود هذه الكائنات لله- تعالى- آمنّا به عن طريق الإخبار دون أن نرى كيفيته[4]. والدليل عليه أن الله تعالى وصف الحجارة بالخشية، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ٧٤] ولا يستقيم حمل الخشية على ظهور أثر القدرة فيه، وأيضا فإن الله تعالى قال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سورة الأنبياء: ٧٩] ولو كان المراد ظهور أثر الصنع لم يكن لقوله: ﴿مَعَ دَاوُۥدَ﴾ معنى؛ لأن داود وغيرَه في رؤية أثر الصنع سواءٌ، وأيضا فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾، أي: يطيع الله بتسبيحه، ثم قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، ولو كان المراد بالتسبيح ظهور أثر الصنع فيه لم يستقم قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[5].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر، ح ٣٠٢٧، ٣/ ١١٧٠)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، ح ١٥٩، ١/١٣٨).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٤٨٧)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٨) كذلك إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) ينظر التفسير المنير (١٧/ ١٧٨).

(٤) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٩٢).

(٥) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/٤١٨ - ٤١٩)، والهداية (٧/ ٤٨٦٠)، وتفسير السمعاني (٣/ ٤٢٨).

(٤٨٤) تفيد الآية أن الموجودات جميعها تسجد لله بكليتها، بما في ذلك ظلالُها[١]، وسجودُ ظلالها: ميلانها ودورانها من جانب إلى جانب، وناحية إلى ناحية، كما قال ابن عباس[٢]؛ ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة النحل: ٤٨].

(٤٨٥) تفيد الآية أنه ما من جماد إلا وهو مطيع لله تعالى خاشعٌ له خاضعٌ له مسبحٌ له، كما أخبر الله تعالى عن السماوات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [سورة فصلت: ١١][٣]. وكما أن الله ألهم الدوابَّ معرفةَ إتيان مصالحها واتقاء ما يُهلكها؛ فيجوز أن يعرِّفها طاعته والخضوع له[٤].

(٤٨٦) تدل الآية على عظمته تعالى وانفراده بألوهيته وربوبيته بانقياد هذه العوالم العظمى له وجرْيها على وفق أمره وتدبيره[٥]. فالسجود فيها مستعار من معناه المتعارف، لمطاوعة الأشياء له تعالى، فيما يحدث فيها من أفعاله، ويجريها عليه من تدبيره وتسخيره لها. ووجه الشبه الحصول على وفق الإرادة من غير امتناع منها فيهما[٦].

(٤٨٧) تدل الآية على أن كل ما في السماوات من عجائب المصنوعات، وكل ما في الأرض من أنواع المخلوقات ساجدةٌ لله تعالى، أي خاضعة متذللة، معترفة بالفاقة إليه والحاجة

---

(١) روى الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٨٧) عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: (ظلال هذا كله)، أي أن سجودها هو تحول ظلالها وبهذا فسر الطبري الآية، وينظر تفسير الثعلبي (٧/ ١٢)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٧٢). وروى الطبري أيضا في تفسيره (١٤/ ٢٤١) عن مجاهد أنه قال في قول الله: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾ (النحل: ٤٨): (إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل)، أي سجد بظله.

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٤/ ٢٤٠ و٢٤٢).

(٣) ينظر تفسير البغوي (٥/ ٣٧٢)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٩٦).

(٤) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٠٠).

(٥) ينظر محاسن التأويل (٧/ ٢٣٨)، وصفوة التفاسير (٢/ ٢٦٠).

(٦) ينظر محاسن التأويل (٧/ ٢٣٨).

إلى تخليقه وتكوينه، لأن الافتقار الذاتي اللازم للماهيّة أدلُّ على الخضوع والتواضع من وضع الجبهة على الأرض، فإن ذلك علامة وضعية للافتقار الذاتي، وقد يتطرق إليها الصدق والكذب، أما نفس الافتقار الذاتي فإنه ممتنع التغير والتبدل[(١)]. ففي الآية استعار السجودَ المتعارف – وهو وضعُ الجبهة على الأرض خُضوعًا للباري – لمطاوعة الأشياء له فيما يحدث فيها من أفعاله، لعلاقة الحصول على وفق إرادته، وجريان مشيئته من غير امتناع منها[(٢)].

(٤٨٨) تفيد أن الآيات أن المخلوقات كلها مسخَّرة لله تعالى، لأن الله وصفها بالسجود، فشبه الانقياد بأكمل أفعال المكلف في باب الطاعة وهو السجود إيذانا بكمال التسخير والتذلل، وانما حمل على المعنى المجازي إذ ليس في كفرة الإنس ومردة الجن والشياطين وسائر الحيوانات والجمادات سجود طاعة وعبادة، وهو وضع الجبهة على الأرض خصوصا لله[(٣)].

(٤٨٩) تفيد الآية أن سجود المخلوقات على ضربين: سجودٌ بالاختيار، وهو خاص بالإنسان، وبه يستحق الثواب؛ وسجودٌ بالتسخير والانقياد لإرادته سبحانه، وهو دالّ على الذلة والافتقار إلى عظمته جلّتْ قدرتُه، وهو يعم جميع المخلوقات[(٤)].

(٤٩٠) تدل الآية على أن الحيوانات كلها من غير الإنسان تسجد لله تعالى وتذكُره. وقد جاء في الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: ((اركبوها سالمةً، ودَعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرُبَّ مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكرا لله تبارك وتعالى منه))[(٥)].

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٤).

(٢) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٥٨).

(٣) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٠)، وروح البيان (٦/ ١٦).

(٤) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ٩٩).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٩/٣، ١٥٦٦٧)، وعلق عليه محققو طبعة الرسالة (٢٤/ ٤٠٤): (حديث حسن إلى قوله: "ولا تتخذوها كراسيَّ"، وهذا إسناد ضعيف). والطبراني في الكبير (١٩٣/٢٠، ح ٤٣١)، وأخرج شطره الأول

(٤٩١) تفيد الآية بضميمة آيات أخرى أن للجمادات وسائر الحيوانات صلاةً وتسبيحًا وسجودًا وخشيةً، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [سورة الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ﴾ [سورة النور: ٤١]، فيجب على المسلم أن يؤمن بذلك ويَكِل علمَه إلى الله سبحانه[(١)].

(٤٩٢) تفيد الآية أن ما يعبده مختلف طوائف المشركين – من الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوابّ — خاضعة لله منقادة لأمره تعالى. ويؤخذ هذا من أنها خصت بالذكر دون غيرها مع دخولها في عموم: ﴿يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأن الناس عبدوها مع الله مع أنها مخلوقة له[(٢)]، فذكرت هنا لتنبيه الناس إلى خطئهم في عبادتها، وكفرهم بمن خلقها وسخرها، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة فصّلت: ٣٧][(٣)].

---

أحمد في مسنده (٣/ ٤٤٠، رقم ١٥٦٧٧)، والدارمي في سننه (ومن كتاب الاستئذان، باب: في النهي عن أن تتخذ الدواب كراسي، ح ٢٦٦٨، ٣٧١/٢)، وأخرج ابن خزيمة في صحيحه: (كتاب المناسك، باب الزجر عن اتخاذ الدواب كراسي بوقفها والمرء راكبها، غير سائر عليها، ولا نازل عنها، ح ٢٥٤٤، ٢/ ١٢١٤)، وكذلك ابن حبّان في صحيحه (كتاب الحظر والإباحة، باب المثلة، ح ٥٦١٩، ٤٣٧/١٢)، والحاكم في المستدرك: (أول كتاب المناسك، ح ١٦٢٥، ٦١٢/١). قال الهيثمي (١٠٧/٨): (وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سهل بن معاذ بن أنس، وثّقه ابن حبان، وفيه ضعف).

(١) ينظر تفسير البغوي (١/ ١١١).

(٢) فالشمس عبدتْها حمير، والقمر عبدته كنانة، ونجم الدبران عبدته تميم، والشِّعْرى عبدتها لخْم وقريش، والثريا عبدتْها طيء، وعطارد عبدته أسد، وعبد أكثر العرب الأصنامَ المنحوتة من الجبال، والعُزّى عبدتها غطَفان، وهي شجرة من السمر المعروف، والصابئة عبدت الكواكب، ومن الناس من عبد البقر في الهند وغيرها، ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١٣)، وروح المعاني (٩/ ١٢٥).

(٣) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١٣)، والبحر المحيط (٧/ ٤٩٤)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٣)، وروح المعاني (٩/ ١٢٥)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٠٠)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٩٧).

(٤٩٣) تفيد الآية أن دلائل أحوال المخلوقات كلها – عاقلها وجمادها – شاهدة بتفرد الله بالإلهية. وفي تلك الشهادة دلالة على بطلان دعوة من يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه؛ لأن الآية جملة مستأنفة لابتداء استدلال على انفراد الله تعالى بالإلهية. وهي مرتبطة بمعنى قوله: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ ارتباطَ الدليل بالمطلوب[(١)].

(٤٩٤) تدل الآية على أن الله الذي تسجد له جمع الكائنات هو وحده الرب المعبود، وأن من عدل عنه إلى عبادة سواه فقد ضل ضلالا بعيدًا؛ لأنه وحده الذي تخضع المخلوقات لعظمته، وتستكين لعزته، وتذل لسلطانه[(٢)].

(٤٩٥) تفيد الآية أنه ما كان ينبغي لأتباع الملل أن يختلفوا في شأن معبودهم، وهم يرون جميع العوالم العلوية والسفلية – كبيرها وصغيرها، شمسها وقمرها ونجومها، وجبالها وحيوانها ونباتها– خاضعةٌ لجبروته، مسخَّرةٌ لقدرته. ويؤخذ هذا من الربط بين هذه الآية والآية التي سبقتها[(٣)].

(٤٩٦) تفيد الآية أن كل شيء خاضع لله إلا الإنسان، فأكثر أفراده عصاة له، متمردون عليه، وبذلك استوجبوا العذاب المهين[(٤)]. بناء على أن ﴿وَكَثِيرٌ﴾ الثانية تكريرٌ للأولى، مبالغةً في تكثير المحقوقين بالعذاب، فعطفت ﴿كثير﴾ على ﴿كثير﴾، ثم عبر عنهم ب ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ﴾، كأنه قال: وكثير من الناس حق عليهم العذاب[(٥)].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢٥).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٦).

(٣) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ٩٩).

(٤) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٦٣).

(٥) هذا المعنى جوّزه الزمخشري في الكشاف (٣/ ١٤٩)، وذكره الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢١٣). وقد ضعف أبو حيان هذا التخريج في البحر المحيط (٧/ ٤٩٥)، ولكن السمين الحلبي تعقبه في الدر المصون (٨/ ٢٤٦) بأن هذا القول

(٤٩٧) تفيد الآية أن من حق عليهم العذاب أكثر ممن حق لهم الثواب، فالكثير الأول كثيرٌ في نفسه، قليلٌ بالنسبة إلى الكثير الثاني[(١)]. وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [سورة يوسف: ١٠٣].

(٤٩٨) تفيد الآية أن كثيرا من الناس يسجدون لله سجود طاعة وامتثال، بناء على أن قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ معطوف على ما قبله، إن جوزنا استعمال اللفظ المشترك في معنيَيْه جميعا، فيكون السجود في الجمادات الانقياد، وفي العقلاء العبادة[(٢)]. فالسجود له معنى حقيقي وهو وضع الجبهة على الأرض، ومعنى مجازي وهو التعظيم، والسجود المثبت لكثير من الناس هو السجود الحقيقي، ولولا إرادة ذلك لما احترس بإثباته لكثير من الناس، لا لجميعهم[(٣)].

ووجه هذا التفكيك أن سجود الموجودات غير الإنسانية ليس إلا دلالة تلك الموجودات على أنها مسخرة بخلق الله، فاستعير السجود لحالة التسخير والانقياد. وأما دلالة حال الإنسان على عبوديته لله تعالى فلما خالطها إعراض كثير من الناس عن السجود لله تعالى، وتلبسهم بالسجود للأصنام كما هو حال المشركين غطى سجودهم الحقيقي على السجود المجازي الدال

---

(قد يظهر، وذلك أن التكرير يفيد التكثير، وهو قريب من قولهم: «عندي ألفٌ وألف»، وقوله: لو عُدَّ قبر وقبر كنت أكرمهم...).

(١) ينظر روح البيان (٦/ ١٧).

(٢) ينظر محاسن التأويل (٧/ ٢٣٨).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١/ ٩٩)، (١٧/ ٢٢٦). قال الألوسي في "روح المعاني" (٩/ ١٢٦): (ولا يجوز العطف وجعل السجود في الجميع بمعنى الدخول تحت التسخير أو الدلالة على العظمة لأن ذلك عام لجميع الناس فلا يليق حينئذ ذكر{كَثِيرٌ}). أما الشوكاني في فتح القدير (٣/ ٥٢٤) فقال: (وأنت خبير بأنه لا ملجئ إلى هذا بعد حمل السجود على الانقياد، ولا شك أنه يصح أن يراد من سجود كثير من الناس هو انقيادهم لا نفس السجود الخاص، فارتفاعه على العطف لا بأس به، وإن أبى ذلك صاحب "الكشاف" ومتابعوه).

على عبوديتهم لله، لأن المشاهدة أقوى من دلالة الحال، فلم يثبت لهم السجود الذي أثبت لبقية الموجودات وإن كان حاصلا في حالهم كحال المخلوقات الأخرى[1].

(٤٩٩) تفيد الآية أن كثيرا من الناس حق لهم الثواب لسجودهم لله تعالى على وجه الطاعة. وذلك على القول بأن جملة ﴿وَكَثِيرٌ﴾ مبتدأ، و﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ صفة له، والخبر محذوف ثقةً بدلالة خبر قسيمه عليه، تقديره: [حق له الثواب] بدليل ما بعده، وهو قوله سبحانه: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾[2].

(٥٠٠) تفيد الآية أن الذين يسجدون لله سجود طاعة وامتثال من الناس هم كثير، ولكنهم ليسوا أكثر الناس؛ لأن الله تعالى عدل عن كلمة ﴿أكثر﴾ إلى كلمة ﴿كثير﴾، فقال بعد ذكر المخلوقات التي تسجد له: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. ولذلك قال تعالى في آيات أخرى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة هود: ١٧] [سورة الرعد: ١] [سورة غافر: ٥٩]، وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [سورة الإسراء: ٨٩].

(٥٠١) تفيد الآية أن كثيرا من الناس وجب عليه العذاب بكفره وإبائه السجود الذي كلفه الله بأن يكون له خالصا[3]. بناءً على القول بالوقف على قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، ثم استأنف فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، أي وجب بامتناعه من السجود[4].

(٥٠٢) تفيد الآية أن كثيرا من الناس وإن حق عليهم العذاب لكفرهم، إلا أنهم ساجدون لله على رغمهم، إما بظلهم وإما بخضوعهم عند المكاره ونحو ذلك[1]، منقادون لله

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢٦).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٣)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٣٣)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠١)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٩٧).

(٣) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٩٧).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٤).

خاضعون له قهرا، مقرّون له بما تقتضيه عقولهم وتضطرهم إليه، وإن كفروا بغير ذلك من الأمور. هذا على القول بأن ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ معطوفٌ على ما قبله، وتفسير السجود بأنه التذلل والانقياد لتدبير الله عز وجل من ضعف وقوة وصحة وسقم وحسن وقبح ورزق ومنع، وهذا يدخل فيه كل شيء[٢].

(٥٠٣) تدل الآية على أن الناس جميعا خاضعون لله بذواتهم اضطرارا، ولكن المؤمن خاضع لله بظاهره كذلك، أما الكافر فهو متمرد بظاهره، ولأجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾[٣].

(٥٠٤) تفيد الآية أن كثيرا من الناس سيدخلون الجنة، وكثير من الناس سيدخلون النار، لأن العذاب حق عليهم. وهذا على القول بأن الكلام وقف عند قوله تعالى: ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ في الجنة، و﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾. وقد روي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما[٤].

(٥٠٥) تفيد الآية أن أهل الإيمان يسجدون له سجود عبادة، وأرباب الجحود كلّ جزء منهم يسجد له سجودَ دلالة وشهادة[٥].

(٥٠٦) تفيد الآية أن تعذيب الكفار حق؛ لأنهم ظلموا أنفسهم والناس، وضلوا ضلالا بعيدا بعد أن جاءهم المرسلون، فكذبوهم، وآذوا المؤمنين، وجحدوا بالحق مكابرة وعنادا. ولذلك عبر الله تعالى بقوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

---

(١) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١٣).

(٢) ينظر الكشف والبيان (٧/ ١٢)، والهداية (٧/ ٤٨٦٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٤).

(٣) ينظر تفسير الخازن (٣/ ٢٥١).

(٤) ينظر إيضاح الوقف والابتداء (٢/ ٧٨٢)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٤).

(٥) ينظر لطائف الإشارات (٢/ ٥٣٥).

(٥٠٧) تفيد الآية أن كثيرا من الناس – الذين هم الصالحون المتقون المستحقون للثواب – هم الناس على الحقيقة، أما غيرهم فقد خرجوا عن حقيقة جنسهم بانحرافهم في عقائدهم. وهذا بناءً على قول من جعل ﴿وَكَثِيرٌ﴾ مبتدأ، وقوله ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ خبره[(١)]. أي: من الناس الذين هم الناس على الحقيقة، يعني: يحملُ التعريفُ في الناس على الحقيقة والجنس، فإن الجنس إذا أطلق على بعضه اعتبر الكمال فيه[(٢)].

(٥٠٨) تشير الآية إلى أن الإنسان يتميز عن بقية المخلوقات بقدرته على الاختيار، وعنها نشأ اختلاف أحوال الناس، فمنهم من يسجد له ويحق له الثواب، ومنهم من يأبى السجود لله فيحق عليه العذاب[(٣)].

(٥٠٩) تدل الآية على الترهيب من ترك السجود والطاعة، بناءً على القول بأن ﴿وَكَثِيرٌ﴾ مبتدأ، والجملة بعده ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ خبره، وقد أقيمت مقامَ: [لا يسجد]، فكأنه قيل: ويسجد كثير من الناس، ولا يسجد كثير منهم[(٤)].

(٥١٠) تدل الآية على أن كثيرا من بني آدم حق عليه عذاب الله، فوجب عليه بكفره به، وهو مع ذلك يسجد ظِلُّه لله كسائر المخلوقات كما تقدم؛ وبهذا فسر مجاهد الآية[(٥)]، ويكون قوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ معطوفا على قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، ويكون

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٩)، وفتوح الغيب (١٠/ ٤٥٩ – ٤٦٠)، وروح المعاني (٩/ ١٢٧)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٩٨).

(٢) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٥٩ – ٤٦٠). وقد ضعف أبو حيان هذا التخريجَ في البحر المحيط (٧/ ٤٩٥)، ولم يبين وجه ضعفه.

(٣) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٥٣).

(٤) ينظر روح المعاني (٩/ ١٢٧).

(٥) ينظر تفسير الثعلبي (٧/ ١٢)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٧٢). ونقل ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٧٦) عن مجاهد أنه قال: (إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل)، أي سجد بظله.

داخلا في عداد من وصفه الله بالسجود له، ويكون قوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ من صلة ﴿وَكَثِيرٌ﴾ [1].

(٥١١) تدل الآية على أن العقل قد لا ينفع صاحبه، ولا يوصله إلى الإيمان بخالقه وطاعة أوامره؛ وذلك لأن الله وصف الجمادات كلها بالسجود، أما العقلاء فمنهم من لا يسجدون لربهم، فمع أن الله وهبهم عقولا إلا أنهم سُلبوا فائدته. فسبحان من (وهب لأقوام من العقل ما يثبت عليهم الحجة، وأعمى قلوبهم كما شاء عن المحجة) [2].

(٥١٢) تشير الآية إلى أن التسخير والقهر يُثبت القدرة، والاختيار يُثبت المحبة [3].

(٥١٣) تشير الآية إلى أن المؤمن يمتاز عن بقية المخلوقات، لأنه يسجد لله سجود الطاعة الاختيارية، خلافا لبقية الكائنات التي تسجد لله سجود تسخير [4].

(٥١٤) تدل الآية على أن كثيرًا من الناس حقَّ وثبت عليهم العذاب، بسبب إصرارهم على الكفر، وإيثارهم الغيّ على الرشد؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ بيان لحال الذين استحبوا العمى على الهدى [5].

(٥١٥) تفيد الآية أنه يسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند تلاوتها أو سماع تلاوتها [6]. لأنها تضمنت الثناء على الساجدين وذم الممتنعين عن السجود، وجاء في السنة السجود عند هذه الآية كما تقدم في فضائل السورة.

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٨٨).

(٢) صيد الخاطر (ص: ٤٢٥).

(٣) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٥٣).

(٤) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٩٧).

(٥) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٩٣).

(٦) ينظر تفسير الخازن (٣/ ٢٥١).

(٥١٦) تفيد الآية أن من يُهِنْه اللهُ تعالى بتعذيبه على معاصيه وسوء عقيدته، فليس له من يكرمه بإنقاذه من الإهانة والتعذيب، فإنه تعالى يفعل ما يشاء، مما تقتضيه حكمته وعدله، فلا معقب لحكمه ولا معارض لمشيئته[١].

(٥١٧) تدل الآية على أن الكريم من أكرمه الله تعالى، والمهان من أهانه الله؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾.

(٥١٨) تشير الآية إلى أنه لا كرامة إلا بإكرام الله، ولا عزة إلا بعزة الله[٢]؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾.

(٥١٩) تشير الآية إلى أن من أهانه الله لا يوجد مَنْ يُعِزّه؛ لأن عِزَّته لا تكون إلا قَهْرًا عن الله، وهذا مُحَال، أو يكون بشافع يشفع له عند الله، ولا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه سبحانه[٣].

(٥٢٠) تدل الآية على أن العبد إذا هان على الله لم يكرمه أحد، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾، حتى (وإن عظَّمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم أو خوفًا من شرهم، فهم في قلوبهم أحقرُ شيء وأهونُه)[٤].

(٥٢١) تدل الآية على أن الإنسان يَعِزُّ ويُكرَم إذا سجد لله وخضع له، ويَذِلُّ ويُهانُ إذا عصى وأبى السجود لربه سبحانه؛ ويؤخذ ذلك من ربط ترك السجود بالمهانة في هذه الآية، فمن ترك السجود أهانه الله ولم يكن له من يكرمه، وفي المقابل من يسجد لله ويتذلل له فإن الله يعزه ويكرمه[٥].

---

(١) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٩٨).

(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٤).

(٣) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٥٥).

(٤) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص: ٥٨).

(٥) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ٧).

(٥٢٢) تتضمن الآية إنذارا للكفار بأن الله إذا قضى على أحد بالخزي والهوان بسبب كفره وتمرّده فلن يكون له من يبدّل هوانه بكرامة، وهو الفعّال لما يشاء[١].

(٥٢٣) تفيد الآية أن من أهانه الله بالشقاء والكفر لسوء استعداده للإيمان، فإنه لا يقدر أحد على دفع الهوان عنه، ولا يسعده أحد، لأن الأمر بيده تعالى وحده[٢].

(٥٢٤) تومئ الآية إلى أن الجزاء من جنس العمل، فمن هان عليه حق الله أهانه الله تعالى، ومن استهان بمعصية الله جعله الله هينا على الناس، لأن الله تعالى قال في شأن من لم يسجد لله من الناس: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾، (فإنهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم الله، فلم يكن لهم من مكرم بعد أن أهانهم الله)[٣].

(٥٢٥) تفيد الآية أن إهانة الله تعالى لمن يكتب له في اللوح المحفوظ إنما تكون لمن سلك سبيل الغواية، وسدَّ مسامع الهداية، فيأخذه سبحانه إلى مواطن الهوان، فبفعله هانَ، وبإعراضه عن الحق مريدا مختارا عُذِّب[٤]. وإنما يهين الله تعالى من استوجب الشقاء والمهانة، وارتضى لنفسه خسة الكفر، وذلة الجهل؛ وأبى رِفعة الإيمان، وعِزّة العلم، ولا يُعقَل أصلًا أن المولى الكريم يهين من لا ذنب له، بعد أن رفعه وكرّمه، لأن الله تعالى مُنزَّه عن الظلم، فإذا أهان عبدًا فإنما يعاقبه بهذه الإهانة على ظلم نفسه بالرضا بالكفر، والركون إليه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [سورة الصف: ٥][٥].

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٢٤)، والتفسير الحديث (٦/ ٢٩).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٨٨)، والتفسير المنير (١٧/ ١٧٧).

(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص: ٧٠).

(٤) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٦١).

(٥) ينظر أوضح التفاسير (١/ ٤٠٣).

(٥٢٦) تشير الآية إلى وجوب طاعة الله تعالى والخضوع والتذلل له، وأن في ذلك حياة العزة والكرامة[١]، لأن الله تعالى وصف من أبى السجود بأن الله يهينه، ومفهومه أن من سجد لله وخضع الله فإن الله يكرمُه، ومن يُكرمْه الله فلا يهينه أحد[٢].

(٥٢٧) تفيد الآية أن الله يفعل ما يشاء، فالخلق خلقه، وهو المتصرف فيهم مطلق التصرف، فمن شاء أعزه، ومن شاء أذله، فعلى عباده أن يرجعوا إليه بالتوبة، سائلين رحمته، مشفقين من عذابه، فهذا أنجى لهم من عذابه وأقرب إلى رحمته[٣]. ويستفاد من تعقيب قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾.

(٥٢٨) تفيد الآية أن كل شيء بقضاء الله وقدره، والإكرام والإهانة من عنده وبسابق علمه وسابق مشيئته، فمن أهانه الله في الأزل لم يكرمه أحد إلى الأبد[٤].

(٥٢٩) تدل الآية أنه يجوز استعمال المشترك في معنييه أو اللفظ في معنييه الحقيقي والمجازي[٥]. (ووجه الدلالة: أن الله تعالى أراد بالسجود ههنا الخشوع؛ لأنه هو المتصور من الدواب، وأراد به أيضا وضع الجبهة على الأرض، وإلا لكان تخصيص كثير من الناس بالذكر لا معنى له لاستواء الكل في السجود بمعنى الخشوع والخضوع للقدرة، فثبت إرادةُ المعنيين)[٦].

---

(١) ينظر تفسير المدينة المنورة (٢/ ٩٤).

(٢) ينظر الجواب الكافي (ص: ٧٠).

(٣) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٦٣).

(٤) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٧١).

(٥) ينظر الإشارات الإلهية (ص: ٤٤٦)، وفتوح الغيب (١٠/ ٤٥٩)، والتحرير والتنوير (١/ ٩٩). وخالف في ذلك الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢١٣)، والألوسي في روح المعاني (٩/ ١٢٦). والخلاف في المسألة مذكور في كتب الأصول.

(٦) نهاية السول شرح منهاج الوصول (ص: ١١٤)، وينظر كشف الأسرار شرح أصول البزدوي (١/ ٤٠)، وبيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب (٢/ ١٦٥)، وشرح العضد على مختصر المنتهى الأصولي (٢/ ٦٢٦).

ومثل ذلك قيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [سورة الأحزاب: ٥٦].

(٥٣٠) تفيد الآية أن الرب واحد، وكل شيء مطيعٌ له ومنقاد، وليست الخصومة والاختلاف إلا بمحض مشيئة الله وإرادته. ولذلك فقد وسط قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ﴾ بين الفصل بين أهل الملل وذكر مصير المؤمنين والكفار، وذلك للتفريع على اختلاف الكفرة، واستبعاده مع وجود هذه الآيات الصارفة[1].

(١) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٦٢).

**المطلب الثاني: الهدايات الجزئية الخاصة بالربع الثاني من سورة الحج:**

يبتدئ الربع الثاني من الآية التاسعة عشر من السورة إلى الآية السابعة والثلاثين.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾ [سورة الحج: ١٩].

(٥٣١) تدل الآية على أن المؤمن خصم الكافر، والكافر خصم المؤمن في كل زمان ومكان؛ حيث إن الآية نزلت في عليٍّ وحمزة وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم، وهؤلاء الخصم المؤمن، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وهؤلاء الخصم الكافر، وذلك أنهم تقاتلوا يوم بدر بالمبارزة، ونصر الله الخصم المؤمن على الكافر[(١)].

(٥٣٢) تدل الآية على أن اعتقاد كل من الفريقين بحقيّة ما هو عليه، وبطلان ما عليه صاحبه، وبناء أقواله وأفعاله عليه، خصومةٌ للفريق الآخر، وإن لم يجر بينهما التحاور والخصام[(٢)].

(٥٣٣) تفيد الآية أن الكفر ملة واحدة[(٣)]، فالكفار وإن اختلفت طوائفهم بمثابة واحدة، فيكونون صنفا والمؤمنون صنف، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى ذكر في آية سابقة خمسة أصناف مع المؤمنين، وفي هذه الآية جعلهم جميعا خصما لأنهم متساوون في الكفر والمؤمنين خصما[(٤)]. ولهذا قال تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ﴾، ولم يقل اختصما، لأن كل واحد من الخصمين جمع[(٥)].

---

(١) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٦٥).

(٢) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠١)، وروح المعاني (٩/ ١٢٧)، ومحاسن التأويل (٧/ ٢٣٨)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٠٢).

(٣) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٤).

(٤) ينظر بيان المعاني (٦/ ١٦٥).

(٥) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٤)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٦).

(٥٣٤) تفيد الآية أن الإيمان وأهله والكفر وأهله خصمان مذ كانا إلى قيام الساعة، فالصراع مستمر بينهما بالعداوة والجدال والقتال[(١)].

(٥٣٥) تفيد الآية أن الله تعالى يفصل بين المؤمنين والمشركين الذين تبارزوا في بداية معركة بدر، فيدخل أولئك المؤمنين الجنة، ويدخل الكافرين من النار؛ لأن قيس بن عباد أقسم أن هذه الآية أنزلت في الذين تبارزوا يوم بدر، وهم حمزة، وعلي، وعبيدة رضي الله عنهم، وشيبة، وعتبة، والوليد بن عتبة، وإذا كانت الآية تحمل على عمومها فإنهم داخلون في الخصمين دخولا أوليا[(٢)].

(٥٣٦) تفيد الآية أن الكفار تفُصّل لهم من النار الهائلة قطع تشبه الثياب تكون على مقادير جثثهم، وتحيط بهم كما تحيط الثياب بلابسها، ماسة أبدانهم كما يمس الثوب جسم اللابس له، ويحتك بلحمه، فتتقد عليهم[(٣)]. وقد جاء هذا مبينًا في آيات أخر من كتاب الله، كقوله فيهم: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [سورة إبراهيم: ٥٠]، والسرابيل: هي الثياب التي هي القمص، وكقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [سورة الأعراف: ٤١]، والغواشي: جمع غاشية، وهي غطاء كاللحاف[(٤)].

---

(١) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١٤). قال ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٠٦): (وقول مجاهد وعطاء: إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون، يشمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها؛ فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل. وهذا اختيار ابن جرير، وهو حسن).

(٢) قال الطبري في تفسيره (١٦/ ٤٩٣): (فإن قال قائل: فما أنت قائل فيما روي عن أبي ذر في قوله: إن ذلك نزل في الذين بارزوا يوم بدر؟ قيل: ذلك إن شاء الله كما روي عنه، ولكن الآية قد تنزل بسبب من الأسباب، ثم تكون عامة في كل ما كان نظير ذلك السبب. وهذه من تلك، وذلك أن الذين تبارزوا إنما كان أحد الفريقين أهل شرك وكفر بالله، والآخر أهل إيمان بالله وطاعة له، فكل كافر في حكم فريق الشرك منهما في أنه لأهل الإيمان خصم، وكذلك كل مؤمن في حكم فريق الإيمان منهما في أنه لأهل الشرك خصم).

(٣) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٦٣)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٩٨).

(٤) ينظر أضواء البيان (٤/ ٢٨٩).

(٥٣٧) تؤذن الآية بأن النار المحيطة بالكفار متراكمة، بعضها فوق بعض، على القول بأن في الآية استعارة تمثيلية تهكمية، وكأنه شبه أعداد النار المحيطة بهم بتقطيع ثياب وتفصيلها لهم على قدر جثثهم، وليس هناك تقطيع ولا ثياب على الحقيقة[(١)].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١﴾. [الحج: ٢٠ – ٢١]:

(٥٣٨) تفيد الآية أن الماء الشديد الحرارة يُصَب على رؤوس أهل النار، فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى أجوافهم، فيسلت ما فيها حتى يخرج من أقدامهم، ثم يعاد كما كان[(٢)]. ويؤخذ هذا من الحديث النبوي الموافق لمعنى الآية[(٣)].

(٥٣٩) تفيد الآية أن الحميم قد بلغ من الحر درجة عظيمة حتى إنه إذا صب على رءوسهم كان تأثيره في الباطن مثل تأثيره في الظاهر، فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم وما فيها من شحم كما يذيب جلودهم، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ۝١٥﴾ [سورة محمد: ١٥][(٤)]. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: (لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا

---

(١) ينظر روح المعاني (٩/ ١٢٨).

(٢) ينظر الصحيح المسبور (٣/ ٤٠٧).

(٣) أخرج أحمد في المسند (٣٧٤/٢، ح ٨٨٥١)، والترمذي في سننه: (كتاب صفة أهل جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، ح ٢٥٨٢، ٧٠٥/٤) عن أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: ((إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان)). وقال الترمذي: (حسن صحيح غريب). وأخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب التفسير، تفسير سورة الحج، ح ٣٤٥٨، ٤١٩/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وقد ضعف إسنادَه محققو طبعة الرسالة (١٤/ ٤٥٣) لضعف درّاج أبي السمح، ودرّاج صدوق، وإنما ضعفوه في روايته عن أبي الهيثم (ينظر تهذيب الكمال: ٨/ ٤٧٩، ت ١٧٩٧)، وهو هنا يروي عن القاضي عبد الرحمن ابن حُجَيْرة وهو ثقة، ولذا حسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/ ١٣٨٣) بعد أن ضعف إسناده في تعليقه على المشكاة (٣/ ١٥٨١).

(٤) ينظر تفسير الرازي، والبحر المحيط (٧/ ٤٩٦)، وصفوة التفاسير (٢/ ٢٦٢)، والتفسير المنير (١٧/ ١٨٢).

لأذابتها)[1]؛ لأن الظاهر أن ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ معطوف على «ما» الموصولة من قوله: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ التي هي نائب فاعل ﴿يُصْهَرُ﴾، وعلى هذا الظاهر المتبادر من الآية فذلك الحميم يذيب جلودهم، كما يذيب ما في بطونهم لشدة حرارته.

(٥٤٠) تفيد الآية أن الجلود تحرق فتنكمش وتتساقط، ثم يبدلون غيرها كما جاء في آية أخرى؛ فإن الجلود لا تذاب ولا تنصهر، وإنما تحرق، ولكن عطف على ما قبله من باب المشاكلة، فقدر لها فعل يناسبها: ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ أي وتحرق الجلود، أو تشوى الجلود، فهو مثل قول العرب: "أتيته فأطعمني ثريدا، إي والله ولبنًا قارصا"، أي وسقاني لبنا. وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [سورة الحشر: ٩]، أي واعتقدوا الإيمان[2].

(٥٤١) تفيد الآية أن أهل النار يضربون بمطارق حديدية تنْهدُّ منها الجبال[3]. فقد بيّن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عظم المقامع وشدتها فقال: ((لو أنّ مِقْمعا من حديد وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلّوه من الأرض))[4]. وجاء في حديث آخر: ((لو ضرب الجبل بمِقْمَع من حديد لتفتّتَ ثم عاد كما كان))[5].

---

(١) التفسير البسيط (١٥/ ٣٣٣).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٠٢)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٧)، والبحر المحيط (٧/ ٤٩٦). ورد هذا الشوكاني في فتح القدير (٣/ ٥٢٥) فقال: (ولا يخفى أنه لا ملجئ لهذا، فإن الحميم إذا كان يذيب ما في البطون فإذابته للجلد الظاهر بالأولى).

(٣) ينظر التفسير الحديث (٦/ ٣٢).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/٣، ح ١١٢٥١)، وأبو يعلى في مسنده (٥٢٦/٢، ح ١٣٨٨). قال الهيثمي في المجمع (٣٨٨/١٠): (فيه ضعفاء وثقوا). وأخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب الأهوال، ح ٨٧٧٣، ٦٤٢/٤)، وصححه، وسكت عنه الذهبي. وضعفه الألباني في "الضعيفة" (٩/ ٣٣٥، رقم ٤٣٤٩).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٨٣/٣)، وأبو يعلى في مسنده (٢/ ٥٢١، ح ١٣٧٧)، وإسناده ضعيف، علته درّاج، فإنه ضعيف في روايته عن أبي الهيثم. وعلق عليه الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٨٨): (وفيه ابن لهيعة، وقد وثق على ضعفه). وأخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب الأهوال، ح ٨٧٧٧، ٤/ ٦٤٤) بلفظ: ((لو ضرب بمقمع من حديد جهنم

(٥٤٢) تدل الآية على أن أهل النار يعذبون بالقهر والإذلال؛ لأنهم يضربونهم بالمقامع، والمقمعة آلة تستعمل في القمع عن الشيء والزجر عنه، وهي في الأصل السياط التي تقمع بها الدابة، وتَرْدعها لتطاوعك[(١)]، يقال: قمع فلان فلانا إذا قهره وأذله.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾ [سورة الحج: ٢٢].

(٥٤٣) تفيد الآية أن النار تضربهم بلهبها، فترفعهم إلى أعلاها حتى يوشكوا على الخروج، فتضربهم خزنة جهنم بالمقامع فيهوون فيها سبعين خريفا. ويؤخذ هذا من تفسير الحسن البصْري للآية[(٢)]، وقول الفضيل بن عياض: (والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل لمقيدة، وإن الأيدي لموثقة، ولكن يرفعهم لهبها، وتردهم مقامعها)[(٣)].

(٥٤٤) تفيد الآية أن فقدان الأمل في انقطاع العقاب زيادة في العذاب، لأن الله أخبر في هذه الآية بأن الكفار كلما أرادوا أن يخرجوا من جهنم أعيدوا فيها، فييأسون من الخروج منها، كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧﴾ [سورة المائدة: ٣٧][(٤)]. والمراد إعادتهم إلى معظم النار، لا أنهم ينفصلون عنها بالكلية ثم يعودون إليها[(٥)].

---

الجبل لتفتت كما يضرب به أهل النار، فصار رمادا)) وصححه ووافقه الذهبي! أما الألباني فقد ضعفه في ضعيف الجامع الصغير (ص: ٦٩٤، رقم: ٤٨٠٩).

(١) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٦٢).

(٢) ينظر تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٤٧)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٧٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٧).

(٤) ينظر روح المعاني (٩/ ١٢٩).

(٥) ينظر تفسير النسفي (٢/ ٤٣٤).

(٥٤٥) تومئ الآية إلى أن عذاب الكفار في النار موافق لحالهم مع الكفر في الدنيا، فلما كان الكفار في سجن الكفر والشرك وضيقه، وكانوا كلما هموا بالخروج منه إلى فضاء الإيمان وسعته وروحه رجعوا على حوافرهم كان عقوبتهم في الآخرة كذلك، ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾، فالكفر والمعاصي والفسوق كله غموم، وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه، فلا يزال في غم ذلك حتى يموت، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدنيا بقي في غمه في البرزخ وفي القيامة، وإن خرج من غمه وضيقه هاهنا خرج منه هناك، فما حبس العبد عن الله في هذه الدار حبسه عنه بعد الموت وكان معذبا به هناك[١].

(٥٤٦) تدل الآية على أن لأهل النار أماكن مُعَدّةً لتعذيبهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾، والظاهر تعليق الإعادة على الإرادة للخروج، فلا بد من محذوف يصح به المعنى، أي كلما أرادوا أن يخرجوا من أماكنهم المعدة لتعذيبهم أعيدوا فيها[٢].

(٥٤٧) تفيد الآية أن العذاب النفسي لا يقل عن العذاب الحسي. ويؤخذ هذا من أن الله تعالى ذكر العذاب الحسي ثم أتبعه بأن أهل النار يعذبون فيها كذلك بتعذيب نفسي، فيتمنون الخروج من جهنم بسبب الغم العظيم الذي لحقهم: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ﴾، على القول بأن ﴿مِنۡ﴾ سببية، أي بسبب غم العذاب وغم البؤس، وشعورهم بأنه أبدي خالد[٣].

(٥٤٨) تفيد الآية أن مخاطبة المجرم بما يشعره بالذل والإهانة نوع من العذاب؛ وذلك لأن الله تعالى أخبر في هذه الآية أن الملائكة يخاطبون أهل النار ويقولون لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، جمعًا لهم بين التعذيب البدنيّ والنفسي[٤].

---

(١) ينظر روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٤٤٣).

(٢) ينظر البحر المحيط (٧/ ٤٩٦).

(٣) ينظر البحر المحيط (٧/ ٤٩٦)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٦٣).

(٤) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٠١).

(٥٤٩) تفيد الآية أن تعذيب الكفار يعم جميع أجسادهم ظاهرا وباطنا. لأن التعبير ب ﴿فِيهَا﴾ يدل على أن نار جهنم تحيط بهم إحاطة الظرف بالمظروف، ويعذبون في باطنهم فيصهر ما في بواطنهم.

(٥٥٠) تفيد الآية أن المجرمين يهانون في جهنم بالعذاب قولا وعملا[١].

(٥٥١) تفيد الآية أن تعذيب الكفار متجدد مستمر لا يفتر، فكلّما ظنوا أن عذابهم وغمهم انتهيا أو كلما أرادوا أن يتخلصوا منهما، عادا فتجددا قويين شديدين[٢].

(٥٥٢) تدل الآية على أنه لا أشدّ من اليأس بعد الطمع؛ لأن أهل النار يصيبهم اليأس بعد أنْ طمِعوا في النجاة، ليزداد عذابهم، كما يقول تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ﴾، فساعة يسمعون الإغاثة يأملون ويستبشرون، فيأتيهم اليأس حينما يؤتون ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۢ﴾ [سورة الكهف: ٢٩][٣].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحج: ٢٣ – ٢٤].

(٥٥٣) تدل الآية على أن النفوس لا ينبغي أن تترك في حال الفزع، بل يتبع ذلك بما يزيل عنها خوفها ورعبها. ويؤخذ هذا من أن الله أتبع وصف عذاب الكفار بوصف نعيم أهل الجنة على منهج القرآن في قرن الترهيب بالترغيب[٤].

---

(١) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٠١).

(٢) ينظر التفسير الحديث (٦/ ٣٠).

(٣) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٦٢).

(٤) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٩٦).

(٥٥٤) يؤخذ من الآية أن استقبال المضيف للضيف وإدخاله إلى النزل الذي أعده له أظهرُ في الإكرام وأزيد في التشريف وأدلّ على الحفاوة والترحاب. وذلك لأن الله أسند إدخال أهل الجنة إليه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، ففي (ذكر الله سبحانه وتعالى هنا، هذا الذكرَ المؤكدَ، تكريمٌ للمؤمنين، واحتفاء بهم، وأن الله تبارك وتعالى هو الذي يتولى إدخالهم الجنة، ولا يدع هذا لملائكته، مبالغةً في تكريمهم، فضلا منه وكرمًا ورحمة)[١].

(٥٥٥) تؤذن الآية بكمال مبايَنة حال المؤمنين لحال الكفار، وتبين مزيد عناية الله عز وجل بهم. ويستفاد ذلك من تغيير الأسلوب فيها بإسناد الإدخال إلى اسم الجلالة، وتصدير الجملة بحرف التحقيق ﴿إِنَّ﴾، وفصلها للاستئناف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾ [٢].

(٥٥٦) تفيد الآية أن أهل الجنة يلبسون حليا على الحقيقة، كما أفصحت به هذه الآية ونظيراتها، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((تبلغ الحِليةُ من المسلم حيث يبلغ الوَضوء))[٣].

(٥٥٧) تفيد الآية أن الملائكة تُلبِس المؤمنين في الجنة بأمر ربهم أساورَ متخَذةً ومصنوعة من ذهب، ويمنحون لؤلؤا يحلون به، لأن الله تعالى قال: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾، والفاعل هم الملائكة[٤].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠١١)، وينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٦٨)، والسراج المنير (٢/ ٥٤٥).

(٢) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٢)، وروح المعاني (٩/ ١٣٠).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، ح ٢٥٠، ٢١٩/١)، وينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٢٩).

(٤) ينظر روح المعاني (٩/ ١٣٠)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٠١). وقد ذكره الرازي في تفسيره (٢١/ ٤٦١) أحد وجهين فقال: (والمعنى أنه يحليهم الله تعالى ذلك أو تحليهم الملائكة). وكذلك فعل الشوكاني في فتح القدير (٣/ ٥٢٥).

(٥٥٨) تفيد الآية أن أساور أهل الجنة قد تكون من ذهب مرصع بلؤلؤ، وقد يكون من الذهب وحده ومن اللؤلؤ وحده. أخذا من قراءة: ﴿ولؤلؤٍ﴾ بالجر[١]، عطفا على ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ أو ﴿مِن ذَهَبٍ﴾، أي: قد جمع منهما بأن يُرصَّع الذهب باللؤلؤ[٢]، أو على قراءة من قرأ بالنصب ﴿وَلُؤۡلُؤٗا﴾ [٣]، والتقدير: ويُحلَّون لؤلؤا[٤]. ولا يبعد أن يكون في الجنة سوار من لؤلؤ مصمت، بمعنى أنه لا يخالطه شيء، وهو ظاهر هذه القراءة، ويؤيده كتابة الألف في الرسم بعد الواو[٥]. وقد يوجه على أنه عطف على محلها، فتحتمل المعنى الأول.

(٥٥٩) تفيد الآية أن أهل الجنة يتنعمون فيها بلبس حرير الجنة تنعيمًا لأجسادهم وتكميلا لترفُّههم[٦]. وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [سورة الكهف: ٣١]، والسندس هو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر، لقوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ [سورة الإنسان: ٢١][٧].

---

(١) وهي قراءة ابن كثير وأبي عَمْرو وابْن عامر وحمزة والكسائي. ينظر السبعة في القراءات (ص: ٤٣٥)، وتحبير التيسير في القراءات العشر لابن الجزري (ص: ٤٧٠).

(٢) ينظر مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني (ص: ٢٨٤)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٣٨)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٢٥٩)، وروح المعاني (٩/ ١٣٠). قال الزجاج في معاني القرآن (٣/ ٤٢٠): (وجائز أن يكون أساور من ذهب ولؤلؤ، فيكون ذلك فيها خلطا من الصنفين).

(٣) وهم نافع وعاصم وأبو جعفر ويعقوب. ينظر السبعة في القراءات (ص: ٤٣٥)، والمبسوط في القراءات العشر (ص: ٣٠٦)، وتحبير التيسير في القراءات العشر لابن الجزري (ص: ٤٧٠).

(٤) ينظر المحتسب لابن جني (٢/ ٧٨)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٧٥)، والكشاف (٣/ ١٥١)، والبحر المحيط (٧/ ٤٩٧).

(٥) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٢٩)، والبحر المحيط في التفسير (٧/ ٤٩٧)، والتفسير المظهري (٦/ ٢٦٦).

(٦) ينظر الفواتح الإلهية (١/ ٥٥١).

(٧) ينظر تفسير ابن كثير (٨/ ٢٩٣). وقال الرازي في تفسيره (٢١/ ٤٦١) أن السندس هو الديباج الرقيق، وهو الخز، والإستبرق هو الديباج الصفيق.

(٥٦٠) تفيد الآية أن الله تعالى يوصل عباده المؤمنين في الآخرة إلى ما حرمه عليهم في الدنيا[١]؛ لأنه حرم على الرجال لبس الحرير في الدنيا[٢]، ويثيبهم بحرير الجنة في الآخرة، وحرم عليهم الخمر في الدنيا، ويجزيهم بخمر الجنة في الآخرة. وحرير الآخرة لا يشبه حرير الدنيا، لأن أمور الآخرة لا تشبه أمور الدنيا إلا في الأسماء فقط، وأما الصفات فمتباينة[٣].

(٥٦١) تفيد الآية أن جميع لباس أهل الجنة من حرير[٤]، لأن الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾. أي: جميع ما يلبسونه حرير، كما تفيده هذه الإضافة[٥].

(٥٦٢) تفيد الآية أن غالب أهل الجنة يلبسون الحرير، ويستثنى من لبسه في الدنيا، لأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم قال: ((من لَبِس الحرير في الدنيا لم يَلْبَسه في الآخرة، وإن

---

(١) ينظر اللباب (١٤/ ٥٥).

(٢) وفي الحديث أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: ((حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي، وأحل لإناثهم)). أخرجه الترمذي في سننه: (كتاب اللباس، باب ما جاء في الحرير والذهب، ح ١٧٢٠، ٤/٢١٧)، وقال: (حسن صحيح)، وأخرجه النسائي بنحوه في سننه: (كتاب الزينة، باب تحريم الذهب على الرجال، ح ٥١٤٨، ٨/١٦١). وصححه الألباني في الإرواء (١/ ٣٠٥، رقم ٢٧٧).

(٣) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١٥). وهذا المعنى مأخوذ من قول ابن عباس رضي الله عنهما: (ليس في الجَنَّةِ شيءٌ يُشْبِهُ ما في الدنيا إلَّا الأسماء). أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٦، رقم ٢٦٠)، والطبري في تفسيره (١/ ١٧٤)، وهنّاد في "الزهد" (١/ ٣٤٩)، وأبو نعيم في "صفة الجنة" (١/ ١٤٧، رقم ١٢٤)، والبيهقي في "البعث والنشور" (ص: ٥٩٣، رقم ٩٠٦)، وقد جوّد إسنادَه المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣١٦، ح ٥٧٥٩)، وأخرجه الضياء في الأحاديث المختارة (١٠/ ١٦، رقم ٦)، وهو قوي السند كما في "الصحيحة" (٥/ ٢١٩ – ٢٢٠، رقم ٢١٨٨).

(٤) ينظر فتح القدير (٣/ ٥٢٦)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٦٤).

(٥) وذكر احتمالا آخر (٣/ ٥٢٦) فقال: (ويجوز أن يراد أن هذا النوع من الملبوس الذي كان محرما عليهم في الدنيا حلال لهم في الآخرة، وأنه من جملة ما يلبسونه فيها، ففيها ما تشتهيه الأنفس، وكل واحد منهم يعطى ما تشتهيه نفسه).

دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو))[1]. فإذا لم يتب منها حُرِمها في الآخرة وإن دخل الجنة، لاستعجاله ما حُرِّم الله عليه في الدنيا[2]، والله أعلم.

(٥٦٣) تدل الآية على أن النعيم ليس مقصورا على النعيم الحسي، وإنما كماله بالنعيم النفسي؛ لأن الله تعالى بعد أن ذكر نعيم الجنة ذكر النعيم المعنوي.

(٥٦٤) تفيد الآية أن كل واحد من أهل الجنة يحلى بعدة أساور: واحد من فضة، وواحد من ذهب، وواحد من لؤلؤ ويواقيت، وهذا القول منسوب إلى سعيد بن المسيب[3]،

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى: (كتاب الزينة، باب لبس الحرير، ح ٩٥٣٤، ٨/ ٤٠٦)، وابن حبان في صحيحه (٢٥٣/١٢، ح ٥٤٣٧)، والحاكم في المستدرك: (كتاب اللباس، ح ٧٤٠٤، ٢١٢/٤) وصححه ووافقه الذهبي. وأخرجه الشيخان عن أنس بن مالك بلفظ: ((من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة)) (صحيح البخاري: كتاب اللباس، باب لبس الحرير للرجال، ح ٥٤٩٤، ٥/ ٢١٩٤، وصحيح مسلم: كتاب اللباس، باب تحريم الذهب والحرير على الرجال وإباحته للنساء، ح ٢٠٧٣، ٣ / ١٦٤٥).

(٢) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٣٠). ثم قال القرطبي: (لا يقال: إنما يحرم ذلك في الوقت الذي يعذب في النار أو بطول مقامه في الموقف، فأما إذا دخل الجنة فلا، لان حرمان شيء من لذات الجنة لمن كان في الجنة نوع عقوبة ومؤاخذة، والجنة ليست بدار عقوبة، ولا مؤاخذة فيها بوجه. فإنا نقول: ما ذكرتموه محتمل، لولا ما جاء ما يدفع هذا الاحتمال ويرده من ظاهر الحديث الذي ذكرناه. وما رواه الأئمة من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة)). والأصل التمسك بالظاهر حتى يرد نص يدفعه، بل قد ورد نص على صحة ما ذكرناه، وهو ما رواه أبو داود الطيالسي في مسنده:...قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو)). وهذا نص صريح وإسناده صحيح. فإن كان: ((وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو)) من قول النبي صلى الله عليه وسلم فهو الغاية في البيان، وإن كان من كلام الراوي على ما ذكر فهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال، ومثله لا يقال بالرأي، والله أعلم). والحديث الذي ذكره في شأن الخمر أخرجه البخاري بهذا اللفظ في صحيحه: (كتاب الأشربة في فاتحته، ح ٥٢٥٣، ٥/ ٢١١٩). وحديث أبي داود الطيالسي أخرجه في مسنده (ح ٢٣٣١، ٣/ ٦٦٧). وأخرجه كذلك بتلك الزيادة النسائي في سننه الكبرى (كتاب الزينة، باب لبس الحرير، ح ٩٥٣٤، ٨/ ٤٠٦)، وابن حِبَّان في صحيحه: (كتاب اللباس وآدابه، ذكر البيان بأن لابس الحرير في الدنيا في كل وقت محرم لبسه في الجنة إذا دخلها، ح ٥٤٣٧، ١٢/ ٢٥٣)، والحاكم في المستدرك (كتاب اللباس، ح ٧٤٠٤، ٤/ ٢١٢)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) ينظر تفسير يحيى بن سلام (١/ ١٨٤)، وينسب إلى سعيد بن جبير كما في التفسير البسيط (١٣/ ٦١٣)، وزاد المسير (٥/ ١٣٧).

وهو مأخوذ مما دلت عليه هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [سورة الإنسان: ٢١] [(١)].

(٥٦٥) تفيد الآية أن أهل الجنة يكونون حِسانا، ويزدادون حُسنا بما يضعونه من أساور. بناءً على قراءة ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يحْلَون﴾، من حَلِي بعيني يَحْلَى، إذا استحسنتُه، وهو في الأصل من الحلاوة، و﴿مِنْ﴾ سببية، والمعنى يحلى بعضهم بعين بعض بسبب لبس أساور الذهب واللؤلؤ[(٢)].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الحج: ٢٤].

(٥٦٦) تفيد الآية فضل كلمة: لا إله إلا الله؛ لأن المؤمنين هداهم الله في الدنيا إلى الطيب من القول، وقد فسر بأنها كلمة التوحيد، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤].

(٥٦٧) تفيد الآية فضل الذكر؛ لأن الله أخبر بأنه هدى المؤمنين في الدنيا إلى الطيب من القول: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، وقد فسر بأنها كلمة الإخلاص وسائر ما فيه ذكر الله تعالى[(٣)]. قال ابن زيد: (هدوا إلى الكلام الطيّب: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، قال الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [سورة فاطر: ١٠]) [(٤)].

---

(١) ينظر تفسير يحيى بن سلام (١/ ١٨٤)، وتفسير ابن أبي زمنين (٤/ ٣٣)، والتفسير البسيط (١٣/ ٦١٣)، وتفسير البغوي (٥/ ١٦٩)، وزاد المسير (٥/ ١٣٧).

(٢) ينظر البحر المحيط في التفسير (٧/ ٤٩٧).

(٣) ينظر البحر المحيط (٧/ ٤٩٨)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٨)، وروح المعاني (٩/ ١٣١).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٠٠).

(٥٦٨) تفيد الآية أن التكلم بالطيب من القول محضُ توفيق من الله تعالى[١]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾، والهداية هنا هداية معونة وتوفيق.

(٥٦٩) تفيد الآية أن هداية المؤمنين إلى القول الطيب والصراط الحميد من النعيم النفسي الذي يكون في الجنة؛ إذ إن أهل الجنة يسمرون ويتبادلون القول الطيب ويفعلون الفعل الحميد في الآخرة، فيضاف إلى إنعام الله الحسيّ إنعامٌ بالمسامرة التي ليس فيها فسوق في القول، بل مبادلة محبة بمحبة[٢].

(٥٧٠) تفيد الآية أن ما يتكلم به أهل الجنة يهديهم الله إليه ويلهمهم إياه؛ لأن الله قال: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾، وقد فسر: بأن ذلك يكون في الآخرة، ومن ذلك قولهم عند دخول الجنة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ [سورة الزمر: ٧٤]. وقولهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾ [سورة فاطر: ٣٤ – ٣٥]. وما يقع في محاورتهم من طيب القول: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ [سورة الواقعة: ٢٥ – ٢٦]، ويجمع ذلك قوله تعالى في وصفهم: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [سورة يونس: ١٠]، فهذا هو القول الطيب الذي هدوا إليه.

(٥٧١) تفيد الآية أن الجنة هي المكان الذي يذكُر المؤمنون فيه ربهم ويحمدونه فيه، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في وصف أهل الجنة: ((... يُلْهَمون التسبيحَ والتحميدَ، كما يُلْهَمون النَّفَسَ))[٣].

---

(١) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ٩).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٦٦).

(٣) رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (كتاب صفة الجنة، باب في صفات الجنة وأهله، ح ٢٨٣٥، ٤/ ٢١٨٠).

(٥٧٢) يفهم من الآية أن من الشقاء افتقاد الكلم الطيب والابتلاء بسماع الكلمات الفظة والألفاظ البذيئة[١]؛ وذلك لأن الله جعل الطيب من القول من نعيم أهل الجنة، ومن ثم يكون خلافه من الشقاء.

(٥٧٣) تفيد الآية أن الحميد من أسماء الله الحسنى، لأن الصراط أضيف إليه عز وجل: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾. أي: وهدوا إلى صراط الله الحميد، كما أضيف إليه في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [سورة إبراهيم: ١ – ٢]. ومعنى الحميد: المستحق لغاية الحمد لذاته[٢]، المحمود عند أوليائه من خلقه[٣].

(٥٧٤) تفيد الآية أن الطريق الذي يوصل السائر فيه إلى الله واحد لا يتعدد؛ لأن الله كثيرا ما يضيف الصراط إليه، دلالة على أنه يوصل إليه[٤]، ويذكره بصيغة الإفراد، مثل قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣]، والمراد به: دين الإسلام الذي شرعه لخلقه[٥].

(٥٧٥) تفيد الآية أن صراط الله محمودُ العاقبة، فعاقبته هي الجنة[٦]؛ لأن الله تعالى ذكر أن الذين يدخلون الجنة هم الذين هدوا إلى صراطه في الدنيا: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾.

---

(١) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ١٠).

(٢) ينظر روح المعاني (٩/ ١٣١).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٠٠).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٦)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٦٥).

(٥) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٠٠).

(٦) ينظر قول الماوردي في النكت والعيون (٤/ ١٥) حيث قال: (ويحتمل عندي تأويلًا ثالثًا: أنه ما حمدت عواقبه وأمنت مغبته).

(٥٧٦) تفيد الآية أن صراط الله هو الطريق الحميد الذي يجعل أقوالهم وأفعالهم مرضيّةً عند ربهم، محمودةً لدى معاشريهم وإخوانهم، لما فيها مما يجمل في المعاشرة والاجتماع[(١)].

والإضافة هنا على حد إضافته في قوله: "دار الآخرة"[(٢)].

(٥٧٧) تفيد الآية أن الدين يشتمل على كل ما هو محمود، فهو يتضمن كل ما هو محمود في العقائد والأخلاق والآداب والأعمال والسلوك والمناهج، من غير إفراط ولا تفريط[(٣)].

(٥٧٨) تشير الآية إلى أن المؤمنين نالوا الهداية بحمد ربهم ومِنّته عليهم، لأن الله تعالى ذكر اسمه ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ خاصةً هنا ليبين هذا الملحظ، ولهذا يقولون عند دخول الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [سورة الأعراف: ٤٣][(٤)].

(٥٧٩) تفيد الآية أن الإسلام هو الصراط المحمود في كل مراحله من مبتدئه إلى منتهاه، وكلها خير، فالسائر فيه يتدرج عبر مدارج الاستقامة، وكل مرحلة إلا وهي محمودة في بدئها ونهايتها. ويؤخذ هذا من حمل الإضافة في قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾، على الإضافة البيانية، كقولهم: خاتم حديد، أي خاتم هو حديد[(٥)].

(٥٨٠) تومئ إلى أن ما فيه أهل الجنة لا يخرجهم إلى خشونة المقال ورداءة الأفعال الشائنتين لحسن ما هم فيه، المنقصتين للذة الاجتماع. بناء على القول بأن الهداية في الآية تكون في الآخرة بعد دخول الجنة، وأن الإضافة هنا بيانية، والمراد بالقول الطيب القولُ الذي تستلذه النفوس الواقعُ في محاورة أهل الجنة بعضهم لبعض. وبالصراط الحميد ما يسلكه أهل الجنة في معاملة بعضهم بعضًا من الأفعال التي يُحمدون عليها أو ما هو أعمّ من ذلك. فحاصل

---

(١) ينظر روح المعاني (٩/ ١٣١)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٠٤).

(٢) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١٥).

(٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٦).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٦).

(٥) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٦٥).

الجملة الأولى وصف أهل الجنة بحسن الأقوال، وحاصل الثانية وصفهم بحسن الأفعال، أو مما هو أعمُّ منها ومن الأقوال. وكأنه تعالى بعد أن ذكر حسن مسكنهم وحليهم ولباسهم، ذيّل ذلك بحسن معاملة بعضهم بعضًا قولا وفعلا[(١)].

(٥٨١) تفيد الآية أنه من تدبر مصير المؤمنين والكافرين فسيختار طريق الإيمان الذي لا مشقة في سلوكه، ولا سوء في منتهاه[(٢)].

(٥٨٢) تومئ الآية إلى أن الهداية مع أنها من الله إلا أنها تبتدئ بعمل من المهدي بأن يتجه إلى الحق مخلصا النية، فيأخذ الله بيده، ويبلغ به إلى أقصى ما يبلغ به من مراتبه[(٣)].

(٥٨٣) تدل الآية على أن السبب في النعيم الذي آتاهم الله بفضله ومنته، هو عملهم الصالح في الدنيا وأقوالهم الطيبة بالتوحيد والعبادة، وسلوكهم الطريق الأقوم[(٤)]، على القول بأن هذه الآية تعليلٌ لما قبلها.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥]:

(٥٨٤) تفيد الآية أن الكفار من شأنهم صدُّ الناس عن سبيل الله ومنعهم من الحج إلى المسجد الحرام. لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ﴾، فعبر بالفعل المضارع، وعطَفه على الماضي، لأنّ الصدّ بمعنى دوام الصفة لهم[(٥)]. قال الرازي: (يقال: فلان يحسن إلى

(١) ينظر روح المعاني (٩/ ١٣١).

(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٥)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٩٣).

(٣) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٦٥).

(٤) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٦٦).

(٥) ينظر الكشف والبيان (٧/ ١٥)، والكشاف (٣/ ١٥١).

الفقراء ويعين الضعفاء، لا يراد به حال ولا استقبال، وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه في جميع أزمنته وأوقاته، فكأنه قيل: إن الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله)[1]. وهذا التركيب في هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [سورة الرعد: ٢٨] أي: ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبُهم بذكر الله.

(٥٨٥) تفيد الآية عظم إثم من صد عن سبيل الله، سواء بمنع الناس من الدخول في الإسلام، أو بمنعهم من أداء شعائره وتطبيق أحكامه[2]؛ لأن الله ذم من يفعل ذلك وتوعدهم بالعذاب الأليم.

(٥٨٦) تفيد الآية أن من ترك الصدّ زال عنه الكفر وإن طال ذلك منه؛ لأن الله تعالى عبّر بالمضارع ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ رحمةً منه لهم، ليكون كالشرط في الكفر[3].

(٥٨٧) تفيد الآية أن الذين جحدوا توحيد الله، وكذبوا رسله، ومنعوا الناس الدخول في دين الله وصدوهم عن المسجد الحرام، هم أشنع الناس جرما، وأغلظهم إثما[4]؛ لأن خبر ﴿إِنَّ﴾

---

(١) تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٦). وقد ذهب بعضهم إلى أن الواو في ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ زائدة، وهو خبر إن، تقديره: إن الذين كفروا يصدون. ولكنه وجه مردود؛ قال ابن عطية (٤/ ١١٥): (وهذا مفسد للمعنى المقصود). وقال أبو حيان (٧/ ٤٩٩): (ولا يجيز البصريون زيادة الواو، وإنما هو قول كوفي مرغوب عنه).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٥٨).

(٣) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٣٣ - ٣٤).

(٤) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٣٣ - ٣٤).

محذوف من الكلام، وقدره المفسرون المتقدمون: خسروا أو هلكوا[1]. والعرب ربما تحذف الخبر إيجازا واختصارا[2].

(٥٨٨) تفيد الآية أن كلَّ من كفر بالله وصدّ الناس عن دين الله وعبادته في المسجد الحرام لهم عذاب مضاعف فوق عذاب الكافرين؛ لأنهم جمعوا إلى الكفر الصدَّ عن دين الله وبيته، ويستفاد هذا من أن خبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف لدلالة آخِر الآية عليه، وتقديره عند بعض المفسرين: إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم، وكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك[3]. وهو صحيح من جهة المعنى، (فإن من ألحد في الحرم حيث عوقب بالعذاب الأليم، فلأنْ يعاقب من جمع إليه الكفر والصد عن سبيل الله بأشد من ذلك أحق وأوْلى)[4].

---

(١) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٦٦)، والمحرر الوجيز (٤/ ١١٥)، وزاد المسير (٣/ ٢٢٩). وقد علّل الأستاذ سيد قطب حذف الخبر هنا فقال في الظلال (٤/ ٢٤١٨): (ومن دقائق التعبير كذلك أن يحذف خبر ﴿إِنَّ﴾ في الجملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فلا يذكرهم مالهم؟ ما شأنهم؟ ما جزاؤهم كأن مجرد ذكر هذا الوصف لهم يغني عن كل شيء آخر في شأنهم، ويقرر أمرهم ومصيرهم!).

(٢) التفسير البسيط (١٥/ ٣٥٣).

(٣) ينظر الكشاف (٣/ ١٥١). قال أبو حيان في البحر (٧/ ٤٩٨): (وخبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف قدره ابن عطية بعد ﴿وَٱلْبَادِ﴾: خسروا أو هلكوا، وقدره الزمخشري بعد قوله ﴿ٱلْحَرَامِ﴾: نذيقهم من عذاب أليم. ولا يصح تقديره بعده، لأن ﴿ٱلَّذِى﴾ صفة المسجد الحرام، فموضع التقدير هو بعد ﴿وَٱلْبَادِ﴾، لكن مُقدَّر الزمخشري أحسنُ من مقدر ابن عطية؛ لأنه يدل عليه الجملة الشرطية بعد من جهة اللفظ، وابن عطية لحظ من جهة المعنى، لأن من أذيق العذاب خسر وهلك).

(٤) تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٣). وقد أخرج البخاري في صحيحه: (كتاب الديات، باب من طلب دم امرئ بغير حق، ح ٦٤٨٨، ٦/ ٢٥٢٣) عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنّةَ الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليُهريق دمه)).

(٥٨٩) في هذه الآيةِ دلالة على عظم شأن المسجِدِ الحرامِ؛ فقد جعَلهُ اللهُ لكلِّ متعبِّدٍ موحِّدٍ، لا يجوزُ صَدُّ مَن يَقصِدُه، ولا أحدَ أحَقُّ به مِن أحدٍ؛ فهو لهم جميعًا؛ وذلك ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ (١).

(٥٩٠) تفيد الآية عظم إثم الصَّدِّ عن المسجِدِ الحرامِ؛ لأن الله تعالى بعدما ذكر الصد عن سبيل الله عامةً، خص المسجد الحرام بالذكر(٢) مع أنه يندرج في سبيل الله، دلالة على شرفه وخطورة الصد عنه لأنه جعل ليفد إليه الناس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾.

(٥٩١) تفيد الآية وجوب القيام بما ييسر للناس الوصول إلى المسجد الحرام والتعبد فيه(٣)، وتفادي كل ما يحول بينهم وبين الوفود عليه.

(٥٩٢) تفيد الآية أن كل من يفعل شيئا يفضي إلى صد الناس عن المسجد الحرام فيلزم الوقوف في وجهه حتى نمكن الناس من الوصول إليه(٤).

(٥٩٣) تفيد الآية بربطها بالآيات السابقة أنه كما كان سبب استحقاق المؤمنين ذلك النعيم اتباعهم صراط الله، كذلك كان سبب استحقاق المشركين ذلك العذاب كفرهم وصدهم عن سبيل الله، لأن هذه الجملة وقعت موقع الاستئناف البياني، وهي تقابل قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾، بالنسبة إلى أحوال المشركين، إذ لم يسبق لقوله ذلك مقابل في الأحوال المذكورة في آية: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ (٥).

---

(١) التفسير والبيان لأحكام القرآن (٤/ ٢٣٤٩).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٥٨).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٥٨).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٥٨).

(٥) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٣٥).

(٥٩٤) تشير الآية أن المسجد الذي بني بمكة يحرم أنْ تفعل فيه خطأ، أو تهينه، أو تعتدي فيه؛ لأن الله تعالى سماه بالمسجد الحرام. وهو الكعبة وما حولها[١]. ولم يخص هذه الحرمة بالمسجد، بل جعلها لمكة كلها، ولذلك تسمى بالبلد الحرام. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن مكة حرمها الله يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي))[٢].

(٥٩٥) تفيد الآية أن من أسماء مكة "المسجد الحرام" بما يذكر المقيم في حرمه على أنه في مسجد كبير معظم، فليتأدب بآداب المسجد ولو كان في بيته ومع أهله وأصحابه[٣].

(٥٩٦) تفيد الآية أن حُرْمة المكان بحُرمة صاحبه، وبقدر حرمته تزداد حرمةُ المكان المنسوب إليه، ولذلك لما كان المسجد الحرام يضاف إلى الله تعالى إضافة تشريف فيسمى بيت الله، كانت له حرمةٌ أعظم من سائر البقاع[٤].

(٥٩٧) تفيد الآية أن الله تعالى جعل المسجد الحرام لِلنَّاسِ قبلةً لصلاتهم ومنسكًا لحجِّهم[٥]. وهذا على أن المراد نفس المسجد[٦].

(٥٩٨) تفيد الآية أن المسجد الحرام مكان عالَمي[٧]، أمر الله ببنائه وجَعَلهُ لِلنَّاسِ كلّهم، لم يخصّ به منهم بعضا دون بعض[٨].

---

(١) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٦٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب العلم، باب ليبلغ الشاهد الغائب، ح ١٠٤، ١/٥١)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها، ح ١٣٥٤، ٢/٩٨٧)

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٥٨).

(٤) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٧٤).

(٥) ينظر الحجة لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٧١)، والنكت والعيون (٤/ ١٥)، وتفسير السمعاني (٣/ ٤٣٢).

(٦) زاد المسير (٣/ ٢٣٠).

(٧) ينظر التفسير الواضح (٢/ ٥٧٩).

(٨) ينظر الكشف والبيان (٧/ ١٥)، والهداية (٧/ ٤٨٦٦)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٤٣).

(٥٩٩) تفيد الآية أن المسجد الحرام ليس أحدٌ من الناس أولى به من غيره. فالمقيم في مكة والطارئ عليها حقهما فيه سواء، لا فضل لأحدهما على الآخر. وهذا على الأخذ بظاهر اللفظ الذي يدل على أن المراد المسجد الحرام خاصة دون بيوت مكة[١]. (والمعنى: والمسجد الحرام. أي: ويصدون الناس عن دخول المسجد الحرام والصلاة فيه، والطواف بالبيت، وهو موضع يستوي فيه المقيم والطارئ، حقهم فيه واحد)[٢]. وكان المشركون يمنعون المسلمين عن الصلاة في المسجد الحرام والطواف فيه، ويدعون أنهم أربابه وولاته[٣].

(٦٠٠) تفيد الآية أن المقيمين بمكة وَمن يرحل إليها سواءٌ في تعظيم حرمة المسجد الحرام وإقامة المناسك به وأداء حقّ الله الواجب عليهم فيه، وليس أهل مكَّة بأحقَّ به من النَّازع

(١) وذلك قول ابن عباس، ينظر النكت والعيون (٤/ ١٥).

(٢) الهداية (٧/ ٤٨٦٧).

(٣) التفسير البسيط (١٥/ ٣٤٦). وفي الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((يا بني عبد مناف، من ولي منكم من أمور الناس شيئا فلا يمنعن أحدا طاف بهذا البيت أو صلى أية ساعة من ليل أو نهار)) أخرجه أبو داود في سننه: (المناسك، الطواف بعد العصر، ح ١٨٩٤، ٢/١٨٠)؛ والترمذي في سننه: (كتاب الحج: باب ما جاء في الصلاة بعد العصر وبعد الصبح لمن يطوف، ح ٨٦٨، ٣/٢٢٠)؛ والنسائي في سننه: (كتاب الصلاة: باب إباحة الصلاة في الساعات كلها بمكة، ح ٥٨٥، ١/٢٢٨)؛ وابن ماجه في سننه: (كتاب الصلاة: باب الرخصة في الصلاة بمكة في كل وقت، ح ١٢٥٤، ١/٣٩٨). وقد صححه ابن الملقن في البدر المنير (٣/ ٢٧٩).

إليه[1]. وهذا على القول بأن المراد بالمسجد الحرام عين المسجد الذي يُصلَّى فيه اليوم[2]. وعلى هذا يجوز أن يراد بالمسجد البلد الحرام[3].

(٦٠١) تشير الآية إلى أن أماكن المناسك الخاصّة – كالمطَافِ والمسْعَى وباحة المسجد ونحوها– لا تُملَك؛ لأن الله أخبر باستواء العاكف والبادي في المسجد الحرام، فقال: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾، أي أن أهل مكة وغيرهم ينزلون في المسجد الحرام على السواء[4]، ولا يستوون فيه إلا إذا كان غير مملوك لأحد.

(٦٠٢) تدل الآية على استواء الناس في رِباع مكة وسكناها، لأن الله تعالى أخبر بأنه جعل البلد الحرام شرعا سواء المسلمين، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه[5]، فقال: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾، وهذا على القول بأن المراد بالمسجد الحرام: مكة.

(٦٠٣) استُدلّ بالآية على أن أرض الحرم لا تُملَك، لأن الله أخبر باستواء العاكف والبادي في المسجد الحرام، ولو ملكت لم يستويا فيه، ولصار العاكف فيها أولى بها من البادي

---

(١) ينظر الكشف والبيان (٧/ ١٥)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٤٦)، والوجيز للواحدي (ص: ٧٣٢).

(٢) المسجد الحرام في الاصطلاح – كما قال النووي في "تهذيب الأسماء واللغات" (٣/ ٣٢٨ – ٣٢٩) – قد يراد به الكعبة فقط، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٤٤)، وقد يراد به المسجد حولها معها، وقد يراد به مكة كلها مع الحرم حولها، وقوله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (الفتح: ٢٥)، وقد صدوهم عن دخول مكة، وقد جاءت نصوص الشرع بهذه الأقسام. وقوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (الإسراء: ١)، وكان ذلك في بيت أم هانئ، ينظر إعلام الساجد بأحكام المساجد (ص: ٥٩ – ٦١)، ورحلة الصديق إلى البلد العتيق (ص: ٣٠).

(٣) ينظر زاد المسير (٣/ ٢٢٩).

(٤) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٩).

(٥) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٩).

لحق ملكه، ولكن سبيلها كسبيل المساجد الذي من سبق إليها كان أولى بالمكان لسبقه، وسبيل المباح الذي من سبق إليه كان أولى به[(١)].

(٦٠٤) تفيد الآية أنه لا ينبغي لأحد أن يحجز مكانًا لنفسه في بيت الله الحرام بوضع سجّادة أو نحوها، ولا في غيره من المساجد، فالناس سواسية في حقهم في المسجد، فمن سبق إلى الجلوس في مكان فهو أولى به[(٢)]؛ فلا يملكه أحد منهم، ولا يمتاز فيه أحد منهم، بل الكل فوق أرضه وتحت سقفه سواء[(٣)].

(٦٠٥) تفيد الآية أن المجاورين للمسجد الحرام المتمكنين في كل وقت من التعبد فيه والوافدين إليه من خارج مكة سواءٌ في فضل الصلاة في المسجد الحرام والطواف به وسائر العبادات وثوابها[(٤)].

(٦٠٦) تفيد الآية أن المقيم بمكة والطارئ عليها سواء في الحق والسعة والأمن[(٥)]، فمن دخل الحرم كان آمنًا، وأنه لا يقتل بها صيدًا ولا يقطع بها شجرًا. وهذا على القول بأن المراد بالمسجد الحرام جميع الحرم[(٦)]. روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

---

(١) ينظر "الحجة" لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٧١)، ونقله عنه الواحدي في التفسير البسيط (١٥/ ٣٤٥). وحكى ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٠٩) عن إسحاق بن راهويه أنه ذهب إلى أنها تورث ولا تؤجر. وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه مجاهد وعطاء.

(٢) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٧١).

(٣) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٠٠).

(٤) ينظر تفسير السمعاني (٣/ ٤٣٢)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٧٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢١٧)، وغرائب القرآن (٥/ ٧٦).

(٥) وقد رُوي هذا القول عن الإمام مالك، ينظر أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٧٦).

(٦) ينظر النكت والعيون (٤/ ١٦).

كانوا يرون الحرم كلَّه مسجدًا[(١)]. ويؤيده ما روي من أن سبب نزول هذه الآية أن المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عنه يوم الحديبية[(٢)].

(٦٠٧) تفيد الآية أن الواحد من أهل مكة والنّائيَ عنها، هما في حرمة الإسلام سواء، لا يمنع أحد من دخوله من المؤمنين، ولا يُضر أحد منه. وهذا القول يؤيده صدر الآية، لأنه تعالى إنما ذكر صد الكافرين المؤمنين عن المسجد الحرام ومنعهم منه. ثم أعلمنا آخرَ الآية أن أهله والغريب في حرمته سواء، لا يُمنع أحد منهم[(٣)].

(٦٠٨) تدل الآية على حرية العبادة في الحرم المكي لجميع الناس، من غير فرق بين حاضر وباد، ومقيم وطارئ، ومكيٍّ وآفاقيّ[(٤)].

(٦٠٩) تفيد الآية أنه لا يجوز لأحد أن يمنع أحدا من المسلمين من إتيان المسجد الحرام والصلاة فيه والطّواف به، ولا أن يضع العقبات في طريق من يريد الحج والعمرة[(٥)].

---

(١) ينظر زاد المسير (٣/ ٢٢٩). واستدل ابن العربي في أحكام القرآن (٣/ ٢٧٥) على ذلك بقوله: (ودل عليه أيضا قوله: ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، فصفة الحرام تقتضي الحرم كله؛ لأنه بصفته في التحريم، وآخذ بجزاء عظيم من التكرمة والتعظيم بإجماع من المسلمين؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٩٧)، وكان الحرم مثله؛ لأنه حريمه، وحريم الدار من الدار).

(٢) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٥)، والتفسير البسيط (٤/ ١٤٠). ونسبه الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢١٦) إلى ابن عباس، وقد علل ابن عطية حمْل الصد على ما وقع في الحديبية فقال: في المحرر الوجيز (٤/ ١١٥): (وذلك أنه لم يُعلَم لهم صدٌّ قبل ذلك الجمع إلا أن يُراد صدهم لأفراد من الناس، فقد وقع ذلك في صدر المبعث). وربما لهذا الملحظ الأخير قال ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٧/ ٢٣٦): (وأحسب أن الآية نزلت قبل ذلك، سواء نزلت بمكة أم بالمدينة). وعلل القرطبي (١٢/ ٣٢) ذكر خصوص المسجد دون مكة فقال بعد ذكر القول بأن المراد الحرم كله: (وهذا صحيح، لكنه قصد هنا بالذكر المهم المقصود من ذلك). والذي يترجح لي أن المراد بالمسجد الحرام عين المسجد، وسبب النزول لم أقف عليه مسندا في كتب الحديث والآثار، والصد عن المسجد الحرام كان في مكة، فقد كان المشركون يمنعون المسلمين من الصلاة فيه.

(٣) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٦٨).

(٤) ينظر التفسير المنير (١٧/ ١٨٩).

(٥) ينظر بيان المعاني (٦/ ١٦٦).

(٦١٠) تومئ الآية إلى أن الساكن بمكة الشأنُ فيه أن يعكف كثيرا في المسجد الحرام، لأن المراد بالعاكف في الأصل هو: الملازم له في أحوال كثيرة، ولكنه أطلقه هنا على الساكن بمكة مجازا بعلاقة اللزوم العرفي، بدليل مقابلته بالبادي، وهو الساكن في البادية؛ لأن المقيم بمكة يكثر من العكوف في المسجد الحرام لقربه منه[(١)].

(٦١١) تشير الآية إلى أن الذي يسكن مكة ولا يتعبد في المسجد الحرام فهو مغبون[(٢)]؛ لأن وصفه بالعاكف ينبه على كثرة عكوفه في المسجد الحرام، فمن لم يكن كذلك زال عنه هذا الوصف.

(٦١٢) تومئ الآية إلى أن المقيمين بمكة لا يستحقون بسكنى مكة مزِيّةً على غيرهم، وإنما لهم الفضل في عكوفهم بالمسجد الحرام؛ وذلك لأن الله تعالى ذكرهم بصف العكوف فقال: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾، ولم يقل: "الساكن فيها".

(٦١٣) في الآية تعريض بالمقيمين بمكة بأنهم حين يمنعون الخارجين عنها من الدخول للكعبة يكونون ظالمين لهم باستئثارهم بالحرم ومنعهم من حقهم فيه[(٣)].

(٦١٤) تشير الآية إلى أن حق الساكنين بمكة أن يكونوا عابدين لله عاكفين في المسجد الحرام، لا مشركين بالله وصادّين للناس عن بيته. ولهذا عبر عن المقيم في مكة بالعاكف[(٤)].

(٦١٥) تشير الآية إلى جواز المكث في المسجد الحرام، لأن الله قال: ﴿ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [سورة البقرة: ١٢٥]، والعاكف هو الملازِمُ للشيءِ؛ أي

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٣٧).
(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٥٨).
(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٣٧).
(٤) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٦٧).

الماكِثُ الملازِمُ للبيتِ الحرامِ؛ سواءٌ كان مِن أهلِ مكةَ أو مِن غيرِ أهلِها، وسواءٌ كان مُكْثُهُ وطولُ بقائِهِ يصاحِبُهُ صلاةٌ أو طوافٌ، أو لا[1]، قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: (إذا كان جالسًا فهو مِن العاكفين)[2]. وقال سُوَيْدِ بن غَفَلَةَ: (مَن قعَدَ في المسجدِ وهو طاهرٌ، فهو عاكفٌ حتى يخرُجَ منه)[3]

(٦١٦) تفيد الآية جواز النوم في المسجد الحرام؛ لأن العكوف هو المكث والملازمة، ويلزم عن ذلك أن ينام العاكف في المسجد؛ ولذلك حين قال أحدهم لعبد الله بن عُبَيد بن عُمَيْر: (ما أراني إلا مكلّم الأمير: أنِ امنَعْ الذين ينامون في المسجد الحرام، فإنهم يُجْنِبون ويُحْدِثون. قال: لا تفعل، فإن ابن عمر سُئِل عنهم، فقال: هم العاكفون)[4]. ويكون له ثواب الاعتكاف إذا ظهَرَ مِن بقائِهِ في المسجد قصدُ التعبُّدِ والقُرْبة[5].

(٦١٧) تفيد الآية أن صد الناس عن المسجد الحرام بأية وسيلة من الوسائل، وبأي عذرٍ ينتحل من الأعذار، يعتبر ظلما وميلا عن الحق، إذ هو تحويل لصبغة المسجد الحرام، وخروجٌ به عما بُني من أجله؛ ويؤخذ هذا المعنى من أن الله تعالى توعّد من صدّ عنه بالعذاب الأليم، فذيّل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بقوله: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ [6].

---

(١) ينظر التيسير والبيان لأحكام القرآن (١/ ١١١).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٢٨، رقم ١٢١٢). وهو كذلك في تفسير ابن كثير (١/ ٤١٩). وعزاه السيوطي إليه في الدر المنثور (١/ ٢٩٥) بلفظ أتمّ، وهو: (إذا كان قائما فهو من الطائفين، وإذا كان جالسا فهو من العاكفين، وإذا كان مصليا فهو من الركع السجود).

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٩٥) إلى عبد بن حميد.

(٤) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٢٢٩، رقم ١٢١٥).

(٥) ينظر التيسير والبيان لأحكام القرآن (١/ ١١١).

(٦) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٦٧)، والتيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٦٩).

(٦١٨) في الآية – بضميمة ما جاء بعدها – إيماءٌ إلى أنه كلما ازداد ما صُدَّ عنه تعظيمًا يزدادُ قبحُ الصدِّ عنه والمنعُ من إتيانه، لأن الله تعالى بعدما نعى على المشركين صدَّهم للناس عن المسجد الحرام تحدّث في الآيات التي تليها على سبيل الاستطراد عن بناء البيت وشعائر الحج ومناسكه توضيحًا لقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾، مزيدًا لتهجين فعلهم وتصوير قُبحهم[(١)].

(٦١٩) يؤخذ من الآية أن من يمنع حج بيت الله الحرام في يوم من الأيام يكون من الذين كفروا، أو ممن يشابه الكفار في هذه الخصلة الشنيعة. فمنعُ الحج صدٌّ عن المسجد الحرام. ولا يفعل ذلك إلا الكفار أو أشباههم ممن ملأ النفاق قلوبهم. ولعل في ذكر الحج عقب ذم الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ما يشعر لذلك[(٢)].

(٦٢٠) تفيد الآية مكانة القادم للمسجد الحرام من بلدان بعيدة؛ لأن الله تعالى خصه بالذكر وبين أحقيته كذلك بالبيت[(٣)]، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾.

(٦٢١) تفيد الآية أنه من يرد أن يميل بظلم في البلد الحرام، فيعصي الله فيه، فإن الله سيذيقه يوم القيامة من عذاب موجع له[(٤)]؛ لأن أصل الإلحاد في اللغة الميل عن القصد، وهو يشمل سائر المعاصي كلها[(٥)]. والظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر[(١)]، حتى شتم

---

(١) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٩٣).

(٢) ينظر التفسير الواضح (٢/ ٥٨٢).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٥٨).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥١٠). قال الجصاص في أحكام القرآن (٥/ ٦٣): (ولم يختلف المتأولون للآية أن الوعيد في الإلحاد مراد به من ألحد في الحرم كله، وأنه غير مخصوص به المسجد، وفي ذلك دليل على أن قوله: ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ قد أريد به الحرم؛ لأن قوله ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ﴾ هذه الهاء كناية عن الحرم، وليس للحرم ذكر متقدم إلا قوله ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، فثبت أن المراد بالمسجد هاهنا الحرم كله).

(٥) معاني القرآن للنحاس (٤/ ٣٩٤).

الخادم، وقد حذف مفعول ﴿يُرِدۡ﴾ ليتناول كل متناول، كأنه قال: ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد ظالما نذقه من عذاب أليم[٢].

(٦٢٢) تدل الآية على أن إرادة فعل المعصية بالمسجد الحرام من كبائر الذنوب[٣]؛ لأن الله تعالى توعد فاعل ذلك بالعذاب الأليم، وما كان كذلك فهو كبيرة لا صغيرة.

(٦٢٣) تفيد الآية أن من أراد أن يشرك بالله في المسجد الحرام فإن الله تعالى سيعذبه على ذلك عذابا أليما في الدنيا والآخرة، فالشرك أعظم الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [سورة لقمان: ١٣]، وهو يدخل في الإلحاد دخولا أوليا، والمسجد إنما بني لتوحيد الله وعبادته[٤]، كما جاء في الآية التي تليها: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾.

(٦٢٤) تفيد الآية أن من الإلحاد في المسجد الحرام منع الناس من عمارته، وفاعله يستحق العذاب الأليم[٥]. ويوافق هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓ﴾ [سورة الأنفال: ٣٤].

(٦٢٥) تفيد الآية أن من الإلحاد بالظلم في الحرم احتكار الطعام بمكة؛ لأن روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه))[٦]. وكذلك روي عن بعض السلف أنهم فسروا قوله تعالى بذلك[١].

---

(١) المحرر الوجيز (٤/ ١١٦).

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٥١)، والبحر المحيط (٧/ ٥٠٠).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٥٨).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٧)، وأضواء البيان (٤/ ٢٩٤). وتفسير الظلم بالشرك هو قول قتادة، ورواه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٤)، والطبري (١٧/ ١٤٠).

(٥) ينظر الكشاف (٣/ ١٥١).

(٦) أخرجه أبو داود في سننه من حديث يعلى بن أمية (كتاب المناسك، باب في تحريم حرم مكة، ح ٢٠٢٠، ٢/٢١٢)، وهو ضعيف، في سنده مجاهيل كما ذكر ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٣/ ١٦٧ رقم ٨٧٥)، ورواه

(٦٢٦) تفيد الآية أن من الإلحاد في الحرم استحلالَ محظورات الإحرام كدخول مكة بغير إحرام، وقتل ما نهى الله عنه من الصيد، وأخذ حَمام مكة، وقطع شجرها، وغير ذلك مما لا يجوز للمحرم أن يفعله[٢].

(٦٢٧) تفيد الآية أن من لجأ إلى الحرم بميل عن الإسلام إلى الشرك سيعذبه الله عذابا أليما[٣]. ويؤخذ هذا مما روي في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (نزلت هذه الآية في عبد الله بن أنيس، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه مع رجلين: أحدهما مهاجري، والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أُنيْس، فقتل الأنصاري، ثم ارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾، يعني من لجأ إلى الحرم بإلحاد يعني بميل عن الإسلام)[٤].

(٦٢٨) تفيد الآية أن من دخل البلد الحرام لعمرةٍ أو حجٍّ وهو ظالم – بأن يدخل وهو غير مُحْرِم – فإنه يستحق من الله العذاب الأليم. فقد جاء في قراءة شاذة: ﴿ومن يَرِد﴾ بفتح الياء، من الورود[٥]. وسياق الآية فيمن جاء إلى العمرة، ويُلحَق به الحج.

---

الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ١٠١ رقم ٦٤٧٩)، (وفيه عبد الله بن المؤمل؛ وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه جماعة).

(١) روي عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وحبيب بن أبي ثابت، ينظر التاريخ الكبير للبخاري (٤/ ٢٥٥، ت ١٠٨٣)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٠٩)، والدر المنثور (٦/ ٢٧)، وكنز العمال (٤/ ١٨٠ رقم ١٠٠٦٢ و١٠٠٦٣). وقد قال ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤١٢) بعد أن نقل عن السلف أقوالا تتضمن أمثلة للإلحاد في الحرم كالاحتكار وشتم الخادم ونحو ذلك: (وهذه الآثار، وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها).

(٢) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٥٣).

(٣) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٢١)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤١٢).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٨٤ رقم ١٣٨٦٣).

(٥) ينظر معاني القرآن للفراء، والكشاف (٣/ ١٥١)، والمحرر الوجيز (٤/ ١١٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢١٧). وقد استبعد النحاس هذا الوجه في "معاني القرآن" (٤/ ٣٩٥) فقال: (وهذا بعيد، لأنه إنما يقال وردته، ولا يكاد يقال وردت فيه).

(٦٢٩) تفيد الآية أنه من همّ بفعل سيّئة في المسجد الحرام فإنها تكتب عليه، ويستحق بها العقاب ولو لم يعملها إلا أن يتوب[(١)]. لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾، فرتب إذاقةَ العذاب الأليم على إرادة الإلحاد بالظلم فيه ترتيب الجزاء على شرطه، ولم يقل: من يفعل ذلك. وإنما رتب على الإرادة فقط، وذلك لعظيم حرمة الحرم وجلالة قدره[(٢)]. وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية: (من هم بخطيئة يعملها في سوى البيت لم يكتب عليه حتى يعملها، ومن هم بخطيئة يعملها في البيت لم يمته الله من الدنيا حتى يذيقه من عذاب أليم)[(٣)].

(٦٣٠) تفيد الآية أنه من همّ بفعل سيّئة عند الكعبة فإنها تكتب عليه، ويستحق بها العقاب الأليم ولو هم بها وهو ببلد آخر[(٤)]. قال ابن مسعود: (لو أنَّ رجلًا هَمَّ فيه بإلحادٍ وهو بعَدَن أَبْيَنَ[(٥)] لأذاقه الله عز وجل عذابًا أليمًا)[(٦)]. فمجرد الإرادة هنالك تُعَدُّ ذنبًا؛ لأنه مقام

---

(١) هذا ما روي عن ابن مسعود. ينظر الكشف والبيان (٧/ ١٧)، والهداية (٧/ ٤٨٦٩)، والتفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٦٦). وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٥)، وقال: (وهذا صحيح)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤١١). وقال: (وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي فيه الشر، إذا كان عازما عليه، وإن لم يُوقِعْه).

(٢) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٦٩)، وأضواء البيان (٤/ ٢٩٤).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٢٢٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٧٠ رقم ١١١٨٥): (وفيه الحكم بن ظهير، وهو متروك).

(٤) هذا ما روي عن مجاهد والضحاك. ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٠٨)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤١١). وقد أورد الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢١٨) إشكالا على هذه الهداية، وأجاب عنه فقال: (فإن قيل: كيف يقال ذلك مع أن قوله: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ غير لائق بكل المعاصي؟ قلنا: لا نسلم، فإن كل عذاب يكون أليما، إلا أنه تختلف مراتبه على حسب اختلاف المعصية).

(٥) (عدن أبين) مدينة مشهورة على ساحل بحر اليمن، ويقال لها (عَدَن أبْيَن) للتمييز بينها وبين (عدن لاعة) في بلاد حجة باليمن. انظر: "معجم البلدان" لياقوت الحموي (٦/ ١٢٦ – ١٢٧).

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: (٦/ ٦٥ – ٦٦)، وأبو يعلى في مسنده (٩/ ٢٦٢ ح ٥٣٨٤)، والبزار في مسنده (٥/ ٣٩٠، ح ٢٠٢٤) بلفظ: ((لو أن رجلا بعَدَن أبْيَن أراده بسوء أذاقه الله من عذاب أليم)). وقد قال ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤١١) عن سند الإمام أحمد: (صحيح على شرط البخاري، ووقفه أشبه من رفعه). والحق أنه ليس

يجب أنْ يستشعر فيه المسلم الجلال والمهابة، ويستحيي وهو في رحاب بيت الله أن يحدث نفسه بعصيانه[1].

(٦٣١) تفيد الآية أن ما يختص به المسجد الحرام أو الحرم كله هو استحقاق العقوبة على الهمّ بالمعصية، لأن التقدير في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾، والمعنى: ومن يَهُمَّ فيه بميل[2].

(٦٣٢) تفيد الآية أن المسجد الحرام مكان تطهير النفس والتوبة والنقاء والتخلص من الذنوب بالكلية لله عز وجل[3]؛ لأن الله حرم الهم فيه بالمعصية، وذلك يجعل المؤمن يجاهد نفسه ويضبط نياته.

---

على شرطه لأنه لم يخرج عن السُّدي شيئا، وعزاه ابن حجر في "المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية" (١٥/ ٥٦ ح ٣٦٦٥) إلى إسحاق بن راهويه بلفظ: ((من هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء، وإن همَّ بعَدَنِ أبْيَن أن يقتل في المسجد الحرام أذاقه الله عز وجل من عذاب أليم. ثم قرأ: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾ [سورة الحج: ٢٥] الآية))، وعلق عليه فقال: (موقوف قوي الإسناد). ورواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٠٨) بنحو هذا اللفظ، ورواه من طريق آخر بلفظ: ((لو أن رجلا هم فيه بسيئة...)). وأخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب التفسير، تفسير سورة الحج، ح ٣٤٦٠، ٢/ ٤٢٠) بقريب من لفظ ابن راهويه، وصححه الذهبي على شرط مسلم، وأخرجه بمثل لفظ أحمد (ح ٣٤٦١)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وبالجملة فهذا الأثر رواته ثقات، وإسناده حسن في أقل أحواله. ينظر كلام أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٤/ ١٣٤ ح ٤٠٧١)، وكلام محققي المسند ط. الرسالة (٧/ ١٥٥ ح ٤٠٧١).

(١) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٧٣).

(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ١٢٧٦)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤١١)، وأضواء البيان (٤/ ٢٩٤). وذهب أبو حيان في البحر (٧/ ٥٠٠) إلى أن (الأوْلى أن تضمن يرد معنى "يتلبس" فيتعدى بالباء). وهذا التقدير يقتضي أن الإرادة هنا لا يقع عليها هذا الوعيد، حتى تكون عملا يتلبس به صاحبه، وهذا القول لا يتوافق مع تفسير السلف لهذه الآية.

(٣) ينظر التفسير المنير (١٧/ ١٩٠).

(٦٣٣) تفيد الآية أن الواجب على من كان في البلد الحرام أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهُمُّ به ويقصده[(١)]؛ لأن الله توعد من نوى فعل معصية في الحرَم بالعذاب الأليم، وهذا على القول بأن المراد بالمسجد الحرام: الحرمُ كله.

(٦٣٤) هذه الآية تدل على أن المرء يستحق العذاب بعزمه على المعصية كما يستحقه على عمل جوارحه[(٢)]، ويحتمل أن يكون معنى الإرادة في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ العزم المصمم على ارتكاب الذنب فيه، والعزم المصمم على الذنب ذنب يعاقب عليه في مكة وغيرها من البقاع[(٣)]، ويؤكده قصة أصحاب الجنة لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم. وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه))[(٤)]، فبيّن أن ذنبه الذي أدخله النار هو عزمه المصمُم وحرصه على قتل صاحبه المسلم[(٥)].

(٦٣٥) تفيد الآية أن الميل عن الحق منه ما يكون مصاحبا للظلم، ومنه ما يكون بغير ظلم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ أي بميل عن الحق، ثم بين أن المراد بهذا الإلحاد ما يكون ميلا إلى الظلم، فلهذا قرنه به فقال: ﴿بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾، إذ قد يكون إلحاد وميل بغير ظلم، فلذلك تكررت الباء. وما من معصية -كبرت أم صغرت- إلا وهي ظلمٌ للنفس[(٦)].

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٥١).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٨)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٢٩).

(٣) ينظر أضواء البيان (٤/ ٢٩٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الإيمان، باب ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾، ح ٣١، ١/ ٢٠)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الفتن، باب إذا توجه المسلمان بسيفيهما، ح ٢٨٨٨، ٤/ ٢٢١٤).

(٥) ينظر تفسير القرطبي (١٨/ ٢٤١)، وأضواء البيان (٤/ ٢٩٥).

(٦) ينظر إيجاز البيان (٢/ ٥٧٣)، وباهر البرهان في معاني مشكلات القرآن (٢/ ٩٤٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢١٨).

(٦٣٦) تفيد الآية أنه من فعل معصية في الحرَم خطأً أو سهوًا أو تأوُّلا فإنه لا يؤاخذ بإذن الله، ومن ذلك ما فعله بعض الحجاج والمعتمرين فيه وهم جاهلون أو متأولون. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى قيد الإلحاد بالظلم، فقال: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ﴾، أي: ومن يرد أن يميل عن الحق بفعلِ معصية – وهو ظالمٌ عامدٌ قاصدٌ غيرُ متأول – ﴿نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ (١).

(٦٣٧) تدل الآية على أن من مال وانحرف إلى عبادة غيره تعالى وضم إلى ذلك الظلم فهو يستحق العذاب الأليم في الدنيا والآخرة. وهذا بناءً على أن المراد بالإلحاد في الآية هو النوع الذي يبطل الإيمان، وهو الشرك بالله وعبادة الأوثان التي كانت تحيط بالكعبة، وهذا ما كان يفعله كفار مكة، وجمعوا إلى ذلك أنواعا من الظلم، كظلمهم للمستضعفين، وإيذائهم للمؤمنين، واستهزائهم بالنبي الأمين صلى الله عليه وسلم، وصدهم للمعتمرين من المسلمين، إلى غير ذلك(٢).

(٦٣٨) تفيد الآية أن من قصد المسجد الحرام بعدوان أو ظلم – سواء للكعبة أو المسجد أو لعباد الله فيه – بأي وجه من وجوه الظلم، فسيذيقه الله عذابا عاجلا في الدنيا قبل الآخرة(٣). ولعل العدول عن: "فله عذاب أليم" إلى قوله تعالى: ﴿نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ يومئ إلى ذلك(٤).

---

(١) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٤٤)، والتفسير المنير (١٧/ ١٨٨)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٠٥).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٦٨).

(٣) روى ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٨٤) عن الربيع بن أنس أنه قال في هذه الآية: (حدثنا شيخ من عقب المهاجرين والأنصار، أنهم أخبروه أن أيما أحد أراد به ما أراد أصحاب الفيل، عجل لهم العقوبة في الدنيا).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٥٩).

(٦٣٩) تفيد الآية بمفهوم المخالفة أن من قصد المسجد الحرام وهو يريد التقرب إلى الله بعبادته وطاعته يخرج بأجر عظيم وخير كثير[١].

(٦٤٠) تفيد الآية أن منع بعض الناس عن المسجد الحرام بحق لا إثم فيه، وذلك كصد الكفار عنه، لأنهم نجس لا ينبغي أن يقربوا الأماكن المقدسة، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا﴾ [سورة التوبة: ٢٨]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ﴾، أي شيئًا من أفعال الكفار من الصد المذكور وغيره، ﴿بِإِلۡحَادِۭ﴾ أي مصاحبة تلك الإرادة وملتبسة بميل عن الأمر المعروف وجور عنه ﴿نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ (٢).

(٦٤١) تفيد الآية أن إقامة القسط وتحقيق العدل في البلد الحرام آكدُ وجوبا وأعظم أجرا، كما أن الظلم فيه أشد تحريما وأعظم إثما[٣].

(٦٤٢) تفيد الآية أن من نوى فعل المعصية في البلد الحرام ثم عَمِلها فإن عقابه يكون أشد، ومصيره أقبح؛ لأن الله تعالى توعد بالعذاب الأليم كل من ينوى ويريد الميل فيه عن دين الله، فالعقوبة على الفعل أولى[٤].

(٦٤٣) تدل الآية على أنه يجب الكفّ عن الاعتداء على المسجد الحرام أو أهله أو مسهم بأدنى سوء[٥]، لأن الله تعالى توعد من هم بفعل معصية فيه، فكيف بمن أراد الاعتداء على بيته، أو الاعتداء على وفده، ممن يأتون إليه للحج أو العمرة؟!

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٥٩).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٣٤).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٥٩).

(٤) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٠٠).

(٥) ينظر تفسير المدينة المنورة (٢/ ٩٨).

(٦٤٤) تفيد الآية أن الإسلام سبق سبقا بعيدا بإنشاء منطقة أمان تكون واحة للسلام، ودارا مفتوحة لكل إنسان، وهو البلد الحرام. فقد كان هذا الأمر سابقا لكل محاولات البشر في إيجاد منطقة يلقى فيها السلاح، ويأمن فيها المتخاصمون، وتحقن فيها الدماء، ويجد كل أحد فيها مأواه، لا تفضلا من أحد، ولكن حقا يتساوى فيه الجميع[(١)]. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [سورة البقرة: ١٢٥].

(٦٤٥) تفيد الآية أنه تضاعف السيئات بمكّة كما تضاعف الحسنات[(٢)]، وهذا ما قاله مجاهد رحمه الله؛ وذلك لأن استحقاق العقوبة الشديدة على إرادة السوء دليل على أن إثم ذلك مضاعف، ولأن فعل المعصية في البلد الحرام يجمع بين معصيتين، أُولاهُما: المخالفة نفسها، والثانية: إسقاط حرمة البلد الحرام[(٣)].

(٦٤٦) تفيد الآية أن مضاعفة الحسنات في المسجد الحرام لا يعمل في إسقاط السيئات فيه وهدمها[(٤)].

(٦٤٧) تفيد الآية أن لمكة حرمةً عظيمة، ففي هذه الآية أن الهم بالسيئة في البلد الحرام يستوجب العقاب الشديد، خلافا لغيرها[(٥)]. ولا عجب، فإن من ينتهك حرمة ما عظمه الله بمعصيته فيه أجرأ على المعصية ممن يرتكبها في غير ذلك الموضع[(٦)]، ومن ثم كان من تهجس نفسُه بالسوء – وهو داخل الحرم – جديرا بالعذاب الأليم.

---

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٧).

(٢) ينظر الكشف والبيان (٧/ ١٥)، والوجيز للواحدي (ص: ٧٣٢).

(٣) ينظر أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٧٧)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٥).

(٤) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٠٥).

(٥) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١٦).

(٦) ينظر أوضح التفاسير (١/ ٤٠٤)، وتفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٧٤).

(٦٤٨) تفيد الآية أن الله تعالى يخصص بعض الأماكن فيجعل لها شرفا وحرمة، كما يجعل لبعض الأزمنة حرمة ومكانة؛ لأن من نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب بذلك إلا في مكة، وتخصيص البلد الحرام بذلك كتخصيص الأشهر الحرم بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [سورة التوبة: ٣٦][(١)].

(٦٤٩) تدل الآية على أن (السيئة قد تعظم فيعظم جزاؤها بسبب حرمة المكان)[(٢)]؛ لأن الوعيد المذكورة في الآية عظيم، وإنما عظم لحرمة المسجد الحرام.

(٦٥٠) تفيد الآية أنه أيما أحد أراد بالمسجد الحرام سوءا فإن الله قد يعجل له العقوبة الموجِعة في الدنيا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾، والعذاب الأليم قد يكون دنيويا[(٣)]. ولهذا لما همّ أصحاب الفيل بهدم البيت أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [سورة الفيل: ٤ – ٥]، وأخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما سيكون في آخر الزمان فقال: ((يغزو هذا البيت جيش، حتى إذا كانوا ببيداءَ من الأرض خسف بأولهم وآخرهم))[(٤)] الحديث[(٥)].

(٦٥١) في الآية إشارة إلى أن العذاب الذي يذيقه الله لمن أراد السوء ببلده الحرام سيكون عذابا مختلفا عن أنواع العذاب المعهودة لهم[(٦)]، كما حصل لأصحاب الفيل وغيرهم؛ وذلك لأن تنكير ﴿عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ يدل على شدة هذا العذاب واختلافه عمّا هو معهود.

---

(١) ينظر درج الدرر (٢/ ٣٣٤)، وأحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٧٧)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٥ –٣٦).

(٢) أضواء البيان (٦/ ١٤٧).

(٣) ينظر تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٨٤)، وروح المعاني (٩/ ١٣٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب البيوع، باب ما ذكر في الأسواق، ح ٢١١٨)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت، ح ٢٨٨٤، ٤/ ٢١١٠)، واللفظ له. والبيداء: البقعة الفيحاء.

(٥) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٢).

(٦) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٥٩).

(٦٥٢) تومئ الآية إلى أن العذاب الذي يذيقه الله لمن أراد السوء بالحرم في الدنيا إنما هو جزء يسير من عذاب الآخرة[١]، وأن العذاب الآجل سيكون أشد وأعظم، وذلك لأن الله لم يقل: ﴿سنعذبه عذابا أليما﴾، وإنما قال: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٥﴾، و"مِن" للتبعيض. وفي هذا مزيد ترهيب وتخويف من إرادة السوء للحرم وقاصديه.

(٦٥٣) تدل الآية على حفظ الله تعالى لبيته وحرمه؛ لأن الله توعد من أرادهما بسوءٍ بالعذاب الأليم العاجل والآجل[٢].

(٦٥٤) تفيد الآية وجوب احترام الحرم، وشدة تعظيمه، والابتعاد عن كل ما ينافي حرمته؛ ولذلك كان بعض جلة الصحابة يحترزون من أدنى ما يُخشى أن يكون منافيا لتعظيمه[٣]، ومن ذلك أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (كان له فسطاطان: أحدهما في الحل، والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الذي في الحل، فقيل له، فقال: كنا نحدث أن من الإلحاد فيه إن يقول الرجل: كلا والله، وبلى والله)[٤]. والظاهر أن هذا من باب الورع، وإلا فإن عتاب الرجل امرأته، أو يمين اللغو، أو نحو ذلك ليس من الإلحاد ولا من الظلم[٥].

(٦٥٥) تفيد الآية أهمية اتخاذ الأسباب والوسائل للمحافظة على حرمة المسجد الحرام وتطهيره من الشرك والمعاصي ومنع من يريد فيه فسادا أو إفسادا، ومن أمثلة هذه الوسائل في زمننا مشروع تعظيم البلد الحرام[٦].

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٥٩).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٥٩).

(٣) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٠٥).

(٤) رواه تفسير الطبري (١٦/ ٥١٠).

(٥) أضواء البيان (٤/ ٢٩٤).

(٦) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٥٩).

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الحج: ٢٦]:

(٦٥٦) تفيد الآية استحباب تذكر نعم الله في بناء المقدسات وتيسير الشعائر والتذكير بها؛ لأن الله تعالى أمر نبيه بتذكر بداية بناء الكعبة، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾، أي واذكر يا محمد كيف ابتدأنا هذا البيت الذي يعبد قومك فيه غيري، إذ بوأنا لأبيك إبراهيم مكانه[(١)].

(٦٥٧) تفيد الآية أن الله جعل البيت العتيق مرجعا لإبراهيم عليه السلام يرجع إليه للعمارة والعبادة[(٢)]، فيكون بقلبه موحدا لله منزها له عن الشريك والنظير، وبقالبه مشتغلا بتنظيف البيت من الأوثان والنجاسات[(٣)]. ويؤخذ هذا المعنى من أن «بوأ» هي تعدية «باء» بالتضعيف، و«باء» معناه رجع، فكأن المبوِّئ يردّ المبوَّأ إلى المكان[(٤)]. وما بعد ﴿أَن﴾ المفسرة تفسيرٌ للتبوئة[(٥)].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥١١)، والهداية (٧/ ٤٨٧٢)، وروح المعاني (٩/ ١٣٥). والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٠). قال المراغي في تفسيره (١٧/ ١٠٧): (والمراد بذكر الوقت ذكر ما وقع فيه من حوادث جسام، ليتذكروا فيُقلعوا عن غيّهم ويرْعوُوا إلى رشدهم، ويستبين لهم عظيم ما ارتكبوا من خطأ، وكبير ما اجترحوا من جرم، بصدهم الناس عن بيت بناه أبوهم، وجعله الله قبلة للناس في الصلاة ومكانا للطواف حين أداء شعيرة الحج).

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢١٩)، والبحر المحيط (٧/ ٥٠٠).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٩).

(٤) وذكر ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ لأنه لم يكن البيت العتيق حينئذ، ينظر تفسير الإيجي (٣/ ٥٣).

(٥) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٩). قال ابن جزي في التسهيل (٢/ ٣٨): (وإنما فسرت تبوئة البيت بالنهي عن الإشراك، والأمر بالتطهير لأن التبوئة إنما قصدت لأجل العبادة التي تقتضي ذلك)، وهو مأخوذ من كلام الزمخشري في الكشاف (٣/ ١٥٢).

(٦٥٨) تفيد الآية أن الله تعالى وطّأ لإبراهيم عليه السلام مكانَ البيت ومكنه وهيأه له[١]. ولهذا عدي ﴿بَوَّأْنَا﴾ باللام على وجه التضمين لمعنى التهيئة: ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾، كقولك: هيأت له بيتا[٢]، مع أن الأصل في فعل «بوّأ» أنه يتعدّى بنفسه لمفعولين.

(٦٥٩) تفيد الآية أن المكان الذي بنيت فيه الكعبة موضع مبارَك، لأن الله تعالى هيأه ووطأه وأضفى عليه ما شاء سبحانه من البركة والرحمة ليبني فيه إبراهيم البيت، فالبركة أصلا في المكان، ثم شملت البناء الذي أقيم عليه وهو البيت، فصار البيت مباركا في المكان المبارك[٣].

(٦٦٠) تفيد الآية أن الله تعالى أنزل إبراهيم عليه السلام مكانَ البيت ليتخذ فيه بيتا[٤]، والمبوأ المنزل، وبوأه إياه وبوأه له، أي أنزله[٥]. وهذا التفسير على أن اللام فائدتها التوكيد فحسب، و﴿مَكَانَ﴾ ظرف[٦].

(٦٦١) تفيد الآية أن الله تعالى هو الذي اختار لإبراهيم عليه السلام مكانَ البيت وعيّنه له، وأراه أصله ليبنيه بعلامة يستدل بها[٧]، حتى بناه في مكانه مسامتًا للبيت المعمور

(١) ويروى هذا التفسير عن ابن عباس، وبه قال مقاتل بن حيان، وهو اختيار الطبري وغيره، ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥١١)، والكشف والبيان (٧/ ١٧)، والهداية (٧/ ٤٨٧١)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٧٨).

(٢) ينظر الدر المصون (٨/ ٢٦١، واللباب (١٤/ ٦٥).

(٣) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠١٤).

(٤) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٠٦).

(٥) تفسير القرطبي (١٢/ ٣٦).

(٦) ينظر التبيان في إعراب القرآن للعكبري (٢/ ٩٣٩)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٦٩)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٣).

(٧) ينظر النكت والعيون (٤/ ١٧)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٥٥)، وتفسير السمعاني (٣/ ٤٣٣)، وأضواء البيان (٤/ ٢٩٦).

على ما جاء في بعض الروايات[(١)]. ويؤخذ ذلك من أن معنى ﴿بَوَّأْنَا﴾ هاهنا: بيّنا له مكان البيت[(٢)]. واختيار الله لهذا الموضع فيه حكمة بالغة.

(٦٦٢) تومئ الآية أنه ينبغي تخير الأماكن المناسبة لبناء المساجد[(٣)]، لأن الله تعالى اختار موضع البيت الحرام، ولم يأمر إبراهيم عليه السلام ببنائه في أي موضع شاء.

(٦٦٣) في الآية إشارة إلى أن حدود البيت الحرام ينبغي أن تبقى موافقة لقواعد إبراهيم عليه السلام ولا يزاد فيها ولا ينقص، لأن الله تعالى هو الذي عيّن مكانه وحدوده[(٤)].

(٦٦٤) تدل الآية على أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم، وإنما هُدي إبراهيم إليها ودُلَّ عليها. كما ذهب إلى ذلك بعض السلف[(٥)]. ويدل عليه قوله تعالى هنا: ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾، لأنه يدل على أن له مكانا سابقا كان معروفا، ويؤيد ذلك قول إبراهيم حين ترك إسماعيل وهاجر في مكة: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٧][(٦)]، وظاهره يدل على أنه كان مبنيا واندرس. وقد جاء

---

(١) البحر المديد (٣/ ٥٢٦). قال مقاتل بن سليمان في تفسيره (٣/ ١٢٢) عن البيت الحرام: (ورفعه الله- عز وجل- ليالي الطوفان إلى السماء فعمرته الملائكة وهو البيت المعمور... والبيت الحرام اليوم مكان البيت المعمور، ولو أن حجرا وقع من البيت المعمور وقع على البيت الحرام، وهو في العرض والطول مثله إلا أن قامته كما بين السماء والأرض).

(٢) حكاه الواحدي في التفسير البسيط (١٥/ ٣٥٥) عن بعض أهل اللغة.

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٠).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٠).

(٥) ينظر تفسير ابن كثير (١/ ٤٣٣). روى عبد الرزاق في تفسيره (ص ٤٧) عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ ﴾ قال: (القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك). ومن طريقه أخرجه الطبري (٢/ ٥٤٩)، وقد صحح سنده الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/١٧٠).

(٦) ينظر أضواء البيان (٤/ ٢٩٦)، وتفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٧٦).

في بعض الآثار أن البيت بناه آدم عليه السلام، ثم درس بالطوفان وغيره[(١)]، فلما أمر الله إبراهيم عليه السلام ببنيانه، كشف له عن أساس البيت، فرتب قواعده عليه[(٢)]، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [سورة البقرة: ١٢٧].

(٦٦٥) تفيد الآية أن الله جعل مكان البيت مُبَوَّأً لإبراهيم عليه السلام، أي منزلا[(٣)]، يرجع إليه بعلامة[(٤)]، وتلك العلامة هي الأساس الذي كشفت عنه الريح أو بغيرها كما جاء عن بعض السلف[(٥)].

(٦٦٦) تدل الآية على عظيم منزلة إبراهيم عليه السلام عند الله تعالى، لأنه خصه بشرف بناء بيته ورفع قواعده، فبوأ مكانه له. ومن وجه آخر ذكر بعض المفسرين أن مفعول

---

(١) من ذلك ما ورد عن أبي قلابة أنه قال: (لما أهبط الله تعالى آدم قال: (يا آدم، إني مُهبطٌ معك بيتًا يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، ويصلى عنده كما يصلى عند عرشي). فلم يزل كذلك حتى كان الطوفان رفع، فكانت الأنبياء تحجه، يأتونه فلا يعرفون موضعه، حتى بوأه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام). أخرجه الطبراني موقوفًا على عبد الله بن عمرو بن العاص في المعجم الكبير (جـ ١٣، ١٤/ ٣٤٣ ح١٤١٥٧)، وقال الهيثمي في المجمع (٢٨٨/٣): (ورجاله رجال الصحيح)، ورواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتاب العرش (ص٤٠)، والطبري في تفسيره (٥٥١/٢)؛ والأزرقي في أخبار مكة (٦٣/١)، وقال الذهبي في مختصر العلو للعلي الغفار (١٢٩): (وهو ثابت عن أبي قلابة).

(٢) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٣٦)، والبحر المديد (٣/ ٥٢٦)، وينظر ما رواه الطبري عن السدي في ذلك في تفسيره (٢/ ٥٥٨).

(٣) هذا تفسير الزجاج في معاني القرآن (٣/ ٤٢٢). وينظر كذلك معاني القرآن للنحاس (٤/ ٣٩٦).

(٤) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٥٦)، وحكاه عن بعض أهل المعاني.

(٥) فقد روى ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٢٣٢، رقم ١٢٣٧) والطبري في تفسيره (١٦/ ٥١٢) عن السدي، أن إبراهيم عليه السلام انطلق حتى أتى مكة، فقام هو وإسماعيل، وأخذا المعاول، لا يدريان أين البيت، فبعث الله ريحا يقال لها ريح الخجوج، فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، واتبعاها بالمعاول يحفران. وفي حديث علي – عند الطبري (٢/ ٥٦١) والحاكم في المستدرك (كتاب التاريخ، ح ٤٠٢٤، ٢/ ٦٠١) وصححه ووافقه الذهبي – أنه لما قدم مكة (رأى على رأسه في موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس فكلمه فقال: يا إبراهيم، ابن على ظِلّي – أو على قدري – ولا تزد ولا تنقص، وذلك حين يقول الله: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ الآية)، وينظر الدر المنثور (٦/ ٢٩ – ٣٢).

﴿بَوَّأْنَا﴾ محذوف، تقديره بوأنا الناس، واللام في ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ على قول بعض المفسرين لام العلة، أي لأجل إبراهيم كرامةً له وعلى يديه[١].

(٦٦٧) تفيد الآية أن الله تعالى يختص بهباته العليا من يشاء من خُلَّص عباده[٢]، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى اختص إبراهيم عليه السلام برفع قواعد البيت الحرام كرامة وتشريفا له.

(٦٦٨) تفيد الآية شرف بناء المساجد، وأنه من هدي الأنبياء، وأنه سبب لرفع الذكر ونيل عظيم الأجر[٣]؛ ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام ببناء البيت العتيق، وخلد ذكره في كتابه، وكان سببا في مضاعفة ثوابه.

(٦٦٩) يؤخذ من الآية أن بناء المساجد من أولى الأولويات لبناء مجتمع صالح[٤]؛ لأن الله تعالى خص بناء البيت الحرام بالذكر، ويشهد له أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما قدم المدينة النبوية ابتدأ ببناء مسجده الشريف.

(٦٧٠) تدل الآية على أن التوحيد أساس الدين؛ لأن الله عهد إلى إبراهيم عليه السلام بتوحيده ونهاه عن أن يشرك به شيئا[٥]، وقدم ذلك على غيره من الأوامر والنواهي.

(٦٧١) تشير الآية أن العبد عليه ألا يغترّ بحاله إن كان على التوحيد، وإنما عليه أن يتفقد قلبه، ويحذر من الشرك ظاهره وخَفيّه، ويسأل الله الثبات[١]. فقد نهى الله خليله إبراهيم وهو يومئذ أقرب الناس إلى لله تعالى وأشدهم توحيدا له.

---

(١) رأى ابن عطية أنه هو القول الأظهر، ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١٧)، والبحر المحيط (٧/ ٥٠١).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٠).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٠).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٠).

(٥) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٥٧)، والسراج المنير (٢/ ٥٤٨)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٤١). ويجدر بالتنبيه أن الخطاب وإن كان موجها بالأصالة إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، فإنه موجه بالتبع إلى خاتمِ الأنبياء والرسل، مجدِّدِ مِلة إبراهيم، الذي أمره الله بإعادة الحق إلى نصابه، عند تيسر أسبابه (التيسير في أحاديث التفسير: ٤/ ١٧١).

(٦٧٢) تومئ الآية إلى أن أول ما بعث من أجله الأنبياء جميعًا هو دعوة العباد إلى توحيد الله وألا يشركوا به شيئا[٢]. ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل: ٣٦].

(٦٧٣) تدل الآية على أن المساجد ينبغي أن تبنى خالصة لوجه الله تعالى؛ لأن الله تعالى أوحى لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾، أي: قلنا له لا تشرك بِي غرضًا آخر في بنائها، بل خلِّص عملك من كل شوائب حظوظ النفس التي تُعد من أخفى وجوه الشرك[٣].

(٦٧٤) تفيد الآية أهمية الإخلاص في العمل مهما كان شرف هذا العمل؛ فقد أمر الله تعالى بإبراهيم وهو يبني الكعبة – وهو عمل من أشرف الأعمال – بأن يخلص له فيه ولا يشرك به في القصد غيره[٤]؛ لأن العمل مهما كان شريفًا لا يساوي عند الله شيئا حتى يتحقق فيه الإخلاص.

(٦٧٥) تومئ الآية إلى أن من كان يدّعي أنه متبعٌ لإبراهيم عليه السلام فينبغي أن يكون موحدًا لله، مجتنبًا للشرك، داعيًا إلى التوحيد، كافرًا بالأصنام؛ لأن في الآية توبيخًا لمشركي مكة؛ لأنهم كانوا يَدّعون أنهم على دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، فأخبر الله تعالى أنهم قد

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٠).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦١).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٩)، واللباب (١٤/ ٦٩)، والبحر المديد (٣/ ٥٢٧). وقد عبر القشيري عن ذلك في لطائف الإشارات (٢/ ٥٣٨) فقال: (أي لا تلاحظ البيت ولا بناءك له). أما ابن عجيبة فقد بالغ على طريقة المتصوفة، فجعل الرغبة في الثواب الأخروي حظا ينبغي التنزه عنه فقال (٣/ ٥٢٧): (خلِّص عملك في بنائها وغيره، من شوائب حظ النفس، عاجلاً وآجلاً، لا طَمَعًا في جزاء، ولا خوفًا من عقوبة، بل محبة وشكرًا وعبودية).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦١).

كَذَبُوا في ادعائهم؛ لأن إبراهيم عليه السلام كان موحدًا قد أوحى إليه: أن لا تشرك باللهِ شيئًا، وهم يشركون بالله في البقعة التي أسست من أول يوم على التوحيد[١].

(٦٧٦) تدل الآية على أن الشرك أعظم ذنب، وأكبر معصيةٍ تفسد الأعمال وتحبط ثوابها وتهلك صاحبها؛ لأن الله تعالى خصه بالنهي في أول يوم سيرفع فيه إبراهيم قواعد البيت الحرام[٢]. ويؤيده أنه أول أمر جاء النهي عنه في وصايا الله لعباده: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ﴾ [سورة الأنعام: ١٥١].

(٦٧٧) تومئ الآية إلى أن من يريد أن يحيى موحدا لربه توحيدا خالصا فعليه أن يحذر مما يفسد توحيده لله، وأن يحترز من أدنى شائبة من شوائب الشرك، وأن يلاحظ كل مدخل للشياطين حتى لا يفسدوا إيمانه. ويؤخذ ذلك من كون تقدير العبارة هنا: (وقلنا له: لا تشرك بي شيئا)[٣]. ولكن اختصر ذلك، لأن مقام التوحيد والنهي عن الشرك يقتضي إزالة الواسطة، وأن يعمد إلى ذلك مباشرة[٤].

(٦٧٨) تفيد الآية أن أي شيء أشركته بالله في ربوبيته أو ألوهيته فقد وقعت في الشرك المحظور، سواء أكان ذالك الشيء صغيرا أم كبيرا، إنسانا أم حيوانا أم كوكبا أم وثنًا.

(٦٧٩) تشير الآية أن أعظم مقصود من بناء الكعبة إظهار توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة[٥]؛ لأن الله أمر ببناء الكعبة، ونهاه عن الإشراك به، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ

(١) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٥٧)، والمحرر الوجيز (٤/ ١١٧)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤١٣).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦١).

(٣) تفسير السمعاني (٣/ ٤٣٣).

(٤) ينظر الحج في القرآن الكريم: عبد الفتاح عاشور (ص ٥٢).

(٥) ينظر تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٦٣٤)، وفي ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٨)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٤١)، والتفسير المنير (١٧/ ١٩٧).

مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾، على القول بأن ﴿أَن﴾ مصدريةٌ موصولة بالنهي، أي: فعلنا ذلك لئلا تشرك بي في العبادة شيئا[(١)].

(٦٨٠) في الآية إيماء إلى سفه الذين يشركون بالله وهم داخل بيوته عز وجل، وعلى رأسها البيت الحرام الذي بني من أجل توحيده سبحانه[(٢)].

(٦٨١) تفيد الآية أن البيت الحرام جعل معلما للتوحيد، بحيث يشترط على الداخل إليه أن لا يكون مشركا، لأن المقصود من البيت أن يكون معهدا لإقامة شعائر الدين، وأصل الدين هو التوحيد[(٣)]، والشرك ينافيه بالكلية. وقد منع الله تعالى دخول المشركين إليه فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [سورة التوبة: ٢٨].

(٦٨٢) تومئ الآية أن الوافد على البيت الحرام في حج أو عمرة عليه أن يتجنب أوجه الشرك كلها، جليله ودقيقه، كالرياء والسمعة وغيرها، ومن ذلك ولع بعض المعتمرين بالتصوير في كل حركاتهم وسكناتهم، وهذا يخدش وجه الإخلاص[(٤)].

(٦٨٣) تدل الآية على فضل التوحيدِ؛ إذْ هو أعظَمُ المقاصدِ مِن تشييدِ البيتِ وعِمَارتِه، وكلُّ ما يكون فيه مِن عباداتٍ من طوافٍ وسعيٍ وسُقْيَا وإطعامٍ – فهي تابعةٌ له؛ فالتوحيدُ أعظَمُ مِن كلِّ عملٍ وقولٍ، وقد قال تعالى مبيِّنًا منزلتَهُ على غيرِهِ ممَّا كان يغترُّ به كفارُ قريشٍ مِن عملٍ صالحٍ فيُعْمِيهِم عن منزلةِ التوحيدِ: ﴿* أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة: ١٩][(٥)].

---

(١) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٦٩)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٣).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦١).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤١).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦١).

(٥) ينظر التيسير والبيان لأحكام القرآن (٤/ ٢٣٥٣).

(٦٨٤) تدل الآية على وجوب تطهير البيت الحرام وسائر المساجد من الأصنام والأوثان لئلا يُعبَد فيها غير الله[١]، فقد نهى الله إبراهيم عليه السلام عن الشرك، وأمره بتطهير البيت مما يفضي إليه، فقال: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾، وذلك أن جُرْهمًا والعمالقة كانت لهم أصنام في محل البيت وحوله قبل أن يبنيه إبراهيم عليه السلام[٢].

(٦٨٥) تدل الآية على وجوب تنزيه البيت الحرام وسائر المساجد عن جميع صور الشرك، ووجوب إظهار التوحيد فيها[٣]، والخطاب – لإبراهيم عليه السلام – ونهيُه عن الشرك نهيٌ لذريَّته وأتباعه وكل من تناسل منهم[٤]. والأمر يعم المساجد لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [سورة الجن: ١٨].

(٦٨٦) تفيد الآية أن أول واجب على القائمين على المسجد الحرام هو دعوة الوافدين إليه إلى تحقيق التوحيد ونبذ جميع مظاهر الشرك بالله تعالى[٥]، وبذلك يطهرون بيت الله تعالى من أعظم الخبائث المعنوية.

(٦٨٧) تدل الآية على وجوب تطهير البيت الحرام وسائر المساجد من النجاسات الحسيّة، ففعل التطهير يستعمل أصالة في إزالة النجاسات، وكان المشركون يذبحون الذبائح، ويطرحون الدماء والفرث والأقذار حول البيت[٦]. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥١٢ – ٥١٣)، وتفسير الماتريدي (٧/ ٤٠٦).

(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ٣٧).

(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٣٧).

(٤) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٠٧).

(٥) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ١١).

(٦) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٧٣)، والنكت والعيون (٤/ ١٧)، والكشاف (٣/ ١٥٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢١٩).

قالت: ((أَمَرَ رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم– ببناءِ المساجد في الدور، وأن تُنَظَّفَ وتُطَيَّب))[1].

(٦٨٨) تدل الآية على وجوب الاعتناء بالأماكن المخصَّصة للعبادة[2]، تهويةً وتنظيفا، وإنارةً وتنظيما، ليؤدي المسلمون عباداتهم في جو من السكينة والخشوع. ويؤخذ هذا من تقديم الأمر بتطهير البيت الحرام على النداء بالحج.

(٦٨٩) يؤخذ من هذه الآية أنه لا يجوز أن يُترَك في بيت الله الحرام أحد يرتكب ما لا يرضي الله، أو أحد يلوثه بقذر من الأقذار[3]؛ لأن الله تعالى أمر بتطهيره، وهو يشمل التطهير الحسي والمعنوي، وما يتوقف على الواجب فهو واجب.

(٦٩٠) تفيد الآية وجوب تطهير البيت الحرام وسائر المساجد من الشرك والمعاصي والبدع والخبائث وسائر ما لا يليق بها من كل خبث حسيٍّ أو معنوي؛ لأن الله تعالى أمر إبراهيم بتطهير البيت الحرام من كل ذلك[4]، وحذَف المفعول إيذانا بالعموم، والمساجد كلها

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الصلاة، باب اتخاذ المساجد في الدور، ح ٤٥٥، ١/ ١٢٤)، والترمذي في سننه (كتاب الصلاة، باب ما ذكر في تطييب المساجد، ح ٥٩٤، ٢/ ٤٨٩)، وابن ماجه في سننه: (كتاب المساجد، باب تطهر المساجد وتطييبها، ح ٧٥٨، ١/ ٢٥٠)، وابن خزيمة في صحيحه (كتاب الصلاة، جماع أبواب فضائل المساجد، باب الأمر ببناء المساجد في الدور، ح ١٢٩٤، ٢/ ٢٧٠) دون قوله: ((وأن تنظف وتطيب))، وابن حبان في صحيحه (المساجد، ذكر الأمر بتنظيف المساجد وتطييبها، ح ١٦٣٤، ٤/ ٥١٣)، قال ابن عبد الهادي في المحرر في الحديث (ص: ٢٦٤): (وإسناد بعضهم على شرط الصحيحين. ورواه الترمذي مرسلا ومتصلا، وقال في المرسل: (هذا أصح))، وكذلك صححه الألباني على شرط الشيخين في "الصحيحة" (٦/ ٤٩٧).

(٢) ينظر التفسير البلاغي لآيات الحج، معن توفيق دحام، مجلة التربية والعلم، المجلد ١٤، العدد ٢ لسنة ٢٠٠٧م (ص١٣٤).

(٣) ينظر أضواء البيان (٤/ ٢٩٨)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٠١).

(٤) ينظر تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٦٣)، وتفسير الماتريدي (٧/ ٤٠٦)، والهداية (٧/ ٤٨٧٤)، والمحرر الوجيز (٤/ ١١٧)، والتسهيل (٢/ ٣٨)، وتفسير أبي السعود (١/ ١٥٨)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٤١)، وأضواء البيان (٤/ ٢٩٧).

بيوت الله، وفي الحديث: ((إن المساجد بيوت الله في الأرض تُضيء لأهل السماء كما تضيء نجوم السماء لأهل الأرض))[١].

(٦٩١) تشير الآية أن من ولاه الله أمر بيته عليه أن يجعل طهارة البيت من أولى أولوياته[٢]؛ لأن الله تعالى بعد أن أمر إبراهيم عليه السلام باجتناب الشرك أمره بتطهير البيت.

(٦٩٢) تشير الآية إلى استحباب تطييب المسجد؛ لأن ذلك من مكملات تطهيره. وهذا المعنى روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كِسْوة البيت على الأمراء، ولكن طيِّبوا البيت فإن ذلك من تطهيره)[٣]. وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتطييب المساجد كما تقدم في الحديث[٤].

(٦٩٣) في الآية إيماءٌ إلى أن الشرك بالله تعالى أعظم نجس يجب تطهير البيت الحرام منه[٥]؛ لإن الله تعالى قال: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾، ويؤيده أن الله تعالى عد المشركين نجسا فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [سورة التوبة: ٢٨].

(٦٩٤) يفهم من الآية الأمر بتطهير المسجد من كل ما يفسد على العابدين عبادتهم وكل ما ينافي توجههم إلى ربهم، وتهيئته لما يريدونه عنده، ويدخل في تطهيرِه تطهيرُه من الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش المتعبدين، بالصلاة والطواف[٦].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦٢، ح ١٠٦٠٨). قال الهيثمي (٢/٧): (رجاله موثّقون). ويشهد له أحاديث أخرى، مثل: ((من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله...))، أخرجه مسلم: (كتاب المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا وترفع به الدرجات، ح ٦٦٦، ١/٤٦٢).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٢).

(٣) تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٦٣).

(٤) تقدم ذكره قبيل قليل.

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦١).

(٦) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٧)، وتيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للسعدي (١/ ١٠٦).

(٦٩٥) في الآية إيماءٌ إلى أن تطهير المساجد وتنظيفها أعونُ للعبّاد على أداء العبادات، وأدعى إلى تحقيق الطمأنينة والخشوع الّذين يحصل بهما مقصد العبادة لله تعالى[١].

(٦٩٦) في الآية إشارة لطيفة إلى أن من إكرام الزائر تنظيفَ المنزل وتهييئَه له قبل مجيئه إليه. ويستفاد هذا من أن الله تعالى قدّم أمر إبراهيم عليه السلام بتطهير البيت على النداء في الناس ودعوتهم للحج[٢].

(٦٩٧) تفيد الآية أن البيت الحرام هو أفضل البيوت وأشرف المساجد؛ لأن الله تعالى أمر ببنائه وأضافه إليه إضافة تشريف، فقال: ﴿بَيۡتِيَ﴾ [٣]، فأضافه الرحمن إلى نفسه لشرفه وفضله، ولِتعظُم محبته في القلوب، وتنصبّ إليه الأفئدة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه[٤].

(٦٩٨) تشير الآية إلى أنه لا يسوغ لأحد أن يصد الناس عن الكعبة؛ لأن الله أضافه إلى نفسه إضافة تشريف، فقال: ﴿بَيۡتِيَ﴾، فهو بيت الله تعالى للناس أجمعين، ومن يصد عنه كأنه يتحدى الله عز وجل، لأنه يصد عن أكرم بيوته[٥].

(٦٩٩) في الآية إيماءٌ إلى أن الكعبة جديرة بأن تُعظَّم وتُحبّ، فكما أنه يجب أن نحب الله ونعظمه، فكذلك يجب أن نحب ما هو منتسب إليه. ويؤخذ هذا من إضافة البيت الحرام إلى ذاته العليّة سبحانه في قوله: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ﴾، (وكل ما نُسب إلى المحبوب فهو محبوب)[٦].

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٢).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٢).

(٣) ينظر التفسير المظهري (٦/ ٢٧٥).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٧).

(٥) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٧٠).

(٦) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٢٦٩)، قال ابن القيم في بيان أنواع المحبوبات قبل هذه الجملة: (ومنها محبة دار المحبوب وبيته، حتى محبة الموضع الذي حل به، وهذا هو السر الذي لأجله علقت القلوب على محبة الكعبة البيت الحرام حتى استطاب المحبون في الوصول إليها هجر الأوطان والأحباب، ولذ لهم فيها السفر الذي هو قطعة من

(٧٠٠) تدل الآية على أنه يجب أن يجعل البيت الحرام خالصا للطائفين والمصلين الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، لئلا يغشاهُ غيرهم[١]. قال أبو السعود: (وفيه إيماء إلى أن ملابسة غيرهم به وإن كانت مع مقارنة أمر مباح من قبيل تلويثه وتدنيسه)[٢]، والله أعلم.

(٧٠١) تدل الآية على مشروعية الطواف حول الكعبة؛ لأن الله تعالى أمر بتطهيرها من أجل العابدين فيها، وابتدأ بذكر الطائفين. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الطوافُ بالبيتِ مِثلُ الصلاة...))[٣].

(٧٠٢) تدل الآية على أن الطواف حول الكعبة عبادة ثابتة في التشريع الإلهي منذ عهد إبراهيم عليه السلام؛ وأقرها الإسلام، وبينَ أحكامَه النبيُّ عليه الصلاة والسلام.

(٧٠٣) تدل الآية على أنه يستحبّ التطوع بالطواف حول الكعبة كما يستحب التنفل في الصلاة؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ يتناول مطلق الطواف سواء كان واجبا، أم سنة، أم تطوعا[٤].

(٧٠٤) تشير الآية إلى أن الطواف عبادة تخص الكعبة، ولا يفعل ببقعة من الأرض سواها[٥]، ويؤخذ هذا المعنى من أن الله تعالى قدم الطائفين على المصلين في قوله: ﴿وَطَهِّرْ

---

العذاب، فركبوا الأخطار، وجابوا المفاوز والقفار، واحتملوا في الوصول غاية المشاقّ، ولو أمكنهم لسعوا إليها على الجفون والأحداق...وسر هذه المحبة هي إضافة الرب سبحانه له إلى نفسه بقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾. قال الشاعر:

لما انتسبت إليك صرت معظَّما... وعلوت قدرا دون من لم ينسب).

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٣).

(٢) تفسير أبي السعود (١/ ١٥٨).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه: (كتاب الحج، باب ما جاء في الكلام في الطواف، ح ٩٦٠، ٣/٢٩٣)، والحاكم في المستدرك: (أوائل تفسير سورة البقرة، ح ٣٠٥٦، ٢/ ٢٩٣)، بلفظ: ((الطواف بالبيت بمنزلة الصلاة، إلا أن الله قد أحل فيه النطق، فمن نطق فلا ينطق إلا بخير))، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وإسناد رجاله ثقات.

(٤) ينظر تفسير الرازي (٤/ ٤٧).

(٥) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٣)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٠٧).

بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾؛ لأن الطواف خاص بالبيت، بخلاف الصلاة فإنها تؤدى في البقاع الطاهرة من الأرض كلها[1].

(٧٠٥) في الآية إشارة إلى أن الطواف للوافدين على مكة أفضل من الصلاة، لأن الله تعالى قدم الطائفين في الذكر، والوافدون على مكة أكثر عددا، وقد حمل بعض المفسرين الطائفين في الآية على الغرباء، وأنه تعالى إنما خصهم بالطواف دلالةً على أن لهم به مزيد اختصاص[2]. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعطاء: أن الطواف لأهل الأمصار أفضل، والصلاة لأهل مكة أفضل[3].

(٧٠٦) قد يفهم من تقديم الطائفين على المصلين في الآية أن فيه إشارةً أن الطائفين أحق بالمطاف من المصلين في غير صلوات الجماعة، لا سيما عند شدة الزحام[4]، والله أعلم.

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٧).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٤/ ٤٧).

(٣) أحكام القرآن للجصاص (١/ ٩٤)، وتفسير الرازي (٤/ ٤٧)، وتفسير القرطبي (٢/ ١١٦). روى عبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٧٠، رقم ٩٠٢٧) عن ابن جريج قال: كنت أسمع عطاءً يسأله الغرباءُ: الطواف أفضل لنا أم الصلاة؟ فيقول: (أمّا لكم فالطواف أفضل، إنكم لا تقدرون على الطواف بأرضكم، وأنتم تقدرون هناك على الصلاة). قال الطريفي في "التيسير والبيان" (١/ ١١٢): (وهو وجيهٌ؛ وذلك أنَّ الطوافَ لا يتحقَّقُ في كلِّ موضعٍ إلا في البيتِ، وهي خَصِيصةٌ له، ولما كان الآفاقيُّ لا يتحقَّقُ له الطوافُ إلا في البيتِ إذا وَفَدَ إليه، فالطوافُ له أفضلُ؛ بخلافِ المكيِّ، فهو يُدرِكُ الصلاةَ والطوافَ على السواءِ في مسجدِ بلدِه، وهو المسجدُ الحرامُ، فبَقِيَتِ الصلاةُ أفضلَ؛ لفضلِ جنسِها، ولِمَا تشتمِلُ عليه من سجودٍ وركوعٍ ودعاءٍ وتسبيحٍ؛ وهذا تعظيمٌ وتذلُّلٌ لا يظهرُ في الطوافِ ظهورَهُ في الصلاةِ... وإذا أطالَ الآفاقيُّ المقامَ عندَ البيتِ، فالصلاةُ له أفضلُ، ومِن السلفِ مَنْ حَدَّهُ بأربعينَ يومًا؛ كعطاءٍ والحسنِ، روى عبدُ الرزَّاقِ، عن هشامٍ، عن الحسنِ وعطاءٍ؛ قالا: «إذا أقامَ الغريبُ بمَكَّةَ أربعينَ يومًا، كانتِ الصلاةُ أفضلَ له مِن الطوافِ»).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٢).

(٧٠٧) تومئ الآية إلى أن من دخل المسجد الحرام فليبتدئ بالطواف حول الكعبة أولا، ثم ليصلِّ ركعتين[١]؛ وذلك لأن الله قدم الطواف على الصلاة في الذكر، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بفعله[٢].

(٧٠٨) في الآية إشارة إلى أن المسلم إنما يتوجه في صلاته إلى البيت الحرام، ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى قرن الطواف بالصلاة في هذه الآية لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة تكون في غالب الأحوال إليه، إلا ما استثني من الصلاة عند اشتباه القبلة، وفي الحرب، وفي النافلة في السفر، والله أعلم[٣].

(٧٠٩) تدل الآية على جواز الصلاة في جوف الكعبة دون فرق بين الفرض والنفل؛ لأن الأمر بتطهيرها للمصلين مطلق، سواء صلوا داخلها أو خارجها[٤]، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة[٥]. ويؤيده فعلُ النبي صلى الله عليه وسلم[٦]، والله أعلم.

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٢).

(٢) ينظر مثلا صحيح البخاري (كتاب الحج، باب ما جاء في السعي بين الصفا والمروة، ح ١٥٦٣، ٢/ ٥٩٣).

(٣) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٣)، وفتح القدير (٣/ ٥٣٠)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٠٧).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٤/ ٤٧).

(٥) ينظر الهداية في شرح بداية المبتدي للمرغيناني (١/ ٩٣)، والبحر الرائق شرح كنز الدقائق لابن نجيم (٢/ ٢١٥)، وروضة الطالبين وعمدة المفتين للنووي (١/ ٢١٤). أما مالك فالمشهور في مذهبه جواز النفل فيه دون الفرض والسنن كالوتر وركعتي الفجر (عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة: ١/ ٩٤)، وقد ذكر الرازي (٤/ ٤٧) حجته وقال: (واحتج مالك بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٥٠)، ومن كان داخل المسجد الحرام لم يكن متوجها إلى المسجد، بل إلى جزء من أجزائه. والجواب: أن المتوجه الواحد يستحيل أن يكون متوجها إلى كل المسجد، بل لا بد وأن يكون متوجها إلى جزء من أجزائه، ومن كان داخل البيت فهو كذلك، فوجب أن يكون داخلا تحت الآية).

(٦) ينظر صحيح مسلم: (كتاب الحج، باب استحباب دخول الكعبة للحاج وغيره، والصلاة فيها، والدعاء في نواحيها كلها. ح ١٣٢٩، ٢/ ٩٦٧).

(٧١٠) تومئ الآية إلى أن القيام والركوع والسجود من فرائض الصلاة التي لا تصح الصلاة إلا بها ما دام المصلي قادرا عليها؛ لأن الله تعالى خصها بالذكر كناية عن الصلاة دلالة على ركنيتها[١] وأنه لا تتصور الصلاة إلا بها فقال: ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾، والمراد بالقائمين القائمون في الصلاة كما روي عن السلف[٢]، لأن المصلي لا بد وأن يكون في صلاته جامعا بين القيام والركوع والسجود[٣].

(٧١١) تشير الآية إلى أن الصلاة قد تكون أحيانا بغير قيام، أما الركوع والسجود فهما مقترنان، ولا تخلو منهما الصلاة ولو بالإيماء. ويؤخذ ذلك من أن ﴿وَٱلرُّكَّعِ﴾ عطف على ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ بالواو، ولم يعطف "السجود" على "الركع"، لأن الصلاة قد تكون من غير قيام، ولا تكون من غير ركوع وسجود[٤].

(٧١٢) تشير الآية أن الركوع والسجود ينطويان على معنى التعظيم والتذلل لله، ويؤخذ ذلك من تخصيص الله لهما بالذكر دون القيام، وعلة ذلك والله أعلم أنهما مظهران من مظاهر التعظيم الذي تدور عليه هذه السورة[٥]، ولذلك أيضا ذكر سجود المخلوقات لله في آية سابقة.

(٧١٣) تومئ الآية إلى أن عدد الطائفين والقائمين أقل من عدد الرّكّع السجود؛ لأن الله أتى بلفظ الطائفين والقائمين بصيغة الجمع السالم المفيدة للقلة، وأتى بلفظ الركع السجود

---

(١) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١٧)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٧) والبحر المحيط (٧/ ٥٠١)، وفتح القدير (٣/ ٥٣٠)، وقال البيضاوي في تفسيره (٤/ ٦٩): (ولعله عبر عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك، كيف وقد اجتمعت؟).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥١٣)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٥٧).

(٣) تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٩)، والسراج المنير (٢/ ٥٤٨).

(٤) غرائب التفسير (٢/ ٧٥٨). وذكر ابن عرفة (٣/ ١٨٧) تعليلا آخر فقال: (فالجواب: أن الركوع يستلزم السجود؛ إذ لَا يوجد ركوع إلا ويعقبه سجود، بخلاف العكس مكانهما شيء واحد، فلذلك لم يعطفهما؛ لأن العطف يقتضي المغايرة). وعلل أبو السعود (٦/ ١٠٣) ترك العاطف بتقارب الركوع والسجود ذاتا وزمانا.

(٥) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ١١).

بصيغة جمع التكسير؛ وذلك لأن الطائفين والقائمين في الصلاة أقل من الركع السجود، وأما الطواف فظاهر؛ لأن الحجاج في النَّاس أقل من غيرهم، وأما القيام في الصلاة فلأنه إنما كلف به الصحيح، وأما المريض فلا يجب عليه بخلاف السجود والركوع، فإن العاجز عن القيام يركع ويسجد[(١)].

(٧١٤) تدل الآية على استحباب الدعاء قيامًا تجاه الكعبة، بناء على أن المراد بالقائمين: الداعين تجاه البيت، ومنه سمي مقام إبراهيم، وهو مكان قيامه للدعاء، فكان الملتزم موضعا للدعاء[(٢)]. قال زيد بن عمرو بن نُفَيْل[(٣)]:

عُــذتُ ممــا عــاذ بــه إبــراهيم مستقبلَ الكعبـة وهـو قـائم[(٤)]

تتضمن الآية فضل العابدين لله تعالى في الحرم بالطواف والاعتكاف والصلاة، وأنهم أهل للحفاوة والإكرام؛ لأنه من أجلهم أمر الله تعالى إبراهيمَ عليه السلام بتطهير البيت، حتى لا يتأذوا بأي أذى حسي أو معنوي وهم حول بيت ربهم[(٥)].

(٧١٥) في هذه الآية إشارة إلى فضيلة هذه الأمة المحمدية، إذ لا يجتمع القيام والركوع والسجود إلا في صلاتها، دون سائر أهل الشرائع السماوية الباقية[(٦)].

---

(١) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٨٧).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٢).

(٣) هو: زيد بن عمرو بن نفيل العَدَوي، ابنُ عَمِّ عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– كان يعادي عبادة الأوثان، ولا يأكل مما ذبح عليها، آمن بالنبي – صلى الله عليه وسلم – قبل بعثته، قال فيه صلى الله عليه وسلم: ((إنه يبعث أمةً وحدهُ)) (مسند أبي يعلى: ١٣/ ١٧٠، ح ٧٢١٢، ومسند البزار: ٤/ ١٦٥، ح ١٣٣١)، توفي قبل البعثة بخمسِ سنين. ينظر: جمهرة أنساب العرب (ص ١٠٥)، والإصابة (١/ ٥٦٩).

(٤) سيرة ابن هشام (١/ ٢٣٠).

(٥) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٧)، وأيسر التفاسير (٣/ ٤٦٨).

(٦) ينظر روح المعاني (٩/ ١٣٦). وقوله تعالى: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (آل عمران: ٤٣) لا يدل على أن الركوع والسجود كان في صلاة بني إسرائيل، فالركوع: الانحناء، ويستعمل في لازمه وسببه، وهو التواضع والخشوع في العبادة أو غيرها، وركوعها مع الراكعين عبارة عن صلاتها مع المصلين في المعبد... وقد أطلق

(٧١٦) يتضمن قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ إشارة إلى أن هذا البيت سيكون خالصًا للأمة المحمدية، التي تختص بالجمع بين القيام والركوع والسجود في صلاتها، وتتميز بكثرة السجود عن غيرها من أتباع الشرائع السماوية كاليهود والنصارى، ولهذا كانت سمة المسلمين التي يعرفون بها بين الأمم، هي أثر السجود، وقد وصفوا بهذا الوصف في التوراة كما أخبرنا الله تعالى بقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ﴾ [سورة الفتح: ٢٩][(١)].

(٧١٧) تفيد الآية أن الذين يستحقون أن يكونوا زوّارَ البيت الحرام وعُمّاره وحُماتَه هم المحافظون على الصلاة، المكثرون من القيام والركوع والسجود[(٢)]؛ لأن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام أن يطهر البيت لأجلهم خاصةً.

(٧١٨) تومئ الآية أن لب الصلاة هو إظهار التعظيم لله والتذلل له سبحانه، لأن الله خص الركوع والسجود بالذكر، والركوع تعظيم لله، والسجود تذلل له.

(٧١٩) تدل الآية على عظيم فضل الله تعالى على هذه الأمة، وجليل إحسانه إليها، إذ أعدّ لها هذا البيت قبل أن يبعث فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويجيء إليها برسالة الإسلام[(٣)].

(٧٢٠) تفيد الآية أن أعظم العبادات عند البيت الحرام هي الطواف والاعتكاف والدعاء والصلاة. لأن الله خص هذه العبادات بالذكر في هذه الآية، وقال في آية أخرى:

---

الركوع والسجود في صلاتنا على العمل المعلوم وهو استعمال لِلَّفظ في حقيقته ومجازه، إذ الدين يطالبنا بالخشوع واستشعار التواضع في هذا الانحناء والتطامن، ولم تكن صلاة اليهود كصلاتنا في أعمالها وصورتها، ولكنهم طولبوا فيها بمثل ما طولبنا من الخشوع والتذلل لله تعالى. ينظر تفسير الطبري (٥/ ٤٠٠).

(١) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠١٥).

(٢) ينظر الحج في القرآن الكريم (ص ٥٣).

(٣) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠١٥).

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة البقرة: ١٢٥].

(٧٢١) تشير الآية أن للصلاة في البيت ثوابًا يفوق ثواب الصلاة في غيره من البقاع[(١)]. ولذلك أشار إلى عبادة الصلاة مع عبادة الطواف دون غيرها من العبادات.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الحج: ٢٧].

(٧٢٢) تُفصِح الآية بأن تشريع عبادة الحج ابتدأ في عهد إبراهيم عليه السلام، وأنه كان واجبا في شريعته عليه السلام[(٢)].

(٧٢٣) تؤذن الآية بما لإبراهيم عليه السلام من شرف ومكانة عند الله[(٣)]، لأن الله اختصه بهذا الأمر، وجعله ينادي في الناس بالحج، وهذا على قول الجمهور بأن إبراهيم عليه السلام هو المخاطب بالأمر بالتأذين[(٤)]. فما من نسمة أجابت هذا النداء فله من أجرها نصيب[(٥)].

---

(١) هذا مؤدى كلام الماوردي في النكت والعيون (٤/ ١٧).

(٢) ينظر أضواء البيان (٤/ ٣٠٠)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٦٩).

(٣) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٥٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٨)، والتيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٧٢).

(٤) ينظر زاد المسير (٣/ ٢٣٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢١٩)، وأضواء البيان (٤/ ٢٩٩). وقال ابن جزي في التسهيل (٢/ ٣٨): (هو الصحيح).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٢).

(٧٢٤) تشير الآية إلى أن الحج ليس خاصًّا بقريش أو العرب، وإنما يعُمّ من آمن بالله من الناس جميعا[(١)]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾؛ ولم يخصه بأمة دون غيرها[(٢)].

(٧٢٥) تدل هذه الآية على مشروعية النداء بالحج لمن يجهله والتذكير لمن ينساهُ كيْ يتعاهدوا البيت الحرام بالحج في موسمه من كل عام مؤدين لفريضة الله عليهم؛ حتى لا يُهجرَ البيتُ ويَقِلَّ قاصدوه[(٣)].

(٧٢٦) تشير الآية إلى أنه لا بد من دعوة الناس إلى ما فيه الخير لهم وتكرير إعلامهم ومعاودة إخبارهم حتى يعرف الجميع وتقوم عليه الحجة. ويؤخذ هذا من أن الله أمر إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾، والتأذين: رفع الصوت بالإعلام بشيء. وأصله مضاعف أذن إذا سمع، ثم صار بمعنى بلغه الخبر، فجاء منه "آذِن" بمعنى أخْبر. و ﴿وَأَذِّن﴾ بما فيه من مضاعفة الحروف مشعرٌ بتكرير الفعل، أي أكثر الإخبار بالشيء. والكثرة تحصل بالتَّكرار، وبرفع الصوت القائمِ مقامَ التكرار[(٤)].

(٧٢٧) تدل الآية على أن بيانَ الأحكام الشرعية وتبليغَ أوامر الله تعالى إلى الناس كافةً من مهام الأنبياء والمرسلين، ومن يقوم مقامهم من العلماء والدعاة المصلحين. ويؤخذ ذلك من

---

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٧١).

(٢) عن ابن عباس قال: ((سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مكة والمدينة، فمررنا بواد فقال: أي واد هذا؟ فقالوا: وادي الأزرق، قال: كأني أنظر إلى موسى، فذكر من لونه وشعره شيئا، واضعا أصبعيه في أذنيه، له جؤار إلى الله تعالى بالتلبية مارًّا بهذا الوادي. قال: ثم سرنا حتى أتينا على ثنية فقال: أي ثنية هذه؟ قالوا: هرشى أو لفت، فقال: كأني أنظر إلى يونس على ناقة حمراء، عليه جبة صوف، خطام ناقته خلبة، مارًّا بهذا الوادي ملبيا)) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم، ح ١٦٦، ١/ ١٥٢).

(٣) التفسير والبيان (٤/ ٢٣٥٣).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٢).

أن الله أمر أبَ الأنبياء إبراهيم عليه السلام بإعلام الناس جميعا بالحج فقال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ ([1].

(٧٢٨) تدل الآية على فضل دعوة الناس إلى طاعة الله وأداء العبادات، ومنها الدعوة إلى حج بيت الله الحرام؛ لأن الله أمر خليله إبراهيم بالدعوة إلى الحج، ولا يأمر الله أنبياءه إلا بأشرف الأعمال. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣﴾ [سورة فصلت: ٣٣].

(٧٢٩) تومئ الآية أن الأذن هي وسيلة التلقي الأوّلي للأمر والخبر[2]، ولذلك خاطب الله تعالى إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾، وتقدم لنا أن فعل "أذِن" في الأصل بمعنى: سمع.

(٧٣٠) في الآية دليلٌ على عظم أمر تبليغ الدين بالوسائل المتاحة، وأعظمها الإعلام[3]، ويؤخذ هذا المعنى من أمر الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بتبليغ أمر الناس بحج بيت الله الحرام بواسطة التأذين، وهو صورة من صور الإعلام.

(٧٣١) تومئ الآية إلى أن وسائل الإعلام في زمننا لا بد أن تسهم في إيصال النداء بالحج إلى الناس في سائر بلدان العالم بِلُغاتهم التي يتحدثون بها، وتذكيرهم بهذه العبادة قبل حلول موعدها بوقت كافٍ ليتأهّبوا ويتجهزوا لها[4].

(٧٣٢) تدل الآية على أن أوْلى ما يُجهر به وأحق ما ينبغي أن يسمعه الناس كلهم في جميع أصقاع الأرض هو أمرُ الله ونهيُه[1]. ويؤخذ هذا من أن الله رفع إبراهيم عليه أمره برفع صوته والتأذين بالحج.

---

(١) ينظر التفسير البلاغي لآيات الحج، مقال سابق (ص١٣٤).

(٢) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٨٠).

(٣) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ١٢).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٤).

(٧٣٣) تدل الآية على عظم مكانة الحج ومزيته؛ لأن الله تعالى اختصه بهذا الأمر دون غيره من العبادات، فجاء نداء الناس إليه من الله بواسطة إبراهيم عليه السلام[٢]، وأبلغ صوته إلى جميع من كتب لهم الحج وهم في أصلاب آبائهم، ولم يكن لأي عبادة مثل هذا الأمر.

(٧٣٤) تشير الآية إلى سرعة استجابة الأنبياء لأمر الله تعالى، فقد أمر الله إبراهيم عليه السلام بالأذان، فأذن بالحج، وحقق الله له ما وعده به من إجابة الخلق له[٣].

(٧٣٥) تدل الآية على عظيم قدرة الله تعالى حيث أبلغ صوت إبراهيم عليه السلام لكل من كتبه الله له الحج في الأزل، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما فرغ إبراهيم من بناء البيت، أمره الله تعالى أن يؤذِّن في الناس بالحج، فقال إبراهيم: يا رب، وما يبلغ صوتي؟ قال: أذِّن، وعليَّ البلاغ، فعلا على جبل أبي قُبَيْس، وقال: يا أيها الناس: إن ربكم قد بنى بيتًا، فحجُّوه، فأسمع مَنْ في أصلاب الرجال وأرحام النساء ممّن سبق في علْم الله أن يحج، فأجابوه: لبيك اللهم لبيك)[٤].

(٧٣٦) تشير الآية أن الأذان لا بد فيه من رفع الصوت[٥]؛ لأن المراد به هو إسماع الغير، ولا يحصل ذلك إلا إذا رفع المؤذن صوته أو استعان بمكبرات الصوت التي توصل الصوت إلى مدى أبعد.

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٣).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٣ و٦٤).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٣).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: (كتاب الفضائل، ح ١١٨٧٥، ١١/ ٥٢١)، وكذا الطبري في تفسيره: (١٧/ ١٤٤، ١٤٥) عن ابن عباس، ومثله عن مجاهد وسعيد بن جبير. وأخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب التفسير، ح ٣٤٦٤، ٢/ ٤٢١)، وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى: (كتاب الحج، باب دخول مكة بغير إرادة حج ولا عمرة، ٥/ ١٧٦).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٣).

(٧٣٧) تشير الآية إلى أن الداعية عليه أن يبلغ الرسالة، ويصدع بالحق، ولا ينظر لقلة مَن استجاب مِنَ الناس؛ فإنما عليه البلاغ، وعلى الله إيصال كلماته لمن شاء، وهداية من شاء[(١)].

(٧٣٨) تدل الآية على أن الله تعالى يؤتي فضله من يشاء ويوفق لطاعته من يشاء؛ لأن الله تعالى أسمع نداء إبراهيم عليه السلام لمن شاء من خلقه ممن كتب لهم الحج إلى يوم القيامة، ثم يسر لهم أداء مناسكه.

(٧٣٩) تشير الآية إلى أن الإنسان عليه أن يأخذ بالأسباب التي أمر بها في حدود قدرته، ويفوض أمر المسبَّبات إلى الله تعالى فهو الكفيل بها[(٢)]؛ لأن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بالنداء، وتكفل بإيصال ندائه وقال كما تقدم: (أذِّنْ، وعليَّ البلاغ)، وضمن له استجابة الناس، وجعل إتيانهم إلى الكعبة مرتبطا بالتأذين فيهم ارتباطَ الشرط بالمشروط فقال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [(٣)].

(٧٤٠) تشير الآية إلى أن الأسباب لا تؤدي بشكل حتمي إلى المسبَّبات، وإنما هي مرتبطةٌ بمشيئة الله تعالى الذي يخلق الأسباب والمسبَّبات، ومعلوم بمقتضى العادة أن صوت إبراهيم عليه السلام لن يسمعه إلا من كان قريبا منه، ومع ذلك فإن الله بلَّغ صوته لكل من كتب عليه الحج، حتى من كانوا في أصلاب آبائهم.

(٧٤١) تومئ الآية إلى أن الله تعالى كما اقتدر على إبلاغ صوت إبراهيم عليه السلام نادى بالحج، فأجابه بقدرة الله من كتب الله له الحج على بُعد أقطارهم، وتنائي ديارهم، ممن

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٣).

(٢) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٨٠).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٣).

كان موجودًا في ذلك الزمان، وممن كان في ظهور الآباء الأقربين أو الأبعدين، فكذلك حين ينادي المنادي بالنفخ في الصور يجيبه كل ميت، لأن ذلك كله يسير على الله[١].

(٧٤٢) تومئ الآية إلى أن كل من أتى البيت الحرام حاجًّا فكأنه أتى إبراهيم عليه السلام[٢]، لأنه لا يوجد حاجٌّ حجّ من يومئذ إلى قيام الساعة إلا من كان أجاب إبراهيم يومئذ[٣]، والمدعوّ يتوجه نحو الداعي[٤]، فالإتيان إلى الحرم بسبب ندائه إتيانٌ إليه[٥]. ويؤخذ هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ﴾. وفي ذلك تشريف لإبراهيم عليه السلام[٦].

(٧٤٣) تومئ الآية أن إجابة الداعي إجابة لصاحب الدعوة في الحقيقة[٧]، لأن من أجاب نداء إبراهيم عليه السلام فإنما أجاب أمر الله تعالى الذي أرسله وأمره بالتأذين بالحج، فيحج البيت طاعةً له وتقربا إليه.

(٧٤٤) تدل الآية على أن إبراهيم عليه السلام كان يحضر موسم الحج كل عام يبلغ للناس التوحيد وقواعد الحنيفية، ويدل على ذلك تعليق فعل ﴿يَأْتُوكَ﴾ بضمير خطاب إبراهيم، والله أعلم[٨].

(٧٤٥) تومئ الآية إلى أن الحج يذكرنا بإبراهيم عليه السلام، ويبعثنا على الاقتداء به، ويحملنا على تعظيمه؛ فهو الذي رفع قواعد البيت الحرام، وطهَّره للعابدين، وهو الذي نادى في

---

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٣٨).

(٢) ينظر زاد المسير (٣/ ٢٣٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٨).

(٣) من أثر ابن عباس رضي الله عنهما، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٨٧، رقم ١٣٨٧٨).

(٤) أضواء البيان (٤/ ٣٠٠).

(٥) غرائب القرآن (٥/ ٧٧).

(٦) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٣٨).

(٧) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٤).

(٨) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٢).

الناس بالحج، وهو (أول من حج وغيره يقتدي به وكأنه يأتيه)[1] في ذلك. وقد أمرنا سبحانه باتباع ملته في ختام السورة فقال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

(٧٤٦) تدل الآية على أن الحج مستمرٌّ ما دام البيت الحرام باقيا[2]؛ لأنّ الله تعالى قال: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ﴾، فعبّر بالفعل المضارع ﴿يَأْتُوكَ﴾ الذي يدل على التجدد والاستمرار.

(٧٤٧) تشير الآية إلى فضل الدعوة إلى الله وما يحصل للداعية من شرف بسببها؛ لأن الحجاج يأتون البيت تقربا إلى الله، ولكن الله تعالى أضافهم إلى إبراهيم عليه السلام تشريفا له، فقال: ﴿يَأْتُوكَ﴾، لأنه هو الذي دعاهم إلى الحج[3].

(٧٤٨) تومئ الآية إلى أن المؤذن للصلاة عليه أن يهيئ المسجد وينظفه قبل أن يؤذن؛ حتى إذا قدموا وجدوه مهيئا لأداء العبادة؛ لأن الله أمر نبيه إبراهيم عليه السلام بتطهير البيت، ثم أمره بإعلام الناس بالحج، والله أعلم.

(٧٤٩) تدل الآية على أن حج الماشي على رجليه أفضل من حج الراكب في الجملة[4]، ويُؤخذ ذلك من تقديم المشاة على الركبان في الذكر في قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ

---

(١) غرائب القرآن (٥/ ٧٧).

(٢) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ١٤).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٤).

(٤) قال أبو الليث السمرقندي في تفسيره (٢/ ٤٥٦): (هذا إذا كان بيته قريبًا من مكة، فإذا حج ماشيًا، فهو أحسن. وأما إذا كان بيته بعيدًا، فالركوب أفضل. وروي عن أبي حنيفة رحمه الله أنه قال: الراكب أفضل، لأن في المشي يتعب نفسه ويسوء خلقه. وإن كان الرجل يأمن على نفسه أن يصبر، فالمشي أفضل). وحكى القرطبي (١٢/ ٣٩) أن مالكا والشافعي في آخرين ذهبوا إلى أن الركوب أفضل، اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلّم، ولكثرة النفقة ولتعظيم شعائر الحج بأهبة الركوب. والظاهر أن النبي إنما حج راكبا ليراه جميع الصحابة فيتبعوه في أداء المناسك. قال ابن العربي (٣/ ٢٨١): (وإنما حج النبي – صلى الله عليه وسلم – راكبا ولم يحج ماشيا؛ لأنه إن اقتدى به أهل ملته لم يقدروا، وإن قصروا عنه تحسروا، وكان بالمؤمنين رؤوفا رحيما. ولَعمْرُ الله لقد طاف راكبا ليرى الناس هيئة الطواف). وانظر منشأ الخلاف في أضواء البيان (٤/ ٣٠٠ – ٣٠٢).

كُلِّ ضَامِرٍ﴾، تشريفا لهم[1]، فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم[2]. ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: (ما آسَى على شيءٍ فاتني إلا أن لا أكون حججتُ ماشيًا، سمعت الله يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾)[3].

(٧٥٠) تومئ الآية إلى وجوب الحج على من كان قادرا على إتيان البلد الحرام مشيا على الأقدام، ولا يتوقف على استعمال وسيلة من وسائل النقل[4]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾، وفي تقديم الرجال على الركبان فائدة، (وهي أن الله تعالى شرط في الحج الاستطاعة، ولا بد من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، وقدم الرجال اهتماما بهذا المعنى وتأكيدا)[5].

(٧٥١) تومئ الآية إلى أن المشي في أداء مناسك الحج مندوب، لما تقدم من تفضيل المشاة على الركبان، ولأن المشقة في المشي أشدّ، والخضوع والتواضع فيه أكثر[6]. وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها: ((إن لكِ من الأجر على قدر نصَبِكِ ونَفَقتِكِ))[7].

---

(١) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٩)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٣٦)، والسراج المنير (٢/ ٥٤٩).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٤).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥١٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٨٨، رقم ١٣٨٨٥).

(٤) قال ابن العربي في "أحكام القرآن" (٣/ ٢٨٠): (بيد أن هذه الآية نص في أن حال الحاج في فرض الإجابة منقسمة إلى راجل وراكب، وليس عن هذا لأحد مذهب، ولا بعده في الدليل مطلب، حسبما هي عليه عند علماء المذهب، فإن الاستطاعة عندنا صفة المستطيع، وهي قائمة ببدنه، فإذا قدر يمشي وجبت عليه العبادة، وإذا عجز ووجد الزاد والراحلة وجبت عليه أيضا، وتحقق الوعد بالوجهين).

(٥) بدائع الفوائد (١/ ٦٩).

(٦) ينظر التفسير المظهري (٦/ ٢٧٦).

(٧) أخرجه الحاكم بهذا اللفظ في المستدرك: (كتاب الصوم، أول باب المناسك، ح ١٧٣٣، ١/ ٦٤٤)، وصححه على شرط الشيخين وتبعه الذهبي، وقد أخرجه بمعناه البخاريُّ في صحيحه (كتاب العمرة، باب أجر العمرة على قدر النصب،

(٧٥٢) في الآية دلالة على أن القرآن حق، لموافقة هذه الآية للواقع، لأن الله أخبر فيها أن الناس سيأتون البيت الحرام ماشين على أرجلهم وراكبين على أنواع المراكب[(١)]، وهذا ما حصل فعلا، ولفظ الآية يشمل كل من يحج إلى يومنا هذا.

(٧٥٣) في الآية دلالةٌ على ما جعله الله في قلوب المؤمنين من محبةٍ للكعبة وحنين إليها وشوق إلى إتيانها، مما يدفعهم إلى السفر إليها مهْما بعدت بلدانهم ولو مشْيًا. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى إخبارا عن إبراهيم عليه السلام، حيث قال في دعائه: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٧][(٢)].

(٧٥٤) تدل الآية على جواز القدوم إلى مكة باستعمال أي وسيلة من وسائل النقل لأداء الحج، وأنها لا تنحصر في وسيلة معينة؛ لأن الله تعالى أقر الإتيان إلى مكة على الدواب، فقال: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾، أي: وركبانًا على كل بعير ضامر؛ ويُقاس على البعير جميعُ وسائل النقل التي تحمل المسافرين من البلاد البعيدة. وقد قال مجاهد: (كانوا لا يركبون، فأنزل الله: ﴿يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾، قال: فأمرهم بالزاد، ورخص لهم في الركوب والمتجر)[(٣)]. تفيد الآية استحباب اتخاذ المراكب الحسنة ووسائل النقل الجيدة التي تحمل المسافرين وتوصلهم إلى مقصودهم. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى ذكر الذين يحجون إلى البيت من البلدان القصية

---

ح ١٦٩٥، ٢/ ٦٣٤) بلفظ: ((...ولكنها على قدر نفقتك أو نصبك))، ومسلم في صحيحه: (كتاب الحج: باب وجوه الإحرام، ح ١٢١١، ٢/ ٨٧٦)، بلفظ ((...ولكنها على قدر نصبك أو - قال – نفقتك)). قال الطريفي في التيسير والبيان (٤/ ٢٣٥٣): (والأظهر: أن الفضل يعود إلى العمل؛ فمن كان أداؤه للعبادة والنسك أفضل حال ركوبه، فيركب، ومن كان أداؤه لها أفضل حال مشيه، فالمشي أفضل؛ وذلك أن من الناس في دفْعه من عرفة من يزدحم الناس عليه، ويخشى التأخر في وصوله إلى عرفة إن لم يركب، فركوبه أفضل من مشي يتأخر به، ومثله لو كانت المراكب مزدحمة ويتأخر لو ركب، فالأفضل له أن يمشي ليصل على الوقت المشروع.

ومثل ذلك التعب والنصب؛ فمن رأى أنه إن مشى، ضعف في العبادة ولم يؤدها كما جاءت بها السنة، فركوبه أفضل، والناس يختلفون في ذلك).

(١) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٠٧)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٩)، وفي ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٨).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٤)، وتفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٨٢).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٥١٩).

فقال: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾، وقد قال الراغب: (الضامر من الفرس: الخفيف اللحم من الأصل، لا من الهُزال)[(١)]، والضمور – بهذا المعنى – من محاسن الرواحل والخيل، لأنه يُعِينها على السير وسرعة الحركة[(٢)].

(٧٥٥) تشير الآية إلى أن البهائم تشرف إذا استعملت وسيلةً للقُربات؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ﴾، فأسند الإتيان إلى الإبل، تشريفا وتكريما لها لمشاركتها للحجاج في الإتيان إلى البيت الحرام، ومثل ذلك قوله تعالى في خيل الجهاد: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾ [سورة العاديات: ١] تكريما لها حين سعت في سبيل الله[(٣)].

(٧٥٦) تشير الآية أن الحال المذمومة حسب المعايير الدنيوية تكون محمودة إذا كانت ناشئة عن طاعة، فضمور الرواحل مذموم، ولكنه لما نشأ عن طول المسير إلى البلد الحرام كان محمودًا. ونظير ذلك خُلوف فم الصائم، وشعث الحاجّ[(٤)].

(٧٥٧) تشير الآية إلى أن مشاعر الشوق القوية والمحبة العارمة تُهوِّن على صاحبها ما يجده من مشقة في سبيل وصْل المحبوب. ويؤخذ ذلك من أن الله أومأ بقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ إلى أنهم يأتون البيتَ الحرام مع بعد الشُّقة وشدة المشقة الناشئة عن المشي وركوب الدواب، وذلك لما في قلوبهم من شوق يحملهم على تجشم تلك المشاق من أجل أداء مناسك الحج.

(٧٥٨) تومئ الآية إلى أن الإسلام سينتشر في الأرض كلها، وأن المسلمين الذين سيسيرون على ملة إبراهيم سيكونون في أقاصي الدنيا، وسيأتون إلى مكة لأداء الحج من مواضع بعيدة جدا؛ لأن الله تعالى أثبت ذلك فقال: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ

---

(١) المفردات (ص: ٥١٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٤).

(٣) ينظر أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٨١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٩)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٥)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٧٢).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٤).

عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ (١). وهذه العبارة لها إيحاءاتها الدالة على كثرة هذه الفجاج وامتدادها إلى مسافات بعيدة سحيقة(٢).

(٧٥٩) تشير الآية إلى أن أكثر الحجاج هم الآتون من الأماكن البعيدة؛ لأن الله تعالى عدل عن التعبير الأخصر "ركبانا" الذي يقابل ﴿رِجَالًا﴾، وقال: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾، وذلك للدلالة على كثرة الآتين من الأماكن البعيدة(٣).

(٧٦٠) تومئ الآية إلى فضل القدوم إلى البلد الحرام بقصد الحج من مكان بعيد، وزيادة أجره على الإتيان من مكان قريب؛ لأن الله خص الوافدين على بيته من بعيد بالذكر(٤)، وفي الإتيان من بلد بعيد مشقةً أكبر، ونفقةً زائدة على نفقة من جاء من موضع قريب.

(٧٦١) تدل الآية على أن المقابلة مما تعرف به دلالات الألفاظ وترجح بها أحد المعاني المحتملة؛ لأن كلمة ﴿رِجَالًا﴾ تحتمل أن تكون جمع رجل وتحتمل أن تكون جمع راجل أي ماش على رجله، فترجح المعنى الثاني بدلالة مقابله: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ (٥).

(٧٦٢) تومئ الآية إلى أن من منافع حج البيت الحرام أنه يوحد بين المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأعراقهم وألسنتهم، فهم يفدون من كل فج عميق، ليجتمعوا على عبادة رب واحد، ويصلوا ويطوفوا ويعتكفوا بمسجد واحد، وهو المسجد الحرام، ومن هذه

---

(١) بين الشنقيطي وجه دلالة الآية في أضواء البيان (٩/ ١٤٠) فقال: (وقد يؤخذ بدلالة الإيماء: الوعد بفتوحات شاملة لمناطق شاسعة من قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾؛ لأن الإتيان من كل فج عميق، يدل على الإتيان إلى الحج من بعيد، والإتيان إلى الحج يدل على الإسلام، وبالتالي يدل على مجيء المسلمين من بعيد، وهو محل الاستدلال، والله تعالى أعلم).

(٢) ينظر الحج في القرآن الكريم (ص ٥٧).

(٣) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٦/ ٢٩٢)، وروح المعاني (٩/ ١٣٨)، ومحاسن التأويل (٧/ ٢٤٠).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٤).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٤).

الوحدة سيسعون إلى الوحدة السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية، وبناء العمل المشترك[1].

(٧٦٣) تشير الآية إلى فضل تجشم المشاق وطول المسير من أجل أداء مناسك الحج؛ لأن الله تعالى وصف الدواب التي يركبها الحجاج بالضمور والهزال من طول المسافة، فقال: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾، والضامر هنا صفة للبعير المهزول الذي أتعبه السفر وطول السير لبعد الشقة وعظم المشقة، فلا يصل إلى مكة إلا وقد صار ضامرا[2].

(٧٦٤) في الآية تنبيه على أن المسلمين يجب عليهم أن يبلغوا رسالة الله إلى الناس في جميع أصقاع الأرض[3]؛ إذ لن يأتيَ الحجيج من كل فج عميق إلا إذا بلغتهم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ودخلوا في الإسلام، ولا يتحقق ذلك إلا إذا قاموا بواجب الدعوة إلى الله.

(٧٦٥) في الآية إشارة لطيفة إلى كروية الأرض؛ لأن الله تعالى قال: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾، ولم يقل: "من كل فج بعيد". فالخطوط على سطح الأرض ليست مستقيمة، ولكنها منحنية، والخط المنحني يحتاج إلى بعد ثالث، يحتاج إلى سطح، وإلى عمق، وقد وصف الله الفج بالعميق أي البعيد سفلا، والامتداد البعيد السفلي لا يكون إلا إذا كانت الأرض علي هيئة الكرة أو شبه الكرة، وهو ما أثبته العلم الحديث[4].

---

(١) ينظر التفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٣٧).

(٢) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٧٤)، تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٩)، ونظم الدرر (١٣/ ٣٧).

(٣) ينظر الحج في القرآن الكريم (ص ٥٦).

(٤) ينظر موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، لمحمد راتب النابلسي (٢/ ٤٩)، والدراسة التحليلية لأهداف سورة الحج: (ص٩٤).

(٧٦٦) تفيد الآية أن عمارة المساجد حقيقةً إنما تكون بعمارتها بذكر الله تعالى وعبادته فيها، ولا يكفي مجرد بنيانها، وذلك لأن الله تعالى لما أمر إبراهيم ببناء البيت الحرام وتطهيره، أمره بدعوة الناس ليفدوا عليه ويعبدوا الله فيه[١].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الحج: ٢٨].

(٧٦٧) تشير الآية إلى حُسْن ذكر الأمر الإلهي مقرونًا بحكمته؛ لأن الله تعالى لم يكتف بالأمر بالحج، وإنما وبيَّن الحكمة من ذلك فقال: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [٢].

(٧٦٨) تومئ الآية إلى أن تحفيز الإنسان إلى فعل شيء ينبغي أن يكون ببيان فوائده وعوائده الإيجابية، لأن الإنسان ميّالٌ إلى الفوائد، مستشرِفٌ إلى جميل العوائد. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى عندما أمر إبراهيم بالتأذين بالحج علل إتيان علل الإتيان بما يرغبه فيه مبيحاً من فضله ما يقصده من أمر المعاش فقال: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾. أي لا للمعبود، دينية ودنيوية[٣].

(٧٦٩) تفيد الآية أن من حكم تشريع الحج أن يشهد الناس منافع متعددة لا ينالونها في غير هذه العبادة؛ لأن لام التعليل في قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ متعلقٌ بقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [٤].

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٣).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٠).

(٣) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٣٨)، والسراج المنير (٢/ ٥٤٩).

(٤) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠١٧).

(٧٧٠) تفيد كلمة ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ فضل البلد الحرام حيث جعل للخلق فيها منافع تتحقق لهم، وهذا من بركاتها[١].

(٧٧١) يومئ قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ إلى أن الشارع الحكيم يريد أن يجتمع الناس في البلد الحرام ويتآلفوا ويتبادلوا المنافع فيما بينهم[٢].

(٧٧٢) تشير الآية أن الحاج ينبغي له أن يتفكّر ويستمتع بما يشاهده من منافع له في الحج، سواء كانت حسية أم معنوية، ومن أعظمها تيسير الله لهذه العبادة، ثم يشكر الله تعالى على أن وفقه لذلك[٣].

(٧٧٣) يدل التعبير بقوله تعالى: ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾، دون قوله "منافعهم"، تحبب الرحمن إلى ضيوفه، حيث جعل لهم هذه المنافع قبل قدومهم على بيته، وما على ضيوفه إلا شهود ومشاهدة هذه المنافع العظيمة التي منحهم الله وملكهم إياها[٤].

(٧٧٤) تفيد الآية أن شهود نعم الله ومشاهدتها مما يقوي ذكر الله في نفس العبد، ويذهب عنها الفتور، ويشعر بعظمة منة الله عليه[٥].

(٧٧٥) تفيد الآية جواز الاتجار بالبيع والشراء في الأسواق في أيام الحج إذا لم يشغله عن أداء المناسك[٦]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾، وأكثر المفسرين جعلوها منافع الدنيا، وقالوا: يعني التجارة والأسواق[٧]. وقد استدل على ذلك ابن عباس رضي الله

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٥).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٥).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٦).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٦).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٦).

(٦) ينظر تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٤٢٠)، وأضواء البيان (٥/ ١١١).

(٧) التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٦٧)، والمحرر الوجيز (٤/ ١١٨)، وهو قول سعيد بن جبير، والسدي، وابن عباس في رواية أبي رزين؛ ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٢٠).

عنهما فيما روي عنه أن كلمة "منافع" لم تذكر في القرآن إلا للمنافع الدنيوية[1]. وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة البقرة: ١٩٨].

(٧٧٦) تفيد الآية جواز القدوم إلى مكة بِنِية الحج والتجارة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾، أي ليشهدوا الأسواق ويتجروا فيها.

(٧٧٧) تفيد الآية أن الحج يتضمن منافع متعددة تعبدية واقتصادية واجتماعية[2]؛ لأن الله أثبت وجود منافع متعددة في الحج، ولهذا ذكرها بصيغة الجمع فقال: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾. وجاءت منكَّرة للتعظيم دلالة على كثرة هذه المنافع وتنوعها[3]. وذلك أن الله عمّ لهم منافع جميع ما يُشهَد له الموسم من منافع الدنيا والآخرة، ولم يخصص من ذلك شيئا من منافعهم[4].

(٧٧٨) تفيد الآية أنه يجوز للحاجّ أن يقصد تحصيل المنافع غير التعبدية من أداء عبادة الحج؛ لأن الله تعالى أثبت ذلك.

---

(١) روى الطبري (١٦/ ٥٤٦) عن أبي رزين، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ (الحج: ٣٣)، قال: (أسواقهم، فإنه لم يذكر منافع إلا للدنيا).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٣٨)، والظلال (٤/ ٢٤١٨ - ٢٤٢٠)، والتفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠١٧)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٥)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٧٣).

(٣) ينظر حاشية الشهاب (٦/ ٢٩٢)، وروح المعاني (٩/ ١٣٨)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٥).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٢٢). وروى ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٨٨، رقم ١٣٨٨٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [سورة الحج: ٢٨]، قال: (منافع في الدنيا، ومنافع في الآخرة؛ فأما منافع الآخرة، فرضوان الله عز وجل، وأما منافع الدنيا، فما يصيبون من لحوم البُدْن في ذلك اليوم والذبائح والتجارات).

(٧٧٩) تفيد الآية أن الشريعة تقيم مصالح العباد الدنيوية والأخروية. ويؤخذ هذا من أن الله تعالى جعل في عبادة الحج منافع دينية ودنيوية، كما قال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾، وهو عام يشمل: منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة[(١)].

(٧٨٠) تومئ الآية إلى أن تحصيل المنفعة الدنيوية المباحة لا ينافي تحصيل الأجر الأخروي ما دام نيل الأجر هو المقصود أصالة[(٢)].

(٧٨١) تومئ الآية إلى جواز قصد تحصيل المنافع الدنيوية من الحج، بشرط أن يكون القصد تبعيًا لا أصليا، وأن يكون قصد أداء العبادة هو القصد الأصلي[(٣)].

(٧٨٢) تومئ الآية إلى أن في عبادة الحج منافعَ أخرويةً عظيمة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾، وبعض المفسرين خصوها بمنافع الآخرة، وأعظمها المغفرة[(٤)]. وعبر بشهود المنافع كناية عن نيلها[(٥)].

---

(١) روى عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٤٠٣، رقم ١٩١٩)، والطبري في تفسيره (١٦/ ٥٢١)، عن مجاهد أنه قال في تفسير الآية: (التجارة وما يرضي الله من أمر الدنيا والآخرة). واختاره ابن العربي (٣/ ٢٨٢)، وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٣٣): (وهو أصح، لأنه لا يكون القصد للتجارة خاصة، وإنما الأصل قصدُ الحج، والتجارة تَبَع)، وقال الرازي (٢٣/ ٢٢١): (وهو الأوْلى).

(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي (١/ ١٩٢)، وأحكام القرآن لابن الفرس (٣/ ٢٩٩)، وجامع العلوم والحكم (١/ ٨٢)، وينظر الموافقات للشاطبي (٣/ ١٤٤ - ١٤٥).

(٣) ينظر زاد المسير (٣/ ٢٣٣)، وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٦/ ٢٩٢)، وروح المعاني (٩/ ١٣٨).

(٤) ينظر التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٦٧)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٣)، وأضواء البيان (٥/ ١١١ - ١١٣)، وهو قول سعيد بن المسيب، والعوفي، واختيار الزجاج في معاني القرآن (٣/ ٤٢٣). وفسرها محمد الباقر بالمغفرة كما في تفسير الطبري (١٦/ ٥٢٢)، وعدّه السمعاني (٣/ ٤٣٤) أحسنَ الأقوال. وفي الحديث الصحيح: ((من حج لله عز وجل فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه))، أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، ح ١٥٢١، ٣/ ٣٨٢)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، ح ١٣٥٠، ٢/ ٩٨٣).

(٥) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٦).

(٧٨٣) تفيد الآية إلى أن عبادة الحج تختص بمنافع دينية ودنيوية عن غيرها من العبادات، لأن الله نكّر كلمة ﴿مَنَٰفِعَ﴾، فدلّ التنكيرُ فيها على تفخيم المنافع وتكثيرها بحيثُ لا توجد في غيرها[(١)].

(٧٨٤) تشير الآية إلى مشروعية تهيئة المنافع الدينية والدنيوية للحجاج، ومن هنا نأخذ أفضلية المشاريع العالمية في مكة بما يحقق منافع الحجاج[(٢)].

(٧٨٥) تدل الآية على أن أصحاب الطاعة يجنون بعض ثمارها الطيبة في الدنيا قبل الآخرة؛ لأن الحجاج يشهدون في موسم الحج منافع لهم في الدنيا قبل الآخرة[(٣)].

(٧٨٦) تشير الآية إلى أن من المنافع ما يحتاج الناس في تحصيله إلى السفر إلى البلاد النائية؛ لأن الله تعالى أشار بقوله: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ إلى أن الحُجاج يشهدون منافع لا يجدونها في بلدانهم[(٤)].

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢١)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٠)، وفتوح الغيب (١٠/ ٤٧١). وأضاف الزمخشري: (وعن أبي حنيفة رحمه الله: أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج، فلما حج فضل الحج على العبادات كلها، لما شاهد من تلك الخصائص). وعلل النسفي (٢/ ٤٣٦) اختصاص الحج بها فقال: (وهذا لأن العبادة شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة والصوم أو بالمال كالزكاة، وقد اشتمل الحج عليهما، مع ما فيه من تحمل الأثقال وركوب الأهوال، وخلع الأسباب وقطيعة الأصحاب، وهجر البلاد والأوطان، وفرقة الأولاد والخلان، والتنبيه على ما يستمر عليه إذا انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء...).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٦).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٦).

(٤) ينظر تفسير الماتُريدي (٧/ ٤٠٩) قال: (وجائزٌ أن يكون قوله: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾: الأرزاق التي جعلت لهم في البلدان النائية البعيدة ما لو لم يشهدوها لم يسق الله ذلك إليهم؛ لأن من الأرزاق التي جعلت لهم في البلدان ما يساق إلى أهلها وهم في مقامهم وأمكنتهم، ومن الأرزاق ما يساق أهلها إليها ما لو لم يأتوها لم يسق ذلك إليهم، فجائز ما ذكر من المنافع: هو ما غاب عنهم من المنافع والأرزاق التي جعلت لهم في البلدان النائية البعيدة إذا خرجوا للحج نالوها، وإذا لم يخرجوا له لم ينالوا).

(٧٨٧) تومئ الآية إلى ضرورة استثمار موسم الحج في توثيق عُرى المودة وأواصر الصلة وتبادل المنافع بين المسلمين[١].

(٧٨٨) تشير الآية إلى أن التكافل الاقتصادي بين شعوب الأمة الإسلامية مطلوب، فينبغي أن يعين المسلمون البلاد الإسلامية الفقيرة لتغطيَ حاجاتها، وتنهض باقتصادها، لأن الأمة الإسلامية أمة واحدة مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تَدَاعى له سائرُ الأعضاء بالسهر والحمى. ويدل على هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾، ومن هذه المنافع تقويةُ مشاعر التضامن وتنميةُ السلوك الاجتماعي عند الحجاج التي يغرسها قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾[٢].

(٧٨٩) يشير تقديم ذكر المنافع على ذكر اسم الله أن كثيرًا من النفوس تميل إلى طلب المنافع، ولذلك يحسن ترغيبها بما تميل إليه. وفي هذه الآية قدم ذكر المنافع تشجيعا للنفوس التي استولى عليها البخل حتى تجود بنفقة الحج، واستنهاضا للهمم الفاترة حتى تستسهل الصعاب[٣].

(٧٩٠) تومئ الآية إلى أن من المدعُوّين من لا يتبع الهدى ولا يأتمر بأمر الله إلا إذا أعطي شيئا من متاع الدنيا يتعلل به[٤]؛ إذ لم يكتف الله بدعوة الناس إلى الحجّ، وإنما بشرهم بأنهم يشهدون عند البيت منافع لهم.

(٧٩١) تومئ الآية إلى أن الداعيَ يحسن به أن يكرم أضيافه ببعض الهدايا والعطايا النافعة حتى ينسيهم وعثاء السفر ومشقة الطريق[١]؛ لأن الله تعالى أعد للوافدين على بيته الحرام منافع ينتفعون بها.

---

(١) ينظر تفسير المدينة المنورة (٢/ ١٠٠).

(٢) ينظر التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية (ص: ٢٧٣).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٦).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٦).

(٧٩٢) تفيد الآية فضل ذكر الله تعالى[٢]؛ لأن الله تعالى جعله من مقاصد الحج إلى بيته الحرام فقال: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾.

(٧٩٣) تدل الآية على أن ذكر الله تعالى يكون بذكر أسمائه الحسنى التي أخبرنا بها في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلّم[٣]، أما الذكر بأسماء الملائكة أو الجن أو بأسماء غير مفهومة فذلك مما لا يجوز.

(٧٩٤) تشير الآية إلى أن اسم الجلالة "الله" أعظم أسماء الله تعالى أو من أعظمها؛ لأن الله خص هذا الاسم بالذكر في هذه الآية.

(٧٩٥) تفيد الآية استحباب الإكثار من الذكر في الأيام المعلومات على اختلاف المفسرين في تعيينها[٤]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾[٥].

(٧٩٦) ترشد الآية إلى اغتنام الأيام المعلومات لأنها أيام فاضلة معلومة الفضل، ليست كغيرها من الأيام، وتكون فائدة قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ التحريض على هذه الأيام واغتنام فضلها، فكأنه قال: هي مخصوصات فَلْتُغتنَم[٦].

(٧٩٧) تومئ الآية إلى الحرص على العلم بهذه الأيام بمراقبة الهلال والتثبت من دخول الشهر؛ فعليه يتوقف معرفة الأيام العشر الأولى منه، ومعرفة متى يكون يوم التروية ويوم عرفة

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٦).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٦).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٧).

(٤) حكى ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٣٣) في ذلك ستة أقوال: أحدها: أنها أيام العشر. والثاني: تسعة أيام من العشر. والثالث: يوم الأضحى وثلاثة أيام بعده. والرابع: أنها أيام التشريق. والخامس: أنها خمسة أيام، أولها يوم التروية. والسادس: ثلاثة أيام، أولها يوم عرفة.

(٥) وقد يقال: إن فعل {يذكروا اسم الله} متعلق ب ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾، وقد ذهب الخطيب في التفسير القرآني (٩/ ١٠١٩) إلى أن قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ هو متعلق بمحذوف دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾، والتقدير: ويذكروه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

(٦) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١٩)، والتيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٧٣).

ويوم النحر، ومتى تكون أيام التشريق؛ لأن الله وصفها بأن الشأن فيها أن تكون أياما معلومة[1].

(٧٩٨) تفيد الآية أن العشر الأول من ذي الحجة من الأيام الفاضلة، لأن الله ذكر أن من مقاصد الحج أن يذكر الحجاج ربهم في تلك الأيام، فقال: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وقد فُسِّرت هذه الأيام بالعشر الأول التي آخرها يوم النحر، وهو قول أكثر المفسرين[2]، ويشهد لفضلها الحديث النبوي الشريف[3].

(٧٩٩) تفيد الآية أن أيام التشريق من أعظم الأيام؛ لأن الله ذكر أن من مقاصد الحج أن يذكر الحجاج ربهم في تلك الأيام، فقال: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ

---

(١) ينظر الكشف والبيان (٧/ ١٩)، والبسيط (١٥/ ٣٦٤). قال الثعلبي في الكشف والبيان (٧/ ١٩): (وقيل للعشر: ﴿مَّعْلُومَٰتٍ﴾ للحرص على علمها بحسابها من أجل أنّ وقت الحج في آخرها).

(٢) رواه مجاهد عن ابن عمر، وسعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعطاء، وعكرمة ومجاهد، وقتادة والشافعي. ينظر تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٨٩)، وتفسير البغَوي (٥/ ٣٧٩)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٣)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢١)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤١٤)، وتفسير ابن رجب (٢/ ٥٦٤). وخالف ابن العربي في أحكام القرآن (١/ ١٩٩) فقال: (وظاهر الآية يدفعه؛ فلا معنى للاشتغال به). وقال الواحدي في البسيط (١٥/ ٣٦٤): (ومن فسر المعلومات بالعشر من ذي الحجة قال: لما كان يقع هذا النوع من الذكر في آخر يوم منها جاز أن يوصف الذكر بأنه فيها كلها، لأن هذا اليوم وهو اليوم العاشر من جملة العشر فالذكر واقع في العشر، والعشر ليس تخلو من هذا الذكر).

(٣) وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ما العمل في أيام أفضل منه في عشر ذي الحجة. قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع من ذلك بشيء)) أخرجه الطيالسي بهذا اللفظ في مسنده (٤/ ٣٥٦، ح ٢٧٥٣)، وأخرجه بنحوه البخاري في صحيحه: (كتاب العيدين، باب فضل العمل أيام التشريق، ح ٩٢٦، ٣٢٩/١،) وأبو داود في سننه: (كتاب الصوم، باب صوم العشر، ح ٢٤٣٨، ٣٢٥/٢)، والترمذي (كتاب الصوم، باب ما جاء في العمل أيام التشريق، ح ٧٥٧، ١٣٠/٣).

أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وهي أيام التشريق على قول بعض المفسرين[1].

(٨٠٠) تفيد الآية أن الأيام التي تنحر فيه الأضاحي والهدايا من أعظم الأيام؛ لأن الله تعالى ذكر أن من حكم الحج أن يذكر الحجاج ربهم في تلك الأيام على الأنعام التي ساقوها، فقال: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، والمراد هو النحر، والنحر إنما يكون في يوم الأضحى واليوم الثاني والثالث، ولا يكون نحر في الرابع، فدل على أنه غير مراد[2].

(٨٠١) تشير الآية على قولٍ إلى أنّ الأيام المعلومات هي يوم النحر وأيام التشريق؛ لأن التسمية على بهيمة الأنعام عند نحرها، ونحر الهدايا يكون في هذه الأيام[3].

(٨٠٢) تدل الآية على استحباب التحميد والتهليل والثناء على الله، شكرا له تعالى ما على رزقنا من الأنعام والهدي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وما تقدم أحد القولين في تفسير الآية[4].

---

(١) رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال عطاء الخراساني، والنخعي، والضحاك، ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٢٢)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٣). واختار الواحدي في التفسير البسيط (١٥/ ٣٦٢) قول ابن عباس في رواية عطاء: (يريد أيام الحج، وهي يوم عرفة والنحر وأيام التشريق).

(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي (١/ ١٩٨). ومذهب مالك أنها يوم النحر ويومان بعده، وهو قول ابن عمر رضى الله عنهما كما في تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٤)، وحكاه النسفي (٢/ ٤٣٧) عن صاحبيْ أبي حنيفة. وقيل لأيام النحر: معلوماتٌ؛ لأن الذكر على بهيمة الأنعام يدلُّ على التسمية على نحرها، ونحر الهدايا يكونُ في هذه الأيام، قاله الزجاج في معاني القرآن (٣/ ٤٢٣).

(٣) ينظر تفسير الخازن (٣/ ٢٥٥). وحكى النسفي (٢/ ٤٣٧) هذا القول عن صاحبيْ أبي حنيفة، وهو قول ابن عمر رضي الله عنهما، وهو اختيار ابن العربي (١/ ١٩٨)، إلا أنه يرى أن اليوم الرابع ليس منها، لأن النحر إنما يكون في يوم الأضحى واليوم الثاني والثالث، ولا يكون في الرابع نحر، فدل على أنه غير مراد.

(٤) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١٨)، ودرج الدرر (٢/ ٣٣٦)، وقال ابن عطية: (ويحتمل أن يريد بالاسم التسميات، وذكر الله تعالى إنما هو بذكر أسمائه ثم بذكر القلب السلطان والصفات، وهذا كله على أن يكون الذكر بمعنى حمده

(٨٠٣) تشير الآية إلى استحباب الذكر باللسان في الأيام العشر الأول من شهر ذي الحجة، على القول بأنها هي الأيام المعلومات، إذ في التنصيص على ذكر اسم الله إشارة إلى أن المراد به الإكثار، إذ مطلق الذكر مندوب إليه في كل وقت[(١)]، ويشهد له قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من أيام العشر، فأكثروا فيهنّ من التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل))[(٢)].

(٨٠٤) تدل الآية على استحباب الذكر في أيام التشريق أثناء رمي الجمار وغيرها من أعمال الحج[(٣)]، وهذا على القول بأن الأيام المعلومات هي أيام التشريق.

(٨٠٥) تدل الآية على أن ذكر اسم الله من الشكر؛ لأن الله تعالى جعل ذكر اسم الله عند ذبح الأنعام شكرا لله على أن رزقهم إياها: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أي شكرا على ما رزقهم.

(٨٠٦) تدل الآية على أن ذبح الأضاحي في أيام الحج من المناسك المعروفة في شريعة إبراهيم عليه السلام، وليس خاصا بالأمة المحمدية. ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٣٤].

---

وتقديسه شكرا على نعمته في الرزق، ويؤيده قوله عليه السلام: ((إنها أيام أكل وشرب وذكر الله تعالى)). والحديث أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الصيام، باب تحريم صوم أيام التشريق، ح ١١٤١، ٢/ ٨٠٠).

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٧٥، ح ٥٤٤٦)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٥/ ٦٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (الصيام، تخصيص أيام العشر من ذي الحجة بالاجتهاد في العمل، ح ٣٤٧٥، ٥/ ٣٠٨) من حديث ابن عمر، وأخرجه الطبراني في الكبير (١١/٨٢، ح ١١١١٦) من حديث ابن عباس، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/١٦): (رجاله رجال الصحيح).

(٣) نقل ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٣٣) عن القاضي أبي يعلى أنه قال: (ويحتمل أن يكون الذّكر المذكور ها هنا: هو الذِّكر على الهدايا الواجبة، كالدم الواجب لأجل التمتع والقران، ويحتمل أن يكون الذِّكر المفعول عند رمي الجمار وتكبير التشريق، لأن الآية عامّة في ذلك).

(٨٠٧) تفيد الآية مشروعية التسمية عند ذبح الأنعام؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، والمراد بذكر الله عليها التسمية عند ذبحها أو نحرها[١].

(٨٠٨) تدل الآية أنه لا يجوز تعمد ترك التسمية عند ذبح الأنعام أو ذكر اسم غير اسم الله تعالى، كما كان يفعل المشركون الذين يذكرون أسماء الأوثان التي كانوا يتقربون إليها[٢].

(٨٠٩) في الآية تنبيهٌ على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله الإخلاص لله بذكر اسمه سبحانه، لأن الله تعالى قال: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، ولم يقل تعالى: لينحروا في أيام معلومات بهيمة الأنعام، بل عدل من النحر والذبح إلى ذكر اسم الله عليها إشارةً إلى أن الغرض الأصلي في العبادات ذكرُ اسم الله[٣].

(٨١٠) تفيد الآية أن المقصود الأعظم من الحج هو ذكر الله تعالى؛ ففي جعله غاية للإتيان إيذانٌ بأنه الغاية القصوى دون غيره[٤].

(٨١١) في الآية إشارة إلى أن من مقاصد تشريع الحج تربية العبد على توحيد الله تعالى؛ لأن الله تعالى علل ذلك فقال: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وذكر اسم الله عند نحر الهدايا أو ذبحها إعلان

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٣)، والكشاف (٣/ ١٥٣)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٤١).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٧).

(٣) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٣)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢١)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٠)، وفتوح الغيب (١٠/ ٤٧١)، وحاشية الشهاب (٦/ ٢٩٢).

(٤) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٤)، وفي ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٨).

لطاعة الله وحده، والتقرب إليه وحده، إذ كيف يشركون به غيرَه وهو الذي يرزقهم ما يذبحون؟![1]

(٨١٢) تشير الآية أنه لا ينبغي لمن شهد بعض المنافع الدنيوية في موسم الحج أن ينشغل عن مناسك الحج أو يعطل واجباته طلبا للدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٠٠ – ٢٠٢].

(٨١٣) تدل الآية على أن من حِكَم الحج التقرب إلى الله بذبح ونحر الأنعام ذاكرين اسم الله تعالى عليها عند التذكية؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، جاء معطوفًا على قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا﴾ الذي دخل عليه لام التعليل.

(٨١٤) تدل الآية على أن الأنعام هي التي يتقرب إلى الله بذبحها أو نحرها في الهدايا والأضاحي؛ لأن الله خصها بالذكر دون غيرها فقال: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾[2]. وقد بيَّن الله تعالى أن المراد بالأنعام هي الإبل والبقر والضأن والماعز؛ فقال: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾، ثم قال في الآية التي تليها: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٣ – ١٤٤][3].

---

(١) ينظر الحج في القرآن الكريم (ص ٨٠).

(٢) ينظر تفسير البغوي (٥/ ٣٧٩ – ٣٨٠).

(٣) حيث قال تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ (الأنعام: ١٤٣)، ثم قال تعالى في الآية التي تليها: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ (الأنعام: ١٤٤).

(٨١٥) تفيد الآية أن الشأن في النعمة أن تذكر بالمنعم وتدفعه لذكره وشكره، ويؤخذ ذلك من أن الحجاج عندما يشهدون ما رزقهم الله من بعيمة الأنعام يذكرون اسم الله شكرا لله على تلك النعمة[١].

(٨١٦) تشير الآية أن من شهد أو شاهد نعمة عليه أو على إخوانه من المسلمين عليه أن يذكر الله تعالى[٢].

(٨١٧) تدل الآية على أن الذي يرزق الخلق بالأنعام وغيرها هو الله تعالى، وليس لهم على الحقيقة رازق سواه[٣]. ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

(٨١٨) في الآية تنبيهٌ على ما أنعم الله به على الناس من تسخير الأنعام وتذليلها لهم وتمليكها لهم ليجعلوها هدايا وضحايا، وأنها نعمة تستحق شكر الله عليها، لذلك عدّى فعل الذكر ب﴿عَلَىٰ﴾ تضمينًا لمعنى الشكر، فقال: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾. أو تكون ﴿عَلَىٰ﴾ تعليلية، والمعنى: ليذكروا اسم الله وحده في تلك الأيام بحمده وشكره وتسبيحه، لأجل ما رزقهم من تلك البهائم، فإنه وحده المتفضل عليهم بها، ولو شاء لحظرها عليهم ولجعلها أوابد متوحشة[٤].

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٧).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٧).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٧).

(٤) ينظر محاسن التأويل (٧/ ٢٤١)، والتفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٢٤)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٦)، وتفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٨٩). وقد قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (يس: ٧١ – ٧٣). أضاف القاسمي: (والسر في إفراده هذه النعمة، والتذكير بها دون غيرها من نعمه وأياديه، أن بها حياة العرب وقوام معاشهم؛ إذ منها طعامُهم وشرابُهم ولباسُهم وأثاثُهم وخباؤهم وركوبهم وجمالهم، فلولا تفضله تعالى عليهم بتذليلها لهم، لما قامت لهم قائمة، لأن أرضهم ليست بذات زرع، وما هم بأهل صناعة مشهورة، ولا جزيرتهم متحضرة متمدنة، ومن كانوا كذلك فيجدر بهم أن يذكروا المتفضل عليهم بما يبقيهم، ويشكروه ويعرفوا له حقه).

(٨١٩) تفيد الآية أن الأنعام نعمة عظمى تستوجب شكر الله عليها، وقد ذكر الله في آيات أخرى ما تنطوي عليه النعمة من نعم، فالناس يأكلون من لحومها، ويشربون من ألبانها، وينتفعون بأصوافها وأوبارها وأشعارها[١].

(٨٢٠) تشير الآية إلى أن العبد يلزم أن يقابل الأرزاق بالشكر[٢]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أي شكرا على ما رزقهم.

(٨٢١) تومئ الآية أن المسلم لا ينبغي أن يمتنّ على الفقراء والمساكين وكل من يأكل من لحوم الهدي الذي ساقه، لأن تلك الأنعام من رزق الله لهم، وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾. فالله هو الذي رزقهم إياها، فلا منّة لأصحابها على أحد[٣].

(٨٢٢) تدل الآية على استحباب التقرب بالهدي في أيام الحج؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، فعلّق فعل الذكر بما رزقهم إياه، ثم بينه بالأنعام تحريضًا على التقرب بها في هذه الأيام الفاضلة[٤].

(٨٢٣) تدل الآية على أن الحجاج إنما يتقربون في تلك الأيام بالهدي، وليس عليهم أضحية، لأن ظاهر الآية يدل على أن هذا التقرب بالنحر في هذه الأيام إنما هو الهدايا لا

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٧).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٧).

(٣) ينظر شواهد الرحمة الإلهية في الحج من خلال القرآن الكريم: دراسة موضوعية بيانية، د. خالد بن نواف الشوحة. أعمال المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام (ص ٤٩٢).

(٤) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٧٠)، ونظم الدرر (١٣/ ٣٩).

الضحايا؛ لأن الأضاحي لا يحتاج فيها إلى الأذان بالحج، حتى يأتي المضحون مشاة وركبانا، وإنما ذلك في الهدايا على ما يظهر[(١)].

(٨٢٤) تدل الآية على أن وقت ذبح الأضاحي ونحر الهدايا مُتسِع؛ لأن الله تعالى جعلها في أيام متعددة لا في يوم واحد، فقال: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، على اختلاف العلماء في تعيين أيام النحر[(٢)].

(٨٢٥) تؤذن الآية بأن الأوْلى أن تذبح الأضاحي نهارا لا ليلا[(٣)]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، والأيام يراد بها النهار، ولو أراد الليل أيضا لقال: في أيامٍ ولياٍل معلومات.

(٨٢٦) تشير الآية إلى عِظَم نعمة القدرة على النطق التي ميز الله بها الإنسان عن البهائم، ويقتدر بها على ذكر الله تعالى والإبانة عن حاجاته. ويستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وفيه إيماء إلى أنها عجماء لا تُعْرب عن نفسها، فقد (سميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها وعدم تمييزها وعقلها)[(٤)].

---

(١) ينظر أضواء البيان (٥/ ١١٤ و٥/ ٢٠٦)، ومن هنا ذهب مالك وأصحابه خلافا للجمهور إلى أن الحاج بمنى لا تلزمه الأضحية ولا تسن له، وكل ما يذبح في ذلك المكان والزمان، ويجعله المالكية هديًا لا أضحية.

(٢) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٤٣) وحكى في ذلك أقوالا، أقواها قولان، أولهما: أنها ثلاثة، يوم النحر ويومان بعده. وبه قال أبو حنيفة ومالك والثوري وأحمد بن حنبل، والثاني: أنها أربعة، يوم النحر وثلاثة بعده. وبه قال الشافعي والأوزاعي (ينظر بداية المجتهد: ٢/ ١٩٩). ودليل المالكية قوله تعالى: ﴿ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾ الآية، وهذا جمع قلة، لكن المتيقن منه الثلاثة، وما بعد الثلاثة غير متيقن، فلا يعمل به.

(٣) وقلت "الأوْلى" لأنني أرى أنّ ذبح الأضحية بالليل جائز إن احتيج اليه كما هو مذهب الجمهور، أما المالكية وأصحاب الرأي فمذهبهم أنه لا يجوز الذبح بالليل. ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١٨)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٤٤). وروح المعاني (٩/ ١٣٨). والمذكور في كتب الحنفية كالمبسوط للسرخسي (١٢/ ١٩) أنه يجوز الذبح ليلا، إلا أنه يكره لاحتمال الغلط في ظلمة الليل.

(٤) ينظر تفسير القرطبي (٦/ ٣٤).

(٨٢٧) تدل الآية على أن أكل الحجاج من لحوم هداياهم وأضاحيهم لا حرج فيه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾، والأمر هنا للإباحة، لأنه جاء ليرفع ما كان يفعله أهل الجاهلية، لأنهم كانوا إذا نحروا لم يستحلوا أن يأكلوا من هداياهم شيئا، فأعلم الله عز وجل أن ذلك لا حرج فيه[(١)]. وإنما حمل على لحوم الهدي لأن الوقت وقت هدي[(٢)].

(٨٢٨) في الآية إشارة إلى أن المسلم من شانه أن يخالف أهل الجاهلية فيما كانوا عليه؛ لأن الله تعالى إنما أمر بالأكل من لحوم الهدي لأجل أن العرب في الجاهلية (كانت لا ترى أن تأكل من نسكها، فأمر الله نبيه بمخالفتهم)[(٣)].

(٨٢٩) تفيد الآية استحباب أكل الحجاج من لحوم الهدايا والأضاحي؛ وذلك لأن الله أمر به فقال: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾، والأمر للندب هنا عند الجمهور[(٤)]، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم أكل من هديه، وكان قارنا على الراجح[(٥)].

---

(١) فالأمر جاء رافعًا لما توهموه من حظر، لا موجبًا لحكم. ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٣)، ومعاني القرآن للنحاس (٤/ ٤٠١)، والكشف والبيان (٧/ ١٩)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٤). وقد روى ابن أبي حاتم هذ المعنى في تفسيره (٨/ ٢٤٨٩، رقم ١٣٨٩٥) عن إبراهيم النخعي.

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٠٩). وقال: (لكن الأضاحي لا يحتمل؛ لأن الوقت ليس هو وقت الأضاحي ولا أماكنها، إنما هو وقت دم المتعة والقران ودم التطوع. وفيه إباحة التناول من دم المتعة والقران).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٩٤)، وقد نقله عنه القرطبي في تفسيره (١٢/ ٤٦) دون عزو.

(٤) تفسير القرطبي (١٢/ ٤٤)، وفتح القدير (٣/ ٥٣١)، والإكليل في استنباط التنزيل (ص: ١٨٢). قال مكي في الهداية (٧/ ٤٨٧٨): (واستحب مالك والليث أن يأكل الرجل من أضحيته). وقال الزمخشري في الكشاف (٣/ ١٥٣): (ويجوز أن يكون ندبا لما فيه من مساواة الفقراء ومواساتهم، ومن استعمال التواضع. ومن ثمة استحب الفقهاء أن يأكل الموسع من أضحيته مقدار الثلث). واستدل بعضهم بهذه الآية على وجوب الأكل من الأضاحيّ، وهو قول غريب كما قال ابن كثير (٥/ ٤١٦).

(٥) روى مسلم في صحيحه (كتاب: الحج، باب: حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ح ١٢١٨، ٢/ ٨٨٦) من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قدر، فطبخت، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها. وهذا دليل على استحباب الأكل من الهدي؛ إذ لو لم يكن مستحبا لما أمر أن يجعل من كل بدنة بضعة، بل يكفيه لحم من واحدة.

(٨٣٠) تفيد الآية أنه يستحب الأكل من لحوم الهدايا كلها، سواء كانت مستحبة أم واجبة كهدي القِران والتمتع؛ وذلك لأن الله تعالى جاء بصيغة العموم فقال: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، ولم يخص هدي التطوع دون غيره[(١)]. ويؤيد ذلك أن النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم لم يُفرّق بينَ الهَدْيِ الواجبِ والمستحَبِّ، ولا علَّمَ أصحابَهُ ذلك مع كثرةِ هَدْيِهم ودخولِ بعضِهِ في بعضٍ[(٢)].

(٨٣١) تدل الآية على عدم جواز الأكل مما يذبح على سبيل الكفارة[(٣)]؛ لأنها ليست من الهدي التي أبيح الأكل منها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (أجاز الله تعالى الأكل مما أهديت، وأما الكفارة فلا يأكل منها أصحابُها)[(٤)].

(٨٣٢) تدل الآية على أن الأكل من الهدي المتطوع به لا يخرجه عن كونه قُربانًا في هذه الحنيفية السمحة، مِنّةً على أهلها، وتشريفًا لنبيّها صلى الله عليه وسلم[(١)]. وكذلك الهدي الواجب على قول أبي حنيفة ومالك وأحمد[(٢)].

---

(١) ينظر التفسير المظهري (٦/ ٢٧٩). وذهب الحنفية إلى أنه يأكل من دم التمتع والقران لكونهما دم شكر لا دم جناية، ولا يأكل من واجب سواها (روح البيان: ٦/ ٢٧). أما الكفارات والنذور فقد استثنيت من العموم.

(٢) التفسير والبيان (٤/ ٣٢٥٧).

(٣) التفسير البسيط (١٥/ ٣٦٥). وتفسير القرطبي (١٢/ ٤٤)، وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال: (من كل الهدي يؤكل، إلا ما كان من فداءٍ أو جزاءٍ أو نذر). والمسألة خلافية، ومشهور مذهب مالك أنه لا يأكل من ثلاث: جزاء الصيد، ونذر المساكين، وفدية الأذى، ويأكل مما سوى ذلك إذا بلغ محله، واجبا كان أو تطوعا. ووافقه على ذلك جماعة من السلف وفقهاء الأمصار. والشافعي لا يجيز الأكل من هدي القران والتمتع؛ قال الواحدي: (كل هدي كان صاحبه متطوعًا به جاز له الأكل، فأما إذا كان كفارة وجبرانًا لنقصان نسك أو ترك نسُك، فلا يجوز له أن يأكل منه، وذلك مثل دم القرآن والتمتع؛ لأنه وجب بترك أحد الميقاتين، وكذلك دم الإساءة لأنه وجب بسبب مجاوزة الميقات، وكذلك دما القَلمِ والحلق وسائر المحظورات، وإنما أكل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من لحم هديه، لأنه أفرد الحج فلم يجب عليه في حجه دم).

(٤) التفسير البسيط (١٥/ ٣٦٥). وذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٣٤) أن عطاء روى عن ابن عباس أنه قال: (مِنْ كل الهدي يُؤكل، إلا ما كان من فداءٍ أو جزاءٍ أو نذر). وينظر التفسير والحجة لتحريم الأكل من دماء النذر وكفارات الجنايات من القياس في تفسير المظهري (٦/ ٢٧٨).

(٨٣٣) في الآية تعليمٌ للمسلم ألا يستأثر بما رزقه الله، وإنما يجعل منه نصيبا للفقراء والمحرومين. ويؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾، أي جزءا منها، وأطعم الفقير الجزء الآخر.

(٨٣٤) تفصح الآية باستحباب التصدق على المحتاجين بلحوم الهدي[٣]. واختار جماعة من الصحابة وغيرهم من التابعين أن يتصدق الرجل بالثلث، ويُطعم الثلث، ويأكل هو وأهله الثلث[٤]. واختار الشافعية أن يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾، فتقسم الأضحية على هذين الأمرين[٥].

(٨٣٥) تدل الآية على أنه يجوز التصدق بلحم الهدي كله؛ لأن الأكل منها في قول الأكثرين رخصةٌ أو مستحبٌّ، وهذا يستلزم جواز تركَ الأكل منه والاكتفاءَ بالتصدق به[٦].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٤٠). وقد نقل البغوي في تفسيره (٥/ ٣٨٠) اتفاق العلماء على أن الهدي إذا كان تطوعا يجوز للمهدي أن يأكل منه وكذلك أضحية التطوع.

(٢) وخالف الشافعي فرأى أنه لا يجوز الأكل من الدم الواجب، لأنه إذا أكل منه لم يكن مُخرِجًا لما وجب عليه بكماله.

(٣) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١٩). أما الشافعي رحمه الله فمذهبه كما حكى الرازي (٢٣/ ٢٢١) أن الأكل مستحب والإطعام واجب، فإن أطعم جميعها أجزأه، وإن أكل جميعها لم يُجْزِه. وهذا بناء على أن الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ أمر إيجاب، كما ذكر البيضاوي في تفسيره (٤/ ٧٠).

(٤) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٧٩)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤١٧). وذلك للحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الأضاحي، باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي، ح ١٩٧١، ٣/١٥٦١) وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إنما نهيتكم لأجل الدافّة التي دفّت؛ فكلوا وادخروا وتصدقوا)). فيقسمها أثلاثًا على الأمور الثلاثة.

(٥) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٦٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢١) وتفسير ابن كثير (٥/ ٤١٧ و ٤٢٩). وذكر القرطبي تفسير (١٢/ ٤٧) أن قول الشافعي اختلف، (فمرة قال: يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ فذكر شخصين. وقال مرةً: يأكل ثلثا، ويهدي ثلثا، ويطعم ثلثا، لقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾ (الحج:٣٦)، فذكر ثلاثة). ولكنْ يضعف القولَ بتقسيمه على نصفين أنه لم يصح عن أحد من الصحابة.

(٦) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٤٤). وهذا موضع اتفاق، والخلاف فيما لو أكله كله ولم يتصدق، فمالك يجيز ذلك خلافا للشافعي.

(٨٣٦) تفيد الآية أن شكر الله تعالى على بهيمة الأنعام يكون بذبحها في الهدي والأضاحي وإطعام النفس والغير منها[١].

(٨٣٧) تفيد الآية أن من أنعم الله عليه بنعمة فينبغي أن يشكر الله عليها بأداء حقه فيها[٢]، فإذا رزقه الله بشيء فليرزق منه بعض عباده، لأن الله لما رزقهم ما يأكلون منه، أمرهم بإطعام الفقراء منه.

(٨٣٨) تدل الآية على أنه يلزم إطعام فقراء الحرم من لحوم الهدي، ومن غيرها أيضا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾، ولم يقل: "أطعموا منها البائس الفقير"[٣].

(٨٣٩) تشير الآية إلى عناية الله بفقراء الحرم؛ لأنه تعالى أمر حجاج بيته بإطعامهم، ولم يهمل ذكرهم، بل ذكرهم في كتابه، وأعلى شأنهم، وسخر لهم الصالحين من وفد البيت ليكونوا سببا في الإحسان إليهم، وإطعامهم من مال ينفقه الحجاج في سبيل الله[٤].

(٨٤٠) تفيد الآية فضل إكرام ضيوف الرحمن في بلده الحرام لا سيما المحتاجين منهم[٥]؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾، فهي تشمل الفقراء المقيمين بمكة، والوافدين عليها للحج.

(٨٤١) تومئ الآية إلى تذكر الفقراء ومواساتهم في حال الإقامة والتَّرحال؛ لأن الحجاج أكثرهم مسافرون متغربون عن أوطانهم، ومع ذلك أمرهم الله تعالى بإطعام فقراء الحرم من لحوم الهدي، فقال: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾.

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٧).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٩).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٨).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٨).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٩).

(٨٤٢) تشير الآية إلى أنه يستحب للأغنياء أن يشاركوا الفقراء في طعامهم وشرابهم، فلا يطعموهم إلا مما يأكلون، ولا ينبغي لهم أن يتصدقوا عليهم بما عافتْه نفوسُهم ويجعلوا لله ما يَكرهون[(١)]. ولعل المقصود من أكل صاحبها منها أن يشعر الفقراء أنها طيبة كريمة.

(٨٤٣) تومئ الآية أنه يستحب أن يقدم المهدي للفقراء والمحتاجين لحوم الهدايا وهي مطبوخة، ويشهد تقديمَه لهم، ليسد جوعتهم، ويكفيهم مؤنة الطهي ونحو ذلك؛ فقد يكون الفقير لشدة بؤسه لا يجد ما يطبخ به[(٢)]. ويدل على ذلك أن الله تعالى أمرهم بالإطعام منها لا بالتصدق بها فقال: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾.

(٨٤٤) تفيد الآية أن إطعام الفقراء والمساكين مقصدٌ شرعي مَرْعِيّ من لدن الشارع، ولا بد من تحري تحقيقه في الأحكام الشرعية التي شرعت لذلك كالكفارات والفدية ونحوها.

(٨٤٥) تشير الآية إلى أن الله شرع سبلا متعددة للتكافل الاجتماعي والتخفيف من حدة الفقر وإزالة آثاره مع حفظ كرامتهم. ومن ذلك الهدايا التي شرع الله ذبحها وأمر بإطعام الفقراء جزءا منها.

(٨٤٦) تومئ الآية إلى أن الفقر درجات، لأن الله تعالى أمر في الآية بإطعام البائس الفقير: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾، و"البائس" هو الذي اشتد بؤسه، والبؤس شدة الفقر[(٣)].

---

(١) ينظر روح البيان (٦/ ٢٧).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٨).

(٣) تفسير البغوي (٥/ ٣٨٠). قال ابن عطية في المحرر الوجيز (٤/ ١١٩): (والْبائِس الذي قد مسه ضُرُّ الفاقة وبؤسُها، يقال: بأس الرجل يبؤس، وقد يستعمل فيمن نزلت به نازلة دهر وإن لم تكن فقرا، ومنه قوله عليه السلام: ((لكن البائس سعد بن خولة))، والمراد في هذه الآية أهل الحاجة). وحكى الواحدي في البسيط (١٥/ ٣٦٧) عن ابن عباس أن البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه، والفقير الذي لا يكون كذلك، فتكون ثيابه نقية ووجهه وجه غني. وقال ابن العربي (٣/ ٢٨٣): (وأما البائس فهو الذي ظهر عليه البؤس، وهو ضرر المرض أو ضرر الحاجة).

(٨٤٧) تفيد الآية استحباب الإحسان إلى الفقير المتعفف الذي يعرف ببؤس حاله، وتقديمه على الذين يسألون الناس؛ لأن ذكر صفة ﴿ٱلْبَآئِسَ﴾ تومئ إلى من يظهر عليه حال البؤس والفقر، وقد ورد عن ابن عباس أن البائس هو (الذي ظهر بؤسه في ثيابه ووجهه، وبان البؤس عليه)[(١)].

(٨٤٨) تدل الآية على فضل إطعام الجائعين؛ إذ جعله قربة يتقرب إليها في الحج دون غيره من صور التبرعات الأخرى، وقد جاءت آيات وأحاديث في فضل إطعام الطعام، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [سورة الإنسان: ٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [سورة البلد: ١٢ – ١٦]. وفي الحديث: ((من موجبات المغفرة إطعامُ المسلم السغْبان))[(٢)].

(٨٤٩) تومئ الآية إلى أنه كلما كان المتصدَّق عليه أحوج كان التصدق عليه أفضل، والثواب فيه أكثر؛ لأن الله تعالى دل عباده على التصدق بلحوم الهدي على الأحوج فقال: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾، (والبؤس قدر زائد عن الفقر)[(٣)].

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٨).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (كتاب التفسير، باب تفسير سورة البلد، ح ٣٩٣٥، ٢/٥٧٠)، وقال: (صحيح الإسناد)، ووافقه الذهبي، وتعقبه المناوي في فيض القدير (٦/ ١٧). وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (الزكاة، ما جاء في إطعام الطعام وسقي الماء، ح ٣٠٩٢، ٥/ ٥٩)، وعلق عليه قائلا: (هذا مرسل، وقد وصله طلحة بن عمرو). وطلحة هذا متروك الحديث، وبه ضعف الألباني هذا الحديث في "الضعيفة" (٧/ ١٩٠). ولكن أحمد بن الصديق قال في "المداوي" (٦/ ٣٠): (طلحة لم ينفرد به، بل توبع عليه عن محمد بن المنكدر)، ثم ذكر سند الطبراني في "مكارم الأخلاق" (ص: ٣٧٠، رقم ١٥٧). و"السغبان": الجائع.

(٣) التفسير والبيان (٤/ ٢٣٥٧).

(٨٥٠) تشير الآية أن المتصدقَ يستحسن أن يتحرى الأحوج ويتخير من يتصدق عليه[١]، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾، أي التمسوا صنفا معينا من الفقراء وأطعموه.

(٨٥١) في قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ دلالة على حظر بيع لحوم الهدي، ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: ((فكلوا وادخروا))، وفي ذلك إشارة إلى أن البيع ممنوع[٢].

(٨٥٢) تشير الآية إلى أنه يلزمنا أن نستحضر مقاصد الحج كلَّها عند أداء المناسك؛ لأن الله تعالى نص عليها وصرح بذكرها في هذه الآيات حتى نحققها، وإلا صار الحج جسدا بغير روح.

(٨٥٣) يفيد ذكر البائس الفقير في هذه الآية أن البائسين الأشد فقرًا هم الأولى بالإطعام من غيرهم ممن هم دونهم حاجة[٣]. أما غيرهم فيُطعَمون إذا توفر لحم كثير، ولذا أمر الله في الآية الأخرى بأطعام السائلين والمتعرضين للعطاء عند نحر البدن فقال: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾. فإذا لم يوجد ما يكفيهم جميعا فليس للقانع والمعتر حق فيها، ويقدم عليهم البائسون.

(٨٥٤) تفيد الآية أن صاحب الذبيحة يتأكد عليه أن يبحث عن البائسين الفقراء في الحرم ويطعمهم منها، فإذا لم يجد جاز له آنئذٍ أن يطعم منها السائل والمتعرض والزائر[٤].

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٨).

(٢) أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٢).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٩).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٩).

(٨٥٥) تفيد الآية أنه لو أخذ بعض السائلين ذبيحةً لبعض الحجاج ليطعموها، فوجدوا بائسا فقيرا فعليهم أن يشركوه معهم في الأكل منها، لأنه أحق بالإطعام من غيره[(١)]. فإفرادهم بالذكر في هذه الآية تأكيد لأحقيتهم وأولويتهم بسبب شدة حاجتهم.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [سورة الحج: ٢٩]:

﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾ [سورة الحج: ٢٩]:

(٨٥٦) تشير الآية إلى أن الشروع في مناسك الحج يجعله واجبا؛ لأن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ﴾ يومئ إلى أن ذلك كان بمنزلة دين ثابت في الذمة واجب السداد، وعليهم أن يقضوه، وهذا يدل على أن إكماله واجب عليهم لو ابتدأوه تطوعا.

(٨٥٧) تومئ الآية إلى أن الحاج عليه أن يصبر على ترك الترفه والتزين وما ينشأ عن الانشغال في المناسك والتنقل بين المشاعر من وسخ وأذى[(٢)]. ويؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿تَفَثَهُمۡ﴾، ومعنى التفث في اللغة: القذر والوسَخ والشعث[(٣)].

(٨٥٨) تدل الآية على وجوب الاغتسال وإزالة الأقذار والأوساخ والزوائد عند التحلل من الإحرام، لأن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾[(٤)].

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٩).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في أيام الحج (ص ٦٩).

(٣) ينظر المغرب في ترتيب المعرب (ص: ٦٠)، والكشف والبيان (٧/ ٢٠)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٧٠)، والمفردات في غريب القرآن (ص: ١٦٥).

(٤) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٣)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٤)، واللباب (١٤/ ٧٧). وإنما فسر القضاء بالإزالة (لأنّ القضاء في الأصل القطع والفصل، فأريد به ذلك مجازاً)، كما قال الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي (٦/ ٢٩٣): وعبر عنه الزمخشري (٣/ ١٥٣) فقال: (فالمراد قضاء إزالة التفث)، أي على تقدير مضاف، (والتعبير بالقضاء لأنه لِمُضِيّ زمان إزالته، عُدَّ قضاءً لما فات) (٦/ ٢٩٣). وقد فسر غلام ثعلب قضاءَ التفث في "ياقوتة الصراط" (ص: ٣٦٩) بقوله: (قَضَاء حوائجهم من الحلق، والتنظيف، وأخذ الشّعْر، وَرفع الوَسخ).

(٨٥٩) تدل الآية على أن حلق الرأس والعانة، ونتف الإبط، وقص الشارب، والأخذ من اللحية، وتقليم الأظفار، أعمالٌ مطلوبة بعد الفراغ من مناسك الحج؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾، وقد فسر ابن عباس ومجاهد وغيرهما من السلف التفثَ بما تقدم ذكره[(١)].

(٨٦٠) تدل الآية على وجوب حلق الرأس عند التحلل من الإحرام، لأن السلف تأولوا قضاء التفث بما تقدم ذكره[(٢)]، فدل ذلك على أن من قضائه حلق الرأس، ولولا أن ذلك اسم له لما تأولوه عليه، إذ لا يسوغ التأويل على ما ليس اللفظ عبارة عنه، وذلك دليل على وجوب الحلق لأن الأمر على الوجوب[(٣)]، والأمر مستفاد من لام الأمر، وبه قال مالك، وهو الصحيح من قولي الشافعي[(٤)].

(٨٦١) في الآية دليل على وجوب التحلل الأصغر، وذلك بالحلق أو التقصير[(٥)]؛ لأن الله تعالى أمر به فقال: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾.

(٨٦٢) تفيد الآية أن الوقت الذي يجوز فيه للحاج أن يخلع الإحرام ويحلق رأسه ويلبس ثيابه ويقص أظافره ونحو ذلك هو بعد أعمال يوم النحر وقبل طواف الإفاضة[(١)].

---

(١) تفسير مجاهد (ص: ٤٨٠)، وتفسير سفيان الثوري (ص: ٢١١)، ومصنف ابن أبي شيبة (٣/ ٤٢٩، رقم ١٥٦٧٣)، وتفسير عبد الرزاق (٢/ ٤٠٣، رقم ١٩٢٠). وروى ابن وهب نحوه عن القرظي في الجامع (٢/ ٧٤، رقم ١٤٣)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٢٦ – ٥٢٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٨٩)، وقد رجحه ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٣٤)، وقال ابن العربي في "أحكام القرآن" (٣/ ٢٨٤): (فأما قول ابن عباس وابن عمر فلو صح عنهما لكان حُجة، لِشرَف الصحبة والإحاطة باللغة).

(٢) وذكر الماوردي في النكت والعيون (٤/ ٢٠) أنه أحد الأقوال في تفسيره، وهو قول قتادة.

(٣) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٣).

(٤) قال مالك في "الموطأ" (١/ ٣٩٥): (الأمر الذي لا اختلاف فيه عندنا أن أحدا لا يحلق رأسه، ولا يأخذ من شعره حتى ينحر هديا إن كان معه، ولا يحل من شيء حرم عليه حتى يحل بمنى يوم النحر، وذلك أن الله تبارك وتعالى قال: ﴿ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ﴾ (البقرة: ١٩٦))، ينظر تيسير البيان لأحكام القرآن (٤/ ٢٣).

(٥) ينظر التفسير المنير (١٧/ ٢٠٢).

(٨٦٣) تشير الآية إلى أن الأخذ من شعور البدَن والأظفار محظورٌ حالَ الإحرام، لأن الله إنما أمر به عند التحلل من أجل رفع الحظر الذي كان قبل ذلك، لأن الله تعالى قال: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، والمراد التسمية عند نحر الهدايا والضحايا، ثم رتب على ذلك قوله ب«ثم»: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ فدل على أن الحلق وقص الأظافر ونحو ذلك ينبغي أن يكون بعد النحر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [سورة البقرة: ١٩٦] (٢). وقد فُسِّر "التفث" بما طال من الشعر والظفر (٣).

(٨٦٤) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ إشارة إلى أن التنعم الزائد والترفُّه والتزيُّن الظاهر ليس من شأن الحاج (٤). وفي الحديث: ((إن الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء، فيقول لهم: «انظروا إلى عبادي جاءوني شُعْثا غُبْرا)) (٥).

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٦٩).

(٢) ينظر أحكام القرآن للجصاص (١/ ٨٢)، والمعونة على مذهب عالم المدينة (ص: ٥٢٩)، وأضواء البيان (٥/ ٤٨)، و(٥/ ٩٤).

(٣) وهو قول عكرمة، ينظر مصنف ابن أبي شيبة (كتاب الحج، باب في قوله تعالى: ﴿لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ (الحج: ٢٩)، ح ١٥٦٧٢، ٣/ ٤٢٩)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٢٦)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٧٠).

(٤) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ١٣).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة (٢/ ٣٠٥، رقم ٨٠٣٣)، وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٥٥): (رجاله رجال الصحيح). وصحح إسناده أحمد شاكر (٨/ ١٤١)، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه (كتاب المناسك، باب تباهي الله أهل السماء بأهل عرفات، ح ٢٨٣٩، ٤/٢٦٣)، وابن حبان في صحيحه (كتاب الحج، باب ذكر مباهاة الله جل وعلا ملائكته بالحاج عند وقوفهم بعرفات، ح ٣٨٥٢، ٩/ ١٦)، والطبراني في المعجم الأوسط (٩/ ١٦، رقم ٨٩٩٣)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (أول كتاب المناسك، ح ١٧٠٨، ١/ ٦٣٦)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، مع أن يونس من رجال البخاري فقط. وأخرجه البيهقي في سننه (كتاب جماع ما يجتنبه المحرم، باب الحاج أشعث أغبر فلا يدهن رأسه ولحيته بعد الإحرام، ح ٩١٠٩، ٥/ ٩٣)، وصحح النووي إسناده في المجموع (٧/ ٣٥٩).

(٨٦٥) فيه إشارة إلى فضيلة سنن الفطرة، وأنها مستحبة في كل الأوقات، وإنما يمنع الحاج منها عند الإحرام تعظيما لحال الحج. قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ((خمس من الفطرة: قص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، والاستحداد، والختان))[(١)].

(٨٦٦) فيه إيماء إلى أن النظافة وإزالة الشعث مطلوبة من المسلم، وأن حال الإحرام حالة استثنائية، والتحلل منه عودة إلى الأصل؛ فقضاء التفث هو التنظف بعد الحل من الإحرام[(٢)].

(٨٦٧) تدل الآية على وجوب رمي الجمار؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾، وقد جعل ابن عباس[(٣)] ومجاهد وغيرهما رمي الجمار من مشمولات قضاء التفث[(٤)]. وروي عن الحسن البصري أن معنى ﴿لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾: تقشف الإحرام برميهم الجمار يوم النحر[(٥)].

(٨٦٨) تدل الآية على أن الأصل أن يكون قضاء باقي المناسك بعد نحْر الهدي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾، فرتَّب قضاء التفث بحرف "ثُم" الدال على الترتيب والتراخي، وقد فسر قضاء التفث بأداء المناسك، وهو مرويٌّ عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما[(٦)]، فكأنه أراد أن قضاء التفث هو قضاء النسك كله بضرب من التجوُّز[(١)]. ويؤيده

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب اللباس، باب قص الشارب، ح ٥٥٥٠، ٥/٢٢٠٩)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، ح ٢٥٧، ١/٢٢١).

(٢) ينظر إيجاز البيان (٢/ ٥٧٥)، وباهر البرهان (٢/ ٩٥٢)، والتسهيل (٢/ ٣٨).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٢٦).

(٤) تفسير مجاهد (ص: ٤٨٠)، وروى ابن وهب نحوه عن محمد بن كعب القُرَظي في الجامع (٢/ ٧٤، رقم ١٤٣)، ومن طريقه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٢٦). وذكر الماوردي في النكت والعيون (٤/ ٢٠) أنه تأويل من أربعة تأويلات له.

(٥) تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٦٨).

(٦) ينظر تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٨٩، رقم ١٣٨٩٩)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٢٦)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٧١). وينظر التفسير المظهري (٦/ ٢٨٠).

حديث: ((مَنْ شَهِدَ صَلاتَنَا هذه، ووَقَفَ معنا، حتى يدفع، وقد وقَفَ بِعَرَفَةَ قَبْلَ ذلك ليلاً أو نَهاراً، فقد تَمَّ حَجُّهُ، وقَضى تَفَثَهُ))[٢]، أي: نُسُكه.

(٨٦٩) تدل الآية على أن حلق الرأس من النسك؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾، وحلق الرأس مندرج في قضاء التفث بلا نزاع[٣].

(٨٧٠) تدل الآية بضميمة الحديث النبوي أن تقديم الذبح على حلق الرأس واجب، ولكنه يسقط بالجهل والنسيان؛ فهو واجب لأن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾، وقضاء التفث يندرج فيه حلق الرأس، فهو صريح في تقديم النحر على الحلق[٤]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [سورة البقرة: ١٩٦]، وأما سقوطه بالنسيان، فمن قدم الحلق على الذبح ناسيا أو جاهلا فلا حرج عليه، فقد ((وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، بمنى، للناس يسألونه، فجاء رجل فقال: يا رسول الله، لم أشعرْ، فحلقت قبل أن أنحر، فقال: «اذبح ولا حرج»، ثم جاءه رجل آخر، فقال: يا رسول الله، لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي، فقال: «ارم ولا حرج»))[٥].

(٨٧١) تدل هذه الآية على أن إزالة التفث لا تجوز قبل وقت التحلل الأول[٦].

---

(١) ينظر روح المعاني (٩/ ١٣٩).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: (كتاب الحج، باب ما جاء من أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج، ح ٨٩١، ٣/ ٢٣٨)، وقال: (حسن صحيح)، وأبو داود في سننه: (كتاب الحج، باب من لم يدرك عرفة، ح ١٩٥٠، ٢/ ١٩٦)، وأخرجه ابن ماجه بنحوه في سننه: (كتاب الحج، باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمعة، ح ٣٠١٦، ٢/ ١٠٠٤).

(٣) ينظر أضواء البيان (١/ ٨٧).

(٤) ينظر أضواء البيان (١/ ٨٧).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب العلم، باب الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها، ح ٨٣، ١/ ٤٣)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب من حلق قبل النحر أو نحر قبل الرمي، ح ١٣٠٦، ٢/ ٩٤٨).

(٦) ينظر أضواء البيان (٥/ ٩٤).

(٨٧٢) يستفاد من الآية استحباب التزين عند التحلل الأصغر من الإحرام؛ لأن التفث قد فسر بقشف الإحرام[(١)]، والتقشف هو ترك الزينة[(٢)]، يدل على ذلك ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: من الحاج؟ فقال: ((الشعِثُ التفِل))[(٣)]. وإزالته يكون باللباس والزينة، وتقليم الأظفار، وأخذ الشعور، والغسل، واستعمال الطيب[(٤)].

(٨٧٣) تدل الآية على وجوب تقديم الذبح على الحلق وطواف الإفاضة[(٥)]، لأن الله تعالى قال: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الحج: ٢٨ – ٢٩]، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [سورة البقرة: ١٩٦]؛ لأنه يدل على أن حلق الرأس لا يكون حتى يبلغ الهدي محله، ولا يبلغ محله حتى يوم النحر.

(٨٧٤) تدل الآية على أن الأفضل في ترتيب أعمال الحج: أن يبدأ الحاج بنحر الهدي بعد رمي الجمار ثم بالحلق، ثم يطوف طواف الإفاضة، لأن الله تعالى ذكر النحر في الآية الأولى في قوله: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٢٨]، ثم عقّب ذلك بقضاء التفث والطواف بالبيت، فقال: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾، والتوفية بالنذر هو

---

(١) تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٦٨)، وتفسير ابن أبي زمنين (٣/ ١٧٨)، وباهر البرهان (٢/ ٩٥٢).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤١٠).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه: (كتاب التفسير، باب ومن سورة آل عمران، ح ٢٩٩٨، ٥/ ٢٢٥)، وقال: (هذا الحديث لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن يزيد الخوزي المكي، وقد تكلم بعض أهل العلم في إبراهيم بن يزيد من قبل حفظه)، وأخرجه أيضا ابن ماجة في سننه: (كتاب المناسك، باب ما يوجب الحج، ح ٢٨٩٦، ٢/ ٩٦٧). والدارقطني في سننه: (كتاب الحج، ح ٢٤٢١، ٣/ ٢١٧)، وإبراهيم بن يزيد الخوزي متروك كما قال الحافظ في "التقريب" (ص: ٩٥، رقم ٢٧٢). فالحديث ضعيف جدا.

(٤) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤١٠)، وأحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٨٤).

(٥) ينظر التبصرة للخمي (٣/ ١٢٢٠).

ذبح الهدي، فدلّ على أن هذا الترتيب مطلوب[1]. (وهكذا صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ برمي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت)[2]. والحنفية على أن هذا الترتيب واجب.

(٨٧٥) في الآية دليل على إباحة التطيب عند التحلل الأصغر قبل طواف الإفاضة[3]؛ لأن التطيب من مشمولات قضاء التفث الذي يقتضي التنظف والتزين، والطيب كان من محظورات الإحرام. ويؤيده قول عائشة رضي الله عنها: ((طَيَّبْتُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بِيَدَيَّ هاتَيْنِ حين أحْرَمَ، ولِحِلِّهِ حين أحلَّ قبْلَ أن يَطُوفَ))[4].

(٨٧٦) في الآية إشارة إلى أن من حِكَم تقليم الأظافر وحلق الرأس أو تقصيره إزالةَ الأوساخ التي تعلق بالحاج أثناء تلبسه بالإحرام، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾.

(٨٧٧) في الآية إشارة إلى أن من حِكَم التحلل الأصغر بإزالة التفث أن يُفيضوا إلى الكعبة ليطوفوا حولها بحال تجمُّل وزينة، كما في قوله تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [سورة الأعراف: ٣١][5].

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٨). ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٧١)، ودرج الدرر (٢/ ٣٣٦). وقال الماوردي في الحاوي الكبير (٤/ ١٨٦): (وترتيب ذلك على ما ذكرنا سنّة، فيبدأ بالرمي ثم بالنحر ثم بالحلق ثم بالطواف. قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ ﴾، يعني: الرمي. ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ (الحج: ٢٩)، يعني: نحر الهدي، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾(البقرة: ١٩٦)، وأمر بالحلق بعد نحر الهدي وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩ ﴾ [سورة الحج: ٢٩). وبهذا التفسير يستدل سائر الشافعية ممن جاء بعد.

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٨).

(٣) تفسير الإمام الشافعي (٣/ ١٠٨٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (الحج، باب وباب الطيب بعد رمي الجمار والحلق قبل الإفاضة، ح ١٦٦٧، ٢/ ٦٢٤)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب الطيب للمحرم عند الإحرام، ح ١١٨٩، ٢/ ٨٤٦).

(٥) ينظر توضيح الأحكام من بلوغ المرام (٤/ ١٧٥).

(٨٧٨) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ إشارة إلى أن الأمور المتعلقة بالجسد من نظافة وتجمُّل ليست من صميم مطالب الإنسان التي ينبغي أن تكون في الاعتبار الأول عنده، وإنما ينبغي أن تكون بعد حاجات العقل والروح، فلا بأس من أن يأخذ الإنسان حظَّه من مطالب الجسد، فيتجمل في مظهره، ويسوّي من هيئته، ولكن على ألّا يشغله ذلك عمّا هو أولى وأكرم، وهو تجميل الباطن وتسويته على أكمل صورة وأحسنها، علمًا وخلقا[(١)]. ويستفاد هذا من الإتيان بقضاء التفث بحرف "ثُم"، وهي تفيد معنى التراخي الرُّتَبي.

﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾:

(٨٧٩) تدل الآية على وجوب الوفاء بما أوجب الإنسان على نفسه في الحج من هدي ونحوه[(٢)]، ويستفاد الوجوب من قول الله تعالى: ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾، واللام لام الأمر، والأمر يفيد الوجوب. وإن كان النذر في غيره واجبا، إلا أن الوفاء به في الحج أحق وآكد[(٣)].

(٨٨٠) تفيد الآية أن من تلبّس بالحج أو العمرة وجب عليه إتمامه؛ ويستفاد هذا من قراءة: ﴿وليُوَفُّوا نذورهم﴾ بتشديد الفاء، والتوفية هي الإتمام، والنذور أعمال الحج، أي ليتموا أعمال نسكهم التي ألزموها أنفسهم بإحرامهم بالحج[(٤)]، والعرب تقول لكل من خرج عما وجب عليه: وفّى بنذره، وإن لم ينذر[(٥)]. والنذر بمعنى الواجب مطلقا مجازا[(٦)]. ويؤيده قوله تعالى:

---

(١) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٢٦).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٢٩). قال الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٢٢): (ويحتمل أن يكون المراد ما أوجبوه بالنذر الذي هو القول، وهذا القول هو الأقرب فإن الرجل إذا حج أو اعتمر فقد يوجب على نفسه من الهدي وغيره ما لولا إيجابه لم يكن الحج يقتضيه فأمر الله تعالى بالوفاء بذلك).

(٣) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢١١).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٢)، (٣٠/ ٧٤٥)، وتفسير القرطبي (١٩/ ١٢٨).

(٥) ينظر تفسير السمعاني (٣/ ٤٣٥)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨١)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٣٨).

(٦) روح المعاني (٩/ ١٣٩)، وينظر معاني القرآن للنحاس (٤/ ٤٠٣).

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ﴾ [سورة البقرة: ١٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [سورة البقرة: ١٩٦].

والقراءة الأولى تحمل على هذا المعنى، أي: وليتموها بقضائها، ولذلك لم يقل "بنذورهم" كما قال: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [سورةتوبة: ١١١]؛ لأن المراد به الإتمام، والإتمام لا يقتضي الجارة[(١)].

(٨٨١) تدل الآية بناء على تفسير النذور بأعمال الحج أن حج التطوع يصير واجبا بمجرد الشروع فيه، ويحرم إبطاله، ولذلك عبر عنه في الآية بالنذور التي يلزم توفيتها، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣﴾ [سورة محمد: ٣٣]. وبناءً على ذلك فمن قطع حجه لغير عذر يلزمه أن يعيده من قابل ولو كان تطوعًا.

(٨٨٢) تدل الآية على وجوب الوفاء بما نذر الإنسان فعله من أعمال زائدة على ما تقتضيه فريضة الحج، مثل نذر طواف زائد، أو اعتكاف في المسجد الحرام، أو نسك، أو إطعام فقير، أو نحو ذلك[(٢)]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾، والنذور تعم ما أوجبه الحج وغيره.

(٨٨٣) تدل الآية على وجوب الوفاء بما نذر الإنسان فعله من أعمال البر في أيام الحج بعد نحر الهدايا؛ إذ ربما ينذر الرجل أن يتصدق أو يذبح ذبيحة إن رزقه الله رؤية الكعبة، فيؤخر ذلك إلى حين نحر الهدي؛ لكيلا تختلط عبادتان، وليكون إحرام الحج خالصا للحج[(٣)].

(٨٨٤) في الآية دلالة على لزوم الوفاء بالنذر لقوله تعالى: ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾، والأمر على الوجوب إلا لدليل صارف عنه[(٤)].

---

(١) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٧٣)، والتفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٦٨).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٠).

(٣) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٧٦).

(٤) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٤)، وأضواء البيان (٥/ ٢٣٣).

(٨٨٥) تومئ الآية إلى التحلي بخلقيْ الوفاء وتوفية ما أمر به الإنسان[١]، وهذا هو الذي تخلى به إبراهيم عليه السلام حيث قال الله في شأنه: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ [سورة النجم: ٣٧].

(٨٨٦) في هذه الآية دليل على أن النذر كان مشروعا في شريعة إبراهيم عليه السلام. ويؤيده أن عُمر رضي الله عنه نذر في الجاهلية اعتكاف ليلة بالمسجد الحرام، ووفى به بعد إسلامه[٢]، كما في الحديث[٣].

(٨٨٧) تدل الآية على وجوب إخراج النذر، وإن كان دما أو هديا أو غيره.

(٨٨٨) تدل الآية على أن النذر لا يجوز أن يأكل منه وفاء بالنذر، وكذلك جزاء الصيد وفدية الأذى، لأن المطلوب أن يأتي به وافيا، أي كاملا من غير نقص لحم ولا غيره، فإن أكل من ذلك لم يكن موفيا بذلك كما أمره الله تعالى، وكان عليه هدي كامل[٤]. ويشهد له قراءة: ﴿وليُوَفُّوا﴾، بتشديد الفاء.

(٨٨٩) تفيد الآية أن ذبح النذر في هذه الأيام أفضل منه في غيرها[٥]، لأن الله تعالى أمر بالوفاء بالنذور على العموم في أيام الحج.

(٨٩٠) تفيد الآية جواز النذر المطلق للبيت الحرام وغيره[٦]، لأن الله تعالى أوجب الوفاء بالنذور، وهذا فرع جوازها.

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٠).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الاعتكاف، باب إذا نذر في الجاهلية أن يعتكف ثم أسلم، ح ١٩٣٨، ٢/ ٧١٨)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الأيمان، باب نذر الكافر، وما يفعل فيه إذا أسلم، ح ١٦٥٦، ٣/١٢٧٧).

(٤) ينظر أحكام القرآن للكيا الهراسي (٤/ ٢٨١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٤٥).

(٥) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٣).

(٦) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٠).

(٨٩١) تدل على أن الإتيان بأعمال البرّ التي نذروا فعلها مطلقا من غير تقيد ببلدة مخصوصة يستحب الوفاء بها في أيام الحج بمكة اغتنامًا لفضل الزمان والمكان، وإن كان قد نذر التصدق، فالأفضل أن يتصدق ويهدي إلى الكعبة وأهلها[١]. فخير وقت للوفاء بهذه النذور هو في هذا الوقت، وفي هذا الموطن[٢].

(٨٩٢) تفيد الآية إيجاب الوفاء بنفس المنذور دون كفارة يمين، خلافًا للإمام الشافعي[٣].

(٨٩٣) تدل الآية على وجوب الوفاء بالنذر وإخراجه إن كان دما أو هديا أو غيره[٤]، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾، وهذه صيغة أمر، والأصل في الأمر الوجوب.

(٨٩٤) تدل الآية بدلالة اللزوم على أن النذر لا يجوز أن يأكل منه وفاء بالنذر. وكذلك جزاء الصيد، وفدية الأذى، لأن المطلوب أن يأتي به كاملا من غير نقص لحم ولا غيره، فإن أكل من ذلك، كان عليه هدي كامل[٥].

(٨٩٥) تفيد الآية أن الهدي المسوق لا يُنحر حتى يقضي التفث كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾، وذلك إشارة إلى الهدي المسوق فإنه نذر[٦]، وتقديم قضاء التفث في الذكر دليل على أن الأصل تقديمه في الفعل.

(٨٩٦) تفيد الآية بضميمة الأحاديث النبوية أن الوفاء بالنذر مطلقا واجب إلا ما كان معصية[١]، لقوله صلّى الله عليه وسلم: ((لا وفاء لنذر في معصية))[٢]، وقوله عليه الصلاة

---

(١) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٧٣)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٤).

(٢) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٢٦).

(٣) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٣ - ٧٤).

(٤) ينظر أحكام القرآن للكيا الهراسي (٤/ ٢٨١).

(٥) ينظر التفسير المنير (١٧/ ٢٠٢).

(٦) ينظر مجموع الفتاوى (٢٦/ ١٦٧).

والسلام: ((من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه))[٣]. وقوله صلى الله عليه وسلم: ((النذرُ نذران، فما كان من نذرٍ في طاعة الله فذلك لله، وفيه الوفاء. وما كان من نذر في معصية الله فذلك للشيطان، ولا وفاء فيه، ويكفره ما يكفر اليمين))[٤].

(٨٩٧) تشير الآية إلى تعدد أنواع النذر وصوره؛ لأنها وردت بصيغة الجمع: ﴿نُذُورَهُمْ﴾، فالنذر ينقسم إلى مطلق ومعلق، والمطلق ينقسم إلى مصرح فيه بالمنذور، وإلى غيره، والمعلق قد يكون معلقا على فعل الله سبحانه، وقد يكون معلقا على فعل العبد، ثم هذا ينقسم إلى ما يقصد به التقرب إلى الله تعالى، وإلى ما يقصد به الحث على الفعل أو المنع منه[٥].

(٨٩٨) تفيد الآية أن نذر اللجاج لازم يجب الوفاء به، فهو من النذور المشمولة بالآية. ونذر اللجاج ما يقصد به المنع من الفعل؛ كقوله: إن كلمت زيدا، فلله عليّ كذا[٦]. وإن كان المنذور جائزا لا نهي فيه، ولا أمر فلا يلزم الوفاء به. فعن ابن عباس قال: «بيْنا النبي – صلى الله عليه وسلم – يخطب إذ هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم، ويصوم، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: ((مُرْه فليتكلم، ولْيستظلَّ وليقعدْ، وليتمّ صومَه))[٧]. وفيه التصريح بأن ما كان من نذره من جنس الطاعة، – وهو الصوم – أمره – صلى الله عليه وسلم – بإتمامه وفاء بنذره، وما كان من نذره مباحا لا

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٥٠)، وأضواء البيان (٥/ ٢٣٤)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٧٦)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٠٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب النذر، باب لا وفاء لنذر في معصية الله، ح ١٦٤١، ٣/١٢٦٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، ح ٦٣١٨، ٦/ ٢٤٦٣).

(٤) أخرجه النسائي في سننه: (كتاب الأيمان والنذور، باب كفارة النذر، ح ٣٨٤٥، ٧/٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٦٨٠).

(٥) ينظر تيسير البيان (٤/ ٢٤ – ٢٥).

(٦) ينظر تيسير البيان (٤/ ٢٥).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك...، ح ٦٣٢٦، ٦/ ٢٤٦٥).

طاعة، كترك الكلام، وترك القعود، وترك الاستظلال، أمره بعدم الوفاء به، وهو صريح في أنه لا يجب الوفاء به[(١)].

(٨٩٩) يفيد الإتيان بوفاء النذور بين قضاء التفث والطواف أن يلزم الحاج أن يتأنى ولا يستجل في مغادرة البلد الحرام، فإن فيه خيرا كثيرا، وفيه تعظيم لشعائر الله؛ فإن المحب لا يستعجل في مغادرة بيته[(٢)].

﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [سورة الحج: ٢٩].

(٩٠٠) تدل الآية على وجوب طواف الإفاضة، لأنه مأمور به، والأمر يفيد الوجوب، ولا خلاف بين المتأولين في أن المراد في الآية هو طواف الإفاضة، لأن الله أمر به معطوفا على الأمر بقضاء التفث، ولا يفعل طواف في ذلك الوقت وهو يوم النحر بعد الذبح إلا طواف الزيارة، فدل على أنه المراد[(٣)].

(٩٠١) تدل الآية على أن طواف الإفاضة ركن من أركان الحج، لا يصِحُّ الحج إلا به، أما غيره فواجب أو مستحب لا يبطل الحج بتركه[(٤)]، وذلك لأن الله - جل وعلا - أمر بالطواف في سياق الأمر بالحج، فقال: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾، والأمر المطلق لا يقتضي التكرار، فدل ذلك على أن الطواف الركن في الحج إنما هو طواف واحد، وقد انعقد الإجماع على أن الطواف الذي يلزم جميع الحجاج - حتى من أهل مكة - إنما هو طوافُ الإفاضة، فتبين أن الطواف الركن إنما هو طواف الإفاضة.

---

(١) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢٣٤ - ٢٣٥).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٠).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٣١)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٤)، وأحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٤)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٤)، وأضواء البيان (٥/ ٢٥٤).

(٤) ينظر التفسير والبيان (٤/ ٢٣٦٢).

(٩٠٢) تفيد الآية فضل الطواف وعِظَم ثوابه، حيث أمر به على خاصّةً بعد الأمر بالمناسك على وجه العموم، ولأنه يتعبد به لله مع الأنساك وحده، وأما الأنساك فلا تكون عبادةً إلا إذا كانت تابعة لنُسُك[١].

(٩٠٣) تدل الآية على أن الطواف يكون حول الكعبة كلها، ولا يجوز ترك شيء منه[٢]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾، فجعله كله محلّا للطواف.

(٩٠٤) تدل الآية على أن الطواف عبادة تختص بالمسجد الحرام دون غيره من المساجد والمشاهد[٣]، لأن الله تعالى قيد الطواف به فقال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

(٩٠٥) تدل الآية بدلالة الالتزام على أن الطواف بالأضرحة والمشاهد بنية التقرب لا يجوز[٤]؛ لأن الطواف خاص بالكعبة المشرفة كما تقدم، فلا يجوز الطواف بصَخرَةِ بيت المقدس، ولا بِحُجرَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، ولا بالقُبَّةِ الَّتِي في جبَلِ عرفات، ولا غير ذلك[٥].

(٩٠٦) في الآية دلالةٌ على وجوب أداء طواف الإفاضة قبل مُضِيّ أيام النحر؛ لأن الله أمر بالطواف حول البيت بعد النحر، والأمر على الصحيح لا يفيد فورا لذاته، حتى تقوم الدلالة على جواز التأخير، ولا خلاف في إباحة تأخيره إلى آخر أيام النحر[٦].

(٩٠٧) تفيد الآية جواز طواف الإفاضة قبل قضاء التفث، لأن الله تعالى عطف الطواف على ما تقدمه في الآية بالواو، وهي لا تقتضي الترتيب، فإن طاف قبل قضاء التفث

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧١).

(٢) ينظر تفسير الإمام الشافعي (٣/ ١٠٨٦)، وأحكام القرآن للجصاص (١/ ٩٩) و(٤/ ٣٣).

(٣) ينظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية (١/ ٤٧١).

(٤) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٧٠).

(٥) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٢١).

(٦) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٥).

جاز، وإن قضى التفث ثم طاف جاز، ولم يختلف الفقهاء في إباحة الحلق واللبس قبل طواف الزيارة[1].

(٩٠٨) تدل الآية على أن الطواف عبادة من العبادات التي يفعلها الحلال والمحرم، لا تختص بالإحرام؛ ولهذا كان طواف الفرض إنما يجب بعد التحلل الأول، فيطوف الحاج طواف الإفاضة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾، فيطوف الحجاج وهم حلال، قد قضوا حجهم، ولم يبق عليهم مُحرَّم إلا النساء[2].

(٩٠٩) تدل الآية على أن الطواف يكون حول البيت، ولا يسمى طائفا بالبيت من طاف في جوفه، لأن الله سبحانه إنما أمرنا بالطواف به، لا بالطواف فيه، فقال تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [3].

(٩١٠) تدل الآية على وجوب الطواف من وراء الحِجْر؛ لأن الحجر من أصل البيت الذي بناه إبراهيم، وإنما أخرجته قريش من البيت حين قصرت بهم النفقة؛ ولهذا طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين؛ لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة[4]؛ وعن ابن عباس قال: ((لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾، طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائه))[5].

---

(١) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٦).

(٢) ينظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية (١/ ٤٧١).

(٣) ينظر أحكام القرآن للجصاص (١/ ٩٥)، وتفسير الرازي (٤/ ٤٧).

(٤) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٨)، وأضواء البيان (٥/ ٢٥٤).

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٩٠، ١٣٩٠٩). وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: (الحجر من البيت، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت من ورائه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: ٢٩]). أخرجه ابن خزيمة في صحيحه: (كتاب الحج، باب الطواف من وراء الحِجر، ح ٢٧٤٠، ٤/٢٢٢)، والحاكم في المستدرك: (أول كتاب المناسك، ح ١٦٨٨، ١/ ٦٣٠)، وصححه، وله شواهد صحيحة (ينظر إرواء الغليل: ٤/٣٠٥-٣٠٧، رقم ١١٠٦). وكذلك روى البخاري عنه في صحيحه (كتاب مناقب الصحابة، باب أيام الجاهلية، ح ٣٦٣٥، ٣/ ١٣٩٧) أنه قال: (من طاف بالبيت فليطف من وراء الحِجْر).

(٩١١) تدل الآية على أنه من دخل الحِجْر أو مشى على جدار الحجر أو شاذَرْوان الكعبة[١] فطوافه لا يصح، لأن الله سبحانه أمرنا بالطواف بجميع البيت، وحِجْر إسماعيل والشاذروان جزءان من البيت، فمن سلكها لم يطف بجميع البيت[٢].

(٩١٢) تفيد الآية على صحة الطواف في المسجد، مادام أنه محيط بالكعبة، ولم تحجز الجدران بينه وبين الكعبة؛ لأن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾، والطواف حوله طواف به، فيجوز الطواف في الأروقة، سيما إن كان ثمة عذر، من زحمة، أو حر، أو برد، أو مطر ونحوها[٣].

(٩١٣) تفيد الآية أنه يشترط أن يكون الطواف داخل المسجد الحرام، ولا يجوز الطواف خارجه، لأن الطائف خارج المسجد الحرام لا يكون طائفا بالبيت، وإنما يكون طائفا بالمسجد، والله إنما أمر بالطواف بالبيت[٤].

(٩١٤) تبين الآية أن طواف الإفاضة يجب أن يكون بعد نحر الهدي يوم النحر أو بعده[٥]؛ لأن الله تعالى ذكَره بعد هذه الأمور بحرف ﴿ثُمَّ﴾ المفيد للترتيب، فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الحج: ٢٨ – ٢٩]، وقضاء التفث والوفاء بما أوجبوه على أنفسهم لا يكون إلا بعد الوقوف بعرفة والمزدلفة ورمي الجمار، ومن ثم فالطواف بالبيت إنما يكون في يوم النحر وما بعده، ولا يكون قبله[٦].

---

(١) شاذروان الكعبة: هو الإفريز البارز بمقدار ثلثي ذراع في أسفل جدران الكعبة (معجم لغة الفقهاء: ص ٢٥٥).

(٢) ينظر أحكام القرآن للكيا الهراسي (١/ ١٩)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٧٤).

(٣) ينظر بلغة السالك للصاوي (٢/ ٢٩)، وبحث "الطواف وأهم أحكامه: دراسة فقهية مقارنة"، د. شرف بن علي الشريف، مجلة البحوث الإسلامية (٤٤/ ٢٢٤).

(٤) ينظر البحث السابق، مجلة البحوث الإسلامية (٥٣/ ٢٢٣ – ٢٢٤).

(٥) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٧٠).

(٦) ينظر الكافي في فقه أهل المدينة لابن عبد البر (١/ ٣٦٣).

(٩١٥) تشير الآية إلى أنه ينبغي أن يجعل الطواف آخر ما يعمل به الحاج، لأن الله تعالى ذكر الطواف في ختام الآية بعد ذكر بعض المناسك، ويحتمل أن يكون المراد هو طواف الوداع[١]، وقد روي عن بعض السلف[٢].

(٩١٦) تفيد الآية أن آخر المناسك هو الطواف بالبيت، وقد وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (أتقرأ سورة الحج يقول الله: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾؟ قال: فإن آخر المناسك الطواف بالبيت)[٣]. وصح عن ابن عباس أنه قال: ((أُمِر الناسُ أن يكون آخرُ عهدهم بالبيت، إلا أنه خُفِّف عن المرأة الحائض))[٤].

(٩١٧) تومئ الآية إلى أن الطواف مشروع كل وقت، سواء كان تابعا لنُسُك، أم مستقلا بنفسه. ويؤخذ هذا من مجيء الأمر بالطواف خصوصا في ختام الآية بعد الأمر بالمناسك عموما، أما بقية الأنساك فلا تكون عبادة إلا إذا كانت تابعة لنسُك، والله أعلم[٥].

(٩١٨) تومئ الآية إلى أن الطواف عبادة لا تختص بالإحرام، بل يفعلها المحرم والحلال؛ لأن الآية بينت أن الحاج عليه أن يطوف طواف الفرض بعد التحلل الأول، فقال: ﴿فَكُلُواْ

---

(١) ذكر الشافعي في تفسيره (٣/ ١٠٨٥) أن لفظ الآية تحتمل طواف الوداع، وذكر ذلك الزمخشري في الكشاف (٣/ ١٥٣) وابن عطية في المحرر الوجيز (٤/ ١١٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٢)، وقد ردّه الماتريدي في تفسيره (٧/ ٤١١) فقال: (ولا يحتمل ما قال بعض الناس: إنه طواف الصدَر؛ لأن الله تعالى قال: (ولله على الناس حج البيت)، وحج البيت هو الطواف بالبيت لا غير، وطواف الدخول وطواف الصدر ليس على أهل مكة ذلك الطوافان، وعليهم الحج كما كان على غيرهم من الناس؛ فدل ما ذكرنا على أن قوله: ﴿ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩ ﴾ هو طواف الزيارة). ومن جهة أخرى فإن الطواف الذي يلي قضاء التفث إنما هو طواف الإفاضة، فلا مناسبة هنا لطواف الوداع؛ ينظر التفسير المنير (١٧/ ٢٠٣).

(٢) روى الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٣٢) عن عمرو بن أبي سلَمة، قال: سألت زهيرا عن قول الله: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحج: ٢٩]، قال: (طواف الوداع).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٩٠، ١٣٩١٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الحج، باب طواف الوداع، ح ١٦٦٨، ٢/ ٦٢٤)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب وجوب طواف الوداع وسقوطه عن الحائض، ح ١٣٢٨، ٢/ ٩٦٣).

(٥) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٧)، وتيسير اللطيف المنان (ص١٠٨).

مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الحج: ٢٨ – ٢٩] [(١)]. فيطوف بعدما قضى حجه ولم يبق أمر يحظر عليه إلا النساء.

(٩١٩) تشير الآية أن الطواف حول البيت يكون أكثر من مرة، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾، والتَّطَوُّف: المبالغة في الطواف بأن يعدِّدوه، ولا يكتفوا بِطوْفة واحدة[(٢)]، وقد بينت السنة أن الطواف يكون سبعة أشواط[(٣)].

(٩٢٠) قد يؤخذ من الآية أن المسلم إذا يسر الله له الحج وأكمله أن يكثر من الطواف حول البيت على وجه التطوع؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ﴾، هكذا بالتشديد[(٤)].

(٩٢١) تدل الآية أن الطواف بالبيت لا بد له من الطهارة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم بيَّن ما أجمل في قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾، فطاف متوضئا، فقد روت عائشَةُ: ((أَنَّ أَولَ شيء بَدَأ به حين قَدِمَ مكة: أنَّه تَوَضَّأ، ثم طافَ بالبيت))[(٥)]. وقد تقرر في الأصول أن فعل النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان لبيان مأمور به في كتاب الله، فهو محمول على الوجوب[(٦)].

---

(١) ينظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية (١/ ٤٧١).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (١/ ٤٧٧)، وبيان المعاني (٦/ ١٦٩)، والتفسير القرآني (٩/ ١٠٢٧).

(٣) قال ابن عمر رضي الله عنهما: ((قدم النبي صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين وطاف بين الصفا والمروة وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)). أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الصلاة، باب قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، ح ٣٠٧، ١/ ١٥٤)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب جواز التحلل بالإحصار، ح ١٢٣٤، ٢/ ٩٠٦).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧١).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الحج، باب طاف بالبيت إذا قدم مكة قبل أن يرجع إلى بيته، ح ١٥٣٦، ٢/ ٥٨٤)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب ما يلزم من طاف بالبيت وسعى من البقاء على الإحرام وترك التحلل، ح ١٢٣٥، ٢/ ٩٠٦).

(٦) ينظر أضواء البيان (٤/ ٣٩٧).

(٩٢٢) تفيد الآية بضميمة الحديث النبوي أن الطائف يجب أن يجعل الكعبة عن يساره في الطواف؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم بين الآية بفعله، فجعل البيت على يساره في الطواف، وقال: ((لتأخذوا مناسككُم))[(١)].

(٩٢٣) تفيد الآية أن الكعبة المشرفة أقدمُ مساجد الله وأعتقها[(٢)]، لأن الله سماه البيت العتيق، أي القديم، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [سورة آل عمران: ٩٦] [(٣)]. وفي الحديث أن أبا ذر سأل رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم– عن أول مسجد وضع في الأرض؟ قال: ((المسجد الحرام))[(٤)].

(٩٢٤) تفيد الآية أن العتَق والقِدَم مما يحمد به المسجد، وأن الصلاة في المسجد العتيق أفضل، فإن قِدَمَه يقتضي أن الطاعة فيه أسبق، والعبادة فيه أكثر، وذلك يقتضي زيادة فضله، ويؤخذ هذا من أن الله أثنى على بيته الحرام بذلك فقال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾، ولذلك كان السلف يرون العتيق أفضل من الجديد[(٥)].

(٩٢٥) تفيد الآية أن الكعبة المشرفة يحميها الله تعالى من أن يهدمها الجبابرة أو يخربوها، فلم يقصدها جبار بمكيدة إلا قصمه الله تعالى، ولم يُرِدْها أحد بسوء إلا هلك؛ لأن الله

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة، ح ١٢٩٧، ٢/ ٩٤٣).

(٢) وهو مروي عن ابن زيد والحسن البصري، ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٣١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٩٠، رقم ١٣٩٠٨).

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٤)، ومعاني القرآن للنحاس (٤/ ٤٠٤)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٧٦)، ومال إليه الطبري (١٦/ ٥٣١) وقال: (ولكل هذه الأقوال التي ذكرناها عمن ذكرناها عنه في قوله: ﴿ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ وجه صحيح، غير أن الذي قاله ابن زيد أغلب معانيه عليه في الظاهر)، وكذا قواه ابن عطية في المحرر الوجيز (٤/ ١١٩)، والقرطبي في تفسيره (١٢/ ٥٣).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾، ح ٣١٨٦، ٣/١٢٣١)، ومسلم في صحيحه: (كتاب المساجد، باب المساجد ومواضع الصلاة، ح ٥٢٠، ١/٣٧٠).

(٥) ينظر مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٦٩)، والمغني لابن قدامة (٢/ ١٣٢). بل قال المرداوي في الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف (٤/ ٢٧٦): (والصحيحُ منَ المذهبِ أن المسْجِدَ العتِيقَ أفضَل مِنَ الأكثر جماعةً).

سمّاها في هذه الآية: البيت العتيق، لأنه أعتق من الجبارين الكفَرة[1]. وهذا قول ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وقتادة[2]، ورُوي مرفوعا[3]، ويشهد التاريخ لهذا القول، فكم جبارٍ سار إليه ليهدمه فأهلكه الله إلا من عظمه واحترمه.

قال سعيد بن جبير: (أقبل تُبَّع يريد هدم البيت، حتى إذا كان بقديد أصابه الفالج، فدعا الأحبار فقالوا: إنّ لهذا البيت ربّا ما قصده قاصد بسوء إلّا حجبه عنه بمكروه، فإن كنت تريد النجاة ممّا عرض لك فلا تتعرّض له بسوء. قال: فأهدى إلى البيت كسوة وأنطاعا فألبست، وكان أوّل ما ألبست، ونحر عنده ألف ناقة، وعفا عن أهله وبرّهم ووصلهم)[4].

وكذلك لما قصد أبرهة الحبشي التسلط عليه، فعل الله به ما قصه علينا في سورة الفيل. أما الحجاج الذي ضرب الكعبة بالمنجنيق فلم يمنع، لوجهين:

---

(١) ينظر تفسير التستري (ص: ١٠٧)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٢٩).

(٢) ينظر تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٦٨)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٢٩ - ٥٣٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٩٠)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٧٥). وقد رأى الطبري (١٦/ ٥٣١) أن هذا القول أولى بالصحة، إن كان الحديث المرفوع المروي في ذلك صحيحا، وقد تقدم لنا أنه ضعيف.

(٣) وهو ما أخرجه الإمام البخاري في تاريخه: ١/ ٢٠١ عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إنما سمى الله البيت العتيق لأنه أعتقه من الجبابرة)). وأخرج نحوه الترمذي في سننه: (كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة الحج)، ح ٣١٧٠، ٥/ ٣٢٤) عن عبد الله بن الزبير، وقال: (حسن صحيح، وقد روي هذا الحديث عن الزهري عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا). وأخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب التفسير، ح ٣٤٦٥، ٢/ ٤٢١)، وصححه على شرط البخاري، وتعقبه الذهبي بأنه على شرط مسلم، وليس كما قال، ففي سند الحديث عبد الله بن صالح، وهو مختلف فيه، قيل: ثقة مأمون، وضعفه الإمام أحمد وغيره. ولخص ابن حجر ما قيل فيه فقال في تقريب التهذيب (ص: ٣٠٨): (صدوق كثير الغلط، ثبْتٌ في كتابه، وكانت فيه غفلة). وخلص في مقدمة الفتح (١/ ٤١٤) إلى (أن ما يجيء من روايته عن أهل الحذق كيحيى بن معين، والبخاري، وأبي زرعة، وأبي حاتم، فهو من صحيح حديثه، وما يجيء من رواية الشيوخ عنه، فيتوقف فيه).

(٤) الكشف والبيان (٧/ ٢٠).

الأول: لأنه لم يقصد إهانة الكعبة أو التسلط عليها، وإنما تحصن بها ابن الزبير رضي الله عنه، فاحتال الحجاج لإخراجه بضربه بالحجارة، ولما قضى عليه أعاد بناء الكعبة، ثم حج بالناس[(١)].

والثاني: أن الله (إنما أعتقها عن كفار الجبابرة، لأنهم إذا أتوا بأنفسهم متمردين ولحرمة البيت غير معتقدين، وقصدوا الكعبة بالسوء فعصمت منهم ولم تنلها أيديهم، كان ذلك دلالة على أن الله عز وجل صرفهم عنها قسرا. فأما المسلمون الذين اعتقدوا حرمتها فإنهم إن كفّوا عنها لم يكن في ذلك من الدلالة على منزلتها عند الله مثل ما يكون منها في كف الأعداء، فقصر الله تعالى هذه الطائفة عن الكف بالنهي والوعيد، ولم يتجاوزه إلى الصرف بالإلجاء والاضطرار، وجعل الساعة موعدهم، والساعة أدهى وأمر)[(٢)].

ويشكل على ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يُخرّب الكعبةَ ذو السويقتين من الحبشة))[(٣)]، ويمكن أن يجاب بأن ذلك سيكون قبيل قيام الساعة.

(٩٢٦) تفيد الآية أن الكعبة المشرفة لم يملكها أحد قط، وليس لأحد فيها شيء، ولم يدّعها أحد من الناس قطّ[(٤)]. وهو قول سفيان بن عيينة، ورواية عن مجاهد[(٥)]. ويؤخذ هذا من أن الله سمّى بيته ﴿ٱلۡعَتِيقِ﴾، أي المحرَّر المعتق من ملك الناس[(٦)].

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٤)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٢)، وانظر خبر ذلك في تاريخ الإسلام (٢/ ٧٥٩).

(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ٥٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الحج، باب هدم الكعبة، ح ١٥١٩، ٢/ ٥٧٩)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، ح ٢٩٠٩، ٤/ ٢٢٣٢)، والسويقتين: مثنى سويقة، وهي تصغير ساق، أي له ساقان دقيقتان (الفتح: ٣/ ٤٦١).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٠)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٧٥).

(٥) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٠)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٥).

(٦) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥٠٣).

(٩٢٧) تدل الآية على فضل المسجد العتيق، فهو أول بيت وضع للناس، وقد حماه الله من كل جبار، فهو أفضل المساجد على الإطلاق.

(٩٢٨) تومئ الآية إلى أنه لا يجوز الطواف بغير الكعبة المشرفة؛ لأن الله تعالى خص الطواف بالبيت العتيق، ولو لم يذكر صفة "العتيق" لتبادر إلى الذهن أنه يجوز الطواف بغيره من البيوت التي يعظمها المشركون، فكانت الصفة قاطعة لكل شبهة[(١)].

(٩٢٩) في الآية إرشاد إلى استعمال التعريض بالمخالف دون التصريح؛ لأن في الآية تعريضا بالمشركين الذين كانوا يمنعون من يشاءون من الكعبة، حتى إنهم جعلوا بابها مرتفعا بدون درَج لئلا يدخلها إلا من شاءوا، كما جاء في حديث عائشة أيام الفتح، حيث سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن البيت فقالت: ((فما شأن بابه مرتَفِعاً؟ قال: فعل ذلك قَومُك ليُدْخِلوا من شَاؤوا، ويمنعوا من شاؤوا))[(٢)].

(٩٣٠) في الآية تنبيه على أنه لا يجوز لأحد أن يصد أحدا عن الكعبة أو يمنعه من دخولها؛ لأنه بيت الله، وليس ملكا لأحد حتى يمنع من شاء ويُدخل من شاء.

(٩٣١) تفيد الآية أن الكعبة موضع يمتنع فيه القتل والسبي والجراح، لأن الله سماه البيت العتيق، لأنه أعتق من ذلك في الجاهلية[(٣)].

(٩٣٢) تفيد الآية أن الكعبة المشرفة سبب لأن يُعتق الله فيه رقاب المذنبين من العذاب، وذلك بزيارته والطواف به. ويؤخذ هذا من أن الله سمى بيته ﴿ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾، والعتيق فعيل بمعنى مُفعِل، أي مُعتِق رقاب المذنبين، ونسب الإعتاق إليه مجازا، إذ بزيارته والطواف به

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها، ح ١٥٠٧، ٢/ ٥٧٣)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، ح ١٣٣٣، ٢/ ٩٧٣).

(٣) وهو قول مقاتل، ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٢٣)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٧).

يحصل الإعتاق، وينشأ عن كونه معتقا أن يقال فيه: يعتق فيه رقاب المذنبين[١]. وقد قال عبد الله بن عبيد لابن عمر رضي الله عنهما: يا أبا عبد الرحمن، إنك تزاحم على الركنين (أي الحجر الأسود والركن اليماني) زحاما ما رأيت أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يزاحم عليه؟ فقال: إن أفعل فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن مسحهما كفارةٌ للخطايا))، وسمعته يقول: «من طاف بهذا البيت أسبوعا فأحصاه كان كعِتق رقبة»[٢]، وسمعته يقول: ((لا يضع قدما ولا يرفع أخرى إلا حُطّ الله عنه خطيئة وكتب له بها حسنة))[٣]. وفي رواية: ((ورُفِعت له بها درجة))[٤].

(٩٣٣) تؤذن الآية بأن الكعبة المشرّفة أنجيت من الغرق أيام الطوفان[٥]، ولذلك سمي بالبيت العتيق، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [سورة الحج: ٢٦]، وفيه إشارة أن البيت رفع وبقي مكانه[٦].

---

(١) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥٠٣).

(٢) أخرجَ هذا الجزء من الحديث ابن ماجه في سننه: (كتاب المناسك، باب فضل الطواف، ح ٢٩٥٦، ٢/٩٨٥).

(٣) أخرجه بتمامه أحمد في المسند: (٢/ ٩٥، رقم ٥٧٠١)، ورواه في موضع آخر (٢/ ٣، رقم ٤٤٦٢) بلفظ: ((ما رفع رجل قدما ولا وضعها الا كتبت له عشر حسنات وحط عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات))، وقال محققو المسند: (حديث حسن)، وأخرجه الترمذي في سننه واللفظ له: (كتاب الحج، باب ما جاء في استلام الركنين، ح ٩٥٩، ٣/٢٩٢)، وقال: حسن. وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١/ ٤٩١ – ٤٩٢)، وأخرجه النسائي بنحوه في سننه: (كتاب الحج، باب ذكر الفضل في الطواف بالبيت، ح ٢٩١٩، ٥ / ٢٢١)، بلفظ: ((إن مسحهما يحطّان الخطيئة، وسمعته يقول: من طاف سبعا، فهو كعتق رقبة)). وروايته عن حماد بن زيد عن عطاء بن السائب قبل أن يتغير، وروايته عنه جيدة. وأخرجه بتمامه كذلك ابن خزيمة في صحيحه: (كتاب المناسك، باب فضل الطواف بالبيت، ح ٢٧٥٣، ٤/ ٢٢٧)، والحاكم في المستدرك: (كتاب الصوم، حديث إبراهيم بن قعيس، ح ١٧٩٩، ١/٦٦٤) وصححه. وأخرج ابن حبان هذا الجزء من الحديث في صحيحه: (كتاب الحج، ذكر رفع الدرجات وكتب الحسنات وحط السيئات بخطى الطائف حول البيت العتيق، ح ٣٦٩٧، ٩/ ١٠).

(٤) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه: (كتاب المناسك، باب فضل الطواف بالبيت، ح ٢٧٥٣، ٤/ ٢٢٧).

(٥) وهو قول سعيد بن جبير، ينظر تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٩٠، رقم ١٣٩٠٧).

(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٤)، ورجحه السمعاني في تفسيره (٣/ ٤٣٥).

(٩٣٤) تدل الآية على أن البيت الحرام بيت كريم؛ لأن الله وصفه بالبيت العتيق، والعتيق يطلق على الكريم. كقولهم: فرس عتيق، وعتاق الخيل لكرائمها[(١)].

(٩٣٥) تومئ الآية إلى أن القدم في مقام الفضل والإحسان تقدّمٌ في الدرجة، وسبقٌ في الإحسان، ومن كان كذلك فإنه يكون أهلا لأن يتبوأ مقعد الإمامة لمن جاء بعده، ويكون إماما يقتدى به. وقد استحق المؤمنون السابقون من المهاجرين والأنصار أن يكونوا وجه الإسلام، وقدوة المسلمين، وأن يكونوا أقرب عباد الله إلى الله كما يقول سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦﴾ [سورة الواقعة: ١٠ – ١٦][(٢)].

(٩٣٦) تشير الآية إلى أن المسلم حين يطوف بالبيت يسير على هدى الأنبياء والصالحين الذين طافوا به منذ أن بني؛ لأنه بيت عتيق[(٣)].

(٩٣٧) في الآية تنبيه على أن المسلم يجب عليه أن يعظم البيت الحرام، لأن الله تعالى سماه بالبيت العتيق، والمعاني المتقدمة في تفسير عتاقته تدل على شرفه ومكانته وعظمته، وهذا يقتضي تعظيم المسلم له.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ [سورة الحج: ٣٠]:

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٤)، والتسهيل (٢/ ٣٩)، وغرائب القرآن (٥/ ٧٩)، ورد الواحدي في البسيط (١٥/ ٣٧٦) هذا القول فقال: (وقول من قال إن العتيق: بمعنى الكريم من قولهم: فرس عتيق ليس بشيء؛ لأن معنى العتيق في الخيل: السابق، يقال عتقت الفرس إذا سبقت الخيل فنجت. وليس يحسن هذا المعنى في البيت).

(٢) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٢٦ – ١٠٢٧).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧١).

(٩٣٨) في الآية دليلٌ على وجوب تعظيم حرمات الله؛ فقد جاء النهي في هذه الجملة عن انتهاك هذه الحرمات بأبلغ أسلوب، حيث عبر عن اجتنابها بالتعظيم[١]، فكأنه أمر بتعظيمها فقال: عظموا حرمات الله واجتنبوا انتهاكها، ولهذا صح أن يعطف عليه: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ﴾[٢].

(٩٣٩) في الآية إشارة الى أن تعظيم حرمات الله هو تعظيم الله في ترك ما حرمه الله عليه، وتعظيم ترك ما أمره الله به[٣]؛ فإن الله تعالى ذكر تعظيم حرماته بين أمر ونهي، فقبله الأمر بنحر الهدايا وقضاء التفث وتوفية المناسك والطواف بالبيت، وبعده الأمر باجتناب الشرك وقول الزور.

(٩٤٠) تدل الآية على أن الباعث على التعظيم هو ملاحظة ربوبية الله لنا، وما يستتبعه ذلك من تربيته لنا بأنواع النعم التي لا تعد ولا تحصى والتي يجب أن نشكره عليها، قال أبو السعود[٤]: (والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير ﴿مَنۡ﴾ لتشريفه والإشعار بعلّة الحكم)[٥].

(٩٤١) تومئ الآية إلى أن استحضار جلال الله وعظمته باعثٌ على تعظيم حرماته؛ لأنه تعالى ذكر الحرمات مضافة إلى اسم الجلالة دون غيره من الأسماء: ﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، حضًّا على صيانتها وتكريمها ومراعاتها حق رعايتها[٦].

---

(١) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٠٥).

(٢) ينظر التفسير المظهري (٦/ ٣١٨).

(٣) ينظر روح البيان (٦/ ٢٩).

(٤) تقدمت ترجمته.

(٥) تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٥).

(٦) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٥).

(٩٤٢) تشير الآية إلى أن توفية أعمال الحج والطواف بالبيت من أعظم ما يظهر فيه تعظيم حرمات الله، فقد جاء قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾، مفتتحًا باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَۖ﴾، وهو إشارة إلى أفعال الحج المذكورة في الآيات قبلها.

(٩٤٣) في الآية إشارة إلى أن امتثال أمر الله في النسك بفعل المأمور واجتناب المحظور من تعظيم حرمات الله وشعائره[(١)].

(٩٤٤) تشير الآية إلى أن أعظم ما ينبغي أن يستشعره الحاج في حجه هو تعظيمه لله وحرماته، ومنها أعمال الحج[(٢)].

(٩٤٥) تدل الآية على أنّ مراعاةَ أحكام الحج ومواقيته والمحافظة على حرمة ما حرمه الله في حال الإحرام بعدم انتهاكها خير للمحرم عند الله من هتكها وجبرها بدم[(٣)]. وهذا بناءً على أن المراد ب ﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، محظورات الإحرام[(٤)] أو كونها من مشمولاتها على الراجح.

(٩٤٦) تدل الآية على وجوب معرفة محظورات الإحرام، لأن اجتنابها يتوقف على معرفتها وتمييزها من المكروهات والمباحات، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

(٩٤٧) تدل الآية على أنه لا ينبغي للحاج أن يحوم حول محظورات الإحرام، لأنها من حرمات الله، ومن تعظيمها ألا يقربها ولا يحوم حولها[(٥)]. ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم[(١)].

---

(١) ينظر التفسير والبيان (٤/ ٢٣٦٣).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٢).

(٣) ينظر الفواتح الإلهية (١/ ٥٥٣).

(٤) وهو قول ابن عباس كما نقل عنه أبو حيان في البحر المحيط (٧/ ٥٠٤)، واختيار الطبري (١٦/ ٥٣٣)، والجصاص في أحكام القرآن (٥/ ٧٦).

(٥) ينظر روح المعاني (٩/ ١٤١).

(٩٤٨) تومئ الآية إلى التسوية في جزاء الصيد بين العامد والناسي والمخطئ كما ذهب الجمهور؛ تغليظا على من صدر ذلك منه ولو على سبيل الخطأ أو النسيان[٢]، لأنه انتهاك للحرمة. وقد سأل ابن جريج عطاءً فقال: (من قتله منكم متعمدا، فمن قتله خطأً كيف يغرم؟ وإنما جعل الغُرم على من قتله متعمدا؟ قال: تُعظّم بذلك حرماتُ الله، ومضت به السنّة)[٣]. والنسيان والخطأ إنما هو عذر في رفع المأثم، لا رفع المغرم.

(٩٤٩) تدل الآية على أن تعظيم مواضع العبادة من مظاهر تعظيم العبادة نفسها؛ بناءً على أن المراد بالحرمات مشاعر الحج، وإنما عُدَّت من حرمات الله لأن مناسك الحج تؤدى فيها. ولذلك ذهب ابن زيد وغيره إلى أن تعظيم هذه المواضع يدخل في تعظيم أفعال الحج المشار إليها في هذه الآية[٤]، وذلك حيث قال: (الحرمات: المشعرُ الحرام، والبيتُ الحرام، والمسجدُ الحرام، والبلدُ الحرام، هؤلاء الحرمات)[٥].

(٩٥٠) تدل الآية على وجوب تعظيم المسجد الحرام، لأنه من تعظيم حرمات الله تعالى، ومن تعظيم البيت الحرام التأدبُ معه بما يلزم من أدب[٦].

(٩٥١) تدل الآية على وجوب تعظيم مكة؛ لأن الله تعالى حرّمها وجعلها مكان بناء بيته المحرم، وهي من حرمات الله المشمولة بالآية.

---

(١) للحديث ألفاظ متقاربة، منها، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهة، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان، والمعاصي حمى الله، من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه)). صحيح البخاري: (كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ح ٥٢، ٢/ ٧٢٣).

(٢) روى ابن أبي شيبة في مصنفه (كتاب الحج، باب من قال عمد الصيد وخطؤه سواء، رقم ١٥٢٨٩، ٣/ ٣٩٦) عن سعيد بن جبير قال: (إنما جعل الجزاء في العمد، ولكن غلّظ عليهم في الخطأ كي يتقوا).

(٣) رواه الإمام الشافعي في "مسنده" (١٣٢)، وعزاه للسيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ١٨٧) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ.

(٤) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٥٤).

(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٤).

(٦) ينظر البحر المديد (٣/ ٥٣٠).

(٩٥٢) تدل الآية على وجوب رعاية مكة والاهتمام بشأنها على من يتولى أمرها؛ لأن ذلك من تعظيم هذا البلد، وتعظيمه من تعظيم حرمات الله تعالى.

(٩٥٣) تدل الآية على وجوب اجتناب صغائر الذنوب في مكة فضلا عن كبائرها؛ لأن مكة بلد معظم، وفعل الذنوب فيها ينافي تعظيمها، وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: (لأنْ أخطئ سبعين خطيئةً بِرُكْبةَ[١] أحبُّ إلي من أن أخطئ خطيئةً واحدةً بمكّة)[٢].

(٩٥٤) تدل الآية على حرمة الاعتداء على إنسان أو تنفير طير أو حيوان في مكة؛ لأن ذلك منافٍ لتعظيم هذا البلد الأمين الذي يأمن فيه جميع الخلق، إلا ما استثناه الشارع لمصلحة شرعية معتبرة.

(٩٥٥) تدل الآية على حرمة انتهاك الحرَم بقطع شجره أو صيد صيده أو اختلاء خلاه؛ لأن ذلك مناف لتعظيم البلد الحرام. وفي ذلك قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: ((إن الله حرّم مكة، فلَمْ تحلِّ لأحدٍ قبلي، ولا تحلُّ لأحدٍ بعدي، وإنما أُحِلَّت لي ساعةً من نهار، لا يُختلى خَلاها، ولا يُعضَدُ شجرَها، ولا يُنفَّر صيدُها، ولا تحلُّ لُقَطَتُها إلا لمعرِّف...))[٣].

(٩٥٦) تدل الآية بضميمة آية سابقة أن الاحتراز من العزم على فعل سيئة داخلَ الحرم من تعظيم البلد الحرام، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ

---

(١) رُكْبة: موضع بناحية الطائف ما بين مكة والعراق، وقال ابن الأثير في النهاية (٢/ ٢٥٧): (موضع بالحجاز بين غمرة وذات عرق). وقال د. العثيمين في تحقيقه لكتاب "التعليق على الموطأ في تفسير لغاته وغوامض إعرابه ومعانيه" (٢/ ٣٠٩): ("رُكْبة" لا تزال على تسميتها، وهي مشهورة جدا، بَرِّية واسعة قريبة من عكاظ، قرب الطائف، يطؤها الطريق القديم بين الرياض ومكة – شرفها الله – فهي في غربي نجد مما يلي الطائف، لا بين الطائف ومكة). ينظر المنتقى شرح الموطأ (٧/ ٢٠٠)، ومعجم ما استعجم (٢/ ٦٦٩ – ٦٧٠)، ومعجم البلدان (٣/ ٦٣).

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه: (٥/ ٢٨، رقم ٨٨٧١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الحج، باب لا ينفر صيد الحرم، ح ١٧٣٦، ٢/ ٦٥١)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، ح ١٣٥٣، ٥/١٤٤، ١٤٥)

ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ [سورة الحج: ٢٥]، ويشهد له قول ابن مسعود رضي الله عنه: (لو أنَّ رجلاً هَمَّ فيه بإلحادٍ وهو بِعَدَن أَبْيَنَ لأذاقه الله عز وجل عذاباً أليماً)[١].

(٩٥٧) تدل الآية على وجوب البعد عما ينافي تعظيم هذا البلد ويمس قدسيته، ولذلك كان بعض جِلة الصحابة يحترزون من أدنى ما يُخشى أن يكون منافيا للتعظيم[٢]، ومن ذلك أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان إذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في فسطاطه الذي يوجد خارج الحرم، فقيل له، فقال: (كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: كلا والله، وبلى والله)[٣].

(٩٥٨) تدل الآية على وجوب منْع كل من يريد فعل شيء ينافي حرمة البلد الحرام؛ لأن حفظ حرمة البلد الحرام يتوقف على ذلك، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

(٩٥٩) تدل الآية على تضعيف الغُرم والعقوبة على من ارتكب إثما أو مخالفة في البلد الحرام؛ لأن الزجر على قدر المخالفة، والمخالفةُ في البلد انتهاكٌ لحرمات الله تعالى التي أمرنا بتعظيمها.

(٩٦٠) تشير الآية إلى أنه إذا تعارض أمران، أحدهما فيه تعظيم للبلد الحرام، فهو يقدم على غيره. ويؤيد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما بركت ناقته في الحديبية وقد بلغه عزم المشركين على صدِّه عن البيت: ((والله لا يسألونني خُطّةً يعظمون فيها حرماتِ الله إلا

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٠٥).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٥١٠).

أجبتُهم إليها))[1]، وصالح المشركين صلحَ الحديبية مع ما فيه من شروط مجحِفة، تعظيما للبلد الحرام وتفاديا للقتال فيه.

(٩٦١) تشير الآية إلى وجوب تطهير المسجد الحرام من الأرجاس الحسية والمعنوية، وأن ذلك من تعظيم حرمات الله سبحانه؛ لأن المسجد الحرام منها، ويؤكد هذا المعنى ما تقدم في سوابق الآية، حيث أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بذلك فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

(٩٦٢) تشير الآية إلى أن رمي الأزبال أو ترك النفايات والمخلفات في المسجد الحرام ذنب من الذنوب؛ لأنه يؤذي المصلين والعاكفين والطائفين، والمسجد الحرام من حرمات الله، وتعظيمه مطلوب، ورمي النفايات ينافي تعظيمه، وهو محرم لأن الأمر بالشيء نهيٌ عن ضده.

(٩٦٣) في الآية رد على من يقول من المستشرقين وغيرهم أن أعمال الحج ضرب من ضروب الوثنية، فإن الكعبة وغيرها من المشاعر المقدسة من حرمات الله، وإنما نعظمها بتعظيم الله لها، وامتثالا لأمر الله بتعظيمها[2].

(٩٦٤) تدل الآية على وجوب احترام الأشهر الحرم وتعظيمها، لأنها من حرمات الله تعالى، كما أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ [سورة البقرة: ١٩٤]. وأراد جل شأنه أن الشهر الحرام من هذه الحرمات التي يقتص من منتهكيها[3].

(٩٦٥) تدل الآية على تأكد التحرز من المعصية في الأشهر الحرم، لأنها من حرمات الله التي يجب تعظيمها، ومن تعظيمها الكف عما نهى الله فيها، ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، ح ٢٥٨١، ٢/ ٩٧٤).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٢).

(٣) ينظر تفسير الطبري (٣/ ٣٠٩).

أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [سورة التوبة: ٣٦]. قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير المقطع الأخير: (في كلِّهن، ثم خصَّ من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حُرُمًا، وعظّم حُرُماتهن، وجعل الذنبَ فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم)[١].

(٩٦٦) تدل الآية على حرمة القتال في الأشهر الحرم، إلا إذا اضطُررنا إلى ذلك، على القول بأن تحريم القتال في الأشهر باقٍ غيرُ منسوخ كما هو مذهب المحقِّقين من أهل العلم[٢]؛ لأن الأشهُر الحرم من حرمات الله، ومن تعظيمها عدم إراقة الدماء فيها[٣]. وقد قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾ [سورة البقرة: ٢١٧].

(٩٦٧) تدل الآية على وجوب تعظيم الأشهر الحرم بالقلب واللسان والجوارح؛ لأنها من حرمات الله التي ينبغي أن تعظم، والتعظيم يشمل الجوانب الثلاثة.

(٩٦٨) تدل الآية على تأكُّد تخصيص الأشهر الحرم بمزيد التعبد والتقرب إلى الله بالصالحات فيها[٤]؛ لأن الأشهر الحرم من حرمات الله، ومن تعظيمها الإكثار من الطاعة فيها.

(٩٦٩) تفيد الآية وجوب إتمام مناسك الحج والعمرة؛ لأن مناسك الحج والعمرة هي المراد بحرمات الله على ما اختاره بعض المفسرين بدلالة السياق[٥]، أو هي من مشمولاتها، وتعظيمها يكون بإقامتها وإتمامها[٦]، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [سورة البقرة: ١٩٦].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١١/ ٤٤٤).

(٢) ينظر تفسير المنار (٢/ ٢٥١).

(٣) ينظر حاشية الشهاب (٦/ ٢٩٣).

(٤) ينظر حاشية الشهاب (٦/ ٢٩٣).

(٥) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٧٨)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٤)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٢).

(٦) ينظر تفسير الخازن (٣/ ٢٥٦).

(٩٧٠) تفيد الآية أنه ينبغي للحاجّ أن يحذر من التفريط في بعض مناسك الحج أو العمرة؛ لأن القيام بها تعظيم لحرمات الله[١]. والأمر بالشيء نهي عن ضده.

(٩٧١) تؤذن الآية بأنه ينبغي للحاج أن يبذل غاية جهده في أداء مناسك الحج[٢]؛ لأن ذلك من تعظيم حرمات الله، وقد عبر بفعل عظّم المضعّف، وهو يدل على المبالغة في الإعظام.

(٩٧٢) تدل الآية بدلالة اللزوم على وجوب التفقُّه في أحكام الحج والعمرة وتعلم مناسكهما حتى يتم تأديتها على الوجه الأكْمل؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

(٩٧٣) تدل الآية على وجوب تعليم المقبلين على الحج مناسك الحج والعمرة من خلال الدروس والدروات التدريبية، لأنه إرشاد إلى ما يتم به تعظيم حرمات الله، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

(٩٧٤) تدل الآية على فضل إرشاد الحجاج والمعتمرين ومصاحبتهم في المناسك؛ لأنه تعاون على تعظيم حرمات الله، وما لا يتم المطلوب إلا به فهو مطلوب.

(٩٧٥) تفيد الآية أنه ينبغي للحاجّ أن يجل عبادة الحج بقلبه، وأن يظهر العبودية لله فيها، ويؤدي المناسك بمحبة لها، من غير تكاسل أو تثاقل، لأن ذلك من مظاهر تعظيمه للحج[٣]؛ لأن الله تعالى بين في الآية الأخرى أن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب.

(٩٧٦) تفيد الآية أن الحاج لا بد أن ينطوي قلبه عند أداء مناسك الحج على تعظيم الله تعالى الذي شرع هذه العبادة؛ لأن تعظيم الحج يكون بتعظيم الذي شرعه ويتقرب به إليه، وهو الله تعالى.

---

(١) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٧٧).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٤١).

(٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٧).

(٩٧٧) تفيد الآية أن الحج ليس أعمالا جوفاء، ولا ينبغي أن تُؤدى مناسكه بطريقة صورية، وإنما يلزم الحاج أن يعظم حرمات الله، وأن يؤدي حجه طاعةً لله وامتثالا لأمره. وإذا خلا الحج من نية القربة لله فهذا استخفاف بهذه العبادة التي يراد بها إرضاء الله والفوز بمغفرة الذنوب.

(٩٧٨) تفيد الآية أنه ينبغي للحاج أن يعطي مناسك الحج حقها من الإعظام والإكبار، فلا ينتهك موانع الإحرام، ولا يؤدي المناسك في غير أوقاتها، ولا يرفث ولا يفسق ولا يجادل، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ [سورة البقرة: ١٩٧][(١)].

(٩٧٩) تومئ الآية إلى أن من مقاصد الحج تعويدَ المسلم على تعظيم حرمات الله تعالى؛ لأن الله تعالى ذكر تعظيم حرماته وشعائره في هذه الآية والتي تليها، ولم يرد ذكر التعظيم في غير سورة الحج.

(٩٨٠) تفيد الآية أنه يحرم الاستهزاء بمناسك الحج وأعماله؛ لأن الاستهزاء ضرب من الاستهانة بحرمات الله، وذلك يخالف تعظيمها كل المخالفة.

(٩٨١) تشير الآية إلى أنه يحرم نشر ما يتضمن استهزاءً بمناسك الحج وأحكامه من طرائف أو صور أو مقاطع مصورة أو نحوها؛ لأن الاستهزاء بها مخالف لتعظيم هذه الحرمات، ونشرها تعاون على الإثم، والله تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [سورة المائدة: ٢].

(٩٨٢) تفيد الآية أن ترك ما حرمه الله تعالى تعظيم لله تعالى؛ لأن المراد بحرمات الله عند بعض مفسري السلف جميع المعاصي[(٢)]، وتعظيم محارم الله يكون بتركها وعدم انتهاكها.

---

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٧٨).

(٢) ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٤٤) عن عطاء وعكرمة، وعزاه لعبد بن حميد.

(٩٨٣) تفيد الآية أنه يلزم للمؤمن أن يحذر من المعصية ولا ينبغي له أن يستصغرها ويحتقرها؛ لأن استصغارها يؤدي إلى الوقوع والتمادي فيها. وقد روى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إياكم ومُحقَّرات الذنوب، فإنهن يجتمعْن على الرجل حتى يُهْلِكْنَه، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلاً: كمثل قوم نزلوا أرض فلاةٍ، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، فأججوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها))[(١)].

(٩٨٤) تفيد الآية أن المعصية وإن صغرت فإن الوقوع فيها عظيم، لأنه عصيان للعلي العظيم؛ ولذلك قال بعض السلف: (لا تنظر إلى صِغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت)[(٢)].

(٩٨٥) تفيد الآية أن من المحمود في المسلم أنه يشق عليه الاقتراب من المعصية، ويستعظم وقوعه فيها، لأن ذلك أثر لتعظيمه حرماتِ الله[(٣)]، وفي الحديث: ((إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذُباب مرّ على أنفه، فقال به هكذا – أي بيده– فذبّه عنه))[(٤)].

(٩٨٦) تفيد الآية بالنظر إلى لواحقها أن توحيد الله ونفي الشركاء عنه وصدق القول أعظم الحرمات. ولذلك لما حث الله في هذه الآية على تعظيم حرُماته وبين ما له من ثواب

---

(١) رواه أحمد في مسنده: (١/ ٤٠٢، ح ٣٨١٨)، (ورجاله رجال الصحيح) كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٠/١٠)، ولذلك صححه الألباني على شرط الشيخين في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (١/ ٧٤٥ رقم ٣٨٩).

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٤٠٥، رقم ١١٨٥٤)، وابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ٢٣، رقم ٧١)، وأبو نعيم في حلية الأولياء عن بلال بن سعد (٥/ ٢٢٣).

(٣) ينظر التفسير المظهري (٦/ ٣١٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الدعوات، باب التوبة، ح ٥٩٤٩، ٥/ ٢٣٢٤)، والترمذي في سننه: (كتاب صفة القيامة، باب المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه، ح ٢٤٩٧، ٤/ ٦٥٨).

عظيم أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور، فقال: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [سورة الحج: ٣٠] [(١)]. كأنه لما حث على تعظيم الحرمات أتبع ذلك ردًّا لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب ونحوهما والافتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك[(٢)].

(٩٨٧) تدل الآية على أنه يجب علينا أن نراعي الفرائض التي فرضها الله علينا، لأن الله أمرنا بتعظيم حرماته؛ والمراد بالحرمات كل ما فرضه الله علينا كما روي عن ابن عباس، لأنه يحرم تركها، وتعظيمها إنما يكون بمراعاتها[(٣)].

(٩٨٨) تدل الآية أن المؤمن عليه "أن يفعل الطاعة ويأمر بها، وينتهيَ عن المعصية وينهى عنها"[(٤)]؛ لأن أوامر الله ونواهيه من الحرمات، وثمرة تعظيمها الأمر بفعل الطاعات والنهي عن الوقوع في المحرمات، أما مجرد الفعل والترك فهو قاصر عن هذه المنزلة.

(٩٨٩) تشير الآية أن فعل الطاعات وترك المعاصي ينبغي أن يكون الحامل عليه هو تعظيم الله وحرماته؛ لأن الله تعالى عدل عن ذكر الطاعة إلى التعظيم للإشارة إلى هذا المعنى[(٥)].

(٩٩٠) تدل الآية على أنه ينبغي للمسلم أن يجل العبادات بقلبه، ويكمل العبودية لله فيها، ويؤديها بمحبة لها، من غير تهاون أو تكاسل أو تثاقل؛ لأن العبادات من حرمات الله، وذلك من مظاهر تعظيمها[(٦)].

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٤)، وفتوح الغيب (١٠/ ٤٧٧).

(٢) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٥).

(٣) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٤).

(٤) ينظر النكت والعيون (٤/ ٢١).

(٥) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٤٢).

(٦) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٧).

(٩٩١) تدل الآية بدلالة اللزوم على أنه يجب على المسلم التفقه في الدين ليتعلم الفرائض ويميزها عن المستحبات؛ لأن تعظيم الفرائض يتوقف على ذلك. أما النوافل فقد قال المتكلمون: إنها لا تدخل في حرمات الله تعالى[١].

(٩٩٢) تدل الآية على الترغيب في تعظيم أحكام الشريعة[٢]، تعظيما لله تعالى الذي شرعها.

(٩٩٣) تفيد الآية وجوب حفظ فرائض الله مما يقدح في صحتها أو ينقص كمالها؛ لأن ذلك من تعظيم حرمات الله تعالى.

(٩٩٤) تفيد الآية أنه يحرم التفريط في أداء الفرائض، لأن القيام بها تعظيم لحرمات الله تعالى الذي أمر بها، والأمر بالشيء نهي عن ضده.

(٩٩٥) تفيد الآية أنه يحرم جميع صور الاستخفاف بالعبادات والاستهزاء من كيفياتها[٣]؛ لأن ذلك ينافي التعظيم الذي يجب أن يكنه المسلم لها.

(٩٩٦) تشير الآية إلى أنه يحرم إشاعة ما يتضمن الاستهزاء ببعض العبادات من صور هزلية أو مقاطع مصورة أو طرائف مضحكة؛ لأن العبادات ينبغي أن تقدر قدرها، وتعظيمها تعظيم لله الذي شرعها.

(٩٩٧) في الآية إشارة إلى أنه مهما قدر الإنسان وجود شيء من حرمات الله تعالى وعظمها، ففي الممكن أن يقع في الوجود ما هو أعظم منها، فينبغي له أن يطلب أعظم الأشياء وأرقاها وأفضلها، ويحرص على الاتصاف بأكمل الأوصاف في ذلك. ويؤخذ من دخول "مَن"

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٢).

(٢) ينظر تفسير المدينة المنورة (٢/ ١٠١).

(٣) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٢٧).

الشرطية على فعل عظم: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾، والشرط يدخل على المقدر والمحصول، والمقدرات الوجود أكثر من الموجودات[1].

(٩٩٨) تومئ الآية أن الطواف بالبيت الحرام مما يتجلّى فيه تعظيم الله وحرماته سبحانه[2]؛ لأن الله تعالى بعد أن أمر بالطواف: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾، ذكر ثوب تعظيم حرمات الله، مفتتحا باسم الإشارة: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ﴾.

(٩٩٩) تدل الآية على أنه (من يجتنب ما أمره الله باجتنابه في حال إحرامه تعظيما منه لحدود الله أن يواقعها وحرمه أن يستحلها، فهو خير له عند ربه في الآخرة)[3].

(١٠٠٠)تفيد الآية أن تعظيم حرمات الله خير له من التهاون بشيء من ذلك[4].

(١٠٠١)تدل الآية على أن تعظيم محارم الله من الأمور المحبوبة لله المقربة إليه[5].

(١٠٠٢)تفيد الآية أن تعظيم حرمات الله قربة منه إلى الله وزيادة له في طاعته يثيبه عليها[6]، وضمير ﴿فَهُوَ﴾ عائد على المصدر المفهوم من قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾، وهو: التعظيم[7].

---

(١) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٨٨).

(٢) تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ١٤).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٣). ونحوه في الهداية (٧/ ٤٨٨٢).

(٤) نقله الرازي في تفسيره عن الأصمّ (٢٣/ ٢٢٢)، وبه فسر القرطبي الآية وقدمه على غيره (١٢/ ٥٤)، وتابعه الشوكاني في فتح القدير (٣/ ٥٣٤)، واقتصر عليه النيسابوري في غرائب القرآن (٥/ ٧٩).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٢).

(٦) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٧٩)، حيث نسب نحوًا من هذا التفسير إلى ابن عباس، والبحر المحيط (٧/ ٥٠٤).

(٧) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٧٩)، والبحر المحيط (٧/ ٥٠٤).

(١٠٠٣) تفيد الآية أن اجتناب الحاج لما حرم الله عليه في وقت الإحرام – تعظيما لله تعالى واستعظاما لمواقعة ما نهى الله عنه في إحرامه صيانةً لحجه – خيرٌ له عند ربه من ترك استعظامه والتهاون به[(١)].

(١٠٠٤) تفيد الآية أنه مَنْ يُعَظِّمْ أمر المناسك كلها فَهُوَ أعظم لأجره؛ لأن قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ يدل على الثواب المدَّخَر، لأنه لا يقال ذلك فيما قد حصل من الخيرات[(٢)].

(١٠٠٥) تفيد الآية أن من خرج للحج، وأنفق المال، وأتعب النفس من أجل هذه العبادة تعظيما لله وحرماته، فما له عند ربه من الثواب خير له من توفير ماله وإراحة نفسه[(٣)].

(١٠٠٦) تفيد الآية أن من قام بمناسك الحج، وأدى موجباتها واجتنب محظوراتها، وقام بحق ضيافة الله تعالى حق قيامه، وتعاون مع المسلمين وتعرف بهم، فإن ذلك خير له ولكل المؤمنين[(٤)].

(١٠٠٧) تفيد الآية أن هذا التعظيم نفسَه هو خير من خيرات الله التي أنعم بها عليه، ينتفع به، وهذا بناءً على أن ﴿خَيْرٌ﴾ ليست للتفضيل، وإنما هي وعد بخير[(٥)].

(١٠٠٨) تفيد الآية على – طريقة أهل السلوك – أن تعظيم الحرمة خير للعبد في التقرب الى الله من تقربه بالطاعة نفسها[(٦)].

---

(١) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٦). وهذا على القول أن {خير} للتفضيل والمفاضلة على سبيل التنزل وإرخاء العنان، أي على فرض أن ترك التعظيم فيه شيء من الخير، فالتعظيم أفضل منه.

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٢).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤١٣).

(٤) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٧٨).

(٥) ينظر ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٢٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٤). وهذا ما استظهره أبو حيان في البحر المحيط (٧/ ٥٠٤). وتبعه القاسمي محاسن التأويل (٧/ ٢٤٣) وقال: (والثاني هو الأظهر، لأنه أسلوب التنزيل في مواضع لا يظهر التفاضل فيها. وإيثاره، مع ذلك، لرِقة لفظه، وجمعه بين الحسن والروعة).

(٦) ينظر روح البيان (٦/ ٣٠).

(١٠٠٩)تفيد الآية أن ترك المحرمات تعظيما لله تعالى يترتب عليه خير كثير وثواب جزيل، كما يترتب على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير[١].

(١٠١٠)تدل الآية على أن من لا يعظم حرمات الله فهو بعيد عن الخير، ويؤخذ ذلك من مفهوم المخالفة للآية[٢].

(١٠١١)تفيد الآية أن ثمرات تعظيم الحرمات بفعل الفرائض وترك المحرمات أفضل بكثير عند الله من المتاع الدنيوي الزائل الذي قد يناله الإنسان إذا ترك تعظيمها، فلا ينبغي أن نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير[٣]. وهذا بناء على أن لفظ ﴿خَيْرٌ﴾ أفعل التفضيل، وأن الخطاب في الأصل كان للعرب الذين كانوا في زمن النبوة، وكانوا يحجون البيت الحرام ويرتكبون المحرمات.

(١٠١٢)تفيد الآية أن ترك المعاصي إنما يترتب عليه الثواب إذا كان الترك انتهاءً عما نهى الله عنه؛ أما إن تركها بغير قصد الامتثال فلا يثاب عليها؛ ويُستشفّ هذا من أن الله تعالى رتب الخير عند الله على العمل القلبي الذي ينطوي عليه ترك المعاصي وهو تعظيم حرمات الله، فكأنه قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فيجتنب معاصيه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[٤].

(١٠١٣)تفيد الآية أن تعظيم تكاليف الله وشرائعه بعلمه بقداستها، وعمله بمقتضى هذا العلم، خير له عند ربه، حيث يثيبه عليه ثوابا عظيما في أخراه، ولا يحرمه من فضله في دنياه[٥].

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٩).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٢).

(٣) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٠٥).

(٤) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٢٠).

(٥) ينظر تيسير الكريم والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢١٣).

(١٠١٤)تومئ الآية إلى أن أعمال القلوب لها أثر بين في زيادة الثواب ومضاعفة الأجر عند الله[١]؛ لأن التعظيم من أهم أعمال القلوب، وقد أخبرنا الله تعالى أن من يعظم حرماته له ثواب عظيم.

(١٠١٥) تشير الآية إلى أن تعظيم حرمات الله خير للمسلم في دنياه كما هو خير له في أخراه؛ لأن تعظيم حرمات الله يتبعه التحرج من المساس بها، وذلك خير في عالم المشاعر، وخير في عالم الحياة؛ فالضمير الذي يتحرج هو الضمير الذي يتطهر، والحياة التي ترعى فيها حرمات الله هي الحياة التي يأمن فيها البشر من البغي والاعتداء، ويجدون فيها واحة سلام، ومنطقة أمان واطمئنان[٢]، ولأن تعظيم حرمات الله وشرائعه يعود نفعه إلى الفرد نفسه، إذ يحتسبه الله له، فيجازيه خيرا منه، سواء في الدنيا بزيادة البركات، أو في الآخرة بدخول الجنات[٣].

(١٠١٦)في الآية إرشادٌ للحجّاج من طرف خفيٍّ إلى الصبر على ما يجدونه في تعظيم حرمات الله من مَشاقّ[٤]؛ لأنهم سيجدون ثواب ذلك موفورا عند ربهم الذي تقربوا إليه وصبروا من أجل نيل مرضاته.

(١٠١٧)تدل الآية بدلالة المفهوم على أن من ينتهك حرمة البلد الحرام فهو شر له عند ربه[٥]. وقد روي عن عياش بن أبي ربيعة المخزومي، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لن تزال هذه الأمة بخير ما عظموا هذه الحرمة حق تعظيمها يعني مكة، فإذا ضيعوا ذلك

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٩).
(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٢١).
(٣) ينظر فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب (٦/ ٧٣).
(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٢).
(٥) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٤٢).

هلَكوا))[1]. ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ [سورة الحج: ٢٥].

(١٠١٨)تفيد الآية أن الغضب لانتهاك محارم الله محمود؛ لأن المؤمن المعظم للحرمات يسوءه انتهاكُها ويغضب من أجل ذلك. وقد وصفت عائشة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: ((... وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها))[2].

(١٠١٩)تدل الآية بضميمة آية أخرى على أن من يَدَّعِي أنَّهُ مسلم وهو يَنْتَهِكُ حرمات الله – ويصر على ذلك ويقول بأن الله سيغفر الله له – فهو من المغترّين، وقد لا يغفر الله له، ويشبه اليهود في صنيعهم، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٩][3].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٧/٤، رقم ١٩٠٧٢)، وابن ماجه في سننه: (كتاب الحج، باب فضل مكة، ح ٣١١٠، ١٠٣٨/٢) وقد حسن سندَه الحافظ ابن حجر في الفتح (٣/ ٤٤٩)، وضعف إسناده الأرنؤوط في تحقيقه لسنن ابن ماجه (٤/ ٢٩١) لضعف يزيد بن أبي زياد الكوفي، وهو وإن أخرج له مسلم فإنما أخرج له مقرونا بغيره مع ضعفه، فقد اختلط بأخَرة كما قال البوصيري في "مصباح الزجاجة" (٣/ ٢١٣)، وعبد الرحمن بن سابط لم يدرك عياش بن أبي ربيعة. وأخرجه أيضا ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٦٨/٣، رقم ١٤٠٩٠)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٠/٢، رقم ٦٨٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، ح ٣٣٦٧، ١٣٠٦/٣)، واللفظ له. وأخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الفضائل، باب مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثام، ح ٢٣٢٧، ٤/ ١٨١٣).

(٣) ينظر العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٤/ ٣٠١).

(١٠٢٠)تشير الآية إلى أن المعظم لحرمات الله يلزم أن يطمئن إلى أن الخير الذي وعده الله به ثابت باق لا يزول، وذلك لأن الله قال: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [سورة النحل: ٩٦] (١).

(١٠٢١)تومئ الآية إلى أن الله تعالى يربّ ثواب من عظم حرماته وينمي حسناته. ويستفاد ذلك من العدول عن التعبير ب"عند الله" إلى قوله سبحانه: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾، إشارة إلى انه سبحانه يربيها لعبده حتى تكون مثل الجبل، والله أعلم (٢).

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الحج: ٣٠]:

(١٠٢٢)تفيد الآية أن الله تعالى أحلّ للناس أكلَ الأنعام إذا ذكّوْها، إلا ما ذكر تحريمه في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [سورة المائدة: ٣] (٣). وهذا بناءً على أن الاستثناء منقطع؛ لأن ما حرم في آية المائدة فيه ما ليس من جنس الأنعام كالخنزير (٤).

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٢).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٢).

(٣) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٢٣)، وتفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٧٠)، ومعاني القرآن للفراء (٢/ ٢٢٤)، وغريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٩٢)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٣٤).

(٤) ينظر روح المعاني (٩/ ١٤١).

(١٠٢٣)تفيد الآية أن الله تعالى أحل أكل الأنعام باستثناء ما حرم منها لعارض كالميتة وما أهل به لغير الله تعالى، وهذا بناء على أن الاستثناء في الآية استثناءٌ متصل كما اختاره الأكثرون[(١)].

(١٠٢٤)تدل الآية على أن المسلمين يلزم أن يستشعر منّة الله عليهم؛ إذ أباح لهم الانتفاع بجميع الأنعام من الإبل والبقر والغنم، وشرع لهم التقرب بذبحها إليه، وجعلها من المناسك التي يؤجرون عليها.

(١٠٢٥) تفيد الآية أن الإحرام لا يؤثر في إباحة الأنعام، فيجوز للمحرم ذبح الإبل والبقر والغنم، ويؤخذ ذلك من أنه قد يتوهم من الآية أن الإحرام يحرم الأنعام كما يحرم الصيد، فبيّن الله تعالى أن الإحرام لا يؤثر فيها، فهي محللة، واستثنى منه ما يتلى في كتاب الله من المحرمات من النَّعم[(٢)].

(١٠٢٦) في الآية إشارة إلى أن الله تعالى لم يحرم على العرب بَحِيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حاميا، ولا ما جعلوه منها لآلهتهم[(٣)]. قال الزمخشري: (والمعنى: أن الله قد أحل لكم الأنعام كلها إلا ما استثناه في كتابه، فحافظوا على حدوده، وإياكم أن تحرموا مما أحل شيئا، كتحريم عبَدة الأوثان البحيرةَ والسائبة وغير ذلك، وأن تحلوا مما حرم الله، كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغير ذلك)[(٤)].

(١٠٢٧) تدل الآية على أن الله أحل لنا بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم في حال الإحرام إلا ما ذكر في آية أخرى من تحريم الصيد على المحرم[(٥)]، كما قال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ

---

(١) ينظر اللباب (١٤/ ٨٠)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٥)، وروح المعاني (٩/ ١٤١).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٢)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٥)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٠٦).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٤)، والهداية (٧/ ٤٨٨٢)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢٠).

(٤) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٤).

(٥) وهو القول الثاني في الآية، ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٧)، والكشف والبيان (٧/ ٢١)، والهداية (٧/ ٤٨٨٣)، والنكت والعيون (٤/ ٢١).

بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [سورة المائدة: ١]، وهو قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ [سورة المائدة: ٩٦]؛ لأن الآية واردة في سياق ذكر أحكام الحج.

(١٠٢٨)يدل قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على أن الأصل في البهائم هو الحل[(١)]، أما المحرم منها فهو استثناء فحسب.

(١٠٢٩)تفيد الآية أن ما حرم من الأنعام محصور، وهو أقل مما أحل الله منها؛ لأن المعهود أن يستثنى القليل من الكثير[(٢)]، والله تعالى يقول: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾. [وجعل المستثنى قليلا متلُوًّا، وأضمر الحلال لكثرته، وسمى الحرام لقلته][(٣)].

(١٠٣٠) في الآية إشارة إلى سعة رحمة الله وسماحة دينه إذ أباح لنا الأنعام على اختلاف أنواعها، وكان ما أحلّه لنا أكثر مما حرمه علينا[(٤)].

(١٠٣١)يؤخذ من الآية أنه إن شككنا في شاة، هل هي محللة أو محرمة؟ فإنا نبني على أنها محللة، خلافًا لمذهب الإمام مالك رحمه الله، لأنه يستثني القليل من الكثير، فلا بد أن تكون صورة المستثنى المحللة أقل من المحرمة، فيكون المشكوك فيه داخلا في قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾؛ لأنه غير داخل في المتلو علينا، وهو ما تضمنه قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ الآية [سورة المائدة: ٣] [(٥)]، إلا أن يقال إنه يدخل في الميتة؛ لأنه يدّعي أنه ميتة.

---

(١) التفسير والبيان (٤/ ٢٣٦٣).

(٢) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٨٨).

(٣) التفسير والبيان (٤/ ٢٣٦٣).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٣).

(٥) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٨٨).

(١٠٣٢) تومئ الآية أنه لا تكون هنالك حرمات إلا لله، ولا يجوز لأحد أن يشرع شيئا إلا بإذن الله، ولا يحكم إلا بشريعة الله[١]. ويؤخذ هذا من أن المشركين لما كان يحرمون بعض الأنعام – كالبحيرة والسائبة والوصيلة – فيجعلون لها حرمة مع أنها ليست من حرمات الله، فبين الله تعالى أنه أحل لهم الأنعام إلا ما حرم منها لعارض، إشارة إلى أن الحرمات هي ما جعل الله له حرمة.

(١٠٣٣) في الآية إشارة إلى أن من شأن القرآن أن تتجدد تلاوةُ آياته كلها على الناس، بما فيها آيات الأحكام، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى قال: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وعبّر بالمضارع دلالة على استمرارية التلاوة وتجددها[٢].

(١٠٣٤) تومئ الآية أن المقصد من سماع ما يتلى من الآيات هو فهمه والعمل به[٣]، فنحل ما أحله الله، ونحرم ما حرمه الله؛ لأن المراد بالآية أن ينتفع المسلمون بما أحل الله لهم من الأنعام، ويجتنبوا ما حرمه الله منها ومن غيرها.

(١٠٣٥)تؤذن الآية أن تحريم الأنعام بغير تحريم الله تعالى كفر بنعمته، واستباحتها بغير إباحة الله تعالى انتهاك لحرمته[٤]؛ فالإباحة والتحريم لله لا لغيره، فالأنعام من النعم التي أنعم الله بها علينا يبيح لنا منها ما شاء، ويحرم علينا منها ما شاء.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الحج: ٣٠]:

---

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٢١).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٤٢)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢١٣).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٣).

(٤) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٧٨).

(١٠٣٦)تدل الآية بظاهرها على وجوب اجتناب عبادة الأوثان، وطاعة الشيطان في عبادتها، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: (يقول تعالى ذكره: فاجتنبوا طاعة الشيطان في عبادة الأوثان)[١].

(١٠٣٧)تدل الآية على أن عبادة الأوثان رجس معنوي؛ لأن معنى الكلام: فاجتنبوا الرجس الذي يكون من الأوثان، أي: عبادتها، فالذي أمر جل ثناؤه بقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ﴾ منها اتقاء عبادتها، وتلك العبادة هي الرجس، على ما قاله ابن عباس[٢]. وسميت عبادتها رجسًا؛ لأنها تؤدي إلى الرجس الذي هو اللعنة والعذاب. وعلى قول الكلبي هي رجس؛ لأنها مأثم[٣].

(١٠٣٨)تدل الآية على أن الأوثان نجسةٌ نجاسةً معنوية، لأن ﴿مِنَ﴾ في الآية بيانية، لأن الرجس قد يكون غير الأوثان. والمعنى: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان[٤].

(١٠٣٩)تدل الآية على أن الذي يُجتنَب هو عبادة الأوثان وتعظيمها، أمّا أَنْ يؤخذ الوثن إذا كان ذهبًا أو فضة فيعمل به ما يجوز أن يعمل فلا يجتنب[٥]، لأن الأوثان ليست نجسة حسًّا، وإنما هي نجسة حُكمًا[٦]. فنجاستها وصف شرعي لا يزول إلا بالإيمان، ومعنى الآية على قول: اجتنبوا من الأوثان الرجسَ، ورجسُ الأوثان عبادتُها[٧].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٥).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٧).

(٣) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٨٢).

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٥)، ومعاني القرآن للنحاس (٤/ ٤٠٥)، والكشف والبيان (٧/ ٢١)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٣).

(٥) ينظر تفسير الكتاب العزيز وإعرابه لابن أبي الربيع (ص: ٣٥٢).

(٦) ينظر أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٨٦).

(٧) ينظر النكت والعيون (٤/ ٢٢).

(١٠٤٠)تدل الآية على وجوب الابتعاد عن الأوثان والحذر من مجرد الاقتراب منها على أيّ وجه من هذه الوجوه؛ لأن الاجتناب لا تدل على الامتناع فقط، إنما تدل على الابتعاد منها وعدم الاقتراب منها[١]. فمعنى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ﴾: أي: كونوا على جانب منها[٢].

(١٠٤١)تدل الآية على وجوب اجتناب عبادة كل معبود من دون الله كائنًا من كان، لأنه داخل في حكم الأوثان[٣]، وقد جاء هذا الأمر مبينا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [سورة النحل: ٣٦]، وأثنى الله على من اجتنب عبادة الطاغوت فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧﴾ [سورة الزمر: ١٧].

(١٠٤٢)تفيد الآية أن عبادة الأوثان سبب للعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة[٤]، لأن الرجس فسر بأنه: (اللعنة في الدنيا، والعذاب في الآخرة)[٥]. ومعنى قوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ﴾، أي: اجتنبوا سبب العذاب[٦].

(١٠٤٣)تفيد الآية أن أمر التوحيد يحتاج إلى مراقبة وملاحظة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ﴾، والاجتناب ترك مع حذر وملاحظة واحتراز وتمحيص[٧].

---

(١) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٧٩٩ - ٩٨٠٠).

(٢) التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٦٩)، وينظر زاد المسير (٣/ ٢٣٥).

(٣) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢٥٦)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٠٦).

(٤) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٨٢)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٤).

(٥) معاني القرآن للزجاج (٢/ ٢٩٠).

(٦) تفسير السمعاني (٣/ ٤٣٦).

(٧) ينظر الحج في القرآن الكريم (ص٦٩).

(١٠٤٤)تفيد الآية وجوب اجتناب كل نجس حسي أو معنوي. وهذا يؤخذ من أن توجيه ﴿مِنۡ﴾ على أنها لابتداء الغاية، كأنه تعالى قد نهاهم عن جميع أنواع الرجس بشكل عام، ثم عيّن لهم مبدأه الذي منه يلحقهم؛ إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس[(١)].

(١٠٤٥)تفيد الآية وجوب اجتناب الذبح للأصنام تعظيما لها كما كان يفعله المشركون، وسماها رجسا لقذارتها ونجاستها، لأن المشركين كانوا ينحرون عليها هداياهم ويصبّون عليها الدماء، وكانوا مع هذه النجاسات يعظمونها، فنهى الله المسلمين عن تعظيمها وعبادتها[(٢)]. قال ابن عطية: (ويظهر أن الإشارة إلى الذبائح التي كانت للأوثان فيكون هذا مما يتلى عليهم)[(٣)].

(١٠٤٦)تفيد الآية وجوب استقذار الأوثان والاستخفاف بها وعدم تعظيمها؛ لأن الله سماها رجسًا دلالة على خستها وقذارتها[(٤)]. والرجس: العملُ القبيح في الغاية[(٥)].

(١٠٤٧)في الآية تنبيهٌ على أن علينا أن ننفُر عن الأوثان ونجتنبها مثل ما ننفر بطباعنا السليمة عن الرجس ونجتنبه[(٦)]؛ ويؤخذ هذا من أن الله سمى الأوثان رجسًا على طريق التشبيه، كما سمى الخمر والميسر والأزلام رجسًا وأمر باجتنابها، فقال: ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [سورة المائدة: ٩٠]، فجعل العلة في اجتنابه أنه رجس[(٧)]. بل إن وجوب تجنب الأوثان أوكد من وجوب تجنب الرجس، لأن عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات[(٨)].

---

(١) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٢٠)، وأحكام القرآن لابن الفرس (٣/ ٣٠٦)، ونظم الدرر (١٣/ ٤٢).

(٢) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٧).

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ١٢٠).

(٤) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٧).

(٥) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٧٩).

(٦) أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٧)، والكشاف (٣/ ١٥٤).

(٧) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٤)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٠).

(٨) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٣).

(١٠٤٨)تومئ الآية إلى أن الشرك بالله دنسٌ يصيب الضمير ويلوث القلوب، ويشوب نقاءها وطهارتها كما تشوب النجاسة الثوب والمكان[١]، فتقديس الأحجار وعبادتها انحطاطٌ للفكر، وضلال في العقل، وافتئات على الله جلّ جلاله[٢].

(١٠٤٩)تفيد الآية أن القلب لا يطهر إلا بالتوحيد الخالص من شوائب الشرك، كما أن الثوب لا يطهر إذا تنجس إلا بالماء الصافي[٣]؛ ويؤخذ ذلك من أن الله جعل الشرك في هذه الآية رجسًا يدنس القلوب.

(١٠٥٠)في هذه الآية بيان أن المقصد الأعظم من الحج هو إقامة توحيد الله ونبذ الشرك؛ حيث ذكر الله اجتناب الأوثان، وأمر بالحنيفية ملة إبراهيم، وربطها بأحكام المناسك ليُشعِر أنها المرادة؛ وقد كان الجاهليون لا يقيمون شعيرة من المناسك إلا خلطوها بشرك وكفر[٤].

(١٠٥١)تشير الآية إلى أن البيت الحرام وسائر المشاعر المقدسة ينبغي أن تخلو من كل ما يمكن أن يتقرب إليه من دون الله، ولعل هذا هو السرّ في التعبير ب ﴿ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ بدل "الأصنام"[٥].

(١٠٥٢)تفيد أن أهل البيت الحرام وزائريه أولى الناس بتوحيد الله تعالى، لكونهم يشهدون مشاهد التوحيد في كل نواحيه، فيدركون معناه، ويعلمون أن ما سواه رجس من عمل الشيطان[٦].

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٢١)، وينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٣).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٧٩).

(٣) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٧٩).

(٤) التفسير والبيان (٤/ ٢٣٦٣).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٤).

(٦) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٤).

(١٠٥٣)يؤخذ أن أجدر موضع في بلاد المسلمين بخلوه من كل مظاهر الشرك الأصغر والأكبر هي مكة وما جاورها؛ لأن الله أمر بتطهير بيته من الشرك، وأمر المسلمين عامة والحجاج خاصة باجتناب الأوثان والألفاظ الشركية.

(١٠٥٤)تدل على تحريم القرب من قول الزور كله لبلوغه الغاية في القبح والسماجة[١]، لأن الله أمر باجتناب قول الزور، والاجتناب أبلغ من الترك، لأنه يفيد الأمر بالترك مع البعد عن المتروك، بأن يكون التارك في جانب بعيد عن جانب المتروك[٢]. وإنما حرمه لما له من أسوأ الأثر في إثارة العداوات، وغرس الأحقاد، وتفريق الجماعات[٣].

(١٠٥٥)تدل على تحريم جميع صور الكذب والبهتان؛ لأن الله أمر باجتناب قول الزور، والزور لفظ عام يشمل كل وجوه الكذب[٤]. وقد أخرج آدم بن أبي إياس بسنده الصحيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾، قال: (الكذب)[٥]. وقد جمع قول الزور إلى عبادة الأوثان، ولم يعطفه عليه، وإنما أعاد الفعل ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ﴾؛ ليكون مستقلّاً في الاجتناب عنهُ، وما اكتفى بذلك، بل جعل التعريف للجنس ليكون من باب عطفِ العامِّ على الخاص[٦].

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٤).

(٢) ينظر تفسير البغوي (٥/ ٣٨٣)، واللباب (١٤/ ٨١)، وتفسير المنار (٧/ ٥٤).

(٣) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢١٤).

(٤) الكشف والبيان (٧/ ٢١)، ونظم الدرر (١٣/ ٤٣)، وروح المعاني (٩/ ١٤٢)، وقال ابن عطية في المحرر الوجيز (٤/ ١٢٠): (والزُّورُ عام في الكذب والكفر، وذلك أن كل ما عدا الحق فهو كذب وباطل وزُور). والقول بالتعميم أولى من التخصيص وإن لاءم المقام، ينظر روح المعاني (٩/ ١٤٢).

(٥) ينظر الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور (٣/ ٤١٤).

(٦) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٧٨).

(١٠٥٦)تدل الآية على وجوب اجتناب الألفاظ الشرْكية، فهي من الزور، وذلك مثل قول المشركين في تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكُه وما ملك)[١]، ويؤيد هذا أن السياق في أحكام الحج والنهي عما كان يفعله المشركون من أمور خارجة عن ملة إبراهيم[٢].

(١٠٥٧)تشير الآية إلى أن أعظم الزور أن تنسب إلى الله الولد أو الزوجة أو الشريك أو يوصف بما لا يليق به سبحانه[٣]، كقولهم: (اتخذ الله ولدا)، أو قولهم: (إن الملائكة بنات الله)، أو قولهم: (هؤلاء شفعاؤنا عند الله)، تعالى الله عن ذلك[٤]؛ لأن ذلك من الكذب على الله تعالى. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾ [سورة النحل: ١١٦].

(١٠٥٨)تدل على تحريم شهادة الزور[٥]؛ لأن الله أمر باجتناب قول الزور في هذه الآية، وشهادة الزور تندرج ضمن قول الزور[٦]؛ لأن الشهادة بغير الواقع زور ينكِر حقا ويُثْبت باطلا[٧].

---

(١) رواه مقاتل بن سليمان في تفسيره (٣/ ١٢٤) عن محمد بن علي المعروف بالباقِر، وذكره الكشف والبيان (٧/ ٢١)، والكشاف (٣/ ١٥٤).

(٢) ينظر التفسير الحديث (٦/ ٤٥).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤١٣)، وأيسر التفاسير (٣/ ٤٧٢).

(٤) الهداية (٧/ ٤٨٨٤)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٨٣).

(٥) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٥٥).

(٦) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٥٥).

(٧) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢١٤).

(١٠٥٩)تفيد الآية أن الشهادة تندرج ضمن القول[١]؛ لأن الله تعالى عدل عن التعبير بشهادة الزور إلى قوله: ﴿قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾، دلالةً على أنه يشمل شهادة الزور وغيرها من الأقوال المكذوبة.

(١٠٦٠)تشير الآية إلى أن شهادة الزور تعدل الشرك بالله وتُساويه في القبح والشناعة، وهذا ما قاله ابن مسعود رضي الله عنه، واستدل بهذا الآية[٢]، وروي مرفوعا بسند ضعيف[٣]، ووجه دلالة الآية على ذلك: أنه لما كان قول الزور معادلا للكفر لم يعطف على الرجس، بل أفرد بأن كرر له العامل اعتناء باجتنابه[٤]. وقد جاءت نصوص قرن فيه قول الزور بالشرك[٥]، منها قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٣﴾ [سورة الأعراف: ٣٣]، ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى، يا رسول الله.

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٣).

(٢) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (١/ ١٣٣، رقم ٣٠٥)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٣٦).

(٣) عن أيمن بن خُريم الأسدي رحمه الله: أن النبيَّ – صلى الله عليه وسلم– قام خطيبًا، فقال: ((أيُّها الناسُ، عَدَلت شهادةُ الزُّورِ إشراكاً بالله، ثم قرأ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾)). أخرجه أحمد في المسند (٤/١٧٨، رقم ١٧٦٤٠)، والترمذي في سننه: (كتاب الشهادات، باب ما جاء في شهادة الزور، ح ٢٢٩٩، ٤/٥٤٧) وقال: (غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد. وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعا من النبي صلى الله عليه وسلم)، وأخرجه من حديث خُرَيم بن فاتك: أحمد في مسنده (٤/٣٢١، رقم ١٨٩١٨)، وأبو داود في سننه: (كتاب الأقضية، باب في شهادة الزور، ح ٣٥٩٩، ٣/٣٠٥)، ورواه أيضاً ابن ماجة في سننه: (كتاب الأحكام، باب شهادة الزور، ح ٢٣٧٢، ٢/٧٩٤). وعلته حبيب بن النعمان الأسدي، وهو مجهول، ولذلك قال عنه ابن القطان في "بيان الوهم والإيهام" (٤/ ٥٤٨): (وهو لا يصح)، وقال ابن الملقن في "البدر المنير" (٩/ ٥٧٦ – ٥٧٧): (فإسناده واهٍ؛ لأنه دائر بين مجهول وضعيف).

(٤) البحر المحيط في التفسير (٧/ ٥٠٥).

(٥) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢٥٦).

قال: ((الإشراك بالله وعقوق الوالدين -وكان متكئا فجلس، فقال: -ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور. فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت))[1].

(١٠٦١)تدل الآية على النهي عن تحريم ما حرم أصحاب الأوثان نحو قولهم: (ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومحرم على أزواجنا)، ونحو تحريم ما لم ينزل الله به سلطاناً كالبحيرة والسائبة، وعن قول هذا حلال عمّا حرمه الله، لأن هذا افتراءٌ على الله وتقوُّل عليه[2]. ويؤخذ هذا من أن الله تعالى أشار بقوله تعالى قبلها: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إلى ما فعله المشركون حيث حرموا ما أحل الله تعالى في تحريم السائبة والوصيلة والحام، ونسبوا التحريم إلى الله تعالى، وذلك زور في القول[3].

(١٠٦٢)تدل الآية على تحريم الكذب على الله في ذاته، أو صفاته أو أفعاله، فهذا أعظم الزور، ويلحق به الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كذبٌ على الله؛ إذ بكلامه يتكلم[4]. يقول جلّ شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤﴾ [سورة الفرقان: ٤].

(١٠٦٣)تفيد الآية أن الشرك أعظم الزور، فقد فسر الزور بأنه الشرك، لأن الشرك في صميمه افتراء على الله، وتزيين للباطل، وتزويق للزور[5]، فالمشرك يزعم أن الوثن شريك لله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، ح ٥٦٣١، ٢٢٢٩/٥)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، ح ٨٧، ٩١/١).

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٥)، ومعاني القرآن للنحاس (٤/ ٤٠٦). واستظهره ابن عطية فقال في تفسيره (٤/ ١٢٠): (ويظهر أن الإشارة في زور أقوالهم في تحريم وتحليل ما كانوا قد شرعوه في الأنعام).

(٣) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٧٩).

(٤) ينظر أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٨٦).

(٥) ينظر معاني القرآن للنحاس (٤/ ٤٠٦)، والتفسير القرآني (٩/ ١٠٢٨).

ويستحق أن يُعبد، فنهاهم الله عن ذلك، فكأنه قال: فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور وعنوان البهتان[١].

(١٠٦٤)تدل الآية على تحريم كل قول مائل عن الحق، لأن أصل مادة الزور التي هي الزوَر من الازورار، بمعنى الميل والاعوجاج[٢].

(١٠٦٥)يفيد الآية النهي عما كان يفعله أهل الجاهلية في مواسم الحج من التفاخر بالآباء والأجداد والقبيلة، ولا يخلو ذلك من الزور والكذب والمبالغة[٣].

(١٠٦٦)تشير الآية أن التعامل بين الحجاج يلزم أن يكون مبنيا على الصدق وحسن القول[٤]؛ لأن الأمر باجتناب قول الزور في سياق الحج يقتضي أن الحجاج أولى من يتجنب ذلك.

(١٠٦٧)في الآية دلالة على النهي عن الكذب والتزييف الذي يفعله بعض المطوفين وأصحاب الحملات والتجار والإعلاميين وبعض الحجاج[٥]؛ لأنه من قول الزور الذي أمر الله باجتنابه.

(١٠٦٨)يندرج في الآيات النهي عن رفع الشعارات الجاهلية والعنصرية والطائفية، فهي من قول الزور[٦].

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٤)، والتفسير الواضح (٢/ ٥٨٥).

(٢) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٢٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٥)، ونظم الدرر (١٣/ ٤٣)، وأضواء البيان (٥/ ٢٥٥).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٣ – ٧٤).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٤).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٤).

(٦) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٥).

(١٠٦٩)تدل الآية على تعظيم الله لحقوق الخلق؛ إذ قرن النهي عن تضييع حقه في العبادة بالنهي عن قول الزور، ومن ذلك الكذب في الشهادات التي تضيع بها الحقوق وتؤكل بها الأموال بالباطل[١].

(١٠٧٠)تدل الآية على أن اجتناب عبادة الأوثان واجتناب الزور بسائر صوره من تعظيم حرمات الله تعالى، لأن قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ مُرتَّبٌ على ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ من وجوب مراعاتها واجتناب هتكها[٢].

(١٠٧١)تدل على أن الإنسان يجب عليه أن يبتعد عن الشرك والزور بجميع أشكالهما، وألا يقترب مما يفضي إليهما؛ لأن التعبير بفعل "اجتنبوا" معناه: أي: (كونوا على جانب منها)[٣]، وكأن المسلم ينبغي أن يكون في جانب، والشرك والزور في جانب آخر[٤].

(١٠٧٢)يشير قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾، إلى أن هلاك العبد في أمرين: الأول: تعديه على حقوق المعبود عز وجل، والثاني: تعديه على حقوق عباد الله؛ فباجتنابهما يفلح العبد في الدنيا والآخرة[٥].

(١٠٧٣)تدل الآية على وجوب تطهير القلب واللسان، وأولى ما يطهر منه القلب هو الشرك جميع صوره، وأولى ما يطهر منه اللسان قول الزور بجميع ما يشمله من أنواع[٦].

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٥).

(٢) ينظر روح البيان (٦/ ٣٠)، وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٦/ ٢٩٤)، ومحاسن التأويل (٧/ ٢٤٣).

(٣) ينظر التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٦٩)، وتفسير البغوي (٣/ ٣٣٨).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٣).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٣).

(٦) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٣).

(١٠٧٤)تفيد الآية أن الإسلام أمر بالطهارة المعنوية باجتناب أكبر أنواع الرجس المعنوي وهو الشرك والزور، كما أمر بالطهارة الحسية التي تحصل بقضاء التفث[١].

(١٠٧٥)تومئ أن المسلم كما يرتاح بعد الفراغ من المناسك بإزالة التفث عن جسده، يرتاح كذلك نفسيا بالتنزه عن الشرك الذي يدنس القلوب[٢]؛ لأن الشرك رجس كما جاء في الآية.

(١٠٧٦)تومئ الآية أن أكثر ما يفسد بين الخلق وخالقهم وفيما بين الخلق اثنان: عبادة غير الله، وقول الزور الذي هو سبب الظلم والعداوة بين الناس[٣].

(١٠٧٧)تشير الآية أن العبد ينبغي أن يكون بجوار البيت الحرام في كامل الطهارة الحسية والمعنوية لمناسبة البيت الذي أمر الله بتطهيره وعدم الإشراك فيه[٤].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [سورة الحج: ٣١]:

(١٠٧٨)تدل الآية على وجوب الميل عن الباطل إلى الحق في القلب والنّفس، وفي الجهر والسِّرّ، وفي الأقوال والأفعال والأحوال[٥]؛ لأن الله تعالى أمرهم فقال: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾، والحَنَفُ: هو ميل عن الضّلال إلى الاستقامة، والحَنِيف هو المائل إلى الدين المستقيم[٦]، وأصل الحنَف:

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٣).
(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٤).
(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٤).
(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٤).
(٥) ينظر لطائف الإشارات (٢/ ٥٤٢).
(٦) ينظر مقاييس اللغة (٢/ ١١٠)، والمفردات في غريب القرآن (ص: ٢٦٠).

الميل[1]، وهو مأخوذ من الحنف، أي ميل صدور القدمين كل واحدة على صاحبتها ميلا يكون خلقة لا رجوع فيه أبدا[2].

(١٠٧٩)تدل الآية على وجوب التوجه بالحج لله وحده قلبا وقالبا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ﴾، وقد فسر الحسَن البصْريُّ الحنيفية بأنه حج البيت[3]، وقال عبد الله بن القاسم: (كان الناس من مُضَر يحجّون البيت في الجاهلية يسمون حُنَفاء، فأنزل الله تعالى ذكره: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾)[4]. وكان العرب في الجاهلية إذا أرادوا الحجَّ قالوا: (هلمّوا نتَحَنَّفْ)[5]. والعرب تسمي كل من حج أو اختتن حنيفًا، تنبيهًا على أنه على دين إبراهيم[6]. وقد فسر مجاهد والضحاك: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾، أي حجاجا[7]، ومعنى الآية كما قال ابن عباس رضي الله عنه: (حُجّاجًا لله غير مشركين به؛ وذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين، فلما أظهر الله الإسلام قال الله للمسلمين: حجوا الآن غير مشركين بالله)[8].

---

(١) مقاييس اللغة (٢/ ١١٠).

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج (١/ ٤٢٧)، وجمهرة اللغة (١/ ٥٥٦)، وغريب القرآن للسجستاني (ص: ١٨٤)، والغريبين في القرآن والحديث (٢/ ٥٠٢)، والمفردات في غريب القرآن (ص: ٢٦٠).

(٣) رواه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ٢٩٣، رقم ١٣١)، والطبري في تفسيره (٢/ ٥٩٢). وقال ابن تيمية في "تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء" (١/ ٣٩٩): (والحج داخل في الحنيفية من حين أوجبه الله على لسان محمد، فلا تتم الحنيفية إلا به وهو من ملة إبراهيم).

(٤) رواه الطبري في تفسيره (٢/ ٥٩٣).

(٥) نقله ابن دريد في "جمهرة اللغة" (١/ ٥٥٦) عن الأصمعي.

(٦) تفسير الخازن (١/ ٨٤).

(٧) رواه الطبري في تفسيره (٢/ ٥٩٢) عن مجاهد، ورواه ابن المنذر في تفسيره (١/ ٢٤٦، رقم ٥٨٠).

(٨) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩١، رقم ١٣٩١٥). وينظر تفسير السمرقندي (٣/ ٦٠٤)، والكشف والبيان (٧/ ٢١)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٣)، والدر المنثور (٦/ ٤٥)، ونسبه الماوردي في النكت والعيون (٤/ ٢٣) إلى قطرب. وذهب ابن عطية في المحرر الوجيز (٤/ ١٢٠) إلى أن هذا القول (تخصيصٌ لا حجة معه).

(١٠٨٠)يستفاد من الآية أن (الحنيفية) إنما تتم بترك الشرك، ومن أشرك بالله لا يكون حنيفا[١]، ولا يكون على ملة إبراهيم، فإنه لم يكن من المشركين. ويؤخذ هذا من أن الله تعالى قال: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾، وقد روي عن مجاهد أنه فسّر ﴿حُنَفَآءَ﴾: (متبعين)[٢]. والحنيفية اتباع ملة إبراهيم عليه السلام، (وقيل: إنما سمي دين إبراهيم الإسلام الحنيفية، لأنه أول إمام لزم العباد الذين كانوا في عصره والذين جاءوا بعده إلى يوم القيامة اتباعُه في مناسك الحج، والائتمامُ به فيه. قالوا: فكل من حج البيت فنسك مناسك إبراهيم على ملّته، فهو حنيف مسلم على دين إبراهيم)[٣]. وقد رجح الطبري أن الحنيف (هو الاستقامة على دين إبراهيم واتباعُه على ملّته)[٤].

(١٠٨١)تدل الآية على أن من حقق التوحيد هو الذي يكون على الحنيفية دين إبراهيم ورسولنا الكريم عليهما السلام، ومن لم يحقق التوحيد فليس عليها ولو حج البيت الحرام[٥].

(١٠٨٢)تدل الآية على وجوب الاستقامة على أمر الله تعالى[٦]، ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾، أي: مستقيمين لله على إخلاص التوحيد له، وإفراد الطاعة والعبادة له، خالصا دون الأوثان والأصنام[٧]. وقد قال أهل اللغة: إن الحنيف هو:

---

(١) ينظر تفسير السمعاني (٣/ ٤٣٧)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٣)، والتفسير المظهري (٦/ ٣١٨).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٢/ ٥٩٣).

(٣) تفسير الطبري (٢/ ٥٩١).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٥٩٤).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٥).

(٦) ينظر التفسير المنير (١٧/ ٢١٢).

(٧) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٨)، والكشف والبيان (٧/ ٢١)، ونسبه الماوردي في النكت والعيون (٤/ ٢٣) إلى عليّ بن عيسى (الرماني).

المستقيم[١]، وقرر ابن عطية أن لفظة الحَنَف من الأضداد، تقع على الاستقامة وتقع على الميل[٢]، وأنشد ابن زيد:

تعلـــم أَنْ سَـــيَهْدِيكُم إلينـــا طريـــقٌ لا يَجُـــور بكـــم حَنِيـــفُ[٣]

(١٠٨٣)تدل الآية على أن مقصد الحج الأعظم هو تحقيق التوحيد، ولذلك جاءت هذه الآية مذكرة بحال إبراهيم عليه السلام الذي قال فيه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠﴾ [سورة النحل: ١٢٠]، فكأنه قال: كونوا في الحج كإبراهيم. ولعل هذا هو سر توسط هذه الآية لآيات الحج[٤].

(١٠٨٤)تدل الآية على وجوب الإخلاص لله تعالى في مناسك الحج[٥]، ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾، أي مخلصين لله[٦]. أي: كونوا في امتثال ما أمرتكم به، واجتناب ما نهيتكم عنه، مخلصين لله وحده، واعملوا على وجه العبادة لله، غيرَ مشركين به في ذلك[٧].

(١٠٨٥)تدل الآية على أنه يجب على المكلف أن يقيم الإخلاص فيما يأتيه من العبادة، ويخلِّصها من شوْب الشرك الجليّ والخفيّ[٨]. ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [سورة البينة: ٥].

---

(١) ينظر غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٦٤)، وتهذيب اللغة (٥/ ٧١).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ١٢٠).

(٣) تهذيب اللغة (٥/ ٧١). وذكر ابن قتيبة في "غريب القرآن" (ص: ٦٤) أنه إنما قيل للذي تقبل إحدى قدميه على الأخرى: أحنف، تفاؤلًا بالسلامة. وينظر التفسير البسيط (٣/ ٣٥٤).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٥).

(٥) ينظر التفسير المنير (١٧/ ٢١٢).

(٦) وهو قول يحيى بن سلام، ينظر الكشف والبيان (٧/ ٢١).

(٧) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤١٣)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٣)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٠).

(٨) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٣)، وروح البيان (٦/ ٣١).

(١٠٨٦)تفيد الآية أن المسلم عليه أن يجتنب الشركَ كثيره وقليلَه، جليه وخفيَّه، ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾، أي غير مشركين به شيئا من الأشياء كما يفيده حذف المعمول من العموم[(١)]، وذلك ليصل المسلم إلى أعلى درجات الاحتياط والاحتراز من مداخل الشرك بجميع صوره[(٢)].

(١٠٨٧)تدل الآية على وجوب اجتناب الرياء في العبادة؛ ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾، هكذا بإطلاق، ويشمل ذلك الرياء؛ لأن الرياء شرك خفي، وقد قيل في أحد الوجوه في تفسيرها: غيرَ مُرائين بعبادته أحداً من خلقه[(٣)].

(١٠٨٨)تدل على وجوب إفراد الله تعالى بالتلبية؛ لأن الله تعالى أمرهم فقال: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾، أي مخلصين بالتلبية لله تعالى، خلافا لأهل الجاهلية الذين كانوا يشركون بالله في تلبيتهم ويقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملَك[(٤)]، تعالى الله عما يقولون.

(١٠٨٩)تدل الآية على وجوب الميل عن جميع النِّحَل والديانات الباطلة؛ لأن قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾، معناه: مائلين عن كل دين زائغ إلى الدين الحق مخلصين له تعالى[(٥)].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٨)، ونظم الدرر (١٣/ ٤٣)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٥)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٣٤).

(٢) ينظر الحج في القرآن الكريم (ص ٧٣ – ٧٤).

(٣) النكت والعيون (٤/ ٢٣).

(٤) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٨)، ونسبه الماوردي في النكت والعيون (٤/ ٢٣)، والواحدي في البسيط (١٥/ ٣٨٧) إلى الكلبيّ.

(٥) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٥)، وروح البيان (٦/ ٣١)، والبحر المديد (٣/ ٥٣١)، وروح المعاني (٩/ ١٤٢)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٠٦).

وهذا المعنى هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [سورة البينة: ٥]، أي (مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام)[(١)].

(١٠٩٠)تفيد الآية وجوب تولي الله تعالى والتبرُّؤ مما سواه من المعبودات الباطلة، لأن الله تعالى قال: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾، والمراد الإخلاص في التوحيد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠﴾ [سورة النحل: ١٢٠]، وإنما أتى بحالين مؤكَّديْن لفائدة، وهي فائدة التولي والتبري[(٢)].

(١٠٩١)تتضمن الآية الردّ على الذين زعموا أنهم على ملة إبراهيم من أهل الكتاب ومشركي العرب الذين كانوا يؤدون الحج الذي هو من شريعة إبراهيم عليه السلام ومع ذلك فهم يشركون بالله[(٣)]، والتوحيد هو رأس ملة إبراهيم، وقد كان حنيفا، ولم يكن من المشركين.

(١٠٩٢)في ربط أعمال الحج بالتوحيد وتجنب الشرك دلالةٌ على أن الحج لا يقبل من صاحبه إلا إذا كان موحدا لله ولو فعل ما فعل[(٤)].

(١٠٩٣)تشير الآية إلى أن الإنسان إذا سقط من علوٍّ إلى أسفل فإنه يفقد القدرة على التحكم في نفسه، ولا يستطيع في الأصل أن يمنع نفسه من السقوط، وذلك بفعل قانون الجاذبية؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، يعني سقط من السماء لا

---

(١) الكشف والبيان (١٠/ ٢٦١)، وينظر الهداية (١٢/ ٨٣٨٢)، وتفسير البغوي (٨/ ٤٩٦)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ١٤٤).

(٢) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٧٩).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٥).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٥).

يُمسكه شيء[1]. ومعنى خَرَّ: سقط سقوطا يسمع منه صوت، والخَرِير يقال لصوت الماء وغير ذلك ممّا يسقط من علوّ[2]. ويغلب استعماله في سقوط ما سقط بغير وعيٍ ولا اختيار[3].

(١٠٩٤)في الآية إشارة إلى أن الهلاك إنما يصيب من تسبب فيه لنفسه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، فذكر أن السبب هو الشرك، وعبر ب"خرّ"، دلالة على أنه دفع نفسه إلى الهلاك دفعا شديدا.

(١٠٩٥)تفيد الآية أن في الإنسان جماديةً؛ لأنه إن سقط من علٍ فإنه يهوي إلى الأرض كالجماد، ولا يملك أنْ يُمسِك نفسه مُعلَّقاً في الهواء، ولو صَعِد إلى أعلى فلا بُدَّ أنْ ينزل. كما أن في الإنسان نباتيةً تتمثل في النمو، وحيوانيةً تتمثل في الغرائز، وفيه إنسانية تتمثل في العقل والاختيار بين البدائل[4]. وحينما يبطل عقله ويشرك بربه يكون حاله كالجمادات التي لا عقل فيها ولا إرادة.

(١٠٩٦)تدل الآية على وجود جاذبية الأرض والغلاف الجوي؛ إذ لو لم تكن للأرض جاذبية لما هوت الرياح بمن سقط من السماء إلى مكان سحيق في الأرض[5].

(١٠٩٧)تدل الآية على أن المشرك بعيد عن الله عز وجل[6]، لأن الله تعالى ضرب للمشرك مثلا بمن سقط في مكان بعيد أشد البعد، بحيث لا يعثر له على أثر، فقال: ﴿أَوْ تَهْوِي

---

(١) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٠٧).

(٢) مقاييس اللغة (٢/ ١٤٩)، والمفردات (ص: ٢٧٧).

(٣) ينظر تهذيب اللغة (٦/ ٢٩٩)، والغريبين (٢/ ٥٤٣). يقال: خرّ الحجر، إذا تدهدى من الجبل، ويقال: خرّ الميت، وخرّ الرجل مغشيا عليه، ومنه قوله تعالى: {وخر موسى صعقا}، وقوله في شأن داود عليه السلام: {وخر راكعًا} [ص: ٢٤]، (تنبيهًا على أنهما عليهما السلام كانا في حالة تقرب من الموت لهيبة الربوبية) (عمدة الحفاظ: ١/ ٤٩٧)

(٤) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٠٧).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٨).

(٦) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٢٦).

بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ يعني: بعيد، من قولهم: أبعده الله وأسحقه[١]، فهكذا مثل المشرك بالله في بُعده من ربه، كبُعد هذا الواقع من السماء إلى الأرض[٢]، والله أعلم.

(١٠٩٨)تدل الآية على أن الشرك يبعد المشرك فيه عن الهدى والحق، فلا يصل إليه بحال؛ لأن الله تعالى ضرب للمشرك في بُعده عن الحق مثلا بمن سقط من السماء فألقاه الريح في مكان بعيد الغور[٣]، فقال: ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾، وكذلك المشرك يسقط من سماء التوحيد ويلقى في مهاوي الشرك، ويكون بعيدا عن إصابة الحق، كبُعد الذي وقع من علو فاختطفته الطير أو ألقته الريح في مكان بعيد. وهذا تفسير قتادة رحمه الله[٤].

(١٠٩٩)تشير الآية أن المشرك لا قدر له ولا منزلة عند الله، بل يكون من المغمورين المنبوذين في مكان سحيق، ولو كان له شأن في في الدنيا وجمع من العلوم والمعارف الكثير[٥].

(١١٠٠)تدل الآية على أن المشرك تتمزق روحُه كما يُمزّق لحْمُ الذي تتخطفه النسور في الهواء؛ لأن الله تعالى ضرب لمن يشرك بالله مثلا فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾، أي تقطع جسمه بمخالبها ومناقيرها كما قال بعض المفسرين[٦].

(١١٠١)تفيد الآية على أن من أشرك بالله شيئا في الآخرة يهوي في نار جهنم، وتتجاذبه ملائكة العذاب[٧]، ولا يستطيع أن يدفع شيئا من ذلك عن نفسه؛ وذلك لأن الله

---

(١) ينظر غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٩٣)، ومعاني القرآن للنحاس (٤/ ٤٠٧)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٨٨).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٨)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٨٨).

(٣) ينظر غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٩٣)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٣٨)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٥)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٨)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٥٦).

(٤) قال قتادة: (هذا مثلٌ ضربه الله لمن أشرك بالله في بعده من الهدى وهلاكه). رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٣٨) بسند حسن، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩١، رقم ١٣٩١٩).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٧).

(٦) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٨٤)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٥).

(٧) ينظر لطائف الإشارات (٢/ ٥٤٢).

ضرب المثل في هذه الآية لحال المشرك في جهنم على قول لبعض المفسرين، وهو معنى تحتمله ألفاظ الآية[1]. وفي الحديث أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((... وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم))[2]، وفي رواية: ((يَهْوي بها سبعين خريفاً في النار))[3]، ولا أعظم من كلمة الكفر.

(١١٠٢)في الآية إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل[4]؛ إذ لما هبط من قمة توحيد الله العليّ الأعلى إلى حضيض عبادة الأوثان والشرك بالله، عاقبه الله بأن يجعله يخر من السماء إلى الأرض.

(١١٠٣)تدل الآية على أن المشرك يوم القيامة لا يملك لنفسه نفعا، ولا يقدر أن يدفع عن نفسه العذابَ أو يخففه؛ لأن الله تعالى في هذه الآية إنما شبّه حال المشرك بحال الذي يهوي من السماء إلى مكان بعيد من الأرض، فهو في حال هُوِيّه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الطيور التي تختطفه، ولا يفر من السقوط حيث تلقيه الريح، فهو هالك بلا شك، إما بتمزق لحمه، وإما بسقوطه في منحدر بعيد، وكذلك المشرك يوم القيامة لا يقدر على دفع عذاب النار[5].

---

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٨١)، وقال أبو زهرة: (وإننا نرى أن الجميع ممكن بأن تكون هذه حاله في الدنيا والآخرة).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، ح ٦١١٣، ٥/٢٣٧٧)، وفي رواية للبخاري (ح ٦١١٢)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الزهد، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار، ح ٢٩٨٨، ٤/٢٢٩٠) بلفظ: ((إن العبدَ ليتكلَّم بالكلمة ما يَتَبَيَّن فيها، يَزِلُّ بها في النار أبْعَدَ ما بين المشرق والمغرب)).

(٣) أخرجه أحمد (٢/٢٩٧، رقم ٧٩٤٥)، والترمذي في سننه: (كتاب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة ليضحك بها الناس، ح ٢٣١٤، ٤/٥٥٧) وقال: (حسن غريب)، وأخرجه كذلك ابن حبان في صحيحه (١٣/١٣، رقم ٥٧٠٦).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٦).

(٥) ينظر إعراب القرآن للنحاس (٣/ ٦٨)، والكشف والبيان (٧/ ٢١)، والهداية (٧/ ٤٨٨٤ – ٤٨٨٥)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٨٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٥).

(١١٠٤)تشير الآية إلى أن الشرك بالله أعظم إثما من القتل، ويؤخذ ذلك من أن الله شبه المشرك بمن تردى من مكان عال وسقط في غور بعيد فمات بأبشع صورة[١]، وهذا يدل على أنه أسوأ من مجرد القتل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ [سورة البقرة: ٢١٧]، والفتنة هي الشرك في قول جمهور المفسرين[٢].

(١١٠٥)تدل الآية على أن المشرك هالكٌ بأبشع صور الهلاك، كما أن الذي يسقط من السماء إلى الأرض هالك لا محالة[٣]؛ وذلك لأن التشبيه في هذه الآية يجوز أن يكون مركبا تمثيليّا، كأنه يقول: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده هلاك، وحاله كحال من خرّ[٤] من السماء، فاختطفته الطيرُ وهو نازلٌ في الهواء، فقطعت أجزاء جسمه تقطيعا، أو عصفت به الريح حتى قذفته في مكان قَصيّ، فيتمزق جسمه من شدة السقطة، ويصير مسحوقا مكسَّرا[٥]. ولذلك عبر ب﴿سَحِيقٍ ٣١﴾ بدل "بعيد". وقد بين الله تعالى هلاك المشرك في آيات أخرى منها قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [سورة المائدة: ٧٢][٦].

(١١٠٦)تفيد الآية بضميمة آيات أخرى أن المشرك هالك إن مات على الشرك، ولم يتب منه قبل حضور الموت، أما من تاب من شركه قبل حضور الموت فإن الله يغفر له؛ لأن

---

(١) ينظر "الحج في دراسة السياق القرآني": د. عماد الدين رشيد، مجلة جامعة دمشق للعلوم القانونية والاجتماعية. المجلد ٢٧، العدد الأول، سنة ٢٠١١م، (ص ٣٥٣).

(٢) ينظر تفسير الطبري (٣/ ٦٤٩)، والكشف والبيان (٢/ ١٤٠)، والتفسير الوسيط للواحدي (١/ ٣٢١)، وتفسير البغوي (١/ ٢٧٦)، وتفسير الخازن (١/ ١٤٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ٥٢٥)، والسراج المنير (١/ ١٤١).

(٣) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٨٩)، وتفسير السمعاني (٣/ ٤٣٧)، والتفسير القرآني (٩/ ١٠٢٩).

(٤) وإنما جاء التعبير في الآية بفعل {خرّ} لأنه يغلب استعماله في الهَلَكة. كقول الشاعر: ...فَخَرّ صريعًا لليدين وللفم. ينظر عمدة الحفاظ (١/ ٤٩٧).

(٥) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٥)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٣)، ونظم الدرر (١٣/ ٤٤)، وبيان المعاني (٦/ ١٧١).

(٦) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢٥٥).

الإسلام يجب ما قبله. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الفرقان: ٦٨ – ٦٩]، وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الأنفال: ٣٨]، وغيرها؛ أما إن كانت توبته من الشرك عند حضور الموت، فإنها لا تنفعه، كقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [سورة النساء: ١٨][(١)].

(١١٠٧)تدل الآية على أن المشرك يهلك على نحوٍ يختلف عن أي أحد آخر، فهو يهلك هلاكا عظيما، إما بيد جنود السماء المشار إليهم بالطير، وإما بيد جنود الأرض المشار إليهم بالمكان السحيق، ولا يجد له معينا ولا ظهيرا. ويؤخذ ذلك من العدول عن الإخبار بهلاك المشرك إلى بيان ذلك هذه الصورة التمثيلية[(٢)].

(١١٠٨)تومئ الآية إلى أن النجاة في الإيمان، كما أن الهلاك في الشرك[(٣)]، وفي الحديث عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له: ((يا معاذ، هل تدري ما حقُّ الله على العباد، وما حقُّ العباد على الله؟ قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حقَّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحقُّ العباد على الله: أن لا يعذِّب من لا يشرك به شيئاً))[(٤)].

---

(١) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢٥٦).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٦).

(٣) ينظر روح البيان (٦/ ٣١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الاستئذان، باب من أجاب بلبَّيك وسعديك، ح ٥٦٢٢، ٥/٢٢٢٤)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له: (كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، ح ٣٠، ١/٥٨).

(١١٠٩)تومئ الآية إلى أن المشركين على قسمين: منهم من هو هالك لا نجاة له، ومنهم من يمكن أن ينجو من الهلاك بالتوبة والرجوع إلى التوحيد، ولكن توبته عسيرة الحصول[١]، وهذا بناء على أن "أو" في الآية للتنويع، فمن ألقته الريح إلى مكان سحيق هالك لا محالة، ومن تخطّفته الطير قد ينجو في القليل النادر.

(١١١٠)تشير الآية - على تأويل بعض السلف – إلى أن أعمال المشركين تحبط وتبطل، فلا يقدرون على إنقاذ شيء منها[٢]. بل تضيع كمن يسقط من السماء، فتلتهمه الطيور، أو تقذفه الريح العاتية في جب عميق بعيدٍ قعرُه.

(١١١١)تفيد الآية أن التوحيد قاعدة ثابتة يستقر عليها المؤمن، وعُروة وثقى يتمسك بها ويأمن بها من السقوط في اتباع الأهواء والهلاك في الآخرة؛ وذلك لأن الآية صورت المشرك بحال من لا يملك ما يتمسك به، فيسقط من علو شاهق، فتتخاطَفُه الكواسر، وتتقاذفه الرياح، والمؤمن المتمسّك بإيمانه بعكس ذلك. ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦][٣].

(١١١٢)تفيد الآية أن الشرك يجعل المشرك ليس له قاعدة يثبت عليها، ولا ما يتمسك به ويأمن به من السقوط والهلاك، خلافا للمؤمن، لأن هذه الآية قوبل بها قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦]، فكما كان المؤمن في إيمانه متمسّكا بالعروة الوثقى، كان المشرك بعكس ذلك، ليس له

---

(١) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٧١)، وتفسير الإيجي (٣/ ٥٥)، وروح المعاني (٩/ ١٤٣)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٥).

(٢) عزاه الثعلبي إلى الحسن البصري، ينظر الكشف والبيان (٧/ ٢١)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٤).

(٣) ينظر الحجة للقراء السبعة (٥/ ٢٧٦)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٨٩ - ٣٩٠)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢٠)، وفي ظلال القرآن (٤/٢٤٢١ - ٢٤٢٢).

ما يتمسّك به نجاة من الهُوِيّ واختطاف الطير له، فصار كمن خرّ من السماء، فهوت به الريح، فلم يكن له في شيء من ذلك مُتعلَّق ولا مُعتصَم.

(١١١٣)تشير الآية إلى أن الإيمان رِفعةٌ ورُقِيٌّ[١]، فهو بمنزلة السماء، يرفع صاحبه ويحفظه من الآفات، كما أن السماء مرفوعة محفوظة[٢]، كما قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [سورة الرعد: ٢]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [سورة الأنبياء: ٣٢]، وإنما أخذ هذا المعنى من تشبيه السماء بالإيمان الفطري الذي يتركه المشرك، فيكون كمن سقط من السماء[٣].

(١١١٤)تدل الآية على رِفعة التوحيد وعُلُوّه[٤]؛ لأن الله أشار إلى أن من امتثل ما تقدم من اجتناب عبادة الأوثان وقول الزور فهو في علو ورفعة، كمن كان في السماء العالية، وشبّه المشرك بمن وقع منها إلى الأرض.

(١١١٥)تشير الآية إلى فظاعة الشرك وسفوله، لأن الله شبه من أشرك به شيئاً بمن سقط من السماء، لعلو ما كان فيه من أوج التوحيد، وسفول ما انحط إليه من حضيض الإشراك[٥]، لأن الشرك سقوط من سماء الإدراك السليم والفكر المستقيم[٦]، وقد أظهر اسم الجلالة لإظهار تناهيَ الشرك في القُبح[٧].

---

(١) ينظر الحج في القرآن الكريم (ص ٧٤).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٨).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٥).

(٤) ينظر نظم الدرر (١٣/٤٣ - ٤٤).

(٥) ينظر نظم الدرر (١٣/٤٣ - ٤٤). قال الألوسي في روح المعاني (٩/ ١٤٣): (وهذا السقوط إن كان في حق المرتد فظاهره، وهو في حق غيره باعتبار الفطرة).

(٦) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٨٠).

(٧) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٥)، وروح المعاني (٩/ ١٤٢).

(١١١٦)تدل الآية على أن التوحيد يعلو بالمسلم إلى أعلى المنازل، والشرك يجعله يتردّى في مهاوي الأهواء وحمَأة الكفر؛ وذلك لأن التشبيه في الآية يجوز أن يكون مفرّقا، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثّل به، فشبّه الإيمان في علوه وسعته وشرفه بالسماء، وشبه الذي ترك الإيمان مع تمكنه منه وأشرك بالله بمن سقط من السماء إلى أسفل سافلين[(١)].

(١١١٧)تشير الآية إلى أن توحيد الله والإيمان به تُنجي الإنسان من الهبوط والانحدار إلى أدنى الدركات وأحط المنازل، حيث تُصبح البهائم أرفع وأقوم لاستقامتها على فطرتها؛ وذلك لأن الله تعالى بين أن المشرك كمن يُسقط من السماء إلى مهوى بعيد في الأرض، وهذا يقتضي أن التوحيد هو الذي يبقي الموحد في علُوّ، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [سورة التين: ٥ – ٦].

(١١١٨)تشير الآية إلى أن تجاذب الأهواء ووساوس الشياطين توقع المشرك في تشتت روحي عظيم، لأن الله شبهه بمن سقط من السماء[(٢)]، فتتلقفه الطيور الجارحة وهو في الجو وتتصارع لتأخذه بسرعة فتمزقه تمزيقا، أو يسقط في هوة عميقة فتتناثر أجزاؤه في الأرض. وقد ذهب الزمخشري إلى أنه شبه الأهواء الفاسدة التي تتوزع أفكاره بالطير التي تتخطف الجسد، والشيطان الذي يرمي به في وادي الضلالة بالريح التي تلقي بما عصفت به في بعض المهاوي المهلكة التي لا رجعة له منها[(٣)]. ويوافق التشبيه الأول قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٥)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٣)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧١)، وأيسر التفاسير (٣/ ٤٧٢).

(٢) قال ابن المنير تعليقا على كلام الزمخشري في هذا الموضع في حاشية الكشاف (٣/ ١٥٥): (على تقدير أن يكون مفرّقا، فيحتاج تأويل تشبيه المشرك بالهاوي من السماء إلى التنبيه على أحد أمرين: إما أن يكون الإشراك المراد ردّته، فإنه حينئذ كمن علا إلى السماء بإيمانه ثم هبط بارتداده. وإما أن يكون الإشراك أصليا، فيكون قد عد تمكن المشرك من الايمان ومن العلو به ثم عدوله عنه اختيارا، بمنزلة من علا إلى السماء ثم هبط كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ (البقرة: ٢٥٧)، فعدّهم مخرجين من النور وما دخلوه قط، ولكن كانوا متمكنين منه).

(٣) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٥)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٣)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧١).

شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ [سورة الزمر: ٢٩][(١)]، (فهو متحيرٌ في أمره، قد تشعبت الهمومُ قلبه، وتوزعت أفكاره، لا يدري أيهم يُرضي بخدمته؟)[(٢)]. ويشهد للتشبيه الثاني قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ٨٣﴾ [سورة مريم: ٨٣][(٣)].

وذهب ابن القيم إلى أنه شبه هواه الذي يحمله إلى إلقاء نفسه في أحط مكان بالريح التي تهوي به في مكان سحيق، وأن الطير التي تتخطف أعضاءه وتمزقه إنما شبه بها الشياطين التي تتسلط على المشرك وتدفعه إلى مواطن الهلاك، فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه[(٤)]، ويشهد له قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ﴾ [سورة الأنعام: ٧١]، والله أعلم.

(١١١٩)تدل الآية على أن التوحيد يحفظ صاحبه من تخبط الشياطين ومضلات الهوى التي تلقي الإنسان في أودية سحيقة من الكفر والعصيان[(٥)]. وهذا بناءً على أن الطير التي تتخطف أعضاءه إنما شبه بها الشياطين التي تتسلط على المشرك، أو الأهواء التي تتجاذب نفسه كما تقدم.

---

(١) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٨١)، وروح المعاني (٩/ ١٤٣).

(٢) الكشاف (٤/ ١٢٦). وقد تعقبه ابن المنير في هذين التشبيهين في حاشية الكشاف (٣/ ١٥٥) فقال: (وفي تقريره تشبيه الأفكار المتوزعة للكافر، بالطير المختطفة، وفي تشبيه تطويح الشيطان بالهوي مع الريح في مكان سحيق- نظر؛ لأن الأمرين ذُكرا في سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين. فإذا جعل الأول مثلاً لاختلاف الأهواء والأفكار، والثاني مثلاً لنزغ الشيطان، فقد جعلهما شيئا واحدا؛ لأن توزع الأفكار واختلاف الأهواء، مضاف إلى نزغ الشيطان، فلا يتحقق التقسيم المقصود).

(٣) ينظر روح المعاني (٩/ ١٤٣).

(٤) ينظر التفسير القيم (ص: ٣٨٤)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٨)، وأصل كلام ابن القيم في "الأمثال في القرآن" (ص: ٤٦).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٧).

(١١٢٠)تشير الآية إلى أن المشرك متعدد الأهواء، لا يثبت على ضلالة واحدة، وإنما يكون في حيرة، فينتقل من ضلالة إلى أخرى؛ وذلك لأن الله تعالى شبه من يشرك بالله بمن سقط من السماء، وصار كالريشة تتلاعب بها الرياح حتى تلقيه في مكان سحيق، وكذلك المشرك تلعب به الشكوك والأوهام، فينتقل من ضلالة إلى ضلالة أخرى، حتى تبعده عن الحق والهداية بُعدا شديدا. والسحق: التفتيت، والمكان السحيق، أي البعيد، كأنه يلقى إليه مع بُعده فُتاتا مقطع الفكر موزع الأهواء، لا عقل يهديه، ولا مرشد يرشده[(١)].

(١١٢١)تفيد الآية أن الموحد لله تعالى مطمئن القلب ساكن البال؛ لأنه يعبد ربّا واحدا، فلا يرجو سواه، ولا يخشى إلا إياه. ويؤخذ هذا من مفهوم المخالفة للآية، فإن حال الموحد ضد حال المشرك الذي تتنازعه الطيور وتتلاعب به الرياح[(٢)]، ويدل عليه أيضا قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [سورة الزمر: ٢٩].

(١١٢٢)تفيد الآية أن لزوم التوحيد عصمةٌ للإنسان من المهالك والمعاطب، فإذا أشرك بالله عرضت له ألوان من الآفات والمصائب الدنيوية والأخروية[(٣)].

(١١٢٣)تفيد الآية – بناءً على أن "أو" للتنويع – أن الكفار على قسمين:

الأول: المتذبذب المتمادي على الشك، فهذا القسم مشبَّه بمن اختطفته الطير وتوزعته، فلا يستولى طائر على قطعة منه إلا انتهبها منه آخر، وذلك حال المتذبذِب، لا يلوح له خيال إلا اتبعه ونزل عما كان عليه.

والثاني: مشرك مصممٌ على معتقد باطل، لا سبيل إلى تشكيكه أو نقله عما هو عليه، فهذا القسم مشبَّه في قراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلى واد عميق فاستقر فيه. ونظير هذا التشبيه وصف ضلاله بالبعد في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾ [سورة

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٨١).

(٢) قرأ أبو جعفر: (الرِّيَاحُ) بالجمع، والباقون: {الريح} على الإفراد، ينظر "النشر" لابن الجزري (٢/ ٣٢٤).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٧).

إبراهيم: ٣]، وقوله: ﴿ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾ [سورة النساء: ١٦٧]، فبَعُد رجوعهم عن الحق[(١)].

(١١٢٤)تشير الآية – بضميمة حديث نبوي – إلى أن روح الكافر ترمي بها الملائكة من السماء، فتسقط في مكان سحيق من الأرض[(٢)]، وهذا المعنى يؤخذ من حديث نبوي رواه البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن روح الكافر: ((... فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا؛ حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله – صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الأعراف: ٤٠]، فيقول الله: اكتبوا كتابه في سِجّين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحا، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾))[(٣)].

---

(١) ينظر حاشية الكشاف لابن المنيّر (٣/ ١٥٥)، ونقله القاسمي في محاسن التأويل (٧/ ٢٤٥) وعلق عليه قائلا: (ولا يخفى أن في النظم الكريم مساغا له. إلا أنه لا قاطع به. نعم، هو من بديع الاستنباط، ورقيق الاستخراج. فرحم الله ناسجه)، وذكره ابن عاشور ملخصا في التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٥) دون عزوٍ وأقره.

(٢) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٥٥)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٠)، ونسب ابن عجيبة هذا القول في البحر المديد (٣/ ٥٣٢) إلى ابن البنا.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧)، وقال الهيثمي (٣/٥٠): (رجاله رجال الصحيح). وأخرجه ابن خزيمة في التوحيد (ص ١١٩)، وأبو عوانة كما في إتحاف المهرة (٢/٤٥٩، رقم ٢٠٦٣)، وابن منده في كتاب الإيمان (٢/٩٦٢، رقم ١٠٦٤)، وقال: (هذا إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء، وهو ثابت على رسم الجماعة). والحاكم في المستدرك (كتاب الإيمان، حديث معمر، ح ١٠٧، ١/٩٣ – ٩٤) وقال: (صحيح على شرط الشيخين)، ووافقه الذهبي. والبيهقي في شعب الإيمان (دار المؤمنين ومآبهم من الجنة...، فصل مما يحق معرفته في هذا الباب، ح ٣٩٥، ١/٣٥٥)، وقال: (صحيح الإسناد).

(١١٢٥)تومئ الآية أن الريح جند من جند الله تعالى، يهلك الله بها من يشاء، كما صنع بقوم عاد، وهي أقوى وأشد فتكا من أي سلاح بشري[١]؛ ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من شرها ومن شر ما أرسلت به[٢].

(١١٢٦)تفيد الآية أن من الأماكن ما يكون ساحقا للعبد ومقربا إلى عذاب الله، ومسحوقا بعذاب الله حيث عذب الكفار، ومن الأماكن ما يكون مُعْتَقًا آمنا من عذاب الله، ومعتِقا للعبد من عقوبة الله[٣]. ويؤخذ هذا من ذكر المكان السحيق في سياق آيات الحج في مقابلة البيت العتيق.

(١١٢٧)تومئ الآية أن مشركي قريش لا يستحقون مجاورة البيت الحرام، بل المكان السحيق هو الجدير بهم وبأمثالهم ما داموا مصرين على الشرك[٤].

(١١٢٨)تفيد الآية أنه ينبغي أن يعلم المؤمن أن المشرك مهما بلغ من التقدم في جميع المجالات فإنه بدون توحيد الله والإيمان به سيؤول إلى الهلاك ويسقط إلى الهاوية بسرعة وقوة[٥].

(١١٢٩)تشير الآية إلى أن كل دولة قامت على الشرك فهي آيلة إلى السقوط والخراب مهما سمت وارتقت[٦].

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر، ح ٨٩٩، ٢/ ٦١٦)، وغيره.

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٨).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٨).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٨).

(٦) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٨).

(١١٣٠)في الآية تنبيهٌ للمسلم على أن يشكر ربه[١]، إذ هداه إلى التوحيد، وحبّب إليه الإيمان وزيّنه في قلبه، ونجاه من الشرك وعواقبه، وأن يحفظ توحيده لله مما يفسده؛ لأن ذكر حال المشرك وما يعانيه يبعث المؤمن على استشعار نعمة التوحيد لله تعالى.

(١١٣١)تشير الآية إلى أن أعظم ما يُوصى به الحاج تحقيق التوحيد وتجنب الشرك حتى لا يذهب عمله إلى أودية سحيقة؛ لأن التوحيد من أهم مقاصد الحج، والشرك يحبط الأعمال

(١١٣٢)في الآية إشارةٌ إلى أن استعمال الصور التمثيلية في مخاطبة الناس أبلغ في البيان وأوقع في النفس وأشد في التأثير من الكلام المرسل. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى اختار استعمال هذه الصورة التمثيلية في بيان هلاك المشرك بدلا من أن يقول: "ومن يشرك بالله فهو من الهالكين"، أو نحو ذلك.

(١١٣٣)يدل نظم الآية على أن من أساليب الدعوة والتأثير على النفوس مزج الحِكَم بالموعظة؛ وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ﴾ [سورة الحج: ٣٠ – ٣١]، وهذه حكمة، ثم قال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾، وهذه موعظة. ولامتزاج المواعظ الحسنة بالحكم البالغة في آيات القرآن العظيم نظائر متعددة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [سورة النحل: ١٢٥][٢].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾ [سورة الحج: ٣٢]:

---

(١) ينظر الحج في القرآن الكريم (ص ٧٥).

(٢) تفسير ابن باديس (ص: ٣٢٣). وقد عرف "الحكمة" بأنها العلمُ الصحيح الثابت، المثمرُ للعمل المتقن المبنيُّ على ذلك العلم (ص: ٣٢٠)، وعرف الموعظة بأنها الكلام الملين للقلب، بما فيه من ترغيب وترهيب فيحمل السامع- إذا اتعظ وقبل الوعظ، وأثر فيه- على فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه (ص: ٣٢٢).

(١١٣٤)تفيد الآية أن تعظيم شعائر الدين من تعظيم الله وإجلاله[١]؛ لأن تقوى القلب ناشئ عن تعظيم الله تعالى.

(١١٣٥)تفيد الآية أن المسلم عليه أن يهتم بإقامة شعائر الله ويحرص عليها ويمتثل ما أمره الله به في شأنها[٢]، وأنها جديرة بالتعظيم لشرفها؛ وذلك لأن الله تعالى أضاف الشعائر في هذه الآية إلى نفسه، وهذه الإضافة تدل على التشريف والتعظيم، (فإن المضاف الى العظيم عظيم)[٣].

(١١٣٦)تفيد الآية جواز إشعار البُدْن. ويتم إشعارها بجرح صفحة سنامها من الجانب الأيمن حتى يخرج من الدم، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم[٤]. وإنما قال جمهور الفقهاء بالإباحة؛ لأن الإشعار لما كان إعلاما كان سنة بمنزلة التقليد، ومن حيث إنه جرح ومُثلة وتعذيب للحيوان كان حراما[٥]، ولكن فعل النبي صلى الله عليه وسلم دل على الجواز. أما الغنم فلا ينبغي إشعارها لأنها ضعيفة لا تحتمل ذلك[٦].

(١١٣٧)تفيد الآية استحباب جعل علامةٍ مميزةٍ للهدايا إعلاماً بأنها هدي يتقرب بها إلى الله تعالى، ويؤخذ ذلك من أن الله سماها في هذه الآية شعائر، إشارة إلى أن الشأن فيها أن تُشْعر؛ لأن الهدايا التي تهدى إلى مكة من البُدْن كانت تسمى شعائر؛ لأنها كانت تُشعَر بالدم، وتُجَلَّل وتُقَلَّد علامةً على إهْدَائها[٧].

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٨).

(٢) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٠٨).

(٣) روح البيان (٦/ ٣٥).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب تقليد الهدي وإشعاره عند الإحرام، ح ١٢٤٣، ٢/ ٩١٢).

(٥) ينظر تفسير القرطبي (٦/ ٣٨).

(٦) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٩٠ - ٣٩١).

(٧) ينظر غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٣٢)، والتفسير البسيط (٣/ ٤٣٦).

(١١٣٨)تفيد الآية أنه يستحب أن تعلق قلادة في رقاب الهدي، تحلّيها وتزينها، وتجعل لها ميزة على غيرها[١]؛ لأن ذلك من الإشعار، وقد سماها في هذه الآية "شعائر"، إشارة إلى أن الشأن فيها أن تُشْعر.

(١١٣٩)تدل الآية على أنه لا ينبغي تعطيل شعيرة سوق الهدي إلى الحرم، لأنه مناف لتعظيم شعائر الله عز وجلّ، وقد قال تعالى في شأنها: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [سورة الحج: ٣٦]، (وما أخلق العاقل بالحرص على شيء شهد الله تعالى بأن فيه خيرا وبأن فيه منافع)[٢].

(١١٤٠)تفيد الآية أنه يستحب أن يحافظ على الهدايا وعلى الشعار الذي أشعرت به[٣]؛ لأن ذلك من تعظيمها، وتعظيمها مطلوب لأن الله تعالى بين أن تعظيم الشعائر من التقوى.

(١١٤١)تفيد الآية بضميمة قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الحج: ٢٧]، على أن سوءَ حال الراحلة الناشئ عن طول السفر لا ينافي تعظيم شعائر الله، بل قد يكون أظهر في الافتقار والتذلل لله تعالى[٤].

(١١٤٢)تفيد الآية أن البُدْن أفضل في التقرب في الحج من غيرها من الأنعام؛ لأن الشعائر فسرت بالبُدْن لكونها هي التي تُشْعَر، وقد نص الله على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [سورة الحج: ٣٦].

---

(١) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٣٠).

(٢) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٦).

(٣) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٨٢).

(٤) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ١٤).

(١١٤٣)تفيد الآية أنه يستحب اختيار الهدي من أحسن ما يجده الحاج من الأنعام، وأعظمها خلقة[١]؛ لأن الثواب فيها أكثر، وبهاء الحج بها أظهر[٢]. ومن هنا أخذ جمهور العلماء أن البَدَنة أفضل، ثم البقرة، ثم الشاة، وذلك لأن البدنة أعظم من البقرة، والبقرة أعظم من الشاة، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[٣]. ومن تعظيم البُدْن: استعظامُها واستحسانُها[٤].

(١١٤٤)تفيد الآية استحباب تسمين ما تضحي به أو تهديه من الأنعام واستسمانه عند شرائه، لأن ذلك من تعظيمها؛ لأن الهدايا والأضاحي من شعائر الله، ومن تعظيمها: استسمانها[٥]. وفي الحديث أن أبا هريرة – رضي الله عنه – قال: ((كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا أراد أن يضحي اشترى كبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوءين...))[٦]، وقال أبو أمامة بن سهل: (كنا نُسمّن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يُسمّنون)[٧]. وكلما كانت سمينة حسنة كانت منافعها أكثر ديناً ودنيا[٨].

---

(١) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٩١).

(٢) ينظر روح البيان (٢/ ٤٤٦).

(٣) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢١٧).

(٤) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٢١)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٦).

(٥) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٢١)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٦)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٢١).

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٢٢٥، ح ٢٥٩٢٨)، وابن ماجه في سننه: (كتاب الأضاحي، باب أضاحي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ح ٣١٢٢، ٢/ ١٠٤٣)، واللفظ لهما، وأخرجه الحاكم في المستدرك (كتاب التفسير، تفسير سورة الحج، ح ٧٥٤٧، ٤/٢٥٣)، وليس فيه (موجوءين)، وحسنه الألباني في "الإرواء": (٤/ ٣٥١).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقا: (كتاب الأضاحي، باب في أضحية النبي صلى الله عليه وسلم بكبشين أقرنين ويذكر سمينين، ٥/ ٢١١١).

(٨) نظم الدرر (١٣/ ٤٦).

(١١٤٥)تشير الآية إلى أن الزيادة في السمن وكثرة الثمن في البُدْن أفضل من تكثير اللحم بعدد المهازيل[(١)]. لأن الله تعالى أشار في الآية التالية لهذه الآية إلى البُدْن فقال: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾، والبدَنة مشتقة من البدانة، أي السمن، فدل هذا على أن وصف السِّمَن معتبر.

(١١٤٦)تفيد الآية أنه يستحب للحاج أو المعتمر أن يهدي إلى البيت أنفَسَ ما يجد من الأنعام؛ لأن الهدايا من شعائر الله، ومن تعظيمها المغالاةُ بها[(٢)]، وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدى عام الحديبيَة في هدايا رسول الله صلى الله عليه وسلم جملا كان لأبي جهل، في رأسه بُرَة من فضة، يَغيظ بذلك المشركين)[(٣)]، ويروى: (برة من ذهب)[(٤)]. و(أهدى عمر بن الخطاب بُخْتية أُعطيَ بها ثلاثمائة دينار، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أُهديتُ بختية لي أُعطِيتُ بها ثلاثمائة دينار، فأنحرها أو أشتري بثمنها بُدْنا؟ قال: لا، ولكن انحرها إياها)[(٥)].

---

(١) ينظر النُّكَت الدالة على البيان (٢/ ٣١٦).

(٢) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٢١)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند: (١/ ٢٣٤، ح ٢٠٧٩)، وابن ماجه في سننه: (كتاب المناسك، باب الهدي من الإناث والذكور، ح ٣١٠٠، ٢/ ١٠٣٥). وأخرجه الترمذي في سننه عن جابر: (كتاب الحج، باب ما جاء كم حج النبي صلى الله عليه وسلم، ح ٨١٥، ١٧٨/٣). والبُرَة: حلقة في أنف البعير أو في لحمة أنفه (القاموس المحيط: ص ١٢٦٢).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه: (كتاب المناسك، باب في الهدي، ح ١٧٤٩، ٢/ ٣٦٠). وفي إسناده محمَّد بن إسحاق، وهو مدلس، ولم يصرح بالتحديث، وقد توبع ابن إسحاق على رواية هذا الحديث من طريق ابن أبي ليلى عن الحكم عن مقسَم عن ابن عباس في مسند أحمد (١/ ٢٣٤)، وكذلك عن مجاهد عن ابن عباس عند أحمد أيضًا (١/ ٢٦٩)، وبه يكون الحديث حسَنًا.

(٥) ينظر أخرجه أحمد في مسنده: (٢/ ١٤٥، ح ٦٣٢٥)، وأبو داود في سننه: (كتاب المناسك، باب في الهدي، ح ١٧٥٦، ٢/ ٣٦٠). وابن خزيمة في صحيحه: (كتاب المناسك، باب استحباب المغالاة بثمن الهدي وكرائمه، ح ٢٩١١، ٤/ ٢٩١).

(١١٤٧)تشير الآية إلى أنه يتأكد على من أراد التقرب إلى الله بهدي أو أضحية أن يتحرى سلامتها من العيوب التي تنقص لحمها؛ لأن ذلك من تعظيم شعائر الله، وقد نبهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبرزها فقال: ((أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراءُ البيِّنُ عَوَرُها، والمريضة البيِّنُ مرضُها، والعرجاء البيِّنُ ظلعُها، والعجفاء التي لا تُنْقي))[(١)]. وهذه العيوب تنقص اللحم، لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي؛ لأن الشياه يسبقونها إلى المرعى، فلهذا لا تجزئ التضحية بها عند الفقهاء[(٢)].

(١١٤٨)تومئ الآية إلى أن انتهاك شعائر الله فيه إثم كبير؛ لأن مفهوم المخالفة للآية أن انتهاك شعائر الله من فسوق القلوب، وكلمة "شعائر" تحمل دلالات العظمة والقداسة، وإضافتها إلى اسم الجلالة يدل على مزيد شرفها وخطورة انتهاكها[(٣)].

(١١٤٩)تفيد الآية أنه يستحب للحاج أو المعتمر أن يتعهد سقيا الهدايا، ويطعمها الطعامَ الذي يلائمها ويعجبها[(٤)]؛ لأن الهدايا من شعائر الله، ومن تعظيمها العناية بها[(٥)].

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ: (كتاب الضحايا، باب ما ينهى عنه من الضحايا، ح ١٠٢٤، ٢/ ٤٨٢)، وأحمد في المسند (٢٨٤/٤، رقم ١٨٥٣٣)، وأخرجه أبو داود في سننه: (كتاب الضحايا، باب ما يكره من الضحايا، ح ٢٨٠٢، ٣/ ٢٣٥ – ٢٣٦)، والترمذي في سننه: (كتاب الأضاحي، باب ما لا يجوز من الأضاحي، ح ١٤٩٧، ٤/ ٨٥ – ٨٦)، والنسائي في سننه: (كتاب الضحايا، باب ما نهي عنه من الأضاحي: العوراء، ح ٤٣٦٩، ٧/ ٢١٤ – ٢١٥)، وابن ماجه في سننه: (كتاب الأضاحي، باب ما يكره أن يضحى به، ح ٣١٤٤، ٢/ ١٠٥٠)، وأخرجه الدارمي في سننه: (كتاب الأضاحي، باب ما لا يجوز في الأضاحي، ٢/ ٧٦)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه: (كتاب الأضحية، ذكر الخصال التي إذا كانت في الأضحية لا يجوز أن يضحى بها، ح ٥٩٢١، ٢٤٣/١٣)، قوله "ظلعها"، أي عرجها، "والعجفاء لا تنقي": هي المهزولة التي لا نقي لعظامها، أي لا مخ لها من العجف.

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٢).

(٣) ينظر الحج في القرآن الكريم (ص ١١٣).

(٤) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٨٢).

(٥) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٢١)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٦).

(١١٥٠)تفيد الآية استحباب كسوة الهدايا وتجميلها، وذلك لأن من تعظيم الهدايا المشعرة الاهتبالَ بأمرها، وقد صح أن عبد الله بن عمر كان (يجلِّل بُدْنَه الْقِبَاطِيَّ والأنماط والحُلَل، ثم يبعث بها إلى الكعبة فيكسوها إياها)[١]. أي أنه يجمّل بها بُدْنه؛ لأن ما كان لله فتعظيمه وتجميله من تعظيم شعائر الله[٢].

(١١٥١)تفيد الآية أنه يجب على من أهدى هدْيا أن يُكرمه، ويرعاه ويحسن معاملته، فإن كانت بدَنة فلا ينبغي أن يركب عليها إلا لحاجة[٣]، ولا يحمل عليها، ولا يعرّيها من أصوافها وأوبارها، ما دام قد أعدّها للهدي؛ لأنها منذ الوقت الذي اختيرت فيه لتكون هديا، قد أصبحت خالصة لله، وهي منذ ذلك الوقت إلى يوم النحر في ضيافة مُهديها إلى الله[٤].

(١١٥٢)تفيد الآية أنه يجب على كلّ مسلم- حاجّا أو غير حاجّ- أن يرعى للهدي حرمته، فلا يعتدي عليه بالسرقة، أو انتزاع ما قلد به من قلائد؛ لأنه الهدي هدي الله، وليس أصحابه المتقدمون به إلى الله إلا رعاة له، وهو أشبه بناقة صالح، له حرمته، كما كان للناقة حرمتها، وقد توعّد الله سبحانه وتعالى ثمود بالهلاك إن هم نالوها بسوء: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾ [سورة الأعراف: ٧٣][٥].

---

(١) رواه مالك في "الموطأ": (كتاب الحج، باب العمل في الهدي حين يساق، ح ١٤٦، ١/ ٣٧٩). و"يجللها": أي يكسوها الجِلال وهو ما يجعل على ظهر البعير، و(القباطي): ثوب رقيق من كتان يعمل بمصر، و(الأنماط): جمع نمط: ثوب من صوف ذو لون من ألوان، (والحلل): جمع حُلة لا يكون إلا ثوبين من جنس واحد؛ ينظر شرح الزرقاني على الموطأ (٢/ ٤٨٩ - ٤٩٠).

(٢) ينظر شرح الزرقاني على الموطأ (٢/ ٤٩٠).

(٣) عن جابر - رضي الله عنه - أنه سئل عن ركوب الهدي؟ فقال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها حتى تجد ظهرا)). أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب جواز ركوب البدنة المهداة، ح ١٣٢٤، ٢/ ٩٦١).

(٤) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٣٠).

(٥) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٣١).

(١١٥٣)تفيد الآية استحباب اختيار الأحسن من الأضاحي للتقرب بها في عيد الأضحى؛ لأن الأضاحيَ مثل الهدي، كلاهما دماء يتقرب إلى الله تعالى[١].

(١١٥٤)تفيد من باب أولى وجوب الحرص على سلامة الهدايا والضحايا من العيوب والآفات، وفي الحديث عن عليٍّ رضي الله عنه قال: ((أمرنا رسول الله -صلّى الله عليه وسلم- أن نستشرف العين والأذن، ولا نضحي بعوراء، ولا مقابَلة ولا مدابَرة، ولا خرقاء، ولا شرقاء))[٢].

(١١٥٥)تفيد الآية استحباب أخذ أغْلى ما يوجد من الأنعام للتقرب بها في الهدي. وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الرقاب أفضل؟ فقال: أغلاها ثمنا، وأنفسها عند أهلها». قال الشافعي: (والعقل مضطر إلى أن يعلم: أن كل ما تقرب به إلى الله عز وجل إذا كان نفيسا، فكلما عظمت رَزِيَّتُه على المتقرّب به إلى الله عز وجل كان أعظم لأجره)[٣].

(١١٥٦)تشير الآية إلى كراهية المماكسة والمشاحّة عند شراء الهدايا والضحايا[٤]؛ لأن المماكسة تنافي تعظيم ما يتقرب به الى الله من الأنعام. وقد كان السلف يُغالون في ثلاث- ويكرهون المِكَاس فيهنّ-: الهدي، والأضحية، والرقبة.

---

(١) ينظر تفسير الإمام الشافعي (٣/ ١٠٨٧).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في سننه: (الضحايا، باب ما يكره من الضحايا، ح ٢٨٠٤ و ٢٨٠٥ و ٢٨٠٦، ٣/ ٢٣٧ – ٢٣٨)، والنسائي في سننه: (كتاب الضحايا، باب الخرقاء وهي التي تخرق أذنها، وباب الشرقاء وهي مشقوقة الأذن، وباب العضباء، ٧ /٢١٧)، وأخرجه كذلك الترمذي في سننه: (كتاب الأضاحي، باب ما يكره من الأضاحي، ح ١٤٩٨، ٤/ ٨٦)، ورواه أيضا ابن ماجة مختصرا في سننه: (كتاب الأضاحي، باب ما يكره أن يضحى به، ح ٣١٤٢، ٢/ ١٠٥٠)، وأحمد في المسند: (١/ ١٥٠، رقم ٨٥١)، وفي إسناده أبو إسحاق السبيعي، وهو ثقة لكنه اختلط بأَخَرة.

(٣) تفسير الإمام الشافعي (٣/ ١٠٨٧).

(٤) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٦)، وفتح البيان (٩/ ٤٧).

(١١٥٧)تفيد الآية أنه يلزم للحاج أن يعتقد أن طاعة الله في التقرب بالأنعام وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم، لا بد أن يحتفل به ويسارع فيه[١]؛ لأن هذا من تعظيم شعائر الله تعالى.

(١١٥٨)تدلُّ الآية على أنه يلزم الحاج أن يعتقد أن التقرُّب بالهدي من أجل القربات إلى الله[٢]، وإن كان تعالى لا تناله لحومها ولا دماؤها؛ لأن الله تعالى يريد من عباده أن يعظموه ويعظموا أمره ويبذلوا في سبيل طاعته أثمن ما يملكون، قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ٣٧].

(١١٥٩)تدل الآية على أن قبول الله للهدي يكون إذا تُقُرِّب بها على وجه التعظيم. قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ٣٧]: (إن اتقيت الله في هذه البُدْن، وعملت فيها لله، وطلبت ما قال الله تعظيمًا لشعائر الله ولحرمات الله، فإنه قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾، وقال: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ قال: وجعلته طيبا، فذلك الذي يتقبل الله. فأما اللحوم والدماء، فمن أين تنال الله؟)[٣].

(١١٦٠)في الآية إيذانٌ بأن تعظيم الهدي لا لذات البهيمة، بل لأنها مهداة لبيت الله تعالى، وقربة إليه سبحانه بما ندب الناس إليه، ولأنها تكون طعمة لفقراء البلد الحرام الذي عظمه الله تعالى[٤].

(١١٦١)تشير الآية إلى أن تعظيم الحاج لما أهداه من الأنعام دليل على تعظيمه لله ودينه، (وذلك أن أصل شراء البُدْن ربما يحمل على فعل ما لا بد منه، فلا يدل على الإخلاص

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٤).

(٢) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٦).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٧٠).

(٤) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٨٢).

فإذا عظمها مع حصول الإجزاء بما دونه فلا يظهر له عمل إلا تعظيم الشرع، وهو من تقوى القلوب)[1].

(١١٦٢)تفيد الآية وجوب الإتيان بأعمال الحج على وجه التمام، لأن المراد بشعائر الله مناسك الحج على قول جمع من المفسرين[2]، وذلك من تعظيمها، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [سورة البقرة: ١٩٦].

(١١٦٣)تفيد الآية أنه يجب على المؤمنين تعظيم الأعمال التي ألزمهم بأدائها في الحج، حتى إن لم تدرك عقولهم الحكمة منها[3]. لأن التعظيم عمل قلبي مبنيٌّ على التسليم.

(١١٦٤)تدل الآية على أنه لا يجوز التهاون بمناسك الحج وعدم إقامتها[4]؛ لأن ذلك خلاف التعظيم.

(١١٦٥)تفيد الآية أنه يلزم الحاج أن يجل مواضع الحج ويوقرها ويقصد إليها كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن مواضع الحج من شعائر الله، وتعظيمها يكون بتوقيرها.

(١١٦٦)تفيد الآية أنه يجب على ولاة الأمر تعظيم الأماكن التي أمرهم بأداء مناسك الحج فيها -كمِنى وعرفة والمزدلفة وموضع الجمرات – بكل صور التعظيم المادية والمعنوية[5].

(١١٦٧)تفيد الآية حرمة الاستهانة بمشاهد الحج ومواضعه؛ لأن ذلك منافٍ لتعظيمها، والأمر بالشيء نهيٌ عن ضده.

(١١٦٨)تفيد الآية وجوب السعي بين الصفا والمروة؛ لأن الله تعالى ذكر بأنهما من شعائر الله، فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة البقرة: ١٥٨)، وحث في هذه

---

(١) ينظر أحكام القرآن للكيا الهراسي (٤/ ٢٨٢)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٦).

(٢) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٢٢)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢١)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٦).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٤١).

(٤) ينظر أضواء البيان (٤/ ٤١٧).

(٥) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٤١).

الآية على تعظيم الشعائر، وذكر أن هذا التعظيم من تقوى القلوب، والتقوى واجبة على كل مكلف، فدل مجموع النصين على أن تعظيمهما واجب، والسعي بينهما مظهر لتعظيمهما[1].

(١١٦٩)تدل الآية على عدم التهاون بالسعي بين الصفا والمروة، لأنه من شعائر الله كما ذكر الله تعالى[2]، والتهاون ينافي التعظيم.

(١١٧٠)تدل الآية على وجوب احترام مواقيت الحج وعدم مجاوزتها دون إحرام؛ لأن مواقيت الحج من مشاهد الحج، وهي مندرجة في شعائر الله التي ينبغي تعظيمها.

(١١٧١)تومئ الآية إلى أن تعدي مواقيت الحج يلزم عليه فدية؛ لأن المواقيت من شعائر الله التي ينبغي تعظيمها، وتعظيم هذه المواقيت يقتضي لزوم الكفارة على من تعدّاها.

(١١٧٢)تدل الآية على وجوب أداء أعمال الحج في الأوقات التي يجب أداؤها فيها، واستحباب أداء الأعمال في أوقاتها المستحبة؛ لأن ذلك من تعظيمها[3].

(١١٧٣)في الآية دلالة على أن أداء بعض أعمال الحج في غير وقتها بغير عذر تلزم عليه الفدية؛ لأن أعمال الحج من شعائر الله، ومن تعظيمها أداؤُها في أوقاتها، وذلك يقتضي التغليظ على من لم يقف عندها.

(١١٧٤)يستنبط من الآية استحباب وقوف الحاج بعرفة وهو راكب؛ لأن في الوقوف راكبا مباهاةً وتعظيمًا للحج[4].

(١١٧٥)تفيد الآية أن الشعائر التي عينها الله ورسوله يلزم أن تُعظَّم بإقامة ذكر الله وحده فيها. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة، ورمي

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٦).

(٢) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢٥٨).

(٣) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٨٥).

(٤) ينظر تفسير القرطبي (٢/ ٤١٧).

الجمار: لإقامة ذكر الله)) [1]. وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [سورة البقرة: ١٩٨].

(١١٧٦)تدل الآية على أن تعظيم شعائر الحج وأعماله ومواضعه أثر من آثار وجل القلوب من خشية الله، وحقيقة معرفتها بعظمته وإخلاص توحيده[2]. ويؤخذ هذا من أن معنى الآية: (فإن تعظيمها ناشئٌ من تقوى القلوب)[3]، وهذا بناءً على أن ﴿مِن﴾ للابتداء.

(١١٧٧)في الآية إشارة إلى أن من أعظم ثمار الحج أنه يعود المسلم على الاستسلام لله في كل أمر، وتعظيم الله قلبًا وقالبا[4].

(١١٧٨)تدل الآية على أن التعظيم الحامل للمسلم على امتثال أوامر الله على وجهها واجتناب ما نهى عنه يدل على تقوى قلبه؛ لأن تعظيمها من تقوى القلوب وتعظيمِها لجلال الله[5]؛ لأنه قد حذف من هذه الآية سبب كون التعظيم خيراً له، وهو التقوى، ودل على إرادته بذكره في الآية الأخرى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٦٤، ٧٥، ١٣٩)، والدارمي في سننه (كتاب المناسك، باب الذكر في الطواف والسعي بين الصفا والمروة، ح ١٨٦٠، ٢/ ٥٠)، وأبو داود في سننه (كتاب المناسك، باب في الرمل، ح ١٨٨٨، ١٧٩/٢)، واللفظ له، والترمذي في سننه (كتاب الحج باب ما جاء في كيف يرمي الجمار، ح ٩٠٢، ٣/ ٢٣٧)، وقال: (حديث حسن صحيح). وأخرجه الحاكم (١/٦٣٠، رقم ١٦٨٥) وصححه. والبيهقي في شعب الإيمان (٤٦٧/٣، رقم ٤٠٨١).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٤١).

(٣) فتوح الغيب (١٠/ ٤٨٣).

(٤) ينظر الأساس في التفسير (١/ ٤٥٦).

(٥) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٤٢).

(١١٧٩)في الآية حث على التقوى، وبعثٌ للهمم على الاهتمام بأمرها[١]، وبيانٌ لأحد وجوهها، وهو تعظيم أمر الله ونهيه، ويؤكده أن مدار هذه السورة على التقوى.

(١١٨٠)في الآية إشارةٌ إلى أن الحاجّ عليه أن يتحلى بتقوى الله ظاهرا وباطنا، أما في الظاهر فبالتزام أحكام الحج، وأما في الباطن فبتعظيم شعائر الله وحرماته.

(١١٨١)تدل الآية على أن تقوى القلوب من مقاصد الحج الكبرى[٢]؛ لأن هذه الآية من جهة وردت في سياق آيات الحج، ومن جهة أخرى وردت في سورة الحج التي مدارها على التقوى.

(١١٨٢)تفيد الآية أن تعظيم شعائر الله تعالى[٣] من العلامات التي تدل على رسوخ تقوى الله وخشيته في القلب[٤].

(١١٨٣)تفيد الآية أن تعظيم شعائر الله تعالى باب من أبواب تقواه سبحانه[٥]؛ لأن ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ تفيد التبعيض.

(١١٨٤)تفيد الآية أنه بقدر ما وقر في قلب المرء من التقوى لربه يكون تعظيمه لشعائر الله تعالى[٦]، فكلما كان المسلم أكثر تقوى لله تعالى كان أكثر تعظيما له وشعائره.

(١١٨٥)تفيد الآية أن القلوب الصافية من شأنها أن تعظم معالم دين الله تعالى[١].

---

(١) ينظر التفسير المنير (١٧/ ٢١٣).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٨).

(٣) أما وجه الإتيان بضمير المعنى فقد قال الواحدي في البسيط (١٥/ ٣٩٢): (والصحيح أن المعنى: فإن تعظيمها، فحذف المضاف لدلالة ﴿يُعَظِّمۡ﴾ على التعظيم كما قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ (الحج: ٣٠)، فكنّى عن التعظيم لَمّا دلَّ ﴿يُعَظِّمۡ﴾ عليه، كذلك هاهنا حذف التعظيم لما كان ﴿يُعَظِّمۡ﴾ (الحج: ٣٠) يدلُّ عليه). وثمة تقاديرُ أخرى.

(٤) ينظر الوجيز للواحدي (ص: ٧٣٣).

(٥) ينظر روح المعاني (٩/ ١٤٥).

(٦) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ١٥).

(١١٨٦)تشير الآية أن القلب إذا كان فيه شيء من تقوى وإيمان، فإنّ أثر ذلك يظهر ذلك بقدره في أعمال الجوارح[٢]، فإنْ كان فيه تعظيم لله ظهر ذلك في تعظيم صاحبه لشعائره سبحانه.

(١١٨٧)تشير الآية كذلك إلى أن القلب إذا كان فيه شيء من النفاق أو الشر، فإن أثر ذلك يظهر ذلك بقدرْه في أعمال الجوارح[٣]. ويؤيد هذه الهدايةَ وسابقتَها قولُ النبي صلى الله عليه وسلم: ((ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب))[٤].

(١١٨٨)تشير الآية إلى أن حقيقة التقوى ما استقر في القلب، لأن الله تعالى أضاف التقوى إلى القلوب، لأن حقيقة التقوى تقوى القلوب[٥]، كما جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((التقوى هاهنا))، وأشار إلى صدره[٦].

(١١٨٩)تؤذن الآية بأن أعمال القلوب أهم وأعظم من أعمال الجوارح؛ لأن الله تعالى نسب في هذه الآية التقوى إلى القلوب، وجعلها منشأ التعظيم لشعائره تعالى.

---

(١) حكى السمرقندي في تفسيره (٢/ ٤٥٩) أنه قيل في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ (الحج: ٣٢)، يعني: من صفاء القلوب.

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤١٤)، والكشاف (٣/ ١٥٧).

(٣) ينظر تفسير الماتُريدي (٧/ ٤١٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ح ٥٢، ١/ ١٢٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ح ١٥٩٩، ٣/ ١٢١٩ – ١٢٢٠).

(٥) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٩٢)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٦).

(٦) هذا جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم، ح ٢٥٦٤، ٤/ ١٩٨٦).

(١١٩٠)تشير الآية إلى أن عبادة القلب هي الأصل؛ لأن الله تعالى بيَّن في هذه الآية أن المقصود هو تقوى القلوب لله، وتقواها هو عبادتها له وحده بغاية العبودية له، والعبودية تجتمع فيها غاية المحبة وغاية الذل والإخلاص[١].

(١١٩١)تومئ الآية إلى أن أولى ما يُعنى به المسلم هو تطهير قلبه وتنويره بنور الإيمان وضياء التقوى؛ لأن القلوب هي مراكز التقوى، ولذلك أضاف إليها التقوى في قوله: ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾[٢].

(١١٩٢)في الآية تنبيه على أن القلب مِلكُ الجوارح؛ لأن الله تعالى أضاف التقوى إليه خاصة فقال: ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾، فأُطلقتِ القلوبُ على الجملة كلها إطلاقاً للبعض على الكل؛ لأن التقوى لا تختصُّ بالقلب، فإن لكل عُضو تقوى، ولكونه رئيسَ الأعضاء وأرفعَها صح هذا المجازُ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٣][٣].

(١١٩٣)تومئ الآية إلى أن المعتبر هو تقوى القلوب، لا تقوى الجوارح[٤]، لأن القلب هو محلُّ نظر الله تعالى، أما تقوى الجوارح - وهي إصلاح ظاهر العمل - فيقع حتى من المنافقين: ﴿* وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [سورة المنافقون: ٤][٥].

(١١٩٤)تدل الآية أن المسلم لن يمتثل أوامر الله ويجتنب نواهيه بظاهره حقيقةً حتى تستقر التقوى في قلبه، لأن تقوى الجوارح متفرعة عن تقوى القلب، فإذا رسخت التقوى في القلب استقامت الجوارح.

---

(١) ينظر مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٨٥).

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٧).

(٣) فتوح الغيب (١٠/ ٤٨٤).

(٤) ينظر الفوائد لابن القيم (ص: ١٤١).

(٥) ينظر تفسير العثيمين: الحجرات - الحديد (ص: ٢٠).

(١١٩٥)تومئ الآية أن العبد لن ينعم بثمرات التقوى في الدنيا والآخرة التي بشرنا الله بها في كتابه إلا إذا استقرت التقوى في قلبه[١]، أما الأعمال الظاهرية التي لا يكون لها ما تستند إليه في القلب من خشية له وتعظيم له وإخلاص لوجهه فلا تكون لها تلك الثمرات.

(١١٩٦)تفيد الآية أن تعظيم البُدْن باختيار أعظمها وأسمنها من[٢] علامات إخلاص القلوب لله[٣]. بناء على أن ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ تفيد التبعيض، وأن المراد بتقوى القلوب: إخلاصها.

(١١٩٧)تفيد الآية أن المعظِّم للهدايا يبرهن على تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمَها تابع لتعظيم الله وإجلاله[٤]، ولأن التوجه بها إلى الكعبة وتخصيصها لفقراء الحرم، مظهرٌ حسيٌّ يدل على تقوى الكامن في القلوب[٥].

(١١٩٨)تفيد الآية أن تعظيم الهدايا التي تُهدى إلى البيت من أفعال المتقين لله الذين ملأت التقوى قلوبَهم[٦].

(١١٩٩)تفيد الآية أن تعظيم شعائر الله – وإن ظهر في مظاهر شكلية – إلا أنه في الأصل من أعمال القلوب (التي من شأنها الشعورُ بما هو أهلٌ لأن يعظم)[٧].

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٩).

(٢) هذه الهداية وأمثالها بناءً على أن {من} في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ (الحج: ٣٢) للتبعيض.

(٣) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٢٦)، وتفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٧١)، وعزاه إلى السُّدّي، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٩). ونسبه الماوردي في النكت والعيون (٤/ ٢٣) كذلك إلى الكلبي.

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٦).

(٥) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٨٢).

(٦) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٦)، والتفسير الواضح (٢/ ٥٨٥). قال الألوسي في روح المعاني (٩/ ١٤٥): (لا يخفى أنه كلما كان التقدير أقل كان أولى، فيكون قول من قال: التقدير فإن تعظيمها من تقوى القلوب أولى من قول من قال: التقدير: فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب).

(٧) نظم الدرر (١٣/ ٤٥).

(١٢٠٠)في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ إشارة إلى أن تعظيم شعائر الحج هو تعظيمٌ لله، يتجلّى فيه درجة إيمان المؤمنين، وينكشف به ما عندهم من تقوى، إذ كانت هذه الأعمال – كما تبدو في ظاهرها – خارجةً عن منطق العقل. والإيمان حين يرسخ في القلوب يبعث على التسليم وعدم الاستجابة لأسئلة العقل الملحة عن الحكمة وراء تلك الأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾، ليبين أن تعظيم هذه المناسك والقيام بها في إيمان وإخلاص إنما هو نابع من القلوب، وثمرة من ثمار التقوى المتمكنة منها[(١)].

(١٢٠١)يستفاد من ذلك أن نركز في تعليم مناسك الحج على المشاعر القلبية، ذلك أن الإنسان قد يتسلط عليه الشعور بالتراخي في أداء أعمال الحج، أو الوقوف بمواضعه، وقد يؤديها في استخفاف أو استثقال، الأمر الذي يذهب بالفوائد الطيبة التي ينالها الحاج إن أدى حجه على أكمل الوجوه، وهو ممتثل لأمر الله، معظم لشعائره، راجٍ لمغفرته ورضوانه. وليدفع الله ما قد يوحي به التفكير العقلي لصاحبه من تساؤلات في شأن تلك المناسك دعا الله أكثر من مرّة إلى تعظيمها بقلوبهم وجوارحهم به ليظهروا إيمانهم به وتسليمهم لأمره[(٢)].

(١٢٠٢)يُفهَم من الآية أنه لا عبرة بالأعمال الظاهرة على الجوارح إن لم تكن ناشئة عن تقوى متمكنٍ في القلب[(٣)].

(١٢٠٣)يفهم من الآية أن عدم تعظيم مناسك الحج ومشاهده علامةٌ على خلو القلب من خشية الله وتعظيمه.

(١٢٠٤)يفهم من الآية أن ترك تعظيم شرائع الدين ومعالمه علامةٌ على وجود بذْرة النفاق في القلب. فالمنافق قد يظهر التقوى من نفسه، ولكن لما كان قلبه خاليا عنها فإنه لا

(١) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٣٣).
(٢) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٣٤).
(٣) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٨٠).

يكون مجدًّا في أداء الطاعات، أما المخلص الذي تكون التقوى متمكنة في قلبه فإنه يبالغ في أداء الطاعات على سبيل الإخلاص[١].

(١٢٠٥)في الآية إشارة إلى أن التقوى قسمان: تقوى القلوب، والمراد بها التقوى الحقيقية الصادقة التي يتصف بها المؤمن الصادق، وتثمر تقوى الجوارح؛ وتقوى الأعضاء، والمراد بها التقوى الصورية الكاذبة التي يتصف بها المنافق الذي كثيرا ما تخشع أعضاؤه وقلبه ساهٍ لاهٍ[٢].

(١٢٠٦)تشير الآية إلى أن من قصد نيل الثواب[٣] فعليه أن يؤدي الشعائر بجوارحه وهو يعظمها بقلبه.

(١٢٠٧)تشير الآية إلى أن تمام وكمال تقوى القلوب لا تكون إلا بدوام الاستمرار في تعظيم شعائر الله دون انقطاع؛ ويستفاد هذا المعنى من التعبير بالفعل المضارع: ﴿يُعَظِّمْ﴾، وهو يفيد التجدد والاستمرار[٤].

(١٢٠٨)تومئ الآية بأن تعظيم شعائر الله سبب لنيل رضا الله تعالى[٥]؛ فإن القلوب هي محل نظر الله تعالى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[٦].

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٤).

(٢) ينظر روح المعاني (٩/ ١٤٥).

(٣) قال الماوردي في النكت (٤/ ٢٣) بعد أن ذكر ما روي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾ [سورة الحج: ٣٢]: (ويحتمل عندي وجهاً آخر أنه قصد الثواب).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٧٩).

(٥) ينظر النكت والعيون (٤/ ٢٤) حيث قال: (ويحتمل وجهاً آخر أيضاً: أنه ما أرضى الله تعالى).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله...، ح ٢٥٦٤، ٤/ ١٩٨٧).

(١٢٠٩)تدل الآية بضميمة الآية الأخرى أن من يعظم شعائر الله فهو خيرٌ له عند ربه في الآخرة؛ لأنه حذف هنا كون التعظيم خيراً، ودل عليه بذكره هناك، وهو ما يسميه البلاغيون بالاحتباك[١].

(١٢١٠)تومئ الآية إلى أن التقوى هي الغاية من مناسك الحج وشعائره، ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى ربط في هذه الآية بين الهدي الذي ينحره الحاج –معظمًا له – وتقوى القلوب[٢].

(١٢١١)تومئ الآية إلى أن مناسك الحج أمور محسوسة مرئية، ولكنها في الحقيقة رموز تعبيرية تدل على توجه القلوب إلى الله تعالى وطاعته، فالطواف وهو عمل حسي يدل على الاتجاه إلى ضيافة الرحمن، وهكذا[٣].

(١٢١٢)تفيد الآية أن حالة التعظيم إذا كست العبدَ باطنًا وظاهرًا فأصله تُقاة القلب بصلاح السر وإخلاص النية، وذلك لأن التعظيم من أفعال القلب، وهو الأصل لتعظيم الجوارح بالأفعال[٤].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٣٣﴾ [سورة الحج: ٣٣]:

(١٢١٣)تدل الآية على جواز الانتفاع بمنافع البُدْن – من الركوب والدر والنسل والصوف وغير ذلك – قبل أن تُعيّن للإهداء[١]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٤٥).
(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٢٢).
(٣) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٢٢)، وزهرة التفاسير (٤/ ٢٠١٩).
(٤) ينظر أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٨٨).

مُّسَمًّى﴾. والمراد بها النوق التي تهدى إلى مكة[٢]، وقد بين مجاهد المنافع المرادة فقال: (المنافع في البُدْن في لحومها، وألبانها، وأشعارها، وأصوافها، وأوبارها إلى أن تسمى بدنا)[٣]. وزاد في رواية: (وركوبها)[٤]. وروي عن ابن عباس أنه قال: (هي البُدْن ينتفع بظهورها ويستعان بها)[٥]. والأجل المسمى: وقتُ تعيينها هديًا.

(١٢١٤)تدل الآية على قولٍ على أن البدنة إذا أوجبها صاحبها وعيَّنها هديا لم يجز أن يركب ظهرها أو يشرب لبنها أو ينتفع بوبرها أو غير ذلك[٦]، وقد روي عن مجاهد أنه قال في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾: (الركوب واللبن والولد، فإذا سميت بدَنة أو هديا ذهب كله)[٧].

(١٢١٥)في الآية إثبات أن الأحكام الشرعية يراد بها خيرا الدنيا والآخرة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾، والتنكير للتكثير، والمعنى: أن لكم في الهدايا منافع كثيرة، في دنياكم ودينكم[٨]. فالدرّ والركوب والنسل والوبر من المنافع الدنيوية، ونحرها للثواب وهو من المنافع الأخروية[٩].

---

(١) هذا قول مجاهد، وعطاء، والضحاك، وقتادة، ورواية مقسم عن ابن عباس، والكلبي. ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٩٣)، زاد المسير (٣/ ٢٣٦)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٦).

(٢) قال الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٢٤): (هو قول جمهور المفسرين، ولا شك أنه أقرب).

(٣) تفسير مجاهد (ص: ٤٨١)، وتفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ٢٥، رقم ٤١) بنحوه، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٤٣). وقد قال النحاس في معاني القرآن (٤/ ٤٠٨ -٤٠٩): (وقول مجاهد عند قوم أولى لأن الأجل المسمى عنده أن تجعل هديا وتُقلَّد، والأجل المسمى ليس موجودا في قول عُروة).

(٤) تفسير سفيان الثوري (ص: ٢١٢).

(٥) تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٧١).

(٦) ينظر النكت الدالة على البيان (٢/ ٣١٦).

(٧) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٤٣).

(٨) الكشاف (٣/ ١٥٧).

(٩) التفسير المظهري (٦/ ٣٢١).

(١٢١٦)تدل الآية على عظمة شرع الله ودينه، حيث جعل في الأعمال الصالحة منافع للناس، وهي منافع عامة، ومن أخصها في الحج: الهدي الذي كان في الجاهلية محرما على صاحبه أن يركبه أو يَطعَمه أو ينال من منافعه[١].

(١٢١٧)تفيد الآية أن في المناسك منافع دنيوية: من تجارة، ورواج، ومعاملة، وسياحة، وتعارف بين المسلمين من مختلف البلاد، وفيها منفعة أخروية وهي الأجر والثواب، وذلك أعظم من الدنيا ومنافعها[٢].

(١٢١٨)في الآية دليل على رعاية الشريعة لمصالح الخلق في كل أحوالها، سواء كانت هذه المصالح دنيوية أم أخروية، كبيرة كانت أم صغيرة[٣]؛ لأن الله تعالى قال في شأن الشعائر: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾؛ وذلك يقتضي أن تراعى مصالح الخلق في الفتوى والقضاء.

(١٢١٩)تشير الآية إلى أن المنافع الدنيوية أمدها محدود، ثم تعقُبها المنافع لأخروية التي لا ينقطع أمدها؛ لأن ذكر ما يؤتي بالثواب فقال: ﴿ثُمَّ﴾، وهي تفيد الترتيب.

(١٢٢٠)تتضمن الآية أن المنافع الدينية في الهدي أفضل من المنافع الدنيوية؛ لأن الله أثبت فيها المنافع كلها، ولما كانت هذه المنافع دنيوية، وكانت منفعة نحرها إذا أهديت دينية، أشار إلى تعظيم الثاني بأداة التراخي[٤] فقال: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾، وعلى القول بأن ﴿ثُمَّ﴾ تفيد التراخيَ في الرتبة، فمعناها: لكم فيها منافع دنيوية إلى وقت النحر، وبعده

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٠).
(٢) تفسير المنتصر الكتاني (الدرس ٧٣/ ٣).
(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٠).
(٤) نظم الدرر (١٣/ ٤٦).

منافع دينية أعظم منها[(١)]، فينال صاحبها منفعتها الكبرى الدائمة عند الله تعالى في يوم يكون صاحبها أحوج منه إلى غيره، أما منفعتها الدنيوية فإنها فانية[(٢)].

(١٢٢١)تدل الآية على جواز ركوب البدنة بالمعروف، وشرب ما فضَل من اللبن بعد رِيِّ ولدها، وذلك عند الحاجة ولو بعد أن سميت هديا[(٣)] مدة بقائها في أيدي المهدين إلى أن يحين وقت نحرها في يوم النحر؛ لأن هذه من منافع الهدي التي أثبت الله الانتفاع بها للحجاج في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. أي إلى أن تنحر كما روي عن عطاء[(٤)]. (والآية تدل على هذا؛ لأن قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الشعائر، فالكناية عنها، ولا تسمى شعائر قبل إيجابها وتسميتها، وهذا يدل على إباحة الانتفاع بها وهي تسمى شعائر)[(٥)].

---

(١) تفسير البيضاوي (٤/ ٧١).

(٢) بيان المعاني (٦/ ١٧١).

(٣) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٢٦)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٧). فقد ذهب الشافعية أنه إنما يجوز الانتفاع إلى وقت الذبح للحاجة، ولو لم يكن هناك اضطرار، وأجازه مالك من غير فدح. وذهب الحنفية أن الأجل المسمى هو وقت تعيينها هديا، ولا يجوز الانتفاع بها بعد السوق إلا في حالة الاضطرار التي يخشى معها الموت. قال السمرقندي في تفسيره (٢/ ٤٥٩): (وهذا القول أحوط الوجهين). وينظر أحكام القرآن لابن الفرس (٣/ ٣٠٧). واستدل الماتريدي (٧/ ٤١٩) على عدم جواز الانتفاع بها بأنّ الله قال في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ (المائدة: ٢)، وفي الانتفاع بها إحلال شعائره!! وإنما تجوز المحظورات عند الضرورة.

(٤) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٤٥) عن عطاء: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الحج: ٣٣)، قال: (هو ركوب البدن، وشرب لبنها إن احتاج). وعن ابن جريج، قال: قال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الحج: ٣٣)، قال: (إلى أن تنحر، قال: له أن يحمل عليها المعيي والمنقطع به من الضرورة، كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بالبدنة إذا احتاج إليها سيدها أن يحمل عليها، ويركب عند منهوكه"، قلت لعطاء: ما؟ قال: (الرجل الراجل، والمنقطع به، والمتبع وإن نتجت، أن يحمل عليها ولدها، ولا يشرب من لبنها إلا فضلا عن ولدها، فإن كان في لبنها فضل فليشرب من أهداها ومن لم يهدها).

(٥) التفسير البسيط (١٥/ ٣٩٤)، وينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٤). ويؤيده أن المقصود من الآية الرد على المشركين، إذ كانوا إذا قلدوا الهدي وأشعروه حظروا الانتفاع به من ركوبه وحمل عليه وشرب لبنه، وغير ذلك. (التحرير والتنوير: ١٧/ ٢٥٨).

ويؤيده: ((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة، فقال: اركبها، فقال: إنها بدنة. فقال: اركبها. قال: إنها بدنة. قال: اركبها ويلك. في الثالثة أو في الثانية))[1]. وهذا الحديث مقيد بالحاجة كما جاء في حديث آخر، فقد سئل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن ركوب الهدي؟ فقال: سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول: ((اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها حتى تجد ظهرا))[2]. وهو صريح بأن ركوب الهدي إنما يجوز إذا ألجأت إليه الحاجة، فهذا القيد الذي في هذا الحديث تقيد به جميع الروايات المطلقة، لوجوب حمل المطلق على المقيد، ولا سيما إن اتحد الحكم والسبب كما في هذه المسألة[3].

(١٢٢٢)تدل الآية على جواز أن نُركب غيرنا على الهدايا بلا أجرة إن احتيج إليه، فإن كان إركابها بأجرة حرم[4]؛ وذلك لأن الإركاب من المنافع، والانتفاع بالهدي جائز عند الحاجة كما تقدم.

(١٢٢٣)تدل الآية بضميمة الأحاديث النبوية على عدم جواز ركوب الهدي إن لم تكن ثمة حاجة، سواء كان هديا واجبا أم غير واجب؛ وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم قيد جواز الركوب بعدم وجود المركوب فقال: ((اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها حتى تجد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الحج، باب ركوب البدن، ح ١٦٠٤، ٢/ ٦٠٦)، ورواه بنحوه عن أنس رضي الله عنه: (ح ٢٦٠٣، و ح ٥٨٠٨). قال الكرجي في النكت (٢/ ٣٢٤): (فإن قال قائل: كيف أبحت الانتفاع بِدرّ الشعائر وظهورها، وقد يحتمل أن يكون قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قبل أن تجعل شعائر؟ قيل: إن هذا وإنِ احتمله فالأظهر ما قلناه، لأن الله – جل جلاله –ذكر تعظيمها وأنها من تقوى القلوب قبل ذكر المنافع. والثواب في تسمين البدن يكون لما تنحر لله، فأما ما نحرت للمأكلة فلا ثواب فيها من جهة نفس النحر سمانًا. وقد أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رجلاً يسوق بدنة أن يركبها وكرّره عليه ثلاثًا. فهذا يبين أن المنافع المباحة منها هي بعد التسمية، مع أن منافعها قبل التسمية معروفة بملكها فلا يحتاج إلى التكرير).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب جواز ركوب البدنة المهداة، ح ١٣٢٤، ٢/٩٦١).

() ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٧)، وأضواء البيان (٥/ ١٧٧).

(٤) ينظر مراح لبيد (٢/ ٧٢).

ظهرا))[1]. فإن وجد ظهرا يركبه غير الهدي ترك ركوب الهدي، ولا فرق في ذلك بين الهدي الواجب وغيره، لأنه صلى الله عليه وسلم قال لصاحب البدنة ((اركبها))، وهي مقلدة نعلا[2]، وقد صرح له تصريحا مكررا بأنها بدنة، ولم يستفصله النبي صلى الله عليه وسلم: هل تلك البدنة من الهدي الواجب أو غيره، وتركُ الاستفصال يتنزل منزلة العموم في الأقوال[3].

(١٢٢٤)تدل الآية على جواز شرب ما فضل من لبن البدنة بعد رِيِّ ولدها، وذلك عند الحاجة[4]؛ لأن اللبن من منافع الهدي التي أثبت الله الانتفاع بها للحجاج في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، ولأن اللبن يؤذيها فلا يتركه، بل يشرب ويوزع، وإذا كان لها ولد يأخذ ما فضَل عن ولدها، لأن اللبن غذاء الولد، ولا يجوز أن يمنع الولد غذاءه، أما شُرْب ما فضَل عن حاجته فلا ضرر فيه عليه ولا على أمه[5]، ولأن الولدَ كالأم، فإذا لم يجُزْ أن يمنع الأم علَفَها، لم يجُزْ أن يمنعه من اللبن؛ وعن عليٍّ رضي الله عنه أنه رأى رجلا يسوق بقرة ومعها ولدها، فقال: (فلا تشرب من لبنها إلا ما فضَل[6] عن ولدها، فإذا كان يوم النحر فانحرها هي وولدَها عن سبعة)[7].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) للبخاري في صحيحه: (كتاب الحج، باب تقليد النعل، ح ١٦١٩، ٢/ ٦١٠): (أَنَّ نبيّ الله -صلى الله عليه وسلم- رأى رجلاً يَسُوقُ بدنة، قال: اركبها، قال: إنها بَدنةٌ، قال: اركبها، قال: إنها بَدَنَةٌ، قال: اركبها، قال: فلقد رأيتُه رَاكِبَها يُساير النبيَّ -صلى الله عليه وسلم، والنعلُ في عُنُقِها).

(٣) ينظر أضواء البيان (٥/ ١٧٧ - ١٧٨).

(٤) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٢٦)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٧).

(٥) ينظر المهذب في فقه الإمام الشافعي للشيرازي (١/ ٤٣٠)، وأضواء البيان (٥/ ١٧٧).

(٦) في رواية البيهقي: ((إلا فضلا عن ولدها)).

(٧) أخرجه البيهقي في سننه (كتاب الضحايا، باب ما جاء في ولد الأضحية ولبنها، ح ١٩١٩٢، ٩/ ٤٨٥)، وذكره ابن أبي حاتم الرازي في "العلل" (٤/ ٥٣٠)، وحكى عن أبي زرعة أنه هو الصحيح، ينظر البدر المنير (٩/ ٣٢٩).

(١٢٢٥)تدل الآية على أن الإنسان إذا احتاج لركوب البدنة ركبها، وإن احتاج لصوفها، أو إلى شرب لبنها، فله أن ينتفع بها إلى أن يصل إلى بيت الله الحرام، لأن قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تعم كل أوجه الانتفاع، ومنها الركوب، وشرب اللبن، وجزّ الصوف، ومن ثم يجوز ركوبها عند الحاجة إن لم تلحقها مشقة فادحة. وإنما اشترطت الحاجة بدلالة الحديث، ولأن ملك الهدي زال عنه إلى المساكين، ولا ينتفع بملك الغير إلا لضرورة[(١)].

(١٢٢٦)تومئ الآية إلى أن الهدي إذا أهدي وهو حامل فولده لا ينتفع به، وإنما يُنحَر مع أمه[(٢)]، سواء كانت بُدْناً أم بقراً أم ضأناً أم ماعزاً. ويؤيده ما ورد عن علي رضي الله عنه أنه رأى رجلا يسوق بدنة ومعها ولدها، فقال: (... فإذا كان يوم النحر فانحرها هي وولدها عن سبعة)[(٣)]. وعن ابن عمر أنه كان يقول: (إذا أنتجت البدنة فليحمل ولدها حتى ينحر معها، فإن لم يجد له محلا فليحمل على أمه حتى ينحر معها)[(٤)].

(١٢٢٧)تدل الآية على أنه إن انتفع بالهدي بعد تعيينها هديا وأنقص منها شيئا فيجب ضمانه، لأنه أضر بحق الفقراء، فعليه أن يتصدق بمقدار قيمة ما أخذه من حقهم[(٥)].

(١٢٢٨)تفيد الآية بضميمة نصوص أخرى أنه لا ينبغي أن يتعدى المعروف في الانتفاع بالهدي عند الحاجة إليه، فلا يحمل عليها إلا مضطرا، ولا يشرب من لبنها إلا بعد رِيّ ولدها، ولا يجهد الحلب حتى لا ينهك جسمها[(٦)]. وفي رواية عن جابر، أن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) ينظر بحر المذهب للروياني (٤/ ٩٧).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٣).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٣).

(٥) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤١٦)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٧)، وذكر هذا الشنقيطي هذا القول في أضواء البيان (٥/ ١٧٧) وقال: (وله وجه من النظر). وينظر التفسير المنير (١٧/ ٢١٤).

(٦) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٢٦).

وسلم قال: ((اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها))[1]، وهو نصّ بأن ركوب الهدي إنما يجوز بالمعروف.

(١٢٢٩)تفيد الآية إلى أنه لا يجوز أن ينتفع بالهدي بعد أن تقلد، فإذا قلدت لم تركب لها ظهور، ولم يشرب لها لبن إلا عند الحاجة، وذلك لأن الله تعالى جعل للانتفاع بها غاية فقال: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، والأجل المسمى هو (إلى أن تقلد وتشعر) كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما[2] وغيره[3].

(١٢٣٠)تدل الآية على أنه لا يجوز أن يؤجر الهدي للركوب ونحوه، لأنه ما دام قد سماه هديا فقد جعل منفعته للفقراء ولم يعد مالكا لها، ولا يجوز أن يؤجر ما لا يملك منفعته[4].

(١٢٣١)تومئ الآية إلى أن التفكر فيما جعله الله في شعائره من منافع يحمل من تفكر فيها على تعظيمها، ويؤخذ ذلك من مجيء هذه الآية عقب قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢].

(١٢٣٢)تشير الآية إلى أنه يمكن إطلاق اسم البيت العتيق على الحرم كله، لأن الله تعالى قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ (﴾، ومن المعلوم أنه لم يرد

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه يحيى بن سلام في تفسيره (١/ ٣٧١).

(٣) كمجاهد والسدي، ينظر تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٧١).

(٤) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٩). قال ابن عادل في اللباب (١٤/ ٨٦): (واحتج أبو حنيفة على أنه لا يملك منافعها بأنه لا يجوز له أن يؤجرها للركوب، فلو كان مالكا لمنافعها لملك عقد الإجارة عليها كمنافع سائر المملوكات. وأجيب بأن هذا قياس في معارضة النص فلا عبرة به، وأيضا فإن أم الولد لا يملك بيعها ويمكنه الانتفاع بها، فكذا ههنا). وأصله من كلام الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٢٤).

به نفس البيت، وإنما أراد به ما يليه بعلاقة المجاورة، لأن الهدايا لا تنحر عند البيت نفسه، وإنما تنحر بالبقعة التي هو فيها، والحرم كله منحر ومذبح[(١)].

(١٢٣٣)تفيد الآية أنه يجوز نحر الهدي في أي موضع من أرض الحرم كله[(٢)]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾. و﴿مَحِلُّهَا﴾ حيث يحل نحرها، و ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾، أي عند البيت وما يقرب منه؛ لأن ﴿إِلَى﴾ تضم الشيء إلى الشيء، وتقربه منه[(٣)]. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((... وكل منى منحر، وكل فجاج مكة منحر...))[(٤)]. وإنما ذكر الْبَيْتِ لأنه أشرف الحرم، وهو المقصود بالهدي وغيره[(٥)]، و(الحرم هو حريم البيت)[(٦)].

(١٢٣٤)تؤذن الآية بأن البيت العتيق أشرف الحرم[(٧)]، لأن الله جعله محلا للهدي، ومعلوم أن ما كان من هدي للعمرة أو للنذر نُحِر إذا بلغ البيت، وما كان للحج نُحِر بمنى لتتنزه

---

(١) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤١٦)، والنكت الدالة على البيان (٢/ ٣١٧)، وروح المعاني (٩/ ١٤٦). ورد الواحدي هذا في البسيط (١٥/ ٣٩٥).

(٢) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٢٦)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٤٨)، والكشف والبيان (٧/ ٢٢)، والتفسير المظهري (٦/ ٣٢١).

(٣) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٩٥ - ٣٩٦).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه: (كتاب الصوم، باب إذا أخطأ القوم الهلال، ح ٢٣٢٤، ٢/٢٩٧)، والبيهقي في سننه (٤/٢٥١، رقم ٧٩٩٥). وأخرج مسلم في صحيحه (كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ح ١٢١٨، ٢/٨٩٣) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((نحرت هاهنا ومنى كلها منحَر، فانحروا في رحالكم...)).

(٥) المحرر الوجيز (٤/ ١٢١).

(٦) الكشاف (٣/ ١٥٧).

(٧) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٢١).

مكة وتطهر عن الدماء [1]. والإجماع على عدم جواز الذبح داخل الكعبة أو في المسجد الحرام[2].

(١٢٣٥)تدل الآية على أن مكة كلها حرم[3]؛ لأن المراد بالبيت العتيق الحرم كله على قول أكثر المفسرين. وإنما غلب اسم البيت على الحرم كله فسمي به[4]، وذلك نظير قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ [سورة التوبة: ٢٨]، والمراد: الحرم كله[5].

(١٢٣٦)في هذه الآية دليل لمن قال: إن ثواب الصلاة في حدود الحرم كالصلاة في المسجد الحرام؛ فإن الهدي لا يساق إلى الكعبة ولا يذبح عندها، بل يذبح في أماكن في حدود الحرم[6].

(١٢٣٧)في الآية دلالة على أن أعظم وأفضل الأماكن لإقامة شعائر الله هو البيت العتيق، وذلك لأن الله تعالى جعلها محلا لها فقال: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٣٣﴾[7].

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء (٢/ ٢٢٥).

(٢) ينظر بداية المجتهد (٢/ ١٤٠)، والتوضيح في شرح مختصر ابن الحاجب (٣/ ١٧٩).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٠).

(٤) النكت الدالة على البيان (٢/ ٣١٦).

(٥) تفسير الطبري (١٦/ ٥٤٨). وقد تعقب الواحدي هذا القول في "البسيط" (١٥/ ٣٩٥) فقال: وكثيرمن المفسرين يقولون: عني بالبيت العتيق: الحرم كله؛ لأن الحرم كله منحر. وهذا وَهْمٌ، لا يعبر عن الحرم بالبيت العتيق ولا يفهم ذلك منه؛ لأن البيت اسم للبنية المعروفة، فلا يقع على الحرم كله. واحتج من قال بهذا بقول: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ (التوبة: ٢٨) يعني الحرم كله. وهذا لا يُشبه قوله: ﴿ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٢٩ ﴾ (الحج: ٢٩)؛ لأن الحرم كله مسجد، على معنى أنه يجوز الصلاة في كما روي في الحديث: "جُعِلت لي الأرضُ مسجدًا".فسماها كلها مسجدًا على المعنى الذي ذكرنا. والبيت لا يقع على الحرم كله، لو كان الأمر على ما قالوا لقيل: ثم محلها البيت العتيق، أي: الحرم، فلما قيل: ﴿ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٣٣ ﴾ دل على أن المعنى: عند البيت وما يقرب منه؛ لأن "إلى" تضم الشيء إلى الشيء، وتقربه منه)، وهذا كلام وجيه.

(٦) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٠).

(٧) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٠).

(١٢٣٨)يفيد ظاهر الآية أنّ جميع الهدايا يجب أن تذبح في هذا المحل، سواء في ذلك ما تعلّق وجوبه بالإحرام، كما في جزاء الصيد والفدية ودم التمتع ودم الإحصار، وما التزمه الإنسان كما في الدم الذي يتطوّع به إلى الحرم، أو ينذره كذلك[١].

(١٢٣٩)تفيد الآية أنه لا يجوز ذبح الهدي خارج الحرم[٢]، ومن نحر خارج الحرم لم يجزئه الهدي، وتلزمه إعادته في الحرم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾. و ﴿مَحِلُّهَآ﴾ حيث يحل نحرها، وهذا يستلزم أنه لا يحل نحرها إلا عند البيت العتيق، والمراد به مكة أو الحرم كما تقدم. ويستثنى من ذلك هدي الإحصار الذي يذبح حيث حصر الحاج.

(١٢٤٠)تدل الآية على أن أعظم المنافع الدينية في الشعائر هي نحرُها خالصةً لله تعالى، وجعل وقت وجوب نحرها فائدةً عظيمة مبالغة في ذلك، فإن وقت الفعل إذا كان فائدة جليلة، فما ظننا بنفس الفعل؟ والعتيق: المتقدم في الزمان والمكان والرتبة[٣].

(١٢٤١)تفيد الآية أن في الأنعام منافع دينية ينتفع بها الناس إلى أجل مسمى وهو الموت[٤]، وهذا بناءً على أن الكلام في هذه الآية متصل بحديث الْأَنْعامِ حيث قال تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [سورة الحج: ٣٠]، والضمير فيه عائد إليها.

(١٢٤٢)تشير الآية أن للناس في الالتزام بشرائع الدين منافع دنيوية وأخروية تستمر إلى انقطاع التكليف، ثم محلها الذي توصل إليه إذا روعيت منتهٍ إلى البيت العتيق الذي ترفع إليه الأعمال أو يكون فيه ثوابها، وهو البيت المعمور، وهو معبد للملائكة عليهم السلام[٥].

---

(١) تفسير آيات الأحكام للسايس (ص: ٥٠٦).

(٢) الإكليل (ص: ١٨٣).

(٣) ينظر روح البيان (٦/ ٣٣).

(٤) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٧١)، واللباب (١٤/ ٨٦)، والتفسير المظهري (٦/ ٣٢١).

(٥) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٧١)، والتفسير المظهري (٦/ ٣٢١)، وروح المعاني (٩/ ١٤٦).

(١٢٤٣)تفيد الآية أن للناس في كل مشعر منها منافع إلى أن يخرجوا منه إلى غيره، ومحل هذه الشعائر كلها الطواف بالبيت العتيق[١].

(١٢٤٤)تفيد الآية أن في مشاهد الحج التي يعظمها الحجاج منافع بتجارتهم عندها وبيعهم وشرائهم وتسوقهم بحضرتها. والأجل المسمى: الخروج من الشعائر إلى غيرها[٢]. وقد روي عن ابن عباس أنه قال في بيان المراد بالمنافع في هذه الآية: (أسواقُهم، فإنه لم يذكر منافع إلا للدنيا)[٣]. وهذا بناء على أن المراد بالشعائر أماكن الحج[٤].

(١٢٤٥)تفيد الآية أن المنافع في مشاهد الحج أن ينسك لله عندها، والعمل بما أمر به إلى الشخوص عنها[٥]. والأجل المسمى: هو الخروج من مكة، وهذه رواية أبي ذرّ عن ابن عباس[٦].

(١٢٤٦)تفيد الآية أن للناس في مواضع الحج منافع بالأجر والثواب الحاصل بأداء ما يلزم أداؤه فيها إلى أجل مسمى هو انقضاء أيام الحج[٧].

(١٢٤٧)تفيد الآية أن في شعائر الحج منافع بالأجر والثواب في قضاء المناسك وإقامتها إِلى أَجَلٍ مُسَمّى، وهو انقضاء أيام الحج[٨]. فإذا ذهبت تلك الأيام، لم يأتِ أحد لأماكن يبتغي الأجر، مثل عرفة ورمي الجمار ومزدلفة، فإنما منافعها في تلك الأيام بعينها[٩]. وهذا أحد

---

(١) ينظر الدر المنثور (٦/ ٤٧).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٤٥).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٤٦).

(٤) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٨٦).

(٥) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٤٧).

(٦) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٢٢)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٦).

(٧) ينظر روح المعاني (٩/ ١٤٦).

(٨) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٢٢)، والهداية (٧/ ٤٨٨٦)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٥).

(٩) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٨٧).

الأوجه في تفسير الآية، قال ابن زيد: (لكم في تلك الشعائر منافع إلى أجل مسمى، إذا ذهبت تلك الأيام لم تر أحدا يأتي عرفة يقف فيها يبتغي الأجر، ولا المزدلفة، ولا رمي الجمار، وقد ضربوا من البلدان لهذه الأيام التي فيها المنافع، وإنما منافعها إلى تلك الأيام، وهي الأجل المسمى، ثم محلها حين تنقضي تلك الأيام إلى البيت العتيق)[1].

(١٢٤٨)تفيد الآية أن منافع شرائع الدين وأحكامه هو الأجر الذي يناله من استقام على أدائها يوم القيامة. وهذا بناءً على تفسير الشعائر بالدين عامة، وتفسير الأجل بيوم الحساب[2].

(١٢٤٩)تفيد الآية أن أوقات أداء المناسك منافعها بأن يطاع الله فيها بأداء أعمال الحج، وبطلب المعاش فيها بالتجارة، إلى أن تنقضي أيام الحج[3]. وذلك بأن الضمير في الآية يرجع إلى شعائر الله، وأوقات الحج من هذه الشعائر.

(١٢٥٠)تدل الآية على أن محل الناس من إحرامهم إلى أن يطوفوا بالبيت العتيق طواف الإفاضة يوم النحر بعد قضائهم لمناسك الحج، فيحل له كل شيء من ممنوعات الحج. وهذا على القول بأن المراد بالبيت العتيق نفس البيت[4].

(١٢٥١)يدل ظاهر اللفظ في الآية أن الشعائر تنتهي إلى البيت العتيق، إما أن يكون الطواف به أحد الشعائر، وإما أن يكون نهايتها وتمامها، فثبت بهذا أن طواف الوداع مستحب، خلافًا لأبي حنيفة الذي قال إنه واجب[1].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٤٦).

(٢) ينظر النكت والعيون (٤/ ٢٤). وقد ضعف الألوسي هذا القول في روح المعاني (٩/ ١٤٦) فقال: (وقيل: الأجل المسمى يوم القيامة، ولا يخفى ضعفه).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٤٧).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٤٨)، والكشف والبيان (٧/ ٢٢)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٥)، وأحكام القرآن لابن الفرس (٣/ ٣٠٨)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٧). وقد رد القرطبي تفسير البيت بالحرم فقال: (وهذا بناء على أن الشعائر هي البدن، ولا وجه لتخصيص الشعائر مع عمومها وإلغاء خصوصية ذكر البيت. والله أعلم).

(١٢٥٢)تدل الآية على أن الهدي إذا بلغ محله وذبح، حل الانتفاع بلحمه، فيجوز له أن يأكل منه[٢].

(١٢٥٣)تومئ الآية إلى أن تعدد المنافع في البُدْن يحمل ذوي البصائر على التفكر فيها، لا سيما مع تفاوتها، والتفكر فيها يوصل إلى التقوى بمعرفة أنها من الله، وأنه قادر على ما يريد، وأنه لا شريك له. ويؤخذ من أن هذه الآية جاءت وكأنها تعليل لما قبلها، وهي قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢][٣].

(١٢٥٤)تومئ الآية إلى أن الهدايا إنما شرعت تكملة لعبادة الحج، لأن الله تعالى قال في شأن الهدي: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾، وإنما ذكر أن محلها ينتهي إلى البيت الحرام وإن كان لا ينحر فيها، لكونه مكملا للحج الذي هو قصد البيت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [سورة آل عمران: ٩٧]، فالهدايا تابعة للكعبة، قال تعالى: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [سورة المائدة: ٩٥][٤]. وإنما أراد به النحر بمكة إحسانا منه لمساكينهم وفقرائهم[٥].

(١٢٥٥)تدل الآية بضميمة آية أخرى أن الأولى أن يبعث المحصَر الهدي ليذبح أو ينحر بالحرم إن استطاع ذلك[٦]، لأن الحرم هو محله، فإن لم يستطع فإنه يذبحها حيث أحصر، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [سورة

---

(١) ينظر أحكام القرآن لابن الفرس (٣/ ٣٠٨)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٥٧). وتعقبه السيوطي في الإكليل (ص: ١٨٣) فقال: (لا، بل يدل أنه ليس من المناسك كما يقول به جمهور أصحابنا، وأما وجوبه واستحبابه فلا).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤١٥)، وروح البيان (٦/ ٣٢).

(٣) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٤٦).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٨).

(٥) بداية المجتهد (٢/ ١٤٠).

(٦) مذهب المالكية أنه لا يجوز ذبح الهدي بالنسبة للمحصر إلا بمكة أو بمِنَى، خلافًا للشافعي في قوله: إنه ينحره حيث أحصر، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الحج: ٣٣]، فعمّ. ينظر المعونة على مذهب عالم المدينة (ص: ٥٩١)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٨).

البقرة: ١٩٦]، وعن ابن عباس أنه قال: (الحصر: حصر العدو، فيبعث الرجل بهديته، فإن كان لا يستطيع أن يصل إلى البيت من العدو، فإن وجد من يبلغها عنه إلى مكة، فإنه يبعث بها ويحرم)[(١)].

(١٢٥٦)في الآية دلالة على أن آخر ما تختتم به المناسك هو الطواف بالبيت الحرام، وهو المسمى بطواف الوداع، لقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الحج: ٣٣]، أي محل الشعائر كلها وانقضاؤها إلى البيت العتيق بالطواف به، كما قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه: (لا يَصدُرنَّ أحد من الحاج حتى يطوف بالبيت، فإن آخرَ المنتسَك الطواف بالبيت)[(٢)].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥]:

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الحج: ٣٤].

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٣٤٥). وروى الطبري (٣/ ٣٥١) أيضا عن السدي، قال: (المحصر يبعث بهدي شاة فما فوقها). وروى (٣/ ٤١٣) عن علقمة: قال: (إذا أهل الرجل بالحج فأحصر. قال: يبعث بما استيسر من الهدي شاة...).

(٢) موطأ مالك (١/ ٣٦٩، رقم ١٢٠)، وإسناده صحيح كما قال محققو جامع الأصول (٣/ ٢٠١). وقد قال مالك (١/ ٣٧٠) عقب هذه الرواية: (إن ذلك فيما نرى، والله أعلم، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢]، وقال: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الحج: ٣٣]، فمحل الشعائر كلها، وانقضاؤها إلى البيت العتيق)، أما قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ [سورة الحج: ٢٩] الآية، فإنه الطواف الواجب لا طواف الوداع) ينظر البيان والتحصيل ابن رشد (٣/ ٤٢٢).

(١٢٥٧)تدل الآية على أن ذبح الذبائح لله تعالى مشروع في جميع الشرائع السماوية[١]؛ لأن الله تعالى ذكر أنه شرع لكل جماعة مؤمنة ممن سلف التقربَ بذبح الذبائح له فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾، أي ذبحا[٢]، وهذا بناءً على أن ﴿مَنسَكًا﴾ مصدر ميمي مثل المدخل والمخرج، أي إراقة الدماء وذبح القرابين[٣]. ويؤيده تتمة الآية: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

(١٢٥٨)تدل الآية على أن الله تعالى شرع لكل جماعة مؤمنة ممن سلف التقرب إليه بالحج؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾، أي حجًّا[٤]. والنسك: العبادة[٥]، ثم غلب النسك في الاستعمال على الحج[٦].

(١٢٥٩)تدل الآية على أن الله تعالى عين لكل أمة مؤمنة موضعا يذبحون فيه الذبائح لله؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٦)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٤).

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٢٧)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٩)، والهداية (٧/ ٤٨٨٧)، والوجيز للواحدي (ص: ٧٣٤)، وروى عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٤١٠، رقم ١٩٤٩)، والطبري في تفسيره (١٦/ ٦٢٧) عن قتادة: ﴿مَنسَكًا﴾ [سورة الحج: ٣٤) قال: (ذبحًا وحجًّا)، وروى ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٢، رقم ١٣٩٢٧) عن عكرمة أنه قال: (ذبحًا)، ورواه عنه سفيان الثوري في "تفسيره" (ص ٢١٣) بلفظ: (ذبائح هم ذابحوها).

(٣) الكشف والبيان (٧/ ٢٢)، والهداية (٧/ ٤٨٨٨)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٥). وقد جاء في تفسير مجاهد (ص: ٤٨١): (يعني: إهراقة الدماء)، ورواه الطبري في تفسيره بنحوه (١٦/ ٥٥٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٢، رقم ١٣٩٢٦).

(٤) روى عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٤١٠، رقم ١٩٤٩)، والطبري في تفسيره (١٦/ ٦٢٧) عن قتادة أنه قال: (ذبحا وحجا).

(٥) تهذيب اللغة (١٠/ ٤٤).

(٦) ينظر عمدة الحفاظ (٤/ ١٧١)، وروح المعاني (٩/ ١٤٧).

ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، ﴿مَنسَكًا﴾: أي: مذبحا يذبحون فيه[1]، وهو موضع القربان، بناءً على أنه اسم مكان للنسُك بمعنى الذبح. ويؤيده قراءة حمزة والكسائي: ﴿مَنْسِكا﴾، بكسر السين، مثل المسجِد والمجلِس[2].

(١٢٦٠)تدل الآية على أن الله تعالى جعل لكل أمة مكانا يعتادونه لعبادته فِيهِ، وَقَضَاء فرائضه؛ بناء على أن ﴿مَنسَكًا﴾ اسم مكان، ومعناه فِي كلام العرب: الموضع الَّذِي تعتاده وتألفه[3]. والمراد: الموضع الذي يعبدون وينسكون فيه ويصيرون إليه لعبادتهم، ومن ثم يقال للرجل العابد: ناسك[4].

(١٢٦١)تفيد الآية أن مكة موضع لعبادة الحج في جميع الملل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وقد روي عن زيد بن أسلم أنه قال في هذه الآية: (إنه مكة، لم يجعل الله لأمة قط منسَكًا غيرها)[5].

(١٢٦٢)تدل الآية على أن الله تعالى جعل لكل أمة مؤمنة عيداً يذبحون الذبائح لله فيه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾، يعني وقتا يعتادونه للذبح لله فيه، بناءً على

---

(١) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٩)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٥)، ونسبه النحاس في معاني القرآن (٤/ ٤٠٩) ومكي في الهداية (٧/ ٤٨٨٨) إلى عكرمة، ونسبه الثعلبي في الكشف والبيان (٧/ ٣٣) إلى مجاهد وقتادة.

(٢) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٢٢)، والهداية (٧/ ٤٨٨٨)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٥).

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء (٢/ ٢٣٠). ونقل الزجاج في معاني القرآن (٣/ ٤٢٦) أن بعضهم قال في معناه: المنسك: الموضع الذي يجب تعهده، ثم قال: (وذلك جائز). أما ابن فارس فقال: (وزعم ناس أن المنسك: المكان يألفه. وفيه نظر).

(٤) ينظر تهذيب اللغة (١٠/ ٤٤)، وتفسير الماتريدي (٧/ ٤١٦)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢١). وقد حكى الماوردي في النكت والعيون (٤/ ٣٩) عن الفراء أن معنى تفسيره: (المواضع المعتادة لمناسك الحج والعمرة).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٢، رقم ١٣٩٢٨)، ونقله ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٢٤).

أن المنسك اسم لزمان النسك، أي الذبح[(١)]. وروي عن ابن عباس أنه قال: (يعني: عيدًا)[(٢)]. وبهذا فسر ابن قتيبة هذه الكلمة[(٣)]، يعني وقتًا للذبح.

(١٢٦٣)في الآية ترغيبٌ للمسلمين في التقرب إلى الله بالهدايا والأضاحي، والمسارعة إلى هذه القربة، والاهتمام بها؛ لأن هذه الذبائح ليست من شعائر هذه الأمة وحدها، وإنما هي من الشعائر التي تواردت عليها جميع الأمم التي سبقتها[(٤)].

(١٢٦٤)في هذه الآية دليل على أنَّ الذبائح ليست من خصائص هذه الأمة، بل كانت مشروعة لكل أمة[(٥)]، وإن اختلفت أمكنتها وأوقاتها[(٦)].

(١٢٦٥)تدل الآية على أن الله تعالى جعل لكل أمة شريعةً تختلف في بعض فروعها عن الشرائع الأخرى، لأن بعض أهل اللغة فسّر ﴿مَنسَكًا﴾: مذهبا من طاعة الله تعالى، يقال: نَسَك نُسُكَ قومه إذا سلك مذهبهم[(٧)]. وحكي أنه قيل في تفسيرها: شريعة وملّة[(٨)]. كما قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ [سورة المائدة: ٤٨].

(١٢٦٦)تدل الآية على أن النسخ لا يلحق أصول العبادات، وإنما يكون في فروعها وهيئاتها؛ لأن الله تعالى بين أن قربة الأضحية لا تخص هذه الأمة بل كانت لجميع الأمم المؤمنة

---

(١) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٩٩).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٦٢٦)، وإسناده حسن، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٢، رقم ١٣٩٢٥).

(٣) ينظر غريب القرآن (ص: ٢٩٤). وكذا السجستاني في غريب القرآن (ص: ٤١٠)، ونسبه الماوردي في النكت والعيون (٤/ ٢٥) والواحدي في البسيط (١٥/ ٣٩٩) إلى الكلْبي.

(٤) ينظر تفسير آيات الأحكام للسايس (ص: ٥٠٧)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣١٠)، والتفسير المنير (١٧/ ٢١٤).

(٥) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٩٩ - ٤٠٠)، وتيسير البيان لأحكام القرآن (٤/ ٣٣)، وتفسير الإيجي (٣/ ٥٦).

(٦) غرائب القرآن (٥/ ٨١).

(٧) نسب القرطبي هذا القول في تفسيره (١٢/ ٥٨) إلى ابن عرفة الملقب بنفطويه. وتابعه أبو حيان في البحر المحيط (٧/ ٥٠٨).

(٨) تفسير السمعاني (٣/ ٤٥٤).

السابقة مع اختلاف شرائعهم، فدلّ على أنها شِرعة باقية لا يصح أن تنسخ، ومثلها أصول سائر العبادات كما يدل عليه عدد من الآيات، مثل قوله تعالى حكاية عن عيسى: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [سورة مريم: ٣١]، وقوله في شأن الصوم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [سورة البقرة: ١٨٣]، وقوله في شأن الحج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الحج: ٢٧] (١).

(١٢٦٧)فيها إيماء إلى أنه ينبغي الاقتداء بما تتضمنه الشرائع من الحق ما لم ينسخ (٢).

(١٢٦٨)فيها إيماء إلى شكر الله على نعمة الكلام؛ لأن الله تعالى ذكر لنا ذبح الأنعام وسماها بهيمة فقال: ﴿لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وإنما سماها بهيمة لأنها لا تتكلم (٣).

(١٢٦٩)في الآية تنبيه على وجوب شكر الله على إنعامه على العباد بإباحة الأنعام وتسخيرها، ومن شكره تعالى أن نتقرب إليه بذبح بعضها في المواضع التي أمرنا فيها بذلك؛ لأن الله تعالى علل الذكر بالنعمة، تنبيها على التفكر فيما رزقهم إياه فقال تعالى: ﴿لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ

(١) ينظر تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٣٠). ومما قاله في بيان ذلك: (وذاك أنه محالٌ أن تنفك شريعة من الشرائع عن عبادة الله تعالى واقعة في حيز البدن، وهي مثل الصلاة، وعبادة في حيز المال، وهي كالزكاة، وعبادة في إمساك الشهوة كالصوم...وأما هيآتها وأشكالها وأمكنتها وأزمنتها وأعدادها، فهي فروعها التي لم تزل تعرض النسخ على حسب ما عرف الله تعالى من مصلحة كل قوم).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٩).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٤٩)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٥)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٥٧).

ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾، إشارة إلى أنه يجب عليهم شكره على ذلك[1]. وهذا بناء على أن ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى: لام التعليل. والمعنى: ليذكروا اسم الله لأجل ما رزقهم من بهيمة الأنعام[2].

(١٢٧٠)تدل الآية على اسستحباب الذكر المقترن بالشكر والثناء على الله بعد الانتفاع بالمنافع والتمتع بالنعم[3]؛ لأن الله شرع لهم ذبح الأنعام ليذكروا الله شاكرين له على نعمته، وقد جمع الله بين الذكر والشكر في قوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [سورة البقرة: ١٥٢].

(١٢٧١)تومئ الآية إلى أن ما لا يخلق الأنعام المتقرَّب بها ولا يرزقها الناس لا يستحق أن يُجعَل له منسكٌ لقربانها. كما جعل بعض المشركين مواضع للتقرب إلى الأصنام، مثل الغبْغَب منحَرِ العزى[4]، ويستفاد هذا من الوصف: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾.

(١٢٧٢)في هذه الآية دليل على أنَّ الضحايا لم تزلْ في الشرائع كلها من الأنعام، لا من غيرها[5].

(١٢٧٣)في الآية تنبيه على أن الهدي والأضاحي لا تكون إلا من الأنعام دون غيرها[6]، لأن الله تعالى خصها بالذكر فقال: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾،

---

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٤٧)، والسراج المنير (٢/ ٥٥٣)، وتفسير المراغي (١٧/ ١١٢). قال القشيري في "لطائف الإشارات" (٢/ ٥٤٣): (وذكر اسم الله على ما رزقهم على أقسام: منها معرفتهم إنعام الله بذلك عليهم.. وذلك من حيث الشكر، ثم يذكرون اسمه على ما وفقهم لمعرفته بأنه هو الذي يتقبل منهم وهو الذي يثيبهم).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٩).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨١).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٩).

(٥) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤٠٠).

(٦) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٧١)، والسراج المنير (٢/ ٥٥٣)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٦)، وفتح القدير (٣/ ٥٣٥).

والإضافة إلى الأنعام بيانية، وإنما خص هنا بهيمة الأنعام؛ لأنها المشروعة في القُرَب، ولأن من البهائم ما لا يجوز ذبحه في القرابين، وإن جاز أكله[(١)].

(١٢٧٤)في الآية إشارة إلى عدم جواز التقرب بذبح ما سوى الأنعام من البهائم كالخيل والبغال والحمير، لأن الله تعالى قيد البهيمة بالأنعام فقال: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾، وذلك احترازا من التقرب بغير الأنعام[(٢)]، فيفهم أنه لا يجوز أن تجعل في القربان.

(١٢٧٥)في هذه الآية دليل على أنَّ التسمية على الذبح كانت مشروعة في كل الشرائع السابقة[(٣)]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾، كما أنها مشروعة في شريعتنا، كما ثبت عن أنس رضي الله عنه قال: ((أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين، فسمّى وكبّر))[(٤)]. وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه أُتِي ((بكبش فذبحه بيده وقال: بسم الله والله أكبر))[(٥)].

(١٢٧٦)استُدِلَّ بقوله تعالى: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾، على أن ذكر اسم الله شرط في حل الذبيحة؛ لأن الله تعالى لم يصرح بالذبح وإنما ذَكَر ذِكْرَ اسم الله على الأنعام، ففهم من ذكر اسم الله الذبح؛ ودل على أنه شرطٌ لحلِّه وجوازه[(٦)]. وقد قال

---

(١) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٢١)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٥)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٦)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٥٧).

(٢) ينظر تفسير البغوي (٥/ ٣٨٥).

(٣) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤٠٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الأضاحي، باب التكبير عند الذبح، ح ٥٢٤٥، ٥/ ٢١١٤)، وأخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الأضاحي، باب استحباب الضحية...، ح ١٩٦٦، ٣/ ١٥٥٧).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه واللفظ له: (كتاب الأضاحي، باب رقم ٢٢، ح ١٥٢٠، ٤/ ١٠٠)، وأبو داود في سننه: (كتاب الضحايا، باب ما يستحب من الضحايا، ح ٢٧٩٥، ٣/٩٥)، وابن ماجه في سننه: (كتاب الأضاحي، باب أضاحي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ح ٣١٢١، ٢/١٠٤٣).

(٦) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤١٧)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٤١).

تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾ [سورة الأنعام: ١١٨]، وقال في آية أخرى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ [سورة الأنعام: ١٢١].

(١٢٧٧)تدل الآية على أن ذبح الأنعام أو نحرها عبادةٌ لله عز وجل، ولا يجوز صرفها لغير الله تعالى[(١)]، لأن الله تعالى شرع التقرب بذبحها ليذكر اسمه عليها، لا اسم غيره.

(١٢٧٨)في الآية تنبيهٌ على أن المقصودَ الأصليَّ من الأضاحي تذكُّرُ المعبودِ عز وجلّ عند ذبحها وذكرُ اسمه عليها، أما ما سوى ذلك كالأكل منها والانتفاع بها فهي مقاصد تبعية[(٢)]، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾، فعلّل تشريع المنسك – بمعنى ذبح الأنعام – لكل أمة بأن يذكروا اسم الله عليها وحده دون غيره، ويجعلوها خالصة لوجهه تعالى[(٣)].

(١٢٧٩)تفيد الآية أن إقامة ذكر الله من مقاصد جميع الشرائع لكل أمة من الأمم مما ينبغي الحرص عليه وحث الناس عليه بكل صوره[(٤)].

(١٢٨٠)في الآية إيماء إلى بطلان ما يفعله بعض المتصوفة وجهلة المسلمين من ذكر اسم واحد من الصالحين أو شيوخ الطرق الصوفية عند شروعهم في أداء المناسك؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾، ثم قال بعدها: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ [(٥)].

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨١).

(٢) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٧١)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٦)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٣٥)، وروح المعاني (٩/ ١٤٧)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣١١).

(٣) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٧).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٢).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨١).

(١٢٨١)تشير الآية أن الحكمة من جعل ذبح الأنعام منسكا من المناسك هو إظهار شكر الله تعالى على ما رزق عباده وسخر لهم من تلك البهائم؛ إذ الأصح في معنى قوله: ﴿لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أنه إنما أريد ذِكْرُه شُكْرًا على نعمة تسخيرِ بهيمة الأنعام لعباده، فإن لله تعالى على عباده في بهيمة الأنعامِ نعمًا كثيرةً قد عدَّد بعْضها في مواضعَ منَ القرآنِ[(١)].

(١٢٨٢)في الآية دلالة على أن آيات القرآن والأحاديث النبوية يصدق بعضها بعضا؛ لأن الله تعالى قرن بين الذكر وذبح الأنعام فقال: ﴿لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وجاء في الحديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: أي الحج أفضل؟ قال: ((العجّ والثجّ))[(٢)].

---

(١) ينظر تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٥٦٥). وقد ذكر في موضع آخر(١/ ١٥٥) فقال: (فإنَّ للهِ تعالى علينا فيها نِعَمًا كثيرةً دنيويةً ودينيةً. وقد عدَّدَ بعضَ الدنيويةِ في سورة النَّحلِ، وتختصُ عشرُ ذي الحجةِ منها بحملِ أثقالِ الحاجِّ، وإيصالهم إلى قضاء مناسكِهِم والانتفاع بركوبِها ودرِّها ونسلِها وأصوافِهَا وأشعارِهَا.

وأمَّا الدينية فكثيرةٌ، مثلُ: إيجابِ الهدْي وإشعارِه وتقليدِهِ، وغالبًا يكونُ ذلكَ في أيامِ العشرِ أو بعضِهَا، وذبحُهُ في آخرِ العشرِ، والتقربُ به إلى اللهِ. والأكلُ من لحمِهِ، وإطعامُ القانعِ والمعترِّ).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه من حديث أبي بكر الصديق: (كتاب الحج، باب ما جاء في فضل التلبية والنحر، ح ٨٢٧، ١٨٩/٣)، وأخرجه ابن ماجه في سننه: (كتاب المناسك، باب رفع الصوت بالتلبية، ح ٢٩٢٤، ٩٧٥/٢)، والدارمي في سننه: (كتاب المناسك، باب أي الحج أفضل، ح ١٧٩٧، ٤٩/٢)، وابن خزيمة في صحيحه (١٧٥/٤، رقم ٢٦٣١)، وأبو يعلى في مسنده (١٠٨/١- ١٠٩ رقم ١١٧)، والطبراني في الأوسط (١٩٠/٥، رقم ٥٠٤١)، والحاكم في المستدرك (أول كتاب المناسك، ح ١٦٥٥، ٦٢٠/١)، وصحح إسناده. والبيهقي (كتاب الحج، باب رفع الصوت بالتلبية، ح ٨٧٩٩، ٤٢/٥)، والضياء المقدسي في المختارة (١٥٣/١، رقم ٦٥). وأخرجه الترمذي من حديث طويل لابن عمر (كتاب التفسير، باب ومن سورة آل عمران، ح ٢٩٩٨، ٥/ ٢٢٥)، وقال: (هذا حديث لا نعرفه من حديث ابن عمر إلا من حديث إبراهيم بن يزيد الخوزي المكي، وقد تكلم بعض أهل العلم في إبراهيم بن يزيد من قبل حفظه). قال ابن حجر في التلخيص الحبير (٢/ ٥٢٢): (واستغربه الترمذي، وحكى الدارقطني الاختلاف فيه، وقال: الأشبه بالصواب رواية من رواه عن الضحاك بن عثمان عن ابن المنكدر عن عبد الرحمن بن يربوع عن أبي بكر. وقال أحمد والبخاري والترمذي: من قال فيه عن ابن المنكدر عن ابن عبد الرحمن بن يربوع عن أبيه عن أبي بكر فقد أخطأ. وقال الدارقطني: قال أهل النسب: من قال سعيد بن عبد الرحمن بن يربوع

(١٢٨٣)في الآية إيماءٌ إلى من كان يمتلك بعض هذه البهائم أن يذكر اسم الله عليها تحصينا لها من طوارق الليل والنهار[(١)]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، ولم يخص الذكر بحالة الذبح وحدها.

(١٢٨٤)في الآية إيماءٌ إلى أن المقصود من المناسك خلوص العبادة له[(٢)]، وهذا بناء على أن المراد بالمنسك في الآية: مناسك الحج، حيث قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾. أي ليكون ما ينحرونه من هديه خالصا لله تعالى.

(١٢٨٥)في الآية إرشادٌ للمسلمين إلى أن يعيشوا في حياتهم كلها باسم الله وعلى منهج الله، لأن ذكر اسم الله على الذبائح، إضرابٌ عما لا يتوجه به إلى الله، ومفاصلة بينهم وبين الكفار في الحياة، وتعليم للحجاج أنّه إذا كان عدم ذكر الله على ما قدموا من هدي أدّى إلى الخروج عن الإسلام، فكيف يكون الحال إذا كان حياتهم كلها بعيدة عن اسم الله؟[(٣)].

**هدايات قوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ﴾:**

(١٢٨٦)تدل الآية على وحدانية الله في ذاته وألوهيته[(٤)]، فلا يعبد إلا هو، ولا يصرف مظهر من مظهر العبادة إلا إليه سبحانه، لأن الله قال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

(١٢٨٧)تدل الآية على أن الشرائع السماوية وإن تنوعت واختلفت فروعها ونسخَ بعضُها بعضا، فكلها قائمة على التوحيد، متفقة على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وألوهيته،

---

فقد وهم، وإنما هو عبد الرحمن بن سعيد بن يربوع)، وينظر البدر المنير (٦/ ١٥٥ - ١٥٩)، والمداوي (٢/ ٧٠ - ٧٥). و(العج): رفع الصوت بالتلبية. و(الثج): سيلان دماء الهدي.

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٢).

(٢) تفسير الإيجي (٣/ ٥٦).

(٣) ينظر الحج في القرآن الكريم (ص ٦٢).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٢).

والدعوة إلى عبادته وحده لا شريك له[1]. كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [سورة الأنبياء: ٢٥].

(١٢٨٨)تشير الآية إلى أن التكاليف وتفاصيل الأحكام الشرعية إنما تختلف لاختلاف المصالح الناشئة عن اختلاف الأزمنة والأشخاص، ولكن المقصود منها هو عبادة الله وحده، فإن إله الناس الذي يستحق العبادة واحد[2]. وهذا بناء على أن قوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ يتعلق بأول الآية: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا﴾.

(١٢٨٩)في الآية إشارة إلى أن المناسك والشعائر والعبادات التي تعبّد الله بها عباده على لسان رسله- وإن اختلفت صورها وأشكالها- هي من دين الله، وهي طريق إلى طاعته ورضاه؛ وأن هذا الاختلاف في صور العبادات، لا يجعل منها سببا إلى الاختلاف بين المؤمنين بالله، فكلهم يعبدون إلها واحدا، ومن شأنهم أن يكونوا أمة واحدة[3].

(١٢٩٠)تفيد الآية أن وحدة التشريع تدل على وحدة المشرع[4]، وذلك لأن الله تعالى بين أن جميع الأمم المؤمنة تشترك في تشريع ذبح القرابين لله، ثم فرع عنها أن معبودهم جميعا واحد فقال: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾.

(١٢٩١)تدل الآية على أنه لا يجوز أن يذكر على الذبائح إلا اسم الله وحده[5]، لأن الله تعالى بعدما ذكر تشريع ذبح الأنعام ليذكروا اسم الله عليها، بين العلة في تخصيص اسمه

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٤)، ونظم الدرر (١٣/ ٤٧)، والسراج المنير (٢/ ٥٥٣)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٨).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٥)، وتفسير المراغي (١٧/ ١١٣). وقد أبى الألوسي هذا المعنى (٩/ ١٤٧)، وعدّه مما لا ينبغي أن يخرّج عليه كلام الله تعالى الجليل.

(٣) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٣٧).

(٤) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٧٧).

(٥) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٩)، والتفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٧١)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٥)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٥).

الكريم بالذكر عند الذبح، فقال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ لأن تفرده تعالى بالألوهية يقتضي أن لا يذكر على الذبائح إلا اسمه[1].

(١٢٩٢)تفيد الآية على وجوب إخلاص ذكر الله تعالى عند الذبح، كما يُفهمه السياق والسِّباق؛ لأنه لما كان قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ متضمنًا لمعنى الإخلاص؛ لأن المقصود الأولى من الذبح ذكرُ اسم الله، ولا ارتياب أن الذكر لا يكونُ معتدًّا به إذا كان مشوباً بشيء من الرياء، جعل قوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ المفيد للإخلاص منطوقاً ومفهوماً مُسبَّبًا عنها، ولما أُريد مزيدُ الحضُّ على الأمر، أوقع قوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ في البين تمهيدًا للثاني، وجعله مُسبَّبًا عن السابق، وسببًا للّاحق، فكأنهُ قيل: شرع لكل أمةٍ من الأمم السابقة والحاضرة أن ينحروا النسيكة خالصةً لوجه الله تعالى، ويُخلصوا له الذكر، وإذا كان كذلك فأنتم- يا أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم - أحرى بذلك؛ لأن إلهكم إلهٌ واحدٌ، فأخلصوا له الذكر خاصة، واجعلوه لوجهه خالصاً، ولا تشوبوه بإشراكٍ[2].

(١٢٩٣)في الآية إشارة إلى قبح ما يفعله المشركون من الذبح تقرّبا إلى الأصنام، وأنهم يفعلون خلاف ما أمر الله به إبراهيم وجميع الرسل عليهم السلام. وأنهم إنما كانوا يفعلون ذلك من عند أنفسهم، واتباعا لمحض أهوائهم، فإن شرائع الله كلها قد اتفقت على أن التقرب إنما يكون لله وحده، وباسمه وحده[3].

---

(١) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٨١)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣١١).

(٢) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٨٦).

(٣) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٨٦)، والتسهيل (٢/ ٤٠)، والتفسير المنير (١٧/ ٢١٤). وكانت العرب تسمي ما تذبحه للصنم العتر والعتيرة، كما ذكر ابن عادل في اللباب (١٤/ ٨٨)

(١٢٩٤)تومئ الآية إلى أن الغاية من تشريع نحر وذبح الأنعام في النسك والهدي في جميع الشرائع إظهار التوحيد لله تعالى ومُبايَنة المشركين فيما يفعلونه في ذبائحهم[١]. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى بعدما ذكر النسك بقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، أتبعه بذكر وحدانيته والأمر بالإخلاص له فقال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾.

(١٢٩٥)تدل الآية على وجوب الخضوع لله بالطاعة، والذل له بالإقرار بالعبودية له[٢]؛ لأن الله تعالى أمر عباده فقال: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾، أي: اخضعوا بالطاعة[٣]، والأمر يفيد الوجوب.

(١٢٩٦)تدل الآية على وجوب إفراد الله تعالى بالتقرب بالذبائح؛ لأن الله تعالى أمر بذلك عقب أمره بذبح الأنعام له وحده لأنه الذي رزقنا إياها، وكما أن الإله واحد يجب أن يخلص له في الذبيحة ولا يشرك فيها غيرُه[٤].

(١٢٩٧)تدل الآية على أن الإيمان بوحدانية الله في ألوهيته يقتضي الاستسلام له والانقياد له عز وجل، لأن الله قال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾، (والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ لترتيب ما بعدها من الأمر بالإسلام على وحدانيته تعالى)[٥].

(١٢٩٨)تدل الآية على أن كمال التوحيد لله تعالى يستلزم كمال الاتباع للنبي صلى الله عليه وسلم[١]؛ لأن الله قال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾، والإسلام لله يقتضي اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) ينظر التفسير والبيان (٤/ ٢٣٦٥).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٠).

(٣) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٨٩).

(٤) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٢١)، والبحر المحيط في التفسير (٧/ ٥٠٨).

(٥) تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٦). وينظر روح المعاني (٩/ ١٤٧).

(١٢٩٩)تفيد الآية وجوب الإخلاص لله تعالى في العبادة؛ لأن الله تعالى أمر عباده فقال: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۚ﴾، أي أخلصوا العبادة[٢]. وتقديم الجار والمجرور ﴿فَلَهُۥٓ﴾ على الأمر للقصر، أي أخلصوا التقرب له لا لغيره[٣].

(١٣٠٠)تدل الآية على وجوب الاستسلام لله تعالى والانقياد الكلي لأمره والتسليم لحكمه ظاهرا وباطنا[٤]؛ لأن الله تعالى أمر عباده فقال: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۚ﴾، أي: أطيعوه وانقادوا له[٥]، واستسلموا لحكمه بلا عُبوس ولا استكراهٍ من داخل القلب[٦].

(١٣٠١)في الآية دعوةٌ لأهل الكتاب أن يدخلوا في الإسلام، ويتبعوا النبي عليه الصلاة والسلام إن كانوا مؤمنين بالله حقّا، فالإسلام هو الناسخ للشرائع السابقة، المصدقُ لها، المهيمنُ عليها[٧].

(١٣٠٢)تفيد الآية تكريما للأمة المحمدية التي شرع الله لها النسك ليرسخ فيها التوحيد، ويعودها على الاستسلام لله والتسليم لأمره، لتكون خير أمة أخرجت للناس[٨].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾.

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٢).

(٢) ينظر الوجيز للواحدي (ص: ٧٣٤). وقال حقي في روح البيان (٦/ ٣٣): (والإسلام يكون بمعنى الإخلاص).

(٣) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٦)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٠).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٥)، ونظم الدرر (١٣/ ٤٧ - ٤٨)، وغرائب القرآن (٥/ ٨١)، والسراج المنير (٢/ ٥٥٣).

(٥) ينظر التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٧١)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٦)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٦)، والبحر المحيط (٧/ ٥٠٨)، وتفسير الإيجي (٣/ ٥٦).

(٦) ينظر لطائف الإشارات (٢/ ٥٤٣)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٤). وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز (٤/ ١٢١) على أنه مما تحتمله الآية فقال: (ويحتمل أن يريد الاستسلام).

(٧) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٣٧).

(٨) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٢).

(١٣٠٣)تدل الآية على عظم منزلة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله شرفه بتبليغ هذه البشارة للناس[١]، فخاطبه بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

(١٣٠٤)في هذه الآية استحباب البشارة العامة لمن تحلّى بصفات المتقين الذين يستحقون دخول الجنة؛ لأن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يبشر المخبتين بما لهم من جزيل الثواب فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾. وله نظائر في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [سورة البقرة: ١٥٥]، وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الزمر: ١٧].

(١٣٠٥)تدل الآية على عظم منزلة الإخبات وفضل المخبتين؛ لأن الله تعالى خصهم بهذه البشارة[٢]، ووصفهم بهذا الوصف دون غيره من الصفات فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

(١٣٠٦)في الآية حضٌّ على الخضوع لله بالطاعة، والإذعان له بالعبودية، ودوام الإنابة إليه؛ وذلك لأن الله تعالى أشار إلى استحقاق المخبتين للبشارة، والإخبات يدل على ما ذكر[٣].

(١٣٠٧)تومئ الآية أنّ تبشير المتصفين بالخصال الحميدة بالثواب فيه ترغيب وإغراء لمن لم يتصف بها في الاقتداء بهم والسير على هديهم والتحلي بالصفات التي أوجبت لهم البشرى[٤].

(١٣٠٨)فيها فضيلة التواضع لله تعالى؛ لأن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يبشر المخبتين بما لهم من جزيل الثواب فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾، أي: (المتواضعين)، كما

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٣).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٣).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٠).

(٤) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٣).

قال قتادة والضحاك ومجاهد[(١)]، ويشهد له الاشتقاق اللغوي، فالإخبات من فعل أخبت: أي، نزل الخَبْتَ، وهو المكان المنخْفِض من الأرض، فكلّ مُخْبِت متواضع[(٢)]. فالمخبت: المتواضع الذي مشيه متطامن كأنه في حدور من الأرض[(٣)]. ويقال: (فيه خَبْتَةٌ، أي تواضُع)[(٤)]. وهذا المعنى ملائم لسياق السورة، فإن نزول الخبت مناسب للحجاج لما فيهم من صفات المتواضعين، كالتجرد عن المخيط من اللباس وكشف الرأس والغربة عن الأوطان[(٥)].

(١٣٠٩)فيها فضيلة الاطمئنان والسكون إلى الله تعالى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤﴾، أي (المطمئنين إلى الله) كما قال مجاهد رحمه الله[(٦)]. ومن معاني أخبت في اللغة: اطمأنَّ وسكن[(٧)]. مِن أَخْبَتَ الرجل: إذا صار في الخبت، وهو المطمئن من الأرض الذي يكون فيه رمل[(٨)]، وبهذا المعنى فسر قوله تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [سورة هود: ٢٣][(٩)]. وإنما يحصل الاطمئنان بالإيمان بالله[(١٠)]، والرضا بقضائه[(١)].

---

(١) رواه الطبري في تفسيره عن قتادة (١٦/ ٥٥١)، وروى عبد الرزاق مثله عن مجاهد في تفسيره (٢/ ٤٠٧)، وأخرج ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٢٠، رقم ٣٥٤٩٢) وابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٣، رقم ١٣٩٣٣) وابن المنذر مثله عن الضحاك كما في الدر المنثور (٦/ ٤٩). ونسبه الثعلبي في "الكشف والبيان" (٢٢/٧) إلى ابن عباس.

(٢) معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٧).

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ١٢٢).

(٤) الصحاح (١/ ٢٤٧).

(٥) فتح البيان في مقاصد القرآن (٩/ ٤٩).

(٦) رواه الطبري عنه في تفسيره بهذا اللفظ (١٦/ ٥٥١). وهو في تفسير مجاهد (ص: ٤٨١)، بلفظ (المطمئنين). ورواه آدم بن أبي إياس أيضا عنه بإسناد صحيح.

(٧) كتاب الأفعال (١/ ٣١١).

(٨) الصحاح (١/ ٢٤٧).

(٩) جاء في تفسير مجاهد (ص: ٣٨٦) أنه قال في هذه الآية: (اطمأنوا). ورواه الطبري في تفسيره (١٢/ ٣٧٥)، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ٢٠١٩، رقم ١٠٧٩٧).

(١٠) ينظر تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٧٥)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٧).

وبعضهم أيّد هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الحج: ٥٤]، أي فتطمئن إليه قلوبهم، بدليل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الرعد: ٢٨][(٢)].

(١٣١٠)تشير الآية إلى أن الإخبات يحصل لمن أسلم وجهه لله وانقاد له وتلقى أمره وقضاءه بالتسليم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

(١٣١١)فيها إشارة إلى أن النفوس التي تستسلم لله ولا تسلم له في أحكامه الشرعية والقدرية ليس لها في الطمأنينة نصيب.

(١٣١٢)فيها فضيلة الخشوع لله تعالى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾، أي الخاشعين، يقال: أَخْبَتَ، إذا خشع[(٣)]، ولذا نسب إلى الحسن أنه فسر ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾: (الخاشعين)[(٤)]. وروي عن قتادة أن الإخبات هو التخشع والتواضع[(٥)]. وذكر الطبري أن هذا

---

(١) حكى ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٢٤) عن الثوري أنه قال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة الحج: ٣٤]: (المطمئنين الراضين بقضاء الله، المستسلمين له)، ولم أجده في التفاسير المسندة.

(٢) تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٧٥).

(٣) ينظر مقاييس اللغة (٢/ ٢٣٨). وبهذا فسر الفرّاء الإخبات في "معاني القرآن" (٢/ ٩ – ١٠) فقال: (وقوله: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ (هود: ٢٣) معناه: تخشعوا لربهم وإلى ربهم. وربما جعلت العرب (إلى) في موضع اللام...وقد يجوز في العربية أن تقول: فلان يخبت إلى الله، تريد: يفعل ذلك بوجهه إلى الله، لأن معنى الإخبات: الخشوع).

(٤) نسبه إليه يحيى بن سلام في تفسيره دون إسناد (١/ ٣٧٥)، فقال: (تفسير الحسن: أن المخبتين الخاشعين الخائفين. والخشوع المخافة الثابتة في القلب)، ونسبه إليه الماوردي في النكت والعيون (٤/ ٢٥). وذكره الماتريدي (٧/ ٤١٧) دون أن ينسبه، وإنما قال: (قال بعضهم). وذكر مكي في الهداية (٧/ ٤٨٨٩) أن مجاهدا فسره: (الخاشعين المطمئنين إلى الله). ونسبه الثعلبي في تفسيره (٧/ ٢٢) إلى الأخفش.

(٥) رواه عنه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٨٦، رقم ١١٩٦)، والطبري (١٢/ ٣٧٥) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ (هود: ٢٣).

هو المراد بهذه الكلمة عند العرب[1]، وبه فسر عدد من المفسرين الآية[2]. ولذلك يقال: الخشوع بالجوارح، والخضوع بالقلب[3].

(١٣١٣)فيها فضيلة الإنابة إلى الله تعالى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾، وقد قال بعض المتقدمين: الإخباتُ الإنابةُ، وأخبتوا أي: أنابوا إلى الله[4]؛ ورواه عطية العوفي عن ابن عباس[5].

(١٣١٤)فيها فضيلة العفو وترك الانتقام من الظالم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾، وقد روي عن عمرو بن أوس[6] أنه قال: (المخبتون: الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا)[7].

(١٣١٥)فيها فضيلة الإخلاص لله تعالى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾، وقد فسَّر بعض المتقدمين ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾: المخلصين[1]. وهو

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٣٧٥).

(٢) ينظر تفسير ابن أبي زمنين (٣/ ١٨٠)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢٢) حيث قال ابن عطية: (وَالْمُخْبِتِينَ: المتواضعين الخاشعين من المؤمنين)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٤١)، والتسهيل (٢/ ٤٠)، وتفسير الإيجي (٣/ ٥٦) حيث قال: (الخاشعين الراضين بقضائه).

(٣) ينظر تفسير البيضاوي (١/ ٧٨). قال القشيري في لطائف الإشارات (٢/ ٥٤٤): (الإخباتُ استدامة الطاعة بشرط الاستقامة بقدر الاستطاعة. ومن أمارات الإخبات كمال الخضوع بشرط دوام الخشوع، وذلك بإطراق السريرة).

(٤) تفسير الماتريدي (٦/ ١١٦). وورد هذا المعنى في الهداية (٥/ ٣٣٧٣).

(٥) نسبه إليه الثعلبي في الكشف والبيان (٥/ ١٦٥)، وابن عطية في المحرر الوجيز (٣/ ١٦١)، وابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٦٧). ونسبه الماوردي في النكت والعيون (٢/ ٤٦٤) إلى قتادة.

(٦) هو عمرو بن أوس بن أبي أوس الثقفي: تابعي كبير مشهور، حديثه في الكتب الستة. وذكره الجمهور في التابعين، وَوَهِمَ من ذكره في الصحابة، وكان من الفقهاء الثقات. قال أبو هريرة: (تسألوني وفيكم عمرو بن أوس؟!)؛ توفي بعد ٩٠هـ. ينظر تهذيب الكمال (٢١/ ٥٤٧، ت ٤٣٢٩)، وتاريخ الإسلام (٢/ ١١٥٠)، والإصابة (٥/ ٢٢١).

(٧) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢١٩، رقم ٣٥٤٨٧)، والطبري في تفسيره (١٦/ ٥٥١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٣، رقم ١٣٩٣٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٤٢٣، رقم ٧٧٣٣).

ملائم لقوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾، على تفسيره بأن معناه: أخلصوا الذكر أو التقرب له تعالى، واجعلوه لوجهه سالما، أي: خالصًا غير مشوب بإشراك[٢].

(١٣١٦)فيها فضيلة رقة القلوب؛ لأن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يبشر المخبتين بما لهم من جزيل الثواب فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤﴾، وقد قيل في تفسيرها: الرقيقة قلوبهم[٣]. وقال الكلْبي في معنى قوله: ﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [سورة الحج: ٥٤]: ترق للقرآن قلوبهم[٤].

(١٣١٧)فيها فضيلة الاجتهاد في العبادة، فقد قال بعض المتقدمين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤﴾: المجتهدين في العبادة والسكون فيها[٥].

(١٣١٨)تشير الآية إلى أن من انقاد لله كان مخبتًا؛ وذلك لأن الله أمر بالانقياد له فقال: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾، ثم قال بعده: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤﴾[٦].

(١٣١٩)تؤذن الآية بأن الحجاج ينبغي أن يتصفوا بالإخبات، لأن الله خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤﴾ في سياق أحكام الحج، ووجه المناسبة أن ما يفعله الحاج من نزع الثياب والتجرد من المخيط وكشف الرأس والتردد في تلك المواضع الغبرة

---

(١) بذلك فسره مقاتل في تفسيره (٣/ ١٢٧)، وتابعه السمرقندي في تفسيره (٢/ ٤٥٩). وقد نسبه الماوردي في النكت والعيون (٤/ ٢٥) إلى إبراهيم النخعي، وكذلك السمعاني (٣/ ٤٣٩)، والبغوي (٥/ ٣٨٦). وعلل المظهري هذا التفسير (٦/ ٣٢٢) فقال: (فإن الاطمئنان هو الإخلاص)، ومراده – والله أعلم – أن الاطمئنان ثمرة للإخلاص.

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٧)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧١). وقال إسماعيل حقي في روح البيان (٦/ ٣٤): (ولما كان الإخبات من لوازم التواضع والإخلاص صح أن يُجعل كنايةً عنهما).

(٣) نسبه الماوردي في النكت والعيون (٤/ ٢٥)، والسمعاني (٣/ ٤٣٩)، والبغوي (٥/ ٣٨٦) إلى الكلبي.

(٤) التفسير البسيط (١٥/ ٤٧٢).

(٥) تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٩). وذكره قبله الماتريدي في تفسيره (٧/ ٤١٧) وقال: (وقال بعضهم: كل مجتهد في العبادة هو المخبت). وحكاه الماوردي في النكت والعيون (٤/ ٢٥) دون نسبة، ونسبهُ الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٢٥) إلى الكلبي.

(٦) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٥)، واللباب (١٤/ ٨٨).

المحجرة، والتلبس بأفعال شاقة لا يعلم حكمتها إلا الله تعالى مُؤْذن بالاستسلام المحض والتواضع الشديد، حيث يخرج الإنسان عما ألفه إلى أفعال غريبة، ولذلك وصفهم بالإخبات والوجل إذا ذكر الله تعالى والصبر على ما أصابهم من المشاق وإقامة الصلوات في مواضع لا يقيمها إلا المؤمنون المصطفون والإنفاق مما رزقهم، ومنها الهدايا التي يغالون فيها[(١)].

(١٣٢٠)تفيد هذه الآية الحضّ على طلب منزلة الإخبات التي لا يعلم ثواب أهلها إلا الله تعالى[(٢)]. ويستفاد من ذلك من أن الله تعالى بشر المخبتين ولم يذكر ما بشرهم به، ولا مقدار جزائهم.

(١٣٢١)تدل الآية على جواز تبشير الإنسان بشي دون ذكر ما يبشره به لكي يجتهد للحصول عليه، وخاصة إذا كان المبشِّر ممن لا يخلف وعده، ويعطي كما جرت عادته فوق نفس المبشَّر[(٣)].

(١٣٢٢)تشير الآية إلى أن الخاشعين المطمئنين إلى الله تعالى يتصفون بقوة الإيمان وكمال اليقين؛ وذلك لأن الله تعالى وصف المخبتين بصفاتٍ، أولها شعورهم بالخوف من الله عند ذكره سبحانه، حيث قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، (وحصول الوجل منهم عند الذكر له سبحانه دليل على كمال يقينهم وقوة إيمانهم)[(٤)].

(١٣٢٣)فيها فضيلة وجل القلوب خوفا من عقابه وهيبة من جلاله وعظمته وكبريائه وعزة سلطانه وغير ذلك من معاني أسمائه وصفاته؛ لأن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يبشر المخبتين بما لهم من جزيل الثواب فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤﴾، ثم وصفهم فقال:

---

(١) ينظر البحر المحيط في التفسير (٧/ ٥٠٨). ونظم الدرر (١٣/ ٤٨)، وروح المعاني (٩/ ١٤٧).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٣).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٣).

(٤) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٣٥).

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، أي تخاف إذا خُوِّفوا بالله[1]، وقد فسر السُّدي ﴿ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤﴾: الوجلين[2].

(١٣٢٤)تدل الآية على أن لين القلوب ورقّتها من صفات المخبتين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، وإنما توْجل عند رقتها[3].

(١٣٢٥)تدل الآية على عظمة اسم الله تعالى ومدى وقع ذكره في نفوس المؤمنين[4]؛ لأن الله تعالى ذكر أن المخبتين توجل قلوبهم إذا ذكروا الله أو سمعوا اسمه يُذكر.

(١٣٢٦)يشير التعبير بصيغة المبني للمجهول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾، دون صيغة المعلوم: (الذين إذا ذكروا الله) إلى استحباب الاستماع لمن يذكر الله، لأن ذلك أدعى لاستجماع قلبه[5]، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمع القرآن من غيره كما أخبر بذلك عن نفسه[6].

(١٣٢٧)يشير التعبير بصيغة المبني للمجهول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾، إلى أنه لا ينبغي الاهتمام والتركيز على الذاكر لله بقدر ما ينبغي الاهتمام والتركيز على الذكر نفسه، ولها لا فرق بين سماع ذكر الله من صبي أو شيخ، أو امرأة أو رجل، أو عبد أو حر[7].

---

(١) روى ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٣، رقم ١٣٩٣٥) عن مقاتل بن حيان أنه قال: (﴿وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾: عندما يخوّفون). وعلق الواحدي في البسيط (١٥/ ٤٠١) على ذلك فقال: (وهذا على أنهم إنما توجل قلوبهم إذا خُوِّفوا بالله، ليس أنهم يخافونه حتى لا يرجونه).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٣، رقم ١٣٩٣٤).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٢) قال ابن زيد في تفسيرها: (لا تقسو قلوبهم).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٤).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٤).

(٦) ينظر صحيح البخاري (كتاب فضائل القرآن، باب من أحب أن يستمع القرآن من غيره، ح ٤٧٦٢، ٤/١٩٢٥)، وصحيح مسلم: (كتاب صلاة المسافرين، باب فضل استماع القرآن، ح ٨٠٠، ١/ ٥٥١).

(٧) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٥).

(١٣٢٨)تومئ إلى استحباب الاجتماع في مجالس الذكر كمجالس تلاوة القرآن ومجالس العلم ونحوها مما يذكر فيها الله تعالى؛ لأن الجالسين فيها يسمعون فيها ذكر الله وكلامه وأحكامه وأيامه.

(١٣٢٩)تفيد الآية أن المؤمن لا يستوي حاله عند ذكر محبوبه الأعظم وهو الله تعالى مع حاله عند ذكر غيره، وهو بخلاف المشرك الذي قال الله تعالى في شأنه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الزمر: ٤٥] (١).

(١٣٣٠)في الآية دلالة على أن ما يفعله بعض الناس عند سماع القرآن أو الذكر من صراخ وتواجُد ورقص ليس من أحوال المؤمنين المخبتين؛ لأن الله وصفهم بالخوف والوجل عند ذكره، ووصف المؤمنين بالطمأنينة في موضع آخر، ولم يذكر قسما ثالثا (٢).

(١٣٣١)تفيد الآية أن ذكر الله تعالى من شأنه أن يؤثر في القلوب الحيّة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، فتوجل القلوب عند الوعيد، وتستبشر عند الوعد، وتطمئن عند ذكر رحمة الله وعفوه، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٤).

(٢) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٥٩ - ٦٠) حيث قال: (هذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ﴾ (الأنفال: ٢)، وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر: ٢٣). هذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير، ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير، فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجْد وخشوع: إنك لم تبلغ أن تساوي حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حال أصحابه في المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفا من الله. وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ ﴾ (المائدة: ٨٣). فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم، فمن كان مستنا فليستن، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالا، والجنون فنون). وينظر روح المعاني (٩/ ١٥٣).

بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الرعد: ٢٨]، وقوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة الزمر: ٢٣][(١)].

(١٣٣٢)تؤذن الآية بأن المخبت إذا ذكر الله كان كأنه يراه، فلذلك يوجل قلبه، لأن الله تعالى وصف المخبتين تعالى بالخوف والوجل عند ذكر الله، وذلك لقوة يقينهم ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بيْن يديه واقفون، ولجلاله وعظمته مشاهدون[(٢)].

(١٣٣٣)تشير الآية إلى أن وجل القلوب عند ذكر الله تعالى من أعظم علامات الإيمان[(٣)]، ولذلك قال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [سورة الأنفال: ٢].

(١٣٣٤)تفيد الآية أن من صفات المؤمنين الخُلّص سماع ما يذكّرهم بالله تعالى، لأن الله تعالى قال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [سورة الأنفال: ٢].

(١٣٣٥)تفيد الآية أن ذكر اسم الله تعالى أو صفاته يؤثر في قلوب المخبتين كيفما ذكره الذاكر، فكلما سمع اسمه أو صفته خشع وخضع. ويفهم ذلك من عدم التصريح بالذاكر في

---

(١) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣١٢). قال الشنقيطي في أضواء البيان (٥/ ٢٥٩): (ووجه الجمع بين الثناء عليهم بالوجل الذي هو الخوف عند ذكره – جل وعلا –، مع الثناء عليهم بالطمأنينة بذكره، والخوف والطمأنينة متنافيان هو ما أوضحناه في كتابنا "دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب"، وهو أن الطمأنينة بذكر الله تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد، وصدق ما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم – فطمأنينتهم بذلك قوية؛ لأنها لم تتطرقها الشكوك، ولا الشبه، والوجل عند ذكر الله تعالى يكون بسبب خوف الزيغ عن الهدى، وعدم تقبل الأعمال؛ كما قال تعالى عن الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ (آل عمران: ٨)، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (المؤمنون: ٦٠)، وقال تعالى: ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ (الزمر: ٢٣)).

(٢) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٢٢)، وصفوة التفاسير (٢/ ٢٦٥).

(٣) ينظر الحج في القرآن الكريم (ص٨٣).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ([1].

(١٣٣٦)تفيد الآية أن المخبتين يكونون في غاية الفزع وأشد الخوف إذا وقعوا في زلل أو خطيئة؛ لأن قلوبهم توجل عند ذكره سبحانه، وتخشى من عدم القبول عند طاعته كما وصفهم الله بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٦٠]، فكيف تكون إذا أفاقوا بعد الوقوع في المعصية؟[2]

(١٣٣٧)يشير تقديم الذكر على الصبر والصلاة والصدقة إلى أن ذكر الله يشمل ما جاء بعده، وأن الصبر والصلاة والصدقة لا تنفك عن ذكر الله بحال، وأن ذكر الله هو الذي يثمر تلك العبادات[3].

(١٣٣٨)تدل الآية على فضيلة الصبر على ما أصابه من أمر الله من الرزايا والمصائب السماوية، كالأمراض والمحن والمصائب والغربة عن الأوطان، وما أصابه من الشدائد والمشاقّ في سبيل طاعة الله[4]. وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [سورة البقرة: ١٥٥ – ١٥٦].

(١٣٣٩)تدل الآية على أن الصبر على مشاق التكاليف والطاعات وما أصابه من أذى في سبيل النهي عن المنكر محمود[5]. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقول: (الصبر في بابين:

---

(١) ينظر الحج في القرآن الكريم (ص٨٣).

(٢) ينظر الحج في القرآن الكريم (ص٨٣).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٥).

(٤) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٩)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤٠١). وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦١): (والمراد بالصبر: الصبر على ما يصيبهم من الأذى في سبيل الإسلام. وأما الصبر في الحروب وعلى فقد الأحبة فمما تشترك فيه النفوس الجلدة من المتكبرين والمخبتين. وفي كثير من ذلك الصبر فضيلة إسلامية إذا كان تخلقًا بأدب الإسلام).

(٥) ينظر إعراب القرآن للنحاس (٣/ ٦٩).

الصبر لله بما أحب وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره، وإن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله)[1].

(١٣٤٠)تدل الآية على أن الصبر على المكاره مطلقا ممدوح[2]، سواء كان الصبر على مصائب سماوية أو على ما يصيبهم من قبل الظلمة، إلا أن الصبر على الأخير غير واجب، بل يجوز دفعه بما يمكن[3]؛ ويؤخذ كونه على العموم من أن الله تعالى عبر بالاسم الموصول ﴿ما﴾ الدال على العموم. والاستثناء لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الشورى: ٤١].

(١٣٤١)تدل الآية على ذم ما ينافي الصبر من الجزع والتسخط عند نزول المصائب وعدم الاحتساب لله في تحملها؛ لأن مدح الصابرين يستلزم ذم من اتصف بعكس ذلك[4].

(١٣٤٢)تومئ الآية إلى أن الذي يريد أن يحج لا بد أن يوطِّن نفسه على الصبر، ويؤخذ هذا المعنى من أن سياق الآيات في بيان شأن الحج، ثم اعترض بذكر صفات المخبتين، لأنه لما كان الحج (مظِنةً لكثرة الخلطة الموجبة لكثرة الأنكاد قال عاطفاً غير مُتبع، إيذاناً بالرسوخ في الأوصاف: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الذين صار الصبر عادتَهم ﴿عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ كائناً ما كان)[5].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٢٦١، رقم ١٤٠٥)، ونقله ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٤٦).

(٢) ينظر روح المعاني (٩/ ١٤٨).

(٣) وقال الرازي: إنه يجب، ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٥)، وغرائب القرآن (٥/ ٨١)، واللباب (١٤/ ٨٩).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٥).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ٤٨ - ٤٩).

(١٣٤٣)في الآية إشارةٌ إلى أن المؤمن يلزمه أن يوطن نفسه على الصبر لأنه سيبتلى بالبأساء والضراء حتى يكون من أهل هذه البشارة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لما يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في نفسه وماله وولده، حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة))[(١)].

(١٣٤٤)تومئ الآية إلى أن الحياة الدنيا لا تخلو من المصائب، ولا وسيلة لتجاوزها إلا الصبر، وللك أثنى الله على الصابرين في آيات متعددة من كتابه العزيز، ومنها هذه الآية.

(١٣٤٥)في التعبير بحرف "على" في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ [سورة الحج: ٣٥]، إشارةٌ إلى أن الممن المخبت يلزمه أن يرتقي فوق المصائب، وأن يتعاظم ويتسامى عليها، لا أن ينكسر لها، وأن يتخذ الصبر عليها مطية يركبها لتوصله إلى مولاه، لا أن تركبه فتهبط به إلى أسفل سافلين[(٢)].

(١٣٤٦)تومئ الآية إلى أن الخوف من الله لا يعني الضعف والذلة، فإن الخائف من الله لا يخاف سواه، فلا يؤثر عليه ضغط اجتماعي فاسد، ولا عنف ظالم، ولا يزحزحه عن طريق ربه جبروت طاغية، بل يصبر على صنوف البلاء التي يصاب بها في نفسه وماله وولده من أجل ربه، ويؤخذ هذا من ذكر صفة الصبر بعد صفة وجل القلوب[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده من رواية أبي هريرة (٢/ ٢٨٧، رقم ٧٨٤٦) و (٢/٤٥٠، رقم ٩٨١٠)، والترمذي في سننه (كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، ح ٢٣٩٩، ٤/ ٦٠١)، وقال: (حسن صحيح). وأخرجه أبو يعلى في مسنده (١٠/٣١٩، رقم ٥٩١٢)، وابن حبان في صحيحه (كتاب الجنائز، ذكر البيان بأن تواتر البلايا على المسلم قد لا تبقي عليه سيئة يناقش عليها في العقبى، ح ٢٩١٣، ٧/١٧٦)، والحاكم (كتاب الجنائز، ح ٧٨٧٩، ٤/٣٥٠)، وصححه على شرط مسلم، وأخرجه البيهقي في السنن (كتاب الجنائز، باب ما ينبغي لكل مسلم أن يستشعره من الصبر على جميع ما يصيبه، ح ٦٥٤٣، ٣/ ٥٢٤).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٥).

(٣) ينظر الحج في القرآن الكريم (ص ٨٤).

(١٣٤٧)يدل تقديم الصبر على الصلاة والنفقة على أهمية الصبر وعظم منزلته عند الله، وأنه لا بد من الصبر على ما أصاب الإنسان عند أداء الطاعات[١].

(١٣٤٨)في الآية فضيلة أداء الصلوات المفروضة على وجه الكمال كما استحفظهم الله، وإدامتها، والمحافظة على وضوئها، ومواقيتها، وركوعها، وسجودها، مع كامل شرائطها وأركانها وسننها[٢]؛ لأن الله تعالى لم يقل: ﴿والمصلين﴾، وإنما قال: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، أي الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة، بأن أدَّوا واجباتها ومستحباتها، وعبوديتَها الظاهرة والباطنة[٣].

(١٣٤٩)تومئ الآية إلى أن الصلاة أشرف الطاعات البدنية التي تؤدى بالجوارح[٤]، لأن الله تعالى خصها بالذكر من سائر العبادات البدنية – مع أن المخبتين يعملون غيرها من الأعمال الصالحة بلا شك – دلالةً على أفضليتها، لأنها أعظم الذكر، إذ هي ذكر اللسان والجَنان والأركان. وفي الحديث: ((واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة)[٥].

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٥).

(٢) ينظر تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٧٥)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤٠١)، وفتح القدير (٣/ ٥٣٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٨).

(٤) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٨٥)، وتفسير الرازي (١١/ ٢٦٥)، وغرائب القرآن (٥/ ٨١)، وتفسير آيات الأحكام للسايس (ص: ٥٠٨).

(٥) أخرجه الطيالسي في مسنده (ص ١٣٤، رقم ٩٩٦)، وأحمد في مسنده (٢٧٦/٥، رقم ٢٢٤٣٢)، وابن ماجه في سننه: (كتاب الطهارة، باب المحافظة على الوضوء، ح ٢٧٧، ١٠١/١)، وقال البوصيري في الزوائد (٤١/١): (هذا الحديث رجاله ثقات أثبات، إلا أنه منقطع بين سالم وثوبان، فإنه لم يسمع منه بلا خلاف، لكن له طرق أخرى متصلة). وأخرجه كذلك الدارمي في سننه (كتاب الطهارة سننها، باب المحافظة على الوضوء، ح ٦٥٥، ١٧٤/١)، وابن حبان في صحيحه (كتاب الطهارة، ذكر إثبات الإيمان للمحافظ على الوضوء، ح ١٠٣٧، ٣١١/٣)، والطبراني في المعجم الصغير (٢/ ١٩١، رقم ١٠١١)، والحاكم في المستدرك (كتاب الطهارة، ح ٤٤٨ و٤٤٩، ٢٢٠/١)، وصححه على شرط الشيخين، وقال: (ولست أعرف له علة يعلل بمثلها مثل هذا الحديث، إلا وهَم من أبي بلال الأشعري وهِم فيه على أبي معاوية)، ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في سننه (٨٢/١، رقم ٣٨٩). قال المناوي في فيض القدير (٤٩٧/١): (قال الحافظ العراقي في أماليه: حديث حسن، رواته ثقات، إلا أن في سنده

(١٣٥٠)يؤذن التعبير في الآية أنه لا يقيم الصلاة على الوجه المشروع مع الشواغل والمشاق إلا الراسخ في حبها؛ وذلك لأن الله تعالى عبر باسم الفاعل: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ دون الفعل: ﴿يقيمون﴾ إشارةً إلى أن الصلاة صارت شأنا من شئون المخبتين لا يتخلفون عنها، مع أن السفر مظِنّة التقصير في إقامة الصلاة، فالمخبتون – لما تمكن مِن حب الصلاة في قلوبهم والخوف من الغفلة عنها — يؤدونها دائماً على وجه الكمال(١).

(١٣٥١)تومئ الآية بترتيبها إلى أن مما يعين على الصبر على المصائب الإقبالَ على إقامة الصلاة؛ لأن الله أتبع وصف المخبتين بالصبر بوصفهم أنهم مقيمون للصلاة فقال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾: (أي إذا اشتدت بهم البلوى فزعوا إلى الوقوف في محلّ النجوى)(٢). وقد قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة البقرة: ٤٥].

(١٣٥٢)في الآية إيماء إلى أن إقامة الصلاة بتوفية أركانها وإتمام هيئتها في مواطن الانشغال ومظان التقصير أعظم في الثواب وأقوى في الدلالة على قوة الإيمان والاستمساك بطاعة الرحمن، ويؤخذ هذا المعنى من أن حكمة ذكر إقامة الصلاة في صفات المخبتين في سياق أحكام الحج هو أن السفر مظِنّة للتقصير في الصلاة(٣).

---

انقطاعا بين سالم وثوبان)، وقد صححه الألباني بمجموع طرقه في "إرواء الغليل" (٢/ ١٣٥ – ١٣٧، رقم ٤١٢)، وكذا محققو جامع الأصول (٩/ ٣٩٥).

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٤٩)، وروح المعاني (٩/ ١٤٨)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٨٥).

(٢) لطائف الإشارات (٢/ ٥٤٥).

(٣) ينظر روح المعاني (٩/ ١٤٨)، وفتح البيان في مقاصد القرآن (٩/ ٥٠).

(١٣٥٣)تدل الآية على أن الإنفاق الواجب من صفات المخبتين، من زكاة ونفقة واجبة على من تلزمه نفقته، لأن الله تعالى قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾، وبهذا فسرها ابن زيد[١]، ويحتمل أن يكون المراد الزكاة المفروضة لاقترانها بالصلاة المفروضة[٢].

(١٣٥٤)تدل الآية على أن الإنفاق المستحب في وجوه الخير من صفات المخبتين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾، والاسم الموصول ﴿ما﴾ يفيد العموم، فيعم الإنفاق الواجب والمستحب، لوروده مطلق اللفظ من غير قرينة الخصوص[٣]، وقد روي هذا عن ابن عباس[٤]. والمعنى: (وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأرقائهم وقراباتهم، وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى خلق الله مع محافظتهم على حدود الله)[٥].

(١٣٥٥)تشير الآية إلى تيسير الله على عباده وأنه لم يعلِّقْ فوزهم بما فيه حرج عليهم؛ لأن الله تعالى مدح المخبتين في هذه الآية وغيرهم بأنهم ينفقون بعض ما رزقهم الله لا جميعه، فقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾، و"مِن" التي أدغمت في "ما" تفيد التبعيض، وأتى بها ليعلم سهولة ما أمر الله به ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رزقه الله[٦].

(١٣٥٦)يومئ مجيء قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ [سورة الحج: ٣٥]، في سياق آيات الحج إلى أنه لا ينبغي للمسلم أن ينفق جميع ماله في أداء شعيرة الحج، ويحرم أن

---

(١) روى الطبري عنه في تفسيره (١٦/ ٥٥٢). أنه قال: (في الواجب عليهم إنفاقها فيه، في زكاة، ونفقة عيال، ومن وجبت عليه نفقته، وفي سبيل الله).

(٢) روح البيان (٦/ ٣٤).

(٣) روح البيان (٦/ ٣٤).

(٤) نسبه إليه الواحدي في البسيط (١٥/ ٤٠٦).

(٥) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٥). وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦١): (والمراد من الإنفاق الإنفاقُ على المحتاجين الضعفاء من المؤمنين لأن ذلك هو دأب المخبتين. وأما الإنفاق على الضيف والأصحاب، فذلك مما يفعله المتكبرون من العرب).

(٦) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٨)، والحج في القرآن الكريم (ص٨٦).

يسافر للحج ويترك أهله وعياله دون نفقة[1]. وإنما ينفق بعض ماله في الحج، ويترك بعض ماله لنفقته ونفقة أولاده.

(١٣٥٧)يشير قوله تعالى: إلى أن العبد لا ينبغي أن يستصغر صدقته وإن قلت، لأنه ممن تصدق عليه الآية ولو أنفق شيئا يسيرا، وقد تكون الصدقة اليسيرة ذات ثواب عظيم إذا كانت أقصى ما يستطيع الإنسان، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل ((أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقل))[2].

(١٣٥٨)يشير قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، إلى أن ما بأيدي الناس من أنواع الرزق ليس لهم في تحصيله فضل، ولولا تيسير الله لهم ورزقهم إياها ما حصلت لهم[3].

(١٣٥٩)تفيد الآية أن المنة لله تعالى فيما ينفقه عباده، ولا منة لهم في ذلك؛ لأنه تعالى لم يقل: "ومما يملكون ينفقون"، وإنما قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، فذكرهم بأنه هو الذي رزقهم برزقه، وهو الذي أنعم عليهم، حتى لا يمن أحد على أحد، وهذا يكسر العُجب، ويجنبهم المنّ والرياء[4].

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣٥٨/٢، رقم ٨٦٨٧) أبو داود في السنن (كتاب الزكاة، باب في الرخصة في ذلك، ح ١٦٧٧، ٢/ ٣١٢)، وابن خزيمة في صحيحه (كتاب الزكاة، باب ذكر الدليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما فضل صدقة المقل إذا كان فضلا عمن يعول...، ح ٢٤٥١، ١٠٢/٤)، وابن حبان (كتاب الزكاة، باب صدقة التطوع، ذكر البيان بأن من أفضل الصدقة إخراج المقل بعض ما عنده، ح ٣٣٤٦، ١٣٤/٨)، والحاكم في المستدرك (كتاب الزكاة، باب أفضل الصدقة جهد المقل، ح ١٥٠٩، ٥٧٤/١)، وقال: (صحيح على شرط مسلم). ووافقه الذهبي، والجهد: بضم الجيم، وتفتح، هو الوسع والطاقة، وبالفتح المشقة، وقيل هما لغتان، أي أفضل الصدقة ما يحتمله حال القليل المال.

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٦).

(٤) ينظر المرجع السابق (ص ٨٦).

(١٣٦٠)في الآية إشارةٌ إلى أن المسلم عند الإنفاق يحسن به أن يتذكر فضل الله عليه فيما ينفقه[١]، فهو ينفق مما رزقه الله الذي تفضل به عليه، ولا فضل له هو في ذلك.

(١٣٦١)تشير الآية إلى ذم البخل وعدم الإنفاق في وجوه البر وأبواب الخير[٢]؛ لأن مدح الذين ينفقون يقتضي ذم ضدهم.

(١٣٦٢)تومئ الآية إلى أن الطاعات البدنية أفضل من الطاعات المالية؛ لأن الله تعالى قدم الصلاة في الذكر على الإنفاق الذي يشمل الزكاة، والصلاة أشرف الطاعات البدنية، والزكاة أشرف الطاعات المالية[٣]، وإنما قدّمها لفائدة، والفائدة هي الإشارة إلى أفضليتها، والله أعلم.

(١٣٦٣)تدل الآية على أن نحر البُدْن من صفات المخبتين؛ لأن الله تعالى بعدما ذكر الصفات الصريحة أتبعها بذكر البُدْن، يعني: ينحرون البُدْن[٤].

(١٣٦٤)تشير الآية إلى أن الخوف من الله تعالى يثمر أمرين، أحدهما: الصبر على المكاره التي تصيبهم من قبل الله، وذلك هو المراد بقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾، والثاني: الاشتغال بالخدمة بالنفس وهي الصلاة، والخدمة بالمال، وهي الصدقات الواجبة والمستحبة[٥].

(١٣٦٥)يومئ ترتيب الآية إلى أن أداء العبادات البدنية والمالية يحتاج إلى الصبر، ولا تؤدى كاملة إلا به[٦]، ويستفاد هذا من تقديم وصف المخبتين بالصبر على الوصف بأداء تلك

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٦).

(٢) ينظر المرجع السابق (ص ٨٦).

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٨٥)، وتفسير الرازي (١١/ ٢٦٥).

(٤) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٩).

(٥) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٥).

(٦) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٣٨).

العبادات: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾، فتحصيل الصبر يعين على إقامة الصلاة والإنفاق الواجب والمستحب.

(١٣٦٦)فيها بشارة للحجاج المحسنين لمناسكهم، المخلصين في عبادتهم، لأن شأنهم الإخبات والتواضع لله تعالى، والتأثر عند ذكر الله تعالى أثناء المناسك، والصبر على مفارقة الأهل الأوطان، ومشقة الحج والسفر إلى مكة، وإقامة الصلوات في مشاهد الحج مع انشغالها بأعماله ومشاقه، والإنفاق من أموالهم في ما يتطلبه الحج وفي شراء الهدايا التي يُغالون فيها[(١)].

(١٣٦٧)تدل الآية على أنه يستحب للمسلم الاستمرار في الإنفاق مما رزقه الله ابتغاءً لرضوانه كلما تجدد له رزق من الله عليه. ويخذ هذا من العدول عن اسم الفاعل "منفقون"، إلى الفعل المضارع: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾، لأن المضارع يدل على التجدد والاستمرار[(٢)].

(١٣٦٨)فيها ترغيب للاستمرار في الإنفاق في سبيل الله في الحج؛ لأن الآية وردت في معرض الحديث عن الحج، ولما كان ما يحصل فيه من زيادة النفقة ربما استكثره وتثاقل عنه، رغّب فيه بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾، أي يجددون بذله على الاستمرار، بالهدايا التي يُغالون في أثمانها وغير ذلك، إحسانًا إلى خلق الله، كالخبْت من الأرض الباذلِ لما يودعه تعالى فيه من الماء والكلأ[(٣)].

(١٣٦٩)تومئ الآية إلى أن الحاج عليه أن يستمر في الإنفاق في سائر الأمكنة والأزمنة الفاضلة رجاء الثواب العظيم[(٤)]. ويدل على ذلك قوله تعالى في سياق الحج: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾ باستعمال الفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار.

---

(١) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥٠٨).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٦).

(٣) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٤٩). وقد ذكر (١٣/ ٤٨) أن الخبْت هي الأرض المنخفضة الصالحة للاستطراق وغيره من المنافع.

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٦).

(١٣٧٠)فيها إشارة إلى أن استحضار نعمة الله بالرزق ابتداءً يُورِث حسن الظن بالخلَف عما أنفق، فيحمله على المزيد من الإنفاق، لأن الله تعالى قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾، أي هم على رجاء من الله أن يرزقهم، ولأجل عظمة الله يحسنون ظنَّهم في خلَفه[١]. فكما رزقهم الله ابتداءً يُخلِف عليهم ما أنفقوا ابتغاء مرضاته.

(١٣٧١)تومئ الآية أن الإنفاق هو مما رزقهم الله وحده فليس من جهودهم ولا أعمالهم، ولكن من توفيق الله تعالى، ومن رزقه الذي رزقه إياهم، ويرزقون عباد الله مما رزقهم الله. ويؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، ولم يقل من أموالهم، فهم لكونه نعمة من الله لا يبخلون برزقه[٢].

(١٣٧٢)في الآية حثٌّ – من طرف خفيٍّ – للحجاج على الاتصاف بهذه الصفات الأربعة: وجل القلوب، والصبر على الأقدار، وإقامة الصلاة، والإنفاق في سبيل الله. ويؤخذ هذا من إيراد هذه الآية في سياق الحديث عن أحكام الحج وآدابه.

(١٣٧٣)فيها دلالة على فضل الحج وعظم ثوابه، لأنه يجمع بين العبادة القلبية والبدنية والمالية، ففيها صبر وتواضع وصلاة وطواف وتلبية وذكر ونسك وذبح وصدقة، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾.

(١٣٧٤)تبين الآية الأعمالَ التي يثمرها تقوى القلوب، ويؤخذ هذا من أن السورة جاءت لدعوة العباد إلى تقوى الله ظاهرا وباطنا، وهذه الآية تبين صفات المتقين، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٤٨).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٨٦).

وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [سورة البقرة: ١٧٧][(١)].

(١٣٧٥)تدل الآية على أن من أراد أن يصل إلى منزلة الإخبات فعليه أن تكون خشيته من الله، وأن يوطن نفسه على الصبر على المصائب، ويقيم الصلاة، ويستمر في البذل في سبيل الله بما استطاع[(٢)].

(١٣٧٦)يؤخذ من هاتين الآيتين: أن التواضع لله تعالى، وخشيته سبحانه، والصبر على بلائه، والمحافظة على فرائضه، كل ذلك مما يحبه الله عز وجل، ويؤدي إلى السعادة الدنيوية والأخروية[(٣)]. يؤخذ هذا من أن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يبشرهم بالثواب العظيم وجنات النعيم، وأثنى عليهم الثناءَ الجميل.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الحج: ٣٦]:

(١٣٧٧)تدل الآية على أن الإبل في الهدي أفضل من غيرها من الأنعام[(٤)]؛ لأن الله تعالى بعدما ذكر بهيمة الأنعام على سبيل الإجمال في قوله تعالى: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا

(١) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٦٥).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٦).

(٣) ينظر تفسير آيات الأحكام للسايس (ص: ٥٠٩)، والأساس في التفسير (٧/ ٣٥٦٥).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٣)، وتفسير آيات الأحكام للسايس (ص: ٥١٠ و٥١٢)، والتفسير والبيان (٤/ ٢٣٦٦). وروى ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٣، رقم ١٣٩٤٣) عن مالك بن أنس قال: (حجّ سعيد بن المسيب، وحج معه ابن حرملة، فاشترى سعيد كبشا فضحى به، واشترى ابن حرْملة بدَنة بستة دنانير، فنحرها فقال له سعيد: أما كان لك فينا أسوة؟ فقال: إني سمعت الله يقول: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ﴾

رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾، خصّ البُدْن بالذكر فقال: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ﴾، والبُدْن تطلق على الإبل أصالةً[1]، وهي أفضل من جهة كثرة لحمها، ويؤكد أفضليتها أن النبي صلى الله عليه وسلم في حَجة الوداع نحر بيده ثلاثا وستين ناقة، ولم يذبح بيده بقرة ولا شاة[2].

(١٣٧٨)تدل الآية على أن البقر في الهدي تلي الإبِل في الفضل، وتفضل غيرها من الأنعام، لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾، والبُدْن أكثر استعمالها في الإبل، والبقرة تلحق بها لوجود الضخامة فيهما، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم نزّل البقرَ في التقرب إلى الله تعالى بذبحها منزلةَ الإبل، وجوّز أن تُذبَح عن سبعة أشخاص كالإبل[3]، فعن جابر قال: ((نحرنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عامَ الحديبية: البدَنةَ عن سبعة، والبقرةَ عن سبعة))[4]. وعلى هذا يحمل ما يروى عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: (البدَنة ذات البدَن من الإبل والبقر)[5].

---

[سورة الحج:٣٦)، فأحببت أن آخذ الخير من حيث دلَّني الله عليه، فأعجب ذلك ابنَ المسيب منه! وجعل يحدث بها عنه).

(١) وهذا قول الجمهور، أما البقر فمختلفٌ في كونها مشمولة بلفظ "البُدْن". وقد روى ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٩٣) عن مجاهد رضي الله عنه قال: (ليس البدن إلا من الإبل). وإنما ألحق بها البقر، ويدل على ذلك قوله عليه السلام في الحديث الصحيح في يوم الجمعة: ((من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدَنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة...))، فتفريقه عليه السلام بين البقرة والبدنة يدل على أن البقرة لا يطلق عليها بدنة، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ يدل على ذلك، فإن الإبل هي التي تسقط بعد نحرها قائمة، أما البقر فيُضجَع ويُذبَح كالغنم (تفسير القرطبي: ١٢/ ٦١).

(٢) ينظر صحيح مسلم: (كتاب الحج، باب حجة النبي -صلى الله عليه وسلم، ح ١٢١٨، ٢/ ٨٨٦).

(٣) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٦١).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب الاشتراك في الهدي، ح ١٣١٨، ٢/ ٩٥٥). والتفريق بين البدنة والبقرة في الذكر دليل على تغايرهما، ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤١٩).

(٥) تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٩٣، رقم ١٣٩٣٧).

(١٣٧٩)تدل الآية على أن المسلم لو نذر لله بدَنة فإنه لا يجزئه ذبح بقرة، إلا على قول من قال بأن البدنة مشترك لفظي بين البعير والبقرة[(١)]؛ وهو خلاف الراجح والله أعلم، وكون البقرة متحدةً مع الإبل في الحكم، لا يجعلها تقوم مقامها في النذر[(٢)].

(١٣٨٠)تدل الآية على استحباب اختيار الإبِل والبقر الضخمة السمينة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُمْ مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، والبدنة إنما سميت بدنة لعظم بدنها[(٣)]، أو لأنَّهم كانوا يُبدّنونها، أي يُسَمِّنُونَها[(٤)]. والبدَن لغةً: هو الضخم من كل شيء[(٥)]، فمعنى الآية: والإبل الضخام العظيمة الأجسام، جعلناها لكم من شعائر الله[(٦)]. وإنما ذكرها الله بصفتها دون اسمها لينبِّه بذلك على اختيارها، وتعيين الأفضل منها؛ فإن الله أحقُّ ما اختير له[(٧)].

---

(١) تفسير كذا روي عن ابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري، كما ذكر ابن كثير (٥/ ٤٢٥). وروى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد –كما ذكر السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٠) عن يعقوب الرياحي عن أبيه قال: (أوصى إليّ رجل، وأوصى ببدنة، فأتيت ابن عباس فقلت له: إن رجلا أوصى إلي وأوصى ببدنة، فهل تجزئ عني بقرة؟ قال: نعم).

(٢) ينظر تفسير آيات الأحكام للسايس (ص: ٥١٠)، وروائع البيان للصابوني (١/ ٦١٤)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٢١).

(٣) الكشاف (٣/ ١٥٧)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٥)، وكذا في تهذيب اللغة (١٤/ ١٠٢). ونقل عَن أبي زيد الأنصاري: (بَدَنَت الْمَرْأَة وبَدُنَتْ بَدْناً أو بُدْناً وبدَانة، أَي سَمِنَتْ).

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٨)، ومعاني القرآن للنحاس (٤/ ٤١١)، والصحاح (٥/ ٢٠٧٧). وروى ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٤) عن مجاهد قال: (إنما سميت البدن من قبل السمانة).

(٥) وإنما قيل للناقة بدنة لضخامة جسمها، ثم سميت الإبل بُدْنًا مهزولةً كانت أم سمينة. ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٩).

(٦) تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٣)، والكشف والبيان (٧/ ٢٢).

(٧) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٩١).

(١٣٨١)تدل الآية على أن الهدي يجوز بالذكور والإناث من الإبل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾، ولفظها يعم الذكور والإناث[١].

(١٣٨٢)تومئ الآية إلى أن إهداء الشاة دون الناقة والبقرة في الفضل، لأنها صغيرة الجسم فلا تسمى بدنة؛ والله تعالى إنما قال: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾، والشياه لا تدخل في البُدْن، لأن البُدْن سميت بذلك لعظمها[٢].

(١٣٨٣)تفيد هذه الآية أن الداعية عليه أن يسلك مسلك التدرج في حمل الناس على الطاعة[٣]، فقد حث الله تعالى بالتقرب بأي نوع من الأنعام فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٣٤]، ثم دلّهم على أفضلها وهي البُدْن لعظم خلقتها ونفاستها فقال: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.

(١٣٨٤)في الآية إيماءٌ إلى أنه ينبغي شكر الله تعالى على عظيم نعمته على عباده إذْ سخر لهم الإبل مع قوتها وضخامتها وعظم أبدانها، وذلَّلها، ومكَّنهم من الانتفاع بها ونحرها[٤]، ويؤخذ هذا من تسميتها بالبُدْن دون الإبل، والتعبير ب ﴿لَكُمْ﴾ الذي يدل على أن الله امتن بذلك على الناس[٥].

(١٣٨٥)تفيد الآية أن الله تعالى اختص أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالتقرب بنحر الإبل[٦] ليكون ذلك أعظم لثوابهم، ويستفاد ذلك من أن الله خاطب النبي وأتباعه فقال: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.

---

(١) أحكام القرآن لابن الفرس (٣/ ٣٠٩). وحكاه عن مالك رحمه الله.

(٢) ينظر تفسير البغوي (٥/ ٣٨٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٦)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٥٨).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٧).

(٤) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٥١).

(٥) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٢).

(٦) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٧).

(١٣٨٦)تنص الآية على أن ذبح البُدْن من أعلام دين الله وشريعته[١]، التي أعلم بها المسلمين وجعلها مما يتقرب به إليه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾، أي: هي مما أشعركم الله به، وأعلمكم إياه من أمر دينه، وأمركم بنحرها في مناسك حجكم إذا قلدتموها وأشعرتموها[٢].

(١٣٨٧)تدل الآية على أن الذي يحدد شعائر الدين هو الله تعالى، لا أحد سواه، ولذلك أضاف الله تعالى الشعائر إلى نفسه فقال: ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ [٣].

(١٣٨٨)تفيد الآية بضميمة البيان النبوي أن البدنة الواحدة تجزئ في الأكثر عن سبعة أشخاص، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((البقرة عن سبعة، والجزور عن سبعة))[٤]. وكذلك فعل الصحابة في حجة الوداع كما تقدم[٥].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٣)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤٠٨)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٦)، والكشاف (٣/ ١٥٨).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٣)، والهداية (٧/ ٤٨٩٠).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٧).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه: (كتاب الضحايا، باب في البقر والجزور، ح ٢٨٠٨، ٣/ ١١).

(٥) ومن الفقهاء من جعل البعير عن عشرة؛ وبه قال إسحاق بن راهويه؛ وذلك لحديث ابن عباس حيث قال: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فحضر الأضحى، فاشتركنا في البقرة سبعة، وفي البعير عشرة). أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٧٥، رقم ٢٤٨٤)، وقد صحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٣/ ١٢٩)، وعلق عليه الأرناؤوط في تحقيقه للمسند (٤/ ٢٨٧): (رجاله ثقات رجال الصحيح غير الحسن بن يحيى... وهو متابع، والحسين بن واقد وإن احتج به مسلم وعلق له البخاري عنده بعضُ ما يُنكَر، وقد تفرد بحديث ابن عباس هذا). وأخرجه الترمذي في السنن: (كتاب الأضحى، باب ما جاء في الاشتراك في الأضحية، ح ١٥٠١، ٤/ ٨٩)، وقال: (حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الفضل بن عباس)، وأخرجه النسائي في سننه: (كتاب الضحايا، باب ما تجزئ عنه البدنة في الضحايا، ٧/ ٢٢٢)، وابن ماجه في السنن: (كتاب الأضاحي، باب عن كم تجزئ البدنة والبقرة، ح ٣١٣١، ٢/ ١٠٤٧)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (كتاب الحج، باب الهدي، ح ٤٠٠٧، ٩/ ٣١٨) بلفظ: (وفي البعير سبعة أو عشرة)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (كتاب الأضاحي، ح ٧٥٥٩، ٤/ ٢٥٦)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي! ويحمل – على القول بصحته – على أن البعير قد يقوم

(١٣٨٩)تدل الآية على أن الشعائر عامة في جميع أعلام الدين الظاهرة[١]؛ لأن الله تعالى أخبر أن من جملة شعائره البُدْنَ، وأخبر في موضع آخر أن الصفا والمروة منها، ونهى في موضع آخر عن إحلالها، فدلّ على أنها تشمل جميع أعلام الدين.

(١٣٩٠)تدل الآية على أن للمسلمين منفعة في البُدْن التي تُهدى إلى مكة في الدنيا والآخرة[٢]، أما في الآخرة فلهم أجر في نحرها والتصدق بلحمها، وأما في الدنيا فانتفاعهم بها بركوب ظهورها وشرب لبنها عند الحاجة وغيرها[٣]. ويؤخذ هذا من أن الله تعالى قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، وهو يعم الدنيا والآخرة[٤].

---

لنفاسته مقام عشر شياه، قال الحافظ في الفتح (٩/ ٦٢٧): (والذي يتحرر في هذا الأصل أن البعير بسبعة ما لم يعرض عارض من نفاسة ونحوها، فيتغير الحكم بحسب ذلك، وبهذا تجتمع الأخبار الواردة في ذلك).

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٨).

(٢) ينظر تفسير مقاتل (٣/ ١٢٧)، وتفسير الطبري (١٦/ ٥٥٣)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٠)، والكشف والبيان (٧/ ٢٣)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٦)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٢).

(٣) قال ابن العربي في أحكامه (٣/ ٢٩١): (يعني منفعة اللباس والمعاش والركوب والأجر، فأما الأجر فهو خير مطلقا، وأما غيره فهو خير إذا قوّى على طاعة الله). وقال صاحب التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٣): (والخير: النفع، وهو ما يحصل للناس من النفع في الدنيا من انتفاع الفقراء بلحومها وجلودها وجلالها ونعالها وقلائدها. وما يحصل للمُهدين وأهلهم من الشِّبع من لحمها يوم النحر، وخير الآخرة من ثواب المهدين، وثواب الشكر من المعطين لحومها لربهم الذي أغناهم بها). وتوسع القشيري في منافعها في الدنيا فقال في لطائف الإشارات (٢/ ٥٤٥): (أقسام الخير فيها كثيرة بالركوب والحمل عليها وشرب ألبانها وأكل لحومها والانتفاع بوبرها، ثم الاعتبار بخلقتها كيف سخّرت للناس على قوتها وصورتها، ثم كيف تنقاد للصبيان في البروك عند الحمل عليها وركوبها والنزول منها ووضع الحمل عنها وصبرها على العطش في الأسفار، وعلى قليل العلف، ثم ما في طبعها من لطف الطبع، وحيث تستريح بالحداء مع كثافة صورتها إلى غير ذلك).

(٤) روى الطبري (١٦/ ٥٥٤) عن مجاهد، في قول الله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [سورة الحج:٣٦]. أنه قال: (أجر ومنافع في البدن)، وروى سفيان الثوري (ص: ٢١٣)، ويحيى بن سلام في تفسيره (١/ ٣٧٥) والطبري أيضا بنحوه عن إبراهيم النخعي أنه قال: (﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾: البدنة، إن احتاج إليها ركب، وإن احتاج إلى لبنها شرب)، وصوَّب ابن عطية (٤/ ١٢٢) عمومه لخيري الدنيا والآخرة.

(١٣٩١)تومئ الآية أن الله تعالى وإن جعل العبادات علمًا على دينه وعنوانا لطاعته، فلن يُحرَم فاعلها الخير الدنيوي العاجل كما لن يحرم الخير الآجل[١]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، والتنكير للتكثير.

(١٣٩٢)تفيد الآية أن في نحر البُدْن أجرا كبيرا، لأن الله تعالى قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، وقد فسرها بعض السلف بالأجر خاصة، ومال إليه بعض المفسرين[٢]، لأنه الأوفق بالترغيب الذي تتضمنه الآية[٣]، وقد جاء في حديث ضعيف السند: ((ما عمل ابن آدم يوم النحر عملا أحب إلى الله من هراقة دم، وإنه لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان، قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفْسًا))[٤].

(١٣٩٣)فيها ترغيب في الحرص على إهداء البُدْن، لأن الله تعالى قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، ومن شأن العاقل أن يحرص على شيء له فيه خير ومنافع بشهادة الله تعالى[٥].

---

(١) ينظر الحج في القرآن الكريم (ص ٨٨).

(٢) هو قول السُّدّي من السلف كما روى ابن سلام في تفسيره (١/ ٣٧٥)، ورجحه الشافعي في تفسيره المجموع (٣/ ١٠٨٩) فإنه قال: (فعقلنا أن الخير: المنفعة بالأجر، لا أن لهم في البُدْن مالاً)، وكذلك النحاس فقد مال في معانيه (٤/ ٤١١) أنه خاص بالآخرة، وكذا الماتُريدي (٧/ ٤١٩) حيث قال: (وكأن هذا أشبه، أي: يكون قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، أي: الأجر في الآخرة؛ لأن الانتفاع بها لا يحل إذا أوجبت بدنة إلا في حال الاضطرار). ورأى الشيخ السايس (تفسير آيات الأحكام: ص: ٥١١) أن يحمل الخير هنا على الثواب الأخروي، وتحمل المنافع في الآية السابقة على المنافع الدنيوية، ليكون الكلام مفيدا فائدةً جديدة.

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٦).

(٤) رواه الترمذي في سننه: (كتاب الأضاحي، باب ما جاء في فضل الأضحية، ح ١٤٩٣، ٤/ ٨٣) وقال: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث هشام بن عروة إلا من هذا الوجه). وابن ماجه في سننه: (كتاب الأضاحي، باب ثواب الأضحية، ح ٣١٢٦، ٢/١٠٤٥)، والحاكم في المستدرك (كتاب الأضاحي، باب ما تقرب إلى الله يوم النحر...، ح ٧٥٢٣، ٤/٢٤٦) وقال: (صحيح الإسناد). وفي سنده أبو المثنّى سليمان بن يزيد المدني، وهو ضعيف.

(٥) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٦). وأخرج أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٦٠) عن ابن عيينة قال: حج صفوان بن سليم ومعه سبعة دنانير فاشترى بها بدنة فقيل له: ليس معك إلا سبعة دنانير تشتري بها بدنة فقال:

(١٣٩٤)تومئ الآية إلى أهمية النظر في حاجات الحجيج المهمة التي تعينهم على أداء حجهم[١]. ويؤخذ هذا من أن الله تعالى امتن على العباد بالبدن وجعلها لهم من شعائره، وجعل لهم فيها منافع تهون عليهم الحج وتيسره لهم.

(١٣٩٥)تدل الآية على أن ذكر اسم الله شرطٌ لحِلّ الذبيحة؛ لأن الله تعالى لم يذكر الذبح بنفسه، وإنما أمر بذكر اسمه على البُدْن فقال: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾، كناية عن ذبحها ونحرها، وإشارة إلى أن التسمية لازمة عند نحرها؛ وأنها من شرط جوازها، لأن الأمر يفيد الوجوب[٢].

(١٣٩٦)تدل الآية على أنه يستحب أن يقول المسلم عند نحر الهدي وذبح الأضحية: "باسم الله، الله أكبر، اللهم منك ولك"، وقد يكرر التكبير، أو يزيد: لا إله إلا الله، لأن الله تعالى قال: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾، وقد بين ترجمان القرآن ابن عباس هذا الذكر[٣]. وإنما أضيف التكبير لأن الله قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٧] [٤]، وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين التسمية والتكبير، ويقول: ((بسم الله، والله أكبر))[٥]. و"منك" إقرار بأنها رزق من الله، و"لك" تصريح بأنها قربة خالصة له سبحانه.

---

إني سمعت الله يقول: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾. وذكر ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٢٦) أن سفيان الثوري قال: (كان أبو حاتم يستدين ويسوق البدن، فقيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إني سمعت الله يقول: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾).

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٧).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٢٠)، وأحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٨٣)، وتفسير آيات الأحكام للسايس (ص: ٥١٢).

(٣) روى الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٥٨) بسند حسن عن ابن عباس، قال في هذه الآية: (إذا أردت أن تنحر البدنة فانحرها، وقل: الله أكبر، لا إله إلا الله، اللهم منك ولك، ثم سَمِّ، ثم انحرها. قلت: فأقول ذلك للأضحية؟ قال: وللأضحية). وينظر كذلك تفسير سفيان الثوري (ص: ٢١٣).

(٤) ينظر أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٩٩).

(٥) تقدم تخريجه.

(١٣٩٧)في الآية إشارة لطيفة إلى أنّ الإبل لا تذبح، وإنما تُنحر نحراً[١]، لقوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾، أي قائمة، قد صُفَّت يداها ورجلاها، ولا يمكن في هذه الحالة إلا طعنها في لبّتها، وهو النحر. وقد قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾ [سورة الكوثر: ٢].

(١٣٩٨)تدل الآية على أنه يستحب أن تُنحَر الإبل قائمة[٢]، لأن الله تعالى قال: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾، أي قائمة، قد صفت قوائمها[٣]، لأن قيام الإبل يستلزم أن تصُفَّ أيديها وأرجلها، أما إن كانت باركة أو ماشية فلا تكون صافّة[٤]. ويؤيده تتمة الآية؛ حيث قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾، أي: سقطت، والسقوط إنما يكون من قيامٍ، فدل على أنها تُنحَر قيامًا لا مضطجعة[٥]. وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم نحر بيده ((سبع بُدْن قيامًا))[٦].

(١٣٩٩)تفيد الآية أن نحر الإبل التي تقدم في الهدي إذا كانت مجتمعة أن تُنحَر قائمةً مصطفّة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾، أي: مُصطفّة[٧]، واقفة في صف

---

(١) ينظر روائع البيان (١/ ٦١٣).

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٨)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٠)،. وينظر كلام الفقهاء في "المغني" لابن قدامة (٣/ ٢٢١)، و"المجموع" للنووي (٩/ ٨٨).

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٨)، وتفسير ابن أبي زمنين (٣/ ١٨١)، وأحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٩١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٦١). وقد روى يحيى بن سلام في تفسيره (١/ ٣٧٦) عن ابن عباس أنه قال في تحريمها: (قائمة)، ونحوه في تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٦)، ونحوه عن ابن مجاهد (١٦/ ٥٥٧).

(٤) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤١٠)، وروح البيان (٦/ ٣٥).

(٥) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٢٠)، والإكليل (ص: ١٨٣).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الحج، باب نحر البدن قائمة، ح ١٦٢٨، ٢/ ٦١٢).

(٧) المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٨٦). وقال النحاس في معاني القرآن (٤/ ٤١٢): (وصافّة مصفوفة ومصطفّة علي بمعنى واحد).

واحد، وهذا الوصف هو الذي يُتصور في البُدْن إذا وقفن فصففْن أيديهن معقولةً وغير معقولة[(١)].

وعن زياد بن جبير قال: (رأيت ابن عمر -رضي الله عنهما- أتى على رجل قد أناخ بدنتَه ينحرها، فقال: ابعثها قياما مُقيَّدة، فهذه سنة محمد -صلى الله عليه وسلم-)[(٢)].

(١٤٠٠)تفيد الآية أنه يستحب أن تنحر البدنة معقولة بإحدى يديها[(٣)]؛ لأنه روي عن ابن مسعود وغيره[(٤)] أنه قرأه: ﴿صوافن﴾، وهي جمع صافنة، أي معقّلة، عُقلت إحدى يديها لئلا تضطرب، وتبقى قائمة على ثلاث[(٥)]. وهو لا ينافي المعنى الأول، وقد روي هذا المعنى عن ابن عباس[(٦)]. وبهذا كان يعمل الصحابة، فعن جابر رضي الله عنهما ((أن رسول الله -صلى

---

(١) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤١٠). ويرى مالك أن الأمر يختلف بحسب قوة الرجل وضعفه (أحكام القرآن لابن العربي: ٣/ ٢٩٢). قال الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٢٦): (ولا يبعد أن تكون الحكمة في إصفافها ظهور كثرتها للناظرين، فتقوى نفوس المحتاجين، ويكون التقرب بنحرها عند ذلك أعظم أجرا، وأقرب إلى ظهور التكبير وإعلاء اسم الله وشعائر دينه).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الحج، باب نحر الإبل مقيدة، ح ١٦٢٧، ٢/ ٦١٢)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب نحر البدن قياما مقيدة، ح ١٣٢٠، ٢/ ٩٥٦).

(٣) ينظر الإكليل (ص: ١٨٣)، وتفسير آيات الأحكام للسايس (ص: ٥١٢).

(٤) ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٣٧) أن ممن قرأ بهذه القراءة أيضا ابن عباس وقتادة.

(٥) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٥)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٨)، وأحكام القرآن للجصاص (٥/ ٨٠)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢٢). وقد روى الطبري (١٦/ ٥٥٩) عن قتادة في تفسير قراءة ابن مسعود: (أي: معقلة قياما). وذهب مالك إلى أنها لا تعقل إلا أن تمتنع (أحكام القرآن لابن الفرس: ٣/ ٣٠٩).

(٦) أخرج الحاكم في المستدرك (كتاب التفسير، تفسير سورة الحج، ح ٧٥٧١، ٤/ ٢٦٠) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ [سورة الحج:٣٦)، قال: قياما على ثلاث قوائم معقولة، بسم الله والله أكبر، اللهم منك وإليك)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وروى الطبري روايات بنحوها في تفسيره (١٦/ ٥٥٦) عن ابن عباس، وروى نحوه (١٦/ ٥٥٧) عن مجاهد.

الله عليه وسلم- وأصحابه كانوا ينحرون البدَنة معقولةَ اليسرى قائمةً على ما بقي من قوائمها))[1].

(١٤٠١)تفيد الآية أنه يكره أن تُعرْقبَ[2] البُدْن؛ لأنها خلاف الكيفية التي أرشدنا الله إليها في نحرها، ولأنّ فيه تعذيبًا للبهيمة[3].

(١٤٠٢)فيها إشارة إلى أن هيئات القربات وكيفياتها مرعيةٌ في الشريعة، مقصودةٌ في التشريع؛ لأن الله تعالى لم يأمر بالتقرب إليه بإراقة دماء البُدْن فحسب، وإنما بيّن كيفية ذلك، وهذا ما فعله النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، ولْيحدّ أحدكم شَفرته، ولْيُرِح ذبيحتَه))[4].

(١٤٠٣)تشير الآية إلى أن الانتظام في الصفوف من مظاهر تعظيم أمر الله تعالى؛ لأن الله تعالى أمر أن تنحر الإبل وهي مصطفة؛ وذلك لأن وقوفها مجتمعةً منتظمة غيرَ متفرقة مما يزيد هيئتها جلالا، ويكون أظهر لتعظيم هذه الشعيرة، وإذا كان هذا في نحر الإبل فغيره أولى، ولذلك كان الاصطفاف مؤكدا في صلاة الجماعة، وتسوية الصفوف مندوبا ومحبوبا حتى في

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: (كتاب المناسك، باب كيف تنحر البدن، ح ١٧٦٧، ٢/ ١٤٩)، وسكت عنه هو والمنذري، ورجاله رجال الصحيح، وجود ابن الملقن إسناده في "تحفة المحتاج" (٢/ ٥٢٥)، وذكر أن ابن السكن ذكره في سننه الصحاح، ولكن فيه عنعنة ابن جريج وأبي الزبير المكي، وهما مدلِّسان، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن ابن جريج عن عبد الرحمن بن سابط أن النبي صلى الله عليه وسلم قال... فذكره مرسلا، وهو مرسل صحيح يشهد للرواية الموصولة، ولهذا صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٦/ ١٥، رقم ١٥٥٠).

(٢) أي لا يقطع عُرْقوبها، وهو الوتر الذي خلف الكعبين من مفصل القدم والساق من ذوات الأربع (ينظر لسان العرب: ١/ ٥٩٤).

(٣) روى يحيى بن سلام في تفسيره (١/ ٣٧٨) عن القاسم بن محمد أنه كان يكره أن تُعرقب. وسئل مالك عن البدنة تنحر وهي قائمة، هل تُعرقب؟ فقال: ما أحب ذلك إلا أن يكون الإنسان يضعف عنها، فلا يقوى عليها، فيخاف أن تتفلت منه، فلا أرى بأسًا أن يعرقبها (النوادر والزيادات: ٢/ ٤٤٨، وأحكام القرآن لابن العربي: ٣/ ٢٩٢، وتفسير القرطبي: ١٢/ ٦٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، ح ١٩٥٥، ٣/ ١٥٤٨).

القتال، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [سورة الصف: ٤] (١).

(١٤٠٤)تفيد الآية أن تنحر البُدْن خالصة لوجه الله؛ لأنه روي عن الحسن ومجاهد وزيد بن أسلم وجماعة أخر أنهم قرأوا ﴿صوافيَ﴾ بياء مفتوحة(٢)، وهي جمع صافية، بمعنى: صافية لله خالصة له، لا يشرك به أحد في التسمية عند نحرها(٣)، خلافا لما كان يفعله المشركون.

(١٤٠٥)تشير الآية إلى استحباب المسارعة إلى الانتفاع بما في البُدْن من خير بعد نحرها، لأن الله تعالى أمر بالأكل منها بمجرد موتها فقال: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾، فأتى بفاء التعقيب مع أنها لا تؤكل نيئةً، إشعارا بالمبادرة إلى الانتفاع بها(٤)، ولذلك فإنه يستحب أن يفطر الحاج يوم النحر من هديه(٥)، وكذلك فعل النبي عليه الصلاة والسلام(٦).

(١٤٠٦)تدل الآية على أنّه لا ينبغي للمرء أن يعجل فيقطع من البدنة جزءا ليأكله قبل أن يتم نحرها، ولكن يصبر حتى تسكن حركتها، وكذلك السلخ يُبْتدأ بعد السكون؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾، أي فإذا سقطت إلى الأرض، فذلك حين تموت وتسكن حركتها، وهو وقت الأكل منها، ولذلك عقَّب الله تعالى هذه الحالة بالأمر بالأكل

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٤).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٥). وذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٣٧) أن ممن قرأ بهذه القراءة أبو مجلز، وأبو العالية، والضحاك، وابن يعمر.

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٥)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٨)، ومعاني القرآن للنحاس (٤/ ٤١٣)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٠)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢٢). وروى الطبري (١٦/ ٥٥٨) عن الحسن أنه قال في شرح {صوافي}: (خالصة لله)، وفي رواية (مخلصين)، ونحوه عن طاوس، وروى (١٦/ ٥٥٩) عن ابن زيد قال: (خالصة ليس فيها شريك كما كان المشركون يفعلون، يجعلون لله ولآلهتهم صوافي، صافية لله تعالى)، ونحوه عند ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٤، رقم ١٣٩٤٧).

(٤) ينظر التفسير والبيان (٤/ ٢٣٦٨).

(٥) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٤).

(٦) ينظر صحيح مسلم: (كتاب الحج، باب: حجة النبي -صلى الله عليه وسلم، ح ١٢١٨، ٢/ ٨٨٦)، وقد تقدم.

منها فقال: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ ([1]، ويؤيده قول عمر -رضي الله عنه-: (وذرِ الأنفسَ حتى تزهَق)[2].

(١٤٠٧)يفهم من الآية أنه لا يحل الأكل من شيء قُطِع من البدَنة قبل تحقق موتها؛ لأن الله تعالى قيّد حال الأكل بسقوط جنوبها، فقال: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾، وذلك كناية عن خروج الروح منها، ومفهومه أنه لا يحل الأكل منها قبل ذلك، وعليه الإجماع[3]. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما قُطِع من البهيمة وهي حية، فهو مَيْتة))[4].

(١٤٠٨)في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ إظهارٌ لتكريم بني آدم حيث يرى الحجاج مشهد سقوط الإبل بعد نحرها مع ضخامة أجسامها وعظم خلقتها[5]، وفي ذلك دلالة على تكريم من الله للإنسان حيث سخر له هذه الأنعام الضخمة ومكّنهم من نحرها في مشهد مهيب.

---

(١) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤١٣).

(٢) رواه عبد الرزاق في المصنف (٤/ ٤٩٥، رقم ٨٦١٤) بلفظ: (وأقرّوا الأنفس حتى تزهق)، وابن أبي شيبة في مصنفه واللفظ له (٤/ ٢٥٥، رقم ١٩٨٣٢).

(٣) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٨)، وتيسير البيان لأحكام القرآن (٤/ ٣٦)، وتفسير آيات الأحكام للسايس (ص: ٥١٢).

(٤) أخرجه من حديث أبي واقد الليثي أحمد في المسند (٥/٢١٨، رقم ٢١٩٥٣) والدارمي في سننه: (كتاب الصيد، باب في الصيد تبين منه العضو، ٢/٩٣)، وأبو داود في سننه: (كتاب الصيد، صيد قطع منه قطعة، ح ٢٨٥٨، ٣/١١١)، والترمذي في سننه: (كتاب الأطعمة، باب ما قطع من الحي فهو ميت، ح ١٤٨٠، ٤/٧٤)، وقال: (حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث زيد بن أسلم). والدارقطني في سننه (كتاب الأطعمة، ح ٤٧٩٢، ٥/ ٥٢٧)، وأبو يعلى في مسنده (٣/٣٦، رقم ١٤٥٠)، والطبراني في "الكبير" (٣/٢٤٨، رقم ٣٣٠٤)، والحاكم في المستدرك: (كتاب الذبائح، ح ٧٥٩٧، ٤/٢٦٦)، وقال: (صحيح على شرط البخاري). ووافقه الذهبي. والبيهقي في سننه: (كتاب الصيد والذبائح، باب ما قطع من الحي فهو ميتة، ٩/ ٢٤٥). وأخرجه من حديث ابن عمر: ابن ماجه في سننه: (كتاب الصيد، باب ما قطع من البهيمة وهي حية، ح ٣٢١٦، ٢/ ١٠٧٢)، والحاكم (كتاب الأطعمة، ح ٧١٥٢، ٤/١٣٨). وأخرجه الطبراني من حديث تميم الداري (٢/٥٧، رقم ١٢٧٦).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٨).

(١٤٠٩)تدل الآية على جواز[١] أكل الحاج من لحوم الهدايا سواء كانت تطوعا أم واجبة، وسواء هدي التمتع والقران، أو الهدي الذي أوجبه صاحبه عند الإحرام، إلا ما استثني بالدليل[٢]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا﴾، وهو نص في إباحة الأكل، وهو عام في كل بدنة إلا ما قام الدليل على منعه[٣].

(١٤١٠)يستفاد من الآية أنه ينبغي مراعاة مشاعر من يفزعون من مشاهد الذبح والنحر وإراقة الدماء، فبعض النفوس المرهفة لا تتحمل تلك المشاهد، ولهذا كنى عن النحر والذبح بذكر اسم الله عليها، وكنى عن موت الإبل بسقوط جنوبها، وهذه الكنايات أبلغ من التصريح وأدق وصفا[٤].

---

(١) والأمر في الآية أمر إباحة لا وجوب، وأخرج الطبري (١٦/ ٥٢٣) بسنده الحسن عن مجاهد: (هي رخصة. وقال: إن شاء أكل، وإن شاء لم يأكل، وهي كقوله: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ﴾ (المائدة: ٢)، ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الجمعة: ١٠)). وقرينة عدم الوجوب ظاهرة كما قال ابن عاشور (١٧/ ٢٦٤)؛ لأن المكلف لا يفرض عليه ما الداعي إلى فعله من طبعه. وإنما أراد الله إبطال ما كان عند أهل الجاهلية من تحريم أكل المهدي من لحوم هديه. وقال مالك باستحباب ذلك الأكل من الهدي، وهو الذي أميل إليه، بل قال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٦٤): (﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ أمرٌ معناه الندب. وكل العلماء يستحب أن يأكل الإنسان من هديه، وفيه أجر وامتثال، إذا كان أهل الجاهلية لا يأكلون من هديهم).

(٢) ينظر النكت الدالة على البيان (٢/ ٣١٩)، ويرى مالك أنه لا يؤكل من فدية الأذى وجزاء الصيد ونذر المساكين، ويرى أبو حنيفة أنه لا يؤكل كذلك من الواجب الذي عينه الحاج عند إحرامه، وقال أحمد: يؤكل من الهدايا الواجبة إلا جزاء الصيد والنذر، ويرى الشافعي أنه لا يؤكل من الهدي الواجب. ينظر تفسير الإمام الشافعي (٣/ ١٠٨٣ و١٠٩١)، وأحكام القرآن للطحاوي (٢/ ٢٩٥)، وأحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٩٤)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٤ – ٢٦٥).

(٣) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٨٢)، ودرج الدرر (٢/ ٣٣٩)، وأحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٩٤)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٥)، وروائع البيان (١/ ٦١٦).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٩١).

(١٤١١)في الأمر بالأكل من الهدي إشارة إلى مبدأ مشاركة الأغنياء للفقراء، وما فيه من إظهار المساواة والتواضع[١]، وهي قيم عظيمة يتعود عليها المسلم بشكل عملي من خلال الحج وما يتضمنه من عبادات.

(١٤١٢)تشير الآية إلى جواز التصدق بلحم الهدي كله؛ لأن الأكل منها ما دام جائزا أو مستحبا على أقصى الأحوال، فإنه يجوز تركه والاقتصار على الإطعام[٢].

(١٤١٣)تشير الآية بضميمة آية أخرى إلى أنه يمنع من الأكل من جزاء الصيد، لأن الله تعالى جعله للمساكين بقوله: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ [سورة المائدة: ٩٥]، وحكم البدل حكم المبدل[٣].

(١٤١٤)تشير الآية بضميمة آية أخرى إلى أنه يمنع من الأكل من فدية الأذى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [سورة البقرة: ١٩٦]. وبين النبي صلى الله عليه وسلم شأنها فقال: ((وأطعمْ ستة مساكين مُدَّيْن لكل مسكين))[٤].

(١٤١٥)تومئ الآية إلى أن مخالفة المشركين مطلوبة شرعا؛ لأن الله تعالى إنما أذن في الأكل من الهدايا لأجل أن العرب في الجاهلية كانت لا ترى أن تأكل من نسكها، فأمر الله نبيّه بالأكل منها مخالفة لهم[٥].

(١٤١٦)فيها إيماء إلى أن الحاج ينبغي له اختيار الهَدْي مما يعجبه ويستطيب لحمه[١]، لأنه سيأكل منه كما يأكل منه الفقراء، لا أن يذبح الرديء من الأنعام ليُطعمهم إياه؛ فإنه

---

(١) ينظر الحج في القرآن الكريم (ص ٨٩).

(٢) ينظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٦/ ٢٩٧). وقد روي عن عطاء والحسن وإبراهيم ومجاهد أنهم قالوا عن هذه الآية: (هي رخصة، إن شاء أكل، وإن شاء لم يأكل)، ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٢٣).

(٣) ينظر أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٩٤).

(٤) ينظر أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٩٤).

(٥) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٦٧)، وأحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٩٤)، وتفسير النيسابوري (٥/ ٧٨).

ينبغي أن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويوافق هذا المعنى عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٧].

(١٤١٧)تشير الآية إلى أنه ينبغي تقديم الأكل من الهدي والأضحية على الإطعام والتصدق منها؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾، فقدم الأكل على الإطعام في الذكر إشارة إلى ذلك، ويؤيده قوله الزُّهري رحمه الله: (السنّة أن يأكل الرجل من لحم أضحيته قبل أن يتصدق)[٢].

(١٤١٨)تومئ الآية إلى أنه يستحب الأكل من الأضحية؛ لأن الله تعالى أمر بالأكل من لحم الهدي، ومثله الأضحية، وإنما أمر الناس بالأضحية ليتشبهوا بأهل مِنى، فيحصل لهم حظ من أجرهم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إذا ضحى أحدكم فليأكل من أضحيته))[٣].

(١٤١٩)تدل الآية على أن الجانب النفسي مرعيٌّ في تشريع الأحكام الشرعية. ويؤخذ ذلك من أن الله راعى نفسية الحجاج حيث أباح لهم الأكل من الهدي لأن نفوسهم تتشوف إلى ذلك، ثم أمرهم بإطعام غيرهم[٤].

(١٤٢٠)تدل الآية على أنه يحسن بالداعية مراعاة الجانب النفسي فيما يدعو إليه الناس[١]؛ لأن الله تعالى راعى تشوف الناس إلى الأكل فأباح لهم الكل منها قبل أن يندبهم إلى الإطعام.

---

(١) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٢٥).

(٢) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٠).

(٣) أخرجه أحمد (٣٩١/٢، رقم ٩٠٦٧). وقال الهيثمي (٢٥/٤): (رجاله رجال الصحيح). وأورده ابن أبي حاتم في "العلل" (٤١/٢، رقم ١٦٠٥) وذكر عن أبيه أن الصواب: (عن عطاء مرسلا). وابن عدي في الكامل (٣١٤/٢، ترجمة ٤٤٨ الحسن بن صالح)، وقال: (وهو عندي من أهل الصدق). وقال الحافظ في الفتح (٢٧/١٠): (أخرجه أبو الشيخ في كتاب "الأضاحي" من طريق عطاء بن يسار عن أبي هريرة، ورجاله ثقات).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٨).

(١٤٢١)تدل الآية على أنه يجوز إطعام السائلين من الهدي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾، والقانع على قول بعض السلف هو الذي يسأل، لأن القانع مشتق من القنوع وهو السؤال[٢]. ويؤخذ أيضا من تفسير بعض السلف للمعترّ بأنه: الذي يعتريك ويسألك[٣].

(١٤٢٢)تدل الآية على أنه يجب إطعام المتعرضين للعطاء من غير سؤال من الهدي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾، والمعترّ على قول بعض السلف هو الذي يتعرض ولا يسأل[٤]؛ لأن كلمة "المعترّ" مشتق من الاعترار، وهو: التعرض لأكل اللحم[٥].

(١٤٢٣)تدل الآية على أن الهدي نطعم منه كذلك الذين يتعففون ولا يسألون الناس ولا يتعرضون لعطائهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾، وهذا على قول بعض السلف أن القانعَ هو المتعفّف الذي يقعد في بيته ولا يسأل شيئا، والمعترّ: الذي يعتريك ويسألك[٦].

---

(١) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٩).

(٣) ينظر رواه الطبري (١٦/ ٥٦٣) عن ابن عباس، وعن قتادة وإبراهيم النخعي، ورواه الثوري في تفسيره عن الحسن البصري (ص: ٢١٤). وهذا القول هو الذي اختاره الألوسي في روح المعاني (٩/ ١٥٠).

(٤) ورواه عبد الرزاق (٢/ ٤٠٧) عن سعيد بن جبير، ورواه يحيى بن سلام (١/ ٣٧٨) عن بكر، ورواه الطبري (١٦/ ٥٦٥) عن الحسن، واختاره الفراء في معانيه (٢/ ٢٢٦) والنحاس (٤/ ٤١٣)، ورجحه الطبري (١٦/ ٥٦٩)، وهو الذي مال إليه الشنقيطي في "أضواء البيان" (٥/ ٢٥٩ – ٢٦٠).

(٥) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٩).

(٦) ينظر رواه الطبري (١٦/ ٥٦٣) عن ابن عباس، وعن قتادة وإبراهيم النخعي، ورواه الثوري في تفسيره عن الحسن البصري (ص: ٢١٤). وهذا القول هو الذي اختاره الألوسي في تفسيره (٩/ ١٥٠).

(١٤٢٤)تدل الآية على جواز إطعام الجار الذي يبصر ما يدخل بيتك ويقنع بما أعطيته من الهدي؛ لأن مجاهدا فسر القانع في الآية بأنه: (جارك الذي يقنع بما أعطيته)[١].

(١٤٢٥)تدل الآية على جواز إطعام الصديق الذي يزورك من الهدي؛ لأن بعض السلف كزيد بن أسلم ومالك والشافعي قالوا بأن المعترّ هو الزائر[٢]، من عرا إذا زار.

(١٤٢٦)تشير الآية على أحد الأقوال في تفسيرها إلى تقديم المتعففين الذين يجلسون في بيوتهم ولا يسألون الناس شيئا في الإطعام من الهدي على السائلين والمتعرضين للعطاء؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾، وقد فسر بعض السلف القانع بالمتعفف[٣]، بناء على أن القانع مشتق من القناعة، وهي الرضا والتعفّف وترك السؤال[٤]. والمعترّ الذي يتعرض لك ويُطِيف بك يطلب ما عندك، سواء أسَأَلَك أم سكت عن السؤال[٥].

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٥٦٣). وروى عنه في رواية أخرى (١٦/ ٥٦٦) أنه الجار الغني، وضعف ابن العربي هذا القول وقال في أحكام القرآن (٣/ ٢٩٧): (وليس لذلك وجه كما بيناه). وروى الطبري (١٦/ ٥٦٧) عن إبراهيم النخعي أنه هو الجار.

(٢) روى الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٦٧) عن زيد بن أسلم قال: (...والمعترّ: الصديق والضعيف الذي يزور). وقال الشافعي كما في تفسيره (٣/ ١٠٩١) أن (الْمُعْتَرّ: الزائر والمارّ بلا وقت). وقال مالك في الموطأ (٢/ ٤٩٧): (وسمعت أن: (البائس هو الفقير، وأن المعترّ هو الزائر). وبه قال ابن وهب وابن القاسم كما حكى ابن العربي في أحكامه (٣/ ٢٩٦)، وحمله ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٦) على زيارة التعرض للعطاء. وهو ما يدل عليه ما رواه الثوري (ص: ٢١٤) عن سعيد بن جبير أنه قال: (والمعترّ الذي يزورك ولا يسألك).

(٣) رواه سفيان الثوري في تفسيره (ص: ٢١٤) عن إبراهيم النخعي، ومثله عن مجاهد والحسن. ورواه يحيى بن سلام (١/ ٣٧٨) عن قتادة. وروى الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٦٣) عن ابن عباس أنه: (القانع المتعفف؛ والمعترّ: السائل)، ونحوه عن عكرمة.

(٤) الكشف والبيان (٧/ ٢٣).

(٥) نسبه الأزهري في التهذيب (١/ ٧٥) إلى أهل اللغة، وهو يجمع قولين في تفسيرها.

(١٤٢٧)تشير الآية إلى أنّ أولى من يطعم من لحوم الهدي هم الذين لا يسألون الناس، ولا يصرحون بالسؤال ممن يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، بناء على القول بأن القانع الذي يرضى بما عنده ولا يسأل، والمعتر هو الذي يتعرض لك ولا يسألك[(١)].

(١٤٢٨)تشير الآية وما قبلها أن التدرج مرعيٌّ في تبليغ الأحكام الشرعية. ويؤخذ ذلك من أن الله أمر في آية سابقة بإطعام البائس الفقير، ثم أمر بإطعام السائل، ثم المعترّ[(٢)].

(١٤٢٩)تومئ الآيات إلى أن الداعية ينبغي أن يتدرج بالناس، فيدعوهم إلى ما هو أيسر وأقل في المجاهدة، ثم يرتقي بهم شيئا فشيئا. فالله أمر بإطعام أشد الفقراء فقرا وهو البائس، ثم أمر بإطعام السائلين مع أن النفس قد تنصرف عن إطعامهم، ثم أمر بإطعام الزائرين وإن كانوا مستغنين.

(١٤٣٠)تدل الآية على أنه يجدر بالداعية أن يون كلامه مطابقا للحال. ويؤخذ ذلك من أنه لما كان الغالب في الآية السابقة هو البهائم (الضأن) ناسبه التصدق منها لأشد الخلق حاجةً لقلة النفقة، فخص البائس الفقير بالذكر مزيدا لترقيق القلوب؛ ولما ذكر البُدْن في هذه الآية وكان فيها الكثير من اللحم ناسبه الأمر بإطعام القانع والمعتر، وهم أقل حاجةً من البائس[(٣)].

(١٤٣١)تومئ الآية إلى أن الفقر لن يزول من أي مجتمع بصفة كلية، وإنما قد تختفي طبقة البائسين وتبقى فئة المحتاجين الأخف حاجةً. ويستفاد ذلك من الآية، فكأن ذكر القانع

---

(١) هو رواية العوفي عن ابن عباس، ومؤدى رواية ليث عن مجاهد، كما رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٦٣)، وذكره الثعلبي في الكشف والبيان (٧/ ٢٣).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٨).

(٣) ينظر المرجع السابق (ص ٨٨).

والمعتر هنا جاء إجابة عن سؤال هو: إذا لم يكن ثمة بمكة بائس فقير فمن نطعم؟ فأجيب: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾ (١).

(١٤٣٢)تفيد الآية أنه لا بد من التأكد من وصول الهدي إلى الفقراء والمحتاجين، فإن الحاج لو ترك الهدي أو جزءا منه لهم لكان قد أطعمهم، ولكنه الله أمرهم بالإطعام منها، كأنه أراد أن يقول: عليكم أن تتأكدوا من وصول هذا لأهل الفاقة والمسكنة بأن تطعموهم بأنفسكم، وذلك لتطييب خواطرهم وربطهم بإخوانهم وإشعارهم بكرامتهم(٢).

(١٤٣٣)تفيد الآية أن كلَّ مُهْدٍ وكلَّ مُضَحٍّ يلزمه إيصال لحم ما يتقرب به إلى الفقراء، فعليه إذا ذبحها أن يسلخها أو يؤجر من يسلخها، ويحملها بنفسه أو بأجرة، حتى يوصلها إلى المستحقين؛ لأن الله يقول: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ [سورة الحج: ٢٨]، ويقول: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾، ولا يمكنه إطعام أحد ممن أمره الله بإطعامهم إلا بإيصال ذلك إليهم، ولو اجتهد في إيصاله إليهم لأمكنه ذلك، لأنه قادر عليه(٣).

(١٤٣٤)تدل الآية على أن يجب على من بسط الله يده أن يعين الحجاج المتقربين بالدماء على طريق الإيصال إلى الفقراء بالطرق الكفيلة بتيسير ذلك كتهيئة عدد ضخم من العاملين للإيجار يوم النحر على سلخ الهدايا والضحايا طرية، وحمل لحومها إلى الفقراء في أماكنهم، وكتعدد مواضع الذبح في أرجاء منى، وفجاج مكة، ونحو ذلك من الطرق المعينة على إيصال الحقوق لمستحقيها(٤).

(١٤٣٥) يدل قول الله تعالى: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ [سورة الحج: ٢٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾، على لزوم تفرقة لحم الأضحية أو الهدي والتخلية بينه

---

(١) ينظر المرجع السابق (ص ٨٩).

(٢) ينظر الحج في القرآن الكريم (ص ٨٩).

(٣) ينظر أضواء البيان (٥/ ١٥٧).

(٤) ينظر أضواء البيان (٥/ ١٥٧).

وبين الفقراء يقتسمونه تفرقة ضمنية؛ لأن الإذن لهم في ذلك – وهو متيسر لهم – كإعطائهم إياه بالفعل، والله أعلم[(١)].

(١٤٣٦)فيها إشارة إلى أن تضامن الحجاج مطلوب، فمن المستحبات إطعام من يعترّ القوم لأجل أن يطعموه من لحمهم، ولا يكون له ذبيحة، وليس بمسكين[(٢)].

(١٤٣٧)تدل الآية على أنه يستحب للمُهْدي أن يلتمس القانع والمعترّ ممن حوله، فيعطيهما جميعًا، قيامًا بالأمر وامتثالًا له، لأن إطعامهم يقتضي البحث عمن هذه صفته[(٣)].

(١٤٣٨)في هذه الآية تأكيد على تتبع أحوال الناس في يوم النحر، والتماس الفقراء من أهل مكّة[(٤)]؛ لأن الله تعالى أمر بإطعام المحتاج المتعفف والسائل المتعرض، وذلك يتوقف على معرفة أحوال الناس.

(١٤٣٩)تومئ الآية إلى أن المتعففين إنما يُطْعمون من الهدي بأن ترسل إليهم لحومها، وهذا ما يشير إليه ما روي عن ابن عباس قال: (أما القانع، فالقانع بما أرسلتَ إليه في بيته)[(٥)].

(١٤٤٠)تشير الآية إلى استحباب المسارعة إلى إطعام الفقراء والمحتاجين منها، لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾[(٦)].

---

(١) ينظر المصدر السابق (٥/ ١٥٧).

(٢) ينظر قول ابن زيد في "الكشف والبيان" للثعلبي (٧/ ٢٤).

(٣) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤١٩).

(٤) ينظر التفسير والبيان (٤/ ٢٣٦٨).

(٥) رواه البيهقي في "السنن الكبرى" (كتاب الضحايا، باب إطعام البائس الفقير وإطعام القانع والمعتر، ح ١٩٢٣١، ٩/ ٤٩٥). وينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤١٨).

(٦) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٤).

(١٤٤١)تدل الآية على وجوب إطعام الفقراء والمحتاجين من لحوم الهدْي[١]، فإن اقتصر المهدي على نحر هديه ولم يتصدق منه كان آثمًا؛ وذلك لأنّ الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾، والأصلُ في الأمر الوجوب.

(١٤٤٢)في الآية إشعار بأن البُدْن شعيرة يتقرب إلى الله بنحْرها، ويراد بها البّر والإحسان إلى فقراء الحرَم، حيث يطعمون من لحومها، ويشاركون أصحابها في الأكل منها، ولهذا أمر الله بذلك فقال: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [٢].

(١٤٤٣)في الآية إيماءٌ إلى جواز إطعام المستغنين من أهل مكة وغيرهم؛ لأن الله تعالى أباح للمُهدي أن يأكل منها وإن كان غنيًّا فقال: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾، وإذا جاز له الأكل منها جاز إطعام الغير وإن كانوا مستغنين قياسًا عليه، لأنّ كلَّ ما يجوز له أكله يجوز أن يعطي منه الغنيّ كسائر أمواله [٣]. ويؤيده تفسير مجاهدٍ القانعَ بالجار الغنيّ [٤].

(١٤٤٤)في الآية دليل على سماحة الإسلام وعظمة تشريعاته المبنية على الرحمة ومواساة المحتاجين من الفقراء والمساكين وغيرهم [٥].

---

(١) وهذا مذهب الشافعي، وظاهر قول مالك، وصححه ابن العربي، ينظر أحكام القرآن (٣/ ٢٩٥)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢١)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٥).

(٢) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٢١).

(٣) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٨٢)، والإكليل في استنباط التنزيل (ص: ١٨٤)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٢١).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٦٧).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٩).

(١٤٤٥)تشير الآية إلى أن شكر النعمة يكون ببذلها أو بذل شيء منها لمن لم يملكْها؛ لأن الله أمر بالإطعام من لحوم الهدي للمحتاجين والسائلين والزائرين، ثم أتبعها بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾.

(١٤٤٦)تقتضي الآية على ما تقدم أن المستحبَّ أنْ يأكل الثلث، ويتصدَّقَ بالثُّلُثِ، ويهدي الثلث للجيران والأقرباء، أغنياءَ كانوا أم فقراء؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾، وقد فُسّر القانع بالجار الغنيّ، والمعترّ بالصديق الزائر، وقال في آية أخرى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ [سورة الحج: ٢٨]، ولما جاز له أن يأكل بعضه، ويتصدق ببعضه، ويهدي بعضه على غير وجه الصدقة، كان الذي حصل للصدقة: الثلث[(١)]، وإلى هذا ذهب بعض السلف[(٢)]. وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في صفة أضحية النبي صلى الله عليه وسلم: ((ويُطعم أهلَ بيته الثلث، ويُطعم فقراءَ جيرانه الثلث، ويتصدق على السُّؤّال بالثلث))[(٣)].

---

(١) ولا يشترط أن تكون أثلاثًا متساوية، ينظر تفسير الإمام الشافعي (٣/ ١٠٩١)، وأحكام القرآن للجصاص (٥/ ٨٢)، وتفسير السمرْقندي (٢/ ٤٦٠)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢٣)، وأحكام القرآن لابن الفرَس (٣/ ٣١٠)، والإكليل (ص: ١٨٤)، ومحاسن التأويل (٧/ ٢٤٧). أما ابن نور الدين فرأى في "تيسير البيان" (٤/ ٣٥) أنه لا دليل في الآية على التقدير، خاصة مع معارضة قوله تعالى: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾، ولا يوجد في نظري أي تعارض، وإنما هما متكاملتان.

(٢) إلى هذا ذهب ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما، روى ابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ١٧٥، رقم ١٣١٩٠) والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٣٤٢، ح ٩٧٠٢) عن علقمة أن ابن مسعود بعث معه بهديٍ وقال: (كلْ أنت وأصحابك ثُلثا، وتصدق بثلث، وابعث إلى آل أخي عتبةَ ثلثا)، يعني شقيقه عتبة بن مسعود. وروى ابن حزم في المحلّى بالآثار (٥/ ٣١٣) عن ابن عمر قال: (الضحايا والهدايا: ثلُث لأهلك، وثلُث لك، وثلث للمساكين)، ونقل ابن عطية (٤/ ١٢٣) أن محمدا الباقر قال: (أُطعم القانع والمعترّ ثلُثًا، وأهلي ثلُثًا، والبائس والفقير ثلثًا). وقال ابن المسيب: (ليس لصاحب الهدي منه إلا الربع)، وكأنه عد القانع صنفا، والمعتر صنفا، والبائس الفقير صنفا ثالثا. ومع كل هذه الآثار فإن الشنقيطي استظهر في "أضواء البيان" (٥/ ١٩٤) (أنه لا تحديد للقدر الذي يأكله والقدر الذي يتصدق به، فيأكل ما شاء ويتصدق بما شاء)، والله أعلم.

(٣) ذكر ابن قدامة في المغني (٩/ ٤٤٩) أنه رواه الحافظ أبو موسى الأصفهاني في "الوظائف"، وقال: (حديث حسن).

(١٤٤٧)تستلزم الآية أن من ضيع حقّ الفقراء من الهدي فلم يتصدق عليهم من لحومها أنه يضمنه، لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ [سورة الحج: ٢٨]، والأصل في الأمر الوجوب، فللفقراء حق واجب في الهدي، فإن لم يأخذوه ضمن الثلث على الأقل، والله أعلم[(١)].

(١٤٤٨)تشير الآية أن من الحكمة أن نطعم كل صنف من الناس بما يلائمه؛ فلما كان الحديث في هذه الآية عن الإبل وكان لحمه قاسيا على الأسنان شديدا على البطن ناسب أن يطعم منه القانع والمعتر، لأنهم تعودوا على أكله، فأحدهما سائل ينال من طعام الناس أو يأكل منه لاستغنائه، والثاني: يعتريه في المواسم. ولما كان في آية سابقة الحديث عما دون البدن من الأنعام ناسب أن يطعم منها البائس الفقير لأنه مظنة عدم أكله للّحم، لما فيه من شدة الفقر[(٢)].

(١٤٤٩)تفيد الآية أن تسخيرَ بعض البهائم دون بعض إنما هو لحكمة، لأن الله تعالى ذكر أنه سخرها لتكون قربانا وينتفع بها فقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾، أي من أجل ما مرّ ذللناها لكم، فصارت تنقاد لكم إلى مواضع نحرها، فتنحرونها وتنتفعون بها بعد أن كانت مسخرة للحمل عليها والركوب على ظهرها وحلبها ونحو ذلك، إن شئتم ركبتم، وإن شئتم جلستم، وإن شئتم ذبحتم[(٣)].

(١٤٥٠)تومئ الآية أن من شكر العباد لربهم على نعمة الأنعام أن يسخروها في طاعتها ويذبحوها تقربا إليه على الوجه المسنون الذي أمرهم به تعالى[(٤)].

---

(١) والمسألة خلافية، قال ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٢٩): (فإن أكل الكل فقيل: لا يضمن شيئا. وبه قال ابن سريج من الشافعية. وقال بعضهم: يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها. وقيل: يضمن نصفها. وقيل: ثلثها. وقيل: أدنى جزء منها، وهو المشهور من مذهب الشافعي).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٩).

(٣) ينظر فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٣٨)، والأساس في التفسير (٧/ ٣٥٤٧).

(٤) ينظر التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٧٢).

(١٤٥١)فيها إشارة إلى تكريم بني آدم وتفضيله على سائر المخلوقات؛ فقد سخر الله لنا البُدْن مع ضعفنا، فلا تستعصي علينا مع قوتها وعظم أجسامها، فيأخذ الرجل العدد منها ويسوقها منقادة ويؤْلمونها بالإشعار، ثم يوقفونها مصطفة وينحرونها. ولولا أن الله أودع في طباعها هذا الانقياد لما كانت أعجز من بعض الوحوش التي هي أقل منها حجما وأضعف منها قوة، فتنفر من الإنسان ولا تسخر له[(١)].

(١٤٥٢)تدل الآية على أن تسخير الأنعام لبني آدم نعمةٌ تستوجب الشكر، وقد جاء هذا الامتنان على العباد مجملاً في هذه الآية: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، وجاء التفصيل في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة يس: ٧١ – ٧٣]، وكقوله سبحانه: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [سورة النحل: ٥ – ٧][(٢)].

(١٤٥٣)تفيد الآية أن نعمة التسخير بكل صوره نعمةٌ عظيمة تستوجب الشكر، فكما سخر الله الأنعام، سخر السماواتِ والأرض، قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [سورة الجاثية: ١٣].

(١٤٥٤)تومئ الآية إلى أن الإنسان لا بد أن يخلع عن نفسه الاغترار، ويزيل عنها الشعور بأنه أعلى المخلوقات على وجه الأرض؛ لأن الله لولا أنه سخر له كثيرا من المخلوقات مع ضخامة أجسامها وقوة أبدانها لما استطاع فعل كثير من الأشياء التي ينعم بها.

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٩)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٦).

(٢) ينظر روائع البيان (١/ ٦١٣).

(١٤٥٥)تفيد الآية أن ازدياد النعم مدعاةٌ للازدياد من العبادة، لأن الله تعالى قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾، وشكر الجوارح يكون بطاعة الله، وقد قال ابن عباس في تفسيرها: (يريد لكي تطيعوني)، وشكر الله طاعة له واعتراف بإنعامه[١].

(١٤٥٦)تفيد الآية أن الله تعالى يتحبب إلى عباده المؤمنين[٢] بتذكيرهم بما أنعم عليهم به واختصهم به دون سائر الناس. ويستفاد من تكرار كلمة ﴿لَكُمۡ﴾ أربع مرات في هذه الآية والتي تليها.

(١٤٥٧)في الآية إيماءٌ إلى أن تعظيم البُدْن والتزام أوامر الله في نحرها والتقرب بها والتصدق منها من شكر هذه النعمة، لأن الله تعالى قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾، أي لتتأملوا ذلك فتعرفوا أنه ما قادها لكم إلا الله، فيكون حالكم حال من يرجى شكره، فتوقعوا الشكر بأن لا تحرموا منها إلا ما حرم، ولا تُحِلُّوا إلا ما أحلّ، وتُهْدوا منها ما حثّ على إهدائه، وتتصرفوا فيها بحسب ما أمركم[٣].

(١٤٥٨)تفيد الآية أن شكر الله تعالى على نعمه مقصد من مقاصد القُربات والعبادات؛ لأن الله جعله غايةً لتسخير الأنعام والتقرب بذبحها إليه تعالى فقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾.

(١٤٥٩)تشير الآية إلى أن الكون مبني على مبدأ التسخير، فمن سخر الله له بعض خلقه فعليه أن يحمد الله ويشكره على هذه النعمة، وأن يعلم أن الله سخرهم له لقوة فيه أو فضل له، وإنما تفضلا منه سبحانه، وعليه أن يؤدي إليه حقوقهم، ولا يتكبر عليهم، ولا يستهين بحالهم، ولو شاء الله لغير حاله وجعله مسخرا لغيره[٤].

---

(١) ينظر روائع البيان (١/ ٦١٣).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٨٧).

(٣) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٥٢).

(٤) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٩٠).

(١٤٦٠)تدُلُّ الآية أن العبد عليه أن يستشعر كبير نعمة الله عليه، ويجعل كل ما يراه في الكون من حوله معراجا يعرج به إلى شكر الله تعالى، فإذا نظر إلى الأنعام انبعث إلى شكر الله، وإذا نظر إلى ما وهبه الله من حواس تذكر واجب الشكر لله، وإذا نظر إلى ما رزقه من الطيبات شكر الله، وإذا نظر إلى البحر وما جعله الله فيه من نعم انبعث إلى شكر الله، وهكذا في جميع النعم.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧﴾ [سورة الحج: ٣٧]:

(١٤٦١)تتضمن الآية تحذير المسلمين من فعل ما كان يفعله المشركون من تقطيعهم للحوم الأنعام، ونشرها حول الكعبة، وتلطيخها بالدماء، لأن الله تعالى أشار إلى قبح ما كانوا يفعلونه في الجاهلية، وبين أن رضا الله- تعالى- لا ينال بذلك، وإنما ينال بتقوى القلوب، فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ (١).

(١٤٦٢)في الآية إشارة إلى أن تحريم ما يفعله بعض الناس في بعض القرى أنهم عند ما يذبحون نذرا أو خيرا أو عند إرادتهم البناء تبركا أو عند إكماله شكرا بزعمهم يلطخون باب الدّار والجدران بدم ما يذبحونه؛ لأن ذلك من فعل أهل الجاهلية(٢).

(١٤٦٣)تفيد الآية أن الله تعالى غنيٌّ عن عبادات المكلفين وأعمالهم الصالحة؛ فهو لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين؛ لأن الله تعالى ذكر أن لحوم القرابين ودماءها

---

(١) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣١٤). روى ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٩٥، رقم ١٣٩٥٥) عن ابن جريج قال: (كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: فنحن أحق أن ننضح، فأنزل الله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ (الحج: ٣٧)، أي: يتقبل ذلك ويجزي عليه).

(٢) ينظر بيان المعاني (٦/ ١٧٣).

لا تصل إليه ولا ينتفع بها، فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ ([1]. وفي الحديث القدسي: ((يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضُرِّي فتضرّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني))[2].

(١٤٦٤)تومئ الآية إلى تقديم النفع المتعدي على النفع القاصر؛ وذلك لأن الله قدم اللحوم على الداء في الذكر فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾؛ لأن اللحوم تنفع الفقير والسائل والزائر حقيقةً، فيأكلون منها، أما الدماء فلا تنفع أحدا، وإنما لها نفع معنوي.

(١٤٦٥)تدل الآية على أن الله تعالى لا يتقبل العمل إلا ما وافق فيه المكلف ما أمره الله تعالى به[3]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾، والتقوى في أداء العمل هو امتثال أمر الله واجتناب نهيه فيه، بأن يكون القربان حلالا، وتُراعى فيها جهات الإجزاء، ثم يصرفها فيما أمر[4]. ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [سورة المائدة: ٢٧]. ومما تقتضيه التقوى: أن يكون على خوف من التقصير في تلك الطاعة، فيتقي بفعل أقصى ما يقدر عليه[5].

(١٤٦٦)تدل الآية على أنه لن يرفع إلى الله إلا الأعمال الصالحة الزاكية المصطبغة بالتقوى، وأما غيرها فإنه لا يرفع ولا يصعد بها، وهذا هو ما فسر به قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ ([6].

(١٤٦٧)تدل الآية على أن الله تعالى لا يقبل القرابين إلا ممن كان من أهل التقوى، ولا يقبلها من أهل الكفر؛ لأنهم كانوا ينحرون البُدْن في الجاهلية وينضحون دماءها ويُنجِّسون

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ٦٩٩) و (٥/ ٤٣١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، ح ٢٥٧٧، ٤/١٩٩٤)، وغيره.

(٣) ينظر أحكام القرآن للجصاص (١/ ٢٤٣).

(٤) غرائب القرآن (٥/ ٨٢.

(٥) ينظر تفسير الرازي (١١/ ٣٣٩).

(٦) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤٢٠)، وتفسير الرازي (١١/ ٣٣٩).

الكعبة وما حولها، فأخبر تعالى أنه لا يقبل ذلك إلا ممن كان من أهل التقوى، وهو كقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة المائدة: ٢٧] [(١)].

(١٤٦٨)تدل الآية أن المعتبر ليس هو صورة نحر البُدْن، وإنما المعتبر هو ما تنطوي عليه القلوب من إخلاص لله وتعظيم لشعائره[(٢)]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾. فأخبر أن الذي يصل إلى حضرة الله هو التقوى، والتقوى من صفات القلوب[(٣)]، كما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: ((التقوى هاهنا))، وأشار إلى صدره[(٤)].

(١٤٦٩)في الآية تنبيهٌ أن العمدة في القبول ليس هو صورة الأعمال الصالحة، وإنما ما ينطوي عليه قلب المكلف عند أدائه لذلك العمل من إخلاص وإرادةٍ للتقرب إلى الله ونيل رضوانه[(٥)]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم: ((إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[(٦)]، فقدم ذكر القلب على الأعمال. ويقرب من هذه الآية قوله تعالى:

---

(١) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٢١).

(٢) قال الطبري في تفسيره للآية (١٦/ ٥٧٠): (يقول تعالى ذكره: لن يصل إلى الله لحوم بدنكم ولا دماؤها، ولكن يناله اتقاؤكم إياه إن اتقيتموه فيها، فأردتم بها وجهه، وعملتم فيها بما ندبكم إليه وأمركم به في أمرها، وعظمتم بها حرماته). وروى ابن زيد (١٦/ ٥٧٠) أنه قال ابن زيد: (إن اتقيت الله في هذه البدن، وعملت فيها لله، وطلبت ما قال الله تعظيما لشعائر الله ولحرمات الله، فإنه قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢]، قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ (الحج: ٣٠)، قال: وجعلته طيبا، فذلك الذي يتقبل الله. فأما اللحوم والدماء، فمن أين تنال الله؟).

(٣) ينظر تفسير الرازي (١١/ ٣٣٩).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) ينظر تنزيه القرآن عن المطاعن (ص: ٢٧٣).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله...، ح ٢٥٦٤، ٤/ ١٩٨٧).

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧]، إلى آخرها[(١)].

(١٤٧٠)تشير الآية إلى أن فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة، بل لحقائقها التي في القلوب. فقد تتشابه الأعمال في صورها ولكنها تتفاوت في الثواب تفاوتا عظيما بحسب ما قام في قلب صاحبها عند أدائه[(٢)].

(١٤٧١)تدل الآية على أن تقوى القلوب وحبها وتعظيمها لله وخوفها منه ورجاءها فيه والتوكل عليه وإخلاص الدين، له لا يتم شيء من المأمور به ظاهرا إلا بها، وهي أشرف من فروعها كما قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ﴾[(٣)].

(١٤٧٢)في الآية حث على الإخلاص في النحر، وأن يراد بها وجه الله وحده، ولا تنحر فخرا ولا رياء، ولا سمعة، ولا تكون مجرد عادة[(٤)]، وإلا كانت مجرد لحوم مقطعة ودماء ملطخة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ﴾. ومن التقوى في أداء العبادة أن يكون في غاية الاتقاء من أن يأتي بتلك الطاعة لغرض سوى طلب مرضاة الله تعالى، وأن يتقي أن يكون لغير الله فيه شركة[(٥)].

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ٢٤٨). ووجه مشابهتها لها أن هذه الآية دلت على أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجه، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق إلى المغرب بر ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه؛ ينظر تفسير ابن كثير (١/ ٤٨٥).

(٢) ينظر منهاج السنة النبوية (٦/ ٢٢٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ١١٩).

(٤) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٨٢)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٩).

(٥) ينظر تفسير الرازي (١١/ ٣٣٩). وقد روى الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٧٠) عن إبراهيم النخعي أنه قال في تفسير الآية: (ما أريد به وجه الله).

(١٤٧٣)في الآية تنبيه على أن رضوان الله تعالى إنما ينال بالتقوى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾. قيل: المعنى: لن يبلغ رضى الله لحومها ولا دماؤها ولا يرضيه ذلك عنكم، ولكن يبلغ رضاه التقوى منكم، ويرضيه ذلك عنكم[(١)].

(١٤٧٤)تدل الآية على أن المكلفين إنما يستحقون الثواب بأعمالهم؛ إذ كانت اللحوم والدماء فعل الله فلا يجوز أن يستحقوا بها الثواب، وإنما يستحقونه بعملهم الذي هو التقوى وامتثال أمر الله تعالى بذبحها[(٢)].

(١٤٧٥)في الآية إشارة إلى أن يعتني المكلفون بتجريد نياتهم وتصحيح قصدهم عند أدائهم للعبادات؛ لأن المتوخّى من جميع التكاليف الشرعية على اختلاف أشكالها هو إثارة التقوى في قلوبهم، وحملهم على تحرّي الخير والبرّ والعمل الصالح؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [(٣)].

(١٤٧٦)في الآية دليل على أن قبول العمل منوط بنية صاحبه فيه، وأنه لا يقبل دون نية التقرب إلى الله؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾، فإن النيل لا يتعلق بالله سبحانه، ولكن عبّر به تعبيرا مجازيا عن القبول؛ والمعنى: لن يقبل الله اللحوم ولا الدماء إذا لم تكن صادرة عن تقوى الله، وإنما يتقبل منكم ما يتقونه به، وفي

---

(١) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٩٤)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤٢٠). قال مكي في الصدر السابق: (وفي الكلام مجاز وتوسع، إذا أتى ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ في موضع لن يبلغ رضا الله، وحَسُنَ ذلك، لأن كل من نال شيئاً فقد بلغه).

(٢) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٨٢).

(٣) ينظر التفسير الحديث (٦/ ٥٢).

هذا تنبيه على أن شيئا من العبادات لا يصح إلا بالنية[1]. ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى))[2].

(١٤٧٧)في الآية دلالة على أن المكلف إن لم يراع ما أمره الله في نحر الهدايا وذبح الأضاحي من إخلاص والتزام بالشروط الشرعية للذبح لم تُغن عنه تلك الذبائح ولو كثرت[3].

(١٤٧٨)فيها إشارة إلى أن النية الخالصة خير من الأعمال المأمور بها[4]؛ لأن الأعمال لا تقبل بدون نية، كما أشارت الآية: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾، وقد تنفع النية ويكتب لصاحبها الأجر من غير عمل، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رجع من غزوة تبوك: ((إن بالمدينة أقواما ما سِرْتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم – وفي رواية: إلا شركوكم في الأجر[5]– قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة! قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذرُ))[6]. ولذلك يروى عن بعض السلف: (نية المؤمن أبلغُ من عمله)[1].

---

(١) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤٢١)، والتفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٧٢)، وأحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٩٨)،

وزاد المسير (٣/ ٢٣٩)، وروح البيان (٦/ ٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في مواضع متعددة من صحيحه، منها: (كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ح ١، ١/ ٣)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: ((إنما الأعمال بالنيات))، ح ١٩٠٧، ١٥١٥/٣).

(٣) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٩)، وتفسير المراغي (١٧/ ١١٥).

(٤) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٥٣).

(٥) أخرجها من رواية جابر رضي الله عنه، مسلم في صحيحه: (كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، ح ١٩١١، ٣/ ١٥١٨).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب المغازي، باب (٨١)، وهو ما يلي باب نزول النبي –صلى الله عليه وسلم– الحجر، ح ٤١٦١، ١٦١٠/٤). وقد علل الغزالي ذلك في الإحياء (٤/ ٣٦٨) فقال: (لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين في الجهاد، وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات).

(١٤٧٩)في الآية إشارةٌ إلى أهمية العناية بحج القلوب؛ إذ لا يكفي حج الأبدان وأداء المشاعر وذبح الهدي، بل لا بد أن يقترن ذلك بتقوى القلب، ولذلك تكرر ذكر التقوى والقلوب في هذه السورة[٢]، وأشير إلى الإحسان في قوله في هذه الآية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٧﴾.

(١٤٨٠)تبين الآية أن من مقاصد تشريع الهدي أن يتعود المؤمن على الإخلاص، ويكتسب مرتبة التقوى التي أشار إليها بقوله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، فالمؤمن إنما يذبح على اسم الله، وبأمره عز وجل، ولا يذكر معه اسم غيره، ولا يتوجه إلى أحد سواه، ولا يقصد بعمله إلا إياه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣][٣].

(١٤٨١)في الآية إيماء إلى أن إراقة الدماء وتقطيع اللحوم ليسا مقصودين بالتعبد، ولكنهما وسيلة لنفع الناس بالهدايا، إذ لا ينتفع بلحومها وجلودها وأجزائها إلا بالنحر أو الذبح، وأن المقصد من شرعها انتفاع الناس: المهدين وغيرهم[٤].

(١٤٨٢)تبين الآية أن نحر البُدْن ليس المقصود منه اللحم والدم، وإنما المقصود تزكية النفس وتطهيرها عن صفة البخل وتزيينها بزينة التعظيم لله عز وجل: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، وذلك يحصل بمراعاة النفاسة في القيمة سواء كثر العدد أم

---

(١) رواه أحمد بن حنبل في الزهد عن مالك بن دينار (ص: ٢٦١، رقم ١٨٨١)، ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٣٢٦) عن ثابت البُناني، بلفظ: (نية المؤمن أبلغ من عمله؛ إن المؤمن ينوي أن يقوم الليل ويصوم النهار ويخرج من ماله، فلا تتابعه نفسه على ذلك، فنيته أبلغ من عمله).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٩٠).

(٣) ينظر روائع البيان (١/ ٦١٨).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٧).

قل، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بر الحج؟ فقال ((العجّ والثجّ)) [(١)]، والعج هو رفع الصوت بالتلبية، والثج هو سيلان دماء الهدي[(٢)].

(١٤٨٣)تفيد الآية أن العبرة ليست بموضع ذبح الأضاحي، وإنما هو بتقوى الله عند ذبح الأضحية والتقرب بها إلى الله وحده وذكر اسمه تعالى عليها. ويستفاد ذلك من أن العرب في الجاهلية كانوا ينحرون الهدايا عند الكعبة وينضحونها بدمائها، فأخبرهم الله في هذه الآية أنه ليس عليهم أن يتكلفوا بذلك في بيته، فلن يصل ذلك إليه سبحانه[(٣)].

(١٤٨٤)في الآية إشارة لطيفة إلى أن ذكر الله وتعظيمه وشكره لا يكون إلا بميل القلب عن حب الدنيا، وبذل شيْء مما يملكه صاحبه طلبا لمرضاة الله تعالى. ويؤخذ هذا المعنى من أن الله تعالى جعل التكبير والشكر علة لتسخير البُدْن ونحرها؛ لأن القلب لا يفرغ لذكر الله وشكره إلا بالتخلص من رِقّ حب الدنيا[(٤)].

(١٤٨٥)تومئ الآية إلى أن نخضع لله تعالى القاهرِ فوق عباده؛ لأن الله امتن علينا سبحانه بتذليلها لنا وتمكيننا من تصريفها، وهي أعظم منا أبدانا، وأقوى أعضاءً، وذلك ليعلم العبد أن الأمور إنما هي بحسب ما يدبرها العزيز القدير، فيغلب الصغير الكبير، ليعلم الخلق أن الغالب هو الله وحده القاهرُ فوق عباده[(٥)].

(١٤٨٦)في الآية إشارة إلى أن مناسك الحج وشعيرة نحر البُدْن شرعت ليكتسب المكلف تقوى الباطن[(٦)]، لأن الله تعالى نبه المكلفين في هذه الآية أن ما يقبله منهم هو التقوى،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر الغريبين في القرآن والحديث (١/ ٢٧٤)، وجامع الأصول (٣/ ٤٤٠).

(٣) ينظر التفسير والبيان (٤/ ٢٣٦٩).

(٤) ينظر إحياء علوم الدين (٤/ ٣٦٨)، والبحر المديد (٣/ ٥٣٦).

(٥) ينظر أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٢٩٩).

(٦) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٨٩)، والتفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٤٨).

وذكر في آية أخرى أن تعظيم الشعائر من التقوى، وقال في آية أخرى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [سورة البقرة: ١٩٧].

(١٤٨٧)تفيد الآية أن ما كان معمولا به عند الناس يُقرّ ما فيه من خير، ويزال ما فيه من مخالفة للشرع؛ لأن أمر القرابين كان معروفا عند العرب في الجاهلية، ولكنهم كانوا يذكرون عليها اسم الآلهة ويلطخون الكعبة وما حولها بدمائها، فأبقى الله تعالى التقرب بالهدايا والإطعام منها، ونهى عمّا تقدم من عادات أهل الجاهلية[(١)].

(١٤٨٨)تشير الآية أن المسلم ينبغي أن يرتقي بنفسه عن الوقوع في أوهام الجاهلية التي تشوبُ العقيدة بآثار من التصورات الوثنية التي ينزه الله عنها. فالآيات وردت في سياق تنزيه الله وتطهير عباداته من بقايا أوضار الشرك وأفعال المشركين[(٢)].

(١٤٨٩)في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، إشارةٌ إلى أنه ليس المقصود من هذه الهدايا ذبحها، وأكل لحمها. وإنما المراد أولا وبالذات هو الامتثال لأمر الله، وإمضاء دعوته فيما يدعونا إليه، من التضحية بشيء عزيز حبيب إلى النفوس، وبهذا نُحسَب في عداد أهل التقوى ونظهر التعبّد لله، والولاء له، والاستجابة لأمره[(٣)].

(١٤٩٠)تفيد الآية أن من نحر الهدي كما أمره الله، وتصدق منه تقربا إلى الله وابتغاء مرضاته، وعظّم شعائر الله، واجتنب ما كان يفعله المشركون فهو محسن يستحق الثواب العظيم[(٤)]؛ لأن الله تعالى عقب بالأمر بتبشير المحسنين بعد الإشارة إلى ما تقدم حيث قال:

---

(١) ينظر التفسير الحديث (٦/ ٥٣).

(٢) ينظر الحج في سياق النص القرآني: (ص٣٣٦ – ٣٣٧).

(٣) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٤٠).

(٤) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٦١).

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧﴾.

(١٤٩١)تفيد الآية استحباب التكبير عند نحر البُدْن مع التسمية؛ لأن الله تعالى قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾ (١). وقد تقدم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع بينهما عند النحر والذبح.

(١٤٩٢)تفيد الآية استحباب التكبير في الأيام المعلومات، لأن الله تعالى قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾، وقيل: معناه: لتكبروا الله في الأيام المعلومات(٢). كأن يقول: الله أكبر على ما هدانا، والحمد لله على ما أبْلانا وأوْلانا(٣). وقال قبلها: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ [سورة الحج: ٢٨].

(١٤٩٣)تفيد الآية أن المقصود من نحر البُدْن تعظيمُ الله تعالى؛ لأن الله تعالى جعل الغاية من تسخير البُدْن تكبير الله وتعظيمه فقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾، أي: أي: لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه ويرضاه، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه(٤).

---

(١) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٢٣)، والإكليل في استنباط التنزيل (ص: ١٨٤)، وفتح القدير (٣/ ٥٣٨)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٢١). ولكن قال ابن جزي في التسهيل (٢/ ٤١): (واللفظ أعمُّ من ذلك). ونحوه في البحر المحيط (٧/ ٥١٠).

(٢) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٩٥).

(٣) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٢٤)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤٢١)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٣١).

(١٤٩٤) تفيد الآية أن الله تعالى سخر لنا الأنعام لنعرف عظمة الله تعالى باقتداره على ما لا يقدر عليه أحد، لأن الله قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾، أي لتعرفوا عظمته فتوحدوه بالكبرياء شكرًا على هدايته لكم[(١)].

(١٤٩٥) فيها إشارة إلى وجوب استحضار نعمة الهداية وشكر الله عليها، فقد كرر الله تذكير النعمة بالتسخير ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾، أي لتشكروا الله على هدايته إياكم لأعلام دينه ومناسك حجه، بأن تكبروا وتهللوا، فاختصر الكلام بأن ضُمِّن التكبير معنى الشكر، وعُدِّيَ تعديته[(٢)]، فكان التقدير: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ شاكرين له ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [(٣)].

(١٤٩٦) في الآية إيذان بأن الذكر باللسان هو رأس الشكر؛ لأن الله تعالى قال في هذه الآية: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾، وضمن التكبير معنى الشكر، وعداهُ بـ"على"، وقال في الآية التي سبقتها: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾، وإنما حسُن التعبير عن الشكر بالتكبير؛ لأن التكبير على هداية الله تعالى للمكلف هو النداء على الجميل بسبب إحسانه، وليس معنى الشكر اللساني إلا هذا، فوضع التكبير هاهنا موضع الشكر إيذاناً بأن التكبير شكر لله تعالى[(٤)].

(١٤٩٧)في الآية تنبيه على استحباب تكرير المعاني التي يتأكد تقريرها وترسيخها في نفس السامع؛ وذلك لأن الله تعالى قال في الآية التي سبقتها: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الحج: ٣٦]، وكرر هذا المعنى في هذه الآية فقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ

---

(١) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٢٢)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٢)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٨)، وروح المعاني (٩/ ١٥١).

(٢) الكشاف (٣/ ١٥٩).

(٣)نظم الدرر (١٣/ ٥٣).

(٤) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٩١).

لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾، وذلك من أجل التأكيد[1]، ليكون أدعى للعبد إلى شكر الله وطاعته.

(١٤٩٨)فيها بشارة عظيمة لمن أحسن أداء مناسك الحج وشعائره؛ لأن الآية جاءت خاتمة لآيات الحج، فكانت إشارة إلى عظم ثواب من وفّى بما أمر الله به في الآيات وحُسْنِ مآله في الدار الآخرة. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((... والحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة))[2].

(١٤٩٩)تفيد الآية أهمية البشارة وموالاة البشائر وأثرها في التحفيز على فعل الخير والدعوة الى التحلي بالفضائل[3]؛ لأن الله تعالى أمر في هذه الآية بتبشير المحسنين، وأمر في آية سابقة بتبشير المخبتين، دلالة على أهميتها.

(١٥٠٠) فيها إيماء إلى سوء صنيع من أساء أداء مناسك الحج وحرمانهم من الثواب، لأنهم لم يأتوا بالحج وفق ما أمر الله تعالى. ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧﴾، فجاء بواو العطف ليؤذن أن التقدير: فأنذر أيها الرسول المسيئين، وبشر المحسنين[4].

(١٥٠١) في ذكر بشارة المحسنين في سياق آيات الحج إيماءٌ إلى أن الحجاج هم أولى وأحق من يتصف بصفات المحسنين[5]، والله أعلم.

(١٥٠٢)فيها دليل على فضل الإحسان في العمل[1]، لأن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بتبشيرهم بالثواب والجنة، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧﴾. قال الفخر الرازي:

---

(١) ينظر التسهيل (٢/ ٤١)، والفواتح الإلهية (١/ ٥٥٤)، وصفوة التفاسير (٢/ ٢٦٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب العمرة، باب العمرة، وجوب العمرة وفضلها، ح ١٦٨٣، ٢/٦٢٩)، وأخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، ح ١٣٤٩، ٢/ ٩٨٣).

(٣) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٩٢).

(٤) نظم الدرر (١٣/ ٥٤).

(٥) ينظر الهدايات القرآنية في آيات الحج (ص ٩٢).

(والمحسن هو الذي يفعل الحسن من الأعمال ويتمسك به، فيصير محسنا إلى نفسه بتوفير الثواب عليه)[٢].

(١٥٠٣) فيها دليل على فضل الإحسان في العبادة، بأن يعبدوا الله كأنهم يرونه، أو يستحضروا أن الله يراهم ويطلع عليهم وقت عبادتهم إياه[٣]، لأن الله قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾، وبين النبي صلى الله عليه وسلم الإحسان فقال: ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))[٤].

(١٥٠٤) فيها دليل على فضل الإحسان إلى الخلق، لأن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بتبشيرهم بالثواب والجنة، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾، أي المحسنين لعباد الله، بجميع وجوه الإحسان من نفع مال، أو علم، أو جاه، أو نصح، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو كلمة طيبة ونحو ذلك[٥].

(١٥٠٥) فيها إشارة إلى أن الإحسان في العبادة لا يكون إلا بالإخلاص لله فيها؛ لأن الله تعالى أومأ إلى أن الأعمال لا تُقبل إلا بالإخلاص: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن

---

(١) ينظر تفسير آيات الأحكام للسايس (ص: ٥١٣).

(٢) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٧). وقال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ٥٣٨): (والظاهر أن المراد بهم كل من يصدر منه من الخير ما يصح به إطلاق اسم المحسن عليه).

(٣) ينظر الفواتح الإلهية (١/ ٥٥٤)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٩)، وتفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٢٩).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم، ح ٥٠، ١/ ٢٧)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الإيمان، باب وصف جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم الإسلام والإيمان، ح ٩، ١/ ٣٩).

(٥) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٩).

يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾، ثم أتبعها بتبشير المحسنين، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧﴾. وقد فسرها بعض المفسرين: المخلصين فيما يأتونه ويذرونه من أمور دينهم[(١)].

(١٥٠٦) فيها إشارة إلى أن الإحسان لا يكون إلا بتوحيد الله تعالى وإفراده بالقربات؛ لأن الله تعالى أمر بنحر البُدْن والتقرب بها إليه وذكر اسم الله وحده عليها، ثم ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧﴾، وقد نقل عن ابن عباس أنه قال في معناها: يريد الموحّدين[(٢)].

(١٥٠٧) تومئ الآية إلى أن إطعام الفقراء وغيره من صنائع المعروف لا تُقبل إلا إذا انطوى القلب على الإخلاص لله فيها، وبناها على ذكر الله وحده، وجمّلها بالإحسان[(٣)].

(١٥٠٨) يومئ ترتيب مواضيع السورة إلى أن تصحيح العقيدة وتثبيت الإيمان بالله واليوم الآخر في النفوس مقدم على الأعمال التكليفية؛ وذلك لأن هذه السورة – ككثير من سور القرآن – قدمت التذكيرَ باليوم الآخر والإنكار على المجادلين بالباطل وتقرير البعث، وبعد ذلك تحدثت عن الحج وشيء من أحكامه وحِكَمه[(٤)].

---

(١) تفسير البيضاوي (٤/ ٧٢)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٨)، وروح المعاني (٩/ ١٥١)، ومحاسن التأويل (٧/ ٢٤٨).

(٢) نقله الواحدي في البسيط (١٥/ ٤٢١)، والبغوي في تفسيره (٥/ ٣٨٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٣٩)، وغيرهم.

(٣) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٥٥).

(٤) ينظر الثواب والعقاب في سورة الحج: (ص٦٣).

## المطلب الثالث: الهدايات الجزئية الخاصة بالربع الثالث من سورة الحج:

يبتدئ الربع الثالث من الآية الثامنة والثلاثين إلى الآية التاسعة والخمسين.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الحج: ٣٨]:

(١٥٠٩) تدل الآية على أن الله يدافع دفاعا بليغا عن الذين آمنوا بالله وبرسوله جميع شرور الكفرة ويحميهم من أذاهم[(١)]، مرةً بعد مرة، فيكون ﴿يُدَٰفِعُ﴾ على معنى: تكرير الفعل من الله، لا على معنى مدافعة اثنين. ف"يُفاعل" هنا للتكرير[(٢)]. أو يكون معنى ﴿يُدَٰفِعُ﴾ يبالغ في الدفع عنهم، كما يبالغ من يغالب فيه، لأن فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ[(٣)].

(١٥١٠) في الآية بشارة للمؤمنين بأن الله سينصرهم ويدفع أعداءهم عنهم مع قلتهم وضعفهم[(٤)]، وهذا مأخوذ من قراءة ابن كثير وأبي عمْرو: ﴿يدْفع عن الذين آمنوا﴾ ([(٥)]، أي فإذا دفعتم، أي فإذا فعلتم هذا، وخالفتم الجاهلية فيما تفعلونه في نحرهم وإشراكهم بالله، فإن الله يدفع عن حزبه[(٦)]. وقال: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة الصافات: ١٧٢]، وقال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الصف: ١٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٥٧١)، وتفسير الماتريدي (٧/ ٤٢٢).

(٢) الهداية (٧/ ٤٨٩٥).

(٣) الكشاف (٣/ ١٥٩). وذكر أبو السعود القولين في تفسيره (٦/ ١٠٨) فقال: (وصيغة المفاعلة إما للمبالغة أو الدلالة على تكرر الدفع فإنها قد تجرد عن وقوع الفعل المتكرر من الجانبين فيبقى تكرره كما في الممارسة أي يبالغ في دفع غائلة المشركين وضررهم الذي من جملته الصد عن سبيل الله مبالغة من يغالب فيه أو يدفعها عنهم مرة بعد أخرى حسبما تجدد منهم القصد إلى الإضرار بالمسلمين كما في قوله تعالى كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله).

(٤) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٢٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٨)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٢٧).

(٥) ينظر: السبعة (ص ٤٣٧)، والتبصرة (ص ٢٦٦)، والتيسير (ص ١٥٧).

(٦) معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٩).

(١٥١١)تدل الآية على أن الله تعالى يدفع عن المؤمنين كيد الشياطين ويعصمهم من نزغاتهم ويحفظ عليهم دينهم[١]، ويديم توفيقهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم، فلا يقدرون على صرفهم عن دينهم[٢]؛ لأن الشيطان أعدى الأعداء، ويصدق عليه أنه خوان كفور[٣]. وفي آية أخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [سورة النحل: ٩٩].

(١٥١٢)تدل الآية على أن الله يدفع عن المؤمنين شدائد الآخرة وكثيراً من شدائد الدنيا[٤].

(١٥١٣)في الآية إشارة الى أن الله تعالى يدفع عن المؤمنين شرَّ أنفسهم[٥] التي تغري بالخيانة وكفران النعمة، لأن الله تعالى حين ذكر دفعه عن المؤمنين ذكر بغضه لكل خوان كفور، كأن الله إنما يدفع عنهم ما يوقعهم في ما يبغضه.

(١٥١٤)تدل الآية على أن الله تعالى يدفع عن المؤمنين بإعلاء حُجّتهم[٦]؛ لأن نصرة الله لعباده لا تكون على أرض المعارك فحسب، بل تكون بالحجة والبرهان، ولذلك ورد عن

---

(١) وهو تفسير الحسن البصري، ينظر تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٨٠)، وتفسير ابن أبي زمنين (٣/ ١٨٣) ولطائف الإشارات (٢/ ٥٤٧)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٩). وروى ابن سلام (١/ ٣٨٠) وكذلك ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٥، رقم ١٣٩٥٨) عن قتادة قال: (والله ما ضيع الله رجلا بشيء حفظ له دينه).

(٢) نقل القرطبي هذا القول في تفسيره (١٢/ ٦٧).

(٣) روح المعاني (٩/ ٢٠١).

(٤) الهداية (٧/ ٤٨٩٥).

(٥) ينظر روح البيان (٦/ ٣٨)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٩).

(٦) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٦٧)، فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٤٠).

بعض السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة غافر: ٥١]، أي بإظهار حجتهم[(١)].

(١٥١٥)تدل الآية على أن من أراد صدّ المؤمنين عما يقتضيه إيمانهم من عبادة الله وتقواه فهو خائن كفور[(٢)].

(١٥١٦)تدل الآية على أن دفاع الله عن المؤمنين سنّة ماضية تتجدد في كل زمان ومكان؛ لأن الله تعالى قال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وصيغة المضارع ﴿يُدَٰفِعُ﴾ تدل على التجدد والاستمرار[(٣)].

(١٥١٧)تفيد الآية أنه كلما تحقق الإنسان بالإيمان استحق نصرة الله تعالى له، لأن الله تعالى ناط دفاعه بهذا الوصف، فقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فعبر بالاسم الموصول لما فيه من الإيماء إلى أن دفاع الله عنهم لأجل إيمانهم[(٤)]. ويؤيده قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة غافر: ٥١]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الروم: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة التوبة: ١٤].

(١٥١٨)تفيد الآية أن الإيمان بالله هو أعظم أسباب دفع المكاره، لأن الله تعالى قال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فجعل علة دفاعه عنهم هو إيمانهم به[(٥)].

---

(١) قاله أبو العالية، رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٢٦٧، رقم ١٨٤٣٧)، ونسبه الماوردي إليه في النكت والعيون (٥/ ١٦٠). وبه فسر بعض المفسرين تلك الآية، ينظر الوجيز للواحدي (ص: ٩٤٧)، وتفسير الإيجي (٤/ ٢٢)، وفتح الرحمن (٦/ ١٢٥).

(٢) ينظر البحر المديد (٣/ ٥٣٦).

(٣) ينظر تفسير ابن باديس (ص: ٣٥١).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧١).

(٥) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢٦١).

(١٥١٩)تشير الآية إلى أن دفاع الله عن المؤمن بحسب كمال إيمانه وقوة توكله عليه، فإن كمل إيمانه وتوكله كان دفع الله ودفاعه عنه أعظم وأتمّ، وإن كان إيمانه وتوكله ناقصا دافع الله عنه بحسب ذلك[١]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ولم يقل: عن المؤمنين؛ ليبين أنه يدفع عمّن اتصف بمطلق الإيمان[٢]، وقال في آية أخرى: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ [سورة الطلاق: ٣]، والتوكل من مقتضيات الإيمان.

(١٥٢٠)تشير الآية أن دفاع الله إن تأخر عن المنتسبين للإيمان فعليهم أن يعرفوا أنهم أوتوا من قبل ضعف إيمانهم، فليجددوا إيمانهم حتى يتحققوا بالوصف الذي رتب عليه نصرته، وهو الإيمان.

(١٥٢١)في الآية بشارة للمؤمنين وتقوية لعزائمهم حتى يقبلوا ما شرعه الله لهم من جهاد أعدائهم، بثبات لا تردد معه، وبأمل عظيم في نصر الله وتأييده[٣].

(١٥٢٢)في الآية تشجيع للمؤمنين على استنقاذ الحرمات وإعلاء الدين ونصرة المستضعفين، وحث لهم على تحسين الظن بالله وأنه تعالى سينصرهم ما داموا متصفين بالإيمان[٤]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فأتى بالجملة مستأنفة مفتتحة بأداة التوكيد لتوطين قلوب المؤمنين ببيان أن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم بحيث لا يقدرون على صدهم عن عبادة الله[٥].

---

(١) ينظر بدائع الفوائد (٢/ ٢٤٥)، والوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٧٢)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٩).

(٢) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٩٠).

(٣) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ١٨).

(٤) ينظر محاسن التأويل (٧/ ٢٤٨)، والأساس في التفسير (٧/ ٣٥٦٩)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣١٥).

(٥) ينظر فتح القدير (٣/ ٥٤٠)، وروح المعاني (٩/ ١٥٣).

(١٥٢٣)في الآية تحذير لمن يريد إيذاء مؤمن والاعتداء عليه بأن الله سيكبته ويغلبه ويدافع عن المؤمن مادام قد تحقق بالإيمان بالله تعالى.

(١٥٢٤)في الآية إشارة إلى أن المؤمنين معرّضون للفتنة من أعداء الله الذين يكيدون لهم، ويريدونهم على أن يكونوا معهم، وألا يخرجوا عن طريقهم. ولكن الله سبحانه وتعالى يدافع عنهم، فيربط على قلوبهم، ويثبت أقدامهم على طريق الهدى، ويمدهم بالصبر على احتمال المكروه[١].

(١٥٢٥)تفيد الآية أن وعد الله بالدفاع عنهم لا يُغني عن اتخاذ الأسباب ومدافعة الكفار بالحجة والسلاح، لأن الله وعد المؤمنين بالدفاع عنهم، وفي الوقت نفسه أمرهم بقتال المشركين، وإعداد القوة لهم، ووعدهم بنصرهم وتأييدهم بالملائكة في ميدان المعارك؛ لأن الله تعالى قال بعد ذلك: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [٢].

(١٥٢٦)تومئ الآية أنه يجب على المؤمن الذي يطمع في دفاع الله عنه ألا يلقي السلاح من يده، وألا يفرّ من الميدان، سواء أكان ذلك ميدان حرب، أم ميدان دعوة إلى الله؛ لأن قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ إشارة إلى أن المؤمنين معرضون للابتلاء من أعداء الله الذين يكيدون لهم، ولكن الله سبحانه يدفعهم عنه، فدفاع الله عن المؤمنين إنما يكون وهم يدافعون عدوهم في ميدان المعركة. وهذا يعنى أن المؤمن الذي يستسلم لعدوه، لا يكون في ميدان المعركة، ومن ثمّ فلا يكون من الله دفاع عنه، إذ لا معركة قائمة بينه وبين عدوّه[٣].

(١٥٢٧)تفيد الآية ثبوت صفة المحبة لله تعالى؛ لأن الله أخبر عن نفسه بأنه لا يحب كل خوّان كفور، وهذا يستلزم محبته لقوم آخرين، وهذا ما أثبته الله لنفسه في آيات أخرى، مثل:

---

(١) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٤٢).

(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٢٥).

(٣) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٤٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٤﴾ [سورة التوبة: ٤]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٦﴾ [سورة آل عمران: ١٤٦].

(١٥٢٨)تدل الآية على أن الله تعالى يحبُّ كل أمين قائم بأمانته، شكور لمولاه؛ لأن الله أخبر عن نفسه بأنه لا يحب كل خوان كفور، ومفهوم الآية أنه يحب من يتصف بضد ذلك[(١)].

(١٥٢٩)في الآية إيماءٌ إلى أن المؤمنين هم أحباء الله[(٢)]، لأن الله تعالى بعدما قال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨﴾. فكأنه قال: إن الله يحب الذين آمنوا ويدفع عنهم، ويبغض الخونة الكفرة ويقهرهم[(٣)].

(١٥٣٠)تفيد الآية أن الله تعالى يدفع عن أحبابه ويحميهم الشرور، ويحارب أعداءه ويغلبهم ويخزيهم؛ لأن الله تعالى أخبر أنه يدافع عن المؤمنين، وأخبر أنه يبغض كل خوان كفور، وهذا يقتضي أن الله يقهرهم وينتقم منهم[(٤)]. وفي الحديث القدسي: ((إن الله تعالى قال: من عادى لي وليا فقد آذنتُه بالحرب...))[(٥)]، وتضمن أن الولي هو من أحبه الله تعالى.

---

(١) ينظر روح المعاني (٩/ ١٥٤)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٩)، وتفسير آيات الأحكام للسايس (ص: ٥١٥)، وأيسر التفاسير (٣/ ٤٧٩).

(٢) ينظر روح المعاني (٩/ ١٥٤)، وتفسير المراغي (١٧/ ١١٧)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٩٠)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣١٦).

(٣) فصل الشيخ السايس ذلك في تفسير آيات الأحكام (ص: ٥١٥) فقال: (وهناك وجه آخر في ربط الجملة الثانية بالأولى، وحاصله أنك عرفت أنّ الجملة الأولى مشتملة على وعد صراحة ووعيد ضمنا، وإذا نظرت إلى الجملة الثانية وجدت أنها مشتملة على ثبوت البغض للمشركين صراحة، وهو يناسب الوعيد الضمني في الجملة الأولى، فيكون علة له، وعلى ثبوت المحبة للمؤمنين ضمنا كما هو قضية إيثار (لا يحب) على (يبغض) وهو يناسب الوعد المصرّح به في الجملة الأولى، فيكون علة له، وعلى هذا يكون منطوق الجملة الثانية علة لمفهوم الجملة الأولى، ومفهومها علة لمنطوقها، ويصير المعنى هكذا: إن الله يدافع عن الذين آمنوا لحبه إياهم، ويخذل المشركين ويقهرهم لبغضه إياهم).

(٤) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٧٩).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الرقاق، باب التواضع، ح ٦١٣٧، ٥/٢٣٨٤).

(١٥٣١)تفيد الآية أن الله تعالى يدفع عن المؤمنين كل خوّان كفور، فمتى رأيت عدوك بهذه الصفة فأبشر بنصرة الله لك ما دمت مؤمنا؛ لأن الله تعالى بعدما قال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾. فنبّه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيدَ من هذه صفته[(١)].

(١٥٣٢)تدل الآية على أن الله تعالى يبغض الخائنين والكفار، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾. وذكر صيغة المبالغة هنا لا ينافي أن الله يبغض الخائن مطلقا، والكافر مطلقا[(٢)]، فقد قال في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الأنفال: ٥٨]، وقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة آل عمران: ٣٢][(٣)].

(١٥٣٣)تدل الآية على أن خيانة الله والرسول وخيانة الأمانات سببٌ لخذلان الله تعالى؛ ذلك لأن الله تعالى بين نصرته للمؤمنين ومدافعة الكفار عنهم، ثم جعل العلة في ذلك أنه لا يحب الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله ويحقرونها، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [(٤)]. ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة يوسف: ٥٢].

(١٥٣٤)تومئ الآية أن رعاية المسلمين لما استأمنهم الله عليه من أمر شرائعه ودينه وحفظهم للأمانات جميعها على قدر وُسعهم وشكرهم لنعم الله سبب لنصرة الله تعالى؛ لأن الله

---

(١) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٨).

(٢) وصيغة المبالغة فيهما لبيان أنهم كذلك في الواقع، لا لتقييد البغض بغاية الخيانة والكفر، فإن الخائن ممقوت مطلقا، أو للمبالغة في نفي المحبة على اعتبار النفي أوّلا وإيراد معنى المبالغة ثانيا، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ (فصلت: ٤٦)، أو لأن خيانة أمانة الله تعالى وكفران نعمته لا يكونان حقيرين، بل هما أمران عظيمان، أو لكثرة ما خانوا فيه من الأمانات وما كفروا به من النعم. ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٨)، وروح البيان (٦/ ٣٧)، والبحر المديد (٣/ ٥٣٦)، وفتح القدير (٣/ ٥٤٠)، وروح المعاني (٩/ ١٥٤).

(٣) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢٦٢).

(٤) الكشاف (٣/ ١٥٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٨).

تعالى وعد بنصرة المؤمنين، ثم عقب ببيان بُغضه لكل خوّان كفور، فكأنه أومأ إلى أن الله يدافع عن المؤمنين لأنهم بضد ذلك[1].

(١٥٣٥)تدل الآية على تحريم الخيانة وذمها بكل صورها[2]؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا يحب كل خوان للأمانات، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾، ونفي المحبة كناية عن البغض الموجب للعقاب، وخوّان صيغة مبالغة من الخيانة، أي يخون الله في أماناته تعالى وهي أوامره ونواهيه، أو في جميع الأمانات التي هي معظمها[3]. ونظيره قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الأنفال: ٢٧].

(١٥٣٦)تفيد الآية أن الخيانة كبيرةٌ من كبائر الذنوب؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا يحب كل خوان للأمانات، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾، وهذا يقتضي أنه يبغضهم، وما يبغضه الله ولا يرتضيه فهو معدود من الكبائر.

(١٥٣٧)في الآية تحذير لمن ضيع الأمانات، وخان العهد والمواثيق، وخان ما استُؤْمن عليه من أعمال أو أشياء؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾، وهو مطلق في أنواع الخيانة.

(١٥٣٨)تدل الآية على ذم جحود نعم الله تعالى وقبحها؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا يحب كل ﴿كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾، أي: جَحود لنعمه عنده، لا يعرف لمنعمها حقه فيشكره عليها.

---

(١) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٩٢)، ونظم الدرر (١٣/ ٥٤).

(٢) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٢٤).

(٣) تفسير الطبري (١٦/ ٥٧١)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٨). قال محمد المكي الناصري في التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٧٨): (والخيانة هنا تصدق بالأصالة على "الخيانة الكبرى"، وهي خيانة الأمانة الإلهية التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، مما يجب على الإنسان الوفاء به من حقوق الله وحقوق العباد في كل آن، وتصدق بالتبع على بقية صنوف وحقوق العباد في كل آن، وتصدق بالتبع على بقية صنوف الخيانات، مما يتفرع عنها ويظهر أثره في مختلف التصرفات).

وقيل: إنه عنى بذلك دفع الله كفار قريش عمّن كان بين أظهرهم من المؤمنين قبل هجرتهم[1].
وفي المقابل فإن الله يحب الشاكرين ويرضى عن الشكر.

وتأويل قراءة (يُدَافِعُ)، أي: يدافع الكفار عنهم بنصر المؤمنين عليهم، وكأن هذه الآية إنما نزلت بمكة، وعد للذين آمنوا هنالك النصر والدفع عنهم في حال قلتهم وضعفهم وكثرة أُولَئِكَ الكفرة وقوتهم، وكان المسلمون بمكة آنئذ قلة ضعفاء[2].

(١٥٣٩)تفيد الآية أن نقائص الإنسان لا يمكنه أن يفعلها خالية عن المبالغة، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى أتى بالصفتين على صيغة المبالغة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾؛ لأنه يخون نفسه بالعزم أوّلاً، والفعل ثانياً، وغيرَه من الخلق ثالثاً، وكذا يخون ربّه سبحانه، وهكذا في الكفر وغيره، ولما كانت الخيانة منبع النقائص، كانت المبالغة فيها أكثر[3].

(١٥٤٠)تشير الآية على أن من ذكر اسما غير اسم الله تعالى وتقرب إلى الأصنام بذبيحته فهو خائن لعهد ربه، كفور بنعمته عليه[4].

(١٥٤١)تشير الآية إلى قبح خيانة ما ائتمن الله عليه أهل الكتاب من صفة النبي صلى الله عليه وسلم والتكذيب به، لأن بعض المفسرين حملوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾، على اليهود وغيرهم من أهل الكتاب الذين اؤتمنوا على رسالة مُحَمَّد وصفته فخانوها وكتموها، وأنكروا نبوته وكفروا به[5].

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٥٧١).
(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٢٢).
(٣) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٥٥).
(٤) معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢٩)، ومعاني القرآن للنحاس (٤/ ٤١٥)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٦١)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٨)، وزاد المسير (٣/ ٢٤٠).
(٥) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٢٢).

(١٥٤٢)في الآية إشارة إلى أن الشرك بالله خيانة لله تعالى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾، لأن الشرك خيانة لعهد الله الذي أخذه على بني آدم بأن يوحدوه، فأودعه في فطرتهم، ونبههم إليه بما أبلغه على ألسنة الرسل إليهم[(١)]. وقد نقل عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية: (يريد: خانوا الله، وجعلوا معه شريكًا، وكفروا نعمه)[(٢)].

(١٥٤٣)في الآية تنبيه على أنه بارتكاب الخيانة والكفران يصير بحيث لا يتوب لتماديه في ذلك، وإذا لم يتب لم يحبه الله المحبة التي وعد بها التائبين[(٣)]، وأفصح عنها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٢٢].

(١٥٤٤)في الآية إيماء إلى أن الإيمان الصادق يحمل صاحبه على رعاية الأمانات كلها وشكر نعم الله تعالى بالقلب واللسان والجوارح[(٤)]؛ وذلك لأن الله تعالى أشار إلى أنه يدافع الكفار لكفرهم وتضييعهم للأمانات وجحودهم للنعم، وهو يستلزم أن الله ينصر المؤمنين عليهم لاتصافهم بضد ذلك، واكتفي بوصفهم بالإيمان للدلالة على استلزامه لتلك الصفات[(٥)].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧٢).

(٢) التفسير البسيط (١٥/ ٤٢٢). نقل الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٢٨) عن مقاتل أنه قال: (أقروا بالصانع وعبدوا غيره، فأي خيانة أعظم من هذه؟!).

(٣) ينظر روح البيان (٦/ ٣٧).

(٤) ينظر تفسير ابن باديس (ص: ٣٥١).

(٥) قال ابن باديس في تفسيره "مجالس التذكير" (ص: ٣٥١): (واقتضت هذه المقابلة أن الخيانة والكفر من صفات أضدادهم، وليست من صفاتهم. فإيمانهم مستلزم لأمانتهم بحفظ عهد الله عندهم: في نفوسهم، وعقولهم، وأبدانهم، وجميع ما لديهم على جميع أحوالهم، ومستلزم لاعترافهم بنعم الله وشكره عليها، باستعمالها في طاعته وطلب المزيد من بره. وأمانتهم هذه وشكره هي مظهر ايمانهم الذي يميزهم عن أضدادهم، ويدل على صدقهم في ذلك الإيمان، ورسوخه في قلوبهم).

(١٥٤٥)تفيد الآية أنه كلما فشتْ في المسلمين المعاصي وخيانةُ الأمانات وجحود النعم نقص دفاع الله عنهم وابتلوا بتسلط أعدائهم عليهم[١]؛ لأن الله تعالى بين أن علة مدافعته للكفار هو خيانتهم للأمانات وكفرهم بالنعم، فدل على أن المسلمين إن وقعوا في ذلك حرموا دفاع الله عنهم.

(١٥٤٦)في الآية دلالة على إثبات رسالة مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله تعالى أخبر أنه ينصر المؤمنين ويدفع عنهم أذى أعدائهم وشر وأنهم خوَنة[٢]، فكان على ما أخبر؛ فدل أنه خبر الله حق، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق فيما بلغه عنه.

(١٥٤٧)في الآية تنبيه على تزكية النفس الأمارة وتطهيرها من الأوصاف الرذيلة، وعلى رأسها خيانة الأمانات وكفران النعم[٣]، لأن الله أخبرهم أنه يبغض أهل هذه الصفات، وهذا يقتضي أنه يحب من تخلص منها واتصف بضدها وهو رعاية الأمانات وشكر النعم.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠]:

(١٥٤٨)في هذه الآية دليل على أن الإباحة من الشرع، خلافا للمعتزلة لأن قوله تعالى: ﴿أُذِنَ﴾ معناه أبيح، وهو لفظ موضوع في اللغة لإباحة كل ممنوع[٤].

(١٥٤٩)في هذه الآية دليل على أنه لا يحكم قبل ورود الشرع، لا إباحة ولا حظرا، إلا بما حكم به الشرع، وبيّنه[٥].

---

(١) ينظر تفسير ابن باديس (ص: ٣٥١).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٢٣).

(٣) ينظر روح البيان (٦/ ٣٨).

(٤) ينظر أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٣٠٠)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٣٢).

(٥) ينظر أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٣٠٠)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٣٢).

(١٥٥٠)تدل الآية أن الحكم الشرعي بالإباحة وغيره إنما يؤخذ من الله تعالى، فالمباح ما أباحه الله تعالى، والحرام ما حرمه تعالى، ويستفاد من قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾، وفي قراءة: ﴿أَذِن﴾ [(١)]، بالبناء للفاعل لما تقدم من ذكر الله تعالى في الآية السابقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ٣٨﴾، والمعنى: أَذِن اللهُ للمؤمنين[(٢)].

(١٥٥١)تفيد الآية مشروعية القتال الدفاعي، والرد على من بدأ بالعدوان؛ لأن الآية وردت في شأنه كما هو ظاهر[(٣)].

(١٥٥٢)بيان سر الإذن بالجهاد ونصرة الله لأوليائه الذين يقاتلون من أجله[(٤)].

(١٥٥٣)تفيد الآية أن من قاتله المشركون من المسلمين فإنه يجوز لهم أن يقاتلوهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾، على قراءة من قرأ ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ بفتح التاء للبناء على المجهول[(٥)]، أي: للمؤمنين الذين يقاتِلهم المشركون، والمأذون فيه محذوف لدلالة الكلام عليه، والمعنى: أذن لهم أن يقاتلوا[(٦)].

---

(١) وهي قراءة ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، ينظر "المبسوط في القراءات العشر" لابن مهران (ص ٢٥٨)، والتيسير (ص ١٢٨)، والنشر (٢/ ٣٢٦).

(٢) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٢)، والكشف والبيان للثعلبي (٧/ ٢٥).

(٣) ينظر تفسير المنار (١١/ ٢٢٩)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٢٥).

(٤) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٨٠).

(٥) وهي قراءة نافع، وحفص عن عاصم، وابن عامر. ينظر السبعة (ص ٤٣٧)، والتبصرة (ص ٢٦٦)، والمبسوط في القراءات العشر (ص ٢٥٨)، والتيسير (ص ١٢٨)، والنشر (٢/ ٣٢٦).

(٦) وهذا التقدير هو قول الفراء (٢/ ٢٢٧) والزجاج (٣/ ٤٣٠). وقال أبو علي الفارسي في الحجة للقراء السبعة (٥/ ٢٨١): (المعنى فيه: أذن الله للذين يقاتَلون بالقتال)، وكلاهما صواب. وينظر الكشاف (٣/ ١٦٠).

(١٥٥٤)تقرر الآية حق المسلمين في الدفاع عن أنفسهم ودينهم ضد كل اعتداء[١]، لأن الله تعالى رخص لهم في مقاتلة من قاتلهم وظلمهم وأخرجهم من ديارهم، فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾.

(١٥٥٥)تفيد الآية أنه يباح للمظلوم المعتدَى على حريته وحقوقه وكرامته بالانتصار والدفاع، حتى يرفع الظلم عن نفسه ويضمن حقوقه وحريته وكرامته[٢]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾، أي من أجل أنّهم ظلموا، بالاعتداء عليهم وإيذائهم، وإخراجهم من ديارهم[٣].

(١٥٥٦)في الآية الإذن بابتداء القتال، وذلك على قراءة «يقاتِلون» بكسر التاء[٤].

(١٥٥٧)في الآية إشعار لهذه الأمة بأن لا تطلب الحرب ابتداء، وإنما تدافع عن منعها من إقامة دينها؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ [٥]. ويؤيده أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشد قائلا:

والمشـــركون قـــد بغَـــوْا علينـــا إذا أرادوا فتنـــــــةً أبيْنـــــــا[٦]

(١٥٥٨)تشير الآية أنه لا يجوز قتال من لم يبدأنا بقتال؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾، أي للذين يقاتلهم المشركون، ومفهومه أنه لا يؤذن لمن لم يقاتلوهم.

---

(١) ينظر التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٩٠).

(٢) ينظر التفسير الحديث (٦/ ٥٨).

(٣) ينظر التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٧٣)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٩).

(٤) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبي بكر عن عاصم. ينظر المبسوط في القراءات العشر (ص: ٣٠٨)، والتيسير (ص: ١٥٧)، والنشر (٢/ ٣٢٦).

(٥) تراث أبي الحسن الحرالّي المراكشي (ص: ٤٢٥). ثم قال (ص: ٤٢٦): (فحق المؤمن أن يأبى الحرب ولا يطلبه، فإنه إن طلبه فأوتيه عجز [كما عجز] هؤلاء حين تولوا إلا قليلا). وقد نقله عنه البقاعي في نظم الدرر (٣/ ٤٠٦).

(٦) رواه البخاري في صحيحه: (كتاب القدر، باب ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ح ٦٢٤٦، ٦/ ٢٤٤١)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الجهاد، باب غزوة الأحزاب وهي الخندق، ح ١٨٠٢، ٣/ ١٤٢٩).

ويؤيده قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [سورة الممتحنة: ٨]. وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝١٩٠﴾ [سورة البقرة: ١٩٠][(١)].

(١٥٥٩)تدل الآية على أنه لا يجوز قتل نساء أهل الحرب الا إذا قاتلت المسلمين أو أعانت على قتالهم برأي أو مال أو تدبير؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ﴾، أي للذين يقاتلهم المشركون، والمرأة ليس من شأنها القتال، ويؤيده أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في غزوة، ((فرأى الناس مجتمعين على شيء، فبعث رجلا، فقال: انظر علام اجتمع هؤلاء؟ فجاء، فقال: على امرأةٍ قتيل، فقال صلى الله عليه وسلم: ما كانت هذه لتقاتل. قال: وعلى المقدمة خالد بن الوليد، فبعث رجلا فقال: «قل لخالد: لا يقتلنّ امرأة ولا عسيفا))[(٢)]، ومفهوم قوله: ((ما كانت هذه لتقاتل)) أنها لو قاتلت لقُتلت.

(١٥٦٠)تدل الآية على أنه لا يجوز قتل من ليس من شأنهم القتال، كالشيخ الفاني، والأطفال، والرهبان، والعميان والزمْنى، إلا إن أعانوا على قتال المسلمين بتدبير أو رأي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ﴾، أي للذين يقاتلهم المشركون، وهؤلاء ليس من

---

(١) وحروب المسلمين لم تكن إلا حروبا دفاعية أو وقائية وإن كان ظاهرها الهجوم.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في سننه: (كتاب الجهاد، باب في قتل النساء، ح ٢٦٦٩، ٣/٥٣)، والبيهقي في السنن الكبرى جماع أبواب السير، باب المرأة تقاتل فتقتل، ح ١٨١٠٤، ٩/ ١٣٩). وأخرجه آخرون بلفظ: ((لا تقتلن ذرية ولا عسيفا))، منهم أحمد في مسنده: (٤٨٨/٣، رقم ١٦٠٣٥)، والنسائي في سننه الكبرى: (١٨٧/٥، رقم ٨٦٢٧)، وابن ماجه في سننه: (كتاب الجهاد، باب الغارة والبَيات وقتل النساء والصبيان، ح ٢٨٤٢، ٢/ ٩٤٨)، وصحح إسناده البوصيري في الزوائد (١٧٢/٣). وابن حبان في صحيحه (١١٢/١١، رقم ٤٧٩١)، والطبراني في الكبير (٧٢/٥، رقم ٤٦١٧)، كلهم من حديث حنظلة الكاتب.

والنسائي في سننه الكبرى: (١٨٦/٥، رقم ٨٦٢٥)، وابن ماجه في سننه (بعد رواية حنظلة ح ٢٨٤٢)، وابن حبان في صحيحه (١١٠/١١، رقم ٤٧٨٩)، وصححه، والحاكم في المستدرك: (كتاب الجهاد، باب لا يقتلن ذرية ولا عسيفا، ح ٢٥٦٥، ٢/ ١٣٣) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، كلهم من حديث رباح بن الربيع.

شأنهم القتال، ويؤيده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((...لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلا ولا صغيرا ولا امرأة...))[1]. وقال في حديث آخر: ((ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع))[2].

(١٥٦١)تشير الآية إلى أن المسلمين سيُقاتَلون من أعدائهم في كل زمن؛ لأن الله تعالى عبر بالفعل المضارع فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾، والفعل المضارع يدل على التجدد والاستمرار.

(١٥٦٢)في الآية تنبيه للمسلمين إلى أن الدنيا دار ابتلاء وامتحان[3]، ولا تخلو من التعرض للظلم والعدوان، ولا بد فيها من تدافع وكفاح؛ لأن الله تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾، فقرر أن المؤمنين من الرعيل الأول ظلموا، ولذلك أبيح لهم القتال.

(١٥٦٣)في الآية إيماء إلى أن الجزاء منوط بالعمل[4]، فلما اعتدت قريش على المسلمين وأخرجوهم من ديارهم جزاهم الله على ذلك بأن رخص للمسلمين في قتالهم وأباح لهم دماءهم.

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن: (كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين، ح ٢٦١٤، ٣/ ٨٦). وفي سنده خالد بن الفزر الراوي عن أنس، لم يوثقه غير ابن حبان، وبقية رجاله ثقات، وله شواهد يتقوى بها. وأخرجه أيضا: البيهقي في سننه: (كتاب جماع أبواب السير، باب ترك قتل من لا قتل فيه من الرهبان والكبير، ح ١٨١٥٣، ٩/ ١٥٣).

(٢) أخرجه أحمد مسند (١/ ٣٠٠، رقم ٢٧٢٨)، وأخرجه البزار في مسنده (١١/ ٩٣، رقم ٤٨٠٦)، وأبو يعلى في مسنده (٢٥٤٩)، والطبراني في الكبير (١١٥٦٢)، والبيهقي في سننه: (كتاب جماع أبواب السير، باب ترك قتل من لا قتل فيه من الرهبان والكبير، ح ١٨١٥٤، ٩/ ١٥٤) وغيرهما. قال ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ٢٧٧): (وفي إسناده إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة، وهو ضعيف). وقال محققو مسند أحمد ط. الرسالة (٤/ ٤٦١): (حسن لغيره).

(٣) ينظر التفسير المنير (١٧/ ٢٢٩).

(٤) ينظر التفسير المنير (١٧/ ٢٢٩).

(١٥٦٤)تفيد الآية أن إباحة القتال للمسلمين هي من صور دفاع الله عنهم؛ وذلك لأن هذه الآية مقررة أيضا لمضمون قوله في الآية السابقة: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [1]. وما دام الله قد أذن لهم بمقاتلتهم كان متكفلا لهم بالنصر [2].

(١٥٦٥)في الآية وعد للمظلومين الذي يقاتلون من أجل رفع الظلم عن أنفسهم بالنصر [3]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾، والضمير يرجع على هؤلاء الذين ظلموا وقوتلوا.

(١٥٦٦)تدل الآية على أن الله يريد من المظلوم أن يأخذ بأسباب النصر ليعينه، مع أنه تعالى قادر على تعجيل النصر من غير أن يتخذوا الأسباب [4]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾.

(١٥٦٧)في الآية تحريضٌ على انتصار المظلوم من الظالم، وانتصار الأمة المظلومة من الظالمين لها، ونصر المظلومين والدفاع عنهم، بإيقاف الظالمين وزجرهم عن الظلم ولو بالقتال إن

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٩)، وفتح القدير (٣/ ٥٤٠)، وتفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٣٥)، والتفسير الواضح (٢/ ٥٨٩).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧٢).

(٣) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٩٨)، الكشاف (٣/ ١٦٠)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢٤)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٣)، وأضواء البيان (٥/ ٢٦٤). قال الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٢٩): (فذلك وعد منه تعالى بنصرهم، كما يقول المرء لغيره: إن أطعتني فأنا قادر على مجازاتك، لا يعني بذلك القدرة، بل يريد أنه سيفعل ذلك).

(٤) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٣٥).

اقتضى الأمر ذلك، ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾ (١). وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩﴾ [سورة الشورى: ٣٩] (٢).

(١٥٦٨)يؤخذ من تأخر نزول الآية مع العذاب على الصحابة أنه يجب على الناس عند تسلط عدوٍّ ظالم عليهم ألا يغلب عليهم حظ أنفسهم بالتشفي والانتقام على النظر إلى عاقبة الدين؛ فإن للنفوس إقبالا على الانتصار لنفسها والانتقام من عدوها ولو هلَكت. والواجب النظر إلى عاقبة الحق، ومدى قدرة العدو على استئصاله باستئصالهم؛ فإن الله قد استودعهم حفظ دينه، فيجب عليهم حفظه والتمكين له، وأن يتجردوا من التهور والعجلة والانتقام للنفس، ويقفوا عند أوامر الله وحدوده (٣).

(١٥٦٩)تدل الآية على أن الله تعالى قادرٌ على نصرهم سبحانه دون قتال، ولكنه يريد أن يبلوَ جهد عباده في طاعته، ويختبر صدق إيمانهم، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ [سورة محمد: ٤ – ٥] (٤).

(١٥٧٠)في الآية تحريضٌ للمظلوم – وإن كان ضعيفا – أن ينتصف ممن ظلمه عند القدرة على ذلك، فإنه على وعدٍ بنصر الله له (٥)؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾.

---

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٩١).

(٢) قال الشيخ سعد حوى في الأساس في التفسير (٩/ ٥٠٩١): (وذكر هذه الصفة هنا في آيات مكية بصدد تصوير طابع الجماعة المسلمة يوحي بأن صفة الانتصار من البغي صفة أساسية ثابتة؛ وأن الأمر الأول بالكف والصبر كان أمرا استثنائيا لظروف معينة).

(٣) ينظر التفسير والبيان (٤/ ٢٣٧٠ – ٢٣٧١).

(٤) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٣٤)، وأضواء البيان (٥/ ٢٦٥).

(٥) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٤٤).

(١٥٧١)تدلّ الآية على أن الاستسلام للبغي والسكوت على الظلم، تمكينٌ للشرّ، وإطلاقٌ ليده، يَضرب بها كيف يشاء في مواقع الحق ومواطن الخير، وينبغي دفع الظلم لأنه من وجوه المنكر؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ (١).

(١٥٧٢)تومئ الآية إلى أن الإسلام دين عزة وقوة ومنعة، ولا ينبغي للمسلمين أن يرضوا بالهوان، ويقبلوا بالمذلة، ولا أن يستسلموا للمعتدين ويستكينوا لظلمهم، ويكتفوا بالجبن والخنوع، والفضيلة كل الفضيلة تتجلى في رد العدوان، ومكافحة الطغيان(٢)، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾.

(١٥٧٣)في الآية دلالة صريحة على أنّ المراد بوعد الله بالمدافعة عن المؤمنين ليس مجرد تخليصهم من أيدي عدوهم، بل إظهارهم عليهم، وتمكينهم في الأرض(٣).

(١٥٧٤)في الآية وعيد شديد وتهديد للمشركين بقهرهم وخذلانهم(٤)، وذلك لأن نصرة الله للمؤمنين على من قاتلوهم وظلموهم يستلزم خذلان أعدائهم وقهرهم.

(١٥٧٥)في الآية إثباتٌ لصفة القدرة لله تعالى، وأنها مطلقة لا يعجزها شيء؛ لأن الله قال فيها: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾، وفي آيات أخرى تعميمٌ في المقدورات، وذلك حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٩﴾ [سورة البقرة: ١٠٩].

(١٥٧٦)تومئ الآية إلى أن المؤمنين عليهم أن يسألوا النصر والفتح من الله تعالى، وأن يتوكلوا عليه ولا يعتمدوا على عدد أو عدة(٥).

---

(١) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٤٣).

(٢) ينظر أضواء على الثقافة الاسلامية (ص: ٢٨٠).

(٣) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٨)، والبحر المديد (٣/ ٥٣٧)، وتفسير آيات الأحكام (ص ٥١٨).

(٤) ينظر التفسير المنير (١٧/ ٢٢٧).

(٥) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٩)، وتيسير اللطيف المنان (١/ ١٠٨).

(١٥٧٧)في الآية تحفيزٌ على قتال الظالمين واستفراغ الجهد في ذلك، وحضٌّ لهم على الإقدام على الجهاد في سبيله بدون تردد أو وهن[(١)]؛ لأن الله تعالى تعهد بنصر المؤمنين في صيغة تحفز على الاستماتة في سبيل الله، كلها توكيد وتأييد، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾.

(١٥٧٨)تشير الآية أن الأكابر إذا تكلموا بأن أمراً بمحلّ العلم منه ونحوه، كقولهم: عسى أن يكون كذا، أو أن عندنا خيرا، أو نحو ذلك، فإن ذلك يتنزل منزلة الوعد، بحيث لا يبقى للمترقب شك في الفوز بمطلوبه؛ لأن الله تعالى أورد الوعد في صورة الإخبار بقدرته تعالى على نصر المؤمنين جرْيًا على سَنن الكبرياء[(٢)].

(١٥٧٩)في الآية إيماء إلى أن المربِّيَ إذا أراد أن يُربّي المدعوّين على أمرٍ شاقٍّ على النفوس فعليه أن يسلك مسلك التدرج حتى تستأنس به وتتعود عليه؛ وذلك لأن القتال شاقٌّ على النفوس لما فيه من تعرُّض للموت، ولما كان كذلك أوجبه الله تدريجا، فأذِن فيه أولا من غير إيجاب بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾، ثم لما استأنست نفوسهم بالقتال بسبب الإذن فيه، أوجب عليهم قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلْهم بقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ [سورة البقرة: ١٩٠]، وهذا تدريج من الإذن إلى نوع خاص من الإيجاب، ثم لما استأنست نفوسهم بإيجابه في الجملة أوجبه عليهم إيجابا عامًّا جازما في آيات من كتابه، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ [سورة التوبة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [سورة التوبة: ٣٦][(٣)].

---

(١) ينظر التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٧٩)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣١٧).

(٢) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٨)، وروح المعاني (٩/ ١٥٤)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٧٤).

(٣) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢٦٣)، والتفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٤٩).

(١٥٨٠)في الآية إشارة من طرف خفي إلى ضرورة أن تستجمع الأمة قواها وتوقظ قدراتها وتحشد طاقاتها لحمل أمانة التكليف والقيام بالدعوة إلى الله؛ لأن الله وجّه المسلمين إلى القتال في سبيله مع قدرته على نصرتهم بغير قتال، حتى يستجمعوا كل قوتهم ليواجهوا من يهدد حياتهم وأعراضهم، لأن غريزة البقاء تجعل الإنسان يستنفر جميع قدراته المذخورة فيه[(١)].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [سورة الحج: ٤٠]:

(١٥٨١)في هذه الآية دليلٌ على جواز نسبة الفعل الموجود من الملجَأ المكرَه إلى الذي ألجأه وأكرهه، ويترتب عليه حكم فعله؛ لأن الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾، ونسب الإخراج إلى الكفار صراحة، كما في قوله: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [سورة التوبة: ٤٠][(٢)]، أي ألجأوهم إلى الخروج[(٣)]، وبناءً عليه قال المالكية: إن المكْرِه على إتلاف المال يلزمه الغرم[(٤)]، وكذلك المكرِه على قتل الغير يلزمه القتل[(٥)].

(١٥٨٢)تدل الآية على جواز بيع بيوت مكة وكرائِها[(٦)]؛ لأن الله تعالى أضاف الدّيار إلى مالكيها فقال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾، وحقيقة الإضافة تقتضي الملك، والملك يقتضي جواز التصرف. ويؤيده قوله صلّى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: ((من دخل دار أبي

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٢٥ - ٢٤٢٦).

(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٣٠٢)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٣٣).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (٤/ ٢٠٤).

(٤) ينظر الذخيرة للقرافي (٨/ ٢٦٠).

(٥) ينظر عقد الجواهر الثمينة (٣/ ١٠٩٣)، والذخيرة (١٢/ ٢٨٣).

(٦) ينظر الكشف والبيان (٧/ ١٦)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٧٧)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٥٤).

سفيانَ فهو آمن...))[1]. ويؤكده شراء عمر بن الخطاب رضي الله عنه دار صفوان بن أمية بأربعة آلاف درهم، وهو واضح الدلالة على جواز بيعها. وقد ملك الناس دور مكة وتبايعوا من أول الإسلام إلى الآن، وهم يتوارثونها[2].

(١٥٨٣)تدل الآية على أن حرية الاستقرار والإقامة بالأوطان حق أساسي لا بد من ضمانه لكل إنسان[3]، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى أشار إلى أن إخراجهم من ديارهم ظلم لهم: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [4]. وإيمانهم بالله

(١) رواه مسلم في صحيحه: (كتاب الجهاد، باب فتح مكة، ح ١٧٨٠، ٣/ ١٤٠٧)، وأبو داود في سننه: (الخراج والإمارة، باب ما جاء في خبر مكة، ح ٣٠٢١، ٣/ ١٦٢). أما حديث ((مكة حرامٌ، وحرامٌ بيعُ رباعها، وحرامٌ أجر بيوتها))، فقد أخرجه الحاكم في المستدرك (كتاب البيوع، ح ٢٣٢٧، ٢/ ٦١)، وعلق عليه الذهبي: (عبيد الله بن أبي زياد لين)، والبيهقي في سننه: (جماع أبواب السلم، باب ما جاء في بيع دور مكة وكرائها وجريان الإرث فيها، ح ١١١٨٤، ٦/ ٥٧). وأما حديث ((مكة مُناخ، لا تُباع رباعها ولا تؤاجر بيوتها))، فقد أخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب البيوع، ح ٢٣٢٦، ٢/ ٦١)، وصحح إسناده، وتعقبه الذهبي فقال: (إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر ضعّفوه)، والدارقطني في سننه (كتاب البيوع، ح ٣٠١٨، ٤/ ١٣)، وقال: (إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر ضعيف، ولم يروِهِ غيره)، والبيهقي في سننه (جماع أبواب السلم، باب ما جاء في بيع دور مكة وكرائها وجريان الإرث فيها، ح ١١١٨٣، ٦/ ٥٧)، وقال: (إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر ضعيف، وأبوه غير قوي، واختلف عليه). وينظر الضعفاء الكبير للعقيلي (١/٧٣، ترجمة ٧٦).

(٢) هذا هو مذهب مالك والشافعي، وبه قال مجاهد والحسن وطاؤس وعمرو بن دينار وجماعة، خلافا لأبي حنيفة، ينظر الخلاف في هذه المسألة في: أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٦١)، وشرح التلقين للمازَري (٢/ ٩٦٧)، وأحكام القرآن لابن الفرس (٣/ ٢٩٦ – ٢٩٧)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٣)، والمجموع للنووي (٧/ ٤٦٤)، وتيسير البيان (٤/ ٨ – ١١)، والتفسير المظهري (٦/ ٢٧٠ – ٢٧١)، وأضواء البيان (٢/ ٧٤ – ٧٥)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٣٨).

(٣) ينظر التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٧٩). قال ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧٤ – ٢٧٥): (وهذا الحق ثابت بالفطرة لأن من الفطرة أن الناشئ في أرض والمتولد بين قوم هو مساوٍ لجميع أهل ذلك الموطن في حق القرار في وطنهم وبين قومهم بالوجه الذي ثبت لجمهورهم في ذلك المكان من نشأة متقادمة أو قهر وغلبة لسكانه، كما قال عمر بن الخطاب: (إنما لبلادُهم، قاتلوا عليها في الجاهلية، وأسلموا عليها في الإسلام). ولا يزول ذلك الحق إلا بموجب قرره الشرع أو العوائد قبل الشرع).

(٤) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٩٢).

والإعلان به لا يضر غيرهم، فإخراجهم من ديارهم لأجل ذلك ظلم سافر، واستخدام للقوة لإنفاذ حكمٍ جائر[1].

(١٥٨٤)تدل الآية على أنه يحرم إخراج أحد من داره وبلده بغير موجب شرعي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾، أي أن إخراجهم كان باطلا.

(١٥٨٥)تدل هذه الآية على أنه يجوز القتال الإنسان لدفع المعتدين عن أرضه، وأنه في سبيل الله؛ لأن الله أذن في هذه الآية للمسلمين بالقتال لأنه أخرجوا من أرضهم، وكل قتال كان في إحقاق الحق، ودفع الظلم، وإقامة العدل الذي أمر الله به، فهو جهاد في سبيل الله، وكل مجاهد على نيته وقصده؛ فإن الله سمى الدفع عن الأرض والأهل والذرية قتالا في سبيله؛ فقال: ﴿وَقَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٦]. مع كونهم يقاتلون بسبب إخراجهم من ديارهم وأبنائهم، لا لإقامة حكم الله؛ وجهاد الدفع عن النفس والعرض والمال لا تشترط له نية[2]؛ لما جاء في الحديث: ((من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد))[3].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧٥).

(٢) ينظر التفسير والبيان (١/ ٥١١) و(٢/ ٨٧٩) و(٤/ ٢٣٧٢).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٩٠، رقم ١٦٥٢)، وأبو داود في سننه: (كتاب السنة، باب في قتال اللصوص، ح ٤٧٧٢، ٥/ ١٢٨ - ١٢٩)، والترمذي في سننه: (كتاب الديات، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله...، ح ١٤٢١، ٤/ ٣٠)، وقال: (حديث حسن صحيح)، والنسائي في سننه: (كتاب تحريم الدم، باب من قتل دون ماله، ح ٤٠٩٥، ٧/ ١١٦)، وابن ماجه في سننه: (كتاب الحدود، باب من قتل دون ماله...، ح (٢٥٨٠، ٢/ ٨٦١).

(١٥٨٦)تدل الآية على أن حرية التدين حق أساسي لا بد من ضمانه لكل إنسان، ولا سيما إذا كان الأمر يتعلق بعقيدة التوحيد والإيمان[١]. قال تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ٢١٧].

(١٥٨٧)تفيد الآية أن توحيد الله تعالى والإيمان به ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتمكين، لا موجب الإخراج والتسيير؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، أي بغير حق سوى التوحيد[٢]. وجاء في آية أخرى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [سورة الممتحنة: ١].

(١٥٨٨)تدل الآية بدلالة مفهوم المخالفة أنه قد يسوغ إخراج بعض الناس من ديارهم بحق؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، ويفهم منه أن ثمةَ إخراجًا بحق، كأن يكون عقوبة على جريمة كبرى كالحرابة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة المائدة: ٣٣].

(١٥٨٩) تفيد الآية أن من مسوّغات مشروعية القتال: الدفاعَ عن الحرمات وأماكن العبادات، فلولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء، لاستولى أهل الشرك على نواصي الأمور، وأشاعوا الفوضى، ودمّروا مواضع العبادات، وتغلبوا على الحق في كل أمة[٣].

---

(١) ينظر التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٧٩).

(٢) ينظر محاسن التأويل (٧/ ٢٤٩). ذكر يحيى بن سلام في تفسيره (١/ ٣٨٠) أن الحسن البصري قال: (ما سفكوا لهم من دم، ولا أخذوا لهم من مال، ولا قطعوا لهم من رحم، وإنما أخرجوهم لأنهم قالوا: ربنا الله، كقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ (البروج: ٨)).

(٣) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٢٤)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٧٠)، والبحر المحيط (٧/ ٥١٦).

(١٥٩٠)تدل الآية على أن ما فطر عليه الناس من مدافعة بعضهم بعضا عن الحق والمصلحة هو سبب بقاء عبادة الله والمانع من فساد الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٥١][(١)].

(١٥٩١)تدل الآية على أن الله تعالى يدفع ظلم الكفار بجهاد المؤمنين لهم، وبذلك تستبقى دور العبادة، وهذا مما فسر به قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ [(٢)].

(١٥٩٢)تدل هذه الآية أن المقصد الشرعي من الجهاد هو إعلاء كلمة الله تعالى؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، فيه أن الله يدفع المشركين بالمؤمنين ليُقيم دينَه ويُعلي ذكرَه[(٣)]، ويؤكد ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله))[(٤)].

(١٥٩٣)تشير الآية إلى فضل الصحابة رضوان الله عليهم، لأن الله تعالى دفع بهم عن التابعين، فجاهدوا في سبيله، ونشروا الدين ومكنوا له في الأرض، وقد روي أن عليًّا رضي الله

---

(١) ينظر التفسير المنير (١٧/ ٢٣٣).

(٢) روى الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٧٨) عن ابن زيد، قال: في هذه الآية: (لولا القتال والجهاد).

(٣) ينظر التفسير والبيان (٤/ ٢٣٧١).

(٤) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في صحيحه: (كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ح ٢٦٥٥، ٣/١٠٣٤) وفي مواضع أخرى، وأخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ح ١٩٠٤، ٣/١٥١٣).

عنه قال: (إنما نزلت هذه الآية في أصحاب محمد، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ قال: لولا دفع الله بأصحاب محمد عن التابعين، لهدمت صوامع)[1].

(١٥٩٤)تدل الآية على فضل من يدفع الله به الظلم والأذى عن الناس، كالسلطان الذي كفّ به رعيته عن التظالم بينهم[2]؛ لأن كفَّ بعضهم ببعض عن التظالم من مشمولات قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾. أي لولا ذلك لتظالموا، فهدم الظالمون صوامع المظلومين ومعابدهم[3].

(١٥٩٥)تدل الآية أنه لولا أن الله يدفع بمن أوجب قبول شهادته الظلمة عن أخذ حقوق الناس، لتظالموا، ولأفضى الأمر بهم إلى هدم المعابد، وهذا من مشمولات الآية[4].

(١٥٩٦)تفيد الآية أن من السنن التي أجراها بين الخلق أن يدفع العذاب عن المقصرين بوجود الطائعين، ويتجاوز عن الأصاغر لِقَدْرِ الأكابر استبقاءً لأماكن العبادة[1]. ويروى أن قتادة قال: (يُبتلى المؤمن بالكافر، ويُعافى الكافر بالمؤمن)[2].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٧، رقم ١٣٩٦٨)، والطبري في تفسيره (١٦/ ٥٧٨).

(٢) قال الراغب الأصفهاني في تفسيره (١/ ٥١٤) لآية البقرة: (وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ تنبيهٌ على فضيلة الملك، وأنه لولاه لما استتب أمر العالم، ولهذا قال: الدين والملك مقترنان، وتوأمان لا يفترقان، ففي ارتفاع أحدهما ارتفاع الآخر، لأن الدين أُسّ، والملك حارس، وما لا أسّ له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع، وعلى ذلك قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ﴾ الآية. إن قيل: على أي وجه دفع الله الناس ببعضهم؟ قيل: على وجهين أحدهما: دفع ظاهر، والثاني دفع خفي، قال: فالظاهر، ما كان بالسواس الأربعة الذين هم الأنبياء، والملوك، والحكماء والوعاظ، فسلطان الأنبياء على الكافة خاصهم، وعامهم، وظاهرهم، وباطنهم، وسلطان الملوك على ظواهر الكافة دون الباطن وسلطان الحكماء على الخاصة دون العامة، وسلطان الوعاظ على بواطن العوام، وأما الدفع الخفي فسلطان العقل، فالعقل يدفع عن كثير من المقابح، وهو السبب في التزام حكم السلطان الظاهر).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٧٩).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٧٩). حيث روى عن مجاهد: أنه قال في هذه الآية: (دفع بعضهم بعضا في الشهادة، وفي الحق، وفيما يكون من قبل هذا. يقول: لولاهم لأهلكت هذه الصوامع وما ذكر معها).

(١٥٩٧)تشير الآية إلى أن المساجد قد تهدم هدما معنويا، لأن الهدم ضد العمارة، فالهدم الحسي ضد العمارة الحسية، والهدم المعنوي ضد العمارة المعنوية، والمراد تعطيلها من الصلاة والذكر[٣].

(١٥٩٨)فيها إيذان بأنّ طريق الدفاع الموعود به عن الأولياء وسبيل القهر والخذلان الموعود به للأعداء هو إذنه تعالى للمؤمنين في القتال، كما يدل على ذلك قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، لأن القتال في سبيل الله من أعظم المواطن التي تتجلى فيها رعاية الله وعنايته بالمؤمنين بما يفاض عليهم في تلك المواقف الرهيبة من النصر والتأييد، وتثبيت قلوبهم، وإمدادهم بالأسباب الحسية والمعنوية على ما عرف وتواتر من نفحات الله لهم في مواطن الحرب وميادين القتال[٤].

(١٥٩٩)في الآية إشارة إلى أن الغاية من القتال ينبغي أن تكون – بعد دفع الاعتداء والظلم واستتباب الأمن – حماية الأديان كلها، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل ونصرة المستضعفين، لا الاستعلاء عليهم والظلم لهم[٥].

---

(١) ينظر لطائف الإشارات (٢/ ٥٤٩).

(٢) رواه يحيى بن سلام في تفسيره تعليقا (١/ ٣٨١)، وفسر هو الآية بقوله: (يدفع عن المؤمنين بدينهم ويدفع عن الكافرين بالمؤمنين). ونقل الماتريدي في تفسيره (٧/ ٤٢٤) عن بعضهم أنه قال: (لولا أن الله يدفع بمن يصلي عمن لا يصلي، وبمن يصوم عمن لا يصوم، وبمن يحج عمن لا يحج، وبمن يزكي عمن لا يزكي، وبمن يفعل الخيرات عمن لا يفعل – لفسدت الأرض، ولهدمت الصوامع، وما ذكر، وعلى ذلك روي عن أبي الدرداء – رضي الله عنه – أنه صلى بأهل دمشق صلاة الصبح، فقال: لو يعلم الناس ما في هذه الصلاة من الخير لحضروها. ثم قال: لولا أن الله يدفع بمن يحضر المساجد عمن لا يحضرها، وبالغزاة عمن لا يغزو – لجاءهم العذاب قبلا. أو كلام نحو هذا. وقال الحسن: إن في الصوامع والبيع والكنائس من الرهبان والأحبار من يتمسك بالإسلام وشرائعه، فيدفع بهم عمن لا يتمسك منهم). إلا أن ابن عطية رد حمل الآية على هذا المعنى (٤/ ١٢٥) وقال: (وهذا وما شاكله مفسد لمعنى الآية، وذلك أن الآية تقتضي ولا بد مدفوعا من الناس ومدفوعا عنه، فتأمله).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٧٢).

(٤) ينظر تفسير آيات الأحكام (ص٥١٧).

(٥) ينظر تفسير المنار (١١/ ٢٢٩).

(١٦٠٠)في الآية دلالة على تحريم هدم كنائس أهل الذمة وبيعهم وصوامع رهبانهم، أو معابد من لهم عهد[(١)]، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، وقد روي عن الحسن البصري أنه فسرها بقوله: (يدفع عن هدم مصلَّيات أهل الذّمة بالمؤمنين)[(٢)]، وعلى ذلك تُركت الكنائس والبيع في أمصار المسلمين لم تهدم[(٣)].

(١٦٠١)تدل الآية بدلالة التضمن أن حرية العبادة مكفولة لليهود والنصارى في بلاد الإسلام[(٤)]؛ لأن الله تعالى وجه المسلمين إلى حماية معابد أصحاب الرسالات السماوية، وذلك يتضمن السماح لهم بأداء عبادتهم فيها وتمكينهم منها.

(١٦٠٢)تدل الآية بدلالة الالتزام أن حرية اختيار الدين مكفولة في الإسلام[(٥)]؛ لأن الله تعالى لا يدفع عن معابد اليهود والنصارى بالمسلمين إلا إذا تم إقرارهم على أديانهم داخل بلاد الإسلام.

---

(١) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٨٣)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٧٠)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٩٣).

(٢) أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٨٣)، والكشف والبيان (٧/ ٢٦). وعلق ابن القيم في أحكام أهل الذمة (٣/ ١١٦٩) على أثر الحسن فقال: (وهذا ظاهر اللفظ ولا إشكال فيه بوجه، فإن الآية دلت على الواقع، لم تدل على كون هذه الأمكنة – غير المساجد – محبوبة مرضية له، لكنه أخبر أنه لولا دفعه الناس بعضهم ببعض لهدمت هذه الأمكنة التي كانت محبوبة له قبل الإسلام وأقر منها ما أقر بعده، وإن كانت مسخوطة له كما أقر أهل الذمة، وإن كان يبغضهم ويمقتهم ويدفع عنهم بالمسلمين مع بغضه لهم.

وهكذا يدفع عن مواضع متعبداتهم بالمسلمين وإن كان يبغضها، وهو سبحانه يدفع عن متعبداتهم التي أقروا عليها شرعا وقدرا، فهو يحب الدفع عنها وإن كان يبغضها، كما يحب الدفع عن أربابها وإن كان يبغضهم. وهذا القول هو الراجح إن شاء الله تعالى، وهو مذهب ابن عباس في الآية).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٢٥)، أما دار الحرب فقد ذكر الجصاص في أحكام القرآن (٥/ ٨٣) أنه يجوز للمسلمين أن يهدموها كما يهدمون سائر دورهم.

(٤) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٢٤)، زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٩٣).

(٥) ينظر تفسير المنار (١١/ ٢٢٩)، والتيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٨٠).

(١٦٠٣)في الآية إشارة صريحة إلى وجوب حماية المسلمين لأهل الملل الأخرى ولمعابدهم القائمة في بلدانهم، وأنه كما لا يسمح بالاعتداء على المساجد لا يسمح بالاعتداء على معابدهم ومقدساتهم[(١)]؛ وذلك لأن الله تعالى ذكر في هذه الآية جملة من معابد الملل الأخرى إلى جانب المساجد التي هي بيوت الله، وأتى بها جميعا في سياق واحد دلالة على أن لها الحرمة نفسها.

(١٦٠٤)في الآية دليل على أن حماية حرية العبادة من المسوغات الشرعية للقتال في الإسلام، فلا يُمنع أحد من إقامة شعائر دينه، ولا يُكره على تغيير ملّته. ويؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [(٢)].

(١٦٠٥)في الآية دليل على أنه لا بُدَّ أن يخصص المسلمون أماكن معينة لإقامة الصلوات والتعبد لله في كل موضع، وإنْ جُعِلَتْ لهم الأرض كلها مسجداً وطَهُوراً. ويؤخذ هذا من نسبة الهدم إلى المساجد، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ [(٣)]، والبناء هو الذي من شأنه أن يهدم، ولذلك رغب النبي

---

(١) ينظر تفسير المنار (١١/ ٢٢٩)، والتيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٨٠). وقد لخص العليمي في فتح الرحمن (٤/ ٤٣٣) أقوال العلماء في شأن معابد أهل الذمة فقال: (واتفق الأئمة على منع أهل الذمة من إحداث الكنائس والبيع في بلاد الإسلام فيما اختطه المسلمون من الأمصار، وما فتح عنوة، واتفقوا على جواز ذلك فيما شرطوه فيما فتح صلحًا على أنه لنا، واختلفوا في إعادة المنهدم منها، فقال أبو حنيفة والشافعي: يجوز إعادته، وقال مالك وأحمد: لا يجوز، قال أحمد: ولو هدم ظلمًا، وأما رمّ المتشعث منها، فيجوز عند الثلاثة، وعند مالك: إن اشترطوه جاز، وإلا فلا).

(٢) ينظر غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، للدكتور يوسف القرضاوي (ص: ١٧).

(٣) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٤٤).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم في بناء المساجد فقال: ((مَنْ بنى لله مسجداً ولو كمِفْحَصِ قَطَاة أو أصغر بنى الله له بيتاً في الجنة))[1].

(١٦٠٦)يؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۚ﴾ أن الأماكن التي تؤدى فيها بعض الصلوات، أو تؤدى فيها الصلوات كلها أحيانا، ويعمل فيها مع ذلك ببعض الأمور الدنيوية، ليس لها حكم المسجد[2]؛ لأن المساجد لا تطلق إلا على بيوت العبادة التي خصصت لأداء الصلوات الخمس وذكر الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار.

(١٦٠٧)في هذه الآية إشارة إلى أنه سيكون للمسلمين مساجد تعمر بالمصلين والذاكرين الله كثيرا فيها، لأن هذه الآية نزلت في أوائل الهجرة النبوية كما تقدم، ولم تكن آنئذ مساجد متعددة، فحين يقول تعالى: ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۚ﴾، فكأن الله

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه في سننه من حديث جابر: (كتاب المساجد والجماعات، باب من بنى لله مسجدا، ح ٧٣٨، ١/٢٤٤)، وصحح البوصيري إسنادَه في الزوائد (١/٩٤)، وابن خزيمة في صحيحه (كتاب الصلاة، باب في فضل المسجد وإن صغر المسجد وضاق، ح ١٢٩٢، ٢/ ٢٦٩). وأخرجه أحمد في مسنده من حديث ابن عباس (١/ ٢٤١، رقم ٢١٥٧)، قال أحمد شاكر (٢/ ٥٤٧): (إسناده ضعيف، لضعف جابر الجُعفي)، وأخرجه من حديث أبي ذرّ: الطيالسي في مسنده (ص ٦٢، رقم ٤٦١)، وابن حبان في صحيحه (المساجد، ذكر الخبر الدال على أن الله جل وعلا يدخل المرء الجنة ببنيانه موضع السجود في طرق السابلة، ح ١٦١٠ و١٦١١، ٤/ ٤٩٠ – ٤٩١)، والطبراني في المعجم الصغير (٢/٢٤٦، رقم ١١٠٥)، والبيهقي في سننه (أبواب القراءة، باب في فضل بناء المساجد، ح ٤٢٩١، ٢/ ٦١٣). و"مِفْحص قطاة": أي عُش يمامة. وفي حديث آخر: ((من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة))، أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الصلاة، باب من بنى مسجدا، ح ٤٣٩، ١/ ١٧٢)، ومسلم في صحيحه: (كتاب المساجد، باب فضل بناء المساجد، ح ٥٣٣، ١/ ٣٧٨).

(٢) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٤٥). وأضاف رحمه الله: (والمسجدية تعني: المكان من الأرض إلى السماء، بدليل أننا في بيت الله الحرام نصلي فوق سطح المسجد، ونتجه لجوِّ الكعبة، لا للكعبة ذاتها، لماذا؟ لأن جَوَّ الكعبة إلى السماء كعبة، وكذلك لو كنا في مخابئ أو في مناجم تحت الأرض؛ لأن ما تحت الكعبة من الأرض كعبة. وكذلك في المسْعَى مَسْعَى. إذن: المسجد ما حُكِر للعبادة، وخُصِّص للمسجدية من أرضه إلى سمائه، وهذا لا يُمارس فيه عمل دنيوي ولا تُعقد فيه صفقة.. إلخ).

يبشر المؤمنين بأنّ دينهم سيعم الأرض وسيكثر المسلمون وتكثر المساجد وتمتلئ بالمصلين والتالين والذاكرين[1].

(١٦٠٨)تشير الآية إلى أن المساجد أكثر عُمّارا وأكثر عبّادا من غيرها من معابد الأمم السابقة[2]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، وهذا ترقّ من الأدنى إلى الأكثر حتى انتهى إلى المساجد[3]، أو هو انتقال من شريف إلى أشرف؛ فإن البيَع أشرف من الصوامع لكثرة العباد فيها، فإنها معبد للرهبان وغيرهم، والصوامع معبد للرهبان فقط، وكنائس اليهود أشرف من البيع؛ لأن حدوثها أقدم، وزمان العبادة فيها أطول، والمساجد أشرف من الجميع؛ لأن الله تعالى قد عبد فيها بما لم يعبد به في غيرها[4].

(١٦٠٩)يؤخذ من هذه الآية فضيلة المساجد ومزيد شرفها على غيرها، وأن هدمها أعظم من هدم غيرها، لا يوصل إليه إلا بعد تجاوز ما يقتضي هدم غيرها، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾، فبدأ بأدنى المعابد وهي الصوامع لقلة العباد فيها، وختم بأشرفها وهي المساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيرًا، والقاعدة في العربية أن الترقي في الخطاب إلى الأعلى فالأعلى أبدًا في المدح والذم، والتفخيم والامتنان[5].

---

(١) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٤٥- ١٠٤٦).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٣٦).

(٣) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١١٩).

(٤) ينظر روح المعاني (٩/ ١٥٦).

(٥) ينظر الأجوبة الفاخرة للقرافي (ص٨٧ – ٨٨)، والجواب الصحيح (١/ ٢٤٠).

(١٦١٠)تدل الآية على أن المساجد أكثر المعابد التي يذكر فيها اسم الله تعالى؛ لأن الله قال: ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۚ﴾، والضمير يعود إلى أقرب مذكور[(١)]، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢﴾ [سورة النور: ٣٦ – ٣٧]. وفي الحديث: ((إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، وإنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن))[(٢)].

(١٦١١)تدل الآية على أن المقصود من معابد أهل الرسالات السماوية أن يذكر فيها اسم الله تعالى كثيرا، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۚ﴾، على القول بأن الضمير ﴿فِيهَا﴾ يرجع إلى كل ما تقدم[(٣)]، وذلك باعتبار ما كان عليه الأمر فيها قبل أن ينحرف أهلها عن دين الحق ويدخلوا فيه البدع والمحدثات[(٤)].

(١٦١٢)تومئ الآية إلى أن علة حماية الكنائس والبيع والصلوات أن اسم الله يذكر فيها على تعاقب الأزمنة، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۚ﴾، وفائدة هذا الوصف الإيماء إلى أن

---

(١) ينظر الأجوبة الفاخرة (ص٨٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، ح ٢٨٥، ١/ ٢٣٦ – ٢٣٧).

(٣) قال بعض المفسرين: إنه صفة للمواضع الأربعة المذكورة، فإن كلا منها يذكر فيه اسم الله في عصره الذي كانت شريعته فيه قائمة لم تنسخ، واستظهر هذا الرأي أبو حيان في تفسيره (٧/ ٥١٧). وقد روى الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٨٦) عن الضحاك بن مزاحم أنه قال في هذه الآية: (يقول: في كل هذا يذكر اسم الله كثيرا، ولم يخص المساجد). وبنحوه قال مقاتل في تفسيره (٣/ ١٢٩).

(٤) ينظر التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٨٠).

سبب عدم هدمها أنها يذكر فيها اسم الله كثيرا، دون أصنام أهل الشرك[1]. وعبر بالفعل المضارع دلالة على الدوام على مر العصور.

(١٦١٣)تفيد الآية على وجه في تفسيرها أن ذكر الله في موضع يزيده شرفا ويسبغ عليه حرمة ولو كان فيه أمور محرمة، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى في هذه الآية جعل للبيع والكنائس والصوامع حرمة، مع أنها قد يكون فيها ما يخالف مراد الله تعالى لأن اسمه سبحانه يذكر فيها كثيرا، وقد روي عن أبي العالية أنه قال: (﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾، قال: صوامع وإن كان يشرك به! وفي لفظ: إن الله يحب أن يُذكَر ولو من كافر)[2].

(١٦١٤)يفهم من الآية أن معابد المجوس والوثنيين ونحوهم من أصحاب الملل غير السماوية ليست لها حرمة، ولا يمتنع هدمها، لأن الله تعالى ذكر في هذه الآية معابد أهل الكتاب التي يذكر فيها اسمه سبحانه، ولم يذكر فيها المجوس والمشركين، إشارة إلى أن هؤلاء ليس لهم ما تجب حمايته[3].

(١٦١٥) تدل الآية على أن المقصود من الجهاد إقامة دين الله، وذب الكفار المؤذين للمؤمنين، البادئين لهم بالاعتداء، عن ظلمهم واعتدائهم، والتمكن من عبادة الله، وإقامة الشرائع الظاهرة[4].

(١٦١٦)تدل الآية على أن الجهاد مشروع، لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصود لغيره[5].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧٨ – ٢٧٩).

(٢) ذكره ابن القيم في أحكام أهل الذمة (٣/ ١١٧٠)، وعزاه لابن أبي حاتم، وذكر سنده إليه، ولا يوجد في تفسير ابن أبي حاتم المجموع.

(٣) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٢٥).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٩).

(٥) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٩).

(١٦١٧)تدل الآية على أن الحروب ليست كلها شرّاً؛ بل إنها تكون فضيلة من الفضائل حين تكون لردع المعتدين، وكف الظالمين، ونصرة الحق، والانتصار للمظلومين، فتنتج الخير والبركة والسمو للناس؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، أي لولا محاربة الكفار وأهل الباطل لهدمت المعابد ولعمّ الظلم والفساد(١).

(١٦١٨)تفيد الآية أنه تجب محاربة الباطل، ومقاومة الشر، ومدافعة الظلم، وإلا تحكم الفساد والطغيان، ولكان الناس تحت طاغوت مستمر، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (٢).

(١٦١٩)تدل الآية على أن المؤمنين بالله لا بد لهم من أن تكون لهم قوة يستطيعون الدفاع بها عن عقيدتهم(٣)؛ لأن الله تعالى أباح لهم القتال من أجلها وبين أنه لولا المدافعة لهدم أهل الباطل بيوت العبادة، وهذا يستلزم وجود قوة عسكرية يقتدرون بها على الدفاع عن دينهم وإرهاب عدوهم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ [سورة الأنفال: ٦٠].

(١٦٢٠)تفيد الآية بضميمة آية أخرى أن مُقوّمات الدين إنْ عُطلت في الأرض، وحورب المؤمنون، وهدمت أماكن العبادة، فهذا فساد عظيم لا تستقيم معه الحياة، وذلك لأن الله تعالى قال في آية أخرى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥١](٤).

---

(١) ينظر أوضح التفاسير (١/ ٤٠٦)، ولمحات في الثقافة الإسلامية (ص: ٢٦٥).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٩٣).

(٣) ينظر: الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه (ص: ١٠٤).

(٤) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٣٨).

(١٦٢١)تفيد الآية أن من سنن الله تعالى في خلقه التَّدافُع بين الناس، حيث يدفع ظلم بعضهم ببعض، وشر بعضهم ببعض، وإلا لتسلط الطغاة والجبارون، وتحكموا في الناس، فأهلكوهم، أو ساموهم سوء العذاب.

(١٦٢٢)تفيد الآية بضميمة آية أخرى أن التَّدافُع بين الإيمان والكُفر، والحَقّ والباطِل، والخَير والشَّر، والعَدل والظُّلم، سُنَّة ربانية ماضية في الكون، جعلها الله لصيانة ضروريات الخلق وحفظ التوازن في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٥١].

(١٦٢٣)تشير الآية إلى أن الحرب ضرورة من ضرورات الاجتماع الإنساني، ولازم من لوازم العمران البشري، لا بدّ منها لأجل ضمان سيادة الحقّ والعدل والأمان التام لأي مجتمع[(١)]؛ لأن الله تعالى بين أنه لولا القتال لهدمت المعابد ولانتشر الظلم وفسدت الأرض، ولذلك قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥١].

(١٦٢٤)تشير الآية إلى أن هدم بيوت العبادة من الفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾؛ وهذا تفسير لقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥١]، أو هو ذكر لنوع من الفساد[(٢)].

(١٦٢٥)تومئ الآية إلى عظم جرم الذين يقصفون المساجد ويقتلون الراكعين الساجدين ولو تحت مسمى الجهاد؛ لأن الله تعالى شرع الجهاد لحماية المساجد، لا لتدميرها.

---

(١) ينظر أوضح التفاسير (١/ ٤٠٦)، والتفسير الحديث (٦/ ٥٩).

(٢) ينظر تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٣٣).

(١٦٢٦)تشير الآية إلى أن القتال في سبيل الله مصلحة من المصالح الضرورية[١]؛ لأن الله تعالى بين أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض بالجهاد وغيره لهدمت المعابد[٢] وفسدت الأرض، وما يترتب على تركه الفساد العام ضروري، وما يحفظ الدين فهو من الضروريات.

(١٦٢٧)تدل الآية على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله، وعمرت مساجدها، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها، من فضائل المجاهدين وببركتهم، دفع الله عنها الكافرين، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٥١][٣].

(١٦٢٨)تفيد الآيات أن القتال في سبيل الله مشروع في الشرائع السابقة، ولولا إذن الله لهم به لهدمت معابد كل أمة في زمنها، ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾. أي لولا تسليطه المؤمنين منهم على الكافرين بالمجاهدة، لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم، وعلى متعبداتهم فهدموها، ولم يتركوا للنصارى بيعا، ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود صلوات[٤].

(١٦٢٩)يُهيب الله تعالى من خلال هذه الآية بأهل الأديان إلى التألب والتعاون على مقاومة أهل الشرك والكفر؛ لأن أهل الباطل يريدون محق الأديان كلها، وقد أذن لأتباع رسله أن يقاتلوهم ويحموا أنفسهم ومعابدهم، ولذلك أضاف الله تعالى الدفع لنفسه فقال: ﴿وَلَوْلَا

---

(١) ينظر تيسير اللطيف المنان (١/ ١٠٩).

(٢) روى الطبري (١٦/ ٥٧٨) وابن أبي حاتم (٢/ ٤٨١، رقم ٢٥٤٠) في تفسيريهما عن ابن زيد أنه قال في قوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١): (لولا القتال والجهاد).

(٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٩).

(٤) ينظر الكشاف (٣/ ١٦٠)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢٤) حيث قال ابن عطية: (هذا أصوب تأويلات الآية)، وينظر كذلك التفسير المنير (١٧/ ٢٣٣).

دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (١).

(١٦٣٠)تشير الآية إلى أن المفسدة الكبرى تدرأ بمفسدة صغرى، وذلك أن القتال فيه إراقة للدماء وإزهاق للأرواح، ومع ذلك أذن الله فيه من أجل دفع المفاسد الكبرى وهي هدم المعابد وإبادة المؤمنين والقضاء على الدين. وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [سورة البقرة: ٢١٦].

(١٦٣١)دلت هذه الآية أن مَنْ نصر دين الله وشريعته قولا وعملاً، فإن الله تعالى ينصره كائناً من كان، بما يهيئ له من الأسباب إجراءً له على الأمر المعتاد، وبغير أسباب خرقاً للعادة(٢). وقال الحسن: (من حكمه أن من نصر الله نصره)(٣). ومثله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [سورة محمد: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [سورة النور: ٥٥]، إلى غير ذلك من الآيات(٤).

(١٦٣٢)في الآية دلالة على أن كل من سعى ليقيم شريعة من شرائع الله فإن الله تعالى ينصره على إقامة ذلك إلى يوم القيامة؛ لأنه مندرج ضمن قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ (٥).

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧٧).

(٢) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤٣٤)، ونظم الدرر (١٣/ ٥٨).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٢٥).

(٤) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢٦٦).

(٥) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣١) وأضاف رحمه الله: (إلا أنه لا يقام في شريعة نبيٍّ إلا ما أتى به ذلك النبي، وينتهى عما نهى عنه)، وينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٢٥).

(١٦٣٣)في الآية دلالة على أن الله تعالى ينصر من نصر دينه بأنواع من النصر، وذلك بأن يقويه على أعدائه حتى يكون هو الظافر وبإيضاح الأدلة والبينات، وبالإعانة على المعارف والطاعات[١].

(١٦٣٤)في الآية دلالة على أن الجزاء يكون من جنس العمل، لأن الله تعالى وعد من نصر دينه بأن ينصره. ومثله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ [سورة محمد: ٧][٢].

(١٦٣٥)تشير هذه الآية أن نصر الله تعالى لعبده يكون بمقدار نصر العبد لدينه سبحانه؛ لأن نصرة الله لعبده تكون بمعونته وكفايته، وكفاية الله تكون بمقدار عبودية العبد له سبحانه، وكلما ازداد تحقق الإنسان بالعبودية زادت كفاية الله له[٣]، كما قال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [سورة الزمر: ٣٦].

(١٦٣٦)تدل هذه الآية على أن الله تعالى ينصر من جمع بين الأسباب الشرعية والأسباب الكونية للنصر. أما الأسباب الشرعية فهي نصرة دين الله المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، وأما الأسباب الكونية فأشير إليها في الآية السابقة، وهو أن الله أذن للمسلمين بالقتال عندما كثر عددهم وازدادت قوتهم واستقلوا بموطن يجتمعون فيه وينحازون إليه. أما مكة فلم تجتمع لهم فيها الأسباب الكونية[٤].

(١٦٣٧)في هذه الآية ترغيب في الجهاد في سبيل الله تعالى بالسيف واللسان من حيث وعدهم بالنصر على أعدائهم فقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [٥].

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٠).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير (٧/ ٣١٠).

(٣) ينظر التفسير والبيان (١/ ٢٨١) و(٤/ ٢٣٧٣).

(٤) ينظر التفسير والبيان (٢/ ٨٨٦) و (٤/ ٢٣٧٩).

(٥) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٠).

(١٦٣٨)في الآية دعوة للتوكل على الله والاعتماد عليه وعدم التخوُّف من ضعف العدة أو قلة العدد[(١)]، لأن النصر من عند الله تعالى وحده، وقد قال في آية أخرى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾ [سورة آل عمران: ١٦٠].

(١٦٣٩)في الآية حضٌّ على التوسُّل إلى نصرة الله تعالى باتخاذ أسباب ذلك، وفي مقدمتها سؤالُ النصر من الله، وقصدُ نصرة دينه، والقيامُ بحق الإيمان والعمل الصالح، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [سورة النور: ٥٥][(٢)]. والله قادرٌ على نصرتهم بلا قتال، ولكنه يريد من المسلمين الأخذ بالأسباب التي ينتصرون بها، حتى لا تتواكل نفوسهم عن العمل لله ولدينه[(٣)].

(١٦٤٠)في الآية تنبيهٌ على الشكر على نعمة النصر بأن يأتوا بما أمر الله به من شرائع الإسلام، فإن بذلك دوامَ نصرهم، وانتظامَ عقد جماعتهم، والسلامة من اختلال أمرهم، فإن حادوا عن ذلك فقد فرّطوا في ضمان نصرهم وأمرهم إلى الله[(٤)].

(١٦٤١)تومئ الآية أن من ظن أن الله لا ينصر من ينصره فقد كذب بوعده سبحانه، فإن الله ينصر من ينصره بلا شك، ولكنه قد يمهل النصر، ويطيل طريقه بالصبر[(٥)].

---

(١) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٥١).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٠).

(٣) ينظر التفسير والبيان (٤/ ٢٣٧٢).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٠).

(٥) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ١٩).

(١٦٤٢)فيها إثبات صفة القوة لله تعالى كما يليق بجلاله سبحانه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥﴾.

(١٦٤٣)فيها إيماءٌ إلى أن المسلم ينبغي أن يكتسب القوة، لأن من التعبد بأسماء الله الحسنى التخلقَ بمقتضاها، والتخلق بمقتضى اسم الله القوي أن يكون المؤمن قويا في مرضاة الله تعالى، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((المؤمن القوي خير أو أفضل وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير...))[1].

(١٦٤٤)فيها إثباتُ صفة العزة لله تعالى كما يليق بجلاله سبحانه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥﴾.

(١٦٤٥)فيها إيماءٌ إلى أن طريق اكتساب العزة هو التعلق بالله والتمسك بحبله وتحقيق العبودية لله تعالى؛ لأنه هو العزيز الذي يعز أولياءه ويذل أعداءه، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [سورة فاطر: ١٠].

(١٦٤٦)فيها إيماء إلى أن العبد لا ينبغي له أن يلتفت إلى ما سوى الله تعالى، وألا يستنصر إلا بالله، لأنه لا يوجد من يماثله أو يشبهه في القوة والعزة، فقد وصف نفسه في هذه الآية بصيغة مؤكدة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥﴾.

(١٦٤٧)تومئ الآية إلى أنه مهما ابتغى أحدٌ العزة بغير طاعة الله فإنه لن ينال منها شيئا، ومن التمس العزة في تولي الكافرين فقد أخطأ السبيل إليها، ولذلك قال تعالى في آية أخرى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝١٣٩﴾ [سورة النساء: ١٣٩].

(١٦٤٨)في الآية إيماء إلى أن المسلم ينبغي أن يكون عزيزا على أعداء الله تعالى؛ لأن من التعبد بأسماء الله الحسنى التخلق بمقتضاها، والتخلق بمقتضى اسم الله العزيز أن يعتز على

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز...، ح ٢٦٦٤، ٤/ ٢٠٥٢).

الكافرين كما قال تعالى في شأن المؤمنين: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [سورة المائدة: ٥٤].

(١٦٤٩)تفيد الآية أنه لا ينبغي لأحد أن يتخاذل عن الجهاد لضعف أو ذلة؛ فإن ربهم معهم ما داموا يقاتلون في سبيله، وهو القوي الذي يقويهم، العزيز الذي يُعزهم. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [سورة المنافقون: ٨].

(١٦٥٠)تفيد الآية أنه لا ينبغي لأحد أن يغتر بقوة أو عزة، فإن الله هو القوي المتين، العزيز الذي لا يُغلَب، وكل الناس ضعاف أذلةٌ تجاه خالقهم عز وجل.

(١٦٥١)فيها إيماء إلى استحباب دعاء الإنسان ربَّه وسؤاله بهذين الاسمين الكريمين، لأن دعاءه تعالى بالأسماء الحسنى مطلوب، والله يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [سورة الأعراف: ١٨٠].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [سورة الحج: ٤١]:

(١٦٥٢)تشير الآية أن العبادات تجب على الإنسان بمقدار تمكُّنه في الأرض؛ فمن العبادات ما يتعلق بالفرد، ومنها ما يتعلق بالجماعة، وكلما ضعف تمكين الإنسان، تقلصت الواجبات عليه، حتى لا يجب عليه إلا ما يصح به إسلامه، وإذا زاد تمكينه زاد تكليفه[1].

(١٦٥٣)تومئ الآية أن من أقام التكاليف أكثرَ من قدر التمكين له في الأرض، لم يدُم تمكينه، ومن لم يعرف مقدار تمكينه، اضطرب في معرفة تكليفه؛ فإما أن يستعجل أحكاما لا

(١) ينظر التفسير والبيان (٤/ ٢٣٧٣).

تجب عليه؛ فيضر بنفسه وبدينه، وإما أن يتراخى في الإتيان بما يجب عليه؛ فيقصر في حق الله عليه[1].

(١٦٥٤)في الآية تنبيهٌ على أن المقصود من فعل الصلاة توفيةُ حقوقها وشرائطها، لا الإتيان بهيئتها، ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وهكذا كل موضع مدح الله بفعل الصلاة، أو حث عليه ذكر بلفظ الإقامة، لأنه ليس كل مصل مقيما للصلاة، ولم يقل المصلين إلا في المنافقين، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾ [سورة الماعون: ٤ – ٥][2].

(١٦٥٥)في الآية دليل على أنه من واجب ولاة الأمر أن يقيموا الصلاة في الناس، ويُقرِّروا كل ما يُعين على ذلك من بناء للمساجد وإقامة للمصليات وتنصيب من يعلم الناس أحكام الطهارة والصلاة؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

(١٦٥٦)في الآية دليل على أنه من واجب ولاة الأمر أن يقوموا بجمع زكاة الأموال الظاهرة، ويوظفوا العاملين لجمعها وتصنيفها وتوزيعها على مستحقيها، ويعاقبوا مانعيها، وينصبوا في الناس من يذكرهم بفريضة الزكاة ويعلمهم أحكامها.

(١٦٥٧)في الآية تنبيه على أن المقصود من الزكاة هو إيصالها إلى مستحقيها، ولا يكفي إخراجها من المال فقط، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، والإيتاء يدل على إعطاء الزكاة وتمليكها للفقراء وغيرهم من المستحقين.

---

(١) ينظر التفسير والبيان (٤/ ٢٣٧٣ و٢٣٧٨).

(٢) ينظر المفردات (ص: ٤٩١ – ٤٩٢)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٥٩).

(١٦٥٨)فيها دلالة على أنه ما كان حُسنه معروفا عند جميع الناس ولم يرد نهي عنه في الشريعة فلا بد من الأخذ به، لأن الله تعالى قال: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، والمعروف هو كل ما عرف حسنه شرعا وعقلا[١].

(١٦٥٩)فيها دلالة على أن ما كان مُستنكَرا عند جميع الناس فلا بد من تركه ولو لم يرد نهي صريح عنه في الشريعة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَنَهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۖ﴾، هو ما يستقبحه أهل العلم والعقل السليم[٢].

(١٦٦٠)في الآية دليل على أنه لا يتحقق الوعد من الله بالنصر، إلا مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالذين يمكن الله لهم في الأرض ويجعل الكلمة فيها والسلطان لهم، ومع ذلك لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، غير موعودين بالنصر من الله[٣].

(١٦٦١)تفيد الآية أن التمكن في الأرض والحكم فيها ينبغي أن تكون غايته هي إقامة الصلاة المزكّية للأنفس، وإيتاء الزكاة المصلِحة للأمور الاجتماعية والاقتصادية، والأمر بالمعروف الشامل لكل خير ونفع للناس، والنهي عن المنكر الشامل لكل شر وضر يلحق صاحبه أو غيره من الناس[٤].

---

(١) ينظر المفردات (ص: ٥٦١)، وروح البيان (٦/ ٤١)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٧١)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٥٩).

(٢) ينظر روح البيان (٦/ ٤١)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٧١)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٥٩ - ٣٦٠).

(٣) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢٦٦).

(٤) ينظر تفسير المنار (١١/ ٢٣٠). وقد نقل القرطبي في تفسيره (١٢/ ٧٣) أن الضحاك قال: (هو شرط شرطه الله عز وجل على من آتاه الملك).

(١٦٦٢)في الآية أخذ العهد على من مكّنه الله أن يفعل الأمور الأربعة التي رتبها على التمكين، وهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[١].

(١٦٦٣)تفيد الآية أنه من ادعى أنه ينصر الله وينصر دينه، ولم يتصف بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذا الوصف، فهو كاذب، لأن الله تعالى ذكر علامة من ينصره، فقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ (٢).

(١٦٦٤)تفيد الآية أن مقصود جميع الولايات إصلاح الناس وحفظ دينهم، فالولاة إنما نصبوا من أجل إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٣]؛ لأن جماع الدين أمرٌ ونهيٌ؛ (والأمر الذي بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف، والنهي الذي بعثه به هو النهي عن المنكر)[٤].

(١٦٦٥)تفيد الآية أنه يجب على الحكام الذين مكنهم الله من رقاب العباد أن يأمروهم بالمعروف، وأن ينهوهم عن المنكر، ويغيروه بأيديهم؛ لأن الله تعالى أخبر عنهم في معرض الثناء فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾؛ فقرنهما بالصلاة والزكاة إشارة إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان[٥].

---

(١) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٢٦)، والبحر المحيط (٧/ ٥١٨).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٠).

(٣) ينظر الأحكام السلطانية للماوردي (ص ٥)، والحسبة والسياسة الشرعية لابن تيمية بمجموع الفتاوى (٢٨/ ٦١ و٢٦٢)، والطرق الحكمية لابن القيم (٢/ ٦٢٣).

(٤) ينظر مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٥).

(٥) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣١)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤٣٦)، والنكت الدالة على البيان (٢/ ٣٢٨)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٥٩). وقد ذكر مكي في الهداية (٧/ ٤٩٠٤) والقرطبي في تفسيره (١٢/ ٧٣) أن سهل بن عبد الله قال: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على السلطان وعلى العلماء الذين يأتونه...)، وبهذا المعنى رواه البُستي (ص ٣٧٤) عن الحسن البصري. وذكر ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٣٧) أن عمر

(١٦٦٦) تفيد الآية أنه يجب على الحكام الذين مكَّنهم اللهُ في الأرض من فرض تعلم أحكام الشريعة التي يعرف الناس بها المعروف والمنكر، لأن الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر لا يتمُّ إلا بذلك، وما لا يتم الواجب به إلا فهو واجب[(١)].

(١٦٦٧)تفيد الآية أنه يجب على من له ولايةٌ على الناس أن يقيموا الحدود وينفذوا العقوبات التعزيرية فيمن ترك الواجبات أو فعل المحرمات، لأن النهي عن المنكر يتوقف على ذلك، وما لا يتم الواجب به إلا فهو واجب[(٢)].

(١٦٦٨)تفيد الآية أنه يجب على ولاة الأمر أن ينصب أناسًا في كل موضع ليقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كالدعاة والخطباء والمحتسبين، ويمدهم بما يعينهم على ذلك؛ لأنه لا يتمكن من القيام بهذا الواجب إلا بالاستعانة بطائفة من الناس القادرين على ذلك المؤهلين له، وما لا يتم الواجب به إلا فهو واجب[(٣)].

(١٦٦٩)في الآية إرشاد إلى أن النقد الحر أساسٌ في كيان الدولة الإسلامية، ولكنه منضبط ضوابط الشريعة، منوط بمقاصدها. ويؤخذ من أن الله تعالى جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأمور الربعة التي ينتهض بها من مكنهم في الأرض، وهما أساس النقد الحر[(٤)].

---

بن عبد العزيز خطب وقرأ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، ثم قال: (إلا أنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكرهة، ولا المخالف سرها علانيتها)، والمبزوزة: أي المنتزعة غلبةً (لسان العرب: ٥/ ٣١٢).

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٠).

(٢) ينظر المرجع السابق (ص: ٥٤٠).

(٣) ينظر المرجع السابق (ص: ٥٤٠).

(٤) ينظر التفسير الواضح (٢/ ٥٩١).

(١٦٧٠)تشير الآية إلى أربعة أسس للدولة الصالحة: ربط الصلة بالله المشار إليها بإقامة الصلاة في قوله تعالى: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي أتوا بها مقومة تمتلئ فيها القلوب بذكره سبحانه، وتستشعر خشيته ومحبته.

والثاني: التكافل الاجتماعي، وفي مقدمة وسائلها إيتاء الزكاة المذكورة بقوله تعالى: ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾. والثالث والرابع: إشاعة الخير والتعاون على المصالح، وتقليل الشرور ودفع المفاسد، وذلك يكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتكوين رأي عام يحث على الفضيلة، ويمنع الرذيلة، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ (١).

(١٦٧١)في الآية دلالة على أن الذين ينصرهم الله تعالى هم الذين يجعلون التمكن في الأرض وسيلة لإقامة شرع الله، لا لتحقيق مصالحهم الشخصية(٢)، ولذلك يمكن الله لهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

(١٦٧٢)في الآية إشارة إلى أن إقامة تلك الأمور الأربعة تحتاج إلى تعاون الأمة وتناصرها، وتحتاج إلى الجهاد بكل ألوانه لاستبقائها وحمايتها، لأن أهل الباطل لن يتركوا المسلمين يقيمونها حقا، فإن تركوهم يصلون فلن يمكنوهم من إقامتها لتكون الصلاة عنوانا للخروج من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد، ولتحررهم من شهواتهم وضعفهم وأطماعهم، وان تجعل منهم صفا متراصا لا يرضى بالضيم ولا يقبل الهوان(٣).

(١٦٧٣)في هذه الآية ذكرٌ لأسباب دوام التمكين وحفظه، فما من أحد يتم الله له تمكينه، ثم يقوم بحفظ شعيرة الصلاة في نفسه وفي الناس كما أمر الله، ويأخذ الزكاة ويقسمها

---

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٩٥)، والتفسير الحديث (٦/ ٥٩)، والتيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٨٢)، والتفسير الواضح (٢/ ٥٩٠ – ٥٩١)، وأيسر التفاسير (٣/ ٤٨١).

(٢) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ٢٠).

(٣) ينظر الحج في القرآن الكريم: د. عبد الفتاح عاشور (ص ٢٤).

بالعدل كما أمر الله، ويأمر وينهى على ما أمر الله، إلا دام تمكينه بمقدار حفظه لهذه الثلاثة، وبمقدار نقصها ينقص تمكينه[(١)].

(١٦٧٤)في الآية إشارة إلى أن أهل القلوب المنصورة إن مكّنهم الله في أرض البشرية أقاموا الصلاة في الظاهر، واستداموا المواصلات في الباطن، وآتوا زكاة الأحوال، وهي أن يكون من مائتي نفَس من أنفاسهم: تسعة وتسعون ونصف جزء ومائة لله، ونصف جزء من نفس- من المائتين- لهم[(٢)].

(١٦٧٥)يؤخذ من الآية أن المسلمين يجب أن يكونوا هذه الجماعة التي تحققت بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا لا يكون إلا إذا وجد علم ووعي وعمل يومي وخصائص معينة[(٣)]؛ لأن الله تعالى وصَف من يستحقون نصر الله الخاص بهذه السمات، وبين أنهم هم الذين إذا كان لهم السلطان ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾. ولا يقيمونها في ما يحكمون إلا إذا أقاموها في أنفسهم قبل ذلك.

(١٦٧٦)يؤخذ من هذه الآية أن تمكين المسلمين في الأرض مشروط بهذه الشروط الأربعة وما تفرع منها، فمتى توافرت كان لهم النصر والتمكين، ومتى أهملت أو أهمل بعضها حلّ بساحتهم الخذلان والتفكك، وزالت هيبتهم، وتسلط عليهم أعداؤهم إلى حين[(٤)].

---

(١) ينظر التفسير والبيان (٤/ ٢٣٧٨).

(٢) ينظر لطائف الإشارات (٢/ ٥٥٠)، وروح البيان (٦/ ٤١). وفيه خلاف ذلك: (وهي أن يكون من مائتي نفَس من أنفاسهم مائة وتسعة وتسعون ونصف جزء منها لهم، والباقي إيثار على خلق الله في الله).

(٣) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٧٢).

(٤) ينظر التفسير الواضح (٢/ ٥٩١)، والتيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٨٢).

(١٦٧٧)في الآية إيماء لطيفٌ إلى أن الذين وعدهم الله بنصره هم الذين يسعوْن إلى إشاعة ما يرضي الله في الأرض، لا أولئك الذين يبحثون عن السلطة والنفوذ والتحكم في رقاب العباد وخيرات الأرض.

(١٦٧٨)تشير الآية باستحضار سياق السورة العام أن أعظم معروف يؤمر به هو توحيد الله تعالى، وأعظم منكر يجب أن ينهى عنه هو الشرك بالله تعالى، ويؤيد هذا تفسير أبي العالية للآية حيث قال: (كان أمرهم بالمعروف أنهم دعوا إلى الإخلاص لله وحده لا شريك له؛ ونهيهم عن المنكر أنهم نهوا عن عبادة الأوثان وعبادة الشيطان. قال: فمن دعا إلى الله من الناس كلهم فقد أمر بالمعروف، ومن نهى عن عبادة الأوثان وعبادة الشيطان فقد نهى عن المنكر)[(١)].

(١٦٧٩)في الآية دلالة واضحة على صحة خلافة الخلفاء الراشدين[(٢)]؛ لأن الله تعالى بين صفات عباده المنصورين الذين يمكنهم في الأرض فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾. ولم يتصف بذلك من المهاجرين إلا الخلفاء الأربعة، فإنهم كانوا من الذين أخرجوا من ديارهم، وقد نصرهم الله، ومكّنهم في الأرض، فقاموا بالأمور الأربعة، فوجب أن يكونوا جميعًا على الحق[(٣)].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٨٨).

(٢) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٨٣)، وأحكام القرآن للكيا الهراسي (٤/ ٢٨٢ - ٢٨٣)، والكشاف (٣/ ١٦٠)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٣١)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٣). وبين الآلوسي وجه الاستدلال في روح المعاني (٩/ ١٥٧) فقال: (لأن الآية مخصوصة بالمهاجرين لأنهم المخرجون بغير حق، والممكنون في الأرض منهم الخلفاء دون غيرهم، فلو لم تثبت الأوصاف الباقية لزم الخلف في المقال تعالى الله سبحانه عنه، لدلالته على أن كل ممكن منهم يلزمه التوالي لعموم اللفظ، ولما كان التمكين واقعا تم الاستدلال دون نظر إلى استدعاء الشرطية للوقوع، كالكلام المقرون بلَعَلّ وعَسى من العظماء، فإن لزوم التالي مقتضى اللفظ لا محالة، ولما وقع المقدم لزم وقوعه أيضا).

(٣) وأضاف الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٣١): (ولا يجوز حمل الآية على علي عليه السلام وحده، لأن الآية دالة على الجمع).

(١٦٨٠)تدل الآية على أنه ينبغي للمسلم أن يحب المهاجرين من الصحابة رضوان الله عليهم؛ لأن الله تعالى ذكر صفتهم في هذه الآية مثنيا عليهم[١]، لأنهم الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، وعندما مكّنوا في الأرض قاموا بالأمور الأربعة[٢]، ومن أثنى عليه الله تعالى فينبغي أن نحبه.

(١٦٨١)في الآية إشارة إلى فضل الصحابة، لأن هذا نعت من الله لأصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن تبعه[٣]، ومدح لهم بالدوام على دين الله الذين قبلوه وأخذوه في حال الخوف بعد ما مكن لهم في الأرض، وآمنهم من ذلك الخوف الذي كان في الابتداء، وأخبر أنهم داموا على ذلك ولم يتركوا ما داموا عليه، بل زادهم حرصًا على ذلك وجهدًا، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [سورة النور: ٥٥] إلى آخر الآية[٤].

(١٦٨٢)في الآية ردٌّ على الروافض في دعواهم بأن الصحابة ارتدوا جميعًا لما ولي أبو بكر، وتركوا الدِّين الذي اختاروه، فالآيتان تدلان على نقض قولهم؛ لأن الله – عَزَّ وَجَلَّ –

---

(١) وعن عثمان رضي الله عنه: (هذا والله ثناء قبل بلاء)، أراد أن الله تعالى قد أثنى عليهم قبل أن يحدثوا في شأن الدين وإعلائه ما أحدثوا، أو قبل ظهور الشر فيهم من الهرج والفتن (ينظر البحر المحيط: ٧/ ٥١٨، وغرائب القرآن: ٥/ ٨٤، والبحر المديد: ٣/ ٥٣٨)

(٢) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٨٣)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٠).

(٣) روى ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٤٣، رقم ٣٧٠٩٢) عن عثمان بن عفان أنه قال: (فينا نزلت ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ (الحج: ٤١). فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا ربنا الله، ثم مكنا في الأرض؛ فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي). وقال أبو العالية: (هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم). والمراد أنهم أول من تصدق عليهم الآية.

(٤) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٢٦). وحقق الشنقيطي في أضواء البيان (٥/ ٢٦٦) أن الآية تشملهم وكلَّ من قام بنصرة دين الله على الوجه الأكمل.

أخبر أنه مكن لهم في الأرض، واستخلفهم، ووعدهم الجنة، وإنما ارتد من كان إسلامه بالقهر والغلبة، فإذا مكن لهم تركوا ذلك[1].

(١٦٨٣)في قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ دلالة على أن الذي تقدم ذكره من سلطنتهم وملكهم كائن لا محالة، وأن الأمور ترجع إلى الله تعالى بالعاقبة، فإنه سبحانه هو الذي لا يزول ملكه أبدا[2].

(١٦٨٤)في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ دلالة على أن عاقبة الأمور ستكون لأوليائه من النصر والقهر على أعدائه[3]. وقد أنجز الله تعالى وعده بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضَهم وديارهم[4].

(١٦٨٥)تفيد الآية أن من سلطه الله على العباد من الملوك، وقام بأمر الله، كانت له العاقبة الحميدة، والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه، فإنه وإن حصل له ملك مُوقَّت، فإن عاقبته غير حميدة، فولايته مشئومة، وعاقبته مذمومة، وذلك لأن الله قال: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [5].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الحج: ٤٢ – ٤٤]:

(١٦٨٦)تدل الآية على أن تكذيب الرسل والأنبياء ومن يقوم مقامهم من الدعاة إلى الله سنة مطردة في الخلق، فما من رسول بعث إلا وقد كذبه بعض من أُرسِل إليهم، وقد جاء

---

(١) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٢٦).

(٢) ينظر التفسير المنير (١٧/ ٢٣٤).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٢٦).

(٤) تفسير البيضاوي (٤/ ٧٣).

(٥) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٠).

هذا المعنى في آيات أخرى مثل قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [سورة فاطر: ٤][(١)].

(١٦٨٧)في الآية إشارة إلى أن من شأن الدعاة إلى الله أن يتعرضوا للتكذيب والاستهزاء والمعارضة؛ لأن الله تعالى ذكر أن الرسل عليهم السلام جميعا قد كذبهم أقوامهم مع إتيانهم بالمعجزات التي تدل على صدق دعواهم.

(١٦٨٨)فيها إيماء إلى أن الصادق قد يكذبه أكثر الناس؛ لأن الرسل كذبهم غالب أقوامهم مع أنهم أصدق الناس.

(١٦٨٩)فيها إيماء إلى أن الحق لا يعتبر بكثرة المصدقين به والمتبعين له، وإنما يعتبر بظهور حجته وبراهينه، ويؤخذ هذا من أن تكذيب الأقوام المذكورين في هذه الآية لرسلهم لا ينفي أن الرسل كانوا على الحق.

(١٦٩٠)تومئ الآية إلى فضل اختصار الكلام والإشارة إلى المعنى، لأن الله تعالى لم يصرح باسم محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يذكر من كذبه، ولا المكذبين بالرسل الآخرين، واستغنى بالإشارة إلى ما ذكر في آيات أخرى[(٢)].

(١٦٩١)تفيد الآية على أن الاغتمام مما يحصل من المكاره لا حرج فيه؛ لأن الله تعالى إنما سلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان يغتم بسبب تكذيب قومهم له[(٣)].

---

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٢٩)، والتفسير المنير (٧/ ١٨٥)، وأيسر التفاسير (٣/ ٤٨٣). وذكر الجزائري بعض أسباب ذلك فقال: (لها عواملها من أبرزها التقليد والمحافظة على المنافع المادية، وظلمات القلب الناشئة عن الشرك والمعاصي).

(٢) ينظر النكت الدالة على البيان (٢/ ٣٣٠).

(٣) ينظر النكت الدالة على البيان (٢/ ٣٣١).

(١٦٩٢)تدل الآية على أن التأسي بالمبتلين يهوّن المصائب ويحدث شيئا من السلوة عنها، ويُؤْذن بالفرج، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى سلّى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بمشاركة من مضى قبله من الأنبياء في تكذيب قومهم إياهم، واحتمال أذاهم[١].

(١٦٩٣)تومئ الآية مع استحضار آيات أخرى أنه يستحسن تكرار تسلية المحزون والمغموم، لا سيما مع ترادف أسباب الحزن والغم. ويؤخذ هذا المعنى من أن الله تعالى ذكر في هذه الآية ما ذكره في آيات أخرى[٢]، وحكمة ذلك أن يدفع غمه بهذه التسلية، لأن الحزن والأسف اللذين كانا يعرضان له – صلى الله عليه وسلم – من شأنهما أن يتكررا بتكرر سببهما، فكانت التسلية تتكرر في سُوَر متعددة، لتحصل له التسلية كلما قرأ وِرده من القرآن[٣].

(١٦٩٤)في هذه الآية إرشاد للدعاة إلى الصبر على المدعوّين والاقتداء بالرسل في ذلك[٤]، لأن الله خاطب قدوة الدعاة والمصلحين نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ﴾، (أي كان قبلك رسل كُذِّبوا، فصبروا إلى أن أهلك الله المكذبين، فاقتد بهم واصبر)[٥]. وقد صرح بوجوب هذا الصبر عليه تأسيًّا في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [سورة الأحقاف: ٣٥].

---

(١) ينظر النكت الدالة على البيان (٢/ ٣٣١)، والتفسير المنير (٧/ ١٨٥).

(٢) مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الأنعام: ٣٤)، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾ (فاطر: ٤). وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (فاطر: ٢٥)، وقوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ (فصلت: ٤٣) إلخ.

(٣) ينظر تفسير المنار (٧/ ٣١٥).

(٤) ينظر فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٤٢).

(٥) تفسير القرطبي (١٢/ ٧٣)، وينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣١).

(١٦٩٥)تومئ الآية إلى أن الدعاة والمصلحين لا بد أن يعتبروا بما ذكره الله في القرآن من حال الأنبياء مع أقوامهم، وبما لقيه النبي صلى الله عليه وسلم لكي يتعزّى بهم فيما يلقاه من الناس. ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [سورة هود: ١٢٠].

(١٦٩٦)فيها إشارة إلى أهمية دراسة التاريخ، لا سيما تاريخ حياة الأنبياء والرسل والمصلحين وأكابر العلماء الذي نفعوا الناس وأرشدوهم إلى أقوم السبل.

(١٦٩٧)تشير الآية إلى أن أعظم الرسل الذين يتأسى بهم هم الرسل السبعة الذين أشير إليهم في الآية، وهم: نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى، عليهم وعلى نبينا السلام. وذلك لأن الله تعالى خصهم بالذكر في هذه الآية دون غيرهم، ويؤيده أن الله تعالى فصل قصصهم في سور أخرى دون غيرهم، كما في سورة الشعراء مثلا.

(١٦٩٨)تدل الآية على سنة الإملاء للكافرين، فالله تعالى يمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة مكرًا بهم واستدراجا لهم[(١)]، وقد تقرر هذا في آيات أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٨٢ – ١٨٣].

(١٦٩٩)تدل الآية أن تأخير العقوبة الدنيوية خاص بالكفار؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾، فرتب الإملاء على وصف الكفر[(٢)].

(١٧٠٠)تومئ الآية إلى أن استحقاق الأقوام المكذبين لرسلهم للهلاك حاصل من وقت تكذيبهم، وإنما أخر لهم، ويؤخذ هذا من قول الله تعالى بعدما ذكر تكذيبهم للرسل: ﴿فَأَمْلَيْتُ

(١) ينظر النكت الدالة على البيان (٢/ ٣٣١).

(٢) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥١٩).

لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾، فأتى بالفاء التي تفيد التعقيب، دلالةً على أن الهلاك حق عليهم، ولكنه يؤخر عنهم[1].

(١٧٠١)تدل الآية على أن الله تعالى يعذب الذين يكذبون الرسل مع ظهور آياتهم بعذاب الاستئصال بعد إمهالهم وتأخيرهم زمنًا ليس بالقصير لعلهم يرجعون فيه إلى الله تعالى. فإذا اغتروا بتأخير العذاب عنهم، وازدادوا تكذيبًا وعنادًا، أخذهم الله أخذا أليما. وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾، فأتى بحرف "ثُم" الدال على التراخي، دلالةً على أن الأخذ حاصل بعد الإملاء بمهلة[2].

(١٧٠٢)تدل الآية بضميمة الحديث النبوي أن إمهال الظالم لا يعني إهماله وتركه بلا عقوبة، وإنما تُؤخَّر العقوبة ابتلاءً للعباد واستدراجًا لأهل الفساد، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله لَيُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلتْه، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [سورة هود: ١٠٢]]]))[3].

(١٧٠٣)تشير الآية كما أن الله تعالى حلم على المكذبين فأمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة فكذلك ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يصبر عليهم ويطيل نفسه في دعوتهم ولا يدعو عليهم بالهلاك؛ لأن الله تعالى إنما أمهلهم لحكمة، فلا بد من الرضا والتسليم وإن شقّ ذلك على النفس[4].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٤).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٤). وقد نقل ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٣٧) عن بعض السلف أنه ذكر (أنه كان بيْن قول فرعون لقومه: {أنا ربكم الأعلى}، وبين إهلاك الله له أربعون سنة).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب التفسير، سورة هود، باب: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾، ح ٤٤٠٩، ٤/١٧٢٦)، وأخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ح ٢٥٨٣، ٤/ ١٩٩٧)، واللفظ لهما.

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣١).

(١٧٠٤)تفيد الآية أن المسيء لا ينبغي أن يُعاقب من أول وهلة، وإنما يُنبّه على إساءته ويُوبَّخ على فعلته ويُحذَّر من عاقبته، فإذا ظهر منه الإصرار والعناد يعاقب على ذلك العقوبة الملائمة لجرمه[١].

(١٧٠٥)في الآية وعدٌ للدعاة إلى الله بالنصرة والتأييد وشفاء الصدور من المكذبين؛ لأن حاصل الآية أن الله تعالى قد نصر أولئك الرسل وعاقب المكذبين، فليصبر كل داعية إلى الله وليواصل الدعوة إليه حتى يصلوا إلى المبتغى أو يفتح الله بينه وبين المعاندين[٢].

(١٧٠٦)تشير الآية بضميمة نصوص أخرى أن أخذ الأمم المكذبة للرسل بالعذاب يخص الكفار المكذبين، أما المؤمنون المصدقون برسالة الرسل فإن الله تعالى ينجيهم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨﴾ [سورة هود: ٥٨]، وأمثالها من الآيات، وقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [سورة يونس: ١٠٢ – ١٠٣].

(١٧٠٧)في الآية وعيد للمكذبين برسالة النبي صلى الله عليه وسلم في كل زمان؛ لأن الله تعالى أخبر أنه أمهل المكذبين للرسل ثم عاقبهم، وكذلك يفعل بمن كذب النبي صلى الله عليه وسلم، إذ ما جرى على النظير يجري على نظيره عقلا وعادة وعدلا[٣].

---

(١) قال الماتريدي في تفسيره (٧/ ٤٢٧): (قال الحسن: إن الله لم يهلك قومًا بأول التكذيب، ولكن أمهلهم قرنًا فقرنا، وقوما بعد قوم، ورسولا بعد رسول، فعند ذلك إذا علم منهم أنهم لا يؤمنون أهلكهم، وإن كان يعلم في الأزل من يؤمن منهم ومن لا يؤمن حتى يعلم علم ظهور وعلم ابتلاء أنهم لا يؤمنون، وهو كقوله: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ﴾ (محمد: ٣١) علم ظهور في الخلق، وإن كان يعلم علم باطن وخفيّ).

(٢) ينظر حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٦٢).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٨٩)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢٣)، والتفسير المنير (١٧/ ٤٢٠).

(١٧٠٨)تفيد الآية بضميمة نصوص شرعية أخرى على أنه سبحانه قد يفعل بمن كذب رسالة النبي صلّى الله عليه وسلم كل ما فعل بالأقوام الآخرين الغابرين إلا عذاب الاستئصال، فإنه لا يفعله بهم[(١)].

(١٧٠٩)في الآية تنبيه للمسلمين على أن يبذلوا في تغيير المنكر منتهى استطاعتهم، فإن الله أنكر على الأقوام المذنبين للرسل بمعاقبتهم على ذلك بأشد العقاب، وعلى المؤمنين الاقتداء بصنع الله، واختير لفظ النكير، ليناسب ما تقدم في الآية السابقة من التنويه بالنهي عن المنكر[(٢)].

(١٧١٠)تفيد الآية أن الإنكار يقع بالعقاب الكلّي ويقع بغيره، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾، فعبر بلفظ النكير بدل لفظ العقاب الذي ورد في قوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الرعد: ٣٢]، ليشمل النكير العقاب الحسي وغيره من وجوه النكير، كسلب النعم، ومحق البركة، وغيرها[(٣)].

(١٧١١)تشير الآية إلى أن المكذِّب يُرجى أن يُؤمن وتصلح حاله، بخلاف المستهزئ فإنه لا يصلح؛ ويؤخذ هذا من أن الله تعالى ذكر الأقوام وتكذيبهم للرسل، وختم بقوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾، فعبر بلفظ النكير، بخلاف قوله حين ذكر

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣١). وقد نقل عن الحسن أنه قال: (السبب في تأخر عذاب الاستئصال عن هذه الأمة أن ذلك العذاب مشروط بأمرين: أحدهما: أن عند الله حدا من الكفر من بلغه عذبه ومن لم يبلغه لم يعذبه والثاني: أن الله لا يعذب قوما حتى يعلم أن أحدا منهم لا يؤمن، فأما إذا حصل الشرطان وهو أن يبلغوا ذلك الحد من الكفر وعلم الله أن أحدا منهم لا يؤمن، فحينئذ يأمر الأنبياء فيدعون على أممهم فيستجيب الله دعاءهم فيعذبهم بعذاب الاستئصال وهو المراد من قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ (يوسف: ١١٠)، أي من إجابة القوم، وقوله لنوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ (هود: ٣٦)، وإذا عذبهم الله تعالى فإنه ينجي المؤمنين لقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ (هود: ٦٦)).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٤ – ٢٨٥).

(٣) ينظر ملاك التأويل (٢/ ٢٨١).

المستهزئين بالرسل، فإنه قال: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ [سورة الرعد: ٣٢]، وختم بقوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٣٢﴾ [سورة الرعد: ٣٢]، والعقاب أشد موقعاً من النكير، فكأنه أشار إلى أن الاستهزاء جرم زائد على التكذيب من التهاون والاستخفاف، فناسبها الإفصاح بالعقاب. أما آية الحج فذكر التكذيب وحده، فناسبه لفظ لا يصرح بالعقوبة[(١)].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ٤٥﴾ [سورة الحج: ٤٥]:

(١٧١٢)تومئ الآيات أن اندثار الحضارات وخراب العمران إنما هو من الله تعالى، وما عدا ذلك من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والصحية والعسكرية ينفذ بها الله تعالى مراده. ويؤخذ لك من الله تعالى نسب الإهلاك في الآية إلى نفسه، فقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾.

(١٧١٣)في الآية دلالة على أن بعض الأقوام عجلت لهم العقوبة في الدنيا، فعذبوا بعذاب الاستئصال، فلم يبق منهم أحد.

(١٧١٤)تدل الآية على وجوب تجنب الظلم، لأنه سببٌ للهلاك؛ ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى بين أن سبب إهلاكه لأولئك الأقوام هو ظلمهم فقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾، أي بسبب ظلمهم، والمراد أعظم الظلم وهو الشرك بالله والتكذيب برسله[(٢)].

(١٧١٥)تفيد الآية أن استشراء الظلم وانتشاره في بلد من البلدان مؤذن بقرب نزول العذاب الدنيوي العاجل مهما بلغ ذلك البلد من تقدم حضاري واقتصادي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾، وقال فيما بعد: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ

---

(١) ينظر ملاك التأويل (٢/ ٢٨١ – ٢٨٢).

(٢) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢٦٩)، والتفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٥٣).

أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾. فجاء لفظ القرية مطلقا، ونسب الظلم إليها لا إلى أهلها إشارة إلى عموم الظلم في جميع ربوعها وكل كيانها[1].

(١٧١٦)تفيد الآية أن الله تعالى لا يعذب قوما حتى يكونوا قد تمادوا في سائر صور الظلم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الحج: ٤٥]، ولم يقل: ظالمةً، للإشارة إلى أن الهلاك جاءها، والظلم محيط بها لا تخرج عنه، ولأن التعبير بالحال يدل على التلبس به؛ ولأن كلمة "هي" لتأكيد الظلم، ففيه تكرار لذكر القرية[2].

(١٧١٧)تشير الآية أن موارد أخذ الماء لها أهمية عظيمة في المجتمعات البشرية، ولذلك تقع حولها مجموعة من الأنشطة، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله في الآية: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾. أي معطلة من الاستقاء منها ونحوه.

(١٧١٨)فيه دلالة على ألا يغتر الإنسان بقوته واقتداره وغناه؛ لأن الله تعالى أخبر أنه أهلك أهل القصور الرفيعة المزينة بالجص، فقال: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾، وفيه دليل على أن هؤلاء المهلَكين كانوا من أصحاب الغِنَى والنعيم، ومن سكان القصور وعِلْية القوم[3]. ومع ذلك لم يحمهم شدة بناء القصور ولا ارتفاعه، ولا إحكامها ولا حصانتها، عن حلول بأس الله بهم[4].

(١٧١٩)تومئ الآية إلى أنه يجوز اتخاذ القصور الشامخة؛ لأن الله تعالى ذكرها ولم ينعتها بوصف يدل على ذمها، فدل على أن بناءها وسكناها مباح، والله أعلم.

---

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٩٧).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٩٨).

(٣) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٥٩).

(٤) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٣٨).

(١٧٢٠)تفيد الآية إلى أن الإنسان يلزمه أن يعتبر بالآثار العمرانية للسابقين وأطلال المدن القديمة[١]، لا أن يتفرج عليها فحسب؛ لأنها تدل بدلالة اللزوم على أن سكانها قد ماتوا وأن أهلها قد هلكوا، فتركوها شاهدة على فناء الإنسان وقدرة الله الذي يحيي ويميت.

(١٧٢١)تفيد الآية أن دوام الحضارات واستمرار الأمم يكون بثباتها على الإيمان بالله واستقامتها على العدل، فإذا أخلت بذلك حلت بها العقوبات الإلهية المعجلة.

(١٧٢٢)تتضمن الآية بضميمة الآية التي تليها الدعوة إلى التنقيب عن القرى البائدة، والآبار والسواقي المعطلة والقصور المشيدة التي خلفتها الأمم السابقة، والبحث عن أسباب انهيارها ودمارها، للاتعاظ والاعتبار بذلك كله[٢].

(١٧٢٣)في الآية تنبيهٌ على أنه لا ينبغي أن تجعل العلوم التي تساعد على تحسين الحياة في الأرض غاية بذاتها، فنفرح بنتائجها وننصرف عن الغاية الكبرى وهي طاعة الله تعالى[٣]، ويؤخذ هذا من الأمم السابقة طوروا معارفهم فبنوا القصور الشامخة والآبار الواسعة وهيئوا سبل الانتفاع بها، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى أشار إلى أن السابقين بنوا القرى وشادوا القصور وحفروا الآبار وجهزوها بوسائل استخراج الماء ولكنهم لم يؤمنوا بالله ولم يتبعوا رسله فأهلكهم الله تعالى.

(١٧٢٤)تتضمن الآية وعيدا للمكذبين برسالة الرسول صلّى الله عليه وسلّم المعرضين عن دعوته. وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾ [سورة الطلاق: ٨ – ٩][٤]. وقوله تعالى: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۝١٠﴾ [سورة محمد: ١٠].

---

(١) ينظر صفوة التفاسير (٢/ ٢٦٨)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٤١).

(٢) ينظر الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها (ص: ٣٢٦).

(٣) ينظر أهداف التربية الإسلامية (ص: ٢٨٣).

(٤) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٢٢).

(١٧٢٥) تومئ الآية إلى أنه يجدر بالإنسان أن يستحضر عند اشتغاله بالعمران فناءه واندثار ما صنعه، فلا يبالغ في الانشغال به وزخرفته وتزويقه، قال الغزالي[١]: (فإن كان مشغولا بعمارة ضيعة فلينظر: كم من قرية أهلكها الله تعالى وهي ظالمة، فهي خاوية على عروشها بعد إعمالها؟ وإن كان مقبلا على استخراج ماء، وعمارة نهر؛ فلينظر: كم من بئر معطلة وقصر مشيد بعد عمارتها؟ وإن كان مهتما بتأسيس بناء؛ فليتأمل: كم من قصور مشيدة البنيان محكمة القواعد والأركان، أظلمت بعد سكّانها؟)[٢].

(١٧٢٦)في الآية تنبيه على أن من أساليب الدعوة النافعة التذكيرَ بمصير السابقين من الأفراد والجماعات[٣] الذين ظلموا أنفسهم وعصوا ربهم والترهيب من حلول عقوبة مثلها بالاستشهاد على ذلك بآثار محسوسة؛ لأن الله تعالى لم يكتف بذكر نبأ السابقين الذين عذبوا، وإنما دلهم على آثارهم الشاهدة على هلاكهم.

(١٧٢٧)في الآية إيماء إلى استحسان المحافظة على الآثار وعدم إزالتها ونقضها؛ لأن الله سبحانه وتعالى أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة، وما فعله بمكذبيهم من العقوبة، ليعتبر بها الناس[٤]، فلا ينبغي إزالتها.

---

(١) هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، حجة الإسلام، برع في المذهب الشافعي والخلافيات، والجدل والأصلين والمنطق والفلسفة، ولم يكن للشافعية في عصره مثله، تولى تدريس النظامية، ثم ترك ذلك وتجرد للعبادة، من تآليفه: الوسيط والوجيز، كلاهما في الفقه الشافعي، والمستصفى في علم الأصول، وإحياء علوم الدين، وغيرها، (ت ٥٠٥هـ). ينظر وفيات الأعيان: (٤/ ٢١٦)، وطبقات الشافعية الكبرى: (٦/ ١٩١ – ١٩٨).

(٢) نصيحة من الإمام أبي حامد الغزالي (ص: ٨).

(٣) ينظر الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى (٢/ ٤٩٩).

(٤) ينظر مجموع الفتاوى (٤/ ٢١٤)، وشرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية (ص: ١٥٠).

**هدايات قوله تعالى:** ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الحج: ٤٦]:

(١٧٢٨)في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حثٌّ على السياحة في البلاد، من أجل النظر في آثار الأمم الماضية والوقوف على أخبارهم، واستجلاء العبَر ممّا حلّ بهم ونزل بديارهم[(١)].

(١٧٢٩)في هذه الآية حثٌّ على التفكر فيما نشاهده وتدبر أسباب ما آلت إليه تلك الأمم والاعتبار به، وإنما ذكر السيرَ في الأرض لأنه يتوقف عليه[(٢)]. ونظيره قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الروم: ٩]، وقوله سبحانه: ﴿* أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [سورة غافر: ٢١].

(١٧٣٠)تعد هذه الآية أجمع الآيات لتكميل النفس بالسفر من طريق الدراية المستفادة بالنظر والاكتشاف والاعتبار، وطريق الرواية والتلقي عن أهل العلم والبصيرة والاختبار[(٣)].

(١٧٣١)تفيد الآية مشروعية التماس العبر واقتناصها من الآثار العمرانية والأحداث التاريخية[(٤)].

---

(١) ينظر تفسير النسفي (٢/ ٤٤٥)، وتفسير الإيجي (٣/ ٦٠).

(٢) ينظر روح المعاني (٩/ ١٥٩)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٩٩).

(٣) تفسير المنار (٨/ ٢٥٥ - ٢٥٦).

(٤) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٨٣).

(١٧٣٢)في الآية تنبيه على استحباب السفر والارتحال إذا كان بغرض النظر والتأمل للاتعاظ والاعتبار بأحوال الخلق وآثار الغابرين[١]، لأن الله تعالى دعاهم إلى ذلك في هذه الآية وغيرها، كقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [سورة الروم: ٤٢].

(١٧٣٣)في الآية دلالة على أن المرء ينبغي أن يقصِد من السفر تحصيل فوائده المهمة، ومن أهمها الاعتبار بأسباب انهيار الحضارات أو ازدهارها[٢].

(١٧٣٤)يستفاد من الآية أن شأن الأسفار أن تفيد المسافر ما لا تفيده الإقامةُ في الأوطان من اطلاعٍ على أحوال الأقوام وخصائص البلدان واختلاف العادات، فهي تفيد كل ذي همة في شيء فوائدَ تزيد همته نفاذا فيما تتوجه إليه، وأعظم ذلك فوائد العبرة بأسباب النجاح والخسارة[٣].

(١٧٣٥)في الآية ذم النظر إلى الآثار والمشاهد السياحية بغفلة عما وراءها من العظات والعبر؛ لأن الله تعالى بعدما دعاهم إلى السير في الأرض أشار إلى أن الذين يبصرونها ولا يعتبرون بها عُمْيُ البصائر.

(١٧٣٦)تفيد الآية أن طريقة الاعتبار بأخبار الأمم البائدة والحضارات المندثرة هي بالاستدلال بها على ترتب المسبَّبات على أسبابها[٤].

---

(١) ينظر حسن التنبه لما ورد في التشبه، لنجم الدين الغزي (١٠/ ٣١٧).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٨).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٨).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٨).

(١٧٣٧)تفيد الآية أن التفكر في السنن الكونية مطلوب من المسلم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾، فالسير في الأرض يقصد منه التفكر في الكون والخلق، سواء أكان السير في الأرض حسيا، أم معنويا بالتفكُّر[١].

(١٧٣٨)في هذه الآية إشارة إلى أن السير في الأرض لا يفيد منه صاحبه شيئا إلا إذا كان معه قلب مُتفتّح، يتلقّى المؤثّرات الخارجية، ويتأثّر بها، ويتفاعل معها؛ فإن لم يكن له هذا القلب اليقظ المتفتّح، فليفتح أذنه لدعوة الداعي ونذير المنذر. ولذلك قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[٢].

(١٧٣٩)تتضمن الآية الحث على تعرف أخبار الأمم وأخبار المدن والقرى البائدة، وما جرى منهم من ظلم، وما جرى عليهم من هلاك، وخراب أرضهم وديارهم[٣]، ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، أي على الأقل من لم يسافر ويشاهد بعينه فليسمع أخبارهم وليعتبر لها.

(١٧٤٠)في هذه الآية بضميمة ما قبلها دعوة إلى البحث العلمي التاريخي في الآثار والحفريات، لتبين ما تحمله من دلالات تدل على الأمم التي خلفتها، والانتفاع بما توصل إليه السابقون من مكتشفات علمية أو عملية، والاعتبار بما تتضمنه من عظات للأجيال المتلاحقة، إذ هي مظاهر لسنن الله الدائمة التي لا تبديل لها ولا تحويل[٤].

(١٧٤١)في الآية إشارة إلى أن الأبصار إنما هي سبيل لإدراك المبصرات، والأسماع سبيل لإدراك الأصوات، أما الانتفاع بما نبصره ونشاهده فيتوقف على العقل، فإذا لم نعمله فإننا لا ننتفع بما أبصرناه أو سمعناه؛ ويؤخذ هذا من أن الله تعالى جعل الذي لا ينتفع ببصره مع وجوده

---

(١) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٩٢).

(٢) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٥٢).

(٣) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٩٩).

(٤) ينظر الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها (ص: ٣٢٦).

وسلامته أعمى فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ (١).

(١٧٤٢)تشير الآية إلى أن الاعتبار بالمشاهدة أعظم وأقوى من الاعتبار عن طريق سماع الأخبار(٢)، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى قدم ذلك فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ﴾، واكتفى بذكر الآذان اكتفاء عن ذكر الأبصار لأن من المعلوم أن القلوب إنما تعقل عن طريق مشاهدة الآثار(٣).

(١٧٤٣)تومئ الآية إلى أن العين إنما تبصر الأشياء والذوات الحاضرة المحسوسة، وتقصر عن القلب والأذن، لأنه يعلم بهما ما غاب عن الإنسان، وما لا مجال للبصر فيه من الأشياء الروحانية والمعالم المعنوية. ولذلك ذكر الله القلب والسمع ولم يصرح بذكر البصر، فإن سياق الكلام هنا في أمور غائبة معقولة لا مجال لنظر العين فيها. ومثله قوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ﴾ [سورة الفرقان: ٤٤]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة ق: ٣٧]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الملك: ١٠](٤).

(١٧٤٤)تفيد الآية أن العقل هو فعل من الأفعال التي تجري في باطن الإنسان، ووظيفة من الوظائف التي يقوم بها، ولذلك جاءت في هذه الآية وغيرها جاءت بصيغة -الفعل وليس

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٣)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٩). وقد روى ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٨، رقم ١٣٩٨٣) عن قتادة أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: (أما هذه الأبصار التي في الرؤوس فإنها جعلها الله منفعة وبُلغة، وأما البصر النافع فهو في القلب).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٣).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٩).

(٤) ينظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٥٠ - ٥١).

الاسم، وهي لذلك باصطلاح المتكلمين عرَض لا جوهر، ولذلك وصف الله تعالى بها القلوب فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ (١).

(١٧٤٥)في الآية إشارة إلى أن طريق الوصول إلى الحق هو العقل والسمع، فمن لم يسلك أحد الطريقين فسيضل في الدنيا وسيعذب في الآخرة. كما قال تعالى حكاية عن أهل النار: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ [سورة الملك: ١٠] (٢).

(١٧٤٦)تفيد الآية أن سماع أخبار الأمم الغابرة لا ينفع إذا لم يصحبه التصديق، أما مع التكذيب فلا ينتفعون بما سمعوه، لأن الله تعالى أخبر بتكذيب الكفار للنبي صلى الله وعليه وسلم، وقد أخبرهم بأنباء كثير من الماضين، ولم يتعظوا بها لأنهم لم يصدقوها، وإنما ينتفعون بها لو آمنوا بالرسول وصدقوه (٣).

(١٧٤٧)تفيد الآية أنه لا فائدة للإنسان في السمع والبصر إلا إذا توافقت مع القلب الصالح، وإلا شارك فيها البهائم وصار من أهل النار. وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝١٧٩﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩] (٤).

(١٧٤٨)تفيد الآية أن العقل وظيفة من وظائف القلب، لأن الله تعالى نسب العقل إلى القلب (٥) فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾. وقال في آية

---

(١) ينظر مجموع الفتاوى (١١/ ٢٣١). وأهداف التربية الإسلامية (ص: ٥٨) وهذا ما يعنيه الماوردي حين قال في أدب الدنيا والدين (ص: ٢٠): (فدلَّت هذه الآية على أمرين: أحدهما: أن العقل علم، والثاني: أن محله القلب).

(٢) ينظر درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٩٤).

(٣) ينظر مجموع الفتاوى (١٦/ ١٨٢).

(٤) ينظر حسن التنبه لما ورد في التشبه (٣/ ٣٦٧).

(٥) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٢٧)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٤) و(٢٤/ ٥٣١)، وفتح الرحمن في تفسير القرآن (٤/ ٤٣٦)، وفتح القدير (٣/ ٥٤٤)، وأضواء البيان (٥/ ٢٧٥). وهذا قول أكثر الفقهاء، خلافا للأطباء الذين قالوا محل العقل الدماغ، وردّ ابن الفرس (٣/ ٣١١) هذا القول فقال: (استدل جماعة من العلماء بهذه الآية على أن

أخرى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩]، والمراد بالقلب اللطيفة الروحانية المتصلة بالقلب الحسي، لا المضغة الصنوبرية التي في الجسم[(١)].

(١٧٤٩)قررت الآية أن القلوب التي في الصدور مركز للتعقل والإدراك، وأن بها يعرف الخير من الشر، وقد تكرر هذا المعنى في آيات كثيرة من القرآن، فقد قال في آية أخرى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة محمد: ٢٤][(٢)].

---

العقل في القلب وردوا بذلك قول من زعم أنه في الدماغ، وهو قول مالك وليس في الآية حجة واضحة، لأنه لا ينكر أن يكون العقل لا يدرك شيئًا إلا بسلامة القلب. فمن شروط إدراكه صحته. فعلى ذلك يكون إضافة العقل إليه، مع أن هذه المسألة مما يصعب الاحتجاج على تصحيحها بالسمع لأنها معقولة). وحقق ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣ – ٣٠٤) أن منشأ التعقل ومبدأه من القلب ونهايته ومستقره ومنتهاه في الدماغ، وتبعه في ذلك ابن القيم في التبيان في أقسام القرآن (ص: ٤٠٤). والمعروف في الطب أن العمليات العقلية تجري في الدماغ، والذي يظهر لي أن هناك ارتباطاً خفيا بين الدماغ والقلب، فالدماغ يُدرك الأشياء بالحواس، أو بالتفكير فيها، ثم يعقلها القلب فيرفضها أو يقبلها، فترجع للدماغ مرة أخرى محملة بالقرار من القلب، ويرسل الإشارة اللازمة بسلوك معين، أو بقرار معين، بحسب ما جاء من القلب، ينظر التربية الإبداعية في منظور التربية الإسلامية (ص: ٤٥٦). وقد نقل ابن أمير الحاج في التقرير والتحبير (٢/ ١٦٢) عن صدر الإسلام قوله: (وهو جسم لطيف مضيء، محله الرأس عند عامة أهل السنة والجماعة، وأثره يقع على القلب، فيصير القلب مدركا بنور العقل الأشياء، كالعين تصير مدركة بنور الشمس وبنور السراج الأشياء، فإذا قل النور وضعف قل الإدراك وضعف، وإذا انعدم النور انعدم الإدراك).

(١) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٥٥)، والأساس في التفسير (٧/ ٣٥٧٥). قال الغزالي في الإحياء (٣/ ٣): (هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب، ولها علاقة مع القلب الجسماني، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته فإن تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان).

(٢) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٣١). وأضاف مؤلفوه: (ومن الأمور المعروفة طبيا: أن الأجهزة العقلية كلها في الدماغ، ولا تعارض بين ذلك وبين ما جاء في القرآن، فإن العقول لا غذاء لها إلا من القلوب، ولا تعمل إلا بمدد منها؛ فإذا انقطع عنها هذا المدد شلت وفسدت، وتعرض صاحبها للموت، بل إن القلوب هي مصدر الحياة للأجساد، فلا غرابة في أن يسند إليها ما يسند إلى رعيتها من مختلف الأجهزة الجسمية، ألا ترى أنهم يقولون: فتح الملك المدينة، مع أنه لم يفتحها سوى جنوده وقواده، وإنما صح إسناد الفتح إليه لأنه السبب الأول فيه، على أن

(١٧٥٠)تفيد الآية أن العمى الحسي لا يؤثر في شأن الدين وأمر الآخرة، وإنما الذي يؤثر فيه هو عمى البصيرة[١]، ولذلك قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾، وقد قال في آية أخرى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الإسراء: ٧٢].

(١٧٥١)تدل الآية على وجوب التفكر والتدبر[٢]. لأن الله تعالى أمر بالسير من أجله، فإذا كانت الوسيلة واجبة، فالمقصَد أشد وجوبا.

(١٧٥٢)تفيد الآية أنه يجب على العبد أن يحافظ على بصيرته مما يغشيها، كما يحفظ بصره وسمعه مما يعطلهما، وذلك بأن يتجنب مدمرات القلوب من الكذب والترهات والخرافات، والكبر والعجب والحب والبغض في غير الله[٣].

(١٧٥٣)تومئ الآية أنه يجب على العبد أن يسعى إلى تنوير بصيرته حتى يبصر الحق ويعتبر بالأحداث، ويتعظ بما أودعه الله في الكون من آيات، ويهتدي بما يسمعه في القرآن من الوصايا والعظات.

(١٧٥٤)تومئ الآية إلى أنه من أسباب حياة القلوب وانفتاح البصائر التفكر في عواقب الظلمة والمفسدين وما أحله الله بهم من العقوبات، قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

---

قلوبنا تحس تماما بضياء الحق فتستريح إليه وتنشرح صدورنا به، ولا شك أن هذا الانشراح والراحة القلبية يدلّان على أن في القلوب هدى وبصيرة، وأن الأمر ليس قاصرا على مراكز العقول في الدماغ).

(١) ينظر تفسير البغوي (٥/ ٣٩١). وقد روى يحي بن سلّام في تفسيره تعليقا (١/ ٣٨٢ – ٣٨٣) عن مجاهد أنه قال: (لكل عين، يعني لكل نفس أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه وعينان في قلبه لآخرته، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه لم يضره عماه شيئا، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه لم ينفعه شيئا. قال الله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]). وقد رواه أبو داود في الزهد (ص: ٣٩٨، رقم ٤٩٦) بمعناه عن خالد بن معْدان.

(٢) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٧٥).

(٣) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٨٣).

فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الحج: ٤٥ – ٤٦][(١)].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: ٤٧]:

(١٧٥٥)تدل الآية على أن استعجال نزول العذاب دأب الظالمين في كل حين، وسبيل الجاهلين في كل زمان؛ لأنهم يستبعدون وقوع ما يحذرهم منه الدعاة والمصلحون من أنواع العقوبات الإلهية[(٢)].

(١٧٥٦)تفيد الآية أنه يجب على الدعاة إلى الله تعالى أن يوطنوا أنفسهم على الصبر على المستهزئين بهم، الساخرين مما يدعونهم إليه، وألا يستغربوا من عدم تأثير الترهيب وإنذارهم بعذاب الله فيهم لأنهم يستبعدون حدوثه.

(١٧٥٧)تشير الآية إلى أن العجلة لا تستغرب من الإنسان؛ لأن ذلك من طبعه، وإنما الذي يستغرب هو استعجال الله ورسوله بالعذاب، فهذا حمق وطيش[(٣)].

(١٧٥٨)تفيد الآية أن ما توعد الله به الكفار من العذاب واقع لا محالة وإن تأخر أجله، لأنه لا يصح أن يخلف تعالى وعيده بحال[(٤)].

(١٧٥٩)تشير الآية إلى أن العاقل من شأنه أن يحترز مما فيه شر أو عذاب، وأن يسعى إلى فعل ما ينجيه منه ولو كان مظنونا، فما بالك لو كان مقطوعا به، ويؤخذ هذا من أن الله

---

(١) ينظر مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار، لعبد العزيز السلمان (٢/ ٣٠٠).

(٢) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٢٤).

(٣) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٢٥)، والتفسير الحديث (٣/ ١٣٨)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٢٤)، وأيسر التفاسير (٣/ ٤٨٦).

(٤) أضواء البيان (٥/ ٢٧٧).

تعالى أنكر عليهم استعجالهم للعذاب دلالة على أن ذلك مستنكر منهم حتى لو لم يقطعوا بنزوله.

(١٧٦٠)تقتضي الآية الخوف مما توعد الله به من أساء وعمل ولو ذرة من شر، لأن ما توعد الله به من العقوبة واقع، إلا إن تجاوز عن بعضهم بالمغفرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [سورة النساء: ٤٨].

(١٧٦١)تدل الآية على أن من سنن الله في خلقه عدمَ إخلاف وعده[(١)]. وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾ [سورة آل عمران: ٩].

(١٧٦٢)تفيد الآية أنه يجب تصديق الله تعالى والإيمان بما أخبر به من الأمور الغيبية، لأن الخُلْف في خبر الله تعالى ممتنع، فما أخبر الله بوجوده فهو موجود وإن لم ندركه، وما أخبر بوقوعه من الأمور المستقبلية فهو واقع لا محالة ولو بعد حين[(٢)].

(١٧٦٣)تدل الآية على حرمة الاستهزاء بأحكام الله، ووعده، ووعيده، وأنه يجب توقّي ما يفهم منه ذلك، فإن الله تعالى صادق في قوله، حكيم في فعله، وليس للعبد إلا تعظيمه وتعظيم كلامه[(٣)]، وقد تقدم في السورة أن التعظيم من تقوى القلوب.

(١٧٦٤)تفيد الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يأمن مكر الله تعالى؛ لأن الله ذم هؤلاء الذي استبعدوا نزول العذاب بهم مع كفرهم وظلمهم وإسرافهم في المعاصي، وقد أخبر بأنه لا يخلف وعده.

(١٧٦٥)تفيد الآية أنه يجب أن يحذر الظالمون من حلول عقاب الله، ولا ينبغي لهم أن يغتروا بالإمهال، فإن الله يمهلهم المدد الطويلة ولا يهملهم، حتى إذا أخذهم بعذابه لم يُفْلتهم[(٤)].

---

(١) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٧٠).

(٢) ينظر التفسير المنير (١٧/ ٢٣٦).

(٣) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٦٩).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤١).

(١٧٦٦)تومئ الآية إلى أنه لا ينبغي استعجال استجابة الدعاء على الظالمين، فالاستجابة ستتحقق ولو بعد حين، لأن ما نراه قد أبطأ وتأخر هو قريب عند الله تعالى، وألف سنة عندنا إنما هو كيومٍ عنده تعالى.

(١٧٦٧)تومئ الآية إلى أن الوعد بالخير لا ينبغي أن يُخلف أبدا، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى عبر عن الوعيد هنا بالوعد، ووعده سبحانه في هذه الآية هو إقامة الساعة والانتقام من أعدائه وإكرام أوليائه، دلالة على أنه لا يخلف، فالعرب تعدُّ الرجوع عن الوعد لُؤما، وعن الإيعاد كرما[١].

(١٧٦٨)في قوله تعالى: ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾، بثٌّ لمشاعر الطمأنينة في نفوس المؤمنين وسدٌّ لمنافذ اليأس؛ لأن المؤمن يعلم أن الله لن يخلف وعده بالدفاع والنصرة والتأييد والتيسير.

(١٧٦٩)تدل الآية إلى أن ما عند الله في الملكوت الأعلى يختلف تماماً عمّا في هذا الملكوت السُّفْلي[٢]، فقد بينت الآية أن اليوم عند الله تعالى يختلف عن اليوم بالمقاييس البشرية فقال: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: (حق لعظمة ربنا أن يكون قيراطه مثل أحد، ويومه كألف سنة)[٣].

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٣٩)، وقد نقل الواحدي في البسيط (٥/ ٦٦) وغيره أن أبا عمرو بن العلاء قال لعمرو بن عبيد المعتزلي في مناظرته له: إن العرب تعُدُّ الرجوع عن الوعد لُؤمًا، وعن الإيعاد كرَمًا، وأنشده قول الشاعر:

فإني وإن أوعدتُه أو وعدتُه... لَمُخلفُ إيعادي ومُنجزُ موعدي

وفي المعنى نفسِه قول الشاعر:

إذا وعد السرّاءَ أَنجز وعدَه... وإنْ وَعَدَ الضرّاءَ فالعَفْوُ مانِعُهْ

(٢) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٨٦).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١١/ ٤٤٥، رقم ٨٨٠٨).

(١٧٧٠)تدل الآية – على أحد الأقوال في تفسيرها – أن يوم الحساب مقداره ألف سنة من سنوات الدنيا[١]، وقد روي هذا عن ابن عباس[٢]، ويؤكده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسِ مئة عام))[٣]. وفي حديث آخر قال: ((إني لأرجو أن لا تعجَز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم. قيل لسعْد: وكم نصف ذلك اليوم؟ قال: خمس مئة سنة))[٤].

(١٧٧١) تدل الآية – على قولٍ في تفسيرها – على أن مقدار أيام الله التي يكون فيها خلقه وتدبيره، الواحد منها كألف سنة من أيام الدنيا. وقد قال ابن عباس في بيان المراد باليوم

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٣).

(٢) روى الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٩٧) عن ابن عباس أنه قال: (مقدار الحساب يوم القيامة ألف سنة). وروى عن مجاهد وعكرمة في تفسيره (١٦/ ٥٩٨)، أنهما قالا: (هذه أيام الآخرة)، وكلا الأثرين سندهما ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد في المسند من حديث أبي هريرة (٢/ ٣٤٣، رقم ٨٥٠٢)، وحسن الأرنؤوط إسناده في تحقيقه للمسند (١٤/ ٢٠٨)، وأخرجه الترمذي في سننه: (أبواب الزهد، باب ما جاء في فضل الفقر، ح ٢٣٥٣ و٢٣٥٤، ٤/٥٧٨)، وقال: (حسن صحيح)، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى (سورة الحج، قوله تعالى: {وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون}، ح ١١٢٨٥، ١٠/ ١٩٢)، وابن حبّان في صحيحه (كتاب الرقائق، باب الفقر والزهد والقناعة، ح ٦٧٦، ٢/ ٤٥١)، وقد صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢/ ١٣٤٢، رقم ٨٠٧٦). وأخرجه ابن ماجة بنحوه في سننه عن ابن عمر: (كتاب الزهد، باب منزلة الفقراء، ح ٤١٢٢، ٢/١٣٨٠).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ١٧٠، رقم ١٤٦٥)، وقال الأرنؤوط في تحقيقه للمسند (٣/ ٦٧): (حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مريم، ولانقطاعه)، وأخرجه أبو داود في سننه: (كتاب الملاحم، باب قيام الساعة، ح ٤٣٥٠، ٤/ ١٢٥)، (ورجاله ثقات لكن شريح بن عبيد لم يدرك سعيدا) كما ذكر الألباني في الصحيحة (٤/ ١٩٨). ويشهد له حديث أبي ثعلبة الخشني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم))، أخرجه أبو داود: (كتاب الملاحم، باب قيام الساعة،ح ٤٣٤٩، ٤/ ١٢٥). والحاكم (كتاب الفتن والملاحم، ح ٨٣٠٦، ٤/ ٤٧٠)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وتعقبه الألباني في الصحيحة (٤/ ١٩٧) بأنه على شرط مسلم وحده. ولذلك حكم لحديث سعد بالصحة في صحيح الجامع (١/ ٤٨٧، رقم ٢٤٨١).

في هذه الآية: (من الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض) [1]. وبه قال كعب، والضحاك.

(١٧٧٢)تدل الآية على أن الله تعالى حليم لا يعجل، فهو ليس كالخلق في الاستعجال واستطالة الزمان، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه تعالى بأنه قادر على تعذيب أعدائه، وأنه لا يفوته شيء وإن أمهلهم وأجّل معاقبتهم [2]؛ ولهذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

(١٧٧٣)تفيد الآية أنه ينبغي للمسلم أن يتصف بالحلم والأناة وعدم العجلة، سيما الدعاة ومن له ولاية على الناس، لأن الحلم من صفات الله تعالى، وقد وصف نفسه في هذه الآية بالأناة [3]، والله تعالى يحب من عباده أن يتخلقوا بصفاته، ويؤيده قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم– لأشج عبد القيس: ((إن فيك لَخَصلتين يُحِبُّهما الله عز وجل: الحِلمُ، والأَناةُ)) [4].

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٩٦)، وإسناده ضعيف، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره، ونقله عنه ابن كثير تفسيره (٥/ ٤٤٠).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٣٩) ينظر الكشاف (٣/ ١٦٣)، والسراج المنير (٢/ ٥٥٨)، وروح المعاني (٩/ ١٦١، ومحاسن التأويل (٧/ ٢٥٢)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤١)، وذلك (كما يقول الناس في الرجل البعيد الآمال، البطيء الأعمال، القليل الاستعجال: يومه سنَة) (آثار العلامة المعلّمي: ٢٤/ ٥١).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٩٩).

(٤) رواه مسلم في صحيحه: (كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ح ١٧، ١/٤٨)، ورواه الترمذي في سننه: (كتاب البر، باب ما جاء في التأني والعجلة، ح ٢٠١١، ٤/ ٣٦٦) وغيره.

(١٧٧٤)تبيّن الآية أن العاقل لا ينبغي أن يستعجل الشر أو العذاب، فإن يوما واحدا عند الله كألف سنة بسبب ما ينالهم فيه من العذاب والشدة، فلو عرفوا حال عذاب الآخرة، وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه[(١)].

(١٧٧٥)تفيد الآيات أن نزول العقوبات الإلهية المعجلة الدنيوية على الأقوام الذين يفشو فيهم الكفر والعصيان واقع بلا شك، وأنه قد يتأخر بحسب التقدير البشري. فما هو طويل عند الناس قصير عنده تعالى، وما يراه الناس بعيدا قريب في حكم الله، كما قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [سورة المعارج: ٦ – ٧]. ولذلك يصف تعالى يوم الحساب بالقرب: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [سورة الأنبياء: ١].

(١٧٧٦)تفيد الآية أن العبرة بالخواتيم والنهايات، فلوا أمهل الله الكفار زمنا طويلا وجعلهم يتقلبون في النعيم ثم أنزل عليهم العذاب، فإن تلك الملذات تنسى، كما قال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝٢٠٤ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٨٤ قَالُوٓا۟﴾ [سورة الشعراء: ٢٠٤ – ٢٠٧].

(١٧٧٧)تبين الآية أن حساب الأزمان في تقدير الله تعالى يخالف ما يقدره البشر. ويؤخذ هذا من قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[(٢)].

(١٧٧٨)تومئ الآية إلى أن تقدير اليوم يختلف من كوكب إلى كوكب، لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، أي مما يعده الناس، وهذا يومئ إلى أن اليوم عند غيرهم قد يكون مختلفا، وقد بيّن علماء الفلك أن اليوم هو الزمن الذي

---

(١) عزا الرازي هذا القول في تفسيره (٢٣/ ٢٣٤) إلى أبي مسلم، وقال: (وهو أولى الوجوه). ونقله النيسابوري في غرائب القرآن (٥/ ٨٩).

(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٣٠)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٢٤).

تستغرقه دورته حول نفسه، وهذا يختلف من كوكب إلى آخر، وهذا يشهد أن القرآن منزل من عند الخالق المحيط علما بكل شيء[(١)].

(١٧٧٩)تؤكد الآية – حسب نظر بعض الباحثين – النظريةَ النسبية التي مفادها: إن السرعة المطلقة في الكون هي سرعة الضوء، والضوء سرعته يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلٍ تقريبا[(٢)].

(١٧٨٠)تشير الآية إلى أن عواقب الأخطاء لا يلزم أن تحدث مباشرة بعد فعلها، بل قد تحدث بعد مدة طويلة. ويؤخذ هذا من أن الله تعالى بين أنه سينزل بهم العذاب بعد حين مع أنهم فعلوا ما يستوجبون نزوله بهم.

(١٧٨١)تفيد الآية أن الإنسان لا بد أن يخشى الله تعالى حق الخشية؛ لأن الآية أشارت إلى أن العصاة يعذبون في الآخرة في يوم مقدار ما يعذب به الإنسان ألف سنة من سنوات الدنيا، وذلك لما فيه من شدة وهول[(٣)]، ويؤخذ هذا من أن الله ذكر العذاب، ثم أتبعه بما يدل على مضاعفته، وأنه من شدته كعذاب ألف سنة، فقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

(١٧٨٢)تفيد الآية أن الطائعين ينعمون في يوم من أيام الآخرة بقدر ما يناله المنعَّم في ألف سنة من أيام الدنيا، لأن الآية أشارت إلى أن العذاب في دار الجزاء يضاعف، وكذلك النعيم يتضاعف[(٤)]. ولذلك جاء في الحديث: ((يُؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصْبَغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيتَ خيراً قط؟ هل مرَّ بك من نعيم

---

(١) الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٧٧).

(٢) ينظر موقع الإسلام اليوم: سرعة الضوء في القرآن الكريم: د. محمد بن إبراهيم دودح: https://www.islamtoday.net/bohooth/artshow-86-7147.htm.

(٣) واستحسنه مكي؛ ينظر الهداية (٧/ ٤٩١٠ – ٤٩١١)، والنكت والعيون (٤/ ٣٣)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٤)، ودرة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي (١/ ١٠٦٢).

(٤) ينظر النكت والعيون (٤/ ٣٣)، ودرة التنزيل (١/ ١٠٦٢).

قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويُؤتى بأشد الناس بؤساً من أهل الجنة، فيصبَغُ صَبْغَة في الجنة، فيقال له: يا ابنَ آدمَ، هل رأيتَ بؤساً قط؟ هل مرَّ بك مِن شدَّة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مرَّ بي بُؤس قط، ولا رأيتُ شدّة قط))[1].

(١٧٨٣)تشير الآية إلى أنه لا ينبغي للإنسان أن يفتح عليه باب الهموم والأكدار، فإن أيام الشدة تستطال وإن كانت قليلة، بخلاف أيام السرور فإنها تستقصر وإن كانت كثيرة، ويؤخذ هذا من أن بعض أهل المعاني[2] قالوا: معنى الآية: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ من أيام العذاب الذي استعجلوه في الثقل والاستطالة والشدّة ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، فكيف يستعجلونه؟[3]

(١٧٨٤)في الآية دلالة على عظيم قدرة الله تعالى، فاليوم عند الله – عَزَّ وجَلَّ – يسع أحداثاً كثيرة تملأ من الزمن ألف سنة من أيام الناس؛ لأن الناس يزاولون الأعمال ويعالجونها، أما الله سبحانه فإنه لا يزاول الأفعال بعلاج، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كُنْ فيكون[4].

(١٧٨٥)في هذه الآية دلالة على أن الكل بإرادة الله عز وجل، (وأن ما أراد الله فأسبابه متهيئة، يحصل في يوم بإرادته ما لا يحصل في ألف سنة بحسب فرضنا وتقديرنا)[5].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب صفات المنافقين، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، ح ٢٨٠٧، ٤/ ٢١٦٢).

(٢) ينظر: "معاني القرآن" للأخفش (٢/ ٤٥٢).

(٣) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٢٨)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤٤٧)، والكشاف (٣/ ١٦٣). وهذا المعنى وارد بكثرة في شعر العرب، كما ذكر أبو علي الفارسي في الحجة (٥/ ٢٨٣)، فمنها قول الشاعر:

تطاولت أيّام معنٍ بنا... فيوم كشهرين إذ يستهلُّ

وقول الآخر:

يطول اليوم لا ألقاك فيه... ويوم نلتقي فيه قصيرُ

وذكر الطيبي في فتوح الغيب (١٠/ ٢٤٢) قول القائل:

تمتع بأيام السرور فإنّها... قصارٌ وأيامُ الهموم طوالُ

(٤) ينظر: تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٦٥).

(٥) ينظر: غرائب القرآن (٥/ ٩٦).

(١٧٨٦)تفيد الآية باستحضار ما توصل إليه التقدم العلمي أن ما تقطعه القوى في يومٍ واحد يماثل تماما في دقة مذهلة ما يقطعه القمر في ألف سنة، بمقياس ما تُبنى على حركته السنة وفق ما يعدُّه العرب، وهي السنة القمرية؛ لأن الأصل أن يكون المشبَّهُ به هو الأقوى في وجه الشبه، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، على أن حد ما يُقطع في يوم لا يتجاوز مسافة ألف سنة، فيتأكد أن حد سرعة القوى المعبر عنها بسرعة الضوء لا يتجاوز في اليوم تلك المسافة[(١)].

(١) وبيانه أن سنة العرب هي المعتمدة في التشريعات الإسلامية كالحج وصيام رمضان وهي مبنية على حركة القمر حول الأرض في ١٢ دورة، وبهذا يتعين الجسم الذي يقطع المسافة في ألف سنة وتصبح (مما تعدون) معيارا للقياس تأكيدا لنسبية حركة الأجسام بلا حاجة لتعريف المعروف بجعلها تعريفا للسنة لأنها تعني مما تَحْسَبُون وتظنون وليست السنة عندهم محل ظن، والمعلوم فلكيا أن القمر يدور حول الشمس أثناء دورانه حول الأرض ولذا حركته بالنسبة للفراغ مركبة Compound، ولكن حركته حول الشمس لا يعاينها إلا مراقب خارج النظام ولذا يعدون الأرض ساكنة والقمر يدور حولها في دائرة كاملة الاستدارة ولا تلحظ العين المجردة نسبة تغير سرعته، وبهذا الاعتبار يتحقق فيزيائيا النظام المعزول.

وهكذا يتفق التعبير المذهل {مِّمَّا تَعُدُّونَ} فيزيائيا مع نسبية حركة الأجسام واختلاف وصفها تبعا لموقع الراصد لأن التعبير يقتضى التعيين لمتعدد، ولا يصح رياضيا قياس القيمة المطلقة للحركة بحركة نسبية غير ثابتة لجسمين تتغير باطراد إلا في النظام المعزول حيث تصبح الحركة مجردة والعلاقة ثابتة منذ بداية تكون نظام حركة الجسمين؛ والتعبير يجعل حركة القمر حول الأرض في نظام معزول لأن حركتيهما حول الشمس لا يعاينها إلا راصد خارج النظام، والراصد من الأرض يعد حركة القمر بمجرد النظر دائرة كاملة الاستدارة غير مدرك لنسبة تغير سرعته، وبهذا توفرت كل العناصر اللازمة لقياس حركة القوى بحركة جسمين وصيغت علاقة في نظام معزول كما هي كافة قوانين الحركة، فتأمل كيف تضمن القياس الدلالة بلفظ سنة على القمر الذي يبنى قوم النبي محمد عليه الصلاة والسلام وأتباعه على حركته السنة، وهو فلكيا أقرب الجيران ويتحرك بانتظام ومعرفتنا به أكثر من بقية الأجرام وحركته الفلكية هي الأنسب لوصف سرعة لا تناسبها مسافة على الأرض، وتأمل الدقة في تقييد حركة نسبية وفق ما يعدون مما يجعل القياس في نظام معزول!.

حد السرعة في الكون الفيزيائي = مسافة ألف سنة قمرية\يوم (في النظام المعزول في أي وقت منذ النشأة).

(١٧٨٧)تفيد الآية أن العاقل عليه أن يلاحظ أن كل آتٍ قريبٌ، ولا يغتر بالإمهال، فإن بطش الله شديد، وعذابه لا يطاق، وعليه أن يسارع إلى إرضاء الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه[١]، وهو حاصل التقوى الذي تدعو إليه السورة كلها.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [سورة الحج: ٤٨]:

(١٧٨٨)تدل الآية على أن من سنن الله الجارية أنه الكفار لا يفلتون من العذاب، وإنما يستدرجهم الله بنعمه وينسيهم عاقبة ظلمهم لأنفسهم، ينزل عليهم العقوبة على حين غفلة[٢]، فيهلكهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾. أي أمهل كثيرا من الأقوام ثم أهلكهم.

(١٧٨٩)تدل الآية أنه يجب على الأفراد والجماعات أن يجتنبوا الظلم، لأن الله يعجل عقوبته في الدنيا ولو بعد حين، وفي الحديث: ((مَا مِنْ ذنبٍ أجدرَ أن يُعَجِّلْ الله لصاحبه العقوبةَ في الدنيا، مع ما يُدَّخِر له في الآخرة: مثل البَغْي، وقطيعة الرَّحِم))[٣].

(١٧٩٠)تشير إلى أن الظالم لا بد أن يحذر من عقوبة الله تعالى له، وأن يكُفَّ نفسه عن الظلم، ويتحلل من المظالم التي فعلها، قبل أن يحيق به عذاب لا يتخلص منه بوجه من الوجوه.

---

(١) ينظر: تفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٦٨).

(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٣٠).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦/٥، رقم ٢٠٣٩٠)، والبخاري في الأدب المفرد: (باب عقوبة عقوق الوالدين، ح ٢٩، ٢٤/١)، وأبو داود في سننه: (كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، ح ٤٩٠٢، ٢٧٦/٤)، والترمذي في سننه: (كتاب صفة القيامة، باب رقم ٥٨، ح ٢٥١١، ٦٦٤/٤)، وقال: (حسن صحيح)، وابن ماجه في سننه: (كتاب الزهد، باب البغي، ح ٤٢١١، ١٤٠٨/٢)، وابن حبان في صحيحه (كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وقطعها، ذكر ما يتوقع من تعجيل العقوبة للقاطع رحمه في الدنيا، ح ٤٥٥، ٢٠٠/٢)، والحاكم في المستدرك: (كتاب التفسير، باب سورة النحل، ح ٣٣٥٩، ٣٨٨/٢) وصححه، وأقره الذهبي.

(١٧٩١)تشير الآية إلى أن العاصيَ لا بد ألّا يغتر بسلامته في الدنيا أو توالي النعم عليه مع إصراره على المعصية وتماديه في الجحود، فإن العذاب قد يتأخر إلى الأجل الذي جعله الله تعالى له.

(١٧٩٢)تشير الآية إلى أنه لا يُستدَلُّ بسلامة العاصي في الدنيا من الشرور، وتقلُّبه في ألوان المتاع، على أنه على حق، أو أن الله راضٍ عنه، وإنما الله تعالى يؤخر العقوبة عنه لعله يرجع ويتوب، أو يرجئ عذابه إلى الدار الآخرة، وفي الحديث: ((إذا رأيت الله يُعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج. ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [سورة الأنعام: ٤٤]))[(١)].

(١٧٩٣)تشير الآية إلى أن المظلوم لا بد أن يحسن الظن بالله، ويوقن بأنه تعالى سينتقم من الظالم وسيذيقه عاقبة ظلمه إن لم يتب منه، وألا يستعجل ذلك، فتأخر العذاب من باب الإمهال، لا الإهمال، كما جاء في الحديث الصحيح: ((إن الله لَيُمْلي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلِته))[(٢)].

(١٧٩٤)تفيد الآية أن العقوبة الدنيوية تكون بالغة في الزجر والردع حين تكون عقوبة مفاجئة بعد إمهال وإعذار؛ لأن الله تعالى إنما يؤخر العذاب إقامة للحجة على الخلق وفتحا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٤٥، رقم ١٧٣٤٩)، وعلق عليه الأرنؤوط في تحقيقه للمسند (٢٨/ ٥٤٧) فقال: (حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف لضعف رشدين بن سعد، وباقي رجال الإسناد ثقات)، وأخرجه كذلك الطبراني في المعجم الكبير (١٧/٣٣٠، رقم ٩١٣)، وفي الأوسط (٩/١١٠، رقم ٩٢٧٢)، قال الهيثمي في المجمع (١٠/٢٤٥): (رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه الوليد بن العباس المصيي، وهو ضعيف). والبيهقي في شعب الإيمان (تعديد نعم الله وما يجب من شكرها، ح ٤٢٢٠، ٦/ ٢٩٨). وقد حسّن الحافظ العراقي إسناده في تخريج أحاديث الإحياء (ص: ١٤٧٧). وينظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٧٧٣، رقم ٤١٣).

(٢) تقدم تخريجه.

لباب التوبة، فإذا اغتروا بذلك ازدادوا عتوا وفسادا، فيعاقبهم الله بعقوبة ملائمة لعتوهم، زاجرة لغيرهم.

(١٧٩٥)فيها إشارة إلى أن الإمهال يكون من الله تعالى، والإهمال لا يكون منه، فإنه يمهل ولا يهمل[(١)]، ويدع الظالم في ظلمه، ويوسع له الحبل، ويطيل به المهل، فيتوهم أنه يفلت من قبضة التقدير، وذلك ظنه الذي يُرْديه، ويأخذه من حيث لا يرتقب، فيعلوه ندامةٌ ولات حينه. وكيف يستبقي بالحياة ما حق في التقدير عدمه، وإلى الله مرجعه؟ فالظلم من العبد سبب للأخذ من الله، فلا يلومن إلا نفسه[(٢)].

(١٧٩٦)تشير هذه الآية إلى تحذير المسلمين من التمادي في المعاصي، وعدم الاغترار بما يملي لهم، وهم على ما هم عليه، وإنهم إذا لم يرجعوا إلى الحق يكون مصيرهم مثل مصير من قبلهم[(٣)].

(١٧٩٧)تدل الآية على أن الظّالم عليه أن يقلع عن ظلمه، ويتيقن أنه مهما طال إمهاله فإنه يؤخذ بغتةً، فيخسر الدّنيا والآخرة[(٤)].

(١٧٩٨)في الآية إشارة إلى أن الظالمين إن لم يؤخذوا بظلمهم في الدنيا، فإنهم صائرون إلى الله، وسيلقون جزاء ظلمهم يوم القيامة، وعذاب الآخرة أشد وأبقى[(٥)].

(١٧٩٩)تشير الآية إلى أن الإنسان ينبغي أن يزداد خوفا من ربه وخشية من عقابه، لأن الله تعالى أضاف الأخذ إليه، وكلمة الأَخْذ فيها معنى الشدة والعنف والقَهْر، وأَخْذُ الشيء يتناسب مع قوة الآخذ وقدرته وعنف الانتقام بحسب المنتقم، فإذا كان الآخذ هو الله عَزَّ وَجَلَّ،

---

(١) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٢٥).

(٢) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٦٩).

(٣) بيان المعاني (٦/ ١٨١).

(٤) ينظر بيان المعاني (٦/ ١٨٢).

(٥) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٥٧).

فسيكون أَخْذه في غاية الشدة، لأنه القوي الجبار الذي لا يفلت عن قدرته شيء. ويوضح ذلك في آية أخرى فيقول: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة القمر: ٤٢][(١)].

(١٨٠٠)تدل الآية أن الله قد يؤخر العذاب إلى أجل معين، إما إلى حين في الدنيا كما حدث للأمم السابقة، وإما إلى الآخرة، ويكون الإملاء بأحداث سطحية في الدنيا، كالذي حَلَّ بالكفار من الخِزْي والهوان والهزيمة وانكسار شوكتهم[(٢)].

(١٨٠١)تومئ الآية إلى أن من لم يحافظ على التقوى ويتبع منهج الإسلام ويستعد لليوم الآخر، فسيكون مصيره كمصير الأمم السابقة من الهلاك في الدنيا والآخرة؛ لأنه لم يمت على التوحيد[(٣)].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الحج: ٤٩].

(١٨٠٢)تفيد الآية أن الإسلام دين عالمي، وأن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل إلى الناس جميعا، عربِهم وعجمِهم، لأن الله تعالى أمره أن يخاطب الناس جميعا فقال له: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾. فإنذاره لجميع بني آدم، لا للعرب فحسب.

(١٨٠٣)تفيد الآية أنه يجب أن نوصل إلى الناس جميعا حقيقة النبي صلى الله عليه وسلم وأنه مرسل من ربه إليهم لينذرهم من العذاب ويبشرهم بعظيم الثواب. فإذا كان من زمنه صلى الله عليه وسلم قد عرفوا ذلك فإن كثيرا من الناس فيما بعده لم يبلغهم ذلك على وجه البيان الشافي.

---

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠٠١)، وتفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٦٧).

(٢) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٦٧).

(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم (٥/ ١٠٦).

(١٨٠٤)تبين الآية أن مهمة الرسل وهي البلاغ مع الإنذار والتبشير فحسب[(١)]. أما الإنذار فقد صرحت به الآية لأنها في سياق تهديد الكفار بالعذاب، أما التبشير فهو للمؤمنين، وقد وردت الصفتان في آيات أخرى منه قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ الأعراف: ١٨٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٤٨].

(١٨٠٥)تفيد الآية أن الداعية غير مكلف بمحاسبة الناس ومعاقبتهم، وإنما هو نذير وبشير، أما الجزاء فأمره إلى الله تعالى، فإن شاء عجل العذاب للعصاة منهم، وإن شاء أخره عنهم، وإن شاء تاب على من يتوب وينيب إليه منهم[(٢)].

(١٨٠٦)تشير الآية إلى أن الداعية لله ينبغي أن ينذر الناس بما قد يصيبهم من عذاب إن لم يوحدوا الله ويعبدوه ولم يتبعوا دينه سبحانه، لأن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعلن للناس ذلك فيقول: ﴿إِنَّمَآ أَنَاْ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ [(٣)]، والأنبياء يقومون مقام الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى.

(١٨٠٧)تفيد الآية أن الدعاة إلى الله لا يملكون أمر تعجيل العذاب أو تأخيرهن فإن ذلك موكول إلى الله، وإنما عليهم بأن يجتهدوا في الدعوة إلى الله وإرشاد الخلق إلى عبادته وتحذيره من معصيته. ويؤخذ هذا من مفهوم القصر في الآية: ﴿إِنَّمَآ أَنَاْ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾.

---

(١) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٨٦).

(٢) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٢٦).

(٣) والقول بأن حكم هذه الآية منسوخ بآية السيف كما في الناسخ والمنسوخ للمقري (ص: ١٢٧) وغيره قولٌ مردود. قال أبو بكر بن العربي في الناسخ والمنسوخ (٢/ ٢٨٩): (الإنذار بالآخرة لا ينسخه الأمر بالقتال، فإنه ينذر ويقاتل، وليس التخويف بالآخرة مرفوعا، بشيء، حتى إن الإيمان لا يرفعه، والخوف والتخويف من الله لا يرده شيء ولا يرفعه إلى حين لقائه).

(١٨٠٨)تبين الآية أن الدعوة إلى الله لا ينبغي أن تخلو من إنذار وترهيب؛ فهو الذي يوقظ القلوب اللاهية، ويزجر النفوس الطاغية. ولذلك وردت صفة الإنذار للنبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الرسل في هذه الآية وآيات أخرى، كقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [سورة نوح: ٢ – ٣].

(١٨٠٩)تفيد الآية أنه يجب على العباد أن يتقوا ربهم بطاعته وعبادته، لأن إنذار الرسل لأقوامهم إنما يكون من العذاب، وإنما يُتقى العذاب بالإيمان بالله وطاعته، وهذا يوافق مطلع هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١﴾.

(١٨١٠)تفيد الآية وجوب الالتجاء إلى الله تعالى والاحتماء به من سخطه وغضبه وعقابه، لأن الإنذار يقتضي الفرار من الشر الذي حذروا منه، ولا يكون ذلك إلا بالفرار إلى الله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠﴾ [سورة الذاريات: ٥٠].

(١٨١١)تفيد الآية أن الدعوة إلى الله ينبغي أن تتصف بصفة البيان والوضوح الذي لا يبقى معه لَبس أو غموض، لأن الله تعالى وصف النذير فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٤٩﴾، أي: بيّن الإنذار، مبين لما يضرهم وينفعهم، مفصح بما يخوفهم منه[(١)].

(١٨١٢)فيها إيماء إلى أن الداعية لا ينبغي له أن ينقطع عن الدعوة بسبب تكذيب الناس له واستهزائهم بما يدعو إليه، وإنما عليه أن يواصل الدعوة ويحذر الناس من العقوبات الإلهية، ويؤخذ هذا من أن الآية جاءت بعدما سبق بغرض إعلام المشركين بأن تكذيبهم واستهزاءهم لا يغيظ النبي صلى الله عليه وسلم ولا يصده عن أداء رسالته، إذ كانوا يحسبون أنهم بذلك سيُملّونه فيترك دعوتهم[(٢)].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٥٠﴾:

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٢)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٤)، وأضواء البيان (٥/ ٢٨١).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٤)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٤)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٦٩).

(١٨١٣)تفيد الآية أن النجاة من العذاب الذي أنذر الرسول صلى الله عليه وسلم الناس لا يكون إلا بالإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله وصفه بأنه ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٤٩﴾، ثم أتبعه بذكر ما للمؤمنين من رزق في الجنة: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٥٠﴾. وهذا يستلزم نجاتهم من العذاب.

(١٨١٤)تبين الآية أن الإيمان لا بد أن يقترن بالعمل الصالح، فمن ادعى الإيمان ولم يعمل صالحا فهو كاذب في دعواه للإيمان.

(١٨١٥)تفيد الآية أن دخول الجنة يترتب على الجمع بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله تعالى قرن بينهما في هذه الآية وغيرها من الآيات، ورتب عليهما دخول الجنات.

(١٨١٦)في الآية دليل على أن العمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان، فيدخل في الإيمان كل ما يجب من الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان، ويدخل في العمل الصالح أداء كل واجب وترك كل محظور[(١)]، ويؤخذ هذا من أن الله عطف العمل الصالح على الإيمان، فدل على مغايرتهما.

(١٨١٧)تفيد الآية أن المؤمن لا بد له من أن يكون عمله صالحا، لأن العمل الموصوف بالصلاح هو الذي يجزى عليه بالثواب يوم القيامة.

(١٨١٨)تفيد الآية أن الإنسان يجب أن يسأل الله دوما مغفرته، لأنه لا يستغني عنها أحد، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى يجزي المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالمغفرة أولا، ثم ثنّى بالرزق الكريم، وهذا يدل على أنهم كانوا يحتاجون إليها.

(١٨١٩)تفيد الآية بدلالة اللزوم أن المؤمن مهما يكن تقيا فلا بد من أن يقع في أخطاء وهفوات، وكلما ازدادت تقواه ومراقبته لله، ازداد شعوره بتقصيره، واستكثر خطاياه، واستصغر

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٥). ويجدر بي أن أشير إلى أن مراد من قال من أهل السنة في الإيمان: أنه هو التصديق على ظاهر اللغة، أن معناه إنما هو التصديق الإذعاني المستلزم للانقياد ظاهرا وباطنا بلا شك، ولا يعنون بذلك مجرد التصديق، إذ لا خلاف بأن الإيمان الحق يستلزم العمل ولا بد. ينظر معارج القبول بشرح سلم الوصول (٢/ ٥٩٤).

حسناته[1]، ويؤخذ هذا من أن الله وعد المؤمنين بالمغفرة فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾. والمغفرة لا تكون إلا عن ذنوب. وهذا المعنى يوافق قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون))[2].

(١٨٢٠)تدل الآية على أن الله تعالى يجزي الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح بالتنعم في الجنة بما جعل فيها من أنواع المتاع الحسي والروحي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠﴾، وينسب إلى هشام بن عروة أنه قال: (يعني ما أعدّ لهم في الجنّة من لذيذ المآكل والمشارب وهنيّ العيش)[3].

(١٨٢١)تفيد الآية بأن نعيم الجنة نعيم عظيم، مقرون بالتعظيم، لا انقطاع فيه ولا امتناع، ولا تعب فيه ولا نصب، ولا يشوبه نقص ولا كدَر[4]، وذلك لأن الله تعالى كنى عن نعيم الجنة بالرزق الكريم، والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله ويجوز كمالاته[5]، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾ [سورة فصلت: ٨].

(١٨٢٢)تومئ إلى أن أعلى أنواع الرزق ما يكون وافرا دائما خالصا متجردا من المكدرات[6]، لأن الله تعالى كنى عن نعيم الجنة بالرزق الكريم، والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله ويجوز كمالاته[7].

---

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠٠٣).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠٠٣).

(٣) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان (٤/ ٣٢٨) في تفسيره لسورة الأنفال. وقد روى الطبري فيه تفسيره (١٦/ ٦٠٠) أن ابن جريج قال في تفسير الرزق الكريم: (الجنة)، وروى ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٩، رقم ١٣٩٩٠) أن محمد بن كعب القُرَظي قال: (إذا سمعت الله تعالى يقول: {ورزق كريم}، فهو الجنة).

(٤) ينظر معنى الرزق الكريم بهذه السمات في: تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٥)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٤).

(٥) فتح البيان (٩/ ٦٥).

(٦) ينظر معنى الرزق الكريم بهذه السمات في: تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٥)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٤).

(٧) فتح البيان (٩/ ٦٥).

(١٨٢٣)تدل الآية على أن الله تعالى يجزي الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح بالرزق الكريم في الدنيا من انشراح للصدور ويسر في الأمور؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠﴾، وهذا يشمل رزق الدنيا بالإضافة إلى نعيم الآخرة[(١)].

(١٨٢٤)تدل الآية على أن ثواب الله تعالى للمؤمنين في الجنة يزيد عما يستحقونه ويجاوز ما عملوه، فهو تعالى يجازي على الحسنة أضعافا مضاعفة، ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠﴾.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾[سورة الحج: ٥١]:

(١٨٢٥)تشير الآية إلى أن السعي لإبطال آيات الله، وصرف الناس عن طريقها مذموم. ويؤخذ من أن الله تعالى وصفهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾، وتعدية الفعل بحرف الجر «في» الذي يفيد الظرفية، إشارة إلى أنهم يدخلون في آيات الله ويلبسون الحقّ بالباطل، إذ يحرفون الكلم عن مواضعه[(٢)].

(١٨٢٦)تفيد الآية أنه ما من زمان إلا وفيه من يسعون إلى الطعن في آيات الله – وعلى رأسها القرآن – بالرد والتكذيب ووسمها بأنها سحر وشعر وكهانة وأساطير الأولين[(٣)]؛ لأن الله

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٥). وقد فرق الإسكافي في "درة التنزيل" (١/ ٩٢٨ – ٩٢٩) بين هذه الآية والآية التي جاءت في السورة نفسها، وفيها: (في جنّات النعيم)، وأن الآية الأولى: خبر عن حال القوم في الدنيا: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٤٩﴾ (الحج: ٤٩)، ثم قال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وُعدوا بالغفران والرزق الكريم، أما الثانية فهي خبر عن الآخرة لقوله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦﴾ (الحج: ٥٦).

(٢) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٥٩).

(٣) ينظر الكشاف (٣/ ١٦٣ – ١٦٤)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٥).

تعالى أخبر عن هذه الطائفة في هذه الآية بالزمن الماضي، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة سبأ: ٣٨].

(١٨٢٧)تفيد الآية أن من شأن الكفار الاجتهادَ في رد دعوة الدين والتكذيب بها والسعي في إبطالها وتثبيط الناس عن اتباعها ظنا منهم أنهم سيعجزون الله، ولن يرجعوا إلا بالخيبة والخسران في الدنيا والآخرة.

(١٨٢٨)تفيد الآية أنه لا ينبغي لأحد أن يظن أنه يفوت الله ويعجزه، وأنه سيفلت من جزائه على ما فعله؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ﴾، أي: ظانّين ومقدّرين أنهم يعجزوننا ويفوتوننا لأنهم ظنوا أنهم لا يبعثون[(١)].

(١٨٢٩)تفيد الآية أنه يجب المؤمنين أن يسابقوا الكافرين في إظهار الحق ويبطلوا كيدهم، ويوصلوا آيات الله إلى قلوب الناس أجمعين، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ﴾، والمعاجزة: مسابقة في التعجيز، يراد بها أن يغلب أحد المتسابقين الآخر، فالمشركون يحاولون أن يغلبوا المؤمنين، والمؤمنون يحاولون أن يغلبوا المشركين[(٢)].

(١٨٣٠)تدل الآية على أن الاجتهاد في مغالبة الآخرين ومحاولة إثبات عجزهم أمر مذموم، لأن الله تعالى ذم الذين يسعون في آياتها – والحال أنهم معاجزون للمؤمنين – وتوعدهم بالعذاب الدائم[(٣)]. ولو سعوا لفهمها ومعرفة غايتها بصدق لعرفوا الحق وما جادلوهم ولا استهزأوا بهم.

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٣)، والحجة للقراء السبعة (٥/ ٢٨٤). وقد روى الطبري في تفسيره (١٦/ ٦٠١) عن قتادة قال: (كذبوا بآيات الله، فظنوا أنهم يعجزون الله، ولن يعجزوه). أما الرازي فقد رجح في تفسيره (٢٣/ ٢٣٥) أن المغالبة ترجع للرسول والمؤمنين.

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٦٣)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٣٤ – ١٢٣٥).

(٣) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠٠٣).

(١٨٣١)تدل الآية على أن من صنيع أهل الباطل تثبيط الناس عن اتباع الحق وسماع الدعاة إليه بالترغيب والترهيب[١]. وهذا بناءً على قراءة ابن كثير وأبي عمرو: ﴿مُعَجِّزين﴾ بكسر الجيم المشددة[٢]. أي يجعلونهم عاجزين عن الإيمان بسبب تثبيطهم عن ذلك[٣].

(١٨٣٢)تدل الآية على أن المسلم عليه أن يحذر من تثبيط الناس عن الخير وتنفيرهم من سماع كلام الله وكلام رسوله وحضور مجالس العلم والتذكير[٤]، من حيث يدري أو لايدري، ولك حتى لا يقع في مشابهة أهل الباطل الذين يُعجِّزون الناس عن الإيمان.

(١٨٣٣)في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾ إشارة إلى أن الحق لا يضيع بلَجاجة الباطل الذي يثير هؤلاء الذين يسعون لإفساد الحق على أهله، ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى ذم الذين يسعون للتكذيب بآيات الله تعالى وتكذيبها، لا بغرض الوصول إلى الحق[٥].

(١٨٣٤)تفيد الآية مع سابقتها اعتماد المزاوجة بين الترغيب والترهيب في الدعوة إلى الله تعالى، لأن الله تعالى ذكر مصير المؤمنين، وأتبعه بمصير المكذبين، ليبعث العقل على الموازنة بين المصيرين، واختيار أحسن العاقبتين.

(١٨٣٥)تشير الآية إلى أن العاقل عليه أن يختار لنفسه ما يفضي به في الآخرة إلى الرزق الكريم ويجنبه عذاب الجحيم[٦].

---

(١) روي عن مجاهد أنه قال في معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ (الحج: ٥١): (يثبّطون الناس عن متابعة النبي – صلى الله عليه وسلم). ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٥).

(٢) أضواء البيان (٥/ ٢٨٣).

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٣)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٤)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤٥١)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢٨).

(٤) ينظر مدارسة سور القرآن: سورة الحج (ص٢٧).

(٥) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠٠٤).

(٦) ينظر التفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٥٦).

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ [سورة الحج: ٥٢]:

(١٨٣٦)فيها دليل بين على ثبوت التغاير بين الرسول والنبي[(١)]، لأنه عطف أحدهما على الآخر، والعطف يدل على المغايرة. ويؤكده ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم مِن أن عدد الأنبياء ((مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي))، وعدد المرسلين: ((ثلاث مائة وثلاثة عشر))[(٢)].

(١٨٣٧)فيها دليل على أن النبي مُرسَل من عند الله لهداية الناس كالرسول، لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ [سورة الأعراف: ٩٤]، ومن ثم فليس النبي هو من أوحي إليه بوحي ولم يؤمر بتبليغه[(٣)]، وإنما يفترق عن الرسول بأمر آخر، والظاهر أن الرسول أنزلت إليه شريعة مستقلة، وأن النبي هو من أوحي إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله أو إلى ما هو مستقر في الشرائع كلها، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يُرسَلون ويُؤمَرون بالعمل بما في التوراة، كما بينه تعالى بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ [سورة المائدة: ٤٤][(٤)].

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٦)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٤٧)، وفتح البيان (٩/ ٦٦)، وروح المعاني (٩/ ١٦٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ح ٤١٦٦، ٢/ ٦٥٢)، وسكت عنه، وتعقبه الذهبي فقال: (السعدي ليس بثقة)، وقال في المهذب في اختصار السنن الكبير (٧/ ٣٥٠١): (أنا أتهمه به، وقد تكلم فيه ابن حبان وغيره). وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (كتاب السير، باب مبتدأ الخلق، ح ١٧٧١١، ٩/ ٧)، وقال: (تفرد به يحيى بن سعيد السعيدي)، وأخرجه في شعب الإيمان (الإيمان برسل الله صلوات الله عليه، ح ١٣١، ١/ ٢٧٨) وقال: (وروي ذلك من وجه آخر غير قوي، عن أبي ذر).

(٣) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢٩٠).

(٤) نسبه الماوردي في تفسيره (٤/ ٣٥) إلى الجاحظ، وبه قال نجم الدين النيسابوري في إيجاز البيان (٢/ ٥٨١)، واختاره ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٧)، والشنقيطي في أضواء البيان (٥/ ٢٩٠)، والخطيب في التفسير القرآني

(١٨٣٨)فيها إشارة إلى أن الدعاة إلى الله يلزمهم أن ينظروا في سير الأنبياء والمرسلين، وأن يوقنوا أنهم ما داموا قد ساروا على طريقهم أنهم سيواجهون مثل ما واجهوه من كيد شياطين الإنس والجن ومحاولتهم لمنع وصول دعوته إلى الناس. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى سلّى نبيه عليه السلام بذكر ما حدث للأنبياء قبله. وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [سورة الأنعام: ١١٢].

(١٨٣٩)تفيد الآية أن من شأن الداعية أن يتمنى أن يتبعه الناس وينحازوا إلى ما يدعوهم إليه، ويعبدوا الله ويتقوه، وأن يسعد كلما كثر أعداد المؤمنين، فتلك هي رسالته التي يعيش لها، ويعمل من أجل تحقيقها؛ لأن الله تعالى أخبر بأن رسله وأنبياءه كانت لهم أمنية في أقوامهم، ولم تكن لهم أمنية إلا أن يؤمن أقوامهم ويصدقوا برسالتهم[(١)].

(١٨٤٠)تشير الآية إلى أنه يجوز التمني ولو لما يستبعد حصوله، لأن أمنية الأنبياء والرسل هي أن يؤمن أقوامهم جميعا بالله تعالى[(٢)]، وهذه الأمنية مستبعدة الوقوع، لأن الله تعالى لم يشأ ذلك، والناس- كما خلقهم الله – مؤمن وكافر، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ﴾ [سورة التغابن: ٢][(٣)]، وقال في آية أخرى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة يوسف: ١٠٣].

---

(٩/ ١٠٦٧). أما ابن تيمية فإنه قال في النبوات (٢/ ٧١٨): (وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة؛ فإنّ يوسف كان على ملة إبراهيم، وداود وسليمان كانا رسولين، وكانا على شريعة التوراة).

(١) ينظر محاسن التأويل (٧/ ٢٦٧)، والتفسير القرآني (٩/ ١٠٦٣).

(٢) روى عبد بن حميد – كما ذكر السيوطي في الدر (٦/ ٦٥) – عن ابن عباس أنه قال: (إن أمنيته أن يسلم قومه). وروى ابن أبي حاتم عن ابن شهاب الزهري من أثر طويل أنه قال: (...وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم، وأحزنه ضلالهم، فكان يتمنى هُداهم...)، ونقله عنه ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٤٢).

(٣) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٦٣).

(١٨٤١)تومئ الآية إلى أنه لا ينبغي للداعية أن ييأس من استجابة الدعاة لدعوته، ويؤخذ هذا من أن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ يحتمل أن يكون المعنى أن النبي إذا تمنّى هداية قومه أو حرص على ذلك فلقي منهم العناد، ألقى الشيطان في نفس النبي عليه السلام خاطر اليأس من هداهم عسى أن يضجر النبي ويقصر من حرصه، ولكن عصمة النبي تعترض هذا الخاطر وتذهبه[(١)]، أما الداعية فلا بد أن يجاهد نفسه على ذلك.

(١٨٤٢)يؤخذ من الآية أن من شأن المسلم أن يكون حريصا على انتشار الإسلام في الدنيا كلها، ولكن لن يدَعَه الشيطان يُحقِّق هذه الأمنية، بل سيلقي من الشبه ما يصد به الناس عن دين الله تعالى، لأن كيْده وإغواءه لم ينتهِ بموت الأنبياء والرسل، وإنما هو مستمر إلى قيام الساعة[(٢)].

(١٨٤٣)أخبر تعالى في هذه الآية أن سنة الله في رسله إذا قالوا قولاً زاد الشيطان فيه من قبل نفسه[(٣)]، ليوقع الفتنة في قلوب المتشككين ويزدادوا ضلالة وتكذيبا.

(١٨٤٤)في هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم – وكذلك الوليُّ – لا يليق به التمنّي، (بل ما على الرسول إلا البلاغ، ولا على الوليّ إلا الرضا والتسليم، فلو بقي في أحدهم أدنى ملاحظة لغير الله كالحرص على إيمان القوم فوق ما أمر به ابتلاه الله ببلاء مجال الشيطان في أمنيته بقول أو بعمل، فتدركه العناية الأزلية ويزيل الخاطر الشيطاني ويثبته على الخاطر

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/٢٩٩ – ٣٠٠).

(٢) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٨٥).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٣/ ٣٠٦)، وقال بعدها: (فهذا نص في أن الشيطان زاد في الذي قاله النبي – صلى الله عليه وسلم – لا أن النبي قاله؛ وذلك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان إذا قرأ تلا قرآنا مقطعا، وسكت في مقاطع الآي سكوتا محصلا، وكذلك كان حديثه مترسلا متأنيا، فيتبع الشيطان تلك السكتات التي بين قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠﴾ (النجم: ٢٠)، وبين قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١﴾ (النجم: ٢١)، فقال يحاكي صوت النبي صلى الله عليه وسلم: (وإنهن الغرانقة العلا، وإن شفاعتهن لترتجى). وقد سبق إلى ذلك الطبري في تفسيره (١٦/ ٦٠٣ و٦١٠ – ٦١١)، مع جلالة قدره وسعة علمه وشدة ساعده في النظر، فحوَّم على هذا المعنى).

الرحماني، ولا يكون لدخان الفتنة تأثير في نور يقينه، كما لا تأثير للضباب في شعاع الشمس، بخلاف من في قلبه ظلم الشبهات، فإن ذلك الدخان يزيدها كُدورة وريْنًا حتى تأتيهم ساعة سلب الاستعداد بالكلية)[1].

(١٨٤٥)تدل الآية على أن الدعاة يجب أن يقرأوا شيئا من القرآن على الناس الذين يدعونهم إلى الله؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾، وهذا يستلزم أنه كان يقرأ عليهم شيئا مما أنزله الله عليه، وقد قال تعالى في وصف النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [سورة الجمعة: ٢].

(١٨٤٦)تقرر الآية أنه لم يُبعث نبي أو رسول في أمة إلا كان الشيطان لدعوته بالمرصاد، واقفا في وجه نبوته ورسالته، يقاومه ويراغمه، بتزيين الكفر لقومه، وإلقاء الشبه في نفوسهم، ويسخر جنده ليضادوا أمانيه، ويحولوا بينه وبين ما يبتغي بما يقولون في سبيله من العثرات[2]. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ نصٌّ في العموم، فأفاد أن ذلك لم يعْدُ أحدا من الأنبياء والرسل[3].

---

(١) غرائب القرآن (٥/ ٩٧).

(٢) ينظر الإثارة الثالثة: الإمام محمد عبده (ص١٧٨-١٨٠)، ونقله القاسمي في محاسن التأويل (٧/ ٢٦٤)، وينظر التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٨٤)، وأضاف قائلا: (وإنما نسب إلى "الشيطان" في هذه الآية ما يقوم به خصوم النبوات والرسالات من تحدي الأنبياء والرسل، وبثّهم البلبلة وإلقائهم الشبه، لأن الشيطان هو المغوي، والمحرك شياطين الإنس للإغواء).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٧).

(١٨٤٧) تفيد الآية أن الإنسان عليه أن لا يأخذ بكلمة عابرة من إنسان، فإن الشيطان قد يوقع في مسامع الناس كلاما من دون أن يتكلم به من يستمعون إليه، أو يجري على لسانه[١]، فتنةً واختبارًا للعباد.

(١٨٤٨)تفيد الآية أن الشيطان يدخل في نفوس أقوام الأنبياء ضلالات تفسد ما قاله أنبياؤهم من الإرشاد، بأن يأمر الناس بالتكذيب والعصيان، ويلقي في قلوب أئمة الكفر مطاعن يبثونها في قومهم، ويروج الشبهات بإلقاء الشكوك التي تصرف نظر العقل عن تذكر البرهان. وهذا على أن الإلقاء في قوله تعالى: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ استُعير للوسوسة وتسويل الفساد[٢].

(١٨٤٩)تفيد الآية أن الشيطان ألقى في سبيل النبي صلى الله عليه وسلم العثرات، وأقام بينه وبين مقصده العقبات، ووسوس في صدور الناس، وسلبهم الانتفاع بما وهبوا من قوة العقل والإحساس، فثاروا في وجهه، وصدوه عن قصده، وعاجزوه حتى كادوا أن يعجزوه[٣].

(١٨٥٠)تشير الآية إلى أن الشيطان يأتي قلوب الناس يوسوس فيها من ناحية أمانيهم[٤]، وإذا كان الله تعالى قد أزال ذلك عن أنبيائه كما صرحت به الآية، فإن غيرهم ليسوا كذلك، فلا بد لهم من أن يحترزوا من وساوس الشيطان ويجاهدوا ما يلقيه في نفوسهم حتى لا يستولي عليهم.

---

(١) بهذا المعنى وجهت الآية في حق النبي صلى الله عليه وسلم، ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٦)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٤٧)، وفتح البيان (٩/ ٦٦)، وروح المعاني (٩/ ١٦٤).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٨).

(٣) ينظر محاسن التأويل (٧/ ٢٦٧).

(٤) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠٠٦).

(١٨٥١)تشير الآية إلى أن وساوس الشياطين لا ينحصر في تزيين شهوات الدنيا، وإنما يكون بإلقاء الشبهات، والتضليل في شأن أسماء الله وصفاته وتحسين البدع والعقائد الفاسدة، ولا ينجو أحد من ذلك[(١)].

(١٨٥٢)تشير الآية إلى أن من صنيع الشيطان أن يغلط العلماء، ويلقي من الكلام ما ينسب إليهم وهم منه بَراء، ويلصق الزور إليهم، ويجعل الناس يتناقلونه ليشوهوا الذين يبلغونه، والدعوة التي يحملونها إليهم[(٢)].

(١٨٥٣)تومئ الآية أن المؤمن عليه أن يطمئنّ إلى أن الشيطان مهما فعل فإن ما يلقيه غير مستقر ولا مستمر[(٣)]. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [سورة النساء: ٧٦].

(١٨٥٤)تومئ الآية إلى أن الداعية لا بد أن يوطن نفسه على الصبر ويستعد للمواجهة، لأن العقبات في طريق الدعوات كثيرة، وهي عقبات مختلفة يضعها الشيطان وأتباعه.

(١٨٥٥)تدل الآية على استحباب حضور القلب عند قراءة القرآن وسؤال الله من فضله إذا مرّ بآية رحمة، واستعاذته من الشر إذا مرّ بآية عذاب، ويؤخذ هذا المعنى من أن الله تعالى ﴿فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾، أي قراءته، وإنما سميت القراءة أمنية، لأن القارئ إذا انتهى إلى آية رحمة تمنى حصولها، وإذا انتهى إلى آية عذاب تمنّى ألّا يُبتلى به[(٤)].

(١٨٥٦)تفيد هذه الآية بضميمة قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الإسراء: ٧٣ – ٧٤]. فمضمون هذا ومفهومه، أن الله تعالى

(١) ينظر إحياء علوم الدين (٣/ ٣١٥).

(٢) ينظر حسن التنبه لما ورد في التشبه (٦/ ٨٠).

(٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٢).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٦)، ومراح لبيد (٢/ ٧٧).

عصمه من أن يفتري ويزيد في القرآن ما ليس منه، وثبّته حتى لم يركن إليهم قليلا ولا كثيرا. وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الحاقة: ٤٤ – ٤٦].

(١٨٥٧)تدل الآية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعده عن الهوى، وذلك لأن بيان الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أحكم آياته ونسخ ما ألقاه الشيطان، هو أدل على تحرّيه للصدق وبراءته من الكذب[(١)].

(١٨٥٨)تفيد الآية أن المسلم عليه أن يؤمن بأن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم من الخطأ والنسيان في تبليغ الوحي، وأنه فضلا عن ذلك منزه عن الكذب والتحريف فيه، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ [سورة الأعلى: ٦ – ٧]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [سورة يونس: ١٥].

(١٨٥٩)تدل الآية بضميمة آيات أخرى أن أقصى ما مُكِّن منه الشيطان هو أن يلقي الشكوك والوساوس المانعة من تصديق ما يقرأه النبيُّ صلى الله عليه وسلم، كإلقائه عليهم أنه سحر أو شعر، أو أساطير الأولين، وأنه مفترى على الله وليس منزّلا من عنده. أما أن ينطق على لسانه عليه السلام فلا، وذلك لأن الله تعالى لم يجعل للشيطان سلطانا على الرسل وأتباعهم المخلصين كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [سورة النحل: ٩٩]، ونظائرها، ولأن الله تعالى حفظ كتابه العزيز كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحجر: ٩][(٢)].

---

(١) ينظر مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩٢)، والجواب الصحيح لابن تيمية (٢/ ٣٦)، ومحاسن التأويل (٧/ ٢٥٩).

(٢) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢٨٦ و٢٨٨).

(١٨٦٠)تومئ الآية إلى أن المسلم لا بد أن يحذر من وساوس الشيطان ونزغاته، ويتحصن منها بالعلم النافع، وذلك لأن الله بين أن الشيطان يجتهد في إلقاء شبهاته ليصد الناس عن اتباع آيات الله، وبيّن في الآية التي تليها أن أهل العلم لا يتأثرون بها.

(١٨٦١)تومئ الآية إلى ضرورة الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم قبل قراءة القرآن الكريم، وذلك لنفي ما يلقيه الشيطان من وساوس عند القراءة[١]. وذلك لأن الله قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾، فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم الصلاة والسلام فكيف بغيرهم؟ ولهذا يغلط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوش عليه ذهنه وقلبه[٢]، وقد قال في آية أخرى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾ [سورة النحل: ٩٨ – ٩٩].

(١٨٦٢)تشير الآية إلى أن الذي يريد الانتفاع بالقرآن الكريم لا بد أنْ يخلِي فكره من الشبهات ويطهر قلبه تماماً مما يُعكِّر صَفْو الفطرة، ثم يستقبل كلام الله، وحينها سيتأثر بالقرآن ويرِقُّ فؤاده له ويطمئن به[٣].

(١٨٦٣)تشير الآية إلى أنه لا ينبغي لمن يقرأ القرآن أن يعجل في قراءته، لأن تلك العجلة من الشيطان، وهي مظنة الوقوع في إسقاط بعض الأحرف، أو الخطأ في تلاوة الكلمات. ويؤخذ هذا من أن النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما كان يبادر إلى ما نزل به جبريل عليه السلام من القرآن حتى قيل له: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾ [سورة القيامة:

(١) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ١٣).

(٢) ينظر إغاثة اللهفان (١/ ٩٣).

(٣) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٧٧).

١٦]، فسمى تلاوته على ذلك في هذه الآية تمنيا، ونبهه على أن الشيطان قد يربك تلاوته عند تعجله بها[١]، كما بين في الحديث: ((العجلة من الشيطان))[٢].

(١٨٦٤)تبين الآية أن الله تعالى يحفظ كتابه العزيز ودينه القويم من كيد الشيطان وتلبيسه كما يحفظ دعوته من تكذيب المكذبين وتعطيل المعوقين ومعاجزة المعاجزين، ويزيل كل شبهة في قيم الدعوة ووسائلها[٣].

(١٨٦٥)تدل الآية على أن الله تعالى يفضح وساوس الشيطان ويزيل الشبهات التي يلقيها ببيانه الواضح، ويزيد آيات دعوة رسله بيانا، ويثبت مدلولها ويوضحها بما لا شبهة بعده إلا لمن رين على قلبه، وذلك هو إحكام آياته، الذي جاء في قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾، أي ينسخ آثار ما يلقي الشيطان، ويحكم آثار آياته[٤].

(١٨٦٦)في الآية إشارة إلى أن حصن المؤمن من وساوس الشيطان وتلبيسه هو الاستعاذة بالله والالتجاء إليه والاعتصام بحبله[٥]. ويؤخذ ذلك من أن الله أخبر عن نفسه بأنه هو الذي يزيل ما يلقيه الشيطان، فلا منجاة لنا إلا باللجوء إليه سبحانه.

(١٨٦٧)تفيد الآية أن القرآن محكم الآيات، لا يوجد في آياته ما هو مختلق أو مدسوس فيه؛ لأن الله تعالى يزيل كل ما قد يلصق بالقرآن ويجعل آياته محكمة بينة.

---

(١) ينظر المفردات (ص:٧٧٩ – ٧٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: (كتاب البر، باب ما جاء في التأني والعجلة، ح ٢٠١٢، ٣٦٧/٤)، وقال: (هذا حديث غريب)، وفي سنده عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد الساعدي، وهو ضعيف، كما قال الحافظ في التقريب (ص: ٣٦٦ رقم ٤٢٣٥)، ولكن للحديث شواهد يرتقي بها للحسن كما قال محققو جامع الأصول (٦٩١/١١). وينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٣١).

(٣) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٣١).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٨ – ٢٩٩).

(٥) ينظر تفسير المدينة المنورة (٢/ ١٠٧).

(١٨٦٨)تفيد الآية – على قول في تفسيرها – أن الرسول بشر، ويجري عليه ما يجري على البشر، لكن ربه لا يترك بشريته وحدها، وإنما يعصمه بقيوميته، ويحفظه من زلات البشر[(١)].

(١٨٦٩)تدل الآية على أن الدعوة يجب أن تمضي على أصولها الكاملة، وفق موازينها الدقيقة، وتبقى مستقيمة، ولو خسرت الأشخاص في أول الطريق، وألا تتخذ وسائل وأساليب لا تستقيم مع منهج الدعوة القويم حرصا على سرعة انتشارها[(٢)]. ويؤخذ هذا من أن بعض المفسرين ذكروا في سبب نزول هذه الآية: إنه صلى الله عليه وسلم لما شق عليه إعراض قومه عنه تمنى في نفسه لحرصه على إيمانهم أن لا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه، لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استمالتهم[(٣)].

(١٨٧٠)تفيد الآية أن من حكمة الله من ذلك أن يمكّن الشيطان من إلقاء الشبهات والأباطيل، ليجادل أولياؤه بها، فيتمكن المؤمنون من ردها ودحض المفتريات التي يتشدقون بها،

---

(١) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٧٩ – ٩٨٨٠). وقد قال البيضاوي في تفسيره (٤/ ٧٥): (والآية تدل على جواز السهو على الأنبياء وتطرق الوسوسة إليهم). وتبعه أبو السعود (٦/ ١١٤)، ونسبه القرطبي (١٢/ ٨٦) إلى الثعلبي. والذي يظهر لي أن الآية لا تدل على ذلك إلا بالأخذ ببعض الروايات التي قيلت في سبب النزول، وهي واهية. وقد رد الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٣٩) قول بعض المفسرين بأن تلك الكلمات جرت على لسانه صلى الله عليه وسلم سهوا، فليراجع.

(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٣٣ – ٢٤٣٥). فمن هذا القبيل قصة ابن أم مكتوم – رضي الله عنه – الأعمى الفقير الذي جاء إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يسأله بإلحاح أن يقرئه القرآن، والرسول – صلى الله عليه وسلم – مشغول بأمر الوليد بن المغيرة يود لو يهديه إلى الإسلام ومعه صناديد قريش، وابن أم مكتوم لا يعلم انشغاله بهذا الأمر. حتى كره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلحاحه فعبس وأعرض عنه.. فأنزل الله في هذا قرآنا يعاتب فيه الرسول عتابا شديدا، وبين له أن استقامة الإسلام على أصوله الدقيقة أهم من إسلام أولئك الصناديد.

(٣) روى الطبري في تفسيره (١٦/ ٦٠٤) عن محمد بن كعب القرظي، قال: (لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم تولي قومه عنه، وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من عند الله، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب به بينه وبين قومه. وكان يسره، مع حبه وحرصه عليهم، أن يلين له بعض ما غلظ عليه من أمرهم...)، وينظر الكشاف (٣/ ١٦٤)، واللباب (١٤/ ١١٦)، وغرائب القرآن (٥/ ٩٠).

ويرجع الحق إلى نصابه، فتظهر الحقيقة ناصعة بيضاء من بين تلك الظلمات، فتمحو الظلام الذي كان عالقا بنفوس الذين في قلوبهم مرض، وتضيء آفاق العقول السليمة، وتهديهم إلى طريق الرشاد[1].

(١٨٧١)تدل الآية على أن المسلم ينبغي أن يؤمن بأن الله تعالى حكيم في ابتلائه للعباد بالفتن واختباره إياهم في صدق دعواهم للإيمان، فيميز بذلك الخبيث من الطيب، ويُظهر كمائن النفوس، ويبيّن الصادقين، ويفضح المنافقين.

(١٨٧٢)فيها إثبات اسم العليم لله تعالى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٤﴾.

(١٨٧٣)فيها إثبات صفة العلم لله تعالى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٤﴾.

(١٨٧٤)فيها إثبات اسم الحكيم لله تعالى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٤﴾.

(١٨٧٥)فيها إثبات صفة الحكمة لله تعالى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٤﴾.

(١٨٧٦)فيها إيماء إلى أن المسلم ينبغي أن يطلب العلم النافع، لأن من التعبد بأسماء الله الحسنى التخلق بمقتضاها، والتخلق بمقتضى اسم الله "العليم" يكون بطلب العلم.

(١٨٧٧)فيها إيماء إلى أن يسأل الله تعالى أن يعلمه ما ينفعه، وأن يزيده علما؛ لأن الله هو الذي حاز هذه الصفة على الكمال، وهو الذي يعلم الإنسان ما لم يعلم، وقد أمر نبيه عليه السلام فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٤﴾ [سورة طه: ١١٤].

(١٨٧٨)فيها إيماء إلى أن المؤمن ينبغي أن يتحلى بالحكمة، لأن من التعبد بأسماء الله الحسنى التخلق بمقتضاها. والتخلق بمقتضى اسم الله "الحكيم" يكون بطلب الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيرا كثيرا.

---

(١) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٣٠).

(١٨٧٩)فيها إيماء إلى استحباب دعاء الإنسان ربه وسؤاله بهذين الاسمين، لأن دعاءه تعالى بالأسماء الحسنى مطلوب، والله يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٠].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الحج: ٥٣]:

(١٨٨٠)تبين الآية أن من حكمة الله تعالى أنه يقيض بعض أنواع الابتلاء وأسباب الفتنة، لتظهر بذلك مخبوءات النفوس، ويتبين المؤمن الصادق من غيره، ويتميز مَنْ ينهض بأعباء الرسالة من غيرهم[(١)]. ويؤخذ ذلك من أن الله وصف نفسه بالحكمة في آخر الآية السابقة، ومن حكمته أن جعل ما يلقي الشيطان فتنةً لعباده.

(١٨٨١)تدل الآية على أن من مقتضيات حكمته أنه يجعل الإلقاء الشيطانيّ فتنة للشاكّين المنافقين والقاسية قلوبهم عن قبول الحق، ابتلاء لهم ليزدادوا إثمًا، ورحمةً للمؤمنين ليزدادوا ثباتا واستقامة[(٢)].

(١٨٨٢)تدل الآية على أن مرض القلوب مغاير لقسوتها، لأن الله تعالى عطف أحدهما على الآخر، فقال: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾، وذلك يدل على تغايرهما.

(١٨٨٣)تشير الآية إلى أن قسوة القلوب أشد من مرضها، لأن الله تعالى قدم في الذكر: ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾، كأن ما يلقيه الشيطان يفتتن به مرضى القلوب ومن باب أولى قساة القلوب، وذلك: أن القلب يراد منه أن يكون سليما لا آفة به، يتأتى منه ما خلق لأجله. وخروجه عن الاستقامة إما ليبسه وقساوته، وعدم التأتي لما يراد منه، وإما

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٢)، وتفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٨١).

(٢) ينظر محاسن التأويل (٧/ ٢٥٤).

بمرض فيه يمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد[1]. وأكثر المفسرين على أن المرض هو الشك والشبهة، والقاسية قلوبهم هم المكذبون، المشركون الجافية قلوبهم عن الإيمان[2].

(١٨٨٤)تفيد الآية أن الشيطان لا يستطيع إغواء غير مرضى القلوب وقُساتها، حيث يتلقون ما يلقيه بالقبول لخبث سرائرهم ومرض قلوبهم. وتسلطُ الشيطان عليهم إنما هو لكونهم من الظالمين الذين يكونون في غاية الضلال والعناد[3].

(١٨٨٥)تفيد الآية أنه لا بد من اختبار من يؤتمنون على مصالح الخلق؛ لأن أكثر الناس يدعون القدرة على كثير من الأمور، ولكن اختبارهم هو الذي يكشف حقائقهم، ويظهر قدراتهم، ويؤخذ هذا المعنى من أن الله جعل هذه الفتن ليُميِّز مَنْ ينهض بأعباء الرسالة التي لا يقوم بها إلا مَنْ ينفذ من الفتن، وينجو من إغراءات الشيطان، ويتخطى عقباته، لذلك قال تعالى عنهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠].

(١٨٨٦)تفيد الآية أنه قد يكون المرض في القلب كما يكون المرض في البدَن، وقد يؤدي المرض القلبي إلى الهلاك الروحاني، كما أن المرض العضوي قد يؤدِّي إلى الهلاك الجسماني[4]. وإذا كان القلب مريضا فإن صورة الحق لا تثبت فيه لأنه ضعيف مُنحَلّ[5].

(١٨٨٧)تفيد الآية أن المرء ينبغي أن يداوي قلبه من أمراض الشبهات والشهوات، ويلين القسوة التي به، ويجتنب ما يقسّي قلبه، لأن مرض القلب وقسوته هما المناخ الملائم لوسوسة الشيطان[6]، ومن كان متصفا بأحدهما فإنه يتأثر بأدنى شبهة، ويفتتن بذلك أيما افتتان.

---

(١) ينظر إغاثة اللهفان (١/ ١٠).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦١١)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٤١). وهذا ما رواه الطبري (١٦/ ٦١٣) عن ابن جريج.

(٣) ينظر التفسير الحديث (٦/ ٦٤).

(٤) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٧٤).

(٥) ينظر شفاء العليل (ص ١٠٦).

(٦) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٩٦).

(١٨٨٨)تفيد الآية أن القلب قد يقسو، فيكون جامدا يابسا بمنزلة الحجر، فتنتقش فيه الشبه، لا ينفذ إليه الإيمان، ولا ينفع فيه الزجر والتذكير، ولا تقدر على الإقبال على العمل الصالح؛ لأن ذلك يستدعي محلا ليّنا قابلا[١]. ويؤخذ هذا المعنى من قوله: ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [سورة البقرة: ٧٤].

(١٨٨٩)تفيد الآية أن القلب المريض والقلب القاسي أضعف القلوب إيمانا، وأسرعها قبولاً للشبهات، وأقربها إلى الوقوع في الفتنة والضلال، ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

(١٨٩٠)تشير الآية إلى أن الأصل في القلب اللين والسلامة، ولكن يطرأ عليه المرض والقسوة، ولذلك كان لزاما على كل إنسان أن يحفظ قلبه مما يمرضه أو يصيبه بالقسوة.

(١٨٩١)تومئ الآية إلى أن أول ما ينبغي أن يعالجه المربون هو أمراض القلب وقساوتها، لأنه ما دام هناك في القلوب قسوة أو مرض فللشيطان سبيل إلى فتنة الإنسان[٢].

(١٨٩٢) تدل الآية على أن الشك والنفاق من موانع الاهتداء بآيات الله ومن الحجب التي تحجب نور الحق عن القلوب، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، ومرض القلب: الشك[٣]، والنفاق، أي (الذين في قلوبهم مرض من النفاق، وذلك الشكّ في صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقيقة ما يخبرهم به)[٤].

---

(١) ينظر مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٧١)، ونظم الدرر (١٣/ ٧٢)، وتيسير الكريم الرحمن (٥٤٢).

(٢) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٩٧).

(٣) تفسير مقاتل (٣/ ١٣٣)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٤١).

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٦١١).

(١٨٩٣)تومئ الآية إلى أن تقوى الله الراسخة في القلب تتوقف على مداواة القلب من مرض الشبهات، وإزالة القساوة منه؛ لأن هذه الآية تخدم مقصد السورة، وتبين أن مرض القلوب وقساوتها من موانع التقوى[١].

(١٨٩٤)تدل الآية على حماية الله لدينه وحفظه لكتابه وتوليه لعباده المؤمنين، لأن الله تعالى لا يلبث أن يمحو شبه أعداء الدين شيئا فشيئا، ثم يظهر آياته مُحْكمةً لا لَبس فيها ولا خفاء، ولا يبقى لتلك الشبه وزخارف القول أي أثر، إلا على من كان بقلبه قسوة أو مرض[٢].

(١٨٩٥)تفيد الآية أن كل فريق من الكفار في شق يفارق الآخر، فالمشركون في شِقّ، واليهود في شِقّ، والمنافقون في شِقّ، والنفاق ضروب مختلفة، وكل شق بينه وبين الآخر مسافة بعيدة، ولذا وصف الشقاق كله بأنه بعيد عن الحق، مختلف في أجزائه، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ (٣).

(١٨٩٦)تدل الآية على أن الكفار وإن ظهر أنهم متحدون فهم في الحقيقة أو كانوا على دين واحد إلا أنهم على خلاف كبير، يسود بينهم الشقاق، وتفشو بينهم الشحناء والبغضاء، بل قد يفضي بهم الأمر إلى الاقتتال، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾، فهم أبد الدهر في شقاق وأي شقاق[٤].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الحج: ٥٤]:

---

(١) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٨٢).

(٢) ينظر التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٨٤)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٥٣).

(٣) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠٠٧).

(٤) ينظر أوضح التفاسير (١/ ٤٠٨).

(١٨٩٧)تبين الآية منزلة أهل العلم بالله ودينه، وأنهم هم الذين رزقوا قوة التمييز بين البرهان القاطع الذي يستقرّ بالعقل في قرارة اليقين، والمغالطات وضروب السفسطة التي تطيش بالفهم، وتطير به مع الوهم[١].

(١٨٩٨)تشير الآية إلى أن المسلم عليه أن يأخذ من العلم النافع ما يتوقّون به من الافتتان بالشبهات، ويميزون به الحق من الباطل، والرشد من الغي، بما على كل منهما من الشواهد[٢].

(١٨٩٩)تفيد الآية أن اطمئنانَ القلوب وصدق المشاعر، قاصرٌ على أولي العلم، الَّذين جمعوا بين العلم ومعرفة الحقِّ، فهداهم الله إلى الصِّراط المستقيم، قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

(١٩٠٠)في الآية ثناء على أصحاب الرسل بأنهم أوتوا العلم، وهو علم الدين الذي يبلغهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن نور النبوّة يشرق في قلوب الذين يصحبون الرسول. ولذلك تجد من يصحب الرسول صلى الله عليه وسلم قد يكون قبل الإيمان جلفا، فإذا آمن انقلب حكيما، مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٣].

(١٩٠١)في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾، مع نظائره في القرآن دلالة على فضيلة العلم ومنزلة أهله عند الله تعالى.

(١٩٠٢)تفيد الآية أن العلم يدل على الإيمان[٤]، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ﴾، ففرع الإيمان على علمهم بأنه الحق من عند

---

(١) ينظر الإثارة الثالثة: الإمام محمد عبده (ص١٧٨-١٨٠)، ونقله القاسمي في محاسن التأويل (٧/ ٢٦٤).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٢).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٠٢).

(٤) ينظر مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٧١).

الله تعالى. وقد قال تعالى في آية أخرى في شان المتشابه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [سورة آل عمران: ٧].

(١٩٠٣)تدل الآية على أن الإيمان بما أنزل من الله تعالى يورث طمأنينة القلوب ورقَّتها وانقيادها، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾. أي فيستقر ذلك في قلوبهم كقوله تعالى: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠].

(١٩٠٤)تشير الآية إلى أن أفضل القلوب هو القلب السليم المخبِت الذي يجمع بين السلامة والرِّقة واللين، فيبصر الحق بصفائه، ويشتد فيه بصلابته، ويرحم الخلق بلينه، كما في الحديث: ((إن لله آنيةً من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبها إليه ألينُها وأرقُّها))[(١)]، كما قال تعالى في أصحاب هذه القلوب: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [سورة الفتح: ٢٩]، فهذا وصف منه للمؤمنين الذين عرفوا الإيمان بصفاء قلوبهم واشتدوا على الكفار بصلابتها وتراحموا فيما بينهم بلينها[(٢)].

(١٩٠٥)تفيد الآيات أنه لا بد من العناية بالقلب والاهتمام بسلامته؛ لأن الله تعالى ذكر في هاتين الآيتين قلبين مفتونين، وقلبا ناجيا[(٣)]، والناجي: هو القلب الصحيح السليم

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير من حديث أبي عنبة الخولاني مرفوعا، وفي الشاميين (١٩/٢، رقم ٨٤٠). قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (ص: ٨٩٠): (فيه بقية بن الوليد، وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث). وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٢٦٣، رقم ١٦٩١) بعد أن ساق إسناده: (وهذا إسناد قوي، رجاله كلهم ثقات أثبات غير بقية، وهو صدوق كثير التدليس عن الضعفاء كما قال الحافظ، وهو هنا قد صرح بالتحديث كما ترى، فأمنا بذلك شر تدليسه)، وحسنه في صحيح الجامع الصغير (١/ ٤٣٢، رقم ٢١٦٣).

(٢) ينظر شفاء العليل (ص: ١٩٢). وقال البقاعي في نظم الدرر (١٣/ ٧٣): (فإن الله جعل فيها السكينة، فجعلها زجاجية صلبة صافية رقيقة بين المائية والحجرية، نافعة بفهم العلم وحفظه والهداية به لمن يقبل عنهم من الضالين كما ينفع الغيث بقبول طائفة منه لطائفة من الماء، وإنبات ما يقدره الله من الكلأ وغيره، وحفظ طائفة أخرى لطائفة أخرى منه لشرب الحيوان).

(٣) ينظر إغاثة اللهفان (١/ ١٠).

الذي ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الإدراك للحق، تام الانقياد والقبول له. ولذلك فإنه يخبت لربه، ويطمئن إليه ويخضع له.

(١٩٠٦)في الآية تعهد من الله تعالى للذين آمنوا بأن يهديهم إلى تأويل ما تشابه في الدين، وحمل ما أشكل منه على ما تقتضيه الأصول المحكمة، فلا تلحقهم حيرة، ولا تعتريهم شبهة، ولا تزلزل أقدامَهم تُرّهاتُ المبطلين، لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ (١).

(١٩٠٧)تشير الآية إلى أن المؤمنين يزداد يقينهم ويطمئنون إلى ما يؤمنون به بعد الفتنة أكثر من ذي قبل، وذلك لأن الله بين أن أهل العلم تزداد معرفتهم بالحق، ويقوى تعلقهم به، حتى إن قلوبهم تصل إلى درجة الإخبات والطمأنينة: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ (٢).

(١٩٠٨)تتضمن الآية أربع ثمرات من ثمار تدبر القرآن: العلم بأنه حق، والإيمان به، وطمأنينة القلب، وحصول الهداية إلى الصراط المستقيم(٣).

(١٩٠٩)تومئ الآية إلى أن الأمر يظهر أكثر بوجود ضده، كالشمس تكون أحسن وأبهى، بعد أن ينقشع السحاب الذي كان يحجبها، والحلو يكون بعد مذاق المرّ أحلى وألذّ طعما، والعافية بعد السّقم، تكون أهنأ وأطيب(٤)، ويؤخذ هذا من أن الحق ازداد ظهورا وسطوعا بعد محاولة الشيطان لإلقاء الفتنة وصد الناس عن سبيل الله تعالى.

---

(١) ينظر تفسير الزمخشري (٣/ ١٦٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٢)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٤٩)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٣١).

(٢) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٦٩).

(٣) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ٢١).

(٤) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٦٩ - ١٠٧٠).

(١٩١٠)تشير الآية إلى أن الحق كلما جُودل أهله ظهرت حججه، وأسفرت وجوهه، ووضحت براهينه، وغمرت لُجَجِه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [سورة البقرة: ٢٦][(١)].

(١٩١١)تشير الآية إلى أن الله تعالى يُعين الذين آمنوا ويوفقهم لسلوك الصراط المستقيم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾، والمراد بالهدى هداية التوفيق والمعونة، أما هداية الدلالة والإرشاد فهي تشمل الجميع[(٢)].

(١٩١٢)تومئ الآية إلى أن إيمانهم هو سبب هداية الله لهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾، فإظهار لفظ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في مقام ضمير ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ لقصد مدحهم بوصف الإيمان، والإيماء إلى أن إيمانهم هو سبب هديهم. وعكسه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾ [سورة الزمر: ٣].

(١٩١٣)تفيد الآية أن الله يوفق عباده إلى إفراده تعالى بالعبادة، ولذلك جاء في آية أخرى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦﴾ [سورة مريم: ٣٦].

(١٩١٤)تفيد الآية أن مجموع شرائع الإسلام طريق واضح موصل إلى رضوان الله والفوز بالجنة، لا طول فيه ولا اعوجاج، ويؤخذ هذا المعنى من تسميته للدين في الآية بالصراط المستقيم[(٣)].

(١٩١٥)تفيد الآية أن الاستقامة محمودة، والاعوجاج مذموم، ولذلك يصف الله المؤمنين بأنهم استقاموا على طاعة ربهم حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ

---

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٧٣).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٠٧)، والتفسير المأمون (٥/ ٢١٠).

(٣) قال مقاتل (٣/ ١٣٤) في تفسير الآية: (يعني دينا مستقيما).

عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الأحقاف: ١٣]، ويأمر نبيه فيقول: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾ [سورة هود: ١١٢]، ويأمر عباده فيقول: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [سورة فصلت: ٦].

(١٩١٦)تفيد الآية إلى أنّ أهم ما يُكرم الله به عبادَه المؤمنين أن يهديَهم إلى دينه، لأنه هو الذي يوصلهم إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

(١٩١٧)تفيد الآية إلى أن أهم ما يسأله المسلم هو أن يهديه ربه ويوفقه لسلوك طريق الأنبياء والمرسلين، ولذلك جعل هذا الدعاء في السورة التي يقرأ بها في كل ركعة من الصلاة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [سورة الفاتحة: ٦ – ٧].

(١٩١٨)تفيد الآية إلى أن الله تعالى يرشد المؤمنين في كل معضلة إلى طريق مستقيم ينجون به من الفتن، ويتخلصون به من الأسباب التي تضلهم عن دينهم أو تصرفهم عن آيات ربهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾، بالتنكير، لِيُناسب كلَّ فتنة تعرض لهم.

(١٩١٩)تفيد الآيات إلى أن المسلم لا ينبغي له أن يجزع من سعي شياطين الإنس بالأباطيل ليصدوا الناس عن سبيلهم، فسعيُهم خائب، وشبهاتهم إلى زوال، فإن الصراع بين الحق والباطل قديم، عرفه جميع الأنبياء والمرسلين، وهو ينتهي دائما بانتصار الحق وظهوره[1].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٖ ٥٥﴾ [سورة الحج: ٥٥]:

(١٩٢٠)تدل الآية أن الشك في أصول الإيمان وتنزيل القرآن يظل قائما في نفوس الكفَرة، ومن الصعب اقتلاع الشكوك من نفوس أناس أدمنوا على الضلال، واستمروا في

(١) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٣٩).

العصيان، فإن ذلك يوجد ما يسمى «الران» أو الغطاء على القلب، فيحجب عنه كل أشعة الخير، وأضواء الهداية الربانية[1].

(١٩٢١)تدل الآية أنه لا يخلو زمن من الأزمان من المتشككين في الدين، الممترين في آيات رب العالمين التنزيلية والكونية، وهكذا في كل عصر إلى قيام الساعة[2].

(١٩٢٢)تفيد الآية أن إنكار طائفة للحقيقة لا يعني أنها باطل، فإن القرآن حق، ومع ذلك سيبقى جمع من الناس يشكون في صحته – مع ظهور براهينه وسطوع حججه – إلى أن يهلِكوا.

(١٩٢٣)تفيد الآية أن الداعية لا ينبغي أن يُفاجَأ إذا تعثرت الدعوة ولم تتحقق أمانيه، أو تعذرت، فإن طائفة من الناس سيبقون على كفرهم حتى يصيبهم عذاب الدنيا أو الآخرة، ولن يبصروا الحق بسبب قسوة قلوبهم واستفحال المرض فيها، وإصرارهم على الشك والتكذيب[3].

(١٩٢٤)في الآية إشارةٌ إلى الناس الذين تقوم عليهم الساعة يكونون في غفلة عنها مع ظهور علاماتها، فتأتيهم فجأة رغم تلك المقدمات التي تنذر بقرب وقوعها، ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾، وقد ورد هذا المعنى في آيات أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٦٦﴾ [سورة الزخرف: ٦٦].

---

(١) ينظر التفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٥٩).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٢).

(٣) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٨٢).

(١٩٢٥)تشير الآية إلى أن المرتابين في القرآن الكريم سيصدقون بما فيه عند قيام الساعة، ولكن لن ينفعهم تصديقهم حينئذ، ويؤخذ هذا المعنى من جعْل الساعة غايةً لكفرهم[١]، حيث قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾، إشارة إلى أنهم يؤمنون عند قيامها أو عند ظهور أشراطها الكبرى المؤذِنة بوقوعها على وجه الإلجاء[٢].

(١٩٢٦)تومئ الآية إلى أنه لا ينبغي الاغترار بالسلامة وحسن الحال في الدنيا فإن الساعة تباغت المجرمين فلا يستطيعون منها فرارًا، قال قتادة رحمه الله: (...وما أخذ الله قوماً قطُّ إلا عند سكرتهم وغِرّتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغترُّ بالله إلا القوم الفاسقون)[٣].

(١٩٢٧)فيها حض على اغتنام الحياة الدنيا في الطاعات والتوبة من المحرمات قبل يوم القيامة، لأنه يوم عقيم، لا يقبل فيه توبة ولا إيمان ولا شفاعة، لا يلد لهم خيرا، ولا تثمر فيه أعمالهم ثوابا، ولا توبتهم قبولا[٤].

(١٩٢٨)تومئ الآية إلى أن يوم الإنسان ينبغي أن يكون مثمرا لا عقيما ما دام على قيد الحياة، فيلزم أن يجتهد ليغرس فيه ما يجنيه غدا، ويكون غده أفضل من أمسه، ويصير حاله في مستقبله أحسن منه في ماضيه، ويؤخذ هذا من وصف يوم القيامة على أرجح الأقوال باليوم

---

(١) ولذلك جاء بعدها قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ (الحج: ٥٦)، وتقديره: الملكُ يوم يؤمنون، أو يوم تزول مريتهم. ينظر الكشاف (٣/ ١٦٦)، وفتوح الغيب (١٠/ ٥١٦).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٤٦)، وعزاه لابن أبي حاتم، ولفظه في تفسير ابن أبي حاتم المطبوع (٤/ ١٢٩١، رقم ٧٢٩٤): (بغت القومَ أمر الله، وما أخذ الله قوما قط إلا عند سلوتهم وعزتهم ونعمتهم، فلا تفتروا بالله، إنه لا يفتر بالله إلا القوم الفاسقون)، وواضح أن فيه تصحيفا في أكثر من كلمة.

(٤) ينظر الفواتح الإلهية (١/ ٥٥٨).

العقيم[1] لأنه لا يوم بعده حتى يتحول الناس وتصلح أحوالهم، أو لأنه لا خير لهم فيه ولا بركة، كما (يقال: ريح عقيم، إذا لم تنشئ مطرا، ولم تلقح شجرا)[2].

(١٩٢٩)في هذه الآية تحذير للمتشككين في القرآن الكريم من الهلاك بعذاب دنيوي يستأصلهم، فيتقطع عنهم أمل التوبة أو التدارك؛ لأن طائفة من مفسري السلف فسّروا اليوم العقيم في الآية بمعركة بدر[3]، ورجحه الطبري وغيره[4].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الحج: ٥٦].

(١٩٣٠)في تخصيص الملك لله في يوم القيامة، مع أن الملك لله أبدا، إشارة إلى أن في هذا اليوم يتجرد كل ذي سلطان من سلطانه، وكل ذي قوة من قوته، وكل ذي مال من ماله، فلا تصريف لأحد في الظاهر أو الباطن، كما للناس تصريف- في الظاهر- فيما خوّلهم الله من سلطان وأموال في الدنيا[5]. والله تعالى يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [سورة آل عمران: ٢٦].

(١٩٣١)فيه إشارة إلى الذين يحكمون في الأرض أن يُطيعوا ملك الملوك سبحانه، ويخضعوا لأحكامه، ويعدوا العدة ليوم القيامة الذي يزول فيه سلطانهم، ويكونون كسائر العباد لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا.

---

(١) قواه الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٤٢)، وصححه ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٤٦).

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٦٦).

(٣) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٤١٠، رقم ١٩٤٨) عن أبي بن كعب، ورواه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ٩٠، رقم ٨٥) عن ابن عباس، ورواه الطبري (١٦/٦١٦ - ٦١٧)، ذلك عن مجاهد وابن جبير وقتادة.

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦١٧)، والكشف والبيان (٧/ ٣١)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٣٠).

(٥) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٧١).

(١٩٣٢)تفيد جواز نسبة الملك إلى المخلوقين في الدنيا، لأن الله تعالى قال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، أي أن الملك المطلق يكون خالصًا له يوم القيامة، وإن كان الملك له في الدنيا أيضا، إلا أن في الدنيا أناسا يسمون ملوكًا، ويوم القيامة لا يكون فيه اسم الملك إلا لله – جل وعلا – وحده، لا يدّعي الملك أحد سواه، إذ يكونون مملوكين فيه لله هم وما ملَكوا كما كانوا في الدّنيا في الحقيقة[١].

(١٩٣٣)تفيد الآية أن الحُكم بين المختصمين من الخلق قد يكون بالقول، وقد يكون بإظهار آثار الحق لفريق وإظهار آثار الباطل للفريق الآخر، لأن الله تعالى عقب على حكمه بينهم ببيان مصير المؤمنين والكافرين[٢].

(١٩٣٤)في الآية إنذار شديد بأن المؤمنين ومخالفيهم من الكفار يلاقون ربهم، ويواجهون أعمالهم، ويفصل بينهم سبحانه بالحق والقسطاس المستقيم[٣].

(١٩٣٥)تدل الآية على أن الجنة فيها نعيم القلب والروح والبدَن، مما لا يصفه الواصفون، ولا تدركه العقول، يستمتعون فيها بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[٤].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الحج: ٥٧]:

(١٩٣٦)في الآية تنبيهٌ على أن إثابة المؤمنين بالجنات تفضُّلٌ من الله تعالى، وأن عقاب الكافرين مسبَّبٌ من أعمالهم. ويؤخذ هذا من إدخال الفاء في خبر هذه الآية الثاني:

---

(١) ينظر أضواء البيان (٥/ ٢٩١)، وبيان المعاني (٦/ ١٨٦).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٠٩).

(٣) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠١٠).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٣).

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾، دون الآية التي سبقتها: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦﴾ (١).

(١٩٣٧)تفيد الآية أن الإهانة نوع من العقاب، لأنه نص على أن الكفار: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾. يذهب بعزّهم وكِبْرهم بالكلية، ويذيقهم من المهانة والخزي والذلة والصغار ما لا يحيط به الوصف(٢)، فيجتمع عليهم الألم الحسي والنفسي.

(١٩٣٨)تومئ الآية إلى أن بعض الناس قد يتألمون بالإهانة أكثر مما يتألمون من العذاب الحسّي، ولذلك جمع الله للمجرمين كل أشكال العذاب الموجعة للبدن، المؤلمة للنفس، المشعرة بالذل والهوان. ويؤخذ هذا من أن الله وصف العذاب هنا بأنه عذاب مهين، ووصفه في آيات أخرى بأنه عذاب أليم(٣).

(١٩٣٩)تفيد الآية أن العقاب يكون بضد المقصود، فقد كفر الكفار وكذبوا بآيات الله علوا واستكبارا، ولذلك يعذبهم الله يوم القيامة بالعذاب المذل الذي يلحق بهم في الهوان؛ جزاءً على تكبرهم على اتباع الحق وسعيهم في إهانة آيات الله مريدين إعزاز أنفسهم بمغالبتها(٤)، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [سورة غافر: ٦٠]، أي صاغرين(٥).

---

(١) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٥١٦)، والسراج المنير (٢/ ٥٦٢).

(٢) ينظر روح البيان (٦/ ٥١)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٧٨).

(٣) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٩٥).

(٤) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٧٦)، وزهرة التفاسير (٩/ ٥٠١١).

(٥) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٤٧)، وينظر تفسير ﴿دَاخِرِينَ ٦٠﴾ في: غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، وتفسير الطبري (٢٠/ ٣٥٤)، والكشف والبيان (٨/ ٢٨٠)، وغيرها.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ۝٥٩﴾ [سورة الحج: ٥٨ – ٥٩].

(١٩٤٠)فيها فضل مفارقة الأوطان والأهل من أجْل الله تعالى وطاعةً له وابتغاءً لرضاه[١]. وقد أعاد الله ذِكْرهم في هذه الآية وإن كانوا داخلين في الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذين ذُكِروا في الآيات السابقة تعظيمًا لهم وتفخيمًا لشأنهم، لكونهم فارقوا أوطانهم وأموالهم ابتغاءَ مرضاة الله[٢].

(١٩٤١)تفيد الآية مشروعية الهجرة في سبيل الله من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، وأنها باقيةٌ إلى قيام الساعة؛ لأن الله تعالى وعد المهاجرين في سبيله بالرزق الحسن، ولم يقيِّد ذلك بزمن النبوة.

(١٩٤٢)فيها إشارة إلى أن الهجرة من أجل الدنيا ليس فيها فضيلة ولا ثواب في ذاتها؛ لأن الله تعالى إنما وعد الذين هاجروا في سبيله، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾، فكانت "سبيل الله" ظرفاً لهجرتهم، فلم يكن لهم بها غرض آخر[٣].

(١٩٤٣)تدل الآية على فضل الهجرة في سبيل الله، وذلك أنه لما استوى المهاجرون في هذا العمل، سوَّى الله تعالى بينهم في الوعد بنعيم الجنة[٤]، وأخبر أنه يعطِي من مات منهم مثل ما يعطِي من قُتل في سبيله تفضلا منه وإحسانا[١].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦١٨).

(٢) ينظر تفسير الأعقم.

(٣) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٧٧).

(٤) قال الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٤٣): (لا شبهة في أن الرزق الحسن هو نعيم الجنة... لأنه تعالى جعله جزاءً على هجرتهم في سبيل الله بعد القتل والموت، وبعدهما لا يكون إلا نعيم الجنة).

(١٩٤٤)في هذه الآية حثٌّ على تجمُّع المؤمنين تحت لواء واحد، ودعوةٌ لكل مؤمن إلى الهجرة إلى هذا التجمع، حتى لا يكون المؤمنون مُشتَّتين في الأرض، ولا يعيشوا أذلةً مستضعفين في أرض لا يستطيعون أن يقيموا فيها شعائر دينهم، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [سورة النساء: ٩٧ – ٩٩][(٢)].

(١٩٤٥)تشير الآية إلى عِظَم منزلة النية، فإن الهجرة التي يُجزى من مات أو قتل بعدها هي الهجرة في سبيل الله، وإنما تتميز عن نظائرها من الهجرات – التي تشابهها في الصورة – بالنية، ولذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام: ((إنما الأعمال بالنيات، – وفي رواية: بالنية – وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه))[(٣)].

(١٩٤٦)في الآية إشارةٌ إلى أن ثمة فرقًا بين الموت والقتل، مع أنهما يجتمعان في مفارقة الحياة؛ لأن الله تعالى عطف الموت على القتل فقال: ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟﴾، والعطف يدل على التغاير، والفرق بينهما أن الموت هو خروج الروح دون نَقْضٍ للبنية، أما القتل فهو نَقْضٌ للبِنْية البشرية يترتب عليه خروج الروح[(٤)].

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٦٧).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠١١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الأيمان والنذور، باب النية في الأيمان، ح ٦٣١١، ٦/ ٢٤٦١). ومسلم في صحيحه: (كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنية)، ح ١٩٠٧، ٣/ ١٥١٥ – ١٥١٦).

(٤) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٩٦).

(١٩٤٧)تفيد الآية تفضيل الذين ماتوا وقتلوا في سبيل الله تعالى على سائر موتى المسلمين؛ لأن الله تعالى خصهم بالوعد المؤكد بالرزق الحسن في الجنة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗا﴾، ولم يرِدْ مثل ذلك في غيرهم[(١)]. والجمع بينهم في الرزق الحسن لا يقتضي أنهم سواء فيه، لأن مراتبَ الحُسنِ متفاوتةٌ، فيجوزُ تفاوتُ حال المرزوقينَ حسب تفاوت الأرزاقِ الحسنةِ[(٢)].

(١٩٤٨)تومئ الآية إلى أن من ترك شيئا من أجْل الله تعالى فإن الله يعوضه خيرا منه في الدنيا والآخرة، فقد ترك المهاجرون ديارهم وأموالهم في سبيل الله، وضحوا بكل أعراض الحياة الدنيا ابتغاء رضوان الله ونصر دينه، فتكفل سبحانه لهم بالعوض الكريم عما فقدوه، وهو الرزق الحسن في الجنة، وهو رزق أكرم وأجزل من كل ما تركوا. وقد خرجوا مخرجا يرضي الله، فتعهد لهم بأن يدخلهم مدخلا يرضونه، فييسر لهم دخول الديار التي قصدوها، ويفتح لهم البلدان، ويمكنهم من خيراتها عوضا عما فقدوه، وفي الآخرة يدخلهم جناتِ النعيم خالدين فيها أبدا[(٣)].

(١٩٤٩)في الآية إيماءٌ إلى فضيلة المهاجرين من الصحابة رضوان الله عليهم، وردٌّ على الروافض الذي يتنقّصون منهم، لأن المهاجرين يصدق عليهم ما ذكر الله في هذه الآية من أوصاف، فهم قد هاجروا من مكة إلى المدينة في سبيل الله، ومنهم من هاجر كذلك إلى الحبشة، فماتوا أو قتلوا، وقد وعدهم الله بأن يُرضيهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ۝٥٩﴾ [سورة الحج: ٥٨ – ٥٩].

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٨٨).

(٢) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١١٦).

(٣) ينظر موسوعة فقه القلوب للتويجري (٣/ ٢٤٧٧).

(١٩٥٠)تفيد الآية أن المسلم يجب أن يُوطِّن نفسه على الصبر إن هاجر في سبيل الله، فربما يُوسِعهم الكفار تنكيلا، ويقتلونهم تقتيلا، وإلى هذا تشير قراءة ابن عامر ﴿قُتِّلوا﴾ بالتشديد[(١)]، دلالة على التكثير والمبالغة في القتل[(٢)].

(١٩٥١)تفيد الآية استواء أمرِ مَن هاجر في سبيل الله ومات بمن قتل في سبيل الله في الثواب عند الله تعالى؛ لاستوائهما في القصد وأصل العمل[(٣)]. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى جمع بينهما في الوعد بالرزق الحسن فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨﴾ [سورة الحج: ٥٨][(٤)]. ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٠﴾ [سورة النساء: ١٠٠]، وحديث أمِّ حرام بنتِ مِلْحان، فإنها صُرِعت عن دابتها فماتت ولم تقتل، وقد بشرها النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك فقال: ((أنتِ من الأولين))[(٥)]، وحديث عبد الله بن عتيك مرفوعا: ((من خرج من بيته

---

(١) ينظر التيسير في القراءات السبع ت الشغدلي (ص: ٣١٨)، والكنز في القراءات العشر (٢/ ٤٤٤).

(٢) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٨٩)، والتفسير المظهري (٦/ ٣٤٣)، والقراءات وأثرها في علوم العربية (١/ ٤٣٦).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦١٩)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٦).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦١٨)، ثم روى (١٦/ ٦١٩) عن سلامان بن عامر، قال: كان فضالة بِرُودس أميرا على الأرباع، فخرج بجنازتي رجلين، أحدهما قتيل، والآخر متوفى؛ فرأى ميل الناس مع جنازة القتيل إلى حفرته، فقال: (أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل، وتفضلونه على أخيه المتوفى؟ فقالوا: هذا القتيل في سبيل الله. فقال: فوالذي نفسي بيده ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت، اقرأوا قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾ [سورة الحج: ٥٨)، إلى قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩﴾ [سورة الحج: ٥٩].

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الجهاد، باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء، ح ٢٦٣٦، ٣/ ١٠٢٧)، وأخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الإمارة، باب فضل الغزو في البحر، ح ١٩١٢، ٣/ ١٥١٨). ونص الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: (حدثتني أم حرام أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يومًا في بيتها، فاستيقظ وهو يضحك، قالت: يا رسول الله ما يضحكك؟ قال: ((عجبت من قوم من أمتي يركبون البحر كالملوك على الأسِرّة)). فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: (أنت معهم). ثم نام فاستيقظ وهو يضحك، فقال مثل ذلك مرتين أو ثلاثا، قلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فيقول: ((أنتِ من

مجاهدا في سبيل الله – وأين المجاهدون – فخَرَّ عن دابته ومات فقد وقع أجره على الله، أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله، أو مات حتْفَ أنْفِه فقد وقع أجره على الله، ومن قُتِل قَعْصًا فقد استوجب المآب))[1].

(١٩٥٢)تفيد الآية أن هجرة المؤمنين في سبيل الله هي جهاد في ذاته، وهي تعدل الجهاد في سبيل الله في الثواب[2].

(١٩٥٣)تدل الآية أن الذين نالوا مرتبة الشهادة فقتلوا أو ماتوا في سبيل الله يتوالى عليهم رزق الله تعالى في عالم البرزخ، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩][3]. ويؤيده ما روي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((من مات مرابطا أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزقَ، وأمن الفتّانَيْن، واقرأوا إن شئتم:

---

الأولين)). فتزوج بها عبادة بن الصامت، فخرج بها إلى الغزو، فلما رجعت قربت دابة لتركبها، فوقعت فاندقت عنقها). وهذا اللفظ أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الجهاد، باب ركوب البحر، ح ٢٧٣٧، ٣/ ١٠٦٠).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦/٤، رقم ١٦٤٦١) من حديث محمد بن عبد الله بن عتيك عن أبيه، والطبراني في الكبير (١٩١/٢، رقم ١٧٧٨). قال الهيثمي في المجمع (٢٧٧/٥): (فيه محمد بن إسحاق مدلس، وبقية رجال أحمد ثقات). وأخرجه كذلك الحاكم في المستدرك (كتاب الجهاد، ح ٢٤٤٥، ٩٧/٢)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي، والبيهقي في سننه (جماع أبواب السير، باب فضل من مات في سبيل الله، ح ١٨٥٣٦، ٩/ ٢٧٩)، والظاهر أن فيه علتين: عنعنةَ ابن إسحاق، وجهالةَ محمد بن عبد الله بن عتيك، فقد انفرد بالرواية عنه محمد بن إبراهيم التيمي، كما ذكر ابن حجر في "تعجيل المنفعة" (٢/ ١٨٧، رقم ٩٤٦)، ولم يوثقه غيرُ ابن حبان (الثقات: ٥/ ٣٥٥، رقم ٥١٨٠). و"قعصًا": إذا أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه، والمآب: أراد به حسن المرجع بعد الموت، بدخول الجنّة.

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠١٢)، وأيسر التفاسير (٣/ ٤٩٢).

(٣) وهذا من المعاني التي تحتملها الآية، ينظر تفسير البغوي (٥/ ٣٩٦)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٣٠)، وقدمه الألوسي في روح المعاني (٩/ ١٧٨) على غيره من الأقوال. ولكن رجح ابن جُزيّ أن المراد هو الرزق الحسن في الدار الآخرة، فقال في التسهيل (٢/ ٤٤): (يحتمل أن يريد به الرزق في الجنة بعد يوم القيامة، أو رزق الشهداء في البرزخ، والأول أرجح، لأنه يعم الشهداء والموتى).

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿حَلِيمٞ ٥٩﴾ [1].

وقال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر: ((الشهداء على بارقٍ – نهرٍ بباب الجنة – في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا)) [2].

(١٩٥٤)فيها إشارة إلى أن عظم الثواب مع عظم المشقة التي يلقاها المطيع في امتثال أمر الله ابتغاء مرضاته؛ لأن الله تعالى لم يعظم شأن الهجرة في هذه الآية وغيرها ولم يخص المهاجرين

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بهذا اللفظ في تفسيره (٨/ ٢٥٠٣، رقم ١٤٠١٠)، ونقله عنه ابن كثير في تفسيره (٥/ ٤٤٨)، وعزاه السيوطي في الدر (٦/ ٧٠) كذلك إلى ابن مردويه. وقد رواه مسلم في صحيحه (كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله عز وجل، ح ١٩١٣، ٣/ ١٥٢٠) بلفظ: ((رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتان)). وأخرجه ابن حبان في صحيحه بنحوه (١٠/ ٤٨٥، ح ٤٦٢٦)، وأخرج أحمد في مسنده (٢/٤٠٤، رقم ٩٢٣٣) من حديث أبي هريرة: ((من مات مرابطا وُقيَ فتنة القبر، وأمن من الفزع الأكبر، وغُدِيَ عليه وريح برزقه من الجنة، وكتب له أجر المرابط إلى يوم القيامة))، وقال محققو طبعة الرسالة (١٥/ ١٣٧): (حديث صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد ضعيف من أجل ابن لهيعة). وأخرجه ابن ماجه في سننه (كتاب الجهاد، باب فضل الرباط في سبيل الله، ح ٢٧٦٧، ٢/ ٩٢٤) بلفظ: ((من مات مرابطا في سبيل الله أجرى عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل، وأجري عليه رزقه، وأمن من الفتان، وبعثه الله يوم القيامة آمنا من الفزع))، وضعف البوصيري إسناده في الزوائد (٢/٥٤). وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٨/٢٠١) وقال: (غريب). وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٣٢٦، ح ٣٢٩٩) بلفظ قريب من لفظ أحمد، وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٩٠): (ورجاله ثقات)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٥٥، رقم ٣٤٧٩).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٦٦، رقم ٢٣٩٠) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/٢٩٤): (رجاله ثقات)، وقال محققو طبعة الرسالة للمسند (٤/ ٢٢٠): (إسناده حسن، ابن إسحاق حسن الحديث، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح). وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٤/٢٠٣، رقم ١٩٣٢١)، والطبري في تفسيره (٢/ ٧٠٢)، وجوّد ابن كثير إسناده في تفسيره (٢/ ١٦٤)، والطبراني في الكبير (١٠/٣٣٣، رقم ١٠٨٢٥)، وابن حبان في صحيحه: (كتاب السير، باب فضل الشهادة، ح ٤٦٥٨، ١٠/٥١٥)، والحاكم في المستدرك (كتاب الجهاد، ح، ٢٤٠٣، ٢/٨٤)، وصحح إسناده على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. والبيهقي في شعب الإيمان (الجهاد، ح ٤٢٤١، ٤/١٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٩٥، رقم ٣٧٤٢). و"بارق" بين مسماه بالإبدال منه: ((نهرٍ بباب الجنة))، ينظر التنوير شرح الجامع الصغير (٦/ ٥٥٤).

في سبيله بالوعد بالرزق الحسن والمدخل المرْضيّ إلا لما يلقاه المهاجرون من المشاق والأخطار، وما يكابدونه من الشدائد والأهوال.

(١٩٥٥)في الآية حثٌّ ضمنيٌّ على الهجرة في سبيل الله من البلد الظالم أهلُها وحكامُها؛ وذلك لأن الله بشّر المهاجرين في سبيله بحسن العاقبة على كلّ حال، سواء أَقُتلوا أم ماتوا أم ظلّوا أحياء[١].

(١٩٥٦)تتضمن الآية التحفيز على ألّا يرضى المسلم بالإقامة في دار الظلم والذلّ والهوان[٢]؛ لأن الله تعالى مدح الهجرة في سبيله لو عرض في أثنائها الموت أو القتل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ۝٥٩﴾ [سورة الحج: ٥٨ – ٥٩].

(١٩٥٧)تدل الآية على أن من خرج من بلاده من أجل الجهاد في سبيل الله، فمات من غير قتل، فإنه يكون له مثل أجر من قتل في سبيل الله، لأن الآية سوّت بينهما بكلمة "أو"، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾. وقد قال سبحانه في آية أخرى: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝١٥٧﴾ [سورة آل عمران: ١٥٧]

(١٩٥٨)تدل الآية بضميمة نصوص شرعية أخرى أن ثواب من قتل أو مات في سبيل الله مقيد باجتناب الكبائر، أما من اقترف كبيرة من الكبائر ولم يتب منها فهو في مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له[٣].

---

(١) التفسير الحديث (٦/ ٦٨).

(٢) التفسير الحديث (٦/ ٦٨).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٣).

(١٩٥٩)تشير الآية إلى أن من قتل في سبيل الله أفضل ممن مات بعد الهجرة في سبيل الله[١]، وذلك أنه قدم ذكرهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾، وقد جاء في الحديث ما يفيد أن القتل في سبيله على مراتب فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم: ((فأي الجهاد أفضل؟ قال: من جاهد المشركين بماله ونفسه. قيل: فأي القتل أشرف؟ قال: من أُهريق دمُه وعُقِر جوادُه))[٢]. (وإذا كان من أُهريق دمُه وعُقِر جوادُه أفضلَ الشهداء عُلِم أنه من لم يكن بتلك الصفة مفضولٌ)[٣].

(١٩٦٠)تفيد الآية بضميمة الحديث النبوي أن الله تعالى يثيب المرابط في سبيل الله إذا مات حتْف أنفه بما يثيب به من قُتل في سبيله[٤]، ويؤخذ ذلك من أن المرابط يشمله قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((من مات مرابطا في سبيل الله أجرى الله عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمله، وأجرى عليه رزقه، وأمن من الفتّان، وبعثه الله يوم القيامة آمنًا من الفزع))[٥].

---

(١) قال ابن جزي في التسهيل (٢/ ٤٤): (ولا يقتضي ذلك المساواة بينهم، لأن تفضيل الشهداء ثابت). وقد يستدل على التسوية بما روي عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المقتول في سبيل الله والمتوفي في سبيل الله بغير قتل هما في الأجر شريكان)، فإن لفظ الشركة مشعر بالتسوية كما ذكر الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٤٤)، وإلا فلا يبقى لتخصيصها بالذكر فائدة، ولكنني لم أعثر على هذا الحديث.

(٢) أخرجه أحمد (٤١١/٣، رقم ١٥٤٣٧)، وقال الأرنؤوط في تحقيقه للمسند (٢٤/ ١٢٢، رقم ١٥٤٠١): (إسناده قوي)، وأخرجه الدارمي في سننه (كتاب الصلاة، باب أي الصلاة أفضل، ح ١٤٦٤، ٢/ ٨٩٢)، وأبو داود في سننه: (كتاب الصلاة، باب فضل التطوع في البيت، ح ١٤٤٩، ٦٩/٢)، والنسائي في سننه: (كتاب الزكاة، باب جهد المقل، ح ٢٥٢٦، ٥٨/٥). و"عُقِر جواده": أي جُرح فرسه، وضُربت قوائمه بالسيف.

(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٨٩)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٤٦).

(٤) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٧٧).

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه: (كتاب الجهاد، باب فضل الرباط في سبيل الله، ح ٢٧٦٧، ٩٢٤/٢). قال البوصيري في الزوائد (١٥٥/٣): (هذا إسناد صحيح رجاله ثقات). وأخرجه أحمد في مسنده (٤٠٤/٢، رقم ٩٢٣٣) بلفظ: ((من مات مرابطا وُقِي فتنة القبر، وأمن من الفزع الأكبر، وغُدِي عليه ورِيحَ برزقه من الجنة، وكُتِب له أجرُ المرابط إلى يوم القيامة)).

(١٩٦١)تدل الآية على وجوب الهجرة من الأرض التي لا يمكن فيها من أداء شعائر دينه على من له قدرة عليها وإن كان يتوقع بها القتل والموت، فإن الله تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨﴾ [سورة الحج: ٥٨]، فلم يجعل الله تعالى هذه الأمور التي قد تقع للمهاجر عذرا في ترك الهجرة، لأن الهلاك في الهجرة والجهاد هو السلامة فإنه شهادة، والشهداءُ ﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩][(١)].

(١٩٦٢)في هذه الآية إشارة إلى أن حفظ الدين مقدَّم على حفظ النفس، ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى وعد المهاجرين من أجل صيانة دينهم وإقامة شعائرهم وأداء عباداتهم بالثواب العظيم إن هم قتلوا أو ماتوا بعد هجرتهم، فدل على تقديم حفظ الدين الكُلِّيّ ولو أدى إلى إزهاق الأرواح.

(١٩٦٣)تدل الآية على فضيلة الصحابة والشهادة لهم بالجنة خلافا لما يقوله الرافضة الذين يدّعون أنه عامتهم قد ارتد؛ وذلك لأن الله تعالى شهد الله لهم في هذه الآية بالجنة والرزق الحسن والمدخل المرضيّ؛ سواء من قتل منهم أو مات حتف أنفه[(٢)].

(١٩٦٤)تدل الآية على أن المهاجر في سبيل الله عليه أن يظن به سبحانه أنه سيرزقه رزقا طيبا يعوضه عما تركه، ولا يتوهم أنه إذا ترك دياره وأمواله سيفتقر؛ لأن الله تكفّل للمهاجر في سبيله بأن يرزقه في الدنيا رزقا واسعا حسنا، سواء علم منه أنه سيموت على فراشه، أو أنه سيقتل شهيدا، فإن رازقه هو خير الرازقين. وهذا مما تحتمله ألفاظه الآية، فقد أقسم الله تعالى أنه سيجزيهم بأمرين: أحدهما في الدنيا، وذلك بقوله: ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾. والثاني في الآخرة بقوله: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ﴾. وقد وقع كما أخبر، فإن المهاجرين السابقين تركوا ديارهم وأموالهم نصرة لدين الله، فلم يلبثوا إلا يسيرا حتى رزقهم الله من

(١) ينظر المطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد، للشيخ عبد الرحمن بن حسن (ص: ١٢٦).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٣٤).

الفيء والغنائم، ثم فتح الله عليهم البلاد ووسع عليهم في الأرزاق[(١)]. وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمانٌ بي وتصديقٌ برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة))[(٢)]، وقال في حديث آخر: ((تكفَّل الله لمن جاهد في سبيله - لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته - بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة))[(٣)].

(١٩٦٥)تفيد الآية أن كل من كان سببا في تقوية الدين ونصرته كان ثوابه أعظم، وذلك لأن الله تعالى إنما وعد المهاجرين بالثواب لأن من هاجر مع الرسول صلى الله عليه وسلم وفارق دياره وأهله لتقويته ونصرة دينه مع شدة قوة الكفار وظهور صولتهم صار فعلُه سببًا لتقوية الدين، وعلى هذا الوجه عظم محلّ الأنصار حتى صار ذكرهم والثناء عليهم تاليا لذكر المهاجرين لما آووا النبي - صلى الله وعليه وسلم - ونصروه[(٤)].

(١٩٦٦)تفيد الآية أن الرزق المحمود المطلوب هو الرزق الذي يستحسنه كل طبع وعقل، ولذلك وعد الله تعالى المهاجرين في سبيل الله بالرزق الحسن، فقال: ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًا﴾.

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٣)، وزهرة التفاسير (٩/ ٥٠١٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان، ح ٣٦، ١/٢٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الخمس، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((أحلت لكم الغنائم))، ح ٢٩٥٥، ٣/ ١١٣٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، ح ١٨٧٦، ٣/١٤٩٦). وفي حديث آخر: ((انتدب الله عز وجل لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة...)) رواه البخاري في صحيحه: (كتاب الإيمان، باب: الجهاد من الإيمان، ح ٣٦، ١/ ٢٢).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٣).

(١٩٦٧)تشير الآية أن المسلم عليه أن يسعى في طلب الرزق الحسن، وأن يتجنب ما ليس بحسن؛ لأن الله تعالى وصف ما سيرزقهم إياه بقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾. وهو يدل بمنطوقه على أن هنالك رزقًا حسنا، ويدل بمفهومه أن هنالك رزقًا غيرَ حسن[(١)].

(١٩٦٨)تومئ الآية إلى المؤمن عليه أن يسعى لتحصيل أحسن الرزق وأعظمه، ألا وهو الجنة، لأن الله تعالى وعد المهاجرين بالرزق الحسَن، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًا﴾، ونعيم الجنة هو أحسن الرزق، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحًا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ١١﴾ [سورة الطلاق: ١١]، فهو الرزق الذي لا ينقطع ولا يزول: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٖ ٥٤﴾ [سورة ص: ٥٤][(٢)].

(١٩٦٩)تشير الآية إلى أن أحسن الرزق هو الرزق الذي لا ينقطع، لأن الله تعالى سمى رزق الجنة فقال: ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾، لأنه لا ينقطع أبدا[(٣)].

(١٩٧٠)تفيد الآية أن الأكمل عند إنصاف المظلوم أن يُعطى أكثر ممَّا ضاع منه، فيُعوَّض له ما أُخِذ منه، ويزاد له على ذلك تعويضا له عما لقيه بسبب الظلم، وذلك أن الله تعالى – وهو الحكَم العدل – وعد المظلومين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بأن يرزقهم رِزْقاً حَسَناً أفضل مما ضاع منهم، تعويضاً لهم عَمَّا فاتهم بسبب هجرتهم من أهل ومال[(٤)].

(١٩٧١)تفيد الآية بطريق النظير أن من عزم على أداء الصلاة في المسجد فأدركه الموت وهو يتوضأ أو عند شروعه في الاستعداد للصلاة أو في طريقه الى المسجد أو قبل أن تقام

---

(١) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٩٥).

(٢) ينظر مسائل العقيدة في كتاب التوحيد من صحيح البخاري (ص: ١٠٠).

(٣) ينظر تفسير السمعاني (٣/ ٤٥١). وحكى الواحدي في التفسير البسيط (١٥/ ٤٧٩) عن ابن عباس أنه قال: (يريد: لا انقطاع له).

(٤) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٩٦).

الصلاة فله أجر من صلاها؛ وفي الحديث أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– قال: ((لا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاةُ))[(١)].

(١٩٧٢)تفيد الآية أن المؤمن عليه أن يرجوَ من فضل الله تعالى ويُحسِّنَ الظن به، لأن الله هو خير من أكرم أهل طاعته وبسط الرزق عليهم[(٢)]؛ فقد وصف نفسه سبحانهُ بأنه أفضل الرازقين فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨﴾.

(١٩٧٣)تدل الآية على أنه لا يُطلَب الرزق والسعةُ في العيش إلا من الله تعالى؛ ويُستفاد ذلك من أن المشركين كانوا يعبدون غير الله طلبًا للرزق وطمعًا في السعة، فأخبر تعالى أنه هو خير الرزاقين، إشارة إلى أنه هو الذي يُرجى رِفدُه ويُطْمَع في فضله[(٣)].

(١٩٧٤)تشير الآية إلى أن خير المعطين هو من أعطى غيره تفضُّلا بمحض الإحسان دون أن يرجو نيل عوضٍ أو قضاء غرضٍ أو حصول مغنم. ويستفاد هذا من أن الله تعالى قال عن نفسه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨﴾، وذلك لأن كماله تعالى صفةٌ ذاتية له، فلا يستفيد من شيء كمالا زائدا، فكان الرزق الصادر منه لمحض الإحسان. أما غيره فإنه إذا رزق إنما يرزق لينتفع بذلك بوجهٍ ما، إما ليخرج عن تبِعة الواجب، أو ليستحق به حمدًا أو ثناءً، أو ليدفع به الرِّقة[(٤)].

(١٩٧٥)تفيد الآية أن العبد إذا أراد أن يطلب الرزق فليطلبه من الله وحده، ولا ينتظره إلا منه، ولا يتوكل فيه إلا عليه[(٥)]، فهو خير الرازقين، وأكرم المعطين، وأوسع الواهبين.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة، ح ٦٤٩، ١/٤٦٠)، وغيره.

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦١٩).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٣٥).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٣).

(٥) ينظر المقصد الأسنى (ص: ٨٥).

(١٩٧٦)في الآية دلالة على جواز إطلاق الرزق على غير الله تجوُّزًا؛ وذلك لأن الله تعالى أثبت تعدد الرازقين فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨﴾، والرازق في الحقيقة هو الله عزّ وجلّ، وكل رزق يجري على يد بعض العباد لبعضٍ فهو منه سبحانه، ومع ذلك أثبت لهم صفة الرزق من حيث هُم سَبَبٌ فيه، وقد يُسْند فعل الرزق إلى غير الله على المجاز، كقولهم: رزق السلطانُ الجندَ، أي أعطاهم أرزاقهم[(١)].

(١٩٧٧)تفيد الآية أن الإنسان إذا بذل جهده في العمل بالأسباب فلا ينبغي أن ينسى أن الله تعالى هو خير الرازقين، فالله هو الذي يخلق الرزق وينزله، ويُمكِّن عبادَه من نيل ما قَسَم لهم منه، وبيسِّر لهم الانتفاع به[(٢)]، وهذه أمور ينفرد بها الله عز وجل، ولذلك وصف نفسه بأنه خير الرازقين.

(١٩٧٨)تشير الآية إلى أن المؤمن لا بد أن يؤمن بأن الله تعالى هو الرزاق حقيقةً، وأنه سبحانه خير الرازقين، وأنه لا يستحق الوصف بالرزق على الحقيقة إلا هو، لأنه مختص بأن يرزق ما لا يقدر عليه غيره[(٣)]. ورزق الغير لا بد وأن يكون مسبوقا برزق الله وملحوقا به حتى يحصل الانتفاع به، وأما رزق الله تعالى فإنه لا حاجة به إلى رزق غيره.

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٣)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٦٢)، وتفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٩٨). قال الألوسي في روح المعاني (٩/ ١٧٩): (والأوْلى عندي أن لا يطلق رازق على غيره تعالى، وأن لا يتجاوز عما ورد. وأما إسناد الفعل إلى غيره تعالى كرزق الأمير الجندي، وأرزق فلانا من كذا، فهو أهون من إطلاق رازق، ولعله مما لا بأس به، وصرح الراغب بأن الرزاق لا يقال إلا لله تعالى). ونص كلام الراغب في المفردات (ص: ٣٥١ - ٣٥٢): (والرَّازِقُ يقال لخالق الرّزق، ومُعطيه، والمسبِّب له، وهو الله تعالى، ويقال ذلك للإنسان الذي يصير سببا في وصول الرّزق. والرَّزَّاقُ لا يقال إلّا لله تعالى، وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠﴾ (الحجر: ٢٠)، أي: بسبب في رزقه، ولا مدخل لكم فيه).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٣).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٣).

**هدايات قوله تعالى:** ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩ ۞﴾ [سورة الحج: ٥٩].

(١٩٧٩)في الآية بشارة بأن الله سيفتح عليهم البلدان، وسيدخلهم إليها إدخالا يرضونه، وهو ما وقع، وفي مقدمة ذلك فتح مكة المشرفة، فإن الله تعالى أدخلهم إليها وهم في حالة الرضا والسرور[(١)].

(١٩٨٠)تفيد الآية أن غاية الرضا إنما تحصل في الجنة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾. أي يرضون ذلك الموضع لأن لهم فيه ما تشتهيه الأنفس وتلَذُّ الأعين، ويرون فيه ما لا عينٌ رأت ولا أذُنٌ سمعت، ولا خطَر على قلب بشر، كما لا ينالهم فيه مكروه ولا أذى، كما قال سبحانه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾ [سورة الواقعة: ٢٥ – ٢٦]. فيرضونه ولا يبغون عنه حِولا[(٢)].

(١٩٨١)تفيد الآية أن الرزق الحسن لا يتم إلا بالمسكن الحسن، وذلك أن الله تعالى بعدما ذكر أنه سيرزق من قُتِل أو مات مهاجِرا في سبيله بالرزق الحسن، أتبعه بذكر مسكنهم وهو الجنة، فقال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ [(٣)].

(١٩٨٢)في الآية إيماءٌ إلى أن إكرام الضيف والعناية به تكون بإنزاله منزلا حسنا يبتهج به، وإكرامه بأنواع القِرى؛ وذلك لأن الله تعالى وعد المهاجرين في سبيله بأن يُدخلهم مدخلا يرضونه، "لأن كرامة المنزِل من جملة الإحسان في العطاء، بل هي أبهج لدى أهل الهمم"[(٤)].

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٣). وقد ذكر السعدي القول الآخر بأن المراد دخول الجنة، ثم قال: (فتكون الآية جمعت بين الرزقين، رزق الدنيا، ورزق الآخرة، واللفظ صالح لذلك كله، والمعنى صحيح، فلا مانع من إرادة الجميع).

(٢) ينظر التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٧٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٤)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٣٤).

(٣) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٧٧).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٠ – ٣١١).

(١٩٨٣)في الآية تكريمٌ من الله تعالى لمن هاجر في سبيل الله، بأن يتوخى ما يرضونه فيحققه لهم، وهم عباده، وهو خالقهم سبحانه[١].

(١٩٨٤)تفيد الآية أن المظلوم يُنصَف بأن يُفْعَل به عكس ما فعله الظالم به. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى قال: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ﴾، فكأنه تعالى لما أخرج المشركون عباده المؤمنين إخراجًا يكرهونه ولا يرضوْنه، وعدهم بأن يدخلهم مدخلا يرضونه ولا يكرهونه[٢]. ولما طردوا من منازلهم في الدنيا، فإنّ الله يُؤْويهم منازل طيّبةً في الآخرة ترضيهم من جميع الجهات[٣].

(١٩٨٥)تفيد الآية إثبات اسم العليم لله تعالى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ٥٩﴾.

(١٩٨٦)تفيد إثبات صفة العلم لله تعالى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ٥٩﴾.

(١٩٨٧)فيها إشارة إلى وجوب الإخلاص لله عز وجل في الهجرة، وأن ثواب المهاجر إنما يكون إذا خرج من داره من أجل نصرة الله ورسوله. ويؤخذ هذا من تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ٥٩﴾. أي إن الله مطَّلعٌ على نياتهم، عليمٌ بمن يهاجر في سبيله ممن يخرج من داره طلبًا لغنيمة أو عَرَضٍ من أعراض الدنيا[٤].

(١٩٨٨)تشير الآية أن يصدُقَ الإنسانُ ربَّه في قصده ومراده من الأعمال، فإن الله تعالى عليم بنيّته، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ٥٩﴾، أي إن الله سبحانه عليم بأحوال من قضى نحبَه وسال دمُه في سبيله، ومن مات معاهدا ربه على الاستشهاد في نصر

---

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٣٩).

(٢) ينظر تفسير الطباطبائي (١٤/ ٣٩٩).

(٣) ينظر الأمثل، للشيرازي (١١/ ٣٨٣).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٢٠)، والتفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٧٨).

دينه، ولكنه في هجرته وجهاده مات حتف أنفه، دون أن يحقق أمنيته في الاستشهاد في سبيل ربه[1].

(١٩٨٩) تشير الآية إلى أن المظلوم لا بد أن يطمئن إلى أنّ الله تعالى سيُنْصِفه؛ لأنه تعالى عقّب ذكر شأن المظلومين باسمه العليم فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾، أي عليم بما وقع عليهم من ظلم وأذى، وبما يُرضي نفوسهم ويعوضها عما فاتها[2].

(١٩٩٠) تومئ الآية إلى أن مقدار الثواب يكون حسب ما تجشَّمه المهاجرون من مشقة في هجرتهم، ويؤخذ ذلك من تذييل الله تعالى للآية بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾، أي عليم بما تجشَّموه من المشاقّ في شأن هجرتهم من ديارهم وأهليهم وأموالهم، وهو حليم بهم فيما لاقَوْهُ، فهو يجازيهم بما لَقُوه من أجله[3].

(١٩٩١)تومئ الآية إلى أن المؤمن يطمئن إلى أن الله تعالى لن يضيّع أجره، ولن يحرمه ثوابَ ذرةٍ من عمله الصالح؛ وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾، أي عليم بما يستحقه المؤمن من الثواب[4].

(١٩٩٢)تدل الآية على أن من أراد أن يُرضي شخصا فلا بد أن يعلم ما يُرْضيه ويَسرُّه، فما يُرضي إنسانًا قد لا يُرضِي آخَرَ؛ ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى وعد المهاجرين بأن يدخلهم مدخلا يرضيهم فقال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾، ثم ذيّل ذلك بوصف نفسه بالعلم والحلم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾، إشارةً إلى أنه يعلم ما أصابهم وما يُرضيهم.

(١٩٩٣)تفيد الآية إثبات اسم "الحليم" لله تعالى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾. وقد ورد هذا الاسم في آيات أخرى من كتابه العزيز.

---

(١) ينظر تفسير النسفي (٢/ ٤٥٠)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٤٧).

(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٣٩).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣١١).

(٤) ينظر مراح لبيد (٢/ ٧٩).

(١٩٩٤)تفيد الآية إثبات صفة الحلم لله تعالى؛ لأن الله تعالى وصف نفسه بذلك قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾.

(١٩٩٥)تفيد الآية استحباب التخلق بالحلم، لأن الله امتدح به نفسه فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾، وكل صفة مدح فينبغي للعبد أن يتخلق بها على قدْر وُسعه، وفي الحديث: ((إن فيك لخَصلتين يُحِبُّهما الله عز وجل: الحِلمُ، والأَناةُ))[(١)].

(١٩٩٦)تشير الآية إلى أن اتصاف الإنسان بالحلم إنما يكون على قدر ضعفه وعجزه وافتقاره، أما صفة الحلم على الكمال فإن الله تعالى منفردٌ بالاتصاف بها؛ وذلك لأن الله تعالى وصف نفسه بالحلم في هذه الآية وغيرها، ووصف بعض عباده بالحلم فقال: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ۝١١٤﴾ [سورة التوبة: ١١٤]، وقال: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾ [سورة الصافات: ١٠١]، ومن المتقرر في أصول العقيدة الإسلامية أن الله تعالى لا يشابهه أحد في صفاته، كما قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ [سورة الشورى: ١١]، فدلَّ على أن ما وصف به الخلق من هذه الصفات (مناسبٌ لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم)[(٢)].

(١٩٩٧)تومئ الآية إلى أنه يجب أن نؤمن بأن الله تعالى لا يفوته شيء، فقد يمهل الظالمين والباغين حلما منه عليهم، ولكنه لا بد أن يوفيهم بالجزاء الأوفى وينتصر للمظلومين منهم[(٣)]؛ لأنه تعالى عقّب ذكر شأن المظلومين باسمه الحليم فقال بصيغة التأكيد: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾ [(٤)].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الأسماء والصفات نقلا وعقلا، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ص: ١٧).

(٣) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٣٩).

(٤) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٣٩).

(١٩٩٨) في اقتران اسم الله "الحليم" باسمه "العليم" في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ دلالةٌ على أن حلمه تعالى عن العباد عن علمٍ بهم وإحاطةٍ بأعمالهم[١].

(١٩٩٩) تفيد الآية أن من أعلى صفات الداعية إلى الله تعالى أن يجمع بين العلم الواسع والحلم على الناس[٢]، ويؤخذ ذلك من أن اقتران صفة العلم بصفة الحلم في معرض ثناء الله على نفسه في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ دلالةٌ على أن الأكمل هو أن يجتمع الحلم مع العلم، لأن الله تعالى إنما يتمدَّح بأكمل الصفات.

(٢٠٠٠) في الآية تحذير من إيذاء المؤمنين وإخراجهم من ديارهم وأخذ أموالهم، لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾؛ أي حليمٌ حيث أخر الانتقام من أعدائه، ولم ينتقم منهم وقتَ صنيعهم به ما صنعوا بأوليائه، والله أعلم[٣].

(٢٠٠١) في الآية حثٌّ على التوبة والرجوع إلى الله تعالى، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾. أي حليم عن العصاة من خلقه، فلا يعاجلهم بالعقوبة، بل يمهلهم لعلهم يتوبون إلى الله تعالى، فيستحقوا دخول الجنة[٤].

(٢٠٠٢) في الآية حثٌّ للمؤمنين على إتقان الطاعة وبذل الوُسع في أدائها وإحسانها؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾، أي عليم بما عمِلوه مما يرضيه، حليم عما قصّروا فيه من طاعته، وما فرّطوا في جنبه سبحانه[٥].

(٢٠٠٣) تفيد الآية أن المؤمن لا ينبغي أن ييأس من تأخر النصر وعقوبة الظالمين؛ لأن الله تعالى وصف نفسه بالحلم قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾، أي فهو تعالى من شأنه أن

---

(١) ينظر فقه الأسماء الحسنى (ص: ٢٢٦).

(٢) ينظر أخلاق القرآن للشرباصي (١/ ١٨٥)، ومقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة (ص: ١٠٨).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٣٥).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٢٠)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٤).

(٥) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٧٨).

لا يعجل العقوبة للظلَمة مع علمه بصنيعهم، وفي ذلك تربية للمؤمنين على قوة الرجاء في الله وحسن الظن به، والنظر بعين الحكمة إلى تصريفه تعالى لشؤون خلْقِه.

(٢٠٠٤) في الآية بشارةٌ للمهاجرين في سبيل الله تعالى أن الله تعالى يتجاوز عن سيئاتهم ويغفر زلّاتهم؛ وذلك لأن الله تعالى وصف نفسه بالحلم فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾، فكما يحلم عن المشركين، كذلك يحلم على عباده المؤمنين، فلا يعاجلهم بالعقوبة على ما فعلوه.

**المطلب الرابع: الهدايات الجزئية الخاصة بالربع الأخير من سورة الحج:**

يبتدئ الربع الأخير من السورة من الآية السادسة إلى الآية الأخيرة وهي الآية الثامنة والسبعون:

**هدايات قوله تعالى:** ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة الحج: ٦٠].

(٢٠٠٥) تفيد الآية أن من ابتُدئ بالقتال وهو كارهٌ لذلك فقاتل دفاعًا عن نفسه وانتصافًا ممن اعتدى عليه فإن الله تعالى ضمِن له النصرة على من اعتدى عليه؛ وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ﴾.

(٢٠٠٦) في الآية تنبيهٌ على أن القتال المأذون فيه هو قتال جزاءٍ على اعتداء سابق، لأن الله قال: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ﴾، وما صدق (مَنْ) الموصولة العموم، لقوله سبحانه في الآيات السابقة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ (١)، فدل على أن النصرة إنما وعد بها الذين قاتلوا القتالَ المأذون فيه.

(٢٠٠٧)تفيد الآية جواز مقاتلة المعتدين في الأشهر الحرم إذا كانوا هم البادئين بالقتال، ويؤخذ ذلك مما يروى في سبب نزول هذه الآية، وهو أن مشركي مكة لقوا المسلمين لليلتيْن بقِيَتا من المحرَّم، فقال بعضهم لبعض: (إن أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام، فاحملوا عليهم)، فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا القتال. فبغَوْا على المسلمين فقاتلوهم وحملوا عليهم، وثبت المسلمون لهم، فنصرهم الله- عز وجل-

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٢).

عليهم، فوقع في أنفس المسلمين من القتال في الشهر الحرام، فأنزل الله هذه الآية[1]، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾ [سورة البقرة: ١٩٤].

(٢٠٠٨)تدل الآية على مشروعية عقوبة الظالم[2]؛ لأن الله تعالى سمّى مقابلة عدوان المعتدي عقابا، فقال: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ [سورة الحج: ٦٠].

(٢٠٠٩)في الآية تسويغُ مقابلة العدوان بمثله وتشجيع المدافع عن نفسه والمقابلة على العدوان بالمثل. وببثّ الطمأنينة فيه بوعده بتأييد الله ونصره لأنه في موقف المظلوم المبغى عليه مع تقرير كون العقوبة أي المقابلة والقتال لا يصحّ أن تكون إلّا دفاعا عن النفس ومقابلة للعدوان بالمثل وحسب[3].

(٢٠١٠)تفيد الآية وجوب مراعاة المماثلة في جنس العقوبة عند الاقتصاص من المعتدين[4]؛ لأن الله قيد عقوبتهم في الآية بالمثل فقال: ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾، وقد قال بعض المفسرين من السلف: إنها نزلت في القصاص والجراحات[5]. وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [سورة الشورى: ٤٠].

---

(١) ينظر تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٣٥)، وتفسير الطبري (١٦/ ٦٢٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٠٣، رقم ١٤٠١٣).

(٢) ينظر تفسير المدينة المنورة (٢/ ١٠٨).

(٣) التفسير الحديث (٦/ ٦٨).

(٤) من طبيعة الحال ليس ذلك على إطلاقه، قال الشيخ حجازي في أوضح التفاسير (١/ ٤٠٨): (وليس المراد بذلك المجانسة في العقوبة على إطلاقها؛ فمن قتل ولدي: لم يجز لي أن أقتل ولده؛ لأن ولده لم يرتكب ما يؤثم عليه، ومن سمَّم ماشيتي: لم يجز لي أن أسمِّم ماشيته؛ لأنها عجماءُ لم تذنب. ولا يصح الاقتصاص منها – لو أذنبت).

(٥) نسب هذا القول إلى الضحاك، وكذا إلى ابن جريج، ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٣٥)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٥)، واللباب (١٤/ ١٣٣)، وفتح القدير (٣/ ٥٥٠).

(٢٠١١)تفيد الآية أن القصاص بالمثل لا يقتصر على ما يكون بالمحدَّد، وإنما يكون في غير ذلك، كالقتل بالمثقَّل، أو بالتغريق أو التحريق، خلافا للحنَفية[(١)]. ويشهد له ((أن يهوديًّا رضَّ رأسَ جارية بين حجَرين... فأخذ اليهودي، فاعترف، فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم، فرضَّ رأسَه بين حجرين))[(٢)]، اقتصاصًا منه بالمثل.

(٢٠١٢)تفيد الآية أنه يجوز للمعتدى عليه أن يعاقب المعتدين، شريطة ألا يتجاوز معاقبتهم بمثل ما اعتدوْا به عليه، لأن الله تعالى وعد من لم يتجاوز ذلك بالنصرة فقال: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾، وهذا المعنى ورد صريحا في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [سورة النحل: ١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [سورة البقرة: ١٩٤].

(٢٠١٣)تشير الآية إلى أنّ الدفاع عن النفس ومجابهة الظلم حقٌّ طبيعي لكلّ إنسان[(٣)]، فمن قوتل ظلمًا فإنه يجوز له أن يقاتل من قاتله، ويدافعَ عن نفسه وعرضه وماله.

(٢٠١٤)تومئ الآية إلى وجوب إعداد القوة الكفيلة بردع المعتدين، والدفاع عن المسلمين، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت مماثلة لقوة الظالمين أو فائقة لها[(٤)]. وهذا المعنى تفيده

---

(١) ذكر النيسابوري في غرائب القرآن (٥/ ٩٥)، وابن عادل في اللباب (١٤/ ١٣٣) أن الشافعي استدل بها في وجوب رعاية المماثلة في القصاص فقال: (من حرَّق حرّقناه، ومن غرَّق غرّقناه). إلا أن الرازي رأى أن الأرجح أن الآية تتعلق بالقتال فقال في تفسيره (٢٣/ ٢٤٥): (وهذه النصرة المذكورة تقوي تأويل من تأوله على مجاهدة الكفار لا على القصاص، لأن ظاهر النص لا يليق إلا بذلك).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له: (كتاب الخصومات، باب الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهودي، ح ٢٢٨٢، ٢/ ٨٥٠). ومسلم في صحيحه: (القسامة، باب ثبوت القصاص في القتل بالحجر وغيره، ح ١٦٧٢، ٣/ ١٢٩٩).

(٣) ينظر الأمثل (١٠/ ٣٢٤).

(٤) ينظر تفسير المدينة المنورة (٢/ ١٠٨).

الآية بدلالة اللزوم، ويؤكده قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [سورة الأنفال: ٦٠].

(٢٠١٥)تفيد الآية أن من جُنِيَ على وليِّه فاستوفى حقه بالقصاص أو أخذِ الديَة، ثم بغى عليه أولياء القاتل واستطالوا عليه، فله أن يطالب بجنايته، وقد وعده الله بالنصرة على من ظلمه بأخذ حقه[(١)]. وهذا يؤخذ من ظاهر قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ﴾.

(٢٠١٦)تشير الآية إلى أن من عاقب المعتدي عليه بمثل اعتُدي به عليه فليس ظالما، وأن من استوفى حقه منه فليس خائنا[(٢)]، لأن الله تعالى وعَد من عاقب بمثل ما عوقب به بالنصرة، ولا ينصر الله مبطلا ولا ظالما.

(٢٠١٧) تفيد الآية أن الله تعالى سينصر المظلوم عاجلا أو آجلا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ﴾، ويؤيده قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ثلاثة لا تُرد دعوتهم: الصائمُ حتى يفطر، والإمامُ العادل، ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام، وتُفتح لها أبواب السماء، ويقول الربُّ: وعزّتي لأنصرنَّك ولو بعد حين))[(٣)].

(٢٠١٨)تدل الآية على أن الله تعالى سينصر المظلوم الصابر الذي لم يقتصّ ممن ظلمه قطعًا، لأن الله تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ

---

(١) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٨).

(٢) ينظر التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢٠/ ١٥٩)، وشرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص: ١٠٧)، والفتح المبين بشرح الأربعين (ص: ٥٢١).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد في المسند: (٢/٤٤٥، رقم ٩٧٤١). والترمذي في سننه: (كتاب الدعوات، باب في العفو والعافية، ح ٣٥٩٨، ٥/ ٥٧٨)، وقال: (حديث حسن). وابن ماجه في سننه: (كتاب الصيام، باب في الصائم لا ترد دعوته، ح ١٧٥٢، ١/ ٥٥٧)، وابن حبان في صحيحه: (كتاب إخبار النبي عن البعث وأحوال الناس في ذلك اليوم، باب الإخبار عن وصف بناء الجنة، ح ٧٣٨٧، ١٦/ ٣٩٦).

لَيَـنصُرَنَّـهُ ٱللَّهُ﴾، (فإذا كان الله قد ضمِن له النصرَ مع أنه قد استوفى حقه أوّلا، فكيف بمن لم يستوف شيئا من حقه، بل بُغِيَ عليه وهو صابر؟!)[1].

(٢٠١٩)تفيد الآية أن الظالم وإن أمهله الله تعالى زمنًا فسيُغلب بعد ذلك ويلقى جزاء بغيه، لأن الله تعالى وعد المظلومين بنصرتهم ولا يكون ذلك إلا بدحر الظالمين، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله ليُمْلي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة هود: ١٠٢]))[2]. وقال في حديث آخر: ((مَا مِنْ ذنبٍ أجدر أن يُعَجِّل الله لصاحبه العقوبةَ في الدنيا، مع ما يَدَّخر له في الآخرة: مثلُ البَغيِ وقطيعة الرحم))[3].

(٢٠٢٠)تدل الآية على أن شرط نصرة الله تعالى للمظلومين أن يكون عقابهم للظالمين قصاصا عادلا على اعتداء، لا عدوانا ولا تبطرا، وألا يتجاوز العقاب مثل ما وقع من العدوان دون مُغالاة[4]، ويؤخذ هذا من ظاهر قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَـنصُرَنَّـهُ ٱللَّهُ﴾.

(٢٠٢١)تفيد الآية أنه سبحانه وتعالى – مع إكرامه للمهاجرين في سبيله في الدار الآخرة بالرزق الحسن والمسكن المرْضيّ – لا يدَع نصرتهم في الدنيا على من بغى عليهم[5]، فهو يجمع لهم بين الحُسنيين.

(٢٠٢٢)في الآية إشارة إلى أن وعد الله بالنصرة إنما يكون لمن ينتصر لنفسه، أما الذي يقبل الظلم ويرضخ له، فإنه غير موعود بالنصر؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٦٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٣٩).

(٥) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٥).

عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾. فوعد الله بالنصر يخصّ الذين يدافعون عن أنفسهم ويجابهون الظالمين والجائرين ويعاقبونهم على ما فعلوه بهم[1].

(٢٠٢٣)تفيد الآية إثبات اسم العفوّ لله تعالى؛ لأن الله تعالى سمى نفسه بهذا الاسم في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾، وسمى نفسه به في آيات أخرى من القرآن الكريم.

(٢٠٢٤)تفيد الآية إثبات صفة العفو لله تعالى؛ لأن اسم العفو يدل على ثبوت هذه الصفة لله، وقد وردت هذه الصفة في آيات وأحاديث أخرى، منها قول تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [سورة الشورى: ٢٥]، وقوله صلى الله عليه وسلم في الدعاء: ((اللهم إنك عفوٌّ تحب العفو، فاعف عنّي))[2].

(٢٠٢٥)في الآية تنبيهٌ على فضل العفو عمَّن أساء وغفران إساءته، لأن الله تعال ختم هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾، أي إن الله لَعفوٌّ لمن عفا، غفورٌ لمن غفر[3]. وهذا المعنى يشهد له قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢﴾ [سورة النور: ٢٢].

---

(١) ينظر الأمثل (١٠/ ٣٢٤).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ١٧١، رقم ٢٥٤٢٣)، والترمذي في سننه: (كتاب الدعوات، باب رقم ٨٩، ح ٣٥١٣، ٥/٥٣٤)، وقال: (حسن صحيح). وابن ماجه في سننه: (كتاب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية، ح ٣٨٥٠، ٢/١٢٦٥). والحاكم في المستدرك: (كتاب الدعاء، باب الدعاء في ليلة القدر، ح ١٩٤٢، ١/٧١٢)، وقال: (صحيح على شرط الشيخين)، ووافقه الذهبي. وتعقبه ابن عبد الهادي في المحرر في الحديث (ص: ٣٨٢) فقال: (وفي قوله نظر). وفي الجملة فهو صحيح، بنظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/ ١٠٠٨ – ١٠١١، رقم ٣٣٣٧).

(٣) ينظر تاج التفاسير للميرغني.

(٢٠٢٦)في الآية إشعارٌ بأن عدم استيفاء الحق بالعفو عن الظالم منه أفضلُ من معاقبته[(١)]؛ لأن الله تعالى عفوٌّ يحب العفو، فلوَّح بتيْنِك الصفتين إشارة إلى ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾، فإنه تعالى مع كمال قدرته وغلبة سلطانه لما كان يعفو ويغفر فالإنسان مع عجزه أولى بأن يتخلق بأخلاق الله تعالى من العفو عن الجاني. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [سورة الشورى: ٤٠]، وقوله: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ البقرة: ٢٣٧]، وقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ الشورى: ٤٣]، وقوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [سورة النحل: ١٢٦][(٢)].

(٢٠٢٧)تفيد الآية إثبات اسم الغفور لله تعالى؛ لأن الله تعالى سمى نفسه بهذا الاسم في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾، وسمى نفسه به في آيات كثيرة من القرآن الكريم.

(٢٠٢٨)تفيد الآية إثبات صفة الغفران لله تعالى؛ لأن اسم الغفور يدل على ثبوت هذه الصفة لله، لأن معناه: الكثير المغفرة، وقد وصف الله نفسه بهذه الصفة في كثير من الآيات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [سورة الزمر: ٥٣].

(٢٠٢٩)تومئ الآية إلى أن تقديم الانتقام من الجاني على العفو عنه خلاف الأوْلى، لأن الله تعالى ختم الآية بصفتي العفو والمغفرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾، ولا يكون العفو إلا على إساءة، (فيعفو عن المنتصر ويغفر له ما صدر عنه من ترجيح الانتقام على العفو

---

(١) ينظر معترك الأقران في إعجاز القرآن (٢/ ٣٧٦). وهذا إذا كان الاعتداء على حق خاص، أما الحق العام فلا عفو عنه.

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٦٧)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٥)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٧)، والتسهيل (٢/ ٤٥). ووجهه البقاعي في نظم الدرر (١٣/ ٧٩) فقال: (ويجوز أن يكون التقدير ندباً إلى العفو بعد ضمان النصر: إن الله لعزيز حكيم، ومن عفا وأصلح فقد تعرض لعفو الله عن تقصيره، ومغفرته لذنوبه، فهو احتباك: ذكْرُ النصرة دليلُ العزة والحكمة، وذكْرُ العفو منه سبحانه دليلُ حذف العفو من العبد).

والصبر المندوب إليهما بقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من الصبر والمغفرة ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة الشورى: ٤٣]، فإن فيه حثا بليغا على العفو والمغفرة، فإنه تعالى مع كمال قدرته لما كان يعفو ويغفر، فغيره أولى بذلك)[(١)].

(٢٠٣٠)في الآية إشارة الى أن الأليق بالمنتصر والأقرب بحاله أن يغفر لكل من ظلمه ويعفو عنهم ويقابل ظلمهم بالإحسان[(٢)].

(٢٠٣١)تومئ الآية إلى أن الله تعالى يغفِر لمن يُؤْثِر معاقبة المعتدي على العفو عنه؛ وذلك لأن الله تعالى ندب المظلومين إلى العفو، فكأن تركَ ما ندبهم الله إليه نوعُ إساءة أدب، ولذلك بعدما وعد المظلوم بالنصرة عند انتصاره لنفسه ذيل الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾، أي: إنه تعالى يعفو عن وقوع المعتدى عليه في خلاف الأوْلى بترجيح العقوبة على العفو، ولا يؤاخذه على ترك ما ندبهم إليه[(٣)]. كما قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الشورى: ٤١].

(٢٠٣٢)في الآية إشارة إلى أن الله تعالى ضمن لمن عفا عمن ظلمه واعتدى عليه بالنصرة في الدنيا والآخرة، ولهذا عقب على وعده بالنصرة بهذين الاسمين الكريمين فقال: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ فكأنه تعالى قال: (أنا ضامن لنصرته إن ترك الانتقام وطلب إكثار ما هو أولى به، فإني عفوٌّ غفور)[(٤)].

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ١١٧). وينظر روح البيان (٦/ ٥٤).

(٢) ينظر روح البيان (٦/ ٥٤).

(٣) ينظر الكشاف (٣/ ١٦٧)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٥)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٥١)، والتسهيل (٢/ ٤٥)، ومعترك الأقران (٢/ ٣٧٦)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١١٧)، وروح المعاني (٩/ ١٨٠).

(٤) غرائب القرآن (٥/ ٩٥).

(٢٠٣٣)تشير الآية إلى أن المؤاخذة إنما تكون في تعمُّد مجاوزة المثل في الاقتصاص من المعتدي، أما ما كان خطأً فهو معفوٌّ عنه، لأن الله تعالى لما قيد العقوبة بالمثليّة، وكان أمراً خفيّاً لا يكاد يوقف عليه، وربما وقعت المجاوزة خطأً، فظن عدم النصرة لذلك، أفهم تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾، أن المؤاخذة تكون في العمد دون الخطأ[(١)]. كأنه قال: إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ لمن اقتص ممن ظلمه، غَفُورٌ له إن زاد في الجزاء من غير عمد[(٢)].

(٢٠٣٤)في الآية إيماء إلى أن الأصل في القتال في الأشهر الحرُم أنه محظور، وإنما تجاوز الله عن المسلمين في ذلك لأنهم قاتلوا فيه مقابلة لعدوان المشركين لا ابتداءً من أنفسهم، ولذلك ختم تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾، أي غَفُورٌ لقتالهم في الشهر الحرام[(٣)].

(٢٠٣٥)في الآية إشارة إلى أن الله تعالى قادر على معاقبة الذي آذوا أولياءه وقاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم، وذلك لأن الله تعالى ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾، فدلّ بذكر هذين الاسمين الكريمة خاصة على أنه قادر على العقوبة، لأن العفو إنما يكون عند المقدرة، ولا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده[(٤)].

(٢٠٣٦)في الآية إشارة إلى أن يسأل العبدُ الله تعالى أن يعفو عنه ويغفر له، لأن الله تعالى وصف نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾، أي إِنَّ الله كثير العفو والغفران للمؤمنين، عَفُوٌّ يمحو آثار الذنوب، غَفُورٌ يستر أنواع العيوب[(٥)]. ففيه إغراء بأن يستغفر اللهَ ويطلب عفوه.

---

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٧٩).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٧٩)، وتفسير الإيجي (٣/ ٦٧).

(٣) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٨)، و زاد المسير (٣/ ٢٤٨)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٩٠).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٥)، وغرائب القرآن (٥/ ٩٥)، والسراج المنير (٢/ ٥٦٣)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١١٧)، ومراح لبيد (٢/ ٧٩).

(٥) ينظر البحر المديد (٣/ ٥٤٨)، وفتح القدير (٣/ ٥٥٠).

(٢٠٣٧)تومئ الآية إلى أن القتال المشروع في الإسلام لم يجعل للانتقام، وإلا تكررت الحروب، فهذا الفريق يقتص، ثم الفريق الآخر يبغي، ويتوالى القصاص والبغي، وذلك لأن الله تعالى أشار إلى فضل العفو والغفران فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾، وفتح باب العفو يغلق باب الحرب، ما دام الحق يمكن إقامته بغير موالاة القتال[(١)].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝٦١﴾ [سورة الحج: ٦١].

(٢٠٣٨)في الآية توجيهٌ لأنظار الناس إلى التفكر في النواميس الكونية التي تحيط بهم، والتأمل بعين اليقظة في الظواهر الطبيعة التي يشاهدونها باستمرار، وتشهد بربوبية الله للخلق، وطلاقة قدرته، وإحاطة علمه، ودقة حكمته[(٢)].

(٢٠٣٩)يُفهم من الآية أن نصرة الله للمؤمنين وإنصافه لهم من الظالمين سنة من السنن الربانية التي لا تتخلف، ويؤخذ ذلك من أن السياق ربَط بين وعد الله بالنصر لمن يعاقب بمثل ما عوقب به ثم يقع عليه البغي، وسنن الله الكونية الكبرى المطردة، المتمثلة في تقليب الليل والنهار، وزيادة أحدهما في مقابل نقص الآخر، وهو أمر مطرد عبر الفصول المختلفة على نحو دقيق، لا يتغير في أي عام من الأعوام، وكذلك يزوي الله سلطان المتجبرين، وينشر سلطان العادلين[(٣)].

(٢٠٤٠)تومئ الآية أن الله تعالى يدفع بعضَ خلقه ببعضٍ لِحِكْمةٍ، فمرةً يبتلي المؤمنين بالكافرين، ومرةً يعاقب الكافرين بالمؤمنين، وذلك كما يولج النهار في الليل ثم يولج الليل في النهار، فيزيد في أحدهما ما ينقص من الآخر، لما في ذلك من مصالح للعباد كلهم، ويؤخذ هذا

---

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠١٥).

(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٣٩)، والدراسة التحليلية لأهداف سورة الحج (ص ١٤١).

(٣) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٣٩).

المعنى من أن الله تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾، أي أن وعد الله بنصر عباده بسبب أن الله تعالى قادر على تغليب الأمور بعضها على بعض، وعادته جارية على المداولة بين الأشياء المتضادة، ومن ذلك إيلاج أحد المِلَوَيْنِ في الآخر[(١)].

(٢٠٤١)في الآية إيماءٌ إلى أن المظلوم لا ينبغي له أن ييأس، فقد يصير المغلوب غالبا، ويصير ذلك الغالب مغلوبا. وذلك لأن الجمع بين ذكر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل في الآية يومئ إلى تقلب أحوال الزمان، فلا يبقى شيء في الدنيا على حاله[(٢)].

(٢٠٤٢)في الآية تنبيه على أن العذاب الذي يستبطئه أعداء الدين وأهلُه منوط بحلول أجله، كما أن لإيلاج الليل في النهار أجلا لا يتخلف عنه[(٣)]. وهذا مما يؤمئ إليه الإتيان بهذه الظاهرة الطبيعية التي يشاهدها الجميع بعد الوعد بنصرة المظلومين، حيث قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾.

(٢٠٤٣)تشير الآية إلى أن المسلم ينبغي أن يتفاءل ويستبشر بظهور هذا الدين وانتشاره بعد انحساره، ويؤخذ ذلك بأن الله تعالى أدمج في ذكر الليل والنهار في هذا المقام تشبيه ظلمة الكفر بالليل ونور الإسلام بالنهار، وبين أن الله تعالى يدخل ظلمة الليل ويخفيها بضوء النهار، إيماءً إلى أنه تعالى سيظهر دينه ويشيع نوره بعد ظلمة الإشراك، ولذلك ابتدئ في الآية بإيلاج الليل في النهار، أي دخول ظلمة الليل تحت ضوء النهار[(٤)].

(٢٠٤٤)تومئ الآية إلى أن العاقل يلزمه أن يعتبر بالآيات الكونية ويستدل بآياته في تصريفه للكون على تصريفه للأقدار والأحداث، وذلك أن الله تعالى علّل ما تقدم من نصرته

---

(١) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٧٧).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٥).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٥).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٥).

للمظلومين بتصريفه لليل والنهار فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾، أي ذلك النصر للمظلوم بسبب أنه قادر على ما يشاء، ومن آيات قدرته أنه يصرف الليل والنهار، فيولج هذا في ذاك، ويولج ذاك في هذا[(١)]، فالقادر على ذلك قادر على إنفاذ ما وعدهم إياه من النصر[(٢)].

(٢٠٤٥)في الآية إشارة إلى أن نظام الوجود قائم على التدافع بين الخير والشر، والشرّ والخير، تماما كما يدفع الليل النهار، ويدفع النهار الليل. وكذلك من سنّة الله في الحياة أن يدفع الكفار بالمؤمنين، والضُّلّال بالمهتدين، ويُغري الأشرار بالأخيار، ويتعاقب عليهم الهزيمة والنصر فتنةً وابتلاءً للعباد[(٣)].

(٢٠٤٦)تدل الآية على كروية الأرض، وأنها ليست سطحًا واحدًا، بل لها وجهان متكوران، يتعاقب عليها الليل والنهار على سبيل التبادل والتغيير؛ وذلك لأن معنى الإيلاج هو أن يحل مكان الليل في مكان النهار، فيصير ليلًا على وجه الأرض غير المقابل للشمس، وأن يحل مكان النهار في مكان الليل، فيصير نهارًا على وجه الأرض المقابل للشمس، وذلك على سبيل الحركة والتبادل بين الليل والنهار، والتعاقب فيهما في تغيير وتجدد واستمرار، وهو ما يدل عليه الفعلان المضارعان ﴿يُولِجُ﴾ ﴿وَيُولِجُ﴾[(٤)].

(٢٠٤٧)تدل الآية على حركة الأرض حول محورها مقابل الشمس، لأن التبادل والتعاقب لحلول الليل مكان النهار والعكس يدل على الحركة المغزلية. وذلك لأن معنى الإيلاج هو أن يحل مكان الليل في مكان النهار، فيصير ليلًا على وجه الأرض غير المقابل للشمس، وأن يحل مكان النهار في مكان الليل، فيصير نهارًا على وجه الأرض المقابل للشمس، وذلك

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٢١)، والكشف (٧/ ٣٢)، والتفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٧٨)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٩٧)، والكشاف (٣/ ١٦٧)، و تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٥).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٣٦).

(٣) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٨٨).

(٤) ينظر التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية (ص: ١٣٥).

على سبيل الحركة والتبادل بين الليل والنهار، والتعاقب فيهما في تغيير وتجدد واستمرار، وهو ما يدل عليه الفعلان المضارعان ﴿يُولِجُ﴾ ﴿وَيُولِجُ﴾ [1].

(٢٠٤٨)في الآية إشارة إلى أن خالق الليل والنهار ومصرِّف الأدوار لا يخفى عليه شيء مما يجري فيهما على أيدي العباد من خير أو شر، أو من إنصاف أو بغي [2]. ويؤخذ هذا المعنى من أن الله تعالى بعدما قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾، أتبعه تأكيدًا بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٦١﴾.

(٢٠٤٩)في الآية إشارة إلى أن الإنسان لا بد أن يخشى الله تعالى، ويستحضر أنه سميع لأقواله بصير بأفعاله، فلا يعتدي على أولياء الله تعالى بلسانه أو سائر جوارحه، فإن الله تعالى ينصرهم عليه. ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٦١﴾، أي بأنه سميع لما يقوله المعتدون من أذى، لا يخفى عليه منه شيء، بصير بما يعملون من ظلم واعتداء، لا يغيب عنه منه شيء، فيعاقبهم على ذلك في الدنيا والآخرة [3].

(٢٠٥٠)تشير الآية إلى أن الإنسان ينبغي أن يحذر من أن ينطق بما لا يرضاه الله، أو يفعل شيئا يُسخِط الله تعالى [4]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٦١﴾، أي أنه سميع لما يقوله العباد، بصير بما يعملون، لا يخفى عليه شيء من ذلك، وهو الحافظ لكل ذلك، حتى يجازيهم جميعا على ذلك [5].

---

(١) ينظر التصوير القرآني للقيم (ص: ١٣٥).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٥)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٥١)، وغرائب القرآن (٥/ ٩٥).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٢١)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٧).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٦).

(٥) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٢١)، و تفسير ابن كثير (٥/ ٤٤٩).

(٢٠٥١)تشير الآية إلى أنه يلزم المؤمنين أن يتسع رجاؤُهم في نصرة الله لهم ويَحسُن ظنُّهم فيه وتقوى ثقتُهم بإجابته تعالى لدعائهم؛ لأن الله تعالى علل ما تقدم فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾، أي سَمِيعٌ لدعاء المؤمنين[١]، بصير بما أصابهم من أعدائهم[٢].

(٢٠٥٢)تومئ الآية إلى أن من عاقب المعتدي على اعتدائه لا بد أن يراقب الله تعالى في اقتصاصه ممن اعتدى عليه، لأن: ﴿ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾، أي سميع بكل المسموعات التي من جملتها قول المعاقِب، بصير بجميع المبصرات ومن جملتها أفعاله[٣].

(٢٠٥٣)تدل الآية باستحضار السياق أن المؤمن عليه أن يستحضر أن نصرة الله لعباده إنما تكون وفق حكمته البالغة وعلمه الواسع المحيط بأحوال الخلق، لأن الله تعالى قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾، والباء في قوله ﴿بِأَنَّ﴾ للسببية، وعطف ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ على السبب للإشارة إلى علم الله بالأحوال كلها، فهو ينصر من ينصره بعلمه وحكمته، ويَعِد بالنصر من علم أنه ناصره لا محالة، فلا يصدر منه شيء إلا عن حكمة[٤].

(٢٠٥٤)في الآية تنبيهٌ إلى أن المسلم عليه أن يكون أهلا لتنزُّل نصر الله عليه، لأن الله تعالى أشار بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ إلى أنه تعالى ينصر من يعلمُ منه أنه أهل للنصرة والتأييد.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الحج: ٦٢].

---

(١) ينظر التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٧٨).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٣٦).

(٣) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٧٧)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١١٧).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٥ - ٣١٦).

(٢٠٥٥)تدل الآية على أن الله تعالى هو الحق، الثابت الوجود، الذي يحِقُّ ثبوته، ويجب وجودُه، على وجه لا يقبل الزوال والعدم[١]، المحققُ لما سواه من الأشياء، ويستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾.

(٢٠٥٦)تدل الآية أن إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل من مظاهر كونه تعالى هو الحق الموجود الواجبِ لذاته الذي يمتنع عليه التغير والزوال[٢].

(٢٠٥٧)تفيد الآية إثبات اسم "الحق" لله تعالى[٣]؛ لأن الله تعالى سمى نفسه بهذا الاسم في هذه الآية وغيرها كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [سورة الحج: ٦].

(٢٠٥٨)في الآية تنبيه على أن كل ما سوى الله تعالى -وإن كان موجودا حقا - فإنه لا حقيقة له من نفسه، لأنه مسخَّر مصرَّف، وهو يستمد وجوده من الموجود المطلق الغني المطلق، وهو الله تعالى[٤]. ويؤخذ ذلك من مفهوم القصر في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، (والقصر إضافي، أي دون غيره من معبوداتكم فإنها لا وجود لها، قال تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [سورة النجم: ٢٣][٥].

(٢٠٥٩)تدل الآية على أنه لا تنبغي العبادة إلا لله تعالى، لأن عبادة الله حق، وعبادة غيره باطلة[٦]؛ وذلك لأن الله تعالى وصف نفسه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، وما دام أنه تعالى حق، فعبادته حق.

---

(١) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٩)، والكشاف (٣/ ١٤٥)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٥)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٤)، وتفسير أبي السعود (٦/ ٩٥)، وروح البيان (٧/ ١٠).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٢٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٦).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٣٦)، والنكت والعيون (٤/ ٣٨).

(٤) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ١٤)، وغرائب القرآن (٥/ ٦٧)، وفتح القدير (٣/ ٥١٧)، والتيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٥٨).

(٥) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٥).

(٦) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٦)، وتيسير الكريم الرحمن (ص ٥٣٤).

(٢٠٦٠)تفيد الآية أن عظمة الله في خلقه وملكه ونعمه عليهم تبرهن أنه تعالى هو الذي يجب أن يعبد وحده ويعظم[(١)]. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى أتى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾، بعد أن بيّن عظمته وقدرته بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [سورة الحج: ٦١].

(٢٠٦١)تفيد الآية أن وعد الله بنصرة المؤمنين حق لا يتخلف[(٢)]، لأن الله تعالى وصف نفسه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، وما دام أنه تعالى حق، فوعده حق.

(٢٠٦٢)تدل الآية على أن عبادة غير الله تعالى من المعبودات أمر باطل لا تنفع عابديها، لأنها متعلقة بمضمحلٍّ فانٍ، ولذلك تبطل تبعًا لبُطلان غايتها ومقصودها[(٣)]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

(٢٠٦٣)تفيد الآية أنه لا ينبغي أن تطلب النصرة إلا من الله تعالى، لأنه هو الحق الذي ينصر أولياءه، وأما ما يدعوه المشركون من دون الله فهو الباطل في أصله وفرعه ومظهره ومخبره، لأنها مخلوقات عاجزة ضعيفة، فلا يستطيعون نصرهم، ولا أنفسَهم ينصرون[(٤)].

(٢٠٦٤)تومئ الآية إلى أنه لا يجوز أن يُدْعى ما سوى الله تعالى ولا أن يستعان به أو يخاف أو يرجى، لأن الله وصفها بأنها هي الباطل الذي لا يمازجه حق، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾، فكيف يعقل ترك عبادة من منه النفع

---

(١) تفسير المدينة المنورة (٢/ ١٠٨).

(٢) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤٨٣)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٩١)، وفتح القدير (٣/ ٥٥٠).

(٣) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤٨٣)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٤).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٦).

وبيده الضر، وهو القادر على كل شيء، وعبادة ما لا وجود له إلا بالله، فلا ينفعهم ولا يضرهم[(١)].

(٢٠٦٥)تدل الآية على أنَّ جميع ما يأمر به الله ويفعله هو الحق لا الباطل[(٢)]؛ لأن الله تعالى وصف نفسه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، وقد فسر بأنه ذو الحق في قوله وفعله[(٣)].

(٢٠٦٦)تدل الآية على أن ما ذكر دليل على أن الله هو الحق المبين، (وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله)[(٤)]. ويؤخذ ذلك من أن الله علّل ما سبق في الآية التي قبلها فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، فعبّر باسم الحق، وعدل عن اسم الخالق.

(٢٠٦٧)تدل الآية على أن انتصار الحق والعدل وهزيمةَ الباطل والبغي أمر لن يتخلف. وذلك لأن الله تعالى علل ما تقدم من وعده بالنصرة للمؤمنين بأنه هو الحق، وما دام أنه حق فأفعاله حق، وهذا ضمان لاطراد سنن الكون وثباتها، وعدم تخلفها، ومن هذه السنن انتصار الحق وهزيمة البغي[(٥)].

(٢٠٦٨)تدل الآية على أن ما سوى الله تعالى مما يعبده المشركون من الأوثان والحيوانات والكواكب والنجوم باطل؛ لأن هذه المعبودات لا تقدر على فعل شيء مما ذكر[(٦)]. وفي هذا نقض للشرك الذي هو الأصل لجميع ضلالات أهله[(٧)].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٢٢)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٣٦).

(٢) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٢٧٧).

(٣) ينظر النكت والعيون (٤/ ٣٨)، والتفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٧٨)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٤).

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١١٢).

(٥) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٣٩).

(٦) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٨)، وتفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٣)، والهداية (٧/ ٤٨٤٩)، وتفسير المراغي (١٧/ ٩٠).

(٧) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٥).

(٢٠٦٩)في الآية إشارة إلى أن المؤمنين بالله تعالى هم أهل الحق، لأنهم أنصار الله وحملة دينه، وهذا من شأنه أن يحملهم على الجهاد فى سبيله، ودفع الباطل، وردع المبطلين، حتى يحقّ الله الحقّ ويبطل الباطل، ويكون الدين كلُّه لله[(١)].

(٢٠٧٠)تدل الآيات على أن المشركين مغلوبون مدحورون، لأن ما يعبدونه باطل لا يقدر على نصرتهم، ولن يعمل لمعونتهم.

(٢٠٧١)تفيد الآية إثبات اسم "العَليّ" لله تعالى؛ لأن الله تعالى سمى نفسه بهذا الاسم في هذه الآية وغيرها كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥].

(٢٠٧٢)تفيد الآية إثبات صفة "العلوّ" لله تعالى؛ لأن الله تعالى وصفه نفسه بذلك في هذه الآية فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾. أي هو ذو العلو على كل شيء، المتعالي عن مدارك العقول، وعن سمات الحدوث، أو المرتفع على كل شيء بقهريته، أو المتعالي عن الأنداد والأشباه، المقدسُ عما يقول الظالمون من الصفات التي لا تليق بجلاله، وهو فوق كلِّ شيء، وكلُّ شيء دونه[(٢)].

(٢٠٧٣)تومئ الآية أن المؤمن يلزم أن يطمئن إلى أن الله تعالى سيُعلي كلمته ويُظهر دينه ويُعزّ جنده، لأن الله تعالى هو العلي، فالعلي في شأنه لا يمكن إلا أن يعلي دينه[(٣)].

(٢٠٧٤)تفيد الآية إثبات اسم "الكبير" لله تعالى؛ لأن الله تعالى سمى نفسه بهذا الاسم في هذه الآية وغيرها كقوله تعالى: ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩﴾ [سورة الرعد: ٩]. أي الموصوف بالعظمة والجلال وكبر الشأن، الذي كل شيء دونه، ولا شيء أعظم منه[(١)].

---

(١) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٨٩).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٢٢)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٩١)، والبحر المديد (٣/ ٥٤٩)، وفتح القدير (٣/ ٥٥٠).

(٣) ينظر تفسير السمعاني (٣/ ٤٥٢) حيث قال: (ويقال: إن العلي هاهنا ينصرف إلى الدين، أي: دينه يعلو الأديان). والحقيقة أن علوّ الله تعالى يستلزم علوَّ دينه.

(٢٠٧٥)تفيد الآية إثبات صفة "الكبرياء" لله تعالى؛ لأن الله تعالى وصفه نفسه بذلك في هذه الآية فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾. وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الجاثية: ٣٧]

(٢٠٧٦)تفيد الآية أن كل شيء سوى الله تعالى يصغر مقداره عن معنى صفته. وذلك لأن الله تعالى وصف نفسه بأنه هو وحده الكبير، فأفاد بأن غيره صغير حقير[٢]، فلا شيء أعلى منه شأنًا وأكبر سلطانًا[٣].

(٢٠٧٧)تشير الآية إلى أنه من عند الله تعالى يطلب العلو، ويرجى الرزق، والسعة، والشفاعة، والنصر، والظفر، والإجابة[٤].

(٢٠٧٨)تومئ الآية أن المؤمن بالله تعالى عليه أن يكبره ويعظمه؛ لأن الله تعالى وصف نفسه بهاتين الصفتين فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾، ومن كبريائه، أن العبادات كلها شرعت من أجل تكبيره وتعظيمه، وإجلاله، ولهذا كان التكبير شعارا للعبادات العظيمة، كالصلاة وغيرها[٥].

(٢٠٧٩)تفيد الآية أنه لا ينبغي أن يعدل الله بغيره من الموجودات لأنها باطلة، و﴿هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾، أي: هو أعلى وأكبر من أن يعدل به الباطل[٦].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٢٢)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٩١).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٨٢).

(٣) ينظر الكشاف (٣/ ١٦٨)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٧)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٥١).

(٤) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٣٦).

(٥) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٤).

(٦) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٨).

(٢٠٨٠)تفيد الآية أن الله تعالى لن يدع البغي والظلم يستعلي ويستطيل[١]، لأن الله تعالى وصفه نفسه فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾. فالعلو له، لا لغيره، والكبرياء له لا لسواه.

(٢٠٨١)تومئ الآية إلى أن أولياء الله لا يُغلبون، لأن وليهم الذي يتولاهم هو الحق الذي يُحق الحق بكلماته، العليّ الكبير الذي لا يُغلب، ومن كان هذا شأنه سينصر الذين يقفون في جبهة الحق ويجاهدون في سبيله[٢].

(٢٠٨٢)في الآيات السابقة تعليمٌ للداعية ليعرف ما يمكن أن يلاقيه في السير، حتى يعرف كيف يتخذ موقفا تجاه ما يلاقيه، فقد عرض الله علينا بعد الأمر بالإنذار في مجموعة من الآيات سنة من سننه في الهداية والإضلال، ثم عرض سنة من سننه في النصر، والداعية بعد معرفة السنة الأولى لن يفاجأ إذا رأى خللا في تصرفات بعض الأتباع، وبعد معرفة السنة الثانية سيكون أكثر إقداما على العقوبة العادلة[٣].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الحج: ٦٣ - ٦٦].

(٢٠٨٣)في هذه الآية وما بعدها حثٌّ وترغيبٌ منه تعالى في النظر في مخلوقاته والتفكر في آياته الكونية الدالة على وحدانيته وكمال صفاته[٤]؛ لأنها استفتحت بهذا الاستفهام التقريري: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

---

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٣٩).

(٢) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٨٩).

(٣) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٨٤).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٤).

(٢٠٨٤)تفيد الآية أن يتوكل العبد على ربه ويتعلق به وحده دون سواه؛ لأن الله تعالى قرر في هذه الآية أنه هو المنفرد بإنزال الماء من السماء وإنبات النبات في الأرض[(١)]، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾.

(٢٠٨٥)تشير الآية إلى أن المؤمن لابد أن يحسن ظنه بالله ويتفاءل بوقوع التغيير وصلاح حال الناس؛ لأن الله أخبر بأن الله تعالى بقدرته يحي الأرض بعد موتها فينزل الغيث فتصبح الأرض مخضرة بالنبات، وكذلك يروي القلوب بماء الوحي ويحي بها مَوات النفوس[(٢)].

(٢٠٨٦)تفيد الآية أن العاقل لا بد له أن يصدق بالبعث بعد الموت، لأنه يشاهد بعينيه اخضرار الأرض بنزول الغيث، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، فمن قدر على إنزال الماء من السماء، وشق الأرض، وإخراج النبات منها مع لينه وضعفه وصلابة الأرض وشدتها – قادر على بعث الخلق من قبورهم، ولا يحتمل أن يعجزه شيء، ومن قدر على إحياء الأرض بعد مواتها ويبسها، قادر على إحياء الناس بعد موتهم[(٣)].

(٢٠٨٧)تومئ الآية إلى أن رؤية الأشياء المحبوبة أول النهار أبهج وأسر للرائي، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، وخص ﴿تُصْبِح﴾، دون سائر أخواتها مما يدل على غيره من الأوقات[(٤)]، لأن وقت الصباح تكون فيه الشمس مشرقة والجو لطيفا، فتكون رؤية الخضرة أشد تأثيرا في النفس.

(٢٠٨٨)تشير الآية إلى أن اللون الأخضر لونٌ مُبهِج للنفوس سارٌّ للناظرين؛ لأن الله تعالى امتنّ على الخلق بأن جعل الأرض بهذا اللون بعد نزول الماء فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ

---

(١) ينظر بيان انفراده تعالى بذلك في تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٩٠٩).

(٢) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٨٩ – ١٠٩٠).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٣٧)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٩١)، وفتوح الغيب (١٠/ ٥٢٢).

(٤) ينظر البحر المحيط في التفسير (٧/ ٥٣٣).

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ﴾، فاختير في التعبير عن النبات الذي هو مقتضى الشكر بذكر لونه الأخضر، لأن ذلك اللون ممتع للأبصار والأرواح[1].

(٢٠٨٩)تومئ الآية إلى أنه ينبغي الجمع في أي منتَج بين المنفعة والجانب الجمالي؛ وذلك لأن الله تعالى امتن على العباد بإنبات النبات الذي ينتفع به الناس والبهائم، وبكون الأرض تصير به مخضرة زاهية، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ﴾، وعبر بصيغة المضارع لاستحضار تلك الصورة العجيبة[2]؛ لأن جمال المنظر موجب لشكر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦﴾ [سورة النحل: ٦][3].

(٢٠٩٠)في الآية تعريض بشكر الله على نعمه وأن لا يعبدوا غيره، فقد نبه العباد على بعض نعمه وأولها إنزال الغيث وإنبات النبات واخضرار الأرض القاحلة، ويؤيد هذا المعنى التذييل الذي جاء عقب تعداد هذه النعم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ۝٦٦﴾[4].

(٢٠٩١)في هذه الآية وما تقدمها إشارة إلى أن الداعية إلى الله عليه أن يدعو الناس إلى شكر الله تعالى، ويذكرهم بفضله ونعمه سبحانه، وأنه يجب عليهم أن يقابلوا تلك النعم بالشكر بالقلب واللسان والجوارح كما يرضاه عز وجل[5].

(٢٠٩٢)في الآية تنبيه على أن الله قادر على فعل ما يشاء من نصرة المؤمنين وخذلان الكافرين، إذ نبه على قدرته تعالى بما ينشأ عن التلاقح بين الماء والأرض اليابسة من نبات مخضر تزدان به الأرض[1].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٨).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٨)، وأضواء البيان (٥/ ٢٩٥).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٨).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٧).

(٥) ينظر الدعوة إلى الله في سورة الحج (ص ٩٩).

(٢٠٩٣)تفيد الآية إثبات اسم "اللطيف" لله تعالى، لأن الله تعالى سمّى بنفسه في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾. وقد ورد في آيات أخرى متعددة[٢].

(٢٠٩٤)تفيد الآية إثبات صفة اللطف لله تعالى[٣]، لأن الله تعالى وصف نفسه بهذه الصفة في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾. ووردت هذه الصفة في كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [سورة يوسف: ١٠٠].

(٢٠٩٥)تشير الآية أن الخلق يجب عليهم أن يشكروا ربهم تعالى على لطفه بهم بأن أوصل إليه مصالحهم بإنزال الغيث وإنبات الأرض، لأن الله تعالى ختم هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾، وأراد أنه لرحمته ولطفه بالعباد فعل ذلك حتى عظم انتفاعهم به، لأنه إذا نزل المطر وأصبحت الأرض مخضرة كان ذلك سببا لعيش الكائنات الحية على اختلاف أنواعها[٤].

(٢٠٩٦)في الآية تنبيه على أن معالجة النبات والعناية به أمر يحتاج إلى دقة وتيقظ واحتياط؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾، بعد قوله: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، لأن عملية الإنبات تقوم على مَسَامّ وشعيرات دقيقة تخرج من البذرة بعد الإنبات، وتمتصّ الغذاء من التربة، وهذه الشعيرات الجذرية تحتاج إلى لُطْف، وامتصاص الغذاء المناسب لكل نوع يحتاج إلى خبرة، ولدِقّة الشعيرات الجذرية يلزم أن نحرص على ألاَّ تعلوَ المياه الجوفية في التربة؛ لأنها تفسد هذه الشعيرات فتتعطن وتموت، فيصفرُّ النبات ويموت[٥].

---

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠١٨).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٧).

(٣) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٩٤).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٧).

(٥) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٩١١ – ٩٩١٢).

(٢٠٩٧)تفيد الآية إثبات اسم "الخبير" لله تعالى، لأن الله تعالى سمّى بنفسه بهذا الاسم في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾. وقد ورد في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٨].

(٢٠٩٨)تفيد الآية إثبات صفة الخبرة لله تعالى[(١)]، لأن الله تعالى وصف نفسه بهذه الصفة في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾. ووردت هذه الصفة في كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٣٤].

(٢٠٩٩)تفيد الآية أن يستشعر الإنسان عجزه وضعفه وجهله تجاه قدرة الله وعلمه الواسع، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، ثم ختم هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾، أي: عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وباطنها من بذور تخفى على علم الخلائق، ومن لطفه أنه يسوق الماء إلى تلك البذور، ويوصل إليها القدر الذي ينبت منه أنواع النبات[(٢)]. كما قال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة المؤمنون: ١٨].

(٢١٠٠)تشير الآية إلى أن الناس يجب أن يثقوا بربهم تعالى ويطمئنوا إلى حكمته في إنزال الغيث وإنبات النبات وغير ذلك، لأن الله تعالى ختم هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾، والمعنى خبير بما يليق من التدابير الحسنة ظاهرا وباطنا[(٣)]، عالم بمقادير

---

(١) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٩٤).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٥٠)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٤)، والأمثل (١٠/٣٢٧). واستشهد ابن كثير بقول أمية بن أبي الصلت –أو: زيد بن عمرو بن نفيل– في قصيدته:

وقولا له من يُنبِت الحبّ في الثرى فيصبح منه البقلُ يهتزّ رابيا

ويخرج منه حبّه في رؤوسه ففي ذاك آياتٌ لمن كان واعيا

(٣) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١١٧).

مصالح العباد وما يحتاجون إليه من الأرزاق، فيوصل إليهم القدر المناسب الذي ينفعهم في الوقت الملائم لهم[1].

(٢١٠١)تشير الآية إلى أنه لا ينبغي للناس أن يقنطوا من نزول الغيث وخصب الأرض؛ لأن الله تعالى ختم هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾، أي خبير بما في قلوب العباد من القنوط عند تأخر المطر[2].

(٢١٠٢)تشير الآية إلى أنه ينبغي أن يقوى رجاء المؤمنين في هلاك الظالمين ومعاقبة الله لهم في الدنيا والآخرة، لأن الله تعالى أورد هذه الآية بعد وعده المظلومين بالنصرة، ثم ختمها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾، أي هو اللطيف الذي يدرك بواطن الأشياء، وخفياتها، وسرائرها، الذي يسوق إلى عبده الخير، ويدفع عنه الشر بطرق لطيفة تخفى على العباد، ومن لطفه، أنه يري عبده، عزته في انتقامه وكمال اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك[3].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة الحج: ٦٤].

(٢١٠٣)تفيد الآية أن الإنسان لا بد أن يستشعر أنه مملوك لله تعالى، فيستسلم لله ويخضع له اختيارا كما يخضع له اضطرارا، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى أخبر بأنه يملك كل ما في السماوات وكل ما في الأرض فقال: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾، فهم جميعا عبيده وخلقه ومماليكه[4].

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٧)، وفي ظلال القرآن (٤/ ٢٤٤٠).

(٢) وينسب هذا التفسير إلى ابن عباس، ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤٨٧)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٧)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٦٣).

(٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٤).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٢٤).

(٢١٠٤)في الآية إشارة إلى أن الله ينفذ ما يريده من نصرة للمؤمنين ومحق للكافرين، لأن الله تعالى قال: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، أي كل ما في السماوات والأرض ملكه، وجميعهم مماليكه، وهم منقادون له، ولا يمتنعون من تصرفه فيهم[1]. والجملة تتمة للتعليل في الآية السابقة، كأنه قال: إن الله لطيف خبير مالك لما في السماوات وما في الأرض.

(٢١٠٥)تشير الآية إلى أنه كما يسهل على الله إنزال المطر من السماء وإنبات النبات في الأرض، فإنه يسهل عليه إحياء النفوس وغرس الإيمان في القلوب؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

(٢١٠٦)تفيد هذه الآية إثبات اسم "الغني" لله تعالى؛ لأن الله تعالى سمى نفسه بهذا الاسم في هذه الآية فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾. وقد ورد هذا الاسم في آيات أخرى من القرآن الكريم.

(٢١٠٧)تفيد هذه الآية إثبات وصف الغنى المطلق لله تعالى؛ لأن الله تعالى وصف نفسه بهذه الصفة في هذه الآية فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾.

(٢١٠٨)في الآية تنبيه للعبد على أن الاستغناء عن الخلق صفة كمال، والافتقار إليهم صفة نقص، فكلما استغنى بالله عن الناس كان ذلك أكمل وأفضل. وفي الحديث: ((إن الله يحب العبد التَّقيَّ الغنيَّ الخفيَّ))[2].

(٢١٠٩)تشير الآية إلى أن الشأن في العبد أن يظهر الافتقار إلى ربه، لأنه فقير حقيقة، والله هو الغني وحده؛ لأن الله تعالى قال في هذه الآية: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾. وضمير الفصل المقترن بلام التوكيد ﴿لَهُوَ﴾ للدلالة على انحصار هذه الصفة في الله

---

(١) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٩٦)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٣٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (كتاب الزهد، باب الزهد والرقائق، ح ٢٩٦٥، ٤/ ٢٢٧٧).

تعالى، ولذلك قال تعالى في آية أخرى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [سورة فاطر: ١٥][(١)].

(٢١١٠)تفيد الآية أن الإنسان إذا تقرب إلى الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه فيلزمه ألا يُعجَب بعمله ويظنّ أنه يفعل شيئا ذا بال، لأن الله تعالى أخبر أنه غني عن خلقه، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾. ومن غناه عنهم أنه لم يأمرهم ولم ينههم، ولا امتحنهم لمنافع تكون له، ولكن لمنافعهم[(٢)].

(٢١١١)تفيد هذه الآية إثبات اسم الحميد لله تعالى؛ لأن الله تعالى سمّى نفسه بهذا الاسم في هذه الآية فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾. وقد ورد هذا الاسم في آيات أخرى من القرآن الكريم. ومنها قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾. ومعنى الحميد: المستحق لغاية الحمد لذاته[(٣)]، المحمود عند أوليائه من خلقه[(٤)]، المحمود في أفعاله[(٥)].

(٢١١٢)في الآية إشارة إلى أن نحمد الله تعالى لكون تعالى أهلا أن يحمد، لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾. ومن معاني الحميد أنه المحمود بنعمته قبل ثناء من في السماوات ومن في الأرض[(٦)]، ومن ثم كان حقا على الخلق أن يحمدوه.

(٢١١٣)تفيد الآية أن الله تعالى لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى وصف نفسه بأنه

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢٠)، وزهرة التفاسير (٩/ ٥٠١٩).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٣٨).

(٣) ينظر روح المعاني (٩/ ١٣١).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٠٠).

(٥) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٣٨)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٨)، وتفسير السمعاني (٣/ ٤٥٣).

(٦) ينظر تفسير النسفي (٢/ ٤٥٢).

الحميد، ومما يحمد عليه شرعه، فهو تعالى محمودٌ فيه، ولا يُحمَد إلا لكونه يأمر بما يترجح فيه الخير، وينهى عمّا يغلب عليه الشر[1].

(٢١١٤)تدل الآية على أن توفيق الله ونصرته للمؤمنين وخذلانه ومَحْقه للكافرين موافقٌ للحكمة، فيقابل بالرضا والتسليم، وذلك لأن الله تعالى وصف نفسه بأنه الحميد بعد الآيات التي تحدثت عن وعد الله بالنصرة لعباده المظلومين، فهو المحمود على توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله[2].

(٢١١٥)تومئ الآية أن الأثرياء في الدنيا ينبغي أن يكونوا مع ثرائهم وغناهم النسبي كرماء أجوادا، يفعلون الخير من غير أن يطلبوا منه منفعة أو فائدةً ترجع إليهم، ويؤخذ هذا المعنى من أن الله تعالى جمع بين صفتي الغني والحمد فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾، فهو سبحانه وتعالى غني يملك جميع ما في الكون، وهو محمود لأنه يجود على المخلوقين ويكرمهم ويحسن إليهم ويوالي عليهم نعمَه، من غير أن يرجو منهم نفعا لأنه مستغن عنهم، والأجدر بالخلق أن يتخلقوا بمثل هذه الصفة على قدرهم[3].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الحج: ٦٥].

(٢١١٦)تفيد الآية أن الأصل في الأشياء الإباحة؛ لأن الله تعالى أخبر بأنه سخر لنا ما في الأرض فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، والإباحة فرع التسخير؛ إذ ما لم

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٤).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٤).

(٣) ينظر الأمثل (١٠/ ٣٢٨).

يبح لنا فهو غير مسخر لنا. وتسخيره لنا يقتضي جواز الانتفاع به بجميع وجوه الانتفاع إلا ما دل الدليل على تحريمه[١].

(٢١١٧)تفيد الآية أنه يجب على العبد أن يستشعر نعمة الله عليه في تسخيره للدّواب وإرشاده إلى أنواع المراكب ويحمده على ذلك[٢]؛ لأن الله تعالى بعدما وصف نفسه بأنه حميد ذكر موجب الحمد من عباده[٣] فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقد قيل في تفسيرها: إن المراد الدواب المذلَّلة للركوب[٤].كأنه قال: سخر لكم الدواب تركب في البر، والفلك تركب في البحر[٥]. وقد قال تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الزخرف: ١٣].

(٢١١٨)تدل الآية على أنه يجب علينا توحيد الله وإفراده بالعبادة؛ لأنه هو المنفرد بملك السماوات والأرض المتوحد بتسخير ما في الأرض، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الجاثية: ١٣]

---

(١) ينظر لطائف الإشارات (٢/ ٥٥٨). قال القشيري رحمه الله: (أراد به تسخير الانتفاع بها، فما للخلق به انتفاع وميسّر له في الاستمتاع به فهو كالمسّخّر له على معنى تمكينه منه، ثم يراعى فيه الإذن، فمن استمتع بشيء على وجه الإباحة والإذن والدعاء إليه والأمر به فذلك إنعامٌ وإكرام، ومن كان بالعكس فمكر واستدراج).

(٢) قال الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٤٧): (وسخر الحيوانات أيضا حتى ينتفع بها من حيث الأكل والركوب والحمل عليها والانتفاع بالنظر إليها، فلولا أن سخر الله تعالى الإبل والبقر مع قوتهما حتى يذللهما الضعيف من الناس ويتمكن منهما لما كان ذلك نعمة).

(٣) ينظر البحر المديد (٣/ ٥٥٠).

(٤) نسب الواحدي في البسيط (١٥/ ٤٨٧) ابن عباس قال: (يريد البهائم التي تركب وتؤكل). وبه فسر ابن الجوزي الآية في زاد المسير (٣/ ٢٤٨) دون أن ينسبه إلى ابن عباس.

(٥) ذكره السمعاني في تفسيره (٣/ ٤٥٣) والبغوي في تفسيره (٥/ ٣٩٨) على أنه قول ثان في تفسير الآية. واقتصر عليه الزمخشري في الكشاف (٣/ ١٦٨).

(٢١١٩)تشير الآية إلى أن الإنسان ينبغي أن يصرف ما هو مسخر له في الأرض في ما يرضي الله تعالى لا فيما نهى عنه، لأن تسخير ما في الأرض نعمة، وشكرها أن تستعمل في طاعة الله.

(٢١٢٠)تفيد الآية جواز ركوب البحر؛ لأن الله تعالى امتنّ علينا بتسخير الفلك التي يركب الناس عليها ليقطعوا البحار فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾، والإباحة فرع التسخير.

(٢١٢١)تفيد الآية أن يتوكل الإنسان على ربه حين ركوبه للبحر، وأن يتعلق به رغبا ورهبا، لأنه تعالى هو الذي يجعل الفلك تجري في البحر بأمره، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾، فإذا لم يرد ذلك لم يتمكن الإنسان من ركوب البحر، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الشورى: ٣٣]

(٢١٢٢)تومئ الآية أن ما توصل إليه الإنسان من المخترعات هو متفرع عن تسخير الله تعالى لما يريده في الكون، وذلك أن الله امتن على عباده بتسخير الفلك مع أن الإنسان هو الذي صنعها، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾، وذلك لأن الله هو الذي ألهم العباد بصنعها ودلهم على وجوه الانتفاع بها بالحمل فيها وركوبها، تفضلا منه عليهم وإحسانا منه إليهم[(١)].

(٢١٢٣)تومئ الآية أن يظهر الإنسان الافتقار إلى ربه في كل حين، فإنه لو صنع الفلك وركبه لما استطاع أن يسير به إذا كان البحر هائجا، والرياح عاصفة[(٢)]، ولكن الله سخر له

(١) ينظر لطائف الإشارات (٢/ ٥٥٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٨).

(٢) قال الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٤٧ – ٢٤٨): (فلولا صفتهما على ما هما عليه لما جرت، بل كانت تغوص أو تقف أو تعطب. فنبه تعالى على نعمه بذلك).

الفلك من حيث سخر الماء والرياح لجريها[1]، ولذلك كان المشركون على شركهم إذا ركبوا البحر دعوا الله وحده بتضرع وإخلاص. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة يونس: ٢٢].

(٢١٢٤)تشير الآية إلى أن يستشعر الناس عظيم نعمة الله عليهم حين سهّل لهم ركوب البحر وألهمهم صنع السفن والسير بها على الماء، ويشكروا الله على هذه النعمة. ولذلك قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة النحل: ١٤].

(٢١٢٥)تومئ الآية إلى أن يشكر الناس ربهم على نعمته عليهم لأنه يمسك السماء ويمنعها من أن تقع على الأرض بغير عمَد أو أسباب مشهودة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾، ولا يقدر أحد على إمساكها مع ثقلها وعظمها سوى الله تعالى[2].

(٢١٢٦)تشير الآية إلى أن الناس يجب عليهم أن يتقوا ربهم، ويكونوا شاكرين مستزيدين من النعم خائفين من غضب ربهم أن يأذن لبعض السماء بالوقوع على الأرض. لأن الله تعالى قال: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾، فجاءت الآية بالاستثناء ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ على سبيل الاحتراس جمعًا بين الامتنان والتخويف، فكأن فيها تحذيرا من أن يسقط

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٧ – ٢٤٨)، وقال النيسابوري في غرائب القرآن (٥/ ٩٩): (وسخر لهم الفلك حال كونها جارية بأمره، وهو تهيئة الأسباب المعاونة ودفع الأشياء المضادة لسهولة جريها).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٨٤).

عليهم شيء من السماء أو ما فيها من الشهب والكواكب والحجارة فيهلكهم كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الطور: ٤٤][(١)].

(٢١٢٧)في الآية إشارة إلى أن الله تعالى سيأذن بأن تسقط السماء على الأرض، وذلك إذا أراد تعالى فناء الأرض، وذلك يؤخذ من الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾، فإذا أذن الله بذلك فعله، وذلك يوم القيامة[(٢)]،كأن طيّ السماء ونقض هذه الهيئة كوقوعها[(٣)].

(٢١٢٨)تدل الآية أن السماء جرم ثقيل يتم إمساكه ويحفظه عن الوقوع؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾، وفي الحديث: ((أطّت السماءُ وحقَّ لها أن تئِطّ، ما فيها موضوع قدم إلا وفيه ملك قائم أو ساجد))[(٤)].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢٣).

(٢) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٧٨).

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ١٣١). وذكر ابن عطية أن هذا المعنى مما تحتمله الآية، ويحتمل أن يريد بذلك الوعيد لهم في أنه إن أذن في سقوط لكسفها عليهم سقطت، ويحتمل أن يعود قوله تعالى: ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ على الإمساك، ولذلك قال النظام النيسابوري في غرائب القرآن (٥/ ٩٩): (ويحتمل أن يقال: توقيف الوقوع على الإذن لا يوجب حصول الإذن، فالانخراق والانشقاق لا يستفاد من هذه الآية). وقال المظهري في تفسيره (٦/ ٣٤٥): (ولم نعلم وقوع السماء على الأرض يوم القيامة بل الانشقاق والانفطار وكونه كالمهل ووردة كالدهان وطيّه كطيّ السجل- فالأولى أن يقال: الاستثناء تكلم بالباقي بعد الثنيا، وذلك لا يقتضى وجود المستثنى- فمعنى الآية: لا يقع السماء على الأرض بغير إذنه، ولا يقتضي ذلك الإذن بالوقوع في وقت من الأوقات ولا وقوعها).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٥/١٧٣، رقم ٢١٥٥٥)، والترمذي في السنن: (كتاب الزهد، باب في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا))، ح ٢٣١٢، ٤/ ٥٥٦)، وقال: (حسن غريب)، وابن ماجه في السنن: (كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء، ح ٤١٩٠، ٢/ ١٤٠٢)، والحاكم في المستدرك: (كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر نفخ الصور، ح ٣٨٨٣، ٤/ ٥٤٤)، وقال: (صحيح الإسناد)، وفي (كتاب الأهوال، باب بشارة النبي -صلى الله عليه وسلم- للمسلمين، ٤/ ٥٧٩)، وقال: (صحيح الإسناد على شرط الشيخين)، وأقره الذهبي.

(٢١٢٩)تفيد الآية أن النعمة لا ينبغي أن تتجاوز مقدارا معينا وإلا صارت ضررا وشرًّا، ويؤخذ هذا المعنى من أن الله تعالى قال: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾، على أن المراد بالسماء: المطر[(١)]، والمراد (أن الله بتقديره جعل لنزول المطر على الأرض مقادير قدر أسبابها، وأنه لو استمر نزول المطر على الأرض لتضرر الناس، فكان في إمساك نزوله باطراد منه على الناس، وكان في تقدير نزوله عند تكوين الله إياه منة أيضا. فيكون هذا مشتملا على ذكر نعمتين: نعمة الغيث، ونعمة السلامة من طغيان المياه)[(٢)].

(٢١٣٠)في الآية إيماء إلى أن الإنسان – وإن فسر بعض الظواهر الطبيعية بتفسيرات علمية – عليه أن يذكر أن الله تعالى هو الذي وضع السنن الكونية وخلق هذه الظواهر وفق قوانين تسير عليها، فمعرفة هذه القوانين لا يعني أنها هي المتحكمة في سير الكون وإنما هي إرادة الله تعالى، فإذا شاء الله تعالى خرق ذلك القانون[(٣)]، وهذا ما أشار إليه تعالى بالاستثناء المفرّغ في قوله: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾.

(٢١٣١)تدل الآية على قول في تفسيرها أن الله تعالى إذا أذن بقيام الساعة ترك بعض الكواكب تسقط على الأرض. وذلك أن الله قال: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا

---

(١) كقول معاوية بن مالك:

إذا نزل السماءُ بأرض قوم... رعيْناهُ وإن كانوا غضابا

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢٤).

(٣) قال سيد قطب في الظلال (٤/ ٢٤٤١): (وهو الذي خلق الكون وفق هذا النظام الذي اختاره له وحكم فيه تلك النواميس التي تظل بها النجوم والكواكب مرفوعة متباعدة، لا تسقط ولا يصدم بعضها بعضا.. وكل تفسير فلكي للنظام الكوني ما يزيد على أنه محاولة لتفسير الناموس المنظم للوضع القائم الذي أنشأه خالق هذا النظام. وإن كان بعضهم ينسى هذه الحقيقة الواضحة، فيخيل إليه أنه حين يفسر النظام الكوني ينفي يد القدرة عن هذا الكون ويستبعد آثارها! وهذا وهم عجيب وانحراف في التفكير غريب. فإن الاهتداء إلى تفسير القانون – على فرض صحته والنظريات الفلكية ليست سوى فروض مدروسة لتفسير الظواهر الكونية تصح أو لا تصح، وتثبت اليوم وتبطل غدا بفرض جديد – لا ينفي وجود واضع القانون. وأثره في إعمال هذا القانون).

بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، ولفظ السماء يجوز أن يكون قد أطلق على جميع الموجودات العلوية التي تشملها[1]، والمعنى أن الله تعالى خلق الأجرام والكواكب، ودفع كلا منها في مداره المرسوم، وربطها برباط الجاذبية طبقا لسنته الكونية، وهذه الجاذبية من شأنها أن تجعل الأرض تجذب إليها بعض كواكب السماء القريبة منها ، لتسقط عليها، ولكنه سبحانه جعل في مقابل الجاذبية قوة مساوية لها وهي قوة الطرد المركزية، فيقع الجرم الفلكي بين قوتين متعادلتين، مما يتيح له البقاء متوازيا في فلكه المرسوم، ولكن حين يأذن الله بنهاية الخلق يعطل هذه القوى فتصطدم بعض الكواكب ببعضها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾ [سورة الانفطار: ١ – ٢][2].

(٢١٣٢)في الآية دعوةٌ للناس من طرف خفيٍّ إلى التأمل في الكون، والبحث في سننه وقوانينه، والانتفاع بها في حياتهم، وجعلها طريقا إلى تقوية الإيمان بربهم؛ وذلك لأن الله تعالى وجَّه الأنظار إلى تسخيره لما في الأرض، وتسخيره للبحر، وإلهامه إيانا صنع السفن، ولفَتَ الأنظارَ إلى السماء وكيف حفِظنا من سقوط ما فيها علينا.

(٢١٣٣)تفيد هذه الآية إثبات اسم الرؤوف لله تعالى؛ لأن الله تعالى سمى نفسه بهذا الاسم في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٦٥﴾. وقد ورد هذا الاسم في آيات أخرى من القرآن الكريم.

(٢١٣٤)تفيد هذه الآية إثبات وصف الرأفة لله تعالى[3]؛ لأن الله تعالى وصف نفسه بهذه الصفة في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٦٥﴾.

(٢١٣٥)في الآية إشارةٌ إلى أن من مظاهر رأفة الله بعباده حفظ من سرائرهم عن الزيغ بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ونصب المناسك التي يجمع معظمَها البيتُ الذي بوأه لإبراهيم

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢٤).

(٢) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٥٢)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٦٤).

(٣) ينظر المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٣٤٠).

عليه السلام، وهو التوحيد والصلاة والحج الحامل على التقوى التي بنيت عليها السورة، فإن الرأفة – كما قال الحرَالّي – (ألطفُ الرحمة وأبلغها، فالمرؤوف به تقيمه عناية الرأفة حتى تحفظ بمسراها في سرِّه ظهور ما يستدعي العفو، وتارة يكون هذا الحفظ بالقوة بنصب الأدلة، وتارة يضم إلى ذلك الفعل بخلق الهداية في القلب، وهذا خاص بمن له بالمنعم نوعُ وُصلة)[1].

(٢١٣٦)تفيد الآية أن المسلم عليه أن يتخلق بخلق الرأفة، (وهي صفة تقتضي صرف الضر)[2]؛ وذلك لأن الله تعالى أخبر بأنه يتصف بهذه الصفة، ومن التعبد بأسماء الله الحسنى التخلقُ بمقتضى صفاته سبحانه.

(٢١٣٧)تفيد هذه الآية إثبات اسم الرحيم لله تعالى؛ لأن الله تعالى سمى نفسه بهذا الاسم في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥﴾. وقد ورد هذا الاسم في آيات أخرى من القرآن الكريم، منها قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [سورة الفاتحة: ٣].

(٢١٣٨)تفيد هذه الآية إثبات وصف الرحمة لله تعالى[3]؛ لأن الله تعالى وصف نفسه بهذه الصفة في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥﴾.

(٢١٣٩)تفيد الآية أن المسلم عليه أن يتخلق بخلق الرحمة، (وهي صفة تقتضي النفع لمحتاجه)[4]، وذلك لأن الله تعالى أخبر بأنه يتصف بهذه الصفة، ومن التعبد بأسماء الله الحسنى

---

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٨٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢٥).

(٣) ينظر المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٣٤٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢٥).

التخلق بمقتضى صفاته سبحانه. وفي الحديث: ((الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء))[1].

(٢١٤٠)في الآية إيماء إلى أن درْء المفسدة مُقدَّم دائماً على جَلْب المصلحة، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى قدّم ذكر اسم "الرؤوف" على اسم "الرحيم"، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾، والرأفة تزيل الآلام، والرحمة تزيد الإنعام، فالله يرأف بعباده فيزيل عنهم أسباب الألم قبل أن يجلب لهم نفعاً برحمته، فدلّ على أن الأولى إزالة الضرر قبل جلب النفع[2].

(٢١٤١)من شأن ورود هذين الاسمين بهذه المؤكدات المتعددة (أن تشعل الأمل في النفوس المرتابة من فرط المعاصي والذنوب بأن رحمته تعالى فوق كل شيء ورأفته بخلقه فوق كل ما يرتكبونه ويقعون فيه من زلل وآثام)[3].

(٢١٤٢)يُستشفّ من الآية أن الداعية ينبغي أن يكون رؤوفا رحيما بمن يدعوهم مع جحودهم وعصيانهم لله ووقوعهم في الموبقات وتكذيبهم بآيات الله. وذلك أن الله تعالى- مع ظلمِ أكثر العباد وكفرانهم للنعم العظيمة المذكورة في الآية التي أنعم عليهم بها - يرأف بهم ويرحمهم، فيوالي عليهم نِعَمه، ويدفع عنهم نِقَمه[4]، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/١٦٠، رقم ٦٤٩٤)، وصحح أحمد شاكر إسناده في تحقيقه للمسند (٦/ ٤٦)، وأبو داود في سننه: (كتاب الأدب، باب في الرحمة، ح ٤٩٤١، ٤/٢٨٥)، والترمذي في سننه، واللفظ له: (كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، ح ١٩٢٤، ٤/٣٢٣- ٣٢٤)، وقال: (حسن صحيح)، والحاكم في المستدرك: (كتاب البر والصلة، باب وأما حديث عبد الله بن عمرو، ح ٧٢٧٤، ٤/١٧٥)، وصححه، وأقره الذهبي، وتعقبه السخاوي في المقاصد الحسنة (ص: ١٠١) فقال: (وكأن ذلك باعتبار ما له من المتابعات والشواهد، وإلا فأبو قابوس لم يَروِ عنه سوى ابن دينار، ولم يوثقه سوى ابن حبان على قاعدته في توثيق من لم يُجرَح). وحكم الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة أنه صحيح لغيره (٢/ ٥٩٤، رقم ٩٢٥).

(٢) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٩١٥).

(٣) أسماء الله الحسنى في فواصل سورة الحج: (ص ٢٥).

(٤) ينظر التفسير المأمون (٥/ ٢١٩).

رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾، وقال في الآية بعدها: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾، والداعية أولى من يتخلق بهذه الصفة.

(٢١٤٣)يؤخذ من اختتام هذه الآيات السبع المتوالية بالأسماء الحسنى، أنه ينبغي أن تفهم اسم الله سبحانه، وتستدعي فضل الله عز وجل بهذا الاسم في الموطن الذي يناسبه، فتسأله رحمته حين تنزل بك المصائب وتنزل عليك الشدائد، وتسأله من فضله، وتسأله من رحمته ومن لطفه، وتسأله من رأفته سبحانه، وفي كل موطن تذكر اسمًا من أسماء الله عز وجل يناسب كشف الضُّرِّ في هذا الموطن عنك، وإجابة سؤالك[(١)].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة الحج: ٦٦].

(٢١٤٤)في الآية إثبات للبعث بعد الموت[(٢)]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ﴾، فأثبت حياة بعد الموت، بعدما استدل له في الآيات المتقدمة بعظمة قدرة الله تعالى في خلق السماوات والأرض وتصريف شؤونهما[(٣)].

(٢١٤٥)في الآية تنبيه على أن العاقل يلزمه أن يغتنم فترة حياته الأولى قبل موته لكي ينعم في حياته الأخرى، لأنها حياة لا موت بعدها، ويؤخذ ذلك من أن الله أخبر بأنه أحيانا بعدما كنا نُطَفا، ثم يميتنا ثم سيحيينا، ولم يذكر أنه سيميتنا بعدها، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ﴾، فالحياة في الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية.

(٢١٤٦)في الآية تنبيه على أنه تعالى خلق الدنيا بسائر أحوالها من أجل الآخرة، ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى لم يجعل الإماتة بعد الإحياء الأول نهاية المطاف، وإنما ذكر إحياء ثانيا بعد الموت ليجازيهم على ما عملوه، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ﴾،

---

(١) ينظر تفسير أحمد حطيبة ( الدرس ٣٦/ ٧).

(٢) ينظر الإشارات الإلهية (ص: ٤٤٨).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢٦).

(يبين ذلك أنه لولا أمر الآخرة لم يكن للزراعات وتكلفها ولا لركوب الحيوانات وذبحها إلى غير ذلك معنى، بل كان تعالى يخلقه ابتداء من غير تكلف الزرع والسقي، وإنما أجرى الله العادة بذلك ليعتبر به في باب الدين)[1].

(٢١٤٧)في الآية إيماء إلى أن الإنسان يلزمه أن يستسلم لله ويخضع له، إذْ لا يستطيع أن يفسر بعض الظواهر الكونية التي يراها كل يوم، فالحياة الأولى معجزة تتجدد في كل حي يولد آناء الليل وأطراف النهار. وسرها اللطيف ما يزال غيبا يحتار العقل البشري في تصور كنهه، والموت سر آخر يعجز العقل البشري عن تصور كنهه[2]. وإنما يكفيه أن يعلم أن الله هو الذي ينفرد ذلك بقدرته: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

(٢١٤٨)تومئ الآية أن الله تعالى ما دام قادرًا على الإحياء ابتداءً فهو من باب أولى قادر على الإحياء بعد الموت[3]، ولذلك قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

(٢١٤٩)تدل الآية على أن الحياة الأولى في حد ذاتها نعمة تستوجب الشكر؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾، ففيها تذكير للناس بنعمة الحياة، فقد كان الناس عدما، أو ترابا في هذا التراب، ثم إذا هم بشر أسوياء في أجمل صورة وأحسن تقويم[4].

(٢١٥٠)تفيد الآية أن الموت مع ما فيه من ألم إلا أنه نعمة في ذاته؛ إذ لو عاش الإنسان حتى بلغ أرذل العمر ولم يعد قادرا على قضاء أيسر حاجاته، ولم يعد يعلم شيئا، فإن الموت

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٨).

(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٤١).

(٣) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠٢٢).

(٤) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٩١).

يكون آنئذ خيراً له من الحياة[1]، ولذلك قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ٦٦﴾.

(٢١٥١)في الآية دليل على أن الموت أمر وجودي، وهو مذهب أهل السنة بخلاف الفلاسفة؛ لأن القدرة لَا تتعلق بالعدم[2].

(٢١٥٢)تفيد الآية أن البعث فيه وجه من أوجه الإنعام الإلهي، فالحياة الأولى نعمة كما تقدم، ولكنها لا تتم إلا بالحياة الأخروية، ذلك أنه لو كانت الحياة الدنيا هي كل حياة الإنسان لكانت نعمة ناقصة، بل إنها تكون نقمة لما فيها من معاناة ومتاعب وشدائد، يكابدها الإنسان من المولد إلى الممات[3]. فمن كان موحدا كانت الآخرة خيرا له من الأولى، ومن كان كافرا كانت الآخرة جزاءه العادل الذي يستحق الله أن يحمد عليه.

(٢١٥٣)في الآية تحذير للخلق يوم البعث ودعوة لهم للاستعداد لها بعمل الصالحات؛ لأن الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف، وإنما هي مزرعة للآخرة، فما زرعه الإنسان في الدنيا سيحصده هنالك، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

(٢١٥٤)تفيد الآية أن الإنسان يستشعر عبوديته لله ويخضع له ويفوض الأمر إليه، لأنه متعرض لتغير الأحوال بخلاف الله تعالى، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى ذكر أنه ينقل خلقه في ثلاثة أطوار، وهذا الانتقال مؤذن بعوامل التغير، وأن الله قديم أزَلي لا يتغير، وأنه هو القادر الذي جعل الإنسان يمر في هذه المراحل[4].

---

(١) قال محمد محمود حجازي في التفسير الواضح (٢/ ٦٠٣): (وهذا الموت من أكبر النعم على الإنسان، ألم تر لك قريبا عزيزا عليك مرض مرضا شديدا حتى تمنيت له الموت؟ كلنا ذلك الرجل، ولذلك عدَّ الموت في النعم ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦﴾ (الرحمن: ٢٦) من سورة الرحمن، أليست الدنيا سجنَ المؤمن؟ وبالموت ينطلق إلى ساحة الرحمن).

(٢) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٩٧).

(٣) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٩٢).

(٤) ينظر التفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٦٥).

(٢١٥٥)في هذه الآية دعوة من طرف خفي إلى الإيمان بالله وتوحيده وإفراده بالعبادة والطاعة[١]، لأنه المنفرد بالإحياء والإماتة، أما عبادة ما عداه فهو سخف وضلال عظيم، لأنهم لا يختارون وقت ولادتهم ولا يدفعون الموت عن أنفسهم فضلا عن غيرهم، ولذلك قال تعالى في آية أخرى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٨].

(٢١٥٦)في الآية إيماء إلى الموتة الصغرى، وهو النوم، فإن الله تعالى يقبض أرواح العبيد عند منامهم ثم يرسل ما شاء منها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة الزمر: ٤٢]، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استيقظ ((قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور))[٢].

(٢١٥٧)تدل الآيات الأربع الأخيرة بدلالة السياق أن سنة الله تعالى – في إقامة الحق والعدل في الخلق ونصرة المظلومين منهم والمجاهدين في سبيله – ثابتة كثبات سنن الكون ونواميس الوجود، وذلك لأن السياق يستعرض هذه القوانين الكونية كلها، ويوجه القلوب إليها في معرض التوكيد لنصرة الله لمن يقع عليه البغي وهو يرد عن نفسه العدوان، وربط سننه تعالى في الخلق بسننه الكونية[٣].

(٢١٥٨)تدل الآية على نظر الإنسان إلى الأسباب وحدَها وعدم نسبة النعم إلى الله تعالى نوع من جحود النعمة، ولذلك وصف الله تعالى الإنسان بأنه كفور للنعم، لأنه لا يذكر

---

(١) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الدعوات، باب وضع اليد اليمنى تحت الخد اليمنى، ح ٥٩٥٥، ٥/ ٢٣٢٧). و(النشور): الحياة بعد الممات.

(٣) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٤٢).

فضل ربه ويقصر نظره على الأسباب ويرى أنه انتفع بما في الأرض بقوته وركب البحر بقدرته وصنع الفلك بمهارته، لا بتسخير الله تعالى له[١].

(٢١٥٩)تشير الآية إلى أن المرء ينبغي ألا يقصر نظره على الأسباب ووجوه العمل التي يقوم بها، وإنما ينبغي أن ينظر إلى فضل الله وإنعامه عليه بأنواع النعم وتسخيره لما في السماوات وما في الأرض[٢].

(٢١٦٠)في الآية زجر للإنسان عن الكفران، وبعث له على الشكر[٣]؛ لأن الله تعالى قال بعد بيان دلائل قدرته ومظاهر إنعامه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾، فكأنّ فيه استنكارًا لما يظهر منهم من جحود للنعم مع كل ما تقدم.

(٢١٦١)تفيد الآية أن الإنسان مهما كان يستقل نعم الله عليه ولا يستطيع شكرها حق الشكر، ولذلك وصف الله تعالى جنس الإنسان كله بأنه كفور[٤]، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾، أي كثير الجحود لنعم الله مع كونها ظاهرة غير مستترة[٥]. ويؤيده قوله تعالى:

---

(١) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٣٨).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٣٨).

(٣) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٩٩)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٦٧).

(٤) قال أبو السعود (٦/ ١١٨): (وهذا وصف للجنس بوصف بعض أفراده). وقال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ٥٥١): (ولا ينافي هذا خروج بعض الأفراد عن هذا الجحد، لأن المراد وصف جميع الجنس بوصف من يوجد فيه ذلك من أفراده مبالغة). ومن المفسرين من خصصه بالمشرك، كالواحدي في التفسير الوسيط (٣/ ٢٧٩)، وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: (كل شيء في القرآن: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾، يعني به الكفار). وينسب إلى ابن عباس أنه قال: (يريد الأسودَ بن عبد الأسد وأبا جهل بن هشام والعاص بن هشام وجماعةً من المشركين). (تفسير الرازي: ٢٣/ ٢٤٨، وتفسير القرطبي: ١٢/ ٩٣)، ولكن علق عليه أبو حيان في البحر المحيط (٧/ ٥٣٤) فقال: (وهذا على طريق التمثيل).

(٥) ينظر الهداية (٧/ ٤٩٢٨)، وتفسير السمعاني (٣/ ٤٥٣)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٩٨)، والكشاف (٣/ ١٦٩)، وفتح القدير (٣/ ٥٥١)، وغيرهم.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سورة سبأ: ١٣][(١)]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [سورة العاديات: ٦]. والحكم على المجموع لَا بد فيه من اعتبار نسبته لكل فرد من أفراده[(٢)].

(٢١٦٢)تشير الآية أن طبيعة الإنسان من حيث هو إنسان أنه كثير الجحود للنعم، قليل الشكر، ولا انفكاك له عن ذلك إلا بتزكية الله له، فالله سبحانه هو الذي يلهمه الشكر، ويعينه عليه ويوفقه إليه، وليس له ذلك من نفسه؛ لأن الآية تضمنت وصف الإنسان بالكفران، على طريقة القرآن في تناول الذم له من حيث هو إنسان، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [سورة الإسراء: ١١]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الإسراء: ٦٧]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [سورة العاديات: ٦]، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢]. فليس له من نفسه إلا الجهل والظلم، وكل علم وعدل وخير فيه فمن ربه، لا من نفسه[(٣)].

(٢١٦٣)تشير الآية إلى أن ذكر المصائب ونسيان النعم من جحود النعم، وذلك أن الحسن البصري قال في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾: (يعُدّ المصيباتِ وينسى النعمَ)[(٤)].

(٢١٦٤)تشير الآيات – باعتبار السياق البعيد – إلى وظيفة الرسل ومن يقوم مقامهم من الدعاة والمصلحين، وأنّه يجب عليهم أن يُعرِّفوا الناس بالله من خلال أسمائه وصفاته ويُذكِّروهم بنِعَم الله عليهم، وأن يحذروهم عاقبة ترك التكليف، ويبشروهم بما لهم إن قاموا بحقه

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٨)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٩٣).

(٢) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٩٧).

(٣) ينظر التفسير القيم (ص: ٥٨٣).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٠٤، رقم ١٤٠١٥)، وعزاه إليه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٧٢).

تعالى[1]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الحج: ٤٩]، ثم أتبعها بآيات تتضمن التبشير والإنذار والتذكير بنعم الواحد القهار.

(٢١٦٥)تدل الآية على أن معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ونعمه الفضلى سبيل إلى اكتساب التقوى، لأن الله عزّ وجل عرفنا في هذه الآيات على عدد من آلائه وأسمائه، فمعرفة الله تثمر تقواه، ومعرفة نعمه تستخرج الشكر بعبادته، والدعوة إلى التقوى هو مقصد السورة[2].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الحج: ٦٧].

(٢١٦٦)تفيد الآية أن الله تعالى جعل لكل أمة من الأمم السابقة، مكانا يعتادونه لعبادة الله فيه وقضاء فرائضه، وجعل لهم عملا يلزمونه[3]، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾. والمنسك فِي كلام العرب: الموضع الَّذِي تعتاده وتألفه فِي خير أو غيره[4]. ويراد به كذلك الموضع الذي تذبح فيه النسائك[5].

(٢١٦٧)يؤخذ من الآية أنه ما خلا زمنٌ من الأزمان من شرع[6]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾. فأخبر بأنه جعل لكل أمة شريعةً يعملون بها،

---

(١) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٨٥).

(٢) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٨٥).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٢٥).

(٤) معاني القرآن للفراء (٢/ ٢٣٠)، وذكر هذا الكلام الطبري (١٦/ ٦٢٥) دون أن ينسبه الى الفراء. ولكن قال ابن فارس: (وزعم ناس أن المنسك: المكان يألفه. وفيه نظر).

(٥) تهذيب اللغة (١٠/ ٤٥).

(٦) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٩٨).

أو عبادات يؤدونها، أو نسائك يذبحونها، على اختلاف المفسرين فيها، وهذا كله لا يكون إلا بإرسال الرسل وإنزال الوحي.

(٢١٦٨)تفيد الآية أن الله تعالى أوجب على كل الأمة من الأمم السابقة ذبحا يذبحونه ويتقربون به إليه سبحانه، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾. أي إراقة الدم كما جاء عن مجاهد وقتادة[(١)]. وهذا يقتضي أن يكونوا مأمورين بالذبح لقوله تعالى بعدها: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ [(٢)].

(٢١٦٩)تدل الآية على أن لكل أمة شريعةً خاصة يتعبدون الله بها، لأن الله تعالى قال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾، على قول من فسر المنسك بالطريقة والشريعة[(٣)]، ذلك كقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [سورة المائدة: ٤٨]. ويؤيده قوله تعالى في ختام الآية: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝٦٧﴾.

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٢٦ – ٦٢٧) وتفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٠٤)، ورجح الطبري هذا القول بقوله: (١٦/ ٦٢٧): (والصواب من القول في ذلك أن يقال: عني بذلك إراقة الدم أيام النحر بمنى؛ لأن المناسك التي كان المشركون جادلوا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت إراقة الدم في هذه الأيام، على أنهم قد كانوا جادلوه في إراقة الدماء التي هي دماء ذبائح الأنعام، بما قد أخبر الله عنهم في سورة الأنعام. غير أن تلك لم تكن مناسك، فأما التي هي مناسك فإنما هي هدايا أو ضحايا؛ ولذلك قلنا: عني بالمنسك في هذا الموضع الذبح، الذي هو بالصفة التي وصفنا). وذكر الجصاص في أحكام القرآن (٥/ ٨٥) أن (الأظهر الأغلب في العادة عند الإطلاق الذبح على وجه القربة؛ قال الله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ (البقرة: ١٩٦)).

(٢) ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٨٥).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٣٩)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٩٣) وغيرها. ونسب الواحدي في البسيط (١٥/ ٤٨٩) إلى ابن عباس أنه قال: (يريد شريعة هم عاملون بها). وقد فسر نفطويه الآية فقال: (أي مذهبا من طاعة الله تعالى). وأيّد ابن عطية في تفسيره (٤/ ١٣٢) هذا الوجه في التفسير، وقال: (وقوله ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ يعطي أن المنسك المصدر، ولو كان الموضع لقيل: هم ناسكون فيه).

(٢١٧٠)تدل الآية على أن لكل أمة من الأمم نبيًّا بعث فيها لدلالتهم على الحق وإرشادهم إلى توحيد الله وعبادته؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾، إذ الشريعة إنما يبلغها الرسول، ويُذكِّر بها النبيُّ الذي يأتي بعده.

(٢١٧١)تدل الآية على صحة من عبد الله على شريعة رسول ما دام لم يأت رسول آخر بشريعة ناسخة لشريعته؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾، فالأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى- عليهما السلام- منسكهم التوراة، والتي كانت من مبعث عيسى عليه السلام إلى مبعث النبي صلى الله عليه وسلم منسكهم الإنجيل، وأما الأمة الموجودة عند مبعث النبي- عليه الصلاة والسلام- ومَن بعدهم إلى يوم القيامة فهم أمة واحدة، منسكهم القرآن(١).

(٢١٧٢)تفيد الآية أن لكل أمة منهجا وطريقة في الحياة والتفكير والسلوك والاعتقاد. وهذا المنهج خاضع لسنن الله في تصريف الطبائع والقلوب وفق المؤثرات والاستجابات. وهي سنن ثابتة مطردة دقيقة. فالأمة التي تفتح قلوبها لدواعي الهدى ودلائله في الكون والنفس هي أمة مهتدية إلى الله بالاهتداء إلى نواميسه المؤدية إلى معرفته وطاعته. والأمة التي تغلق قلوبها دون تلك الدواعي والدلائل أمة ضالة تزداد ضلالا كلما زادت إعراضا عن الهدى ودواعيه(٢).

(٢١٧٣)تفيد الآية أنّ أساليب الدعوة وطرائق التربية تختلف باختلاف الأشخاص والأعصار(٣)، لأن الله تعالى قال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾. فقد جعل الله الشرائع مختلفة في الفروع لتكون ملائمة للأزمنة والأحوال وطبائع الأمم التي تنزلت عليهم(٤).

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١١٨).

(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٤٢).

(٣) ينظر البحر المديد (٣/ ٥٥٣).

(٤) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٩٢١)، والتفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٦٦).

(٢١٧٤)تدل الآية على عدم مجادلة المنكرين في الأمور القطعية، لأن الله تعالى قال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾. فهذا نهيٌ للنبي -صلى الله عليه وسلم- عن منازعتهم، والالتفات إلى قولهم وتمكينهم من المناظرة المؤدية إلى نزاعهم، فإنها إنما تنفع طالب الحق وهؤلاء أهل مراء[(١)]، ويؤيد هذا المعنى أن الله تعالى قال بعدها: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨﴾ [(٢)].

(٢١٧٥)تدل الآية على أن المؤمن ينبغي له أن يتلقى كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم بالقَبول والتسليم، وأن يجتنب الاعتراض عليها[(٣)]، لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾، (أي: فلا يجادلنك في أمر الدين، بل يجب عليهم الاستسلام والانقياد لكل أمر ونهي)[(٤)]، وإذا كان هذا للمشركين فهو من باب أولى للمؤمنين.

(٢١٧٦)تفيد الآية جوازَ كفِّ الدعاة عن محاورة الكفار ومجادلتهم إذا يئسوا من إيمانهم[(٥)]. فقد قال تعالى في الآيات المتقدمة: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [سورة الحج: ٥٥]، وهو يُوجب الإقلاع عن إنذار القوم، والإياس منهم، والآيات المتخلِّلةُ كالتأكيد لمعنى التسلية، فجيء بقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ تحريضاً له صلوات الله عليه على التأسّي بالأنبياء السابقة في مُتاركة القوم، والإمساك

---

(١) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٧٨).

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٧)، والهداية (٧/ ٤٩٢٩)، والبسيط (١٥/ ٤٩٠ - ٤٩١). قال مقاتل في تفسيره (٣/ ١٣٧): (نزلت في بديل بن ورقاء الخزاعي وبشر بن سفيان الخزاعي ويزيد ابن الحليس (أو الخنيس) من بني الحارث بن عبد مناف، لقولهم للمسلمين في الأنعام: ما قتلتم أنتم بأيديكم فهو حلال، وما قتل الله فهو حرام؟ يعنون الميتة). أي: (ما لكم تأكلون ما تقتلون بأيديكم ولا تأكلون ما قتله الله؟). والحق أنه لا اعتبار بخصوص السبب كما قال الشوكاني في تفسيره (٣/ ٥٥٣).

(٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٥).

(٤) البحر المديد (٣/ ٥٥٢).

(٥) ينظر تفسير المدينة المنورة (٢/ ١١١).

عن مجادلتهم بعد اليأس من إيمانهم، وينصره قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾ (١).

(٢١٧٧)تدل الآية على أن الكافر المنكر لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم لا ينبغي أن يجادَل في تفاصيل الأحكام الشرعية، ولا أن يُجاب عن اعتراضاته عليها، لأنها متفرعة عن أصل الإيمان بالله ورسوله، وإنما يجادل في ثبوت أصل الرسالة، أما الاقتصار على المجادلة في الأحكام، فإنه دليل على أن مقصوده التعنت والتعجيز (٢).

(٢١٧٨)في الآية دعوة للدعاة إلى الثبات على الدين حتى ينقطع رجاء المخالفين في أن يجذبوهم ليزيلوهم عنه (٣). ويؤخذ هذا المعنى من قراءة: ﴿فلا ينزعِنُّك في الأمر﴾، من النزع، أي لا يصرفُنَّك عن دينك فيحملوك إلى أديانهم (٤). فإن تعيينه تعالى لكل أمة شريعة خاصة موجب لطاعة هؤلاء لك وعدم منازعتهم إياك في أمر هذه الشريعة (٥).

(٢١٧٩)تشير الآية إلى أن الداعية عليه أن يوطِّن أنفسهم على معارضة الكفار ومنازعتهم ومجادلتهم، وألا يضعف أمامهم ويستكين لهم، وأن يتذكر أنه على الحق المبين والطريق المستقيم، لأن الله أخبر نبيه وهو إمام الدعاة بأنهم سينازعونه وأمره بالثبات فقال: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾.

---

(١) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٥٢٦).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٥).

(٣) ينظر الكشاف (٣/ ١٦٩).

(٤) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥٣٤). وقال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ٥٥٣): (أي: لا يستخفنّك ولا يغلبنّك على دينك).

(٥) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٣٩).

(٢١٨٠)في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ إشارةٌ إلى أن هذه الشريعة التي بين يدي محمد- صلوات الله وسلامه عليه- هي ﴿ٱلۡأَمۡرِۚ﴾، أي الشرع كلّه، وأنه لا أمر ولا شرع بعد هذا.. وهذا هو السرّ في تعريف ﴿ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ (١).

(٢١٨١)في الآية دلالة على أن الدعوة إلى الله واجبة على النبي صلى الله عليه وسلم ومن قام مقامه من الدعاة والمصلحين؛ لأن الله أمره عليه السلام بالدعوة إليه فقال: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾، يعني: ادع الخلق إلى معرفة ربك وتوحيده والعمل بما شرع من الشرائع(٢).

(٢١٨٢)تشير الآية إلى أنه يجب على أتباع الشرائع السابقة الذين أدركوا بعثة النبي عليه السلام أن يؤمنوا به ويتبعوا شريعته، لأن الله قال: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾، والمراد أن عليهم اتباع النبي وترك مخالفته، لأن الأمر قد استقر على شرعه وقد نسخ كل الشرائع التي تقدمته، وهذا يقتضي منهم أن يتحولوا إلى الإسلام، ولذلك قال: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾، أي: لا تخص بالدعوة أمة دون أمة، فكلهم أمتك فادعهم إلى شريعتك فإنك على هدى مستقيم(٣).

(٢١٨٣)في الآية إشارة إلى أنه لا ينبغي مناقشة الكفار في الأحكام الشرعية الجزئية وهم ينكرون المعتقدات الكبرى ويكذبون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم. ولهذا قال: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾، أي: لا ينازعك المكذبون لك، ويعترضون على بعض ما جئتهم به بعقولهم الفاسدة، مثل منازعتهم في حل الميتة، بقياسهم الفاسد، يقولون: (تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله )، وكقولهم: إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا، ونحو ذلك من اعتراضاتهم التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلة ومحاجة بانفرادها، فأصحاب هذا

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٣٠).

(٢) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٦٩)، والبسيط (١٥/ ٤٩١).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٩)، وغرائب القرآن (٥/ ٩٩).

الاعتراض، المنكرون لرسالة الرسول، إذا زعموا أنه يجادلون ليسترشدوا، يقال له: الكلام معكم في إثبات الرسالة وعدمها، وإلا فالاقتصار على هذه دليل أن مقصودهم التعنت والتعجيز[1].

(٢١٨٤)تدل الآية على أن الدعوة لغير الإسلام – بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم – باطلة، ولذلك نهى الله تعالى رسوله عن قبول منازعتهم في أمر ما جاءهم به، زعما بأنه يستغني عنه بما شرع قبله، وذلك لأن الجدال في ذلك جهل بحكمته تعالى في تكوين الأمم وتربيتها بالشرائع المناسبة لزمانها ومكانها، وحياتها ومنشئها. ولذلك كانت هذه الشريعة أهدى الشرائع للامتنان بها، حينما بلغ الإنسان أعلى طور الرشد ولذلك وجبت الدعوة إليها خاصة كما قال سبحانه: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾ [2].

(٢١٨٥)في الآية فضل الإسلام واتباع شريعة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، لأن الله تعالى قال مخاطبا رسوله: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾. قال ابن عباس: لم يخلق دينًا أقوم ولا أفضل منه ولا أحب إلى الله عزّ وجلّ[3].

(٢١٨٦)في الآية دلالة على حسن الإسلام وعظمته واستقامته، لأن الله وصفه بالاستقامة فقال: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾، (أي طريق واضح سوي موصل إلى التوحيد الذاتي بلا عوج وانحراف)[4].

(٢١٨٧)في قوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾ إرشادٌ لإجابة المعترضين على جزئيات الشرع بالعقل الصحيح، فإن الهدى وصف لكل ما جاء به الرسول صلى الله

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٥).

(٢) ينظر محاسن التأويل (٧/ ٢٧٣).

(٣) البسيط (١٥/ ٤٩١).

(٤) ينظر الفواتح الإلهية (١/ ٥٦١).

عليه وسلم، والهدى: ما تحصل به الهداية من مسائل الأصول والفروع، وهي المسائل التي يعرف حسنها وعدلها وحكمتها بالعقل والفطرة السليمة[1].

(٢١٨٨)تفيد الآية أن دين الإسلام أيسر الشرائع في الإيصال إلى الكمال النفساني الذي هو غاية الأديان، لأن الله قال: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾، ووصف الهدى بالمستقيم استعارة مكنية، شبه الهدى بالطريق الموصل إلى المطلوب، ورمز إليه بالمستقيم لأن المستقيم أسرع إيصالا إلى المطلوب[2].

(٢١٨٩)في الآية إشارة إلى ما في أيدي أهل الكتاب من شريعة غير مستقيمة، بما أدخلوا عليها من زيف وضلال، ويؤخذ ذلك من مفهوم قوله تعالى مخاطبا رسوله عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [3].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الحج: ٦٨ – ٦٩].

(٢١٩٠)في هذه الآية إرشاد للدعاة والمصلحين أن لا يجادلوا من جادل على سبيل التعنّت والمراء كفعل السفهاء، ويدفع بهذا القول الذي علّمه الله سبحانه لنبيّه صلى الله عليه

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٥).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٣٠).

(٣) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٩٤).

وسلم[1]: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾. بل ينبغي أن يتأدّب بهذا كلّ أحد[2].

(٢١٩١)تفيد الآية أن الذي يستحق أن يحاور ويجادل هو الذي يطلب الحق ليصل إليه، أما الذي يجادل للجدل، فهذا لا يستحق الجواب ولا ينبغي أن يحاور، لأن الله تعالى قال: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾.

(٢١٩٢)في الآية إرشاد للدعاة إلى دفع المجادلين بالرفق واللين، لأن الله قال لرسوله: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾. أي: (فادفعهم بأن الله أعلم بأعمالكم وبقبحها وبما تستحقون عليها من الجزاء فهو مجازيكم به. وهذا وعيد وإنذار، ولكن برفق ولين)[3].

(٢١٩٣)تفيد الآية أنه ينبغي ترك جدال كل مشاغب ما لم يلزم من تركه مفسدة[4]، لأن الله تعالى قال لنبيه: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨﴾، فلم يأمره بمجادلتهم، لأنهم معاندون مشاغبون، وإنما أمره بدفعهم بالتي هي أحسن. وهذه كقوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ

---

(١) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٣٣). وتفسير القرطبي (١٢/ ٩٤). قال الكلبي ومقاتل: (نسختها آية السيف). وعلق الواحدي في البسيط (١٥/ ٤٩٢) على ذلك فقال: (وهذا النسخ الذي قالا لا يرجع إلى الحكم، لأنَّ الله يحكم يوم القيامة بين المحقّ والمبطل، فيدخل المحق الجنة والمبطل النار، ولكن النسخ يعود إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- لما أمر بالقتال كان يقاتل من خالفه ولم يصدقه، ولا يدفع بالقول والمداراة كما أمر في هذه الآية بأن يقول إذا جادلوه: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾).

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٦٩). ونقل البقاعي في نظم الدرر (١٣/ ٩٠) عن الرازي أنه قال في "اللوامع": (وينبغي أن يتأدب بهذا كل أحد، فإن أهل الجدل قوم جاوزوا حد العوام بتحذلقهم، ولم يبلغوا درجة الخواص الذين عرفوا الأشياء على ما هي عليه، فالعوام منقادون للشريعة، والخواص يغرفون أسرارها وحقائقها، وأهل الجدل قوم في قلوبهم اضطراب وانزعاج).

(٣) الكشاف (٣/ ١٦٩)، وينظر البحر المحيط (٧/ ٥٣٥).

(٤) ينظر الإشارات الإلهية (ص: ٤٤٨).

وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ [سورة الشورى: ١٥][(١)].

(٢١٩٤)تشير الآية إلى أن العبد لا بد أن يخشى الله ويتقيه لأنه تعالى يعلم جميع ما يعمله من قول أو فعل أو خاطر، ويؤخذ هذا من أنّ الله أمر رسوله بأن يهدد المجادلين له ويقول لهم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾. وأفعل التفضيل هنا ليس على بابه، فلا مفاضلة في علم الله تعالى، إنما المعنى: أن الله يعلم بما تعملون علما ليس فوقه علم، وإن علم الله بأعمالكم سيبينه يوم القيامة[(٢)].

(٢١٩٥)تفيد الآية أن يفوض الداعية أمر الدعوة إلى الله تعالى فهو الذي يحفظها مما يحاك لها، لأنه يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾. أي أن الله تعالى يعلم مكايد المجادلين ويحيط بنياتهم، فقد يقول الكافر كلاماً يتوهم منه المسلم أنه يجادل من أجل الوصول إلى الحق، والله يعلم أنهم كذابون، وأنهم لا يريدون حقيقة ولا غيرها. ولكن يريدون التشنيع على الإسلام وعلى المسلمين، ومهما أظهروا عسلاً أمام الناس فقد أبطنوا فيه سماً. وهذا هو الشأن في المستشرقين الذين يمدحون الإسلام ليجتذبوا الناس، ولكن تجد أنهم يدسون السموم في باطن كلامهم ويفترون الأكاذيب ويسترونها بتلك الأردية[(٣)].

(٢١٩٦)تدل الآية على أن الجدال إنما يجدي مع القلوب المستعدة للهدى التي تطلب المعرفة وتبحث حقيقة عن الدليل، لا مع القلوب المكابِرة المصرة على الضلال، التي لا تحفل بما تراه الأبصار من الدلائل المبثوثة في الأنفس والآفاق، ولذلك أمر الله رسوله بأن يكلهم إليه، فهو الذي يحكم بين المناسك والمناهج وأتباعها الحكم الفاصل الأخير[(٤)].

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٥٢).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠٢٤).

(٣) ينظر تفسير أحمد حطيبة (الدرس ٣٧/ ٥).

(٤) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٤٢).

(٢١٩٧)تومئ الآية إلى أن الدعاة عليهم أن يتجنبوا التنقص من أديان المكذبين وعيبها، وإنما يكلوا أمرهم إلى الله، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة يونس: ٤١].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الحج: ٦٩].

(٢١٩٨)تومئ الآية إلى أن الطالب للحق عليه أن يسأل ربه أن يهديه لما اختلف فيه وهو في الدنيا قبل أن يقدم الخلق يوم القيامة فيحكم بينهم ويجزي المبطلين بما جنحوا إليه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾، أي أن الله سبحانه سيفصل بين الناس فيما وقع بينهم من خلاف، سوء أكان خلافا واقعا بين أهل الشريعة الواحدة، أو بينهم وبين غيرهم من أصحاب الشرائع الأخرى[(١)].

(٢١٩٩)تشير الآية إلى أن أهل الباطل لا يمكن أن يتفقوا، وإنما يختلفون بينهم اختلافا عظيما، ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى قال: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾، ولم يقُلْ: يحكم بيننا وبينكم؛ وكأن الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلّم: دعْهم فسوف يختلفون هم فيما بينهم، ولن يظل الخلاف معك؛ لأن اتباع الأهواء والحرص على السلطة الزمنية سيحملهم على الاختلاف[(٢)]، وإذا حكم الله بينهم فمن باب أولى أن يحكم بينهم وبين المؤمنين فيما كانوا فيه يختلفون.

(٢٢٠٠)في الآية إشارة إلى أن في جدال الأنبياء والمرسلين إثما عظيما، فهو ليس كجدال أحد من الناس، ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى أمره بأن يقول لهم على سبيل التهديد

---

(١) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٩٥). وهذا على أن الخطاب في الآية عام للمؤمنين والكافرين، وليس محكيّا بالقول كالذي قبله. (التفسير الوسيط لمجمع البحوث: ٦/ ١٢٥٤).

(٢) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٩٢٣).

والوعيد[1]: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾، وهو كقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾ [سورة الأحقاف: ٨][2].

(٢٢٠١)تفيد الآية أنه يلزم الدعاة أن لا يقبلوا من خصوم الإسلام أي نزاع أو جدال فيما جاء به عن الله من الحق، وأن يواصلوا دعوتهم عن بينة واقتناع، تاركين الفصل النهائي بينهم وبين المعاندين والمنكرين إلى يوم الفصل والجزاء[3]، لأن الله قال لرسوله: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾. والدعاة تبعٌ له عليه السلام.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾ [سورة الحج: ٧٠].

(٢٢٠٢)تدل الآية على أن الله محيط بما في السماوات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر[4]، وذلك في قوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾، وهذا تقرير على وجه الاستفهام[5].

(٢٢٠٣)في الآية حجة لأهل السنة القائلين بأن علم الله بالجزئيات كعلمه بالكليات، خلافا للحكماء[6]؛ لأن الله تعالى عبر بصيغة العموم، فقال: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾.

---

(١) ينظر التفسير المأمون (٥/ ٢٢١).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٥٢).

(٣) ينظر التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٩٤).

(٤) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٥٢).

(٥) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٩٨).

(٦) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٩٨).

(٢٢٠٤)في الآية دلالة على رد قول القدرية الأولى[١] الذين أنكروا علم الله السابق وكتابة ذلك في اللوح المحفوظ، حيث بين تعالى أنه يعلم منه ذلك منهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾.

(٢٢٠٥)تفيد الآية أن المؤمن يجب أن يؤمن بأن الله تعالى يعلم كل ما هو كائن في السماء والأرض – قبل أن يخلقها – إلى يوم القيامة[٢]، ويعلم ما سيعمله الخلق قبل خلقهم، ويدل على هذا قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وهو استفهام تقريري، خرج على طريق التنبيه على علم الله تعالى وإحاطته[٣].

(٢٢٠٦)تفيد الآية أن المؤمن يجب أن يؤمن بأن الله تعالى كتب ما سبق به علمه في اللوح المحفوظ[٤]، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحديد: ٢٢]، وقوله صلى الله عليه وسلم: ((إن أول ما خلق الله

---

(١) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٤١). وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٧٤) أن ابن مردويه أخرج عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: ((سيَفتح الله على أمتي بابا من القدَر في آخر الزمان لا يسده شيء، ويكفيكم من ذلك أن تقولوا: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾))، وقد أخرج مثله الديلمي في مسند الفردوس (٣٢٢/٢، رقم ٣٤٦٦)، وأخرجه كذلك اللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" (٣/ ٦٣٠، رقم ١٠١٦) من طريق آخر عن سليمان بن جعفر القرشي مرفوعا مرسلا.

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٣٠).

(٣) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٣٣)، وزاد المسير (٣/ ٢٤٩).

(٤) روى ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٦٣١، رقم ٣٣٩٠) و(٨/ ٢٥٠٤، رقم ١٤٠٢٢): عن ابن عباس قال: (خلق الله اللوح المحفوظ مسيرة مائة عام، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق –وهو على العرش تبارك وتعالى–: اكتب. قال القلم: وما أكتب؟ قال: علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة. فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة. فذلك قوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [سورة الحج: ٧٠]).

القلم فقال له: اكتب؛ قال: يا رب؛ وماذا أكتب؟ قال: اكتُبْ مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة))[1]. وقال: ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشُه على الماء))[2].

(٢٢٠٧)تدل الآية أن المؤمن يجب أن يؤمن بوجود كتاب مكنون كتب فيه كل ما يقع في الكون[3]، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾، وهو الذي سمي في آيات أخرى باللوح المحفوظ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [سورة البروج: ٢١ – ٢٢]. وقال سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ [سورة الرعد: ٣٩].

(٢٢٠٨)تدل الآية على أن الإنسان يجب أن يؤمن بهاتين المرتبتين من القدر[4]، وهو أن علمه تعالى سبق بما سيكون في الأرض والسماء ومن فيها، وكتبه في اللوح المحفوظ، فلا ينفذ

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه من حديث عبادة بن الصامت: (كتاب السنة، باب القدر، ح ٤٧٠٠، ٤/٢٢٥)، والبيهقي في سننه: (كتاب جماع أبواب من تجوز شهادته ومن لا تجوز، باب: ما ترد به شهادة أهل الأهواء، ح ٢٠٨٧٥، ١٠/ ٣٤٤)، والضياء المقدسي في المختارة (٨/٢٧٤، رقم ٣٣٦)، وأخرجه الترمذي في سننه: (كتاب القدر، باب رقم ١٧، ح ٢١٥٦، ٤/٤٥٧)، بلفظ: ((إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد)) وقال: غريب. وأخرجه أيضا في: (كتاب التفسير، باب ومن سورة ن، ح ٣٣١٩، ٥/ ٤٢٤). وأخرجه أيضا أحمد في المسند (٥/٣١٧، رقم ٢٢٧٥٧) بلفظ: ((إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال: اكتب فقال: ما أكتب. قال: القدر، فجرى في تلك الساعة ما هو كائن إلى يوم القيامة)).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ح ٢٦٥٣، ٤/ ٢٠٤٤).

(٣) قال الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٥٠): (قول الجمهور أن كل ما يحدثه الله في السماوات والأرض فقد كتبه في اللوح المحفوظ. قالوا: وهذا أولى، لأن القول الأول وإن كان صحيحا نظرا إلى الاشتقاق لكن الواجب حمل اللفظ على المتعارف، ومعلوم أن الكتاب هو ما تكتب فيه الأمور، فكان حمله عليه أولى).

فإن قيل: فقد يوهم ذلك أن علمه مستفاد من الكتاب، وأيضا فأي فائدة في ذلك الكتاب؟ والجواب عن الأول: أن كتبه تلك الأشياء في ذلك الكتاب مع كونها مطابقة للموجودات من أدل الدلائل على أنه سبحانه غني في علمه عن ذلك الكتاب. وعن الثاني: أن الملائكة ينظرون فيه، ثم يرون الحوادث داخلة في الوجود على وفقه، فصار ذلك دليلا لهم زائدا على كونه سبحانه عالما بكل المعلومات).

(٤) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٩٨).

قضاء في هذا الكون إلا قد علمه وكتبه[1]، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾.

(٢٢٠٩)فيها إشارة إلى فضيلة تقييد العلم في الكتب، وإذا كان الله تعالى أمر بكتابة ما سبق في علمه في كتاب، فإن الخلق أولى بذلك لما يعرض لهم من الغفلة والخطأ والنسيان، وقد أقسم الله تعالى بالقلم فقال: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [سورة القلم: ١].

(٢٢١٠)تدل الآية على أن علم الله وإحاطته بجميع ما في السماء والأرض سهل عليه، فلا يخفى عليه شيء يتعذر العلم به علينا[2]، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾. وإنما كان يسيرا لأنّ علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات على السواء[3].

(٢٢١١)تشير الآية إلى أنه يلزم أن يشتد خوف العباد من الله وأن يتقوه حق تقاته، لأن الله تعالى أخبر أنه يعلم كل شيء: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾، ففعلهم كله محفوظ عند الله لا يضل عنه ولا ينساه[4]، فيجازي المحسن منهم بإحسانه، والمسيء بإساءته[5].

(٢٢١٢)في الآية دليل على أن كتابة القلم ما هو كائن إلى يوم القيامة —مع أنه غيب – هين على الله[6]، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾. وهذا تصوير لضده، وهو صعوبة مثل ذلك على غيره، وإلا فلا مدخل لليسر والصعوبة في كمال قدرته سبحانه[1].

---

(١) ينظر التفسير المأمون (٥/ ٢٢٢ – ٢٢٣).

(٢) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٣٣)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤٩٣).

(٣) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٧٨).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٠).

(٥) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٤٢).

(٦) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٣١). وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٠) وقال: (فمعناه أن كتبه جملة الحوادث مع أنها من الغيب مما يتعذر على الخلق، لكنها بحيث متى أرادها الله تعالى كانت فعبر عن ذلك بأنه يسير، وإن كان هذا الوصف لا يستعمل إلا فينا من حيث تسهل وتصعب علينا الأمور).

(٢٢١٣)تدل الآية على أن حفظ ما هو كائن يسير على الله بغير كتاب، لا يصعب عليه حفظ شيء؛ لأنه عالم بذاته، لا بسبب ولا تعليم، وإنما يصعب حفظه على من كان علمه بالشيء بسبب وتعليم[٢].

(٢٢١٤)تدل الآية على أن الحكم بين الناس يوم القيامة أمر يسير على الله مع كثرتهم واختلاف أعمالهم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾، وذلك على القول بأن الإشارة بذلك ترجع إلى الآية السابقة: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [٣].

(٢٢١٥)في الآية إيماءٌ إلى أن الإنسان يجب أن ينزه الله عن النقائص، وأنه لا ينبغي له أن يقيس شأن الله تعالى على شأنه، فإن الله تعالى له الكمال المطلق، وعلمه محيط لكل شيء، وكل ما يريده فهو سهل عليه، إنما يقول له: كن، فيكون.

(٢٢١٦)تومئ الآية إلى أن الحكم بين المختصمين والمتنازعين يلزم أن يكون مبنيا على علم واسع صحيح، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى أخبر بسعة علمه بعد ذكر حكمه بين الناس يوم القيامة، ليبين أنه تعالى يحكم بينهم عن علم ويقين، وأن حكمه يقع في معلوم معروف لديه[٤].

---

(١) ينظر غرائب القرآن (٥/ ١٠٠).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٤١).

(٣) ينظر الهداية (٧/ ٤٩٣٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٩٥).

(٤) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٣٣)، والتفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٦٨)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٥٥).

(٢٢١٧)في الآية دلالة على أن الله تعالى بعث الرسل إلى الخلق مع علمه السابق منهم أنهم سيكذبون الرسل؛ لأن الله أخبر أنه على علم منهم بالتكذيب وترك الإجابة منهم، حيث قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [1].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ [سورة الحج: ٧١].

(٢٢١٨)تومئ الآية إلى أن الإنسان لا يخلو من أن يكون له معبود، فإما أنه يعبد الله، وإما أنه يعبد شيئا آخر وإن لم يكن في الحقيقة مستحقا للعبادة، ويؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾. أي يعبدون ما لم ينزل لهم به حجة[2] من السماء بأنها آلهة تصلح عبادتها فيعبدوها، وما ليس لهم به علم أنها آلهة[3].

(٢٢١٩)تشير الآية أن الإنسان مفطور على العبادة والتقرب، إلى أن فطرته قد تنتكس فيوجه عبوديته لغير الله، ويؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

(٢٢٢٠)تفيد الآية أن ما قامت عليه الحجة أو دل عليه الدليل – نقليا كان أم عقليا – فيجب قبوله؛ لأن الله تعالى بين أن عبادة المشركين لغير الله تعالى ليست مأخوذة عن دليل سمعي، وهو المراد من قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، ولا عن دليل

---

(١) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٤٠). حيث رد على من رأى امتناع ذلك وقال: (وأما قولهم: إن من علم في الشاهد تكذيب المرسل إليه رسوله فإنه لا يبعثه إليه؛ لأن المرسل إنما يبعثه لحاجة نفسه ومنافعه، فإذا علم منه تكذيبه وترك الإجابة لم يبعثه، فأما الله – سبحانه وتعالى – إنما يرسل الرسول لحاجة المرسل إليه ومنافعه، لا لحاجة نفسه ومنفعته، فلا ضرر يلحقه في تكذيبه وجحوده، فجائز إرساله على علم منه بالتكذيب).

(٢) روى ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ١٠٣٠) عن ابن عباس أنه قال: (كل سلطان في القرآن حجة). ورواه الطبري بنحوه في تفسيره (٧/ ٣٠٤) عن عكرمة. وهو كذلك إلا في قوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الرحمن: ٣٣).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٣٢)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٦).

عقلي وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾ (١). والعلم - بعد الدليل السمعي - إما ضروريٌّ أو استدلالي (٢).

(٢٢٢١)في الآية إشارة إلى أن العمل المبني على جهل فاسد، لأن الله أنكر عليهم عبادتهم ما ليس لهم به علم، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾، (يعني أنهم فعلوا ما فعلوا عن جهل، لا عن علم)(٣)، ولو استندوا إلى العلم لما عبدوا غير الله تعالى.

(٢٢٢٢)في الآية إشارة إلى أن العمل المبنيّ على التقليد فاسد، لأن الله تعالى بين أنهم يعبدون ما ليس لهم حجة تجوز عبادتهم، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾، وإذا لم يكن كذلك فهو عن تقليد أو جهل أو شبهة واهية، فوجب في كل قول هذا شأنه أن يكون باطلا، فمن ثَم تدل الآية على فساد التقليد(٤).

(٢٢٢٣)في الآية دلالة على أن الدليل السمعيَّ هو الحجةُ القاطعة، وعند ظهوره تضمحلُّ الآراءُ وتتلاشى الأقيسةُ، ومن عكس ضل الطريق، وحُرم التوفيق، وبقي متزلزلاً في ورطات الشُّبهات. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى اختص الدليلَ السمعي بالسلطان والتنزيل،

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٠)، وتفسير ابن عرفة (٣/ ١٩٩)، وروح المعاني (٩/ ١٨٩). وقال السمرقندي في "بحر العلوم" (٢/ ٤٦٩) في تفسيرها: (يعني: ليس لهم بذلك حجة من المعقول).

(٢) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٥٢٧). وقد فسر الزمخشري هذه الآية في الكشاف (٣/ ١٧٠) فقال: (ويعبدون ما لم يتمسكوا في صحة عبادته ببرهان سماوي من جهة الوحى والسمع، ولا ألجأهم إليها علم ضروري، ولا حملهم عليها دليل عقلي).

(٣) تفسير البغوي (٥/ ٣٩٩)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٦٤).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٠). وقال ابن عرفة في تفسيره (٣/ ١٩٩) (وفيه ذم التقليد، وهو على قسمين: تارة يكون المقلد ذاكرا له وعاجزا عن التعبير عنه، وتارة يكون مستشعرا، فالأول هو الذي يقدر ويصح تقليده، وهو الذي يقولون فيه: إيمان المقلد جائز، وهو في الرتبة الثانية).

فقال: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾، وكلمة السلطان تدل على أن الحجة التي تنزل من السماء لها القهر والغلبةُ على غيرها[1].

(٢٢٢٤)تفيد الآية أن الدليل السمعي يقدم في الاستدلال في الشرعيات على الدليل العقلي، ويؤخذ ذلك من تقديم الدليل السمعي المشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾، على الدليل العقلي المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾ [2].

(٢٢٢٥)تومئ الآية إلى أن الاستناد في شأن العبادات يكون إلى الدليل السمعي، ويؤخذ ذلك من تقديمه في الآية بقوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾، على الدليل العقلي المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾ [3].

(٢٢٢٦)تفيد الآية أنّ انتفاء الدليل السمعي لَا يستلزم انتفاء الدليل العقلي، لأن الله تعالى نفى أولا الدليل السمعي، فقال: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾، ثم

---

(١) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٥٢٧). وقال الشيخ أبو زهرة في "زهرة التفاسير" (٩/ ٥٠٢٦): (وسميت سلطانا؛ لأنها تكون قوة تجعل لمن نزلت له قوة تجعل ما عنده قويا كالسلطان).

(٢) ينظر روح المعاني (٩/ ١٨٩)، وذكر الألوسي أن الفاضل الرومي في حواشيه على "شرح المواقف" ذكر أن الأشاعرة لا يقولون بأن الدليل السمعي مقدم على الدليل العقلي، وإنما يرون (أنه متى عارض الدليل العقلي الدليل السمعي وجب تأويل الدليل السمعي إلى ما لا يعارضه الدليل العقلي، إذ لا يمكن العمل بهما ولا بنقيضهما، وتقديم السمع على العقل إبطال للأصل بالفرع، وفيه إبطال الفرع، وإذا أدى إثبات الشيء إلى إبطاله كان مناقضا لنفسه وكان باطلا)، فتأمل كيف خالفوا مقتضى هذه الهداية القرآنية.

(٣) ينظر روح المعاني (٩/ ١٨٩) حيث قال الألوسي: (مع أن التمسك به في هذا المقام أرجى في الخلاص إن حصل لوم من التمسك بالدليل العقلي، وإن شككت فارجع إلى نفسك فيما إذ لامك شخص على فعل، فإنك تجدها مائلة إلى الجواب بأني فعلت كذا لأنك أخبرتني برضاك بأن أفعله، أكثر من ميلها إلى الجواب بأني فعلته لقيام الدليل العقلي، وهو كذا على رضاك به، وإنكار ذلك مكابرة).

نفى الدليل العقلي فقال: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾ [1]. وهذا تأسيسٌ، ولو كان انتفاء الدليل النقلي يستلزم انتفاءَ الدليل العقلي لاكْتُفِيَ بنفيِه وحده.

(٢٢٢٧)تفيد الآية أنه يجب على المسلم أن يتبع الحق الذي دلت عليه الحجة، ولا يقلد الآباء والأجداد أو الكبراء بغير حجة ولا برهان، وقد أنكر الله تعالى في آية أخرى على المشركين اتباعهم آباءهم في الباطل، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [سورة لقمان: ٢١].

(٢٢٢٨)تدل الآية بمفهومها على أن الله تعالى أهل لأن يعبد، وقد دلت على ذلك الأدلة النقلية والبراهين العقلية خلافًا للمعبودات الباطلة. فما نزل من الكتب وما يقتضيه العقل الصحيح يدل على استحقاق الله تعالى للعبادة، ويؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾. فكأنه يسفههم بعبادتهم دون الله بلا حجة، ولا برهان، ولا علم، وتركهم عبادة الله مع الحجج، والبراهين، والعلم أنه ربهم المستوجب للعبادة[2].

(٢٢٢٩)تفيد الآية أن استحقاق الله العبادة يدل عليه العقل كما تدل عليه الكتب المنزلة. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى وصف معبودات المشركين بأنها ليس لها حجة منزلة، ولا برهان عقلي فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾، فكأنه أشار إلى أن الله تعالى بخلاف ذلك، فكيف يعدلون به غيره.

(٢٢٣٠)تفيد الآية أن نقطة البداية في التقوى عبادة الله، ويؤخذ ذلك من أن مقصد السورة هو الدعوة إلى التقوى كما أشار إليه مطلعها، وجاءت هذه الآية لتبين بطلان عبادة

---

(١) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٩٩). وقال ابن جزي في التسهيل (٢/ ٤٦): (بل الأحسن نفي العلم الضروري والنظري معا).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٤١).

غير الله تعالى، ثم أمر في آخر هذه السورة بعبادة الله، حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ (١).

(٢٢٣١)تفيد الآية أن الشرك أعظم الظلم، لأنها جاءت في سياق تسفيه المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى فقال: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾، ثم أتبعها بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١﴾، فعدل عن الإضمار إلى الإظهار تسجيلا عليهم بالظلم(٢)، وسموا بالظالمين لأنهم وضعوا التعبد في غير موضعه بوقوعهم في الشرك(٣).

(٢٢٣٢)تفيد الآية أن الإنسان يجب عليه أن يتجنب الظلم بجميع صوره، لأن الظالم لا مانع يمنعه من العذاب أو يقدر على دفعه عنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١﴾ (٤)، وليس لهم أحد ينتصر لهم من الله كما قد تتفق النصرة في الدنيا(٥). كما قال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ [سورة المائدة: ٧٢].

(٢٢٣٣)تفيد الآية – على قولٍ في تفسيرها – أن من أعظم ما ينتصر به الإنسان لنفسه أن تكون له حجة من صحيح النقل أو صريح العقل، وإلا فإنه يظلم نفسه، لأن الله

---

(١) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٩٩).

(٢) ينظر روح المعاني (٩/ ١٩٠).

(٣) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٩٣)، وتفسير الإيجي (٣/ ٧١)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١١٩).

(٤) ينظر تفسير الآية بما تقدم في تفسير الطبري (١٦/ ٦٣٢)، والكشف والبيان (٧/ ٣٣)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤٩٤)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٩٩).

(٥) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٠).

تعالى قال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾. أي ليس لهم ما يصوب ما ذهبوا إليه[1] أو ما يصح عند الضرورة أن يُتمسك به[2].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الحج: ٧٢]

(٢٢٣٤)في الآية إشارة إلى أن من أراد الاستدلال بأقوى البراهين وأثبت الحجج فعليه بتدبر آيات الله المتلوة، وهي آيات القرآن، ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى وصفها بأنها بينات فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، وإنما وصفها بذلك لكونها متضمنةً للحجج العقلية والأدلة الواضحة على وحدانية الله وصدق رسله، ظاهرةَ الدلالة على العقائد الحقة والأحكام الصادقة[3]. وقد وصف الله آياته بهذه الصفة: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ﴾ [سورة البقرة: ٩٩].

(٢٢٣٥)في الآية دليل على أن أهل الباطل تضيق صدورهم من الحق[4]، وأن من يحاورهم ينبغي أن يتوقع ذلك ويوطن نفسه على التعامل مع مظاهر ذلك الضيق.

(٢٢٣٦)تدل الآية على أن الإنسان يمكن أن يكتشف من وجه جليسه ما يجول في قلبه من مشاعر[5]، وذلك لأن الله تعالى بيّن ما يظهر على وجوه الكفار عند سماع القرآن فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾. أي تتبين في وجوههم

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٧٠)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٩)، والبحر المحيط (٧/ ٥٣٥).

(٢) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٥٢٧). وقال النيسابوري في غرائب القرآن (٥/ ١٠٠): (والنصرة إما بالشفاعة أو بالحجة، ولا حجة إلا للحق).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٠)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٩)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٦٤)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٥٣)، وتفسير الإيجي (٣/ ٧١)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٢٠).

(٤) ينظر النكت الدالة على البيان (٢/ ٣٤٢).

(٥) قال أبو حيان في البحر المحيط (٧/ ٥٣٦): (...لأن الوجه يظهر فيه الترح والفرح اللذان محلهما القلب).

علامات الإنكار وأمارات العتو والاستكبار[1]. وهذا كناية عن امتلاء نفوسهم من الإنكار والغيظ حتى تجاوز أثره بواطنهم، فظهر على وجوههم، كما في قوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤﴾ [سورة المطففين: ٢٤][2].

(٢٢٣٧)تفيد الآية أن الداعية لا ينبغي أن يكف عن الدعوة وبيان الحق، مع أن شأن الكفار أنهم لا يستمعون إلى كلمة الحق، ولا يقرعون الحجة بالحجة، وإنما يشتجر العتو في نفوسهم، وتهيج فيهم روح البطش، ويلجأون إلى العنف عند ما يُعوزهم الدليل، لأنهم يدركون أن ليس لهم ما يدفعون به هذه الحق إلا البطش بأهله![3].

(٢٢٣٨)تفيد الآية أن الدعاة إلى الله عليهم أن يوطنوا أنفسهم على الصبر على إيذاء الكافرين؛ لأن الله تعالى أخبر عن دأبهم مع الدعاة في كل زمان ومكان[4]، وشدة كراهيتهم لمن يبلغهم كلام الله وغيظهم عليهم فقال: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾. أي: يبسطون إليهم أيديهم بالسوء[5].

(٢٢٣٩)تفيد الآية أنه يجب على الدعاة إلى دين الله تعالى أن يحذروا من أعداء الدعوة فإنهم قد يتطاولون عليهم بالإيذاء البدني، وقد ينتهي بهم ذلك إلى القتل، ويؤخذ هذا المعنى من أن الله تعالى قال: ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾. أي يكادون يبطشون بسطوة على النبي عليه السلام وأصحابه، فيقتلونهم[6].

---

(١) ينظر الفواتح الإلهية (١/ ٥٦١).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٣٤).

(٣) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٤٣).

(٤) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٩٤).

(٥) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤٩٥)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٩٩).

(٦) ينظر تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٨٩)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٨).

(٢٢٤٠)تفيد الآية مشروعية إغاظة الظالم بما يغيظه من القول الحق[١]؛ وذلك لأن الله تعالى وصف المشركين بأنهم يغتاظون إذا سمعوا ما يتضمن تقرير التوحيد وبيان بطلان الشرك والأوثان اغتاظوا، وأمره بأن يزيدهم غيظا بقوله: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾، أي ما هو شر من تغيظكم بسماع القرآن[٢]: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ٧٢﴾، ويقتضي هذا جواز تعمد ذلك.

(٢٢٤١)تومئ الآية إلى أن التجهم عند سماع للقرآن والإعراض عمن يتلوه علامةٌ على سوء المعتقد وخبث السريرة[٣]؛ لأن الله وصف المشركين بأنهم إذا تليت عليهم الآيات يكادون يقعون بمن يتلوه بسبب شدة كراهيتهم لذلك[٤]: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ﴾، أي يظهر عليهم أثر الإنكار من الكراهية والعبوس والتهجم[٥]، فمن كان يظهر عليه مثله كان قريبا منهم.

(٢٢٤٢)تومئ الآية أن قوة الحجة وظهور البرهان قد لا يكفي في إقناع بعض الناس، بل إنهم يصرون على كفرهم، ويظلون على عنادهم، ويزدادون حنقا وغيظا على أهل الحق، وذلك لأن الله تعالى وصف أنه حين تتلى آياته حال كونها بينات فإنهم يزدادون عنادا، وأبدل الضمير بظاهر يدل على عنادهم[٦]، فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ

---

(١) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٩٨).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥١)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٣٣٦).

(٣) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥٣٦).

(٤) ينظر الهداية (٧/ ٤٩٣٢).

(٥) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤٩٤)، والكشاف (٣/ ١٧٠).

(٦) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٩٣)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٢٠)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٣٣٥). قال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ٥٥٤): (وهكذا ترى أهل البدع المضلة إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز، أو من السنة الصحيحة، مخالفا لما اعتقده من الباطل والضلالة رأيت في وجهه من المنكر ما لو تمكن من أن يسطو بذلك العالم لفعل به ما لا يفعله بالمشركين، وقد رأينا وسمعنا من أهل البدع ما لا يحيط به الوصف، والله ناصر

كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾، ثم قال: ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾، أي الآيات الدالة على أسمائه الحسنى وصفاته العلى، القاضية بوحدانيته، مع كونها بينات في غاية الوضوح في أنها كلامه، لما فيها من الحكم والبلاغة التي عجزوا عنها[1].

(٢٢٤٣)تومئ الآية أن تعديل السلوك الخارجي إنما يكون بتغيير الشعور الوجداني؛ لأن الله تعالى بين أن العمل الوجداني الذي يملأ نفوس الكافرين –وهو كراهيتهم للحق- يظهر أولاً في وجوههم على صورة عبوس وتجهُّم، فقال: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾، ثم يتحول الوجدان إلى نزوع حركي هو العدوان والبطش[2]: ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾، فهذا السلوك نتيجة لتلك المشاعر.

(٢٢٤٤)تشير الآية أن الإسلام حججه ساطعة، وأنه حق يعلو ولا يُعلى عليه، وأن حجة الباطل داحضة؛ ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى بيّن أن الكفار يحاولون البطش بالدعاة وإنزال الأذى بهم لأنهم عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة.

(٢٢٤٥)تفيد الآية أن النار إنما يدخلها الذين كفروا بظواهرهم وبواطنهم، أو ببواطنهم دون أن يظهروا ذلك إذا ماتوا على ذلك، لأن الله تعالى قال: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾، وإنما عدل عن الإضمار إلى الإظهار تنبيها على أن الكفر هو علة دخولهم النار[3].

---

الحق، ومظهر الدين، وداحض الباطل، ودامغ البدع، وحافظ المتكلمين بما أخذه عليهم المبينين للناس ما نزل إليهم، وهو حسبنا ونعم الوكيل).

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٩٣).

(٢) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٩٢٨).

(٣) ينظر الفواتح الإلهية (١/ ٥٦٢)، ونظم الدرر (١٣/ ٩٣)، وزهرة التفاسير (٩/ ٥٠٢٨).

(٢٢٤٦)تفيد الآية جواز توعد الكفار بالنار، لأن الله تعالى خاطب رسوله صلى الله عليه وسلم وأمره بأن يتوعدهم بجهنم فقال: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ (١).

(٢٢٤٧)تفيد الآية أن الكفر والإنكار يؤديان الى دخول النار؛ لأن الله تعالى خاطب رسوله صلى الله عليه وسلم وأمره بأن يتوعدهم بجهنم فقال: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ (٢).

(٢٢٤٨)تفيد الآية أن التوحيد والإقرار يفضيان الى الجنة، خلافا للكفر الذي يفضي بصاحبه إلى النار.

(٢٢٤٩)في الآية إشارة إلى أن نار القطيعة عن الله والطرد والإبعاد من رحابه شر من الإنكار الذي في قلوب المنكرين، فعلى العاقل أن يجتنب كل ما يؤدي إلى الشرك والإنكار، ويصحب أهل التوحيد والإقرار، ويحب أهل الولاية، ويبغض أصحاب الضلالة والغواية(٣).

**هدايات قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الحج: ٧٣].

(٢٢٥٠)تشير الآية إلى أن ضرب الأمثال أسلوب تعليمي يناسب الناس كلهم؛ لأن الله تعالى خاطب بهذه الآية الناس كلهم، وضرب لهم مثلا يدركونه جميعا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ﴾.

---

(١) ينظر روح البيان (٦/ ٦٠).

(٢) ينظر روح البيان (٦/ ٦٠).

(٣) ينظر روح البيان (٦/ ٦٠).

(٢٢٥١)تومئ الآية إلى أن الأمثال القرآنية يخاطب بها المؤمنون والكافرون، فالمؤمنون يعقلونها فيزدادون علما وبصيرة، والكافرون تقوم بها عليهم الحجة[١]، قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٢٥]، وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣].

(٢٢٥٢)تومئ الآية إلى أن الاعتبار بالقول يكون بصحة القول لا بالقائل. ويؤخذ هذا من أن الله تعالى حين أراد أن يبين حقارة الأصنام وسخافة عبادها نادى الناس نداء عاما، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ولما كان المقصود من المثَل تعقُّله لا قائله، بُنِي للمفعول فقال: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ [٢].

(٢٢٥٣)تفيد الآية أن الداعية والمدرس ونحوهما عليه أن يستعمل أسلوب ضرب الأمثال بين الفينة والأخرى، لبيان ما يريدون بيانه، لأنه من الأساليب التعليمية الناجعة القريبة إلى الأفهام[٣]، ولذلك ختم الله به استدلاله على بطلان الأوثان في هذه السورة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾، ونجد ضرب الأمثال في كثير من سور القرآن الكريم.

(٢٢٥٤)تشير الآية إلى أنه لا يحصل الانتفاع بما يلقى إليك إلا إذا أصغيت السمع إليه وانتبهت إلى المتكلم به، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى أمر بالاستماع إلى المثل المضروب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾، أي: ألقوا إليه أسماعكم، وتفهّموا ما احتوى عليه، ولا يصادفْ منكم قلوبا لاهية، وأسماعا معرضة[٤]. ولذلك أمر الله تعالى بالاستماع عند

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٦).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٩٥).

(٣) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٥٠٠)، والمختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٣٤١).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٦).

تلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٤][(١)].

(٢٢٥٥) تشير الآية إلى إعمال الفكر في ما يلقى إليك من الحجج والأمثال، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى أمر بالاستماع إلى المثل المضروب فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾، أي: أنصتوا وتدبروه حق تدبره، لأن السماع المجرد بلا تدبر وتعقُّل لا ينفع[(٢)].

(٢٢٥٦) تدل الآية أنه يستحسن استهلال الكلام الذي يراد به إقناع المنكر بتمهيد يراد منه تشويقه للسماع واستجلاب انتباهه واستدعاء اهتمامه بما سيلقى إليه، وذلك أن الله تعالى استهل كلامه في هذه الآية بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾، فناداهم مستعملا أداة التنبيه، وأجمل المثل الذي ضربه لهم ودعاهم إلى الاستماع إليه سماع تفكر وتدبر ليتهيأوا لتلقيه[(٣)].

(٢٢٥٧)تفيد الآية أن الإنسان عليه أن يترك التكبر والاستعلاء، فهو ضعيف عاجز لا يقدر على الامتناع من أصغر الحشرات، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾، ولذلك قال بعض السلف حين سئل: (لِمَ

---

(١) ولذلك شاع عند السلف أن الاستماع أول مراحل التعلم، روى ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ٤٧٧) عن سفيان الثوري أنه قال: (كان يقال: أول العلم الاستماع، ثم الإنصات، ثم الحفظ، ثم العمل ثم النشر).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥١)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٦٤)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٥٣).

(٣) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٥٣٠)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٣٣٩).

خلق الله تعالى الذباب؟ قال: لِيُذلّ به الجبابرة)[1]، وهو حيوان مستأنس ممتنع؛ لأنه يستأنس بك فيقع عليك، ثم إذا أردت أن تأخذه امتنع منك[2].

(٢٢٥٨)تفيد الآية جواز استعمال البراهين العقلية والحجج المنطقية – التي يدركها كل ذي عقل سليم – في محاورة المنكرين وإقناعهم بحقائق التوحيد. وذلك أن الله استعمل هذه الحجة التي تقضي بعدم صلاحية الأصنام للألوهية، وبين عجزها عن خلق ذبابة واحدة[3]، وهي حجة صالحة للاحتجاج في جميع الأعصار[4].

(٢٢٥٩)تدل الآية على أنه ينبغي للداعية أن يختار عند ضرب المثل أحسن ما يدل على الغرض من التمثيل به. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى خص الذباب بالذكر في الآية لأربعة أمور تخصه: لمهانته وضعفه واستقذاره وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا

---

(١) ينسب هذا القول إلى جعفر الصادق كما في "سير السلف الصالحين" لقوّام السنة (ص: ٧٢٢)، و"تهذيب الكمال في أسماء الرجال" (٥/ ٩٣). وينسب لمقاتل بن سليمان كما في وفيات الأعيان (٥/ ٢٥٥). ونسب القاضي عبد الجبار هذه الحكاية في "تنزيه القرآن عن المطاعن" (ص: ٢٧٥) إلى أبي الهذيل.

(٢) تفسير السمعاني (٣/ ٤٥٦).

(٣) قال الواحدي: (والذُّبَاب اسم واحد للذكر والأنثى، وجمعه القليل: أذِبَّة، والكثير: ذبّان). التفسير البسيط (١٥/ ٤٩٨)،

ومثله في تفسير القرطبي (١٢/ ٩٧).

(٤) قال الشيخ سعيد حوى في الأساس (٧/ ٣٦٠٤): (إن المثل الذي ضربه الله عزّ وجل على عجز الآلهة المزعومة ينطبق على أصنام قريش وغيرها، كما ينطبق على أي نوع من أنواع الآلهة المزعومة، كما ينطبق على الطبيعة ككل، وهي الإله المزعوم في هذا العصر، إذ يعطيها الملحدون كل خصائص الألوهية، فكأن العقل البشري المشرك لم يخرج من الوثنية إلا في حدود، فالمشرك الأول كان يعبد جزءا من مظاهر الطبيعة، والمشرك المثقف صار يعبد الطبيعة كلها، وسواء كان الإله المزعوم صنما، أو طبيعة، فإنه عند ما يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذونه منه، لأنه في اللحظة التي يأخذ الذباب منهم شيئا يحدث تغير كلي لهذا الشئ يخرجه عن مادته الأساسية، ولذلك فإنه يستحيل بأي طريقة أن يسترجع عين الشئ الذي أخذه الذباب، وهم إذا كانوا عاجزين عن استنقاذ شيْء سلبه الذباب، فمن باب أولى أن يكونوا عاجزين عن خلق ذباب، بل عن خلق أقل من ذباب).

يقدر من عبدوه من دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين وأربابا مطاعين؟ وهذا من أقوى الحجج وأوضح البراهين[1].

(٢٢٦٠)تشير الآية إلى أن الاجتماع من أجل أمر والتعاون على فعله أدعى لحصوله وتحققه، وذلك أن الله تعالى بين أن الأوثان ولو اجتمعت على خلق أحقر شيء ما استطاعوا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾. وفيه إشارة إلى أن المعهود من الاجتماع للشيء أن تتساند القدرات والجهود وتصل إلى المقصود.

(٢٢٦١)تدل الآية على أن الله تعالى هو المنفرد بالخلْق من عدم، فلا يجوز نسبة هذه الصفة الإلهية التي يختص بها الله تعالى إلى غيره، وذلك لأن الله تعالى بيّن عجز المعبودات الباطلة عن خلق أخس المخلوقات وأحقرها ولو تظاهروا على ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾، وإن عجزوا عن الذباب فهم أعجز عن غيره.

(٢٢٦٢)تفيد الآية أن العجز صفة ذاتية في المخلوقات، بخلاف الله تعالى فإن القدرة صفة ذاتية له تعالى، وذلك أن الله تعالى أنكر على المشركين عبادتهم لمن يعجزون عن خلق ذبابة، بل يعجزون عن تخليص ما سلبته منهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾.

(٢٢٦٣)تفيد الآية أن العجز صفة مستحيلة على الإله، والقدرة صفة واجبة فيه، فمن كان عاجزا فإن العقل يقضي بأنه لا يستحق العبادة بحال[2]. ولذلك بين الله عدم استحقاق الأصنام للعبادة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾.

---

(١) ينظر النكت والعيون (٤/ ٤٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٩٧).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٠)، وزهرة التفاسير (٩/ ٥٠٢٩)، وتفسير الشعراوي (١٦/ ٩٩٣٨).

(٢٢٦٤)تدل الآية على صدق الله تعالى فيما أخبر عنه بالتفصيل على نحو دقيق. وذلك لأن الله تعال أخبر بأن ما يسلبه الذباب لا يمكن استرجاعه فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ﴾، و"لا" تدل على نفي الأفعال المستقبلية، وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الذباب قد انفرد عن سائر الحيوان بأنه يفرز الهواضم على جزئيَّات طعامه، فيهضمه في مكانه قبل أن يمتصه بخرطومه؛ ولذلك فإنه متى سلب شيئًا وامتصَّه فقد سلبه متغيّرًا متحوّلاً، وتعجز كل وسائل العلم وأجهزته عن استنقاذه منه لأنه لم يبق على حالته الأصلية[(١)].

(٢٢٦٥)تفيد الآية أن نحذر من الذباب لأنه قد يسلب من الإنسان ما يصعب استرداده، وذلك أن الذباب كما صار معلوما في عصرنا قد يحمل أخطر الأمراض ويسلب من الإنسان الصحة، وقد يسلب منه الحياة، فهو يحمل ميكروب السل والتيفود والدوسنتاريا والرمد، وغيرها، ويستفاد ذلك من الإطلاق في كلمة شيء في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ﴾ [(٢)].

(٢٢٦٦)تدل الآية على أن خلقة الذباب معجز للخلق كلهم، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾، وقد اكتشف العلماء في العصر الحاضر خصائص عجيبة في خلقة الذباب[(٣)].

(٢٢٦٧)تفيد الآية أنه يجب ألا نحتقر أي مخلوق من مخلوقات الله تعالى، فلعل الله عز وجل يجعل فيه من القدرات ما لا تملكه، ويمكنه مما لا تقدر عليه، حتى إنه لو سلب منك

---

(١) ينظر مقال "مثل العاجز عن خلق الذباب": الأستاذ محمد عتوك: https://quran-m.com/.

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٤٤).

(٣) ينظر: من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: زغلول النجار (١٥٦ – ١٥٨)، ومقال "مثل العاجز عن خلق الذباب": الأستاذ محمد عتوك: https://quran-m.com/.

شيئاً، فإنك فلا تقدر على استرداده منه، كما هو الشأن في الذباب الذي ذكره الله في هذه الآية[1].

(٢٢٦٨)تفيد الآية أن العباد عليهم أن يستشعروا ضعفهم وذلتهم وعبوديتهم لله تعالى؛ لأن الله تعالى بين ضعف مخلوقاته عموما فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾، فنبه بذلك على أن جميع المخلوقات ضعيفة[2]، وأتبعه في الآية التالية أنه هو القوي العزيز، إشارة إلى أنه تضعف جميع القوى عند قوته، يذل جميع الأعزة عند عزته[3].

(٢٢٦٩)تومئ الآية أن الإنسان لا ينبغي أن يحمل هم الرزق، فما قسم له سيصله على ضعفه، وما كان لغيره فلن يصل إليه ولو كان قويا[4]، فالذباب يأخذ ما قسمه الله له مع أنه في غاية الصغر والضعف، والإنسان مع أنه أقوى من الذباب إلا أنه لا يستطيع استعادة شيء أخذه منه.

(٢٢٧٠)تشير الآية إلى أن سلب ممتلكات الآخرين وحقوقهم عمل خسيس[5]، لأن الله وصف الذباب بالسلب، وهو من أخس الحشرات وأضعفها وأقذرها.

(٢٢٧١)في الآية إشارة إلى ذمّ الغالين في أولياء الله تعالى، حيث ينذرون لهم النذور، ويستغيثون بهم في الشدائد، ويرجون أن يفرجوا عنهم الكربات، ويحلوا لهم المشكلات، مع أنهم

---

(١) ينظر تفريغ دروس التفسير للشيخ أحمد حطيبة (الدرس ٣٩/ ٢).

(٢) قال مكي في الهداية (٧/ ٤٩٣٤): (وقيل: المعنى: ضعف الطالب من بني آدم إلى الصنم حاجته، والمطلوب إليه أن يعطي سائله من بني آدم ما سأله). وينظر روح المعاني (٩/ ١٩٢) حيث قال الألوسي: (ومن الناس من اختار الأول لأنه أنسب بالسياق، إذ هو لتجهيلهم وتحقير آلهتهم، فناسب إرادتهم وآلهتهم من هذا التذييل).

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٣٨)، وتفسير الماتريدي (٧/ ٤٤٤).

(٤) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ٢٣).

(٥) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ٢٣).

لا يقدرون على جلب نفع أو دفع ضر عن أنفسهم وهم أحياء، بله وهو أموات؛ فصفة العجز صفة ثابتة لهم ثبوتا ذاتيا، ويصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ [1].

(٢٢٧٢)تشير الآية أن كل من تعلق في حوائجه بغير الله أو ركن بالمحبة إلى شيء سواه، فقد أشرك مع الله أضعف شيء وأقله شركًا خفيا. فماذا يجدي تعلقُ العاجزُ بالعاجز، والضعيف بالضعيف؟ فما قَدَر الله حقَ قدره من تعلق في أموره بغيره [2].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤﴾ [سورة الحج: ٧٤].

(٢٢٧٣)تدل الآية على أنه بقدر الجهل بصفات الله وعدم معرفة لوازم ألوهيته وعدم تقديره حق قدره كما هو اللائق بشأنه يقع الإنسان في نسبة الله إلى ما لا يليق به ويعدلون عن عبادته وتعظيمه [3]، لأن قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، وقع موقع التعليل لما قبله [4].

(٢٢٧٤)تفيد الآية أن الشرك بالله تعالى منافٍ لتعظيمه كل المنافاة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، أي ما عظموا الله حق عظمته حين أشركوا به ولم يوحدوه، وعبدوا الأوثان من دونه [5].

(٢٢٧٥)تفيد الآية أن من عرف الله حق معرفته فإنه يوحده ويخلص له العبادة [1]، وذلك لأن الله تعالى أنكر على المشركين فقال: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، أي ما عرفوه حق

---

(١) ينظر مجموعة رسائل التوجيهات الإسلامية لإصلاح الفرد والمجتمع (١/ ١٩٢).

(٢) ينظر البحر المديد (٣/ ٥٥٥).

(٣) ينظر الفواتح الإلهية (١/ ٥٦٢).

(٤) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٢١)، وزهرة التفاسير (٩/ ٥٠٣٠).

(٥) ينظر تفسير مقاتل (٣/ ١٣٩)، وتفسير يحي بن سلام (١/ ٣٨٩)، تفسير الطبري (١٦/ ٦٣٧).

معرفته كما ينبغي؛ من قولهم: ما عرفت لفلان قدره، إذا خاطبوا بذلك من قصر بحقه، وهم يريدون تعظيمه[٢].

(٢٢٧٦)تشير الآية إلى أن المطلوب من العبد تعظيمه لربه؛ لأنه تعالى أنكر على المشركين شركهم وعدم تعظيمهم لخالقهم.

(٢٢٧٧)تشير الآية أن ينبغي ألا يعظم الإنسان شيئا تعظيما أكثر من تعظيمه لله، لأن الله العظيم أولى بالتعظيم، أما المخلوقات فهي متصفة بالافتقار والعجز والضعف[٣]، ولذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

(٢٢٧٨)تفيد الآية أن من عظم الله تعالى حق عظمته فإنه يتوجه لشكره وعبادته حق العبادة؛ وذلك لأن الله تعالى أنكر على المشركين فقال: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، ولو عظموه حق تعظيمه، ما صرفوا عبادتهم وشكرهم إلى غير الذي أنعم عليهم، مع أنهم يعلمون أن تلك النعم إنما وصلت إليهم من الله، لا من معبوداتهم الباطلة[٤].

(٢٢٧٩)تفيد الآية ثبوت صفة القوة لله تعالى[٥]؛ لأن الله تعالى أثبت هذه الصفة لنفسه في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾. وجاء في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الذاريات: ٥٨].

(٢٢٨٠)تفيد الآية ثبوت اسم القوي لله تعالى؛ لأن الله تعالى أثبت هذا الاسم لنفسه في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

---

(١) قال الماتريدي في تفسيره (٧/ ٤٤٤): (لو عرفوه حق معرفته، لم ينسبوا إليه، ولا وصفوه، وعرفوا بذاته وتعاليه عن ذلك، لكن حيث لم يعرفوه حق معرفته شبّهوه بواحد من خلقه).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٣٧)، و تفسير السمرقندي (٢/ ٤٧٠).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٢).

(٤) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٤٤).

(٥) ينظر المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٣٤١).

(٢٢٨١)تفيد الآية ثبوت صفة العزة لله تعالى[١]؛ لأن الله تعالى أثبت هذه الصفة لنفسه في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾.

(٢٢٨٢)تفيد الآية ثبوت اسم العزيز لله تعالى؛ لأن الله تعالى أثبت هذا الاسم لنفسه في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾. وقد جاء في آيات أخرى مثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٢٠].

(٢٢٨٣)تشير الآية إلى أن الخلق جميعًا ضعفاء، فلا يعتمد عليهم ولا يرجون في أمر؛ لأن الله وصف نفسه بالانفراد بكمال القوة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾، وغيره ضعيفٌ ذليل[٢].

(٢٢٨٤)تفيد الآية أن من أراد القوة والعزة فليطلبها وليستمدها من الله تعالى لا من غيره، لأن الله تعالى أخبر أنه هو المنفرد بكمال القوة والعزة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [٣]، وبه تعالى قوي من قوي، وعزّ من عزّ[٤]. ويؤيده قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [سورة فاطر: ١٠].

(٢٢٨٥)تشير الآية إلى أن العباد لا بد أن يتقوا ربهم ويحذروا غضبه ويتجنبوا معصيته، لأنه تعالى سينتقم من أعدائه، يؤخذ هذا من أن الله تعالى ذيل الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ

---

(١) ينظر المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٣٤١).

(٢) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٥٨).

(٣) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١١٠١).

(٤) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٤٤).

عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾، أي لقوي بنصر أوليائه، عزيز ينتقم من أعدائه[1]، ويندمج في هذا التذييل تهديد لهم بأنه ينتقم من المشركين على وقاحتهم[2].

(٢٢٨٦)تفيد الآية بضميمة الحديث القدسي أن العزة صفة ينفرد الله تعالى بها، ولا ينبغي لعبد أن يتكبر أو يتعزز على الخلق، وفي الحديث أن الله تعالى قال: ((الكبرياء ردائي، والعزة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما ألقيه في النار))[3].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة الحج: ٧٥].

(٢٢٨٧)تشير الآية إلى أن حسن الاختيار وجودة الاصطفاء تختلف باختلاف المصطفِي، فكلما كان أعلم وأحكم كان اختياره أجود وأقوم، وإذا كان المصطفِي هو الله تعالى فلا بُدَّ أنْ يختار صفوة الصفوة وخلاصة الخلاصة[4]. ولذلك ابتدأ الله تعالى هذه الآية باسم الجلالة فقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾. وقد قال رسول الله

---

(١) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٢٥)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٥٥). وقال السمرقندي في بحر العلوم (٢/ ٤٧١): (ويقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ على عقوبة من جعل له شريكاً، ﴿عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ للانتقام منهم).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٣).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٢٤٨، رقم ٧٣٧٦)، وقد صحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٧/ ١٨٨)، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٧٩، رقم ٥٤١). ورواه أبو داود في سننه بلفظ: ((قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما، قذفته في النار)) (كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، ح ٤٠٩٠، ٤/ ٣٥٠)، وابن ماجه في سننه: (كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع، ح ٤١٧٤، ٢/ ١٣٩٧).

(٤) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٩٣٩).

صلى الله عليه وسلم: ((إن الله اصطفى كِنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم))[1].

(٢٢٨٨)تدل الآية على أنه يلزم أن نعظِّم جميع ما اصطفاه الله تعالى من الأزمنة والأمكنة والأشخاص، لأن هذا من تعظيمه سبحانه، فقد اصطفى من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً، واصطفى من الزمان أزمنةً معيَّنة كشهر رمضان، واصطفي من المكان أمكنةً معيَّنة كمكة.

(٢٢٨٩)تدل الآية على وجوب الإيمان بوجود خلقٍ يسمون بالملائكة؛ لأن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾، يستلزم وجودهم، وقد بينت الآيات والأحاديث النبوية أنواعهم وشأنهم.

(٢٢٩٠)تدل الآية على وجوب الإيمان برسل الله من الملائكة كجبريل وميكائيل اللذين كانا يرسلهما إلى أنبيائه ومن شاء من عباده[2]، لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾. وقال في آية أخرى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾ [سورة النحل: ٢].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٧/٤، رقم ١٧٠٢٧)، ومسلم في صحيحه: (الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، ح ٢٢٧٦، ١٧٨٢/٤)، والترمذي في سننه: (كتاب المناقب، باب ما جاء في فضل النبي صلى الله عليه وسلم، ح ٣٦٠٦ و٣٦١٢، ٥٨٣/٥).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٣٨). وقال مقاتل في تفسيره (٣/ ١٣٩): (وهم: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت والحفظة الذين يكتبون أعمال بني آدم)، ونحوه في تفسير السمرقندي (٢/ ٤٧١) ونسبه الواحدي في البسيط (١٥/ ٥٠٢): إلى ابن عباس. وقال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ٥٥٦): (فيرسل الملك إلى النبي، والنبي إلى الناس، أو يرسل الملك لقبض أرواح مخلوقاته، أو لتحصيل ما ينفعكم، أو لإنزال العذاب عليهم).

(٢٢٩١)في الآية رد على من زعم أن الرسل لا يكونون من البشر[١]، ويقترحون نزول الملائكة عليهم؛ لأن الله صرح بأنه يجعل من الناس رسلا يرسلهم إليهم فقال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾.

(٢٢٩٢)تدل الآية على وجوب الإيمان بأن الرسل عليهم السلام أزكى البشر، وأفضلهم وأجمعهم لصفات الكمال، وأحقهم بالرسالة، فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾، واختيارُه إياهم عن علم منه أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم، ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٤)[٢].

(٢٢٩٣)تدل الآية أن من أنكر إرسال جبريل عليه السلام فقد كفر، لأن الله تعالى أخبر أنه اصطفى الرسل من الملائكة بحكمته فقال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾، وجبريل من هؤلاء، فمن أنكر ذلك فقد كذّب بالآية، وصار مشابها لليهود الذين كانوا يعادون جبريل عليه السلام، وقد قال الله فيهم: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾ [سورة البقرة: ٩٨].

(٢٢٩٤)تشير الآية إلى بطلان عبادة الملائكة، وزيْفِ التشفع بهم إلى الله، لأن الله تعالى بين أن علو درجة الملائكة ليس لكونهم آلهة، بل لأن الله تعالى اصطفاهم لمكان عبادتهم، واختار منهم رسلا يرسلهم بأمره، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾، فكأنه تعالى بين أنهم ما قدروا الله حق قدره أن جعلوا الملائكة معبودين مع الله[٣].

---

(١) تفسير المدينة المنورة (٢/ ١١١).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٦).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٣).

(٢٢٩٥)تشير الآية إلى زيف قول بعض المشركين: الملائكة بنات الله تعالى، لأن الله تعالى أخبر أنه علو درجة بعض الملائكة إنما هو لأن الله تعالى اختارهم، لا لكونهم بناته[(١)]، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

(٢٢٩٦)تدل الآية على وجوب الإيمان بأن الله تعالى اختار من الناس أُناسا يرسلهم إلى عباده من بني آدم، يدعونهم إلى الحق ويبلغون إليهم ما نزل عليهم[(٢)]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾.

(٢٢٩٧)تفيد الآية أن الاختيار إلى الله تعالى يختار من يشاء من خلقه[(٣)]، ويختص من شاء بما شاء، لأنه بصير بعباده، فيعلم من يستحق أن يختار منهم لهذه الرسالة؛ ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ [سورة القصص: ٦٨].

(٢٢٩٨)تفيد الآية فضيلة أصحاب النبي رضي الله عنهم[(٤)]، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون، لأن الله تعالى اختارهم لصحبة نبيه، ومكنهم من خلافته، والله بصير بعباده، ويعلم من هو صالحٌ لصحبة النبي وأهلٌ لخلافته. ويؤخذ هذا المعنى من أن الله تعالى ذيّل خبره باختياره للرسل من الملائكة والناس بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾، والذي يتصف بهذه الصفات، لا يسأل عما يفعل، وليس لأحد أن يعترض عليه في حكمه وتدابيره[(٥)].

(٢٢٩٩)تفيد الآية بضميمة آية أخرى أن الرسل هم الذين يختصهم الله بإطلاعهم على ما يشاء من أمر الغيب، فمن ادّعى علم الغيب فهو ضال، وذلك لأن الله تعالى أخبر بأنهم

---

(١) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٨٠)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٢١).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٣٨)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٨٠).

(٣) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٣٥)، والتفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٨٠)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٦٥).

(٤) ينظر درج الدرر (٢/ ٣٤٢).

(٥) ينظر الكشاف (٣/ ١٧٢)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٥٦).

اختار الرسل ليبلغوا عنه مراده فقال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾، وأخبر في آية أخرى أنه لا يطلع أحدا من الناس على الغيب إلا من شاء من الرسل فقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [سورة الجن: ٢٦ – ٢٧].

(٢٣٠٠)يستدل بالآية على أن الرسل معصومون من الذنوب، وذلك لأن الله أخبر أنه اصطفاهم فقال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾، والوصف بالاصطفاء ينافي صدور الذنب منهم[(١)]؛ لأن اصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إياه صافيا عن الشوب الموجود في غيره[(٢)].

(٢٣٠١) تفيد الآية أن النبوة والرسالة إنما هو اصطفاء من الله تعالى، وليس أمرا ينال بالاجتهاد وفعل الأسباب؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [(٣)]. وهو حكيم في اختياره، كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٤].

(٢٣٠٢)تفيد الآية أن الرسالة أرفع من الولاية، وأن الرسل أفضل من الأولياء، ويستفاد ذلك من أن الله تعالى لما بين أن المعبودات الباطلة لا تملك نفعا ولا ضرا أشار إلى أن (منتهى مآل المخلوقين أن يخصهم الله بكرامة الرسالة)[(٤)]، فدلّ ذلك على أنها أرفع الدرجات التي يمكن أن يصل إليها الخلق[(٥)].

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٣/ ٤٥٦)، وتفسير الخازن (٣/ ٢١٦)، وغرائب القرآن (١/ ٢٥٧).

(٢) ينظر روح البيان (٦/ ٦٢).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٤٥).

(٤) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٥٣٢).

(٥) قال البيضاوي في تفسيره (٤/ ٨٠): (كأنه لما قرر وحدانيته في الألوهية ونفى أن يشاركه غيره في صفاتها بين أن له عباداً مصطفين للرسالة يتوسل بإجابتهم والاقتداء بهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، وهو أعلى المراتب ومنتهى الدرجات لمن سواه من الموجودات).

(٢٣٠٣)تفيد الآية أن الأحكام الشرعية لا تثبت إلا بالوحي أو برؤيا الأنبياء، ولا تثبت للأولياء بالإلهام في قلوبهم، وذلك لأن الله تعالى نص في هذه الآية أن المبلغين عنه من الناس هم الرسل، أما الأولياء – فمهما صفت قلوبهم عن الأكدار، وخلَت عن الأغيار وتجلّت لهم الحقائق– فلا يمكن أن يعتمد على ذلك لأنه لا يوحى إليهم[(١)].

(٢٣٠٤)تفيد الآية ثبوت صفة السمع لله تعالى[(٢)]؛ لأن الله تعالى أثبت هذه الصفة لنفسه في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾، أي عليم بجميع المسموعات[(٣)].

(٢٣٠٥)تشير الآية إلى أن الإنسان يجب أن يحترز مما يتكلم به؛ لأن الله تعالى يسمع كلامه، ولا يخفى عليه شيء منه، وسيحاسبه عليه.

(٢٣٠٦)في الآية تهديد لمن يتكلم في الرسل أو الملائكة بسوء، أو يفتري عليهم، أو ينسب إليهم ما لا يليق بهم، ويستفاد هذا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾، أي سميع لمقالتهم[(٤)].

(٢٣٠٧)تومئ الآية إلى أن يطمئن الدعاة الى أن الله تعالى معهم يسمع أقوال أعدائهم ويبصر أذاهم، ولن يتخلى عنهم، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى بعدما ذكر اصطفاءه للرسل قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾، كأنه يشير إلى أن رسله سيُوَاجَهُون باستهزاء وأقوال تؤذيهم، وسيُقَابلون بأفعال تعرقل مسيرة دعوتهم، فليكُنْ هذا معلوماً حتى لا يفُتّ ذلك في عَضُدهم، والله معهم سميع لما يُقال، بَصير بما يفعل، فهُمْ تحت سمعه وبصره وكلاءته سبحانه[(٥)].

---

(١) ينظر التفسير المنير (١٦/ ١٦).

(٢) ينظر المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٣٤١).

(٣) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٢١).

(٤) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٧١)، والتفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٢٨٠)، وتفسير الجلالين (ص: ٤٤٤)، ومراح لبيد (٢/ ٨٢).

(٥) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٩٤٠).

(٢٣٠٨)تومئ الآية إلى أن المطلوب أن نختار لكل مهمة من يقوى على القيام بها؛ ويؤخذ من ذلك من أن الله تعالى اصطفى للرسالة أولى الخلق بها وأقدرهم عليها، وكذلك لا بد ألا نكلف أحدا بعمل عظيم إلا إن كان أهلا له.

(٢٣٠٩)تفيد الآية ثبوت صفة البصر لله تعالى[١]؛ لأن الله تعالى أثبت هذه الصفة لنفسه في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾، أي مدرك لجميع المبصرات[٢].

(٢٣١٠)تشير الآية إلى أن الإنسان يجب أن يتقي اللهَ ولا يفعل إلا ما لا يرضيه، لأن الله تعالى يبصره ويرى ما يعمله، ولا يخفى عليه من أفعاله شيء، وسيحاسبه عليه.

(٢٣١١)تفيد الآية باقتران اسمي السميع والبصير أن العبد عليه أن يعلم أنه بمرأى من الله عز وجل ومسمع، فلا يستهين بنظره إليه واطلاعه عليه[٣]، فهو سميع لأقواله، بصير بأفعاله.

(٢٣١٢)تفيد الآية أنه لا ينبغي الاعتراض على ما أنعم الله به على أحد من العباد؛ لأنه تعالى بصير بعباده، يعلم من يصلح للنعمة ومن لا يصلح، حكيم في اختياره، ويؤخذ هذا من أن المشركين اعترضوا على كون سيدنا محمدا عليه السلام رسولا من الله، وقالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ [سورة ص: ٨][٤]، فأجابهم الله تعالى بهذه الآية وختمها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾، أي بصير بمن يختاره للرسالة[٥]. وليس لأهل العقول مهما بلغت بهم

---

(١) ينظر المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٣٤١).

(٢) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٢١).

(٣) ينظر المقصد الأسنى (ص: ٩١ - ٩٢).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٣٨)، والكشف والبيان (٧/ ٣٥)، ونسبه الواحدي في البسيط (١٥/ ٥٠٣) إلى مقاتل.

(٥) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٣٥).

عقولهم من الفطنة والذكاء أن يطلعوا على خفايا الأمور، فيصطفوا للمقامات العليا من قد تخفى عنهم نقائصهم[1].

(٢٣١٣)تفيد الآية أن الاختيار والاصطفاء ينبغي أن يكون عن علم ودراية بطبيعة المهمة التي يراد تكليفهم بها، والصفات التي يلزم أن تكون فيمن يُختارون لها، ومعرفة بالناس الذين سيختار منهم.

**هدايات قوله تعالى:** ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الحج: ٧٦].

(٢٣١٤)في الآية تعريض بوجوب مراقبة العباد ربهم في السر والعلانية، لأنه لا تخفى عليه خافية، فهو تعالى كما وصف نفسه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي يعلم الأمور الماضية والمستقبلة، أو يعلم ما يخفونه وما يظهرونه[2].

(٢٣١٥)تفيد الآية أن المرء عليه أن يجدّ في الطاعة ويزدجر عن الإقدام على المعصية؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾، فقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾إشارة إلى العلم التام وقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ إشارة إلى القدرة التامة والتفرد بالإلهية والحكم، ومجموعهما يتضمن نهاية الزجر عن المعصية والحث على الطاعة[3].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٤).

(٢) ينظر مراح لبيد (٢/ ٨٢)، وأيسر التفاسير (٣/ ٥٠٠). وقال ابن عاشور التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٤- ٣٤٥): (وما بين أيديهم مستعار لما يظهرونه، وما خلفهم هو ما يخفونه، لأن الشيء الذي يظهره صاحبه يجعله بين يديه، والشيء الذي يخفيه يجعله وراءه. ويجوز أن يكون ما بين أيديهم مستعارا لما سيكون من أحوالهم؛ لأنها تشبه الشيء الذي هو تجاه الشخص وهو يمشي إليه، وما خلفهم مستعارا لما مضى وعبر من أحوالهم؛ لأنها تشبه ما تركه السائر وراءه وتجاوزه).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٣)، وغرائب القرآن (٥/ ١٠٢)، وفتح القدير (٣/ ٥٥٦)، والتفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٧٢).

(٢٣١٦)في الآية دعوةٌ من طرف خفِيٍّ للتهيُّؤ للحساب في الدار الآخرة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾، أي أن الأمور كلها ترجع إليه وحده يوم القيامة، ليحاسِب كل نفس بما كسبت، وتجد كلُّ نفس ما عملت محضرا، سواء أكان خيرًا أم شرًّا، ويكون له وحده الجزاء[(١)].

**هدايات قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لعلكم تفلحون ٧٧﴾ [سورة الحج: ٧٧].

(٢٣١٧)يشير افتتاح هذه الآية بالنداء للمؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، مع افتتاح السورة بنداء الناس جميعا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، أن مَن آمَن مِن الناس بالله ربا واتقاه وعظم شعائره وآمن بالبعث فقد استحق النداء بنعت الإيمان الوارد في ختام السورة[(٢)].

(٢٣١٨)استُدِلّ بالآية على أن الإيمان هو التصديق القلبي؛ لأن الله تعالى خاطب المؤمنين في الآية وأمرهم بالصلاة والعبادة وفعل الخيرات، فدل على أنها أعمال مغايرة لماهية الإيمان[(٣)]. ومعنى الآية: يا أيها الذين صدقوا اللهَ ورسلَه وكُتبَه، اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير[(٤)].

---

(١) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٤٧)، وزهرة التفاسير (٩/ ٥٠٣٣).

(٢) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ٣).

(٣) وهذا مجمل كلام الإمام الماتريدي في تفسيره (٧/ ٤٤٥) حيث قال: (في الآية دلالة أن الإيمان هو شيء خاص وشيء واحد، لا اسم جميع الخيرات، وهو التصديق؛ لأنه أثبت لهم اسم الإيمان، ثم أمرهم بالركوع والسجود وفعل الخيرات؛ لأن جميع المخاطبين بهذه الآية عرفوا من خوطب بها، فلو كان اسما لجميع الخيرات لكان لا يعرف المخاطب بها؛ لأنه لا يقدر أحد على جميع الخيرات؛ فدل أنه شيء معروف خاص مما يرجع صاحبه إلى حد المعرفة، حيث عرفه المخاطب به، والله أعلم). وقال النسفي في تفسيره (٢/ ٤٥٦): (وفيه دليل على أن الأعمال ليست من الإيمان). وهذا القول يخالف قول جمهور أهل السنة الذين يرون أن العمل جزء من الإيمان.

(٤) ينظر الهداية (٧/ ٤٩٣٦).

(٢٣١٩)تدل الآية على أن الركوع ركن من أركان الصلاة، فمن تركه عمدا أو سهوا بطلت صلاته؛ لأن الله تعالى حين أراد الأمر بالصلاة عبر بأهم أركانها[١]، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾.

(٢٣٢٠)تدل الآية على أن ما يقال في الركوع والسجود من تسبيح وتعظيم لله تعالى أو دعاء ليس بفرض؛ لأن الله تعالى اقتصر على ما هو مفروض فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾[٢].

(٢٣٢١)تدل الآية على أن السجود ركن من أركان الصلاة، فمن ترك سجدة من السجدات عمدا أو سهوا بطَلت صلاته؛ لأن الله تعالى حين أراد الأمر بالصلاة عبر بأهم أركانها[٣] فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾.

(٢٣٢٢)تدل الآية على أن نافلة الصلاة يجوز أن تؤدى في جميع الأوقات من ليل أو نهار إلا ما دل الدليل على استثنائه، لأن الله تعالى أمر بالركوع والسجود مطلقا دون قيد فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾، وجاء النهي في السنة النبوية عن أوقات مخصوصة[٤].

---

(١) قال البقاعي في نظم الدرر (١٣/ ٩٩): (وخص هذين الركنين في التعبير عن الصلاة بهما، لأنهما – لمخالفتهما الهيئات المعتادة – هما الدالان على الخضوع، فحسن التعبير بهما عنها جداً في السورة التي جمعت جميع الفرق الذين فيهم من يستقبح – لما غلب عليه من العتو – بعض الهيئات الدالة على ذلّ).

(٢) قال الإمام الشافعي (٣/ ١٠٩٣): (قال الله – عز وجل –: ﴿ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ ﴾ الآية. ولم يذكر في الركوع والسجود عملاً غيرهما، فكانا الفرض. فمن جاء بما يقع عليه اسم ركوع أو سجود فقد جاء بالفرض عليه، والذكر فيهما سنة اختيار). وقد روى عبد الرزاق في مصنفه (٢/ ١٥١، رقم ٢٨٦٢) عن أبي هريرة أنه قال: (لا صلاة إلا بركوع) ).

(٣) ينظر غرائب القرآن (٥/ ١٠٢)، والتفسير المظهري (٦/ ٣٥٠).

(٤) ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا صلاة بعد الصبح حتى ترتفع الشمس، ولا صلاة بعد العصر حتى تغيب الشمس))، أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب مواقيت الصلاة، باب لا يتحرى الصلاة قبل غروب

(٢٣٢٣)تومئ الآية إلى أن الركوع والسجود هيئات تتضمن الذل والانكسار، فلا تنبغي إلا لله القوي العزيز. ولعل هذا من حكم تخصيصها بالذكر عوضا عن ذكر الصلاة.

(٢٣٢٤)تدل الآية أنه يستحب عند قراءة هذه الآية أو سماعها سجودُ التلاوة، لأن الله أمرنا بالسجود بقوله: ﴿وَٱسۡجُدُواْ﴾، وقد نقل فعلها عن جماعة من الصحابة، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث تدل على مشروعيتها[(١)].

(٢٣٢٥)في الآية تنبيه على عظم شأن الصلاة وأنها رأس العبادات وعماد الدين، فإن الله تعالى قدم ذكرها هنا على غيرها، فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾. فأمر بالصلاة، ثم ثنى ببقية العبادات، ثم بفعل الخيرات[(٢)].

(٢٣٢٦)تفيد الآية وجوب الإخلاص لله تعالى في العبادة؛ لأن الله تعالى أمر بعبادته وحده فقال: ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾، أي: ولا تشركوا فيها غيره[(٣)].

(٢٣٢٧)تدل الآية على أن المسلم ينبغي له أن ينوي العبادة لله تعالى في كل ما نفعله من قيام وقعود، وحركة وسكون، وتقلب في شأن المعاش ونحو ذلك، وذلك بأن ننوي بها

---

الشمس، ح ٥٦١، ١/ ٢١٢). ومسلم في صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها، ح ٨٢٧، ١/ ٥٦٧).

(١) ينظر تفسير السمعاني (٣/ ٤٥٧) وتفسير البيضاوي (٤/ ٨٠)، وأيسر التفاسير (٣/ ٥٠٣). وينظر الفصل الأول من الباب الأول.

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٧٢)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٣٤)، وغرائب القرآن (٥/ ١٠٢)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٦).

(٣) ينظر معاني القرآن للنحاس (٤/ ٤٣٣)، وتفسير الماتريدي (٧/ ٤٤٦). قال الواحدي في البسيط (١٥/ ٥٠٤): (يعني: أن من أشرك بعبادته غيره لم يوحده، وعبادته إنما تصح مع التوحيد، فجاز أن يسمي التوحيد عبادة؛ لأنه أصل العبادة وأعظمها).

التقوي على الطاعة لله تعالى والامتثال لأمره سبحانه، ويؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾، أي أن اجعلوا أحوالكم التي أنتم عليها عبادةً لله تعالى.

(٢٣٢٨)تفيد الآية أن ملاحظة عطاء الربوبية يدفع إلى عبادة الله وحده دون سواه، لأنه هو رب الخلق سبحانه، ويؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾، فربوبيته وإحسانه إلى العباد، يقتضي منهم أن يخلصوا له العبادة[(١)].

(٢٣٢٩)تفيد الآية أن كل أمر فيه خير ونفع فهو مأمور به وإن لم يتم التنصيص عليه ما دام لا يعارض نصًّا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾، والخير اسم جامع لكل ما فيه منفعة[(٢)].

(٢٣٣٠)تدل الآية على استحباب فعل الصالحات غير الواجبة؛ لأن التطوع بنوافل الطاعات من جملة الخير المأمور به في قوله تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾.

(٢٣٣١)تشير الآية أنه يستحب للمسلم أن يأخذ من كل طاعة بنصيب؛ لأن الله تعالى بعدما خص الصلاة بالذكر، عمّ العبادات كلها فأمر بها، ثم أمر بما هو أعم وهو فعل الخير، لكي يأخذ بنصيبه من ذلك، ولا يقتصر على الشعائر التعبدية.

(٢٣٣٢)تدل الآية على استحباب الاستكثار من الصلاة ونوافل العبادات.

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٧).

(٢) قال الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٥٤): (والوجه عندي في هذا الترتيب أن الصلاة نوع من أنواع العبادة، والعبادة نوع من أنواع فعل الخير، لأن فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله، وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله، ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة على الفقراء وحسن القول للناس، فكأنه سبحانه قال: كلفتكم بالصلاة، بل كلفتكم بما هو أعم منها وهو العبادة، بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة، وهو فعل الخيرات).

(٢٣٣٣)في الآية إشارة إلى أنه يجدر بالمسلم أن يعمر وقته بأنواع الطاعات، ما بين صلاة أو أداء عبادة من العبادات الأخرى البدنية أو المالية، أو فعل خير من الخيرات.

(٢٣٣٤)تفيد الآية أن المسلم عليه أن يتحرى ما هو خير وأصلح فيما يأتي ويترك، سواء في العبادات أم في العادات[(١)]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾، وفعل الخير يتوقف على تحريه[(٢)].

(٢٣٣٥)تدل الآية على أن الراغب في الفلاح عليه أن يلزم عبادة الخالق والإحسان إلى المخلوقين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾، أي لكي تفلحوا بذلك[(٣)]، فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الله، والسعي في نفع عباده[(٤)].

(٢٣٣٦)تدل الآية على أن المسلم لا ينبغي أن يتكل على عمله الصالح، وإنما عليه أن يعمله وهو يرجو الفلاح ويطمع في رحمة الله تعالى وثوابه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) قال الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٥٤): (والوجه عندي في هذا الترتيب أن الصلاة نوع من أنواع العبادة والعبادة نوع من أنواع فعل الخير، لأن فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة على الفقراء وحسن القول للناس فكأنه سبحانه قال كلفتكم بالصلاة بل كلفتكم بما هو أعم منها وهو العبادة بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة وهو فعل الخيرات).

(٢) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٨٠).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٣٩)، والهداية (٧/ ٤٩٣٦). قال الطبري: ("لعل" هنا بمعنى كي، وهي عند غيره على معنى الرجاء، و"لعلّ" من الله واجبة). قال الزجاج في معاني القرآن (٣/ ٤٣٩): (وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾ هذا ليس بشك، ولكن معناه لترجوا أن تكونوا على فلاح).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٧). ويقول الأستاذ سيد قطب في الظلال (٤/ ٢٤٤٥): (يأمر الأمة المسلمة بهذا رجاء أن تفلح. فهذه هي أسباب الفلاح.. العبادة تصلها بالله فتقوم حياتها على قاعدة ثابتة وطريق واصل. وفعل الخير يؤدي إلى استقامة الحياة الجماعية على قاعدة من الإيمان وأصالة الاتجاه).

ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾، أي وأنتم راجون للفلاح[1].

(٢٣٣٧)تدل الآية على أن من أراد أن يظفر بمطلوبه ويدرك بغيته في الدنيا والآخرة فعليه بعبادة الله وفعل الخير راجيا من الله تعالى أن يبلغه ما يطلب[2]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾، والفلاح ضربان: دنيوي وأخروي، والثاني أعظمهما[3].

(٢٣٣٨)في الآية إيماء إلى أن الاشتغال بإصلاح الاعتقاد مُقدَّم على الاشتغال بإصلاح الأعمال. وذلك أن معظم السورة من أولها كان خطابا للمشركين والكفار المنكرين للبعث، عدا ما وقع اعتراضا خلال ذلك، فقد خوطب المشركون ب ﴿يا أيها الناس﴾ أربع مرات، وبعد استيفاء ما سيق إلى المشركين من الحجج والبراهين والتنبيه على مساوئ أعمالهم، ختمت السورة بالإقبال على خطاب المؤمنين بما يصلح أعمالهم، فكان في هذا الترتيب إيماء إلى المعنى الذي قدمنا[4].

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٧٢)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٨٠). ونقل الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٥٤) عن الإمام أبي القاسم الأنصاري أنه قال: ("لعَلّ" كلمة للترجية، فإن الإنسان قلما يخلو في أداء الفريضة من تقصير، وليس هو على يقين من أن الذي أتى به هل هو مقبول عند الله تعالى، والعواقب أيضا مستورة).

(٢) قال الشعراوي في تفسيره (١٦/ ٩٩٤٧): (فالفَلاح ثمرة طبيعية لمنهج الله في أيِّ مجتمع يتحرك أفرادُه في اتجاه الخير لهم وللغير، مجتمع يعمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يحب لنفسه))، وعندها لن ترى في المجتمع تزاحماً ولا تنافراً ولا ظلماً ولا رشوة.. الخ هذا الفلاح في الدنيا، ثم يأتي زيادة على فلاح الدنيا فلاح الآخرة).

(٣) قال صاحب روح البيان (٦/ ٦٣): (وذلك ضربان دنيوى وأخروي، فالدنيوي الظفر بالسعادات التي يطيب بها حياة الدنيا، وهو البقاء والغنى والعز والعلم. والأخروي أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل، ولذلك قيل: لا عيش إلا عيش الآخرة).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٥ - ٣٤٦).

**هدايات قوله تعالى:** ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [سورة الحج: ٧٨].

(٢٣٣٩)تفيد الآية أن المسلم عليه أن يقوم بقدر استطاعته قياما تاما بأمر الله، وأن يدعو الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك، من نصيحة وتعليم وأدب وزجر ووعظ وغير ذلك، ويناضل من أجل ذلك إن اقتضى الأمر[(١)]. لأن الله تعالى خاطب المؤمنين فقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ والجهاد في الله حق جهاده يشمل ما ذكر.

(٢٣٤٠)تدل هذه الآية على فضل الجهاد باللسان، على القول بأن الآية مكية[(٢)]؛ فقد شرع الله في الفترة المكية مجاهدة الكفار بالحجة والبيان والبرهان، وحينما أمر الله بجهاد اللسان في آية أخرى وصفه تعالى بأنه جهاد كبير فقال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾ [سورة الفرقان: ٥٢]، وهو وصفٌ لم يصف به الجهاد بالقتال مع فضله وجلالة قدره[(٣)].

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٧).

(٢) قال أبو بكر بن العربي في الناسخ والمنسوخ (٢/ ٣٠٧): (وتحتمل هذه الآية أن تكون مكية، ويكون حق الجهاد في مجاهدة الأعداء بالجدال، ويحتمل أن تكون مدنية، فتكون مجاهدة الكفار بالقتال. ومجاهدة الأعداء بالجدال لم يزال ولا يزال)، وسياقها يؤيد أنها مكية والله أعلم، ينظر التفسير الحديث (١/ ٣٨٦).

(٣) ينظر التفسير والبيان (٤/ ٢٣٨٠).

(٢٣٤١)تفيد الآية أن الجهاد بالقتال فرض كفاية، فهو فرض لأن الله تعالى أمر به في الآية، فقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ ([1])، ولكنه فرض كفاية لا فرض عين لأن الله تعالى قال: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [سورة التوبة: ١٢٢].

(٢٣٤٢)تفيد الآية أن المجاهد يجب أن يجاهد من أجل الله، لا رياءً ولا من أجل غنيمة أو نحوها، لأن الله تعالى أمر به في الآية فقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، ومعنى حق جهاده أن لا يفعل إلا لتكون كلمة الله هي العليا، لا رغبةً في فخر أو غنيمة[2]. وفي الحديث أن النبي صلّى الله عليه وسلّم: ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عزّ وجلّ))[3].

(٢٣٤٣)تفيد الآية أنه يجب على المسلم مجاهدة نفسه وهواه من أجل الله تعالى؛ وذلك بأداء الحقوق وترك الحظوظ، لأن الله تعالى أمر به في الآية فقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ ([4])، أي: جاهدوا أنفسكم في شهوتها وأمانيها[1]. وقد وعد الله من جاهد نفسه

---

(١) هذا على القول الذي رجحه الطبري (١٦/ ٦٣٩) وغيره من أن المراد بالآية: (وجاهدوا المشركين في سبيل الله حق جهاده).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالما جالسا، ح ١٢٣، ١/ ٥٨)، واللفظ له، وأخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل، ح ١٩٠٤، ٢/ ١٥١٣ – ١٥١٣).

(٤) حكى الثعلبي في الكشف والبيان (٧/ ٣٥) عن عبد الله بن المبارك أنه قال في حق الجهاد: (هو مجاهدة النفس والهوى وذلك حقّ الجهاد، وهو الجهاد الأكبر)، ونحوه في التفسير البسيط (١٥/ ٥٠٦). وقوى المظهري هذا القول في تفسيره (٦/ ٣٥٣) فقال: (ليس المراد بالجهاد في هذه الآية المحاربة مع الكفار خاصة لأنه يأبى عنه سياق الآية، لأن في نسق الآية ارتقاءً من الأخص إلى الأعم في كل عطف حيث ذكر الصلاة أوّلاً بقوله: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ لكونها أهم العبادات، ثم عطف عليه: ﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾، وهو يشتمل العبادات كلها الصّلاة وغيرها، ثم قال: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾، وهو يشتمل أداء حقوق الله تعالى كلها من العبادات والعقوبات وغيرها ومحاربة الكفار وأداء حقوق الناس ومكارم الأخلاق وغير ذلك وإتيان السنن والمستحيات كلها، ثم قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾،

في طاعة ربه بالهداية فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩].

(٢٣٤٤)تفيد الآية أن المسلم عليه أن يبذل الجهد في مدافعة الشياطين وجنودهم ولا تأخذه في ذلك لومة لائم، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (لا تخافوا في الله لومة لائم)[٢]، وذلك حق الجهاد.

(٢٣٤٥)تشير الآية إلى أنه يجب على المسلم استفراغ طاقته عند القيام بما أمره الله به، بالإتيان بمواجبه وشرائطه على وجه التمام والكمال بقدر الطاقة[٣]، لأن الله تعالى أمر به في الآية فقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾، (وحق الجهاد: هو استفراغ الطاقة فيه)[٤]، وقد

---

فلا وجه لحمله على محاربة الكفار خاصة، بل المراد منه الإخلاص في الأقوال والأعمال والأحوال كلها، ويحصل ذلك بالجهاد مع النفس ومخالفة الهوى).

(١) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٤٦). قال الراغب في المفردات (ص٢٠٨): (الجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس، وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٦٣٩)، وتفسير ابن المنذر (١/ ٣١٨، رقم ٧٧٠)، وتفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٧٢٢، رقم ٣٩١٠).

(٣) ينظر الناسخ والمنسوخ لابن العربي (٢/ ٣٠٧)، وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٦/ ٣١٥). وقد ذكر في الآية عدة أقوال، ولكنَّ المحققين من المفسرين حملوها على العموم، فقد استحسنه ابن عطية في المحرر الوجيز (٤/ ١٣٥)، وقال الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٥٥): (والأوْلى أن يحمل ذلك على كل التكاليف، فكل ما أمر به ونهي عنه فالمحافظة عليه جهاد). وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٩٩): (أي جاهدوا أنفسكم في طاعة الله ورُدوها عن الهوى، وجاهدوا الشيطان في رد وسوسته، والظلمة في رد ظلمهم، والكافرين في رد كفرهم).

(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٦٤٠). وقال السمرقندي في تفسيره (٢/ ٤٧٢): (يعني: اعملوا لله عز وجل حق عمله، ويقال: جاهدوا في طاعة الله عز وجل وطلب مرضاته. وقال الحسن: حَقّ جِهادِه أن تؤدي جميع ما أمرك الله عز وجل به، وتجتنب جميع ما نهاك الله عنه، وأن تترك رغبة الدنيا لرهبة الآخرة).

قال تعالى مثل ذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢][(١)]. أي حقه الذي احتمل وسعكم وبنيتكم وطاقتكم[(٢)].

(٢٣٤٦)تدل الآية على أن المسلمين يجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في إحياء دين الله وإقامة حدوده باليد واللسان وجميع ما يمكن، ورد أنفسهم عن الهوى والميل إلى الشهوات؛ وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، وهذا المعنى مما قيل في تفسير الآية[(٣)].

(٢٣٤٧)تدل الآية على أنه يجب على المسلم أن يعبد الله تعالى بِنيَّة صادقة خالصة لله تعالى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، وقد جاء في رواية عن ابن عباس أنه فسرها بقوله: (بنية صادقة)[(٤)].

(٢٣٤٨)تدل الآية على وجوب مجاهدة دواعي الرياء والسمعة في النفس عند القيام بالعمل الصالح؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، ومن أعظم جهاد النفس مدافعة نوازع الرياء وتحقيق الإخلاص في العبادات وسائر أفعال الخير.

---

(١) قال مكي في الهداية (٧/ ٤٩٣٧): (يقول الله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾. وأكثر الناس على أنه غير منسوخ، وواجب على كل مسلم أن يجاهد في الله حق جهاده على قدر استطاعته ويكون قوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ (التغابن: ١٦) بياناً لهذا، وليس بناسخ له).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٤٦). وقال في موضع آخر (٧/ ٤٤٧ - ٤٤٨): (والثالث:لم يجعل عليهم من العبادات والفرائض التي كلفهم بها والقيام بأدائها ما لا يحتمل وسعهم، ولا بنيتهم، ولا حمل عليهم أمورا شاقة خلاف ما عليه طباعهم وأمر معاشهم، ولكن كلفهم بعبادات احتمل بها وسعهم وبنيتهم، وحمل عليهم أمورا غير شاقة موافقة لما عليه أمر معاشهم وطباعهم، وإن بعد ونأى عليهم).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٥)، وغرائب القرآن (٥/ ١٠٢).

(٤) التفسير البسيط (١٥/ ٥٠٤). وقد ذكر في الوسيط (٣/ ٢٨١) أن أكثر المفسرين حملوا الجهاد ههنا على جميع أعمال الطاعة، وقالوا: حق الجهاد أن يكون بنية صادقة خالصة لله تعالى. وتبعه البغوي في تفسيره (٥/ ٤٠٢).

(٢٣٤٩)تدل الآية أنه يجب على المسلم أنْ يستفرغ طاقته في تربية أولاده وتعويد أهله على الخير وإبعادهم من الشر[(١)]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، والجهاد التربوي من أنواع الجهاد المطلوبة، لا سيما في زمننا هذا، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [سورة التحريم: ٦].

(٢٣٥٠)تشير الآية إلى أن المجاهدة أساس العبادة؛ لأن الله تعالى بعدما أمر بعبادته وفعل الخير على اختلاف صوره أمرَ بالمجاهدة فيه حق الجهاد، لأنه لا تتم قربة إلا بمجاهد النفس والهوى والشيطان[(٢)].

(٢٣٥١)في الآية دليل على استحباب قول الحق عند من تُخشى سطوته وبطشه[(٣)]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الجهاد أفضل؟ قال: ((كلمة حق عند سلطانٍ جائر))[(٤)].

---

(١) أشار إلى ذلك ابن العربي في الناسخ والمنسوخ (٢/ ٣٠٧) بقوله: (وأعدى عدو لك نفسك وزوجك وولدك. والمرء مفتقر إلى مجاهدة الجميع، وسياستهم على الطاعة، ولَيِّهم على الاسترسال على الشهوات والانهماك في اللذات والخلود إلى الراحات).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ١٠١).

(٣) قال ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٥): (ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض، مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه، كان للرسل – صلوات الله عليهم وسلامه – من ذلك الحظ الأوفر، وكان لنبينا – صلوات الله وسلامه عليه – من ذلك أكمل الجهاد وأتمه).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٤/٤، رقم ١٨٨٤٨)، والنسائي في سننه من حديث طارق بن شهاب (كتاب البيعة، باب فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر، ح ٤٢٠٩، ١٦١/٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح ٧١٧٥، ١٠/ ٦٨)، بلفظ "كلمة عدل"، ورجال هذا الحديث ثقات، إلا أن طارق بن شهاب لم يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم وإن كانت له رؤية، ولكن مرسل الصحابي حجة، وقد صحح إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (١٥٨/٣، رقم ٣٤٧٩). وله طرق أخرى عن صحابة آخرين لا تخلو من مقال، ولكن الحديث يرتقي بمجموعها إلى الصحة، ولذلك صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٨٨٦، رقم ٤٩١). وينظر تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٣/ ١٣٦٣، رقم ٢٠٥٤)، وأنيس الساري (١/ ٦٩٣ – ٦٩٧، رقم ٤٨١).

(٢٣٥٢)تشير الآية أن من جاهد في أداء مناسك الحج حتى أكمله فعليه أن يواصل مجاهدته لنفسه بعد الحج ليحسن في فعل الخيرات وأداء سائر العبادات؛ وذلك لأن الله أمر بالمجاهدة في ختام سورة الحج، وفي ذلك إشارةٌ إلى أن المجاهدة ليست خاصة بالحج[(١)]، وإنما يجب لزوم المجاهدة في جميع العبادات، لا سيما إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخير.

(٢٣٥٣)تفيد الآية وما قبلها أن الأمة لا يصلح حالها إلا بأربعة أمور: أمران ينظمان العلاقة بين العبد وربه، وهما الإيمان وعبادة الله تعالى؛ وأمران يتعديان إلى الناس، فينظمان العلاقة بين أفراد المجتمع، وهما فعلُ الخير، والمجاهدةُ من أجل طاعة الله والدفاع عن دينه[(٢)].

(٢٣٥٤)تومئ الآية إلى أن المسلم يحق عليه ألا يقدم شيئا على طاعة الله، كما أنه تعالى اختارنا وقدمنا على سائر الأمم، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾، ويروى عن جعفر الصادق أنه قال في تفسير ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾: (ألاَّ تختارَ عليه شيئًا، كما لم يختر عليك لقوله: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾)[(٣)].

(٢٣٥٥)تفيد الآية أن المسلم يجب أن يعتز بانتمائه لهذه الأمة لأنها أمة اختارها الحكيم العليم سبحانه لحمل دينه ونشر شريعته، وهذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾.

(٢٣٥٦)تفيد الآية أن نعظم أمر الله تعالى ونجاهد من أجل دينه وفي سبيل طاعته غاية وسعنا لأن هذا من حق اختياره واجتبائه لنا، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ

---

(١) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ٢٥).

(٢) نظرات في كتاب الله الكريم، للشيخ محمد حسين المصري، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عدد ٣٧.

(٣) نقله ابن عجيبة في البحر المديد (٣/ ٥٥٩).

جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾، فكأنه قال: (من حقّ اجتبائه إياكم أنّ تعظّموا أمر مولاكم)[1]، وتجاهدوا في سبيله[2].

(٢٣٥٧)تفيد الآية أن المسلم عليه أن يستشعر بالامتنان لكونه ممن اجتباهم الله تعالى وأن يكون أهلا لذلك[3]، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾، فما كلفنا الله تعالى به تشريف من الله لنا، فينبغي أن نقبله ونسعد بالقيام به[4].

(٢٣٥٨)تومئ الآية إلى أن الاجتباء والاصطفاء يكون على أساس الإيمان بالله سبحانه، ويزول بزوال بسببه، ولا صلةَ له بتفضيل عرقٍ على عرق أو جنسٍ على جنس كما يزعم بنو إسرائيل وغيرهم. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى اختار أمة محمد عليه الصلاة والسلام واجتبى المسلمين على أساسهم اتصافهم بالإيمان حيث خاطبهم في مستهل الآية السابقة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

---

(١) لطائف الإشارات (٢/ ٥٦٤).

(٢) قال القرطبي في تفسيره (١٢/ ١٠٠) (وهذا تأكيد للأمر بالمجاهدة، أي وجب عليكم أن تجاهدوا لأن الله اختاركم له). وقال البيضاوي في تفسيره (٤/ ٨٠): (وفيه تنبيه على المقتضي للجهاد والداعي إليه)، وعلله الخفاجي في حاشيته عليه (٧/ ٢٧٩) فقال: (وكون اختيارهم لما ذكر لأنّ هذه جملة مستأنفة لبيان علة الأمر بالجهاد، لأنّ المختار إنما يختار من يقوم بخدمته وهي بما ذكر، ولأنّ من قرّبه العظيم يلزمه دفع أعدائه ومجاهدة نفسه بترك ما لا يرضاه).

(٣) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٩٥٠).

(٤) قال الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٥٥): (قوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ ومعناه أن التكليف تشريف من الله تعالى للعبد، فلما خصكم بهذا التشريف فقد خصكم بأعظم التشريفات واختاركم لخدمته والاشتغال بطاعته، فأي رتبة أعلى من هذا، وأي سعادة فوق هذا، ويحتمل في اجتباكم خصكم بالهداية والمعونة والتيسير). وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٩): (جملة ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ إن حملت على أنها واقعة موقع العلة لما أمروا به ابتداء من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ إلخ، أي لأنه لما اجتباكم، كان حقيقا بالشكر له بتلك الخصال المأمور بها).

(٢٣٥٩)تومئ الآية إلى أن المسلم لا ينبغي أن يهتم بسفساف الأمور ويسقط في أراذلها، وقد هيأ الله للمسلمين معاليها، واختارهم لنصرة دينه، واصطفاهم من دون الخلق، وجعلهم في العقبى شهداء على الناس، وإليه ينتهي توليهم، وهذا كله من لوازم قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ (١).

(٢٣٦٠)تفيد الآية أنه ينبغي لنا أن نستشعر نعمة الله علينا في توفيق الله لنا للمجاهدة، ولا نرى فضلا لجهدنا ولا نعجب بعملنا، وذلك لأنه تعالى اجتبانا، ثم أمرنا بالجهاد وأعاننا على ذلك، فقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾، أي: ولولا أنه اجتباكم لما جاهدتم، فلاجتبائه إياكم وفّقكم حتى جاهدتمْ(٢).

(٢٣٦١)تومئ الآية إلى أن المسلم ينبغي أن يحسن الظن بربه، ويعتمد على فضله، ويرجو حسن العاقبة في الآخرة، لأنه تعالى اجتبانا في الأزل، وقال: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾، فكما أنه اجتبانا وقد علم ما كنّا سنفعله قبل أن يخلقنا، فكذلك لا يمنعه إن رأى ما فعلنا أن يتجاوز عنّا بكرمه ومنّه(٣).

(٢٣٦٢)تفيد الآية أن المسلمين عليهم أن يفردوا الله وحده بالمحبَّة والعبوديَّة، ويختاروه وحده إلهًا معبودًا محبوبًا على كل ما سواه، كما اختارهم على من سواهم، فيتخذونه وحده إلهَهم ومعبودَهم الذي يتقربون إليه بألسنتهم، وجوارحهم، وقلوبهم، ومحبتهم، وإرادتهم، فيؤثرونه في كل حال على من سواه، كما اتخذهم عبيده وأولياءه وأحباءَه، وآثرهم بذلك على من سواهم(٤).

---

(١) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٥٣٧).

(٢) ينظر لطائف الإشارات (٢/ ٥٦٤). ونقل السُّلَمي في تفسيره (٢/ ٢٨) عن ابن عطاء أنه قال: (الاجتبائية أورثت المجاهدة، لا المجاهدة أورثت الاجتبائية).

(٣) ينظر لطائف الإشارات (٢/ ٥٦٤).

(٤) ينظر بدائع التفسير (٢/ ٧٤٣).

(٢٣٦٣)تفيد الآية أن الحرج في الشريعة مرفوع، فما يوقع المكلف في حرج فإنه يرفع عنه؛ لأن الله تعالى نفى عن شريعته الضيق والعسر فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [(١)]. ومن هنا أخذ العلماء قاعدة "الحرَج مرفوع"، و"المشقةُ تجلب التيسير" [(٢)].

(٢٣٦٤)تفيد الآية أن المسلم ينبغي أن يعرف نعمة الله عليه بأن جعل له مخرجا من كل ما ابتلي به، لأن الله تعالى لم يجعل على عباده حرجا في شريعته، وإنما وسع عليهم، فجعل التوبة مخرجا من بعض الذنوب، والكفارة مخرجا من ذنوب أخرى، والقصاص من ذنوب غيرها، فلا ذنب يذنبه المسلم إلا وله في الشريعة المحمدية سبيل إلى الخلاص من العقاب فيه [(٣)]، وليس فيها فريضة إلا معها رخصة [(٤)].

(٢٣٦٥)تفيد الآية أن الله تعالى رفع الحرج عن أصحاب الأعذار فأسقط عنهم قتال أعداء الله تعالى، ويؤخذ هذا المعنى من أن الله تعالى أمر بالجهاد، ثم قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ

---

(١) قال الجصاص في أحكام القرآن (٥/ ٩٠): (ويحتج به في كل ما اختلف فيه من الحوادث أن ما أدى إلى الضيق فهو منفي، وما أوجب التوسعة فهو أولى).

(٢) ينظر الإكليل (ص: ١٨٥)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٧). وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((خذوا لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، وأني بعثت بالحنيفية السمحة)). أخرجه أحمد (٦/١١٦، رقم ٢٤٨٩٩). وحسّن إسناده ابن حجر في "تغليق التعليق" (٢/ ٤٣)، وجوده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٤٤٣).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٤٠)، وأحكام القرآن للجصاص (٥/ ٩٠)، والتفسير البسيط (١٥/ ٥٠٦ – ٥٠٧). وروى الطبري عن ابن عباس ما يدل على هذا المعنى. وقال الماتريدي في تفسيره (٧/ ٤٤٨): (لم يجعل توبتهم عما ارتكبوا من المعاصي والمآثم قتل بعضهم بعضا، وإهلاك بعضهم بعضا، على ما جعل ذلك لقوم، حيث قالوا لهم: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ (البقرة: ٥٤)، ولو كلف ذلك كان حرجا في الدين، وأمثال ذلك).

(٤) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٧٢)، والهداية (٧/ ٤٩٣٨)، والتفسير البسيط (١٥/ ٥٠٧)، وأخرج ابن أبي حاتم هذا المعنى مطولا في تفسيره (٨/ ٢٥٠٦، رقم ١٤٠٣٦) عن مقاتل بن حيان. قال الماتريدي في تفسيره (٧/ ٤٥٠): (وقال بعضهم في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾، قال: لم يفرض الله على هذه الأمة شيئا إلا جعل فيه رخصة لهم عند الاضطرار؛ مثل التيمم إذا لم يجد ماء، ويصلي قاعدا ومضطجعا في المرض، وتفطر إذا كنت مريضا، ونحو هذا، ليس فريضة إلا فيها رخصة، ولم يكن من قبل ذلك).

فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾، ويدخل فيه الجهاد دخولا أوّليا[1]. وهو ما أشار إليه في آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩١﴾ [سورة التوبة: ٩١][2].

(٢٣٦٦)تشير الآية إلى أن المسلم عليه أن يستشعر عظمة الشريعة المحمدية ويُسرها، فإنه تعالى أباح لهم ما يحتاجون إليه، وإذا حرم نوعا من الأشياء أباح نوعا آخر بإزائه مما يسد به حاجته ويزيح به علته، ولو حرم كل أنواعها لكان حرجا وضيقا في الدين[3].

(٢٣٦٧)تفيد الآية أن شريعة النبي صلى الله عليه وسلم واسعة، ولكن تضيق صدور الضالين به فيرونها ضيقة عسرة ولا يتقبلونها؛ لأن الله أخبر في هذه الآية بأنه لم يجعل في الدين حرجا يشق علينا فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾، وأخبر في آية أخرى بأن الضال يكون صدره ضيقا لا ينشرح للإسلام فقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾ [سورة الأنعام: ١٢٥][4].

(٢٣٦٨)تفيد الآية أن الحرج إن وقع بالمكلفين فإنما هم الذين ألحقوه بأنفسهم، أما الله تعالى فلم يجعل في الدين حرجا فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾، ورفع الحرج

---

(١) ينظر روح المعاني (٩/ ١٩٩).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠٣٦ - ٥٠٣٧).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٤٧).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٤٣). وقد روى عن ابن عباس أنه قال في تفسير آية سورة الأنعام: (من أراد أن يضله يضيقْ عليه صدره، حتى يجعل عليه الإسلام ضيقا، والإسلام واسع).

هو لِجُمهور هذه الأمة ولمن استقام على منهاج الشرع، وأما السُّرّاق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج لأنهم الذين أوقعوا أنفسهم فيه بمفارقتهم للدين[1].

(٢٣٦٩)تدل الآية على أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم مأمورة باتباع ملة إبراهيم عليه السلام فيما هو مقرر في شريعتنا من توحيد الله وترك عبادة الأوثان والتزام بمكارم الأخلاق، أما الاتباع في تفاصيل شريعته فلا، لأن قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾، جاء في سياق الدعوة إلى توحيد الله[2]، بدءا من قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [سورة الحج: ٧١].

(٢٣٧٠)تفيد الآية أن الجد يقوم مقام الأب؛ لأن الله تعالى أقام الجد في النسب أباً، فقال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية[3].

(٢٣٧١)تفيد الآية أنّه يجب على المسلمين احترام إبراهيم وإجلاله وحفظ حقه ورعاية حرمته، كما يجب احترام الوالد وحفظ حقه، كما قال سبحانه في شأن أزواج النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٦]، وقول النبي صلى الله عليه وسلّم: ((إنّما

(١) المحرر الوجيز (٤/ ١٣٥)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٠١).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٦)، والبحر المحيط (٧/ ٥٤٠).

(٣) ينظر تفسير الإمام الشافعي (٣/ ١٠٩٥).

أنا لكم مثل الوالد)) [(١)]. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى خاطبنا جميعا فقال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾، ولسنا جميعنا نرجع إلى ولادة إبراهيم [(٢)].

(٢٣٧٢)تشير الآية إلى فضل الأبوة الدينية، وهي تكون لكل من علمك أمر دينك، ويؤخذ هذا من أن الله تعالى قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾، (وإنما جعله أباهم لأنه أبٌ و رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو كالأب لأمته من حيث إنه سببٌ لحياتهم الأبدية ووجودهم على الوجه المعتد به في الآخرة)[(٣)].

(٢٣٧٣)تدل الآية على أنه يجب أن نقتدي بإبراهيم عليه السلام في خصال الخير؛ لأن الله تعالى قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾، أي اعبدوا ربكم وافعلوا الخير فعلَ أبيكم إبراهيم[(٤)].

(٢٣٧٤)في هذه الآية إشارة إلى أن الترقيَ في الصلاح إلى أعلى درجاته أن تسير على سيرة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، ومدارها على السخاء والبذل، والأخلاق السَّنِية، وتقديم

---

(١) هذا قطعة من حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٢/٢٤٧، رقم ٧٣٦٢)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٧/ ١٨٣)، والنسائي في سننه: (كتاب الطهارة، باب النهي عن الاستطابة بالروث، ح ٤٠، ١/ ٣٨)، وابن ماجه في سننه (كتاب الطهارة، باب الاستنجاد بالحجارة والنهي عن الروث والرمة، ح ٣١٣، ١/١١٤)، والدارمي في مسنده (كتاب الصلاة والطهارة، باب الاستنجاء بالأحجار، ح ٦٨٢، ١/ ٢٥١)، وأبو عوانة في مستخرجه (مبتدأ كتاب الطهارة، بيان حظر استقبال القبلة واستدبارها بالغائط والبول، ح ٥١١، ١/١٧١).

(٢) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٣٦)، والتفسير البسيط (١٥/ ٥١٠)، وتفسير السمعاني (٣/ ٤٥٩)، وزاد المسير (٣/ ٢٥٣)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٦).

(٣) تفسير البيضاوي (٤/ ٨٠).

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون (٤/ ٤٢). وجعله القول الثاني من أقوال أربعة في تفسير الآية. وينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٤٠)، وتفسير السمرقندي (٢/ ٤٧٢). تفسير الطبري (١٦/ ٦٤٤)، وتفسير الماتريدي (٧/ ٤٤٨)

طاعة الله ومحبته على مقتضى محبة النفس والأهل والمال والأولاد، ويؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾، أي اتبعوا ملة إبراهيم[1].

(٢٣٧٥)تنطوي الآية على تقرير ما حمّله الله تعالى للعرب من المسلمين خاصةً من مهمة الجهاد وبذل الجهود في سبيل نشر دين الله والدفاع عنه، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾، فأشار إلى العرب الذين هم من نسل إبراهيم عليه السلام، وأن لهم في المجتمع الإسلامي شأنا خاصا، وحمّلهم مهمةً كبرى، ونبّههم إلى أن الله قد اختارهم وجعل الرسول منهم[2].

(٢٣٧٦)تفيد الآية أن المسلم عليه أن يستشعر عظيم نعمة الله عليه إذ جعله من المسلمين؛ لأن الله تعالى اختاره منذ الأزل ليكون من هذه الأمة، وسمى أتباع محمد صلى الله عليه وسلم تشريفا وتكريما: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[3].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٤٤)، وتفسير الماتريدي (٧/ ٤٤٨)، ولطائف الإشارات (٢/ ٥٦٥). ونقل السلمي في تفسيره (٢/ ٢٩) عن ابن عطاء: (أمر الله العوامّ أن يتبعوا ملة إبراهيم في الشريعة، وأمر الخواصّ أن يتبعوا ملته في بذل المال والنفس والولد لمولاه، وتوافقونه موافقة الحنين في كل الأوقات).

(٢) ينظر التفسير الحديث (٦/ ٨٠). وقال دروزة (٦/ ٨١): (ومن الجدير بالتنبّه أن شأنية العرب في الإسلام لا تعني تميّزا ولا تغلّبا ولا استعلاء ولا استغلالا، ولا مختارية من نوع «الشعب المختار» بالنسبة لعقيدة بني إسرائيل واليهود في أنفسهم الذي جعلهم يعتبرون ما عداهم عبيدا يملكونهم وما يملكون ويكون لهم أن يحققوا ذلك، ولا يقبلون من أحد أن يرتفع إلى مستواهم دينيا أو اجتماعيا ما استطاعوا. في حين أن الإسلام قد سوّى بين المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم في جميع الحقوق والواجبات وجميع شؤون الدين والدنيا تسوية تامة وسمّاهم أخوة. كما جاء في آيات عديدة منها آية سورة الحجرات هذه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (١٠)، وكما جاء في أحاديث عديدة).

(٣) نقل السلمي في تفسيره (٢/ ٢٩) عن ابن عطاء أنه قال: (زيّنكم بزينة الخواص قبل أن أوجدكم، لأنكم في القدرة عند الإيجاد كما كنتم قبل الإيجاد، سبقت لكم من الله الخصوصية في أزله).

(٢٣٧٧)تشير الآية إلى وجوب اعتزاز المسلم بانتمائه إلى الإسلام، فكفى بالانتساب إليه شرفا أن سماهم الله تعالى: المسلمين[(١)].

(٢٣٧٨)تفيد الآية أن الجامع الحقيقي لهذه الأمة هو الإسلام: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، فإن رفعت راية غير الإسلام فستؤول الأمة إلى الفرقة والنزاع[(٢)].

(٢٣٧٩)تدل الآية على أن العدول عن التسمّي بالمسلمين إلى تسمية أخرى أمرٌ مذموم، لأنه مخالفة لما سمانا الله به.

(٢٣٨٠)تفيد الآية أن المسلم يجب أن يؤمن بالرسل عليهم السلام ويعرف موقف أقوامهم منهم؛ لأن شهادتهم على الناس تتوقف على ذلك، والله يقول: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾. أي يشهدون على الناس بأن أنبياءهم قد بلغوهم رسالة ربهم[(٣)].

(٢٣٨١)فيه إشارة إلى أن المسلمين يجب عليهم أن يبلغوا الدين إلى غيرهم من الناس، وذلك لأن الله تعالى بوأهم مقعد الشهادة على الناس فقال: ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي: (وتكونوا شهداء على الناس تُبَلِغُونَهُم رسالة ربهم كما بلغتم إليهم ما بلغه الرسول إليكم)[(٤)].

(٢٣٨٢)تومئ الآية إلى أنه يجب على كل مسلم أن ينهض بتبليغ رسالة الإسلام إلى غير المسلمين، وأن يرى الناس منه في قوله وعمله من استقامة الخلق واعتدال السلوك ما يرى

---

(١) تفسير المدينة المنورة (٢/ ١١١).

(٢) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ٢٥).

(٣) ينظر الهداية (٧/ ٤٩٣٩). وقد روى البخاري في صحيحه (كتاب التفسير، باب سورة البقرة، ح ٤٢١٧، ٤/ ١٦٣٢) وغيره عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ((يدعى نوح- عليه السلام- يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب. فيقال له: هل بلغت ما أرسلت به؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد صلّى الله عليه وسلّم وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ)).

(٤) هو الوجه الأول من وجهين في تفسيرها كما ذكره الماوردي في النكت والعيون (٤/ ٤٣).

الناس في الأنبياء والرسل، وذلك لأن الله تعالى جعلهم شهداء على الناس، فقال: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي أنهم بمنزلة الرسول في الناس، يدعونهم إلى الله، ويبلغونهم رسالة الإسلام، وهم بهذه الشهادة يدينون كلّ من أبى الاستجابة لهم، والدخول في دين الله معهم[(١)].

(٢٣٨٣)تدل الآية على أن شهادة غير المسلم ليست مقبولة؛ وذلك لأن الله تعالى أخبر بأنه اجتبى هذه الأمة وسمى أفرادها بالمسلمين ليكونوا شهداء على الناس، ولم يجعل شهادتهم على الناس معتبر إلا لأنهم قدروا الرسل حق قدرهم، ولم يفرقوا بين أحد منهم، وعلموا أخبارهم من القرآن المنزل على رسولهم، فبذلك كله صاروا أهلا للشهادة، وصحت شهادتهم وقبلهم الحكم العدل سبحانه، فدل على أن غير المسلم الذي لم تتوفر فيه ما سبق لا تقبل شهادته[(٢)].

(٢٣٨٤)تدل الآية على عظم شأن الصلاة وشرفها وأن لها منزلة عظيمة في الدين، فإن الله تعالى أعاد ذكرها في هذه الآية بعدما أشار إليها في الآية السابقة، وقدمها على إيتاء الزكاة، فقال: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ ([(٣)].

(٢٣٨٥)تومئ الآية أن من صفات الشاهد العدل إقامةَ الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لأن الله تعالى بعدما ذكر شهادة المسلمين على سائر الأمم قال: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

(٢٣٨٦)في الآية تنبيه إلى أن إقامة والصلاة وإيتاء الزكاة أعظم العبادات؛ لأن الله تعالى بعدما أمر بعبادته والمجاهدة في طاعته خص بالذكر هاتين العبادتين فقال: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وإنما خصّهما بالذكر لمزيد شرفهما[(٤)].

---

(١) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١١٠٨).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ١٠٣).

(٣) ينظر الكشاف (٣/ ١٧٢)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٣٤)، وغرائب القرآن (٥/ ١٠٢).

(٤) ينظر فتح القدير (٣/ ٥٥٧).

(٢٣٨٧)تشير الآية إلى أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله شكرٌ لله على نعمة الاجتباء والتكريم والتيسير التي أكرم الله بها هذه الأمة؛ لأن الله تعالى أمر بذلك عقب الإخبار بتلك النعم فقال: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾. أي: قابلوا نعمة الاجتباء والثناء بالقيام بشكرها، وأدّوا ما أمركم الله به، (ومن أهم ذلك إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة)[١].

(٢٣٨٨)تدل الآية على أنّ المسلم يلزمه أن يعتني بإصلاح ما بينه وبين ربه، وإصلاح ما بينه وبين الخلق، ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى أمر بإقامة الصلاة المعروفة وإيتاء الزكاة المعروفة، والصلاة تنبيه على ما بين العبد وربه، والزكاة تنبيه على ما بينه وبين غيره من الناس[٢]. فإن الصلاة تصلح الصلة بين العبد وربه، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٥].

(٢٣٨٩)تفيد الآية أنه يجب على المسلم أن يقيم الصلاة بإسباغ وضوئها وأدائها في مواقيتها وتوفية فرائضها والعناية بسننها والاجتهاد في تحصيل الخشوع فيها[٣]، وذلك لأن الله تعالى أمر بإقامة الصلاة لا بالصلاة فقال: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

(٢٣٩٠)في الآية إشارة إلى عظم الصلاة المفروضة ووجوب العناية بإقامتها؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، والظاهر أن المراد هو الصلاة المكتوبة لاقترانها مع الزكاة المفروضة[١].

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٥٧).

(٢) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٤٩).

(٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٧)، وزهرة التفاسير (٩/ ٥٠٣٨). قال القشيري في "لطائف الإشارات" (٢/ ٥٦٦): (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة بحكم الإتمام، ونعت الاستدامة، وجميل الاستقامة). وقال ابن عطية في تفسيره (٤/ ١٣٥): (أمر تعالى بالصَّلاة المفروضة أن تقام ويُدام عليها بجميع حدودها).

(٢٣٩١)تدل الآية على أن إيتاءَ الزكاة مُساوٍ في المنزلة لإقامة الصلاة، وهما مقترنتان في كتاب الله في كثير من المواضع، ومنها هذه الآية: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

(٢٣٩٢)تومئ الآية إلى أنه لا بد أن يجمع المسلمون بين أمرين: التهذيب الروحي، والتعاون الاجتماعي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ففي الأمر بإقامة الصلاة تنبيه على تزكية الروح، وفي الأمر بإيتاء الزكاة تنبيه على تنمية المجتمع(٢).

(٢٣٩٣)تدل الآية على أن المسلم إذا أقام الصلاة وآتى الزكاة فعليه أن يثق بأن الله سيتولاه ويحفظه وينصره، لأن الله تعالى قال: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾، أي ثِقوا بالله إذا فعلتم ذلك(٣)، ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾. أي وليكم وناصركم وحافظكم(٤).

(٢٣٩٤)تدل الآية على وجوب الاعتصام بالله والتوكل عليه والثقة به في مجامع الأمور؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ﴾(٥). والاعتصام بالله (التعلق به والخلوص له وطلب النجاة منه، ورفض التوكل على سواه، والْمَوْلى في هذه الآية: الذي يليكم نصره وحفظه)(٦).

---

(١) التسهيل (٢/ ٤٧). وينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٣٥).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠٣٨). قال قطب في الظلال (٤/ ٢٤٤٦): (فالصلاة صلة الفرد الضعيف الفاني بمصدر القوة والزاد. والزكاة صلة الجماعة بعضها ببعض والتأمين من الحاجة والفساد. والاعتصام بالله العروة الوثقى التي لا تنفصم بين المعبود والعباد. بهذه العدة تملك الأمة المسلمة أن تنهض بتكاليف الوصاية على البشرية التي اجتباها لها الله. وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات المادية التي تعارف الناس على أنها مصادر القوة في الأرض).

(٣) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٧٢)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٨١).

(٤) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٧٢).

(٥) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٣٦)، والهداية (٧/ ٤٩٣٩).

(٦) المحرر الوجيز (٤/ ١٣٥).

(٢٣٩٥)تدل الآية على أنه يجب على المسلم أن يسأل ربه أن يُجنّبه المنكرات ويصرفه عن المحرمات ويُعيذه من الوقوع في السيئات، لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾، ويحكى عن ابن عبّاس أن معناها: (سلُوا ربكم أن يعصمكم من كل ما يسخط ويكره)[١].

(٢٣٩٦)تدل الآية تعالى أن المسلم يجب عليه أن يستعين بالله ويستنصره[٢]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾. أي: ونعم الناصر هو له على من أراده بسوء[٣].

(٢٣٩٧)تدل الآية تعالى أن المسلم يجب عليه ألا يطلب النصرة والولاية إلا منه تعالى[٤]؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾. فمن تولّاه كفاه كل ما أهمه، وإذا نصر أحدا أعلاه على كل من خاصمه، إذ لا ناصر في الحقيقة سواه، ولا وليّ غيرُه[٥].

(٢٣٩٨)تشير الآية إلى منتهى كمال الاعتصام بالله تعالى وتحقيق مقام العبودية، وهو أمر وراء التسمية والاجتباء؛ لأن الله تعالى أخبر أنه يتولاهم وينصرهم بعد أن ذكر أنه اجتباهم وسماهم، فقال: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾، ومن ثم شرّف الله تعالى حبيبَه ليلةَ المعراج بتشريف العبودية وتحقيقها[٦].

---

(١) حكاه الواحدي في البسيط (١٥/ ٥١٢)، ونقله البغوي في تفسيره (٥/ ٤٠٤)، وابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٥٣)، والرازي في تفسيره بنحوه (٢٣/ ٢٥٧).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٥٧). وقد عرف ابن القيم الاعتصام في مدارج السالكين (١/ ٤٥٩) فقال: (وأما الاعتصام به فهو التوكل عليه، والامتناع به، والاحتماء به، وسؤاله أن يحميَ العبد ويمنعَه، ويعصمَه ويدفعَ عنه).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٤٨).

(٤) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٨١)، والبحر المحيط (٧/ ٥٤٠)، والبحر المديد (٣/ ٥٥٨).

(٥) تفسير المراغي (١٧/ ١٥٠).

(٦) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٥٣٩)، وروح المعاني (٩/ ٢٠١).

(٢٣٩٩)تفيد الآية أن المسلم لا يستطيع القيام بكل ما أُمِر به من الخير، وتجنب كل ما نهى عنه من الشرور، إلا إذا التجأ إلى الله تعالى واستعان به تعالى على ذلك؛ لأن الله تعالى بعدما أمر بعبادته والجهاد قال: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾. وأصل الاعتصام هو الالتجاء[١].

(٢٤٠٠)تشير الآية أنه كلما كان اعتصام المسلم بالله أعظمَ كانت تولّيه لعبده ونصرته له على نفسِه وأعدائه أكملَ؛ وذلك لأن الله قال: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾. (أي متى اعتصمتم به تولاكم، ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان، وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد، وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج، فالنصر على هذا العدو أهم، والعبد إليه أحوج، وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله)[٢].

(٢٤٠١)تشير الآية إلى أن العبادة والتقوى ليست خسارةً كما يزعم الكافرون والمنافقون والفاسقون، بل هي الربح كله[٣]؛ لأن الله جل جلاله قال: ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾، فهو المولى لمن يتولى أموره، ونعم النصير لمن يفوّض أمره إليه، فإنه ينصره ويسدد أموره ويسبغ عليه رحمة ويمده من فضله ويوفقه لما به صلاحه ونجاحه[٤].

(٢٤٠٢) في افتتاح هذه السورة بالترهيب واختتامها بالترغيب إيماءٌ إلى أن الأوفق بمعظم النفوس البشرية أن تُبْتدَأ بالترهيب أوّلا حتى يغلب عليها الخوف، ثم يتبعها الترغيب ليبعث فيها الرجاء، لأن البدء بالرجاء قد يقود إلى الأمن من مكر الله، والاقتصار على الخوف قد يفضي إلى اليأس من رحمة الله.

---

(١) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٤٧).

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٩٨).

(٣) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٦٠٤).

(٤) ينظر بيان المعاني (٦/ ١٩٥).

## المبحث الثاني: الهدايات الكلية في آيات السورة.

الهدايات الكلية كما عرّفها – د. طه عابدين – هي: (الإرشادات المستخرجة بطرُق علمية من مجموعة آيات في سورة واحدة أو أكثر في معنى يضمّها)[(١)].

ومن مميزاتها:

- أنها تظهر من خلال استقراء الهدايات الجزئية والتأليف بينها في معنى كلي يجمعها.
- أنه يجمع بين جزئياتها تناسب وانسجام وتكامل في الدلالة على المعنى الكلي الذي يشملها.
- أن الغالب فيها تكرر المنطوق الظاهر لعدة آيات.
- أنها غالبا ينص عليها بالعموم والشمول الذي هو أصل خطاب الشرع.
- أنها متفق عليها غالبا، لوضوحها وظهور أدلتها وتوافر شواهدها[(٢)].

وسنخصص بإذن الله هذا المبحث لاستخراج الهدايات الكلية المأخوذة من سورة الحج، وسنقسمها إلى أربعة مطالب، نخصص كل مطلب لنوع من أنواع هذا الصنف من الهدايات[(٣)]، ونورد تحت كل نوع ما تيسر إيرادُه، وتهيأ إعدادُه.

### المطلب الأول: الهدايات الكلية المستخرجة من سورة الحج كاملةً

تبين لي أن الهداية الكلية التي يمكن استخراجها من معظم آيات السورة الجزئية هو نفسه مقصد السورة؛ إذ (كل مقصد يمكن أن يكون هداية كلية)[(٤)]. وقد تقدم لنا أن مدار السورة

---

(١) طرق العلماء في استخراج الهدايات القرآنية وصياغتها: (ص١٨).

(٢) ينظر المرجع السابق: (ص١٩ – ٢٠، و٢٥٩ – ٢٦٠).

(٣) ينظر تقسيم الهدايات الكلية من جهة استخراجها في المرجع السابق: (ص ٢٦٣ – ٢٦٩).

(٤) المرجع السابق: (ص٢١).

كلها معنى واحد، وهو الدعوة إلى التقوى، ولذلك فإن الهداية الكلية المستخرجة من جميع السورة هي: **دعوة العباد إلى تقوى الله تعالى ظاهرا وباطنا**.

فقد أمر الله تعالى الناس كلهم في مطلع السورة بتقواه حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ١]، ثم ذكَّرهم بما يحملهم على ذلك من مشاهد البعثِ وزلزلةِ الساعة فقال: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ [سورة الحج: ١ – ٢].

وأومأ تعالى إلى أن ما يصرف الناس عن التقوى هو الجهل بالله واتباع الشيطان، فقال بعد الآيتين الأوليين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾ [سورة الحج: ٣].

وأشار تعالى إلى أن من قواطع طريق التقوى تعليق الاستقامةَ على الدين بحصول الخير الدنيوي، وذلك حيث قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ الآية.

ولما كان التوحيد هو رأس التقوى، ولا يتم التوحيد إلا باعتقاد وحدانيته وتنزيهه عن الشركاء والنظراء[1]، فصلت الآيات في بيان وحدانية الله والنهي عن الشرك والرد على المشركين وبيان عجز معبوداتهم وسخافة عقولهم وسوء حالهم في الدنيا والآخرة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ۝١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ۝١٣﴾ [سورة الحج: ١٢ – ١٣]. وقوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٢٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً﴾ [سورة الحج: ٣٠ – ٣١].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٦).

ولما كان استحضار الجزاء في الآخرة هو الباعث على التقوى، فقد أفاضت السورة في وصف مشاهد من يوم القيامة في مواضع متفرقة منها، وذكرهم الله تعالى فيها بأن يوم القيامة هو اليوم الذي يجزى فيه المتقون، ويُعاقَب فيه العاصون، وذلك ليبعث الناس على تقواه، اتقاءً لعذابه، ورغبةً في ثوابه، فوصف زلزلة الساعة في مطلع السورة كما تقدم، ثم بين مصير المؤمنين والكافرين فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾ [سورة الحج: ١٩ – ٢١].

ثم بيّن تعالى ما يثيب به المؤمنين المتقين من النعيم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [سورة الحج: ٢٣].

ثم خص الله تعالى عبادة الحج بالبيان من خلال آيات متعددة، وركّز على جوهر هذه العبادة وما ينبغي أن يتحقق به الحاج فيها، لأن المقصود من الحج هو اكتساب التقوى كما يستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [سورة البقرة: ١٩٧].

وبين سبحانه أن التقوى الباطنية تتجلي في تعظيم شعائر الله تعالى عموما ومناسك الحج ومشاهده خصوصا فقال: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [سورة الحج: ٣٢]. وأمر تعالى بالإخلاص وإسلام الوجه له سبحانه، لأنه من تقوى الله الباطنة فقال: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ ٣٤﴾ [سورة الحج: ٣٤].

وبين الآية الأعمال التي يثمرها تقوى القلوب، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ

﴿٣٥﴾﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥][1]. وأمر بأشرف الطاعات وجميع أفعال الخير والمجاهدة من أجل ذلك، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [سورة الحج: ٧٧ – ٧٨]. والتقرب إلى الله بالعبادات من تقوى الله بالظاهر.

ونبه الله تعالى أن المقصود من شعيرة الهدي والأضحية هو تحقيق التقوى، وأنه لا يقبل القرابين إلا ممن كان من المتقين، وأنه لن ترفع إليه إلا الأعمال الصالحة الزاكية المصطبغة بالتقوى، فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ٣٧].

ولما كانت خشية الله تعالى من أعظم البواعث التي تبعث العبد على تقواه سبحانه فقد حرك الله دواعيها من خلال التذكير بسعة علمه بالعباد وإحاطته بأقوالهم وأفعالهم، ما تقدم منها وما تأخر، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الحج: ١٧]، وقال: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الحج: ٧٠]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الحج: ٧٥ – ٧٦]. كما حرك دواعي الخوف منه سبحانه ببيان عظمته وكمال قدرته على إنفاذ ما يشاؤه سبحانه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾﴾ [سورة الحج: ٦]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الحج: ١٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الحج: ١٨]. وبيان قوته وعزته عز وجل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠]. وكذلك من خلال التحذير مما أصاب به الأقوام السابقين من العذاب الدنيوي، كقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة

(١) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٦٥).

الحج: ٤٢ – ٤٤]. وقوله سبحانه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الحج: ٤٥]، وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الحج: ٤٨].

ومن خلال وعيده بالعذاب الدنيوي والأخروي، كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحج: ٨ – ٩]. وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥]. وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة الحج: ٥٥].

وتذكيره المستمر باليوم الآخر الذي سيحاسب فيه الناس جميعا ويجزيهم فيه بما كسبت أيديهم حيث قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [سورة الحج: ٦ – ٧]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [سورة الحج: ١٧]. وقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [سورة الحج: ١٨]. وبيان طول يوم القيامة وشدته حيث قال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: ٤٧]. وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الحج: ٥٧]. وتفصيل صور العذاب في نار جهنم، وذلك حيث قال: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحج: ١٩ – ٢٢]. وتذكيره بأن الأمور كلها يؤول إليه سبحانه، وذلك

حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤١]. وقال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الحج: ٧٦].

ولما كان التقوى متوقفا على معرفة الله تعالى، فقد ركزت سورة الحج على التعريف بالله تعالى وبيان انفراده بتدبير شؤون السماوات والأرض، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الحج: ٦١ – ٦٢]. ثم يشير تعالى إلى إحيائه الأرض وانفراده بالملك وتصرفه في الكون: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۚ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ۗ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة الحج: ٦٣ – ٦٦]. ثم يشير تعالى إلى إحيائه الأرض وانفراده بالملك وتصرفه في الكون: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۚ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ۗ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة الحج: ٦٣ – ٦٥].

## المطلب الثاني: الهدايات الكلية المستخرجة من مجموع آيات متتالية من سورة الحج:

هذا النوع من الهدايات الكلية لا يُستخرَج من مجموع آيات السورة، ولا من آيات مبثوثة فيها، وإنما يستخرج من مجموع آيات متتالية، سواء كانت قليلة أم كثيرة، وسواء أكانت ظاهرة أم خفية[(١)]، وسأقتصر في هذا النوع على هدايتين:

### الهداية الأولى: الدعوة إلى حج بيت الله الحرام القائم على الإخلاص لله تعالى وتعظيمه والتقرب إليه بالقلب والجوارح:

وهذه الهداية ظاهرة في سورة الحج بجلاء، حتى إن بعض العلماء – كابن عجيبة وغيره – ذكر أن بيان أحكام الحج هو مقصد هذه السورة وقطب رحاها[(١)]، أو أنه شطر مقصودها[(٢)]؛

(١) ينظر طرق العلماء في استخراج الهدايات: (ص٢٦٤).

وبعض الكاتبين جعل المقصود هو "دور الحج في بناء الأمة"[٣]، ولكن يبدو لي أنه من الهدايات الكلية لهذه السورة، لا أنه هو مقصودها الكلي.

وكونها هداية كلية يظهر من اختصاص سورة الحج بهذا الاسم من جهة، لما تضمنته من ذِكْر بعض مناسك الحج وأحكامه والتنويه بمنافعه وأهمية تعظيم شعائره. ومن جهة أخرى لتوالي ثلاث عشرة آية تتحدث عن الحج، والتي تبتدئ من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الحج: ٢٦].

وقد أشار تعالى في الآيات التي بعدها إلى مبدأ تشريع الحج في عهد إبراهيم عليه السلام، وأنه كان واجبا في شريعته عليه السلام[٤]، فقال: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الحج: ٢٧]. وبين في هذه الآية أن الحج واجب على الناس جميعا عربِهم وعجمِهم، ونبه إلى فضل الحج مشيا على الأقدام، وفضل تجشم المشاق من أجل حج البيت الحرام.

وبين تعالى في الآية التي تتلوها الحكم المقصودة من الحج، وأن من ثمرات الحج أن يشهد الحجاج منافع متعددة: دنيوية، وأخروية، ومصالح تعبدية، واقتصادية، واجتماعية[٥]: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الحج: ٢٨]. وتضمنت هذه الآية إشارات متعددة إلى استحباب اغتنام الأيام المعلومات، وهي العشر الأول من ذي الحجة

---

(١) البحر المديد (٣/ ٥٢٥).

(٢) كصاحب التفسير المأمون (٥/ ١٤٦).

(٣) خواطر قرآنية (ص٢٤٧ – ٢٤٨)، و"أول مرة أتدبر القرآن" (ص: ١١٤).

(٤) ينظر أضواء البيان (٤/ ٣٠٠)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٦٩).

(٥) ينظر: نظم الدرر (١٣/ ٣٨)، والظلال (٤/ ٢٤١٨ – ٢٤٢٠)، والتفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠١٧)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٥)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٧٣).

على قول الجمهور[1]، والإكثار من الذكر فيها، وفضل العشر الأول من ذي الحجة ويوم النحر وأيام التشريق، وفضل نحر الهدايا في تلك الأيام، وأن المقصود الأعظم من الحج هو ذكر الله تعالى.

ثم بين عز وجلّ الأفعال التي يحصل بها التحلل الأصغر بعد نحر الهدي ورمي الجمار، والتحلل من الإحرام، وهي حلق الرأس والعانة، ونتف الإبط، وقص الشارب، وأخذ زوائد اللحية، وتقليم الأظفار، والاغتسال، وأمرهم سبحانه بأن يوفّوا بما نذروه من أعمال البر في حجهم، ثم يطوفوا طواف الإفاضة حول الكعبة المشرفة، وبذلك يكونون قد أكملوا مناسك الحج[2]: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الحج: ٢٩]. وفيها بيان لبعض المناسك، وإشارة إلى ركنية طواف الإفاضة، وبعض أحكامه.

ثم قفىّ على ذلك ببيان فضل اجتناب المحرمات حال الإحرام وغيره عند الله، وأنه يجب على الحاج تعظيم الحج بإتمام مناسكه واحترام مشاهده، واجتناب محظورات الإحرام وجميع مناهي الحج، وأن يجل عبادة الحج بقلبه، ويظهر العبودية لله فيها، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الحج: ٣٠ – ٣١]. وفيها إشارة إلى وجوب إفراد الله تعالى بالتلبية.

وبين سبحانه أن تعظيم شعائر الحج علامة على أن القلوب مليئة بالتقوى وخشية الله، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢]. وتتضمن

---

(١) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٧٧)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٠٧ و١٠٩)، والتفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٤١).

(٢) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٧٨)، ومحاسن التأويل (٧/ ٢٤٢)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٠٧ و١٠٩)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٠٤).

الآية أيضا إشاراتٍ إلى وجوب احترام مواقيت الحج المكانية والزمانية، وإلى السعي بين الصفا والمروة لأنه من شعائر الله تعالى، كما تومئ إلى جواز إشعار البُدْن وتقليدها واستحباب استسمانها.

وبيّن سبحانه في الآية التي تليها أن محِل الناس من إحرامهم إلى أن يطوفوا بالبيت العتيق طواف الإفاضة يوم النحر بعد قضائهم لمناسك الحج، وحينها يحل له كل شيء من ممنوعات الحج، فقال: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الحج: ٣٣].

ثم ختم الله تعالى كلامه عن فريضة الحج ببيان أن منسك أهل الحق والإيمان الحج إلى بيت الله الحرام، وأن ذبح النسك على وجه التقرب إليه تعالى ليس خاصا بهذه الأمة، بل هو مشروع في كل الشرائع، ولكل أمة ذبائح شرعت ليذكروا اسم الله عند ذبحها ويشكروه على ما رزقهم، فما على الناس إلا الانقياد للإله الواحد[1]: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤]. ولوّح بأن الحُجّاج ينبغي أن يتصفوا بالإخبات، وأشار إلى فضل الحج لأنه يجمع بين العبادة القلبية والبدنية والمالية، فقال بعدها: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥].

ورغب الله تعالى في إتقان الحج ومراقبة الله تعالى فيه فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الحج: ٣٧].

والملحوظ أن عرض أحكام الحج في هذه السورة تتميز عن طريقة عرضها في سورة البقرة بأن هذه السورة ركزت على أعمال الباطن في الحج، بخلاف آيات البقرة فقد ركزت على أعمال الجوارح، والله تعالى أعلم.

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٤)، وتفسير المراغي (١٧/ ١١٢)، والتفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٤٥).

فمن جمع بينهما في حجته جمع الخير كله، ومن انتقص منهما أو من أحدهما أُنتقص من حجه بقدر نقصه، وقد تظاهرت النصوص في الدلالة على أن كمال حج القلب أو نقصه أعظمُ أثراً في قبول الحج أو رده من أثر عمل الجوارح مع أنهما ضروريان معاً، ولكن ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [سورة الطلاق: ٣]، فليس الكمال في تعظيم القلب لهذه الشعائر كالكمال في سنن الطواف والسعي والرمي ونحوها، ولا الخدش في لباس التوحيد كالخدش في لباس الإحرام، ولا تطهير القلب من الرياء والعجب والكبر كتطهير اللسان من العبث وتطهير البدن من التفث والثياب من الوسخ. وكلاهما دين قد تعبدنا الله به، لكن الأول أصل، والثاني فرع له، وبينهما تلازم بيِّنٌ إلا في حال صلاح الظاهر مع فساد الباطن[1].

**الهداية الثانية: التعريف بالصفات العليا لله تعالى:**

والتعريف بصفات الله ورد في موضع متعددة من هذه السورة المباركة، ولكنه توالى في موضع واحد منها، فقد وردت ثمان آيات تتضمن صفات الله تعالى في خواتيمها، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩ ۞ ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾ [سورة الحج: ٥٨ – ٦٠].

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [سورة الحج: ٦١ – ٦٢].

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۚ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ۖ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ۝٦٦ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۘ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝٦٧ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٦٩ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٧١ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۖ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٧٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ ۖ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾ [سورة الحج: ٦٣ – ٧٨].

(١) ينظر مقال "السورة العجيبة"، عصام العويد: https://www.feqhweb.com/vb/t21311.html.

﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ﴾ [سورة الحج: ٦٣ – ٦٥].

وقد تضمنت هذه الأسماء الحسنى التي اختتمت بها الآيات نوعين: صفات الجمال، وصفات الجلال. فأما صفات الجمال فهي: الرزق، والحلم، والعفو، والغفران، واللطف، والخبرة، والحمد، والرحمة، والرأفة.

وأما صفات الجلال فهي: الغنى، والعلو، والكبرياء.

وصفات الذات وهي العلم، السمع والبصر.

وإنما (عدّد آلاءه مقرونةً بأسمائه ليشكروه على آلائه، ويذكروه بأسمائه)[1].

ومن الملحوظات البارزة في إيراد هذه الأسماء الحسنى أنها جاءت مؤكَّدة بمؤكِّد أو أكثر، فجميعها مؤكدة ب"إنّ" او "أنّ" التي تفيد التوكيد، وبعضها جاء بمؤكد ثانٍ وهو اللام المزحلقة.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الحج: ٥٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة الحج: ٦٠].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [سورة الحج: ٦١].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الحج: ٦٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الحج: ٦٣].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة الحج: ٦٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الحج: ٦٥].

ومن الملحوظات الظاهرة كذلك أن معظمها اسمان مقترنان ببعضهما، واقتران الأسماء الحسنى يفيد ما لا يفيد كلٌّ واحد منها بمفرده. قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله في معرض ذكر بعض الأمثلة على ختم الآيات بالأسماء الحسنى: (وقوله تعالى في سورة

(١) تفسير النسفي (٢/ ٤٥٢).

الحج: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩﴾ [سورة الحج: ٥٩] والآيات المتتابعة التي بعدها، كل واحدة ختمت باسمين كريمين.

فالأول منها، ختمُها بالعلم والحلم: يقتضي علمَه بنياتهم الجميلة، وأعمالهم الجليلة، ومقاماتِهم الشامخة، فيجازيهم على ذلك بالفضل العظيم، ويعفو ويحلم عن سيئاتهم فكأنهم ما فعلوها.

وختم الثانية بالعفو الغفور، فإنه أباح المعاقبة بالمثل، وندب إلى مقام الفضل، وهو العفو وعدم معاقبة المسيء، وأنه ينبغي لكم أن تتعبدوا لله بالاتصاف بهذين الوصفين الجليلين لتنالوا عفوه ومغفرته.

وختمُ الآيةِ الثالثة بالسميع البصير يقتضي سمعَه لجميع أصوات ما سكن في الليل والنهار، وبصرَه بحركاتهم على اختلاف الأوقات وتباين الحالات.

وختم الآية الرابعة: بالعلي الكبير، لأن علوه المطلق وكبرياءه وعظمته ومجده تضمحل معه جميع المخلوقات، ويبطل معها كل ما عبد من دونه، وبإثبات كمال علوه وكبريائه، يتعين أنه هو الحق وما سواه هو الباطل.

وختم الآية الخامسة: باللطيف الخبير، الدالين على سعة علمه ودقيق خبرته بالبواطن كالظواهر، وبما تحتوي عليه الأرض من أصناف البذور وألوان النباتات، وأنه لطف بعباده حيث أخرج لهم أصناف الأرزاق، بما أنزله من الماء النَّمير، والخير الغزير.

وختم الآية السادسة: بالغني الحميد، بعد ما ذكر ملكه للسماوات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وأنه لم يخلقها لحاجة منه لها، فإنه غني مطلق، ولا ليتكمَّل بها. فإنه الحميد الكامل، وليدلهم على أنهم كلهم فقراء إليه من جميع الوجوه، وأنه حميد في أقداره، حميد في شرعه، حميد في جزائه، فله الحمد المطلق ذاتا وصفات وأفعالاً.

وختم الآية السابعة: بالرؤوف الرحيم، أي: من رأفته ورحمته تسخيره المخلوقات لبني آدم وحفظ السماوات والأرض وإبقاؤُها لئلا تزول، فتختل مصالحهم. ومن رحمته سخر لهم البحار

لتجري فيها الفلك في منافعهم ومصالحهم، فرحمهم حيث خلق لهم المسكن، وأودع لهم فيه كل ما يحتاجونه، وحفظه عليهم وأبقاه)[1].

**المطلب الثالث: الهدايات الكلية المستخرجة من مجموع آيات متفرقة من سورة الحج:**

نجد في سورة الحج هداياتٍ وردت في آيات متعددة غير متوالية، وهي تجتمع على معنى كلي واحد[2]، مما يدل على أنها من الهدايات الكلية المقصودة في السورة، ومعظمها ظاهر، وسأذكر ما أسعف الوقت باستخراجه، والله ولي التوفيق.

**١ ▫ الهداية الأولى: وجوب معرفة العباد لربهم عز وجل من خلال أسمائه الحسنى وصفاته العلى.**

ويتبين ذلك من خلال ما يأتي:

فقد ذكَّر الله تعالى بربوبيته للخلق، وما ينطوي عليه ذلك من إمدادهم بالنعم وتدبيره لشئونهم وتصريفه لملكوت السماوات والأرض، وظهر ذلك من خلال عدة آيات أولها مطلع السورة حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ١].

وبين تعالى عظم قدرته تعالى حيث خلق الإنسان وجعله خلقا سويا كامل الأعضاء الباطنة والظاهرة من قطرة من المني التي تلقح البويضة، فتصير نطفة لا تكاد ترى[3]. وذكر أنه خلق الإنسان أطوارا على التدريج – مع قدرته تعالى على إكمال خلقه في لحظة واحدة – من أجل أن يعرفنا ابتداءه لخلقنا ويبين لنا عظيم قدرته وسعة حكمته[4]، ولنعلم أنه تعالى حكيم

---

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص: ٥٧).

(٢) الهدايات الكلية في القرآن الكريم: دراسة تأصيلية تطبيقية (ص ١٠).

(٣) ذكر ذلك ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٨). وجاء في التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٩): (وحجم البويضة أكثر من ضعف حجم الحيوان المنوي، وكلاهما في غاية الصغر، فالحيوان المنوي يساوي ٦/ ١٠٠٠ "ستة على ألف" من الملليمتر، ولا يرى إلا بمنظار مكبر).

(٤) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٣، وتفسير البغوي (٥/ ٣٦٦)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٤).

بذاته، وعالم قادر بذاته، لا بتعليم غيره، ولا بإقدار غيره[1]. ولذلك قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ٥].

وأشار سبحانه إلى أن ما ذكر به من مراحل الخلق وأحوال الإنسان المتعاقبة من حياته إلى موته، وما نبه عليه من إحياء الأرض بالنبات تثبت أن الله ثابت الوجود، حق لا شك فيه، وأنه قدير على كل شيء، لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه مما أراده شيء: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾ [سورة الحج: ٦]. ووصفه تعالى بأنه الحق (يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله)[2].

وبين تعالى أنه منزه عن الظلم، متصف بالعدل المطلق، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾ [سورة الحج: ١٠]. وأومأ إلى أنه المنفرد بالضر والنفع، فقال منكرا على المشركين: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾ [سورة الحج: ١٢ – ١٣].

وأثبت تعالى لنفسه صفة الإرادة، وأن مشيئته نافذة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ [سورة الحج: ١٤]. وأنه يهدي من أراد هدايته، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾ [سورة الحج: ١٦]. وأنه لا كرامة إلا بإكرام الله، ولا عزة إلا بعزة الله؛ وأنه تعالى يفعل في ملكه ما يشاء، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ١٨﴾ [سورة الحج: ١٨]. وبين تعالى أنه ما يزال يدافع عن عباده المؤمنين به وبرسله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [سورة الحج: ٣٨]. وأخبر تعالى عن نفسه أنه لا يحب الخائنين للأمانات الجاحدين للنعم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾

(١) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٣٩٢).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١١٢).

[سورة الحج: ٣٨]. وأنه ينصر من ينصر دينه، فقال سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠]. وأنه تعالى يملك السماوات والأرض وما فيهما، فقال: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الحج: ٦٣].

وبين تعالى أنه المنفرد بالإحياء والإماتة، القادر على إحياء الخلق بعد مماتهم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة الحج: ٦٦].

وبين أن الأمور كلها تؤول إليه سبحانه، وذلك في قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤١]. وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الحج: ٧٦].

وبين تعالى أن من صفاته أنه عليم بنيَّاتهم، حفيظ لأقوالهم، شهيد على أفعالهم[(١)]، وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الحج: ١٧]. وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [سورة الحج: ٧٦].

ومن صفاته تعالى أنه مستحق لغاية الحمد لذاته[(٢)]، محمودٌ عند أوليائه من خلقه[(٣)]، حيث أضيف الصراط إليه عز وجل: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾[سورة الحج: ٢٤].

ومن صفاته تعالى أنه غني عن خلقه وعباداتهم وقرابينهم، وأشار إلى ذلك في قوله تعالى عن النسائك: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الحج: ٣٦ – ٣٧]. وبين أنه المنفرد بالملك، الذي يحكم بين الناس فقال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الحج: ٥٦].

---

(١) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٦٧)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٢)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٠٠)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٣)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٩٠).

(٢) ينظر روح المعاني (٩/ ١٣١).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٠٠).

ومن صفاته أنه ينفذ ما وعد به أو توعد به، فقال: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ [سورة الحج: ٤٧].

ومن صفاته أن يهدي المؤمنين إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنات النعيم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الحج: ٥٤].

وقد ذكر الله تعالى في هذه السورة ثمانية عشر اسما من الأسماء الحسنى، وختم كثيرا من آيات السورة بأسمائه الحسنى، معظمها مقترن بغيره، منها:

القوي العزيز: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠].

العليم الحكيم: وذلك في قول تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الحج: ٥٢].

خير الرازقين: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الحج: ٥٨].

العليم الحليم: وذلك في قوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الحج: ٥٩].

العفو الغفور: وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة الحج: ٦٠].

السميع البصير: وقد انفردت هذه السورة بورود هذين الاسمين مقترنين مرتين فيها دون باقي السور[1]، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [سورة الحج: ٦١]. وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ

(١) فقد وردت كذلك أربع مرات في القرآن الكريم، مرتين في سورة الحج، ومرة في قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ (لقمان: ٢٨)، ومرة في قوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ (المجادلة: ١).

يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة الحج: ٧٥].

الحق: وذلك في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [سورة الحج: ٦]، وقوله تعالى في آخر السورة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة الحج: ٦٢].

العلي الكبير: وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الحج: ٦٢].

اللطيف الخبير: وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الحج: ٦٣].

الغني الحميد: وذلك في قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة الحج: ٦٤].

الرؤوف الرحيم: وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الحج: ٦٥].

المولى والنصير: وذلك في قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الحج: ٧٨].

كما عرفنا بأفعاله سبحانه فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [سورة الحج: ٦١]. وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة الحج: ٧٥].

وتحدث عن مظاهر قدرته من خلال التنويه بتعاقب الليل والنهار، وتسخير السماء والأرض، وإحياء الأرض بعد موتها، وتفرد الله تعالى بالحساب والفصل والحكم بين الناس. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ

خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ﴾ [سورة الحج: ٦٣ - ٦٥].

والحاصل أن التعريف بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله سبحانه مبثوث في السورة كلها من بدايتها إلى نهايتها، حتى إنها يمكن أن تلحق بالنوع الأول من أنواع الهدايات الكلية.

**٢ □ الهداية الثانية: وجوب تعظيم العباد لله تعالى وتعظيم حرماته وشعائره.**

وهذه من الهدايات الكلية الظاهرة، حتى إن أصحاب "المختصر في تفسير القرآن الكريم" ذهبوا إلى أن مقصد السورة هو: (ذكر التعظيم والاستسلام لله من خلال عرض مشاهد العظمة والقدرة الإلهية)[1].

والمتأمل في السورة يجد أنها تؤكد على معنيين عظيمين، أحدهما متفرع عن الآخر:

الأول: **تعظيم الله تعالى وإجلاله:** فبعض الآيات تصور عظمة الله وجليل قدرته فيما يحدثه من آيات يوم القيامة، ويلوح هذا من مطلع السورة حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾﴾ [سورة الحج: ١].

وتشير الآيات إلى دلائل قدرته في الخلق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [سورة الحج: ٥]، وكأن الآية تشير إلى أن التفكر في أطوار الخلق جدير بأن يجعل الإنسان يعظم ربه، ولذلك عرّفنا بها في غير ما آية من هذه السورة ليبين لنا عظمته سبحانه،

(١) المختصر في تفسير القرآن الكريم (ص ٣٣٢).

كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [سورة نوح: ١٣ – ١٤].

ثم يبين الله تعالى قدرته في إحياء الأرض بعد موتها، فيقول: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ (﴾ [سورة الحج: ٥].

ثم يتبعها الله تعالى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [سورة الحج: ٦ – ٧].

ثم يقول مثل ذلك في الربع الأخير من السورة حيث يشير إلى آية تعاقب الليل والنهار: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الحج: ٦١ – ٦٢].

ثم أشار تعالى إلى إحيائه الأرض وانفراده بالملك وتصرفه في الكون فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۚ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ۗ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة الحج: ٦٣ – ٦٦].

ويشير سبحانه إلى سعة علمه وإحاطته بكل شيء: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الحج: ٧٠].

وعرَّفنا في ثنايا السورة بكثير من أسمائه وصفاته، لأنه كلما كان العبد أعلم بربه كان أكثر تعظيما وخشية له.

ونجد آية تصور تعظيم المخلوقات لله وسجودها له سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ

مِّنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الحج: ١٨].

وفي آية أخرى إشارة إلى أن من مقاصد تسخير الإنعام تكبيرَ الله وإظهار تعظيمه: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الحج: ٣٧].

وفي ختام السورة نجد الإنكار على المشركين الذين لم يعظموا الله ولم يقدروه حق قدره حيث قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الحج: ٧٤]. ثم يأمر بعبادته فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [سورة الحج: ٧٧]، (والعبادة عبارة عن الخضوع والتذلل، وهو تعظيم الله)[(١)].

ثم أمر بأداء الصلاة المفروضة فقال: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[سورة الحج: ٧٨]، وإنما خصها بالذكر لأنها دالة على تعظيم أمر الله[(٢)].

**الثاني: تعظيم شعائر الله وحرماته** وأركان دينه العظام، كالصلاة، والزكاة، والحج، والجهاد، ونحوها.

وقد تكررت الآيات في هذه السورة العظيمة على وجوب تعظيم حرمات الله وشعائره، وبين تعالى أن تعظيم حرمات الله وشرائع دينه خير للمسلم عند الله وأعظم أجرا في الآخرة، وأن تعظيمها تعظيم لله تعالى، فقال: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ [سورة الحج: ٣٠].

وبيّن تعالى أن تعظيم شعائره تعالى من العلامات التي تدل على رسوخ تقوى الله وخشيته في القلب، فقال: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢].

---

(١) فتح الرحمن (٤/ ٤٥٢).

(٢) روح البيان (٦/ ٦٥).

وانطوت هاتان الآيتان على تعظيم ما يندرج تحتها، بتعظيم البُدْن المشعَرة، وتعظيم مناسك الحج ومشاهده، واجتناب محظورات الإحرام وجميع مناهي الحج، وتوقير المواضع المعظمة كالبيت الحرام والمشعر الحرام، والأزمنة الشريفة، كالأشهر الحرم، وتعظيم محارم الله تعالى بالبعد عنها، وتعظيم فرائضه التي أمر بها، وتعظيم شرائع الدين التي حدها الله لعباده.

كما أشار إلى وجوب تعظيم المسجد الحرام والبلد الحرام من خلال ذمّ الذين يصدون عنه حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [سورة الحج: ٢٥]. بل إن الله تعالى توعد من يهم بارتكاب المعصية فيه، فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥].

وبين تعالى أن هذا البيت بيته، وهو الذي اختار موضعه، وعين لإبراهيم عليه السلام مكانه ليرفع قواعده: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الحج: ٢٦]. وفيه أن تطهير المسجد الحرام من الأرجاس الحسية والمعنوية من تعظيم حرمات الله سبحانه.

**٣ ▫ الهداية الثالثة: لزوم اقتران الإيمان بالله تبارك وتعالى بالعمل الصالح.**

فقد تكرر في هذه السورة الثناء على المؤمنين بأدائهم للعمل الصالح، وبين عظيم ثوابهم، فبعدما ذكر جزاء الكافرين بين حسن مآل المؤمنين الصادقين، الذين آمنوا بقلوبهم وصدّقوا إيمانهم بأعمالهم[(١)]، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الحج: ١٤]. (وواضح أنها احتوت حثًّا على الثبات في الإيمان والإقبال على العمل الصالح، وبيانًا بأنّ جزاء ذلك مضمون عند الله)[(٢)]، وقال عز وجل مبينا ألوان النعيم في جنات الخلد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

(١) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٦٨)، والتفسير المنير (١٧/ ١٧٠).

(٢) التفسير الحديث (٦/ ١٨).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الحج: ٢٣]. وكرر تعالى بشارة المؤمنين العاملين للصالحات، فوعدهم بغفران الذنوب والفوز بالجنة وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة الحج: ٥٠]. وقال بعد بِضع آيات: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الحج: ٥٦].

وهذه الآيات تفيد أن الإيمان- لكي يكون إيمانا صحيحا - لا بد أن يصحبه عمل، وأن الإيمان والعمل الصالح هو السبب الذي يستحق به العباد أن يرحمهم الله ويدخلهم الجنة.

وعند ذكره لصفات المؤمنين المخبتين بيّن أشرف أعمالهم الصالحة فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥].

وأثنى على المؤمنين الذين ينصرونه فينصرهم، فبيّن أنهم لا ينفكّون عن مجاهدة النفس في الإتيان بالعبادات والأمر بكل خير والنهي عن كل شر فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤١].

وفي ختام هذه السورة نادى الله تعالى المؤمنين جميعا، وأمرهم بالصلاة خصوصا، وبعبادته وفعل الخيرات عموما، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة الحج: ٧٧]. وفي هذه الآية الدلالة على أنه لا يكفي التصديق القلبي، وإنما لا بد أن يتبعه العمل الذي يؤكده.

ثم أمر سبحانه في ختام السورة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة باعتبارهما أعظم العبادات بعد الشهادتين فقال: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [سورة الحج: ٧٨].

**٤ □ الهداية الرابعة: وجوب العناية بالقلب وتطهيره وتزكيته، والحذر من قسوتها، ومداوته من أمراضه، والمجاهدة على الطاعات القلبية.**

تنبه العلامة ابن تيمية[(١)] إلى أن سورة الحج قد اختصت بذكر أنواع القلوب الأربعة: القلب الأعمى، والقلب المريض، والقلب القاسي، والقلب الحي المخبت المطمئن إلى الله، ولم تُذكَر هذه الأربعة في سورة واحدة مجتمعة إلا في سورة الحج[(٢)]. وتبين لي من خلال التأمل في آية السورة أن وراء ذكر هذه الأنواع الأربعة دعوة خفية إلى تطهير القلوب وتزكيتها وإمدادها بما فيه حياتها وشفاؤها، ويتبين ذلك من خلال ما يأتي:

لقد تردد في السورة ذكر القلب، فبين تعالى أنه مستقر التقوى، فقال عز من قائل: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢]، وبين سبحانه أنه محل العقل في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [سورة الحج: ٤٦]. وأثنى على أصحاب القلوب الوجِلة التي توجل عند ذكر الله خوفا من عقابه وهيبة من جلاله وعظمته وكبريائه وعزة سلطانه وغير ذلك من معاني أسمائه وصفاته؛ فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥]. وتنطوي هذه الآية على حث المسلمين إلى تغذية القلوب بذكر الله تعالى وصفاته والوجل عند تذكر جلاله وعظمته والتواضع له سبحانه الاطمئنان إلى أحكامه الشرعية والقدرية.

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، الإمام العلامة الفقيه، المجتهد الناقد، المفسر البارع، شيخ الإسلام، درس بدار الحديث بدمشق وهو ابن إحدى وعشرين، وامتحن وسجن عدة مرات، إلى أن توفاه الله مسجونا سنة ٧٢٨هـ. برع في تفسير القرآن، واستنبط أشياء لم يسبق إليها، ولفرط إمامته في التفسير وعظمة اطِّلاعه يبين خطأ كثير من أقوال المفسّرين. له مؤلفات كثيرة معروفة تغني شهرتها عن ذكرها. تنظر ترجمته في: البداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ١٦٣)، وتذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٩٦)، والدرر الكامنة (١/ ١٥٤)، والذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٣٨٧)، وينظر العقود الدرية لابن عبد الهادي.

(٢) ينظر مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٦٦).

كما دلنا على أثر القرآن على قلوب المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الحج: ٥٤]. وذكر أربع علامات للمخبتين، وهي: وجَلُ قلوبهم عند ذكره، وصبرهم على أقداره، وإتيانهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهرا وباطنا، وإحسانهم إلى عباده بالإنفاق مما آتاهم[1]، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥]، (وهذا إنما يتأتى للقلب المخبِت)[2].

وتوعّد في المقابل الذين في قلوبهم مرض أو قسوة تمنعهم من الانتفاع بآيات الله والاتعاظ بها فقال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الحج: ٥٣].

قال ابن القيم رحمه الله: (فجعل الله سبحانه وتعالى القلوب في هذه الآيات ثلاثة: قلبين مفتونين، وقلبا ناجيا، فالمفتونان: القلب الذي فيه مرض، والقلب القاسي. والناجي: القلب المؤمن المخبت إلى ربه. وهو المطمئن إليه الخاضع له، المستسلم المنقاد.

وذلك: أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحا سليما لا آفة به، يتأتى منه ما هيئ له وخلق لأجله. وخروجه عن الاستقامة إما ليبسه وقساوته، وعدم التأتي لما يراد منه، كاليد الشلاء، واللسان الأخرس، والأنف الأخشم، وذَكَر العِنّين، والعين التي لا تبصر شيئا. وإما بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد. فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الأقسام الثلاثة.

فالقلب الصحيح السليم: ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الإدراك للحق، تام الانقياد والقبول له.

---

(١) ينظر شفاء العليل (ص ١٠٦).

(٢) شفاء العليل (ص ١٠٦).

والقلب الميت القاسي: لا يقبله ولا ينقاد له. والقلب المريض: إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي. وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم.

فما يلقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ، وفى القلوب من الشبه والشكوك: فيه فتنة لهذين القلبين، وقوة للقلب الحي السليم؛ لأنه يردّ ذلك ويكرهه ويبغضه، ويعلم أن الحق في خلافه، فيخبت للحق قلبه ويطمئن وينقاد، ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان، فيزداد إيمانا بالحق ومحبة له وكفرا بالباطل وكراهة له. فلا يزال القلب المفتون في مرية من إلقاء الشيطان. وأما القلب الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبدا)[1].

وقد أشار عز وجل إلى إحدى علامات مرض القلوب، وهي التردد والشك المنافي لليقين الجازم، وهذا التردد يجعله صاحبه مُذبذَبا لا يثبت على الدين، وهذا ما بينه سبحانه في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [سورة الحج: ١١]. وأشار أن من علامات قسوة القلوب الاشمئزاز عند سماع آيات الله والاستياء من المؤمنين الذين يتلونها، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ [سورة الحج: ٧٢][2].

وكذلك حذرنا الله تعالى في هذه السورة من عمى القلوب الذي يحجب عنها أنوار الحق فقال: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [سورة الحج: ٤٦].

وفي الآيات السابقة دعوة إلى الحذر من آفات القلوب ومداواتها من العلل التي تصيبها والحذر مما يصيبها بالقسوة عن ذكر الله والعمى عن إبصار آياته في النفس والآفاق.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٠).

(٢) ينظر الدعوة إلى الله في سورة الحج (ص ١٩٩ و٢٠٣).

وكذلك أشار الله تعالى في مواضع متفرقة تصريحا وتلويحا إلى جملة من أعمال القلوب، كالإخلاص، والإسلام لله، والإخبات له، وخشيته، والتوكل عليه، وتعظيم وتعظيم شعائره وحُرماته؛ فقد أمر المؤمنين بالاستسلام لله والإخبات له فقال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الحج: ٣٤]، وقال تعالى مبينا أهمية التقوى المتمكنة في القلوب وتوقُّف قبول الأعمال الصالحة عليها: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٧].

**٥ ▫ الهداية الخامسة: وجوب الاستناد إلى العلم المأخوذ من الوحي أو المبني على الاستدلال العقلي.**

وهذا المعنى مبثوث في آيات متفرقة من السورة، فقد ذم الله تعالى الجدال المبني على الهوى والجهل، وبيّن تعالى أن أولئك الذين يجادلون في انفراد الله تعالى بالألوهية وقدرته على البعث لا يستندون إلى علم ثابت، وإنما يتبعون كل شيطان متمرد على ربه من شياطين الجن والإنس[(١)]، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [سورة الحج: ٣ – ٤]. وفيه إشارة إلى ذم التقليد في مثل هذه القضايا الاعتقادية.

وبين عزّ وجلّ أن رؤساء المشركين الذين يدعون إلى الكفر والضلال، إنما يجادلون في وحدانية الله وشأن البعث عن جهالة وتكبُّر، لا عن علم ضروري، أو حجة قاطعة، فليس عندهم برهان من عقل، ولا حجة من نقل، وإنما يلوون أعناقهم ويستكبرون عن قبول الحق وينصرفون عن سماعه ليبقوا في غيّهم ويُضلوا غيرهم عن سبيل الله[(٢)]: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٤)، والمنتخب في تفسير القرآن الكريم (ص: ٤٨٨).

(٢) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ٩٧)، وصفوة التفاسير (٢/ ٢٥٨).

وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩﴾ [سورة الحج: ٨ – ٩]. وفيه إشارة إلى أن مسائل الاعتقاد في القضايا الغيبية لا بد أن تستند إلى أدلة قطعية.

وفي آخر السورة نجد الله تعالى يستنكر عبادة المشركين لمن لا برهان لهم عليه من عقل أو نقل، فيقول تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ۝٧١﴾ [سورة الحج: ٧١].

وتفيد هذه الآيات بفحواها ذم الجدل عموماً بغير علم أو برهان[(١)]، وأن التقليد في شأن أصول العقائد مذموم، وأن الجدال الصادر عن علم وتحقيق وبرهان سائغ مقبول[(٢)]؛ وأن الجدال من أجل إحقاق الحق ورد الباطل مطلوب؛ وأنه لا بد أن يكون مستندا إلى الحجج والبراهين، لا إلى مجرد الكلمات الرنّانة والعواطف الجيّاشة، وأن تحصيل العلم مُرغَّب فيه، فبه يستنير العقل ويُعرف الحق من سواه. ولا يليق بمسلم أن يعرض عن العلم، لأنه يجعله نفسه لقمة سائغة للمُضلِّين الذين يزينون له الباطل ويحملونه على اتّباعه، ويكون مستسلما لخدع الشياطين وزخرفهم وغرورهم، حتى يلقوه في مهاوي الكفر والضلال. وأن الواجب في حق من لم يكن له علم ألا يتأبّى على من يهديه إلى الرشد ويدلُّه عليه.

ومن جهة أخرى فقد علّمنا الله تعالى في هذه السورة بعض الأقيسة العقلية، ودلنا على جواز الاستدلال بها، حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾ [سورة الحج: ٥]. فتضمنت الآية قياسين: أولهما قياس إعادة الخلق على ابتداء الخلق من نطفة

(١) ينظر الإشارات الإلهية (ص: ٤٤٤).

(٢) ينظر الإشارات الإلهية (ص: ٤٤٤).

ثم من مضغة ثم من علقة، والجامع بينهما الإمكان والمقدورية، وثانيهما: قياس إخراج الموتى أحياء من الأرض على إخراج الزرع من الأرض[1]. ودلَّنا من خلال الآية السابقة على جواز الاستدلال على الغائب بالحاضر المحسوس[2]. وأشار إلى أن مصادر العلم للإنسان هي أحد هذه الأمور الثلاثة: العلم الضروري، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أو الاستدلال العقلي، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَلَا هُدًى﴾، أو الوحي، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ [سورة الحج: ٨][3].

قال العلامة ابن تيمية رحمه الله: (فتبين أن أصل طريق من يعارض النصوص النبوية برأيه وعقله، هي طريق أهل النفاق والإلحاد وطريق أهل الجهل والارتياب، لا طريق ذي عقل ولا ذي دين. كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ [سورة الحج: ٨]. وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [سورة الحج: ٣ – ٤].

فإنه قد يقال: هذه حال كل من عارض آيات الله بمعقوله، فإنه لا علم عنده، إذ ذلك المعارض – وإن سماه معقولا – فإنه جهل وضلال، فليس بعلم ولا عقل ولا هدى، إذ لا إيمان عنده ليكون مهتدياً، فإن المهتدين الذين على هدى من ربهم هم مؤمنون بما جاء به الرسول، ولا كتاب منير، فإن الكتاب المنير لا يناقض كتاب الله.

وهؤلاء المعارضون ليس عندهم لا علم ولا إيمان ولا قرآن فهم يجادلون في آيات الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. واسم (العلم) يتناول هذا وهذا، ولكن هو من باب عطف

---

(١) ينظر الإشارات الإلهية (ص: ٤٤٤ – ٤٤٥).

(٢) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٥٥).

(٣) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٧)، والبحر المحيط (٧/ ٤٨٨).

الخاص على العام، ولهذا ذكر تارة وحذف أخرى. وذلك أنه قد يقال: إنه سبحانه ذكر ثلاثة أصناف:

صنف يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، مكتوب عليه إضلال من تولاه. وهذه حال المتبع لمن يضله.

وصنف يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله، وهذه حال المتبوع المستكبر الضال عن سبيل الله.

ثم ذكر حال من يعبد الله على حرف، وهذه حال المتبع لهواه، الذي إن حصل له ما يهواه من الدنيا عبد الله، وإن أصابه ما يمتحن به في دنياه ارتد عن دينه، فهذه حال من كان مريضاً في إرادته وقصده، وهي حال أهل الشهوات والأهواء.

ولهذه ذكر الله ذلك في العبادة التي أصلها القصد والإرادة، وأما الأولان: فحال الضال والمضل، وذلك مرض في العلم والمعرفة، وهي حال أهل الشبهات والنظر الفاسد والجدال بالباطل.

فإنه تعالى يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات، ولا بد للعبد من معرفة الحق وقصده. كما قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [سورة الفاتحة: ٦ – ٧]، فمن لم يعرفه كان ضالاً، ومن علم ولم يتبعه كان مغضوباً عليه.

كما أن أول الخير الهدى، ومنتهاه الرحمة والرضوان، فذكر سبحانه ما يعرض في العلم من الضلال والإضلال، وما يعرض في الإرادة من اتباع الشهوات، كما جمع بينهما في قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾ [سورة النجم: ٢٣]. فقال أولا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [سورة الحج: ٣]، وكل من جادل في الله بغير هدى ولا كتاب منير، فقد جادل بغير علم أيضا، فنفي العلم يقتضي نفي كل ما يكون علماً بأي طريق حصل، وذلك ينفي أن يكون مجادلاً بهدىً أو كتاب منير، ولكن هذه حال الضال المتبع لمن

يضله، فلم يحتج إلى تفصيل، فبين أنه يجادل بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، كتب على ذلك الشيطان أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير.

وهذه حال مقلد أئمة الضلال بين أهل الكتاب وأهل البدع، فإنهم يجادلون في الله بغير علم، ويتبعون من شياطين الجن والإنس من يضلهم.

ثم ذكر حال المتبوع الذي يثنى عطفيه تكبراً كما قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [سورة لقمان: ٧]. وقال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣﴾ [سورة القيامة: ٣١ – ٣٣].

وهذا النوع يجادل ليضل عن سبيل الله، وجداله بغير علم أيضا، ولكن فصل حاله، فبين أنه لا يجادل بهدىً كأيمان المؤمن، ولا بكتاب منير كالجدال بكتاب منزل من السماء، فليس معه علم من هذا الطريق ولا من غيرها. كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١﴾ [سورة القيامة: ٣١]، وكل من لم يصدق لم يصل. وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦﴾ [سورة المدثر: ٤٣ – ٤٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤﴾ [سورة الحاقة: ٣٣ – ٣٤].

ومثل هذا كثير، قد ينفي الشيء الذي نفيه يستلزم نفي غيره، لكن تذكر تلك اللوازم على سبيل التصريح للفرق بين دلالة اللوازم ودلالة المطابقة، كما قد ذكرنا نحو ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ [سورة البقرة: ٤٢]، وأن كل من لبس بالباطل فلا بد أن يكتم بعض الحق، وبينا أن هذا ليس من باب النهي عن المجموع المقتضي لجواز أحدهما، ولا من باب النهي عن فعلين متباينين، حتى لا يعاد فيه حرف النفي، بل هو من باب النهي عن المتلازمات. كما يقال: لا تكفر وتكذب بالرسول، ولا تجادل في الله بغير علم ولا هدىً ولا كتاب منير.

والمقصود أن كل من عارض كتاب الله بمعقوله أو وجْده، أو ذوقه، وناظر على ذلك، فقد جادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ليضل عن سبيل الله، فإن كتاب الله هو سبيل الله)[1].

وكذلك بيّن الله تعالى أثر العلم في قلوب المؤمنين وثمرته في تثبيتها عند الفتن وحصول الطمأنينة لها، فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الحج: ٥٤].

**٦ □ الهداية السادسة: الاطمئنان إلى أن الله تعالى مُظهرٌ للدين، مدافعٌ عن المؤمنين، ناصرٌ للمظلومين.**

ويتبين ذلك من خلال ما يأتي:

فقد بيّن الله رعايته لرسوله صلى الله عليه وسلم، ونصرتَه لدينه رغم أنف الحاقدين، وأبطل سبحانه أوهام الذين يظنون أنه لَن ينصر رسولَه على من كذب به، فلو فعل أعداء الإسلام أقصى ما يستطيعون فإن الله سيُظهِر دينَه وينصر نبيَّه وخلفاءَه بغير شك[2]، فقال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحج: ١٥]. وفيها تنبيه للمؤمنين أن لا ييأسوا من نصر الله في الدنيا والآخرة، وأنه لا ينبغي لهم أن يجزعوا ويستبطئوا النصر، فإن له أجلاً لا يمكن أن يتقدمه.

وأفصح تعالى بأنه تكفل بالدفاع عن عباده المؤمنين، وأنه سيجعل العاقبة لهم: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الحج: ٣٨].

ثم صرح سبحانه وتعالى بالإذن للمهاجرين بقتال المشركين الذين أخْرجوهم من ديارهم بغير حق، والتأكيد على أنه قادر على نصرتهم على عدوهم، بما يتضمنه ذلك من وعد

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢٦٢ – ٢٦٧).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٣)، التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٨٩)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٦٩)، والتفسير المنير (١٧/ ١٧٤).

للمظلومين الذي يقاتلون من أجل رفع الظلم عن أنفسهم بالنصر[1]؛ وذلك حيث قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [سورة الحج: ٣٩ – ٤٠]، ثم يقول سبحانه مؤكدا السنة الإلهية الجارية في ذلك: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [سورة الحج: ٤٠].

وبين تعالى بعد ذلك صفات أولئك الذين وعدهم بالنصر فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [سورة الحج: ٤١].

وبين تعالى أنه سينصر عباده إن قابلوا اعتداء المعتدين بمثله ما لم يعتدوا ويتجاوزوا الحد في ذلك، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾ [سورة الحج: ٦٠].

وختم تعالى السورة بالإشارة إلى أن من أطاع الله تعالى وتولاه فإنه تعالى سينصره ويؤيده فقال: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾ [سورة الحج: ٧٨].

**٧ □ الهداية السابعة: وجوب الإيمان بوحدانية الله، وتوحيده وإفراده بسائر وجوه العبادة، وتجنب الشرك بجميع صوره الجلية والخفية.**

فقد تضمنت التذكير بأن الله تعالى نهى خليله إبراهيم عليه السلام عن الشرك حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ [سورة الحج:

(١) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٩٨)، والكشاف (٣/ ١٦٠)، والمحرر الوجيز (٤/ ١٢٤)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٣)، وأضواء البيان (٥/ ٢٦٤). قال الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٢٩): (فذلك وعد منه تعالى بنصرهم، كما يقول المرء لغيره: إن أطعتني فأنا قادر على مجازاتك، لا يعني بذلك القدرة، بل يريد أنه سيفعل ذلك).

٢٦]. وفيه إشارة إلى أن التوحيد أساس الدين؛ وأنه مقدم على غيره من الأوامر والنواهي، وأن أعظم مقصود من بناء الكعبة إظهار توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة[(١)]. وإيماء إلى قبح ما كان يفعله المشركون الذين يدعون الانتماء إلى إبراهيم عليه السلام وهم يحيطون الكعبة بالأصنام ويعبدونها من دون الله، مع أنه مأمور بتطهيرها من الشرك وسائر الأدناس ليعبدَ الحجيج اللهَ وحده لا شريك له.

ثم يأمر تعالى بتجنب عبادة الأوثان، وقول الزور الذي أعظمه نسبة الشريك لله سبحانه: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٣٠ – ٣١]. ثم يبين فظاعةَ الشرك وبُعْدَ المشركين عن الهدى والحق، وسوءَ حالهم في الدنيا والآخرة، فيقول: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ [سورة الحج: ٣١]. وفيه ما فيه من الدلالة على رفعة التوحيد، وأنه يسمو بالمسلم إلى أعلى المنازل، وقبحِ الشرك وما يحصل للمشرك من تجاذب الأهواء ووساوس الشياطين.

ثم يذكرهم تعالى بوحدانيته، ويأمرهم بالاستسلام والانقياد له وحده فيقول: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ (الحج: ٣٤]. ثم يشير عز وجلّ إلى أن الإشراكَ به خيانةٌ له سبحانه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [سورة الحج: ٣٨].

ثم يبين تعالى استحقاقه وحده للعبادة، وبطلانَ ما عداه مما يعبد من دونه، فيقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [سورة الحج: ٦٢]. وفي هذا نقض للشرك وما يتفرع عنه من ضلالات[(٢)].

---

(١) ينظر تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٦٣٤)، وفي ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٨)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٤١)، والتفسير المنير (١٧/ ١٩٧).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٥).

ويستنكر في آخر السورة عبادة من لا برهان عليه من عقل ولا دليل عليه من نقل فيقول: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ [سورة الحج: ٧١].

وبيَّن أن المشركين يدعون تلك المعبودات التي لَا تجلب لهم نفعا، ولا تدفع عنهم ضرا، ولا تقدر أن تصيبهم بِشرّ، وإنما يعود عليهم الضرر من عبادتها فقال: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحج: ١٢ – ١٣][1]. وفيه ما فيه من الإنكار والتشنيع عليهم.

وضرب لهم مثلا بيّن فيه أَن معبودات المشركين لا تستحق أن تعبد[2]؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الحج: ٧٣].

والخلاصة أن السورة تضمنت الدعوة إلى توحيد الله تعالى في النيات والتصرفات، بالقلب والجوارح، ونهت عن الشرك كلِّه، جليِّه، وخَفِيِّه.

**٨ □ الهداية الثامنة: وجوب الاعتقاد بأن الآخرة هي دار الجزاء وموعد الفصل بين الناس أجمعين، وأن الدنيا دار ابتلاء، وما ينطوي عليه من الدعوة إلى الخوف من سوء الحساب.**

فقد بين سبحانه أن عباده منهم من يعبده، ومنهم من ينتسب إلى رسله وينحرف عن منهجه، ومنهم من يكفر به ويكذب برسله، فصار منهم مؤمنون، ومنهم يهود، ومنهم نصارى، ومنهم صابئة، ومنهم مشركون، وأخبر سبحانه أنه هو الذي سيحكم بينهم يوم القيامة بالعدل،

(١) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ٩٣)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٣).

(٢) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧١)، والتفسير المنير (١٧/ ١٤٩).

فيجازي كل واحد منهم بما يستحقه، ويظهر المحق من المبطل[1]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الحج: ١٧].

ثم يفصل في كيفية حكمه بينهم، فيعرض مشاهد العذاب للكافرين: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحج: ١٩ – ٢٢]. ثم يتبعه ببيان بعض ألوان النعيم التي أعدت للمؤمنين فيقول عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحج: ٢٣ – ٢٤].

ثم يبيّن بيْن الفينة والأخرى أن الخلق كلهم سيرجعون إليه، فيقول: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤١]. ويعود مرة أخرى فيبين أن الكفار سيصيرون إليه فيعاقبهم في الآخرة: ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الحج: ٤٨]. ثم يعود في موضع آخر ليبين مصير الفريقين: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [سورة الحج: ٥٠ – ٥١].

ثم يعود من جديد ليبين حُكمه بين المؤمنين والكفار في اليوم الآخر فيقول: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

(١) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٦٧)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٢)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٠٠)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٣)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٩٠).

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ [سورة الحج: ٥٥ – ٥٧].

ثم ذكر الله تعالى بانفراده سبحانه بإيجادهم من عدم، وأنه سيحييهم بعد إماتتهم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة الحج: ٦٦].

ثم بين تعالى أنه سوف يحكم بين النبي صلى الله عليه وسلم ومجادليه من المشركين يوم القيامة فيما كانوا يختلفون فيه: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الحج: ٦٩].

ثم بين في أواخر السورة أن المرجع في الأمور كلها إليه فقال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الحج: ٧٦].

والتذكير باليوم الآخر يفيد بدلالة اللزوم أنه يجب على الناس أن يستعدوا لذلك اليوم، وأن يتزودوا له بالأعمال الصالحة قبل حلول الأجل، وألّا يلهيهم الأمل فيتركوا العمل[(١)].

أما الدنيا فليست دار جزاء، وإنما هي دار ابتلاء وتمحيص، ولذلك قد تجد فيها الكافر مُنعَّما، والمؤمن مكروبا، تصيبه السراء أحيانا، والضراء أحيانا أخرى. ومن هذا الابتلاء الصراع المستمر بين أهل الحق وأتباع الباطل، والتي قد تتجلى في المجادلة والاختصام، وتصل إلى حد الاقتتال وإخراج المؤمنين من ديارهم.

**٩ □ الهداية التاسعة: تقرير أصول الإيمان الستة:**

فقد بينت سورة الحج أصول الاعتقاد التي يجب أن يؤمن به الإنسان، ولا تصح عقيدته بدونها، وأجملها تعالى في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [سورة الحج: ٦ – ٧].

وتحدثت السورة عن الإيمان بالله تعالى، فبين تعالى وحدانيته وذكر أسماءه وصفاته كما تقدم لنا في الهداية الأولى.

---

(١) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٤)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٢)، وأضواء البيان (٤/ ٢٦١).

وأشارت إلى الإيمان بالملائكة، حيث بين الله تعالى أنه يرسل رسلًا من الملائكة إما لتبليغ الوحي أو إنفاذ أمر من أوامره سبحانه كقبض الأرواح وتقسيم الأرزاق، وأنه تعالى يعلم ما يفعلون وما يذرون، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الحج: ٧٥ – ٧٦].

وأشارت إلى الإيمان بكتبه تعالى، فذكر أنه تعالى جعل كتابه آيات واضحات، تتضمن أدلة بينة تدل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم في دعواه الرسالة وغير ذلك مما أراد تعالى إبلاغه للناس، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحج: ١٦]. وبين تعالى أنه صانه من خلط المخلطين، وتحريف المحرفين، فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الحج: ٥٢]. ثم بين أن المؤمنين الذين أوتوا العلم يؤمنون بأن القرآن منزل من عند الله، وأن قلوبهم مطمئنة لذلك فيقول: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الحج: ٥٤]. وحذر تعالى أولئك الذين يسعون جاهدين في إبطال آياته وتوعدهم بالعذاب فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [سورة الحج: ٥١].

ثم يبين موقف المشركين عند تلاوة آيات القرآن عليهم فيقول: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ﴾ [سورة الحج: ٧٢]. وفيها دلالة على تضمن القرآن للبراهين التي تزعج المكذبين وتكشف باطلهم.

وأشار تعالى إلى أنه سمى هذه الأمة بالمسلمين في القرآن وفي الكتب السماوية التي تقدمته، فقال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾[سورة الحج: ٧٨][(١)].

وأشارت السورة إلى الإيمان برسل الله عز وجلّ، حيث بين تعالى أنه يختار بحكمته العليّة رسلًا من البشر، يبلغونهم دينه، وأنه سبحانه عليم بمن يصلح لهذه المرتبة، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الحج: ٧٥ – ٧٦].

وقد نص على أسماء بعض أعظم الرسل، وعلى رأسهم إبراهيم عليه السلام، وذلك في قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [سورة الحج: ٢٦]، وقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ [سورة الحج: ٧٨]، ومنهم نوح ولوط وموسى عليه السلام، وأومأ إلى هود وصالح وشعيب دون ذكر أسمائهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ﴾ [سورة الحج: ٤٢ – ٤٤].

وبين تعالى أن لكل أمة شريعةً مستقلةً جاءهم بها رسولهم، فقال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ﴾ [سورة الحج: ٦٧].

وأشار تعالى إلى أن وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم هي البشارة والنذارة والبيان، فخاطبه قائلا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الحج: ٤٩].

وبين عز وجل في ختام السورة أن الرسول محمدا صلى الله علي وسلم شهيد على أمته يوم القيامة، وأن أمته تشهد على الأمم المتقدمة بتبليغ أنبيائهم لهم دعوة الله وتشريعه، لأنهم يؤمنون بجميع الرسل، ويصدقون بما أخبر الله تعالى عنهم في كتابه، وذلك حيث قال: ﴿مِّلَّةَ

(١) وهذا قول أكثر المفسرين في هذه الآية، ينظر الكشف والبيان (٧/ ٣٦).

أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: ٧٨].

أما اليوم الآخر فقد قرر الله في غير موضع من السورة أمر البعث، فقد حذرنا الله من أهوال يوم القيامة فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ (الحج: ١ – ٢]. ثم أقام الأدلة على وقوعه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [سورة الحج: ٥]. ثم أكد سبحانه، أن من مظاهر قدرته أنه تعالى يحي الموتى يوم القيامة، ويقيم الساعة، ويبعث الموتى من مراقدهم ليحاسبهم ويجزيهم بما كانوا يفعلون[1]: فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [سورة الحج: ٦ – ٧].

وقرر في مواضع متعددة أن يوم القيامة هو اليوم الذي سيلقى فيه كل عبد جزاءه، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾ [سورة الحج: ٨ – ٩]. وأن الكفار والمنافقين يخسرون الدنيا والآخرة معا فقال: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾ [سورة الحج: ١١]. وبيّن أن في الآخرة جنة وناراً، فالجنة للمتقين فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

(١) ينظر اللباب (١٤/ ٢٥)، وتفسير المراغي (١٧/ ٩٠)، والأساس في التفسير (٧/ ٣٥٢٩)، والمنتخب (ص: ٤٨٩).

تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [سورة الحج: ١٤]، والنار للعصاة والكافرين: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾ [سورة الحج: ١٩]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾ [سورة الحج: ٥١]، وقال: ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾ [سورة الحج: ٧٢].

وتحدث في موضع آخر عما للمؤمنين من ألوان النعيم في الجنة، فهم يحلون فيها بالذهب واللؤلؤ ويلبسون الحرير، ويلهمون فيها القول الطيب، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾ [سورة الحج: ٢٣ – ٢٤].

وذكر باليوم الآخر في مواضع أخرى، فبين أن الآخرة هي يوم الفصل بين المختلفين، فيجازي كل واحد منهم بما يستحقه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [سورة الحج: ١٧]. إلى غير ذلك مما تقدم لنا ذكره في الهداية السابقة.

وتحدثت السورة عن الإيمان بالقدر، فأشارت إلى إثبات القضاء؛ حيث قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ [سورة الحج: ٤] (١). وأشار إلى علم الله السابق بالحادثات وكتابتها في اللوح المحفوظ فقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾ [سورة الحج: ٧٠].

وقد أشار تعالى في آية أخرى إلى أن الشك يتنافى مع الإيمان الذي يقتضي الجزم، فأنكر على المنافقين الذين يؤدون العبادات ظاهرية وقلوبهم منطوية على الشك: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٠).

ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ [سورة الحج: ١١]، وأنكرت عليهم عدم الاستسلام لقضاء الله تعالى بالمكاره: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ [سورة الحج: ١١].

**١٠ ▫ الهداية العاشرة: الدعوة إلى أداء العبادات، والتنبيه على أنه لا يتم تقوى الله إلا بها.**

فقد أشار الله تعالى إلى أن العبادة ينبغي أن تكون خالصة لله، غير مشروطة بعطاء دنيوي أو رغد في العيش، وأنكر حال من يعبد الله تعالى في الظاهر على شرط السلامة والرخاء فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [سورة الحج: ١١]. وفيها إشارة إلى أن المؤمن الصادق ينبغي أن يعبد الله في حال السراء والضراء معًا، وأنه لا بد من الثبات على العبادات، وأن التشاؤم بما يحل من مصائب وشدائد قاطع لطريق عبادة الله عز وجل.

ورهّب من ترك السجود لله تعالى، وأنه موجبٌ للعذاب فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ [سورة الحج: ١٨].

وبيّن الله تعالى أنه أمره إبراهيم عليه السلام بتطهير البيت الحرام من الأصنام ليطوف الطائفون ويعتكف المعتكفون ويصلي المصلون تقربا إلى ربهم: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾ [سورة الحج: ٢٦]. وفي هذه الآية دلالة على إعداد بيوت الله للعبادة، وتطهيرها من جميع النجاسات الحسية والخبائث المعنوية، وفيها كذلك إشارة إلى استحباب الطواف حول الكعبة، وفضل الإكثار من الصلاة في المسجد الحرام. وأومأ قبلها إلى عبادة الاعتكاف في المسجد الحرام فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ [سورة الحج: ٢٥].

وبين تعالى أن الناس كلهم مدعوون إلى حج بيته الحرام والتعبد لله بأداء مناسكه، وما يستتبعه ذلك من التقرب إلى الله بالهدي، وذلك حيث قال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٢٧ – ٢٨].

وأمرهم سبحانه بالوفاء بما نذر الحجاج فعله في الحرم من أعمال البر، فقال: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٢٩﴾ [سورة الحج: ٢٩].

وبيّن تعالى أن من صفات المؤمنين المخبتين أنهم يلازمون إقامة الصلاة ويداومون على الإنفاق مما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقاربهم، ويحسنون إلى الفقراء والمحتاجين[(١)]، بالصدقات الواجبة والمستحبة، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥].

ودلّ على أن الحق في عبادة الله مكفول في بلاد الإسلام، والجهاد إنما شرع لحماية هذا الحق، فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [سورة الحج: ٤٠].

ثم بين تعالى اقتران إقامة الصلاة بإيتاء الزكاة، وأن أهل الإيمان حين ينصرهم الله ويمكنهم في الأرض يسعون عند تمكينهم إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[(٢)]: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [سورة الحج: ٤٠ – ٤١].

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٥).

(٢) ينظر التفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٥١)، والتفسير المأمون (٥/ ١٤٧).

وأمر تعالى بالعبادات عموما والصلاة خصوصا فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧﴾ [سورة الحج: ٧٧].

ثم خص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالأمر في الآية التي تليها وهي ختام السورة، فقال- تعالى-: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [سورة الحج: ٧٨]. وفي تخصيص الزكاة بالذكر في هذه الآية وما تقدمها دلالة على أنها أشرف الطاعات المالية.

والحاصل أن الله تعالى أمر في هذه السورة بأصول العبادات: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت. وأشار إلى عبادات أخرى كالذكر والتصدق والإطعام والتقرب إليه بالأضاحي والنذور.

**١١ □ الدلالة على منازل السير إلى الله تعالى:**

تنبه الإمام ابن تيمية رحمه الله إلى أن سورة الحج (تضمنت منازل المسير إلى الله، بحيث لا يكون منزلة ولا قاطع يقطع عنها)[١]. وقد ذكر بعض الباحثين أمورا اعتبرها من هذه المنازل، فذكر عشرة أمور: التلطف في الخطاب، والقوة فيه، والعناية بالقلب أولا، واستعمال التخويف بالآخرة، والتفصيل في هذا، والتحذير من أهل الذكاء وأصحاب الألسنة إذا مارَوا وموَّهوا وزخرفوا الباطل بما أُوتوا من دهاء وخِلابَةٍ فهؤلاء أتباع الأكابر مِن كل ﴿شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ [سورة الحج: ٤]، وضرورة اليقين الماحي لأدنى ريب بالبعث، والاستدلال بالرؤية البصرية للرؤية القلبية، ودلائل قوة الجبار في خلقه، وضعف الإنسان في خلقته"[٢].

وما ذكره وإن كان من المعاني الموجودة في السورة، إلا أنها ليست هي المراد بمنازل السير إلى الله تعالى كما عبر عنه الإمام ابن تيمية، وإنما المراد منها المنازل القلبية التي يسلكها

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٦٦).

(٢) مقال: (السورة العجيبة)، عصام العويد: https://www.feqhweb.com/vb/t21311.html.

السائرون في طريق السلوك إلى القرب من الله جل جلاله، وهي التي تحدث عنها علماء التزكية رحمهم الله تعالى[1].

ومن هذه المنازل التي تبينت لي الإشارة إليها في هذه السورة:

**الإخلاص لله تعالى**: فقد أرشدنا الله تعالى إلى أن المساجد ينبغي أن تبنى خالصة لوجهه تعالى؛ وذلك من خلاله نهيه إبراهيم عليه السلام عن أن يشرك به شيئا عند بناء البيت الحرام، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [سورة الحج: ٢٦]. ونبه تعالى على أن الحكمة الأصيلة فيما يتقرب به إلى الله هو الإخلاص له بذكر اسمه سبحانه، وذلك حيث قال: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [سورة الحج: ٢٨]. وأن المقصود من المناسك خلوص العبادة له[2]، حيث قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [سورة الحج: ٣٤]. وهذا بناء على القول بأن المراد بالمنسك في الآية: مناسك الحج.

وأمرنا تعالى بالإخلاص له وعدم شوب الأعمال بالشرك، فقال تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [سورة الحج: ٣١]، أي مخلصين لله[3]. وكذلك ضمّن معنى الإخلاص له تعالى في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ [سورة الحج: ٣٤][4]. وحثّ على الإخلاص في النحر، وأن يراد بالنسائك وجه الله وحده، لا أن تنحر فخرا ولا رياء، ولا سمعة، أو تكون مجرد عادة[5]، وإلا كانت مجرد لحوم مقطعة ودماء مسفوحة؛ فقال: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ

---

(١) كالتي ذكرها الهروي في "منازل السائرين"، وشرحها ابن القيم في كتابه "مدارج السالكين".

(٢) تفسير الإيجي (٣/ ٥٦).

(٣) وهو قول يحيى بن سلام، ينظر الكشف والبيان (٧/ ٢١).

(٤) أي أخلصوا العبادة له. ينظر الوجيز للواحدي (ص: ٧٣٤). وقال حقي في "روح البيان" (٦/ ٣٣): (والإسلام يكون بمعنى الإخلاص).

(٥) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٨٢)، وتيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٩).

لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ٣٧]. وفي الآية إشارة إلى أن يعتني المكلفون بتجريد نياتهم عند أدائهم لسائر العبادات.

**حسن الظن بالله:** فقد ذم الله تعالى سوء الظن به سبحانه، في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾ [سورة الحج: ١٥][1]؛ ويؤخذ من مفهومها وجوب حسن الظن في الله، وما يستلزمه من الرجاء في الله والتأميل في نصرته.

**الرضا بقدر الله:** فقد حث الله على الرضا بما قسمه تعالى، وأنكر على من يجزع إذا أصابته فينقلب عقبيه، ويرتد عن دينه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [سورة الحج: ١١][2].

**الاستقامة على أمر الله تعالى،** ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ [سورة الحج: ٣١]. أي مستقيمين على التوحيد، مائلين عن الشرك.

**الخشية:** فقد أفاد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ١] أنه يجب تغليب الخشية على الرجاء؛ لأن الله تعالى أمرهم باتقاء عذابه، ولا يتقى عذاب الله وسخطه إلا بخشيته سبحانه. وأفاد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ أن واجب العبد أن يخشى الله تعالى حق خشيته؛ لأنه الله تعالى وصف نفسه بأنه شهيد على أعمال العباد، وبحسب إحاطة علم الشهيد ترهب شهادته. وذكّر تعالى في مواضع بعلمه المحيط بكل شيء لتنبعث الخشية في النفوس فقال: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [سورة الحج: ٧٠]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾ [سورة الحج: ٧٥ – ٧٦]. كما حرّك دواعي الخوف منه سبحانه

(١) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣١٧)، وبيان المعاني (٦/ ١٦٣).

(٢) ينظر روح المعاني (٩/ ١٢٢).

ببيان كمال قدرته على تعذيب من شاء من عباده فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ [سورة الحج: ١٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ١٨﴾ [سورة الحج: ١٨].

وحين أثنى الله تعالى على المخبتين وصفهم بالخشية ووجل القلوب خوفا من عذابه وهيبة لجلاله وعظمته وكبريائه وعزة سلطانه، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥].

**الصبر**: فقد وصف الله تعالى المخبتين بأنهم يصبرون على ما يصيبهم من الرزايا والمصائب السماوية وما يصيبهم من الشدائد والمشاق في سبيل طاعة الله[(١)]، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥]. وفيها إيماء إلى أن أداء العبادات البدنية والمالية يحتاج إلى الصبر، لأن الله تعالى قدّم الصبر عليها في الذكر فقال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾ [سورة الحج: ٣٥].

وأشار تعالى في آية أخرى أن الإنسان إن لم يصبر على المصائب لله طوعاً صبر عليها كرهاً مع ما يناله من أسباب الشقاء[(٢)]، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [سورة الحج: ١١].

**الشكر**: فقد نبه الله على وجوب شكره تعالى على إنعامه على العباد بإباحة الأنعام وتسخيرها، وذلك بأن نتقرب إليه بذبح بعضها في المواضع التي أمرنا فيها بذلك؛ لأن الله تعالى بين أن علة أمره تعالى بنحر الهدايا هو شكره على ما أنعم به علينا منها، فقال تعالى:

---

(١) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٤٥٩)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤٠١).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٢٢).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٣٤][(١)].

وأومأ تعالى إلى أنه ينبغي شكر الله تعالى على عظيم نعمته على عباده، إذ سخر لهم الإبل مع قوتها وضخامتها وذلّلها لهم، ومكنهم من الانتفاع بها ونحرها[(٢)]، فقال: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الحج: ٣٦]. وفيها أن شكر الله تعالى على نعمه مقصد من مقاصد القربات والعبادات؛ لأن الله جعلها غاية لتسخير الأنعام والتقرب بها إليه تعالى. وأنكر على الإنسان كفرانه للنعم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة الحج: ٦٦].

**الاستسلام لله تعالى:** والمراد به الخضوع لله بالطاعة، والذل له بالإقرار بالعبودية له[(٣)]؛ والانقياد الكلي لأمره، والتسليم لحكمه ظاهرا وباطنا[(٤)]؛ لأن الله تعالى أمر عباده تصريحًا فقال: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ [سورة الحج: ٣٤]. وامتن علينا بالاسم الذي يدل على الاستسلام لله تعالى، فقال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: ٧٨].

**تعظيم الله وحرماته وشعائره:** فقد أنكر الله تعالى على المشركين عدم تعظيمهم له سبحانه، وبين أنه سبب وقوعهم في الشرك الذي تشهد العقول بسخافته، فقال: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الحج: ٧٤]، ودعا سبحانه إلى تعظيم حرماته

---

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٤٧)، والسراج المنير (٢/ ٥٥٣)، وتفسير المراغي (١٧/ ١١٢).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٥١).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٠).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٥)، ونظم الدرر (١٣/ ٤٧ - ٤٨)، وغرائب القرآن (٥/ ٨١)، والسراج المنير (٢/ ٥٥٣).

التي تشمل شرائع الدين كله من الأمر والنهي فقال: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[سورة الحج: ٣٠]. وبين عز وجل أن تعظيم شعائر الحج ومشاهده من علامات التقوى، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢]. وبين أن المقصود من نحر البدن تعظيم الله تعالى وتكبيره فقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٧].

**الإخبات:** وهي منزلة تجمع التواضع لله تعالى، والاطمئنان والسكون إليه عز وجل؛ فقد أفصح الله تعالى بتبشير المخبتين والثناء عليهم فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾[سورة الحج: ٣٤].

**الخشوع:** وما يستتبعه من رقة القلب، وهو مشار إليه في قوله تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾[سورة الحج: ٣٤].

**التوكل:** ففي بعض الآيات دعوة للتوكل على الله والاعتماد عليه من طرف خفي، منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠]. ومنها ما هو يتضمن الدعوة إلى التوكل[1] كقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الحج: ٧٨)، والتوكل على الله والاعتصام به يثمر كفاية الله للمؤمنين ودفاعه عنهم الذي ذكره سبحانه في قوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٨]، (فإن ثمرة الاعتصام به هو الدفع عن العبد، والله يدافع عن الذين آمنوا، فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضي به إلى العطب، ويحميه منه، فيدفع عنه الشبهات والشهوات، وكيد عدوه الظاهر والباطن، وشر نفسه، ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد

(١) وقد قال ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٤٦٠): (وأما الاعتصام به فهو التوكل عليه، والامتناع به، والاحتماء به...). وقال يحيى حقي في روح البيان (٤/ ٢٠٦): (إن التوكل عبارة عن الاعتصام به تعالى في جميع الأمور، ومحله القلب).

انعقادها، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه، فتفقد في حقه أسباب العطب، فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها، ويدفع عنه قدره بقدره، وإرادته بإرادته، ويعيذه به منه)[1].

**الإحسان:** وذلك بأن يعبدوا الله كأنهم يرونه، أو يستحضروا أن الله يراهم ويطلع عليهم وقت عبادتهم إياه، لأن الله قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الحج: ٣٧]. والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، وهذا هو مقام المشاهدة، أو تعبده سبحانه وأنت تستحضر أنه يراك، وهذا هو مقام المراقبة.

**١٣ □ الإيمان بأن لله تعالى سُنناً في الكون لا تتبدل ولا تتخلف.**

ومن هذه السنن:

اختلاف الناس بين أهل هدى وأهل ضلال، مما جعلهم يفترقون إلى ملل كثيرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الحج: ١٧]. وهذه السنّة مشار إليها في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ﴾ [سورة هود: ١١٨ – ١١٩].

ومنها: دفاعه تعالى عن المؤمنين، كما بين ذلك بقوله سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الحج: ٣٨].

ومنها: نصرته تعالى للمجاهدين في سبيله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [سورة الحج: ٣٩ – ٤٠].

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٦٠).

ومنها: إقرارُه تعالى سنة التدافع بين الإيمان والكُفر، والحق والباطل، والخَير والشَّر، والعَدل والظُلم، حيث يدفع ظلم بعض الخلق ببعض، وشر بعضهم ببعض، وإلا لتسلط الطغاة والجبارون، وهدمت المعابد التي يعبد الله فيها، كما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠]. وتفيد أن من السنن التي أجراها تعالى بين الخلق أن يدفع العذاب عن المقصرين بوجود الطائعين، ويدفع عذاب الاستئصال عن الكافرين بالمؤمنين(١).

ومنها: أن الجزاء يكون من جنس العمل، ونجد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [سورة الحج: ٤٠].

ومنها: تمكينه لعباده المؤمنين في الأرض: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤١].

ومنها: إمهالُ العاصين واستدراجُهم والإملاء لهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الحج: ٤٢ – ٤٤]. وبيّن سبحانه أَنه أَمهل كثيرا من القرى الظالم أهلها لعلهم يرجعون عن غَيّهم، ثم أَخذهم بالعذاب في الدنيا، – وإليه مصيرهم – ليعاقبهم في الآخرة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الحج: ٤٨].

ومنها: حلول العقوبات الدنيوية على الكفار والمشركين، ومن ذلك قوله تعالى في الآية المتقدمة: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الحج: ٤٤]. وقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ

(١) ينظر تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٨١)، وتفسير الماتريدي (٧/ ٤٢٤).

مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الحج: ٤٥]، وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الحج: ٤٨].

ومنها: عدم إخلافه لوعده سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الحج: ٤٨] (١).

ومنها: نصرة الله للمظلومين، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ (الحج: ٦٠)، وكما أشار إليه في قوله سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الحج: ٣٩].

ومنها: انتصار الحق والعدل، وهزيمة الباطل والبغي، لأن الله تعالى بعدما وعد بنصرة المظلومين في الآية المتقدمة الذكر قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

وهذه كلها سنن إلهية لا تتبدل ولا تتخلف، كما لا تتبدل السنن الكونية والقوانين المطردة في الخلق التي أشار إلى بعضها، كتعاقب الخلق في أطوار معينة بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [سورة الحج: ٥]، وتعاقب الليل والنهار على مدار شهور السنة، وذلك بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [سورة الحج: ٦٢].

(١) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٧٠).

**١٣ □ الدعوة إلى التفكر في الكون والتأمل في تصريف الله لشؤونه والاعتبار بها.**

وذلك أن الإنسان إذا تدبَّر في نفسه وتفكر في خلق الله من حوله دلّه ذلك على الإيمان بالله تعالى، وأن هنالك يوما آخرا يرجع الناس فيه إلى خالقهم. ولذلك نجد في السورة دعوة مستبطنة إلى التفكر من خلال ما يأتي:

١ – في مطلع السورة نجد الله تعالى وصف مراحل تخلق الجنين المتتالية بدقة بالغة حتى يخرج إلى الحياة طفلا يحيا ما شاء الله تعالى له أن يحيا، ثم يتوفاه الله –سبحانه– عند نهاية أجله، ويوجه الأنظار خلال ذلك إلى ما يعرض للإنسان في أطوار حياته المختلفة من تغير في الجسم والقدرات إلى أن يبلغ إلى أرذل العمر. وقد دلت الآية على أن التفكر في أمر ابتداء خلق الإنسان يقود الإنسان إلى الإيمان بقدرة الله على البعْث.

٢ – ثم نجد الآية تستعرض مشهدا مألوفا، وهو عودة الحياة إلى الأرض القاحلة بعد موتها بالجفاف، بنزول الغيث عليها وما يحدثه ذلك من خروج للنبات واهتزاز للأرض بنمو أنواع مختلفة من النباتات، فيقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾ [سورة الحج: ٥]. ويربط بين تلك المشاهد المعتادة وبين صفاته سبحانه ليستدل الناس منها على قدرة الله على الإحياء بعد الموت، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾ [سورة الحج: ٦ – ٧].

٣ – ثم ينبه على خضوع جميع المخلوقات لله تعالى وسيرها وفق ما أراده سبحانه، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ

وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [سورة الحج: ١٨]. وهذا بناءً على تفسير السجود بمعناه المجازي، وهو لا ينافي حمله على الحقيقة كذلك.

٤ – ثم أومأ إلى التفكر في الأنعام وما جعل فيها للإنسان من نعم، فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤].

٥ – ويوجه الأنظار إلى آية تعاقب الليل والنهار، وإيلاج أحدهما في الآخر، حيث يطول النهار ويقصر الليل في بعض الشهور، ويقصر النهار ويطول الليل في شهور أخرى، ويتقاربان أو يتساويان في وقت آخر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١﴾ [سورة الحج: ٦٢].

٦ – ثم يذكر مرة أخرى بأثر نزول المطر على الأرض واخضرارها بعد يُبسها: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣﴾ [سورة الحج: ٦٣].

٧ – ويلفت الانتباه إلى ما وفق الله خلقه إليه وعلمهم إياه من تسيير السفن في البحار وتسخير لما أودعه في الأرض من خيرات، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٦٥].

٨ – ويذكّر تعالى بأنه جعل السماء بما فيها من كواكب ونجوم سقفًا محفوظا، فلا تسقط على الأرض، وذلك حيث قال: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ [سورة الحج: ٦٥].

٩ – ثم يلفت ربُّنا الانتباه إلى واحد من أصغر مخلوقاته تعالى وأحقرها، وهو الذباب، وبين كيف أنه لا يستطيع أحد أن يخلقه، وأنه لو اختطف شيئا فلا أحد يستطيع أن يسترده منه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [سورة الحج: ٧٣].

وهذا كله ينطوي على توجيه الأنظار إلى الكون، ودعوة الناس إلى التفكر فيه والاستدلال بها على الخالق سبحانه.

**١٤ □ التحذير من كيد الشيطان وجنده لهذا الدين وحملته وأهله:**

فقد بين تعالى في بدايات السورة أن الذي يجادلون في الحق ويخوضون في شأن الله بغير علم إنما يتبعون كل شيطان بعيد عن الله، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ [سورة الحج: ٣]. وفيه إشارة إلى أن دعاة الكفر والضلال قد يبلغون درجة من العتو والإضلال واتباع شيطان الجن حتى إنهم يستحقون أن يلقبوا بالشياطين، ثم بين تعالى أن من اتبع أي شيطان فإنه يَضل في الدنيا ويصلى بعذاب النار في الآخرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [سورة الحج: ٤]. وفي هذا زجر عن اتباع خطوات الشيطان؛ لأن من اتبعه فلا بد أن يأخذه إلى سوء المصير.

ثم يعرض صورة من كيد الشيطان للرسل والنبيين في دعوتهم، وكيف أنه يُلبِّس على أتباعهم، ويلقي الشبهات في قلوبهم، بل ويُسمعهم ما يتوهمون منه أنه من آيات الله، فتنةً واختبارا للعباد، ولكن الله تعالى يثبت دينه، ويُحكم آياته ويبطل ما يلقيه الشيطان: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾ [سورة الحج: ٥٢]. فيفتتن بها الكفار الذين قست قلوبهم، والمنافقون الذين استولى مرض النفاق على أفئدتهم: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ [سورة الحج: ٥٣]. أما المؤمنون فيعلمون أن القرآن والرسول حق، وأن إلقاء الشيطان باطل، فيؤمنون بذلك وتطمئن به قلوبهم[(١)].

وأن الشياطين لا تغني عنهم شيئا ولا ينصرونهم في الدنيا وفي الآخرة.

---

(١) ينظر شفاء العليل (ص: ١٩٢).

ويبين كيف يغتاظ جند إبليس من سماع كتاب الله وهو يتلى وأنهم يكادون يبطشون بمن يقرؤُه ليبطلوا الحق ويمنعوا وصوله إلى الناس فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الحج: ٧٢].

**١٥ ◻ تذكير الناس بنعم الله عليهم وتنبيههم على شكره تعالى عليها.**

فقد ذكر الله تعالى إنعامه على العباد بإباحة الأنعام وتسخيرها لهم، ونبههم على التفكر فيها، فقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤].

وذكرنا تعالى مرة أخرى بتسخير الأنعام، وكيف أنه سخر لنا الإبل مع قوتها وضخامتها وعظم أجسامها، وذللها، ومكننا من الانتفاع بها ونحرها[(١)]، وأومأ تعالى إلى أنه ينبغي شكر الله تعالى على هذه النعمة، فقال: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الحج: ٣٦].

وذكرنا بنعمة الهداية، فقد كرر الله تذكير النعمة بالتسخير ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ﴾. أي شكرا له على هدايته إياكم.

وذكرنا بنعمة الماء وما يحدثه في الأرض بمجرد نزوله من إخراج النبات فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الحج: ٦٣]. وذكرنا بنعمة تسخير الأرض وتذليلها لنا وتمكيننا من الانتفاع بها، وتعليمه إيانا ركوب البحر بتسيير أنواع الفلك فيها، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٥١).

وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٦٥]. وذكّرنا تعالى بأنه حفظنا وحفظ الأرض كلها من أن تسقط السماء عليها بما فيها من كواكب ونجوم فتهلكنا جميعا، فقال: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [سورة الحج: ٦٥].

وذكرنا بالنعم الدينية وهي أعظم النعم، ومن أبرزها أنه جعلنا من هذه الأمة التي اختارها لحمل دينه ونشر رسالته والجهاد في سبيله، وجعلنا سائرين على منهج خليل إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ [سورة الحج: ٧٨]، وأنه سبحانه سمانا بالمسلمين في كتبه، وبوأنا مقام الشهادة على باقي الأمم، ووعدنا بالتولي والنصرة فقال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الحج: ٧٨].

**١٦ ▫ استحباب التقرب إلى الله تعالى بذبح الأنعام والتنبيه إلى أحكامها والحِكَم المقصودة منها:**

فقد تحدثت الآيات أن مقاصد الحج التقرب إلى الله تعالى بذبح الهدي، وذلك حيث قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ﴾ [سورة الحج: ٢٧ – ٢٨]. وتتضمن إشارات إلى مشروعية التسمية عند ذبح الأنعام، وأنه يتقرب بذبحها في تلك الأيام الفاضلة.

ثم بين سبحانه استحباب الأكل من تلك الذبائح، ووجوب التصدق بلحمها وإطعام الفقراء البائسين منها، فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [سورة الحج: ٢٨].

وبين تعالى أنه تعالى أحل لنا بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم في حال الإحرام إلا ما ذكر في آيات أخرى من المحرمات، ومن تحريم الصيد على المحرم[1]. كما قال تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٠].

وأشار تعالى إلى استحباب جعل علامةٍ مميزةٍ للهدايا إعلاماً بأنها هدي، واستحباب اختيار أسمنها وأنفسها، وتفضيل البدن على غيرها من الأنعام، وأن ذلك تعظيم لله الذي يتقرب بها إليه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢]. وامتنّ تعالى عليهم بأنه جعل لهم في الهدايا منافع متعددة، فأباح لهم شرب لبنها، وركوب ظهرها، والانتفاع بصوفها ونسْلها، وبيّن أن ذلك ينتهي حين تبلغ منحرها بمكة أو منى، فتؤكل ويتصدق بلحومها: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الحج: ٣٣].

ثم بين أن ذبح النسك على وجه التقرب إليه تعالى ليس خاصا بالأمة المحمدية، بل هو مشروع في جميع الشرائع السماوية، ولكل أمة مؤمنة ذبائح شرعت ليذكروا اسم الله عند ذبحها ويشكروه على ما رزقهم[2]، وقد عين الله تعالى لكل أمة موضعا يذبحون فيه تلك الذبائح تقربا إليه؛ وكل هذه المعاني يدل عليها قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٣٤]. وفيه ترغيب للمسلمين في التقرب إلى الله بالهدايا والأضاحي، والمسارعة إلى هذه القربة، والاهتمام بها. وفيه تنبيه إلى أن القربان في الهدي والأضاحي لا يكون إلا من الأنعام[3]. ثم بين عز وجلّ أنه لا يجوز أن يذكر على

---

(١) وهو القول الثاني في تفسير الآية، ينظر أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٧٧)، والكشف والبيان (٧/ ٢١)، والهداية (٧/ ٤٨٨٣)، والنكت والعيون (٤/ ٢١).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤٢٤)، وتفسير المراغي (١٧/ ١١٢)، والتفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٤٥).

(٣) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٢١)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٥)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٦)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٥٧).

الذبائح إلا اسم الله وحده، فقال بعدها: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤].

ثم بين تعالى أن ذبح البُدْن من أعلام دين الله وشريعته[(١)]، وأكد أن لهم فيها منفعة في الدنيا والآخرة، حيث قال: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الحج: ٣٦]. وأمر بذكر اسمه سبحانه عند النحر، ونحرها مصطفّة قائمة، فقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ﴾ [سورة الحج: ٣٦]، ثم أباح للحجاج الأكل من الهدايا وأمرهم بإطعام السائلين والمتعففين، فقال: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ﴾ [سورة الحج: ٣٦]. وأن ذبحها هو شكر لله تعالى على تسخيرها لهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الحج: ٣٦].

وحذر الله تعالى المسلمين من فعل ما كان يفعله المشركون من تقطيعهم للُّحوم ونشرها حول الكعبة، وتلطيخها بالدماء، وبين أن المعتبر ليس هو صورة نحر البدن، وإنما هو ما تنطوي عليه القلوب من إخلاص لله وتعظيم لشعائره، فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الحج: ٣٧].

ولا أُرى أن في القرآن سورة تعدل سورة الحج في أمر التقرب بذبح الأنعام في الهدايا والأضاحي.

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٥٣)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤٠٨)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٨٦)، والكشاف (٣/ ١٥٨).

**١٧ – التنبيه على أسس الدعوة إلى الله وبعض القواعد والأساليب الدعوية التي يلزم الدعاة أن يتقيدوا بها:**

تضمنت سورة الحج كثيرا من القضايا المتعلقة بالدعوة إلى الله تعالى، فقد أشارت إلى وسائل الدعوة، فأشارت إلى وسيلة التبليغ القول في قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الحج: ٤٩][(١)]، وأشارت كذلك إلى منهج تلاوة آيات القرآن الكريم على المدعوين في قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ [سورة الحج: ٧٢]. وأومأ إلى الجدال بالتي هي أحسن في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الحج: ٦٨]. ولمّح إلى استفراغ الوسع في مجاهدة المخالفين بجميع الوسائل، ومنها مجادلتهم بالحجة والبرهان في قوله عزّ من قائل: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٧٨].

كما أشار سبحانه إلى أن الدعوة إلى الله تعالى تتوخى أمرين عظيمين: الأمر بجميع أنواع المعروف وعلى رأسها توحيد الله وتقواه وإفراده بالعبادة، والنهي عن جميع المنكرات، وعلى رأسها الكفر بالله والإشراك به، ولذلك قال تعالى في صفة من ينصرهم ويمكن لهم في الأرض: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة الحج: ٤١].

كما تضمنت سورة الحج بعض القواعد التي يلزم الدعاة أن يتقيدوا بها؛ ففي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحج: ١٦] إشارة إلى قاعدة لا بد أن يستحضرها كل داعية، وهي أنه ليس على الدعاة إلى الله إلا البلاغ ودلالة الناس على الحق، أما هداية التوفيق فهي بيد الله تعالى وحده، فما يجب على الداعية إلا تبليغ أمر الله وفق المنهج الذي بينه الله، أما أمر الاهتداء فهو موكولٌ إليه سبحانه[(٢)].

---

(١) ينظر الدعوة إلى الله في سورة الحج (ص ٢١٠).

(٢) ينظر الفواتح الإلهية (١/ ٥٥٠).

ومن القواعد التي يلزم على الداعية أن يستحضرها: أن طريق الدعوة إلى الله محفوف بالمكاره، مملوء بالأشواك، وأنه مع ظهور حجته وسطوع براهينه التي تتضمنها الآيات البينات لا بد أن يلاقي في طريقه المعاندين والمكذبين والمرائين والمتثاقلين والمكابرين والمقلدين والمجادلين في الحق بغير حجة. وهذا ما أشارت إليه الآيات التي تعدد أصناف المدعوين، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ [سورة الحج: ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الحج: ٨ – ٩].

وكذلك أشار تعالى إلى أن الداعية عليه أن يوطن نفسه على معارضة الكفار ومنازعتهم ومجادلتهم، وألا يضعف أمامهم ويستكين لهم، وأن يواصل دعوته إلى الله ذاكرًا أنه على الحق المبين والطريق المستقيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝٦٧﴾ [سورة الحج: ٦٧].

وأرشد سبحانه الدعاة أن لا يجادلوا من جادل على سبيل التعنُّت والمراء، وأن يدفعوا مجادلتهم إياهم بهذا القول الذي علّمه الله سبحانه لنبيّه عليه السلام[1]: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٦٩﴾ [سورة الحج: ٦٨ – ٦٩].

ويشير تعالى إلى أن من الناس من يصدون غيرهم عن سبيل الله ويمنعونهم من عبادة ربهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [سورة الحج: ٢٥]. وتبلغ بهم العداوة للدين وأهله أن يقاتلوا المؤمنين ويخرجوهم من بلادهم وممتلكاتهم بغير ذنب فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [سورة الحج: ٣٩ – ٤٠].

---

(١) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٣٣)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٩٤).

وعلى الداعية أن يصبر ويُوَطِّن نفسه لجميع أنواع التضليل والتشويه، حتى إنه ينسب له ما لم يقله، ويفترى على كتاب الله ما ليس منه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ [سورة الحج: ٥٢]. وأنهم قد يستعملون القوة ويبطشون بالدعاة لمجرد إسماعهم بعض الآيات أو إظهار بعض الحجج البينات: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ [سورة الحج: ٧٢]. وفي هذه الآية إرشادٌ للداعية إلى الصبر على الأذى، والحذر من الكفّار، وعدم الكفّ عن الدعوة وبيان الحق، مع ما يظهره المكذبون من حنَق وتوفُّز للعدوان.

ومنها أن عليه أن يطمئن إلى أن الله تعالى معهم، يسمع أقوال أعدائهم، ويبصر أذاهم، ولن يتخلى عنه، كما أومأ تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾ [سورة الحج: ٧٥].

وأن يتوقع أن بعض من يكون معه قد ينقلب على عقبيه ويفتتن بوساوس الشيطان وشبهه، وذلك مشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [سورة الحج: ١١]. وفي قوله: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣﴾ [سورة الحج: ٥٣].

وعليه ألا يطمع في إيمان جميع الناس، فإن طائفة منهم سينكرون الحق على وضوح براهينه، ويظلون مرتابين فيه إلى أن يهلكوا: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٖ ٥٥﴾ [سورة الحج: ٥٥].

ومن القواعد التي يجب على الداعية استحضارها أن الله تعالى سيظهر دينه، وسينصر جنده عاجلا أو آجلا إن هم نصروا دينه وبذلوا غاية وُسعهم في ذلك، وهذا ما أشار إليه

تكرير الوعد بالنصر في عدة آيات، كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحج: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [سورة الحج: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الحج: ٣٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠ – ٤١].

ومنها أن يتذكر الداعية أن وظيفته إنما هي بيان رسالة الله إلى الناس، وما يتبع ذلك من البشارة والنذارة، لا حمل الناس على اعتناق الدين قسرا، كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الحج: ٤٩].

وأرشدنا الله تعالى من خلال هذه السورة إلى أن من أساليب الدعوة والتأثير على النفوس مزج الحكَم بالموعظة، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سورة الحج: ٣٠ – ٣١]، وهذه حكمة، ثم قال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الحج: ٣١]، وهذا تمثيل يراد به موعظة النفوس بما يزجرها عن الشرك[(١)].

وأومأ تعالى إلى أن الداعية ينبغي أن يكون رؤوفا رحيما بمن يدعوهم، مع جحودهم وعصيانهم لله ووقوعهم في الموبقات وتكذيبهم بآيات الله؛ لأنه تعالى يرأف بهم ويرحمهم، فيوالي عليهم نعمه، ويدفع عنهم نقمه، مع جحودهم لنعمه العظيمة وظلم أكثرهم لأنفسهم، وقد

(١) ينظر تفسير ابن باديس (ص: ٣٢٣). وقد عرف "الحكمة" بأنها هي العلم الصحيح الثابت، المثمرُ للعمل المتقَن المبنيّ على ذلك العلم (ص: ٣٢٠)، وعرف الموعظة بأنها الكلام الملين للقلب، بما فيه من ترغيب وترهيب فيحمل السامع – إذا اتعظ وقبل الوعظ، وأثر فيه– على فعل ما أمر به وترك ما نهي عنه (ص: ٣٢٢).

مدح نفسه سبحانه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الحج: ٦٥]، وذلك حتى يتخلق الداعية بهاتين الصفتين.

وفي إذنه تعالى للمؤمنين بقتال الكفار قبل أن يفرضه عليهم إيماءٌ إلى أن المربي إذا أراد أن يربي المدعوين على أمر شاق على النفوس فعليه أن يسلك مسلك التدرج حتى يستأنسوا به ويتعودوا عليه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ [سورة الحج: ٣٩].

وفي آخر السورة نجد الله تعالى يرشدنا إلى التلطف في مخاطبة المكذبين، والإعراض عن مجاوبة من يجادلنا منهم، إذا اتضح أنهم لا يبحثون عن الحق، ولا يريدون قبوله ولو تبين لهم بجلاء، ويأمرنا بأن نتركهم على حالهم ونكل أمرهم إليه تعالى، ليحكم بيننا وبينهم في يوم الفصل، وذلك كله في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الحج: ٦٨ – ٦٩]. كما يفيد أن يفوض الداعية أمر الدعوة إلى الله تعالى فهو الذي يحفظها مما يُحاك لها، لأنه تعالى يعلم مكايد المجادلين ويحيط بنياتهم. كما يفيد أن الداعية عليه أن يتجنب مقابلة المنكرين بالسوء حتى لا يزدادوا نفورا.

ويرشدنا إلى تحذيرهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، فيقول: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الحج: ٧٢].

وأرشدت السورة الداعية إلى أن يستعمل أسلوب ضرب الأمثال بين الفينة والأخرى، لبيان ما يريد بيانه، لأنه من الأساليب التعليمية الناجعة القريبة إلى الأفهام[(١)]، ولذلك ختم الله به استدلاله على بطلان الأوثان في هذه السورة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ

(١) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٥٠٠)، والمختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٣٤١).

لَهُۥۚ﴾ [سورة الحج: ٧٣]. كما استعمل التشبيه التمثيلي في بيان أهوال يوم القيامة، وبيان حال من يعبد الله على حرف، وبيان حال المشرك بالله[١].

وكذلك أرشدنا الله في هذه السورة وغيرها إلى الجمع بين الترغيب والترهيب لمعالجة نوازع النفوس المختلفة؛ إذ نجده سبحانه بعد ذكر العذاب يذكر النعيم، فيقول: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾ [سورة الحج: ١٩ – ٢٢]. ثم يتبعه ببيان بعض ألوان النعيم فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾ [سورة الحج: ٢٣ – ٢٤].

وبعد ذكر ثواب المؤمنين يذكر عقاب المعارضين لآيات الله تعالى فيقول: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾ [سورة الحج: ٥٠ – ٥١]. ويقول في موضع آخر: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾ [سورة الحج: ٥٦ – ٥٧].

كما نبه إلى أسلوب النداء المباشر، الذي يلفت المدعوَّ إلى ما يقوله الداعية، حيث استعمله في مخاطبة الخلق عند أمرهم بالتقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ١]، وعند أمرهم بعبادته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧﴾ [سورة الحج: ٧٧]، وعند إثبات عقيدة البعث: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) ينظر مطلب أسلوب التصوير في المبحث الثالث من الفصل الثاني.

ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ٥]، إلى غير ذلك[(١)].

وكذلك نبه على أسلوب الاستفهام التقرير الذي تكرر في عدة آيات، إيقاظا للعقل وإثارةً لانتباه المخاطب عن القضية المستفهم عنها، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [سورة الحج: ١٨]، وقوله سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ﴾ [سورة الحج: ٦٣]، وقوله عز وجل: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ [سورة الحج: ٦٥][(٢)].

وهذه كلها قواعد وأساليب على الداعية إلى الله تعالى أن يلتزم بها لتؤتي الدعوة أكلها، وتحقق مطلوبها.

**١٨ ◻ التحذير من عاقبة الظلم وبيان مصير الظالمين.**

لقد بين الله تعالى أنه يعاقب الذين ظلموا أنفسهم فجادلوا في الله بغير حجة، وذلك في الدنيا، فينزل بهم الخزي والهوان من العقوبات، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ [سورة الحج: ٨ – ٩][(٣)].

وتوعد من أراد ميلا إلى أي صورة من صور الظلم في البلد الحرام بالعذاب الشديد فقال: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٢٥﴾ [سورة الحج: ٢٥].

---

(١) ينظر الدعوة إلى الله في سورة الحج (ص ٢٢١ – ٢٢٥).

(٢) ينظر المرجع السابق (ص ٢٢٩ – ٢٣٣).

(٣) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٣١).

ووعد المظلومين بالنصرة على من ظلمهم، إذا اتخذوا الأسباب لرفع الظلم عنهم[1]؛ فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الحج: ٣٩]. وفي الآية تحريض على انتصار المظلوم من الظالم. وقال في آية أخرى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة الحج: ٦٠].

وحذّر الله تعالى من عاقبة الظالمين وأنه يعجل لهم العقوبة في الدنيا ولو طال إمهالهم، فقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الحج: ٤٥]، ورهّبهم من العذاب الدنيوي والأخروي فيقول: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الحج: ٤٧ – ٤٨].

وبيَّن تعالى سوء حال الظالمين وبعدهم عن الحق واختلافهم فيما بينهم، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الحج: ٥٣].

وبيَّن عز وجل أنه ليس للظالمين من يمنعهم من عذاب الله فقال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ [سورة الحج: ٧١].

وهذه الآيات كلها تنطوي على التحذير من جميع صور الظلم، سواء كان ظلمًا للنفس بالوقوع في الشرك والكفر وارتكاب المعصية، أمْ كان ظلمًا للعباد.

**١٩ □ الندب إلى ذكر الله تعالى ببيان فضله:**

لقد تنبه الإمام الزمخشري إلى هذه الهداية الكلية فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩

(١) ينظر تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٣٥).

﴿٧٧﴾[سورة الحج: ٧٧]: (للذكر شأن ليس لغيره من الطاعات، وفي هذه السورة دلالات على ذلك)[(١)].

ومن هذه الدلالات الجزئية أن الله تعالى أشار إلى فضل الذكر؛ وأنه وفق أهل الجنة للقول الطيب في حياتهم الدنيا فقال تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [سورة الحج: ٢٤]، وعلى رأسه كلمة التوحيد وسائر ما فيه ذكر الله تعالى[(٢)].

وبين تعالى أن من مقاصد الحج أن يذكر الحجاج ربهم في تلك الأيام، ولوّح باستحباب الإكثار من الذكر في الأيام المعلومات على اختلاف المفسرين في تعيينها[(٣)]، واستحباب التحميد والتهليل والثناء على الله، شكرا له ما على رزقنا من الأنعام؛ فقال: ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ [سورة الحج: ٢٨].

ونبه تعالى على أن المقصود الأصلي من الأضاحي تذكُّره عز وجلّ عند ذبحها، وذكر اسمه عليها، فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤].

وأومأ إلى أن المؤمنين المتصفين بالإخبات لله تعالى يتأثرون عند ذكرهم لله أو سماع الذكر الحكيم فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾[سورة الحج: ٣٤ – ٣٥].

وأومأ الله تعالى إلى أن الذكر باللسان من الشكر؛ فقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾ [سورة الحج: ٣٧].

---

(١) الكشاف (٣/ ١٧٢).

(٢) ينظر البحر المحيط في التفسير (٧/ ٤٩٨)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٠٨)، وروح المعاني (٩/ ١٣١).

(٣) حكى ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٣٣) في ذلك ستة أقوال: أحدها: أنها أيام العشر. والثاني: تسعة أيام من العشر. والثالث: يوم الأضحى وثلاثة أيام بعده. والرابع: أنها أيام التشريق. والخامس: أنها خمسة أيام، أولها يوم التروية. والسادس: ثلاثة أيام، أولها يوم عرفة.

وأشار تعالى إلى أن المقصود من بناء تلك المعابد هو أن يذكر الله فيها، وأن المساجد أعظمها عمارة بأنواع الذكر المختلفة، وعلى رأسها الصلاة، فقال: ﴿وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۚ﴾ [سورة الحج: ٤٠].

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧﴾ [سورة الحج: ٧٧]: دعا الله المؤمنين أولا إلى الصلاة التي هي ذكر خالص، وقدمها على سائر العبادات والخيرات[(١)]. ولا شك أن الصلاة من أعظم أنواع الذكر، فقد قال تعالى: وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي. وقال: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٥]، وكان الإمام ابن تيمية يقول: الصحيح أن معنى الآية أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر: الأول: أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، والثاني: أنها تشتمل على ذكر الله تعالى، ولَمَا فيها من ذكر الله أعظمُ من نهيها عن الفحشاء والمنكر[(٢)].

**٣٠ ◻ بيان شرف الصلاة والدعوة إلى إقامتها وتوفية أركانها:**

فقد أثنى الله تعالى على المخبتين، فوصفهم بالمداومة على إقامة الصلاة، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾[سورة الحج: ٣٤ – ٣٥]. وفيها دلالة على فضيلة أداء الصلوات المفروضة على وجه الكمال، وإدامتها، والمحافظة على وضوئها، ومواقيتها، وتوفية شرائطها

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٧٢)، والبحر المديد (٣/ ٥٥٧).

(٢) ينظر مدارج السالكين (٢/ ٣٩٨).

وأركانها وسننها، وإيماءٌ إلى أن الصلاة أشرف الطاعات البدنية التي تؤدى بالجوارح[1]؛ لأن الله تعالى خصها بالذكر دون سائر العبادات البدنية.

ونبهنا الله تعالى إلى أعظم أركانها التي لا تصح الصلاة إلا بها، وهو القيام والركوع والسجود فقال مخاطبا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الحج: ٢٦][2]، وأمرنا بالركوع والسجود خاصة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ [سورة الحج: ٧٧].

ودلّنا على منزلة المعابد التي تؤدى فيها الصلاة في مختلف الشرائع ووجوب حمايتها وصيانتها فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [سورة الحج: ٤٠] ومن المفسرين من حمل قوله ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ على صلاة كل أمة بحسب شريعتها، وأن المراد: مواضع صلوات[3].

وبين تعالى أن أهل الإيمان حين ينصرهم الله ويمكنهم في الأرض فإنهم يسعون عند تمكينهم إلى إقامة الصلاة في الناس فقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠ – ٤١]. وفيها إشارة إلى أن المطلوب من فعل الصلاة توفية حقوقها وشرائطها.

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٨٥)، وتفسير الرازي (١١/ ٢٦٥)، وغرائب القرآن (٥/ ٨١)، وتفسير آيات الأحكام للسايس (ص: ٥٠٨).

(٢) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١٧)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٧)، والبحر المحيط (٧/ ٥٠١). وقال البيضاوي في تفسيره (٤/ ٦٩): (ولعله عبر عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك، كيف وقد اجتمعت؟).

(٣) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥١٨)، والدر المصون (٨/ ٢٨٥).

وقال تعالى في ختام السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ [سورة الحج: ٧٧]. وقال في الآية التي بعدها: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [سورة الحج: ٧٨]، فقدم الصلاة على الزكاة. وتدل هذه الآيات على عظم شأن الصلاة وشرفها، فإن الله تعالى قدم ذكرها على غيرها من الطاعات في جميع المواضع، واختصت بالتقديم لأنها عمود الدين، ولا تخلو شريعة سماوية من الأمر بالصلاة وإن اختلفت هيئاتها، لأنها هي الصلة بين العبد وربه سبحانه، ولأنها العبادة التي تنصرف فيها النفس والجوارح إلى الله وحده، ويلهج فيها اللسان بذكر الله تعالى في كل حركة منها؛ ولأنها إذا أديت على وجهها من حضور قلب، ومراقبة لله فيها، فإنها تقذف في القلب نورا يجعله يبصره بقبح المعاصي، فيهجرها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٥].

### ٣١ ▫ بيان فضل المسجد الحرام والدعوة إلى تعظيمه وتطهيره والعناية به وعمارته بالطاعات:

فقد بين الله تعالى أنه أظهر مكانه لإبراهيم عليه السلام وأمره ببنائه، وجعله بيته للناس في الأرض، ومحج الناس من كل حدَب وصوب.

وبين أنه أمره بتطهيرها من الشرك والأقذار الحسية والمعنوية من أجل العابدين لله تعالى بالطواف والاعتكاف والصلاة، فقال: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾ [سورة الحج: ٢٦].

وذم تعالى الذين يصدون الناس عن زيارته والحج إليه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ [سورة الحج: ٢٥]. بل إن الله تعالى توعد من هم بارتكاب المعصية فيه وفيما يحيط به من أرض

الحرم، فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥].

وسمّاه تعالى في آيتين اثنتين بالبيت العتيق، وأمر في إحداهما بالطواف به طوافَ الإفاضة الذي لا يصح الحج إلا به، فقال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الحج: ٢٩]، وفيها إشارة إلى أن المسجد الحرام أقدمُ مساجد الله وأعتقها[(١)]، فهو أول بيت وضع للناس في الأرض، وقد أعتقه الله من عدوان الكفار من جبابرة الأرض، فلم يقصده جبار بمكيدة إلا قصمه الله تعالى، ولم يرده أحد بسوء إلا هلك. وليس لأحد فيه شيء، ولم يدّعه أحد من الناس قط[(٢)].

وفي الآية الثانية بيّن تعالى أن الطواف بالبيت الحرام عنده تنتهي شعائر الحج، فعند طواف الإفاضة يوم النحر يحل الناس فيه من إحرامهم ويحل لهم كل شيء من ممنوعات الحج، وتختتم المناسك بطواف الوداع، فقال: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الحج: ٣٣].

وأشار إلى أنه يجب أن يحمى من الهدم الحسيّ والمعنوي، فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [سورة الحج: ٤٠]. ولا شك أن المسجد الحرام هو أول المساجد وأعظم المعابد، كما أفصح به قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة آل عمران: ٩٦].

---

(١) وهو مروي عن ابن زيد والحسن البصري، ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٣١)، وتفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٩٠، رقم ١٣٩٠٨).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٠)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٧٥).

**٢٢ ◻ تشريع القتال في سبيل الله لإعلاء دين الله ورفع الظلم عن عباده المستضعفين:**

فقد جاءت الآيات في سورة الحج مبينة مشروعية القتال الدفاعي والرد على من بدأ بالعدوان؛ وتقرر حق المسلمين في الدفاع عن أنفسهم ودينهم ضد كل اعتداء، وتؤذن بأن المسلمين لا يطلبون الحرب ابتداء، وإنما يردون على من بدأهم بالعدوان بشكل من الأشكال، وذلك حيث قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [سورة الحج: ٤٠]. وفي الآية إشارة إلى تحفيز المسلمين على قتال الظالمين وفق ضوابط مرعيّة، وحثٌّ على اتخاذ الأسباب وإعداد القوة وحشد القدرات من أجل ذلك.

وبيَّن تعالى أنه يدفع ظلم الكفار بجهاد المؤمنين لهم، وأن الغرض من القتال ينبغي أن يكون – بعد دفع الاعتداء والظلم واستتباب الأمن – حماية الشرائع السماوية، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل ونصرة المستضعفين[1]، فقال: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾ [سورة الحج: ٤٠]. وفيه دليل على أن القتال في سبيل الله كان مشروعا في الشرائع السابقة.

ووعد عباده الذين يقاتلون من أجل رفع الظلم وإعلاء كلمة الله تعالى بالنصر والتمكين، فقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [سورة الحج: ٤٠ – ٤١].

وبين أنه لا حرج عليهم في معاقبة المعتدين ومقابلتهم بمثل عدوانهم، وأنه سينصرهم على أعدائهم ما لم يبغوا ويتجاوزوا حدود الله في ذلك فقال: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾ [سورة الحج: ٦٠].

---

(١) ينظر تفسير المنار (١١/ ٢٢٩).

ودعا تعالى عباده في آخر السورة إلى بذل غاية الوسع في الجهاد، ويشمل ذلك جهاد أعداء الله تعالى، فقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٧٨].

**٢٣ □ الدعوة إلى الاقتداء بإبراهيم عليه السلام الذي جعله الله إماما للناس وأبا للرسل والأنبياء:**

فقد ذكر الله تعالى كيف اختصه تعالى فأمره ببناء الكعبة وتطهيرها للمصلين والطائفين والعاكفين، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الحج: ٢٦]. ويدل ذلك على عظيم منزلة إبراهيم عليه السلام عند الله تعالى لأنه خصه بشرف بناء بيته ورفع قواعده، فبوأ مكانه له.

ثم بين ما له من شرف ومكانة عند الله[(١)]، حين اختصه – عز وجلّ- بهذا الأمر، وجعله ينادي في الناس بالحج، كما بينه تعالى بقوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الحج: ٢٧].

ثم ختم السورة بالأمر باتباع ملته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [سورة الحج: ٧٧ – ٧٨]. وسماه هنا أبًا لنا، دلالة على ما يلزمنا تجاهه من إجلال وتوقير وحفظ حرمة، كشأننا مع آبائنا من النسب.

وقد قص الله علينا في كتابه العزيز خبر إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه ومع زوجه وأولاده، وفي هذه القصص عبر ودروس عظيمة للمسلمين في كثير المناحي.

**٢٤ □ تبشير المؤمنين بثمرات الإيمان في الدنيا والآخرة:**

وردت في سورة الحج آيات متعددة تتضمن آثار الإيمان التي يُكرم بها الله المؤمنين في الدنيا والآخرة[(١)]. ومن ذلك:

(١) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٥٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٨)، والتيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٧٢).

- مدافعة الله تعالى عن المؤمنين: كما قال سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ [سورة الحج: ٣٨].

- ولايته لهم ونصرته لهم على أعدائهم: كما قال سبحانه: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾.

- بعث الطمأنينة في قلوب أهل العلم من المؤمنين: كما قال سبحانه: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [سورة الحج: ٥٤].

- هدايتهم إلى الصراط المستقيم: كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [سورة الحج: ٥٤].

- هدايتهم إلى الكلام الطيب، وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾ [سورة الحج: ٢٤].

أما ثمرات الإيمان في الآخرة، فمنها:

- دخول الجنة: وقد قرر سبحانه هذا الثواب العظيم في أكثر من آية، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ [سورة الحج: ١٤]، وقال في آية أخرى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦﴾ [سورة الحج: ٥٦]. وذكر ما يتنعمون به فيها من ألوان النعيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [سورة الحج: ٢٣].

- غفران الذنوب: كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠﴾ [سورة الحج: ٥٠].

---

(١) ينظر الدعوة إلى الله في سورة الحج (ص ١٦٤ - ١٦٥).

**٢٥ ترهيب العباد من عواقب الشرك والكفر في الدنيا والآخرة:**

كما وردت في سورة الحج آيات تتضمن ثمرات الإيمان، فقد جاء في مقابلها آيات تتضمن الترهيب من عواقب الشرك في الدنيا وفي الآخرة[(١)]، ومن ذلك:

- خذلان الله تعالى للمشركين: فلا يوجد من ينصرهم ولا من يدفع عنهم، وآلهتهم الباطلة لا تغني عنهم شيئا، لذلك يقول الله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١﴾ [سورة الحج: ٧١]. وحين يأتون يوم القيامة يكتشفون أن ضرر عبادته لغير الله أعظم وأكبر، قال سبحانه: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾ [سورة الحج: ١٢ – ١٣].

- التمزق النفسي والتعرض للآفات والرزايا: قال تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [سورة الحج: ٣١].

- قسوة القلوب وحيرته واضطرابه: قال تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣﴾ [سورة الحج: ٥٣].

- عمى البصيرة وغفلتها عن آيات الله: قال الله عز وجل: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [سورة الحج: ٤٦].

- الهوان والذلة: فقد قال تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ١٨﴾ [سورة الحج: ١٨]. وقال تعالى في شأن المجادل المضل عن سبيل الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ

(١) ينظر الدعوة إلى الله في سورة الحج (ص ١٩٤ – ١٩٥).

عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحج: ٨ – ٩].

– الشك الملازم للقلوب: قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة الحج: ٥٥].

– بغض الله لهم: فإن الله تعالى أخبر أنه لا يحب الكفور فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الحج: ٣٨].

– الانحطاط في الفكر وسخافة العقل: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الحج: ٧٣].

– تعجيل العقوبات الدنيوية: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الحج: ٤٢ – ٤٤]. وقال عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الحج: ٤٨].

– خسارة الدنيا والآخرة معًا: فقد وصف الله من ارتد عن دينه تعالى فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الحج: ١١].

– العذاب الأخروي: فقد أعد الله نار جهنم للمشركين: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الحج: ٧٢]، وفصل في ألوان العذاب للكافرين: ﴿* هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ

﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحج: ١٩ – ٢٢].

**المطلب الرابع: الهدايات الكلية المستخرجة من آية أو جملة من سورة الحج:**

والمراد بهذا النوع المعاني الكلية التي وردت في آية أو جزء من آية من آيات السورة، ولم يتكرر ذكره في تلك السورة بعينها، ولكن تواردت على ذلك المعنى الكلّي آيات متعددة في القرآن الكريم.

وقد جاءت في ختام هذه السورة آية جامعة، جمعت جميع الواجبات والمستحبات، وهي قوله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة الحج: ٧٧]. والخير يشمل الصالحات كلها، الواجب منها والمستحب، ولذلك قال العلامة ابن تيمية: "فهذه الآية وما بعدها لم تترك خيراً إلا جمعته، ولا شراً إلا نفَتْه"(١).

ونستخرج منها أربع هدايات كلية:

**الهداية الكلية الأولى: عبادة الله تعالى بجميع أنواع العبادات:**

فقد قال الله تعالى في خاتمة هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ [سورة الحج: ٧٧]. وهذه الآية (جامعةٌ لأنواع العبادات) (٢)، شاملة للتقرب إلى الله بفعل جميع المأمورات، واجتناب جميع المنهيات(٣). والأمر بالعبادة بعد الأمر بالصلاة إنما هو من قبيل ذكر العام بعد الخاص.

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٦٦).
(٢) فتوح الغيب (١٠/ ٥٣٧).
(٣) ينظر اللباب (١٤/ ١٥٥).

وقوله تعالى ﴿ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ [سورة الحج: ٧٧] يعمُّ العبادات كلها، فالعبادة تشمل ما تقدم ذكره من الصلاة والزكاة، وتشمل الصوم والحج، والكفارات والنذور، والزكاة، والصدقات المنثورة، وغيرها من أنواع القربات، ويزيد عليها كذلك (كلُّ عمل وكلُّ حركة وكلُّ خالجة يُتوجّه بها الفرد إلى الله؛ فكل نشاط الإنسان في الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادةٍ متى توجه القلب به إلى الله، حتى لذائذه التي ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب له بها حسنات. وما عليه إلا أن يذكر الله الذي أنعم بها، وينوي بها أن يتقوى على طاعته وعبادته فإذا هي عبادات وحسنات)[(١)]. وعليه فإن الآية توسع مجال العبادة لتشمل أعمال الإنسان كلها، ويكفي أن يقصد بعمله وجه الله تعالى وامتثال أمره، فيصير عبادةً لله، فالعامل في مصنع أو في متجر أو فلاحة الأرض إذا قصد وجه الله ونفع الناس، يكون في عبادة مستمرة[(٢)].

ومن هنا عرف الإمام ابن تيمية – رحمه الله – العبادة بأنها: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)[(٣)].

فعبادة الإنسان لله هي: خضوعه الإرادي الشامل وطاعته الإرادية المطلقة له سبحانه، فإذا اقترن هذا الخضوع الإرادي بأي تصرف من تصرفات الإنسان الاختيارية أو الاضطرارية فإنه يصبح عبادة لله عز وجل؛ لأنه ابتغى به وجهه، وجاء على وفق رضائه، ومن هنا كان بإمكان المسلم أن يجعل حياته كلها عبادة، حتى عاداته وغرائزه من طعام وشراب ولباس وسكن ومتعة في هذه الحياة. وفي الحديث الشريف: ((وفي بضع أحدكم صدقة) قالوا: يا رسول الله

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٤٥).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠٣٤).

(٣) العبودية (ص: ٤٤).

أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر))[1].

وفي المقابل إذا فارق هذا الخضوع الإرادي أي تصرف من تصرفات الإنسان فإنه يفقد وصف العبادة، ولو كان صلاة أو صياما أو حجا، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى))[2].

**الهداية الكلية الثانية: فعل جميع أنواع الخيرات:**

فقد أمر الله سبحانه وتعالى بفعل الخير أمرا مطلقا غير مقيد ولا محدود، فقال تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾ [سورة الحج: ٧٧]. أي: والخير هو كل عمل نافع للناس قولا وفعلا[3]، وكلما كان النفع أكبر كانت الخيرية أعظم[4]، وفعل الخير هو أعم من الطاعة الواجبة والمندوبة[5]، وهذه الآية الكريمة عامة في أنواع الخيرات[6]، والخير يشمل الصالحات كلها، الواجب منها والمستحب، ولذلك قال العلامة ابن تيمية: (فهذه الآية وما بعدها لم تترك خيراً إلا جمعته، ولا شراً إلا نفَتْه)[7].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الزكاة، باب بيان إن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، ح ١٠٠٦، ٢/ ٦٩٧ – ٦٩٨).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) التفسير الحديث (٦/ ٨٧).

(٤) زهرة التفاسير (٩/ ٥٠٣٤).

(٥) فتح القدير (٣/ ٥٥٦).

(٦) الجواهر الحسان (٤/ ١٣٨).

(٧) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٦٦).

(والإطلاق يفيد الحثّ على عمل الخير في كل ظرف، ولكل الناس، بدون قيد وشرط)[1].

ويندرج في الخيرات كل ما وراء العبادات: صلة الأرحام، وعيادة المرضى، وحسن المعاملة، والإحسان إلى الناس بالقول والعمل، والإنفاق في وجوه البر، وسائر مكارم الأخلاق[2]، والحكم بين الناس بالعدل، ومن أداء الأمانات إلى أهلها[3]، ويندرج فيها – بل يُعَدّ من أعظمها – الرأفة والشفقة على خلق الله، ومواساة الفقراء وأهل الحاجة[4]، إلى غير ذلك مما هو خير وحسن، ومعروف. سواء كانت بنية أم بغير نية، حتى يكون ذلك لكم عادة، فيخف عليكم عمله لله[5].

ولقد تكررت الدعوة إلى التسابق في فعل الخيرات والثناء على المسارعين إلى ذلك في آيات عديدة. منها قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [سورة البقرة: ١٤٨]. وقوله تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ١١٤]، وقوله تعالى موجبا للدعوة إلى الخير: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٠٤][6].

وهناك أحاديث نبويّة صحيحة كثيرة جدا في الحضّ على الصبر والعفو وتحمّل الأذى وقضاء حوائج الناس ونصر المظلوم والذبّ عن المسلمين وستر عوراتهم والصدق والوفاء والرفق

---

(١) التفسير الحديث (٦/ ٨٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٦).

(٣) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١١٠٤).

(٤) الجواهر الحسان (٤/ ١٣٨).

(٥) نظم الدرر (١٣/ ١٠٠).

(٦) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١١٠٤).

والحياء والتواضع وحسن الخلق والمعاملة الحسنة مع الناس والسخاء والكرم والشكر على المعروف والنصح للناس والعدل.

وحبّ المسلم لأخيه ما يحبّه لنفسه والبرّ بالآباء والأقارب والضعفاء والمساكين واليتامى والجيران، وغيرها مما يدخل في شمول كلمة الخير.

**الهداية الكلية الثالثة: الاجتهاد في طاعة الله ونصرة دينه ومجاهدة ما يصرف الإنسان عنها من أعداء الدين الظاهرة والباطنة:**

فقد قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٧٨]، ومعنى حق جهاده المبالغة في الأمر بهذا الجهاد[(١)].

وهذا التعبير شامل جامع دقيق، ولا ينحصر الجهاد في قتال الكفار، وإنما يشمل جهاد النفس، وجهاد الشر والفساد، وجهاد الأعداء[(٢)]. والأعداء أصنا ف متعددون، يتقدمهم شياطين الجن، ثم يتلوهم الأعداء من الإنس، من الكفار، والظلمة والفساق، والمبتدعة، والمنافقين.

والآية تدل على الأمر بالجهاد على أتم وجه بأن يكون خالصا لله تعالى ولا يُخشى فيه لومة لائم[(٣)].

ولنتحدث عن كل نوع على حدة:

**١ – جهاد النفس:**

وهو المقدم على جميع صور الجهاد، وبغيره لا يمكن أن تتحقق، لأنها متفرعة عنه قال ابن القيم: (ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعا على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال

(١) فتح القدير (٣/ ٥٥٦).

(٢) الظلال (٤/ ٢٤٤٦).

(٣) روح المعاني (٩/ ١٩٩).

النبي صلى الله عليه وسلم: ((المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله...))[1]. كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو في الخارج، وأصلا له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولا لتفعل ما أمرت به وتترك ما نهيت عنه ويحاربها في الله لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج)[2].

وجهاد النفس على أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق. وقد جاء في هذه السورة الحض على العلم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الحج: ٥٤].

الثانية: أن يجاهدها العمل بالدين بعد العلم به. ولذلك مدح الله المخبتين بالصبر فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥].

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إلى دين الله، وتعليمه بمن لا يعلمه. وقد أمر الله رسوله بالدعوة إليه، فقال: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الحج: ٦٧].

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله[3]. وهو ظاهر في قوله تعالى في وصف المخبتين: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه: (كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من مات مرابطا، ح ١٦٢١، ٤/ ١٦٥) بلفظ: ((المجاهد من جاهد نفسه)).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥ – ٦).

(٣) ينظر زاد المعاد (٣/ ٩).

وجهاد النفس في الله حق الجهاد: (بأن يجاهد العبد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله وبالله، لا لنفسه، ولا بنفسه)[1]. وهذا تصديق لقوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الحج: ٣٤].

وعبادة الحج – التي تحدثت عنها هذه السورة – من أعظم العبادات التي يجاهد فيها المسلم نفسه، فإنه يجاهدها في ترك محبوباتها، وهجر مألوفاتها، وفعل ما يشق عليها، وبذل ما هو محبوب لديْها.

**٢ – جهاد الشيطان:**

أخبرنا الله تعالى بعداوة الشيطان المتأصلة لجنس الإنسان وسعيه إلى إغوائهم وإضلالهم، وأمرنا بمجاهدته فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ﴾ [سورة فاطر: ٦]، (والأمر باتخاذه عدوا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته، ومجاهدته، كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس)[2]. ولا يمكن للإنسان أن يجاهد نفسَه ويجاهد أعداء الدين إلا بجهاده، لأنه يثبط العبد عن جهادهما، ويخذله ويرجف به، ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق وترك الحظوظ وفوت اللذات والمشتهيات، ومن ثم كانت مجاهدته هي الأصل لجهادهما.

وجهاد الشيطان مرتبتان:

إحداهما: جهاده على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان. وقد أخبرنا الله تعالى في سورة الحج بما يلقيه من شبه وتضليل، وأن الذين في قلوبهم شك أو قسوة يفتنون به، أما الذي جاهدوا وعلموا الحق فلا يتأثرون به، فقال: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ

(١) زاد المعاد (٣/ ٧).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٦).

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة الحج: ٥٣- ٥٤].

الثانية: جهاده على دفع ما يلقي إليه من الشهوات والإرادات الفاسدة[(١)]، وهذا الجهاد يكون بعده الصبر. المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٥].

وجهاد الشيطان حق الجهاد يكون (بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه؛ فإنه يعد الأماني، ويمني الغرور، ويعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى والعفة والصبر، وأخلاق الإيمان كلها)[(٢)].

**٣ - جهاد الكفار والمنافقين:**

وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة التوبة: ٧٣][(٣)].

وهو على أربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس، وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان[(٤)]، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [سورة الفرقان: ٥٢].

(وجهاد اللسان يكون بالحجة والبيان والإعلام، والجهاد بالنفس يكون بمقاتلة المعتدين)[(٥)].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ١٠).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٧).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٥).

(٤) المصدر السابق (٣/ ١٠).

(٥) التفسير المنير (١٧/ ٢٨٥).

وحق جهاد أعداء الله أن يخلص النفس من أدران الهوى، وإرادة إراقة الدماء، وأن يجاهد المقاتل نفسه أولا، فيقيها عن شهواتها، ويبعد عنها نزغات الشيطان، وأن يجاهد للحق ورفعته[(١)]، ويترفع عن المطامع المادية كالغنيمة أو غيرها من شهوات الدنيا[(٢)].

وحق الجهاد بالسلاح: أن يكون خالصا لله، لا يبتغى به شيء غير وجه الله، و(ألا يرفع السيف في سبيل الدعوة الإسلامية إلا إذا تعذرت الإجابة بالتي هي أحسن، وإلا بعد البيان، ومحاجزة أهل الباطل بين الدعوة المحمدية والناس)[(٣)].

**٤ - جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات:**

وهذا الصنف هو الذي يسمى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد تقدم في هذه السورة أن من صفات المؤمنين الذين ينصرهم الله تعالى في قتالهم لأعداء الدين أنهم إن مكنوا في الأرض لم يتوقفوا عن الجهاد بأشكاله الأخرى، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، حيث قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [سورة الحج: ٤٠ - ٤١].

وهذا النوع على ثلاث مراتب، الأولى: باليد إذا قدر، فإن عجز انتقل إلى اللسان، فإن عجز جاهد بقلبه[(٤)]، وهذا الذي عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان))[(٥)].

---

(١) زهرة التفاسير (٩/ ٥٠٣٥).

(٢) التفسير المنير (١٧/ ٢٨٦).

(٣) زهرة التفاسير (٩/ ٥٠٣٦).

(٤) زاد المعاد (٣/ ١٠).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ح ٧٨، ١/ ٦٩).

**الهداية الكلية الرابعة: يسر الشريعة ورفع الحرج عن المكلف عند الأعذار والظروف الطارئة:**

فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[سورة الحج: ٧٨]، والآية عامة في جميع وجوه التيسير ورفع الحرج في أحكام هذه الشريعة الربانية، فقد حط سبحانه ما فيه مشقة من التكاليف على عباده، إما بإسقاطها من الأصل وعدم التكليف بها كما كلف بها غيرهم، أو بالتخفيف وتجويز العدول إلى بدل لا مشقة فيه، أو بمشروعية التخلص عن الذنب بالوجه الذي شرعه الله[(١)].

وقد دل على هذه المعنى آيات متعددة، فقد أمرنا الله تعالى بأن نطيعه بقدر استطاعتنا فقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴿١٦﴾﴾ [سورة التغابن: ١٦]، أي في حدود ما تحتمل أنفسكم، وما تتسع له طاقاتُكم، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم))[(٢)]. وقال تعالى في سياق آيات الصيام: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى في سياق آيات الوضوء: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة المائدة: ٦]، وقال تعالى على لسان المؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦] ، وفي الحديث الصحيح أنه سبحانه قال: ((قد فعلت))[(٣)].

ويمكن أن نستعرض بعض أوجه رفع الحرج في الدين من خلال ما يأتي:

---

(١) فتح القدير (٣/ ٥٥٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ح ٧٢٨٨، ١٣/ ٢٥١)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، ح ١٣٣٧، ٢/ ٩٧٥).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق، ح ١٢٦، ١/ ١١٦)، والترمذي في سننه: (كتاب التفسير، باب ومن سورة البقرة، ح ٢٩٩٥، ٥/ ٢٢١).

**أولا: انتفاء الحرج ابتداءً**، لأن الدين مبنيٌّ على التخفيف واليسر، لا على الضيق والحرج، فقد يسره الله غاية التيسير، وسهله غاية السهولة، فما أمر العباد وألزمهم إلا بما هو مقدور لهم، وتسعه طاقتهم، سهل على النفوس، لا يُثقلها ولا يؤُودها[(١)].

وقد روعيت في هذا الدين بجميع تكاليفه وعباداته فطرة الإنسان، ولحظ فيه موافقته للفطرة، واستجابته للحاجات الإنسانية، وملاءمتها للطاقة البشرية والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء[(٢)]. ومن الآيات التي تشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [سورة النساء: ٢٨].

ومن ذلك عدم المؤاخذة بما وقع خطأً أو نسيانا، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦]. وقول النبي صلّى الله عليه وسلّم: ((إنّ الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرِهوا عليه))[(٣)].

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٧).

(٢) ينظر الظلال (٤/ ٢٤٤٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه من حديث ابن عباس: (كتاب الطلاق، طلاق المكره والناسي، ح ٢٠٤٥، ٦٥٩/١)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ١٢٦): (إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع. والظاهر أنه منقطع... وليس ببعيد أن يكون السقط من صنعة الوليد بن مسلم فإنه كان يدلس تدليس التسوية). وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٣٣/١١، رقم ١١٢٧٤)، والحاكم في المستدرك (كتاب الطلاق، ح ٢٨٠١، ٢/ ٢١٦)، وقال: (صحيح على شرط الشيخين)، ووافقه الذهبي. والبيهقي في سننه (جماع أبواب ما يقع به الطلاق من الكلام، باب ما جاء في طلاق المكره، ح ١٥٠٩٤، ٧/ ٥٨٤)، وقال: (جوَّد إسنادَه بشرُ بن بكر وهو من الثقات، ورواه الوليد بن مسلم عن الأوزاعي، فلم يذكر في إسناده عبيد بن عمير). وقد حسنه النووي في "الأربعين"، وأقره الحافظ في "التلخيص الحبير" (١/ ٥١٠)، ورواه كذلك ابن ماجه من حديث أبي ذرٍّ (٦٥٩/١، رقم ٢٠٤٣)، وقال الحافظ في التلخيص (١/ ٥١١): (فيه شهر بن حوشب، وفي الإسناد انقطاع). وقال البوصيري (١٢٥/٢): (هذا إسناد ضعيف لاتفاقهم على ضعف أبي بكر الهذلي). والحاصل أن الحديث صحيح بمجموع طرقه، كما قرر الألباني في إرواء الغليل (١/ ١٢٣ - ١٢٤).

ومن ذلك عدم المؤاخذة بحديث النفس، لقول النبي صلّى الله عليه وسلّم: ((إنّ الله تجاوز لأمتي ما حدّثت به نفسها ما لم يتكلّموا أو يعملوا به))[1].

**ثانيا: انتفاء الحرج الثابت في بعض الشرائع السابقة:** فقد رفع الله عن المسلمين الآصار والأغلال التي كانت على من قبلنا في شرائعهم[2]؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٧].

**ثالثا: انتفاء الحرج بعد ثبوته بالترخيص في الترك بمقتضى الشرع:** فإذا عرضت بعض الأسباب الموجبة للتخفيف، خفف ما أمر به، إما بإسقاطه، أو إسقاط بعضه[3]. وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥].

ومن ذلك أن الصلاة -التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين-تجب في الحضر أربعا، وتقصر في السفر إلى ثنتين، وفي الخوف تصليها ركعة واحدة على قول بعض الأئمة، كما ورد به الحديث، وتصلى رجالا وركبانا، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها. وكذلك النافلة في السفر تصلى إلى القبلة وغيرها، ويسقط القيام في الصلاة لعذر المرض، فيصلي المريض جالسا أو مضطجعا أو على جنب أو بالإيماء. ولم يوجب علينا الجمعة في المساجد حين السفر، أو الخوف من عدو أو سبع أو مطر[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيا في الأيمان، ح ٦٢٨٧، ٦/ ٢٤٥٤)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له: (كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر، ح ٢٠١، ١/ ١١٦).

(٢) ينظر أضواء البيان (٥/ ٣٠٠).

(٣) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٧).

(٤) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٥٥ - ٤٥٦)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٨٧)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٤٢٧).

وبالنسبة للصيام رخص الفطر في رمضان للمسافر والمريض والحامل والمرضع، وأسقطه عن الشيخ الكبير والمرأة العجوز.

ومن ذلك أيضا إسقاط الجهاد عن الأعرج والأعمى والمريض، واغتفار الخطأ في تقديم الصيام وتأخيره لاختلاف الأهلة، وكذا في الفطر والأضحى[1].

وقد أُخِذت من هذه الآية قاعدتان شرعيتان عظيمتان، وهما "الحرج مرفوع"، و"المشقة تجلب التيسير"، وتندرج تحتهما كثير من الصور والأحكام الجزئية[2].

**رابعا: مراعاة حالات الضرورة:**

وبالنسبة للصيام رخص الفطر في رمضان للمسافر والمريض والحامل والمرضع، وأسقطه عن الشيخ الكبير والمرأة العجوز.

فقد أباح الله تعالى تناول المحرم وارتكابه عندما يخشى الإنسان الهلاك أو تلف عضو من أعضائه، ففي المطعومات: يجوز الأكل والشرب من المحرّمات المحظورات للضرورة، كالميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك. وقد جاء ذلك في أكثر من آية، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة البقرة: ١٧٣]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [سورة المائدة: ٣]، وقوله سبحانه بصفة عامة: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [سورة الأنعام: ١١٩]، ومن هذه الآيات أخذت القاعدة الفقهية المشهورة: "الضرورات تبيح المحظورات"، ويدخل تحتها كثير من الأحكام الفرعية المعروفة في كتب الفقه.

**خامسا:** جعل لهم من الذنب مخرجا بفتح باب التوبة وقبول الاستغفار، (وبسط عليهم التوبة ما دامت الروح في الجسد، وفتح لهم بابا لها لا يغلقه عنهم إلى أن تطلع الشمس من

---

(١) فتح القدير (٣/ ٥٥٦).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٧).

مغربها، وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة أو صدقة أو حسنة ماحية أو مصيبة مكفرة)[1].

وجعل لبعض الذنوب والمخالفات كفاراتٍ تجبرها، فشرع لهم الكفارات في حقوقه، ككفار الظهار، وكفارة القتل الخطأ، وكفارة الحنث في اليمين، وشرع الديات والأروش أو القصاص في الجنايات التي تكون بين العباد، وشرع رد المال أو مثله أو قيمته في الغصب ونحوه[2].

ويجدر التنبيه إلى أن هناك فرقا بين المشقة في الأحكام الشرعية، وبين الحرج والعسر فيها، فإن الأولى حاصلة وقلَّما يخلو منها تكليف شرعي، إذ التكليف هو الإلزام بما فيه كلفة ومشقة على ما اشتهر عند الأصوليين[3]، أما الحرج الذي رفعته الشريعة عن المكلفين فهو المشقة غيرُ المعتادة، الزائدةُ عن الحد التي تصل إلى حد الحرج[4].

(١) زاد المعاد (٣/ ١١).

(٢) فتح القدير (٣/ ٥٥٧)، وروح المعاني (٩/ ١٩٩).

(٣) ينظر البرهان في أصول الفقه (١/ ١٤)، والمستصفى (ص: ٧٠)، والإحكام في أصول الأحكام للآمدي (١/ ١٢١)، والبحر المحيط في أصول الفقه (٢/ ٥٠)، وحاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع (١/ ٢٢٣).

(٤) التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٤٨)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٨٧).

## الفصل الثاني: مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها في عرض هداياتها.

### المبحث الأول: المناسبات المتعلقة بهدايات آيات السورة.

قبل الحديث عن أوجه التناسب بين أجزاء سورة الحج، أودّ أن أمهد لذلك بتمهيد عن مفهوم المناسبات وأنواعها.

**المناسبات: تعريفها، وأنواعها:**

النون والسين والباء كلمة واحدة، قياسها اتصال شيء بشيء. ومنه النَّسب، سمي بذلك لاتصاله وللاتصال به[(١)]. والنِّسْبَةُ والنُّسْبَةُ والنَّسَبُ: القَرابةُ[(٢)].

والمناسبة لغةً: المقاربة والمشاكلة؛ يقال: ليس بينهما مناسبة، أي مشاكلة. ويقال: فلان يناسب فلانًا، أي يقرب منه ويشاكله، وفلان يناسب فلانًا فهو نسيبُه، أي قريبه. ويقال للقريبين كابني العم مثلا: بينهما مناسبة، أي رابطة تربط بينهما، وهي القرابة[(٣)].

والمراد بالمناسبة في تفسير القرآن الكريم: هو (وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة)[(٤)].

وعلم المناسبات -بوصفه علما من علوم القرآن الكريم - هو كما عرفه البقاعي بإيجاز بليغ: (علمٌ تُعرف منه علل ترتيب أجزائه)[(٥)]، وعدل د. محمد بازمول[(١)] هذا التعريف، فقال:

---

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٤٢٣).

(٢) المحكم (٨/ ٥٢٩).

(٣) ينظر الصحاح (١/ ٢٢٤)، والبرهان في علوم القرآن (١/ ٣٥).

(٤) مباحث في علوم القرآن، لمنّاع القطان (ص: ٩٦). وقريب منه ما ذكره د. مصطفى مسلم في كتابه "مباحث في التفسير الموضوعي" (ص: ٥٨).

(٥) مصاعد النظر (١/ ١٤٢).

هو (معرفة مجموع الأصول الكلية والمسائل المتعلقة بعلل ترتيب أجزاء القرآن العظيم بعضها ببعض)[٢].

والمناسبة ترجع – والله أعلم – إلى معنى ما يربط بين الجزأين: (عامٍّ أو خاص، عقليٍّ أو حسيٍّ أو خياليٍّ، وغير ذلك من أنواع العلاقات؛ أو التلازم الذهنيّ، كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين، والضدين، ونحوه؛ أو التلازم الخارجيّ، كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر)[٣].

وللمناسبات أنواع متعددة:

ففي التناسب في السورة الواحدة يندرج ما يأتي:

١ – مناسبة الجملة لما قبلها وما بعدها.

٢ – مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها.

٣ – مناسبة أحد مواضيع السورة للموضوع الذي يسبقه أو يتلوه.

٤ – مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها.

٥ – مناسبة اسم السورة لمقصدها.

وفي التناسب بين السور يندرج ما يأتي:

١ – التناسب بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

٢ – التناسب بين مضمون السورة ومضمون ما بعدها.

٣ – التناسب بين مطلع السورة وخاتمة ما قبلها.

---

(١) هو الأستاذ الدكتور محمد بن عمر بن سالم بازمول، ولد بمكة المكرمة، وعمل أستاذا للتفسير وعلوم القرآن بجامعة أم القرى. له مشاركات في عدة ندوات ومؤتمرات. من كتبه: "القراءات وأثرها في التفسير والأحكام"، و"شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية"، و"زبدة الإتقان في علوم القرآن"، و"بغية المتطوع في صلاة التطوع".

(٢) علم المناسبات بين السور والآيات (ص ٢٧).

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٥).

٤ – التناسب بين خاتمة السورة ومطلع ما بعدها.

وسأقتصر على الحديث في هذا المبحث على ما هو منصوص عليه في الخطة العلمية للبحث، وسأدمج مناسبة مطلع السورة لخاتمة ما قبلها مع التناسب بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها، ومناسبة خاتمة السورة لمطلع السورة التي تليها مع التناسب بين مضمونيهما.

وسنخصص لكل نوع من هذه الأنواع في هذه السورة فرعا خاصا، ذاكرًا ما عنّ لي فيها من أوجه، مرتبا إياها من الأقوى إلى الأقل قوة:

**مناسبة سورة الحج لسابقتها:**

إن السورة التي تتقدم سورة الحج هي سورة الأنبياء، وبينهما تناسب واضح، حتى إن الألوسيَّ لم يذكره، واكتفى بقوله: (ووجهُ مناسبتها للسورة التي قبلها ظاهر)[(١)]، وسأذكر هنا عدة أوجه من التناسب بين هاتين السورتين، مرتبا إياها من الأظهر إلى ما هو أقل ظهورا:

١ – لما افتتحت سورة الأنبياء بالإخبار باقتراب يوم القيامة وغفلة الناس عنه بقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾ [سورة الأنبياء: ١]، وهي تنطوي على التهديد والوعيد، وتكرَّر في مواضع متعددة منها التذكير بالحساب والجزاء، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ۝٣٥﴾ [سورة الأنبياء: ٣٥]، وقوله سبحانه: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٣٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾ [سورة الأنبياء: ٣٧ – ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٤٦﴾ [سورة الأنبياء: ٤٦]، وقوله عز وجل: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [سورة الأنبياء: ٤٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ۝٤٩﴾ [سورة الأنبياء: ٤٩]،

(١) روح المعاني (٩/ ١٠٥).

وقد ختمت بمثل ما ابتدئت به من التهديد[1]، وذلك في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٩٣]، حيث ختم الله تعالى سورة الأنبياء ببيان اقتراب الساعة ووصف أهوالها[2]، ووعيد الكفار بالنار، والإخبار بنجاة المؤمنين منها، فقال سبحانه: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٧ – ١٠٤].

ثم ختمت السورة بتحذير المشركين من حدوث ما يوعدون، ومحاسبتهم بما يستحقون، حيث يحكم الله بين العباد بالحق، فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٩][3].

فلما كان كذلك اتصل بهذه السورة ما يناسبها من الإعلام بهول الساعة وعظيم أمرها، فافتتحت سورة الحج ببيان أهوال يوم القيامة والأمر بالتقوى التي تنجي صاحبَها من تلك الأهوال[4]، وهي خير زاد في ذلك اليوم[1]، حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن (ص ٢٥٦ – ٢٥٧)، وقد أشار ابن برّجان إلى نحو هذا بإجمال في تفسيره "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" (٤٦/٤).

(٢) ينظر التفسير المنير (١٧/ ١٤٨).

(٣) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٧٠).

(٤) ينظر نظم الدرر (١٣/ ١).

زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [سورة الحج: ١ – ٢]. وكأنها تبين المراد ب﴿الفزع الأكبر﴾ المذكور في الآيات المتقدمة من سورة الأنبياء[٢].

ثم ساقت سورة الحج البراهينَ العقلية على وجود البعث، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [سورة الحج: ٥]. وكأنّ هذا البرهان منها تفصيلٌ لقوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٤]. ثم أتبعه بدليل آخر عليه فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [سورة الحج: ٥]، ثم خلص من هذين الدليلين إلى خمس قضايا اعتقادية، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [سورة الحج: ٦ – ٧][٣].

وقد عبر أبو حيّان[٤] عن هذا الوجه من التناسب بين السورتين فقال: (ومناسبة أول هذه السورة لما قبلها أنه ذكر تعالى حال الأشقياء والسعداء وذكر الفزع الأكبر وهو ما يكون يوم القيامة، وكان مشركو مكة قد أنكروا المعاد وكذبوه بسبب تأخر العذاب عنهم؛ نزلت هذه

---

(١) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٦٣)، وأسرار ترتيب القرآن (ص: ١١١)، وفتح القدير (٣/ ٥١٤).

(٢) ينظر النظم الفني في القرآن، للشيخ عبد المتعال الصعيدي (ص٢٠٤).

(٣) البرهان في تناسب سور القرآن (ص ٢٥٦ – ٢٥٧)، وقد أشار ابن برجان إلى نحو هذا بإجمال في تفسيره "تنبيه الأفهام" (٤/٤٦).

(٤) تقدمت ترجمته.

السورة تحذيرا لهم وتخويفا لما انطوت عليه من ذِكْر زلزلة الساعة وشدة هولها، وذِكْر ما أُعدّ لمنكرها وتنبيههم على البعث بتطويرهم في خلقهم، وبهمود الأرض واهتزازها بعد بالنبات)[1].

والمتأمل في خواتيم سورة الأنبياء وبين أوائل آيات سورة الحج، يجد أنهما ملتحمتان تلاحما واضحا، حتى إنه (يمكن أن تقرأ سورة الحج في أعقاب سورة الأنبياء، من غير فاصل بالبسملة، وكأنها بعض منها، وتعقيب على مقرراتها)[2].

٢ – أنه قد أقيمت في سورة الأنبياء البراهين العقلية والكونية على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وألوهيته، مثل قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤﴾ [سورة الأنبياء: ٢١ – ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣١ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ٣٢ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠ – ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ٤٢ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ٤٣﴾ [سورة الأنبياء: ٤٢ – ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [سورة الأنبياء: ٦٦ – ٦٧].

---

(١) البحر المحيط (٧/ ٤٨٠).

(٢) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٧١).

وفي سورة الحج جعل آيات الله في الخلق من براهين البعث[1]، وذلك حين بين تعالى مظاهر قدرته في الخلق وإحياء الأرض اليابسة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾ [سورة الحج: ٥]، ثم يتبعها الله تعالى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾ [سورة الحج: ٦ – ٧]. وجعلت انفراد الله بتدبير السماوات والأرض من دلائل ربوبيته تعالى واستحقاقه للعبادة، وذلك حيث قال تعالى في أواخر السورة: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ۝٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٦٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۚ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٦٥ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ۝٦٦ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ۝٦٧ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٦٩ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧٠ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ۝٧١ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۖ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٧٢﴾ [سورة الحج: ٦٣ – ٦٦].

فالسورتان متكاملتان في الاستدلال على الإيمان بالله واليوم الآخر، وإثبات التوحيد وإبطال الشرك، وإثبات البعث والحساب، وتحذير المنكرين له من عاقبة تكذيبهم لله ورسله[2].

٣- تضمنت سورة الأنبياء حديثا متصلا عن طائفة من أنبياء الله ورسله، وأشار الله تعالى في بعضهم إلى ما لقوه من أقوامهم من تكذيب وجحود، وذكر في بعضهم ما ابتلاهم الله

(١) ينظر "في رحاب التفسير" للشيخ عبد الحميد كشك (١٧/ ٢٥٢٢)، وحدائق الروح والريحان (١٨/ ١٣١ – ١٣٢).

(٢) ينظر التناسق الموضوعي في سورة الأنبياء (ص ٤٢).

به من الضرّاء، ثم كانت عاقبتهم جميعا إلى العافية في الدنيا، وإلى رضا الله ورضوانه في الآخرة (١).

وفي سورة الحج نجد تسليةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتذكيره بما لقيه سلفُه من الرسل والأنبياء من تلبيس الشيطان، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ [سورة الحج: ٥٢]، وبما لقيه الرسل من تكذيب أقوامهم وكيف أن الله عذبهم في الدنيا قبل الآخرة، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ٤٢ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ٤٣ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٤﴾ [سورة الحج: ٤٢ – ٤٤]. وكذلك تضمنت سورة الحج وعدا للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأن الله تعالى سينصرهم على عدوهم في الدنيا، وسيمنحهم رضوانه في الآخرة. أما في الدنيا فقد طمأنهم تعالى بنصرته على من ظلمهم، حيث قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [سورة الحج: ٣٩ – ٤١]. وقال: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾ [سورة الحج: ٦٠].

أما في شأن الدار الآخرة فقد قال تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا

(١) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٧٠ – ٩٧١).

وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحج: ١٩ – ٢٤]، وقال: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الحج: ٥٥ – ٥٧].

٤ – تضمنت سورة الأنبياء في ختامها إشارة إلى أنه تعالى سيورث المسلمين الأرضَ ما داموا متحققين بالعبودية، متصفين بالصلاح، مع ما يتضمنه ذلك من تهديد المشركين بتسليط المسلمين عليهم في الدنيا، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٥ – ١٠٦]، ثم أعذر لمشركي قريش بعد أن أنذرهم وتوعّدهم[(١)]، فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٩]، ثم قال في نهاية السورة: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [سورة الأنبياء: ١١٢][(٢)]. وجاء في النصف الثاني من سورة الحج الإذن بقتال المشركين، ليكون به تسليط المسلمين عليهم في الدنيا[(٣)]، وذلك حيث قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ

(١) ينظر التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٥٤).

(٢) نقل الرازي في تفسيره (٢٢/ ١٩٦) عن القاضي عبد الجبار أنه قال: (إنما ختم الله هذه السورة بقوله: {قُلْ ربِّ احكمْ بالحق}، لأنه عليه السلام كان قد بلغ في البيان الغاية لهم وبلغوا النهاية في أذيته وتكذيبه، فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسليةً له وتعريفًا أن المقصود مصلحتهم، فإذا أبوا إلا التمادي في كفرهم، فعليك بالانقطاع إلى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق، إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره، وإما بتأخير ذلك، فإن أمرهم وإن تأخر فما هو كائن قريب، وما روي أنه عليه السلام كان يقول ذلك في حروبه كالدلالة على أنه تعالى أمره أن يقول هذا القول كالاستعجال للأمر بمجاهدتهم).

(٣) ينظر النظم الفني في القرآن (ص ٢٠٤).

ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحج: ٣٩ – ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٖ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة الحج: ٥٥]، على قول من فسر اليوم العقيم بيوم بدر.

٥ – تحدثت سورة الأنبياء عن قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه، وكيف بين لهم حقارة الأصنام، وأثبت سُخف عقولهم حين عبدوها، وذلك حيث قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٦٢ – ٦٧].

وفي سورة الحج تحدثت عن مشهد من مشاهد حياة إبراهيم عليه السلام، حين أمره الله سبحانه ببناء البيت الحرام ودعوة الناس كلهم إلى الحج إليه موحدين لله تعالى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ [سورة الحج: ٢٦ – ٢٨].

ثم أمرنا عز وجل في آخر السورة بلزوم منهجه والاقتداء به فقال: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [سورة الحج: ٧٨].

وكأنه تعالى يقول: أيها الناس، إن أباكم إبراهيم عليه السلام كان موحدا لله تعالى، داعيا لتوحيده، نابذا للشرك به، وهو الذي أمره الله تعالى ببناء أول بيت ليُعبد فيه، وأمره بدعوة الناس إلى الحج إليه وإفراده بهذه القربة، فاقتدوا به، واتبعوه فيما سنّه لكم.

وهذا الوجه لم أر أحدا من المفسرين أو الباحثين ذكره، وإنما خطر لي من خلال المقارنة بين السورتين، فذكرته، والله الهادي للصواب.

وثمة وجه آخر ذكره بعض الدعاة في تناسب مطلع هذه السورة مع أواخر سورة الأنبياء، وهو أن سورة الأنبياء أشارت في خواتيمها إلى يوم الفصل بين الناس، وذكرت إحدى علاماته الكبرى، وهو خروج يأجوج ومأجوج الذين سبق ذكر خبرهم في سورة الكهف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦﴾ [سورة الأنبياء: ٩٦]، ثم أتت سورة الحج لتستهل بذكر يوم القيامة، وكأنه حديثٌ موصولٌ بين السورتين، تنبيهًا على عظمة الله سبحانه الذي حجز يأجوج ومأجوج عن الناس بذلك السد، وصرفهم عن أن يصعدوا ويتجاوزوه، وأعجزهم عن اختراقه ونقبه، وإشارة إلى أن ذلك يبقى إلى قرب قيام الساعة، فإذا أذن الله لهم في الخروج عرف المعتبرون من الناس أن الساعة قد اقتربت، وأن الحياة الدنيا قد أوشكت على الرحيل، ثم سرعان ما تقوم القيامة، فيلقى الغافلون من الناس من أهوالها، ما يقصه الله علينا في مطلع سورة الحج[1].

ومع أنني صغت هذا الوجه بنحو أوضح مما كتب في المرجع الذي نقلت عنه إلا أن هذا الوجه من التناسب مشمول بما تقدم في الوجه الأول، وإنما ركز على خروج يأجوج ومأجوج، وهي علامة واحدة فقط من علامات الساعة.

**مناسبة سورة الحج لما بعدها:**

السورة التي تتلو سورة الحج هي سورة المؤمنون، وبينهما عدة أوجه من التناسب:

---

(١) ينظر مقال "مقاصد سورة الحج"، للشيخ عبد البديع أبو هاشم، وكتبها ونشرها أحمد الجوهري عبد الجواد، موقع الألوكة: https://www.alukah.net/sharia/0/126154/#ixzz5ljOXf6yE.

منها: أنه لما ختم الله تعالى سورة الحج بالأمر بجميع التكاليف، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [سورة الحج: ٧٧]، وعللها بالفلاح فقال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾ [سورة الحج: ٧٧]، وأفرد الصلاة والزكاة بالذكر، فقال: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [سورة الحج: ٧٨]، ناسب أن يفتتح بذكر ثمرة القيام بهذه التكاليف فقال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١﴾ [سورة المؤمنون: ١] [(١)].

وعبر عبد الكريم الخطيب[(٢)] عن هذه المناسبة فقال: (يلتقي بدء هذه السورة مع خاتمة سورة الحج قبلها.. فقد خُتمت سورة الحجّ، بهذا الخطاب العام للمؤمنين، الذين اصطفاهم الله واجتباهم، وقد تضمن هذا الخطاب دعوةً إلى إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله.. ثم ختم بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾. وبدءُ سورة: "المؤمنون" بقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣﴾ إلى آخر الآيات- هو استقبالٌ كريم لهؤلاء المؤمنين الذين دعوا إلى الله، واستجابوا لدعوته، وآمنوا به.. فهؤلاء المؤمنون، قد أفلحوا، وفازوا برضوان الله.. وكان هذا الخبر من معجّل البُشْريات لهم في هذه الدنيا)[(٣)].

ومنها: أن الله تعالى لما أجمل في ختام سورة الحج العبادات وخصال الخير التي أمر بها في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۖ﴾ [سورة الحج: ٧٧ – ٧٨]، فصّل في افتتاح سورة "المؤمنون" ما ينبغي للمصلي التزامه من الخشوع، وما يتأكد من خصال الخير التي يفلح فاعلها، فقال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ١٠٥).

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١١١٠ – ١١١١).

أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ [سورة المؤمنون: ١ – ٩][(١)]. وكأنه تعالى لما أمر المؤمنين بعبادة الله وفعل الخير ووعدهم بالفلاح جزاءً على امتثاله، كان مظِنة لسؤال السائل: ما هي أهم العبادات وأفضل أفعال الخير التي يتحقق بها الفلاح؟ فقيل له في مطلع سورة "المؤمنون": المفلحون هم من التزم كذا وكذا، وذكر سبعة أضرب من العبادة وفعل الخير الذي يكمل به فلاحه، إشارةً إلى أنها أصول لما وراءها، وتستتبع سائر التكاليف التي بينت في الكتاب والسنة.

ولما كانت الصلاة الخاشعة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وكانت المحافظة عليها منافية لفعل المحرمات، اختتمت بها هذه الخصال بعد التنبيه على موقعها من هذه العبادات بذكر التنبيه على الخشوع فيها أولا[(٢)]، والله أعلم.

ومنها: أن الله تعالى لما ذكر في صدر سورة الحج شأن تخلُّق الجنين دلالةً على إمكان البعث، حيث قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [سورة الحج: ٥]، فصّل أطوار تخليقه السبعة، وزادها بيانا في صدر سورة "المؤمنون"، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾ [سورة المؤمنون: ١٢ – ١٦][(٣)].

---

(١) ينظر البرهان في تناسب سور القرآن (ص: ٢٥٧)، وأسرار ترتيب القرآن (ص: ١١١).

(٢) ينظر البرهان في تناسب سور القرآن (ص: ٢٥٧ – ٢٥٨).

(٣) ينظر البرهان في تناسب سور القرآن (ص: ٢٥٨)، وأسرار ترتيب القرآن (ص: ١١١)، وتفسير المراغي (١٨/ ٣).

ومنها: أن الله تعالى أشار إلى تكذيب الأمم للمرسلين الذين أرسلوا إليهم فقال عز من قائل: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الحج: ٤٢ – ٤٤]، وبين تعالى ذلك في سورة "المؤمنون" على نحو من الإيجاز، فذكر خبر نوح عليه السلام مع قومه (الآيات: ٢٣ – ٣٠)، وخبر مَن بعدهم دون تعيين (الآيات: ٣١ – ٤١)، وهم عاد قوم هود على قول أكثر المفسرين[(١)]، أو ثمود على قول بعضهم[(٢)]، أو أهل مدين على قول ثالث[(٣)].

---

(١) عزاه الرازي (٢٣/ ٢٧٥) إلى ابن عباس وأكثر المفسرين. واقتصر عليه الثعلبي (٧/ ٤٦)، والواحدي في البسيط (١٥/ ٥٦٤)، واستظهره البغوي في تفسيره (٥/ ٤١٦) واختاره الزمخشري في الكشاف (٣/ ١٨٥)، وقال: (وتشهد له حكاية الله تعالى قول هود: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ (الأعراف: ٦٩)، ومجيء قصة هود على أثر قصة نوح في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء).

وظاهر قوله تعالى في آخر قصتهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يشكل على هذا القول، لأن عادا أهلكوا بريح عاتية، وأجاب المفسرون بأن جبريل عليه السلام صاح بهم من الريح كما روي في بعض الأحاديث، وفي ذكر كل على حدة إشارة إلى أن كلّا لو انفرد لتدميرهم لكفى، ويجوز أن يراد بالصيحة العقوبة الهائلة والعذاب المصطلم. (روح المعاني: ٩/ ٢٣٥).

(٢) وبهذا فسر الطبري الآية (١٧/ ٣٩)، لأن قومه الذين كذبوه هم الذين هلكوا بالصيحة، وعزاه ابن الجوزي في "زاد المسير" في (٣/ ٢٦١) إلى أبي سليمان الدمشقي، وتردد ابن عطية في المحرر الوجيز (٤/ ١٤٢) فقال: (وفي جل الروايات ما يقتضي أن قوم عاد أقدم إلا أنهم لم يهلكوا بصيحة، وفي هذا احتمالات كثيرة، والله أعلم). أما ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٨/ ٤٩- ٥٠) فرجح أنهم ثمود وقال: (والأظهر أن المراد به هنا ثمود لأنه الذي يناسبه قوله في آخر القصة: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ ﴾ [المؤمنون: ٤١]، لأن ثمود أهلكوا بالصاعقة ولقوله: ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٤٠]، مع قوله في سورة الحجر (٨٣): ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾، فكان هلاكهم في الصباح. ولعل تخصيصهم بالذكر هنا دون عاد خلافا لما تكرر في غير هذه الآية لأن العبرة بحالهم أظهر لبقاء آثار ديارهم بالحجر كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧ – ١٣٨].

(٣) هذا قول ذكره القرطبي (١٢/ ١٢١) على سبيل الاحتمال حيث قال: (وممن أخذ بالصيحة أيضا أصحاب مدين قوم شعيب، فلا يبعد أن يكونوا هم، والله أعلم)، وذكره الشوكاني تبعا له في فتح القدير (٣/ ٥٧١)، وفيه نظر.

ثم أشار إشارة مجملة إلى تكذيب أقوام آخرين لرسلهم حيث قال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۖ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٤٤]، ثم ذكر تعالى شأن موسى عليه السلام مع آل فرعون باقتضاب، ثم ذكر تعالى ما فعله بالمنعّمين من قريش يوم بدر فقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٦٤ – ٦٥][(١)].

وبعبارة أخرى: إن الله تعالى أشار في السورتين معا إلى حال الأنبياء مع أقوامهم ليكون خبرهم عبرة وموعظة للمكذبين بالرسالة في عصر تنزُّل القرآن ومن يأتي بعدهم[(٢)].

وذكر المراغي[(٣)] وجها آخر للتناسب بينهما في تفسيره: وهو أنه تعالى نصب في كل منهما أدلة على وجوده ووحدانيته سبحانه[(٤)]. وهذا الوجه غير ظاهر فيما أرى، والله أعلم.

**مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها:**

وهذا ما يعبر عنه بتناسب المطالع والمقاطع، وفي التناسب بين مطلع سورة الحج وختامها عدة أوجه:

منها: أن سورة الحج افتتحت بذكر الساعة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [سورة الحج: ١]، وختمت بقوله: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ﴾ [سورة الحج: ٧٨]، وذلك يكون يوم القيامة[(٥)].

---

(١) قال البيضاوي في تفسير (٤/ ٩١) ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ متنعميهم. بِالْعَذابِ يعني القتل يوم بدر أو الجوع حين دعا عليهم الرسول صلى الله عليه وسلّم فقال: ((اللهم اشدُد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسِني يوسف))).

(٢) ينظر تفسير المراغي (١٨/ ٣).

(٣) تقدمت ترجمته.

(٤) تفسير المراغي (١٨/ ٣).

(٥) مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، للسيوطي (ص: ٥٥).

ومنها: أن سورة الحج افتتحت بالأمر بالتقوى حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ١]، واختتمت بما يحقق التقوى، وهو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأداء سائر العبادات وفعل الخير ومجاهدة النفس في سبيله سبحانه، وذلك حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [سورة الحج: ٧٧ – ٧٨] (١). وكأنّ هاتين الآيتين تفصيل لما أجملته صدر الآية في مطلع السورة.

ومنها: أن الله تعالى استدل في بداية السورة على صحة البعث بخلق الإنسان فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ الآية [سورة الحج: ٥]. وعاد في آخر السورة ليبين عجز الذين يدعون من دون الله عن خلق أخَسِّ حشرة من الحشرات، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ [سورة الحج: ٧٣] (٢).

ومنها: أن هذه السورة افتتحت بالنداء العامّ لجميع الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [سورة الحج: ١]، واختتمت بنداء خاص بالمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [سورة الحج: ٧٧]، فكأنها ابتدأت بدعوة عالميةٍ للناس كلهم، وانتهت بنداء الذين استجابوا لهذه الدعوة منهم (٣).

(١) منهجيات الإصلاح والتغيير في سورتي الأنبياء والحج (ص ٢٤).

(٢) علم المناسبات في السور والآيات: محمد بن عمر بازمول (ص ١٤١).

(٣) تأملات وتدبرات لسورة الحج، الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم، الجهة الشرقية (ص ٣).

**المناسبات بين موضوعات السورة:**

تقدم لنا في الفصل الثاني من الباب الأول ذكر موضوعات السورة، وذكرت أن الشيخ سعيد حوّى[1] رحمه الله قسم سورة الحج – بناءً على العلامات اللفظية – إلى أربعة مقاطع[2]، ثم عاد فقسم المقطعين الثاني والثالث إلى مجموعات، وكان حاصل ذلك ما يأتي:

المقطع الأول: يمتد من الآية الأولى إلى الآية الرابعة.

والمقطع الثاني يمتد من الآية (٥) إلى (٤٨). ولطول هذا المقطع قسمه إلى سبع مجموعات:

المجموعة الأولى تمتد من الآية (٥) إلى نهاية الآية (٧).

والمجموعة الثانية تمتد من الآية (٨) إلى نهاية الآية (١٠).

والمجموعة الثالثة تمتد من الآية (١١) إلى نهاية الآية (١٤).

والمجموعة الرابعة تمتد من الآية (١٥) إلى نهاية الآية (٢٤).

والمجموعة الخامسة تمتد من الآية (٢٥) إلى نهاية الآية (٣٧).

والمجموعة السادسة تمتد من الآية (٣٨) إلى نهاية الآية (٤١).

والمجموعة السابعة تمتد من الآية (٤٢) إلى نهاية الآية (٤٨).

أما المقطع الثالث فهو يمتد من الآية (٤٩) إلى نهاية الآية (٧٢)، وقد قسمه إلى أربع مجموعات:

المجموعة الأولى تمتد من الآية (٤٩) إلى نهاية الآية (٥١).

والمجموعة الثانية تمتد من الآية (٥٢) إلى نهاية الآية (٥٧).

والمجموعة الثالثة تمتد من الآية (٥٨) إلى نهاية الآية (٦٠).

---

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٢٠).

والمجموعة الرابعة تمتد من الآية (٦١) إلى نهاية الآية (٧٢).

أما المقطع الرابع فهو يمتد من الآية (٧٣) إلى نهاية الآية (٧٨)، وهي نهاية السورة.

وثمة تقسيم ثانٍ سارَ عليه العلامة أبو زهرة[١] في تفسيره لهذه السورة، وهو كما يأتي:

المقطع الأول: هول يوم القيامة وجدل الناس حولها، ويمتد من الآية ١ إلى الآية ٤[٢].

المقطع الثاني: القدرة على الابتداء تدل على البعث، ويمتد من الآية ٥ إلى نهاية الآية ٧[٣].

المقطع الثالث: الجاحدون ومرضى القلوب والمنافقون، ويمتد من الآية ٨ إلى نهاية الآية ١٣[٤].

المقطع الرابع: جزاء المتقين والفصل بين الناس، ويمتد من الآية: ١٤ إلى الآية ١٧[٥].

المقطع الخامس: خضوع الوجود لإرادته سبحانه، ويتألف من آية واحدة، وهي الآية: ١٨[٦].

---

(١) هو محمد بن أحمد أبو زهرة: أكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره. ولد سن ١٨٩٨هـ وتخرج من مدرسة القضاء الشرعي سنة ١٩٢٥م، وانتقل للتدريس بكلية أصول الدين سنة ١٩٣٣م، ومنها إلى كلية الحقوق جامعة القاهرة سنة ١٩٣٥، وتدرج في مراتبها إلى أن صار وكيلًا للكلية لمدة خمس سنوات انتهت ببلوغه سن التقاعد سنة ١٩٥٨م، واستمر بالتدريس بها وبغيره إلى وفاته عام ١٩٧٤. وكان بالإضافة إلى ذلك عضوا للمجلس الأعلى للبحوث العلمية، ووكيلا لمعهد الدراسات الإسلامية وقد ألف أكثر من ٤٠ كتابا، منها: "تاريخ المذاهب الإسلامية"، و"الملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية"، و"محاضرات في النصرانية"، و"زهرة التفاسير"، ولم يتمه. ينظر الأعلام للزركلي (٦/ ٢٥ – ٢٦).

(٢) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٧).

(٣) ينظر المرجع السابق (٩/ ٤٩٤١).

(٤) ينظر المرجع السابق (٩/ ٤٩٤٨).

(٥) ينظر المرجع السابق (٩/ ٤٩٥٤).

(٦) ينظر المرجع السابق (٩/ ٤٩٥٩).

والمقطع السادس: الخصمان أمام الله يوم القيامة، ويمتد من الآية: ١٩ إلى الآية ٢٥[١].

المقطع السابع: آيات في الحج، ويمتد من الآية: ٢٦ إلى الآية ٢٩[٢].

المقطع الثامن: تعظيم مناسك الحج، ويمتد من الآية: ٣٠ إلى الآية ٣٥[٣].

المقطع التاسع: أعلى أنواع الهدى، ويمتد من الآية: ٣٦ إلى الآية ٣٧[٤].

المقطع العاشر: الإذن بالجهاد، ويمتد من الآية: ٣٨ إلى نهاية الآية ٤١[٥].

المقطع الحادي عشر: تكذيب الرسل قَبْل محمد صلى الله عليه وسلم، ويمتد من الآية: ٤٢ إلى الآية ٤٥[٦].

المقطع الثاني عشر: في الأرض في الماضين عبرة، ويمتد من الآية: ٤٦ إلى الآية ٥١[٧].

المقطع الثالث عشر: الرسول – صلى الله عليه وسلم – بشرٌ صانه الله وعصمه، ويمتد من الآية ٥٢ إلى الآية ٥٥[٨].

المقطع الرابع عشر: الملك لله يوم القيامة، ويمتد من الآية: ٥٦ إلى الآية ٥٩[٩].

المقطع الخامس عشر: نصر الله تعالى وقدرته العليا، وعلمه، ويمتد من الآية ٦٠ إلى الآية ٦٤[١].

---

(١) ينظر المرجع السابق (٩/ ٤٩٦١).
(٢) ينظر المرجع السابق (٩/ ٤٩٦٩).
(٣) ينظر المرجع السابق (٩/ ٤٩٧٦).
(٤) ينظر المرجع السابق (٩/ ٤٩٨٦).
(٥) ينظر المرجع السابق (٩/ ٤٩٨٩).
(٦) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٩٥).
(٧) ينظر المرجع السابق (٩/ ٤٩٩٨).
(٨) ينظر المرجع السابق (٩/ ٥٠٠٤).
(٩) ينظر المرجع السابق (٩/ ٥٠٠٩).

المقطع السادس عشر: فضل الله على خلقه، ويمتد من الآية ٦٥ إلى الآية ٦٩[٢].

المقطع السابع عشر: الله خالق الكل والعليم بما خلق، ويمتد من الآية ٧٠ إلى الآية ٧٤[٣].

المقطع الثامن عشر: الرسل مُصطفَوْن، والرسالات الإلهية متصلة، ويمتد من الآية ٧٥ إلى الآية ٧٨[٤].

ويلحظ عليه أنه ضم بعض الآيات إلى مقاطع، وكان حقها أن تضم إلى مقاطع أخرى، كما هو الشأن مثلا في الآيات من ٤٦ إلى ٤٨، فإن حقها أن تدرج في المقطع الحادي عشر لأنها تكملة لموضوع الاعتبار بالأمم المكذبة للرسل؛ وفصَل بين بعض الآيات، وهي كلها تندرج ضمن موضوع واحد، كما فعل في المقطعين الثامن والتاسع، مع أنهما معا يتعلقان بحج البيت، وكما فعل في المقطعين الخامس والسادس مع أن حقّهُما أن يكونا مقطعا واحدا[٥].

أما أصحاب "التفسير الموضوعي" فقد قسموا سورة الحج إلى اثني عشر مقطعا، متفاوتة في مقدارها، وجعلوا لكل مقطع عنوانا، وهذه المقاطع هي:

المقطع الأول: الأمر بالتقوى والإيمان بالساعة وأهوالها، الآيتان: ١ - ٢.

المقطع الثاني: المجادلة بغير علم، الآيتان: ٣ — ٤.

المقطع الثالث: الأدلة على البعث، الآيات: ٥ — ٧.

المقطع الرابع: تابع المقطع الثاني: المجادلة بغير علم، الآيات: ٨ — ١٦.

---

(١) ينظر المرجع السابق (٩/ ٥٠١٣).

(٢) ينظر المرجع السابق (٩/ ٥٠١٩).

(٣) ينظر المرجع السابق (٩/ ٥٠٢٥).

(٤) ينظر المرجع السابق (٩/ ٥٠٣١).

(٥) وهناك تقسيمان آخران يشابهان هذا التقسيم، أولهما للشيخ محمد محمود حجازي في "التفسير الواضح"، وثانيهما للدكتور وهبة الزحيلي في تفسيره "الوسيط"، ولكنني آثرت عدم الإطالة بذكرهما.

المقطع الخامس: الفصل بين الأمم والاعتبار بهم، الآيات: ١٧ – ٢٤.

المقطع السادس: الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام، الآيات: ٢٥ – ٣٧.

المقطع السابع: الإذن بالقتال والدفاع عن المؤمنين، الآيات: ٣٨ – ٤١.

المقطع الثامن: الاعتبار بهلاك الأمم السابقة، الآيات: ٤٢ – ٤٨.

المقطع التاسع: إحكام الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم، الآيات: ٤٩ – ٦٠.

المقطع العاشر: تابع المقطع الثالث، مزيد من دلائل قدرة الله تعالى، الآيات: ٦١ – ٦٦.

المقطع الحادي عشر: بطلان شريعة ومنهاج المشركين، الآيات: ٦٧ – ٧٦.

المقطع الثاني عشر: أوامر الله للمؤمنين، الآيتان: ٧٧ – ٧٨.

وقد تأملت هذا التقسيم بين موضوعات السورة، فوجدته أوضح وأبين، وبناء على ذلك ارتأيت أن أسير عليه في بيان تناسب موضوعات السورة، إلا أنني قمت بتعديله، فغيرت بعض عناوينه، وأضفت ثلاث آيات من المقطع التاسع وضممتها إلى المقطع الثامن، وأضفت مقطعين آخرين، فصار عددها أربعة عشر مقطعا، وهي:

المقطع الأول: الأمر بالتقوى والإخبار بأهوال الساعة، ويتألف من الآيتين: ١ – ٢.

المقطع الثاني: الإنكار على الضالين المجادلين بغير علم، ويتألف من الآيتين: ٣ – ٤.

والمقطع الثالث: عرض الأدلة على البعث، ويمتد من الآية: ٥ إلى الآية ٧.

المقطع الرابع: مواقف الناس تجاه دين الله، ويمتد من الآية: ٨ إلى الآية ١٦.

المقطع الخامس: الفصل بين الناس وبيان مآلهم في الآخرة، ويمتد من الآية: ١٧ إلى الآية ٢٤.

المقطع السادس: ذم الصد عن المسجد الحرام وبيان نشأته ومظاهر تعظيمه، ويمتد من الآية: ٢٥ إلى الآية ٣٧.

المقطع السابع: الإذن للمؤمنين بالقتال، ويمتد من الآية: ٣٨ إلى الآية ٤١.

المقطع الثامن: تسلية النبي عليه السلام والتنبيه إلى الاعتبار بالأمم السابقة، ويمتد من الآية: ٤٢ إلى الآية ٥١.

المقطع التاسع: التنبيه إلى ما يلقيه الشيطان في أمنية الأنبياء وما يترتب على ذلك، ويمتد من الآية: ٥١ إلى الآية ٥٧.

المقطع العاشر: إنصاف الله للمهاجرين ونصرته للمظلومين، ويمتد من الآية: ٥٨ إلى نهاية الآية ٦٢.

المقطع الحادي عشر: التنبيه على نعم الله تعالى ومظاهر قدرته في الكون، ويمتد من الآية: ٦٣ إلى الآية ٦٦.

المقطع الثاني عشر: الدعوة إلى الإعراض عن المشركين وبيان مدى جهلهم. ويمتد من الآية: ٦٧ إلى الآية ٧٢.

المقطع الثالث عشر: بيان بطلان الشرك واستحقاق الله للطاعة واتباع رسله، ويمتد من الآية ٧٣ إلى الآية ٧٦.

المقطع الرابع عشر: أمر الله للمؤمنين بعبادته والمجاهدة في سبيله، ويتألف من الآيتين الأخيرتين: ٧٧ و٧٨.

وهذا التقسيم اجتهادي كباقي التقسيمات، وقد لا يسلم من ملحوظات. وإنما ذكرته هنا مع ما قبله لأنه فاتني أن أذكر هذا التقسيم التجزيئي في مبحث مقاطع السورة، إذ اكتفيت بعرض مقاطع السورة الكبرى فقط. وسأعرض – بإذن الله تعالى – في المطالب الآتية المناسبة بين كل مقطع مع المقطع الذي يليه، على أنني قد أسترسل في بيان تناسب أجزاء المقطع الواحد الذي قد يتضمن معاني متعددة، والله الهادي إلى سواء السبيل.

**المناسبة بين المقطع الأول والمقطع الثاني:**

المقطع الأول: يتألف من الآيتين، الأوليين من السورة، ومضمونها: الأمر بالتقوى والإخبار بأهوال الساعة، أما المقطع الثاني: فيتألف من الآيتين ٣ – ٤، ومضمونها: الإنكار على الضالّين المجادلين بغير علم.

ووجه المناسبة بينهما: أن الله سبحانه وتعالى لما أخبر في مطلع السورة بأهوال يوم القيامة وشدتها، ودعا الناس إلى تقواه وطاعته، بيّن أن كثيرًا من الناس مع هذا التحذير الشديد يغفلون عن هذا اليوم وينكرون البعث، ويجادلون في أمور الغيب بغير علم[(١)]، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ الآية [سورة الحج: ٣].

وكأن الآية تقول: (إنه في الوقت الذي ينذر رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم – بأخبار يوم القيامة الذي تكون فيه السماوات غيرَ السماوات وتُزلزَل النفوسُ والعقولُ بزلزلة الأرض يكون ناس من المشركين يجادلون في ذات الله تعالى)[(٢)].

وقد تنبه الإمام البقاعي[(٣)] والعلامة ابن عاشور[(٤)] إلى واو العطف في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾ [سورة الحج: ٣]، واستنتجا أن هذه الجملة معطوفة على جملة أخرى، يدل عليها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [سورة الحج: ١]، والتقدير: الناس على عدة أنواع، فمن الناس من يمتثل الأمر ويتقي اللهَ تعالى، فينجو من العذاب ذلك اليوم، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ من يعرض عن ذلك ويجادل بالباطل في ألوهية الله تعالى ووحدانيته وصفاته وقدرته على الإحياء بعد الموت[(٥)].

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٢)، والبحر المحيط (٧/ ٤٨٣)، وتفسير المراغي (١٧/ ٨٥).

(٢) زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٩).

(٣) تقدمت ترجمته.

(٤) تقدمت ترجمته.

(٥) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٦ – ٧)، والتحرير والتنوير (١٧/ ١٩٢).

وبهذا التناسب البيّن يمكننا أن نعدّ الآيات الأربعة الأولى من السورة مقطعا واحدًا. وهذا ما فعله الشيخ سعيد حَوَّى رحمه الله، إلا أنه رأى وجه الارتباط بين الآيتين الأوليين وتاليتيهما أن الله أمر في مطلع السورة بالتقوى، وعلّل لضرورة إقامتها بوصف أهوال الساعة، وذكر في الآيتين الثالثة والرابعة ما يصرف الناس عن التقوى، وهو الجهل بالله، واتباع الشيطان في سبل الضلال[(١)]، ولذلك فهي متسقة بشكل متكامل.

**المناسبة بين المقطع الثاني والمقطع الثالث:**

المقطع الثالث: هو الذي يمتد من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ الآية [سورة الحج: ٥] إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧﴾ [سورة الحج: ٧]. ومضمونه: إقامة الأدلة على البعث.

ومناسبة هذا المقطع للمقطع السابق: أن الله سبحانه لما حكى عن المشركين الجدال بغير علم في الله وقدرته على البعث والحشر، وذمّهم على ذلك، أعاد خطاب الناس – بعد أن أنذرهم بزلزلة الساعة – بالاستدلال على إمكان البعث وتنظيره بما هو أعظم منه، فذكر دليلين واضحين على ذلك[(٢)]:

١ – الاستدلال بخلق الإنسان، وابتداء خلقه[(٣)] وتطوره في سبعة أطوار، وهي: التراب، والنطفة، والعلقة، والمضغة، والإخراج طفلًا، وبلوغ الأشد، والرد إلى الهرم[(٤)]. (فكأنه سبحانه

(١) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٢٢ و٣٥٢٣ – ٣٥٢٤).
(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٣)، والتحرير والتنوير (١٧/ ١٩٦).
(٣) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٥).
(٤) البحر المحيط (٧/ ٤٨٤).

وتعالى قال: إن كنتم في ريب مما وعدناكم من البعث، فتفكروا في خِلقتكم الأولى لتعلموا أن القادرَ على خلقكم أوّلا قادرٌ على خلقكم ثانيا) [(١)].

٢ - الاستدلال بإحياء الأرض بالنبات بعد يبسها في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [سورة الحج: ٥]؛ إذ لما كان الدليل الأول غير مشاهد في بداية تقلبه جاء الدليل الثاني محسوسا مشاهدا بالعيان[(٢)]، فالعاقل إذا شاهد حياة الأرض بعد موتها وتغيرها من حال إلى حال، واعتبر ذلك، ثبت عنده جوازُ الإحياء بعد الموت عقلًا، فإذا ورد خبر الشرع بوقوعه، وجب التصديق بأنه واقع لا محالة[(٣)].

ثم إنه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب[(٤)] والنتيجة على طريق التعليل: ﴿ذَٰلِكَ﴾ [سورة الحج: ٦]، وذكر أمورا خمسة:

أحدها: أن الله موجود وجودا ثابتا دائما، وما سواه فان.

وثانيها: أنه يحي الموتى، وقادر على إحيائهم؛ لأنه لما أحيا النطفة والأرض الميتة، فلا يستبعد منه إعادة الأموات.

وثالثها: أنه على كل شيء قدير، ومن كان كذلك فإنه لا بد وأن يكون قادرا على إعادة الموتى إلى الحياة.

ورابعها: أن الساعة - التي تقدّم ذكرها وتقدّم التحذير منها - آتيةٌ لا ريب فيها، ولا شك فيها بوجه من الوجوه مما دلّ عليها مما لا سبيل إلى إنكاره، وهو حكيم لا يخلف ميعاده، ولا يسوغ بوجه أن يترك عباده بغير حساب.

---

(١) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٣).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ١٢)، والسراج المنير (٢/ ٥٣٩).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٨٤).

(٤) ينظر تفسير الخازن (٣/ ٢٤٩).

وخامسها: أن الله يبعث بالإحياء من في القبور بمقتضى وعده الذي لا يقبل الخلف[1].

والتفت البقاعي إلى ملحظ آخر، وهو أن هذا الخطاب غير موجه للمنكرين للبعث، وإنما هو لمن يُصدِّق به ولكنه يعمل عمل من ينكره وكأنه في شك، فقال: (ولما حذّر الناسَ من ذلك اليوم، وأخبر أن منهم من يكذب، وعرف بمآله، فأفهم ذلك أن منهم من يصدق به فيكون له ضد حاله، وكان كثير من المصدقين يعملون عمل المكذبين، أقبل عليهم سبحانه إقبالًا ثانيًا رحمةً لهم، منبهًا على أنه ينبغي أن لا يكون عندهم نوع من الشك في ذلك اليوم لما عليه من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، فقال دالًّا عليه بالأمرين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ الآية [سورة الحج: ٥])[2]. ثم قال: (ولما تم هذا الدليل على الساعة محكم المقدمات واضح النتائج، وكان أول الإيجاد فيه غير مشاهد فعبر عنه بما يليق به، أتبعه دليلًا آخر محسوسًا، وعطفه على ما أرشد إليه التقدير من نحو قوله: تجحدون أيها الناس ما ذكرناه في أنفسكم، فقال: ﴿وَتَرَى﴾)[3].

وذهب النِّظَام النيسابوري[4] إلى أنه سبحانه أزال الشك في أمر البعث بذيْنك الدليلين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ الآية [سورة الحج: ٥]، ثم لما

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٥ – ٢٠٦)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٤٩)، ونظم الدرر (١٣/ ١٣)، والسراج المنير (٢/ ٥٣٩).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٨).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ١٢).

(٤) هو نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين الخراساني النيسابوري. ولد ونشأ بنيسابور، وأقام بمدينة قُمّ. كان ملما بالعلوم العقلية والنقلية، عارفا بفنون العربية، عالما بالقراءات والتفسير، وكان له اشتغال بالحكمة والرياضيات، وضم إلى ذلك الورع والتقوى، ومعرفة واسعة بالتصوف. من كتبه "أوقاف القرآن"، و"لبّ التأويل"، وتفسيره "غرائب القرآن ورغائب الفرقان"، و"شرح الشافية في الصرف"، توفي بعد سنة ٨٥٠ هـ. ينظر روضات الجنات (ص ٢٢٥)، والذريعة (٤/ ٢٠٦) والأعلام للزركلي (٢/ ٢١٦)، ومعجم المفسرين (١/ ١٤٦). ونسب إلى التشيع على وجه الظن، والصحيح أنه سني في معتقده على طريقة الأشاعرة، ينظر الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة (١/ ٧١٩ – ٧٣٨).

كان لسائل أن يسأل: لم خُلِق الإنسان؟ وما يترتب عليه معاشه؟ أجاب سبحانه بأن لخلق الإنسان أسبابًا فاعلية وأسبابا غائيّة؛ فأما الأسباب الفاعلية فهي أنه تعالى واجب الوجود الحق، وأنه قادر على كل مقدور، لا سيما إحياء الموتى الذي استدلّ عليه لأنه أهون، وأن قدرته لا تظهر إلا إذا تعلقت بالمقدور: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ [سورة الحج: ٦]، (فكمال القدرة بالفعل هو أن يتعلق بكل مقدور يصح في القسمة العقلية، وهذا النوع من المقدور كان ثابتا في القسمة لأنه واسطة بين العالم العلوي والعالم السفلي، وله تعلُّقٌ بالطرفين وانجذاب إلى القبيلين فوجب في الحكمة والقدرة إيجاده، ثم إيجاد ما يتوقف عليه بقاؤه واستكماله. وأما علته الغائية فهي أن داره الأولى كانت دار تكليف، وقد هيأنا له دارا أخرى لأجل الجزاء، وذلك لا يحصل إلا بالبعث والنشور)[1]: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [سورة الحج: ٧]، وهذا كلام متَّجه.

أما الشيخ سعيد حوّى فقد أراد أن يربط هذه الآيات بمطلع السورة، ولكنه أتى بوجه فيه شيء من التكلف والخفاء فقال: (إن التقوى لها طريق هو عبادة الله، وعبادة الله مرتكزها معرفته الصحيحة، ومعرفته الصحيحة تقتضي معرفة حكمته في خلق الأشياء، وذلك يوصلنا إلى الإيمان باليوم الآخر، وهذه المجموعة دللت على اليوم الآخر، ولفتت نظر الإنسان إلى شيئين يذكران به: خلق الإنسان، وإحياء الأرض الميتة، وعرفتنا بذلك على الله، ومما عرفتنا به على الله، أن الله ما كان ليخلق الخلق لولا الساعة والبعث، مما يدل على أن الساعة والبعث تقتضيهما الحكمة، ومن ظن أنه لا ساعة ولا بعث فإنه لا يكون قد عرف لله الحكمة)[2].

## المناسبة بين المقطع الثالث والمقطع الرابع:

المقطع الرابع: يتحدث عن مواقف متعددة للناس من الدين، ويمتد من الآية الثامنة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ [سورة الحج:

---

(١) غرائب القرآن (٥/ ٦٧). وقد قال بعد ذلك: (ولعل هذا الموضع مما لم يفسره على هذا الوجه غيري أرجو أن يكون صوابا، والله تعالى أعلم بمراده).

(٢) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٣٠).

٨]، إلى الآية السادسة عشر، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحج: ١٦]. ويبدو أن هذا المقطع تتمة للمقطع الثاني، فالواو في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: ٨] هي واو العطف، عطفت جملة الكلام على ما قبلها[(١)]، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [سورة الحج: ٣].

ورأى ابن عاشور أن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [سورة الحج: ٨] عطف على جملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ الآية [سورة الحج: ٥]. والمعنى: إن كنتم في ريب من وقوع البعث فإنا نزيل رييكم بهذه البراهين الساطعة، والناس بعد ذلك فريقان: فمنهم فريق يوقن بهذه الأدلة فلا يبقى في ريب، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فريقٌ ﴿يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ وهؤلاء هم أئمة الشرك ودعاة الضلالة[(٢)]. أما جملة ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [سورة الحج: ٧]، فرأى أنها معترضة بين المتعاطفات.

وعلى القول الأول فالمناسبة بين المقطعين أن الله سبحانه لما ذكر في الآيتين الثالثة والرابعة قبلها حال الضُّلَّال المقلدين الذين يتبعون شياطين الإنس والجن، وأتبعه بذكر الأدلة على البعث، أردف ذلك بذكر حال متبوعيهم من الدعاة إلى الضلال ورؤوس الكفَرة وزعماء الباطل[(٣)]، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [سورة

(١) ينظر البحر المحيط (٧/ ٤٨٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٩)، وتفسير المراغي (١٧/ ٩١). وهذا على القول بأن الآية ٣ هي في الأتباع المقلِّدين، والآية السابعة في المتبوعين المقلَّدين، وهو الأظهر في النظم والأوفق للمقام. ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٦)، وغرائب القرآن (٥/ ٦٧)، وروح المعاني (٩/ ١١٧)، وأضواء البيان (٤/ ٢٨٠).

الحج: ٨ – ٩]. فكأنه تعالى يقول: ومع وضوح الأدلة على البعث من الناس من يجادلون في قدرة الله عليه، ويصرُّون على إنكاره مستكبرين عن الحق.

ولما بيّن تعالى قسمي المجاهرين بالكفر من الضّالين المقلِّدين، الذين يجادلون في شأن الله بلا بيّنة ولا دليل، وحال المضلين الذين يجادلون بلا سلطان من عقل، ولا برهان صحيح من نقل، وبيَّن سوء مآلهما في الدنيا والآخرة، أعقب ذلك بذكر قوم مضطربي الإيمان، مُذبذَبين في دينهم، لا ثبات لهم في عقيدتهم، ولا استقرار لهم في عبادتهم، إن أصابوا خيرًا فرحوا به، وإن نالتهم شدة في أنفسهم أو أهليهم أو أموالهم ارتدوا كفَّارًا، فلحقهم الخسار في دينهم ودنياهم، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [سورة الحج: ١١][(١)].

وهؤلاء فريق آخر من الذين يقابلون الأمر بالتقوى والإنذار بالساعة مقابلةَ غيرِ المطمئن بصدق دعوة الإسلام، ولا المعرض عنها إعراضا تاما، ولكنهم يضعون أنفسهم في معرض الموازنة بين الإسلام ودينهم القديم، فهم يقبلون دعوة الإسلام ويصيرون في عِداد متبعيه، ويرقبون ما ينتابهم بعد الدخول فيه، فإن أصابهم الخير ظنوا أن الإسلام حق، وأن ما كانوا يعبدونه باطل؛ إذ لو كانت تلك الآلهة تقدر على شيء لانتقمت منهم على تركهم لعبادتها، وإن أصابهم شر من شرور الدنيا العارضة توهموا أن آلهتهم أصابتهم بسوءٍ عقوبةً لهم على نبذهم إياها، فيتركون الإسلام ويرجعون إلى عبادة ما كانوا يعبدون[(٢)].

ثم لما ذكر في الآية السالفة حال المذبذبين وسفّه رأيَهم، وحال معبوديهم، وتوعدهم بالخسران في الآخرة، عقَّبه بذكرِ حال مخالفيهم من أهل الإيمان الذين يؤمنون ويعبدون اللهَ القادرَ على نفعهم، وبيانِ ما وعدهم به من الثواب العظيم[(٣)]، ولما ذكر أن الأصنام لا تنفع من

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٨)، ونظم الدرر (١٣/ ١٦)، وتفسير المراغي (١٧/ ٩٣).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٠ – ٢١١).

(٣) ينظر البحر المحيط (٧/ ٤٩١ – ٤٩٢)، وغرائب القرآن (٥/ ٦٨)، وتفسير المراغي (١٧/ ٩٦).

عبدها، قابل ذلك بأن الله ينفع من عبده بأعظم النفع، وهو دخول الجنة[1]، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ [سورة الحج: ١٤].

ورأى البقاعيُّ أن الآية جاءت استطرادا على ما يُفهَم من الآيات التي سبقتها فقال: (ولما أفهم ما تقدم أن هذا الإله المدعو إليه قادرٌ على كل من النفع والضُّر بالاختيار، وأن تجويز الوقوع لكل منهما منه على حد سواء، نبه على ذلك بقوله مستأنفًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الآية [سورة الحج: ١٤][2].

أما الشيخ سعيد حوى فرأى بنظره الشمولي المرتبط بمقصد السورة أن وجه اتساق الآيات المتقدمة بما سبقها أن الله تعالى لما دعانا إلى تقواه عزّ وجل وبين ما يبعثنا علي سلوك طريقها، نبه على العوارض التي تقطع على الناس طريق التقوى، فذكر نموذجا من الناس يحاول أن يضل الناس عن دين الله، ويجادل في شأن الله بغير علم، والحاملُ له على ذلك الكبر، وذكر جزاء هذا الصنف من الناس، تحذيرا للناس أن يكونوا مثلهم، وتحذيرا للمؤمنين أن يصرفهم هذا الصنف عن طريق التقوى، ثم نبه إلى قاطع آخر يقطع طريق التقوى وهو ربط الإيمان بصلاح الدنيا، فبين الخسران الذي يحيق بأولئك الذين يتركون عبادة الله إذا ما تعرضوا لشدة أو محنة، ثم بشر المؤمنين الصادقين بما أعده لهم من الثواب حضا لهم على السير في طريق التقوى والثبات عليها[3].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٤).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٢٠). وينظر روح المعاني (٩/ ١٢١). ورأى ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٧) أن هذه الجملة معترضة، وأنها وردت مقابلة لقوله فيما تقدم ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩﴾ [الحج: ٩]، وقوله: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [الحج: ١١]، وجملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ [الحج: ١٤] تذييل للكلام المتقدم من قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الحج: ٨] إلى هنا، وهو اعتراض بين الجمل الملتئم منها الغرض، وفيها معنى التعليل الإجمالي لاختلاف أحوال الناس في الدنيا والآخرة.

(٣) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٣٢ و٣٥٣٤).

ثم أخذ الله تعالى في توبيخ أولئك المذبذَبين، فقال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾ [سورة الحج: ١٥]، فهي تذييلٌ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ [سورة الحج: ١١] بعد جمل معترضة بينهما، كأنه تعالى يقول: هؤلاء الذين يعبدون الله على حرف، ويتملكهم الخوف والجزع، يظنون أن الله لن ينصرهم في الدنيا ولا في الآخرة إن بقوا على الإسلام، ليأسهم من النصر في الدنيا، وعدم إيقانهم بالبعث، فمن كان يظن هذا الظن فليمدد حبلا وليخنق به نفسه، ولينظر هل يذهب غيظه بذلك[1]. وهذا الوجه كما ترى جارٍ على القول بأن الضمير في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ﴾ يرجع إلى الظانِّ نفسِه.

وساق العلامة ابن عاشور احتمالا آخر: وهو أن يكون موقع هذه الآية استئنافا ابتدائيا أُريدَ به ذكرُ فريقٍ ثالث يشبه من يعبد الله على حرف، ولكنه غيرُ الفريقيْن المتقدميْن، وإنما هم جماعة أسلموا في فترة ضعف الدعوة الإسلامية، واستبطأوا النصر فأيسوا منه، وغاظهم تعجُّلُهم للدخول في الإسلام، فضاقت صدورهم، وخطرت لهم خواطر شيطانية بأن يتركوا الإسلام ويرجعوا إلى الكفر، فزجرهم الله وهددهم بأنهم إن كانوا آيسين من النصر في الدنيا ومرتابين في نيل ثواب الآخرة، فإن ارتدادهم عن الإسلام لن يضر الله ورسوله، ولن يكيد للدين وأهله، وإن شاءوا فلْيختنقوا ولْينظروا: هل يزيل الاختناق غيظَهم، ولعل هؤلاء من المنافقين[2].

وعلى هذا فوجْه المناسبة أنه تعالى لما ذكر فريقين أعرضوا عن الاستجابة لأمر الله تعالى بالجدال بالباطل، ذكر أن ثمة فريقا آخر يعرض عن دعوة الله تعالى لسوء ظنه بالله واستبطائه لنصرته لها، أو يأسه منه[3].

---

(١) ينظر البحر المحيط (٧/ ٤٩٢)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢١٨). وقال ابن عاشور: (ويترجح هذا الاحتمال بتغيير أسلوب الكلام، فلم يعطف بالواو كما عطف قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾ [الحج: ١١]، ولم تورد فيه جملة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ كما أوردت في ذكر الفريقين السابقين).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٨ و٢٢٠).

(٣) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٣٧).

وأما على القول بأن الضمير في قوله تعالى: ﴿لَّن يَنصُرَهُ﴾ [سورة الحج: ١٥] راجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن وجه المناسبة أن الله تعالى لما ذكر في الآيات قبلها حال المجادلين بالباطل، وما يؤول إليه أمرهم من الخزي والنكال في الدنيا، والخسران في الآخرة، خلافا لأهل الحق من المؤمنين، قفَّى على ذلك، بذكر المجادِل عنهم وعن دين الله بالتي هي أحسن، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالغ في إثبات أنه مُؤيَّد منصور من ربه بما لا مزيد عليه[(١)].

وقد الكفار والمنافقون يغتاظون من انتشار دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وازدياد أتباعه والتفافهم حوله، ويتمنون أن تندحر دعوته، (فجاءت هذه الآية لقطع أطماعهم، ورد كيدهم في نحورهم)[(٢)].

ولما تضمنت الآيات السابقة بيان أحوال الناس تجاه دعوة الإسلام بما لا يبقى بعده التباس، عقّبت بالتنويه بتبيينها، والإشارة إلى أنه ما من حالة إلا وفي القرآن تفصيلها الواضح[(٣)]، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحج: ١٦].

فالجملة معطوفة على الجمل التي قبلها عطفَ غرض على غرض. والمناسبة ظاهرة، فهي استئناف ابتدائي[(٤)]، والله أعلم.

### المناسبة بين المقطع الرابع والمقطع الخامس:

المقطع الخامس من السورة: يتحدث عن الفصل بين أهل الملل وبيان مآلهم في الآخرة، ويبتدئ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ

(١) ينظر روح المعاني (٩/ ١٢١)، وتفسير المراغي (١٧/ ٩٧).
(٢) التفسير الواضح (٢/ ٥٧٢).
(٣) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٢٢)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٢١)، والأساس في التفسير (٧/ ٣٥٣٧).
(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢١).

وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ [سورة الحج: ١٧]. إلى الآية الرابعة والعشرين، وهي قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ [سورة الحج: ٢٤].

والمناسبة بين المقطعين: أن الله تعالى بعدما ذكر أحوال المشركين والمذبذبين والمنافقين والمؤمنين في المقطع الرابع، بيّن في المقطع الذي يليه أن مردّ الفصل بين الفِرَق المختلفة إليه وحده، فيقضي بينهم جميعا يوم القيامة، ليظهر المحق من المبطل[1]، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ [سورة الحج: ١٧].

ومن جهة أخرى، فإن الله تعالى لما حكى في الآيات السابقة سوء أحوال الكفار – تابعيهم ومتبوعيهم والمذبذبين منهم – وبيّن سوء مصيرهم، وحُسْنَ حال المؤمنين الصالحين وجميلَ مثوبتهم، وختم ذلك بالإشارة أنه تعالى مؤيِّدٌ رسولَه بالنصر في الدنيا والآخرة، جاءت هذه الآية الكريمة لتؤكد نصرته هو وأتباعه في الآخرة على جميع الفرق الكافرة[2].

وهذا المعنى الأخير هو الذي انتصر له الشيخ سعيد حوى، إذ رأى أن الله عزّ وجل بعد أن ذكر قضية اليأس من نصر الله في الدنيا والآخرة، قرر في الآية الأولى من هذا المقطع مؤكدا أنه سيفصل بين أهل العقائد المختلفة يوم القيامة، وأن أهل الإيمان منتصرون حتما في الآخرة، وهذا هو النصر الكبير[3]. ثم بين أن كل شيء خاضع له سبحانه، ثم بين عاقبة المتخاصمين فيه في الآخرة، وأن المؤمنين سيتنعمون فيها بألوان من النعيم؛ وهكذا عرَّفَنا سبحانه أن النصر

(١) التفسير المنير (١٧/ ١٧٦).

(٢) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٩٤).

(٣) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٣٨).

الحقيقي هو النصر في الآخرة، أما النصر الدنيوي فيؤخر البشارة به لمن يستحقه إلى مقطع لاحق[1].

وذكر ابن عاشور أن هذه الآية فذلكة لما تقدم، (لأنه لما اشتملت الآيات السابقة على بيان أحوال المترددين في قبول الإسلام كان ذلك مثارا لأن يُتساءل عن أحوال الفرق بعضهم مع بعض في مختلف الأديان، وأن يُسأَل عن الدين الحق، لأن كل أمة تَدَّعي أنها على الحق وغيرها على الباطل وتجادل في ذلك. فبينت هذه الآية أن الفصل بين أهل الأديان فيما اختصموا فيه يكون يوم القيامة، إذ لم تُفِدهم الحجج في الدنيا)[2].

أما مناسبة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ [سورة الحج: ١٧] للآية التي تسبقها مباشرة، فهي أن الله تعالى لما ذكر أنه يهدى من يريد بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾ [سورة الحج: ١٦]، واقتضى ذلك أنه سبحانه لا يهدي من لا يريد هدايته[3]، أتبعه ببيان من يهديهم تعالى ومن لا يهديهم، حتى يتميز المهتدي من الضال من الفرق كلها[4]، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [سورة الحج: ١٧].

أما الإمام البقاعي فقد رأى أنه لما كان قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾ [سورة الحج: ١٦] موجبًا للسؤال عن حال الفريقين: المهْديّ والضالّ، أجاب تعالى عن ذلك ببيان جميع فرق الضلال، لأن لهذه السورة أتمَّ نظر إلى يوم الجمع الذي هو مقصود السورة التي

---

(١) ينظر المرجع السابق (٧/ ٣٥٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢٢).

(٣) البحر المحيط (٧/ ٤٩٣).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٢)، وغرائب القرآن (٥/ ٧٠)، والسراج المنير (٢/ ٥٤٢)، وتفسير المراغي (١٧/ ٩٩).

قبلها، وهي سورة الأنبياء، فقصد إلى استيعاب الفرق تصويرًا لذلك اليوم بأليق صورة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ الآية [سورة الحج: ١٧] [(١)].

ثم إنه سبحانه لما بيّن في الآية الآنفة الذكر أنه يقضي بين أهل الملل السالفة يوم القيامة، وأنه تعالى شهيد على أقوالهم وأفعالهم، أردف ذلك ببيان أنه ما كان ينبغي لهم أن يختلفوا، لأنهم يرون أن جميع العوالم العلوية والسفلية كبيرها وصغيرها – وفي مقدمتها الشمس والقمر والنجوم والجبال والأشجار والدواب – خاضعةٌ لجبروته، مسخرةٌ لأمره تعالى، وقد كان في هذا دليل على استحقاق الله للعبادة، وفيه مقنع لهم لو أرادوا الخضوع لله، ولكنّ كثيرا من الناس أبوْا ذلك، فحقَّ عليهم الهوانُ في الدنيا والعذاب في الآخرة[(٢)]، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الحج: ١٨] الآية.

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٣).

(٢) تفسير المراغي (١٧/ ١٠٠)، وينظر التفسير المنير (١٧/ ١٧٦). وقال الألوسي في روح المعاني (٩/ ١٢٥): (وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ١٨] إلخ بيانٌ لما يوجب الفصل المذكور من أعمال الفرق مع الاشارة إلى كيفيته وكونه بطريق التعذيب والإثابة والإكرام والإهانة، وجوّز أن يكون تنويرا لكونه تعالى شهيدا على كل شيء. وقيل: هو تقريع على اختلاف الكفرة واستبعاد له لوجوب الصارف). ويرى ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢٥) أن هذه الآية (جملة مستأنفة لابتداء استدلال على انفراد الله تعالى بالإلهية. وهي مرتبطة بمعنى قوله: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحج: ١٢، ١٣] ارتباط الدليل بالمطلوب؛ لأن دلائل أحوال المخلوقات كلها عاقلها وجمادها شاهدة بتفرد الله بالإلهية. وفي تلك الدلالة شهادة على بطلان دعوة من يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه. وما وقع بين هاتين الجملتين استطراد واعتراض). وفي التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٩٦) أن هذه الآية (جاءت لتأكيد قدرة الله على الفصل بين هذه الفرق التي ذكرت في الآية السابقة وهي التي اختلفت إيمانا وكفرا، ببيان خضوع كل شيء في هذا الكون له تعالى، ومن كان كذلك فإنه لا يصعب عليه الفصل بين من أطاعه ومن عصاه).

ورأى البقاعي أنه لما كان جميع ما تقدم في هذه السورة دالًّا على أنه على كل شيء قدير، وأنه يفعل ما يريد، وختم ذلك بأنه بكل شيء عليم، لا يغيب عنه شيء، وكان ذلك يقتضي قيوميته، وكان بحيث يستعظم لكثرة الخلائق واختلاف أحوالهم، قرر ذلك في جواب من كأنه سأل، فهي في معنى العلة[(١)]، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [سورة الحج: ١٨].

ولما ذكر تعالى أنّ خلْقَه قسمان، منهم من يسجد له كسائر المخلوقات، ومنهم من يكفر به ولا يسجد له، فقال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [سورة الحج: ١٨]، ذكر أنهما خصمان متقابلان، وبيّن أن ما بينهما من الخصومة هي في دينه عزّ وجلّ[(٢)]، فقال: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾ [سورة الحج: ١٩]. أي هما فريقان خصمان: فريقُ المؤمنين، وفريقُ الكفرة المنقسمُ إلى الفرق الخمسة المذكورة في الآية السابقة[(٣)]، كما يستفاد من قول ابن عبّاس رضي الله عنهما[(٤)].

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٢٥).

(٢) ينظر البحر المحيط (٧/ ٤٩٥)، وصفوة التفاسير (٢/ ٢٦٢)، والسراج المنير (٢/ ٥٤٣). وعبر عن ذلك ابن عاشور بقوله في التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢٨): (جملة ﴿۞هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ موقع الاستئناف البياني. لأن قوله ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج: ١٨] يثير سؤال من يسأل عن بعض تفصيل صفة العذاب الذي حق على كثير من الناس الذين لم يسجدوا لله تعالى، فجاءت هذه الجملة لتفصيل ذلك، فهي استئناف بياني. فاسم الإشارة المثنى مشير إلى ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج: ١٨] من انقسام المذكورين إلى فريقين أهل توحيد وأهل شرك كما يقتضيه قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج: ١٨] من كون أولئك فريقين: فريق يسجد لله تعالى، وفريق يسجد لغيره).

(٣) ينظر روح المعاني (٩/ ١٢٧).

(٤) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٣١)، والكشاف (٣/ ١٥٠)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢١٥)، وغرائب القرآن (٥/ ٧١).

ثم بيّن تعالى مآل كل من الفريقين، من الإهانة والكرامة، والعذاب والنعيم[1]، فابتدأ ببيان ما لفريق الكفار من العذاب الذي أُشيرَ إليه إجمالا في الآية السابقة بقوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [سورة الحج: ١٨]، فقال سبحانه: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحج: ١٩ – ٢٢].

ولما ذكر تعالى ما أعدّه للكافرين – على اختلاف أنواعهم – من عذاب ونكال، وجحيم وأغلال، ذكر ما أعده من الثواب والنعيم للخصم الآخر، وهم المؤمنون[2]، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحج: ٢٣ – ٢٤].

فبين تعالى ما يناله المؤمنون من الكرامة في المسكن والحلية والملبس وحسن القول والعمل[3]. وظاهرٌ أن هذا الكلام قسيمٌ للذي قبله في تفصيل إجمال قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾ [سورة الحج: ١٩]، فوصف حال المؤمنين يقابل حال الذين كفروا في المكان واللباس وخطاب الكرامة. فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [سورة الحج: ٢٣] إلخ يقابل قوله سبحانه: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [سورة الحج: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ﴾ [سورة الحج: ٢٣] يقابل قوله سبحانه: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ الخ [سورة الحج: ١٩]. وقولُه تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾[سورة الحج: ٢٣]

---

(١) تفسير المراغي (١٧/ ١٠١ – ١٠٢).

(٢) ينظر البحر المحيط (٧/ ٤٩٦)، وغرائب القرآن (٥/ ٧٤)، والسراج المنير (٢/ ٥٤٥)، وتفسير الألوسي (٩/ ١٣٠).

(٣) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٠٣).

يقابل قوله سبحانه: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [سورة الحج: ١٩]. وقوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [سورة الحج: ٢٤] يقابل قوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحج: ٢٢] فإنه من القول النكِد[(١)].

**المناسبة بين المقطع الخامس والمقطع السادس:**

يبتدئ المقطع السادس بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥]. وينتهي بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الحج: ٣٧]، ومضمونه ذم الصد عن المسجد الحرام وبيان نشأته ومظاهر تعظيمه.

ومناسبة هذا المقطع كُلِّه لما قبله أن الله تعالى حين ذكر مآل أهل الإيمان، وعاقبة أهل الكفر على اختلاف طوائفهم، ناسب أن يذكر واحدا من أهم الفروق التي تميز بين الفريقين، فالكفار لا يعظمون الله ولا شعائره، ولا يُوَقِّرون الوافدين على بيت الله الحرام، وإنما يكفرون بالله ويصدون الناس عن بيته سبحانه، ويُلحدون في البلد الحرام. أما المؤمنون فهم يحجون إلى بيت الله الحرام طاعة لله وتقربا إليه، ويعظمون شعائر الله وحرماته[(٢)].

ومناسبة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [سورة الحج: ٢٥] لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر مآل كلٍّ من الكفار والمؤمنين، أردف ذلك بذكر إحدى أكبر الجرائم التي يستحق بها الكفار العذاب، وهي الصد عن سبيل الله، وبيّن عِظَم جُرم مشركي قريش الذين كانوا يصدون المؤمنين عن إتيان البيت الحرام وقضاء

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٣١).

(٢) ينظر مدارسة سور القرآن: سورة الحج (ص١٢).

مناسكهم فيه، مع أنهم كانوا يَدَّعُون أنهم حُماته وأولياؤُه[1]، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ الآية [سورة الحج: ٢٥].

ورأى البقاعي أن هذا عودٌ للحديث عن الكفار، وأنه تعالى لما بيّن جزاء الفريقين، وذكر عند الحديث عن ثواب المؤمنين أعمالَهم الصالحةَ الدالّةَ على صدق إيمانهم، عاد إلى ذكر الكفار (وبيانِ ما يدل على استمرار كفرهم، ويؤكد بيان جزائهم)[2].

ويرى ابن عاشور أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ الآية، يقابل قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾ [سورة الحج: ٢٤] بالنسبة إلى أحوال المشركين؛ إذ لم يسبق لقوله ذلك مقابلٌ في الأحوال المذكورة في آية: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾ [سورة الحج: ١٩] إلخ الآيات. فموقع هذه الجملة الاستئناف البيانيّ. (والمعنى: كما كان سبب استحقاق المؤمنين ذلك النعيم اتباعهم صراطَ الله، كذلك كان سبب استحقاق المشركين ذلك العذاب كفرهم وصدهم عن سبيل الله.

وفيه مع هذه المناسبة لما قبله تخلصٌ بديع إلى ما بعده من بيان حقِّ المسلمين في المسجد الحرام، وتهويل أمر الإلحاد فيه، والتنويه به وتنزيهه عن أن يكون مأوى للشرك ورجس الظلم والعدوان)[3].

وحين انجرّ الكلام إلى ذكر المسجد الحرام الذي يستبد به المشركون، ويعبدون فيه الأصنام، ويمنعون منه الموحدين بالله، أتبعه تعالى بالتذكير بخبر إنشائه والغرض من بنائه، وبيّن أنه أُسِّسَ من أول يوم على توحيد الله تعالى، وأنه ما كان ينبغي للمشركين أن يصدوا الناس

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢١٦)، والسراج المنير (٢/ ٥٤٦)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٠٥)، والتفسير المنير (١٧/ ١٨٨).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٣٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٣٥).

عنه، فإن أباهم إبراهيم الذي يفتخرون بالانتساب إليه، هو الذي بناه ليكون مثابةً للناس جميعا، وطهّره بأمر الله للطائفين والمصلين من كل الأقذار الحسية والمعنوية، ونادى بالحج ليأتيه الناس من كل حدَب وصوب، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الحج: ٢٦ – ٢٧]، وفيها من التوبيخ والتقريع لقريش ما هو ظاهر لمن تأمل[(١)].

ولما ذكر تعالى حج بيته الحرام استطرد إلى بعض مناسكه التي يظهر فيها توحيد الله تعالى وتعظيمه، وما تنطوي عليه من ذكرٍ لله تعالى وتقرب إليه وغرسٍ لتقواه وتعظيمه في القلوب، مشيرا إلى ما لحجاج البيت في تلك المناسك من منافع دينية ودنيوية[(٢)]. وإنما تحدث عن عبادة الحج، لأنه يذكّر الحاج بيوم القيامة الذي يحْمِل من تذكره على التقوى التي هي مقصد السورة، بما فيه من الوِفادة على بيت الله، مع التجرد من اللباس، وترك الترفُّه، ومخالفة المعهود، والخضوع لله، والاجتماع في المشاعر موقفًا في أثر موقف، ولما فيه من الحث على التسنن بأبيهم الأعظم إبراهيم عليه السلام[(٣)].

وأشار ابن عاشور إلى أن جملة ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [سورة الحج: ٢٦] معطوفةٌ على جملة ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥] عطفَ قصة على قصة، ويعلم منها تعليل الجملة المعطوفة عليها، والمعنى: أن من أراد الإلحاد في المسجد الحرام ظلمًا فإنه يستحق أليم العذاب، لأنه خالف بذلك ما أراده الله من تطهير بيته حين أمر ببنائه، ومن وجه آخر فإن في ذكر خبر بناء البيت الحرام ومنشأ تشريع

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٣)، وغرائب القرآن (٥/ ٧٦)، ونظم الدرر (١٣/ ٣٥)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٠٦ – ١٠٧)، وفي ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٨)، والأساس في التفسير (٧/ ٣٥٥١)، والتفسير المنير (١٧/ ١٩٣).

(٢) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٠٧)، وفي ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٧).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٣٥).

الحج دليلًا يثبت كُفران قريش لنعمة الله حين جعلهم سكّانًا لبلده وجيرانا لبيته، ويظهر ظلمهم حين يصدون الناس عن الوفادة إليه والعبادة فيه[1].

ولما ذكر تعالى عبادة الحج أشار إلى أن اجتنابَ المحرمات حالَ الإحرام وتعظيمَ أفعال الحج وسائر أوامر الله تعالى خير عند الله مثوبةً وأعظمُ أجرًا، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٠][2].

ولما كان التقدير: فقد حرمت عليكم أشياء أن تفعلوها، وأشياء أن تتركوها، عطف عليه قوله بيانًا أن الإحرام لا يجعل ذبح الأنعام حراما كما يقتضي تحريم الصيد فقال: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٠]، ولما كان ذلك يُفهَم منه حِلّ السوائب ونحوها وتحريم ما ذبح للأنصاب، وكان سبب ذلك كله الأوثان[3]، أمر الله باجتنابها والاستقامة على التوحيد[4]، فقال: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟﴾ [سورة الحج: ٣٠ – ٣١]، ثم استطرد إلى بيان عظمة التوحيد ورفعته، وفظاعة الشرك ودناءته، فقال سبحانه زاجرًا عنه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الحج: ٣١].

ثم إنه سبحانه أكد ما تقدم فقال: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢][5]، ولما كان الهدْيُ من شعائر الله، وكان لسائل أن يسأل: ما بال هذه

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٠).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٤١).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٤٢).

(٤) أما الفخر الرازي ومن تبعه فرأوا أنه سبحانه لما حث على تعظيم حرماته وذكر أن تعظيمها خير لمعظِّمها أتبعه بالأمر بما هو أعظمُ أنواعها وأقدمُ أصنافها قائلا: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾، ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٣)، والبحر المحيط (٧/ ٥٠٤)، وغرائب القرآن (٥/ ٧٩).

(٥) تفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٣).

الحيوانات تذبح فيتقرب بها إلى الله تعالى؟ قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الحج: ٣٣][(١)]. وبعد أن ذكر سبحانه أن تعظيم الشعائر من أعظم دعائم التقوى، وأن محل نحرها هو البيت العتيق، أتبع ذلك ببيان أن الذبح ونحر الهدي على وجه التقرب إليه تعالى ليس خاصا بهذه الأمة، بل كان في الشرائع السابقة، ليذكروا اسم الله عند ذبحها ويشكروه على توفيقه لهم إلى إقامة هذه الشعائر[(٢)]، فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٣٤]. ثم ذكر تفرده بالإلهية وأن ذلك يقتضي اختصاصه بالطاعة فقال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ﴾ [سورة الحج: ٣٤]. ثم أمر نبيه عليه السلام بتبشير المخبتين، وبيّنهم بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥][(٣)].

ثم لما حث الله سبحانه فيما تقدم على التقرُّب بالأنعام كلها، وبين أن ذلك من تقوى القلوب، خص من بينها أعظمَها خلقةً، وأنفسَها قيمة، فقال: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [سورة الحج: ٣٦][(٤)].

ثم مَنَّ تعالى على عباده بأن سخر لهم البُدْن أن يحتبسوها مُصْطفّة منتظمة القوائم لينحروها فقال: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الحج: ٣٦]، ثم بين الله المقصود منها، فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٧]. ثم كرر مِنّة التسخير وأن

---

(١) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٨٠).

(٢) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١١٢).

(٣) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٨١).

(٤) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٨١)، وتفسير المراغي (١٧/ ١١٤).

الغاية تكبير الله وشكره على الهداية إلى أعلام دينه ومناسك حجه، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الحج: ٣٧][(١)].

وكل ما تقدم من ذكر بعض مناسك الحج وشعائره إنما جاء على سبيل الاستطراد بمناسبة ذكر المسجد الحرام[(٢)].

ويمد الشيخ سعيد حوَّى نظره إلى أجزاء السورة السابقة واللاحقة، فيرى أن هذا المقطع جسر يصل بين ما قبله وما بعده، ويحدد في الوقت نفسه معالم كبيرة في موضوع التقوى الذي هو مقصد السورة؛ ذلك أن المقطع الرابع تضمن الإنكار على من ييأس من نصرة الله للمسلمين في الدنيا والآخرة، ثم بيّن المقطع الخامس كيف ينصر الله تعالى أولياءه في الآخرة، ولم يذكر نصرتهم في الدنيا، وإنما أرجأها إلى المقطع السابع، وخصص هذا المقطع لبيان مسوغات الإذن للمسلمين في القتال، فالذين كفروا يصدون المسلمين عن سبيل الله وعن المسجد الحرام الذي أقامه إبراهيم عليه السلام للتوحيد الخالص[(٣)]، فإذا بالمشركين يحيطونه بالأصنام، وينجسونه بالدماء، ويتقربون فيه إلى غير الله، ويغيرون معالم دين إبراهيم عليه السلام، ويحرفون مناسك الحج، ويعطلون شعائره ويبطلون مقاصده[(٤)]، مع أن الله تعالى أمر أباهم إبراهيم عليه السلام ببنائه وتطهيره وتهييئه للعابدين، وأمره بأن ينادي في الناس ليحجوا إليه من مختلف البقاع والأصقاع حتى يتقربوا فيه إلى الله، وشرع لهم من الشعائر والشرائع ما لهم فيه منافع في الدنيا والآخرة، وكأنه يبين أنه يجدر بالمؤمنين قتال أولئك المشركين، حتى يعيدوا للبيت حرمته، ويعظموه حق تعظيمه، ويؤدوا فيه ما أمر الله به من مناسك. ومن خلال ذلك أوضح الله معالم عبادة الحج وأسس التقوى كالإخلاص والشكر والتعظيم، وأشار إلى بعض ما يتنافى مع التقوى: كالشرك وقول الزور.

---

(١) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٨٢).

(٢) ينظر روح المعاني (٩/ ١٥٣)، وفي ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٧).

(٣) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٤٨).

(٤) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٦٥).

وهو – لَعَمْري – وجه حسن، فيه ربطٌ بين ثلاثة مقاطع، وفيه أيضا اتصال بمقصد السورة الكلي.

**المناسبة بين المقطع السادس والمقطع السابع:**

يبتدئ المقطع السابع من قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الحج: ٣٨]، وينتهي بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤١]. ومضمونه هو تشريع الجهاد ومقاصده.

والمناسبة بين هذا المقطع وسابقِه أن الله تبارك وتعالى لما ذكر صد المشركين عن دين الله وعن إتيان المسجد الحرام، وبيَّن فضل حج البيت ومنافعه، أتبعه ببيان ما يزيل الصدّ عنه، ويُؤمَن معه من التمكن من زيارة البيت وأداء عبادة الحج على أتم الوجوه[1]، فبشَّرهم تعالى بدفعه عنهم وقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الحج: ٣٨].

ثم بيّن للمؤمنين ما يدفعون به عدوان المشركين وصدَّهم عن المسجد الحرام، فأذِن لهم في القتال، ووعدهم بنصرهم وتمكينهم في الأرض وردهم إلى ديارهم، مؤكدا أن عاقبة الأمور راجعة إليه عز وجلّ، فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [سورة الحج: ٣٩ – ٤٠]. وضمَّن ذلك إشارةً إلى أسباب مشروعية القتال وإيضاح الحكمة منه، فقال: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠ – ٤١][2].

(١) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥١٤)، وغرائب القرآن (٥/ ٨٢)، وتفسير المراغي (١٧/ ١١٧).

(٢) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥١٤)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٢٦).

ومن وجه آخر: لما ذكر الله تعالى شعائر الحج وأشار إلى باقي العبادات، وكان لا بد لها (من حماية تدفع عنها الذين يصدون عن سبيل الله، وتمنعهم من الاعتداء على حرية العقيدة وحرية العبادة، وعلى قداسة المعابد وحرية الشعائر، وتُمكِّن المؤمنين العابدين العاملين من تحقيق منهاج الحياة القائم على العقيدة، المتصل بالله، الكفيل بتحقيق الخير للبشرية في الدنيا والآخرة، أذِن الله للمسلمين بعد الهجرة في قتال المشركين ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم اعتداء المعتدين، بعد أن بلغ أقصاه، وليحققوا لأنفسهم ولغيرهم حرية العقيدة وحرية العبادة في ظل دين الله ووعدهم النصر والتمكين على شرط أن ينهضوا بتكاليف عقيدتهم التي بينها لهم)[1].

وثمة وجه آخر يراعي نسق السورة الكلِّي، وهو أن الله تعالى نبه على العقبات والصوارف التي تصرف الناس عن عبادته وتقواه، فعالج في بداية السورة قضية الشك في اليوم الآخر، وهي العقبة الأولى في طريق التقوى، ثم عرض لصنف من الناس جاهل بالله مجادل في آياته، والجهل بالله من أعظم الصوارف عن التقوى، ثم عرض لصنف آخر من الناس يعبد الله على حرف، فعالج شأنه إذ هذا الشأن من أعظم القواطع عن الاستمرار في الطريق الموصلة إلى التقوى، ثم عرض لموضوع اليأس من النصر، وهو أمر ينقطع بسببه الكثير عن السير إلى الله فعالجه معالجة طويلة، مبينا أن الله ينصر أهل الإيمان والتقوى بثلاثة أنواع من النصر: نصر في الآخرة، ونصر في الدنيا بالدفاع عنهم إذا قاتلوا، ونصر آخر في الدنيا بإهلاك أعدائهم[2].

ولما بيّن تعالى في المقطع السابق نصرته للمؤمنين في الآخرة بإدخالهم جنات النعيم، وإدخال أعدائهم عذاب الجحيم، ومهّد بذكر سوء صنيع قريش الذين دنسوا البيت الحرام بمظاهر الشرك بالله، وصدوا المسلمين الموحدين عنه، أخبر في هذه الآيات أنه أذن للمؤمنين في قتال من ظلموهم، وأنه سينصرهم في الدنيا، وفي ذلك استكمالٌ للرد على يأس اليائسين من النصر، ومطالبةٌ لهم أن يرتقوا إلى الخصائص التي يستحقون بها نصرة الله ومُدافعته[3].

---

(١) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٢٤). ومراده بحرية العقيدة: عدم الإكراه على الدخول في دين الإسلام.

(٢) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٧٥).

(٣) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٦٥).

وتفطّن الإمام البقاعي إلى الجانب النفسي للمسلمين عند تلقي الآيات السابقة، فبين أن وجه المناسبة بين المقطعين أن ذكر حج البيت الحرام يذكِّر المسلمين المهاجرين من مكة بديارهم التي أخرجوا منها، وأن ذكر القربات التي تُفعَل فيه تشوقهم إلى زيارته، فيعظم اشتياق نفوسهم لذلك، ولكنهم يتذكرون في الوقت نفسه استيلاء المشركين الذين خاصموهم في بدر عليه، واستبدادَهم به، وأنهم يصدون عنه[1] كل من أراد أن يعبد الله وحده فيه مقتديا بإبراهيم عليه السلام، ويتساءلون عن السبيل إلى الوصول إليه، فأجابهم الله تعالى بما يطمئنهم ويؤكد لهم أنه تعالى سيدافع عنهم وسيمكن لهم في البلد الحرام إن هم جاهدوا في سبيله ونصروا دينه عزّ وجلّ.

والحاصل أن قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [سورة الحج: ٣٨] كلامٌ مستأنَف مسوق لتوطين قلوب المؤمنين ببيان أن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم بحيث لا يقدرون على صدهم عن الحج، وهو متصل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [سورة الحج: ٢٥]، وما وقع بينهما من ذكر شعائر الحج إنما هو استطراد لمزيد استهجان واستقباح فعل المشركين[2]، لأنهم يصدون الناس عن البيت الذي بني بأمر الله وأمر بالحج إليه والعبادة فيه وتعظيمه بشتى أنواع مظاهر التعظيم، فكان صد الناس عنه قد بلغ النهاية في القبح والسوء.

وبعبارة ابن عاشور فإن الآية (استئنافٌ بياني جوابا لسؤال يخطر في نفوس المؤمنين ينشأ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الحج: ٢٥] الآية، فإنه توعد المشركين على صدهم عن سبيل الله والمسجد الحرام بالعذاب الأليم، وبشَّر المؤمنين المخبتين والمحسنين بما يتبادر منه ضدُّ وعيدِ المشركين وذلك ثواب الآخرة، وطال الكلام في ذلك بما تبعه، لا جرم تشوفت نفوس المؤمنين إلى معرفة عاقبة أمرهم في الدنيا، وهل ينتصر لهم من

(١) نظم الدرر (١٣/ ٥٤).

(٢) ينظر روح المعاني (٩/ ١٥٣).

أعدائهم أو يدخر لهم الخير كلَّه إلى الدار الآخرة. فكان المقام خليقا بأن يُطمئن الله نفوسهم بأنه كما أعد لهم نعيم الآخرة هو أيضا مدافع عنهم في الدنيا وناصرهم)[1].

**المناسبة بين المقطع السابع والمقطع الثامن:**

يبتدئ المقطع الثامن من قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة الحج: ٤٢]، وينتهي بقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [سورة الحج: ٥١]. ومضمونه: هو تسلية النبي صلى الله عليه وسلم والتنبيه إلى الاعتبار بالأمم السابقة.

والمناسبة بين هذا المقطع وسابقه أن الله تعالى لما بيّن في المقطع السابق إخراج الكفار المؤمنين من ديارهم بغير حق، وأذِن في مقاتلتهم، وضمِن للمؤمنين النصرة، وبين أن له عاقبة الأمور، أردفه بما يجري مجرى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم في الصبر على ما هم عليه من أذيّته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره، وبين له أن هذا التكذيب ليس بدعًا في الأمم، فكثير منها قد كذبت رسلها، وذكر الله سبعة منهم[2]، فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الحج: ٤٢ – ٤٤]. كأنه يقول: فكثير ممن قبلك من الرسل قد كذبوا وأوذوا، فلا تبتئس بما يفعلون، واصبر على ما تدعو إليه، ولا يضيرنَّكَ ما يأتون وما يذرون[3].

ومن جهة أخرى: لما نعى الله تعالى على المشركين كفرَهم وإنكارَهم للبعث ومجادلتَهم بالباطل وصدَّهم للناس عن الإسلام والمسجد الحرام وإخراجَهم للمؤمنين من ديارهم، عرّج هنا

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧١)، وينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٢٤).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣١)، وغرائب القرآن (٥/ ٨٧)، والسراج المنير (٢/ ٥٥٦)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٢١).

(٣) تفسير المراغي (١٧/ ١٢٤).

على بيان ضلالهم بتكذيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم، وتذكيرهم بمصائر الأمم التي كذبت أنبياءها، وتهديدهم بالمصير إلى مصيرهم[1]، ولذلك قال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الحج: ٤٥].

ولما ذكر تعالى من كذّب الرسل من الأمم الخالية، وكان بعضهم من بلاد العرب، وكان المشركون يتناقلون أخبارهم ويشاهدون ديارهم ويرون آثارهم رأيَ العين في غُدُوّهم ورواحهم وحِلّهم وتَرْحالهم، دعاهم إلى السير في الأرض لينظروا ما حلّ بهم من البوار[2]، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [سورة الحج: ٤٦].

ورأى الشيخ سعيد حَوَّى أن وجه المناسبة أن قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾ الخ يتحدث عن نوع آخر من النصر الذي ينصر الله به رسله، وهو الأخذ المباشر من الله عزّ وجل، فإذا كان الله ينصر رسله وأولياءه في الآخرة، وينصرهم في الدنيا إذا قاتلوا في سبيله، فإنه تعالى ينصرهم كذلك بأن يهلك أعداءهم من الكفار بعذاب سماويٍّ عاجل. وإذ يقرر الله عزّ وجل هذا النوع من النصر، يلفت نظر مشركي العرب إلى شواهده، محذرا إياهم من عاقبة تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلّم، فيقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الحج: ٤٦] الآية[3].

ثم إن الله تعالى أنكر عليهم عدم اعتبارهم بتلك الآثار[4]، فقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الحج: ٤٦].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٢ - ٢٨٣).

(٢) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥٢١)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٢١).

(٣) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٧٤).

(٤) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٨٨)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٣٨).

ثم قفّى على ذلك ببيان أنهم لعِظَم استهزائهم بما يدعو إليه النبي صلى الله عليه وسلم وشدة تكذيبهم له، كانوا يستعجلونه العذاب العاجل والآجل، كأنهم جوزوا الفوْت[1]، مع أن وعد الله حق، ويوم القيامة آتٍ لن يتخلف، ولو عرفوا ما ينالهم من آلامه وشدائده ما طلبوا تعجيله، ولذلك قال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: ٤٧].

ويرى البقاعي أن قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [سورة الحج: ٤٧] عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ [سورة الحج: ٨]، وأنه لما قدم سبحانه أن الضال المضِلَّ له خزيٌ في الدنيا، وأنه تعالى يدفع عن المؤمنين وينصرهم، وساق الدليل الشهودي على ذلك لمن كان جامد الفهم، مقيّدًا بالوهم، بالقرى الظالمة التي أهلكها، وختم بإنكار عَمَى بصائرهم عن الاعتبار بها[2]، قال مُعجّبًا منهم وموضّحًا لعماهم: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ الآية [الحج: ٤٧]. والذي يبدو لي أنه لا يعني كونها معطوفة – بالمعنى البلاغي – على آية المجادلين، وإنما يعني أنها إكمال لبعض أفعالهم، فهم يجادلون بغير علم، ويتمادون في ذلك فيستعجلون بالعذاب إمعانًا في الإنكار.

ويرى ابن عاشور أن قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [سورة الحج: ٤٧] عطفٌ على جملة ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ [سورة الحج: ٤٢] عطفَ القصة على القصة، فإن من تكذيبهم أنهم كذبوا بالوعيد، وقالوا: لو كان محمد (صلى الله عليه وسلم) صادقا في وعيده لعجّل لنا ما تَوعَّدنا به، فكانوا يسألونه التعجيل بنزول العذاب استهزاءً، فذكر ذلك في هذه الآية بمناسبة قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ [سورة الحج: ٤٤] الآية[3].

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٤)، وغرائب القرآن (٥/ ٨٩)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٢٣).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٦٦).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٠).

ثم إن الله تعالى ذكّرهم بأن كثيرًا من القرى كان أهلها ظالمين مثلهم، فأمهلهم الله حينًا من الدهر لعلهم يرجعون عن غيهم، ثم أخذهم بالعذاب الدنيوي، وسيعذبون بعد ذلك العذاب الأكبر في الدار الآخرة[1]، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الحج: ٤٨].

وعبر البقاعي عن المناسبة بقوله: (ولما دل على نصر أوليائه، وقسر أعدائه، بشهادة تلك القرى، وختم بالتعجيب من استعجالهم مع ما شاهدوا من إهلاك أمثالهم، وأعلمهم ما هو عليه من الأناة، واتساع العظمة، وكبر المقدار، عطف على ﴿فَكَأَيِّن﴾ [سورة الحج: ٤٥] محذرًا من نكاله، بعد طويل إمهاله، قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾)[2].

ويرى ابن عاشور أن جملة ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [سورة الحج: ٤٨] معطوفة على جملة ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [سورة الحج: ٤٧] أو على جملة ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، باعتبار ما تضمنه استعجالهم بالعذاب من التعريض بأنهم آيسون منه لتأخر وقوعه، فذكّرهم الله تعالى بأنه أمهل أُمَمًا كثيرة، ثم أحلَّ بها العذاب الدنيوي[3].

ثم إن الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يعلن لهم[4] أن عمله إنما هو الإنذار والتحذير، وليس عليه من حسابهم من شيء، فلا ينبغي أن يصده استهزاؤهم وتكذيبهم، فإن شاء الله عجل لهم العذاب، وإن شاء أخره عنهم. وفي الآخرة سيجازي الناس جميعا على أعمالهم، فمن آمن بالله وصدق بآياته وعمل الصالحات فسيغفر ذنوبهم، ويكرمهم بأنواع النعيم في الجنة، وأما الذين يثبّطون العزائم عن قبول دعوة الإسلام، ويسعون في معارضة آيات الله

---

(١) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٨٩)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٢٣).

(٢) نظم الدرر (١٣/ ٦٧).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٢).

(٤) رأى الزمخشري في الكشاف (٣/ ١٦٤) أن الحديث في الآية مسوق إلى المشركين، وأن قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: نداء لهم، وهم الذين قيل فيهم ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ووصفوا بالاستعجال، وإنما ذكر بعد ذلك ثواب المؤمنين زيادة لغيظهم، وتبعه الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٣٥).

فسيدخلهم النار ويخلدهم في عذاب الجحيم[1]، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [سورة الحج: ٤٩ – ٥١].

**المناسبة بين المقطع الثامن والمقطع التاسع:**

يبتدئ المقطع التاسع من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٥٢]، وينتهي بقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الحج: ٥٧]. ومضمونه: التنبيه إلى ما يلقيه الشيطان في أمنية الأنبياء، وما يترتب على ذلك.

ووجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه أنه لما لاح من قوله تعالى في الآية المتقدمة: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ [سورة الحج: ٥١] أن الشيطان ألقى للكفار شُبَهًا، يعاجزون بها المؤمنين، ويجادلونهم بها في دين الله الذي أمر رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم بإظهاره، عطف عليه تسليةً له قولَه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الحج: ٥٢][2].

وثمة وجه آخر، وهو: أنه لما أفضت الآيات السابقة إلى تثبيت قلب النبي عليه الصلاة والسلام وتأنيس نفسه فيما يلقاه من قومه من التكذيب بأن تلك عادة الأمم الظالمة من قبلهم، وتسليتِه بما آل إليه أمرهم من الإهلاك بعد الإمهال، وأمره أن يخبر الناس أنه لهم نذير مبين، وليس له تقديم العذاب أو تأخيره؛ ذكر له تعالى مسلاةً ثانيةً باعتبار من سبقه من الرسل والأنبياء عليهم السلام، وأن له فيهم أسوة في كل ما يأتي ويذر[3]، فذكر أنه ما من واحد ممن

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٤)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٢٤)، والأساس في التفسير (٧/ ٣٥٨٠).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٦٩).

(٣) غرائب القرآن (٥/ ٩٠).

سبقه من الأنبياء والمرسلين إلا وكان حريصا على إيمان قومه، متمنيا لذلك، وأنه لم يسلم أحد منهم من محاولة الشيطان إفساد بعض ما يسعون إليه من هداية الناس، وتزيين الكفر لأقوامهم، وبث ذلك وإلقائه في نفوسهم، وأنهم لقوا من أقوامهم مكذبين ومصدقين، سنةَ الله في رسله عليهم السلام[1]، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ [سورة الحج: ٥٢].

فكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم من أحرص الناس على اهتداء قومه، وكان فيهم شياطين من الإنس كالنضر بن الحارث يلقون لقومه وللوافدين عليه شبها يثبطونهم بها عن الإسلام، ويسعون في إلقائها في قلوب من يستميلونه، ونسب ذلك إلى الشيطان لأنه هو الذي يغوي شياطين الإنس ويبعثهم على إغواء الخلق.

ووجه آخر قريب مما سبق: وهو أن الله سبحانه لما ذكر في الآيات السالفة أن قومه قد كذَّبوه، ثم سلاه على هذا بأنه ليس بدعًا من الرسل، فكثير قبله قد كُذِّبوا: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ٤٢﴾ [سورة الحج: ٤٢] الآيات، ثم ذكر أنهم لعظيم استهزائهم به وتهكمهم بما يبلِّغهم عن ربه، طلبوا منه استعجال العذاب الذي يعدهم به، أردف ذلك بذكر نوع آخر من التكذيب، وهو إلقاؤهم الشُّبهَ والأوهام فيما يقرؤه على أوليائه من القرآن، ليجادلوه بالباطل، ويردوا ما جاء به من الحق[2].

ثم إن الله سبحانه أعلم أن ما يلقيه الشيطان من قواطع طريق التقوى، إلا أن أثرها في الناس مختلف: فأما أهل النفاق والشرك فإن ذلك يكون فتنة لهم، فيزدادون بعدا عن الله وإعراضا عن دينه؛ وأما الذين أوتوا العلم بالله ودينه فيزدادون يقينا وطمأنينة، تحقيقًا لوعد الله

---

(١) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥٢٥)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٧).

(٢) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٢٨). ولا يختلف هذا الوجه كثيرا عن سابقه، إلا أنه هنا عرض صورة من صور التكذيب بالرسول بعد صور التكذيب السابقة. وفي الوجه السابق: عطف تسلية على تسلية.

تعالى بهداية أهل الإيمان[1]، ولذلك قال عز وجل: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الحج: ٥٣- ٥٤]. وفيها بيان لسنة الله عزّ وجل في أمر الناس، لكيْلا يفاجأ النذير إذا تعثرت أمانيه، وتنبيهٌ إلى أن من قواطع طريق العبادة والتقوى الظلمَ والجهلَ وما يكون في القلوب من قسوة ومرض[2].

ثم بيَّن تعالى أن الأعصار إلى قيام الساعة لا تخلو ممن يكون في شك من الوحي والرسالة، وسيبقى هؤلاء الكفار على حالهم تلك حتى يهلكوا بعذاب دنيوي، أو يموتوا فيصيبهم العذاب الأخروي بعدما يحكم الله بينهم وبين المؤمنين في يوم القيامة[3]، فيدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات النعيم، ويجازي الذين كذبوا بآياته وكانوا في مرية من رسالة رسوله بالعذاب المهين، وفاقًا لتدنيسهم أنفسهم بالعقائد الباطلة، والأعمال الفاسدة[4]: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ [سورة الحج: ٥٥ – ٥٧].

### المناسبة بين المقطع التاسع والمقطع العاشر:

يبتدئ المقطع العاشر من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [سورة الحج: ٥٨]، وينتهي بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ

(١) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٩٣)، والأساس في التفسير (٧/ ٣٥٨٢).

(٢) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٨٢ و٣٥٩٦ – ٣٥٩٧).

(٣) غرائب القرآن (٥/ ٩٣).

(٤) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٢٨).

ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾ [سورة الحج: ٦٢]. ومضمونه: إنصاف الله تعالى للمهاجرين، ونصرتُه للمظلومين.

ووجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه أن الله تعالى لما ذكر أنه منفرد بالملك يوم القيامة، وأنه يحكم بين عباده، ويدخل المؤمنين جنات النعيم، أتبعه بذكر وعده الكريم للمهاجرين بأنه سيُرضيهم فيُدخلهم الجنة ويرزقهم فيها بالرزق الحسن، وأفردهم بالذكر تفخيمًا لشأنهم، فقال عزَّ من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩﴾ [سورة الحج: ٥٨ – ٥٩][(١)].

ويظهر لي فيه وجه آخر، وهو أنه لما تقدم في السياق الإذن للمسلمين للقتال بعد هجرتهم من مكة، ووعدهم الله تعالى بالنصرة على أعدائهم وتمكينهم من الأرض، ثم بيّن كيف أن هؤلاء المسلمين ثبتوا على الدين ولم يتأثروا بما يلقيه الشيطان، خلافًا للكفار والمنافقين الذي يزدادون غيًّا وضلالا، أراد سبحانه تعالى أن يبين أن أولئك المؤمنين – الذين ماتوا قبل أن تقر أعينهم بالنصر أو قتلوا عند قتالهم للكفار – سينصرهم الله في الآخرة، وسيُقِرّ أعينهم في الجنة.

ثم إنه أنه تعالى لما ذكر ثواب من هاجر ومات أو قتل في سبيله أخبر سبحانه أنه – مع إكرامه لهم بهذا الوعد في الآخرة – لا يدَع نصرتهم في الدنيا على من بغى عليهم[(٢)]، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾ [سورة الحج: ٦٠].

ويبدو لي أن وجه مناسبة هذه الآية لما سبقها – والله أعلم – أنه لما تقدم الإذن للمسلمين بقتال المشركين، وأفهم أن من سنن الله التدافع بين أهل الكفر وأهل الإيمان، وكان ذلك يقتضي أن ينتصر المسلمون على أعدائهم تارةً، ويبغيَ الكفار على المؤمنين تارة، كان

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٣)، وغرائب القرآن (٥/ ٩٣).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٥)، والبحر المحيط (٧/ ٥٢٩ – ٥٣٠)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٣٣).

لسائل أن يسأل: هل يُنصَر المسلمون على عدوهم إن انتقموا لأنفسهم واقتصوا منهم؟ فأجاب تعالى بأنه يعدهم بالنصر إن فعلوا ذلك، ولكنه أومأ إلى أفضلية عدم الانتقام منهم بقوله سبحانه في ختام الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾ [سورة الحج: ٦٠].

وكأني بالشيخ سعيد حوى قد أومأ إلى هذا الوجه وإن لم يصرح به فقال: (وردت هذه السُّنّة بعد ذكر الهجرة والقتال؛ مما يشير إلى أن حق المهاجرين في الانتقام قائم، وأنهم إذا انتقموا ثم اعتُديَ عليهم فإن الله ناصرهم، وذكْرُ هذه الآية في هذا السياق يشير إلى أنه لا يتنافى مع التقوى أن يُعاقِب الإنسان بمثل ما عوقب به، كما لا يتنافى مع التقوى أن يرُدَّ إذا اعتُدي عليه مرة ثانية)[(١)].

ثم إن الله تعالى بعد ذلك بيّن أن ذلك النصر بسبب أنه قادر على ما يشاء، ومن آيات قدرته البالغة أنه تعالى يولج الليل في النهار والنهار في الليل[(٢)]، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٦١﴾ [سورة الحج: ٦٢]، إذ من قدر على إدخال الليل في النهار وإدخال النهار في الليل، بأن يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، يقدر على نصرة من شاء من عباده[(٣)]، ولأنه سميع بصير، فإنه ينصر من بُغِيَ عليه[(٤)].

أو أن ذلك النصر بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرِّفهما، فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والانتصار، وأنه سميع لما يقولون، بصير بما يفعلون[(٥)]. وإذا كان كذلك كان قادرا على النصر مصيبا فيه[(١)].

---

(١) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٨٣). وينظر سر ختم الآية باسمي العفو الغفور في "معترك الأقران" (٢/ ٣٧٦).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٥)، والبحر المحيط (٧/ ٥٣٠)، وغرائب القرآن (٥/ ٩٥)، والأساس في التفسير (٧/ ٣٥٨٣).

(٣) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٣٣).

(٤) الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٨٣).

(٥) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥٣٠).

واستشفّ الشيخ أبو زهرة رحمه الله أن الله سبحانه يشير في هذه الآية (إلى أنه يجعل النصرَ والهزيمةَ دُولةً بين الناس، والقوةَ والضعف دُولةً بين الناس، كما يجعل الليل يدخل في النهار، والنهار يدخل في الليل، فيزاد هذا تارة وينقص أخرى، فعلى الدولة المنتصرة أن تذكُر أنها قد تنهزم، فلا تغالي في القصاص، بل تفتح زاوية للمعروف من العفو والتسامح)[٢].

ثم إنه تعالى أضاف أنه ينصرهم لأنه هو الحق، ومن ثم فإنه ينصر الحق، وأنَّ ما يَعبده المشركون من دون الله هو الباطل، ومن ثم فإنه تعالى يكبتهم ويعذبهم بأيدي المؤمنين، وأنه تعالى هو العليُّ الكبير، فلا أعلى منه شأنا، ولا أكبر منه سلطانا، ولعلوه وعظمته فإنه ينصر أولياءه ويؤيد المظلومين[٣]، وهذا ما تضمنه قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الحج: ٦٢].

**المناسبة بين المقطع العاشر والمقطع الحادي عشر:**

يبتدئ المقطع الحادي عشر بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الحج: ٦٣]، وينتهي بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة الحج: ٦٦]، ومضمونه: التنبيه على نعم الله تعالى وآيات قدرته في الكون.

ووجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه أن الله تعالى لما ذكر ما دلّ على قدرته الباهرة، من إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وهما أمران مشاهدان بمجيء الظلمة والنور، ذكر أنواعا أخر من دلائل قدرته ونعمه المشاهدة في العالم العلوي والعالم السفلي[٤]، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٥)، وقد ذكر الرازي وجها ثانيا في تعلق هذه الآية بما قبلها، وهو أن المراد (أنه سبحانه مع ذلك النصر ينعم في الدنيا بما يفعله من تعاقب الليل والنهار وولوج أحدهما في الآخر)، ولكنه غير قوي، والله أعلم.

(٢) زهرة التفاسير (٩/ ٥٠١٦).

(٣) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٨٣).

(٤) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥٣١)، وغرائب القرآن (٥/ ٩٥)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٩٩).

أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۡۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ [سورة الحج: ٦٣ - ٦٥].

ثم ذكّر الإنسان بمبدئه ومعاده وما ينطوي عليه ذلك من الإنعام بالدنيا والدين فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ﴾ [سورة الحج: ٦٦] (١)، ولما فصل تعالى هذه النعم، بين أن الكفار جحدوا بها وجهلوا خالقها مع وضوح أمرها فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة الحج: ٦٦] (٢).

ولحظ الشيخ سعيد حوى رحمه الله أن ما تقدم من المقطع الثامن إلى المقطع العاشر (٣) تعليم للنذير صلى الله عليه وسلم - بعد الأمر بالإنذار - ليعرف ما يمكن أن يلاقيه في سبيل الدعوة إلى عبادة الله وتقواه، وتنبه إلى أن هذا القسم افتتح بخطاب الله للنبي صلى الله عليه وسلم بكلمة ﴿قُلۡ﴾، وافتتح كذلك هذا المقطع بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾، وهو خطاب له ولوُرّاثه خاصة ولأمته عامة، وفي هذه الآيات عَرَّفنا الله عزّ وجل على عدد من آلائه وأسمائه، وكأن في هذا التعريف في هذا السياق تعليلا للأمر بالإنذار، فإن مقتضى كون الله منعما أن يكلف عباده بواسطة رسوله، وأن يحذرهم عاقبة ترك التكليف، وأن

---

(١) والآية لا تخرج عن معنى الامتنان بالنعم، قال الرازي في تفسيره (٢٣/ ٢٤٨): (قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴿٦٦﴾﴾ [الحج: ٦٦]، والمعنى أن من سخر له هذه الأمور، وأنعم عليه بها فهو الذي أحياه، فنبه بالإحياء الأول على إنعام الدنيا علينا بكل ما تقدم. ونبه بالإماتة والإحياء الثاني على نعم الدين علينا، فإنه سبحانه وتعالى خلق الدنيا بسائر أحوالها للآخرة، وإلا لم يكن للنعم على هذا الوجه معنى. يبين ذلك أنه لولا أمر الآخرة لم يكن للزراعات وتكلفها ولا لركوب الحيوانات وذبحها إلى غير ذلك معنى، بل كان تعالى يخلقه ابتداء من غير تكلف الزرع والسقي، وإنما أجرى الله العادة بذلك ليعتبر به في باب الدين).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٨).

(٣) وهو حسب تقسيمه كما تقدم مقطع واحد، وهو المقطع الثالث.

يبشرهم بما لهم إن قاموا بحقه، وفي الوقت نفسه فإن هذه الآيات عرفت العباد على الله بالنعم التي تدعوهم إلى الشكر، وبالأسماء الحسنى التي تدعوهم إلى محبة الله وتعظيمه، وعلى هذه الأمور تقوم عبادة الله وتقواه، وهو مدار هذه السورة[1].

**المناسبة بين المقطع الحادي عشر والمقطع الثاني عشر:**

يبتدئ المقطع الثاني عشر: من قوله تعالى ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [سورة الحج: ٦٧]، وينتهي بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الحج: ٧٢]، ومضمونه: الدعوة إلى الإعراض عن المشركين وبيان بطلان فعلهم ومدى جهلهم.

ومناسبة هذا المقطع لما قبله: أن الله سبحانه وتعالى لما قدّم ذكر نعمه، وأنه بعباده رؤوف رحيم، وأنّ الإنسان كفور بطبعه، ومن ثمّ جحد الخالق لهذه النعم، أتبعه بذكر إنعامه بما كلف[2]، ثم زجر معاصريه – صلى الله عليه وسلم – من أهل الأديان السماوية، عن منازعته بذكر خطئهم فيما تمسكوا به من الشرائع، وبيان أنّ لكل أمة شريعة خاصّة، ثمّ أمره بالثبات على ما هو عليه من الحقّ، وأنه لا يضره عناد الجاحدين، فالله هو الحكم بينهم وبينه يوم القيامة[3]، فقال تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الحج: ٦٧].

ولما أمره تعالى بالإقبال على ما يُهِمّه، والإعراض عن منازعتهم، في صيغة نهيهم عن منازعته، علَّمه الجواب إن ارتكبوا منهيه بعد الاجتهاد في دفعهم، لما لهم من اللجاج والعتوّ[4]،

(١) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٨٥).
(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٨).
(٣) تفسير المراغي (١٧/ ١٣٩).
(٤) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٩٠).

فقال: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾ [سورة الحج: ٦٨ – ٦٩].

ورأى شرف الدين الطِّيبي[(١)] أن وجه اتصاله بما سبق من الآيات، أن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ [سورة الحج: ٥٥] يُوجب إقلاعَ النبي صلى الله عليه وسلم عن إنذار الكفار، واليأس منهم، ومتاركتَهم، فقال بعد أن ذكر آيات متعددة تأكيدا لمعنى التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [سورة الحج: ٦٧]، تحريضًا له صلى الله عليه وسلم على التأسي بالأنبياء السابقين في مُتاركة القوم، والإمساك عن مجادلتهم بعد اليأس من إيمانهم، لأن الله سيحكم بَيْنَه وبين يوم القيامة. وقد أيد رحمه الله هذا الوجه بأن مدار هذه السورة الكريمة هو الكلام في مجادلة القوم ومعاندتهم، وأنه تعالى كلما شرع في أمر كرَّ إليه تثبيتًا لقلبِ الرسول عليه السلام، ومسلاةً لصدره[(٢)]. وفي هذا التوجيه ما فيه من البعد، ثم وجدت الألوسي رحمه الله تعقبه فقال: [ولعمري إنه أبعد عن ربوع التحقيق، وفسر الآية الكريمة بما لا يليق. وقد تعقب "الكشف"[(٣)] اتصاله بما ذكر بأنه لا وجه له،

---

(١) شرف الدين الحسن بن محمد بن عبد الله الطِّيبيّ، تقدمت ترجمته.

(٢) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٥٢٦).

(٣) يعني صَاحب "الْكَشْف على تَفْسِير الْكَشَّاف"، ويسميه في مواضع: المدقق (١/ ١٥٥، و٢/ ٤٠٠، و٨/ ٧ و١٤/ ٣١٦)، أو العلامة المدقق (١/ ٦٥، و٧/ ٤٣١)، ثم وجدت الشهاب الخفاجي يكثر من النقل عنه أيضا، ويسميه كذلك بالمدقق (١/ ٦٧ و٨٣ و٩٦ و١٣٣)، ويبدو أنها صفة له، ولعله الإِمَام عَلَاء الدّين عبد الْعَزِيز بن أَحْمد البُخَارِيّ (ت٧٢٩هـ). وقد صرح الألوسي باسمه في موضع واحد من تفسيره (٥/ ٣١٢). وقد نسب إليه الأدنه وي هذه الحاشية في "طبقات المفسرين" (ص: ٢٧٠)، ولكن ينافيه أنه صرح في موضع (١٤/ ٣١٦) أنه تلميذ الطيبي (ت٧٤٣هـ)، وراجعت مصادر ترجمته، فلم أجدهم يذكرون له حاشية على الكشاف، وإنما يذكرون أن له شرحا على أصول البزدوي اسمه "الكشف" أو "كشف الأسرار"، وهو مطبوع مشهور. ينظر "تاج التراجم" (ص١٢٧)، و"الجواهر المضية" (٢/ ٤٢٨)، و"الفوائد البهية" (ص٩٤). ثم إن هنالك حاشية أخرى تسمى "الْكَشْف على تَفْسِير الْكَشَّاف" لسراج الدين عمر بن عبد الرحمن بن عمر البهبهائي القزويني الكنايّ الفارسيّ (ت٧٤٥هـ)، ذكرها الداودي في الطبقات (٢/ ٧)، والأدنه وي في طبقاته (ص: ٣٨١)، ووصفت بأنها حاشية جيدة، وذكرها كذلك حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٤٧٥)، وهدية العارفين (١/ ٧٨٩)، وعنوانها "الكشف عن مشكلات

فقد تخلل ما لا يصلح لتأكيد معنى التسلية المذكورة، أعني قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾ [سورة الحج: ٦٠] الآيات...][(١)].

ورأى ابن عاشور رحمه الله أن قوله تعالى في هذا المقطع: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [سورة الحج: ٦٧]، متصل في المعنى بقوله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [سورة الحج: ٣٤]. وقد فصل بين الكلامين ما اقتضى الحال استطراده إلى هنا، فعاد الكلام إلى الغرض الذي في الآية الآنفة الذكر ليبني عليه قوله: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ [سورة الحج: ٦٧][(٢)]. وفيه بعد، فإن ما تخلل بين الآيتين ليس كله استطرادا، ومجرد تكرر ذكر ما جعله الله من منسك لكل أمة، ليس كافيا لدعوى اتصالهما. هذا على القول بأن معنى المنسك في الآيتين واحد، وهو النسُك، أما على القول بأن المراد بالمنسك هنا هو الشريعة، فهو أحرى بأن يكون غير متعلق بالآية الأخرى.

هذا، ثم إنه تعالى لما ذكر أنه سيحكم بين الكفار والمؤمنين يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، أعقب ذلك ببيان أنّه عالم بجميع ما في السماء والأرض، فلا تخفى عليه أعمال العباد، وأن ذلك مرقوم في اللوح المحفوظ[(٣)]، فيجزي كل واحد منهم بما يستحقّه، ويقع حكمه بينهم بالعدل[(٤)]، فخاطب النبي عليه السلام أصالةً وقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الحج: ٧٠].

---

الكشاف"، ومنها نسخ مخطوطة متعددة، وأرجح أن الخفاجي والألوسي كانا ينقلان منها، وقد صرح ابن عاشور باسمه مرة واحدة في التحرير والتنوير (١٨/ ١١٦)، وقد حققت بعض الأجزاء منه في رسائل جامعية. ينظر معجم تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم (٣/ ٢٢٧١). وينظر ترجمته في: شذرات الذهب (٨/ ٢٤٩)، والأعلام للزركلي (٥/ ٤٩)، ومعجم المؤلفين (٧/ ٢٨٩)، ومعجم المفسرين (١/ ٣٩٦).

(١) روح المعاني (٩/ ١٨٧).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢٧).

(٣) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥٣٥)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٤٠٠).

(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٩ - ٢٥٠)، والبحر المحيط (٧/ ٥٣٥)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٤١).

ثمّ بين تعالى أنّ الكفار على وضوح البراهين وعظيم نعم الله عليهم عبدوا غيره مما لم يقم الدليل على وجوده، وأنّهم مع جهلهم إذا نُبّهوا إلى الحقّ، وعُرِضت عليهم المعجزة، وتليت عليهم آيات كتابه الكريم، ظهرت في وجوههم أمارات الغيظ والحنق، وهمّوا أن يبطشوا بمن يذكّرهم بآياته إنكارًا منهم لما خوطبوا به. ثمّ أبان لهم أنّ ما ينالهم من النار التي يقتحمونها بأفعالهم وأقوالهم، أعظم مما ينالهم من الغمّ والغيظ حين تلاوة هذه الآيات[1]، فقال: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾ [سورة الحج: ٧١ – ٧٢].

**المناسبة بين المقطع الثاني عشر والمقطع الثالث عشر:**

يبتدئ المقطع الثالث عشر من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ [سورة الحج: ٧٣]. وينتهي بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾ [سورة الحج: ٧٦]. ومضمونه: بيان بطلان الشرك واستحقاق الله للطاعة واتباع رسله. وإنما اخترت أن يكون مقطعا مستقلا، لأن الخطاب بعد أن كان موجها إلى النبي صلى الله عليه وسلم في المقطع السابق: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾ [سورة الحج: ٦٧]، ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ﴾ [سورة الحج: ٦٨]، ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ [سورة الحج: ٧٠]، ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُمۡ﴾ [سورة الحج: ٧٢]. صار موجها إلى الناس في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ [سورة الحج: ٧٣].

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٠ – ٢٥١)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٤١ – ١٤٢).

ومن جهة أخرى فإن الخطاب ب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في الختام بمثل الخطاب العام في افتتاح السورة، يوحي بأن هذا خاتمة لمجمل السورة[(١)]؛ فبعدما توالت الحجج والمواعظ والإنذارات في السورة بما فيه مقنع للعلم بأن إله الناس واحد، وأن ما يعبد من دونه باطل، أعقبت بمَثَل جامع لوصف حال تلك المعبودات وعابديها[(٢)].

ووجه المناسبة بين هذا المقطع وسابقه ظاهر، وهو أن الله سبحانه لما بين فيما تقدم من الآيات أنّ الكفار يعبدون من دون الله ما لا حجة لهم على استحقاقه للعبادة، لا من الوحيِ ولا من العقل، ذكر ما يدل على إبطال قولهم ويؤكد جهلهم بمقام الألوهية وما ينبغي له من إجلال وتعظيم، فذكر ما عليه معبوداتهم من انتفاء القدرة على خلق أصغر المخلوقات، وعجزها عن ردّ ما سلبته منها[(٣)]، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الحج: ٧٣].

ثم بين سبحانه أَن منشأ شركهم عدم تعظيمهم لله جل جلاله فقال: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الحج: ٧٤].

ولما أبطل تعالى القول بالاشتراك في الخلق ليثبت التوحيد، عقبه بإثبات الرسالة، فرد طعنهم في أن يكون الرسول من البشر[(٤)]، فبين أنه سبحانه يصطفي من الملائكة والناس من

---

(١) قال العلامة ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٧/ ٣٣٨): (وفي افتتاح السورة ب {يا أيها الناس} وتنهيتها بمثل ذلك شبه برد العَجُز على الصدر. ومما يزيده حسنا أن يكون العجز جامعا لما في الصدر وما بعده، حتى يكون كالنتيجة للاستدلال والخلاصة للخطبة والحوصلة للدرس).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٣٧).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥١)، والبحر المحيط (٧/ ٥٣٧)، وتفسير المراغي (١٧/ ١٤٤).

(٤) ينظر الكشاف (٣/ ١٧٢)، وفتوح الغيب (١٠/ ٥٣٢). وعبر عنه تفسير النيسابوري في غرائب القرآن (٥/ ١٠١) فقال: (وحين رد على أهل الشرك معتقدهم في الإلهيات أراد أن يرد عليهم عقيدتهم في النبوّات وهي أن الرسول لا يكون بشرا...).

يشاء للرسالة وفق علمه الواسع، فهو أعلم بمن يختصهم برسالته[1]: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾ [سورة الحج: ٧٥ – ٧٦].

وبسط العلامة ابن عاشور هذا الوجه من المناسبة فقال: (لما نفت الآيات السابقة أن يكون للأصنام التي يعبدها المشركون مزيةٌ في نصرهم بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١﴾ [سورة الحج: ٧١]، وقوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [سورة الحج: ٧٣]، ونعى على المشركين تكذيبهم الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ [سورة الحج: ٧٢]، وقد كان من دواعي التكذيب أنهم أحالوا أن يأتيهم رسول من البشر: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ [سورة الأنعام: ٨] أي يصاحبه، ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [سورة الفرقان: ٢١] أعقب إبطال أقوالهم بأن الله يصطفي من شاء اصطفاءه من الملائكة ومن الناس دون الحجارة، وأنه يصطفيهم ليُرسلهم إلى الناس، أي لا ليكونوا شركاء، فلا جرم أبطل قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [سورة الحج: ٧٥] جميعَ مزاعمهم في أصنامهم)[2].

وذكر الطيبي وجها آخر، وهو أنه لما بولغ في وصف آلهة المشركين بالضعف، وسُلب عنهم دفعُ المضرة إلى أبعد حدّ، وَصف تعالى نفسَه بالقوة والعز، وإيصال النفع إلى عابديه إلى أقصى غاية؛ لأن منتهى آمال المخلوقين أن يخصهم الله بكرامة الرسالة[3].

**المناسبة بين المقطع الثالث عشر والمقطع الرابع عشر:**

يبتدئ المقطع الرابع عشر: من قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾ [سورة الحج: ٧٧]، وينتهي

(١) كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٣).

(٣) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٥٣٢).

بقوله سبحانه في نهاية السورة: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾ [سورة الحج: ٧٨]، ومضمونه: أمر الله للمؤمنين بعبادته والمجاهدة في سبيله.

ووجه مناسبة هذا المقطع الأخير السورة لسابقه أنه تعالى بعد ما عم جميع الناس بالخطاب بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ [سورة الحج: ٧٣]، ونبههم في ذلك المثل على أن تلك الآلهة لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله عزّ وجلّ، وهو الذي يستحق أن يُعبد ويستعان به، خص المؤمنين الخطاب وأمرهم تعالى بما فيه تحقيق للعبودية، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٧٧ – ٧٨] الآية.

وعلّل العلامة ابن عاشور العدول عن الخطاب العام إلى الخطاب الخاص بالمؤمنين أنه لما كان خطاب المشركين قد شغل معظم هذه السورة عدا ما وقع اعتراضا في خلال ذلك[(١)]، (فعند استيفاء ما سيق إلى المشركين من الحجج والقوارع والنداء على مساوئ أعمالهم، ختمت السورة بالإقبال على خطاب المؤمنين بما يصلح أعمالهم وينوّه بشأنهم)[(٢)].

وثمة وجه آخر، وهو أنه تعالى لما ذكر أنه اصطفى رسلا من البشر إلى الخلق[(٣)]، وكانت وظيفة الرسل هو تبليغ ما أمر الله عباده بأدائه من التكاليف، فقد أمر المؤمنين بأصولها، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ

(١) وذلك خطاب المشركين ب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ جاء في هذه السورة أربع مرات، أولها في مطلع السورة.

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٥).

(٣) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥٣٩).

ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الحج: ٧٧ – ٧٨]. وهو بهذه الصياغة التي صغتها وجه حسن.

ورأى الفخر الرازي[(١)] أن مناسبة هذا المقطع لما قبله: أنه سبحانه لما تكلم في الإلهيات، ثم في النبوات، أتبعه بالكلام في الشرائع والأحكام من أربع أوجه، أولها: تعيين المأمور، وثانيها: أقسام المأمور به، وثالثها: ذكر ما يوجب قَبول تلك الأوامر، ورابعها: تأكيد ذلك التكليف[(٢)]. وهي كما ترى مناسبة سائغة، والله أعلم.

أما الشيخ سعيد حوّى فقد اعتبر – كما تقدم – هذا المقطع والمقطع السابق له مقطعا واحدا، وذكر أنه جاء ليبين أن نقطة البداية في التقوى هي عبادة الله، فهدم في الآية الأولى منه عبادة غير الله، ولما كان المؤمنون هم الذي يستفيدون وحدهم من الخطاب، فإن الله توجه إليهم في نهاية هذا المقطع آمرا إياهم بصنوف من العبادة، وبذلك تكون سورة الحج قد ابتدأت بالأمر بالتقوى، واختتمت بالأمر بالعبادة؛ لأنها الطريق العملي لتحقيق التقوى، فكانت آخر ما يقرؤه الإنسان في السورة[(٣)]. وأشار تعالى في نهاية الآية الأخيرة إلى أن العبادة والتقوى ليست خسارة كما يزعم الكافرون والمنافقون، بل هي الربح كله؛ لأن الله جل جلاله سيتولى المؤمنين وينصرهم، فقال: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الحج: ٧٨][(٤)].

وبهذا يتبين تناسب مواضيع السورة واتساق أجزائها، بحيث يفضي موضوع إلى آخر بدون تنافر أو اقتسار.

---

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٣)، وذكره المراغي في تفسيره (١٧/ ١٤٨) مقرًّا به من غير أن يعزوه إليه.

(٣) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٩٩).

(٤) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٦٠٤).

## المبحث الثاني: خصائص هدايات آيات السورة.

سنخصص هذا المبحث للحديث عن خصائص هدايات السورة، وذلك وفق العناصر الآتية:

### تعريف الخصائص:

الخصائِصُ جمعٌ، مفرده خَصيصة.

و"خصيصة" كلمة لا نجد شرحها في المعاجم القديمة، مع أنها جاءت في كلام متقدمي الأدباء، كالجاحظ[(١)]، والزمخشري[(٢)]، بل إن أبا الفتح ابنَ جِنّي[(٣)] سمّى أحد كتبه المشهورة: «الخصائص». وفي العصر الحديث أقر مجمع اللغة المصري اعتبار «خصائص» جمعًا ل«خصيصة»، وأدخلها في "معجمه الوسيط"[(٤)].

والمراد بالخَصِيصَة عند المعاصرين: صفةٌ تُميِّز الشَّيء عن غيره وتحدِّده[(٥)].

---

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البصري المعتزلي، العلامة المتبحر في فنون الأدب وصاحب التصانيف الرائقة، كان أحد الأذكياء الحفاظ، لكنه كان ماجنًا قليل الدين. من أشهر كتبه: البيان والتبيين، والحيوان. توفي سنة ٢٥٥هـ. ينظر: تاريخ بغداد (١٢/ ٢١٢ - ٢٢٠)، و"نزهة الألباء" لابن الأنباري (ص ١٤٨)، ومعجم الأدباء (٤/ ٤٧٢)، وسير أعلام النبلاء (١١/ ٥٢٦ - ٥٣٠).

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) هو: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، كان من حذاقِ أهلِ الأدبِ، وأعلمِهم بالنحوِ والتصريفِ، وهو من أشهرِ تلاميذِ أبي علي الفارسي، خدَم عضد الدولة البويهي وولديه. له التصانيف البديعة في الأدب والنحو، منها: "الخصائص"، و"سر صناعة الإعراب"، و"المنصف في شرح تصريف المازني"، و"الفسْر في شرح ديوان المتنبي". وتوفي ببغداد سنة ٣٩٢هـ. يُنظر: نزهة الألباء (ص:٢٤٤ - ٢٤٦)، ومعجم الأدباء (١٢/ ٨١)، وإنباه الرواة للقفطي (٢/ ٣٤٠)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٤٦).

(٤) ينظر معجم الصواب اللغوي (١/ ٣٥١).

(٥) ينظر المعجم الوسيط (١/ ٢٣٨)، ومعجم اللغة العربية المعاصرة (١/ ٦٥٢).

وقد تشتبه الخصائص بالخواصّ، والخواصّ: جمع خاصّة، وخاصة الشيء هي: ما يختص به الشيء وينفرد به دون غيره[(١)]. والمراد به في استعمال المناطقة: عَرَض يُخَصُّ به نوع واحد دائمًا[(٢)].

وبناء على هذا فإن بين الخصائص والخواصّ عموما وخصوصا، فكل خاصة خصيصة، وليست كل خصيصة خاصا، لأن (كل خاصة تميز الشيء وتحدده، وليس كل خصيصة تختص بالشيء دون غيره)[(٣)].

**الفرق بين الخصائص العامة للقرآن الكريم وخصائص السور القرآنية:**

يراد ب"خصائص القرآن الكريم": كل ما يتميز به القرآن الكريم من كل وجه عن الأحاديث النبوية، والأحاديث القدسية، وسائر الكتب السماوية، فضلا عن كلام جميع البشر[(٤)].

وللقرآن الكريم خصائص كثيرة، منها خصائص تتعلق بأسلوبه، ومنها خصائص تتعلق بمضامينه، ومنها خصائص تتعلق بفضله ومكانته[(٥)]، ومن هذه الخصائص على سبيل المثال:

– أنه كلام الله تعالى، وليس لجبريل منه إلا النزول به، ولا لمحمد صلّى الله عليه وسلم إلا التلقي والتبليغ[(٦)].

– أنه منقول إلينا بالتواتر، فهو قطعي الثبوت[(١)].

---

(١) ينظر دستور العلماء (٢/ ٥٢)، ومعجم اللغة العربية المعاصرة (١/ ٦٥٢)، والمعجم الوسيط (١/ ٢٣٨).

(٢) مفاتيح العلوم (ص: ١٦٦). وينظر تفصيل كلام المناطقة في كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١/ ٧٣٢).

(٣) خصائص القرآن الكريم، لفهد بن سليمان الرومي (ص ١٣).

(٤) ينظر خصائص القرآن الكريم (ص ١٤).

(٥) ينظر الأساس في التفسير (٩/ ٥١٤٤)، وقد توسع فيها د. الرومي في كتابه "خصائص القرآن الكريم".

(٦) ينظر فقه قراءة القرآن (ص: ١٨)، وخصائص القرآن الكريم (ص ١٣٢).

- أنه كتاب معجز على مر الأيام وتعاقب الأزمان[٢].

- أنه مُتحدَّى بأقصر سورة منه[٣].

- أنه مُتعبَّد بتلاوته[٤].

- أنه يجب قراءته بلفظه، وتحرم روايته بالمعنى[٥].

- أنه محفوظ من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان[٦].

- أنه كتاب عام لجميع الناس[٧].

- أنه ميسر للذكر[٨].

---

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٢٥)، ومناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ١٩)، ومباحث في علوم القرآن (ص: ٢٢ و٣٣)، وخصائص القرآن الكريم (ص ١٨٨).

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ٤٥٨)، وفتح الرحمن في تفسير القرآن (٥/ ٢٥٥)، ومناهل العرفان في علوم القرآن (١/ ١٩ و٥١)، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص: ٣٣). ويجدر بالذكر أن بعض العلماء عدّدوا وجوها من الإعجاز، كما صنع السيوطي في "معترك الأقران"، والأولى أن تعد من خصائصه. ينظر عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، لحسن عبد الفتاح أحمد (ص: ٦٠ و٦٧).

(٣) ينظر مناهل العرفان (٢/ ٣٠٠ و٣٣٤)، والمقدمات الأساسية في علوم القرآن (ص: ١٦)، وخصائص القرآن الكريم (ص ٩٠- ٩٥).

(٤) ينظر مناهل العرفان (١/ ١٩) و (٢/ ١٢٩)، ومباحث في علوم القرآن (ص: ٢٢ و٣٣)، ودراسات في علوم القرآن (ص: ٢٢ و٢٣)، وخصائص القرآن الكريم (ص ١٣٣).

(٥) ينظر المرشد الوجيز (١/ ١٨٤)، ومناهل العرفان (١/ ٥١)، ومباحث في علوم القرآن (ص: ٣٣)، وخصائص القرآن الكريم (ص ١٧٤- ١٧٦).

(٦) ينظر صفوة التفاسير (٢/ ٤٢٧)، وعلوم القرآن الكريم لنور الدين عتر (ص: ١٨٠ - ١٨٦)، ودراسات في علوم القرآن للدكتور فهد الرومي (ص: ٦٥)، ومعجم علوم القرآن (ص: ١٤٥).

(٧) ينظر مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص: ١٣)، وفقه قراءة القرآن (ص: ١٩)، ومحاضرات في علوم القرآن، لغانم قدوري (ص: ٤٤)، والدعوة إلى التمسك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسلم، للمغذوي (ص: ١٨).

(٨) ينظر معجم علوم القرآن (ص: ١٤٦)، وفقه قراءة القرآن (ص: ١٩)، وخصائص القرآن الكريم (ص ١٦١ - ١٦٣)، والدعوة إلى التمسك بالقرآن الكريم (ص: ١٧).

- أنه سالم من الاختلاف والتناقض[(١)].

- أن أسلوبه مباين لأسلوب البشر[(٢)].

- أنه مؤلَّفٌ على غير المعهود عند الناس.

- أنه محفوظ في الصدور[(٣)].

- أنه نزل منجما[(٤)].

- أنه نزل على سبعة أحرف[(٥)].

ولا شك أن هذه الخصائص العامة تسري على كل سورة منه، فإننا (نجد في كل سورة خصائص القرآن كله)[(٦)]، ولكن لكل سورة خصائص تميزها عن غيرها من نظيراتها في كتاب الله العزيز، وهي التي يذكرها بعض المفسرين في بداية تفسيرهم للسورة.

وهذا ينطبق على سورة الحج، فإننا نجد فيها خصائص القرآن العامة، فهي معجزة في نظمها، متعبد بتلاوتها، منقولة إلينا بالتواتر، ميسرة للذكر، محفوظة من التبديل، منزلة لهداية العالمين... ولكننا نود الحديث في هذا المبحث عن الخصائص التي تميز هذه السورة عن غيرها

---

(١) ينظر محاسن التأويل (٣/ ٢٣٤)، ومناهل العرفان (٢/ ٤١٣)، ودعاوى الطاعنين في القرآن الكريم (ص: ١٦٢ - ١٦٤)، ومجموعة رسائل التوجيهات الإسلامية لإصلاح الفرد والمجتمع (٢/ ٣٩).

(٢) ويندرج تحت ذلك خصائص أسلوبية متعددة، ينظر النبأ العظيم (ص: ١٤١ - ١٧٥)، ومن روائع القرآن للدكتور البوطي (ص: ١١١ - ١٢٢)، والواضح في علوم القرآن (ص: ١٦٥)، وخصائص القرآن الكريم (ص ٢١ - ٥٦).

(٣) ينظر الكشاف (٣/ ٤٥٨)، وتفسير النسفي (٢/ ٦٨١)، وروح البيان (٦/ ٤٨١)، وعلوم القرآن الكريم لنور الدين عتر (ص: ١١)، ودراسات في علوم القرآن للدكتور فهد الرومي (ص: ٦٢).

(٤) ينظر خصائص القرآن الكريم (ص ٢٠١ - ٢٠٤)، ومعجم علوم القرآن (ص: ١٤٤)، والدعوة إلى التمسك بالقرآن الكريم (ص: ١٥).

(٥) ينظر خصائص القرآن الكريم (ص ٢٠٤ - ٢١٠)، ومعجم علوم القرآن (ص: ١٤٤).

(٦) الأساس في التفسير (٧/ ٣٨١٥)، وينظر كذلك (٩/ ٤٨٧١) و(١١/ ٦٧١٢).

من سور القرآن الكريم. ولا نعني هنا بالخصائص ما تختص به السورة دون غيرها فقط، وإنما نعني مميزاتها التي تميزها وإن كانت تشابهها في ذلك بعضُ السور.

**خصائص عامة لسورة الحج:**

عندما أمعنتُ النظر والتأمل في سورة الحج، تبين لي أن هذه السورة تتميز بخصائص عديدة، وتنفرد ببعضها، منها ما يأتي:

1 – اختصت هذه السورة باسم عبادة من أعظم العبادات وركنٍ من أركان الإسلام، ألا وهو "الحج"، فمن جهة تنفرد هذه السورة بهذا الاسم، فلا يوجد لها اسم آخر، بخلاف عدد من السور التي لها عدة أسماء[(١)]. ومن جهة أخرى لا توجد سورة في القرآن الكريم باسم شعيرة أخرى مثل الصلاة أو الزكاة أو الصيام[(٢)]، رغم أهمية هذه الشعائر كلها، بخلاف شعيرة الحج، فقد جعل الله تعالى سورة كاملة بهذا الاسم. وهذا يدل على عظم شأن عبادة الحج، وأنها تنطوي على حكم ومقاصد عظيمة، تتحقق بتجمع الأمة كلها في المشاعر المقدسة، وفيها إشارة إلى تضمن الحج لسائر العبادات، فهو مبني على التوحيد، والصلاة مقترنة به، وفيه تتحقق مقاصد الزكاة بإنفاق المال، وتتحقق مقاصد الصيام بالإمساك عن الرفث والفسوق والجدال والجهل والزور، زيادة على أن الصوم يكون عند حج التمتع بدلا من الهدي: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [سورة البقرة: ١٩٦]، وفي الفدية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [سورة البقرة: ١٩٦]. وقد أشار تعالى إلى فضل الحج لأنه يجمع بين العبادة القلبية والبدنية والمالية، فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥].

---

(١) ينظر أمثلة من ذلك في جمال القراء وكمال الإقراء للسخاوي (١/ ١٩٧ – ٢٠٢)، والبرهان في علوم القرآن (١/ ٢٦٩– ٢٧٠)، والإتقان (١/ ١٩١ – ١٩٧).

(٢) هذا على المشهور من أسماء السور، وإلا فقد سُميت الفاتحة بسورة الصلاة، لكنه ليس من أسمائها المشهورة.

ومن جهة أخرى فإن هذه السورة ذكرت تفاصيل مهمة في مناسك الحج، وقد تفردت فريضة الحج بالتفصيل في أركانها في القرآن الكريم، خلافا للفرائض الأخرى التي ذكرت إجمالا وجاء بيانها في السنة النبوية. وقد بين بعض الباحثين ثلاثة أسرار ينطوي عليها ذلك:

أولها: أن الحج يجب أداؤه مرةً واحدة في العمر كله، وما زاد على ذلك فهو تطوُّعٌ، وأداء الفريضة مرة واحدة تقتضي الحكمة أن ينص عليها القرآن الكريم بالتفصيل لدوام سماعه وتلاوته، ويسر تداوله بين جميع المسلمين، مما يجعل هذه الفريضة حاضرة دائمًا في الحس والوجدان بقراءة القرآن، بخلاف الصلاة التي تؤدى خمس مرات في اليوم والليلة، والصيام والزكاة اللذين يؤديان مرة في كل عام على الأقل، فإن تكررها يغني عن تفصيل أركانها وشروطها في القرآن الكريم، ووُكِل ذلك إلى السنة النبوية، والنقل العملي[(١)].

ثانيها: سد باب التأويل والاختلاف في أركان الحج؛ إذ الشأن في الفريضة التي لا يتكرر أداؤُها، أن تفسح المجال لاحتمال الاختلاف في تحديد أركانها وشروطها، فجاء تفصيل القرآن فيها ليسد هذا الباب، ويقطع النزاع حول أركانها، كي يتوجه المسلمون إلى التطبيق[(٢)].

ثالثها: صعوبة استدراك النقص في فريضة الحج بخلاف الفرائض الأخرى، فالصلاة الباطلة تقضى في دقائق، والصيام يقضي على مدى عام أو أكثر، والزكاة تبقى دينًا في الذمة حتى يتم إخراجها ولو بعد الموت، كل ذلك من غير تعب أو إعداد زاد أو تجشم مشقة طريق أو مخاطرة في سفر، أما الحج، فأركانه لا تجبر، ولا يصح الحج إلا بأداء المتروك، بل ترك الوقوف بعرفة يجعل الحج باطلًا، ويوجب على الحاجّ أن يؤديه في العام المقبل، وأداء المتروك وإعادة الوقوف بعرفة أمر ليس سهلًا، بل يكاد يكون متعذرًا في كثير من الأحيان[(٣)].

---

(١) ينظر التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية (ص: ١٠٣).

(٢) ينظر المرجع السابق (ص: ١٠٤).

(٣) ينظر المرجع السابق (ص: ١٠٤).

وترك الواجبات أو ارتكاب محظورات الإحرام يجبر بهدي في الحرم المكي، وهو ليس ميسورا، بخلاف الصلاة مثلا التي يمكن استدراك فعل الواجب فيها أو جبرانه بسجود السهو[1].

ولعل ما تقدم سبب لإفراد هذه السورة باسم فريضة من فرائض الإسلام الكبرى، دون غيرها من العبادات، والله أعلم.

٢ – سورة الحج هي أول سورة نزلت فيها السجدة إن صحت الرواية، فقد ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "أول سورة نزلت فيها السجدة الحج، قرأها رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فسجد وسجد الناس، إلا رجل أخذ التراب فسجد عليه، فرأيته قُتِل كافرًا"[2].

٣ – لم تجتمع في سورة من سور القرآن الكريم سجدتان من سجدات التلاوة إلا في سورة الحج، الأولى متفق عليها، وهي عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الحج: ١٨]. والثانية سجدة على قول الأكثر كما تقدم، عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة الحج: ٧٧]. ومع أن أول سجدة في المصحف الشريف وردت في الجزء التاسع في

---

(١) ينظر المرجع السابق (ص: ١٠٥).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب الطهارة، حديث عبد الوهاب، ح ٨٠٣، و٨٠٤، ١/ ٣٤٢)، وقال: (حديث صحيح على شرط الشيخين بالإسنادين جميعا ولم يخرجاه. إنما اتفقا على حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن الأسود، عن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، فذكره بنحوه. «وليس يعلل أحد الحديثين الآخرين، فإني لا أعلم أحدا تابع شعبة على ذكره النجم غير قيس بن الربيع، والذي يؤدي إليه الاجتهاد صحة الحديثين والله أعلم، وقد روي بإسناد رواية عبد الله بن لهيعة أن في سورة الحج سجدتين). وعلق عليه الذهبي: (تابعه زكريا بن أبي زائد عن أبي إسحاق على شرطهما).

سورة من الطوال، وهي سورة الأعراف، إلا أن سورة الحج – على قصرها بالنسبة لما قبلها- خصَّها الله تبارك وتعالى بسجدتين دون بقية السور، والسجود عند المؤمنين ذروة التعبد والتقرب إلى الله تعالى، كما أن الامتناع عن السجود كان أول معصية حدثت في تاريخ الخلق.

٤ – من خصائص سورة الحج أنه اجتمع فيها من المتقابلات ما لم يجتمع في غيرها في القرآن كلِّه، وتنوعت في منازلها وأوقات نزولها بصورة لم يُعهد مثلها في سورة أخرى، حتى إن هِبَةَ الله ابن سلامة[(١)] قال: إنها (من أعاجيب سور القرآن، لأنها نزلت ليلًا ونهارا، وفيها مكيّ ومدنيّ، وسفريّ وحضريّ، وحربيّ وسِلميّ، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه)[(٢)].

والمسلَّم به هو أن سورة الحج فيها مكي ومدني، وهو الذي عليه جمهور المفسرين[(٣)]، كما تقدم.

وسياق السورة يدل على ذلك كما ذكر ابن القيم، فإن بعض الآيات ظاهر أنها مكية، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾ [سورة الحج: ٣] وما بعدها، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا

(١) هو هبة الله بن سلامة بن نصر أبو القاسم الضّرير المقرئ النحويّ المفسر البغداديّ: كان من أحفظ الناس للتفسير والنّحو، وكان له حلقة في جامع المنصور. صنّف: «التفسير»، و«الناسخ والمنسوخ»، و«المسائل المنثورة في النحو». مات ببغداد ٤١٠هـ. تنظر ترجمته في: معجم الأدباء (٧/ ٢٤٣)، وتذكرة الحفاظ للذهبي (٣/ ١٠٥١)، وبغية الوعاة (٢/ ٣٢٣)، وطبقات المفسرين للداوودي (٢/ ٣٤٨).

(٢) الناسخ والمنسوخ (ص: ١٢٦)، ونجد مثله في الناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص: ٤٦)، ونقل نحوه القرطبي في تفسيره (١٢/ ١) عن الغزنوي.

(٣) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٠٥)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٥١٣)، وروح المعاني (٩/ ١٠٥)،

وتفسير المنار (٧/ ٢٤٠)، وهو ما رجحه ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٦٤)، وينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٠)، حيث قال ابن عاشور: (ليس هذا القول مثل ما يكثر أن يقولوه في بضع آيات من عدة سور: أنها نزلت في غير البلد الذي نزل فيه أكثر السورة المستثنى منها، بل أرادوا أن كثيرا منها مكي، وأن مثله أو يقاربه مدني، وأنه لا يتعين ما هو مكي منها وما هو مدني، ولذلك عبروا بقولهم: هي مختلطة).

كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [سورة الحج: ٨]، وما بعدها[١]، والآية الأولى التي تتضمن سجدة التلاوة اتفاقًا مكية، لأن المعهود في سجود التلاوة أنه لا يكون إلا فيما نزل بمكة قبل الهجرة. وبعض الآيات واضحٌ أنها مدنية، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥][٢]، وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحج: ٣٩ – ٤٠][٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الحج: ٥٨ – ٥٩][٤]. وكذلك آيات الحج، فإن الحج لم يفرض إلا في المدينة، ولم يذكر إلا في السور المدنية[٥].

أما أن منها ما نزل ليلا ومنها ما نزل نهارا، فقد ذكر ابن سلامة أن الليلي منها هو من أولها إلى رأس خمس آيات[٦]، وقد جاء في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت ليلا

---

(١) جزم العلامة ابن عاشور في التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٩) بأنها مكية، وهي كذلك عند أكثر المفسرين.

(٢) ينظر المبحث الثالث من الفصل الأول في الباب الأول من هذا البحث.

(٣) ينظر المبحث الثالث من الفصل الأول في الباب الأول من هذا البحث.

(٤) ينظر المبحث الثالث من الفصل الأول في الباب الأول من هذا البحث.

(٥) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٦٧).

(٦) الناسخ والمنسوخ (ص: ١٢٦).

في غزوة بني المصطلق، ولكن إسنادها واهٍ[1]. ونسب إلى الضحاك بن مزاحم[2] أن الليلي منها هو قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٦]، إلى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [سورة الحج: ٤٠]، وأن هذه الآيات نزلت ليلة المزدلفة[3]، ولم أجد رواية مسندة تقوي ذلك.

وأما النهاري، فقد ذكر ابن سلامة أنه من رأس خمس آيات إلى رأس تسع[4]. ولعله يعني ما روي صريحا بأنه نزل نهارا، ولكنني لم أقف على رواية تصرح بذلك.

وأما السفري، فقد حُكِي عن الضحاك أنه هو قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [سورة الحج: ١٩] الآيات، لأنها نزلت يوم بدر، وكان ذلك في السفر، والباقي حضري[5]، والذي جاء في الروايات الصحيحة أنها نزلت في شأن المتبارزين في بداية معركة بدر[6]، لا أنها نزلت يوم بدر.

وذكر ابن سلامة أن السفَري من رأس تسع إلى رأس اثنتي عشرة، وأما الحضري منها فإلى رأس العشرين[7]، ولم أقف على ما يدل على ذلك من الروايات. والذي ورد هو أن مطلع

---

(١) ذكر السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦/ ٦) أن ابن مردويه أخرجه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي اتهموه بالكذب، وقد مرض فقال لأصحابه في مرضه: (كل شيء حدثتكم عن أبي صالح كذِبٌ). ينظر ترجمته في ميزان الاعتدال (٣/ ٥٥٦-٥٥٩) والتهذيب (٩/ ١٧٨)، والتقريب (ص٤٧٩).

(٢) تقدمت ترجمته.

(٣) الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها (ص: ١٢٠).

(٤) الناسخ والمنسوخ (ص: ١٢٦).

(٥) الكامل (ص: ١٢٠).

(٦) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: (أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة. وقال قيس بن عباد وفيهم أنزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]. قال: هم الذين تبارزوا يوم بدر حمزة وعلي وعبيدة أو أبو عبيدة بن الحارث وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة). صحيح البخاري: (كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، ح ٣٧٤٧، ٤/١٤٥٨).

(٧) الناسخ والمنسوخ (ص: ١٢٦).

السورة نزل في حال السفر، وبهذا أفصح أنس بن مالك رضي الله عنه حين قال: (نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسيرٍ له)[1]. وكذلك صرح عمران بن حصين رضي الله عنه، (أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [سورة الحج: ١]، إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [سورة الحج: ٢]، قال: أنزلت عليه هذه الآية وهو في سفر)[2]، وإذا ثبت ذلك فإن هاتين الآيتين هما الجزءُ السفَري من السورة[3].

أما الحرْبي في السورة فهي الآيات التي تضمنت الإذن بقتال المشركين، وهي قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [سورة الحج: ٣٩]، إلى قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [سورة الحج: ٤١]. وأما السِّلْمِيّ فيعنون به والله أعلم قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾ [سورة الحج: ٦٨ – ٦٩]، فإنها تستلزم مسالمة المشركين وموادعتهم.

أما الناسخ والمنسوخ فقد ذكر ابن سلامة أن فيها ثلاث آيات منسوخات[4]، ولكنه لم يذكرها، وذكر ابن حزم أن المنسوخ فيها آيتان، أولاهما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٥٢]، نُسِخت بقوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾ [سورة الأعلى: ٦].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٦/ ٣٥٢ رقم ٧٣٥٤)، وقال محققه: (صحيح على شرط الشيخين). وأخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب الأهوال، ح ٨٦٩٢، ٤/ ٦١٠). وقال: (هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه). ومسند أبي يعلى الموصلي (٥/ ٤٣٠ رقم ٣١٢٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٩٤/١٠): (ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن مهدي، وهو ثقة).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه: (التفسير، باب ومن سورة الحج، ح ٣١٦٨، ٥/ ٣٢٢)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح، قد روي من غير وجه عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم).

(٣) وهذا ما نص عليه السيوطي في "معترك الأقران" (١/ ٣٦٤).

(٤) الناسخ والمنسوخ (ص: ١٢٦).

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الحج: ٥٦] الآية، نسختها آية السيف[(١)].

وذكر أبو بكر ابن العربي[(٢)] آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨﴾ [سورة الحج: ٦٨]، وقد نسختها – في رأيه – آية القتال[(٣)].

وأما الناسخ فهو قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [سورة الحج: ٣٩]، فإن (هذه الآية ناسخة لكل آية في القرآن تقتضي التوقف على القتال من ترك وإعراض وصفح ونحوه)[(٤)].

وهذا كله على ما جرى عليه كثير من المفسرين القدامى من وصف الآيات التي تتضمن الأمر بالقتال –وفي مقدمتها آية السيف[(٥)] – بأنها ناسخةٌ لما ذُكِر، وإلا فإن التحقيق أن هذا ليس نسخا بالمعنى الأصولي، وإنما هو من الإنساء[(٦)]، فقد أنسئ الأمر بالقتال إلى أن يقوى

---

(١) الناسخ والمنسوخ (ص: ٤٦).

(٢) هو محمّد بن عبد الله بن محمّد، أبو بكر، المعافري الإشبيلي، ويعرف بابن العربي. فقيه من كبار فقهاء المالكية بالأندلس، رحل إلى المشرق، ثم عاد، وولي قضاء إشبيلية ثم عزل عنها، فأقبل على نشر العلم، كان من أهل التفنن في العلوم، وله مؤلفات كثيرة، من أشهرها: «أحكام القرآن»، وكتاب «المسالك في شرح موطّإ مالك»، و«عارضة الأحوذيّ على كتاب الترمذيّ» و«القواصم والعواصم»، وغيرها، توفي سنة ٥٤٣هـ. ترجمته في: الصلة (١/ ٨)، ووفيات الأعيان (٤/ ٢٩٦)، وسير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٩٧)، وطبقات المفسرين للداودي (٢/ ١٦٧).

(٣) الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم (٢/ ٣٠٥).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٣٠٤).

(٥) يعنون بها قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

(٦) أخذ هذا المصطلح من قوله تعالى {أو ننسئها} [البقرة: ١٠٦]، على قراءتي ابن كثير وأبي عمرو. قال الزركشي في البرهان (٢/ ٤٢) في هذا النوع: (وهذا ليس بنسخ في الحقيقة، وإنما هو نسء كما قال تعالى: {أو ننسئها}، فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى. وبهذا التحقيق تبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف، وليست

المسلمون، وأمروا في حال الضعف بالصبر والإعراض عن المشركين[1]، ومن ثم فإن الآيات التي تتضمن الأمر بالصبر والإعراض والصفح والعفو هي من المنسَأ لا من المنسوخ، والعمل بها باقٍ في الأحوال التي تقتضي ذلك[2].

والمقصود مما تقدم أن من خصائص هذه السورة اشتمالها على هذه المتقابلات، ففيها ما يدل على الإعراض عن المشركين، وفيها ما يدل على إباحة قتالهم.

٥ – أن سورة الحج تجمع بين خصائص السور المكية وخصائص السور المدنية. أما الخصائص الأسلوبية فقد اجتمع فيها الخطاب العام الذي يشمل المشركين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [سورة الحج: ١ و٥ و٤٩ و ٧٣]، والخطاب الخاص بالمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [سورة الحج: ٧٧]، وغالب السور يكون الخطاب فيها بأحدهما فقط، وقد جعل العلماء مجيء الخطاب العام ضابطا أغلبيا للسور المكية، ومجيء خطاب المؤمنين ضابطا أغلبيا للسور المدنية، مستندين في ذلك إلى ما روي عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (ما كان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أنزل بالمدينة، وما كان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فبمكة)[3]. وصاغ الزرقاني رحمه الله الضابط ليكون مطردا على هذا النحو فقال: (كل سورة فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

كذلك بل هي من المنسأ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلة توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبدا).

(١) ينظر البرهان في علوم القرآن (٢/ ٤٢)، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح (ص: ٢٦٩).

(٢) ينظر علوم القرآن الكريم لنور الدين عتر (ص: ١٣٥)، والأصلان في علوم القرآن (ص: ٨٢)، والمقدمات الأساسية في علوم القرآن (ص: ٢١٢).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك: (كتاب الهجرة، ح ٥، ٣/ ٢٠)، وسكت عنه الذهبي في التلخيص. وروى أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٣٦٧)، وابن الضريس في فضائل القرآن (ص: ٣٨) عن علقمة أنه قال: (كل شيء من القرآن {يا أيها الذين آمنوا} فإنه أنزل بالمدينة، وما كان {يا أيها الناس} فإنه أنزل بمكة)، وروى أبو عبيد نحوه عن ميمون بن مهران. وروى ابن أبي شيبة في مصنفه مثله عن إبراهيم النخعي (٦/ ١٤٠ رقم ٣٠١٤٢) وعن عروة بن الزبير (٦/ ١٤٠ رقم ٣٠١٤٧).

ٱلنَّاسُ﴾ وليس فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهي مكية)[1]، وسورة الحج كما قدمنا مختلف فيها، فمنهم من قال: إنها مكية، ومنهم من قال: إنها مدنية، ومنهم من قال: إن بعض آياتها مكي وبعضها مدني، بمعنى أن كثيرًا منها مكي، وأن مثله أو ما يقاربه مدني.

ومن الخصائص الأسلوبية للسور المكية ورود سجدة التلاوة فيها، حتى إنهم قالوا: كل سورة فيها سجدة فهي مكية[2]. وقد تقدم أن في سورة الحج سجدتين، ومع ذلك ففيها آيات مدنية متعددة.

أما من جهة الخصائص الموضوعية، فمن خصائص المكي التي تضمنتها هذه السورة: الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وبيان بطلان ما يُدْعى من دونه، وإثباتُ البعث والجزاء، وذكرُ القيامة وأهوالها، والنار وعذابها، والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالبراهين والآيات الكونية[3]، واستنكار بعض أفعال المشركين السيئة.

ومن خصائص الآيات المدنية التي تضمنتها: بيان تفاصيل أحكام العبادات، وذكر أسباب تشريع الجهاد ومقاصده وثمراته[4].

وقد ورد عن عروة بن الزبير[5] رحمه الله أنه قال: (ما كان من حجٍّ أو فريضة فإنه نزل بالمدينة)[1]. وقد ذكرت في هذه السورة بعض أحكام فريضة الحج، بل إنها عرفت بهذا الاسم.

---

(١) مناهل العرفان (١/ ١٩٧)، وينظر مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح (ص: ١٨٢).

(٢) ذكره أبو القاسم الهذلي (ت٤٦٥هـ) في كتابه "الكامل في القراءات العشر والأربعين الزائدة عليها" (ص: ١١٦)، ونقله عنه السيوطي في الإتقان (١/ ٦٩)، ثم تناقله المؤلفون في علوم القرآن، ينظر مناهل العرفان (١/ ١٩٧).

(٣) ينظر مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص: ٦٣).

(٤) ينظر مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح (ص: ١٨٣)، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان (ص: ٦٤).

(٥) هو أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، أحد فقهاء المدينة السبعة، وهو من كبار الرواة الثقات، وأفاضل التابعين وعبادهم، ولد سنة (٢٢)، روى عن أبيه وعائشة وأبي هريرة، وروى عنه الزهري، توفي بالفرع قرب المدينة عام (٩٣) أو (٩٤). ينظر: طبقات ابن سعد (١٣٢)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٥٥)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٤٢١).

وقالوا: إن كل سورة فيها إذن بالجهاد أو ذكر له أو بيان لأحكامه فهي مدنية[٢]، وسورة الحج تضمنت الإذن بالقتال والوعد بالنصرة.

٦ -لم تُفتتَح سورة في النصف الأخير من المصحف الشريف بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إلا سورة الحج، وهي تناظر سورة أخرى في النصف الأول منه، وهي سورة النساء. قال فخر الدين الرازي رحمه الله: (ورد في القرآن سورتان أولهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

أحدهما في النصف الأول، وهي السورة الرابعة من سورِ النصف الأول، فإن أولاها الفاتحة، وثانيتها البقرة، وثالثها آل عمران، ورابعتها النساء.

وثانيتهما في النصف الثاني من القرآن، وهي أيضا السورة الرابعة من سور النصف الثاني: أولاها مريم، وثانيتها طه، وثالثتها الأنبياء، ورابعتها الحج.

ثم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ التي في النصف الأول تشتمل على شرح المبدأ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [سورة النساء: ١]، و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ التي في النصف الثاني تشتمل على شرح المعاد فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [سورة الحج: ١]؛ فسبحان من له في هذا القرآن أسرار خفية، وحكم مطوية لا يعرفها إلا الخواص من عبيده)[٣].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٤٠ رقم ٣٠١٤٠). ورواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٣٦٧) بلفظ: (ما كان من حدٍّ أو فريضة)، وهو أشبَه، وقوله: "أو فريضة" فالمراد به أحكام المواريث، ولا يراد به العبادات المفروضة كما قد يفهم من بعض كتب علوم القرآن، وقد نبه على ذلك أيضا الشيخ محمد بكر إسماعيل في دراسات في علوم القرآن (ص: ٤٧).

(٢) ينظر مناهل العرفان (١/ ١٩٨)، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح (ص: ١٨٣). وقد روى ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٤٠، رقم ٣٠١٤٩) عن عروة بن الزبير أنه قال: (إني لأعلم ما نزل من القرآن بمكة، وما أنزل بالمدينة، فأما ما نزل بمكة فضرب الأمثال، وذكر القرون، وأما ما نزل بالمدينة فالفرائض، والحدود، والجهاد).

(٣) ينظر مفاتيح الغيب (٥/ ٢٨١)، وينظر البحر المحيط (٢/ ٢٣٤)، والبرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٢٦ -٢٢٧).

وقال في موضع آخر: "فجعل صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، ثم قدم السورة الدالة على المبدأ على السورة الدالة على المعاد"[(١)]، فوقع ذلك على أبدع نظام وألطف ترتيب.

ومن أوجه التشابه بين السورتين أنه جاء في ختام كل واحدة منهما ما يكون به التقوى، ففي أواخر سورة النساء يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾ [سورة النساء: ١٧٤ – ١٧٥]، ويقول تعالى في ختام سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [سورة الحج: ٧٧ – ٧٨][(٢)].

٧ – سورة الحج هي أول سورة من سور القرآن الكريم ورد فيها الإذن بالقتال للمؤمنين، وبذلك صرّح عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حيث قال: (لما أُخرِج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة، قال أبو بكر: أخرَجوا نبيَّهم؟ إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! لَيهْلِكُنَّ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [سورة الحج: ٣٩ الآية)[(٣)]. وفي رواية أنه قال: (هي أول آية نزلت في القتال)[(١)]. وقال عروة بن الزبير رَحِمَهُ اللَّهُ: (إن

---

(١) مفاتيح الغيب (٩/ ٤٧٦)، وينظر نظم الدرر (٥/ ١٧٣).

(٢) ينظر "أسماء الله الحسنى في فواصل سورة الحج: دراسة تحليلية موضوعية": د. جهاد محمد فيصل النصيرات، (ص ٦ – ٧).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه: (أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحج، ح ٣١٧٠ (٥/٣٢٥)، وقال: (هذا حديث حسن. وقد رواه غير واحد عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير مرسلا، وليس فيه عن

أول آية أنزلت في القتال حين ابتُلِي المسلمون بمكة وسَطَتْ بهم عشائرُهم ليفتنوهم عن الإسلام، وأخرجوهم من ديارهم وتظاهروا عليهم، فأنزل الله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ [سورة الحج: ٣٩] الآية، وذلك حين أذِن لرسوله بالخروج، وأذِن لهم بالقتال)[٢].

وقال ابن شهاب الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "أول آية نزلت في القتال قول الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [سورة الحج: ٣٩] إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [سورة الحج: ٤٠]، قال: ثم ذكر القتال في آيٍ كثير من القرآن"[٣].

وهذه الآثار كلها متعاضدة على أن بدء تشريع القتال كان في سورة الحج، وفي آياته رُس}مت أسبابه ومقاصده.

---

ابن عباس). وسنن النسائي: (كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، رقم ٣٠٨٥، ٢/٦)، وأخرجه أحمد في "المسند" (٣/ ٣٥٨ رقم ١٨٦٥)، وصحح إسناده العلامة أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٢/ ٤٣١).

(١) أخرجه الترمذي في سننه: (كتاب التفسير، باب ومن سورة الحج، ح ٣١٧٠، ٥/ ٣٠٤)، وقال: (حديث حسن، وقد رواه عبد الرحمن بن مهدي وغيره عن سفيان عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير فيه عن ابن عباس، وقد رواه غير واحد عن سفيان عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير مرسلا، وليس فيه: عن ابن عباس). والنسائي في سننه (كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، ح ٣٠٨٥، ٦/ ٢)، وأخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٣٥٨ رقم ١٨٦٥)، وصحح إسنادَه العلامة أحمد شاكر، ونقل كلام الترمذي وقال: (وكأنه يريد تعليل الحديث، ولذلك حسنه فقط، وما هذه بعلة، فالوصول زيادة من ثقة). وأخرجه ابن حبان في صحيحه (١١/ ٨ رقم ٤٧١٠)، والحاكم في المستدرك (كتاب الجهاد، ح ٢٣٧٦، ٢/ ٧٦) و(من كتاب قراءات النبي صلى الله عليه وسلم مما لم يخرجاه وقد صح سنده، ح ٢٩٦٨، ٢/ ٢٦٩)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٩٦ رقم ١٣٩٦٣).

(٣) الناسخ والمنسوخ لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص: ١٩٠ رقم ٣٥٤)، وفضائل القرآن له (ص: ٣٦٥). أما ما أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ٢٨٩) من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس أنه قال عن قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝١٩٠﴾ [البقرة: ١٩٠]: (هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله يقاتل من يقاتله، ويكف عمن كف عنه، حتى نزلت براءة). فسنده ضعيف جدًا، فهو معضل، وأبو جعفر الرازي ضعيف سيئ الحفظ. وما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٣٢٥ رقم ١٧١٩) عن الربيع عن أبي العالية أنه قال: "هذه أول آية نزلت في القتال". فقول ابن عباس أرجح منه، ويجمع بينهما بأن آية الحج تتضمن الإذن بالقتال، أما آية البقرة فلعلها أول آية تتضمن الأمر بالقتال.

٨ – تميزت سورة الحج بكثرة الحديث عن الناس من أكثر من جانب[(١)]، فقد وردت لفظة الناس فيها خمس عشرة مرة، وجاء نداء الناس فيها أربع مرات، أولها قوله تعالى في مفتتح السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ١]، وثانيها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [سورة الحج: ٥]، وثالثها قوله تعالى في وسط السورة: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٤٩﴾ [سورة الحج: ٤٩]، ورابعها قوله تعالى في آخر السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ [سورة الحج: ٧٣]. ولم يُعهد تكرر النداء العام للناس في سورة أخرى من القرآن بهذا القدر إلا ما كان في سورة يونس، رغم قِصر سورة الحجّ بالنسبة لهذه السورة.

وإنما خوطب الناس في سورة الحج من بدايتها إلى نهايتها لأن جميع الناس مأمورون بتقوى الله، مطالبون بالإيمان بالبعث.

وثمة وجه آخر، وهو أن عبادة الحج هي أهم مواضيع السورة، وقد أمر الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام بدعوة الناس جميعا إليه فقال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [سورة الحج: ٢٧]، وحين فرضه سبحانه تعالى على المسلمين قرر وجوبه على الناس كلهم فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ [سورة آل عمران: ٩٧]، والسر في ذلك أن دعوة الناس إلى الحج وإيجابه عليهم ينطوي على دعوتهم جميعا إلى الدخول في الإسلام واتباع سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من أهل الديانات الوثنية قد يصلون وقد يصومون وقد ينفقون من أموالهم، ولكنهم قطعًا لا يحجون بيت الله الحرام، فالحج إنما اختص به العرب، وأقرته الشريعة المحمدية، ولم يكن في شرائع اليهود والنصارى فضلا عن غيرهم، فإذا دعي أهل الكتاب إلى الحج فمعناه أنهم يُدعون للدخول في الإسلام الذي اختص بوجوب أداء شعائر الحج[(٢)].

---

(١) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٦٩)، و"أسماء الله الحسنى في فواصل سورة الحج: ": ص ٧.

(٢) ينظر تفريغ حلقات برنامج "لمسات بيانية" للدكتور فاضل صالح السامرائي (ص: ١٠٢٨، بترقيم الشاملة آليا).

ومن جهة سورة أخرى فقد تحدثت السورة عن أنواع الناس من مقلّدين ومُضلّين ومنافقين ومؤمنين ومرسلين[1]، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ [سورة الحج: ٣]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الحج: ٨ – ٩]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ [سورة الحج: ١١]، وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: ٧٥].

٩ – في القرآن بضع وستون مثلًا، ولكن لم يأمر الله عز وجل المخاطبين في واحد منها بالاستماع إليه صراحة، إلا في المثَل الذي ذكره تعالى في آخر سورة الحج، فإن الله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ [سورة الحج: ٧٣].

١٠ – تتضمن هذه السورة آية جامعة، لم تترك خيرًا إلا جمعته[2]، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [سورة الحج: ٧٧]، فالعبادات تشمل جميع ما يتقرب به إلى الله تعالى، وفعل الخير يشمل كل ما فيه صلاح ونفع، وبذلك تكون هذه الآية "قد جمعت أنواع التكاليف الشرعية، وأحاطت بها من كل جوانبها"[3].

١١ – لم يرد في أي سورة من القرآن الكريم وصف الله تعالى بأنه القوي العزيز بأعلى درجات التوكيد مرتين في سورة واحدة إلا في سورة الحج، فإنه ورد فيها مؤكدا في موضعين،

---

(١) ينظر "أسماء الله الحسنى في فواصل سورة الحج": (ص ٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٦٦).

(٣) التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٤٦).

الأول في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠]، والثاني في قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الحج: ٧٤]، فقد ورد فيها مؤكدا باستعمال "إنَّ" التي تفيد التوكيد، واللام المزحلَقة في قوله: ﴿لَقَوِىٌّ﴾، على حين ورد هذا الوصف مؤكدًا مرة واحدة في سورة الأهوال "هود"، وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة هود: ٦٦]، والتوكيد هنا ب"إنَّ" و"ال" التعريف التي تدل على انفراده عزّ وجلّ بالقوة والعزة الكاملتين، وورد مرة واحدة أيضا في كل سورة من السور الآتية دون التأكيد ب"إن" الأحزاب [الآية: ٢٥]، والشورى [الآية: ١٩]، والحديد [الآية: ٢٥]، والمجادلة [الآية: ٢١] [(١)]. وبهذا يكون وصف الله تعالى بأنه القوي العزيز قد ورد في القرآن الكريم كله سبع مرات، وانفردت سورة الحج منها بمرتين، ففي الموضع الأول يؤكد أن سياق الآيات في التدافع بين الحق والباطل مضمون فيه الغلبة للمؤمنين إذا أحسنوا التوكل على الله القوي العزيز[(٢)]. وفي الموضع الثاني تستنكر على الذين يتوهمون وجود قوة أو عزة في بعض المخلوقات، وتؤكد أن الله تعالى هو الذي ينفرد بكمال القوة، ويختص برداء العزة، وما عداه فهو ضعيف ذليل.

١٢ – لم يرد في أي سورة التعبير ب"تذوق عذاب الحريق" مرتين إلا في سورة الحج، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحج: ٩]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحج: ٢٢]. على حين ورد مرة واحدة في ثلاث سور من القرآن الكريم، فقد ورد مرة واحدة في آل عمران حيث قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [سورة آل

---

(١) ينظر "أسماء الله الحسنى في فواصل سورة الحج"، (ص ١١).

(٢) ينظر مقال: خصائص فريدة لسورة الحج: صلاح الدين سلطان، على موقع رابطة علماء السنة: https://www.rabtasunna.com/20. وينظر كذلك بحث "المناسبة بين الفواصل القرآنية وآياتها: دراسة تطبيقية لسور الأنبياء والحج والمؤمنون": للباحثة عُلا منير حمدي الأغا (ص ١٣٩ – ١٤٠ و١٨١).

عمران: ١٨١]، ومرةً في سورة الأنفال حيث قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة الأنفال: ٥٠]، ومرةً في سورة البروج حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [سورة البروج: ١٠]، أما سورة الحج فقد ورد فيها مرتين[(١)]، ولعل ذلك لما تنطوي عليه هذه السورة من الوعيد الشديد للمشركين الغافلين عن يوم القيامة، وما فيه من أهوال، وما يتلوه من حساب وعذاب.

١٣ – لم يرد في القرآن الكريم كله وصف تفصيلي لعذاب الكافرين، كما جاء في هذه الآيات الواردة في سورة الحج: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحج: ١٩ – ٢٢]. فهذا المشهد لم يأت في القرآن الكريم مثله، سواء بالنسبة إلى الثياب التي تُفصَّل وتُقطَّع من نار، والمقامع من حديد، كما لم يرد ذكر العذاب المعنوي بالغم في جهنم: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾ إلا في هذه الصورة الرهيبة في جزاء الكافرين بالله تعالى المخاصمين لأوليائه[(٢)]. بخلاف الآية المشابهة للآية الأخيرة في سورة السجدة فإنه لم يذكر فيها الغم، وذلك حيث قال: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة السجدة: ٢٠]. ولذلك علل أبو جعفر ابن الزبير[(٣)] اختصاص سورة الحج بذكر الغم فيها فقال: (زيادة قوله: ﴿مِنْ غَمٍّ﴾

---

(١) ينظر مقال: خصائص فريدة لسورة الحج: صلاح الدين سلطان.

(٢) ينظر المرجع السابق.

(٣) هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير، الثقفي الغرناطي: انتهت اليه الرياسة بالأندلس في العربية ورواية الحديث والتفسير والأصول، وارتحل إليه العلماء لسعة معارفه. وولي قضاء الأنكحة والإمامة والخطابة بالجامع الكبير بغرناطة، من كتبه "ملاك التأويل في المتشابه اللفظ في التنزيل"، و"البرهان في ترتيب سور القرآن"، (ت٧٠٨هـ). ترجمته في الإحاطة لابن الخطيب (١/ ١٩٥)، والبدر الطالع للشوكاني (١/ ٣٣)، والدرر الكامنة (١/ ٨٩)، والذيل والتكملة

في الآية الأولى مناسب لما ورد قبله وبعده من **تفصيل الجزاء في الطرفين بعد ذكر الحالين من نعيم أو عذاب** لما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾ [سورة الحج: ١٩]، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾ [سورة الحج: ٢١]، وقال في الطرف الآخر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [سورة الحج: ٢٣] إلى قوله: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [سورة الحج: ٢٣]، ففصل حال هؤلاء، فناسب هذا زيادة: ﴿مِنۡ غَمّٖ﴾)[1].

١٤ – لم يرد للمجوس ذكرٌ في القرآن كله في معرض ذكر المِلل والنِحل إلا في سورة الحج، وذلك حيث قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ [سورة الحج: ١٧]. بينما وردت الآيات المشابهة لها دون ذكر المجوس عبدة النيران، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [سورة البقرة: ٦٢]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾ [سورة المائدة: ٦٩][2].

١٥ – من مميزات سورة الحج أنها السورة الوحيدة التي ذكرت فيها معابد الأمم، وهي: الصوامع، والبيع، والصلوات، والمساجد، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾ [سورة الحج:

---

للمراكشي (١/ ٣٩)، وطبقات المفسرين للداوودي (١/ ٢٧)، وينظر كتابي: "المتشابه اللفظي في القرآن ومسالك توجيهه عند ابن الزبير الغرناطي".

(١) ملاك التأويل (٢/ ٣٥٨)، وينظر توجيها آخر في درة التنزيل وغرة التأويل (١/ ٩٢١ – ٩٢٥)، والبرهان في توجيه متشابه القرآن (ص: ١٨١).

(٢) ينظر مقال: خصائص فريدة لسورة الحج: لصلاح الدين سلطان، فرج الله عنه.

٤٠]. ولم ترد هذه المعابد مفترقة أو مجتمعة في أي سورة من سور القرآن الكريم، والذي ذكر فحسب هو المساجد التي هي معابد هذه الأمة.

١٦- من مميزات سورة الحج أن فيها ثمان آيات متتابعة، ختمت كل منها بصفتين من صفات الله تعالى[١]، من أصل ثلاث عشرة آية ختمت بالأسماء الحسنى في السورة كلها، وتلك الآيات تبتدئ من الآية ٥٩ إلى نهاية الآية ٦٥، وهو ما لم يتكرر في غيرها:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨﴾ [سورة الحج: ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾ [سورة الحج: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٦٠﴾ [سورة الحج: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٦١﴾ [سورة الحج: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [سورة الحج: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ۝٦٣﴾ [سورة الحج: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٦٤﴾ [سورة الحج: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٦٥﴾ [سورة الحج: ٦٥][٢].

ولم ترد في سورة أخرى متوالية بهذا القدر، بل إن النَّسَفي[٣] حكى عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله: أن اسم الله الأعظم في الآيات الثمانية، ولذلك يُستجاب لمن قرأها[١].

---

(١) ينظر الأساس في التفسير (٧/ ٣٥٩٨).

(٢) ينظر "جماليات التعبير القرآني في سورة الحج: دراسة أسلوبية دلالية" إعداد: مأمون سليمان حسن أبو جُقَيم، رسالة ماجستير بكلية الآداب، جامعة آل البيت (ص ٢٨ – ٢٩).

(٣) هو أبو البركات، حافظ الدين، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، من فقهاء الحنفية، كان إماما عديم النظير في زمانه، رأسا في الفقه والأصول، بارعا في الحديث ومعانيه، له مصنفات مفيدة، لا سيما في الفقه والأصول، منها: كنز الدقائق، والمنَار في أصول الفِقه، والمنَار في أصول الدّين، وله تفسيره المشهور "مدارك التنزيل وحقائق التأويل" في

١٧ – من مميزات سورة الحج الإكثار من استعمال اسم الإشارة للبعيد ﴿ذلك﴾، حيث تردد فيها خمْسَ عشْرةَ مرةً، وذلك في المواضع الآتية:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة الحج: ٦].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [سورة الحج: ١٠].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الحج: ١١].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الحج: ١٢].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ [سورة الحج: ٦١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة الحج: ٦٢].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ [سورة الحج: ٧٠].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الحج: ٧٠].

واستعمل أداة فصل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [سورة الحج: ٣٠]، وقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿۞ ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [سورة الحج: ٦٠]. بخلاف سورة ص، حيث نجد اسم الإشارة إلى القريب ﴿هذا﴾ استعمل أداة فصل في أكثر من موضع منها، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة ص:٥٥].

وجاء اسم الإشارة ﴿ذلك﴾ في ثلاثة مواضع من سورة الحج مقترنا بكاف التشبيه، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحج: ١٦].

---

التفسير. (ت٧٠١هـ)، وقيل: ٧١٠هـ. ترجمته في: الجواهر المضية (١/ ٢٧٠ – ٢٧١)، وتاج التراجم (ص: ١٧٤ – ١٧٥)، والفوائد البهية (ص: ١٠١ – ١٠٢).

(١) تفسير النسفي (٢/ ٤٥٢).

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الحج: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٧].

وجاء مقترنا بضمير الجماعة المخاطبة، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الحج: ٧٢].

والحاصل أننا عند التأمل والمقارنة نجد أن الله تعالى استعمل في هذه السورة اسم الإشارة للبعيد بكثرة، وقد ورد في سور أخرى، لكن ليس بهذه الوفرة، فسورة الأنبياء قبلها ورد فيها ﴿ذَٰلِكَ﴾ ثلاث مرات، مع أنها مساوية لها في طولها، وبالعكس كثر فيها استعمال اسم الإشارة القريب ﴿هذا﴾، حيث ورد فيها ثلاثَ عشْرة مرة. بخلاف سورة الحج التي ورد فيها ﴿هذا﴾ مرتين فقط، مرة بصيغة التثنية، وذلك في قوله تعالى: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ﴾ [سورة الحج: ١٩]. ومرة بصيغة الإفراد، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [سورة الحج: ٧٨]، ولا شك أن وراء هذا الاستعمال المحكم لأسماء الإشارة حكمةً[1].

١٨ – من المميزات اللفظية لسورة الحج كثرة استعمال الفعل المبني للمجهول، وذلك في المواضع الآتية:

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ [سورة الحج: ٣].

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ [سورة الحج: ٥].

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [سورة الحج: ٥].

﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [سورة الحج: ١٩].

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الحج: ١٩].

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الحج: ٢٠].

---

(١) ينظر في رحاب سورة الحج ٢: د. محمد صافي المستغانمي. الموقع الإلكتروني: http://islamiyyat.com/.

﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [سورة الحج: ٢٢].

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [سورة الحج: ٢٣].

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [سورة الحج: ٢٤].

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الحج: ٢٤].

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٠].

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ [سورة الحج: ٣٩].

﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ [سورة الحج: ٣٩].

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [سورة الحج: ٤٠].

﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ [سورة الحج: ٤٠].

﴿وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [سورة الحج: ٤٠].

﴿وَكَذَّبَ مُوسَىٰ﴾ [سورة الحج: ٤٤].

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [سورة الحج: ٥٤].

﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ [سورة الحج: ٦٠].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الحج: ٧٦].

وإذا كانت هناك بعض الأفعال لا يعلم فاعلها على وجه التعيين، ولذلك جاءت بصيغة البناء للمجهول، مثل: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الحج: ٣٥]، و﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ [سورة الحج: ٤٠]، فإن الفاعل في كثير من هذه الآيات معلوم، ولكن لم يُسَمَّ لحكمة، ففي الآيات التي فيها شدة يؤتى بصيغة البناء للمجهول لما فيها من ثقل على النفس، بخلاف ما يتضمن البشارة فإن الله تعالى ينسبه لنفسه، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [سورة الحج: ٢٣]، وقوله: ﴿* إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [سورة الحج: ٣٨]،

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ﴾ [سورة الحج: ٤١]، وكذلك ما في سياق الامتنان كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ [سورة الحج: ٣٤]، وقوله: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٦].

أما حين يُبنى الفعل للمجهول فيكون لغرض بيانيّ، منها أن يُستبعَد الفاعل، إما لشدة الفعل، وإما لكراهية النفس له، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [سورة الحج: ٥]. فكلا الأمرين مكروه للنفس، ولذلك لم يُسندهما الله تعالى لنفسه، مع أنه هو الذي يتوفى العبادَ ويردهم إلى أرذل العمر، ولم يسند التوفِّيَ إلى ملَك الموت، وإنما قال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ [سورة الحج: ٥][(١)]. والأمر نفسه في الآيات التي فيها ذكر عذاب جهنم، فقد ورد فيها على التوالي: ﴿قُطِّعَتْ﴾ [سورة الحج: ١٩]، ﴿يُصَبُّ﴾ [سورة الحج: ١٩]، ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٢٠]، ﴿أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [سورة الحج: ٢٢]، لتذهب النفس كلَّ مذهب فيمن يفعل بهم ذلك. أما ما ورد في آيات نعيم أهل الجنة: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ [سورة الحج: ٢٣]، ﴿وَهُدُوٓا۟﴾ [سورة الحج: ٢٤]، فقد وردت بتلك الصيغة –والله أعلم– على وجه المشاكلة لما تقدم في آيات العذاب[(٢)].

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [سورة الحج: ٣٩]. فقد جاءت فيه ثلاثة أفعال مبنية للمجهول:

﴿أُذِنَ﴾على قراءة نافع وعاصم وأبي عمرو[(٣)].

﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ على قراءة نافع وعاصم وابن عامر[(١)].

---

(١) ينظر في رحاب سورة الحج ٢: د. محمد صافي المستغانمي. الموقع الإلكتروني: http://islamiyyat.com/.

(٢) وقال الشيخ أبو زهرة في زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٦٥): ({وهدوا} بالبناء للمجهول في الفعلين، ولم يذكر الفاعل مع أن الهداية كلها من الله تعالى، فحذف للعلم به؛ ولأن الهداية تتعدد مسالكها، فهي تبتدئ بعمل من المهدي بأن يتجه إلى الحق مخلصا النية، فيأخذ الله بيده ويبلغ به إلى أقصى ما يبلغ به من مراتبه).

(٣) التيسير في القراءات السبع (ص: ١٥٧).

﴿ظُلِمُوا۟﴾ على قراءة الجميع.

والسرُّ في ذلك – والله أعلم – أن الإذن هو من الله جلّ جلاله، ولكنه إذن بالقتال، وهو مكروه للنفوس، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [سورة البقرة: ٢١٦]، على البناء للمجهول أيضا. أما الفعلان الآخر، فمعلوم أن الذين ظلموهم وقاتلوهم هم المشركون من قومهم، وظلمُ ذوي القربى ثقيلٌ على النفوس، شديدٌ على القلوب، والله أعلم.

٢٠ – من المميزات اللفظية لسورة الحج أنها تفردت بكلمات معينة، وبعضها لم يذكر في غيرها ولو بمشتقات أخرى[٢]، وهي: ﴿هَامِدَةً﴾ [سورة الحج: ٥]، و ﴿عِطْفِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٩]، و﴿حَرْفٍ﴾ [سورة الحج: ١١]، ﴿وَٱلْمَجُوسَ﴾ [سورة الحج: ١٧]، و﴿مَّقَامِعُ﴾ [سورة الحج: ٢١]، و﴿ضَامِرٍ﴾ [سورة الحج: ٢٧]، و﴿عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الحج: ٢٧]، و﴿تَفَثَهُمْ﴾ [سورة الحج: ٢٩]، و﴿سَحِيقٍ﴿٣١﴾﴾ [سورة الحج: ٣١]، و﴿ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ (﴾ [سورة الحج: ٢٩ و ٣٣]، و﴿ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [سورة الحج: ٣٦]، و﴿صَوَامِعُ وَبِيَعٌ﴾ [سورة الحج: ٤٠]، ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [سورة الحج: ٤٥]، و ﴿مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الحج: ٤٥]. والأفعال: ﴿تَذْهَلُ﴾ [سورة الحج: ٢]، و﴿يُصْهَرُ﴾ [سورة الحج: ٢٠]، و﴿وَجَبَتْ﴾ [سورة الحج: ٣٦]، و ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ [سورة الحج: ٤٠]، و ﴿يَسْطُونَ﴾ [سورة الحج: ٧٢]، و ﴿يَسْلُبْهُمُ﴾ [سورة الحج: ٧٣]، و﴿يَسْتَنقِذُوهُ﴾ [سورة الحج: ٧٣][٣].

---

(١) المصدر السابق (ص: ١٥٧).

(٢) ينظر "أسماء الله الحسنى في فواصل سورة الحج"، (ص ٧ – ٨).

(٣) ينظر الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق (ص: ٣٣٦ و٣٣٨ و٤٦٤): وقد شرحنا هذه الألفاظ في الفصل الأول، وثمة بحث محكم بعنوان: "الانفرادات اللفظية في سورة الحج"، وهو من إعداد: شيرين فتحي أحمد العبد، وجهاد محمد نصيرات، وقد نشر في مجلة جرش، المجلد ٢٠، العدد ١، ٢٠١٩، ص ٢٧ – ٧٠.

٢١ – كثرة الصور التي تعرضها السورة من خلال الأمثال والتشبيهات والاستعارات، بما يتلاءم مع موضوعاتها التي اختصت بها[١]، ومنها:

قوله تعالى في شأن البعث: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [سورة الحج: ٢].

وقوله تعالى في شأن المذبذب في تدينه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾ [سورة الحج: ١١].

وقوله تعالى في شأن من ييأس من نصرة الله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ۝١٥﴾ [سورة الحج: ١٥].

وقوله تعالى في وصف عذاب الكفار: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٢٢﴾ [سورة الحج: ١٩ – ٢٢].

وقوله تعالى في شأن المشرك: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ [سورة الحج: ٣١].

وقوله تعالى في شأن وصف القرى الهالكة: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥﴾ [سورة الحج: ٤٥].

وقوله تعالى في بيان حقارة الأوثان وجهالة عبادها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ﴾ [سورة الحج: ٧٣].

---

(١) ينظر "أسماء الله الحسنى في فواصل سورة الحج" (ص ٧).

هذا، وقد ذكر بعض الباحثين خصيصة أخرى، وهي أنها تفردت في الآية الخامسة منها بوصف مراحل خلق الإنسان وتطوره بدقة متناهية تتلاءم مع مكتشفات العلم في عصرنا الحاضر، على نحو يميزها عن غيرها من آيات الخلق[(١)]، ولكن الذي يظهر لي أن سورة "المؤمنون"، تتضمن أيضا وصفا دقيقا لأطوار خلق الإنسان، بل إنه يذكر من الأطوار ما لم يذكر في سورة الحج.

وذكر أيضا أن من مميزاتها كثرة الاستفهام التقريري فيها[(٢)]، وهذا قد تساويه فيه سور أخرى، فلا مساغ لعدِّه من خصائص سورة الحج.

- نصف القرآن بالكلمات ينتهي عند حرف الدال من قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَٱلۡجُلُودُ ٢٠﴾ [سورة الحج: ٢٠]، ويبتدئ النصف الثاني من قوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾ [سورة الحج: ٢١][(٣)].

**خصائص سورة الحج المتعلقة بمعانيها وهداياتها:**

من خصائص سورة الحج التي تتعلق بهداياتها ما يأتي:

**١ – تقريرها لأصول الإيمان كلها:** فقد تحدثت السورة عن الإيمان بالله تعالى، إذ بين تعالى وحدانيته فقال: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [سورة الحج: ٣٤]، وذكر أعظم صفاته فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾ [سورة الحج: ٦]، وبث في السورة آيات تتضمن صفاته العلى كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ [سورة الحج: ١٤]، وقوله سبحانه: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ٧٦]. وعرفنا من خلال آيات أخرى بعدد من أسمائه الحسنى، لا سيما في فواصل الآيات كما تقدم في المطلب السابق.

---

(١) ينظر "أسماء الله الحسنى في فواصل سورة الحج" (ص ٧).

(٢) ينظر المرجع السابق.

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٥٣)، والموسوعة القرآنية (٢/ ٩٢)، وتاريخ القرآن الكريم (ص: ١٩٢).

وأشارت إلى الإيمان بالملائكة، حيث بين الله تعالى أنه يرسل رسلًا من الملائكة إما لتبليغ الوحي أو إنفاذ أمر من أوامره سبحانه، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [سورة الحج: ٧٥].

وأشارت إلى الإيمان بكتبه تعالى، فأخبر تعالى أنه سمى هذه الأمة بالمسلمين في القرآن وفي الكتب السماوية التي تقدمته، فقال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا﴾[سورة الحج: ٧٨][(١)].

وخص بالذكر ما أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فأخبر تعالى أنه جعله آياتٍ واضحاتِ الدلالة، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ [سورة الحج: ١٦]. وبين تعالى أنه يصون آياته من التحريف، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ [سورة الحج: ٥٢]. وبين أن شأن المؤمنين أنهم يؤمنون بأن القرآن منزل من عند الله، وأن قلوبهم مطمئنة بذلك، فقال: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [سورة الحج: ٥٤].

وأشارت السورة إلى الإيمان برسل الله عز وجلّ، حيث ذكر أسماء بعض الرسل في بعض المواضع منها[(٢)]، وبيّن تعالى أنه يختار بحكمته العليّة رسلًا من البشر، ليبلغوهم دينَه، وأنه سبحانه عليم بمن يصلح لهذه المرتبة، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾ [سورة الحج: ٧٥ – ٧٦].

وبيَّن عز وجل في ختام السورة أن الرسول محمدًا صلى الله علي وسلم شهيد على أمته يوم القيامة، وأن أمته تشهد على الأمم المتقدمة بأن أنبيائهم بلّغوهم رسالة الله إليهم، فقال:

---

(١) وهذا قول أكثر المفسرين في هذه الآية، ينظر الكشف والبيان (٧/ ٣٦).

(٢) وهم: نوح، وإبراهيم، ولوط، وموسى، عليهم الصلاة والسلام.

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: ٧٧ – ٧٨].

أما اليوم الآخر فقد قرر الله في غير موضع من السورة أمر البعث، وأقام الأدلة على وقوعه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ إلى آخر الآية [سورة الحج: ٥]. وأكد سبحانه أن الساعة ستقوم بلا شك، وأنه سيحيي الموتى ويبعثهم من مراقدهم ليحاسبهم ويجزيهم على أعمالهم[(١)]: فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [سورة الحج: ٦ – ٧].

وقرّر في مواضع متعددة أن يوم القيامة هو اليوم الذي يحكم فيه بين العباد، فيلقى كل عبد جزاءه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [سورة الحج: ١٧]، وقال: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٦٩﴾ [سورة الحج: ٦٩]، وذكر في أكثر من موضع جزاء الكفار والمؤمنين، وبيّن أن في الآخرة جنة وناراً، وأن الجنة للمتقين، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٢٣ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ۝٢٤﴾ [سورة الحج: ٢٣ – ٢٤]، وبين أن النار للعصاة والكافرين فقال: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٢﴾ [سورة الحج: ٧٢]. وذكر ما فيها من ألوان العذاب فقال:

(١) ينظر اللباب (١٤/ ٢٥)، وتفسير المراغي (١٧/ ٩٠)، والأساس في التفسير (٧/ ٣٥٢٩)، والمنتخب (ص: ٤٨٩).

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾ [سورة الحج: ١٩]، إلى غير ذلك من الآيات التي تقدم ذكرها في الهدايات الكلية(١).

وتحدثت السورة عن الإيمان بالقدر، فأشارت إلى إثبات القضاء؛ حيث قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ (٢). وأشار إلى علم الله السابق بالحادثات وكتابتها في اللوح المحفوظ(٣)، فقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾ [سورة الحج: ٧٠].

وقد تقدم ذكر هذا الأمر موسعا في مبحث الهدايات الكلية(٤).

**٢ – سورة الحج جمعت بين أصول الدين وفروعه:** فقد تضمنت السورة الإشارة إلى أصول الإيمان كلها كما تقدم لنا في الخصيصة السابقة. أما فروع الدين، فقد بينت السورة أهمية العمل الصالح حيث قرنه الله تعالى بالإيمان في أربعة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ [سورة الحج: ١٤]، وتضمنت أمرا عاما بعبادة الله وفعل الخيرات، حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧﴾ [سورة الحج: ٧٧]، وخصت الصلاة والزكاة بالذكر، حيث قال تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [سورة الحج: ٧٨]، وقال سبحانه في مدح المخبتين: ﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾. وقال سبحانه مضيفا شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [سورة الحج: ٤٠ – ٤١]، وخص عبادة الحج بعدة آيات بدءا من قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي

(١) ينظر الهداية الكلية الثامنة.

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٠).

(٣) هذا قول الجمهور؛ ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٠).

(٤) ينظر الهداية الكلية التاسعة.

ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ [سورة الحج: ٢٧ – ٢٨]، وتحدث عن الهدي وأومأ إلى شعيرة الأضاحي حيث قال: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾ [سورة الحج: ٣٦]، وتحدث عن الجهاد في آيات أخرى بدءا من قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [سورة الحج: ٤٠]. وقد تقدم لنا هذا في مبحث الهدايات الكلية[1].

**٣ – دلالتها على توحيد الله تعالى في العمل والقصد:** وذلك من وجوه شتى، تقدم لنا ذكرها فيما سبق.

فقد تضمنت التذكير بأن الله تعالى نهى خليله إبراهيم عليه السلام عن الشرك حيث قال تعالى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا﴾ [سورة الحج: ٢٦].

وأمر تعالى بتجنب عبادة الأوثان، وقول الزور الذي أعظمه نسبة الشريك لله سبحانه فقال: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ [سورة الحج: ٣٠ – ٣١]. وبيّن سبحانه فظاعة الشرك وبُعْد المشركين عن الهدى والحق، وسوء حالهم في الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [سورة الحج: ٣١]. وفيه ما فيه من الدلالة على رفعة التوحيد وأنه يسمو بالمسلم إلى أعلى المنازل.

وذكرهم تعالى كذلك بوحدانيته تعالى وأمرهم بالاستسلام والانقياد له وحده فقال: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤].

---

(١) تُنظر الهدايات الكلية: الثالثة، والعاشرة، والسادسة عشرة، والعشرون، والثانية والعشرون.

وبين تعالى استحقاقه وحده للعبادة وبطلان ما يعبد من دونه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [سورة الحج: ٦٢]. وأنكر على المشركين عبادتهم لمن لا برهان لهم عليه من عقل أو نقل، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ [سورة الحج: ٧١].

وبيَّن سبحانه أن تلك المعبودات لَا تجلب نفعا، ولا تدفع ضرا، بل إن عُبّادها ينالهم الضرر بسببها: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحج: ١٢ – ١٣] [(١)].

وضرب تعالى مثلا بيّن فيه أَن تلك الأوثان لا تستحق أن تعبد[(٢)]؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الحج: ٧٣].

ولم يكتف بهذا، بل وجه عباده المؤمنين إلى إخلاص النية له[(٣)]، فقد تضمن ما سبق تجريد القصد لله في أداء مناسك الحج والتقرب إلى الله بالنسك، كقوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ﴾ [سورة الحج: ٣١]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤] [(٤)].

---

(١) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ٩٣)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٣٣).

(٢) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧١)، والتفسير المنير (١٧/ ١٤٩).

(٣) ينظر الهداية الكلية الحادية عشرة.

(٤) أي أخلصوا العبادة له. ينظر الوجيز للواحدي (ص: ٧٣٤). وقال حقي في روح البيان (٦/ ٣٣): (والإسلام يكون بمعنى الإخلاص).

وصرح بذلك في آخر الآيات المتعلقة بذلك حيث قال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ٣٧][(١)].

والخلاصة أن السورة تضمنت الدعوة إلى توحيد الله تعالى في النيات والتصرفات، بالقلب والجوارح، ونهت عن الشرك كله، جليه، وخفيه[(٢)].

**٤ – تنبيهها إلى الجانب الباطني القلبي في عبادة الحج:** لا تختص سورة الحج ببيان أحكام الحج كما قد يتوهم، فإن سورة البقرة كما تقدم تحدثت عن بعض أحكام الحج أيضا. وإنما تتميز سورة الحج بالعناية بالجانب القلبي في هذه العبادة؛ ذلك أن سورة البقرة سورة عنيت عموما بالجانب التشريعي، وقد تضمنت أحكاما تفصيلية لعدد من المجالات، سواء في العبادات، أم في المعاملات، أم في أحكام الأسرة، ولذلك حين تطرقت إلى أحكام الحج جاء التأكيد فيها على الأقوال والأفعال وأحكام الإتمام والمنهيات والكفارات، وبدأت بزمن الإهلال بالحج، وأشارت إلى محظورات الإحرام، وذكرت بعض أحكام الحج، كالوقوف بعرفة، والإفاضة منه، والوقوف بالمشعر الحرام، والإفاضة منه، وختمت بذكر الله في أيام التشريق.

وأما سورة الحج، فقد ساقت الحديث عن الحج مساقا آخر يخدم أهداف السورة، وأول ما ابتدأت به هو الإشارة إلى أن الحج عبادة قائمة على التوحيد، وأنها سيرٌ على سَنَن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وأنه يخص هذه البقعة التي شرفها الله ببناء بيته العتيق فيها: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [سورة الحج: ٢٦ – ٢٧].

---

(١) قال الزمخشري في تفسيره لهذه الآية في الكشاف (٣/ ١٥٩): (والمعنى: لن يُرضي المضحون والمقربون ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص والاحتفاظ بشروط التقوى في حل ما قرب به، وغير ذلك من المحافظات الشرعية وأوامر الورع. فإذا لم يراعوا ذلك، لم تغن عنهم التضحية والتقريب وإن كثر ذلك منهم).

(٢) تقدم هذا المعنى موسَّعًا في الهداية الكلية السابعة.

وبين تعالى أنه شرع الحج لمقاصد متعددة، في مقدمتها أن يذكره عباده ويشكروه على ما رزقهم إياه، فقال: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الحج: ٢٨].

وبعدما ذكر عز وجلّ بعض أعمال الحج التي تنتهي بطواف الإفاضة، عاد ليذكر بوجوب تعظيم الحج تعظيما قلبيا ينشأ عنه إتمام مناسكه واحترام مشاهده، واجتناب ما هو محظور فيه الحج، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٠]، ونبّه على أنه ينبغي على الحاج أن يجعل حجه خالصا لله وحده، فقال: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ﴾ [سورة الحج: ٣٠ – ٣١].

ثم بيّن سبحانه مرة أخرى أن تعظيم شعائر الحج وسائر الشعائر علامة على امتلاء القلوب بالتقوى، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢].

ثم بين سبحانه أن ذبح النسُك إنما شرع لكي يُذكر الله تعالى ويُشكر على إنعامه بها، ووجههم إلى الإخلاص له في ذبحها، فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤]. ولوّح بأن الحجاج ينبغي أن يتصفوا بالإخبات، فقال بعدها: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥]. وختم بأن المعتبر في القبول ليس هو الصورة الظاهرية للعمل، وإنما ما انطوت عليه القلوب من التقوى، فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٧]. ورغب تعالى في ختامها في إتقان الحج ومراقبة الله تعالى فيه فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الحج: ٣٧].

ومن خلال ما تقدم فإن سورة الحج كما عبر أحد الكاتبين (سورةٌ قلبية، فآيات الحج فيها غالبها عن حج القلب)[1].

**٥ – دعوتها إلى تعظيم الله تعالى وشعائره وحرماته:** وهذا من خصائص هذه السورة، حتى إن مؤلفي "المختصر في تفسير القرآن الكريم" ذهبوا إلى أن مقصد السورة هو: التعظيم والاستسلام لله[2].

أما تعظيم الله تعالى فقد جاءت في السورة آية تصور تعظيم المخلوقات لله وسجودها له سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: ١٨]. وفي آية أخرى إشارة إلى أن من مقاصد تسخير الإنعام تكبير الله وإظهار تعظيمه: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الحج: ٣٧]. وفي ختام السورة نجد الإنكار على المشركين الذين لم يعظموا الله ولم يقدروه حق قدره حيث قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الحج: ٧٤].

كما جاءت آيات متعددة تبين عظمة قدرة الله وسعة ملكه ونفوذ تصرفه في الخلق، وكل ذلك يبعث على تعظيم الله تعالى[3].

وإذا كان ما تقدم قد يكون واردا في بعض السور، فإن سورة الحج تنفرد بآيتين اثنتين في الترغيب في تعظيم حرمات الله وشعائره وبيان فضله، لا يوجد مثلهما في جميع سور القرآن الكريم. الأولى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٠]. والثانية هي قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى

(١) مقال: "السورة العجيبة"، عصام العويد: https://www.feqhweb.com/vb/t21311.html.

(٢) المختصر في تفسير القرآن الكريم (ص ٣٣٢).

(٣) ينظر موسَّعًا في الهداية الكلية الثانية.

ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢]. وتخصيص سورة الحج بهاتين الآيتين فيه إشارة إلى أن الحج الكامل هو الذي يكون مقترنا بتعظيم الله تعالى، وأن تعظيم المسجد الحرام وسائر المشاعر المقدسة تعظيم لله تعالى، وأن القلب لا بد أن ينطوي على تعظيم الله عند أداء العبادات كلها، وأن التقوى إنما يقوم أساسا على تعظيم أوامر الله ونواهيه.

**٦ – عنايتها بشأن القلوب وبيانها لأنواعها:** من خصائص هذه السورة أنها تعنى بجانب صلاح القلب، فقد تردد ذكر القلب في السورة سبع مرات، وتنبه الإمام ابن تيمية[(١)] إلى أن سورة الحج قد اختصت بذكر أنواع القلوب الأربعة: القلب الأعمى، والقلب المريض، والقلب القاسي، والقلب الحي المخبت المطمئن إلى الله، ولم تُذكَر هذه الأربعة في سورة واحدة مجتمعة إلا في سورة الحج[(٢)].

الأول في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الحج: ٤٦]، والثاني والثالث في قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الحج: ٥٣]. والرابع في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الحج: ٥٤].

وقد فرق ابن القيم بين بعض أنواع القلوب فقال: (والله سبحانه جعل القلوب على ثلاثة أقسام: مريضة، وقاسية، ومخبتة؛ وذلك لأنها إما أن تكون يابسة جامدة، لا تلين للحق اعترافا وإذعانا، أو لا تكون كذلك؛ فالأول حال القلوب القاسية الحجرية التي لا تقبل ما يبث فيها، ولا ينطبع فيها الحق، ولا ترتسم فيها العلوم النافعة، ولا تلين لإعطاء الأعمال الصالحة.

وأما النوع الثاني، فلا يخلو، إما أن يكون الحق ثابتا فيه لا يزول عنه لقوته مع لينه، أو يكون ثابتا مع ضعف وانحلال، والثاني هو القلب المريض، والأول هو الصحيح المخبت، وهو

---

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) ينظر مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٦٦).

[الذي] جمع الصلابة والصفاء واللين، فيبصر الحق بصفائه، ويشتد فيه بصلابته، ويرحم الخلق بلينه)[1].

وتبين لي من خلال التأمل أن وراء ذكر هذه الأنواع الأربعة دعوةً خفية إلى تطهير القلوب وتزكيتها وإمدادها بما فيه حياتها وشفاؤها، فقد بيّن تعالى أن القلب مستقر التقوى، فقال عز من قائل: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢]، وبين سبحانه أنه محل العقل فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [سورة الحج: ٤٦]. وأثنى على أصحاب القلوب الخاشعة التي توجل عند ذكر الله، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥].

وفي المقابل حذرنا من عمى القلوب الذي يحول بينها وبيْن الاعتبار بآثار قدرة الله في الكون، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الحج: ٤٦]. وتوعّد الذين في قلوبهم مرض أو قسوة تمنعهم من الانتفاع بآيات الله المتلوّة، فقال: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الحج: ٥٣][2].

---

(١) شفاء العليل (ص: ١٩٢).

(٢) ينظر رسالة "الدعوة إلى الله تعالى في سورة الحج" حيث عقدت الباحثة المبحث الثاني من الفصل الثالث لأحوال المدعوين إلى الله في السورة، وتكلمت بإسهاب عن حال أولي القلوب المريضة والقلوب القاسية والقلوب المخبتة من (ص ١٩٩) إلى (ص ٢٠٧). واقتصرت على هذه الثلاثة لأنها ذهبت إلى أن أحوال المدعوين ترتبط بحال قلوبهم عند التعرض للفتن.

وكذلك أشار الله تعالى في مواضع متفرقةٍ تصريحا وتلويحا إلى جملة من أعمال القلوب، كالإخلاص، والإسلام لله، والإخبات له، وخشيته، والتوكل عليه، وتعظيم وتعظيمه شعائره وحرماته؛ كما تقدم في مبحث الهدايات الكلية[1].

**٧ – بيانها لفضل التقرب إلى الله تعالى بالأضاحي والأنعام:** فقد ذكر الله عز وجل أن من مقاصد الحج التقرب إلى الله تعالى بذبح الهدي، وذلك حيث قال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٢٧ – ٢٨].

وبين سبحانه استحباب الأكل من تلك الذبائح، ووجوبَ التصدق بلحمها وإطعام الفقراء البائسين منها، فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [سورة الحج: ٢٨].

وأشار تعالى إلى استحباب إشعار الهدي، واختيارِ أسمنها وأثمنها، وأن ذلك من تعظيم القلوب لله عز وجلّ، فقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢]. وامتنّ تعالى عليهم بأنه جعل لهم في الهدايا منافع متعددة، فأباح لهم شرب لبنها، وركوب ظهرها، والانتفاع بصوفها ونسْلها، إلى أن تبلغ منحرها: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الحج: ٣٣].

وبين سبحانه أن ذبح النسك على وجه التقرب إليه تعالى مشروع في جميع الشرائع السماوية، لكي يذكروا اسم الله عند ذبحها ويشكروه على ما رزقهم، فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٣٤]. وأومأ سبحانه إلى أنه لا يجوز أن يذكر على الذبائح إلا اسم الله وحده، فقال بعدما تقدم: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ [سورة الحج: ٣٤].

---

(١) ينظر الهداية الكلية الحادية عشرة المتعلقة بمنازل السير إلى الله تعالى.

وبين تعالى أن نحر البُدْن من أعلام دين الله وشريعته، وأكد أن لهم فيها منفعة في الدنيا والآخرة، حيث قال: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [سورة الحج: ٣٦]. وبيّن تعالى كيفية نحرها، فقال: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ [سورة الحج: ٣٦]، ثم أباح للحجاج الأكل من الهدايا وأمرهم بإطعام السائلين والمتعففين، فقال: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ [سورة الحج: ٣٦]. وأخبر أن المقصد هو شكر الله تعالى على تسخيرها لهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الحج: ٣٦].

وحذر الله تعالى المسلمين من فعل ما كان يفعله المشركون من تقطيعهم للحوم ونشرها حول الكعبة، وتلطيخها بالدماء، وبين أن اللحوم إنما ينتفع بها الناس، وأما رضوان الله تعالى فإنه ينال بامتثال أمره، والمعتبر في القبول هو ما تنطوي عليه القلوب من إخلاص لله وتعظيم لشعائره، فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الحج: ٣٧].

ولا أُرى أن في القرآن سورةً تعدل سورة الحج في أمر التقرب بذبح الأنعام في الهدايا والأضاحي.

**٨ – بيانها لأصناف الناس ومواقفهم من هدى الله تعالى المنزل على رسله:** تحدثت السورة عن أنواع الناس من مجادلين ومنافقين ومؤمنين:

فالصنف الأول: هم الذي قال تعالى في شأنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [سورة الحج: ٣]، وهم الضُّلّال الجُهّال الذين يجادلون في ألوهية الله تعالى بغير علم، متبعين في ذلك كل شيطان من أئمة الكفر، فهم يقلدونه ويسيرون وراءه ويتلقنون الشُّبه منه[(١)].

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٤٩)، والتفسير الحديث (٦/ ١١).

والصنف الثاني هم الذي قال الله تعالى في شأنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة الحج: ٨ – ٩]، وهم رءوس الكفر والضلالة الذين يجادلون بمجرد الرأي والهوى، من غير علم من أنفسهم، أو هدى من غيرهم، أو كتاب صحيح في أيديهم، ومع جهالتهم وضلالتهم يغترّون بأنفسهم، ويستكبرون عن سماع الحق، إمعانًا في العناد، حتى يضلوا غيرهم ويصرفوهم عن الاستجابة إلى دين الله[(١)].

والصنف الثالث هم الذين قال الله تعالى في شأنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [سورة الحج: ١١]، وهم المتشككون الانتهازيون[(٢)]، الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم، بل يكون إسلامهم ظاهريا، فلا يعبدون الله عبادة من امتلأ قلبه بالإيمان، واطمأن بربه، وإنما يعبدون الله على صلاح الدنيا، فإن أصابتهم شدة، ارتدوا وأخذوا يدعون غير الله[(٣)]. وقد تكون في الآيات صورة من صور مواقف المنافقين ومرضى القلوب[(٤)].

والصنف الرابع هم الذين قال الله تعالى في شأنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ [سورة الحج: ١٤]. وهم الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله وعملوا ما أُمروا به من الصالحات.

وذكرت السورة كذلك أصناف الناس حسب الملل التي اعتنقوها، وذلك حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝١٧﴾ [سورة الحج: ١٧]. وكأن في

---

(١) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٩٢ – ٩٩٣)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٨٣ – ٢٨٤).

(٢) ينظر التفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٦٢٩).

(٣) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٥١ – ٤٩٥٢)، والتفسير الحديث (٦/ ١٦).

(٤) التفسير الحديث (٦/ ١٧)، وينظر التفسير الواضح (٢/ ٥٧١).

الآية إشارة إلى الفرق التي كانت موجودة عند بعثة النبي صلى الله عليه وسلم[1]، فابتدأ بالذين آمنوا، ثم أتبعهم باليهود، والصابئة الذين يعبدون الكواكب، والنصارى، والمجوس الذين يعبدون النار، وختم بسائر المشركين الذين يعبدون الأوثان وغيرها. وقد تقدم لنا أن ذكر هذه الفرق الستة مجتمعة في سياق واحد لم يرِدْ إلا في هذه السورة[2].

**٩ – تضمنها لأقوى البراهين في إثبات البعث وإبطال الشرك:** فقد تضمنت السورة في مطلعها برهانين واضحين في الدلالة على إمكان البعث وقدرة الله تعالى عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [سورة الحج: ٥]. وتضمنت السورة في آخرها بطلان الشرك بمثَلٍ بيّنٍ يُظهر ضعف معبودات المشركين وعجزها، وذلك حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ [سورة الحج: ٧٣].

وقد تقدم الحديث عن هذه الآيات في غير ما موضع، فليرجع إليها.

وبالجملة فإن سورة الحج تتضمن الأمور الستة التي يفتقر كل عبد إلى معرفتها ومشاهدتها ضرورةً، وهي التي يتضمنها القرآن الكريم بشكل عام، فهي تعرفه الربَّ المدعوَّ إليه، وطريقَ الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه. وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو

---

(١) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٩٦).

(٢) ينظر رسالة "الدعوة إلى الله تعالى في سورة الحج"، حيث عقدت الباحثة المبحث الأول من الفصل الثالث لأصناف المدعوين إلى الله في السورة، وتكلمت بإسهاب عن ذلك من ص ١٦١ إلى ص ١٩٥.

إليه الشيطان، والطريقَ الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه[1].

(١) ينظر مدارج السالكين (١/ ٤٥٠).

## المبحث الثالث: أساليب السورة في عرض هداياتها.

من خصائص القرآن الكريم في أسلوبه الفذ أنه يجمع بين الجزالة والسلاسة، والقوة والعذوبة، وفصاحة الألفاظ وسمو المعاني، فهو الحق الظاهر، والنور الباهر، والحق المبين[(١)]، ولا شك أن أسلوب القرآن هو أول ما شد العرب إليه، وحملهم على الاستماع له، ومع عداوة كثير من المشركين له فقد أقروا بعلُوه على كلام الناس، وحين سمعوه انبهروا بنظمه، ومع أنهم فرسان البلاغة وأرباب البيان فإنهم عجزوا عن الإتيان بمثل سورة منه، وكل ذلك يشهد لقوة بيانه وجلال أسلوبه.

ولقد اتفق العلماء قديما وحديثا على أن للقرآن أسلوبا خاصا به مغايرا لأساليب العرب في الكتابة والخطابة والتأليف[(٢)]. وسيكون هذا المبحث عن الأساليب التي عرضت بها هدايات سورة الحج من خلال العناصر الآتية:

### تعريف الأساليب:

يطلق الأسلوب في اللغة إطلاقات مختلفة[(٣)]، وتشير المعاجم إلى أن الأسلوب هو الطريقة، فالأسلوب: الطريق والمذهب[(٤)]. ويقال للسطر من النخل: أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب[(٥)]، وكل شيء امتد على غير امتناع فهو أسلوب[(٦)]. والأساليب: الطرق

(١) ينظر أضواء على القرآن الكريم (بلاغته وإعجازه) (ص: ٩٥).

(٢) ينظر مناهل العرفان (٢/ ٣٠٣)، ومباحث في إعجاز القرآن، للدكتور مصطفى مسلم (ص: ١٤٣).

(٣) مناهل العرفان (٢/ ٣٠٢ – ٣٠٣).

(٤) ينظر جمهرة اللغة (١/ ٣٤١)، وتهذيب اللغة (١٢/ ٣٠٢)، والمحكم (٨/ ٥٠٥).

(٥) ينظر تهذيب اللغة (١٢/ ٣٠٢).

(٦) مجمل اللغة لابن فارس (ص: ٤٧٠)، وينظر شمس العلوم (٥/ ٣١٥٨)، وفيه (من غير اتساع).

والفنون[1]، ويقال: أخذ فلان في أساليب من القول، أي فنون منه[2]. وسلكت أسلوب فلان، أي طريقته. ويقال: كلامه على أساليب حسنة[3].

وأقرب معنى لما نتحدث عنه هو: طريقة المتكلم في كلامه[4].

أما في الاصطلاح: فالأسلوب هو (طريقة الصياغة أو الأداء اللفظي الذي يتخذه الأديب أداة للتصوير والإبانة عن مشاعره وأحاسيسه ونقلها إلى الآخرين)[5]. وبعبارة أخرى: هو (طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير، أو هو العبارات اللفظية المنسّقة لأداء المعاني)[6].

وعلى هذا فالأسلوب القرآني: هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه.

ونود هنا النظر في أنواع الأساليب التي تعرض بها هدايات السورة. وسأقسمها إلى نوعين:

الأول: الأساليب التعبيرية، وأعني بها مختلف الأساليب التي يعرض بها المعنى. ومنها على سبيل المثال[7]:

١ - أسلوب الترغيب[8].

---

(١) مجمل اللغة (ص: ٤٧٠).

(٢) ينظر جمهرة اللغة (١/ ٣٤١)، والمحكم (٨/ ٥٠٥).

(٣) أساس البلاغة للزمخشري (١/ ٤٦٨).

(٤) ينظر مناهل العرفان (٢/ ٣٠٣).

(٥) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، للدكتور عبد العظيم المطعني (١/ ٤٥).

(٦) مباحث في إعجاز القرآن (ص: ١٤٣).

(٧) سماها الشيخ عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني: الأساليب البيانية، وعدد بعض أنواعها، ينظر كتابه البلاغة العربية (١/ ٦٦ - ٦٧).

(٨) مناهل العرفان (١/ ٣٠٨ - ٣٠٩).

٢ – أسلوب الترهيب[١].

٣ – الأسلوب المنطقي.

٤ – أسلوب الحوار[٢].

٥ – أسلوب الجدل[٣].

٦ – الأسلوب القصصي[٤].

٧ – أسلوب ضرب الأمثال[٥].

وهذه الأساليب إذا كانت ملائمة للغرض العام من الكلام، والوضع العام للمخاطب، والحال الخاص له، والْمنَاخ النفسيّ العامّ، فإنها تكون أسلوبًا بيانيًّا مُرْتَقِيًا في معارج البلاغة الراقية، والأدب الرفيع[٦].

الثاني: الفنون البلاغية: وهي أنواع الأشكال البلاغية التي يتحدث عنها علماء البلاغة في كتبهم بأقسامها الثلاثة: البيان، والمعاني، والبديع. وذلك مثل الالتفات، والمقابلة، والتقديم والتأخير، ونحوها[٧].

---

(١) مناهل العرفان (١/ ٣٠٨ – ٣٠٩).

(٢) ينظر عن هذا الأسلوب: تقويم أساليب تعليم القرآن الكريم وعلومه في وسائل الإعلام (ص: ٢١).

(٣) ينظر عن هذا الأسلوب: المعجزة الكبرى القرآن (ص: ٢٦٣).

(٤) ينظر عن هذا الأسلوب: المعجزة الكبرى القرآن (ص: ١٤٩)، وعلوم القرآن الكريم لنور الدين عتر (ص: ٢٥٢).

(٥) ينظر عن هذا الأسلوب: تقويم أساليب تعليم القرآن الكريم وعلومه (ص: ٢٩).

(٦) البلاغة العربية (١/ ٦٦).

(٧) وهو الذي أدرجه الزركشي في البرهان (٢/ ٣٨٢ – ٣٨٣) ضمن النوع السادس والأربعون من علوم القرآن، وعنونه بقوله: في أساليب القرآن وفنونه البليغة. ويسميه د. مساعد الطيار الأساليب العربية الواردة في القرآن، ينظر التفسير اللغوي للقرآن الكريم (ص: ١٣٣).

وقد تضمنت "الدراسة التأصيلية" هذين النوعين معًا، وإن لم تميز بينهما، إلا أنني آثرت هذا التمييز حتى لا يضطرب القارئ بسبب اختلاف النوعين.

ولنبتدئ ببيان النوع الأول، ثم الثاني.

**النوع الأول: الأساليب التعبيرية التي تعرض بها الهدايات في السورة:**

تقدم لنا أن الأساليب التعبيرية هي ضروب القول المختلفة التي يعرض بها المعنى ويعبر بها عن غرض من الأغراض.

وقد تضمنت سورة الحج معاني وهدايات كثيرة، عرضت بأساليب تعبيرية متنوعة، أهمها أربعة أساليب، سأتحدث عن كل أسلوب منها على حدة، مبينا كيف أظهر أغراض هذه السورة من خلال بعض آياتها.

**أسلوب التصوير:**

التصوير في القرآن هو التعبير عن المعنى من خلال صورة يتصوَّرها الخيال، ويدركها الشعور، وتكاد العين أن تستوعبها قبل أن يستوعبها العقل[(١)]، بحيث تجعل القارئ يحسّ بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه[(٢)].

وهو- كما يقول سيد قطب[(٣)]- تصوير باللون والحركة، وتصوير بالتخييل، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل[(١)].

---

(١) ينظر الواضح في علوم القرآن، لمصطفا البُغا ومحيي الدين مستو (ص: ١٦٩).

(٢) من بلاغة القرآن، للدكتور أحمد بدوي (ص: ١٦٧).

(٣) من كبار الكتاب والمفكرين الإسلاميين في القرن العشرين، درس بالقاهرة، وتخرج بكلية دار العلوم سنة ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م). وعمل في الصحافة، ثم عين مدرسا، فموظفا في ديوان وزارة المعارف، ثم مراقبا فنيا للوزارة، وبعد عودته من أمريكا استقال، وانضم إلى جماعة الإخوان المسلمين، وتولى تحرير جريدتهم، واعتقل معهم، فعكف على التأليف، ثم أطلق سراحه، ثم اعتقل مرة أخرى، وبقي كذلك إلى أن أعدم رحمه الله سنة ١٩٦٦م. له كتب كثيرة، منها تفسيره

ولا ينحصر التصوير القرآني في المعاني المجردة، وإنما شمل الحالات النفسية، والنماذج الإنسانية، والمشاهد الكونية، والحوادث الواقعة، والأمثال المضروبة. فجميعها عبر عنها القرآن بالصور المحسّة المتخيلة، ثم يرتقي بالصور التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة[٢].

ووسائل التصوير الفني في القرآن على نوعين:

١ – الوسائل القريبة: وهي تلك الأشكال البيانية التي اصطلح عليها البلاغيون في علم البيان، كالتشبيه والاستعارة، والمجاز المرسل والتمثيل[٣].

٢ – الوسائل البعيدة: وهي ذاك التناسق الفني الذي يبلغ الذروة في التصوير، بتخيُّر الألفاظ ونظمها في نسق خاص يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها، وينشأ عنه جرْس صوتي رفيع، مع تسلسل معنوي بين الأغراض في سياق الآيات، فتخرج الكلمة والجملة في قالب من اللفظ وطريقة الأداء يبث في الإحساس والخيال صورة مجسمة حية للمعنى[٤].

ويتجلى التصوير القرآني في مظاهر متعددة، أهمها أمران:

**الأول: إخراج مدلول اللفظ من دائرة المعنى الذهني المجرد إلى الصورة المحسوسة المتخيلة:** فيكون الخطاب أوقع في النفس، وأقوى في التأثير؛ إذ يجعل الحس يتأثر عن طريق الخيال بالصورة ما شاء له التأثر؛ فيستقر المعنى في النهاية في أعماق النفس.

---

في ظلال القرآن، و"العدالة الاجتماعية في الإسلام"، و"التصوير الفني في القرآن"، و"المستقبل لهذا الدين". ينظر الأعلام للزركلي (٣/ ١٤٧ – ١٤٨)، ومعجم المفسرين (١/ ٢١٩ – ٢٢٠).

(١) ينظر التصوير الفني في القرآن (ص: ٣٧).

(٢) ينظر التصوير الفني في القرآن (ص: ٣٧).

(٣) ينظر الواضح في علوم القرآن (ص: ١٧٢).

(٤) ينظر الواضح في علوم القرآن (ص: ١٧٣).

ويدخل في هذا المظهر تصوير الحالات النفسية والمعنوية: فالتصوير القرآني يخرجها صورا شاخصة أو متحركة، ويعدل بها عن التعبير المجرد إلى الرسم المصور[(١)].

ويطلق على هذا المظهر: التجسيم: والمراد به هو (إبراز الماهيات والأفكار العامة والعواطف في رسوم وصور وتشابيه محسوسة، هي في واقعها رموز معبرة عنها)[(٢)]. وهو عند الأسلاف يرادف تشبيه المعقول بالمحسوس[(٣)].

ومثال ذلك في سورة الحج قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [سورة الحج: ١١]؛ إذ يصور لنا ذلك التردد- الذي يحار فيه ويتبلبل ذلك الإنسان الذي لم ترسخ العقيدة في قلبه؛ ولم تتضح صورة الإيمان في نفسه- بصورة إنسان يقوم ليؤدي عبادة على حافة لا تستقر عليها أقدامه، وإلى جنبه واد عميق يخشى السقوط فيه، فهو قلق مضطرب[(٤)].

**الثاني: التخييل الحسي:** وهو تلك الحركة التي يضفيها التصوير القرآني على اللوحة الصامتة، فيبث فيها الحياة، ويحولها إلى منظر حيّ متحرك، ويمنحها الحياة النابضة، والحركة المتجددة[(٥)].

ومن أمثلة ذلك في سورة الحج قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥﴾ [سورة الحج: ٥]. ففي هذه الآية أُسنِد الاهتزاز والربوْ إلى الأرض مع أنّه للنبات، لأنّ الناظر إلى الأرض المنبِتة إذا مرّت عليها

---

(١) ينظر الواضح في علوم القرآن (ص: ١٧٠).

(٢) المعجم الأدبي، عبد النور جبور، (ص ٥٩).

(٣) وإنما آثر بعض الدارسين استخدام مصطلح «التجسيم» دون «التشبيه»، لأن تجسيم الأفكار يعتمد على تشبيه المعنوي بالحسي، وعلى استعارة كلمة حسية للمعاني المجردة، ينظر جماليات المفردة القرآنية (ص: ١٠٢).

(٤) ينظر الواضح في علوم القرآن (ص: ١٧١).

(٥) ينظر الواضح في علوم القرآن (ص: ١٧١).

الرياح فهزّت نباتها، قد يتخيَّل أنّ الأرض هي التي تهتزّ، مع أنّ المهتزّ هو ما نبت فيها، ورَبَا فوقها[(١)]. فانظر كيف استحالت الأرض الجامدة كائنا حيا، بلمسة واحدة، في لفظة واحدة ﴿ٱهۡتَزَّتۡ﴾ وكأنها ذاك الكائن الحي الذي أخمد الظمأ أنفاسه، حتى إذا مس الماء أحشاءه عادت إليه الحياة، وانبعث فيه النشاط من جديد[(٢)].

وثمة صورة أخرى توحي بها هذه الكلمة، وهو أن لفظ الاهتزاز يذكر بصورة معروفة عند العرب، وهي اهتزاز الممدوح للمدح، فلأجل ذلك عدل التعبير القرآني عن لفظ الحركة العام إلى لفظ الحركة الخاص، لما يشعر أن الأرض ستعطي عند سقيها ما يُرضي من نباتها بتنزُّل السقيِ لها منزلة ما يسرها، كما أن الممدوح عندما يهتز طربًا للمدح فإنه يجود بالعطاء الجزيل[(٣)].

ولنستعرض بعض نماذج التصوير القرآني في بعض الآيات من سورة الحج:

**١ – مشهد البعث:**

وذلك في قوله تعالى في مطلع السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ [سورة الحج: ١ – ٢].

ويبدأ المشهد هنا برسم حركة الزلزلة العنيفة للساعة، مصورا ذهول الناس وفزعهم من مشهد الزلزال، وانقطاع الروابط القوية بين الناس، بحيث يبلغ الذهول مداه في فقد السيطرة على النفس وغياب الإدراك من شدة هول الزلزلة وعنفها[(٤)].

---

(١) ينظر البلاغة العربية (١/ ١٠٥).

(٢) ينظر الواضح في علوم القرآن (ص: ١٧١).

(٣) ينظر إعراب القرآن وبيانه (٦/ ٣٩٦).

(٤) ينظر وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص: ٧٨ و٣٢٥).

وللتعبير عن هذا الهول المرعب المؤثر يختار صورة المرضعة الذاهلة التي يشدها إلى رضيعها الحنانُ والشفقة، وإذا بها منشغلة عنه، تنظر ولا ترى، وتتحرك ولا تعي. ثم يتبعها بصورة المرأة الحامل التي يسقط جنينها – من عنف الحركة – قبل أوان ولادته لما انتابها من هول مروع[(١)].

ثم يتبعها بصورة تعم الناس جميعا، فهم يبدون كالسكارى، مع أنهم لم يعاقروا خمرا ولم يذوقوا مسكرا، وإنما تضطرب حركتهم فيتمايلون ويترنحون بخطواتهم من قوة الزلزلة، ويتبدى منتهى الذهول في نظراتهم من هول الموقف[(٢)].

إنه مشهد مزدحم بتلك الرسوم المتماوجة، تكاد العين تبصره، بينما الخيال يتملّاه، والهول الشاخص يذهله، فلا يكاد يبلغ أقصاه[(٣)]. وهو يبين أن زلزلة الساعة زلزلة حسية كونية، تعقبها زلزلة نفسية، مرسومة في هذه الصور الآنفة الذكر[(٤)].

ويستفاد من هذه الآية أن الفزع الشديد قد يجعل الإنسان يفقد عقله وتمييزه حتى يصير أشبه بالسكران في حركاته واضطرابه.

**٢ – مشهد المتعجرِف:**

عند بيان الحديث عن المجادلين في الله المضلين لغيرهم عن سبيله يقول تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة الحج: ٨ – ٩].

ويصور الله تعالى هذا الصنف بصورة تدل على العجرفة الممقوتة، ويعبر عنها بحركة: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٩]. ويتراءى لك هذا الشخص مائلا مُزْوَرًّا بجنبه عن الآخرين،

---

(١) ينظر التصوير الفني في القرآن (ص: ٦٠)، والواضح في علوم القرآن (ص: ١٧٦).

(٢) ينظر التصوير الفني في القرآن (ص: ٦٠)، والواضح في علوم القرآن (ص: ١٧٦).

(٣) ينظر التصوير الفني في القرآن (ص: ٦٠).

(٤) ينظر وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص: ٣٢٥).

وهذه العجرفة تدفعه إلى الجدال، لا عن بينة وعلم، بل عن جهل، فهو يتعالى بهذه الصورة الحسية ليغطيَ جهله وقصور فهمه.

وحركةُ العجرفة المتمثّلة في ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾، نراها مكرّرة في سور أخرى عند ذكر هذا النموذج، فهي إذًا من أبرز سماته، ولكنّ الله تعالى لم يترك هذا المتكبر على عجرفته، بل وضع له صورة مقابلة في الخزي في الدنيا، ثم يمتد هذا الخزي في صورة عذاب الحريق الحسي يوم القيامة[(١)].

ويستفاد من ذلك ذم التكبر والتعالي عن الخلق والاستكبار عن الحلق، وذم الحركات التي تدل على ذلك.

**٣ – مشهد المذبذب في دينه:**

نجد في سورة الحج صورة لمن تتزعزع عقيدته، ولا يثبت على دينه، وإنما يتقلب حسب ما يلقاه من سراء أو ضراء، وذلك حيث يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [سورة الحج: ١١].

والتعبير القرآني يصوّر الحالة النفسية لمن كان هذا شأنه بدقة بالغة، ويجعله في عبادته الظاهرية لله كمن كان واقفا على حرفِ جبلٍ أو نحوه، أي على طرفه وحافته، يتمايل ويكاد يسقط، ويكاد الخيال يجسم هذا "الحرف" الذي يقف عليه هؤلاء، ويتصور ذلك الاضطراب الحسي في وقفتهم وهم يتأرجحون بين الثبات والانقلاب[(٢)]. ويتراءى لقارئ الآية أن هذه الحركة الجسدية المتأرجحة لن تدوم، ولن يبقى هؤلاء على هذا الحرف طويلا، وأنهم سيسقطون عمّا قريب.

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص: ٣١١ – ٣١٢).

(٢) ينظر التصوير الفني في القرآن (ص: ٤٥) وفي ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٢).

ثم تأتي بعدها صورة أخرى موحية متسقة مع الصورة الآنفة الذكر، حين يبين ما يؤول إليه أمر هؤلاء عندما تصيبهم الفتنة: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾. والتعبير بالانقلاب يدل على أسرع حركة تُجَسّم[1]، وهو في هذا الموضع مجاز تصويري على طريقة الاستعارة التمثيلية، شبهت فيه أحوال معقولة بصور محسوسة، حيث صورت المرتدّ عن دينه كالذي سقط وانقلب على وجهه الذي هو أشرف أعضائه، وبذلك تبلغ الصورة إلى قمة التأثير النفسي تنفيرًا من هذه الحالة الشائنة.

كما أن هذا المشهد يصور لنا حركة عنيفة تؤدي إلى الهلاك السريع والتحطم البالغ، فإن الخيال يتصور أن مَن يقف على طرفٍ سرعان ما يهوي ساقطًا لا يلوي على شيء، ويدرك أنه سيصير أشلاء ممزقة، وإن لم تصرح الآية بذلك[2].

ثم تختم الآية بقوله تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [سورة الحج: ١١]. وهذه الخاتمة تبين عظم خسارته وسوء عاقبته، فإن الذي يرتد عن دينه ويستبدل الكفر بالإيمان قد أحل بنفسه عذابَ ربه، وباع دينه بدنياه فخسرهما معًا، فليس معه بقيةٌ من رشاد يُرجَى بها هدايته، ومصيره إلى النار لا محالة؛ لذلك كانت الخاتمة معه قاسية أليمة، كخاتمة حياته، وعاقبة أمره[3].

وهكذا تصور الآية حال أولئك المتشككين الذين يعبدون الله بميزان الربح والخسارة بصورةٍ ملؤها التزعزع والترنح، وتوشك على الانهيار، ومن ثم يسقطون على وجوههم سقوطًا لا نجاة بعده، وذلك عندما يرتدون حين تصيبهم أدنى مصيبة في دنياهم. (وإن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع بأوضح مما يؤديه وصف بالتزعزع، لأنها تنطبع في الحس، وتتصل منه بالنفس)[4].

---

(١) ينظر جماليات المفردة القرآنية (ص: ١٥٣).

(٢) ينظر خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٤٦٧).

(٣) ينظر خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٤٧٦).

(٤) التصوير الفني في القرآن (ص: ٤٥ - ٤٦).

ولقد كان من الممكن أن يؤدى المراد بالآية بمثل هذه العبارة: من الناس فريق يعبد الله على شك واضطراب، فإن أكرمه الله بالنعَم هَدأ وقَرّ، وإن ابتلاه بالمصائب ثار وفرّ، وهلك مع الهالكين. ولكن لا شك أن بين هذه الطريقة وعرض المعنى بالتصوير الوارد في الآية فرقا شاسعا لا يخفى[(١)].

**٤ – حركة من يستبعد نصرة الله لرسوله عليه الصلاة والسلام:**

نجد في هذه السورة صورة لمن يتغيظ من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ويستبعد نصرة الله له وإظهارَه لدينه، وذلك حيث يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحج: ١٥].

وهو مشهد متحرك لغيظ النفس والحركات المصاحبة له، يُجسِّم هذه الحالة التي يبلغ فيها الضيق بنفوس أعداء الدين أقصاه[(٢)]، ويبلغ بهم الحنق على النبي عليه الصلاة والسلام مبلغا عظيما، ويستبعد أن يؤيد بنصر الله تعالى.

ومن كان هذا شأنه فليحاول أن يغير من هذه الحال ما استطاع، فإنه لن يغيّر من الواقع شيئا مهما فعل، وإن كان الغيظ يملأ نفسه وأراد أن يتخلص منه فإنه لن يزول بما يريده من هزيمة النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه منصور لا محالة، وإنما لْيمدَّ حبلا إلى السقف، ثم لْيختنقْ به، أو لِيربطْه بأعلى موضع ثم ليقطعه ليسقط على الأرض بقوة وعنف، ولينظر: هل يُفلح تدبيره هذا في إذهاب ما يغيظه من النُصرة، إن كان بقي فيه شيء ينظر بعد هذه السقطة التي يترقبها الخيال[(٣)].

---

(١) ينظر خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٤٦٧).

(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٣)، والتفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٠٠ –١٠٠١).

(٣) ينظر التصوير الفني في القرآن (ص: ٧٨)، وفي ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٤)، ووظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص: ١٥١).

هذه الصورة المتخيَّلة صورة عنيفة، ذات إيحاء عميق، فهي تصور هذه الحالة النفسية وهي في ذروة الغيظ والحنق، وما تقوم به من حركات غريبة لدفع هذا الضيق، وتوضّح أنّ امتلاء النفس بالغيظ، لا يغيّر الواقع، بل إنّ المغتاظ يقتل نفسه بغيظه لذلك، وتفيد أن تدبير الله هو النافذ، وأنْ ليس للإنسان إلا الاحتمال والصبر، وإلّا فليقتل نفسه غيظا وكمدا، فإن ذلك لن يجدي عنه شيئا[(١)].

**٥ – مشهد سجود المخلوقات لله تعالى:**

ويتجلى هذا المشهد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: ١٨]، وهذه صورة ضخمة، تظهر حشدا من المخلوقات التي نعلمها ولا نعلمها وهي ساجدة لله في مشهد كوني خاشع، يوحي بعبودية هذه المخلوقات لخالقها وخضوعها لسلطانه، فهو سبحانه الذي خلقها ووضع لها السنن التي تسير عليها، وترسم الصورة مساحات واسعة لإطارها الممتد في السماوات والأرض، لتطبع في خيال الإنسان هذه المساحة الواسعة الممتدة لهذه المشاهد الصامتة والصائتة للطبيعة، وكلّها في حالة خضوع وتسبيح للخالق سبحانه، ويَبرُز بعض الناس خارجين عن إطار الصورة، حين لا ينقادون لله، فيظهرون شاذّين عن هذا الموكب المتناسق من المخلوقات العابدة لله في هذا الكون الفسيح. وتجمع الصورة في داخلها الإطار المنظور وغير المنظور، لإثبات عبودية الكون بما فيه لله سبحانه وتعالى[(٢)].

ولا شك أن هذا التصوير يوحي بأن كفر الإنسان بربه هو شرود عن الاتجاه العام الذي يتجه إليه الكون كلّه، وكأنه يسبح متحدِّيا تيارا هادِرا لا يُغالَب، فلا يلبث أن يغرَق ويهلِك[(٣)].

---

(١) ينظر وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص: ١٥١ – ١٥٢).

(٢) ينظر وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص: ٢٣٣).

(٣) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٠٥).

**٦ – مشهد عذاب أهل النار:**

مع أن عذاب أهل النار يتردد في القرآن كثيرا، إلا أنه صُوِّر في هذه السورة في مشهد عنيف صاخب حافل بالحركة، وذلك حيث قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾ [سورة الحج: ١٩ – ٢٢].

والآيات ترسم صورة مرعبة لهذا العذاب الحسي المؤلم، حيث ترى الكفار وقد أعدت لهم ثياب من نار فصلت على قدر أجسامهم، فهي تحيط بهم وتحرقهم[(١)]، وترى الحميم لا يسقون منه فحسب، وإنما يصبّ من فوق رءوسهم، فتنصهر به أحشاؤهم وتذوب جلودهم من شدة حرارته، ومقامع الحديد يضربون بها وتتوالى على رءوسهم. ويضاف إلى هذا العذاب الحسي عذابٌ معنوي، مُجسَّم في حركة محاولة الخروج من هذا الغمّ، وإذاقتهم عذاب الحريق، تهكمًا بهم وسخريةً منهم[(٢)].

وتدل الجملة الشرطية المفتتحة ب ﴿كُلَّمَآ﴾ على استمرارية هذه الصورة، فهي ترسم حركة متخيّلة لأهل النار، والنار تضربهم بلهبها، فترفعهم، حتى إذا كانوا في أعلاها، ضربوا بالمقامع من حديد فهووا إلى أسفلها من جديد، وهكذا يستمر العذاب بنوعيه الحسيّ والمعنويّ[(٣)]، ويظل الخيال يكرر هذه المشاهد من أولى حلقاتها إلى آخرها، حتى يصل إلى

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أنه أمر مجازي، قال الألوسي في روح المعاني (٩/ ١٢٨): (وكأنه شبَّه إعداد النار المحيطة بهم بتقطيع ثياب وتفصيلها لهم على قدر جثثهم، ففي الكلام استعارة تمثيلية تهكمية، وليس هناك تقطيع ولا ثياب حقيقة، وكأن جمْع الثياب للإيذان بتراكم النار المحيطة بهم وكون بعضها فوق بعض).

(٢) ينظر من بلاغة القرآن (ص: ٢٣٢ – ٢٣٣)، ووظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص: ٣٥٧).

(٣) ينظر وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص: ٣٥٧).

مشهد محاولة الخروج والرد العنيف، ليبدأ في العرض من جديد! ولا يبارح الخيال هذا المشهد العنيف المتجدد إلا أن يلتفت إلى الجانب الذي يستطرد السياق إلى عرضه[(١)].

**٧ – مشهد حال المشرك بالله:**

يذكر الله تعالى في هذه السورة صورة عجيبة لمعنى مجرَّد، وهو أن المشرك لا مَنْبِت له ولا جذور، ولا بقاء له ولا استقرار، فيقول سبحانه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الحج: ٣١].

ونجد هنا أن التخييل الحسي يتخذ ألوانا من التشخيص والتجسيم، فالآية تصور لنا المشرك بالله وقد خرّ من السماء في لحظةٍ من حيث لا يدري أحد، فلا يستقر على الأرض، وإنما تخطفه الطير في لمح البصر، فيصير أشلاء ممزقة، أو ترميه الريح في مكان بعيد عن الأنظار، فلا يعثر له على أثر[(٢)].

وهي كما ترى حركات سريعة متوالية، فحركة السقوط من السماء سريعة، تتبعها حركة خاطفة ملحوظة في حرف الفاء ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾، ثم تعقبها حركة أخرى بسرعة، وهي قذف الريح به. وهذه الحركات السريعة، تساعد على رسم المشهد بكل ما فيه من شدة وعنف، وتدفع الخيالَ لمتابعتها[(٣)]، وتُفسِح له المجال ليتأمل صورة خطف الطير لهذا المشرك، وتمزيقه قطعا، أو يتابعَ حركة سقوطه في هوة ليس لها قرار[(٤)].

وهذه الصورة توحي بفظاعة الشرك وسفوله وقبحه، وانحطاط المشرك وحيرته، وتُشعر السامع بالنفور من حاله، وتحمله على اجتناب الشرك كي لا يصير إلى هذا المصير.

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤١٥).

(٢) ينظر التصوير الفني في القرآن (ص: ٤٣)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٠٧).

(٣) ينظر التصوير الفني في القرآن (ص: ٤٠٤)، وفي ظلال القرآن (٤/ ٢٤٢١).

(٤) ينظر وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص: ٥٠).

ويستفاد من هذا التمثيل عدة هدايات، منها: بعد المشرك بالله من ربه، ونأيه عن الحق، كبُعد الواقع من السماء إلى الأرض[(١)]، وأن نفس المشرك تتمزق كما يُمزّق لحْمُ الذي تتخطفه الطير في الهواء؛ وأن المشرك –إن لم يتُب – هالكٌ بأبشع صور الهلاك، كما أن الذي يسقط من السماء إلى الأرض هالك لا محالة[(٢)]؛ ويؤخذ من الآية رفعة التوحيد وعلوه[(٣)]، وأن الإيمان بمنزلة السماء، يرفع صاحبه ويحفظه من الآفات، كما أن السماء مرفوعة محفوظة[(٤)]، وأن التوحيد عروة وثقى يتمسك بها الموحد ويأمن بها من السقوط في اتباع الأهواء والهلاك في الآخرة، ويؤخذ منها كذلك أن المشركين على قسمين:

الأول: المتذبذب المتمادي على الشك، فهذا القسم من المشركين مشبه بمن اختطفته الطير وتوزعته، فلا يستولى طائر على قطعة منه إلا انتهبها منه آخر، وذلك حال المتذبذب، لا يلوح له خيال إلا اتبعه وترك ما كان عليه.

والثاني: مشرك مصمم على معتقد باطل، لا سبيل إلى تشكيكه أو نقله عما هو عليه، فهذا القسم مشبَّه في قراره على كفره باستقرار من هوت به الريح إلى وادٍ عميق فاستقر فيه[(٥)].

وفي ذلك إيماء إلى أن من المشركين من شِرْكُه لا يرجى منه خلاص، فهو هالك لا نجاة له، ومنهم من شِرْكُه قد يخلص منه بالتوبة والرجوع إلى التوحيد، إلا أن توبته أمر بعيد عسير الحصول[(٦)].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٣٨)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٨٨).

(٢) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٨٩)، وتفسير السمعاني (٣/ ٤٣٧)، والتفسير القرآني (٩/ ١٠٢٩).

(٣) ينظر نظم الدرر (١٣/٤٣ – ٤٤).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٨).

(٥) ينظر حاشية الكشاف لابن المنيّر (٣/ ١٥٥)، ونقله القاسمي في محاسن التأويل (٧/ ٢٤٥) واستحسنه، وذكره ابن عاشور ملخصا في التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٥) دون عزْوٍ وأقرّه.

(٦) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٧١)، وتفسير الإيجي (٣/ ٥٥)، وروح المعاني (٩/ ١٤٣)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٥).

وقد تحدث المفسرون الذين يعنون بالجانب البلاغي عما تتضمنه هذه الآيات من تشبيهات[1]، ذكرناها في مبحث الهدايات الجزئية، وأحسب أن ما ذكرته هنا وافٍ بالغرض.

**٨ – مشهد القرى المدمرة:**

من الصور التي تتضمنها السورة ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الحج: ٤٥]، والمعنى المقصود هو لفت النظر إلى الأمم التي السابقة التي انقرضت وتركت آثارها من ورائها. ولكنه أقام من هذه اللوحة التصويرية في الآية تعبيرا مجسّما له.

فنجد أن هذه الصورة تمثُل أمام الخيال شاخصةً صامتةً لا حراك فيها، تبصر فيها قرية كاملة موحشة من الأحياء، بيوتها خالية من سكانها، قد تهدمت سقوفها، وسقط بعض جدرانها على بعض، وتبصر في جانب منها آبارا مهجورة، كانت عامرة بالوُرّاد، ويتزاحم حولها الناس، وهي الآن خواءٌ لا يستسقي منها أحد. وإلى جوارها قصور فارهة فارغة من أهلها، ما تزال جدرانها قائمة، تطوف بها الذكريات والأطياف![2]

وتلتفت – وأنت تتخيل هذه الصورة – يمنةً ويسرةً، فلا تجد شخصا حيا، فتدرك أنهم هلكوا بعذاب لم يُغادر منهم أحدا، فخلفوا هذا الخراب.

وهذا منظر موحش كئيب مؤثر، يدعو السامع إلى التأمل والاعتبار، والربوعُ الخرِبة – كما هو مُشاهَد – أوحش شيء للنفس، وأشدها استجاشة للذكرى والعبرة[3].

---

(١) ينظر كلام الزمخشري في الكشاف (٣/ ١٥٥)، وتعليق ابن المنير في حاشيته عليه، وكلام الطِّيبي في فتوح الغيب (١٠/ ٤٨٠ – ٤٨١)، وروح المعاني (٩/ ١٤٣)، وينظر كلام ابن القيم في "الأمثال في القرآن" (ص: ٤٦)، وإعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٣٨).

(٢) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٣٠)، ومن روائع القرآن، للدكتور البوطي (ص: ١٧٩).

(٣) ينظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٣٠).

وإذا أنْعمتَ النظرَ في هذه الصورة فستجد نفسك أمام لوحة فنية رائعة، صوّرتْها كلماتُ هذه الآية في رسم معبّر نادر، يُجلِّله صمت رهيب، تلوح عليه آثار القرون والسنين!![1]

**٩ – ضرب المثل بالذباب.**

جاءت في هذه السورة صورة ساخرة لتبين بطلانَ عقيدة الكفر وزيفها، وعجزَ آلهتهم المزعومة عن الخلق ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وهذا المعنى يمكن أن يؤدى في عدة تعبيرات مجرّدة، كأن يقال: إن ما تعبدون من دون الله لَهُو أَعجَزُ عن خلق أحقر الأشياء، فيصل المعنى إلى الذهن مجرّدا باهتا. ولكن التعبير التصويري يؤديه في مشهد شاخص متحرك، تتملاه العيون والقلوب، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الحج: ٧٣][2].

إنه مشهد يرسم الضعف المزري الذي يثير في النفس السخريةَ اللاذعة والاحتقار المهين، وذلك من خلال تجسيم ذلك المعنى في هذه الصور المتحركة المتعاقبة في إيجاز بليغ:

فالصورة الأولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ تبين أن الآلهة عاجزة عن خلق الذباب وهي منفردة، وهي تلقي (في الحس ظلّ الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل دون أن يخلّ هذا بالحقيقة في التعبير)[3]؛ لأنها تربط بين قدسية الآلهة المزعومة – التي يقدسها عبادها – ومخلوق صغير حقير[4].

---

(١) ينظر من روائع القرآن (ص: ١٧٩).

(٢) ينظر مباحث في إعجاز القرآن (ص: ١٤٦).

(٣) في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٤٤).

(٤) ينظر مباحث في إعجاز القرآن (ص: ١٤٦ – ١٤٧).

ولم يكتف بهذا الربط، بل أعقبها بصورة ثانية: ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾، وتترك للخيال أن يستحضر صورة الآلهة المزعومة، وقد احتشدت من أجل خلق ذباب صغير، فترتدّ عنه عاجزة ضعيفة، وفي هذه الصورة منتهى التحقير والسخرية من هذه الآلهة[١].

ثم تأتي الصورة الثالثة لإبراز غاية العجز: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، وهي صورة أكثر سخرية وتحقيرا لهذه الآلهة التي تعجز عن دفع الذباب عن نفسها، وتعجز عن استرداد ما سلبها الذباب إياه[٢]. ويتابع الخيال حركة أسراب الذباب، وهي تجتمع على هذه الآلهة المزعومة، فلا تمتنع منه، ولا تقوى على ردّه، ثم يتابع صورة الآلهة وهي تحاول مطاردة الذباب لاسترداد ما سلب منها، وإخفاقَها في ذلك، وهذه الحركة التخيلية توحي بالسخرية من هذه الآلهة العاجزة الضعيفة في جميع الأحوال[٣].

وهكذا تتواصل الصور في الآية، ويجيء بعدها التعقيب بحكم عام: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾، ليقرر ما ألقاه المثل من ظلال، وما أوحى به إلى المشاعر والقلوب![٤].

وهذا المثل حقيق على كل إنسان أن يستمع قلبه له، (ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه)[٥].

**أسلوب الاستدلال المنطقي:**

الأسلوب المنطقي هو الذي ينتقل من المقدمات إلى النتائج، ومن المعلوم إلى المجهول، ويسمى أيضا بالاستدلال العقلي[١].

---

(١) ينظر وظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص: ١٦٥).

(٢) ينظر المرجع السابق (ص: ١٦٥).

(٣) ينظر المرجع السابق (ص: ١٦٥).

(٤) ينظر في ظلال القرآن: (٤/ ٢٤٤٤).

(٥) إعلام الموقعين (١/ ١٣٩)، وينظر بقية كلام ابن القيم فيه وفي "الأمثال في القرآن" (ص ٤٦ – ٤٨)، فإنه حسن.

ومن صور الاستدلال في القرآن قياس التمثيل، وهو أن يقيس المستدلُّ الأمر الذي يدَّعيه على أمر معروف عند من يخاطبه، أو على أمر بدهي لا تنكره العقول، وتقرّ به الأفهام، ويبيّن الجهة الجامعة بينهما، وقد سلك القرآن الكريم هذا المسلك على أدقِّ وجه وأحكمه مقرِّبًا ما بين الحقائق القرآنية والبدائه العقلية[٢].

ومن أمثلة هذا الأسلوب في سورة الحج، قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥﴾ [سورة الحج: ٥]. فقد ساق الله تعالى هنا دليلين اثنين لا يقبلان الشك:

الدليل الأول: قياس إعادة الخلق على ابتداء الخلق من نطفة، فالبعث نظير النشأة الأولى في الإمكان والمقدورية[٣]، وكأنه تعالى يقول: إن إعادتكم بعد الموت خَلْقًا جديدًا كالنشأة الأولى التي لا ترتابون فيها، فكيف تنكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها؟[٤]، وقد استدل الله بهذا الدليل في أكثر من موضع من كتاب الله وصرّح به كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [سورة يس: ٧٩]، وقوله سبحانه: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ [سورة الإسراء: ٥١]. وقوله عز وجل: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٤].

---

(١) ينظر الموسوعة القرآنية المتخصصة (١/ ٦٨٢). نقلا عن: زهرات منثورة في الأدب العربي ص ٥٢ للأستاذ عبد الله عفيفي- ط مصطفى الحلبي، عام ١٩٣٢م.

(٢) المعجزة الكبرى القرآن (ص: ٢٧٤).

(٣) ينظر الإشارات الإلهية (ص: ٤٤٤ - ٤٤٥).

(٤) ينظر إعلام الموقعين (٢/ ٢٥٩).

وتضمن هذا الدليل وجها آخر: وهو الاستدلال بمقدورية إنشاء الإنسان من عدم وتقليبه من حال إلى حال على مقدورية البعث لله تعالى.

الدليل الثاني: أن إحياء الأرض بالنبات بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور[(١)]، فدل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء، واعتبار الشيء بنظيره؛ والعلة الموجبة هي عموم قدرته سبحانه، وكمال حكمته؛ وإحياء الأرض هو دليل العلة[(٢)]. وقد استدل الله بهذا الدليل في مواضع أخرى على البعث، وصرح بوجه الشبه بين الأمرين، في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٩].

وجعل سبحانه النظر في هاتين الآيتين دليلا مستلزما للعلم بالنتائج الخمس الواردة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [سورة الحج: ٦ – ٧]، وهذه النتائج: أولها: وجود الخالق، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله. والثانية: أنه يحيي الموتى. والثالثة: عمومُ قدرته على كل شيء. والرابعة: إتيان الساعة وأنها لا ريب فيها. والخامسة: أنه يخرج الموتى من القبور[(٣)].

---

(١) ينظر إعلام الموقعين (٢/ ٢٦٣).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٠٧).

(٣) ينظر إعلام الموقعين (٢/ ٢٦٤). وينظر ما نقله السيوطي في "معترك الأقران" (١/ ٣٤٦ – ٣٤٧) عن المتكلمين من أن سورة الحج من أولها إلى قوله تعالى: ﴿يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٧] يتضمن خمس نتائج تستنتج من عشر مقدمات.

والملحوظ في هذا النوع من الاستدلال أنه يخاطب العقل والعاطفة معًا[1]، فهو من جهة يقنع العقل بطريقة يقرب فيها البعيد، ويسهل عليه الاقتناع بما يستدل عليه، ومن جهة أخرى يستثير العواطف ويمتع المشاعر بما جاء في طيّ هذه الأدلة المقنعة من الصور والمشاهد.

**أسلوب الترغيب والترهيب:**

من العادات الأسلوبية في القرآن الكريم الجمع بين الترغيب والترهيب، والاقتران بين الوعد والوعيد، فبالترغيب يتولد الرجاء في رحمة الله والطمع في فضله، وبالترهيب تتولد خشية الله تعالى والخوف من عقابه[2].

فنجده في موضع يذكر ما للمضلين في الدنيا من هوان وما لهم في الآخرة من العذاب الأليم، فيقال: ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾ [سورة الحج: ٩]، ثم يبين الخسارة الفادحة التي تكون للمنافقين والمتشككين في الدين حيث يقول تعالى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾ [سورة الحج: ١١]. وبعدها يذكر جزاء المؤمنين فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝١٤﴾ [سورة الحج: ١٤].

ونجد في هذه السورة أن الترغيب يرد إثر الترهيب أو العكس. ومن أمثلة ذلك أن الله تعالى حين ساق عذاب الكفار المنكرين للبعث المجادلين في الله في قوله: ﴿۞ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩﴾ [سورة الحج: ١٩] إلى آخر الآيات، أردف ذلك ببيان بعض ألوان النعيم التي أعدت للمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ

(١) ينظر مناهل العرفان (٢/ ٣١٤)، والتفسير والمفسرون في العصر الحديث، لفضل عباس (١/ ٥٣٨).

(٢) ينظر التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٥)، ومناهل العرفان (١/ ٣٠٨)، ووظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص: ٤٢٣).

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾﴾ الخ [سورة الحج: ٢٣].

وفي المقطع السابق جاء العقاب مفصلا، ثم جاء الثواب بعده مفصلا، وفي هذا التفصيل تهويل للعقاب وتشويق للثواب، لإثارة داعي الخوف والرجاء عند الإنسان كي يعمل الصالحات ويجتنب السيئات[(١)].

وفي المقابل حين يذكر ما للمؤمنين من رزق كريم في الدار الآخرة يذكر مآل الساعين في إبطال آيات الله فيقول: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [سورة الحج: ٥٠ – ٥١][(٢)].

وفي موضع آخر يحذِّر الكفار من العذاب الدنيوي والأخروي، فيورد الصورتين المتقابلتين للعذاب والنعيم: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾ [سورة الحج: ٥٥ – ٥٧].

وهذه الأمثلة تندرج في الأسلوب الذي يسميه البلاغيون: التضاد، وهو الجمع بين المعنى وضده.

ويستفاد من ذلك أن النفوس لا ينبغي أن تترك في حال الفزع، بل يتبع ذلك بما يزيل عنها خوفها ورعبها[(٣)]. وأنه ينبغي أن يكون هناك توازن بين الرجاء والخوف، حتى لا يفضي الرجاء إلى الاغترار، ولا يؤدي شدة الخوف إلى القنوط من رحمة الله تعالى. وأن الداعية الحكيم والمعلم الموفق هو من يوازن بين الترغيب والترهيب، فلا يفرط في أحدهما ويترك الآخر[(٤)].

---

(١) ينظر الثواب والعقاب في سورة الحج: دراسة موضوعية، (ص ٧٧).

(٢) ينظر تفسير المراغي (١٧/ ١٢٥)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٧٠).

(٣) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٩٦).

(٤) ينظر دراسات في علوم القرآن، للدكتور فهد الرومي (ص: ٢٢٦).

وفي مواضع أخرى يورد الترهيب وحده أو الترغيب وحده. فنجده يبين مآل من اتبع رؤوس الضلال وشياطين الغواية فيقول: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [سورة الحج: ٤].

وفي موضع آخر يتوعد الذين أبوا الخضوع له سبحانه ولم يسجدوا له عبادة وتعظيما، فيقول: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ۝١٨﴾ [سورة الحج: ١٨].

ويتوعد عز وجل من يهُمّ بارتكاب المعصية في البلد الحرام، فيقول: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٢٥﴾ [سورة الحج: ٢٥].

ويحذر قريشا ومن شابههم من الكفرة بالهلاك الدنيوي، كما حصل لمن قبلهم فيقول: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ۝٤٥﴾ [سورة الحج: ٤٥]، ويقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ۝٤٨﴾ [سورة الحج: ٤٨]. وينذرهم بالعذاب الذي سيصيبهم لا محالة: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾ [سورة الحج: ٤٧].

ويأمر الله تعالى نبيه أن يخاطب المشركين منذرا لهم بالعذاب الشديد: ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٧٢﴾ [سورة الحج: ٧٢].

وفي المقابل فإن الله تعالى يأمر نبيه بتبشير المخبتين والمحسنين بما لهم عند الله في الآخرة من الفوز العظيم، فيقول: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ۝٣٤﴾ [سورة الحج: ٣٤]. ويقول في موضع آخر: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣٧﴾ [سورة الحج: ٣٧].

وفي موضع آخر يرغب المؤمنين في الهجرة والجهاد، فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقٗا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨﴾ [سورة الحج: ٥٨]. وأمرهم بعبادته وفعل الخير مرغبا لهم في الفلاح فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة الحج: ٧٧].

والمستفاد من ذلك أنه يقتصر على الترهيب عندما يكون ذلك أنفع للمخاطب، ويراد زجره عن سيئ الأفعال، ويقتصر على الترغيب عندما يراد حثه على فعل التكاليف وخصال الخير؛ وأن المربي الفطن والداعية الموفق هو الذي يستعمل الترهيب حين يكون ذلك أصلح للمدعوّ، والترغيب حينما يكون أنفع له، وهذا من تنويع طرائق الخطاب حسب مقتضيات الأحوال.

**أسلوب التحدّي والتعجيز.**

ورد أسلوب التحدي في القرآن الكريم من أجل تقرير الهداية في إثبات أصول الإيمان، كتوحيد الله، وإثبات الرسالة، وإعجاز القرآن، كما أنه ورد في محاورة الأنبياء ومجادلتهم لأقوامهم[(١)].

والتحدي طريقة قويمة في عرض الهدايات، فهو يقطع حجة الجاحدين المعاندين، ويُذهب شك المرتابين، ويثبت كذلك قلوب المؤمنين، ويورثها زيادة في اليقين[(٢)].

ومن الأمثلة التي تنطوي على تحدي المشركين وتعجيزهم في سورة الحج قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الحج: ٧٣].

فقوله سبحانه: ﴿لَن يَخْلُقُوا۟﴾ يتضمن التحدي، لأنه يفيد عدم قدرتهم على ذلك في وقت مخاطبتهم به وبعده طالما يوجد من يُدَّعى أنه إله[(٣)]، وكأنه يقول: أرأيتم هؤلاء الذين

(١) ينظر الهدايات القرآنية (١/ ٣٣٨).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية (١/ ٣٥٥).

(٣) ينظر الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله (١/ ٣٥٠).

تعبدونهم من دون الله من أصنام وغيرها: هل يستطيعون خلق ذبابة واحدة مع صغرها وحقارتها؟ وهل يستطيعون خلقها لو ظاهر بعضهم بعضا، وتعاون بعضهم مع بعض؟ ولو جاءهم الذباب وحط على طعامهم فهل يستطيعون رده أو طرده أو الامتناع منه؟ ولو سلبهم شيئا فهل يستطيعون أن يستخلصوه منه؟ ولا ينتظر منهم الجواب، فإن صيغة الآية تؤكد أن تلك الأصنام عاجزة عن خلق أي شيء ولو كان ذبابا، بل إنها أعجز من أن ترد الذباب عنها، أو تسترد ما سلبه منها[(١)].

ويزداد مدى هذا التحدي عندما ندرك من خلال العلم الحديث أن جسد الذبابة مكون من ملايين الخلايا المتخصصة الموزعة في أنسجة متخصصة وأجهزة متعددة تعمل في توافق تام لكي تعيش هذه الحشرة وتقوم بما يستبقي حياتها[(٢)]. وأن الذباب إذا ابتلع شيئًا من الطعام، فإنه يتحول في جوفه إلى مواد أخرى لا يمكن استرجاعها وإعادتها إلى طبيعته الأصلية[(٣)].

وهذا التحدي في حقيقته يعم جميع الخلق، ولذلك افتتحت الآية بخطاب عام لجميع الناس، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ [سورة الحج: ٧٣].

**النوع الثاني: الفنون البلاغية التي تعرض بها الهدايات في السورة**

وفنون البلاغة كثيرة في سورة الحج، وإنما اقتصرت هنا على ما يستفاد منه استخراج الهدايات من الآيات القرآنية، وتركت غيرها مما لا يظهر له أثر في ذلك.

---

(١) ينظر الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي (٣/ ١٩٠ - ١٩١)، ومن بلاغة القرآن (ص: ٢٥٦)، ووظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص: ٤٥٣).

(٢) ينظر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، لجامعة المدينة (ص: ١٨٤).

(٣) ينظر موسوعة الإعجاز العلمي، ليوسف الحاج أحمد (ص: ٥١٤).

**الاستفهام:**

أسلوب الاستفهام من الأساليب البيانية العظيمة التي كثر ورودها في القرآن الكريم، لكونه وسيلة مهمة في إيصال الأفكار وتثبيت المفاهيم[(١)].

والاستفهام في الأصل هو طلب الفهم، ويطلق على السؤال عن الشيء الذي لا علم لنا به، وقد جاء في القرآن الكريم لعدة أغراض، منها: التقرير، والإنكار، والتعجب، والتقريع، والتحضيض ...الخ[(٢)].

والاستفهام الإنكاري: معناه النفي، والمقصود منه هو الإنكار على المخاطب فعل أمر قام به في الماضي أو يمكن أن يحدث في المستقبل[(٣)].

ومن الظواهر اللافتة للانتباه في سورة الحج كثرة الاستفهام التقريري، والاستفهام التقريري فيه إلزام للمخاطب بالحجة، وانتزاع للاعتراف منه بما يريد المتكلم[(٤)].

ومن أمثلته الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [سورة الحج: ٦٣]. فهذا الاستفهام استفهام تقرير كما يفصح عنه الرفع في قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ﴾ بالعطف على أنزل[(٥)]، لكون استفهام التقرير بمنزلة الخبر كما قاله الخليل والفراء[(٦)].

---

(١) مقدمة تحقيق الجزء الثاني من درج الدرر للجرجاني (٢/ ٣٦).

(٢) ينظر الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية (١/ ٢٩٧ – ٣٠٢).

(٣) ينظر البلاغة العربية (١/ ٢٧١ – ٢٧٣).

(٤) ينظر علوم البلاغة للمراغي (ص: ٦٩)، وعلم المعاني لعبد العزيز عتيق (ص: ٩٩)، والبلاغة العربية (١/ ٢٧٥).

(٥) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٧٧)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١١٧).

(٦) ينظر الكتاب لسيبويه (٣/ ٣٦)، ومعاني القرآن للفراء (٢/ ٢٢٩)، والتفسير البسيط (١٥/ ٤٨٤ – ٤٨٦)، والبحر المحيط في التفسير (٧/ ٥٣١)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٥٠).

ومنها الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [سورة الحج: ٦٥]. فأخبر عباده بأنه سخر لهم ما يحتاجون إليه(١).

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الحج: ٧٠]؛ فهذا استفهام يراد به التقرير(٢)، خرج على طريق التنبيه على علم الله تعالى وإحاطته(٣). وتفيد أن المؤمن يجب أن يؤمن بأن الله تعالى يعلم كل ما هو كائن في السماء والأرض – قبل أن يخلقها – إلى يوم القيامة.

ومنها: الاستفهام التقريري التعجبي في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الحج: ٤٤]، فمن المفسرين من رأى أنه استفهام تقريري، ومعنى الآية: فكيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة؟ أليس كان واقعا قطعا؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة، وبالكثرة قلة، وبالحياة موتا، وبالعمارة خرابا؟(٤).

ومن المفسرين من جعله بغرض البيان لموضع التعجب(٥)، فقد قال أبو حيان: (وهذا استفهام يصحبه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أشد ما كان إنكاري عليهم)، وعبر عنه ابن عاشور بما يجعل التعجب للسامع لا للمتكلم، فقال: (وهو استفهام تعجيبي، أي: فاعجب من

(١) ينظر فتح القدير (٣/ ٥٥٠)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٣٢١)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٣٧).

(٢) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤٩٣)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٩٥)، وتفسير ابن عرفة (٣/ ١٩٨).

(٣) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٣٣)، وزاد المسير (٣/ ٢٤٩).

(٤) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤٣٧ – ٤٣٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٣١). وينظر فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٤٢).

(٥) نقل الواحدي في البسيط (٣/ ٥١١) عن أصحاب المعاني أنهم قالوا: (ومعنى التعجب من الله أنه يُعجِّب المخلوقين، ويدلُّنا على أنهم قد حلّوا محلّ من يتعجب منه).

نكيري كيف حصل. ووجه التعجيب منه أنهم أبدلوا بالنعمة محنة، وبالحياة هلاكا، وبالعمارة خرابا فهو عبرة لغيرهم)[1].

وقد يكون جامعا بين الأمرين: التقرير والتعجيب[2].

ومما يحتمل كونه تقريريا أو إنكاريا قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: ١٨]. فإنه يجوز أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والاستفهام تقريريا، لأن حصول علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك متقرر من آيات أخرى. ويجوز أن يكون إنكاريا، وأنكر به على المخاطبين عدم علمهم بدلالة أحوال المخلوقات على تفرد الله بالإلهية[3]. والأول في نظري أظهر، والله أعلم.

ومنها الاستفهام الذي يراد به التحضيض، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [سورة الحج: ٤٦]. فهو إما حث على السفر من أجل الاعتبار[4]، وإما حث على الاعتبار والاتعاظ بما يرونه في أسفارهم من آثار[5].

ويجوز أن يكون الاستفهام للإنكار، وأن الله تعالى أنكر على المشركين، أنهم سافروا ورأوا آثار الأمم الماضية ومع ذلك لم يعتبروا بها، كما في قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٤).

(٢) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٩٦).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢٦).

(٤) ينظر تفسير الزمخشري (٣/ ١٦٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٣)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٤).

(٥) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٤٤٢)، وتفسير الزمخشري (٣/ ١٦٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٣)، وروح المعاني (٩/ ١٥٩).

وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ [سورة الصافات: ١٣٧ – ١٣٨][(١)]. وقد يراد به مع الإنكار التوبيخ أيضا[(٢)].

ويرى ابن عاشور أن الاستفهام (تعجبيٌّ من حالهم في عدم الاعتبار بمصارع الأمم المكذبة لأنبيائها، والتعجيب متعلق بمن سافروا منهم ورأوا شيئا من تلك القرى المهلكة وبمن لم يسافروا، فإن شأن المسافرين أن يخبروا القاعدين بعجائب ما شاهدوه في أسفارهم كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ﴾ [سورة الحج: ٤٦]. فالمقصود بالتعجيب هو حال الذين ساروا في الأرض، ولكن جعل الاستفهام داخلا على نفي السير، لأن سير السائرين منهم لما لم يفدهم عبرة وذكرى جُعِل كالعدم، فكان التعجيب من انتفائه، فالكلام جارٍ على خلاف مقتضى الظاهر)[(٣)].

والحاصل أن أسلوب الاستفهام محقق للهداية من وجوه: منها أنه يدفع العقل إلى التفكر، ويبعث النفس على الوقوف مع الحقائق المستفهم عنها، ومراجعة ما يتبناه تجاهها من مواقف أو قناعات. ومنها أنه يدفع السامع إلى إيجاد أجوبة مقنعة، وهذا ما يجعله يتردد بين البقاء على الخطأ أو اختيار طريق الصواب[(٤)].

ويمكن أن يستفاد من هذه الآيات كلها أهمية استخدام أسلوب الاستفهام في مجال التعليم بدل تقديم المعلومة مباشرة، فهو أسلوب تربوي ناجح في زرع الفكرة لدى المخاطب بأسلوب فائق لا تعقيد فيه؛ لأنه أوقع في النفس، وأقوى في الإلزام.

---

(١) ينظر غرائب القرآن (٥/ ٨٨)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٤٤).

(٢) ينظر التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٢٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٧). وذكر الألوسي في روح المعاني (٩/ ١٥٩) أنه جُوِّز أن يكون الاستفهام للتقرير، ولم يتضح لي وجهه، فإن تتمة الآية لا تتوافق مع ذلك، والله أعلم.

(٤) ينظر الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية (١/ ٣٠٢ – ٣٠٣).

**أسلوب التوكيد:**

أسلوب التوكيد: من الأساليب البلاغية التي كثر استعمالها في القرآن، ومن المعلوم أن التوكيد يكون عندما يكون السامع مترددًا في تصديق ما يلقى إليه، ويزداد قوة إذا كان المتلقي منكرا له[(١)]. وقد استعمل هذا الأسلوب في القرآن لتثبيت المعاني التي يتضمنها في نفوس قارئيه وسامعيه، وتقريرها في أذهانهم؛ لتكون أمرا مما يعتقدونه اعتقادا جازما لا ريب فيه.

ويقسم النحاة التوكيد إلى نوعين: توكيد لفظي، وهو ما كان بإعادة اللفظ المراد توكيده، ويعرب توكيدًا، ويتبعه في الإعراب: رفعًا ونصبًا وجرًّا؛ وتوكيد معنوي: وهو ما كان بألفاظ معينة تُستخدم لغرض التوكيد: ككل وجميع وكلا وكلتا ونفس وعين.

أما صور التوكيد عند البلاغيين، فمنها ما يسمونه بالتوكيد اللفظي، ولكن ليس بالمعنى الذي يذهب إليه النحاة، وإنما هو بإعادة اللفظ المراد توكيدُه، سواء كان مفردًا اسمًا أو فعلًا أو حرفًا، وسواء كان جملة أو فُصِلَ بينهما وجاءت بعدها الجملة على سبيل تأكيد المعنى بلفظٍ واحدٍ.

الضرب الثاني: هو التوكيد المعنوي بألفاظ معينة، وأهم صوره التوكيدُ باستخدام أداة أو أكثر من أدوات التوكيد الآتية، وهي: إنَّ، وأنَّ، ولام الابتداء، والقسم، وألا الاستفتاحية، وأما، وها التنبيه، وكأنّ في تأكيد التشبيه، ولكنّ في تأكيد الاستدراك، وليت في تأكيد التمني، ولعل في تأكيد الترجي، وضمير الشأن، وضمير الفصل، وإما في تأكيد الشرط، وقد، والسين، وسوف، والنونان في تأكيد الفعلية، و"لا" التبرئة، ولنْ ولما في تأكيد النفي[(٢)].

ولا شك أن التوكيد من أهم أساليب تقرير الهداية لما له من فوائد في تثبيت المعنى وتقويته، وهذا ينطبق على سورة الحج، بل إن هذه السورة كثر فيها هذا الأسلوب على نحو

---

(١) ينظر معترك الأقران (١/ ٢٥٢ – ٢٥٣).

(٢) ينظر معترك الأقران (١/ ٢٥٢)، ومن بلاغة القرآن (ص: ١١٤).

يلفت النظر، حتى إنه يمكن أن نقول: إنها مصطبغة بصبغة التوكيد، أو بعبارة أبي جعفر ابن الزبير: إنها مبنية على مقصود التأكيد[1].

فقد جاء التوكيد ب"إنّ" و"أنّ" في كثير من آياتها، وغالبا ما تكون مقترنة باللام المزحلقة. أما التأكيد ب"إن" فقد جاء كثيرا في تذييل الآيات، وهي فضلا عن تأكيدها لمعنى الجملة التي جاءت في مطلعها، تربط ما بعدها بما قبلها[2]. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [سورة الحج: ١]. إذْ لما أمرهم الله تعالى بالتقوى، وكانت ثمرتُها والعقابُ على تركها يظهر في الآخرة، تشوّفت نفوسهم إلى وصف حال يوم القيامة، فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ بالتأكيد، ليتقرر عليه الجواب[3]، وليربط بين الجملتين.

وجاء التأكيد عند ذكر صفات الله تعالى، حتى يستقر الإيمان بها في النفوس، وذلك هو الأساس الذي ينبني عليه التقوى[4]، ومن أمثلة ذلك:

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [سورة الحج: ٥].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ [سورة الحج: ٧].

وقد جاء التوكيد هذه في الجمل بعدما ذكر المقدمات التي تدل عليها، لتوجيه النظر إليها، وبيان أنها هي المقصود الأهم[5].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾ [سورة الحج: ١٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝١٤﴾ [سورة الحج: ١٤][1].

---

(١) ينظر ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٢/ ٣٦٣).

(٢) ينظر دلائل الإعجاز للجرجاني (ص ٢٤٣)، و"من بلاغة القرآن" (ص: ١١٥).

(٣) ينظر معترك الأقران (١/ ٢٥٤)، والمعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة (ص: ٢٦٨)، و"خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني" للدكتور محمد محمد أبو موسى (ص: ٨٦).

(٤) ينظر من بلاغة القرآن (ص: ١١٢).

(٥) ينظر خصائص التراكيب (ص: ٩٨)، والنظم البلاغي بين النظرية والتطبيق، لحسن الجناحي (ص: ١٤٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحج: ١٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الحج: ١٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [سورة الحج: ١٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠]. (وتوكيد الجملة بحرف التوكيد ولام الابتداء مع أن مضمونها مما لا يختلف فيه لتنزيل علمهم بذلك منزلة الإنكار، لأنهم لم يجروا على موجب العلم حين أشركوا مع القوي العزيز ضعفاء أذلة)[٢].

ثم تأتي الآيات المتواليات التي تتضمن التأكيد، وهي قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الحج: ٥٨].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الحج: ٥٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة الحج: ٦٠].

(وربما كان ذلك كما يبدو في هذه السورة المكية بطابعها له أثر في التسرية التسلية لهذه الفئة المؤمنة التي قدمت الكثير. فكانت هذه المؤكدات الكثيرة التي تزيل الشبهات من النفوس وتبعث الطمأنينة في القلوب، لا سيما وان هذه القلوب متطلعة إلى هذا الرزق الحسن من الله تعالى وترجو دخول جنته)[٣].

ثم يقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الحج: ٦١ – ٦٢].

ثم يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الحج: ٦٣].

---

(١) ينظر أثر التأكيد هنا في زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٥٥).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٣).

(٣) ينظر "أسماء الله الحسنى في فواصل سورة الحج": (ص ١٧).

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة الحج: ٦٤].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الحج: ٦٥].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الحج: ٧٠]. وقد تكررت فيها "إن" ثلاث مرات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الحج: ٧٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة الحج: ٧٥].

ونجد التأكيد عند الوعد والوعيد[(١)]، ليطمئن المؤمنون إلى وعد الله، وليتقيَ الكافرون عذاب الله الذي سيقع بلا شك.

فمن التأكيد في آيات الوعد:

﴿* إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الحج: ٣٨]. وافتتاحه بحرف التوكيد إما لمجرد تحقيق الخبر، وإما لتنزيل غير المتردد منزلة المتردد لشدة انتظارهم النصر واستبطائهم إياه[(٢)].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الحج: ٣٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [سورة الحج: ٢٣]. ولم يقل: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات يدخلهم الله جنات﴾ إلخ عطفًا

(١) ينظر من بلاغة القرآن (ص: ١١٣).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧١).

على الذين كفروا، تعظيمًا لشأن المؤمنين[1]، واسترعاءً للأسماع إلى هذا الكلام[2]، وإيذانا بكمال حسن حال المؤمنين، وأن الله عز وجل يتفضل عليهم بأعظم ألوان النعيم[3].

ووجه العلامة ابن عرفة[4] التأكيد في هذه الآية فقال: إن (حرص الإنسان على دفع ما يؤلمه أشد من حرصه على جلب ما يلائمه، فاكتفى في التنفير عن العذاب لمجرد الوعد مع ما حصله في النفوس من كراهة ما يؤلمها، وأكد وعدها بالثواب لحمل مشاق الفساد في الدنيا)[5].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [سورة الحج: ٥٤].

وكذلك جاء التأكيد في وعود الله تعالى باللام ونون التوكيد الشديدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾ [سورة الحج: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ [سورة الحج: ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ﴾ [سورة الحج: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ﴾ [سورة الحج: ٦٠].

ولا شك أن مقام الوعد من مقامات التوكيد لتزداد النفوس به يقينا واطمئنانًا[1].

---

(١) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٤٤).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٣١).

(٣) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٢).

(٤) تقدمت ترجمته.

(٥) تفسير ابن عرفة (٣/ ١٨٥ - ١٨٦). وعلق الأبيّ على ذلك فقال: (قلت: إنما الجواب عندي بوجهين:
الأول: إن جزاء الكافرين العذاب عدل من الله تعالى، وجزاء المتقين بالجنة، فضل من الله تعالى إن شاء فعله، وإن شاء لم يفعله، فأكده ليصير واجبا ما جاء به له عن نفسه فقوي رجاء المؤمنين وطمعهم فيه.
الثاني: أتى بعده ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فجزاؤهم مكرر مؤكد في هذه الآية فاستغنى به عن تأكيده أولا) (٣/ ١٨٦).

ومن التأكيد في آيات الوعيد:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [سورة الحج: ١]، فإن أمرهم بالتقوى يشير إلى جنس الخبر الآتي بعده، وأن هناك أهوالا تؤمّن التقوى من فزعها في ذلك اليوم، فكان المقام مقامَ تردُّدٍ في أنه هل هناك أمامهم أمر مهم يقع لهم إن لم يتقوا، فقيل: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ﴾ إلخ[٢].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [سورة الحج: ١٧]. وقد صدرت الجملتان الأوليان بـ ﴿إنّ﴾ زيادة في تأكيد الكلام في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (٣)، ثم ذيلت بجملة أخرى مؤكدة بإن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝١٧﴾ (٤).

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [سورة الحج: ٢٥]. وتأكيد الخبر بحرف التأكيد للاهتمام به[٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: ٤٧].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ [سورة الحج: ٥٣].

---

(١) ينظر خصائص التراكيب (ص: ٩٧).

(٢) علوم البلاغة للمراغي (ص ٥٠).

(٣) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٢٩١).

(٤) ينظر من بلاغة القرآن (ص: ١١٦).

(٥) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٣٦).

وجاء التأكيد في القضايا الغيبية، ومنها سجود المخلوقات لله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: ١٨].

ومنها مسألة البعث، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [سورة الحج: ٦ – ٧]. ولا عجب، فالخطاب موجه أصالةً إلى أولئك الذين يجادلون في ألوهية الله تعالى، وينكرون البعث والنشور، فكان لزاما أن ترد المعاني بما يفيد التأكيد.

ومنها مسألة كتابة المقادير: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾ [سورة الحج: ٧٠]. وقد تكررت فيها "إنّ" ثلاث مرات.

وجاء التأكيد لتثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝٦٧﴾ [سورة الحج: ٦٧].

وجاء التأكيد في بيان حقيقة الإنسان: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ۝٦٦﴾ [سورة الحج: ٦٦].

وجاء التأكيد عند تحدي المشركين وبيان عجز أصنامهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ﴾ [سورة الحج: ٧٣].

وجاء التأكيد في بيان منزلة تعظيم شعائر الله، وذلك حيث قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾ [سورة الحج: ٣٢].

ويؤكد شيوعَ أسلوب التوكيد في هذه السورة أنه ما من معنى من المعاني ورد في سورة الحج وورد نظيره في سورة أخرى إلا ورد في سورة الحج بمؤكدات أكثر[(١)].

(١) ينظر في رحاب سورة الحج ٢: د. محمد صافي المستغانمي. الموقع الإلكتروني: http://islamiyyat.com/.

من أمثلة ذلك: أن الله تعالى يقول في هذه السورة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ [سورة الحج: ٦]. ورد في سورة أخرى: ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾ [سورة الشورى: ٩].

ويقول في هذه السورة: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾ [سورة الحج: ١١]. ويقول في سورة أخرى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [سورة فصلت: ٤٦].

ويقول في هذه السورة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الحج: ١٨]. ويقول في سورة أخرى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الرعد: ١٥].

ويقول في هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝١٨﴾ [سورة الحج: ١٨]، ويقول في سورة أخرى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠﴾ [سورة آل عمران: ٤٠].

ويقول في هذه السورة: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦٤﴾ [سورة الحج: ٦٤]. ويقول في سورة لقمان: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٦﴾ [سورة لقمان: ٢٦] [(١)]. وإنما تكرر الاسم الموصول "ما" وزيدت لام الابتداء المؤكدة ﴿لَهُوَ﴾ للتأكيد، لما قدرت الآية قبلها من السورة من بنائها على مقصود التأكيد.

ويقول في هذه السورة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [سورة الحج: ٦٢]، بضمير الفصل "هو" الذي يفيد التأكيد، ويقول في سورة لقمان: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٠﴾ [سورة لقمان: ٣٠] مجردا منه، ووجه ذلك، والله أعلم: أن سورة الحج ورد فيها ما يستدعي هذا التأكيد بالضمير المنفصل ويناسبه، وهو تكرر الإشارة إلى آلهتهم في أكثر من موضوع،

(١) وثمة ثمانية مواضع أخرى ورد فيها هذا الاسمان، ولكن بدون هذا القدر من المؤكدات الموجودة في آية سورة الحج.

وبيان بطلانها، وإظهار ضعفها وعجزها وسخافة عابديها وشناعة حالهم[(١)]. ومن جهة أخرى لأنها وَقعت بعد عشر آيَات، كل آيَة مُؤَكدَة مرّة أَو مرَّتَيْن[(٢)].

وثمة أشكال أخرى من التوكيد اللفظي في هذه السورة:

منها: التأكيد في قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ [سورة الحج: ٣١]، فإن قوله: ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ تأكيد لقوله: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾[(٣)].

ومنها: التأكيد بإعادة الفعل في قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [سورة الحج: ٣٠]، فإنه لم يعطف قول الزور على الأوثان، وإنما أعاد الفعل؛ ليكون قول الزور مستقلًا في الاجتناب عنه[(٤)].

ومنها: وصف ﴿مَنسَكًا﴾ بقوله: ﴿هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ [سورة الحج: ٦٧]، تأكيدًا للقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور على الفعل، في قوله سبحانه: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ [سورة الحج: ٦٧][(٥)].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [سورة الحج: ٤٦]. و﴿ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ صفة ل﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾، وذلك للتأكيد[(٦)] ونفي التجوز، وتقرير أن العمى الحقيقي ليس المتعارف الذي يخص البصر، وإنما هو عمى القلب[(٧)]، وللتنبيه على أن عمى

---

(١) ينظر ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٢/ ٣٦٢).

(٢) ينظر دُرّة التنزيل وغرة التأويل (١/ ٩٣٠)، والبرهان في توجيه متشابه القرآن (ص: ١٨٢).

(٣) ينظر تفسير الجلالين (ص: ٤٣٧)، والسراج المنير (٢/ ٥٥١)، وفتح البيان (٩/ ٤٦).

(٤) فتوح الغيب (١٠/ ٤٨٠).

(٥) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١١٨)، وروح البيان (٦/ ٥٨).

(٦) وهذه الفائدة التي اقتصر عليها الزجاج في معاني القرآن (٣/ ٤٣٢).

(٧) ينظر الكشاف (٣/ ١٦٢)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٤)، وفتوح الغيب (١٠/ ٥٠١)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١١١). ومن المصادر البلاغية: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير (٢/ ٢٨٥)، والطراز (٢/ ١٢٦).

الأبصار عدمٌ بالنسبة إلى عمى القلوب[(١)]، ويفيد هذا الوصف وراء التوكيد تعريضا بالقوم المتحدث عنهم بأنهم لم ينتفعوا بأفئدتهم مع شدة اتصالها بهم، إذ هي قارّة في صدورهم[(٢)].

**أسلوب التقديم والتأخير.**

التقديم والتأخير سمة أسلوبية لها عظيم الأثر في روعة الأسلوب وإظهاره، في صورة تجمع بين الوفاء بالمعنى ومطابقة الحال[(٣)]، وللتقديم والتأخير في القرآن الكريم ثلاث صور:

الصورة الأولى: تقديم ما حقه التأخير، أو تأخير ما حقه التقديم، مثل تقديم المتعلقات على عواملها، أو تقديم بعضها على بعض، كالمفعول به على الفعل، وكالظرف والجار والمجرور، وكالحال والتمييز، وكتقديم التوابع بعضها على بعض[(٤)]. وهذا هو الذي يُعنى به البلاغيون.

الصورة الثانية: تقديم ما ليس له رتبة معيَّنة في التركيب، لكنه قد يقع مصاحبًا لشبيه له أو أشباه مقدمًا عليها، فيبحث عن السر البلاغي في تقديم ما قدم وتأخير ما أخر، كتقديم الوصية على الدَّيْن مثلا[(٥)].

الصورة الثالثة: تقديم كلمة أو جملة أخرت في موضع آخر أو مواضع أخرى من القرآن، وهو الذي يمكن تسميته بالتقديم غير الاصطلاحي وفق بعض الباحثين[(٦)].

---

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٠).

(٣) ينظر خصائص التعبير القرآني (٢/ ٧٩).

(٤) ينظر خصائص التعبير القرآني (٢/ ٨١ و١٤٦).

(٥) خصائص التعبير القرآني (٢/ ١٤٦). وهذا الذي وضع فيه العلامة شمس الدين ابن الصائغ الحنفي كتابًا سماه "المقدمة في سرّ الألفاظ المقدَّمة"، ونقل عنه السيوطي في "معترك الأقران في إعجاز القرآن" (١/ ١٣٠).

(٦) وهو الدكتور عبد العظيم المطعني، ينظر خصائص التعبير القرآني (١/ ١٦، و٢/ ١٤٧ – ١٤٨).

ومن أمثلة النوع الأول: تأخير قوله: ﴿وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠﴾ [سورة الحج: ٢٠]. حيث أخَّره عن قوله: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ مع أن ملابستها بالجلود أسبق من ملابستها بالباطن، إشعارًا بغاية شدة الحرارة، بإيهام أن تأثيرها في الباطن أقوى من تأثيرها في الظاهر، مع أن ملابستها بالعكس[(١)]. ولا شك أن كلمة الجلود هنا تنِمّ على الإحساس بالنار التي تصهر، وقد تبيّن في العلم الحديث أنّ الجلد مستقل بمراكز إحساس، ولا يتلقّى الإحساس من الباطن[(٢)].

ومن أمثلة هذا النوع أيضا قوله تعالى في شأن شعائر الله عامة: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ [سورة الحج: ٣٣]، وقوله في شأن البُدْن المشعَرة – على قول الجمهور-: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [سورة الحج: ٣٦]. (وتقديم ﴿لَكُمْ﴾ على المبتدأ ليتأتى كون المبتدأ نكرة ليفيد تنوينه التعظيم، وتقديم ﴿فِيهَا﴾ على متعلقه وهو ﴿خَيْرٌ﴾ للاهتمام بما تجمعه وتحتوي عليه من الفوائد)[(٣)].

ومن أمثلة هذا النوع: تقديم اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٧].

ومنها تقديم المفعول في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ إشعارا بكونه أهم، كأنه قيل: ويخصُّون بعض المال الحلال بالتصدق به[(٤)].

ومنه تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ [سورة الحج: ٣٤] لإفادة الحصر، أي أسلموا له لا لغيره[(١)]. وإنما جاءت بهذه الصيغة لأنها وردت في سياق الدعوة إلى

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ١٠١)، وهذا على القول بأن {الجلود} معطوف على {ما} الموصولة، وهو الظاهر. وقيل: إن ثمة فعلا محذوفا معطوفا على «يصهر»، والتقدير: يصهر به ما في بطونهم، وتحرق به الجلود. ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٢٧)، والبحر المحيط (٧/ ٤٩٦). وردّ الشوكاني هذا التقدير في "فتح القدير" (٣/ ٥٢٥) فقال: "ولا يخفى أنه لا ملجئ لهذا، فإن الحميم إذا كان يذيب ما في البطون، فإذابته للجلد الظاهر بالأوْلى".

(٢) جماليات المفردة القرآنية (ص: ٣٢٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٣).

(٤) ينظر روح البيان (٦/ ٣٤).

توحيد الله تعالى، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [سورة الزمر: ٥٤]، فقد أخر الجار والمجرور لأنه لم يجئ ما يقتضي الحصر.

ويستفاد من ذلك وجوب الاستسلام لله وحده، الإخلاص له تعالى في النحر خصوصا وفي العبادة عموما.

ومنه تقديم الجار والمجرور على الفعل في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا﴾ [سورة الحج: ٣٤]، وقوله سبحانه: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ [سورة الحج: ٦٧]، إيذانا بالقصْر، أي جعلنا لكل أمة منسكا خاصا، لا لأمة أخرى منهم، وحاصل المعنى: أن الله تعالى عيَّن شريعةً معينة لكل أمة من الأمم، بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعيّنة إلى شريعة أخرى، لا استقلالا ولا اشتراكا(٢).

ومنه تقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ﴾ [سورة الحج: ٦٥]، لما فيه من الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر(٣).

ومنه تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [سورة الحج: ٦٤]، للدلالة على القصر، أي له ذلك، لا لغيره من معبوداتكم، إن جعلْتَ القصر إضافيا، أو لعدم الاعتداد بغنى غيره ومحموديته إن جعلْتَ القصرَ ادعائيًا(٤).

ومنه تقديم الجار والمجرور ﴿بِٱلنَّاسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥﴾ [سورة الحج: ٦٥] للتنبيه على عنايته تعالى بهم إيقاظا لهم ليشكروه، وكذا مراعاة لتوافق

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٦)، وروح المعاني (٩/ ١٤٧)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٦٠).

(٢) ينظر روح المعاني (٩/ ١٨٥). قال الألوسي: (والكلام نظير قولك: لكل من فاطمة وزينب وهند وحفصة أعطيت ثوبا، خاصا إذا كنت أعطيت فاطمة ثوبا أحمر، وزينب ثوبا أصفر، وهندا ثوبا أسود، وحفصة ثوبا أبيض، فإنه بمعنى لفاطمة أعطيت ثوبا أحمر لا لأخرى من أخواتها، ولزينب أعطيت ثوبا أصفر، لا لأخرى منهن، وهكذا).

(٣) ينظر روح المعاني (٩/ ١٨٣).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢٠).

الفاصلة[1]، إذ لا يستحسن الفصل بين الأمرين[2]، فلا بد من فائدة معنوية تقترن بالجانب اللفظي.

ومنه تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾ [سورة الحج: ٧٠] على متعلقه وهو ﴿يَسِيرٌ﴾ للاهتمام بذكره للدلالة على إمكانه في جانب علم الله تعالى[3]. وقيل: قُدِّم لإفادة القصر، أي يسيرٌ عليه سبحانه، لا على غيره[4].

ومنه تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٧٦﴾ [سورة الحج: ٧٦] لإفادة الحصر الحقيقي، أي إلى الله لا إلى غيره يرجع الجزاء، لأنه ملِك يوم الدين[5].

ومنه تقديم متعلق الخبر في قوله تعالى ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [سورة الحج: ٧١]، فكلمة ﴿لَهُم﴾ قدمت على ﴿عِلْمٌ﴾، وهي المبتدأ؛ للدلالة على أنهم تهجموا من غير علم، فقدم عقابه في الاهتمام، وللدلالة على ضلالهم، وقدم ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿عِلْمٌ﴾ للدلالة على إمعانهم في الضلال وظلمهم للحق[6].

ومنه تقديم المسند إليه – وهو اسم الجلالة – على الخبر الفعلي في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [سورة الحج: ٧٥] دون أن يقول: نصطفي، لإفادة الاختصاص، أي الله وحده هو الذي يصطفِي، لا أنتم تصطفون وتنسبون إليه[7].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (٢/ ٢٦).

(٢) ينظر روح المعاني (٩/ ١٨٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٣٢).

(٤) ينظر روح المعاني (٩/ ١٩٧).

(٥) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٥).

(٦) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٥٠٢٧).

(٧) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٤).

ومن أمثلة النوع الثاني: تقديم الطائفين على القائمين والمصلين في قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الحج: ٢٦]، فقد قدم الطواف لكونه مختصا بالبيت، وقال قال العلوي: (لأن سياق الآية في عظم العناية بالبيت، والطائفون أقرب ما يكونون إليه، فلهذا قدمهم، ثم ثنى بالقائمين لأنه يلي الطواف في الرتبة لأن القيام يشملهما جميعا...)[(١)].

ويستفاد منه أن الطواف والاعتكاف في المسجد الحرام أفضل[(٢)]، وأن الطواف خاص بالبيت الحرام[(٣)]، خلافا للاعتكاف الذي يختص بالمساجد، والصلاة التي تكون في المواضع الطاهرة من الأرض[(٤)].

ومنه قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [سورة الحج: ٢٧]، فقد قدم الراجلين على الركبان في الذكر تشريفا لهم[(٥)]، لما يعانونه في سبيل الحج من جهد ومشقة[(٦)]، فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم[(٧)]. ولهذا قال ابن عباس رضى الله عنهما: (ما آسى على شيءٍ فاتني إلا أن لا أكون حججت ماشيا، سمعت الله يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾)[(٨)]. فدل ذلك على أنه فهم من التقديم في الآية الفضل[(١)].

---

(١) الطراز (٢/ ١٢٦).

(٢) ينظر تفسير الرازي (٤/ ٤٧).

(٣) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٣)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١٢٠٧).

(٤) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٧).

(٥) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١١٨)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٠)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٩)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٣٦)، والسراج المنير (٢/ ٥٤٩).

(٦) ينظر خصائص التراكيب (ص: ٣٦٩).

(٧) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٤).

(٨) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥١٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٨٨، رقم ١٣٨٨٥).

ويستفاد من ذلك أن حج الماشي على رجليه أفضل من حج الراكب في الجملة[٢]، وأن المشي في أداء مناسك الحج مندوب إليه[٣].

ومنه تقديم قضاء التفث في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾، فإن تقديمه في الذكر دليل على أن الأصل تقديمه في الفعل. ويستفاد من ذلك أنه لا يطاف بالبيت طواف الإفاضة حتى يحلق الشعر.

ومنه تقديم وصف المخبتين بالصبر على الصلاة والإنفاق في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾، إيماءً إلى أن أداء العبادات البدنية والمالية يحتاج إلى الصبر، وأنها لا تؤدّى كاملة إلا مع الصبر[٤].

ومنه تقديم الصلاة في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾، فإن الله تعالى قدم الصلاة في الذكر على الإنفاق الذي يشمل الزكاة، وإنما قدم لفائدة، والفائدة هي الإشارة إلى أفضليتها. ويؤخذ منها أن الصلاة أعلى شأنا من الزكاة، وأن الطاعات البدنية أفضل من الطاعات المالية[٥].

ومنها تقديم الأكل على الإطعام في الذكر في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾، إشارة إلى أنه يستحب تقديم الأكل من الهدي والأضحية على الإطعام والتصدق منها.

---

(١) ينظر الطراز (٢/ ٣٤). وقد ذكر يحيى العلوي احتمالا آخر، وهو أن يكون تقدما بالرتبة، فإن الغالب أن الرجّالة إنما يأتون من الأمكنة القريبة، والركبان يأتون من الأمكنة البعيدة، فلهذا قدم الرجّالة.

(٢) وينظر أحكام ابن العربي (٣/ ٢٨١)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٣٩)، وأضواء البيان (٤/ ٣٠٠ – ٣٠٢).

(٣) ينظر التفسير المظهري (٦/ ٢٧٦).

(٤) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٣٨).

(٥) ينظر تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٨٥)، وتفسير الرازي (١١/ ٢٦٥).

وقريب منه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [سورة الحج: ٤٠]، وهذا ترقّ من شريف إلى أشرف؛ فبدأ بأدنى المعابد وهي الصوامع لقلة العباد فيها، ثم انتقل إلى ما هو أشرف منها وهي البيَع لكثرة العباد فيها، فإنها معابد للرهبان وغيرهم، ثم انتقل إلى ما هو أشرف منها وهي معابد اليهود؛ لأن حدوثها أقدم، وزمن العبادة فيها أطول، ثم ختم بأشرفها جميعا، وهي المساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيرًا، وقد عبد الله فيها بما لم يعبد في غيرها[(١)]، (والقاعدة في العربية أن الترقي في الخطاب إلى الأعلى فالأعلى أبدًا في المدح والتفخيم والامتنان)[(٢)]. ويستفاد من ذلك فضيلة المساجد ومزيد شرفها على غيرها، وأن المعابد تزدادا شرفًا بكثرة المتعبدين لله فيها، ولذلك كان أشرف المساجد هو المسجد الحرام، لكثرة من عبد الله فيه بالصلاة والطواف والاعتكاف منذ بنائه، وسيستمر إلى قبيل الساعة.

ومنه تقديم التبيين في قوله تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [سورة الحج: ٥] على ما بعده ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ [سورة الحج: ٥] مع أن حصوله بالفعل بعد الكل للإيذان بأنه غاية الغايات ومقصود بالذات[(٣)].

ومنه: تقديم الدليل السمعي على الدليل العقلي في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [سورة الحج: ٧١]، وذلك لأن الدليل الشرعي

---

(١) ينظر الأجوبة الفاخرة للقرافي (٨٧ – ٨٨)، والجواب الصحيح (١/ ٢٤٠)، وروح المعاني (٩/ ١٥٦). وينظر تعليل آخر في التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧٩).

(٢) الأجوبة الفاخرة (٨٧ – ٨٨).

(٣) ينظر روح المعاني (٩/ ١١٣).

أهم[1]. ويؤخذ منه أن الدليل السمعي يقدم في الاستدلال في الشرعيات على الدليل العقلي، وأنه يجب أن نستند في شأن العبادات إلى الدليل السمعي[2].

ومنه: تقديم رسل الملائكة على الرسل من البشر في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [سورة الحج: ٧٦]، لأنهم وسائط بينه تعالى وبين رسل الناس[3].

ومنه تقديم من قتل في سبيل الله على من مات مهاجرا في سبيله في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقٗا حَسَنٗاۚ﴾ [سورة الحج: ٥٨]. وهي تفيد أن من قتل في سبيل الله أفضل بدرجة ممن مات بعد الهجرة في سبيل الله[4].

ومنه تقديم الرسول على النبي في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيّٖ﴾ الآية [سورة الحج: ٥٢]. لأن الرسالة أعلى رتبة من النبوة.

وهناك أمثلة متعددة في تقديم بعض الأسماء الحسنى على بعضها عند اقترانها، ولكنها خارجة عن مقصودنا[5].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٣٣).

(٢) ينظر روح المعاني (٩/ ١٨٩).

(٣) ينظر روح المعاني (٩/ ١٩٧).

(٤) قال ابن جزي في التسهيل (٢/ ٤٤): "ولا يقتضي ذلك المساواة بينهم لأن تفضيل الشهداء ثابت".

(٥) مثلا: تقديم اسم الله {رؤوف} على رحيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥﴾ [الحج: ٦٥]، قال أبو السعود (١/ ١٧٤): (وتقديمه على {رحيم} مع كونه أبلغ منه لما مر في وجه تقديم الرحمن على الرحيم. وقيل: أكثر من الرأفة في الكمية، والرأفة أقوى منها في الكيفية، لأنها عبارة عن إيصالِ النعم الصافية عن الآلام، والرحمةُ إيصالُ النعمة مطلقا، وقد يكون مع الألم كقطع العضو المتأكل). وقال الألوسي في روح المعاني (٩/ ١٨٥): (والرأفة قيل: ما تقتضي درء المضار، والرحمة قيل: ما تقتضي جلب المصالح. ولكون درء المضرة أهم من جلب المصلحة قدم {رؤوف} على {رحيم}، وفي كل ما امتن به سبحانه درء وجلب، نعم، قيل: إمساك السماء عن الوقوع أظهر في

ومن أمثلة النوع الثالث في سورة الحج قوله سبحانه: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ [سورة الحج: ٧٨]. فقد قدمت شهادة الرسول على الأمة، على شهادة الأمة على الناس، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [سورة البقرة: ١٤٣]، حيث قدمت شهادة الأمة على الناس، على شهادة الرسول على الأمة.

وإنما جاء الترتيب بين الشهادتين في سورة الحج على ذلك النحو، لأن المعنى أن يشهد الرسول على أمته بأنه بلغها ما أنزِل إليه من ربه، وأن تشهد الأمة على الأمم السابقة بأن رسلهم قد بلغتهم ما أنزِل إليهم من ربهم. فموضوع الشهادتين واحد هو التبليغ، ولذلك قُدِّمت شهادة الرسول، لأنها الأصل، وأخرت شهادة الأمة، لأنها الفرع. إذ هي مترتبة عليها ومستقاة منها[(١)]. ومن جهة أخرى فإن آية هذه السورة في مقام التنويه بالدين الذي جاء به الرسول، فالرسول هنا أسبق إلى الحضور، فكان ذكر شهادته أهم[(٢)].

بخلاف آية البقرة، فالخطاب أصلًا موجه إلى الأمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة البقرة: ١٤٣]. والكلام مسوق لتقرير عدالة الأمة، وكونها شاهدة على الأمم، فكان ذكر شهادة الأمة أهم. أما شهادة الرسول عليها فهي تزكية لها لقبول شهادتها، والتزكية تكون بعد أداء الشهادة نفسها، إذ هي أصل، والتزكية تابعة لها. ولولا ذلك لما قُدمت شهادة الأمة على شهادة الرسول، لتباين المنزلتين[(٣)].

ومن هذا النوع تقديم الضر على النفع في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ [سورة الحج: ١٢] خلافا لتقديم النفع على الضر في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن

---

الدرء، ولتأخيره وجه لا يخفى، وقال بعضهم: الرأفة أبلغ من الرحمة، وتقديم (رؤوف) للفاصلة، وذهب جمع إلى أن الرحمة أعم، ولعله الظاهر).

(١) ينظر خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ١٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٥٢).

(٣) ينظر خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ١٥٦).

دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ [سورة الفرقان: ٥٥]، وإنما جاء كذلك (إيماءً إلى أنه تملص من الإسلام تجنبا للضر، لتوهمه أن ما لحقه من الضر بسبب الإسلام، وبسبب غضب الأصنام عليه، فعاد إلى عبادة الأصنام حاسبا أنها لا تضره)[(١)]. ويستفاد من ذلك أن اتقاء الضرر مقدم على تحصيل النفع، وأن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة.

**أسلوب التكرار:**

والتكرار اللفظي في القرآن الكريم على صورتين:

الأولى: تكرار في السورة نفسها، وهو عند البلاغيين مندرج في التوكيد اللفظي، فقد يكرر القرآن الجملة أو العبارة بنصها دون تغيير فيها، لما في ذلك من التأكيد، أو التهويل، أو التصوير، وكل ذلك له أثر عظيم في تعميق المعنى في النفس وصدعها عما تصر عليه[(٢)].

والصورة الثانية: تكرار في القرآن الكريم كله. وغالبا ما يكون التكرار مع اختلاف في نظم الجملة، أو إيجاز أو إطناب أو نحو ذلك. وذلك يبرز سرا من أسرار إعجاز القرآن، وهو التعبير عن المعنى الواحد بأكثر من أسلوب دون أن ينال تكرار المعنى من سموّ الأسلوب وإعجازه. وذلك من جملة تصريف البيان في القرآن الذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١٠٥﴾ [سورة الأنعام: ١٠٥][(٣)]. وحقيقة التصريف: (إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى، خشية تناسي الأول لطول العهد به)[(٤)].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٥).

(٢) ينظر علوم القرآن الكريم، لنور الدين عتر (ص: ٢٤٩). أما قول ابن جزي في التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٢٥) (التكرار: وهو أن تضع الظاهر موضع المضمر، فتكرّر الكلمة على وجه التعظيم أو التهويل، أو مدح المذكور أو ذمّه أو للبيان)؛ فإنه يخص أحد صور التكرار. وينظر الحديث عن هذا الأسلوب مطولا في البرهان (٣/ ٨)، ومعترك الأقران (١/ ٢٥٨).

(٣) ينظر علوم القرآن الكريم، لنور الدين عتر (ص: ٢٥٠).

(٤) البرهان (٣/ ١٠).

ومن أمثلة التكرار على قول في تفسير الآية قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [سورة الحج: ٣]، وقوله تعالى بعدها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [سورة الحج: ٨]. قال ابن عطية: (وكرر هذه على وجه التوبيخ، فكأنه يقول: هذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان، ومن الناس مع ذلك من يجادل)[(١)].

ومن أمثلة التكرار البينة، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الحج: ١٤]. فإنه تعالى كرره بعد بضع آيات فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [سورة الحج: ٢٣].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ [سورة الحج: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ [سورة الحج: ٤٨][(٢)]. وكرر قوله: ﴿وَكَأَيِّن﴾ لأنه جلب معنى آخر، لأنه ذكر أولا القرى التي أهلكها عَقِب التكذيب دون إمهال، ثم ثنّى بالقرى التي أهلكها بعد أن أمهلها، لئلا يفرح المشركون بتأخير العذاب عنهم[(٣)].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ﴾ [سورة الحج: ٢٨]. فإنه كرره في موضع آخر: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤].

---

(١) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٠٩).

(٢) ينظر البرهان في توجيه متشابه القرآن، للكرماني (ص: ١٨٢).

(٣) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٢٧).

وكذلك في قوله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٣٤]. فإنه كرره في موضع آخر، فقال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [سورة الحج: ٦٧].

وقريب منه قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠﴾ [سورة الحج: ٥٠]. وقوله بعده ببضع آيات: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦﴾ [سورة الحج: ٥٦][(١)].

ومنه تكرير الامتنان بالتسخير، حيث قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٣٦﴾ [سورة الحج: ٣٦]. ثم قال سبحانه في الآية التي تليها: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٧]، كرره للتذكر والتعليل بقوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [(٢)]، وذلك من أجل التأكيد[(٣)]، ليكون أدعى للمكلف إلى شكر الله وطاعته. ويؤخذ من ذلك استحباب تكرير المعاني التي يتأكد تقريرها وترسيخها في نفس السامع.

ومن التكرار في سورة أخرى: قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝٢٦﴾ [سورة الحج: ٢٦]. وقد ورد ما يشبهها في سورة البقرة، وهو قوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝١٢٥﴾ [سورة البقرة: ١٢٥]. وقد مرت بنا أمثلة أخرى في أسلوب التأكيد، فأغنانا عن إعادتها.

---

(١) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل (١/ ٩٢٨)، والبرهان في توجيه متشابه القرآن (ص: ١٨٢)، وكشف المعاني في المتشابه من المثاني (ص: ٢٦٤).

(٢) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥١٠)، غرائب القرآن (٥/ ٨٢)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٨).

(٣) ينظر التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٤١)، والفواتح الإلهية (١/ ٥٥٤)، وصفوة التفاسير (٢/ ٢٦٥).

**أسلوب القصر:**

القصر في اصطلاح البلاغيين: هو إثبات الحكم للمذكور في الكلام ونفيُه عمّا عداه[(١)]، أو: هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص[(٢)]. ويقال له أيضا: الحصر.

وينقسم القصر باعتبار الحقيقة والواقع إلى نوعين هما:

الأول: القصر الحقيقي: وهو: (تخصيص الشيء بالشيء بحسب الحقيقة، وفي نفس الأمر بأن لا يتجاوزه إلى غيره أصلا) [(٣)]. ويكون القصر الحقيقي إمّا: تحقيقيا، وادِّعائيا كما يعبر البلاغيون[(٤)].

الثاني: القصر الإضافي: وهو: (الإضافة الى شيء آخر بأن لا يتجاوزه إلى ذلك الشيء، وإن أمكن أن يتجاوزه إلى شيء آخر في الجملة)[(٥)]. فالاختصاص فيه نسبي، لأنّ الواقع قد يشهد ببطلانه.

ومن أمثلة القصر قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [سورة الحج: ٦٢]، أي أنه الحق في الإلهية دون غيره من معبوداتكم فإنها لا وجود لها، فالقصر في هذه الجملة المستفاد من ضمير الفصل قصر حقيقي[(٦)]، ويؤخذ من مفهوم القصر أن كل ما سوى الله تعالى – وإن كان موجودا حقا – فإنه لا حقيقة له من نفسه، وعبادته باطلة.

وأما القصر في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [سورة الحج: ٦٢] المستفادُ من ضمير الفصل فهو قصر ادعائيٌ لعدم الاعتداد بباطل غيرها، حتى كأنه ليس

---

(١) ينظر عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/ ٣٩٣)، وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع (ص: ١٦٥)، والإتقان (٣/ ١٦٦)، وعلوم البلاغة للمراغي (ص: ١٥٠).

(٢) ينظر مفتاح العلوم (ص: ٢٨٨)، وعروس الأفراح (١/ ٣٩٣)، والإتقان (٣/ ١٦٦)، وجواهر البلاغة (ص: ١٦٥).

(٣) التعريفات (ص: ١٧٦).

(٤) القصر الحقيقي الادعائي: هو ما ينزل فيه ما عدا المقصور عليه منزلة المعدوم، ينظر البلاغة الصافية (ص: ١٦٤)

(٥) التعريفات (ص: ١٧٦).

(٦) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٥ و٣١٦).

من الباطل. وهذا مبالغة في تحقير أصنامهم لأن المقام مقام مناضلة وتوعُّد، وإلا فكثير من أصنام وأوثان غير العرب باطل أيضا[1].

ومن القصر الإضافي قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة الحج: ٥٤]، أي ليزدادوا يقينا بأن الوحي الذي أوتوه هو الحق، لا غيره مما ألقاه الشيطان لهم من التشكيك والشبه والتضليل، فالقصر المستفاد من تعريف الجزأين ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ قصر إضافي[2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الحج: ١١]، والقصر المستفاد من تعريف المسند قصر ادعائي؛ ادعي أن ماهية الخسران المبين انحصرت في خسرانهم، والمقصود من القصر الادعائي تحقيق الخبر ونفي الشك في وقوعه. وضمير الفصل أكد معنى القصر، فأفاد تقوية الخبر المقصور[3]. ويستفاد من ذلك أن خسارة الدنيا والآخرة هي الخسارة الكبرى، وأن خسارة شيء في الدنيا مع الفوز بالآخرة ليس خسرانا.

ومثله في ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الحج: ١٢][4].

ومن ذلك القصر في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾، أي أن الله وحده هو الغني، وجميع الوجود محتاج إليه سبحانه[5]، ففي ضمير الفصل إفادة أنه المختص بوصف الغنى دون الأصنام، وبأنه المختص بالمحمودية، فإن العرب لم يكونوا يوجهون الحمد لغير الله تعالى. وأكد الحصر بحرف التوكيد وبلام الابتداء تحقيقا لنسبة القصر إلى المقصور. وهذا

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٦ – ٣١٧). وقال الألوسي في روح المعاني (٩/ ١٨٢): (والحصر يحتمل أن يكون غير مراد، وإنما جيء به للمشاكلة، ويحتمل أن يكون مرادا على معنى أن جميع ما يدعون من دونه هو الباطل، لا بعضه دون بعض).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٠٣)، وزهرة التفاسير (٩/ ٥٠٠٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٥).

(٥) زهرة التفاسير (٩/ ٥٠١٩).

التأكيد لتنزيل تحققهم اختصاصَه بالغنى أو المحمودية منزلةَ الشك أو الإنكار، لأنهم لم يجْروا على موجب علمهم حين عبدوا غيره، وإنما يعبد من وصفه الغنى[(١)].

ويستفاد من الآية أن الشأن في العبد أن يظهر الافتقار إلى ربه، لأنه فقير حقيقة[(٢)].

**الالتفات:**

الالتفات من الأساليب البلاغيَّةِ ذَاتِ اللَّطائف النفيسة، وقد تكرّر استخدامه في القرآن الكريم كثيرا جدًّا[(٣)]. وهو – على المشهور –: نقل الكلام من أسلوب التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها بعد التعبير بالأول[(٤)].

وله فوائد، منها: تَطْرية الكلام، وتجديد نشاط السامع، وصيانة النفس من الضجَر والملل، لِمَا جُبِلت عليه من حب التنقل، والسآمة من الاستمرار على نمطٍ واحد. ويختص كل موضع بنُكَت ولطائف باختلاف محله[(٥)].

ومن أمثلة الالتفات في سورة الحج: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الحج: ١٠]. فيه التفات من

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢٠).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢٠)، وزهرة التفاسير (٩/ ٥٠١٩).

(٣) ينظر البلاغة العربية (١/ ٤٨٠).

(٤) معترك الأقران (١/ ٢٨٦)، وهو مأخوذ من تعريف الخطيب القزويني في الإيضاح في علوم البلاغة (٢/ ٨٦) حيث قال: (والمشهور عند الجمهور أن الالتفات هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها). وينظر التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٢٥)، وعروس الأفراح (١/ ٢٧٢)، وعلوم البلاغة للمراغي (ص: ١٤١).

(٥) ينظر عروس الأفراح (١/ ٢٧٦)، والبرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٤)، والإتقان (٣/ ٢٨٩)، ومعترك الأقران (١/ ٢٨٦).

الغيبة إلى الخطاب، لأن الأصل أن يكون: بما قدمت يداه[(١)]، وفائدته تأكيد الوعيد، وتشديد التهديد[(٢)].

ومن أمثلته كذلك الالتفاتُ من الغَيبة في قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٢٨] إلى الخطاب في تتمة الآية حيث قال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [سورة الحج: ٢٨] [(٣)]. وإنما عدل إلى الخطاب ليؤكد لهم إباحة الأكل من تلك الذبائح، لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون منها[(٤)].

ومن أمثلته الالتفات من الخطاب إلى الغَيبة في قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [سورة الحج: ٧٤]، فإن الآية التي تسبقها كانت خطابا للناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ [سورة الحج: ٧٣]. فكان المفروض أن يقال: ما قدرتم الله حق قدره، ولكنه تعالى عدل عن الخطاب إلى أسلوب الغيبة، (تعريضا بهم بأنهم ليسوا أهلا للمخاطبة توبيخا لهم، وبذلك يندمج في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الحج: ٧٤] تهديدٌ لهم بأنه ينتقم منهم على وقاحتهم)[(٥)].

ويقرب منه الالتفات من الماضي أو المضارع أو الأمر إلى آخر[(٦)]. وهو الذي سنتحدث عنه في المطلب التالي بإذن الله.

---

(١) ينظر زهرة التفاسير (٩/ ٤٩٥٠)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٢٩٠).

(٢) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ٩٧)، وروح المعاني (٩/ ١١٨).

(٣) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٤)، وفتح القدير (٣/ ٥٣١)، وروح المعاني (٩/ ١٣٩).

(٤) ينظر روح البيان (٦/ ٢٦)، والتفسير المنير (١٧/ ١٩٦).

(٥) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٢).

(٦) ينظر معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (١/ ٢٩١).

**العدول عن الماضي إلى المضارع وعكسه:**

يعد بعض البلاغِيينَ التَّصريف البيانِيّ القائم على العُدُولِ من الماضي إلى المضارع من قبيل الالتفات، ولا يقصرُ "الالتفات" على التصرف في أنواع " الضمير" المتحدة المرجع على ما عليه جمهور البلاغيين[(١)].

ومهما يكن فقد ورد هذا التصريف البياني في سورة الحج.

ومن أمثلته: التعبير عن الماضي بلفظ المضارع في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [سورة الحج: ٤٠]؛ أي: بسبب قولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾، إشارة إلى استمرار ذلك القول ودوامه لهم[(٢)].

ومنها: العدول إلى صيغة المضارع في قوله: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [سورة الحج: ٣١]. مع عطفه على الماضي وهو ﴿خَرَّ﴾ [سورة الحج: ٣١]، لتصوير هذه الحالة الهائلة التي اجترأ عليها المشرك للسامعين، التي هي كونه موزعًا في حواصل الطير[(٣)]. ففي ذكر المضارع استحضار صورة خطف الطير له، وهُوىّ الريح به[(٤)].

ومنها: العدول عن الماضي إلى صيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ [سورة الحج: ٥]، فقد عدل عن صيغة الماضي التي عبر بها في بداية الآية: ﴿خَلَقۡنَٰكُم﴾، إلى صيغة المضارع: ﴿وَنُقِرُّ﴾ ﴿نُخۡرِجُكُمۡ﴾، للدلالة على استحضار تلك الحالة لما فيها من المشابهة لما يرونه في مولد كل طفل[(٥)].

---

(١) ينظر الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، لضياء الدين ابن الأثير (ص: ١٠٢)، والمثل السائر (٢/ ١٤٥ - ١٤٦)، والطراز (٢/ ٧٣ - ٧٤).

(٢) تفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٩٦).

(٣) تفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٤٥).

(٤) ينظر المثل السائر في (٢/ ١٤٨)، ومن بلاغة القرآن (ص: ٨٩ - ٩٠).

(٥) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٩).

ومنها: إيراد صيغة المضارع بدل الماضي حيث قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [سورة الحج: ٦٣]، ولم يقل ﴿فأصبحت﴾ عطفا على ﴿أَنزَلَ﴾، إشارةً إلى أن إنزال الماء قد مضى وانقضى، أما اخضرار الأرض فهو متجدد، ويبقى زمنا، كما تقول: أنعم عليّ فلان عام كذا، فأروح وأغدو شاكرا له. ولو قلت: "فرُحْتُ وغدوتُ شاكرا له"، لم يفد تلك الفائدة. ويمكن أن تكون الفائدة هي استحضار الصورة البديعة[(١)].

ومنها التعبير بالمضارع بدل الماضي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [سورة الحج: ٢٥]، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ﴾ فعبر بالفعل المضارع ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ وعطفه على الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾، وعدل عن عطف الماضي على الماضي لأن كفرهم كان ووجد، ولم يستجِدّوا بعده كفرا ثانيا، تنبيها على أن كفرهم ثابت مستمر غير متجدد، بخلاف الصّد عن سبيل الله، فإنه لم يمض كونه، وإنما هو مستمر متجدد على ممر الأوقات وتكرر الساعات، يستأنف في كل حين[(٢)]، ويستفاد من ذلك أن الكفار من شأنهم صدّ الناس عن سبيل الله والمنع من الحج الى المسجد الحرام في كل زمن متى استطاعوا ذلك.

**العدول عن صيغة إلى صيغة أخرى:**

أعني بهذا العنوان ما يشمل العدول من صيغة صرفية إلى صيغة أخرى، مع كونه خلاف مقتضى الظاهر، ولم يكن مندرجا فيما تقدم.

ومن أمثلته: العدول عن التعبير ب "مرضع" إلى ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [سورة الحج: ٢]، فقد كان مقتضى الظاهر أن يقال: كل مرضع؛ لأن هذا الوصف من خصائص الأنثى، فلا يحتاج معه إلى الهاء التي أصل

---

(١) ينظر المثل السائر (٢/ ١٤٨)، والطراز (٢/ ٧٤)، والجدول في إعراب القرآن (١٧/ ١٤٠)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٤٤٥).

(٢) ينظر المثل السائر (٢/ ١٤٨)، والطراز (٢/ ٧٤)، وينظر الكشف والبيان (٧/ ١٥)، والكشاف (٣/ ١٥١)، والتسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٧).

وضعها للتفريق بين المؤنث والمذكّر مخافة اللبس[1]. ولكن عدل عنها لأن كلمة "مرضعة" أكثر إيحاءً ودلالة من "مرضع"؛ فكلمة "مرضعة" تدل على إرضاع طفلها وقت وقوع الحدث، لأن المرضعة تطلق على من تباشر الإرضاع فعلًا، بخلاف "المرضع" فإنها تطلق على من شأنها الإرضاع[2]، ولذلك اختير التعبير ب ﴿مُرۡضِعَةٍ﴾ لتشعر أن المرضعة متلبسة بالإرضاع، ومع ذلك فإنها لشدّة الهول في ذلك اليوم تذهل عن طفلها، فتنزع ثديها بعد أن ألقمته إياه، وتنشغل بما تراه عنه، وهذا أدل على الدهشة، وأكثر تجسيدًا لمواطن الذهول الذي يستولي على الناس آنئذ[3]. وذلك أن في حال ملابسة الإرضاع أبعد شيء عن الذهول، فإذا ذهلت عن رضيعها في هذه الأحوال دل ذلك على أن الهول العارض لها هول خارق للعادة[4].

ويؤخذ من هذه الآية أن الأهوال والشدائد قد تجعل الإنسان ينشغل عن أحب الناس إليه، وأن شدة الفزع قد تجعل الإنسان يذهل عما يفعله وهو في أعلى درجات التيقظ، وأن محبة الأم المرضعة لرضيعها وشفقتها عليه أشدّ من محبتها وشفقتها على غيره من أولادها، إلى غير ذلك مما تقدم في الهدايات الجزئية.

ومن أمثلته العدول عن التعبير الأوجز "ركبانا" الذي يقابل ﴿رِجَالٗا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [سورة الحج: ٢٧]، وذلك للدلالة على كثرة الآتين من الأماكن البعيدة[5]، وأن مطاياهم صارت ضامرة لبعد الشقة وعظم المشقة.

ومن أمثلته العدول عن التعبير بالفعل إلى اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾ [سورة الحج: ٢٦]، قال العلوي: (وإنما عدل إلى

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٩).

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٢).

(٣) ينظر صفوة التفاسير (٢/ ٢٦٠)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٢٨٨- ٢٨٩)، ووظيفة الصورة الفنية في القرآن (ص: ٤٠٥).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ١٨٩).

(٥) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٦/ ٢٩٢)، وروح المعاني (٩/ ١٣٨)، ومحاسن التأويل (٧/ ٢٤٠).

لفظ اسم الفاعل تجريدا له عن تعلق الأزمنة التي يدل عليها الفعل، وكان اسم الفاعل أحق لما فيه من الإشعار بالحدوث والتجدد، وتجرده عن الدلالة على الأزمنة، ثم ثلث بالركع السجود، وإنما جمعه جمع التكسير... لما ذكرناه من أن جمع السلامة في الطائفين والقائمين، فيه تنبيه على تجدد الطواف المختص بالبيت، والقيام، لأنه نوع منه، بخلاف الركوع والسجود، فإنهما لا يختصان بالبيت، بل كما يكونان فيه يكونان بغيره)[1].

ومن أمثلته العدول إلى البناء للمفعول في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الحج: ٤٢ – ٤٤]. فقد قال: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ﴾ [سورة الحج: ٤٤]، ولم يعطف على ما سبق ويقل: ﴿وقوم موسى﴾؛ لأن الذين كذبوه هم القبط[2]، أما قومه بنو إسرائيل فلم يكذبوه بأسرهم ومن كذبه منهم تاب إلا اليسير وتكذيب اليسير من القوم كلا تكذيب[3]. ولم يصرح فيقل: "وكذب القبط موسى"؛ للإيذان بأن تكذيبهم له عليه السلام في غاية الشناعة لكون آياته في غاية الوضوح[4]. فكأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم لرسولهم: (وكُذِّب موسى أيضا مع وضوح آياته وعظم معجزاته، فما ظنك بغيره؟)[5].

ومنها: العدول عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الحج: ٢٣]. فلم يقل:

---

(١) الطراز (٢/ ١٢٦).

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٦١)، تفسير أبي السعود (٦/ ١١٠)، وفتح القدير (٣/ ٥٤٢)، وروح المعاني (٩/ ١٥٨)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٣).

(٣) ينظر روح المعاني (٩/ ١٥٧).

(٤) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١١٠)، وروح المعاني (٩/ ١٥٨).

(٥) الكشاف (٣/ ١٦١).

﴿ويلبسون فيها حريرا﴾، وإنما عدل إلى التعبير بالجملة الاسمية فقال: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾، لتحصيل الدلالة على الثبات والاستمرار، كما دلت صيغة ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ على أن التحلية متجددة بأصناف وألوان مختلفة[١]، وفائدة العدول إلى صيغة الاسم هنا الدلالة على أن الحرير هو ثيابهم المعتادة، والإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غني عن البيان، وإنما المحتاج إلى البيان هو: ما هو لباسهم[٢]، فدلّ على أن جميع ما يلبسونه حرير كما تفيده هذه الإضافة[٣]. وكذلك من فوائده المحافظة على هيئة الفواصل.

**الإظهار في مقام الإضمار، وعكسه:**

درس علماء البلاغة ضمن تتبُّعِهم لموضوعات علم المعاني ظاهرةَ الخروج عن مقتضى الظاهر في الكلام البليغ، لداعٍ من الدواعي البلاغيّة. ومن ذلك الإضمار في مقام الإظهار، والإظهار في مقام الإضمار[٤].

وللإظهار في موضع الإضمار موقع عظيم وفائدة جزلة، وهو تعظيم حال الأمر المظهر والعناية بحقه[٥].

ومن أمثلته: الإظهار في موضع الإضمار في قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ [سورة الحج: ٤٤]، وحق العبارة أن يقال: فأمليت لهم. ولكنه أظهر الكافرين زيادةً في التشنيع عليهم، وإيماء إلى أن علة الإملاء لهم ثم أخذهم هو الكفر بالرسل، تعريضا بالإنذار لمشركي قريش[٦]. ويؤخذ من ذلك أن تأخير العقوبة الدنيوية خاص بالكفار.

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٣٣).

(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٢)، ونقله عنه الألوسي في روح المعاني (٩/ ١٣٠) وأقرّه.

(٣) فتح القدير (٣/ ٥٢٦).

(٤) البلاغة العربية (١/ ٤٧٨).

(٥) ينظر الطراز (٢/ ٧٩). وينظر فوائده في "البلاغة العربية" (٢/ ٩٨ - ٩٩).

(٦) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥١٩)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٣).

ومنها قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الحج: ٣٨]. إذ أظهر اسم الجلالة في تذييل الآية، وكان يمكن أن يقول: ﴿إنه لا يحب﴾. ولكن أظهره تفخيما لهذا الوعد وتأكيدا له.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الحج: ٥٣]. ولم يقل: ﴿وإنهم﴾، فذكرُ الظالمين إظهار في مقام الإضمار، للإيماء إلى أن علة كونهم في شقاق بعيد هي ظلمهم، أي كفرهم[(١)].

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله سبحانه: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ [سورة الحج: ٧١]، تسجيلًا عليهم باسم الظلم[(٢)]. وفائدته الإيماء أن سبب انتفاء النصير لهم هو ظلمهم، أي كفرهم[(٣)]. ومما يفيده ذلك أن الشرك أعظم الظلم، وأن المشرك مغلوب غير منصور.

ومنها: إظهار اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ [سورة الحج: ٣١]، مع أن المتوقع هو استعمال الضمير الراجع إلى الله تعالى ليناسب قوله تعالى قبلها: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ [سورة الحج: ٣١]، وإنما أظهره لإظهار تناهي الشرك بالله في القبح[(٤)].

ومنها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الحج: ٦١ – ٦٢]. فإننا إذا نظرنا إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٠٢).

(٢) تفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٤٤٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٣٤).

(٤) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٥)، وروح المعاني (٩/ ١٤٢).

ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾، سنجد المسند إليه قد ذكر مع أنه يمكن إقامة الضمير مقامه؛ تفاديًا من ذكر الضمير الذي يربط الجملة بالكلام السابق؛ لأن القصد إلى استقلالها لتصير كأنها مثلٌ[(١)].

ومنها: إيقاع الظاهر موقع المضمر في قوله: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ [سورة الحج: ٧٢]. والتعبير ب ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إظهار في مقام الإضمار. ومقتضى الظاهر أن يكون: ﴿تعرف في وجوههم﴾، فخولف مقتضى الظاهر للشهادة عليهم بوصف الكفر، والدلالة على عنادهم[(٢)]، وللإيماء إلى أن علة ما يظهر في وجوههم هو ما يبطنونه من الكفر[(٣)].

ومنها قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ [سورة الحج: ٧٢]، فالتعبير عنهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إظهار في مقام الإضمار، تنبيها على أن الكفر هو علة دخولهم النار[(٤)]. أي: وعدها الله إياكم لكفركم[(٥)]. ويستفاد من ذلك أن النار إنما يخلد فيها الذين كفروا بظواهرهم وبواطنهم، أو ببواطنهم دون أن يظهروا ذلك إذا لم يتوبوا.

ومنها: إظهار اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [سورة الحج: ٧٦]، حيث لم يقل: هو يصطفي من الملائكة رسلا، لأن اشتقاق اسم الجلالة يشير إلى أن مسماه جامع كل الصفات العلى تقريرا للقوة الكاملة والعزة القاهرة[(٦)]. ويستفاد منها أن المصطفِيَ كلما كان أعلم وأحكم، كان اختيارُه أجودَ وأقوم.

---

(١) خصائص التراكيب (ص: ١٩٠).

(٢) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٩٣)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٢٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٣٥).

(٤) ينظر الفواتح الإلهية (١/ ٥٦٢)، ونظم الدرر (١٣/ ٩٣)، وزهرة التفاسير (٩/ ٥٠٢٨).

(٥) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٣٧).

(٦) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٤).

ومن هذه المواضع التي يمكن أن نحملها على الإظهار في موضع الإضمار قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [الحج: ١٥]، فعلى أحد الأقوال في تفسير هذه الآية أنها تذييل لقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [سورة الحج: ١١] بعد أن اعترض بين تلك الجملة وبين هاته بجمل أخرى، فيكون المراد: أن الفريق الذين يعبدون الله على حرف هم قوم يظنون أن الله لا ينصرهم في الدنيا ولا في الآخرة إن بقوا على الإسلام. ويكون التعبير عن هذا الفريق بقوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ﴾ [سورة الحج: ١٥] إلخ إظهارًا في مقام الإضمار، فإن مقتضى الظاهر أن يؤتى بضمير ذلك الفريق، وإنما كان العدول عن الإضمار إلى الإظهار لوجهين:

أحدهما: بُعد معاد الضمير.

وثانيهما: التنبيه على أن عبادته لله على حرف ناشئة عن ظنه أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة إن أصر على الاستمساك بالإسلام، لأنه غير واثق بوعد النصر للمسلمين[(١)]، والله أعلم.

أما الإضمار في موضع الإظهار فأحدُ الموضعين الذين يكون فيهما هو ضمير الشأن أو القصّة، وهو ضمير الغائب الذي يقع قبل الجملة، ويسَمَّى ضمير الشأن إذا كان مذكّرًا، وضمير القصة إذا كان مؤنَّثًا، ويعود كلٌّ منهما إلى ما في الذهن من شأنٍ أو قصة، وذلك هو مضمون الجملة التي بعده[(٢)].

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢١٨).

(٢) البلاغة العربية (١/ ٥٠٧).

ويُستعملُ ضمير الشأن في الأمر الذي يُرادُ فيه التعظيم والتفخيم، أو التهويل، أو الاستهجان، أو نحو ذلك[(١)]. وهو يفيد التوكيد من ناحية أنه يثير النفس، ويدفعها إلى معرفة المراد منه، فإذا جاء تفسيره استقر في النفس وترسّخ فيها[(٢)].

ومن أمثلة ذلك في سورة الحج قوله تعالى بعد ما ذكر قصة المكذبين وإهلاكه القرى وهي ظالمة: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الحج: ٤٦]. فقوله: ﴿فَإِنَّهَا﴾ يجوز أن يكون ضمير القصة، وهو مفسر بالجملة بعده. ويجوز أن يكون ضميرا مبهما مفسَّرا بالأبصار، وفي ﴿تَعْمَى﴾ ضمير راجع إليه[(٣)]، ويكون من قبيل الإضمار قبل الذكر على شريطة التفسير[(٤)]. (وكأن الأصل: "فإنها الأبصار لا تعمى"، على أن جملة ﴿لَا تَعْمَى﴾ من الفعل والفاعل المستتر خبرٌ بعد خبر، فلما تُرِك الخبر الأول أقيم الظاهرُ مقامَ الضمير، لعدم ما يرجع إليه ظاهرا، فصار فاعلا مفسرا للضمير)[(٥)].

---

(١) البلاغة العربية (١/ ٥٠٧). قال صاحب الطراز (٢/ ٧٦): (فاعلم أن ضمير الشأن والقصة على اختلاف أحواله، إنما يرد على جهة المبالغة في تعظيم تلك القصة وتفخيم شأنها وتحصيل البلاغة فيه من جهة إضماره أولا، وتفسيره ثانيا، لأن الشيء إذا كان مبهما فالنفوس متطلعة إلى فهمه ولها تشوق إليه، فلأجل هذا حصلت فيه البلاغة، ولأجل ما فيه من الاختصاص بالإبهام لا يكاد يرد إلا في المواضع البليغة المختصة بالفخامة).

(٢) ينظر الإيضاح للخطيب القزويني (٢/ ٨٢)، ومن بلاغة القرآن (ص: ١١٧ – ١١٨).

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف (٣/ ١٦٢)، وتبعه الرازي (٢٣/ ٢٣٣)، والبيضاوي (٤/ ٧٤)، وأبو السعود (٦/ ١١١). ويحكى هذا الإعراب عن الأخفش كما ذكر صاحب الطراز (٢/ ١٠٩).

(٤) ينظر كلام الواحدي وما نقله عن أبي علي الفارسي في هذه المسألة، في البسيط (١٢/ ١٩٥ – ١٩٦).

(٥) حاشية الشهاب (٦/ ٣٠٢)، وروح المعاني (٩/ ١٥٩)، واعترض أبو حيان في البحر (٧/ ٥٢١) على الزمخشريّ في ذلك بأنه لا يجوز، لأن الضمير المفسر بمفرد بعده محصور في أمور وهي باب رب وباب نعم وبئس وباب الأعمال وباب البدل وباب المبتدأ والخبر، وما هنا ليس منها. ورُدّ بأنه من باب المبتدأ والخبر نحو: {إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا} [الأنعام: ٢٩]، ولا يضره دخول الناسخ، ولكن الشهاب الخفاجي قال: (وفيه نظر).

ولا شك أن للضمير هنا من الإثارة وتثبيت المعنى، ما لا يكون عند عدمه[(١)]. وسواء قلنا بالقول الأول أو الثاني في إعراب الضمير في الآية، فإن فائدته هي تهييء النفس لتلقِّي هذا المعنى الجليل الذي يفسر سبب عدم اعتبار المشركين بما يرونه بأبصارهم[(٢)]، ثم تمكينُه في نفس السامع بعد إظهاره لتشوقه إليه[(٣)].

**ذكر الخاص بعد العام أو العام بعد الخاص:**

من صور الإطناب: ذكر الخاص بعد العام، وفائدته التنبيه على مزيةٍ وفضلٍ في الخاص، حتى كأنه لفضله ورفعته ليْسَ من جنس العامّ أو نوعه، تنزيلًا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذّات[(٤)].

ومن صور الإطناب كذلك: ذكر العام بعد الخاص: وفائدته: إفادة العموم، مع الاهتمام بشأن الخاص لذكره في عنوان عام، بعد ذكره أوّلا في عنوان خاص[(٥)].

ومن أمثلة عطف الخاص على العام في سورة الحج قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [سورة الحج: ١٨]. إلخ بعد قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الحج: ١٨].

---

(١) ينظر "من بلاغة القرآن" (ص: ١٠٦). قال الجرجاني في "دلائل الإعجاز" (١/ ١٣٢ - ١٣٣) (قالوا: إنَّ الشيءَ إذا أُضْمِر ثمَّ فُسِّر، كان ذلك أفخمَ له مِنْ أن يُذكَر من غير تقدمة إضمار. ويدل على صحة ما قالوه أننا نعلم ضرورةً في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الحج: ٤٦] فخامةً وشرفًا وروعةً، لا نَجد منها شيئًا في قولنا: "فإن الأبصارَ لا تَعْمى"، وكذلك السبيلُ أبدًا في كلّ كلامٍ كان فيه ضميرُ قصة).

(٢) ينظر خصائص التراكيب (ص: ٢٤٣).

(٣) ينظر جواهر البلاغة (ص: ١١٠).

(٤) ينظر الإيضاح (٣/ ٢٠٠)، وعروس الأفراح (١/ ٦٠٧)، وجواهر البلاغة (ص: ٢٠٢)، وعلوم البلاغة للمراغي (ص: ١٩٣)، والبلاغة العربية (٢/ ٦٩)، وعلم المعاني (ص: ١٩٠).

(٥) ينظر جواهر البلاغة (ص: ٢٠٢)، والبلاغة العربية (٢/ ٦٩)، والمنهاج الواضح للبلاغة (٢/ ١٤٠)، وعلم المعاني (ص: ١٩١).

فقوله: ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾ عطفُ خاصٍّ على قوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ونص- سبحانه- عليها مفردا إياها بالذكر، لشهرتها، ولاستبعاد بعضهم حدوث السجود منها، ولأن آخرين كانوا يعبدون هذه الكواكب، فبين- سبحانه- أنها عابدة وساجدة لله، وليست معبودة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ عطف خاصٍّ على ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾. ونص- سبحانه- عليها- أيضا- لأن بعضهم كان يعبدها، أو يعبد ما يؤخذ منها كالأصنام[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [سورة الحج: ٢٥]. من عطف الخاص على العام؛ لأن المسجد الحرام من سبيل الله تعالى[2]. وفيه ما فيه من التنويه بشأن المسجد الحرام وبيان مكانته وفضل العبادة فيه.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٦٣]، فكلمة ﴿وَٱلۡفُلۡكَ﴾، معطوف على ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عطفَ الخاص على العام، تنبيها على غرابة تسخيرها وكثرة منافعها[3].

ومن أمثلة عطف العام على الخاص، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [سورة الحج: ٧٧]. فقد أمرهم أولا بخاص وهو الصلاة، وهي نوع من العبادة، ثم أمرهم بعامٍّ وهو العبادة، ثم أمرهم بأعمّ وهو: فعل الخير[4]. وتقديم الخاص

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٩٣).

(٢) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٨٦).

(٣) ينظر روح المعاني (٩/ ١٨٣).

(٤) ينظر البحر المحيط في التفسير (٧/ ٥٣٩)، وتفسير ابن عرفة (٣/ ٢٠٠)، والسراج المنير (٢/ ٥٦٧)، صفوة التفاسير (٢/ ٢٧٥)، والتفسير المنير (١٧/ ٢٨٢).

في الذكر إنما هو للعناية بشأن الخاص، وذكر العام بعده لإفادة العموم. ويستفاد من ذلك عظم شأن الصلاة وأنها رأس العبادات.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [سورة الحج: ٣٠]، فإن عبادة الأوثان رأس الزور لما فيها من ادعاء الاستحقاق[(١)]، والزور يشمله ويشمل غيره. وهو (تعريضٌ وإيماءٌ إلى بيان النوعين من قبائح المشركين، أحدهما: تحريمهم السوائب والحام والوصيلة، وتحليل الميتة والدم وغيرهما. وثانيهما: عكوفهم على عبادة الأوثان، فأتى بهما تخصيصًا بعد تعميم ليُؤْذِن بأنهما من أعظم أنواع المحرمات)[(٢)].

**التفصيل بعد الإجمال:**

من صور الإطناب: التفصيل بعد الإجمال، أو ما يسميه البيانيون: الإيضاح بعد الإبهام، وهو أن يورد المعنى مجملا لغرضٍ بلاغي، ثم يتبعه ببيان وتفصيل يوضحه ويُزيل عنه إجماله[(٣)].

وفائدته أن يرى المعنى في صورتين مختلفتين: إحداهما مجملة، والأخرى مفصلة، أو ليتمكن في النفس تمكنا زائدا، أو لتكمل اللذة بالعلم به، أو لتفخيم الأمر وتعظيمه[(٤)].

ومن أمثلته في مطلع السورة حيث أجمل شدة هول يوم القيامة فقال: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [سورة الحج: ١]، هكذا بصيغة الإجمال والإبهام لهذا الشيء العظيم، لزيادة التهويل والتخويف. ثم فصل تعالى في مظاهر هذا الشيء العظيم تفصيلا يزيد في وجل القلوب،

---

(١) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٧٠)، والسراج المنير (٢/ ٥٥١)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٥)، وروح المعاني (٩/ ١٤٢). ومن المفسرين من حمل قول الزور على العموم، وقال ابن عطية في المحرر الوجيز (٤/ ١٢٠): (والزُّورُ عام في الكذب والكفر، وذلك أن كل ما عدا الحق فهو كذب وباطل وزور). وينظر روح المعاني (٩/ ١٤٢).

(٢) فتوح الغيب (١٠/ ٤٧٨).

(٣) ينظر البلاغة العربية (٢/ ٦٦)، والتفسير بالبيان المتصل في القرآن الكريم (ص: ٧٠)، والفصل والوصل في القرآن الكريم (ص: ١٩٧)، وينظر أمثلة له في البرهان في علوم القرآن (٢/ ٤٧٨)، ومعترك الأقران (١/ ٢٧٣).

(٤) ينظر الإيضاح (٣/ ١٩٦ – ١٩٧)، وعروس الأفراح (١/ ٦٠٥)، وجواهر البلاغة (ص: ٢٠٢)، وعلوم البلاغة (ص: ١٩٢)، والبلاغة العربية (٢/ ٦٦)، والمنهاج الواضح للبلاغة (٢/ ١٣٩)، وعلم المعاني (ص: ١٨٨).

فقال: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [سورة الحج: ٢] (١).

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٢٢﴾ [سورة الحج: ١٩ – ٢٢]. ففيه تفصيل لما أجمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [سورة الحج: ١٧].

**الحذف:**

الحذف هو: ضرب من ضربي الإيجاز، وهو ما يحذف منه كلمة أو جملة أو أكثر، لوجود ما يدل على المحذوف من قرينة لفظية أو معنوية (٢).

وإنما يكون بحذف ما لا يخل بالمعنى، ولا ينقص من البلاغة، بل لو ظهر المحذوف لنزل قدر الكلام عن علو بلاغته، ولصار شيئا مسترذلا، ولكان مبطلا لما يظهر على الكلام من الطلاوة والحسن والرقة (٣).

والمحذوف: إما جزء من جملة، أو جملة، أو أكثر (٤).

ومن أمثلة الحذف في سورة الحج قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٥﴾ [سورة الحج: ٢٥]، فإن خبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف لدلالة آخر

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٧٣).

(٢) ينظر المثل السائر (٢/ ٢١٦)، والجامع الكبير (ص: ١٢٤)، وعروس الأفراح (١/ ٥٩١)، وجواهر البلاغة (ص: ١٩٩) وأساليب بلاغية (ص: ٢١٢) وعلم المعاني (ص: ١٧٨).

(٣) ينظر الطراز (٢/ ٥١).

(٤) ينظر الإيضاح (٣/ ١٨٤)، وعروس الأفراح (١/ ٥٩١).

الآية الكريمة عليه[(١)]، وقدره المفسرون المتقدمون: خسروا أو هلكوا[(٢)]. وتقديره عند بعض المفسرين: إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم، وكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك[(٣)]. ويستفاد من الآية أن كلَّ من كفر بالله وصدّ الناس عن دين الله وعبادته في المسجد الحرام لهم عذاب مضاعف فوق عذاب الكافرين، فهم أشنع الناس جرما، وأغلظهم إثما[(٤)]؛ وقد علل الأستاذ سيد قطب حذف الخبر هنا فقال: (ومن دقائق التعبير كذلك أن يحذف خبر "إن" في الجملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فلا يذكرهم مالهم؟ ما شأنهم؟ ما جزاؤهم؟ كأن مجرد ذكر هذا الوصف لهم يغني عن كل شيء آخر في شأنهم، ويقرر أمرهم ومصيرهم!)[(٥)].

ومنها: الحذف في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: ٧٦]؛ أي: ومن الناس رسلًا، حيث حذف من الثاني لدلالة الأول عليه[(٦)].

ومنها: الإيجاز في قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحج: ١٥]؛ فإن أكثر

---

(١) التفسير البسيط (١٥/ ٣٥٣).

(٢) ينظر الهداية (٧/ ٤٨٦٦)، والمحرر الوجيز (٤/ ١١٥)، وزاد المسير (٣/ ٢٢٩).

(٣) ينظر الكشاف (٣/ ١٥١)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢١٨)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٣٥). قال أبو حيان في البحر (٧/ ٤٩٨): "وخبر إن محذوف قدره ابن عطية بعد والباد خسروا أو هلكوا وقدره الزمخشري بعد قوله الحرام نذيقهم من عذاب أليم ولا يصح تقديره بعده لأن الذي صفة المسجد الحرام فموضع التقدير هو بعد والباد، لكن مقدر الزمخشري أحسن من مقدر ابن عطية، لأنه يدل عليه الجملة الشرطية بعد من جهة اللفظ، وابن عطية لحظ من جهة المعنى لأن من أذيق العذاب خسر وهلك".

(٤) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٣٣ - ٣٤).

(٥) الظلال (٤/ ٢٤١٨).

(٦) ينظر إعراب القرآن وبيانه (٦/ ٤٩٢)، وصفوة التفاسير (٢/ ٢٦٦)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٤٤٧).

المفسرين على أن الضمير يرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم [(١)]، والتقدير: إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، فمن كان يظن من حاسديه وأعدائه أن الله لن ينصره، ويُغيظه أنه يظفر بمطلوبه، فليستفرغ مجهوده في إزالة ما يغيظه، بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مد حبلا إلى سماء بيته فاختنق، فلينظر إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه؟[(٢)]. واختصر الكلام دلالة على أنه صلّى الله عليه وسلّم العلَم الذي لا يشتبه، وأن الكلام فيه وله ومعه وإن ذكر غيره بتبعية ذكره.

ومنها: حذف متعلق الفعل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [سورة الحج: ٢٦]، ف"إذ" متعلق بفعل محذوف تقديره: اذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ حين هيأنا لنبينا إبراهيم مكان بيتنا الحرام[(٣)]. ويستفاد من الآية استحباب تذكر نعم الله في بناء المقدسات وتيسير الشعائر والتذكير بها.

ومنها حذف المفعول في قوله تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [سورة الحج: ٥]، لتذهب النفس في تقديره كل مذهب مما يرجع إلى بيان ما في هذه التصرفات من عظيم قدرة الله وسعة حكمته [(٤)].

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٧٩)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٤١٧)، والكشف والبيان (٧/ ١١)، والتفسير البسيط (١٥/ ٣٠٧). روى الطبري (١٦/ ٤٨٠) عن التميمي قال: قلت لابن عباس: أرأيت قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج: ١٥]. قال: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدًا، فليربط حبلًا في سقف، ثم ليختنق به حتى يموت". وأخرجه الحاكم مختصرًا في المستدرك: (كتاب التفسير، تفسير سورة الحج، رقم ٣٤٥٣، ٢/ ٤١٨)، وصححه ووافقه الذهبي، وعلقه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٦٦) مختصرًا بصيغة جزم، فقال: وقال ابن عباس (بسبب): "بحبل إلى سقف البيت".

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٧)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٦٧).

(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥١١)، والهداية (٧/ ٤٨٧٢)، التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٠)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٦٩)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٣٠١).

(٤) ينظر نظم الدرر (١٣/ ١٠)، والتحرير والتنوير (١٧/ ١٩٩)، والتفسير الوسيط لطنطاوي (٩/ ٢٨٠).

ومنها: حذف المفعول في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥]، فقد حذف مفعول ﴿يُرِدْ﴾ ليتناول كلّ متناول، كأنه قال: ومن يرد فيه مرادًا ما مائلًا عن القصد ظالمًا نذقه من عذاب أليم[(١)].

ومنها: حذف المفعول في قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [سورة الحج: ٢٦]، وحُذِف متعلق التطهير إيذانا بالعموم[(٢)]، ويستفاد من الآية وجوب تطهير البيت الحرام وسائر المساجد من الشرك والمعاصي والبدع والخبائث وسائر ما لا يليق بها من كل خبث حسي أو معنوي.

ومنها: حذف المفعول في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [سورة الحج: ٣٨]. فقد حذف مفعول ﴿يُدَٰفِعُ﴾ اختصارًا لدلالة المقام على تعيينه؛ أي: غوائل المشركين وضررهم[(٣)]. ولم يذكر تعالى ما يدفعه عنهم ليكون أفخم وأعظم[(٤)].

ومنها: حذف المأذون فيه في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ [سورة الحج: ٤٠]. أي: أذن للذين يقاتلون في القتال[(٥)]، أو أذن لهم أن يقاتلوا[(٦)]؛ فحذف المأذون فيه لدلالة ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ عليه[(١)].

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٥١)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢١٨)، والبحر المحيط (٧/ ٥٠٠)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٢٩).

(٢) ينظر تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٦٣)، وتفسير الماتريدي (٧/ ٤٠٦)، والهداية (٧/ ٤٨٧٤)، والمحرر الوجيز (٤/ ١١٧)، والتسهيل (٢/ ٣٨)، وتفسير أبي السعود (١/ ١٥٨)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٤١)، وأضواء البيان (٤/ ٢٩٧).

(٣) ينظر تفسير القرطبي (١٢/ ٦٧)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٥٨)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٨)، وروح المعاني (٩/ ١٥٤).

(٤) ينظر البحر المحيط (٧/ ٥١٥).

(٥) وهو قول أبي علي الفارسي، ينظر الحجة للقراء السبعة (٥/ ٢٨١).

(٦) وهذا التقدير هو قول الفراء (٢/ ٢٢٧) والزجاج (٣/ ٤٣٠). وكلا التقديرين صواب.

ومنها: الإيجاز في قوله: ﴿۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [سورة الحج: ١٩]؛ أي: في دين ربهم[٢]، أو في شأنه وصفاته، فالكلام على حذف مضاف ظاهر[٣].

ومنها حذف حرف التعليل والمعلَّل في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾ [سورة الحج: ١٦]. فقد حذف هنا حرف التعليل ومعلَّله للعلم به، والمعنى: ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله آياتٍ بَيِّناتٍ، ولأنّ الله يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ أنزله كذلك مبينا[٤].

ومنها الحذف في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ٣٧]، فقد اختصر الكلام بأن ضُمِّن التكبير معنى الشكر، وعُدِّيَ تعْديته[٥]، فكان التقدير: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ شاكرين له ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۚ﴾[٦]. وفيه إشارة إلى وجوب استحضار نعمة الهداية وشكر الله عليها.

**الاكتفاء:**

الاكتفاء نوع من أنواع الحذف[٧]، وهو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكتفى بأحدهما عن الآخر، ويخص بالارتباط العطفي غالبا، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [سورة النحل: ٨١]، أي والبردَ. وإنما يكتفى بأحدهما لأن فيه نكتة تقتضي الاقتصار عليه[٨].

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٦٠)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢٨)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٦٨)، والبحر المحيط (٧/ ٥١٥)، والسراج المنير (٢/ ٥٥٤)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٧٣).

(٢) ينظر التفسير البسيط (١٥/ ٣٢٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٢٦)، والبحر المحيط (٧/ ٤٩٥).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢٩)، صفوة التفاسير (٢/ ٢٦٦)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٤٤٤).

(٤) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٤٥٦)، وغرائب القرآن (٥/ ٦٩).

(٥) الكشاف (٣/ ١٥٩).

(٦) نظم الدرر (١٣/ ٥٣).

(٧) ينظر البلاغة العربية (٢/ ٤٦).

(٨) البرهان في علوم القرآن (٣/ ١١٨).

ومن أمثلته في سورة الحج: الاكتفاء في قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [سورة الحج: ٥]، إذ لما بين كيفية خلق الإنسان بالتدريج إلى أن تتكامل أعضاؤه أراد أن يبين أن من الأجنة ما تدفعه الأرحام، ومنها ما يبقى إلى تمامه، فأسقط القسم الأول اكتفاء بالثاني فاستأنف قائلا: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ ﴾، والتقدير: فنسقط ما نشاء إسقاطه، ونقر في الأرحام ما نشاء بقاءه[(١)].

ويؤخذ منه أن بقاء الأجنة أو سقوطها من الأرحام معلق بالمشيئة الإلهية، وأن الأغلب هو أن يقر الله الأجنة حتى موعد ولادتها فضلا منه ورحمة.

ومنها الاكتفاء في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الحج: ١٦]؛ أي: يهدي من يريد ويضل من يريد[(٢)]. واكتفى به امتنانا بنعمة الهداية على العباد.

ومنها: الاكتفاء في قول الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الحج: ٣٧]، فجاء بواو العطف ليؤذن أن التقدير: فأنذر أيها الرسول المسيئين، وبشر المحسنين[(٣)]. وفيه دلالة على فضل الإحسان، وأنه يجدر بمن يعبد الله ويحج بيته أن يكون من المحسنين، وفيه إيماء لسوء صنيع من أساء أداء مناسك الحج وحرمانهم من الثواب لأنهم لم يأتوا بالحج وفق ما أمرهم الله تعالى.

ومنها الاكتفاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الحج: ٤٩]، أي وبشير، بدليل ذكر الفريقين في الآيات التي تتلو هذه الآية[(٤)]، وإنما طواه لأن الحديث مسوق إلى المشركين فقط، ولأن المقام للتخويف، ويلزم منه الأمن للمنتهى فتأتي البشارة[(٥)]. ويستفاد

---

(١) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٤)، وملاك التأويل (٢/ ٣٥٧)، وغرائب القرآن (٥/ ٦٥)، ونظم الدرر (١٣/ ١٠).

(٢) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٢٩١).

(٣) نظم الدرر (١٣/ ٥٤).

(٤) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٩٧).

(٥) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٦٧)، والبحر المديد (٣/ ٥٤٣).

من ذلك أن مهمة الرسل وهي البلاغ مع الإنذار والتبشير فحسب[1]. وان الدعوة يجب ألا تخلو من الإنذار والترهيب.

ومنها الاكتفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [سورة الحج: ٤٦]. ففي ذكر الآذان اكتفاء عن ذكر الأبصار، إذ يعلم أن القلوب التي تعقل إنما طريق علمها مشاهدة آثار العذاب كما أشار إليه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الحج: ٤٦]. فحصل من مجموع نظم الآية أنهم بمنزلة الأنعام، لهم وسائل الاستدلال وقد انعدمت منهم آثارها، فلهم قلوب لا يعقلون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها[2]. وفيه إشارة إلى أهمية الاستماع للأحداث والاتعاظ بها.

**التنكير:**

قد تُنكَّر بعض الكلمات من أجل فائدة بلاغية، بحيث يكون التنكير فيها أبلغ من التعريف[3].

ومن أمثلته تنكير كلمة ﴿مَنَٰفِعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [سورة الحج: ٢٨]، وجاءت منكَّرة للتعظيم والتفخيم دلالة على كثرة هذه المنافع وتنوعها بما لا يوجد في غيرها[4]. ويستفاد من ذلك أن الحج يتضمن منافع متعددة: تعبدية واقتصادية واجتماعية[1]، وأن عبادة الحج تختص بمنافع دينية ودنيوية عن غيرها من العبادات[2].

---

(١) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٨٦).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٩).

(٣) ينظر: الإيضاح (٢/ ٣٥ - ٣٩)، والطراز (٢/ ٨ - ٩)، وعروس الأفراح (١/ ٢٠٢ - ٢٠٦)، وجواهر البلاغة (ص: ١٣٥)، وعلوم البلاغة للمراغي (ص: ١٢٦ - ١٢٧).

(٤) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٧٠)، وفتوح الغيب (١٠/ ٤٧١)، وروح المعاني (٩/ ١٣٨)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٥).

ومن أمثلته تنكير كلمة ﴿شَيۡـًٔا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـًٔا﴾ [سورة الحج: ٥]، وهي نكرة في سياق النفي تعمُّ كلَّ معلوم، ويستفاد من ذلك أن ضعف العقل قد يصل في مرحلة متقدمة من العمر إلى أن لا يقبل أي معلومة جديدة[٣].

ومن أمثلته تنكير كلمة ﴿غَمٍّ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ﴾ [سورة الحج: ٢٢]، والتنكير للتفخيم، والمراد: من غم عظيم من غمومها[٤].

ومن أمثلته تنكير كلمة ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ [سورة الحج: ٧١]، والتنكير للتقليل[٥]، أي: حجةً واحدة من الحجج[٦].

**المبالغة:**

المبالغة هي: أن يذكر المتكلم وصفًا يزيد فيه، حتى يكون أبلغ في المعنى الذي قصده، وهي ضربان:

مبالغةٌ في الأخبار أو الوصف، بأن يخرج إلى حد الاستحالة. ومنه قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾ [سورة النور: ٣٥]. وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [سورة الأعراف: ٤٠].

ومبالغةٌ في الصيغة، باستعمال أحد صيغ المبالغة، نحو: صيغة فعّال، وفَعول، ومفعال[١].

---

(١) ينظر: نظم الدرر (١٣/ ٣٨)، والظلال (٤/ ٢٤١٨ - ٢٤٢٠)، والتفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠١٧)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٤٥)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٧٣).

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٢)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٢١)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٣٦)، البحر المحيط في التفسير (٧/ ٥٠٢)، وفتوح الغيب (١٠/ ٤٧١).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٢).

(٤) ينظر روح المعاني (٩/ ١٢٩).

(٥) ينظر روح المعاني (٩/ ١٨٩).

(٦) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٩٣).

فمن أمثلة المبالغة في الوصف قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ [سورة الحج: ٧٣]، أي للخلق، فهو بجوابه المقدر في موضع حال جيء به للمبالغة، أي لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه، فكيف إذا كانوا منفردين؟؟[٢].

ومن أمثلة استعمال صيغ المبالغة في الأسماء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ [سورة الحج: ٣٨][٣]. وإنما جاءت بهذه الصيغة لأن خيانة أمانة الله تعالى وكفران نعمته أمران عظيمان؛ أو لكثرة ما خانوا فيه من الأمانات وما كفروا به من النعم[٤].

وفي الآية إشارة إلى أن الإنسان مهما كان يستقلّ نعم الله عليه، ولا يستطيع شكرها حق الشكر، ولذلك وصف الله تعالى جنس الإنسان كله بأنه كفور[٥]. وفيها إشارة إلى أن الشرك بالله أعظم أنواع الخيانة، وأن الذي يخون عهد ربه يرتكب سائر الخيانات، وأن نقائص الإنسان بتكررها منه تبلغ مبلغا عظيما من القبح والفظاعة. وفيها إيماء إلى أن الخيانة منبع النقائص، ولذلك كانت المبالغة فيها أكثر[٦].

ومنها: صيغة المبالغة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾ [سورة الحج: ٦٦]، لأن كفرهم كان عن تعنت ومكابرة، ويجوز كون الكفور مأخوذا من كفر النعمة، وتكون المبالغة باعتبار آثار الغفلة عن الشكر[٧].

---

(١) ينظر التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٢٦)، ومعترك الأقران (١/ ٣١٣).

(٢) ينظر تفسير البيضاوي (٤/ ٧٩)، وروح البيان (٦/ ٦١).

(٣) صفوة التفاسير (٢/٢٧١)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٩٧).

(٤) ينظر حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي (٦/ ٢٩٨)، والتفسير المظهري (٦/ ٣٤٨)، وروح المعاني (٩/ ١٥٤).

(٥) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٩٧)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١١٨).

(٦) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٥٥).

(٧) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٢٦ – ٣٢٧)، وصفوة التفاسير (٢/ ٢٧٥)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٤٤٦).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الحج: ٥٣]، ووصف الشقاق بالبعد مع أن الموصوف به حقيقة هو معروضه للمبالغة[(١)]، أي أن شقاقَه بالغٌ مبلغًا قويا في البعد، تشبيها لانتشار الحقيقة فيه بانتشار المسافة في المكان البعيد[(٢)].

وقد جاءت صيغ المبالغة في أسماء الله الحسنى التي اختتمت بها عدد من آيات السورة، مثل: السميع، والبصير، والحميد، والشهيد، والعليم والحكيم، والحليم، والعفو والغفور، والرؤوف والرحيم والنصير، وهي كلها تدل على كمال صفات الله وتعالى.

ومن أمثلة المبالغة في الأفعال قول الله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾، أتى بصيغة التفعيل في: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟﴾ للمبالغة، فالتَّطَوُّف هو المبالغة في الطواف بأن يعدّدوه ولا يكتفوا بواحدة[(٣)]، وفيها دلالة على أن الطواف حول البيت يكون أكثر من مرة، أي سبعة أشواط كما بينت السنة النبوية[(٤)].

ومنها استعمال صيغة مضاعف الفعل الثلاثي في قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [سورة الحج: ٥]، فمخلّق مأخوذة من خلّق، وهو مضاعف خلَق، وإنما حسُن تضعيف الفعل هنا لأن الإنسان فيه أعضاء متباينة، وكل واحد منها مختص بخلق، فجاءت صيغة التخليق دلالة على تكرير الخلق، أي مخلوقة خلقا بعد خلق[(٥)].

---

(١) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١١٤)، وروح البيان (٦/ ٥٠) وروح المعاني (٩/ ١٦٦).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٠٢).

(٣) ينظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٦/ ٢٩٣)، وزهرة التفاسير (١/ ٤٧٧)، وبيان المعاني (٦/ ١٦٩)، والتفسير القرآني (٩/ ١٠٢٧).

(٤) قال ابن عمر رضي الله عنهما: ((قدم النبي صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين وطاف بين الصفا والمروة وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الصلاة، باب قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، ح ٣٠٧، ١/ ١٥٤)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الحج، باب جواز التحلل بالإحصار، ح ١٢٣٤، ٢/ ٩٠٦).

(٥) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٠٨)، والتحرير والتنوير (١٧/ ١٩٨).

ومنها قوله تعالى: ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ [سورة الحج: ٤٠] بتشديد الدال – في قراءة الأكثر[١] – للمبالغة في الهدم[٢]، أي لهدمت هدما ناشئا عن غيظ، بحيث لا يبقون لها أثرا[٣].

ونحوها قوله تعالى: ﴿فتخَطّفه﴾ على قراءة نافع[٤]، فقد أدغمت تاء الافتعال في الطاء – وهي فاء الفعل – للإشعار بالمبالغة في خطفه وتمزيقه[٥]، والله أعلم.

ومنها استعمال صيغة المفاعلة بدل الفعل لأنها أبلغ، ومنه قول الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [سورة الحج: ٣٨]. فقد جاء فيها ﴿يُدَٰفِعُ﴾ بدل "يدفع"، وصيغة المفاعلة مبالغة في الدفع، لأنّ من يغالب يجتهد كل الاجتهاد[٦]، فمعنى يدافع: أي يبالغ في دفع غائلة المشركين وضررِهم الذي من جُملته الصدُّ عَن سَبِيلِ الله، كما يبالغ من يغالب فيه، لأن فعل المغالب يجيء أقوى وأبلغ[٧]. ويستفاد من الآية الاطمئنان إلى دفاع الله عن عباده المؤمنين ونصرته لهم ما داموا ثابتين على إيمانهم، موقنين بنصرته، واثقين في كلاءته.

ويحتمل أن يكون استعمال صيغة المفاعلة للدلالة على تكرير الدفع[٨].

---

(١) وهي قراءة القراء ما عدا نافع وابن كثير، ينظر "السبعة" (ص ٤٣٨)، و"التبصرة" (ص ٢٦٧)، و"التيسير": (ص ١٥٧).

(٢) ينظر التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٤١).

(٣) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧٧).

(٤) ينظر "السبعة" (ص ٤٣٦)، والتبصرة (ص ٢٦٦)، والتيسير (ص ١٥٧).

(٥) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٥٥).

(٦) ينظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٦/ ٢٩٨)، والتفسير المظهري (٦/ ٣٣٠).

(٧) ينظر الكشاف (٣/ ١٥٩)، وتفسير أبي السعود (٦/ ١٠٨).

(٨) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٠٨)، وروح المعاني (٩/ ١٥٤).

ومما يفيد المبالغة: إيراد صيغة التفضيل في قوله تعالى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ [سورة الحج: ١٣] مع خلو المعبود الباطل عن النفع بالكلية، للمبالغة في استهجان حاله، والإمعان في ذمه[(١)].

**الاحتراس:**

الاحتراس هو: (أن يكون الكلام محتملا لشيء بعيد، فيُؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال)[(٢)]. ويسمى كذلك ب: التكميل.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [سورة الحج: ٢] احتراس؛ لأنه سبحانه قال قبلها: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [سورة الحج: ٢]، فأفاد أن سكرتهم باعتبار ما نالهم من العذاب، فوجوده لوجود العذاب، ونفيه باعتبار ذاته[(٣)].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [سورة الحج: ٦٥]، فجاءت الآية بالاستثناء ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ على سبيل الاحتراس جمعًا بين الامتنان والتخويف، وفيه إشارة إلى أن الناس يجب عليهم أن يتقوا ربهم، ويكونوا شاكرين مستزيدين من النعم، خائفين من غضب ربهم أن يأذن لبعض السماء بالوقوع عليهم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: ١٨]. فالآية تجمع بين السجود الحقيقي والمجازي، ولأن السجود بمعناه المجازي يشمل الناس جميعا،

---

(١) ينظر فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٢١)، وروح المعاني (٩/ ١٢٠)، ومحاسن التأويل (٧/ ٢٣٦)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٢٩٠).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٦٤). وينظر الإيضاح (٣/ ٢٠٨). وعرّفه صاحب إعراب القرآن وبيانه (٤/ ٣٦٣): (أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه فيه دخل فيفطن لذلك حال العمل فيأتي في أصل الكلام بما يخلصه من ذلك).

(٣) تفسير ابن عرفة (٣/ ١٧٩).

احترس بإثبات السجود لكثير من الناس لا لجميعهم، دلالة على أن المراد في حقهم هو السجود الحقيقي[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [سورة الحج: ٣٠]، ففيه احتراس من جهة أن قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾، تعظيم للكعبة، فاحترس من ذلك، ونبه على أنه ينبغي لهم أن يعتقدوا أن الطواف بالكعبة لَا لذاتها، بل لكونها من شعائر الله، فتعظيمها تعظيمٌ لله عزّ وجلّ[2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠]. ففي وصف الله تعالى بالقوة والعزة في ختام الآية احتراس: أي لَا تتوهموا أن الله يحتاج إلى جهادكم للكفار، بل هو قادر على رفع أذاهم عنكم، وإنما جرت عادته بترتيب الأسباب على مسبباتها[3]. ويؤخذ منه وجوب التوكل على الله سبحانه، والاعتماد على قوته وعزته، وعدم الركون إلى الأسباب.

**المقابلة:**

المقابلة هي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابِل ذلك على الترتيب[4].

ومنها: المقابلة البديعة بين قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ [سورة الحج: ١١]، وقوله: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [سورة الحج: ١١][5]. وهي صورة تظهر لنا أهمية الثبات على الدين، وتحملنا على الاستقامة والصبر على طاعة الله وأقداره المؤلمة، والتعوذ بالله من الحوْر بعد الكوْر.

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١/ ٩٩)، (١٧/ ٢٢٦).

(٢) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٨٧).

(٣) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٩١).

(٤) ينظر التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٢٥)، وعروس الأفراح (٢/ ٢٣١)، وعلوم البلاغة للمراغي (ص: ٣٢٢)، وعلم البديع لعبد العزيز عتيق (ص: ٨٦).

(٥) صفوة التفاسير (٢/ ٢٦٠)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٢٩٠).

ومنها: المقابلة اللطيفة بين قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠﴾ [سورة الحج: ٥٠]، وقوله بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾ [سورة الحج: ٥١] (١).

وكذلك المقابلة بين قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦﴾ [سورة الحج: ٥٦]. وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾ [سورة الحج: ٥٧]، كأنه قيل: وأما الذين كفروا، لأنه لما تقدم ثواب الذين آمنوا كان المقام مثيرا لسؤال من يترقب مقابلة ثواب المؤمنين بعقاب الكافرين وتلك المقابلة من مواقع حرف التفصيل: الفاء (٢).

ويستفاد منه كمال حال المؤمنين، واستقامة أمرهم على الإيمان والعمل الصالح، وعظم ثوابهم، بخلاف الكفرة المكذبين.

وقريب منه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [سورة الحج: ٦٢]. وفيه لون من ألوان البديع: العكس، وهو أن يُؤْتَى بأجزاء تالي الكلام على عكس ما جاء في أجزاء مُقدَّمِه (٣). وقد قدّم في صدر الآية الليل، وأخّر النهار، ثم قدم النهار وأخر الليل، وجمال العكس في أنه يربط بين أمرين، ويعقد بينهما أوثق الصلات أو أشد ألوان النفور (٤). وفيه إشارةٌ إلى نعمة تعاقب الليل والنهار، ونعمة اختلافهما على ممرّ الفصول زيادةً ونقصًا، وفيه إيماءٌ إلى شكر الله تعالى على هذه النعمة التي يشاهدها الناس جميعا، لأنه سبحانه هو المنفرد بها.

---

(١) صفوة التفاسير (٢٧١)، وتفسير حدائق الروح والريحان (١٨/ ٣٩٧).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣١٠).

(٣) ينظر البلاغة العربية (٢/ ٤٤٠).

(٤) من بلاغة القرآن (ص: ١٤٤).

## الفصل الثالث: واقع الأمة في ضوء هدايات آيات السورة، وأثر ذلك عليها.

### المبحث الأول: واقع الفرد وا لمجتمع من هدايات آيات السورة.

**تمهيد:**

لم ينزِل القرآن الكريم ليمتع الناس بأسلوبه، أو يُسلّيَهم بقصصه، أو ليترنّم أصحاب الأصوات الحسنة بتلاوته، وإنما أُنزل من أجْلِ غاية أعظمَ وأجَلّ، وهي أن يهتدي به الناس، ويعملوا به ليسعدوا في حياتهم الدنيا، ويفوزوا بالنعيم ورضوان الله في الدار الآخرة.

وقد أمرنا الله تعالى باتباعه فقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [سورة الأعراف: ٣]. وأثنى على المؤمنين ووصفهم باتباع كتابه، فقال: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ [سورة الزمر: ١٧ – ١٨]. فهو يتضمن منهجَ حياة متكاملا، والواجب على الناس أن يمتثلوا ما أمرهم الله به فيه، وأن يجتنبوا ما نهاهم عنه، فيُحِلُّوا حلاله، ويُحَرِّموا حرامَه، ويُحكِّموه ويتحاكموا إليه، ويأخذوا بما يتضمنه من توجيهات في كل صغيرة وكبيرة، وقد كان النبيُّ –صلى الله عليه وسلم – الذي نزل عليه هذا الكتاب لتبليغه للخلق أولَ من عمل به، ولم تجد زوجه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وصفا جامعا له أوجز من أن تقول: ((كان خلقُه القرآنَ))[1].

وحين نتأمل هدي الصحابة الكرام رضوان الله عليهم في التعامل مع القرآن الكريم، فإنَّنا نجد أن منهجهم في تلقِّيه وتَلقِّي أحكامه وشرائعه يَختلف تمامًا عن تلقِّي كثيرٍ من المسلمين اليوم له؛ فقد كانوا يتلقونه التلقّيَ الإيمانيَّ العمَليّ، فقد كان القرآنُ دستورهم ومرجعهم في جميع

(١) أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد في مسنده برقم (٦/ ٩١، رقم ٢٤٦٤٥) و(٦/ ١٦٣، رقم ٢٥٣٤١)، و(٦/ ٢١٦، رقم ٢٥٨٥٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه بنحوه من حديث طويل: (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ح ٧٤٦، ١/ ٥١٢ – ٥١٣).

شؤونهم؛ وكان اتِّباعُه والعمل به في جوانب الحياة كلها أمرًا مسلّما لا يُختلف عليه، سواء في ذلك الصغير والكبير والحاكم والمحكوم والفرد والمجتمع.

ذلك أن آياتِ القرآن كانت تنزل فتُحَدثِّهم عما في نفوسهم، وتصوِّر لهم ما هم فيه من الأمر، وتبين لهم ما سيعملونه في كل موقف، وتصحح لهم أخطاءهم في الشعور والقول والعمل، وتربطهم بالله، وتعرفهم بصفاته المؤثرة في الكون، فيحسون حينئذ أنهم يعيشون مع الملأ الأعلى تحت عين الله سبحانه.

ولم يكُن الجيل الأوَّل من المسلمين يقرأون القرآن لمجرد الاطّلاع، أو بقصْد الاستمتاع، ولم يكن أحدهم يتلقَّى القرآن ليستكثِر به من المعارف، وإنَّما كان يتلقَّى آياته ليعمل بأمر الله في خاصَّة نفسه، وفي شأن الجماعة الَّتي يعيش فيها، وشأن الحياة الَّتي يَحياها معهم[1].

(هذا الشعور – شعور التلقّي للتَّنفيذ – كان يفتح لهم من القرآن آفاقًا من المتاع وآفاقًا من المعرفة، لم تكُن لتُفْتَح عليهم لو أنَّهم قصدوا إليْه بشعور البحث والدِّراسة والاطِّلاع، وكان ييسِّر لهم العمل، ويخفِّف عنهم ثقل التَّكاليف، ويخْلط القرآن بذواتِهم، ويُحوِّله في نفوسهم وفي حياتِهم إلى منهج واقعيّ، وإلى ثقافة متحرِّكة لا تبقى داخل الأذْهان ولا في بطون الصَّحائف، إنَّما تتحوَّل آثارًا وأحداثًا تُحَوِّل خطَّ سير الحياة)[2].

فإذا نزل الأمر الإلهي فإنهم يتلقونه ويعملون به فوْرَ سماعِه، كما يتلقَّى الجندي في الميدان "الأمر اليومي" ليعمل به فور تلقّيه[3]. فهذا أنس بن مالك رضي الله عنه يروي أنه كان يدير كؤوس الخمر قبل تحريمها على جمع من الصحابة حتى مالت رؤوسهم من السُّكْر، فينادي منادٍ: "ألا إن الخمر قد حُرِّمَتْ"، قال: ((فما دخل علينا داخلٌ ولا خرج منا خارجٌ حتى أهرقنا

(١) ينظر معالم في الطريق، سيد قطب (ص ١٤).

(٢) المرجع السابق (ص ١٥).

(٣) المرجع نفسه (ص ١٥).

الشرابَ وكسرنا القِلال، وتوضأ بعضُنا، واغتسل بعضُنا، وأصبنا من طِيبِ أم سُلَيْم، ثم خرجنا إلى المسجد))[1].

وتروي عائشة ـ رضي الله عنها كيف تلقَّت نساء الأنصار الأمر الإلهي بالستر، فقالت: ((والله ما رأيت أفضلَ من نساء الأنصار، ولا أشدَّ تصديقاً لكتاب الله، ولا إيماناً بالتنزيل، لقد أُنزِلت سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [سورة النور: ٣١]، فانقلب رجالُهن إليهنّ يتلون عليهنّ ما أَنزَل الله إليهنّ فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وكلِّ ذي قرابته؛ فما منهنّ امرأةٌ إلا قامت إلى مِرْطها المرحَّل فاعْتجَرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحْن وراء رسول الله -صلى الله عليه وسلم - مُعتجِراتٍ كأنّ على رؤوسهن الغِربان))[2].

ويروي أنس بن مالك رضى الله عنه ((أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يصلي نحو بيت المقدس، فنزلت: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [سورة البقرة: ١٤٤]، فمرَّ رجل من بنى سَلِمة وهم ركوعٌ في صلاة الفجر، قد صلَّوْا ركعة، فنادى: ألا إن القبلة قد

---

(١) رواه البزار في مسنده البزار (١٣/ ٤٨٢، رقم ٧٢٨٨)، وقال: (وهذا الحديث لا نعلم رواه عن قتادة إلا عباد بن راشد، وهو رجل من أهل البصرة مشهور)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٥٢): (ورجاله ثقات).

(٢) رواه بهذا اللفظ ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٥٧٥، رقم ١٤٤٠٦)، ونقله عنه ابن كثير في تفسيره (٦/ ٤٦). ورجال سنده ثقات، ولكن فيه الزنجي بن خالد، واسمه مسلم، وهو ضعيف من قبل حفظه؛ لكنه قد توبع عند ابن مردويه في تفسيره كما في "تخريج أحاديث الكشاف" للزيلعي (٢/ ٤٣٢). وله شواهد: فقد رواه البخاري في صحيحه (كتاب التفسير، سورة النور، رقم ٤٤٨٠، ٤/ ١٧٨٢)، عنها بلفظ: (يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١)، شققن مروطهن فاختمرن بها). وأخرجه كذلك أبو داود في سننه (كتاب اللباس، باب في قوله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، ح ٤١٠٢، ٤/ ٦١)، فالحديث حسن لغيره إن شاء الله.

حولت، فمالوا كما هم ركوعا إلى الكعبة))[1]. وهذه الروايات ظاهرة في الدلالة على نظرة الصحابة للتكاليف الربانية، وسرعة استجابتهم لها، والعمل بمقتضياتها.

ومن ثَم لم يكن الصحابة يستكثرون مما يحفظونه في الجَلسة الواحدة، وذلك حتى يتمكنوا من فهمه والعمل به. وهذا ما أفصح به عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حين قال: (كان الرجل مِنّا إذا تعلم عشر آياتٍ لم يجاوزْهن حتى يعرف معانيَهنّ والعملَ بهنّ)[2]، وقد بلّغوا هذا المنهج إلى التابعين ليعملوا به، ولذلك قال أبو عبد الرحمن السلميُّ رحمه الله: (حدثنا الذين كانوا يُقرِئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وسلم، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات، لم يُخْلِفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآنَ والعمل جميعا)[3].

ولم يكن إقلالُهم من مقدار المحفوظ عجزاً منهم عن الحفظ، وإنما لأنهم كانوا يرون أن زيادة عدد الآيات يقتضي زيادة التكاليف التي يجب عليهم أن يعملوا بها. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً، فأتى على رجل من أحدثهم سناً، فقال: ما معك يا فلان، قال معي كذا وكذا وسورة البقرة: قال: أمعك سورة البقرة؟ فقال: نعم، قال:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب المساجد، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، رقم ٥٢٧، ١/ ٣٧٥).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (١/ ٧٤)، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه لتفسير الطبري (١/ ٨٠)، إلا أن فيه الأعمش، وهو مدلس، وقد عنعن.

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١/ ٧٤) بهذا اللفظ، وصحح إسناده الشيخ شاكر (١/ ٨٠). ورواه بنحوه: ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١١٧، رقم ٢٩٩٢٩)، وأحمد في المسند (٥/ ٤١٠، رقم ٢٣٥٢٩)، وابن سعد في الطبقات (١٧٢/٦)، والحاكم في المستدرك (كتاب فضائل القرآن، أخبار في فضائل القرآن جملة، ح ٢٠٤٧، ١/ ٧٤٣)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي. ولكن قال الأرنؤوط في تحقيقه للمسند (٣٨/ ٤٦٦، رقم ٢٣٤٨٢): (إسناده حسن من أجل عطاء)، يعني عطاء بن السائب، وكان قد اختلط في آخر عمره كما نبه الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٦٥، رقم ٧٥٣).

فاذهب فأنت أميرهم. فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها...))[1].

وقد وجدنا كبار الصحابة وأئمة السلف يشتد نكيرهم حين يرون غياب هذا النهج الراشد في التعامل مع القرآن؛ يقول ابن عمر رضي الله عنهما: (لقد عشنا بُرهة من دهرنا وإن أحدنا يُؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فيتعلَّم حلالَها وحرامَها، وما ينبغي أن يوقف عنده فيها كما تَعلَّمون أنتم القرآن)، ثم قال: (لقد رأيت رجالا يُؤْتى أحدُهم القرآنَ قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ما يدري ما آمرُه ولا زاجرُه، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، ينثرُه نثْرَ الدقَل[2][3].

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (إنا قومٌ أوتينا الإيمان قبل أن نُؤْتى القرآن، وإنكم قوم أوتيتم القرآنَ قبل أن تُؤْتَوا الإيمان)[4].

---

(١) رواه الترمذي في سننه: (أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، ح ٢٨٧٦، ٥/ ١٥٦)، وقال: (حديث حسن). قال محقق جامع الأصول (٨/ ٤٧٢): (وفي سنده عطاء مولى أبي أحمد، لم يوثقه غير ابن حبان، قال الحافظ في "التهذيب": (قرأت بخط الذهبي: لا يعرف)، ولذلك ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ص: ٣٤٢، رقم ٥٤١).

(٢) الدّقَل: هو رديء التمر ويابسه، وما ليس له اسم خاص، فتراه ليبسه ورداءته لا يجتمع، فإذا نثر تفرق وانفردت كل ثمرة عن أختها (الفائق في غريب الحديث: ٢/ ٤، والنهاية لابن الأثير: ٢/ ١١٩).

(٣) أخرجه الحاكم: (كتاب الإيمان، ح ١٠١، ١/ ٩١)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (كتاب الصلاة، باب البيان أنه إنما قيل: يؤمّهم أقرؤهم، ح ٥٢٩٠، ٣/ ١٧٠)، وابن منده في "الإيمان" (٢/ ٣٦٩ – ٣٧٠، رقم ٢٠٧) والهروي في "ذم الكلام" (٥/ ١٤٣، رقم ١٤٥٨ – الغرباء). وأخرجه النّحاس في "القطع والائتناف" (ص٨٧)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤/ ٨٤، رقم ١٤٥٣). وقد صححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال: (على شرطهما ولا علة له). وقال ابن منده: (هذا إسناد صحيح على رسم مسلم والجماعة؛ إلا البخاري)، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٦٥) إلى الطبراني في الأوسط، وقال: (ورجاله رجال الصحيح).

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في التفسير (١/ ٢٠٦، رقم ٤٨). ومن طريقه البيهقي في سننه الكبرى: (كتاب الصلاة، باب البيان أنه إنما قيل: يؤمّهم أقرؤهم، ح ٥٢٩١، ٣/ ١٧١)، ورجاله ثقات، إلا أن فيه انقطاعا بين أبي السفر وحذيفة، لكنه حسن لغيره لوجود شاهد عند ابن أبي شيبة في "المصنف" (١٥ / ١٩ رقم ١٨٩٨٥).

وقال جُنْدُب بن عبد الله رضي الله عنه: (كنا غِلْمانا حَزَاوِرةً[1] مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيُعلِّمنا الإيمانَ قبل القرآن، ثم يعلمنا القرآن، فازددنا به إيمانا، وإنكم اليوم تَعلَّمون القرآنَ قبل الإيمان)[2].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (إنَّا صَعُب علينا حفظ ألفاظ القرآن وسهل علينا العمل به، وإن مَنْ بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به)[3]. وقال: (ليس حفظ القرآن بحفظ الحروف، ولكن بإقامة حدوده)[4].

وقال الحسن البصري رحمه الله: (إن هذا القرآن قد قرأه عبيدٌ وصبيان لا علم لهم بتأويله، ولم يتأولوا الأمر من قِبَل أوّله[5]، وقال الله عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ص: ٢٩]، وما تدبر آياته إلا اتباعه بعمله، والله يعلمه، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفا!! وقد أسقطه – والله – كله، ما بدا له القرآن في خُلُق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفَس!! والله ما هؤلاء بالقراء، ولا العلماء، ولا الحكماء، ولا الورَعة، متى كانت القراء تقول مثل هذا؟! لا أكثر الله في الناس مثل هذا)[6].

---

(١) حزاورة: جمع حزْوَر وحزَوَّر، وهو المراهق، والتاء لتأنيث الجمع. (الفائق: ١/ ٢٨٠ –٢٨١).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه مختصرا: (المقدمة، باب في الإيمان، رقم ٦١، ١ / ٢٣)، وقال البوصيري في "الزوائد" (١/ ٥٥): (هذا إسناد صحيح رجاله ثقات)، وصححه الألباني في "صحيح سنن ابن ماجه" (رقم: ٥٢ – المكتب الإسلامي). وأخرجه ابن منده في "الإيمان" (٢/ ٣٧٠ رقم ٢٠٨). والبيهقي في "السنن الكبرى" (كتاب الصلاة، باب البيان أنه إنما قيل: يؤمّهم أقرؤهم، ح ٥٢٩٢، ٣/ ١٧١)، واللفظ له. ولفظ الباقين نحوه، إلا أنهم لم يذكروا قوله: ((وإنكم اليوم تعلمون القرآن قبل الإيمان)).

(٣) تفسير القرطبي (١/ ٤٠)، وعزاه لأبي بكر الأنباري.

(٤) الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (ص ٥٧).

(٥) في التفسير من سنن سعيد بن منصور (٢/ ٤٢٢) هنا: (إن أحق الناس بهذا القرآن من رئي في عمله).

(٦) رواه سعيد بن منصور في التفسير (٢/ ٤٢٢، رقم ١٣٥)، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص: ٢١٣)، والفريابي في فضائل القرآن (ص: ٢٤٦، رقم ١٧٧)، واللفظ له، والآجري في "أخلاق أهل القرآن" (ص: ١٠٠،

ولقد حرص السلف الصالح رضوان الله عليهم على أن ينقلوا وجوب الاهتمام بالعمل بكتاب الله إلى تلاميذهم، والأجيال التي ترث الكتاب من بعدهم: فعن أبي عبد الرحمن السلمي رحمه الله أنه كان إذا ختم عليه الخاتم القرآنَ أجلسه بين يديه، ووضع يده على رأسه، وقال له: (يا هذا، اتق الله، فما أعرف أحداً خيراً منك إن عمِلتَ بالذي عَلِمْت)[(١)].

وقال الفُضيل بن عياض رحمه الله لجلسائه: (إنما نزل القرآن ليُعمَل به، فاتخذ الناس قراءتَه عملاً، فقيل له: كيف العمل به؟ قال: أي ليحلوا حلاله، ويحرموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه)[(٢)]. وأرشد محمد بن كعب القُرَظي رحمه الله أصحابَه إلى سبيل التلقي المسدَّد للقرآن الكريم فقال: (من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله، وإذا قدّر ذلك لم يتخذ دراسةَ القرآن عملَه، بل يقرؤه كما يقرأ العبدُ كتابَ مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله، ويعمل بمقتضاه)[(٣)].

وذكر بعض القراء من السلف أنه قرأ القرآن على شيخ له حتى أتمه، ثم رجع ليقرأ عليه ثانيةً فانتهره، وقال: (جعلت قراءة القرآن عليّ عملاً؟!! اذهب فاقرأ على الله عز وجل، فانظر بماذا يأمرك، وبماذا ينهاك)[(٤)].

وحين ننظر إلى حال الأمة ونقيِّم أوضاعها نجد أن فيها أمراضاً وانحرافاتٍ ومنكراتٍ تجب معالجتها والسعي في إزالتها، غير أن الإفراط في الحديث عن جوانب القصور والتفريط ربما يتحول إلى خطر إذا صاحبه الرضا بالضعف والقنوط من الإصلاح، ذلك أنه لا يقدم له

---

رقم ٣٤)، و"الزهد والرقائق" لابن المبارك و"الزهد" لنعيم بن حماد (١/ ٢٧٤، رقم ٧٩٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٠٩، رقم ٢٤٠٨).

(١) تفسير القرطبي (١/ ٧).

(٢) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص: ٧٦).

(٣) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٥).

(٤) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٦). وذكره ابن عطية في تفسيره (١/ ٣٩): (اتخذتَ القراءة عليّ عملًا، اذهب فاقرأه على الله تعالى في ليلك، وانظر ماذا يُفْهِمُك منه فاعمل به).

علاجاً ولا يمنحه دواء، وإنما يزيد المجتمع وهناً، ويورثه يأساً، ويصور الواقع أنه أمر محتوم لا مفر منه، ولا سبيل لتغييره، وأن محاولة الإصلاح ضرب من العبث، وإهدار للجهد فيما لا فائدة فيه.

ولهذا حذر النبي صلى الله عليه وسلم من النظرة التشاؤمية والحكم بالهلاك على الناس كلهم لكونه مبعثًا لليأس والقنوط، فقال: ((إذا قال الرجل: هلك الناسُ، فهو أهلكهُم))[1]. على الروايتين، فهو (أهلكَهُم) بفعله حيث نشرَ اليأس بينهم، وهو (أهلكُهُم) وأشدُّهم هلاكاً، حيث قال هذا الكلام معبرا عن إعجابه بنفسه، واغتراره بحاله[2].

**واقع الأمة في جانب توحيد الله والإيمان به:**

تبين لنا مما تقدم في الباب السابق أن من أعظم الهدايات الكلية للسورة: وجوبَ الإيمان بوحدانية الله تعالى، وتوحيده وإفراده بسائر وجوه العبادة، وتجنب الشرك بجميع صوره الجلية والخفية.

أما واقع الأمة في هذا الجانب فله وجهان: أولهما إيجابي، والثاني سلبي.

أما الوجه الإيجابي: فبفضل الله تعالى انتشرت الدعوة إلى التوحيد في جميع بلاد الإسلام، وصار كثير من المسلمين يعلمون ما يجب عليهم تجاه الله تعالى من إفراده بجميع مظاهر العبادة، وأصبحوا عارفين بكثير من المظاهر الشركية التي يجب عليهم تجنبها. وقد انتشرت الكتب التي تتضمن الإرشاد إلى توحيد الله تعالى، واهتم عدد من الدعاة بتعليم التوحيد للناس، وتنبيههم على ما قد يقعون فيه من أخطاء قد تُفضِي بهم إلى الشرك الظاهر أو الخفي.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه: (كتاب البر الصلة، باب النهي من قول: هلك الناس، ح ٢٦٢٣، ٤/ ٢٠٢٤). وأبو داود في سننه: (كتاب الأدب، باب لا يقال: خبثت نفسي. ح ٤٩٨٣، ٤/ ٢٩٦).

(٢) ينظر مقال "بين منابر اليأس وينابيع الأمل"، سلمان بن عمر السنيدي، مجلة البيان، عدد ١٩٠ (ص ٢٨).

أما الوجهُ السلبيُّ فما زالت هنالك فئامٌ من المسلمين يجهلون مقتضيات التوحيد، وما زالت هنالك مظاهر تدل على بقاء ما ينافي توحيد الله والإيمان به في بعض البلاد، ومن هذه المظاهر:

**١ – عودة انتشار الإلحاد، لا سيما في صفوف الشباب:** وقد ظهر في وسائل التواصل الاجتماعي من يعلن إلحاده ويروّج له ويدافع عنه، ويعرض الشبهات التي تشكك الناس في ثوابت الدين وأصول الإيمان، وعلى رأسها وجود الله عز وجل. ولا شك أن إنكار وجود الله تعالى كفر صريح، ومنافاة للأس الذي ينبني عليه الدين.

ومتى استولى الإلحاد على قلب الواحد من هؤلاء الشباب فإنه يطيش به إلى حالة الفجور والطغيان، ومجاوزة الحد في الكفر والفسوق والعصيان، فيمقت الدين، ويهزأ بالمصلين. ومتى جهر هؤلاء بإلحادهم في بلاد المسلمين وأمِنوا من العقوبة على ما يقولون، فإنهم حينئذ يُفيضون بألوان من الطعن في الدين، بإلقاء الشبهات والشكوك التي تزيغ العوامَّ وضعاف العقول عن معتقدهم الصحيح ودينهم القويم، ثم تقودهم إلى الإلحاد والزيغ عن سواء السبيل، فيصيرون فتنةً في الأرض وفسادا كبيرا.

وقد لا يصل الأمر إلى درجة الإلحاد الصريح، ولكن قد يتّبع بعض الشباب مذهب "اللاأدرية"، أو مذهب "الشكاك"، وربما يتصرف هذا الصنف أمام الناس بتصرفات المسلمين، ويسير على سلوكهم وطريقتهم، بينما يضمر في صدره حقدا على دينهم وثقافتهم، ويتشكك في ثوابتهم، ويظهر ذلك في لحن قولهم وتدويناتهم وتغريداتهم.

**٢ – الردة والخروج من الإسلام إلى دين آخر:** ففي بعض البلاد يتنصر بعض المسلمين لأسباب تافهة، وفيما مضى تنصر في إندونيسيا وحدها اثنا عشر مليوناً في مدة ثلاثين سنة تقريبا، والدعايات التنصيرية الآن تسير في الأرض، ولربما يخدمها بعض أبناء جلدتنا ممن يتكلم بألسنتنا ويتسمون بأسمائنا، وقد اتخذوا بعض القنوات الفضائية ومواقع الأنترنت

ووسائل التواصل الاجتماعي مجالا لترويج الشبهات والتشكيك في صحة القرآن، ونبوة المصطفى عليه الصلاة والسلام[1].

وفي السنوات الأخيرة التي نزح فيها كثير من المسلمين من بعض البلاد الإسلامية إلى أروبا بسبب الحرب والظلم والاضطهاد السياسي، تنصر طائفة منهم، لا سيما ممن كانوا على مذهب الشيعة. والدافع الأكبر في ذلك هو أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية المتردية.

وقد جاء في سورة الحج ما يدل على أن العاقل يختار البقاء على دين الإسلام لأن أهله هم الناجون يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ [سورة الحج: ١٧].

**٣ – الشرك في الربوبية:** فبعض المسلمين ما زالوا يعتقدون في بعض الأولياء – ممن يطلق عليهم الغوث أو الأقطاب أو الأوتاد – أنهم قادرون على دفع الضر وجلب النفع، أو أن لهم يدًا في التصرف في الكون وقدرة على التأثير فيه. وربما يتناقلون حكايات تتضمن أمورا خارقة للعادة، تؤكد للجَهَلة وضعاف العقول قدرةَ هؤلاء المزعومة على قضاء الحاجات[2]. وهذا الاعتقاد يترتب عليه شرك في الألوهية والعياذ بالله.

ومنها: ما يعتقده بعض الصوفية في مشايخهم أن لديهم علمًا لدُنيًّا يطّلعون به على الغيبيات، وأن لهم أسرارا يتصرفون بها وراء الأسباب العادية[3].

وقد جاء في سورة الحج ما يفيد أن الله تعالى منفرد بتدبير شؤون الكون كله، حيث قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤ ٱلۡمُلۡكُ

(١) ينظر مقال "حرب تنصير المسلمين وواجبنا نحوها": https://ar.islamway.net/article/3056/.

(٢) دوافع تقديس القبور والأضرحة وآثارها، ج ٢، خالد أبو الفتوح، مجلة البيان، العدد ١٣٢ (ص ٥٨).

(٣) ينظر فتاوى اللجنة الدائمة، مجلة البحوث الإسلامية (٣٥/ ٦٣).

يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ﴾ [سورة الحج: ٦٣ – ٦٥].

**٤ – دعاء غير الله تعالى:** كالأولياء والصالحين، أو من يُنسَبون إلى الصلاح والولاية: إذ نجد بعض المسلمين يدعون الأموات الذين لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ويسألونهم المدد، ويستغيثون بهم إذا أصابتهم المصائب، ونزلت بهم الرزايا، ويطلبون منهم قضاء حوائجهم، وتفريج كرباتهم، أو رد غائبهم، أو شفاء مَرْضاهم، أو إنجاب الأولاد، أو تزويج الأيامى، إلى غير ذلك. فيقول أحدهم: يا سيدنا فلانا، ومولاي فلانا خذ بيدي، وكن لي كذا، وأنا في حماك، وأنا بك وبالله، وأنا دخيلك...إلى غير ذلك من العبارات التي تتضمن الاستعانة بغير الله عز وجل[(١)].

وأينما ذهبْنا في بلاد المسلمين فإننا سنجدها تعجّ بالأضرحة والمزارات التي يستغاث بأصحابها ويُستعان بهم في الشدائد والأزمات ويُدعوْن من دون الله سبحانه[(٢)]. ويصدق على من يدعو هؤلاء قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحج: ١٢ – ١٣].

وزيارة واحدة لتلك المواسم والموالد التي تُعقَد حول الأضرحة تريك ما تُسكَب له العَبَرات، وتتقطّع له النفوسُ حسَرات، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة يونس: ١٠٦].

---

(١) ينظر مقال: "أهمية دراسة التوحيد"، للدكتور: محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الجهني، مجلة البحوث الإسلامية (٨٧/ ١٤٧).

(٢) ينظر الدعوة الإصلاحية في بلاد نجد على يد الإمام محمد بن عبد الوهاب وأعلامها من بعده (ص: ٥٦-٥٨).

**٥ – بقاء المظاهر الشركية في بعض الأضرحة:** كالذبح لها، وتقديم النذور لها، سواء كانت عينية أم نقدية، لأنها من أوجه العبادة، ولا يجوز صرفها لغير الله تعالى مهما علت منزلة المدفون فيها، سواء كان نبيا مرسلا أم وليا صالحا. ويصدق على من يقوم بتلك الأمور قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١﴾ [سورة الحج: ٧١].

**٦ – الاستعانة بالجن:** بدعائهم والتقرب إليهم لدفع ضر أو جلب نفع، أو للتحصن من شر الجن عن طريق السحر.

**٧ – عدم تحرز الناس من الألفاظ الشركية:** كالحلف بغير الله، كقولهم: وحياتي، وشرفي، وحياتك، وشرفك، والنبي، والكعبة...الخ. ومن الناس من يُقسم بأسماء بعض أصحاب الأضرحة، والأعجب أن كثيرا من الناس لا يصدقونه لو حلف بالله، فإذا حلف باسم ولي من أوليائهم قبلوه وصدقوه، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((من حلف بغير الله فقد أشرك))[(١)].

ومنها الألفاظ التي توهم الندِّية والمساواة بين الله عز وجل وخلْقه، كأن يقول أحدهم: أنا في حمى الله وفلان، أو: أنا توكلت على الله وعلى فلان، أو يقول: ما شاء الله وفلان، ما لي إلا الله وأنت، الله لي في السماء وأنت لي في الأرض ـ لولا الله وفلان...الخ.

ومنها الألفاظ التي تتضمن نسبة التأثير لغير الله تعالى من المخلوقات، كأن يقول: لولا فلان لكان كذا، لولا مجيء فلان لقُتل هذا الرجل، لولا ذلك الطبيب لكنت قد متّ، لولا أن الكلب نبح لسرقنا اللصوص... فهذه الألفاظ تقدح في التوحيد.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٢٥/٢، رقم ٦٠٧٢)، وأبو داود في سننه: (كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، ح ٣٢٥١، ٣/ ٥٧٠)، والترمذي في سننه: (كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، ح ١٥٣٥، ٤/ ١١٠)، وحسنه، وأخرجه ابن حبان في صحيحه: (كتاب الأيمان، ذكر الزجر عن أن يحلف المرء بشيء سوى الله جل وعلا، ح ٤٣٥٨، ١٠/ ١٩٩)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (كتاب الإيمان، باب من حلف بغير الله، ح ٤٥، ١/ ٦٥)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وهذا كله من قول الزور الذي أمر الله بتجنبه في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ﴾ [سورة الحج: ٣٠ – ٣١].

**٨ – إتيان الكهنة والعرافين:** فما زال طائفة من الناس يفِدون على السحرة والمشعوذين، ويتطببون بسِحرهم، ويلجأون إلى تدابيرهم، للتوقّي من مكروه، أو دفع شر، أو إيذاء خصم، أو نحو ذلك. وينسوْن قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: ((من أتى كاهناً أو عرّافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمدٍ صلى الله عليه وسلم))[1].

وبالإضافة إلى المشعوذين الذين يدعون العلم بالمغيبات ويقرأون الطوالع، ظهر أولئك المنجمون الذين يدّعون معرفة ما سيكون في المستقبل، وصارت بعض القنوات الفضائية تفتح لهم برامجها، وتستضيفهم بين الفينة والأخرى، لا سيما في مشارف السنة الميلادية، وربما جعلت لهم برامج أسبوعية يتتبعها المشاهدون الراغبون في معرفة ما يخبئه المستقبل لهم.

وهناك في بعض الصحف عمودٌ يومي خاص بالأبراج، يتضمن حظ كل من ينتمي لبُرج معين في كلّ يوم. وبعض الناس يصدقونها، حتى إنهم يتخذون قراراتٍ مهمةً في شأن الزواج، أو الطلاق، أو السفر، أو التجارة، أو الصداقة، وغيرها، بناءً على ما كتبه ذلك المنجم في تلك التنبؤات.

**٧ – التطير:** وهو ضاربٌ أطنابَه في عقول كثير من الناس، مؤثرٌ في سلوكهم، فبعض الناس ينسب ضيق رزق يومه لأنه تصبّح بكذا، وآخر ينسب سَعة رزق يومه لأنه تصبّح بكذا، وهذا يمضي في شأنه لأنه رأى كذا، والآخر يرده عن شأنه رؤيتُه لكذا، وهذا يتفاءل باللون

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في مسنده (٢/ ٤٢٩، ح ٩٥٣٢)، أخرجه البزار في "مسنده " (٣/ ٤٠٠، ح ٣٠٤٥)، وجود إسناده المنذري في "الترغيب" (٤/٥٢/٧)، والحافظ في "الفتح " (١٠/٢١٧). وصححه الألباني بشواهده في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/ ١١٥٥، رقم ٣٣٨٧).

الفلاني أو العدد الفلاني أو اليوم الفلاني أو الشهر الفلاني، والآخر يتشاءم من لون أو عدد أو يوم أو شهر معين. مع أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((الطِّيَرة شرك))[(١)].

ونجد طائفة من الناس يتعلقون بالتمائم، وبعضهم يعتقدون في تقلد القلائد والأساور والخواتم على أشكال معينة، وألوان معينة، ومواضع معينة، ونحو ذلك من التفاصيل المزعومة لإشاعة التعلق بهذه القلائد واصطناع الهيبة لها[(٢)]. وفي الحديث: ((إن الرقى والتمائم والتولة شرك))[(٣)]. وفي حديث آخر: ((من تعلق شيئًا وُكِل إليه))[(٤)].

هذا من جهة الشرك في الأعمال، أما من جهة الشرك في القصد: فمن المظاهر السلبية أنه ما زال كثير من الناس ينقصهم الإخلاص في أعمالهم، فتجدهم يقصدون بعمل الآخرة

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/٤٤٠، رقم ٤١٩٤)، وأخرجه أبو داود في سننه: (كتاب الطب، باب في الطيرة، ح ٣٩١٠، ٤/ ٢٣٠)، وأخرجه الترمذي في سننه: (كتاب السير، باب ما جاء في الطيرة، ح ١٦١٤، ٤/ ١٦٠ - ١٦١)، وقال: (حسن صحيح)، وابن ماجة في الطب: باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة، ح ٣٥٣٨، ٢/١١٧٠)، وأخرجه أيضًا: البخاري في الأدب المفرد (١/٣١٣، رقم ٩٠٩). وصححه الألباني في الصحيحة: (١/ ١٧٢، رقم ٤٣٠).

(٢) ينظر "أهمية دراسة التوحيد"، للدكتور: محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الجهني، مجلة البحوث الإسلامية (٨٧/ ١٥٢).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٨١، رقم ٣٦١٥)، وأبو داود في سننه (كتاب الطب، باب تعليق التمائم، ح ٣٨٨٣، ٤/٩)، وابن ماجه في سننه (كتاب الطب، باب تعليق التمائم، ح ٣٥٣٠، (٢/١١٦٦ - ١١٦٧)، والحاكم في المستدرك (كتاب الفتن، باب الدعاء عند عيادة المريض، (٤/٤٦٣، رقم ٨٢٩٠) وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضا البيهقي (٩/٣٥٠، رقم ١٩٣٨٧)، وأبو يعلى (٩/١٣٣، رقم ٥٢٠٨). وقوله: "التولة": نوع من السحر يجيب المرأة إلى زوجها.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٤/٣١٠، رقم ١٨٨٠٣)، والترمذي: (كتاب الطب، باب ما جاء في كراهية التعليق، ح ٢٠٧٢، ٤/٤٠٣)، وقال: (حديث عبد الله بن عكيم إنما نعرفه من حديث بن أبي ليلى وعبد الله بن عكيم لم يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم). والحاكم في المستدرك (كتاب الطب، باب من تعلق شيئا، ح ٧٥٠٣، ٤/٢٤١)، والبيهقي في السنن الكبرى (كتاب الضحايا، باب التمائم. ح ١٩٣٩٥، (٩/٣٥١). قال الهيثمي (٥/١٠٣): (رواه الطبراني في ترجمة أبي معبد الجهني في الكنى، قال: وقد قيل إنه عبد الله بن عكيم. قلت: فإن كان هو فقد ثبتت صحبته بقوله سمعت، وفي إسناده محمد بن أبي ليلى، وهو سيء الحفظ، وبقية رجاله ثقات).

الدنيا ومتاعَها، أو يعملون الطاعاتِ رياءً وسمعةً، أو يشوبونها بقصد المفاخرة والمباهاة، كتعلم العلم الشرعي بقصد الحصول على منصب أو تحصيل جاه، أو الاستعلاء على الأقران، أو ليثني الناس عليه، أو تأليف الكتب لأجل نيل المنزلة بين الناس وتلقّي المدح والثناء، أو بذل المال وإنفاقه في سبل الخيرات أو إنشاء المبرّات والأعمال الخيرية لأجل المفاخرة والمراءاة أو السمعة، وهي مقاصد تحبط ثواب العمل، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة هود: ١٥ – ١٦]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا، وابتُغيَ به وجهُه))[(١)].

**واقع الأمة في جانب الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى:**

تقدم لنا أن من الهدايات الكلية التي تدل عليها السورة الدعوةَ إلى التعرف على الله تعالى من خلال أسمائه الحسنى. ومن الأوجه الإيجابية في عصرنا في هذا الجانب انتشارُ الدروس والبرامج المصورة التي تعرِّف الناس بأسماء الله تعالى وصفاته، وصدورُ عدد من المؤلفات التي تُقرِّبها وتشرحها لجميع المسلمين.

ومن الأوجه السلبية في هذا الجانب:

جهل كثير من المسلمين بمعاني الأسماء الحسنى وعدم معرفتهم بمقتضياتها، وعدم اهتمامهم بالبحث عنها، واكتفاؤهم في كثير من الأحيان بسماع الأسماء التسعة والتسعين عندما يترنم بها المترنّمون دون استحضار لجلال المسمّى بها سبحانه.

وقد نشأ عن ذلك عدة أوجه سلبية، منها:

---

(١) أخرجه النسائي في سننه: (كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، ح ٣١٤٠، ٦/٢٥)، والطبراني (٨/١٤٠، رقم ٧٦٢٨)، وقال الحافظ في الفتح (٦/٢٨): (إسناده جيد). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (١/ ١١٨، رقم ٥٢).

أن يعطى النبي صلى الله عليه وسلم بعض صفات الله تعالى، وذلك في المدائح التي تُنشَد في مدحه، كأنْ يوصف بعلم الغيب!!

ومنها: أن يُطلِق بعض الكتاب بعض العبارات غير اللائقة على الله تعالى وإن كان لها وجه صحيح في المعنى، كمن وصف الله تعالى بأنه: الفنان الأول!! [1] أو العقل الكلي!!

ومنها ما يفعله أتباع بعض الطرق الصوفية في حلقات الذكر، حيث يذكرون الله في زعمهم فيقولون: "يا هو"، أو يقتصرون على ضمير الغيبة: "هو، هو، هو"، ويرددونه مئات المرات زاعمين أنهم يذكرون الله باسم من أسمائه الحسنى. وربما اقتصر بعضهم على الآهات: آه، آه، آه[2]!! ومن ذلك ما يفعله بعضهم من الذكر بألفاظ أعجمية، يزعمون أنها أسماء الله تعالى باللغة العبرانية أو السريانية، مثل: آهيا، شراهيا، أصباؤت آل شداى، آج أهوج، جلجلوت[3]، مع أن الله تعالى دلنا على أسمائه في كتابه وأحاديث نبيه عليه الصلاة والسلام. والله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٨٠].

**واقع الأمة في جانب الإيمان بالغيب:**

من الجوانب الإيجابية في هذا الجانب أن جمهرة المسلمين يؤمنون بالأمور الغيبية التي جاء ذكرها في الكتاب والسنة، وإن كان هذا الإيمان عند أكثرهم مجملا.

ومن الجوانب السلبية في هذا الجانب:

---

(١) جاءت هذه العبارة في كتاب د. مصطفى محمود غفر الله له: "القرآن: محاولة لفهم عصري" (ص ١١٠).

(٢) ينظر مجموعة رسائل التوجيهات الإسلامية لإصلاح الفرد والمجتمع، لمحمد بن جميل زينو (٣/ ١٤٠)، ومقال "مفهوم الذكر عند الصوفية"، مجلة البحوث الإسلامية (١٢/ ٢٨٠).

(٣) ينظر "مفهوم الأسماء والصفات"، للشيخ سعد ندا، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤٥.

**انتشار الشبهات في القضايا الغيبية:** فمن الناس الذين ينتسبون إلى الإسلام من ينفي وجود عذاب القبر مثلا، ومنهم من يشكك في عروج النبي بروحه وجسده معًا، ومنهم من ينكر بعض علامات الساعة الكبرى التي جاءت بالتواتر، كخروج المهدي، ونزول عيسى عليه السلام. وقد يكون بعض من يشكك في هذه الأمور ممن تصدر للدعوة وانتصب لتعليم الناس وتوجيههم، وغَلا في السير على المنهج العقلاني.

**تأويل بعض القضايا الغيبية الواردة في النصوص الشرعية:** كتأويل ما ورد في الجنة من نعيم وما ورد في جهنم من عذاب من أنه ليس مقصودا بذاته، وإنما هو لون من ضرب المثال، أو لون من التقريب والرمز[(١)]، أو تأويل "الجن" بأنهم فريق من الناس لم يكونوا معهودين للرسول صلى الله عليه وسلم[(٢)].

**الغفلة عن الآخرة:** رغم أن المسلمين اليوم يؤمنون باليوم الآخر، إلا أن آثار ذلك في حياتهم باهتةٌ جداً؛ بسبب عدم الإحساس بحقيقته في وجدانهم، فكثير من المسلمين في غفلة عن الآخرة، مع أن الساعة قد اقتربت: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾ [سورة الأنبياء: ١). وقد أدّى ذلك إلى الانغماس في مباهج الدنيا، واللهاث وراء ملذاتها، والركون إليها، وتعلق القلب بها، وأصبح كثير من المسلمين لا يفكرون إلا في الدنيا وشهواتها. وإذا نظرت إلى كثير من المسلمين في أفعالهم؛ تجد أنهم -والعياذ بالله- كأنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولا يعلمون أنهم سيرجعون إلى الله سبحانه وتعالى، فيحاسبهم فيها على أعمالهم، ويجزيهم بها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.

ويُخشى أن يكونوا ممن قال الله فيهم: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾ [سورة الروم: ٧]، فهم يعلمون أمر معاشهم، ويعرفون كيف يكتسبون، وكيف

---

(١) ينظر: القرآن محاولة لفهم عصري: (ص٨١-٨٢). وينظر اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر (٣/ ١١٣١ - ١١٣٥)، والتفسير والمفسرون في العصر الحديث، لفضل عباس (١/ ٧٠٣).

(٢) ينظر: إنكار الجن من شطحات التفسير الموضوعي للقرآن (ص: ٣٠٨ - ٣٠٩).

يتَّجرون، ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون، وكيف يعيشون ويتنعمون، أما الآخرة فهم عنها ساهون، وعن الاستعداد لها غافلون.

**واقع الأمة في جانب الإيمان بالقضاء والقدر:**

يتمثل الوجه الإيجابي في هذا الجانب أن كثيرا من المسلمين يعبرون بألسنتهم عن رضاهم بالقضاء وإيمانهم بالقدر عند نزول المصائب بهم.

أما الوجه السلبي في هذا الزمان فقد فرط كثير من المسلمين في الرضا بحكم الله شرعاً، وكوناً، وقدراً، فضعف الرضا واليقين، واتُّبِعت الشهوات والشبهات، وظهر ذلك بشكل جلي في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم.

ولو ضربتُ أمثلة عن التقصير في الرضا بالقضاء الشرعي، أو القضاء الكوني في كل ميدان من ميادين الحياة العملية، والعلمية، والتجارية، والسياسية، والدينية، والمالية، والأسرية، والاجتماعية، لطال بنا الكلام. وأكتفي ببعض مظاهر عدم الرضا بقضاء الله وقدره:

**١ – الاعتراض على قضاء الله الكوني**: وخاصة ما يخالف ما يحب العبد ويهواه، فبعض الناس، إذا مات له ولد قال: يا رب ما اخترت إلا ابني؟! وبعضهم إذا رسب ابنه قال: يا رب ترسب ابني وتنجح أبناء الجيران؟! وبعضهم يتبرم من ضيق رزقه حتى يقول: ما هذا الفقر الدائم يا رب؟! اعتراضا منه على حكم الله عز وجل، واتهاما لقضائه سبحانه بالتجانف عن العدل ومنافاة الحكمة، مع أن الله تعالى حكيم عليم، رؤوف رحيم، وأقداره لا تنفك عن لطفه، وما لنا إلا الرضا والتسليم.

**٢ – السخَط**: وهو من سوء الخلق؛ لأن الساخط مخاصم لله – تعالى – فيما لم يرض به، من أمره ونهيه، أو قضائه ورزقه، وما يصيبه من نوائب ومصائب.

والسخَط يفتح باب الشك في حكمة الله وعلمه، ولطفه في قضائه، فقلَّما يسلم الساخط من شك يداخل قلبه، ويُطيف فيه، وإن كان لا يشعر به، ولكن لو فتش نفسه واختبرها، لوجد إيمانه معلولاً، وتصديقه مدخولاً، ورضاه منقوضاً[(١)].

والسخَط يوجب اضطراب قلب العبد وانزعاجه وعدم قراره، كما أنه يوجب تلون العبد وعدم ثباته مع الله، فإنه لا يرضى إلاَّ بما يلائم طبعه ونفسه، والمقادير تجري دائماً بما يلائمه وما لا يلائمه، وكلما جرى عليه منها ما لا يلائمه أسخطه، فلا تتحقق عبوديته لله تعالى[(٢)].

**٣ – الحزن على ما فات:** فما أصابنا لم يكن ليخطئنا، والحزن لا يرد مقدورا، ولا يعيد فائتا، وقد أشار الله تعالى إلى أن العباد ما ينبغي لهم أن يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا، فقال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [سورة الحديد: ٢٣]، بل إنه سبحانه نهى عن الحزن وإن تعلق بالدين، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٣٩]؛ وذلك لأنه لا فائدة فيه، فالحزن لا يجلب منفعة، ولا يدفع مضرة، وإنما يضعف القلب ويوهن العزم، ويضر الإرادة[(٣)].

**٤ – النياحة:** فالنوح يضاد الرضا، سواء كان من رجل أم امرأة، وهو يكون عادة من النساء عند موت الأقارب أو نزول المصائب، وهذا من الجزع والاعتراض على القضاء، لما يصحبه من صك الوجه، أو لطم الخد، أو الدعاء بالويل والثبور، أو سب الدهر عند المصيبة، أو رفع الصوت بالبكاء والعويل، عند موت محبوب، أو فوات أمر دنيوي مرغوب، وغير ذلك مِمَّا نهى عنه النبي في مثل قوله: ((ليس منا من لطَم الخدودَ، وشقّ الجيوبَ، ودعا بِدَعوى الجاهلية))[(٤)]. ومن أسوأ صور ذلك ما يفعله الشيعة كل يوم عاشوراء من النوح وإظهار الحزن

---

(١) ينظر مدارج السالكين (٢/ ٢٠١).

(٢) ينظر مدارج السالكين (٢/ ٢٠١).

(٣) ينظر طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٧٨ و٢٧٩)، ومدارج السالكين (١/ ٥٠١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب، ح ١٢٣٢، ٤٣٥/١)، وأخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود، ح ١٠٣، ٩٩/١).

وإنشاد المراثي، حزنا على مقتل الصحابي الجليل الحسين بن علي رضي الله عنهما وأهل بيته، وما يقترن بذلك من اللطم، والصراخ، والبكاء، وضرب أنفسهم بالسيوف والسلاسل...[(١)].

ومِمَّا ينافي الرضا بالقضاء: **تمني الموت لضرٍّ نزل أو مصيبة**: ففي الحديث: ((لا يتمنّين أحدكم الموتَ لضُرٍّ نزل به، فإن كان لابد متمنياً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياةُ خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاةُ خيراً لي))[(٢)]. فالحديث دليلٌ على النهي عن تمني الموت، بسبب الوقوع في بلية أو محنة، أو خشيةً من عدو أو مرض أو فاقة، أو نحوها، لما في ذلك من الجزع، وعدم الصبر على قضاء الله؛ فما بالنا بمن يحاول الانتحار ليتخلص من متاعب الدنيا وآلامها؟!

ومن المظاهر السلبية في الإيمان بالقضاء والقدر عند بعض المسلمين: الاستكانة إلى العدو الذي يغزو ديارهم، رضًا بقضاء الله الذي قضى ذلك في زعمهم، واعتقاداً بأن الله تخلى عن نصرهم وإذْلال عدوهم مع استحقاقهم لذلك لأنه أراد أن ينزل بهم مصيبة على يد أعدائهم، لا بسبب أنهم قصروا فيما أوجب عليهم، ولكن ليرضوا بمقاديره ويصبروا عليها، وجعلوا ذلك مثل مصائب الفقر والمرض والموت التي يبتلي الله بها عباده؛ ليعلم الصابرين منهم والمتضجرين[(٣)].

**واقع الأمة في معرفة سنن الله تعالى في خلقه:**

من هدايات سورة الحج الكلية التنبيه إلى إدراك السنن الربانية، واستثمارها وفهم الأحداث في ضوئها. ومن الجوانب المضيئة في زماننا أن العلماء والمفكرين انتبهوا إلى هذه السنن، وبينوها في مؤلفاتهم، خاصة في التفاسير المعاصرة، وعلى رأسهم صاحب تفسير "المنار"، ومنهم من خصها بالتأليف والدراسة فيما بعد. واهتم الدعاة بالحديث عنها وبيانهم في خطبهم ومحاضراتهم.

---

(١) ينظر بحث "الرضا بالقضاء"، د. سالم بن محمد القرني. مجلة جامعة أم القرى، العدد ١٩ إلى ٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، ح ٥٩٩٠)، ٥/٢٣٣٧)، ومسلم في صحيحه: (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب كراهة تمني الموت لضر نزل به، ح ٢٦٨٠، ٤/٢٠٦٤).

(٣) ينظر أجنحة المكر الثلاثة، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (ص: ٢٦٧ – ٢٦٨).

ولكن في المقابل فإن أكثر المسلمين في غفلة عنها، ومن ثم فإنهم لا يسخرونها فيما يعود عليهم بالنفع، ولا يبحثون عن السنن التي يمكن أن تعينهم في تصريف شؤونهم المختلفة. ومن جهة أخرى فإن بعض المفكرين لا يفسرون التاريخ في ضوئها، ولا يفسرون أحداثه من خلالها، وإنما يفسرونه بناء على نظريات وافدة من الشرق أو الغرب.

ومع أنه لا يوجد في الدنيا كتاب تكلم عن السنن الاجتماعية مثلما تكلم القرآن الكريم، فإننا نجد المسلمين من أقل الناس أخذاً بهذه السنن، بل ربما وصل الأمر ببعضهم أنه إذا تكلم بهذا الموضوع وحاول إبرازه رُمي بالبعد عن الدين، وأنه يتكلم في أشياء ليست من الإسلام، أو أنه يردد أفكار الآخرين[1].

ومن هذه السنن سنةُ التدافع المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [سورة الحج: ٤٠]، فإنها من أهم السنن الربانية (التي يجب الوقوف عندها، وعدم نسيانها أو الغفلة عنها، لأن الصراع والمدافعة بين الحق والباطل وُجِدا منذ أن أهبط آدم عليه الصلاة والسلام على هذه الأرض، واقتضت حكمة الله عز وجل أن يستمر هذا الصراع إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها بين حزب الله وحزب الشيطان. وليس بالضرورة أن تكون المدافعة بالقتال والسلاح. بل إنه يكون بغير ذلك، وما القتال إلا مرحلة من مراحل هذا الصراع، فإقامة الحجة على الباطل وأهله مدافعةٌ، وإزالة الشبه عن الحق وأهله مدافعةٌ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مدافعةٌ، والصبر على ابتلاء الأعداء من الكفَرة والظلَمة والثباتُ على الدين مدافعةٌ. ويأتي الجهاد والقتال في سبيل الله عزّ وجل على رأس وذروة هذه المدافعة والصراع، فيقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. وما دام هناك حق وباطل فالصراع موجود، والمدافعة حتمية. وهذا الصراع لصالح البشرية وخيرها، ولو كان فيه من العناء والشدة والمكاره، فإن هذه المشقات كلها تهُون وتصغر عند المفاسد العظيمة التي تنشأ فيما لو لم يكن هناك دفع للفساد وصراع مع

(١) افتتاحية العدد ٥٦ من مجلة البيان (ص ٤).

الباطل. كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [سورة البقرة: ٢٥١]، وهذا يفرض على أهل الحق السير على هذه السنة، وبذل الجهد الجهيد في مدافعة الباطل وأهله، وإحقاق الحق وتمكين أهله، ورد البشرية الشاردة إلى عبودية الله عز وجل وتوحيده، وإنقاذها من الشرك ومفاسده)[(١)].

ومن هذه السنن سنة السببية: فقد كان نفي تأثير السبب في المسبب وادعاء عدم عِلّية الأحكام الشرعية وانتفاء مقصد المصلحة فيها باباً لنفي الأسباب جملة في حياة الناس وتصرفاتهم، وتعطيل أثرها في ظواهر الحياة المادية وحركاتها، وقد عملت هذه المفاهيم – عن القدر والسببية – عملها في الأمة الإسلامية خلال قرون متطاولة، فكان من نتائجها – إلى جانب أسباب أخرى عديدة — أن أهمل المسلمون العلوم التجريبية بلا شعور أو وعي، وكان هذا هو المعْوَل الأول الذي هوى بهم في حضيض التخلف والضعف، في عالم عرف قيمة العلم التجريبي الذي يبني أول ما يُبنى على قاعدة ربط الأسباب بنتائجها، وتأثير السنن الكونية في الكون بحسب ما أجراها الله سبحانه في مجاري العادات.

وكيف يندفع المسلم إلى محاولة اكتشاف علاقة بين أمرين، وهو أصلاً يؤمن بأنه لا رابطة بينهما، وأن أحدهما لا ينشأ عن الآخر، بل – في أحسن الأحوال – ينشأ عند حدوث الآخر لا غير؟![(٢)]

**واقع الأمة في جانب العمل الصالح:**

تقدم لنا أن من هدايات السورة الكلية أن الإيمان الصادق لا بد أن يقترن بالعمل الصالح، وللأسف فإن بعض المسلمين يتصورون أن الدين هو طيبة القلب، ويعتقدون أنه يكفي أن يكونوا مصدقين بالله واليوم الآخر تصديقا إجماليا، وإن لم يلتزموا بالأحكام الشرعية!

(١) موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام (١/ ٢٧).

(٢) مفهوم السببية عند أهل السنة (٣)، طارق عبد الحليم، مجلة البيان (٤/ ٣١).

فهم يدّعون الإيمان ولكنهم لا يعملون الصالحات، بل ربما كانوا من المسرفين في المحرمات، وإن وُعظوا سوّغوا ما هم عليه من المعاصي بأن الإيمان إنما يكون في القلب، وهو المعتبر!! أو يقول: أنا مؤمن بقلبي! أو: قلبي أبيض! وربما استدل بعضهم بظاهر بعض الأحاديث، كقوله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم؛ ولكن ينظر إلى قلوبكم))[(١)]، أو قوله صلى الله عليه وسلم: ((التقوى هاهنا، التقوى هاهنا))، وأشار إلى صدره الشريف[(٢)].

وكثير ممن ينتسبون إلى الإسلام يرددون بألسنتهم كلمة التوحيد من غير أن يقفوا لها على معنى أو مقتضى، ومن غير أن يترجموا مقتضيات هذه الكلمة العظيمة في حياتهم إلى عمل ظاهر، فمنهم من يردد بلسانه الشهادتين وقد ضيع الصلاة، وامتنع عن الزكاة، واقترف الزنا، وشرب الخمر!! والطامة الكبرى أنه يظن أنه بمجرد نطقه بالشهادتين قد حصّل صكاً من صكوك الغفران، يمنحه دخول الجنان، والنجاة من النيران!!![(٣)].

وهذا الفصل بين الإيمان والعمل الصالح من آثار الفكر الإرجائي الذي قررته بعض الفرق الإسلامية قديما كالخوارج، وتسرب إلى عامة المسلمين. فقد ارتأى المرجئة أن الأعمال خارجة من حقيقة الإيمان؛ وعليه: بات يُكتفى في الإيمان بتصديق وقولٍ على اختلافٍ بينهم، ومن ثَم: صارت كثير من الأعمال التي تشمل جوانب الحياة المختلفة لا تنسب إلى الإيمان، (وبتعبير آخر: اتسعت المساحة التي يمكن أن يتحرك فيها العصيان والتبديل والانحراف بأمان تاركاً الإيمان قابعاً في زاوية ضيقة تسمى القول، ثم تحول هذا القول على يد المرجئة الجدد إلى مجرد ألفاظ خالية من مدلولاتها ومعانيها)[(٤)].

صحيح أن أصل الإيمان في القلب، ولكن الإيمان الراسخ لا بد أن يثمر العمل الصالح، فهو قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان، وهو يزداد بالطاعة، وينقص

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر خطب الشيخ محمد حسان، تفريغ موقع الشبكة الإسلامية.

(٤) جذور العلمانية والتغريب في العالم الإسلامي، خالد أبو الفتوح، مجلة البيان، العدد ١٥٩ (٤٦).

بالمعصية، (ولا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح، بل متى نقصت الأعمال الظاهرة فسبب ذلك هو نقص الإيمان الذي في القلب، فلا يكتفي بإيمان القلب، بل لابد معه من الأعمال الصالحة، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله...)) [(١)]، فإن إيقان العبد بلقاء ربه واطمئنان قلبه بالإيمان يبعث الجوارح كلها للقيام بالعمل الصالح، وعندما يكون الإيمان في القلب فإن ذلك يدعو صاحبه لامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه)[(٢)]، ولذلك قال الحسن البصري رحمه الله: (ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل) [(٣)].

**واقع الأمة في جانب التقوى:**

في هذا العصر الذي غزي فيه المسلمون بوسائل جديدة تبث الفساد والانحراف، وتقضي على طهارة القلوب، قلت التقوى، وغابت في سلوك الناس، وحينما غابت المراقبة وقل الحياء ظهر العقوق، وضُيِّعت الحقوق، وتعلقت القلوب بالدنيا، وضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانطفأت الغيرة على حرمات الله.

ومن المظاهر السلبية في هذا الجانب:

اقتراف عدد غير قليل من المسلمين لكبائر الذنوب، كالزنا، وشرب الخمر، والتعامل بالربا، وقطع الأرحام، وأكل أموال الناس بالباطل، والقِمار، وشهادة الزور، وقتل النفس بغير حق...

فالناس اليوم عمّتهم الذنوب والمعاصي إلا من رحم الله، سواء في جانب الأقوال أو الأفعال، بل إن كثيرا منهم أعلنوا بالمعصية في البيوت والأسواق، والمنتزهات، والشوارع، وعلى

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام (٢/ ١٩٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١٠/ ٢٩٨، رقم: ٣٠٨٦٦)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على زهد أبيه (١٤٨٨). وقد صححه صاحب "سلسلة الآثار الصحيحة" لتعدد طرقه (٢/ ٢٧٣، رقم ٥٩٦).

الشواطئ، سواء تلك الذنوب التي تتعلق بجانب الاعتقاد، أو الذنوب التي تتعلق بالعبادات، أو الذنوب التي تتعلق بجانب الأخلاق[1].

ذلك أن المسلم لم يعد يستشعر أن الله يراه في كل وقت وحين؛ فصار يقع في المخالفات الشرعية، ولم يعد عمله يدل على أنه موقن بالموت، فصار لا يتوقف كثيراً في قضايا الحلال والحرام، وتحقق قول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: (ما رأيت يقينًا أشبهَ بالشك من يقين الناس بالموت، ثم لا يستعدون له) يعني كأنهم فيه شاكون[2].

ولم يعُد المسلم يؤمن تمام الإيمان بأن الرزق تكفل به الله في كتابه الكريم كما أخبر سبحانه بقوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ [سورة الذاريات: ٢٢ – ٢٣]؛ ومن هنا وقع المسلم في الكسب الحرام، وسلك مسالكه.

ومن جانب آخر ضعُف الشعور بالمؤاخذة على أعمال الجوارح، بل برزت الاستهانة بها، حتى انطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥﴾ [سورة النور: ١٥][3].

**واقع الأمة في جانب تعظيم الله ودينه:**

من المفزع أن هذا الجانب من أعظم ما فرط فيه كثير من المسلمين، ومن المظاهر السلبية في هذا الجانب: سب الرب تعالى، وسب الدين والملة، كما يفعل كثير من السفهاء، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

ومنها الاستهزاء بدين الله أو كتابه، أو رسوله صلى الله عليه وسلم، أو سنته، والسخرية بالمتسنّنين لأنهم يتمسكون بفعل السنن في شأنهم كله.

---

(١) ينظر دروس للشيخ عبد الرحمن السديس.

(٢) تفسير القرطبي (١٠/ ٦٤).

(٣) مجلة البيان، التناقض بين العبادة والسلوك، د. أسامة مشعل، العدد ٢٠٥، (ص ٧).

ومنها تطاول جماعة من أهل الأهواء من بني جلدتنا على ثوابت الدين، ونيلهم من حدود الشريعة، فقد راحت أقلامهم الملوثة تعبث بنصوص الكتاب والسنة، تارة باسم حرية الفكر، وتارة أخرى تحت عنوان النقد العلمي، وثالثة تحت مظلة الروايات والشعر والمسلسلات التلفزيونية... وهكذا.

ومن صور عدم تعظيم الله عز وجل: امتهان أسماء الله عز وجل في الصحف والجرائد والمجلات، فكثيرا ما تُفرَش وتجعل موائد وسُفَراً يوضع عليها الطعام، وتُلفُّ بها بعض الأطعمة، وترمى في الأرصفة والشوارع والمزابل، وهذا استهانة بأسماء الله وآياته، إذا كانت هذه الصحف والمجلات تحمل اسم الله تعالى، أو آيات من كتابه العزيز[(١)].

ومن ذلك أيضاً: تساهل كثير من الناس في دخول المراحيض والحمامات لقضاء الحاجة، بأوراق تتضمن أسماء الله تعالى، أو آيات قرآنية، أو أحاديث نبوية، وهذا ينافي تعظيم اسم الجلالة.

ومنها عدم تعظيم النصوص الشرعية، وتهوين مخالفتها والاستهانة بذلك، بل يصل الحال ببعضهم إلى الاستخفاف بها، والتندُّر بمن تمسك بها، وجعله تحت مجهر النقد والتشريب وإسقاطه عند العامة.

ومن صور عدم تعظيم حرمات الله تعالى: اقتراف المعاصي، والاستخفاف بالمحرمات واستصغار الوقوع فيها، وقد قال بشر بن الحارث[(٢)] رحمه الله: (لو تفكر الناس في عظمة الله لما عصوا الله)[(٣)].

---

(١) ينظر دروس الشيخ عائض القرني، فرغها موقع الشبكة الإسلامية.

(٢) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن أبو نصر المروزي ثم البغدادي، يعرف ببشر الحافي، الإمام المحدث الزاهد الرباني القدوة، شيخ الإسلام، ولد سنة ١٥٢هـ، وكان رأساً في الورع والإخلاص، وله حكم جميلة، وكلام رائق، توفي سنة ٢٢٧ هـ. ينظر حلية الأولياء: (٨/ ٢٩٦، رقم: ٤٣٧)، ووفيات الأعيان (١/ ٩٠)، وسير أعلام النبلاء: (١٠/ ٤٦٩، رقم: ١٥٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٣٣٧).

ومنها التهاون في امتثال أوامر الله؛ فتجد كثيراً من الناس لا يؤدون العبادات على الوجه المطلوب؛ ولو كانوا يعظمون الله حق التعظيم لعظموا أمره كذلك.

ومنها عدم تدبر القرآن حال قراءته، وعدم الوقوف عند وعده ووعيده، وأصبح همُّ القارئ بلوغ آخر السورة فحسب دون اعتبار لما أُنزل من أجله القرآن، كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [سورة ص: ٢٩].

ومنها الغفلة عن ذكر الله، فتجد أحدنا جالساً على كرسي الانتظار في بعض الأماكن زمناً طويلاً وهو لا يذكر الله ولا يسبحه ولا يكبره؛ وإن سبح وكبر فهو لا يعي معنى الأذكار التي تنطق بها شفتاه.

ومنها النظر إلى ما حرم الله تعالى؛ فالنظر الحرام يولد في القلب القسوة والجفاء، وهذا يتنافى مع التعظيم؛ لأن التعظيم لا يكون إلا من قلب خاضع خاشع ليّن مقبل على الله بكليته.

**واقع الأمة في جانب تعظيم المشاعر المقدسة:**

إن الناس في شأن تعظيم الشعائر المكانية الزمانية قسمان: مُفْرِط ومُفَرِّط، فمن الناس من غلا في تعظيم شعائر الله، حتى أدخل فيها ما ليس منها، سواء أكان تعظيماً للأمكنة أم تعظيماً للأزمنة، فيأتون بما لم يشرعه الله عز وجل، ويدَّعون لمكة، أو لِمِنى من الحرُمات ما لا حقيقة له.

فأما تعظيم الأمكنة بما لم يشرعه الله تبارك وتعالى، فمن ذلك ما يفعله بعض الحجاج والزوار أو العمار من تعظيم أماكن مخصوصة لم يرد فيها شيءٌ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن السلف الصالح، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ))[1].

فما يفعله بعض الناس من الذهاب إلى غار ثور أو إلى غار حراء والصلاة هنالك، والتبرك بأماكن متعددة من مكة، وربما كان أكثر منها في المدينة مما لا أصل له، فذلك كله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ح ١٧١٨، ٣/١٣٤٣).

محدَثٌ مبتدَع. وإنما يُكتفى بتعظيم ما شرعه الله تعالى تعظيمه كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا ريب أن كل من عظَّم ما لم يعظمه الله تعالى؛ فإنه لا بد أن يخِلّ بتعظيم ما أمر الله بتعظيمه، سواء من الشعائر أم المعالم المكانية أو الزمانية.

وفي جانب الأزمنة فإن بعض المسلمين يدَّعون لبعض الأشهر أو بعض الأيام المفضَّلة أو المحرمة ما لا حقيقة له، كالشأن في ليلة السابع والعشرين من شهر رجب، حيث يعتقدون أنها ليلة الإسراء والمعراج، والحق أنه لم يصح في هذه الليلة شيءٌ يعتمد عليه في تحديد تاريخها، ولو ثبت أنها في ليلة معينة بذاتها لما جاز أن يحتفل بها؛ لأن ذلك لم يأتِ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة.

ومن ذلك ما يفعله بعض الناس في شهر رجب من الذبح – أو ما يسمونه الرجَبية – والاحتفال بهذا الشهر وتعظيمه، والاستكثار من الصيام فيه، وكل ذلك لم يأت فيه حجة قوية يعتمد عليها.

ومنها صلاة الرغائب فهي لم تحدث إلا بعد الأربعمائة، ولم يتكلم فيها السلف الأولون؛ لأنها لم تحدث في أيامهم، وكفى بذلك دليلاً على أنها بدعة، وأنه لا يجوز لأحد أن يعمل بها. وأما ما تزخر به بعض الكتب من الكلام عن هذه الصلاة وفضلها ووقتها وكيفيتها، وأنها في أول جمعةٍ من شهر رجب إلى غير ذلك، فكل ذلك مما لا أصل له.

أما القسم الثاني من الناس: فهم الذين لا يبالون بتعظيم حُرمةٍ ولا شعيرةٍ، لا في هذا الشهر ولا في غيره من الشهور، ولا في الحرَم المكي ولا في غيره من الأماكن، فلا يعظمون لله تعالى مسجداً ولا حُرمةً ولا شعيرةً من الشعائر، وهؤلاء قومٌ قد ضرب الله تعالى على قلوبهم الغفلة، وإن كان كثيرٌ منهم يعدُّ نفسَه من أهل الخير ومن عامة المسلمين، لكنهم يغفلون عن تعظيم ما أمر الله بتعظيمه من هذه الشعائر[1].

(١) ينظر دروس سفر الحوالي.

أما فيما يتعلق بالمساجد فلقد تباهى الناس ببنائها، فتجد بعض الأمراء والقادة والوزراء ورجال الأعمال يبنون المساجد ويزخرفونها، ثم لا يصلون فيها إلا في مواسم معينة، وربما أعلنوا عن بنائهم لذلك المسجد عبر وسائل الإعلام المختلفة.

ومن الجوانب السلبية أيضا في شأن التعظيم: تعظيم ما لم يشرع تعظيمه، كتعظيم الأضرحة بالطواف حولها، حتى إن (شطراً من العامة في صعيد مصر يرى أن الطواف سبع مرات بقبر الشيخ القِناوي[1] بِقِنا فيه غَناءٌ عن أداء الحج إلى بيت الله الحرام)[2]، مع أن ذلك خاص بالكعبة المشرفة التي أمر الله بالطواف بها بقوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الحج: ٢٩]، وهذا يدل على أنه لا يجوز الطواف ببيت غيره على وجه الأرض، ومن هنا يعلم أن كل طواف بغير البيت العتيق فهو باطل، وليس عبادة لله عز وجل[3].

ومن ذلك تعظيم أضرحة الأولياء في نفوس كثير من العامة مما يوقع الفتنة بها، واتخاذ زيارتها عيدا في أوقات محددة في الزمان، وشد الرحال إليها، والتمسح بجُدران القباب، والتشبه بعُبّاد الأصنام بما يفعل عندها: من العكوف عندها، ومُجاورتها، ووجود السدَنة حولها، وصرف النُّذور وتقديمها لهذه القبور وأصحابها، مع أن الله تعالى خص البيت العتيق بأمر النذور فقال: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الحج: ٢٩].

ومنها جعلهم إياها عيداً ومنسكاً حتى إنهم ليحجون إليها، ويعظمونها كما لو كانوا يعظمون الله سبحانه، فأقسموا بها، واستشفوا بها، واستنصروا بها، ولاذوا بها، ودعوها، واستغاثوا

---

(١) هو أبو محمد عبد الرحيم بن أحمد بن حجون النزعي السبتي الغماري، الحسيني، ممن اشتهر بالولاية والكرامات، وهو من أصحاب الشيخ أبي يعزى. وصل من المغرب، فأقام بمكة سبع سنين، ثم قدم قِنا، وتزوج بها، وأقام بها إلى حين وفاته سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، عن سبع وسبعين سنة. له مقالات في التوحيد منقولة عنه، ومسائل في علوم القوم. ينظر الوافي بالوفيات (١٨/ ١٩٣)، وطبقات الأولياء لابن الملقن (ص: ٤٤٣)، والأعلام للزركلي (٣/ ٣٤٣).

(٢) مقال "تأملات في حقيقة أمر أولياء الله الصالحين"، حسين أحمد أمين، مجلة العربي، ع/٢٢٦، رمضان ١٣٩٧هـ، ص ١٣٧.

(٣) ينظر مقال "من منافع الحج وآدابه"، الدكتور صالح بن فوزان الفوزان، مجلة البحوث الإسلامية (٣١/ ١٤٨).

بها، وذبحوا لها، ونذروا لها، وطافوا حولها، وسيّبوا لها السوائب، وساقوا إليها الذبائح، كما يفعلون بمقام السيد البدوي.

وقد جعل الله لهذه الأمة منسكها، فلا يجوز لها أن تحيد عنه، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤].

والتمسُّح خاص بالحجَر الأسود والركن اليماني من الكعبة، والطائف حين يستلمهما يعتقد أنه يفعل ذلك لأنهما من شعائر الله، فهو يستلمهما طاعةً لله واقتداءً برسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز التمسح بشيء من الأبنية والأحجار غيرهما، فلا يتمسح بجدران الأضرحة ولا بغيرها، لأن ذلك مخالف لشرع الله، ولأنها ليست من شعائر الله.

وقد أخبر الله عن أهل النار أنهم حينما يختصمون في النار هم والغاوون يتبيّن لهم ضلالهم حين سوّوْهم بالله عز وجل في العبادة، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [سورة الشعراء: ٩٦ – ٩٨].

ويكفي في معرفة ضعف المخلوقين وعدم قدرتهم على جلب نفع أو دفع ضر قوله تعالى في سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الحج: ٧٣].

**واقع الأمة في جانب تعظيم البلد الحرام والمسجد الحرام:**

من الهدايات الكلية للسورة وجوب تعظيم البيت الحرام وتطهير هذه البقعة المقدسة من المنكرات والمعاصي الظاهرة. ونحن نشاهد في الأيام التي يتوافد فيها الناس بكثرة على البلد الحرام كثيراً من المظاهر التي تدل على أن هؤلاء الناس لا يعظمون شعائر الله، ولا يعظمون هذا البيت كما أمر الله عز وجلّ.

فبعضهم يأتي إلى هذا البلد الحرام وما يكاد يتحلل من عمرته حتى يترك أداء الفرائض مع الجماعة، وينطلق في الأسواق، ويرتع في الملاهي، وتبدأ النساء بالتبرج والتهتك، ويكون من المصائب والعظائم ما يضج منه المؤمنون، فتنتشر المحرمات، وترى الناس جماعات بالقرب من المسجد الحرام، وتقام الصلاة فلا يقومون إليها، ولا يجدون من ينكر عليهم، وهذه من المنكرات الدالة على أن هؤلاء لا يعظمون ما عظم الله تبارك وتعالى.

وتركُنا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو -أيضاً- من عدم تعظيم شعائر الله، فيتبلد الحس على المنكرات والمعاصي والذنوب، حتى تصبح مألوفةً. وقد غلَّظ الله في شأن المعصية بالحرَم فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥).

وأعظم من ذلك وأشد، وهو مما يتنافى مع تعظيم هذا البلد وتعظيم حرمات الله: أن نجد منارات أو علامات أو شعائر ما حرم الله تبارك وتعالى تنتشر في مكة، ومن أوضحها البنوك الربوية التي يكتتب البعض في جلها.

والواجب في الحقيقة ألا تبقى شعائر الضلال والفسق والمعصية في البلد الحرام، في أي مكان، وفي أي زمان، فعندما يجد الحاج أو المعتمر أو المقيم أن هذه المؤسسات الربوية قائمة في هذا البلد، فالذي يحدث أن الناس يألفون هذا المنكر، ثم بعد ذلك يصبح الإنكار على من أنكره، وهذا بلا شك من عدم تعظيم شعائر الله.

ويلحق بذلك مما يتنافى مع تعظيم شعائر الله ما يجده الوافد إلى مكة أو المقيم فيها من وجود أماكن لبيع أدوات اللهو ومشجعات الرذيلة كمحلات بيع الأفلام الماجنة ومحلات تسجيلات الأغاني ونحوها من الأمور التي تدعو إلى الرذيلة والفساد، وكأنهم في مكان ما غير بلد الله الحرام.

ومن أكثر ما ينتشر في هذه البلدة الطاهرة -أيضاً- من المحرمات الأخرى: الغش في التجارة، الذي استغله كثيرٌ من الناس في المواسم، وفي أيام العطل أو غيرها مما يكثر فيه الناس؛ فيغشون في المعاملات، ويطففون في المكيال والميزان، ويخرجون ويبيعون ما قد انتهى تاريخ

صلاحيته من البضائع ولا يتحرجون من ذلك، ويغشون في المساكن وغيرها، ويقولون: هذا موسم! وهذا انتهاك لشعائر الله التي أمر الله تعالى بتعظيمها، وإيذاء لمن جاء لتعظيم شعائر الله!! [1]

أما المسجد الحرام، فمن المظاهر السلبية المنافية لتعظيمه ما نراه في الصفوف حال إقامة الصلاة في تقطع واعوجاج وافتراق.

ومنها: جلوس بعضهم في المطاف، أو أداؤهم للصلاة فيه والناس يطوفون، مما يؤدي إلى الزحام وسقوط بعض الأشخاص.

ومنها: ما يحدث في أماكن الوضوء داخل الحرم وفي دورات المياه المحيطة به من اختصام وشتم وسباب...الخ.

ومنها: ما يفعله بعضهم من غسل جوارحهم بماء زمزم داخل المسجد ووضوئهم به وما يقترن بذلك من إسراف في الماء، وإفساد للسجاد، وتضييع للكؤوس المعدة للشرب، وإراقة للماء بالممرات وما يؤدي إليه ذلك من انزلاق بعض المارّين.

ومنها: وضع بعضهم لكؤوس الماء وهي ملأى أمامهم وهم يصلون، مما يفضي في كثير من الأحيان إلى انقلابها وتدفق الماء على السجاد.

ومنها: رمي بعض المصلين بالمناديل الورقية في زوايا الحرم وساحاته وتحت سجاده.

ومنها: إدخال بعضهم للأطعمة إلى المسجد بأنواع الحيل، والصراع واللجاج مع الحراس والحُجّاب، وما يعقب ذلك من روائح مؤذية وتلويث السجاد وكسر قلوب الفقراء.

ومنها: اتخاذ بعضهم للحرم وساحاته مكاناً للتسول، وإيذاؤهم للناس واحتيالهم عليهم.

ومنها: رفع بعضهم أصواتهم بالدعاء في المطاف، وإزعاجهم لغيرهم.

ومنها: مشي بعض الناس بين الصفوف وداخل الحرم بأحذيتهم.

---

(١) ينظر دروس الشيخ سفر الحوالي، فرغها موقع الشبكة الإسلامية.

ومنها: ما يحدثه بعضهم من الفوضى حين دخول المسجد والخروج منه، ومثله الصخب الذي يحدثه أصحاب السيارات حول المسجد الحرام.

ومنها اتخاذ بعضهم ساحات الحرم مرمى للأطعمة، أو حديقة للتنزه، أو مكانا للمبيت والنوم، أو موضعا للأكل والشرب وجلسات السمر، وما يتضمنه ذلك من إيذاء للزائرين، وإتعاب للعاملين، وتشويه لصورة الإسلام والمسلمين[1]، فضلا عن منافاته للأمر الصريح بتطهير البيت الحرام من الشرك والأقذار الحسية والمعنوية من أجل العابدين لله تعالى بالطواف والاعتكاف والصلاة، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الحج: ٢٦].

**واقع الأمة في شأن أداء العبادات عموما:**

من المظاهر الإيجابية في هذا الجانب أن المساجد كثرت، وصارت تمتلئ بالمصلين خلافا لما كان عليه الأمر قبل ستين سنة، ونجد هذا واضحا في صلوات التراويح والتهجد وصلاة العيدين.

ولكن من أبرز المظاهر السلبية التناقض بين العبادات والسلوك، فالمساجد تغص بالمصلين، والصائمون في رمضان أكثر من المصلين، وعدد الحجاج يزيد عن ثلاثة ملايين كل عام، ولكننا في المقابل نرى انتشار الكذب والغيبة، والنميمة، والغش، وقول الزور، وقطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، والتعامل بالربا، وتكشُّف النساء ... إلخ.

(١) ينظر "هل هذه المشاهد من آداب المسجد الحرام؟"، د. عبد الله بن أحمد آل علاف الغامدي، أرشيف منتدى الألوكة.

ومن المظاهر السلبية في هذا الجانب أن كثيرا من المسلمين يؤدون العبادات بشكل آلي، مقلدين في ذلك آباءهم وإخوانهم، ويندر أن تجد فيهم من يعتمد في أداء عباداته على التفقه والرجوع إلى مصادر العلم الشرعي[1].

ومنها تكاسُل كثير من الناس عن أداء العبادات، والتهاون فيها، وعدم أدائها بإتقان، أو أداؤها رياءً للناس. ومنها مزجها ببعض البدع التي لا يوجد لها مستند من الشرع.

وأكثر المسلمين لا يدركون أن للعبادة في الإسلام مفهوما واسعا يشمل الحياة كلها، في جميع جوانبها الخاصة والعامة، والاعتقادية والعملية، وأن المسلم ينبغي أن يتحقق بالعبودية لله في أحواله كلها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣]. إذ (ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى العبادة، أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف، والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة أولا وأخيرا)[2].

وقد (عرف المسلمون الأولون حقيقة معنى العبادة، فكانوا عبادا لله حقًّا، وكان وصف العبودية جليا في حياتهم وجميع أعمالهم، بل كانت عاداتهم عبادات. . .إذ كانوا لا يتحركون تحركا ولا يسكنون سكونا إلا ويستشعرون رضا الله عن ذلك التحرك والسكون، حتى أصبح هذا الشعور محور تحركهم، ومبعث سلوكهم، لا تشوبه شائبة، ولا يغفلون عنه لحظة.

ولما ضعف هذا المفهوم في نفوس من بعدهم، وخفت ذلك الشعور في تصرفاتهم، ابتعدوا عن حقيقة العبادة تدريجيا، وانقلبت كثير من عباداتهم إلى عادات. فهناك من المسلمين من انحصر مفهوم العبادة عندهم في أداء بعض الشعائر التعبدية على وجه خاص، ففصلوا بين

---

(١) ينظر "الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه"، للأستاذ عبد القادر عودة (ص: ٣٨).

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٣٧).

علاقة الإنسان بربه وبين علاقته مع نفسه وغيره. . . وحصروا معنى العبادة في علاقتهم مع الله، فخرجوا بذلك عن الجادّة)[1].

وهناك من يعتقد أن العبادة لا تتعدى المسجد، فإن خرج من باب المسجد فلا سلطان للدين عليه، وله أن يعمل ما يشاء، فتجده يتعامل بالربا، ويأكل أموال الناس بالباطل، ويقطع الرحم، ويعق الوالدين، ويسيء إلى زملائه في العمل، وإلى مرؤوسه في الوظيفة، وترى امرأته وبناته متبرجات كاسيات عاريات.

وهناك من صارت الشعائر التعبدية عندهم تقاليد موروثة يحافظ عليها الصغير والكبير من أجل أنها تقاليد فقط، فالأخلاق وحجاب المرأة وقضية العرض كلها تقاليد أكثر مما هي عبادة[2].

والحجاب الذي كان مظهر العفة والحياء، أصبح عند كثير من النساء عبئا ثقيلا، يتفنّنّ في إزاحته، أو تغيير هيئته، وإذا ما لبسته إحداهن فإنما تلبسه تبعا لعادات مجتمعها وتقاليد بلادها، وما أعجب أن تحتجب المرأة في صلاتها، ثم تخرج بعدها سافرة متبرجة!!

وهناك من المسلمين من انفصل شعورهم عن سلوكهم في أداء هذه الشعائر التعبدية، فخضعوا لله بجوارحهم، ولم يخضعوا له بمشاعرهم وقلوبهم، بل تصور كثير منهم تعبُّده لله ثقلا ينقض ظهره، وقيدا يحد من حريته، ولكنه يؤديها مجاراة لما يفعله أمثاله في المجتمع الذي يعيش فيه[3].

---

(١) مقال "تحول العبادات إلى عادات وأثره في حياة المسلمين"، محمد أبو الفتح البيانوني، مجلة البحوث الإسلامية (٢/ ص١٨٩).

(٢) مقال "الجيل الذي نريد"، أم زياد المالكي، مجلة البيان العدد ٣١، (ص٩٤).

(٣) ينظر "تحول العبادات إلى عادات"، مجلة البحوث الإسلامية (٢/ ص ١٨٩).

ومن أبرز الجوانب السلبية في هذا الباب اعتناءُ الناس بمظاهر العبادات أكثر من حقائقها، وبصورها أكثر من مقاصدها؛ فبعْد أن كان للشعائر التعبدية قدسيتُها في نفوس المؤمنين، أصبحت عندهم عبارة عن مظاهر ومراسم، لا تترك أثرا، ولا تجدي نفعا.

فبعد أن كان المرء يشعر عند التلفظ بالشهادتين بالخضوع الكامل لله، أصبحنا نجد من المسلمين من يكررها مئات المرات ويجعلها وردا من أوراده وهي لا تترك فيه أثرا، ولا تصلح منه عملا.

وقُلْ مثل هذا في جميع أنواع الذكر: فكم من مستغفر لله عز وجل وهو متلبس بمعصية الله، لا يجاوز الاستغفارُ لسانَه! وكم من حامد ومسبح بحمد الله تعالى بلسانه، وهو غافل عن نعمه، جاحدٌ بها! مع أن الله تعالى وصف المؤمنين الصادقين في السورة موضع الدراسة بوجل القلوب عند ذكر الله تعالى فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥).

وقد تجد من يجلس في المسجد وهو يتلو آيات القرآن، فتمر عليه آيات الوعد والوعيد دون أن تهز من نفسه، أو تنبه شعوره!! وربما قرأ آية الربا ثم يتعامل به... مع أن الله تعالى وصف المؤمنين الصادقين في سورة الحج بإخبات القلوب عند سماع كلامه فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الحج: ٥٤].

والصلاة التي كانت قرة عيون المؤمنين، ومعراج المتقين، أصبحت عند كثير من المصلين جسداً بغير روح، وصارت حركاتٍ منظمةً تفتقد الخشوع والطمأنينة[(١)]، فلم تعد تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولم يعد المصلي يستشعر بين يدي مَنْ يقوم، ومَنْ يناجي.

(١) "تحول العبادات إلى عادات وأثره في حياة المسلمين"، محمد أبو الفتح البيانوني، مجلة البحوث الإسلامية (٢/ ١٩٠).

والزكاة التي شرعت طُهرةً للقلوب وتزكية لها من حب المال، أصبحت عند كثير من المؤدين لها ضريبة من الضرائب، يتثاقلون في إيتائها، ويحتالون للتخلص منها. وأنى لمثل هذه الزكاة أن تردع صاحبها عن الحرام، وأن تطهر قلبه من الشح والحرص!

وشهر رمضان الذي كان مدرسة للتقوى والصبر، أصبح شهرا يمتنعون فيه الصائمون عن الطعام والشراب في النهار، ويسترسلون فيه بالليل، وكثير منهم يمسكون عن شهوتي البطن والفرج، ولا يكفُّون ألسنتهم عن الغيبة والنميمة والكذب، ولا أعينهم عن النظر للعورات، ولا آذانهم عن سماع المحرمات[1]. وأنى لمثل هذا الصيام أن يطهر النفوس ويربيها على التقوى!

ومناسك الحج التي تُعَدّ مدرسة تربوية شاملة، أصبحت عند معظم الحجاج أعمالا شكلية لا تترك أثرها في النفوس، يتحرز الحاج فيها من محظورات الإحرام، وقد يكون متلبسا بمحظورات الإسلام، وكم من حاج يسأل عن حكم لبس الساعة مثلا حال الإحرام خشية الوقوع في المحظور، وهو متختم بالذهب طيلة حياته، لا يأبه به ولا يسأل عنه! وكم من حاج يتحرز من سقوط شعرة أو شعرات من رأسه، وهو مطلق لنفسه العنان في غير أيام الحج، فيحلق ما يشاء ويترك ما يشاء، ولا يسأل عن الحكم الشرعي في ذلك، فيعود الحاج من الديار المقدسة ولم يتغير فيه شيء.

وقل مثل هذا في كل شعيرة من الشعائر التعبدية، وفي كل عمل دعا إليه الإسلام، ولا يزال في المسلمين من يتمسك به أو يدعو إليه[2].

وكذلك من المظاهر السلبية في باب العبادات: اختلال الأولويات في سلم التدين، فإننا نجد بعض المتدينين يركزون على بعض الأعمال والآداب التي تتعلق بالظاهر أكثر من الباطن، مثل تقصير الثوب، وإحفاء الشارب، وإعفاء اللحى، وصورة حجاب المرأة، وعدد درجات

---

(١) مقال "التناقض بين العبادة والسلوك"، د. أسامة مشعل، مجلة البيان، العدد ٢٠٥، ص ٧.

(٢) تحول "العبادات إلى عادات وأثره في حياة المسلمين، محمد أبو الفتح البيانوني، مجلة البحوث الإسلامية (٢/ ١٩٢). وانظر: خصائص التصور الإسلامي، لسيد قطب: (ص ١٣١ – ١٣٥)، و"دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه" (٢/ ٧٤٩).

المنبر، وطريقة وضع اليدين أو القدمين أثناء القيام في الصلاة، إلى غير ذلك من الأمور التي تتعلق بالصورة والشكل أكثر مما تتعلق بالجوهر والروح، فهذه الأمور وإن كانت من الدين إلا أنها لا تأخذ الأولوية في الدين.

وفي المقابل نرى أن كثيرا ممن يدققون في تلك الأمور الظاهرة وأمثالها يغفلون هذا التدقيق، ولا يكترثون به في أمور أعظم قدرا، وأعمق أثرا، مثل بر الوالدين، وصلة الأرحام، وأداء الأمانات، ورعاية الحقوق، وإتقان العمل، وإعطاء كل ذي حق حقه، والرحمة بخلق الله، والتورع عن المحرمات اليقينية، إلى غير ذلك مما وصف الله به المؤمنين في كتابه، مثل أوائل سورة الأنفال، وأول سورة المؤمنين، وأواخر سورة الفرقان، وغيرها[1].

**واقع الأمة في شأن الصلاة:**

لا شك أن الصلاة من فرائض الدين وأركانه، وكثير من الناس –ولله الحمد – يؤدون الصلوات المفروضة، ولكن ثمة طائفة من الناس ممن ينتسبون إلى الإسلام يتركون الصلاة جملة، ومنهم من يصليها أحيانا ويتركها أحيانا أخرى. ومنهم من يصليها ولكنه يؤخر معظم الصلوات عن أوقاتها بغير عذر شرعي، ومنهم من يصليها ولكنه لا يطمئن في ركوعها وسجودها، وإنما يصليها نقْرًا كنقر الغراب، خصوصًا من كان يصلي وحده، أو يقضي ما فاته من صلاته مع الإمام، أو كان يصلي في السفر.

ومنهم من لا يصلي في المسجد ولو كانوا بجواره إلا في الجمعة وحدها، أو العيدين!! وبعضهم لا يصلي إلا في رمضان، فإذا خرج رمضان تركوها.

ومنهم من يضيعها ويُؤْثر عليها غيرها، كمن يؤخرها لمشاهدة مسلسل أو متابعة مباراة لكرة القدم أو لعب الورق أو شبهها، وربما صلاها بعدما يخرج وقتها.

وكثير ممن يصلي الصلوات الخمس لا يصلي صلاة الصبح في وقتها.

---

(١) "فقه الأولويات دراسة جديدة في ضوء الكتاب والسنة"، للدكتور يوسف القرضاوي (ص: ١٥٤).

وممن يصلي مع الجماعة في المسجد من يسابق الإمام في الركوع والسجود والخفض والرفع، مع أن الواجب على المأموم أن يكون تابعًا لإمامه لا سابقًا له، فلا يكبر المأموم حتى يكبر الإمام وينقطع صوته.

ومن الغرائب التي نراها أن نجد من المسلمين من يحرص على صوم رمضان، ولكنه – للأسف – لا يحرص على أداء الصلاة. ولا ريب أن الصلاة أعظم في ميزان الدين من الصيام، فهي العبادة الأولى وعمود الإسلام، ولكن بعض الناس يستثقلون أداء الصلاة ويستهينون بتركها، ويستعظمون انتهاك شهر رمضان لما له من هيبة عظيمة في النفوس[1].

**واقع الأمة في شأن عبادة الحج:**

من المظاهر الإيجابية في هذا الجانب اجتماعُ عدد هائل من الحجاج في الديار المقدسة في أيام الحج من كل عام، مع وجود رحلات منظمة للحج، يشرف عليها مشرفون ومرشدون، يرشدون الحجيج إلى المناسك، ويساعدونهم على أدائها. وهذا كله تصديق لقوله عز وجل: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الحج: ٢٧].

أما المظاهر السلبية فمنها أن عبادة الحج أصبحت لدى بعض المسلمين مجرد رحلات سياحية، تكاد تكون خاليةً من روحها الإيمانية، بل صارت مجالاً للتفاخر والمباهاة، وكأن الهدف منها أن يلقب أحدهم بالحاج فلان، وإن لم يخاطب بذلك عدّه إهانة له.

والمتأمل في واقع الناس في الحج يجد الكثير من المنكرات والأخطاء الناتجة عن: الجهل بالشرع، وضعف الخوف من الله، وعدم مراعاة حرمة الزمان والمكان، الناتجة عن واتباع الأعراف والعوائد، ولعل من أبرز ما يتفشى في الحج من الأخطاء: ارتكاب محظورات الإحرام عمداً بغير عذر، وأذية المسلمين بالقول والفعل، وترك التناصح والأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، وتأخير الصلاة عن وقتها، والغيبة، والنميمة، واللغو، والجدال، وقيل وقال، والإسراف أو التقتير

(١) ينظر فقه الصيام، للدكتور يوسف القرضاوي (ص: ١٤٤).

في النفقة، والعبث بالأطعمة، وسوء الخلق، والتهاون في الذنوب: كإطلاق النظر، والاستماع إلى ما لا يحل، ومزاحمة النساء للرجال، وكشفهن لما لا يجوز كشفه، والتعجل أو التأخر عند أداء المناسك في الأوقات الشرعية المحددة لها، وعدم مراعاة حدود الأمكنة التي لا يجزئ أداء أعمال الحج خارجها ... إلخ[(١)].

وبسبب الجهل السائد لدى كثير من الحجاج بآداب تلك الشعيرة وأحكامها، كثر ما يحصل بين الحجاج من جدال وخصام، وإيذاء واعتداء، ولا سيما في الطواف والسعي، وعند التنقل بين المشاعر المقدسة، مع أن ذلك منهي عنه لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [سورة البقرة: ١٩٧][(٢)].

والحج من أكثر العبادات التي تشوبها الشوائب، وذلك قال شريح القاضي معبرا عن قلة من يؤدون الحج كما أمروا به: (الحاج قليل، والركبان كثير)[(٣)]، فالوافدون إلى مكة من أجل الحج كثير، ولكن الذين يحجون مخلصين لله متبعين لرسول الله قلة.

فما أكثر من يقصد البيت الحرام للحج، لكن قد تكون نفقته من حرام، أو يكون قد خرج للحج رياء وسمعة، أو تكثرا ومباهاةً عند الناس، أو يكون حجه على غير سنة ولا موافقة للشريعة.

وما أغبن من بذل نفسه وماله وبدّل حاله وجماله، فيرجع بالمحرمات وغضب الرحمن، قال الشاعر:

يحـــج لكيْمـــا يغفـــر الله ذنبَـــه ... ويرجـع قـد حُطَّـت عليـه ذنـوبُ[(٤)]

---

(١) ينظر مقال "حتى يكون حجنا مبرورا"، بقلم: فيصل بن علي البعداني، مجلة البيان، العدد ١٠٥، (ص ٤).

(٢) مجلة البيان، افتتاحية العدد ١١٢، (ص ٤).

(٣) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٥/ ١٩، رقم ٨٨٣٧).

(٤) المستطرف في كل فن مستطرف (ص: ١٩).

**واقع الأمة في شأن ذكر الله تعالى:**

من المظاهر الإيجابية في هذا العصر في هذا الجانب أن كثيرا من الناس عرفوا الأذكار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم، وانتشرت بين أيديهم الكتب القديمة والمعاصرة التي تتضمن فضائل الذكر وتُبيّن أذكار اليوم والليلة، وصار أكثرهم يقرأونها ويحفظون بعضها.

أما الجوانب السلبية فأبرزها قصْر مفهوم ذكر الله على الذكر باللسان، مع أنه أدنى مراتب الذكر، وأعلى منه ذكر الله بالقلب، وذكره تعالى بالقلب واللسان معا.

ومن المظاهر السلبية في ذلك ذكر الله بطرق مبتدعة، فتجد أتباع الطرق الصوفية يهتمون بالذكر، ولكنهم يركزون على الذكر اللساني، ويذكرون الله جماعةً بكلمة التهليل أو غيرها بصوت واحد، ويذكرونه بالاسم المفرد، وهو اسم الجلالة: "الله"، وهو عندهم ذكر الخاصة، أو يكررون ضمير الغيبة: "هو هو هو هو ..."، وهو عندهم ذكر خاصة الخاصة، وأحيانا يقتصرون على الآهات: "آه آه آه..."، وهكذا يعبثون بالذكر، ويلحنون في أسماء الله الحسنى[(١)].

ونجدهم في حلقات (الذكر) يرقصون ويترنحون، ويتمايلون ذات اليمين وذات الشمال، وبعضهم يقفزون بين الحين والآخر، ويصاحب ذلك أحيانًا دقاتُ الطبول والدفوف. ويمزجونه بإنشاد بعض القصائد والتغني بها.

والأسوأ من ذلك أنهم لا يبدأون الذكر حتى يستأذنوا الشيخ أولا، ويستمدوا منه المدد، قائلين: "دستور يا أستاذ، مددك يا سيدي"، ثم يستأذنون سلسلة الطريقة التي ينتسبون إليها من قادرية أو تيجانية أو رفاعية أو مرغنية، فيقولون: "دستور يا أصحاب الطريق والقدم"[(٢)].

---

(١) ينظر مفهوم الأسماء والصفات، للشيخ سعد ندا، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤٥، (١٩/ ٣١٤، بترقيم الشاملة آليا).

(٢) مقال "التصوف من صور الجاهلية"، للشيخ محمد أمان بن علي الجامي، مجلة البحوث الإسلامية (١٢/ ٢٦٧).

وبعد أن يجأرون بأسمائهم هكذا معتقدين أنهم يسمعونهم ويأذنون له بقلوبهم، وبعد أن تلطخوا بهذه الوثنية ليتقبل ذكرهم، يبدأون في الذكر[1]. وهذه أمور عظيمة تنافي إفراد الله تعالى بالذكر.

**واقع الأمة في شأن التصدق والإنفاق في سبيل الله:**

من المظاهر الإيجابية في هذا الشأن وجودُ عددٍ من الجمعيات الخيرية والهيئات الإغاثية والمؤسسات الوقفية التي تستقبل مئات الآلاف من التبرعات في مختلف جوانب الخير، ككفالة الأيتام، وإعانة المحتاجين، وتطبيب المرضى، ورعاية المسنين، والإعانة على النوائب، والمساعدة عند نزول الكوارث.

ولكن ثمة مظاهر سلبية في هذا الجانب:

منها: أن أكثر الناس يغفلون عن المتعففين، وإنما يتصدقون على السائلين، فيظل الفقير يكابد الآم الفقر والحرمان وحده بعيدا في صمت، ولا يلتفت إليه أحد، وتتراكم الهموم على مسلم مهموم فلا يجد – على الأقل – من ينفس كربته أو يخفف عنه ضائقته.

وينقطع ابن السبيل فلا يكاد يلتفت إليه أحد ليسأل عن حاله ويقدم له العون في سفره وغربته، وقل مثل ذلك حين يشعر كبار السن أنهم أصبحوا عالة على المجتمع، فلا يقدرون حق قدرهم، ولا تقدر سابقتهم، ولا يستفاد من تجاربهم.

وحينئذ يضطر المحتاج في سبيل قضاء حاجته إلى أكل أموال الناس بالباطل، إما عن طريق السرقة، أو النصب والاحتيال، أو الاستقراض الربوي .. وكلها ظلمات بعضها فوق بعض[2].

(١) ينظر في كل ما سبق كتاب "هذه هي الصوفية" للشيخ عبد الرحمن الوكيل.

(٢) شعاع من المحراب (١٠/ ٥٣ – ٥٤).

ومنها: أن كثيرا من المتصدقين يغفلون عن جوانب خفية للصدقة جاءت بها الشريعة، وكثيرٌ من المسلمين تصورهم للصدقة ناقص، فيتصورون أن الصدقة بالأموال فقط.

ومن المظاهر السلبية في هذا الجانب أيضا: أن كثيرا من أغنياء المسلمين لا يبذلون المال إلا في إغاثة المنكوبين من المسلمين، إما بكوارث طبيعية كالفيضانات والزلازل والحروب، وما شابه ذلك، حيث يرون المنكوبين وقد أخذ الجوع أو العطش أو المرض أو الجراح أو غيرها تحصدهم حصدا، فيسرعون إلى إغاثتهم، وذلك أمر مطلوب، بل فرض كفاية، تأثم الأمة الإسلامية كلها إذا لم يوجد فيها من يقوم به قياما كافيا، ولكن أولئك الأغنياء يغفلون عن مجالات الوقاية من الكوارث والنكبات قبل نزولها[1].

**واقع الأمة في شأن الأضاحي:**

الأضحية: شعيرة من الشعائر التي يتقرب بها إلى الله عز وجل، ولذلك ينبغي تعظيمها والإخلاص له فيها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [سورة الكوثر: ٢].

ومن المظاهر الإيجابية في هذا الجانب أن جميع المسلمين يحافظون على أداء هذه الشعيرة في مشارق الأرض ومغاربها، حتى في ديار غير المسلمين الذين يمنعون ذبح الأنعام على الطريقة الإسلامية.

ولكن الكثير من الناس يذبحون الأضاحي عادةً لا عبادَة. فقد أضحت الأضحية عادة من عادات الناس الاجتماعية، حيث يحرص عليها بعض تاركي الصلاة والمتهاونين بالصيام والقيام، أكثر من حرصهم على القيام بما أمر به الله تبارك وتعالى من فرائض وواجبات.

ومن الناس مع الأسف الشديد من يباهي بعددها أو غلاء ثمنها، فإذا اشترى خروفا مثلاً انطلق يحدث الناس بضخامته وغلاء ثمنه في المجالس، وربما يوهمهم بأنه إنما فعل ذلك ابتغاء للأجر، وهذه المباهاة لا شك أنها تنقص من الأجر إن لم تحبطه. والله تعالى يقول: ﴿لَن يَنَالَ

(١) السباق إلى العقول، للدكتور عبد الله قادري الأهدل (٢/ ١٨).

ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ [سورة الحج: ٣٧].

وقد أنكر السلف منذ عهد الصحابة التباهي بكثرة الأضاحي، فقد صح عن أبي أيوب الأنصاري – رضي الله عنه – أنه قال: (ما كنا نضحي بالمدينة إلا بالشاة الواحدة، يذبحها الرجل عنه وعن أهل بيته، ثم تباهى الناس بعد، فصارت مباهاة)[(١)].

**واقع الأمة في شأن أعمال القلوب:**

نلحظ في واقع الأمة في شأن أعمال القلوب، وجهين: وجها إيجابيا، وآخر سلبيا.

أما الوجه الإيجابي فمن منجزات الصحوة الإسلامية إحياء الحديث عن أحوال القلوب، وتأليف الكتب وتقديم الدروس والمحاضرات عن تزكية الأنفس، وكثرة الكلام عن الإخلاص والتقوى والمراقبة والخوف والرجاء واليقين، إلى غير ذلك من أعمال القلوب التي هي محل نظر الرب من العبد، وكذلك ترويج كتب التزكية الموافقة للكتاب والسنة، ككتب ابن القيم "مدارج السالكين"، و"الفوائد"، و"طريق الهجرتين" وغيرها، و"مختصر منهاج القاصدين" لابن قدامة، و"تهذيب موعظة المؤمنين" لجمال الدين القاسمي وغيرها[(٢)].

أما الوجه السلبي فإن أكثر المسلمين يعانون من قسوة القلوب، لا سيما في هذا العصر الذي استحكمت فيه الشهوات، وتلاطمت فيه أمواج الفتن والشبهات، ولم يسلم من أمراض القلوب إلا من عصمه الله تعالى.

وكثير من المسلمين يهتمون بالعبادات الظاهرة، وهذا أمر مطلوب بلا شك، ولكنهم يغفلون عن الأعمال القلبية، ويهملونها مع أنها أهم، كالخوف من الله، والرجاء في الله، والتوكل

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ: (كتاب الضحايا، باب الشركة في الضحايا، ٢/ ٤٨٦)، والترمذي في سننه (كتاب الضحايا، باب ما جاء أن الشاة الواحدة تجزئ عن أهل البيت، ح ١٥٠٥، ٤/٩١)، وقال: (حسن صحيح)، وأخرجه أيضا ابن ماجة في سننه: (كتاب الضحايا، باب من ضحى بشاة عن أهله، ح ٣١٤٧، ٢/١٠٥١)، وقد صححه الألباني في إرواء الغليل (٤/ ٣٥٥، رقم ١١٤٢).

(٢) مقالات موقع الدرر السنية.

عليه، والرهبة والخشية والخشوع والتفكر، وقد تفاجأ حين تجد شاباً ملتزماً في الظاهر، لكن فيه عُجْب أو كِبْر أو حسد[1].

ومن أشد أمراض القلوب التي انتشرت في عصرنا الحاضر أمراض الشبهات، فقد كثرت التيارات الفكرية الضالة التي صارت تشغل الناس بشبهاتها، والبرامج الإعلامية التي تبث الشبه وتشكك في الثوابت، مما يترتب عليه اعتقاد غير الحق المفضي إلى مرض القلب، بل موته في كثير من الأحيان والعياذ بالله .

أما أكثر أمراض القلوب انتشارا في هذا الزمن فهي أمرض الشهوات، وهي الشهوات المحرمة التي تتولد منها أمراض القلوب، كالشح، والبخل، والحسد، والغل، والحقد، والبغضاء، والحرص، والكبر، والعجب، وغيرها من الأمراض، وللأسف، فإن أكثر الناس غافلون عنها، مهملون لمداواة قلوبهم منها[2].

وبينما يتفقد كثير من الدعاة الأعمال الظاهرة للأمة، فإن القليل منهم هم الذين ينبهون على أعمال القلوب ويحذرون من أمراضها، ومما لا شك فيه أن تفريط المسلمين الظاهر إنما هو ثمرة لتفريطهم الباطن من الإخلاص لله ومراقبته[3].

والمتأمل في الواقع التربوي اليوم يجد ـ مع الأسف الشديد ـ قصوراً ملحوظاً في ميدان تزكية النفوس، بل ربما يجد الإنسان – أحياناً – تزهيداً وتهويناً من شأن التربية الإيمانية، مع أن تزكية النفوس وتطهير القلوب أعظم الزاد الذي يُحَصَّن به الشباب لمواجهة الفتن التي تحيط بهم.

---

(١) دروس الشيخ عائض القرني.

(٢) دروس للشيخ عبد الرحمن السديس.

(٣) "إخلاصنا مريض يوشك أن يموت! ١٢ جرعة ليتماثل للشفاء"، أبو أحمد الزهراني، موسوعة الخطب المنبرية (٣٥/ ١).

وتقوية الصلة بالله – عز وجل – أكبر معين يتقوى به الإنسان على مواجهة مكائد شياطين الإنس والجن[(١)].

**واقع الأمة في منازل السير إلى الله:**

منازل السير إلى الله تعالى: هي مقامات السلوك إلى الله، والتي يسميها ابن القيم منازل العبودية، ومن أبرزها: التوبة، والإنابة، والخوف، والرجاء، والورع، والزهد، والمراقبة، والإخلاص، والاستقامة، والتوكل، والصبر، والصدق، والحياء، والذكر، والمحبة، والإخبات، والمحاسبة. وهذه كلها من أعمال القلوب[(٢)]، إذ العبد (إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمّته، لا ببدنه، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح)[(٣)]، والله تعالى يقول: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢].

ومعرفة هذه المقامات أمر مهم: فهو (من تمام معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وقد وصف الله تعالى من لم يعرفها بالجهل والنفاق، فقال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [سورة التوبة: ٩٧]، فبمعرفة حدودها درايةً، والقيام بها رعايةً يستكمل العبدُ الإيمانَ، ويكون من أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [سورة الفاتحة: ٥])[(٤)].

وللأسف فإن معظم الناس لا يعرفونها، ولا يهتمون بالترقي فيها من منزلة إلى منزلة.

---

(١) "الفارغ.. عندما يكون فرصة!"، التحرير، مجلة البيان العدد ٢٣٨ (ص ٢).

(٢) ضوابط قيم السلوك مع الله عند ابن قيم الجوزية، لفضيلة الدكتور مفرح بن سليمان بن عبد الله القوسي، مجلة البحوث الإسلامية (٨٦/ ٢٧٤).

(٣) الفوائد لابن القيم (ص: ١٤١).

(٤) مدارج السالكين (١/ ١٦٠).

**واقع الأمة في عبادة التفكر:**

إن التفكر في الكون أرضِه وسمائِه، حيوانه وجماده، أخضره ويابسه، ليله ونهاره، نجومه وكواكبه، لَمِن أجلِّ الأعمال وأعظم العبادات التي تُرقّي الإنسان في مدارج السمو الروحي، وتنقل إيمانه من التقليد إلى الأصالة، ومن الشك إلى اليقين[1].

والإيمان القائم على التفكر في الكون والنظر في أسراره لا يخشى عليه من عاديات الشبه التي تبث من خلال كثير من الوسائل المعاصرة.

مع ذلك فإن هذه العبادة تكاد تكون غائبة في زمننا هذا، فإن الناس ينظرون إلى مخلوقات الله في كل مكان، من فوقهم ومن تحتهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ومع ذلك فأكثرهم غافلون عما فيها من آيات، أعمتهم الغفلة عن الاعتبار بها، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة يوسف: ١٠٥]. فهم يمرون على ما يثير الإعجاب وينظرون إليه وكأنهم لا يبصرون؟!! وإن رأوه فإنهم لا يتفكرون؟!! وتمر بهم الأحداث فلا يعتبرون؟!! وقد أنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الحج: ٤٦].

**واقع الأمة في أخذ العلم من مصادره، لا من التقليد:**

مع انتشار العلم وظهور مصادره إلا أن طوائف من الناس ما زالوا لا يأخذون المعرفة إلا تقليدا.

---

(١) "الذكر وأثره في حياة المؤمن"، لفضيلة الدكتور عبد الرحمن بله علي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المجلد ١٧/ ٢٥١.

ومن هذا القبيل ما يصنعه بعض الناس الذين يتبعون الجماهير دون أن يبحثوا في صحة ما ذهبوا إليه أو يتأكدوا من دقة ما قالوه، وقد تجد بعضهم يدعو إلى مظاهرة أو مسيرة، فيتبعه كثير من الناس، دون أن يعرفوا الهدف من ذلك.

والتقليد الأعمى من شر ما تبتلى به الأفراد والجماعات؛ لأنه يميت مواهب الفكر والنظر ويوجب جمودها وركودها، ويجعل الناس لا يميزون بين الحق والباطل، ولا بين الصواب والخطأ، فالخير ما فعله الناس، والشر ما تركوه، ويحمل أهله على الإعراض عن الحق ومعاداة أهله، والوقوف في طريق الإصلاح والمصلحين، والجمود على العقائد والمذاهب الموروثة والتعصب الجماعي لحمايتها، لأن قيام العقائد والمذاهب على أساس تقليد الآباء والأجداد يضفي عليها قداسة تستحوذ على عواطف الوارثين لها، وتصرفهم عن التفكير في صحتها أو بطلانها، وتحملهم على معارضة كل إصلاح يخالفها. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقائق في آيات كثيرة في شأن معاداة الأمم الماضية لدعوة رسلهم[1]، وأنكر سبحانه على أولئك الذين يتبعون قادتهم بغير حجة يستندون إليها فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩﴾ [سورة الحج: ٨ – ٩].

### واقع المسلمين في جانب العدالة والظلم:

للأسف، فإن الأمة تشهد في هذا الجانب شيوع الظلم بشتى صوره وأشكاله: ظلم الأفراد، وظلم الشعوب، وظلم الولاة وجورهم، وظلم بعض الناس لبعض، مما ينافي أعظم مقاصد الشريعة، وما أمر الله به وأمر به رسوله صلى الله عليه وسلم من إقامة العدل وإزالة الظلم[2].

(١) ينظر "الإسلام والحياة منهج القرآن في تحرير العقل والفكر"، للشيخ أحمد عبد الرحيم السايح، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ١٥.

(٢) الغلو: الأسباب والعلاج، ناصر العقل (١٣).

ولا عجب، فإن التقوى إذا انعدمت، وغابت مراقبة الله، فإن ذلك سيؤدي إلى صور متعددة من الظلم والطغيان، وألوان من الاعتداءات والجرائم! وإذا انتشر الظلم في المجتمع، وغاب العدل فيه، أكل القوي الضعيف، ونهب الغني الفقير، وتسلط صاحب الجاه والمكانة على المسالم المسكين.

ففي غمرة فتن الحياة الدنيا، ونتيجةً لطول الأمل ونسيان الآخرة، يستبد بعض الناس بما حباهم الله به من المال أو الجاه أو المنصب أو السلطة، حتى يصل بهم استبدادهم إلى درجة الظلم والطغيان، متناسين أصل خلقتهم، وأطوار نشأتهم، غافلين عن مآلهم ومصيرهم، ووقوفهم بين يدي الله الواحد القهار، فيتجبرون في الأرض، ويستعلون على عباد الله، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بمختلف أنواع الظلم.

ومن صور الظلم العظيمة ما يقع من حروب من بعض الأنظمة ضد شعوبها، وما تفضي إليه من جرائم تشيب لهولها الولدان: أطفال يقتلون، ونساء يغتصبن، وبيوت تهدم، وأناس يحتجزون، ورجال يعذبون، وآخرون يغيبون في غياهب السجون، وروائح الدماء تفوح من السهل والجبل، والبر والبحر، ولا يسلم من ذلك الأطفال والنساء والشيوخ، فضلا عن الشباب والفتيات!! ومن نجا من القتل فإنه لا ينجو من التشريد، حيث يغادر الآلاف ديارهم إلى مخيمات في الخلاء، أو يهاجرون إلى دول أخرى ليعانوا من العوز أو العنصرية.

وثمة دول بأكملها يتم احتلالها من دول أخرى من المسلمين أنفسهم، وأخرى تحاصر ويضيق عليها، وأخرى تهدد، وهكذا يستمر سيل الظلم والطغيان، وتسود شريعة الغاب في عالم يدعي الحضارة والرقي.

وهناك صور خاصة من الظلم: كالانتهاك الصارخ لكثير من حقوق المرأة في كثير من مجتمعاتنا العربية والإسلامية شرقاً وغرباً، فقد ورثت بعض المجتمعات أعمالا جاهلية منحرفة تئدُ قيمة النساء، وتعتدي على حرماتهن؛ ولهذا انتشر عضْل المرأة، وظهر الاعتداء عليها بالضرب، وأسرف بعضهم في الاستيلاء على مالها، والتسلط على حقوقها المادية والمعنوية.. هذا فضلاً

عن سلسلة طويلة من الممارسات الاجتماعية والثقافية غير المحمودة التي لا يرتضيها العقلاء، فضلاً عن أصحاب الدين والغيرة![1]

**واقع المسلمين في جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تُحيا الفضائل، وتُمات البدع وتُحارَب الرذائل، وتُحمى الأعراض، وتصان الحرمات، وبالنهي عن المنكر يحاصر المبطلون، ويكشف المجرمون، ويضيق الخناق على الجريمة. وحين يعز سوق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يأمن الناس على أموالهم ودمائهم وأعراضهم، وتصبح الجريمة خفية، ويفعل المعروف علانيَة.

وفي الواقع نجد من الأوجه الإيجابية في هذا الجانب أن المنابر قد كثرت، وتوافر الخطباء والوعاظ الذي يحذرون الناس من المنكرات، ويرغبونهم في الطاعات، ويأمرونهم بما أمرهم به رب الأرض والسماوات، وقد استثمروا وسائل التواصل الحديثة في التحذير من المخالفات، والتذكير بالصالحات. ولكن هذا غير كاف، لأن من يشيع المنكر يعمل ليل نهار، لا سيما وقد انتشرت القنوات الفضائية والوسائل التواصلية التي تنشر المنكر مجاهرةً أحيانا، ومُقَنّعةً في أحيان كثيرة.

بل إن في بعض البلاد مؤسسات خاصة تقوم بهذا الفرض الكفائي، كهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمملكة العربية السعودية. وأهل الحسبة يسهرون حين ينام الناس، ويقومون بمتابعة أهل الفساد والفجور، استشعارا لمسئوليتهم في حفظ الدين، وإشاعة الأمن، وصيانة الأموال والعقول والأعراض، وهم يتكاملون مع رجال الأمن في حماية المجتمع من أعاصير الفتن وموجات الفساد[2].

أما الجانب السلبي فيتمثل في عدة أمور:

---

(١) "نحن أولى بحقوق المرأة"، التحرير، مجلة البيان، العدد ٢٢٠ (ص ٣).

(٢) شعاع من المحراب (١٢/ ١٥٨).

– سكوت بعض المنتسبين إلى العلم الشرعي عن المظالم والمفاسد الواقعة في بلدانهم، مما أسقط هيبتهم من أعين الناس، وجعلهم موضع تهمة، وأفقد الثقة بأقوالهم وفتاواهم، بل جعلهم موضع سُخط شباب الصحوة الإسلامية عامة[(١)].

– جمود كثير من الدعاة والخطباء على أساليب وأنماط وموضوعات لا تحرك المشاعر والقلوب، ولا تستجيب لهموم الشباب، ولا تعالج مشاكل المجتمع.

– إحجام بعض الناس عن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مخافةَ أن يصابوا بما يكرهونه، كالسجن، أو الفصل من الوظيفة، أو الإخراج من الأوطان، وقد يكون هذا هو الخوف في غير محله في كثير من الأحيان، حيث نجد العاملين يعملون وتمر سنوات دون أن يتعرضوا لشيء من ذلك، بل يحفظهم الله ويكرمهم بعلو القدر والمكانة.

– تقاعس الوالدين عن أمر أولادهم بالمعروف، وتغاضيهم عن المنكر الذي يرونه فيهم، فنجد بعض الآباء والأمهات يرونَ أبناءهم وبناتهم يجاهرون بالمعصية، ومع ذلك لا ينهونهم عن ذلك، بحجة احترامهم لحريتهم الشخصية، ويعتذرون عن ذلك بأن أولادهم أبناء عصر يختلف عن العصور السابقة، مع أنّ الأحكام الشرعية ملائمة لكلّ زمانٍ ومكان إلى قيام الساعة.

– الإغماض الشديد ممن ينصبون أنفسهم مفكرين ومثقفين في أوساط المجتمع عن الأخلاقيات المنحرفة، من إضاعة الأمانات، والتملُّص من المسئوليات، وعدم إتقان العمل، والحرص على المآرب الشخصية، ونسيان المبادئ الكبرى، وإهدار الحقوق العامة، وانتشار اللغو واللغط والكسل والإهمال، وتضييع الأوقات في غير ما هو نافع، واستقصاء المرء في طلب ما يرى أنه من حقوقه، وتراخيه في أداء ما يجب عليه، وتقاعسه عن الكمال مع قدرته عليه، ينضم إلى ذلك فقدان الرفق في القول والعمل، وشيوع القسوة في التعامل، والمبالغة في الخصام والعداء، والتحاكم إلى قشورٍ يطل من ورائها الرياء والمجاملات الكاذبة[(٢)].

---

(١) "الإسلاميون.. كيف ينظرون إلى المستقبل؟" (٢)، إعداد: أحمد فهمي، مجلة البيان، العدد ٢٠٣، (ص١٤).

(٢) دروس للشيخ صالح بن حميد (٤٥/ ٢، بترقيم الشاملة آليا).

– وجود من يعارض الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ويتهم المحتسبين، ويتناولهم سبًّا وتأثيماً، ويتعرض لهم قذفاً وتلفيقاً، مما ينفر الناس عنهم، ويضعف أثرهم.

– عدم اهتمام كثير من الحكومات في البلدان الإسلامية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إن بعض الحكومات تسن قوانين تقر المنكر أو تشجعه، كبيع الخمور، والتعامل بالربا، والترخيص لدور الفساد والملاهي الليلية، إلى غير ذلك. وهذا مناف لقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠ – ٤١].

**واقع المسلمين في جانب الجهاد المشروع:**

الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، ولكن الأمة الإسلامية في هذا العصر تمر بمرحلة من الذُل والهزيمة لم تبلغها في أي حقبة من حِقَب التاريخ الإسلامي، فقد اجتمعت قوى الشر من يهود ونصارى وغيرهم، فرمتْها بسهامها عن قوس واحدة[1]، ولم يستطع المسلمون أن يردوهم على أعقابهم خاسرين، فقد ابتلوا بحب الدنيا، والجري وراء المنافع المادية العاجلة، وتقديم المصالح الشخصية على القيم والمبادئ، فكانت هذه السمات النفسية مانعةً من الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته، حائلةً دون تحمل المشاق ومكابدة الأهوال في سبيل العقيدة الإسلامية.

وقد تعرضت شعيرةُ الجهاد في سبيل الله على مدى سنوات متوالية لحرب ضَروس دون كلل ولا ملل، حتى تبنّاها أناس من بني جلدتنا، حاولوا بكل وسيلة طمسَ معالم هذه الشعيرة في النفوس، ومحوَها من حياة المسلمين، فدعوا إلى منع تدريس الأحكام المتعلقة بها في المدارس والمعاهد، وشوهوا حقيقتها، وأسقطوا من حياة العظماء الجوانب الجهادية من حياتهم، وجندوا

(١) ينظر "واجبنا في زمن الانهزام"، د. محمد بن عبد الله الشباني، مجلة البيان، العدد ٧٦ (ص٣٦).

بعض من ينتسب للعلم لتغيير معانيها وحقائقها، ثم لم يكتفوا بذلك حتى وصفوا كل من يدعو إليها بالإرهابي، استرضاء لأعداء الأمة، وتقرباً منهم[(١)].

وكانت النتيجة أن الجهاد العسكري ضعف، وكاد أن يتعطل، وأصبح من الأمور التي يُتكلم فيها على استحياء، بل إن الدعوة إليه أصبحت أمراً نشازاً، وأصبحت الدعوة إلى الاستسلام للأعداء بكل ما يطلبونه هي النغمة السائدة التي يتولى الإعلام غرسَها وتثبيتَها، والتأكيد على أنها الطريق الأفضل لأخذ الحقوق، ولا جدوى لغيرها من الوسائل، كما أنها الركيزة التي يقوم عليها البناء السياسي في العالم الإسلامي وتتولى القيادات السياسية تنفيذها بحماسة وجِدّية[(٢)]. وصارت المقولة التي يُراد لها أن تتعمق في العقل المسلم هي: إن الإسلام دين يدعو إلى السلام، ولو كان السلام يقوم على التمكين لغير شرع الله! وصاروا يدعون إلى عقد الندوات والمؤتمرات الداعية إلى التقارب بين الأديان ونبذ الصراع مع الباطل ومسالمته، مع أن سنة الله قائمة على استمرار الصراع بين الحق والباطل[(٣)]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [سورة الحج: ٤٠].

ومن الانحرافات الظاهرة التي تبدو طافية على السطح في مثل هذه الأيام ما نسمعه ونقرؤه من نشاط محموم ومكثف من أجل إقامة «السلام» مع يهود، وإنهاء الصراع معهم في ظل الوفاق الدولي[(٤)]. وصار كثير من المثقفين المسلمين يسوغون هذا الأمر بعدة مسوغات، ويجعلونه من الدين، بحجة أنه لا قِبَل للأمة بالأعداء وحلفائهم، بل وانساق بعضهم يردد مقولات (الآخر) ودعوتها لجعل كل عمل مقاوم لرد العدوان وطرد الاحتلال إرهابا يجب أن يحارب.

---

(١) "دروس مستفادة من جهاد خطاب"، هيثم بن جواد الحداد، مجلة البيان، العدد ١٧٧ (ص٧٨).

(٢) "واجبنا في زمن الانهزام"، د. محمد بن عبد الله الشباني، مجلة البيان، العدد ٧٦ (ص ٣٦).

(٣) "تأملات في فقه الجهاد" (١)، بقلم: د. محمد بن عبد العزيز الشباني، مجلة البيان، العدد ١٠٧ (ص ٣٠).

(٤) "كلمات في الولاء والبراء"، عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف، مجلة البيان، العدد ٥١ (ص ٢٣).

وهذه الحال هي التي أطمعت قوى الكفر والاستكبار فينا، فصرنا خائفين من أعدائنا، وصار أعداؤنا لا يهابوننا ولا يقيمون لنا وزنا، لأنهم علموا أننا تركنا الآخرة وانغمسنا في ملذات الدنيا[(١)]، كما أخبر المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله: ((يوشك أن تداعى عليكم الأممُ من كل أفق كما تداعى الأَكَلَة على قصعتها. قال: قلنا: يا رسول الله، أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، تنتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن. قال: قلنا وما الوهن ؟ قال: حب الحياة وكراهية الموت))[(٢)].

ومن المظاهر السلبية في هذا العصر فيما يتعلق بمفهوم الجهاد: أن البعض عمد إلى تحريف العبارات عن مدلولاتها ومعانيها لتوافق أهواءهم، فمن ذلك: استخدام لفظ الجهاد وأدلته لدفع كثير من البسطاء ممن يدفعهم الحماس الديني والرغبة في الاستشهاد إلى الانخراط في عمليات قتل عن طريق التفجيرات باسم الجهاد، أو القيام بعمليات انتحارية باسم الاستشهاد؛ لتحقيق أغراض، اللهُ عليم بها.

وكذلك: إطلاق لفظ الشهيد على أولئك الذين يُقتَلون تحت راية وطنية أو قومية أو مذهبية أو طائفية؛ بقصد تحقيق مكاسب سياسية تخدم قوى الكفر من النصارى واليهود[(٣)].

ومن النتائج السلبية لذلك في هذا العصر أن الجهاد قد استعمل في غير محله، وأطلق على أمور لا تمت إليه بصلة، ومن ذلك أن بعض الشباب الذين سلكوا مسالك الغلو ووقعوا

---

(١) "واجبنا في زمن الانهزام"، د. محمد بن عبد الله الشباني، مجلة البيان، العدد ٧٦ (ص ٣٦).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٧٨، رقم ٢٢٤٥٠)، وأبو داود في سننه: (كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، ح ٤٢٩٧، ٤/ ٤٨٣ – ٤٨٤)، والبيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٥٣٤، جماع أبواب إخبار النبي –صلى الله عليه وسلم– بالكوائن بعده، باب إخباره بتداعي الأمم على من شاء الله من أمته إذا ضعفت نيتهم. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٨٧): (وإسناد أحمد جيد). وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة بمجموع الطريقين (٢/ ٦٤٧، رقم ٩٥٨)، وينظر أنيس الساري (٩/ ٦٧٦٧، رقم ٤٧٧٥) حيث استفاض في ذكر طرقه وشواهده وانتهى إلى صحته.

(٣) "تأملات في فقه الجهاد"، الجزء ١، بقلم: د. محمد بن عبد العزيز الشباني، مجلة البيان، العدد ١٠٧ (ص ٣٠).

في غوائل التكفير مارسوا جهاد الكفار كما يزعمون على غير وجهه، فقتلوا الأبرياء، واستحلوا دماء رجال الأمن، واعتدوا على المستأمنين، وروّعوا الآمنين!!!

وهذه التصرفات الخاطئة التي استبيحت فيها الدماء المحرمة باسم الجهاد، جرأت الكثير من المنافقين والمرتابين والمشككين بأن يشككوا بمبدأ الجهاد أصلاً، فيقولون: هذه مرحلة مضت، وكيف يسوغ الجهاد في هذا العصر أمام عالم فيه منظمات وفيه معاهدات واتفاقيات؟ وبلغت الصفاقة ببعضهم أنهم يسوّغون عدوان الدول الظالمة واحتلالها لبلاد المسلمين، ويمنعون المسلمين من جهادهم والدفاع عن النفس والأرض والعرض.

وإني وإن كنت قد ركزت هنا على الجهاد العسكري، إلا أنه لا يفوتني أن أنبه إلى أن من المظاهر السلبية في موضوع الجهاد أن أكثر المسلمين يقصرونه على القتال في سبيل الله، مع أن مفهوم الجهاد أوسع من ذلك، فهو يشمل كما تقدم كل أوجه المدافعة للشر باللسان والقلم والمال والنفس، وينسون أن المسلم مهما كان لا بد له أن يجاهد في سبيل الله بصورة من الصور، امتثالا لأمره تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[سورة الحج: ٧٨].

## المبحث الثاني: سبل تحقيق هدايات آيات السورة في واقع الأمة

**تمهيد:**

إن القرآن الكريم هو هداية الخالق لإصلاح الخلق، وهو التشريع العام الخالد الذي تكفل بجميع ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم ودنياهم، في العقائد والأخلاق والعبادات، وفي المعاملات المدنية والجنائية، وفي الاقتصاد والسياسة، والسلم والحرب، والمعاهدات والعلاقات الدولية، فلا عجب أن كانت السعادة لا تنال إلا بالاهتداء بهديه، وأن كان الشفاءَ لأمراض النفوس وأدواء المجتمع[(١)].

ولا شك أننا إذا أردنا أن نحقق هدايات كتاب الله في واقع الحياة فلا بد من العمل وسلوك السبل التي توصلنا إلى ذلك، ولا يقوم ذلك إلا على أساس الاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه، إذ لا حول ولا قوة لنا إلا به عز وجل، ولا يتم أمر إلا بإذنه، ولا يقع شيء إلا بمشيئته، وأحوجُ ما يكون المسلم إلى التوكل حين يكون داعيةً للهدى، حاملا لمشعل الهداية، طالبًا للإصلاح، فهو يجد في التوكل حصناً حصيناً، يلوذ به في مواجهة طواغيت الكفر، وفراعنة الظلم والفساد؛ فهو ينتصر بالله، ويستعز بالله، ومن انتصر بالله فلن يغلب أبداً، ومن استغنى به فلن يفتقر أبداً، ومن استعزَّ به فلن يذل أبداً، مصداقا لقوله سبحانه: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾ [سورة آل عمران: ١٦٠][(٢)].

وقد أمر الله سبحانه نبيه عليه الصلاة السلام والأمةَ كلها بالتوكل عليه فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [سورة هود: ١٢٣]. وقال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾ [سورة الفرقان: ٥٨]. وقال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ

(١) ينظر "المدخل لدراسة القرآن الكريم"، لمحمد أبو شهبة (ص: ١٠ - ١١).

(٢) التوكل، للدكتور يوسف القرضاوي (ص: ٦).

ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ الشعراء: [٢١٧ – ٢٢٠]. وقال: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]. وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٤٨]، وغيرها من الآيات.

وجعل التوكل شرطاً لثبوت الإيمان، فقال على لسان رجلين من أصحاب موسى عليه السلام: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة المائدة: ٢٣].

وجعله تعالى من آكد صفات المؤمنين الصادقين، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ﴾ [سورة الأنفال: ٢ – ٤][(١)].

وقد أخبر تعالى عن نفسه أنه: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]، ووعد سبحانه المتوكلَ بأن يكفيه ما أهمه ويجعل له مخرجا من المضايق، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾ [سورة الطلاق: ٣]، فجعل نفسه تعالى حسْبَ المتوكل وكافيَه[(٢)].

قال الإمام الغزالي[(٣)]: (وأَعظِمْ بمقام موسومٍ بمحبة الله تعالى صاحبُه، ومضمونٍ كفاية الله تعالى مُلابسُه، فمن الله تعالى حسبُه وكافيه، ومحبُّه وراعيه، فقد فاز الفوز العظيم، فإن المحبوب لا يعذَّب ولا يبعد ولا يحجب)[(٤)]. وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

---

(١) التوكل (ص: ٦ –٧).

(٢) ينظر مدارج السالكين (٣/ ٢٥٥).

(٣) هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي: برع في المذهب الشافعي والخلافيات، والجدل والأصلين، والمنطق والفلسفة، تولى تدريس النظامية، ثم ترك ذلك وتجرد للعبادة، من تآليفه: الوسيط، والوجيز، كلاهما في الفقه الشافعي، والمستصفى في علم الأصول، وإحياء علوم الدين، وغيرها، (ت٥٠٥هـ). ينظر طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح: (ص٢٤٨ – ٢٤٩)، ووفيات الأعيان: (٤ / ٢١٦)، وطبقات الشافعية الكبرى: (٦ / ١٩١ – ١٩٨).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٤٣).

حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الأنفال: ٤٩]، أي ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يذل مَن استجار به، ولا يضيع من لاذ بجنابه، والتجأ إلى ذمامه وحماه، و﴿حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره)[(١)].

وهذا كله يقتضي منا أن نراعي سنن الله ونأخذ بالأسباب، ونعد العدّة، ونتوقى الشرّ، ونأخذ الحذْر، ونعمل بالإحصاء، ونخطط للمستقبل، ونرتب أعمالنا وننظمها بقدر ما تسعه طاقتنا، وفي الوقت نفسه علينا ألا نغفل عن التوكل على الله تعالى، وأن نتذكر دومًا أن الأمر كله بيده سبحانه، وخصوصا عند الشدائد الأزمات، فنكون أقوى ما نكون ثقةً بالله، واعتصامًا به، واعتمادًا عليه[(٢)]. وقد أمرنا الله في ختام سورة الحج بالاعتصام به فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الحج: ٧٨].

**السبل التفصيلية لتحقيق هدايات السورة:**

نريد في هذا الفصل أن نتحدث عن السبل التي نسلكها لتحقيق الهدايات الكلية للسورة، ولا بد أن نؤكد في البداية أن المسئولية تقع على عاتق الجميع، ف ((كلكم راع وكل مسؤول عن رعيته))[(٣)]، وكل مسلم ينبغي أن يُسهِم بقدر من العمل لمعالجة الأزمات الدينية والأخلاقية في الأمة، بدءا بولاة الأمر على اختلاف درجاتهم، ومرورا بالمدرسين على تنوع تخصصاتهم وتفاوت مستوياتهم، والإعلاميين بجميع أطيافهم، وانتهاءً بالأسرة بكل مكوناتها.

وقد تحدث مؤلفو الدراسة التأصيلية عن عدة سبل كلية لتحقيق الهدايات القرآنية بصورة عامة، منها:

- الإيمان والإسلام.
- تقوى الله تعالى والاستجابة لأوامره تعالى.
- الاستجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم واتباع هديه.

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٤٣ - ٢٤٤).

(٢) الحياة الربانية والعلم، للدكتور يوسف القرضاوي (ص: ١١١).

(٣) تقدم تخريجه.

- اتباع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والاقتداء بهديهم.
- الدعاء بطلب الهداية والثبات عليها.
- التوبة والإنابة إليه سبحانه.
- تلاوة القرآن الكريم وتدبره.
- العلم والعمل[1].

وسنتحدث هنا عن بعض السبل التفصيلية التي قد تلتقي مع هذه السبل العامة أو تندرج فيها وتنضوي تحتها:

**إشاعة العلم الشرعي:**

إن العلم هو الذي ينور بصيرة الإنسان، ويبين السبيل التي يجب أن يسلكها، وينبهه إلى مواقع خطوه، ويحذره من المهاوي التي قد يقع فيها، ولذلك كان العلم سابقًا للقول والعمل، فلا صلاح لعمل بدون علم.

وقد أشارت الآيات في سورة الحج إلى قيمة العلم وأهميته، وأفصحت بالإنكار على من يجادل فيما جاء من عند الله بغير علم، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ [سورة الحج: ٣]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ [سورة الحج: ٨]، وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٧١﴾ [سورة الحج: ٧١].

إذاً، لا بد من إشاعة العلم الشرعي الصافي المأخوذ من الكتاب وصحيح السنة من أجل مداواة أمراض هذه الأمة.

ومن ذلك أن نُعرِّف الناس بالله تعالى، ونُبيِّن لهم صفاتِه ومعانيَ أسمائه عز وجل. وقد تضمنت سورة الحج كما تقدم لنا آياتٍ تُعرِّف العباد بربهم، وتنبئهم عن عظمته، وتفصح لهم

(١) الهدايات القرآنية (٢/ ٦٨٦ – ٧٥٤).

عن قدرته، وتخبرهم بجملة من أسمائه وصفاته، ويكفي نموذجا على ذلك الآيات التي تبتدئ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨﴾ [سورة الحج: ٥٨]. إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥﴾ [سورة الحج: ٦٥].

ومن ذلك أن نُعرِّف الناس بمفهوم الشهادتين ومقتضياتهما، وأن نُعلِّمهم توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ونقيم على وحدانية الله الأدلة العقلية التي ورد الاستدلال بها في كتاب الله، ونبين لهم ما يقتضيه التوحيد في أعمال القلوب وأعمال الجوارح، ونحذرهم من الشرك بالله، ونشرح لهم نواقض الإسلام وقوادح التوحيد ومظاهر الشرك بنوعيه: الأصغر والأكبر.

وقد بينت سورة الحج أهمية التوحيد، وأظهرت شناعة الشرك، حيث قال تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً﴾ [سورة الحج: ٣٠ – ٣١]، وأقامت الدليل على اتصاف الله بالوحدانية واستحقاقه للإفراد بالعبادة، وبطلان الشرك، حيث قال سبحانه: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾ [سورة الحج: ١٢ – ١٣]. وبين تعالى لهم بطلان المعبودات من دون الله، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [سورة الحج: ٧٣].

ومما ينبغي التركيز عليه عند إشاعة العلم الشرعي أن نبين للناس أهمية أعمال القلوب، ونعرفهم بها، ونذكرهم بفضلها وثوابها ورجحانها على أعمال الجوارح، ونحذر الناس من أمراض القلوب وآفات النفوس، ونسير على المنهج النبوي في التزكية المستندة إلى كلام الله تعالى، ونركز على إخلاص الأعمال لله عز وجل، وتجريد النيات من شوائب الرياء والسمعة، وخشية الله

ومراقبته، وتقدُّم تقوى الله بالباطن على تقوى الله بالظاهر، وارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب وأنها لا تنفع بدونها[1]، وأهمية اقتران أعمال المسلم كلها بتعظيم الله تعالى وتعظيم شعائره.

وقد أشار الله تعالى في سورة الحج إلى بعض هذه المعاني، فقد عرفنا سبحانه بأن المؤمنين يتصفون بحياة القلوب وطهارتها، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥]، وبين سبحانه أن التقوى تنبع من القلب فقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾ [سورة الحج: ٣٢]، وبين أن المعتبر ليس هو صورة العمل وإنما ما تنطوي عليه القلوب عند أدائها فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٧]، إلى غير ذلك مما تقدم في الهدايات الكلية.

ومما ينبغي الاهتمام به تعليم الناس أحكام العبادات التي يُتقرَّب بها إلى الله تعالى، وعلى رأسها فرائض الصلاة والزكاة والصوم والحج، لأن أداءها كما أمر به الله وبين رسوله عليه السلام مظِنةٌ لأن تثمر ثمرتها في النفوس.

وقد أكدت السورة على معظم هذه العبادات، فقد أمر تعالى بالعبادات عموما والصلاة خصوصا فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [سورة الحج: ٧٧]. ثم خص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالأمر في الآية التي تليها، فقال تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [سورة الحج: ٧٨].

وكذلك لا بد من تبصير الناس بمقاصد العبادات حتى يستحضروها عند القيام بها، والملحوظ أن الحديث عن مقاصد العبادات في القرآن الكريم أكثر من الحديث عن تفاصيل أحكامها. وهذا يتطلب من المربين والمعلمين أن يعتنوا بتعريف الناس بمقاصد العبادات وتجليتها

(١) ينظر "بدائع الفوائد" (٣/ ١١٤٨).

لهم، والتذكير بها والتأكيد عليها، وربط الأحكام التفصيلية بما يظهر من حكمتها دون تكلف أو قول بغير علم[1].

وقد اعتنت السورة ببيان الجانب الباطني في أداء العبادات، ويستشف من إشارات الآيات أن المقصود هو ذكر الله تعالى بمفهومه الشامل، وذلك حيث قال سبحانه في شأن المعابد التي تؤدى فيها الصلاة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، وقال في شأن الحج: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٢٧ – ٢٨]. وقال في شأن الذبائح التي يتقرب بها إلى الله عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٣٤].

ومما يجدر ذكره هنا تعليمُ الناس أحكام الحج ومقاصده: فإن الحج عبادة عظيمة، وإذا كان مبرورا فليس له جزاء إلا الجنة، ولا يكون كذلك إلا إذا أداه العبد كما أمره الله وفعله النبي صلى الله عليه وسلم القائل: ((لتأخذوا عني مناسككم))[2].

ولذلك لا بد من تعريفهم بحقيقة الحج ومقاصده وحكمه التي شرعت المناسك من أجلها؛ إذ كلما أدرك المرء حقيقة الحج وروحَه، وفقِه الغايات التي شرع من أجلها، واتخذ ذلك وسيلة لتصحيح عقيدته وسلوكه، كان حجه أكثر إتقانا وأعظم أجراً وأينع ثمارا، وإلا كان سياحةً مكتنفة بالمتاعب لا غير[3].

ومن مقاصد الحج[4]:

---

(١) "لماذا لا يُغيّر رمضان من واقعنا؟"، محمد بن عبد الله الدويش، مجلة البيان، العدد ٢٢٩، (ص١١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر مقال "حتى يكون حجنا مبرورا"، المرجع السابق.

(٤) ينظر مقال "حتى يكون حجنا مبرورا"، المرجع السابق.

**١- تحقيق التقوى:** وهذا من أسرار افتتاح سورة الحج بالأمر بالتقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ١]، واختتام الآيات المتعلقة بالحج بقوله سبحانه: فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [سورة الحج: ٣٧].

**٢- ترسيخ التوحيد في النفوس:** ولهذا ابتدأت الآيات المتعلقة بالحج بقوله سبحانه: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا﴾ [سورة الحج: ٢٦]، وتخللها بقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ﴾ [سورة الحج: ٣٠ – ٣١]، وقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤].

**٣- تعظيم شعائر الله وحرماته:** ولذلك تخلل الله تعالى الآيات المتعلقة بالحج بقوله: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ [سورة الحج: ٣٠]، وبقوله: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [سورة الحج: ٣٢][(١)].

**٤ – التعود على الأخلاق الحسنة:** وقد أشارت سورة الحج إلى خلق التواضع وذلك في قوله سبحانه في أثناء الآيات المتعلقة بالحج: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤﴾ [سورة الحج: ٣٤)، وإلى خلق الصبر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥]، وإلى خلق الجود في قوله عز وجل في الآية السابقة: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾ [سورة الحج: ٣٥]، وقوله: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ [سورة الحج: ٢٨]، وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾ [سورة الحج: ٣٦].

**٥- التذكير باليوم الآخر:** وهذا من أسرار الحديث عن الآخرة في مطلع سورة الحج.

---

(١) ينظر مناسك الحج والعمرة في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة (ص: ٤٤ – ٥٢).

٦- **التربية على الاستسلام والخضوع لله تعالى:** ويدل عليه قوله تعالى في أثناء الآيات المتعلقة بالحج: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ۗ﴾ [سورة الحج: ٣٤]. وتسمية الله للمسلمين بهذا الاسم الدال على الاستسلام له سبحانه، حيث قال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾ [سورة الحج: ٧٨].

٧- **تعميق الأخوة الإيمانية والوحدة الإسلامية:** ولعل هذا من أسرار ذكر الأمة في آيات الحج، مشيرا بأننا أمة واحدة، ولنا منسك واحد، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٣٤]. ولنا شريعة واحدة في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [سورة الحج: ٦٧]. وذكرنا سبحانه بأنه جعلنا الأمة الشاهدة على سائر الأمم فقال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الحج: ٧٨].

٨- **ربط الحجيج بأسلافهم:** وهذا سر افتتاح الآيات المتعلقة بالحج بذكر إبراهيم عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الحج: ٢٦]. واختتام السورة بالدعوة إلى الاقتداء بإبراهيم عليه السلام واتباع ملّته، وذلك في قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [سورة الحج: ٧٨].

٩- **الإكثار من ذكر الله تعالى:** ويشير إليه قوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٢٧ – ٢٨].

١٠- **التربية على النظام والانضباط:** ويشير إليه قوله تعالى في شأن نحر الهدي: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ [سورة الحج: ٣٦].

**١١- منافع دنيوية وأخروية، فردية وجماعية:** ويدل عليها قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [سورة الحج: ٢٧ – ٢٨].

ومعظم هذه المقاصد هي الهدايات الكبرى لسورة الحج، وهي من الأمور التي ينبغي التركيز عليها في إصلاح الأمة.

وكذلك لا بد أن نجعل الناس يفهمون الدين فهما صحيحا، فإنّ فهمه على نحو سديد، والعمل به، والدعوة إليه على بصيرة، وإزالة كل ما يعارضه ويخالفه: هو صِمَام الأمان للمجتمعات في داخلها وخارجها.

ولكن الناس يظنون أن الدين لا يتجاوز ما يقام فينا من شعائر العبادة، وما يهتف به الوعاظ والخطباء من الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، ويخيل إلى كثير منهم أنه لا شأن للدين بالمعاملات المدنية، والحقوق الاجتماعية، ولا صلة له بشؤون الحرب والسلم، ولا بالسياسة الداخلية والخارجية.

وهذا كله غلط، ولذلك لا بد أن نبين لهم حقيقة الدين، ونعرفهم بأن الإسلام دين يشمل مناحيَ الحياة كلها، وأن عبادةَ الله تشمل امتثال أمر الله واجتناب نواهيه في جميع الجوانب، وهو لا يرضى من متبعيه إلا أن يأخذوه كله، ويخضعوا لجميع أحكامه[(١)].

**غرس الإيمان بالله وباليوم الآخر في النفوس:**

إن غرس الإيمان بالغيب، وتثبيته وتقويته بالحجج والبراهين المقنعة، ودحض الشبه التي يوردها أعداء الإسلام على ذلك من أهم ما يعتنى به لإصلاح واقع الأمة، فإن أول صفات المتقين الذين يهتدون بالقرآن الكريم إيمانُهم بالغيب، ومن لم يؤمن بالغيب فلن يهتدي به، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [سورة البقرة: ٢ – ٣].

---

(١) حكم الجاهلية، للشيخ أحمد شاكر (ص: ١٠٧).

ذلك أن الإيمان المطلق بالله وصفاته الثابتة له هو الذي يورث محبة الله والخضوع له والخوف منه والالتجاء إليه، وعلى ذلك ينبني تقواه والاستقامة على مراده، وكذلك فإن الإيمان باليوم الآخر يحمل الإنسان على خشية الله وعدم الاغترار بالدنيا والاستعداد للقاء الله، فإذا ثبتت هذه العقيدة في النفوس صار الإيمان مصدرَ السلوك وموجِّهَ الإنسان في الحياة.

ولهذا كان من أهم المهمات غرسُ الإيمان بالغيب في نفوس الناس، ليستجيبوا لمراد الله منهم، ويأتوا ما يُرضيه، ويتركوا ما يُسخطه، سائرين على منهج الشريعة الربانية.

ومن أهم الوسائل التي يمكن استعمالها في سبيل غرس الإيمان الذي يبعث على العمل الصالح:

١ – بعث إرادة الإيمان وطلبِ الهداية قبل الاعتماد على الأدلة النظرية، لأن الإنسان إذا لم يُرِد الهداية فسيُعْرِض عنها ولو كثرت الأدلة والبراهين، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [سورة البقرة: ٦ – ٧]، ويقول: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ [سورة الأنعام: ٢٥].

ويمكن بعث هذه الإرادة بالترغيب والترهيب والتذكير بالثواب والعقاب الدنيوي والأخروي، ولهذا كثر في سورة الحج بيان جزاء المؤمنين وما لهم في الآخرة من النعيم، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٢٣ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ۝٢٤﴾ [سورة الحج: ٢٣ – ٢٤]. وفي المقابل ورد التخويف من عاقبة الكفر في الدنيا والآخرة حيث قال: ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾ [سورة الحج: ٨ – ٩]. وقال: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾ [سورة الحج: ١١]. وقال مرهبا من العذاب الشديد الذي يلقونه في الآخرة: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الحج: ١٩ – ٢٢].

ولا يتم الترغيب في الإيمان إلا إذا تخلص الإنسان من رِبقة التقليد والتعصب لعقيدة الآباء، والتكبر والتعالي على الناس واتهامهم بالجهل، لأنها موانع تمنعه من سلوك طريق الإيمان، كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٤٦].

ولذلك حذر الله تعالى من تقليد الكبراء واتباع المضلين فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [سورة الحج: ٣ – ٤]. ونبه إلى علة الكبر المانعة من الاهتداء فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الحج: ٨ – ٩].

٢ – ربط الإيمان بالله بحياة الفرد، وإشعارُه بقرب الله منه والمراقبة الدائمة له، حتى يكون هذا الشعور ضابطاً للسلوك وموجهاً له: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [سورة ق: ١٦].

٣ – تأسيس الإيمان على التفكر في مخلوقات الله، ولذلك نجد من صفات المؤمنين تفكرهم في السماوات والأرض: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٩٠ – ١٩١].

ولهذا نجد في هذه السورة من مطلعها توجيه النظر إلى ما في خلق الله من عبر، ويبتدئ بما تتكرر مشاهدته، فيقول تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [سورة الحج: ٥]. ثم يوجه الأنظار في أواخر السورة إلى آية تعاقب الليل والنهار، فيقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٦١﴾ [سورة الحج: ٦٢].

والقرآن يدعو إلى كشف حقائق الكون للناس، واستخدام الحواس والقدرات التي أودعها الله في الإنسان ليدرك عجائب صنع الله، فيكون الإيمان نابعاً من إدراك وفهم، راسخاً لا يتزعزع ولا ينقص[(١)].

٤ – تنبيه الإنسان إلى النعم الإلهية التي تحيط به، حتى يتذكر الله تعالى الذي أنعم بها عليه عند نظره لكل نعمة، ويتذكر ما تنطوي عليه من عظيم إنعامه سبحانه، ولذلك نجده تعالى يوجه نظر الإنسان إلى النعم التي يتمتع بها في كل الأوقات وهو في غفلة عن عظيم مقدارها وجلالة خالقها المنعم بها، فيقول تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾ [سورة عبس: ٢٤ – ٣٢]. ثم التدرج إلى نعم أكبر كما في قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [سورة إبراهيم: ٣٢ – ٣٤]. ومن ذلك قوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۝٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۚ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥﴾ [سورة الحج: ٦٣ – ٦٥].

(١) "مرتكزات التربية الإسلامية"، للدكتور عباس محجوب، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (١٨).

ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۚ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۗ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۡۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [سورة الحج: ٦٣ – ٦٥].

٥ – بيان التوافق بين الإيمان والعلم، لأن كل واحد منهما مصدق للآخر، لأن العلم الذي يصدق به أكثر الناس في هذا العصر مصدره الله تعالى الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، ودله على استعمال القلم، وعلمه ما لم يعلم؛ فبالعلم والإيمان يُوجَّه السلوك ويُقوَّم، وتعتقِد القلوب وتفهَم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ﴾ [سورة الروم: ٥٦][(١)].

ولهذا جاء في سورة الحج الاستنكار على من يجادل في الله بغير دليل عقلي أو نقلي، لأن العقل والسمع يتوافقان على تقرير وجود الله ووحدانيته، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾ [سورة الحج: ٨].

ومن أجل غرس الإيمان لا بد ألا ندخر وسعاً في سبيل ذلك، وأن نستخدم جميع الوسائل القديمة والحديثة، كإلقاء الخطب والدروس، ونشر الكتب والمقالات، ومدارسة كتب السيرة، وأخبار الصحابة، ونستعمل الإذاعات المسموعة والقنوات المحلية والفضائية ومواقع الأنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي على اختلاف أنواعها[(٢)].

ومن أحسن ما ينبغي الاهتمام به لترسيخ الإيمان هو تعريف الناس بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وآثارها في القلوب والأعمال، ودلالتهم على التعبد بها إيمانا وتخلُّقا وتعلُّقا، وأن يردوهم إليها ويعلموهم مقتضياتها ويربطوهم بآثارها حتى يسعدوا في الدنيا والآخرة، ويقطعوا

(١) "مرتكزات التربية الإسلامية"، مجلة الجامعة الإسلامية (١٨).

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي (ص: ٢٣٥).

على أهل الشبهات والشهوات طريقهم في إفساد الناس، فإن معرفة الله – عز وجل – بأسمائه وصفاته من أعظم ما تدفع به هذه الآفات.

**الاهتمام بتزكية النفوس وتطهير القلوب:**

ما من شك أن القلب هو ملك الجوارح، تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، ولهذا كانت التزكية إحدى وظائف النبوة كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٦٤].

والتزكية تُعنى بتهذيب النفوس وتطهير القلوب من أمراضها، وتحليتها بأنواع الطاعات القلبية، كالإخلاص، والمحبة، والتوكل، والخوف، والرجاء، والتعظيم، والخشوع، وإظهار الافتقار، والإنابة، والصبر، والرضا والطمأنينة.

ولا تزكو القلوب إلا بثلاثة أمور: تزكية القلوب بالتوحيد والإيمان، والتزكية بفعل الواجبات وترك المحرمات، والتزكية بفعل المستحبات والنوافل المشروعة.

فإذا زكت القلوب ذكرت ربها في كل حين، وعبدته بكل جارحة، وأطاعته في كل أمر، وتخلقت بأحسن الأخلاق، مع الله بالإيمان وأحسن الصالحات، ومع الخلْق بأحسن المعاملات[1].

وتزكية النفس لها ركنان أساسيان لا تكون إلا بهما: الأول: تخليتها بترك ما لا يعنيها، والثاني: تحليتها بالاشتغال بما يعنيها.

ووسائل ذلك كثيرة منها، وقد دلنا الله في سورة الحج على بعضها:

(١) موسوعة فقه القلوب، للتويجري (٢/ ١٤٠٧).

**١ – معرفة الله وتوحيده واجتناب أضدادها:** (فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد)[(١)]، وقد سمى الله تعالى الشرك رجسا، ووسمه بالنجاسة، فقال تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [سورة الحج: ٣٠ – ٣١]، وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ [سورة التوبة: ٢٨]. فدل مفهوم الآيتين على أن الطهارة والتزكية في التوحيد الخالص لله عز وجل.

قال الحافظ ابن رجب[(٢)] رحمه اللَّه: (فلا صلاح للقلوب حتى تستقرَّ فيها معرفةُ اللَّه وعظمتُه ومحبتُه وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه، وتمتلئَ من ذلك، وهذا هو حقيقة التوحيد، وهو معنى " لا إله إلاَّ اللَّه "، فلا صلاح للقلوب حتى يكون إلهها الذي تألَهه وتعرفه وتحبه وتخشاه هو اللَّه وحده لا شريك له، ولو كان في السماوات والأرض إله يُؤَلَّه سوى اللَّه، لفسدت بذلك السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٢])[(٣)].

**٢ – أداء الفرائض:** وعلى رأسها فريضة الصلاة فالصلاة من أعظم ما تزكو به النفوس، ولذلك قرن الله تعالى بينها وبين التزكية في قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾ [سورة الأعلى: ١٤ – ١٥]. ومن ثم تكرر الأمر بإقامة الصلاة في سورة الحج، فقال تعالى في ختامها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾

---

(١) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان ط عالم الفوائد (١/ ٧٩). ونحو هذا في كلام شيخه ابن تيمية مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٧).

(٢) هو الإمام الحافظ العلامة أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي الحنبلي، الفقيه الواعظ، كان زاهداً في الدنيا، راغباً عن أصحاب الولايات. وله مصنفات مفيدة، منها: "الذيل على طبقات الحنابلة"، و"القواعد الفقهية"، و"شرح علل الترمذي"، وجامع العلوم والحكم، وفتح الباري شرح صحيح البخاري، إلى الجنائز، وغيرها توفي بدمشق سنة ٧٩٥هـ. ينظر ترجمته في الدرر الكامنة (٢/ ٤٢٨)، والبدر الطالع (١/ ٣٢٨)، وذيل تذكرة الحفاظ (ص ٣٦٧)، وشذرات الذهب (٦/ ٣٣٩).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٢١١).

[سورة الحج: ٧٧]. ووصف المؤمنين بإقامتها والمداومة عليها فقال: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة الحج: ٣٥].

وكذلك الزكاة، وإنما سميت كذلك لأنها تزكي نفس من أداها، ولذلك قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [سورة التوبة: ١٠٣]، وقد جمع الله بين الأمر بالصلاة والزكاة في خاتمة سورة الحج فقال: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [سورة الحج: ٧٨)، ووصف عباده الذين ينصرهم ويمكن لهم في الأرض بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة الحج: ٤١].

٣ – **تلاوة القرآن الكريم وسماعه وتدبر آياته:** فقد دلنا الله تعالى في سورة الحج على أثر القرآن على قلوب المؤمنين، وأنه يورث الإخبات، فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الحج: ٥٤]. ولا عجب، فالقرآن شفاء وهدى ونور ورحمة، قال ابن القيم رحمه الله: (فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر ومر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفعُ للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن)[(١)].

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٥٣٥).

**٤ – التقرب إلى الله بالنوافل والمستحبات:** فالعمل الصالح يغذي القلب، قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: (والعمل له أثر في القلب من نفع وضر وصلاح قبل أثره في الخارج، فصلاحها عدل لها وفسادها ظلم لها؛ قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [سورة فصلت: ٤٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [سورة الإسراء: ٧])[(١)]، وقد قال الحسن البصري رحمه الله: (إن الرجل ليعمل الحسنة، فتكون نورًا في قلبه، وقوة في بدنه؛ وإن الرجل ليعمل السيئة، فتكون ظلمة في قلبه، ووهنًا في بدنه)[(٢)].

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك، فوصف الذين أخبتت قلوبُهم بأنهم ينفقون مما رزقهم الله ولا يتقيدون بإخراج الزكاة الواجبة، فقال: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الحج: ٣٥). وأمر سبحانه وتعالى في ختام السورة بفعل الخير أمرا مطلقا من غير قيد ولا حد، فقال تعالى: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة الحج: ٧٧]. وأمر نبيه عليه الصلاة والسلام بتبشير المحسنين في أعمالهم بالثواب الجزيل فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الحج: ٣٧].

**٥ – ذكر الله تعالى:** (فأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته)[(٣)]، والذكر يورث حياة القلب[(١)]، فبه يحيي اللهُ قلوب عباده وينورها، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٨ – ٩٩).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٨٧، رقم ٣٥١٩٥). وصحح إسناده صاحب "تبييض الصحيفة بأصول الأحاديث الضعيفة" (١/ ١٣٦). وقد روى أبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٠) هذا المعنى عن سليمان التيمي حيث قال: (الحسنة نور في القلب، وقوة في العمل، والسيئة ظلمة في القلب، وضعف في العمل). ورجاله كلهم ثقات سوى خلف بن عبيد الله أبي حبيب، فإنه لم يوقف له على ترجمة. وكذا روى أبو نعيم (٧/ ٣٣٠) عن الحسن بن صالح أنه قال: (العمل بالحسنة قوة في البدن، ونور في القلب، وضوء في البصر، والعمل بالسيئة وهن في البدن، وظلمة في القلب، وعمى في البصر)، وصحح إسناده صاحب "تبييض الصحيفة" (١/ ١٣٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٠٠).

لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [سورة الأنعام: ١٢٢]. وفي الحديث الصحيح: ((مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحيّ والميت))[٢].

ولذلك ذكر الله تعالى أثر الذكر على القلوب فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [سورة الحج: ٣٤ – ٣٥]، وبين تعالى أن من مقاصد الحج وذبح الأضاحي والهدي ذكرَ الله عز وجل فقال: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٢٧ – ٢٨]. وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [سورة الحج: ٣٤]. وأشار إلى أن مزية المساجد على سائر الأماكن أن اسم الله تعالى يذكر فيها كثيرا فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [سورة الحج: ٤٠].

**٦ – التفكر في خلق الله عزّ وجلّ:** فإن إعمال العقل في ما تراه العين من مخلوقات وحادثات يورث القلب نورا، ويوقظه من سُبات الغفلة، ويذكّره على الدوام بخالق الكون ومُدَبّره، ولهذا أنكر تعالى على المشركين الذين عميت قلوبُهم عن رؤية الحق، والتفطن إلى قدرة الله في تصريف شؤون الخلق فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [سورة الحج: ٤٦].

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن القيم (ص: ٤٢).

(٢) أخرجه بلفظه البخاري في صحيحه: (كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل، ح ٦٠٤٤، ٥/ ٢٣٥٣، وأخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، ح ٧٧٩، ١/ ٥٣٩)، بلفظ: ((مثل البيت الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه، مثل الحي والميت)).

٧ – **تذكر منازل الدار الآخرة:** وتشويق النفس ببشائر الترغيب، وزجرها بقوارع الترغيب، ولذلك جاء التذكير بالآخرة في مطلع السورة وأوسطها وآخرها، فقال في مطلعها: فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [سورة الحج: ١ – ٢]، وقال في وسطها: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٢٢﴾ [سورة الحج: ١٩ – ٢٢]. ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٢٣ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ۝٢٤﴾ [سورة الحج: ٢٣ – ٢٤]، وقال في آخرها: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٢﴾ [سورة الحج: ٧٢].

٨ – **مجاهدة النفس وتطهير القلب من الأدناس:** وأعظم هذه الأدناس هو الشرك، وما يتفرع عنه من رياء وسمعة، إلى غير ذلك من الأمراض القلبية. وقد تضمنت السورة من ذلك طائفة من التوجيهات، فقد أمر الله تعالى بالمجاهدة في سبيله حق جهاده فقال: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [سورة الحج: ٧٨]. وأومأ إلى ما يكون في القلوب من قسوة أو مرض يجب مداواتها فقال: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ [سورة الحج: ٥٣]، إلى غير ذلك مما تقدم ذكره.

٩ – **تجنب المحرمات والتوبة من المعصية:** فزكاة القلوب موقوفة على طهارته، والمعاصي تدنس القلوب، وتملؤه نكتا حتى يسودَّ، وقد وضح الإمام ابن تيمية أثر المعاصي والتوبة منها على القلب فقال: (وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب، وكذلك ترك المعاصي؛ فإنها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، ومثل الدغَل في الزرع، فإذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة

كاستخراج الدم الزائد تخلصت القوة الطبيعية واستراحت، فينمو البدن؛ وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب كان استفراغا من تخليطاته حيث خلط عملا صالحا وآخر سيئا، فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإراداته للأعمال الصالحة، واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه)[1].

وقد دعانا الله في هذه السورة إلى تعظيم حرماته، فقال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [سورة الحج: ٣٠]، وتعظيم المحارم يكون باجتنابها وعدم الاقتراب منها، والتعظيم في أصله عمل قلبي، كما أشار الله تعالى إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج: ٣٢]. وحذر تعالى من إرادة المعصية في البلد الحرام فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الحج: ٢٥]. وهذا كله تزكية للقلب.

**١٠ – التزام العدل وتجنب الظلم بجميع صوره:** والظلم كله من أمراض القلوب، والعدل صحتها وصلاحها. قال الإمام ابن تيمية: (والعدل هو الاعتدال، والاعتدال هو صلاح القلب، كما أن الظلم فساده، ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالما لنفسه، والظلم خلاف العدل، فلم يعدل على نفسه؛ بل ظلمها؛ فصلاح القلب في العدل، وفساده في الظلم...كما أن الجسد إذا صح من مرضه قيل قد اعتدل مزاجه، والمرض إنما هو بإخراج المزاج [عن الاعتدال][2]، مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه، لكن الأمثل فالأمثل؛ فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل، ومرضه من الزيغ والظلم والانحراف. والعدل المحض في كل شيء متعذر علما وعملا، ولكن الأمثل فالأمثل... وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة الأنعام: ١٥٢]. والله تعالى

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٧).

(٢) زيادة من عندي يستقيم بها المعنى.

بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط، وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له، ثم العدل على الناس في حقوقهم، ثم العدل على النفس)[1].

وقد شنّع الله تعالى على الظلم في سورة الحج، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الحج: ٥٣]. وأخبر بسوء مصيرهم فقال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ [سورة الحج: ٧١].

**ربط الناس بالقرآن الكريم تلاوة وتدبرا وعملا:**

من فضل الله تعالى علينا أنه حفظ كتابه الكريم، فهو باق بين ظهرانَيْنا، لم يطرأ عليه تحريف أو تغيير، وهو يتلى صباح مساء، وحُفَّاظه يملأون الآفاق، والخزائن زاخرة بعدد كبير من التفاسير، وفي الجامعات كلياتٌ للقرآن الكريم وعلومه وأقسامٌ خاصة بالتفسير، ولكن مع ذلك فإن كثيرا من الناس قد هجروا تدبره والعمل به، وجعلوا نصيبَهم منه التلاوةَ للتبرك، وقراءتَه في المآتم، والاستفتاحَ به في بعض المجالس، وفي أحسن الأحوال اهتموا بحفظ ألفاظه وحروفه.

والقرآن الكريم كما تقدم أنزل لتدبره والعمل به، كما قال عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ص: ٢٩]. ولا شك أن شفاء الأمة من جميع أمراضها إنما هو في الاستهداء بالقرآن، فقد أنزله الله عز وجل تبياناً لكل شيء ونوراً يهدي به سبحانه من شاء من عباده؛ قال الله عز وجل: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الإسراء: ٨٢].

ولا يمكن أن تصلح حال الأمة في هذا الزمان إلا بما صلح عليه أولها، ولن تستقيم شؤونها إلا إذا رجعَت إلى كتاب الله تعالى مع بيانه من السنة النبوية، وتجعل غايتها من تلاوته العملَ به والأخذَ بتعاليمه، وتقويم اعتقاداتها وأقوالها وأفعالها وأخلاقها بهديه، ويكون كل فرد من الأمة على هذا النحو، ينهل من معينه، ويزن أعماله به، ويقوم به سلوكه، ويربي نفسه على توجيهاته، ويكون في تلاوته له طالبًا للهدى متوخيًّا للعمل، كما فعل الصحابة رضوان الله

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٨ - ٩٩).

عليهم حين كانوا يتعلمون الآيات عشْراً عشْراً يدرسونها ويحفظونها ويعملون بها، فأخذوا القرآن فهماً وقولاً وعملاً: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٥٧].

فعلينا أن نهيئ السبل ونستجمع الوسائل لتيسير تلاوة القرآن وتدبره حتى يتلوه الناس ويفهموه فيؤثر في قلوبهم وسلوكهم. وأحسب أن مشروع "الموسوعة العالمية للهدايات القرآنية" من أعظم الوسائل التي تقرب هدى القرآن وتُجلّيه للمسلمين كافةً.

ثم إن عمل طائفة من المسلمين بالقرآن من شأنه أن يقدم نموذجا حيا يحمل الناس على الاقتداء ويبعثهم على الاهتداء.

ومن جهة أخرى فإن صحبة العبد للقرآن تورثه مداواة القلب من أمراض الشهوات والشبهات كما تقدم، مصداقا لقول الله عز وجل: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الإسراء: ٨٢]. فالقرآن فيه من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، ما يزيل كل شبهة من قلب العبد، وفيه من التزهيد في زينة الدنيا، والترغيب في الآخرة، ما يزهد العبد في الدنيا وشهواتها ويرغبه بالفوز في الآخرة، فيعالج بذلك القرآن أمراض الشبهة والشهوة، وبذلك كان تلاوة القرآن وتدبره من أنفع العبادات للقلب.

قال الإمام ابن تيمية: (والقرآن شفاءٌ لما في الصدور ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات، ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسِدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب، فيرغب القلب فيما ينفعه، ويرغب عما يضره، فيبقى القلب محبا للرشاد مبغضا للغي بعد أن كان مريدا للغيّ مبغضا للرشاد. فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته ويعود إلى فطرته التي فطر عليها)[1].

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٥ - ٩٦).

**تربية الناشئة على هدي القرآن:**

من أهم السبل في تحقيق الهدايات العناية بالناشئة، وتربيتهم على الإسلام عقيدةً وشريعةً، وفهم أصول الإيمان، والعمل بأحكام الإسلام. فالأطفال مولودون على الفطرة، وهم أرض خصبة تنبت ما غُرِس فيها، وصفحة خالية ينتقش ما كُتِب فيها، ولذلك قيل: (التعلم في الصغر كالنقش على الحجَر)[1]، فإن عُلِّم الخيرَ وعُوِّد عليه في مرحلة الصبا نشأ عليه ورسخ في نفسه وسعِد في الدنيا والآخرة. ولذلك كان لزاما على الآباء والأمهات والمعلمين والمعلمات أن يقوموا بواجبهم في تربية النشء على الإيمان والهدى والخير، وتنفيرهم من الكفر والفسوق والعصيان.

وأول ما يجب العناية به هو تربيتهم على توحيد الله تعالى، وذلك بأن نُعرِّف النشء على الله سبحانه وتعالى من خلال أسمائه وصفاته كما بيّنها في كتابه العزيز، ونيسر لهم أصول العقيدة، ونغرس في قلوبهم الإيمان به حتى يكون راسخا مكينا، ونبين لهم استحقاق الله تعالى للعبادة، وانفراده بالربوبية والألوهية، ونُظهر لهم قبحَ الشرك وشناعةَ اتخاذ شركاء لله، كما قال لقمان عليه السلام لولده في وصاياه الجامعة: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [سورة لقمان: ١٣] ، ونحذرهم من عواقب الشرك أشد التحذير، ونخبرهم بمآل الشرك في الآخرة، ونبين لهم صور الشرك الظاهرة والخفية.

كما لا بد من تربية النشء وربطهم بالدار الآخرة، وجعل الجنة أسمى أمانيهم، ودخولها أكبر مطالبهم، والنجاة من النار أعظم مبتغياتهم!!

---

(١) هي مقولة سائرة تنسب إلى الحسن البصري كما في "بهجة المجالس وأنس المجالس" (ص: ١٨) لابن عبد البر، وقد جاء معناها في حديث لفظه: ((مثل الذي يتعلم العلم في صغره كالنقش على الحجر، ومثل الذي يتعلم العلم في كبره كالذي يكتب على الماء)). أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٢٥): (فيه مروان بن سالم الشامي، ضعفه البخاري، ومسلم، وأبو حاتم). وأخرجه أيضًا: الديلمي في مسند الفردوس (٤/١٣٥، رقم ٦٤٢٠).

وكذلك تربية النشء على الإخلاص لله تعالى في عند أداء العبادات، وتجريد النيات لله عز وجل عند القيام بالصالحات، والتوجه بالقلب إلى قصد التقرب إلى الله تعالى ومجاهدة نوازع الرياء وشوائب النية.

ومن ذلك أن نربيهم على امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، فنذكرهم عند كل فعل بما أمرهم الله فيه، ونرغبهم في القيام به، ونزجرهم عن الوقوع فيما هو محرم، ونرهبهم من اقترافه، وننبههم إلى جزاء الأعمال في الدار الآخرة، وننشئهم على تقوى الله تعالى في السر والعلن، واجتناب ما نهى الله تعالى عنه ظاهرا وباطنا، والاحتراز مما حرمه الله وما يفضي إليه.

وكذلك لا بد من تربية الناشئة في محاضن إيمانية قائمة على تزكية النفوس وفق السنّة النبوية، والعناية بتهذيبهم، وتعليمهم ضبط أهوائهم وعدم الاسترسال مع حظوظ نفوسهم[1]، وغرس الخوف من الله في نفوسهم، وتعويدهم على مراقبة الله ومحاسبة النفس منذ الصغر، وإشعارهم بأن الله مطلعٌ عليهم، مراقبٌ لأعمالهم، وتعليمهم أن يستعينوا بالله ويلجأوا إليه، ويدعوه ويطلبوا منه الهداية والتوفيق للخير، مما يعينهم على الاعتصام بالله تعالى من فتن الشهوات التي تموج في عصرنا الحاضر كموج البحر.

ومن ذلك تحصينهم ضد الفلسفات الإلحادية والشبهات الفكرية، حتى لا تجْتالهم الفرق الضالة، ولا تنحرف بهم الأفكار الخادعة، وغير ذلك مما تشنه تلك الحملات المسعورة من حرب ضروس ضد شباب الأمة، باسم التثقيف تارةً، وباسم التسلية والترفيه تارة أخرى.

ومن ذلك أن نعمد إلى تطهير قلوبهم وتنبيههم إلى أهمية أعمال القلوب وتحذيرهم من الأمراض التي تصيبه والآفات التي تفسده، ونرغبهم في الطاعات القلبية بتعريفهم بها وبيان أهميتها وجلالة موقعها من الدين وغرسها في قلوبهم.

---

(١) ينظر "غلو في التكفير"، د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف، مجلة البيان، العدد ٢٣٦ (ص ٢٦).

ومنها تربية النشء على تعظيم شعائر الله وحرماته، وبالذات في هذا الزمان الذي ظهر فيه ما يخالف تعظيم الله تعالى: من الاستخفاف والاستهزاء بشعائر الله تعالى، والتسفيه والازدراء لدين الله وأهله.

ومنها تربيتهم على الغضب لمحارم الله، والغيرة على حدوده سبحانه، وغرس الشجاعة في قلوبهم ليقدروا على الدفاع عن الحرمات، والتصدي للأعداء، والجهاد من أجل نصرة المستضعفين وحماية هذا الدين، وتربيتهم على الاعتزاز بالهوية الإسلامية، وتعظيم النصوص الشرعية والوقوف عند حدودها.

وعلى الوالدين ألا يدعوا فرصة إلا واستفادوا منها في ترسيخ اليقين في الله والتأكيد على الإخلاص له تعالى وتقواه وتعظيم حرماته عز وجل.

وكما نقوم بالتربية في الأسرة فلا بد تعليم النشء من طلاب وطالبات في المؤسسات التعليمية أصول العقيدة الصحيحة، على أن يتمّ ربط التعليم بالتربية التي ترسخ فيهم معاني الإيمان لنقل المفاهيم والمبادئ إلى سلوك عملي يتكامل فيها التزكية والفقه، والعلم والعمل[1].

**ربط المسلمين بسيرة السلف الصالح:**

إن السلف الصالح هم رأس الأولياء، وصفوة الأتقياء، وقدوة المؤمنين، وخير عباد الله بعد الأنبياء والمرسلين، وفي مقدمتهم الصحابة الذين شرفهم الله بمشاهدة خاتم أنبيائه –صلى الله عليه وسلم– وصُحْبتِه في السرّاء والضراء، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في الجهاد في سبيل الله عز وجل، حتى صاروا خيرة الخيرة وأفضل القرون بشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في شأنهم: (أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، كانوا خيرَ هذه الأمة، أبرَّها قلوبا، وأعمقَها علما، وأقلَّها تكلفا، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيه صلى

(١) ينظر مقال "منهج التغيير"، د. محمد أمحزون، مجلة البيان، العدد ٢٣٠.

الله عليه وسلم ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، كانوا على الهدى المستقيم)[1].

ومن سبل تحقيق هدايات القرآن الكريم إبراز جوانب الاقتداء في أهل العِلْم والإيمان من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من السلف الصالح، فقد كانوا مهتدين بالكتاب والسنة، مقتبسين لنورهما من معينها؛ فهؤلاء النفر الذين قيضهم الله لحمل دينه ونشر دعوة نبيه، ضربوا لنا أحسن الأمثال في التقوى والورع والزهد والعبادة والتعليم والشجاعة والجرأة والجهاد والصبر وبر الوالدين والأخلاق والآداب، وحري بنا إن أردنا تحقيق هدايات كتاب الله في واقع الأمة أن نبلو أخبارهم وندرس سيرهم لكي نقتدي بهم، وذلك لأن سيرهم تتضمن نماذج متكاملة، لا تركز على العقيدة فقط، ولا على العبادة فقط، ولا على العلم فقط، ولا على الآداب فقط، ولا على الجهاد فقط، وإنما تشمل ذلك كله[2].

ففي سيرة السلف الصالح نجد الصورة الحية لإنسان العقيدة في إيمانه وصلاحه، وإخلاصه وبذله، وصدقه وصبره، ونشعر – ونحن نقرأ سيرهم ونتدبر أخبارهم – أن هؤلاء الأبرار الذين نهلوا من معين النبوة كانوا ترجمة حية للقيم والمبادئ العليا التي جاء بها الإسلام؛ لأنهم آمنوا به وفهموه ووَعوا أبعاده الكبرى في الحياة، فلم يقفوا عند حدود معرفته والتفقه في أحكامه، بل خَطَوْا بها أشواطًا بعيدة في مضمار التبليغ والتنفيذ، فكانوا مشاعل الهداية التي أضاءت للبشر سبل الرشاد؛ فحملوها عبر الصحاري والقفار، وتجاوزوا بها السهول والجبال، وعبروا بها الأنهار والبحار، ونشروا رايتها في كل أرض وطِئتها أقدامهم، ودخل الناس في دين الله أفواجًا بفضل من الله ثم بفضل صدقهم وصبرهم وجهادهم[3].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٠٥).

(٢) ينظر دروس الشيخ محمد صالح المنجد.

(٣) ينظر "لمحات في الثقافة الإسلامية" (ص: ٣٥٥- ٣٥٦).

ومما يلفت الانتباه في سيرة السلف الصالح إدراكُهم وعملهم بالمفهوم الشامل للعبادة، فقد كانت حياتهم كلها عبادة: صلاتهم في المسجد، وجهادهم في المعركة، وقضاؤهم في المحكمة، وتجارتهم في السوق، وتعليمهم وتعلمهم في المسجد، وصيامهم في رمضان أو غيره، ومعاشرة أهليهم، وقيامهم لربهم، ونومهم في جوف الليل أو في وضح النهار، كل ذلك عبادة، وعن ذلك عبّر معاذ بن جبل رضي الله عنه بقوله: (أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي)[(١)].

ومما ينبغي الاهتمام به معرفة منهج السلف الصالح في تربية النفوس وطريقة تزكيتها وحملها على الخير والطاعة والمصابرة في ذلك، وكيفية تبليغهم للإسلام إلى الأمصار المفتوحة، وكيف استطاعوا تربية الآلاف المؤلفة من الداخلين في الإسلام بالقدوة الحسنة، وكيف رفعوهم إلى منازل إيمانية عالية[(٢)].

وكذلك النظر في أحوالهم وما كانوا عليه من التقوى والخشية والمراقبة والإخبات، وأن ذلك هو الذي رقّاهم إلى تلك الأحوال الشريفة والمقامات السنية، من شدة الاجتهاد في الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات، فضلاً عن المحرمات[(٣)].

ومن الجوانب المضيئة في سيرهم تعظيمُهم لله تعالى، فقد كان السلف الصالح من أشد الناس تعظيماً لله تعالى وتنزيهاً له عما لا يليق بحاله؛ وكانت قلوبهم عامرة بإجلاله وتوقيره، وكانوا يعظّمون الله حق تعظيمه بأقوالهم وأفعالهم: فهذا ابن عباس رضي الله عنهما يقول لبعض أصحاب المراء والجدل: (أما علمتم أن لله عباداً أصَمَّتهم خشية الله من غير عيّ ولا بكم، وإنهم لَهُمُ العلماء العصماء النبلاء الطلقاء، غير أنهم إذا تذكروا عظمة الله انكسرت قلوبهم، وانقطعت

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن قبل حجة الوداع، ح ٤٠٨٦، ٤/ ١٥٧٨).

(٢) ينظر مقال "كيف تبني نفسك تربوياً؟"، عبد الله بن مبارك آل السيف، مجلة البيان، العدد ٤٦ (ص ١٠٢).

(٣) ينظر مجموع رسائل ابن رجب (٤/ ٩٤).

ألسنتهم، حتى إذا استفاقوا من ذلك، تسارعوا إلى الله بالأعمال الزاكية، فأين أنتم منهم؟)[1].

وهذا عون بن عبد الله[2] يأمر بتعظيم الله في دقائق الألفاظ فيقول: (لِيعظم أحدكم ربّه، أن يذكر اسمه في كل شيء حتى يقول: أخزى الله الكلب، وفعل الله به كذا)[3].

ومما ينبغي أن نقتدي بهم فيه: تعظيمهم لكلام الله، وتحقيق النصيحة لكتابه تلاوةً وتدبراً وعملاً، فقد كان السلف الصالح يعظمون القرآن الكريم ويجلونه، حتى إن بعضهم كانوا يكرهون أن يُصغّروا المصحف، ويقولون: (عظموا كتاب الله)[4].

ومن ذلك تعظيمهم للسنة النبوية وإجلالهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن المشهور حال الإمام مالك بن أنس عند روايته للحديث بالمسجد النبوي، وأن عقربا لدغته ست عشرة مرة، فتغير لونه، ولكنه لم يقطع الحديث النبوي، حتى فرغ من المجلس، وقال حين سئل عن ذلك: (إنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم)[5].

---

(١) أخرجه الهروي في ذم الكلام: (٤/ ٢٥٨ – ٢٥٩، رقم ٧٢١)، والآجري في الشريعة بنحوه: (١/٤٤٦ – ٤٤٩).

(٢) هو أبو عبد الله عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، الكوفي، الإمام، القدوة، العابد، الزاهد، من التابعين، حدث عن: أبيه، وأخيه، وابن المسيب، وابن عباس، وعبد الله بن عمرو، وطائفة. كان من آدب أهل المدينة. وسكن الكوفة فاشتهر فيها بالعبادة والقراءة. ثم رجع. وخرج مع ابن الأشعث ثم فرّ، فأمنه محمد بن مروان بالجزيرة، وتعلم منه ولده مروان. وصحب عمر ابن عبد العزيز في خلافته، فكانت له منه مكانة، توفي سنة بضع عشرة ومائة. ينظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٤١، رقم ٤٧٣)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٠٣، رقم ٣٧)، وتهذيب التهذيب (٨/ ١٧١، رقم ٣١١).

(٣) أخرجه الخطابي في شأن الدعاء (ص١٨)، ووردت مثل هذه المقالة عن مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير، كما في الحلية لأبي نعيم (٢/ ٢٠٩)، وذم الكلام للهروي (ص١٩٠)، ولفظه: (ليعظم جلال الله أن تذكروه عند الحمار والكلب، فيقول أحدكم لكلبه أو لشاته: أخزاك الله، وفعل الله بك).

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٢٣٠). وكلمة (عظموا كتاب الله)، رواها كذلك القاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص: ٣٩٨) عن عمر بن الخطاب، أنه (وجد مع رجل مصحفا قد كتبه بقلم دقيق، فقال: ما هذا؟ قال: القرآن كله؛ فكره ذلك، وضربه، وقال: عظموا كتاب الله).

(٥) ذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك (١/ ١٦).

وكذلك إذا أردنا بعث روح الجهاد في الأمة، وإعادتَها إلى عز بعد ذل، وهيبةٍ وكرامة بعد هوان، فلابد من دراسة سيرة السلف من الصحابة والعلماء والمجاهدين، وبيان مناقبهم في مدافعة الأعداء، ومشاركتهم في الفتوحات، وقصص بطولتهم، ونشرهم للإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وإقامتهم لشرع الله في البلاد التي فتحوها[(١)].

ومن الجوانب التي لا يلتفت إليها في سيرة السلف تنبههم لسنن الله في الأنفس والآفاق، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم (بما لهم من معرفة بأحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم، ومن التجارب والأخبار في الحرب وغيرها، وبما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم التي استولوا عليها)[(٢)].

**الاهتمام بالعلوم التي تكشف السنن الإلهية في الكون والتاريخ والاجتماع:**

السنن في مجال الطبيعة: هي القوانين التي سنّها الله ـ عز وجل ـ لهذا الكون، وأخضع لها مخلوقاته جميعاً على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها[(٣)]: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [سورة آل عمران: ٨٣]، فما في الكون من ذرة أو مادة أو حيوان أو نبات إلا له قانون يسير وَفْقَه ويتحكم في جزئياته.

والسنن في الميدان الاجتماعي: هي القوانين التي يخضع لها البشر في تصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم في الحياة، وما يكونون عليه من أحوال، وما يترتب على ذلك من نتائج، كالرفاهية والضيق في العيش، والسعادة والشقاء، والعز والذل، والرقي والتخلف، والقوة والضعف[(٤)].

---

(١) ينظر "التجديد في الإسلام: صحوة الجهاد" (٦)، مجلة البيان، العدد ٦ (ص ٨).

(٢) ينظر تفسير المنار (٤/ ١٣٩).

(٣) أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في الخلق، أحمد محمد كنعان (ص ٥٢).

(٤) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، عبد الكريم زيدان (ص ١٢).

والسنن في حقل التاريخ: هي القوانين التي تتحكم في مسيرة التاريخ البشري، وحركته وتوجيه أحداثه[1].

ومن نافلة القول أن سنن الله تعالى المبيَّنة في القرآن الكريم والسنّة النبوية جديرة بالدراسة والفهم؛ لأن دراستها وفهمها من الأمور المهمة جدًّا، المتحتمة شرعاً وعقلاً؛ إذ هي جزء من معرفة الدين، ومن جملته معرفة أحوال الأمم مع أنبيائهم، وما نزل بهم بسبب أعمالهم وفقاً لسنن الله تعالى. كما أنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة حتى لا نقع في الخطأ والعثار والغرور، وبذلك ننجو مما حذرنا الله عز وجل منه، ونظفر بما وعد الله تعالى به عباده المتقين.

وعلى الصعيد الاجتماعي؛ فإن الاستفادة من السنن وملاحظة الأمثلة والأحداث تقدم للناس بصراً ومعرفة نظرية وعملية، حتى لا يقعوا فيما وقع فيه مَنْ قبلهم من المحاذير والمثُلات، أو تنقذهم إذا هم وقعوا فيها، أو تكسبهم على الأقل صلابةً وثباتا وطمأنينة في تعاملهم مع ما ينزل بهم[2].

ولما كان التعامل مع الكون المحيط بنا لا يتم بصورة صحيحة إلا بعد فهم السنن الإلهية التي جعلها الله عز وجل مفاتيحَ للتعامل مع موجودات هذا العالم، وتتيح للإنسان فرصة الاستفادة من كنوزه وثرواته التي لا تعدّ ولا تحصى في آفاق الطبيعة والمادة والنفس والإنسان والمجتمع؛ فإن الهدف الذي تسعى إليه العلوم كلها هي معرفة السنن التي تحكم مفردات هذا الكون؛ لأن معرفة السنن أو الأسباب التي تؤدي عادة لحدوث الظواهر سواء كانت مادية (طبيعية) أو إنسانية (اجتماعية)، تفيدنا في التحكم بهذه الظواهر، بمعرفة شروطها وأحكامها

(١) مقال "علم السنن وأهميته في الآفاق والأنفس"، أ. د. محمد أمحزون، مجلة البيان، العدد ٢٠٧، (ص ٢٥).

(٢) مقال "علم السنن وأهميته في الآفاق والأنفس"، المرجع السابق.

وموانع حدوثها، وتجعلنا قادرين على تسخيرها لصالحنا والاستفادة منها وتوظيفها في تصريف شؤون حياتنا، مما ييسر لنا مهمة الاستخلاف في الأرض وبناء الحضارة[1].

ولذلك يجب على المسلمين أن يركزوا في معارفهم العامة والمتخصصة على الدراسات التي تمكنهم من الإحاطة بمفردات هذه السنن، وضبط الأدوات التي تمكنهم من الاستفادة بشكل عملي من مختلف السنن التي تتحكم في الظواهر الكونية والجوانب الاجتماعية وحركة التاريخ.

وإن انطلاق المسلمين لاستيعاب علم السنن، وامتلاك أسباب القوة في جميع مجالات العلوم تجريبيةً وإنسانيةً لحماية دينهم وأوطانهم ومكتسباتهم الحضارية ما زال فريضة شرعية غائبة، إنْ لم يقم بها بعضهم أثموا جميعاً، وسئلوا عنها يوم القيامة بين يدي الله عز وجل[2].

**استثمار وسائل الإعلام والاتصال الحديثة:**

تطورت وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة في عصرنا الحاضر تطوراً كبيراً، حيث أصبحت أداة خطيرة يتعدى عملُها الترويج والترفيه والأخبار، لتعمل على تبديل المفاهيم وصناعة الاتجاهات، مما أكسبها قدرة ملموسة على الاستقطاب والتأثير والتوجيه.

ولذلك أصبح لزاماً على أهل الدعوة الإسلامية أن ينظروا إلى الإعلام باعتباره أداة مؤثرة على الرأي العام المحلي من جهة، ووسيلة فعالة للتعريف بالإسلام وتبليغ رسالته عالمياً من جهة أخرى، مما يتطلب ضرورة الوصول إلى خطاب إعلامي متميز شامل يقوم بوظيفة البلاغ المبين، ويقدم رسالة الإسلام إلى الناس كافة ويبين أنها الأصلح والأنفع لهم في دنياهم وأخراهم.

والإعلام اليوم سلاح ذو حدَّين، فكما أنه يشيع انتهاك حُرُمات الله بأسرع وقت على أوسع نطاق، فهو كذلك يمكن أن يكون وسيلة للدعوة إلى الإسلام وتعليم الناس أسس العقيدة الصحيحة والشريعة التي تغرس في نفوس المتلقِّين احترامَ الثوابت وتعظيم الحُرُمات؛

(١) مقال "علم السنن وأهميته في الآفاق والأنفس"، المرجع السابق.

(٢) علم السنن وأهميته في الآفاق والأنفس، المرجع السابق.

فالمحطات الفضائية، والشبكة المعلوماتية، والإذاعة، والصحافة ودور النشر، وغيرها وسائل عظيمة لنشر هذه الأسس العظيمة في بلاد المسلمين وغيرها[(١)].

ولذلك يلزم أن تكون وسائل الإعلام في بلاد المسلمين قائمة على أسس متينة من التأصيل الصحيح والمنهج السليم؛ حتى تتربّى الأجيال على تعظيم دينها واحترامه.

وينبغي أن تعنى القنوات والمواقع الإسلامية ببث البرامج النافعة التي تغرس الإيمان، وترد على شبه الإلحاد والتشكيك في الدين، وتعظم الدين في قلوب الناس، وتؤكد على مكانة الأنبياء، وأن تسهم في تعظيم حرمات الإسلام والمسلمين، والدفاع عن الثوابت، وأن تكون درعاً للأمة في صد الحملات الخارجية، وفي الوقت نفسه عليها أن تحذر من أن تتحول إلى سلاح يقتل إيمان الأمة ويفسد تفكيرها[(٢)].

كما ينبغي تخصيص بعض وسائل الإعلام لتعريف غير المسلمين بالإسلام، من خلال البرامج الإعلامية الفكرية الموجهة، والقنوات الفضائية المتخصصة في مخاطبة الغرب، والتركيز على مخاطبتهم باللغات المتداولة والأساليب الدعوية المناسبة لثقافة المدعوين، سواء كانوا من الشرق أم من الغرب[(٣)].

بل عليها أن تقوم بالجهاد الإعلامي بحيث تكون موجهة لبلاد العالم كافة، بجميع اللغات؛ لنشر دين الإسلام وبيان صحة عقيدته وسماحة شريعته، وكمال أحكامه، وأساس ذلك حق الله بالتوحيد والعبودية، وحق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم – الذي هو خاتم النبيين – بالاتباع، وشرح سيرة هذا النبي الكريم لهم حتى يعرفوا فضائله وشمائله.

---

(١) تعظيم حرمات الله، د. عبد الرحمن بن صالح المحمود، مجلة البيان، العدد ٢٣٤ (ص ١٢).

(٢) ينظر البيان الختامي لمؤتمر "تعظيم حرمات الإسلام" (ص ٧٨٢).

(٣) ينظر المرجع السابق (ص ٧٨٣).

وكذلك لا بد للإعلام أن يسهم في الصراع الإسلامي الصهيوني إسهاما إيجابيا، ويتطلب ذلك استنفارا عاما لتدارك النقص في هذا الجانب؛ لأن للإعلام أثراً بالغا في إدارة هذا الصراع، ولا يخفى أن أدوات اليهود في السيطرة تعتمد على الاقتصاد والإعلام.

ومن جهة أخرى فإنه يجب أن ينتبه العلماء وطلبة العلم وأهل الخير إلى أهمية هذا الثغر ووجوب سده، وأن ينتصب منهم طائفة للدعوة إلى الله من خلاله.

كما أن هناك عددًا من المشاريع المهمة التي تحتاج إلى تضافر الجهود من أجل إنجازها في هذا الميدان، ومن أهمها:

- إنشاء عدد من مؤسسات الإنتاج الإعلامي المسموع والمقروء والمشاهد.

- تدريب الإعلاميين، وإنتاج المواد الإعلامية الملائمة من أجل سد النقص الشديد فيها.

- تشجيع المستقيمين من الشباب على الدخول في التخصصات الإعلامية والأدبية بنيّة الدعوة إلى الله وتبليغ رسالة الإسلام.

- التعاون مع الصحف ووكالات الأنباء العاملة، ومحاولة إيصال الحقيقة، وكذا إنشاء وكالة أنباء إسلامية لكسر احتكار الأخبار، فهو ضرورة ملحة ينبغي العمل على تحقيقه.

- الاستفادة من ثورة الاتصالات في الدعوة إلى الله لمواجهة كيد الأعداء، والعمل على وقف الهجمة التغريبية الشرسة[(١)].

ولا شك أن شبكة الإنترنت حطمت القيود والحواجز، وتتجلى أهميتها في سعتها وثراء محتوياتها وحرية استخدامها وسهولته وسرعة التفاعل فيها[(٢)]، ولذلك فهي مجال رحب للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[(٣)].

---

(١) ينظر "نحو تفعيل أفضل لانتفاضة الأقصى"، د. يوسف الصغير، مجلة البيان، العدد ١٥٧ (ص ٧٠).

(٢) ينظر مقال: "العولمة مقاومة واستثمار"، د. إبراهيم بن ناصر الناصر، مجلة البيان، العدد ١٦٧ (ص ١١٧).

(٣) ينظر التدريب وأهميته في العمل الإسلامي (ص: ١٣٢).

وقد ذكر أحد الباحثين وسائل لنشر الخير ومدافعة الشر ومواجهة المواقع الهدامة في الإنترنت، ومن ذلك:

١ – إغراق شبكات الإنترنت بالمواقع التي تقدم الإسلام الصحيح عقيدةً وفقهاً وأخلاقا، باللغات المتداولة وعلى رأسها اللغة الإنجليزية، ولا يكفي التركيز على نوعية المواد وتصميم المواقع وحدهما، فعلى الرغم من أهميتها إلا أن من يستخدم الإنترنت يدرك حقيقة أنه كلما زاد عدد مواقعك على الإنترنت زادت هيمنتك وسيطرتك على المواقع الأخرى الأقل منها عدداً.

٢ – تسويق المواقع الجديدة والدعاية لها من خلال إدخالها في محركات البحث (SEARCHING ENGINES). وكلما كان اسم الموقع وعنوانه ومحتواه مُدرجا في محركات بحث أكثر، زاد عدد الزائرين لهذا الموقع.

٣ – ضرورة تضمين هذه المواقع عناوين لتلقي ملاحظات الزائرين واستفساراتهم، والرد على الاستفسارات بصدر واسع مهما كانت، والتحلي بأدب الدعوة عند مراسلة الآخرين مهما كانوا.

٤ – لابد من قيام المؤسسات الإسلامية – كالأزهر الشريف ورابطة العالم الإسلاميّ والجامعات والهيئات الإسلامية الأخرى في مختلف مناطق العالم – بإنشاء مواقع لها، وربطها مع المواقع الأخرى، بغيةَ تطوير الاتصال فيما بينها وتنظيم الحملات الإعلامية المضادة.

٥ – أن ينشر المسلمون في مواقعهم معلومات عن العقائد والملل والنحل الأخرى كاليهودية والنصرانية وغيرها، وكثير منها موجود على شبكة الإنترنت مع إدخال تلك المحتويات في محركات البحث، حتى يحصل الباحثون على وجهة نظر أخرى عن تلك الملل[(١)].

ويمكن الإضافة عليه مثلاً ما يأتي:

(١) ينظر التدريب وأهميته (ص: ١٣٣ – ١٣٦). نقلا عن "مواجهة المواقع الهدامة": مقال للأستاذ محمود الخطيب في مجلة "المجتمع"، عدد ١٣٠٩ تاريخ: ٢٧/ ١٤١٩/٣.

أ – عرض سير الشخصيات الإسلامية المؤثرة، ابتداءً من النبي – صلى الله عليه وسلم – وصحابته الكرام ومن بعده إلى زماننا المعاصر، فعرض سير هؤلاء تجليةٌ لصورة الإسلام الشامل المتوازن المعطاء.

ب عرض صور تدل على سماحة الإسلام وحسن معاملة المسلمين لأهل الملل المختلفة والحضارات المتنوعة.

ج – بيان أثر الحضارة الإسلامية البالغ في المحافظة على أهم ما في الحضارة السابقة عليه، والإضافة التي أضافها عليها.

د – الإيضاح الشامل لكل الناس أن الإسلام يتعرض لحملات ظالمة، وتشكيكات مغرضة، حتى تستقيم صورة الإسلام الصحيح في الأذهان.

وبهذا وأمثاله يرجى أن تتحقق الاستفادة من الإنترنت، وتكون وسيلةً قوية للدعوة إلى الإسلام، بجانب الاستفادة منه في جوانب الترفيه المباح والتعليم المفيد[1].

أما بالنسبة لعبادة الحج — باعتبارها العبادة المحورية الواردة في سورة الحج — فإن الإعلام ولا شك يخدمها من خلال المواكبة الإعلامية التي تقوم بها بعض القنوات الفضائية لموسم الحج، والبرامج التي تقدم عبر وسائل الإعلام المختلفة عن مناسك الحج ومقاصده. ومن المقترحات في هذا الصدد: تأسيس شركة أو مؤسسة متخصصة في الإنتاج الفني والإعلامي لإعداد جملة مناسبة من المواد العلمية والدعوية المتعلقة بالعمرة والحج والزيارة مما لا ينبغي جهله، بالسبل والوسائل واللغات المختلفة، والقيام بتسبيلها، والتشجيع على نشرها وتوزيعها بمقابل أو بدونه، على أن لا تعتمد على الترجمة، بل تكون كتابات أصيلة من مُجيدٍ لكل لغة، من شخصيات معروفة مقبولة من أبناء مختلف بلاد العالم[2].

□

(١) ينظر التدريب وأهميته (ص: ١٣٦ – ١٣٧).

(٢) ينظر مقال "الدعوة في الحج أمانة"، فيصل بن علي البعداني، مجلة البيان العدد ٢٣٢ (ص٧).

## المبحث الثالث: أثر تطبيق هدايات آيات السورة على واقع الأمة

**مقدمة:**

القرآن الكريم هو هادي البشرية ومرشدها ونور الحياة ودستورها، وما من شيء يحتاجه الناس إلا وبيَّنه الله فيه نصاً أو إشارة أو إيماءًا، عَلِمه مَنْ عَلِمه، وجهله من جهله. وإنما أنزل القرآن ليعمل به، ويُتَّخَذ نبراساً ومنهاجَ حياة، ويُحتكَم إليه في أمور الدين والدنيا، وعلى هذا سار السلف الصالح، فسعِدوا في الحياة، وسعِدت بهم الحياة.

وأودُّ هنا التفريق بين أثر الأخذ بهدايات القرآن بصفة عامة كما جاء في الدراسة التأصيلية، وبين الآثار الخاصة التي تترتب على الهدايات الكلية لسورة من السور، ولا شك أن هذه الآثار مندرجة في تلك الآثار العامة، مشمولة بها. ولكن لا يحسن الاكتفاء بذكر الآثار العامة في هذا الموضع الخاص، لأن لكل سورة هداياتِها الكليةَ التي تغاير فيها غيرها من السور، ومن ثَم لا بد من التركيز على الآثار الخاصة بهدايات السورة الكلية، والإحالة في الآثار العامة على الدراسة التأصيلية.

**آثار التمسك بتوحيد الله والإيمان به:**

إن للتوحيد ثمارًا عظيمة وآثارًا جميلة في الحياة، ذاق حلاوتها الصادقون في توحيدهم لله عز وجل، ومن أهم هذه الآثار:

**أولا: راحةُ النفس واطمئنانها وسعادتها،** فهي تتوجه إلى رب واحد، وتتوكل على ربٍّ واحد، وتستعين ربًّا واحدا، وتسأل ربًّا واحدا، وترجو ربًّا واحدا، وتخشى ربًّا واحدا، وتطيع ربًّا واحدا، وبذلك ترتاح النفس وتطمئن، ويسكن القلب ويهدأ، أما المشرك فهو يتشتت ويتوزع بتعدد من يدعوهم من دون الله، فيصبح القلب شذَرَ مذَرَ وفي هم وغم لا يدري من يُرضي، ولذلك ضرب الله مثلا دالا على ذلك فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الحج: ٣١]. قال ابن القيم رحمه الله: (وكذلك العبد، فلا فرح له أعظم من فرحه بوجود ربه، وأُنسه به وطاعته له، وإقباله عليه،

وطمأنينته بذكره، وعمارة قلبه بمعرفته، والشوق إلى لقائه، فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه، ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه، ومن عبد غيره وأَحبه- وإن حصل له نوع من اللَّذة والمودَّة والسكون إليه والفرح والسرور بوجوده- ففساده به ومضرته وعطبه أَعظم من فساد أكل الطعام المسموم اللذيذ الشهي الذى هو عذب في مبدئه عذاب في نهايته... ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٢]، إذا عرف هذا فاعلم أَن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً في محبته، ولا في خوفه، ولا في رجائه، ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به، ولا في النذر له، ولا في الخضوع له، ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب أَعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها. بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإن حقيقة العبد روحه وقلبه، ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيَتُه، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها، ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك. بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت، ثم يتعذب به - ولا بد - في وقت آخر، وكثيراً ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملذ، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك)[1].

فالموحد لا يرجو إلا الله، ولا يحب إلا الله، ولا يبغض إلا لله، ولا يغضب إلا لله؛ وهنا يشعر القلب بالراحة والسعادة، فهو مطالب بإرضاء الله وحده، ولو غضب عليه أهل الأرض قاطبة، وهذا هو الإخلاص لله في كل شيء: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣].

(١) طريق الهجرتين (ص: ٥٧).

إن النفس الموحدة تمتلئ بالطمأنينة والسكينة حتى في أشد المواقف وأصعبها، كما قال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [سورة الأنعام: ٨٢].

قال ابن القيم: (فأعظم أسباب شرح الصدر: التوحيد، وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [سورة الزمر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٥]. فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه)[1].

**ثانيا: تواضع النفس وانكسارها لخالقها وافتقارها إليه سبحانه:** وذلك لأنها تشعر أنها في حاجة إليه تعالى في كل لحظة، فهو مالكها ومدبر شؤونها، مما يزيد العبد افتقارا والتجاء إليه عز وجل، ويزيده ترفعا عن المخلوقين وما في أيديهم، لأن المخلوق مهما كان ضعيف فقير عاجز أمام قدرة الله عز وجل الذي إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون.

إن الموحد لله تعالى حين يشعر بذله وانكساره وافتقاره وعبوديته لملك الملوك، وأنه ضعيف مسكين لا حول له ولا قوة إلا بربه سبحانه، يشعر بقوة عجيبة، ويتنزل عليه ثبات عظيم، لأنه يعلم أنه يأوي إلى ركن شديد قادر على حفظه وحمايته والدفاع عنه، وهو الله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض.

وكما يورثه التوحيد التواضع لله، لعلمه أن الذي وهبه كل ما عنده من صحة أو قوة أو ولد أو مال أو جاه هو الله وحده، وليس من عند نفسه، وأن الذي وهبه ذلك قادر على سلبه في أي لحظة.

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٢٢ - ٢٣).

**ثالثا: اليقين والثقة بالله عز وجل**، فصاحب التوحيد على يقين من ربه، مصدق بآياته، مؤمن بوعده ووعيده، كأنه يراه رأي العين، واثقٌ بالله، متوكلٌ عليه، راضٍ بقضائه وقدره، محتسب الأجر والثواب منه.

**رابعا: تفريج الكربات**: فمن ثمرات التوحيد الخالص النجاةُ من الشدائد في الدنيا والآخرة، ولذلك كان مفزع أولياء الله سبحانه، ومن أمثلة ذلك أن يونس عليه السلام حين التقمه الحوت استغاث بالله تعالى وحده: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٧]، فما كان من الله إلا أن استجاب له، ونجاه من تلك الظلمات: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٨٨]. وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا، وما أعد لهم في الآخرة.

بل إن الله تعالى ينجي المشركين من شدائد الدنيا حينما يدعونه وحده دون سواه، كما أخبرنا الله تعالى بقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٦٥]. قال ابن القيم رحمه الله: (فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد، فلا يُلقي في الكرب العظام إلا الشرك، ولا يُنجي منها إلا التوحيد، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها)[1].

**خامسا: تحرير النفوس من رق المخلوقين والتعلق بهم وخوفهم ورجائهم والعمل لأجلهم**، وهذا هو العز الحقيقي والشرف الرفيع، فإن الموحد لله لا يرجو سواه، ولا يخشى غيره، ولا ينيب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يكون عبدا إلا له، وبذلك يتم فلاحه، ويتحقق نجاحه؛ فإن العبودية لله عز ورفعة، والعبودية لغيره ذل ومهانة. يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله:

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٥٣).

(وما رجا أحد مخلوقا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه فإنه مشرك: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الحج: ٣١].

وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم، فيحصل له الرعب منهم، كما قال تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [سورة آل عمران: ١٥١]، والخالص من الشرك يحصل له الأمن كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الأنعام: ٨٢][1].

ويفصل الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتاب آخر هذا الأمر فيقول: (فَإِن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله مَا يمنعهُ عن عبوديته لغيره، وَمِن حلاوة محبته لله مَا يمنعهُ عَن محبَّة غَيره؛ إِذْ لَيْسَ عِنْد الْقلب السَّلِيم أحلى وَلَا ألذ وَلَا أطيب وَلَا أسرّ ولا أنعم من حلاوة الْإِيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته لَهُ وإخلاص الدَّين له، وَذَلِكَ يَقْتَضِي انجذاب الْقلب إِلَى الله، فَيصير الْقلب منيبا إِلَى الله، خَائفًا مِنْهُ، رَاغِبًا رَاهِبًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة ق: ٣٣]...وإذا كان العبد مخلصا لله اجتباه ربه، فأحيا قلبه واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإن فيه طلبا وإرادة وحبا مطلقا، فيهوى ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مر به عطفه وأماله، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة، فيبقى أسيرا عبدا لمن لو اتخذه هو عبدا له لكان ذلك عيبا ونقصا وذما.

وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة، وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق.

وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثالُ ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها، فيتخذ إلها هواه، ويتبع هواه بغير هدى من الله.

---

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٢٣٢).

ومن لم يكن خالصا لله عبدا له قد صار قلبه معبّدا لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، ويكون ذليلا له خاضعا، وإلا استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، فكان من الغاوين إخوان الشياطين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله)[1].

والتوحيد يثمر عزة النفس لعلم المرء أن المالك الحقيقي هو الله تعالى، القادر على كل شيء، وليس لغيره قدرة على ضر أو نفع، ولذلك ينزع من قلبه خوف أي أحد غير الله[2]، فتكون له العزة التامة، مصداقا لقوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المنافقون: ٨].

ومن ثماره قوة الرجاء وطمأنينة القلب، لأنه يؤمن بمن عنده خزائن السماوات والأرض، وبيده النفع والضر، والعطاء والمنع، وهو لا يغفل عن عبده المؤمن به، بل يرعاه ويؤيده، فلا يعتريه يأس ولا قنوط.

**سادسا: القوة والشجاعة والإقدام**: لأن سبب الجبن أمران: الأول حب الإنسان حياتَه وولدَه ومالَه ونحو ذلك.

الثاني: خوفه من انتزاع أحد ذلك منه، والموحد على يقين بأن الذي أعطاه كل ما يحب هو الله تعالى، وهو القادر على أخذ ذلك إذا أراد، وأن غير الله تعالى ليس بيده شيء، ولا يقدر على سلبه ذرة واحدة إلا إذا أقدره الله على ذلك[3].

**سابعا: الحزم والجد في الأمور**: فإن الموحد جاد حازم لأنه عرف وجهته، وعرف الغاية من خلقه، والحكمة من ابتلائه في الدنيا، وعرف المطلوب منه، وهو عبادة الله وحده وتقواه والدعوة إليه، فلذلك تجده حريصا على اغتنام أوقاته، فلا يفوت فرصة للعمل الصالح إلا

---

(١) العبودية (ص: ١٢٣ – ١٢٥).

(٢) ينظر "توحيد الله"، للشيخ عبد الله أحمد قادري، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٢٩ (١٢/ ٣٥).

(٣) ينظر مقال "توحيد الله"، المرجع السابق.

انتهزها، ولا يفوت شيئا فيه رضوان الله إلا فعله، ممتثلا قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير؛ احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجِز...)) [(١)].

كما أن التوحيد يورث صاحبه قوة العزم والصبر والثبات لعلمه أن الله معه، وأنه مؤيده وناصره، وحسبه وكافيه، فهو يقول بلسانه وقلبه: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [سورة آل عمران: ١٧٣] كما قالها إبراهيم عليه السلام عندما ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم عندما خوف بصناديد المشركين بعيد غزوة أحد[(٢)]، ويردد قول هود عليه السلام لقومه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۡۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [سورة هود: ٥٥ – ٥٦][(٣)].

**ثامنا: تسهيل فعل الخيرات وترك المنكرات على النفس:** فالطاعات تخف عليه لما يرجوه من الثواب، ويهون عليه ترك المعاصي لما يخشى من سخط الله وأليم عقابه، وإذا صدق العبد في توحيده خرج من قلبه تألّه ما يهواه، وصرف الله عنه الكثير من الذنوب والمعاصي، مصداقا لقول الله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [سورة يوسف: ٢٤]، والمسلم بقدر ما في نفسه من التوحيد يكون إقدامه وحرصه على فعل الخيرات، والعكس صحيح، ولابن القيم رحمه الله كلام بديع يقول فيه: (اعلم أن أشعة لا إله إلا الله تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه، فلها نور، وتفاوت أهلها في ذلك النور – قوة، وضعفا – لا يحصيه إلا الله تعالى.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرج البخاري في صحيحه: (تفسير سورة آل عمران، باب ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ح ٤٢٨٧، ٤/ ١٦٦٢) عن ابن عباس أنه قال: ("حسبنا الله ونعم الوكيل" قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣]).

(٣) ينظر مقال "توحيد الله"، المرجع السابق (١٢/ ٣٥).

فمن الناس من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، ومنهم من نورها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف... وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ولا ذنبا إلا أحرقه، وهذا حال الصادق في توحيده، الذي لم يشرك بالله شيئا، فأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها، فسماء إيمانه قد حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته، فلا ينال منها السارق إلا على غرة وغفلة لا بد منها للبشر، فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه استنقذه من سارقه، أو حصل أضعافه بكسبه، فهو هكذا أبدا مع لصوص الجن والإنس، ليس كمن فتح لهم خزانته، وولى الباب ظهره.

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه، كما كان عبّاد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن – من محبة الله، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع، والعطاء، والحب، والبغض – ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي، والإصرارِ عليها)[1].

**تاسعا: الإنصاف وتربية النفس على العدل:** فمن أظلم الظلم أن يكون الله هو الذي خلق الإنسان وأحسن خلقه، وأنعم عليه بعظيم النعم الظاهرة والباطنة، وسخر له ما في السماوات والأرض، ثم بعد ذلك كله يقابل ذلك بالنكران والجحود، فيجعل له ندا يدعوه من دون الله، ويرجوه ويخاف منه، ويصرف له شيئا من وجوه العبادة. ولا شك أن الإشراك بالخالق الذي خلق وأنعم وأحسن وتفضل أعظمُ صور الظلم، كما قال تعالى على لسان لقمان الحكيم: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [سورة لقمان: ١٣]. ومن ثم فإن الموحِّد لله يتعلم من التوحيد العدل واجتناب وضع الشيء في غير موضعه في جميع المجالات.

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٣٨ – ٣٣٩).

**عاشرا: التجرد من الطمع والفزع:** فالإنسان مجبول على هاتين الصفتين، ولكنه يقوى على مجاهدة نفسه وكبح جماحها وضبط خوفها وطمعها بتوحيد الله عز وجل، وإذا تجرد منهما قوي على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيله سبحانه باللسان والقلم والسنان، قال ابن القيم: (فإن قلت: فبأي شيء أستعين على التجرد من الطمع ومن الفزع؟ قلت: بالتوحيد والتوكل والثقة بالله، وعلمك بأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، وأن الأمر كله لله، ليس لأحد مع الله شيء)[(١)].

ومن شأن التوحيد كذلك أن يورث صاحبَه التعففَ والقناعةَ، لعلمه بأن الرازق المعطيَ المانع هو الله، ومن ثم فإنه يسعى في حصول ما يريد من خير، موقنًا أن الله يعطيه ما يشاء ويمنعه ما يشاء، ولا يسلك الطرق المحرمة، ولا يأخذ بالوسائل الدنيئة، لأن النجاح عنده ينحصر في فضل الله، فلا يكون عبداً لغيره من أجل أن ينجح في أي أمر من أموره[(٢)].

**الحادي عشر: جود الموحدين بالمال والنفس في سبيل الله ونصرة دينه:** فالموحدون الذين ذاقوا حقيقة التوحيد يبذلون كل غال ونفيس من أجل دينهم وعقيدتهم وتثبيت دعائمهم غير مبالين بما يصيبهم في سبيل ذلك، لأنهم موقنون بربهم، لم يدخلهم ريب في توحيدهم لله وإيمانهم به، ولا شك في نصرة الله لهم، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحجرات: ١٥]، فمن كان صادقا في إيمانه استجاب لأمر الله حين يقول: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة التوبة: ٤١]. ووثق بوعده بالنصر متى ما نصر دينه كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [سورة محمد: ٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠]. وأيقن بدفاع

---

(١) الفوائد (ص: ١١٦).

(٢) ينظر "توحيد الله" (١٢/ ٣٥).

الله عنه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [سورة الحج: ٣٨]، وكفايته له: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [سورة الزمر: ٣٦]، وولايته له: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [سورة محمد: ١١].

**آثار الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى:**

إن معرفة الله تعالى بصفاته العلى والتعبد بأسمائه الحسنى الدالة على كماله وجلاله عز وجل له آثار عظيمة في الأمة لو صار شائعا بين أفرادها. ومن هذه الآثار:

**١ – تحقيق معرفة الله عز وجل:** فالإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى الواردة في كتابه العزيز وسنة رسوله الأمين من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وفهم معانيها وما تدل عليه من الجلال والكمال، أقربُ طريق لمعرفة الله، وكلما ازداد المرء علما بالله تعالى كان له أخوف، وفيه أرغب وأحبّ، وإليه أقرب، وازداد تعلقا بالله وحبا وهيبة وإجلالا له.

ومن كان حاله كذلك وجد من حلاوة الإيمان في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حب غيره، وكلما ازداد له حبا ازداد له عبودية وذلا وخضوعا.

**٢ –** أن إثبات الأسماء والصفات لله تعالى يورث **توحيد الله تعالى:** فكلما حقّقَ العبد أسماء الله وصفاته علماً وعملاً، كان أعظم وأكمل توحيداً، وفي المقابل: فإن كل شرك أصله تعطيل صفات الله تعالى، ولا تجد معطلاً إلا وشركه على حسب تعطيله، (فإنه لولا تعطيل كماله أو بعضه وظن السوء به لَما أشرك به، كما قال إمام الحنفاء وأهل التوحيد لقومه: ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةَ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٧﴾ [سورة الصافات: ٨٦ – ٨٧]، أي: فما ظنكم به أن يجازيكم وقد عبدتم معه غيره؟ وما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء؟ أظننتم أنه محتاج إلى الشركاء والأعوان؟ أم ظننتم أنه يخفى عليه شيءٌ من أحوال عباده حتى

يحتاج إلى شركاء تعرفه بها كالملوك؟ أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم؟ أم هو قاسٍ فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده؟)[1].

**٣ – ارتفاع حُجُب الغفلة والشك عن القلوب**: فالعلم بالله من خلال أسمائه وصفاته يزكي النفوس ويطهر القلوب؛ ذلك أن المسلم إذا آمن بأسماء الله تعالى وصفاته الحسنى، ودام ذكره لها، فإن نورها يشرق على القلب، فترتفع عنه حجب الغفلة والشك والإعراض، وكلما ازداد معرفة بأسماء الله الحسنى إلا وارتفع الحجاب بين قلبه وربه، إلى حدٍّ كأنه يطالع ما اتصف به الرب سبحانه من صفات الكمال، ونعوت الجلال، حتى يبلغ الإنسان إلى مرتبة الإحسان بدوام المراقبة أو المشاهدة، فيعبد الله تعالى كأنه يراه[2].

**٤ – تعظيم الله عز وجل**: فمن شاهد الصفة لا بد أن يشاهد متعلقاتها، فإن النظر في متعلقاتها يكسب التعظيم للمتصف بها؛ فمن شاهد صفة الكلام مثلاً زادته تعظيماً لله تعالى ولا بد، إذ لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر، وأشجار العالم كلها أقلامٌ يُكتب بها كلام الله جل جلاله لفنيت البحار ونفدت الأقلام، وكلام الله عز وجل لا يفنى ولا ينفَد، فمن شاهد الصفات الأخرى بمثل هذه المشاهدة من العلم والقدرة ونحوها، وجال قلبه في عظمتها: ازداد معرفة وتعظيماً لله سبحانه[3].

**٥– إدراك أسرار الشريعة وحِكَم أحكامها**: فمن كانت له معرفة بأسماء الله وصفاته، واستقرار آثارها في خلق الله وأمره، (رأى الخلق والأمر منتظمَيْن بها أتم انتظام، ورأى سريان آثارها فيها، وعلم بحسب معرفته ما يليق بكماله وجلاله أن يفعله وما لا يليق، فاستدل بأسمائه على ما يفعله وما لا يفعله، فإنه لا يفعل خلاف موجَب حمده وحكمته، وكذلك يعلم ما يليق به أن يأمر به ويشرعه مما لا يليق به، فإذا رأى في بعض الأحكام جوْراً أو سفهاً وعبثا

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٢٤– ٣٢٥).

(٢) ينظر المصدر السابق (٣/ ١١٠ و٢١٠).

(٣) ينظر المصدر السابق (٣/ ٢١٩).

ومفسدة، فليعلم أنه ليس من أحكامه ودينه، وأنه بريءٌ منه ورسولُه؛ فإنه إنما أمر بالعدل لا بالظلم، وبالمصلحة لا بالمفسدة، وبالحكمة لا بالسفه، وإنما بعث رسوله بالحنيفية السمحة لا بالغلظة والشدة، وبعثه بالرحمة لا بالقسوة، فإنه أَرحم الراحمين، ورسوله رحمة مُهداة إلى العالمين، ودينه كله رحمة، وهو نبي الرحمة، وأُمته الأُمة المرحومة، وذلك كله موجَب أَسمائه الحسنى وصفاته العليا وأَفعاله الحميدة)[1].

٦ – **حسن الظن بالله والثقة به تعالى**: وهو عبادةٌ قلبية جليلة تقوم على فقه أسماء الله وصفاته، كالعلم والحكمة والقدرة، والرحمة، وغيرها، كما أن سوء الظن بالله من آثار إنكار أسماء الله تعالى وصفاته. يقول ابن القيم: (وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وعرف موجَب حكمته وحمده ... ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تَعَتّباً على القدَر وملامة له ... وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر)[2].

٧ – **كمال التوكل على الله عز وجل**: إذ لا يتحقق التوكل إلا بمعرفة أسماء الله تعالى وصفاته؛ وذلك لأن التوكل حال مركبة من مجموع أمور لا تتم حقيقة التوكل إلا بها، وأول ذلك: المعرفة بالرب وصفاته، من قدرته، وكفايته، وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل، (فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف كان توكله أصح وأقوى)[3].

٨ – **طمأنينة النفوس**: فإن معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته تعالى تورث الاطمئنان إلى الله تعالى، فمثلاً: إذا استشعر القلب معاني أسماء الله: الرزاق، والكريم، والمنعم، ونحوها، وأدرك القلب معاني الآيات التي تدل على أن الرزق بيد الله وحده، لا يزيده حرص حريص، ولا يؤخره

---

(١) طريق الهجرتين (ص: ١٣٠).

(٢) ينظر مدارج السالكين (٣/ ٣٢٤- ٣٢٥).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١١٨).

حسد حاسد، كقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [سورة الذاريات: ٢٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [سورة الذاريات: ٥٨]، ونحوها، فهذه المعرفة بأسماء الله، ومدلول آياته، مع ما يشاهده من آثار رحمته من نزول المطر، وحياة الأرض بمختلف الأصناف من الثمار، وأنواع الحيوان الذي سخره الله لأهل الأرض رزقاً لهم، وكيف هيأ للمخلوقات الضعيفة أرزاقها، إلى غير ذلك، كل ذلك يوجب للقلب محبة الله، وحسن الظن وتعلق القلب به، والركون إليه[1].

وكذلك إذا وقر في القلب التصديق بوعد الله للمتصدقين بالخلف كقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾ [سورة سبأ: ٣٩]؛ فإن ذلك يجعله يتصدق ويحسن إلى غيره وهو مطمئن بأن الله سيرزقه من فضله، وسيخلف عليه ما تصدق حسن ظن بالله وثقةً بوعده.

وكذلك إذا أيقن العبد بأن الله تعالى هو الذي ينفرد بالنفع والضر، فإن فؤاده يطمئن، لأنه يعلم أن كل خير يأمله وكل شر يحاذره في الدنيا والآخرة إنما هو بيد الله وحده، ولو اجتمع الناس على أن يمنعوه شيئا أراده الله له أو يضروه بشيء لم يكتبه الله فإنه لن يقع.

**٩ – محبة الله والخوف منه والرجاء فيه:** وهذه الثلاثة من أعظم الأعمال القلبية، وعليها تنبني عبادة الله عز وجل، وهي تنشأ من التعبد بأسماء الله وصفاته، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في تفسير سورة الفاتحة: (أركان الدين: الحب، والرجاء، والخوف، فالحب في الأولى، وهي: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [سورة الفاتحة: ٢]، والرجاء في الثانية، وهي: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ الفاتحة: ٣]، والخوف في الثالثة، وهي: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [سورة الفاتحة: ٤])[2].

(١) "أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة"، لعبد الله بن عبد الرحمن الجربوع (١/ ٤٠٢ – ٤٠٣).
(٢) تاريخ ابن غنام (٢/ ٣٦٠).

وبالجملة، فإن الإيمان بأسماء الله الحسنى يثمر أنواعا من العبادات القلبية، وقد لخص ابن القيم ذلك بقوله: (والأسماء الحسنى والصِّفاتُ العُلى مقتضيةٌ لآثارها من العبوديَّة والأمر اقتضاءَها لآثارها من الخلق والتكوين، فلكلِّ صفةٍ عبوديَّةٌ خاصَّةٌ هي من مُوجَباتها ومقتضياتها، أعني: مِنْ مُوجَبات العلم بها والتَّحقُّق بمعرفتها. وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح:

فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة، يثمر له عبوديةَ التوكل عليه باطنا، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرا.

وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه؛ فيثمر له ذلك الحياء باطنا، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه وجوده، وكرمه وبرّه، وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعا من العبودية الظاهرة هي موجباتها.

وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة تثمر له أنواعَ العبودية.

فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات، وارتبطت بها ارتباط الخلق بها؛ فخلقه سبحانه وأمرُه هو موجَب أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضاها، لأنه لا يتزين من عباده بطاعتهم، ولا تشينه معصيتهم)[1].

**١٠ – السلامة من أمراض القلوب وسيئ الأخلاق:** فكما يفيد الإيمان بأسماء الله الحسنى طاعات القلوب، كذلك يزيل معاصي القلوب والرذائل النفسية، كالحسد والكبر

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٩٠).

ونحوها، فإن العبد كما قال ابن القيم: (لو عرف ربه بصفات الكمال ونعوت الجلال، وعرفَ نفسَه بالنقائص والآفات، لم يتكبر ولم يغضب لها، ولم يحسد أحدًا على ما آتاه الله، فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله؛ فإنه يكره نعمة الله على عبده، وقد أحبها الله، وأحب زوالها عنه، والله يكره ذلك، فهو مضاد لله في قضائه وقدَره ومحبته وكراهته. ولذلك كان إبليس عدوه حقيقة، لأن ذنبه كان عن كبر وحسد، فقلْع هاتين الصفتين بمعرفة الله وتوحيده والرضا به وعنه والإنابة إليه)[1].

**١١ – الرضا بقضاء الله والصبر على المصائب:** فإن التعبد بأسماء الله وصفاته يثمر الموقف الصحيح تجاه المكاره والمصائب؛ فإن الله تعالى بكل شيء عليم، وهو سبحانه حَكَمٌ عدْل، قائم بالقسط، لا يظلم أحداً، قال سبحانه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [سورة البقرة: ٢١٦].

قال ابن القيم رحمه الله: (من صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما كره أعظم منها فيما يحب ...)[2].

**١١ – الصمود أمام الشدائد:** فالتزكية بمعرفة أسماء الله عز وجل وما تقتضيه من الآثار الإيمانية السلوكية، تثمر قوة المقاومة للفتن، والصمود أمام الشدائد، مما يكون له الأثر في الثبات عند المحن، والصبر على البلايا، والتضحية في سبيل الله عز وجل، والنصر على الأعداء، وقوة الرجاء، وحسن الظن به سبحانه، وقطع الطريق على اليأس والإحباط.

**١٢ – معرفة السنن الإلهية وأثرها فيما يجري في هذا الكون من حوادث ونوازل ومتغيرات،** وهذا يؤثر في تفسير الأحداث والموقف الصحيح منها والمنهج الحق في تناولها واستثمارها وتعليلها. فعلى سبيل المثال عندما يتعبد العبد لربه سبحانه باسميه: العليم، والحكيم؛

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١٥٨).

(٢) المصدر نفسه (ص: ١٥٨).

فإن هذا يثمر الطمأنينة في القلب، وحسن الظن بالله عز وجل، وربط الأحداث بخالقها سبحانه ومحدثها، وأنها لم تحصل إلا بعلمه سبحانه وحكمته وقدرته وعدله، وأنه سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وعندما يشهد اسميه سبحانه: الرحيم، واللطيف، فإن هذا يثمر المعرفة بسنة الله عز وجل في عباده المؤمنين، وأن العاقبة لهم، وأن ما يدبره الله سبحانه لهم متضمن لرحمته سبحانه ولطفه وبره بهم. وهكذا في بقية أسماء الله الحسنى، وما تقتضيه من السنن الإلهية في خلقه سبحانه وأمره[(١)].

**آثار الإيمان بالقضاء والقدر:**

إن الإيمان بالقضاء والقدر أحد أصول العقيدة الإسلامية التي يجب على كل مسلم الإيمان بها، وله آثار عظيمة وثمار كثيرة تصلح الفرد والمجتمع، منها:

١ – أنه يوجب للعبد توحيد الله – عز وجل – وإفرادَه بالعبادة والتضرع والطاعة، وأن الأمور كلها بيد الله عز وجل، وأنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له من خير أو شر ونفع أو ضر، وأنه تعالى هو وحده الضار النافع، والمعطي المانع[(٢)].

٢ – أن الإيمان بالقدر طريق للخلاص من الشرك، فالمؤمنون الموحدون الذين آمنوا بالقدر، وأيقنوا بأن هذا الكون وما فيه صادر عن الإله الواحد الأحد، الخالقِ لكل شيء، المعبودِ دون سواه، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، يسلمون بذلك من الشرك الذي وقع فيه كل من كذب بالقدر أو نسب الخلق لغيره تبارك وتعالى، فالإيمان بالقدر طريق التوحيد والنجاة من الشرك[(٣)].

---

(١)﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾ دراسة تربوية للآثار الإيمانية والسلوكية لأسماء الله الحسنى: عبدالعزيز بن ناصر الجليل، (٢/ ١٨٣).

(٢) وسطية أهل السنة والجماعة في باب القدر: الدكتور عبد الله بن سليمان الغفيلي، مجلة البحوث الإسلامية (٧٦ع/ ١٦٧).

(٣) ينظر: القضاء والقدر لعمر الأشقر (ص ١٠٩).

ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد[١]؛ قال ابن عباس: (الإيمان بِالقَدَر نظامُ التوحيد، فمن وحَّد وكَذَّب بِالقَدَرِ فقد نقض التوْحيد)[٢].

٣ – استشعار عظمة الله سبحانه وتعالى، وإحاطته الشاملة بكل شيء، ونفوذ مشيئته على الخلق كافّةً [٣].

٤ – أن الإنسان يعرف قدر نفسه وعجزه؛ فلا يتعالى لأنه عاجز عن معرفة المقدور ومستقبل ما هو حادث، ومن ثم يقر الإنسان بعجزه وحاجته إلى ربه سبحانه وتعالى، فتراه يكون صادقا في توكله على ربه، يأخذ بالأسباب التي قدر الله أقدارها، ويطلب من ربه العون على ما عجز عنها بلا تردد ولا شك [٤].

٥ – الإيمان بالقدر يبعث في القلوب الشجاعة والإقدام على عظائم الأمور بثبات وعزم، فالمؤمن بالقدر يعلم أن الأجل محتوم، والرزق مقسوم، وأن كل ما يصيبه فهو مكتوب، ولذلك فإنه لا يخشى إلا ربه، ويقتحم الصعاب والأهوال ثابت الفؤاد رابط الجأش.

وقد كان هذا الإيمان من أعظم ما دفع الأسلاف إلى الإقدام في ميدان الجهاد غير هيّابين ولا وجلين، ومن أعظم ما ثبَّت قلوب الصالحين في مواجهة الظلمة والطغاة، أمرًا بالمعروف ونهيا عن المنكر وجهرا بالحق، لا يخشون في ذلك الموت أو انقطاع الرزق، لأنهم يعلمون أن الأجل والرزق بيد الله، وأن ما قُدِّر لهم سيأتيهم، ولن يتعدوا القدْر الذي كتبه الله لهم [٥]. وقد قال الله

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٦٥).

(٢) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في السنة (٢/ ٤٢٢، رقم ٩٢٥ و٩٢٨)، وفي إسناده رجل مبهم، والفريابي في "القدر" (ص: ١٤٣، رقم ٢٠٥)، ورواه بنحوه اللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" (٤/ ٧٤٢، رقم ١٢٢٤).

(٣) وسطية أهل السنة والجماعة في باب القدر: د. عبد الله بن سليمان الغفيلي، مرجع سابق (٧٦/ ١٦٧).

(٤) ينظر: لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغاياتها، د. محمد أمين المصري (ص ١٨٦).

(٥) القضاء والقدر للأشقر (ص: ١١١ –١١٢)، ومقال "وسطية أهل السنة في القدر"، الدكتور: عواد بن عبد الله المعتق، مجلة البحوث الإسلامية (ع ٣٤/ ٢١٣).

تعالى ردا على المنافقين: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٤].

٦ – أنه يوجب للمسلم الإقبال على الله تعالى، ويقطع قلب المؤمن من الالتفات إلى المخلوقين؛ لأن الأمور كلها بيد الله عز وجل، وبقضائه وقدره سبحانه وتعالى. كما أنه يوجب الاعتماد على الله – سبحانه عند فعل الأسباب، بحيث لا يعتمد على السبب نفسه؛ لأن كل شيء بقدر الله[(١)]. يقول عز وجل: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [سورة التوبة: ٥١].

٧ – تنشيط النفوس الصالحة بالاجتهاد في الأعمال الصالحة، وتخويف النفوس المقصرة؛ لتسرع بالتوبة والرجوع إلى ربها؛ فالمؤمن بالقدر دائماً على حذر من مكر الله، يخشى أن يسبق عليه الكتاب فيختم له بخاتمة السوء، وهذا يدفعه إلى المجاهدة الدائبة على لزوم الاستقامة، والإكثار من الطاعات، والبعد عن المحرمات.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة))[(٢)].

٨ – الطمأنينة والرضا والسلامة من الفرح والبطر: فإن الإنسان إذا أصابه الخير بطر واغتر به، وإذا فاته الخير أو أصابه الضر جزع وحزن، كما قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢﴾ [سورة المعارج: ١٩ – ٢٢]. ولا يعصم الإنسان من البطر والحزن إلا إيمانه بالقدر.

فالمؤمن بالقدر إذا فاته محبوب أو أصابه مكروه لا يجزع ولا ييأس، بل يصبر ويحتسب، لأنه يعلم أن ما أصابه قد قضاه الله عليه ابتلاءً منه له، وجرت به المقادير وكتب في اللوح

---

(١) ينظر: نبذة في العقيدة الإسلامية للعلامة ابن عثيمين (ص ٣٩).

(٢) أخرجه: البخاري في صحيحه: (كتاب التفسير، تفسير سورة {والليل إذا يغشى}، ح ٤٦٦٦، ٤/١٨٩١). ومسلم في صحيحه: (كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي...، ح ٢٦٤٧، ٤/ ٢٠٤٠).

المحفوظ قبل أن يخلق الخلق، وما قدره تعالى كائن لا محالة [1]. وإذا أصابته سراء علم أن ذلك من فضل الله عليه، فيشكره على ذلك: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الحديد: ٢٢ – ٢٣]. وجاء في الحديث أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: ((عجبا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)) [2].

قال ابن القيم: (وإذا اطمأن إلى حكمه الكوني: علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأنه ما يشاء كان وما لم يشأ لم يكن. فلا وجه للجزع والقلق إلا ضعف اليقين والإيمان. فإن المحذور والمخوف: إن لم يُقدَّر فلا سبيل إلى وقوعه، وإن قُدِّر فلا سبيل إلى صرفه بعد أن أبرم تقديره؛ فلا جزع حينئذ لا مما قدر ولا مما لم يقدر) [3].

٩ – الإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض الاجتماعية التي تفتك بالمجتمعات، وتزرع الأحقاد بين أفرادها، مثل رذيلة الحسد، فالمؤمن لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، لإيمانه بأن الله هو الذي رزقهم، وقدر لهم ذلك، فأعطى من شاء، ومنع من شاء، ابتلاء وامتحانا منه سبحانه لخلقه، وأنه حين يحسد غيره إنما يعترض على المقدور [4].

١٠ – الإيمان بالقدر من أكبر العوامل التي تكون سببا في استقامة المسلم، خاصة في معاملته مع الآخرين، فحين يتنقصه أحد أو يسيء إليه أو يرد إحسانه بالإساءة، أو ينال من عرضه بغير حق، تجده يعفو ويصفح؛ لأنه يعلم أن ذلك مقدور، وهذا يحسن في حق نفسه،

---

(١) ينظر القضاء والقدر للأشقر (ص: ١١٠ – ١١١)، ونبذة في العقيدة الإسلامية للعلامة ابن عثيمين (ص ٣٩ – ٤٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير، ح ٢٩٩٩، ٤/ ٢٢٩٥).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٤٨٣).

(٤) مقال "وسطية أهل السنة في القدر"، الدكتور: عواد بن عبد الله المعتق، مجلة البحوث الإسلامية (٣٤/ ٢١٣).

أما في حق الله فلا يجوز العفو والتعلل بالمقدور، لأن القدر يحتج به في المصائب، لا في المعايب[(١)].

قال ابن القيم: (للعبد أحد عشر مشهدا فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه أحدها:...مشهد القدر وأن ما جرى عليه بمشيئة الله وقضائه وقدره، فيراه كالتأذي بالحر والبرد، والمرض والألم، وهبوب الرياح، وانقطاع الأمطار؛ فإن الكل أوجبته مشيئة الله، فما شاء الله كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده؛ وإذا شهد هذا استراح وعلم أنه كائن لا محالة، فما للجزع منه وجه)[(٢)].

١١ – الإيمان بالقدر يغرس في نفس المؤمن حقائق الإيمان المتعددة، فهو دائم الاستعانة بالله، يعتمد على الله ويتوكل عليه مع فعل الأسباب، وهو أيضا دائم الافتقار إلى ربه تعالى، يستمد منه العون على الثبات، ويطلب منه المزيد، وهو أيضا كريم يحب الإحسان إلى الآخرين فتجده يعطف عليهم، والإيمان بالقدر يغرس في نفس المؤمن الانكسار والاعتراف لله تعالى حين يقع منه الذنب، ومن ثم يطلب من الله العفو والمغفرة، ولا يحتج بالقدر على ذنوبه وإن كانت مقدرة عليه؛ لأنه يعلم أن الاحتجاج بالقدر على فعل الذنب باطل مخالف للشرع[(٣)].

١٢ – أن الداعيَ إلى الله يصدع بدعوته ويجهر بها أمام الكافرين والظالمين، لا يخاف في الله لومة لائم، ويفضح ما هم فيه من كفر وظلم، وما يقومون به من إفساد وتضليل، بعد اتخاذ الأسباب الواقية بإذن الله، وهو راسخ الإيمان، واثق بالله، متوكل عليه، صابر على كل ما يحصل له في سبيله، لأنه مؤمن أن الآجال بيد الله وحده، والأرزاق عنده وحده، وما قدّر الله سيكون، وما لم يقدِّرْه لن يكون، وأن العباد لا يملكون من ذلك شيئا[(٤)].

---

(١) وسطية أهل السنة في القدر، المرجع السابق (٣٤/ ٢١٣).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٠٣).

(٣) وسطية أهل السنة في القدر، المرجع السابق (٣٤/ ٢١٣).

(٤) ينظر: الإيمان، محمد نعيم ياسين (ص ١٩٢).

١٣ – التسليم لحكمة الله وإرادته والرضا بفعله، والتوكل عليه عز وجل، وعدم معارضة الشرع بالقدر، والأدب مع الله – سبحانه وتعالى – ورسوله صلى الله عليه وسلم[١].

**آثار الإيمان باليوم الآخر:**

إن للإيمان باليوم الآخر واستحضاره في كل حركة وسكون آثارا عظيمة في عمل المرء، منها:

**١– الإخلاص لله عز وجل والمتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام:** إن الموقن بلقاء الله عز وجل يوم الفزع الأكبر، لا تلقاه إلا حريصاً على تجريد نيته لله فيها وتخليص أعماله من شوائب الرياء والسمعة، حذراً من كل ما قد يحبطها من صور الشرك الأكبر، أو ينقص ثوابها من صور الشرك الأصغر، كيسير الرياء، والمنّ، وطلب الجاه في الدنيا والثناء من الناس، فكلما كان العبد موقناً بلقاء ربه كان أشد حرصا على ألا تحبط أعماله الصالحة لينتفع بها يوم القيامة، حين يكون في أشد الأوقات حاجة إليها؛ ولذلك فهو يجاهد نفسه بصيانة أعماله بالإخلاص فيها لله تعالى، لعل الله عز وجل يتقبلها وينفعه بها.

كما أن اليقين بالرجوع إلى الله عز وجل يجعل العبد في أعماله كلها متبعاً للرسول صلى الله عليه وسلم، غير مبتدع ولا مبدل؛ لأنه يعلم أن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً صواباً[٢]، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [سورة الكهف: ١١٠].

---

(١) "وسطية أهل السنة والجماعة في باب القدر": الدكتور عبد الله بن سليمان الغفيلي، مجلة البحوث الإسلامية (٧٦/ ٢٢١).

(٢) روى أبو نعيم في حلية الأولياء (٨ / ٩٥) عن الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [هود: ٧]: (أخلصه وأصوبه)، قيل: يا أبا علي، وما أخلصه وأصوبه؟ قال: (إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة).

**٢- الحذر من فتنة الدنيا والزهد فيها والصبر على شدائدها وطمأنينة القلب وسلامته:** فإذا أكثر العبد ذكر الآخرة، وكانت منه دائماً على بال، فإن الزهد في الدنيا والحذر من فتنتها سيحلّان في القلب، وحينئذ لا يكترث بزهرتها، ولا يحزن على فواتها، ولا يمدن عينيه إلى ما متع الله به بعض عباده من نعم ليفتنهم فيها، وهذه الثمرة تتولد عنها أيضا ثمرات طيبة أخرى منها: القناعة، وسلامة القلب من الحرص والحسد والغل والشحناء؛ لأن الذي يذكر الآخرة وأهوالها العظيمة لا يحرص على التوسع في الدنيا، والتنافس والتنازع على متاعها، وإنما يتخذها مطية إلى الجنة؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [سورة القصص: ٧٧]. كما يتولد أيضا من هذا الشعور السكينة النفسية وقوة الصبر على المحن والابتلاءات، لأن المؤمن يرجو من صبره ثواب الله الذي لا ينقطع في الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ [سورة النساء: ١٠٤]. وما إن يفقد القلب هذه المعاني حتى يخيم عليه الهم والتعاسة، ومن هنا ينشأ القلق والضيق والحزن.

أما الذي عرف الدنيا على حقيقتها، وامتلأ قلبه باستحضار الآخرة وأهوالها، فإن نفسه لا تذهب على الدنيا حسرات، ولا تنقطع نفسه لهثاً في طلبها، ولا يأكل قلبه الغل والحسد والتنافس فيها، ولا يقل صبره ويجزع قلبه عند شدائدها، ومهما حُرِم من خيرات الدنيا الفانية فهو يعلم أن لله في ذلك حكمة بالغة، ويرجو أن يعوضه الله عنه خيرا منه في الجنة، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ٣٣ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٣٣ – ٣٥][(١)].

(١) ينظر مقال "من ثمرات اليقين باليوم الآخر"، بقلم: عبد العزيز بن ناصر الجليل، مجلة البيان، العدد ٩٨، (ص٤٠).

**٣- التزود بالأعمال الصالحة واجتناب المعاصي والمبادرة بالتوبة والاستغفار:** فإن المسلم إذا كان يؤمن باليوم الآخر فإنه يرجو أن يفوز برضوان الله ودخول الجنة، ومن رجا شيئاً فإن رجاءه يستلزم ثلاثة أمور:

أحدهما: محبة ما يرجوه. والثاني: خوفه من فواته. والثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

فلا بد أن يقترن رجاؤه بالخوف، إذ كل راجٍ خائف، وكلاهما يستلزم العمل لنيل ما يرجى والنجاة مما يخاف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات[(١)]. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة))[(٢)].

وقد أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين ووصفهم بأنهم يخشون ربهم ويسارعون في الخيرات، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٦٣ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [سورة المؤمنون: ٥٧ – ٦١]. وقد سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن هذه الآية، فقالت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟

---

(١) ينظر الجواب الكافي (ص: ٣٩ - ٤٠).

(٢) رواه الترمذي في سننه: (كتاب صفة القيامة، باب من خاف أدلج، ح ٢٤٥٠، ٦٣٣/٤)، وقال: (هذا حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر). والحاكم في المستدرك: (كتاب الرقاق، باب قلب ابن آدم مثل العصفور يتقلب، ح ٧٨٥١، ٤/ ٣٤٣)، وقال: (صحيح الإسناد)، ووافقه الذهبي. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥١٢/١، رقم ٨٨١). وصححه الألباني بشاهدٍ له في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥/ ٤٤٢ – ٤٤٣، رقم ٢٣٣٥).

قال: ((لا، يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لا يتقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات))[1].

٤ – **الدعوة إلى الله تعالى والجهاد في سبيله:** وهذا يدخل في الثمرة السابقة، حيث إن الجهاد من أفضل القربات والأعمال الصالحة، وإنما أفردته بالذكر: لأن الجهاد يقوم على الزهد في الحياة الدنيا، وإيثار النعيم في الدار الآخرة على سلامة النفس، والمجاهد في سبيل الله يضحي بماله وروحه لنيل نعيم أعظم وأدوم في جنات النعيم، تصديقا بوعد الله تعالى القائل في كتابه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [سورة التوبة: ١١١][2].

٥ – **الإيجابية:** فلا يستيقن أحد من لقاء الله في الدار الآخرة، (وهو يعي حقيقة هذا الدين، ثم يعيش في هذه الحياة سلبيّاً أو متخلفاً أو راضياً بالشر والفساد والطغيان.

إنما يكابد المسلم هذه الحياة الدنيا، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى، ويستمتع بطيباتها أو يزهد فيها وهو يعلم أنها حلال في الدنيا خالصة له يوم القيامة، ويجاهد لترقية هذه الحياة وتسخير طاقاتها وقواها وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة عن الله فيها، ويكافح الشر والفساد والظلم محتملا الأذى والتضحية حتى الشهادة وهو إنما يقدم لنفسه في الآخرة .. إنه يعلم من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٢٠٥، رقم ٢٥٧٤٦)، والترمذي في سننه: (كتاب التفسير، باب ومن سورة المؤمنون، ح ٣١٧٥، ٥/ ٣٢٧). وابن ماجه في سننه: (كتاب الزهد، باب التوقي على العمل، ح ٤١٩٨، ٢/ ١٤٠٤)، قال محقق جامع الأصول: (وفي سنده انقطاع، فإن عبد الرحمن بن وهب الهمداني – الراوي عن عائشة رضي الله عنها لم يدركها، لكن له شاهد يتقوى به، من حديث أبي هريرة عند ابن جرير" في تفسيره (١٧ / ٧٠)، وقد أخرج الحديث أيضا الحاكم في المستدرك (كتاب التفسير، باب تفسير سورة المؤمنون، ح ٣٤٨٦، ٢/ ٤٢٧)، وقد صححه ووافقه الذهبي. وقد صححه كذلك الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٣٠٤، رقم ١٦٢).

(٢) من ثمرات اليقين باليوم الآخر، الجزء ٢، بقلم: عبد العزيز بن ناصر الجليل، مجلة البيان، العدد ٩٩، (ص٢٤).

دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن ليس هنالك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا، وأن الدنيا صغيرة زهيدة، ولكنها من نعمة الله التي يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى)[1].

**٦- اجتناب الظلم بشتى صوره:** إذ لا شيء يمنع النفس من ظلم غيرها في نفس أو مال أو عرض كاليقين بالرجوع إلى الله عز وجل، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإنصاف المظلوم ممن ظلمه، وأنه لا يضيع عند الله شيء، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [سورة الأنبياء: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ١١١﴾ [سورة طه: ١١١]، فإذا تذكر العبد يوم الفصل الذي يحكم فيه الله بالعدل بين الناس، ويقضي بين الخصوم بحكمه وهو أحكم الحاكمين، واستحضر ذلك الموقف العصيب بين يدي الله تعالى، وأيقن بأن المظالم سترد إلى أهلها، وسيقتص من الظلمة، فلا شك أن ذلك سيمنعه من التهاون في حقوق الخلق، والحذر من ظلمهم في دم أو مال أو عرض، واليقين الحق بأن ذلك كائن في يوم لا ريب فيه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ٣١﴾ [سورة الزمر: ٣٠ – ٣١].

**٧ – حصول الأمن والاستقرار، والألفة بين الناس بالحكم بشريعة الله:** إن مجتمعاً يسود بين أفراده الإيمان بالله تعالى واليقين بالآخرة والجزاء والحساب، لا شك أنه مجتمع تسوده المحبة ويعمه السلام؛ لأن أهله يخافون الله ويخافون سوء العقاب، فيمتنعون بذلك عن الظلم والفسوق والعصيان، ومن ثم يأمن الناس على دينهم وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وتستقيم حياتهم، وتنتظم معايشهم، ويسود بينهم الأمن.

ولا يعني هذا أنه لن يوجد في المجتمعات المسلمة من يظلم أو يخون أو يغش، فهذا لم يسلم منه عصر النبوة، ولا زمن الخلافة الراشدة، لكن هذه المعاصي تبقى أفعالا فردية غير عامة، يؤدّب أصحابها بالعقوبات الشرعية، إذا لم يردعهم وازعُ الدين والخوف من الله.

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ١٠٧٠).

**٨ – تقصير الأمل واستثمار العمر**: إن من أخطر الأبواب التي يدخل منها الشيطان على العبد: طول الأمل، والأماني الخادعة التي تجعل صاحبها في غفلةٍ شديدة عن الآخرة واغترارٍ بزينة الحياة الدنيا، وتضييعُ ساعات العمر النفيسة في اللهث وراءها حتى يأتي الأجل الذي يقطع هذه الآمال، وتذهب النفس حسرات على ما فرطت في عمرها، وأضاعت من أوقاتها. ولكن اليقين بالرجوع إلى الله عز وجل، والتذكر الدائم لقصر الحياة وأبدية الآخرة وخلودها، هو العلاج الناجع لطول الأمل وضياع الأوقات.

لأن أعظم سبب في طول الأمل هو حب الدنيا، فإن الإنسان إذا أَنِس بها وبشهواتها ولذَّاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتُها، فامتنع من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه[(١)].

٩ – **سلامة التفكير وانضباط الموازين وسموّ الأخلاق**: لا يستوي من يؤمن باليوم الآخر ويوقن بالحساب والجزاء ويعلم أن مرده إلى الله عز وجل، ومن لا يؤمن بالآخرة، أو يؤمن بها ولكنه في غفلة عنها، فهما لا يلتقيان في التفكير، ولا في الميزان الذي توزن به الأشياء والأحداث، ولا في الحكم على الأمور، ومن ثَمّ فبقدر ما تسمو أخلاق الأول وتعلو همّتُه لسمو منهجه وميزانه، بقدر ما تسفل وترذل أخلاق الآخر لسفالة تصوره وفساد ميزانه. قال تعالى في وصف أهل الدنيا: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [سورة الروم: ٧].

**١٠ – الفوز برضا الله وجنته، والنجاة من سخطه والنار**: وهذه ثمرة الثمار، وغاية الغايات، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝١٨٥﴾ [سورة آل عمران: ١٨٥].

---

(١) ينظر إحياء علوم الدين (٤/ ٤٥٦)، ومختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٨٥).

**آثار الجمع بين الإيمان والعمل الصالح:**

إن العناية بغرس الإيمان الصحيح وفق معالمه المبينة في الكتاب والسنة، والتي التزم بها السلف الصالح، والتركيز على هذا الأمر في جميع المجالات، والتزام العلماء والدعاة والقادة به على المستوى الفردي، وعلى مستوى الجماعات والدول، بجعله المحور الذي تبنى عليه المناهج، وتنبثق منه جميع النشاطات، إن العناية بذلك يكون له أثره الكبير في المجتمع الإسلامي بسلامة العقيدة، والاستجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور، وسوف يحدث تغييراً جذرياً في حياة الأمة، وعلاقة المسلمين ببعضهم، ووضعهم بين الأمم[(١)].

وقد تقدم لنا الحديث عن كثير من آثار الإيمان والعمل الصالح، ونضيف هنا ثلاثة آثار عامَّة:

الأول: ولاية الله لعباده المؤمنين، فالله تعالى يقول: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٧]، ويقول: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [سورة يونس: ٦٢ – ٦٣]، أي أن الله تعالى يتولى عبده المؤمن، فيخرجه من الظلمات إلى النور، ويجعل له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ويثبته عند الشدائد، ويحول بينه وبين ما قد يقوم في قلبه من السوء، ويحوطه بعنايته ورعايته ويوفقه ويسدده، ويحفظه وينصره ويحميه[(٢)].

وإذا كان العبد من المقرّبين المحسنين، فإن الله يزيد في عنايته به، ومعيته له، حتى لا تنبعث جوارحه ولا قلبه، إلا لما يرضي الله، وما فيه خيره في دينه ودنياه[(٣)].

ومن مظاهر ولاية الله للمؤمنين: أنه تعالى يخرجهم من ظلمات الكفر والشرك والنفاق والبدع والعصيان إلى نور الإيمان، بما أنزل عليهم من العلم والبيان، وبما يحدثه في قلوبهم من نور

---

(١) ينظر "أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية"، لعبد الله بن عبد الرحمن الجربوع (٢/ ٦٩٧).

(٢) ينظر المرجع السابق (١/ ١٨٣ و٢٦٩).

(٣) ينظر المرجع السابق (١/ ٢٦٩).

البصيرة والإيمان، وبتهيئة الأسباب التي تصرفهم عن الباطل أو تدفعه عنهم[1]: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٧].

ومنها: أنه تعالى يدافع عنهم في جميع أحوالهم، أفراداً كانوا أو جماعات، فقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [سورة الحج: ٣٨][2]. فتكون الأمة بعين الله، يكلأُها ويسددها، ويهديها لأسباب عزتها، ويهيئ لها من أمرها يسرا[3].

ومنها: أنه تعالى ينصرهم، فإيمانهم يجعلهم موقنين بنصرة الله تعالى، وعملهم الصالح يجعلهم ينصرون دين الله سبحانه، ومن كان شأنه كذلك فقد تكفل الله له بالفتح والنصر والعزة والشرف؛ قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [سورة الروم: ٤٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [سورة غافر: ٥١].

ومنها: الاستخلاف في الأرض، والتمكين فيها، فتكون لهم العزة والغلبة، ويبدل خوفهم أمناً[4]، ويصبح لهم قوة ووزن بين الأمم، فلا يستهين بهم أحد، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [سورة النور: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [سورة الحج: ٤٠ – ٤١].

---

(١) ينظر "أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية" (١/ ٢٧٧).

(٢) ينظر المرجع السابق (١/ ٢٧٢ و٢٧٧).

(٣) ينظر المرجع السابق (٢/ ٦٩٧).

(٤) ينظر المرجع السابق (١/ ٢٤٠).

ولا يمنع ذلك من أن تصيبهم بعض المصائب والمكروهات، تمحيصاً للذنوب، وتحقيقاً للصبر والإيمان، وزيادة في الحسنات، ورفعة في الدرجات، وتكفيراً للسيئات[1].

الثاني: الأثر القلبي المتمثل في تطهير القلب وتزكيته، ويتجلى في ثلاثة أمور:

الأول: تطهير القلوب من العقائد الباطلة، والظنون السيئة الناتجة عنها.

والثاني: تطهيرها من الران ودرن المعاصي، ولا يتم ذلك إلا بفعل الأعمال الصالحة التي تكفر السيئات وتمحو الخطايا.

والثالث: تطهيرها من العواطف الفاسدة[2]، كمحبة غير الله، وحب الشهوات المحرمة، وتخليصها من الحقد والحسد ونحوها.

وهذه الآثار تجعل القلوب محصنة من الاغترار بالفكر الجاهلي، وسائر الشرور.

الثالث: الأثر الاجتماعي، المتمثل بإيتاء الشعائر الإيمانية الاجتماعية ثمرتها في تقوية الجبهة الداخلية، وتماسك المجتمع[3].

فالمجتمع المؤمن الذي التزم شعائر الإيمان وعمل بها، تتجلى فيه عدة أمور، منها: التزامُ المسلمين بالأخلاق الفاضلة، وأداؤُهم للحقوق المفروضة لبعضهم على بعض، وذلك كله يؤدي إلى اتحادهم وتآلفهم وتقوِّي الرابطة الإيمانية بينهم؛ لأن الخلق الحسن يجعلهم يتعاملون بالمودة والتراحم والتعاون، فتقوى الثقة بينهم، وتسود بينهم المحبة والألفة، ويحب كل منهم لأخيه ما يحبه لنفسه، فيسود بينهم الرضى والأمن، وتصبح جبهتهم الداخلية قوية متحدة يصعب على العدو اختراقها[4].

---

(١) ينظر "أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية" (١/ ٢٤٠).

(٢) ينظر المرجع السابق (٢/ ٦٨١).

(٣) ينظر المرجع السابق (٢/ ٦٧٩).

(٤) ينظر المرجع السابق (٢/ ٦٨٧ و٦٨٨).

وتطبيق النظم الإسلامية في البيع والشراء، وسائر المعاملات، وإقامة الحدود، ووظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحوها، يؤدي إلى استقرار حياة الناس، وإقامة العدل بينهم، وحفظ حقوقهم، وانتشار الأمن والأمل في نفوسهم، فينطلقون في ميادين الحياة بثقة وجِدٍّ للعمل على إصلاح دينهم ودنياهم[(١)].

وقيام ولي الأمر بإقامة الدين وسياسة الدنيا به وحمايته والدفاع عنه، وإقامة شعيرة الجهاد التي يُعزّ الله بها عباده المؤمنين[(٢)]. وهذا كله يؤدي إلى التمكين للأمة في الأرض، وإعلاء شأنها، وكسر شوكة أعدائها، ودفع أذاهم عنها، وبذلك تكون الأمة قوية عزيزة بين الأمم[(٣)].

**آثار تعظيم حرمات الله وشعائره:**

لتعظيم حرمات الله وشعائره ثمرات عظيمة، منها:

**١ – اتقاء الذنوب والمعاصي:** فمن كان معظما لله تعالى أورثه ذلك الخشية له سبحانه، ومن خشيه ترك ما يسخطه ويغضبه سبحانه، ولم يتعد حدوده، ولم ينتهك حرماته. ولا يعصِي الله تعالى إلا من زال التعظيمُ من قلبه، وهان الله في نفسه. قال ابن القيم رحمه الله: (ولو تمكن وقار الله وعظمتُه في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه...فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب، والمتجرئون على معاصيه ما قدروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمه ويكبره، ويرجو وقاره ويجله، من يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل)[(٤)].

**٢ – التسليم للأحكام الشرعية وعدم ربط الانقياد بمعرفة حكمتها:** فتعظيم الله تعالى يورث صاحبه التسليم لحكمه عز وجل، والامتثالُ لأمره بلا تردد، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ

(١) ينظر "أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية" (٢/ ٦٨٧ و٦٨٩).
(٢) ينظر المرجع السابق (٢/ ٦٨٧).
(٣) ينظر المرجع السابق (٢/ ٦٩٥ – ٦٩٦).
(٤) الجواب الكافي (ص: ٦٩).

وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٣٦]. قال ابن القيم رحمه الله: (فلا يتم الإيمان إلا بتعظيمه، ولا يتم تعظيمه إلا بتعظيم أمره ونهيه، فعلى قدر تعظيم العبد لله سبحانه يكون تعظيمه لأمره ونهيه، وتعظيم الأمر دليل على تعظيم الآمر. وأول مراتب تعظيم الأمر: التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به رغم القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه، ثم فعله لكونه مأمورا به بحيث يتوقف الإنسان على معرفة حكمته، فإن ظهرت له فعله وإلا عطله، فهذا من عدم عظمته في صدره، بل يُسلّم لأمر الله وحكمته ممتثلا ما أمر به، سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر؛ فإن ورد الشرع بذكر حكمة الأمر أو فقهها العقل كانت زيادة في البصيرة والداعية في الامتثال، وإن لم تظهر له حكمته لم يوهِن ذلك انقيادَه، ولم يقدح في امتثاله، فالمعظّم لأمر الله يُجري الأوامر والنواهي على ما جاءت، لا يُعللها بعلل توهنها وتخدش في وجه حسنها، فضلا عن أن يعارضها بعلل تقتضي خلافها، فهذا حال ورثة إبليس، والتسليم والانقياد والقبول حال ورثة الأنبياء)[(١)].

٣ – **زجر الجناة وإقامة الحدود:** فتعظيم حرمات الله يجعل المسلمين يغضبون لها، ويعاقبون من انتهكها بما يردعهم ويزجر أمثالهم عن ذلك، وبذلك تحمى الأرواح والأعراض والأموال، وتزول المنكرات، وتقل المحرمات، ويمتنع العصاة من المجاهرة بمعصيتهم. ولذلك حث الرسول –صلى الله عليه وسلم– على إقامة الحدود فقال: ((حدٌّ يعمل به في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحًا))[(٢)].

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٤/ ١٥٦١ – ١٥٦٢).

(٢) أخرجه النسائي في سننه: (كتاب قطع السارق، باب الترغيب في إقامة الحد، ح ١٩٢٤، ٨/ ٧٥)، وابن ماجه في سننه: (كتاب الحدود، باب إقامة الحدود، ح ٢٥٣٨، ٢/ ٨٤٨) وابن حبان في صحيحه: (كتاب الحدود، ذكر الإخبار عن فضل إقامة الحدود من الأئمة العدول، ح ٤٣٩٧، ١٠/ ٢٤٣). قال الألباني: (الحديث حسن لغيره)، ينظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٤٦١ – ٤٦٤، رقم ٢٣١).

**٤ – سلامة المجتمع من الاضطراب:** فمتى امتلأ قلب العبد بتعظيم الله سبحانه وتعالى صلح حاله، واستقرت نفسه، واطمأن فؤاده، فساد الترابط بين أفراد المجتمع، وحلت الألفة والمودة، فأمن المجتمع واستقرت أموره[(١)]. وكلما كان أفراد المجتمع متقاربين كان المجتمع آمنا، تسوده المحبة ويعمه السلام؛ لأن تعظيم الله سبحانه سيجعل هذه النفوس لا ترضى بغير شرع الله بديلاً، ولا تقبل الاستسلام إلا لحكمه، وهذا بدوره سيُضفي الأمن والأمان على مثل هذه المجتمعات؛ لأن أهلها يخشون الله ويخافون يوم الفصل والجزاء، فلا تحاكم إلا لشرع الله، ولا تعامل إلا بأخلاق الإسلام الفاضلة: فلا خيانة ولا غش ولا ظلم.

**آثار الأخذ بالمفهوم الشامل للعبادة:**

إن العبادة في الإسلام شاملة لكل جوانب الحياة، لأن الدين هو الخضوع والاستسلام لله عز وجل، والعبادة (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)[(٢)]. وعلى هذا فإن الشعائر التعبدية إنما هي جزء من مفهوم العبادة الشامل، أو محطات يقف عندها السائرون في الطريق فيتزودون بالزاد، ولكن الطريق كله عبادة، وكل ما يقع فيه من نسك أو عمل، فهو كذلك عبادة ما دامت وجهة من أداها إلى الله، وما دام قد شهد حقا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأقام حياته كلها على هذا الأساس[(٣)].

ولهذا الفهم العميق الشامل آثاره العظيمة التي تشمل أفراد المسلمين وجماعتهم، محكوميهم وحكوماتهم. وتتلخص تلك الآثار في ما يأتي:

**الأول: صبغ حياتهم وأعمالهم كلها بالصبغة الربانية،** فسيكون الناس مرتبطين بالله في كل حركاتهم وسكناتهم، لا تكاد تفارقهم نية التقرب إلى الله، وسينشأ عن ذلك الاستكثارُ من

---

(١) تعظيم الله في هدايات القرآن الكريم (ص ١٩٨).

(٢) العبودية، لابن تيمية (ص: ٤٤).

(٣) ينظر بحث "معالم أصول التربية الإسلامية من خلال وصايا لقمان لابنه": د. عبد الرحمن بن محمد عبد المحسن الأنصاري، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (٣٨/ ٤١٢).

نفع الخلق ووجوه الخير، لأن في ذلك زيادةً لرصيدهم عند ربهم في ميزان حسناتهم، وبهذا يأسرون القلوب ويعمرون الأرض، ويحققون ما أراد الله من خلقه على أكمل وجه.

**الثاني: توحيد وجهتهم في حياتهم كلها:** فالذين يعبدون الله في كل أحوالهم يطيعون ربًّا واحدا راجين رضاه، فلا يكون بينهم شقاق ولا صراع، بل وحدة وإخاء وتعاون وصلاح وإصلاح.

ومن جهة أخرى فإن المسلم إذا كان يتوخى إرضاء الله في كل حركة من حركاته، سواء أكانت تعبدات محضة أم أمورا دنيوية، فإنه بهذه الحال تكون له وجهة واحدة، فلا يضطرب ولا يتذبذب، ويتحد في هدفه في الحياة مع أمثاله من المؤمنين، ووحدة الوجهة تورثهم ارتياح النفس وطمأنينة القلب والشعور بالسعادة، فكل أمر يعملونه في الحياة مع النية الخالصة لله عبادة يؤجرون عليها، ويرجون ثوابها يوم القيامة.

**الثالث: إقامة الدين وعمارة الدنيا،** فهم يعنون بأجسادهم ليطيعوا ربهم، كما يعنون بأرواحهم ليرضوا إلههم، ويمشون في الأرض باسم الله، ويسخرون ما فيها بإذنه، وبذلك يحصل لهم التوازن بين الدين والدنيا والروح والعقل والجسد.

**الرابع: السلامة من الانفصام والازدواجية في التعامل:** فهم ليسوا عبّادا لله في المسجد، وغير ذلك في السوق أو البيت أو النادي أو غيره، بل هم على حال واحدة، يطيعون الله حيثما كانوا، وكيفما كانوا، قلوبهم مشغولة بذكره، ورقابهم لا تنحني لسواه، إياه يرجون ويطيعون، ومنه وحده يخافون.

لذلك فإنهم يعبدون ربهم حتى في حال سعيهم ومزاولة أعمالهم التي ظاهرها أنها من أمور الدنيا، كالبيع والشراء والنوم والأكل والجماع، يحلون الحلال، وينتهون عن الحرام، ويقفون عند حدود الله ولا يعتدونها.

**الخامس: العيش في أمان:** فإن العبادة إن شملت جوانب الحياة كلها فسيزول الغش والجور والظلم، ويسود العدل، وسيعيش الناس كلهم – سواء المسلمون وأهل الذمة – في ظل

التوجيهات الربانية آمنين على أنفسهم وأموالهم وأهليهم، لا يخافون إلا الله، كما كان ذلك في فترة الرعيل الأول[1].

والأمة حينما يعبد أفرادها الله وفق مفهوم العبادة الشاملة فإنها ستتسم بعدة سمات:

١ ـ البحث عن الأمور التي يحبها الله ويرضاها، ومعرفتها معرفة تامة من الكتاب والسنة.

٢ ـ الحرص على القيام بالأمور التي يحبها الله – على مستوى الجماعة – وعدم التفريط في أمر منها ما دام في المستطاع، لاسيما فروض العين أو فروض الكفاية التي لم يقم بها أحد.

٣ – الحرص على إصلاح الباطن بالعقيدة الصحيحة والإخلاص لله تعالى، وإصلاح الظاهر بالعمل الصالح في جانب العبادات والمعاملات.

٤ – الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح لكل مسلم. ومعالجة أمراض العصر العقائدية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

٥ – جهاد أعداء الله والإعداد له إعدادا معنوياً ومادياً، والبذل من أجل ذلك والتضحية بكل غال ونفيس.

٦ – السعي لإقامة شريعة الله في الأرض، ليستقر العدل، وتزول قواعد الظلم والطغيان.

ولا شك أن الأمة التي فهمت المعنى الشامل للعبادة وعملت بمقتضاه هي الأنفع والأقوى، وهي التي يجب أن تكون رائدة في الدعوة إلى الله تعالى، لأنها تصورت العبادة تصورا صحيحا، كما طبقتها في الواقع سلوكاً وعملا، وهي أقدر على تحمل المسؤولية والنهوض بأعباء الدعوة الثقيلة[2].

(١) ينظر توحيد الله، للشيخ عبد الله أحمد قادري، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (١٢/ ٢٦).

(٢) ينظر توحيد الله، مجلة الجامعة الإسلامية، المرجع السابق.

**آثار أداء أمهات العبادات:**

لا شك أن أداء أمهات العبادات له آثار عظيمة على نفس المسلم، ومن آثارها عموما:

١ – أنها تزود المسلم دائما بشحنات روحية متوالية، فتمده بالقوة التي تجعله يصمد أمام الشهوات، والنور الذي ينير بصيرته فيخرج به من الظلمات، ويبصر به الأمور كما هي عليه، فينكر الشبهات، ويكره السيئات.

٢ – أنها تجدد نفس المسلم نفسه باستمرار، فتطهر قلبه مما علق به من أدناس، وتمحو من جوارحه أثر ما قد اقترف من آثام.

٣ – أنها تقوي عقيدة المسلم في الله، وترسخ الإيمان بالغيب في نفسه، فإن الإيمان الحق هو الذي يثمر العمل الصالح، وكذلك المداومة على العمل الصالح تغذي شجرة الإيمان وتسقيه وتستبقيه، فكلما أدى المسلم العبادة إلا وبقيت جذور الإيمان في قلبه[(١)].

أما الآثار الخاصة بكل عبادة فالأمر فيها قد يطول، ولنتحدث عن آثار العبادات التي جاء ذكرها في السورة بإيجاز:

**آثار عبادة الصلاة:**

إن الصلاة عندما تؤدى كما أمر الله تعالى ووفقًا لما أداه الرسول صلى الله عليه وسلم، تحقق منافع جمَّة تعود بالخير على الفرد والمجتمع، ومن أهم آثار ذلك على الفرد الآتي:

أ– دوام صلة العبد بربه وتجديدها، وتتمثل هذه الصلة في النيات والأقوال والأفعال؛ لأن الصلاة تجمع أنواع العبادات الاعتقادية، والقلبيَّة، واللفظية، والبدنية، وعندما يؤدي العبد صلاته فإنَّه يغذي قلبه بذكر الله وعبادته، ويطهر نفسه من أدران الذنوب والخطايا، ويقيها من الغفلة عن الله[(٢)]، وقد شبَّه الرسول صلى الله عليه وسلم الصلاة في ذلك بتشبيه جميل، فقال لأصحابه: ((أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم، يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من

(١) ينظر توحيد الله، مجلة الجامعة الإسلامية، المرجع السابق.

(٢) ينظر: دراسات في تميز الأمة الإسلامية (٢/ ٧٥٧).

درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيءٌ. قال: فكذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا))[1].

ب – وفي اتجاه المسلم إلى القبلة في صلاته رمزٌ لتوحيد الله وإفراده بالعبادة، ورمزٌ لوحدة المسلمين العالميَّة، حيث تتكون الأُمَّة من مجموعة الأفراد، فإذا التزم كلُّ فرد بهذا القصد وتلك الغاية نتج عن ذلك وحدة الأُمَّة في عقيدتها وعبادتها، ويبلغ التسليم والذل والخضوع لله تعالى بالمسلم غايته في حالة السجود حين يضع أشرف أعضائه على الأرض[2].

ج– ومن آثار الصلاة على المسلم أنها من أسباب استقامته، وحسن أخلاقه، وسلامة قلبه وعقله، وقد أخبر تعالى بأنها سبب للانتهاء عن المنكرات والفواحش، فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٥]، وأخبر أنها بضميمة الزكاة سبب لنيل الرحمة الإلهية، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦﴾ [سورة النور: ٥٦][3].

ولا عجب أن الصلاة تبعث على الاستقامة الشاملة، فهي تربط الإنسان بربه، فيستشعر عظمته ومراقبته له واطلاعه عليه، وإحاطته بسره وجهره؛ إذ يقف فيها متوجها بقلبه إلى مولاه، يناجيه ويثني عليه بما هو أهله، خائفا من عقابه، طامعا في رحمته، طالبا منه العون والهداية، فيؤثر ذلك في نفسه، ويعوده مراقبة الله وخشيته، فيجتنب ما يغضبه[4].

ثُمَّ هو في موقف اختبار دائم من خلال هذه الصلة التعبدية، فلابُدَّ أن يحرص العبد على سلامتها وحسنها، وذلك يقتضي أن تأخذ أثرها في شأنه كله قلبًا وقالبًا، ومن ثم فإنَّ الصلاة تضفي على المسلم من تهذيب الأخلاق، وتقويم السلوك، والانقياد لإرادة الله وخشيته ومحبته

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أركان الإسلام الخمسة (أحكامها وأثرها في بناء الفرد والمجتمع)، رفعت فوزي عبد المطلب: (ص ٦٣).

(٣) ينظر دراسات في تميز الأمة الإسلامية (٢/ ٧٥٨).

(٤) ينظر العبادات في الإسلام وأثرها في إصلاح المجتمع، لمحمود سيد شيخون (ص: ٩٠).

سبحانه ما يصلح حياته في علاقته بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بمن حوله من الأهل والأقارب والمجتمع عموما[(١)].

د – الصلاة تمد المؤمن بقوة روحية تعينه على مواجهة الشدائد والمكاره في الحياة الدنيا، وتمكنه من التغلب على جوانب الضعف الإنساني كالجزع[(٢)]، ولذلك استثنى الله تعالى المستديمين للصلاة فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣﴾ [سورة المعارج: ١٩ – ٢٣]. وأمر سبحانه بالاستعانة بالصلاة مع الصبر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [سورة البقرة: ١٥٣]. وكان النبي صلى الله عليه وسلم ((إذا حزبه أمرٌ صلّى))[(٣)].

أمَّا آثار الصلاة على المجتمع فهي أكثر من أن تحصى، ويُمكن أن نذكر منها ما يأتي:

أ– بث روح الجماعة بين المسلمين، وتقوية روابط الأخوة بينهم، وما يستتبعه ذلك من تآلف القلوب، واجتماع الكلمة، والتواصل، والتراحم، والتناصر، والتعاون على البر والتقوى، ولذلك أمر الله بصلاة الجماعة فقال: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [سورة البقرة: ٤٣][(٤)].

ب– إظهار شعائر الإسلام وتعظيمها، وإشهار ذلك بصفة عامَّة، وحيث إن الصلاة (أعظم العبادات وأشملها وأتمها فإنَّه من الواجب أن تشيع بين المسلمين، وأن يجتمعوا لها، وإذا كان في (الأُمَّة) العلماءُ الذين يقتدى بهم، وضعفاء يتهاونون في الصلاة لو لم يؤدوها في

---

(١) ينظر دراسات في تميز الأمة (٢/ ٧٦٠).

(٢) ينظر العبادات في الإسلام (ص: ٩٠).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٨٨، رقم ٢٣٣٤٧)، وأخرجه أبو داود في سننه: (كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي –صلى الله عليه وسلم– من الليل، ح ١٣١٩، ٢/ ٧٨)، وفي إسناده ضعف، ولكن حسنه الحافظ في الفتح (٣/ ١٧٢)، والألباني لشاهد يشهد له في صحيح الجامع الصغير (٢/ ٨٥٨، رقم ٤٧٠٣)، وصحيح سنن أبي داود ط غراس (٥/ ٦٥، رقم ١١٩٢). وحزبه: أي أهمه.

(٤) ينظر دراسات في تميز الأمة (٢/ ٧٦١)، والعبادات في الإسلام (ص: ٩١).

جماعات على رؤوس الأشهاد. فلا أنفع ولا أوفق بالمصلحة في حق هؤلاء جميعًا أن يكلفوا أن يطيعوا الله على أعين الناس؛ ليتميز فاعلها من تاركها، وراغبها من الزاهد فيها، ويُقتدى بعالمها، ويعلم جاهلها، وتكون طاعة الله فيهم كسبيكة تعرض على طائف الناس، ينكر منها المنكر، ويعرف منها المعروف، ويرى غشَّها وخالصها)[1].

وأيضًا (فلاجتماع المسلمين؛ راجين راهبين مُسَلِّمين وجوههم لله خاصية عجيبة في نزول الرحمة والبركات، فمراد الله من نصب هذه الأُمَّة أن تكون كلمة الله هي العليا، وألا يكون في الأرض دينٌ أعلى من الإسلام، ولا يتصور ذلك إلَّا بأن تكون سنتهم أن يجتمع خاصتهم وعامتهم، وحاضرتهم وباديتهم، وصغيرهم وكبيرهم لما هو أعظم شعائره، وأشهر طاعاته، فلهذه المعاني انصرفت العناية التشريعية إلى شرع الجمع والجماعات، والترغيب فيها، وتغليظ النهي عن تركها)[2].

ولعل هذا من حكم التنصيص على إقامة الصلاة في صفات الذين ينصرهم الله ويمكنهم في الأرض، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤١].

ج – في صلاة الجماعة تثبيت للمساواة بين أفراد المجتمع، إذ يقف الرئيس إلى جانب المرؤوس، والغني في جوار الفقير، والعالم بجوار العامي، والسيد في محاذاة الخادم، كلهم في صف واحد، المنكب بحذاء المنكب، والقدم بجانب القدم، ولا يُقدَّم أحد على أحد، فمن بكَّر إلى المسجد أخذ مكانه في مقدمته أيًّا كانت حرفته، وأيًّا كانت منزلته في الناس[3].

د – في الصلاة تدريب للمسلمين على النظام، وتعويد لهم على الطاعة والانضباط، ويظهر هذا واضحا في صلاة الجماعة، إذ يقف المسلمون في صفوف مستقيمة متراصة، فلا

(١) أركان الإسلام الخمسة (ص ٨١).

(٢) المرجع السابق (ص ٨١).

(٣) ينظر العبادات في الإسلام (ص: ٩١).

عِوَج ولا فُرج، فإذا كبر الإمام كبروا، وإذا قرأ أنصتوا، وإذا ركع ركعوا، وإذا سجد سجدوا، وإذا سلم سلموا، من خرج على هذا النظام فكأنما خرج من الإنسانية وانحط إلى مستوى الحيوانية[1]، ففي الحديث الشريف: ((ألا يخشى الذي يركع أو يسجد قبل الإمام أن يمسخ الله رأسه رأس حمار))[2].

وبهذا يتضح تأثير الصلاة في الفرد والأُمَّة، وأنها (بمنزلة القلب من الجسد، فبصلاحها يصلح وبفسادها يفسد. . . ومن هنا كانت أول ركن عملي شرع من أركان الإسلام، وكانت أول عمل ينظر فيه من عمل المرء، فان قبلت منه نُظرَ فيما بقي من عمله، وإن لم تقبل لم ينظر في شيء من عمله)[3].

**آثار الزكاة:**

إنَّ للزكاة آثارًا حميدة تعود بالخير على الفرد والأمَّة، منها على سبيل الإيجاز:

أ – تهذيب النفوس البشريَّة وتطهيرها من عوامل الأثَرة والشح والبخل، وسيطرة فتنة المال بمختلف صورها على نفوس الأغنياء، ولا شك أن السلامة من الشح يؤدي إلى الفلاح، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾ [سورة التغابن: ١٦].

ب – في الزكاة تطييب لنفوس الفقراء والمساكين وغيرهم من المحتاجين، والإسهام في إغنائهم ودفع غائلة الحاجة عنهم وما تسببه من مفاسد وانحرافات، قد تضر بسلامة الأُمَّة

(١) ينظر العبادات في الإسلام (ص: ٩١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الجماعة والإمامة، باب إثم من رفع رأسه قبل الإمام، ح ٦٩٥، ١/٢٤٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الصلاة، باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود، ح ٤٢٧، ١/ ٣٢٠ – ٣٢١)، وغيرهما.

(٣) العبادة، محمد أبو الفتح البيانوني: (ص ١٣١).

وأمنها، وتسبب الفوضى في المعتقدات والسلوك، كما أن فيها تفريجا لكربة الغارمين وتيسيرا لأبناء السبيل، وعونا على إقامة بعض المصالح العامة[(١)].

ج – تسهم الزكاة المفروضة في قيام نظام اجتماعي متوازن يتحقق فيه التضامن والتكافل والتراحم والتعاطف والأُلفة والمحبَّة؛ يعطي الغني فيه الفقير من ماله الذي هو في اعتقاده مال الله، وهو مستخلف فيه، وأن عليه فيه حقا للسائل والمحروم، ابتغاءَ مرضاة الله والفوز بثوابه، فيخرجه أداءً للواجب وإبراءً للذمَّة من غير استعلاءٍ ولا منَّة، بل عبادةً لله وشكرًا له على نعمة المال، ويأخذه المستحق بصفة مشروعة، والمنَّة في ذلك لله تعالى[(٢)].

وبذلك يزول حقد المحرومين على الأغنياء المترفين، وتمتلئ قلوبهم بمحبتهم، وتمنعهم من الإساءة إليهم، فتنشأ الألفة والإخاء، يسود الأمن والسلام في المجتمع[(٣)].

د – الزكاة ضمان اجتماعي؛ لأن الإسلام يأبى أن يكون في مجتمعه من لا يجد القوت الذي يكفيه، والثوب الذي يُواريه، والبيت الذي يؤويه، فهذه ضرورات يجب أن تتوافر لكل من يعيش في ظل الدولة الإسلامية، فإن لم يستطع المسلم أن يوفرها بجهده وكسبه، فالمجتمع يكفله ويضمن له الحد الأدنى من أسباب العيش، والزكاة مورد أساسي لهذه الكفالة الاجتماعية، ولذلك من كان من صفات المؤمنين الثابتة أنهم: ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾ [سورة المعارج: ٢٤ – ٢٥][(٤)].

هـ – تعمل الزكاة على كسر حدَّة الفوارق بين فئات المجتمع المسلم، ومع أنَّ نظام الإسلام الاقتصادي يقدر (التفاوت الفطري في الأرزاق بين الناس، وأنَّه ناشئٌ لا عن تفاوت فطري آخر في المواهب، والملكات، والقدر، والطاقات، لكن هذا التفاوت الفطري في الرزق

(١) ينظر العبادات في الإسلام (ص: ٩٤).
(٢) ينظر دراسات في تميز الأمة (٢/ ٧٦٥ – ٧٦٦).
(٣) ينظر العبادات في الإسلام (ص: ٩٤).
(٤) ينظر المرجع السابق (ص: ٩٤ – ٩٥).

ليس معناه أن يدع الغني يزداد غنًى، والفقير يزداد فقرًا، فتتسع الشقة بين الفريقين، ويصبح الأغنياء طبقة تعيش في أبراج من العاج، ويصبح الفقراء طبقة تموت في أكواخ من البؤس والحرمان، بل تدخل الإسلام بتشريعاته القانونية، ووصاياه الروحيَّة والخلقيَّة لتقريب المسافة بين هؤلاء وأولئك، فعمل على الحد من طغيان الأغنياء، والرفع من مستوى الفقراء)[1]. وتأتي الزكاة في مقدمة ما شرعه الإسلام لتحقيق هذا الهدف النبيل.

**آثار عبادة الحج:**

للحج منافع وآثار تخص الفرد وتعم الأُمَّة، ومن أبرزها ما يأتي:

أ- منافع ينتفع بها الفرد وتؤثر في حياته بعمق، فالحج بمنزلة (شحنة روحيَّة كبيرة يتزود بها المسلم، فتملأ جوانحه خشيةً وتقى الله، وعزمًا على طاعته، وندمًا على معصيته، وتغذي فيه عاطفة الحب لله ولرسول الله، ولمن عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، وتوقظ فيه مشاعر الأُخوَّة لأبناء دينه في كل مكان، وتوقد في صدره شعلة الحماسة لدينه والغيرة على حرماته)[2].

ويؤثر الحج على أخلاق الفرد وسلوكه بعد أداء هذه الفريضة، فينتقل من (حالة إلى حالة (ويطهر) بنعمة الأخلاق الفاضلة، الطاهرة الخالصة، من كل الشوائب؛ لأنّ الحاج إذا قصد الحج يتوب إلى الله، ويعزم على ألا يعود إلى ارتكاب الذنوب، وفي هذا تكفير له عن ذنوبه إذا صدقت نيته في التوبة)[3]، وفي الحديث أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((من حجَّ لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أُمُّه))[4].

---

(١) العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي: (ص ٢٦٢).

(٢) المرجع السابق: (ص ٢٦٨).

(٣) أركان الإسلام...: محمد سالم محيسن (ص ٢٢٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الحج، باب [٤]، ح ١٤٤٩، ٢/ ٥٥٣).

إضافة لما تترك رحلة الحج في أعماق المسلم من ذكريات لمناسكه وشعائره ودلالاته ومقاصده، إذ: (إنَّ الأرض المقدسة وما لها من ذكريات، وشعائر الحج وما لها من أثر في النفس. . . كل هذا يترك أثره واضحًا في أعماق المسلم، فيعود من رحلته أصفى قلبًا، وأطهر مسلكًا، وأقوى عزيمة على الخير، وأصلب عودًا أمام مغريات الشر، وكلما كان حجه مبرورا خالصًا لله كان أثره في حياته المستقبلية يقينًا لا ريب فيه) [(١)].

ولعل كون فريضة الحج الركنَ الخامس من أركان الإسلام يعني -فيما يعنيه- بلوغَ المسلم به قمَّة الاستقامة والتهذيب، وتمام العبوديَّة والتدريب، كي يواجه متطلبات الدنيا والآخرة بهمَّة وعزم وإبداع، مستكملًا مقومات ذلك من خلال برنامج محكم: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾ [سورة البقرة: ١٣٨].

ب- أمَّا منافع الحج وآثاره على الأُمَّة فمنها: ذلك المظهر المعجز لوحدة الأمَّة وعظمتها وقيمها ومثلها العليا، ويتجلَّى ذلك (عندما يقف الحجاج على صعيد واحد لابسين نوعًا واحدًا من الملابس، متوجهين إلى مكان واحد، خاضعين لنظام واحد، خاشعين لرب واحد، طالبين هدفًا واحدًا، ففي هذه الحالة يشعرون بأن كلهم سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأحد على أحد إلّا بالتقوى وتحقيق مصالح البشرية) [(٢)].

ويأتي الحج من حيث اجتماع الأمَّة فيه ممثلًا لاجتماعها الأكبر في كل عام، (حيث يجتمع الحجيج من شتّى بقاع الأرض مُلبِّين نداء أبيهم إبراهيم الخليل عليه السلام) [(٣)].

وهذا الاجتماع يحقق للأُمَّة منافع شاملة، قال تعالى: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾(الحج: ٢٨)، (فجمع بين الدين والدنيا في ركن عظيم من أركان الإسلام، وهو فرصة لاجتماع المسلمين وولاة الأمر من الحكام في مؤتمر موسع يتشاورون فيه،

---

(١) العبادة في الإسلام (ص ٢٦٧).

(٢) فلسفة الشريعة، مصطفى إبراهيم الزلمي (ص ٣١).

(٣) أصول المنهج الإسلامي، عبد الرحمن بن عبد الكريم العُبيِّد (ص ٦٥).

ويتبادلون الرأي حول قضاياهم العامَّة والخاصَّة)[1]، ومهما كان ضعف الأُمَّة الإسلاميَّة وجور الأمم الأُخرى عليها فإنَّ الحجَّ يبرهن على قوة الأُمَّة في مواجهة كل التحديات بما يعنيه من خضوع وذلَّة لله، وأنَّ الأُمَّة منساقة إلى العبوديَّة لله بدواعي الفطرة ومقتضيات السنن الإلهية في النفوس البشريَّة[2].

ويأتي تبعًا لهذه العبودية التي هي المقصد الأول للحج ما تظهر به الأُمَّة خلال الحج وشعائره من كونها (قوة سياسيَّة ضخمة)[3]، ويتمثل ذلك في كون الحج: (مؤتمرًا سياسيًّا دوريًّا يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلاميَّة، ورجال الرأي وعلماؤها في كافة أنواع المعرفة، كتابها، وملوك الصناعة فيها، وتجارها وشبابها وشيوخها، ليضعوا خطوطًا عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معًا عامًا بعد عام)[4].

فهو (مؤتمر عالمي في عالم الإسلام لتوحيد أهداف المسلمين، وتوجيههم إلى مصادر الحياة الصحيحة بما يقتبسه بعضهم من بعض الثقافات، ويمد قسم منهم قسمًا آخر بالفكر الثاقب، لبلوغ السيادة في كل مجالات الحياة كي لا يركن كلٌّ نحو السراب، ولا يخضع لنزوات وشهوات نفر تنقصهم تجربة الحياة، ويفوتهم الحرص على مستقبل الأُمَّة)[5].

وللحج منافع يفيد منها الأفراد وتفيد منها المجتمعات الإسلاميَّة قاطبة، ويتمثل ذلك في تبادل (المنافع الماديَّة بين المسلمين جميعًا على مختلف أجناسهم وألوانهم، فالمنافع الماديَّة ليست كل مقاصد الحج بل بعض مقاصده، وهي لا تخص أهل الحجاز بل تعم جميع المسلمين)[6].

---

(١) أصول المنهج الإسلامي (ص ٦٥).

(٢) ينظر فلسفة الشريعة (ص ٣٠ - ٣١).

(٣) المرجع السابق (ص ٣٠).

(٤) المرجع السابق (ص ٣٠).

(٥) المرجع السابق (ص ٣٠).

(٦) دراسات في تميز الأمة الإسلامية (٢/ ٧٨١).

**آثار التقوى:**

للتقوى آثار عظيمة وثمرات يانعة يجنيها المتقون في الدنيا والآخرة، وعلى حسب التحقق بالتقوى والاستقامة على مقتضياتها يكون مقدار هذه الثمرات كثرةً وعظمة، ومن هذه الثمار ما يأتي:

**أولاً: الانتفاع بهدايات القرآن الكريم، والاهتداء به،** فإن الله تعالى بين في كتابه أن القرآن هدى للمتقين دون غيرهم، فقال عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [سورة البقرة: ٢].

**ثانياً: معيّة الله مع المتقين،** فالله تعالى يكون مع من اتقاه، معيّةَ توفيقٍ وتسديد، ونصرةٍ وتأييد، وإعانةٍ وحماية، وقد وعد الله عباده المتقين بذلك فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [سورة البقرة: ١٩٤]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [سورة النحل: ١٢٨][(١)].

**ثالثاً: أنها سبب للسلامة من كيد الأعداء وشرهم،** فقد وعدنا الله عز وجل بذلك فقال: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾ [سورة آل عمران: ١٢٠][(٢)].

**رابعاً: نزول المدد من السماء،** فإن الله تعالى يمد عباده المتقين بمدد من عنده إن هم صبروا واتقوا عند المجاهدة في سبيله، ولذلك قال الله تعالى في شأن غزو بدر: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ [سورة آل عمران: ١٢٥].

---

(١) ينظر نور التقوى وظلمات المعاصي في ضوء الكتاب والسنة (ص: ٢٠).

(٢) ينظر المرجع السابق (ص: ٢٥).

**خامساً: أنها تكفّ صاحبها عن الاعتداء على الخلق وإيذائهم بغير حق**[1]: ولذلك حين تمثَّل جبريل عليه السلام لمريم عليها السلام في صورة رجل، استعاذت منه، و ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [سورة مريم: ١٨]، وبذلك يكون المتقي سلاما على الخلق جميعا، إلا إذا اقتضى الشرع خلاف ذلك، وقد أمر الله تعالى عباده بتقواه واجتناب التعاون على العدوان فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [سورة المائدة: ٢].

**سادسا: أنها تمنع المتقي من الزيغ والضلال بعد الهداية**، كما يستفاد من قول الله عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣]. فمن اتبع صراط الله عز وجل بالقيام بالمأمورات والابتعاد عن المنهيات -اعتقاداً، وعلماً، وعملاً، وقولاً- وكان من عباد الله المتقين، نال الفوز والفلاح، وسلم من الزيغ والضلال[2].

**سابعا: السلامة من الخوف والحزن:** وإذا انتفى الخوف والحزن حصل الأمن التام، والسعادة والفلاح الأبدي[3]، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الأعراف: ٣٥]. أي لا خوف عليهم من عقوبة الله في الدنيا والآخرة، ولا هم يحزنون من شيء من ذلك، ولا تؤثر فيهم زوابع الحياة، لأن نفوسهم مطمئنة بإيمانها، راضية بقضاء الله وقدره[4]، (وقد ينتفي عنهم الخوف والحزن مطلقا بمقدار قوة التقوى والصلاح، وهذا من الأسرار التي بيْنَ اللهِ وعبادِه الصالحين، ومثله قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

---

(١) ينظر نور التقوى (ص: ٢٦).

(٢) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٨٠).

(٣) ينظر المصدر السابق (ص: ٢٨٧).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٠٩ - ١١٠)، وزهرة التفاسير (٦/ ٢٨٢٨).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة يونس: ٦٢ – ٦٤][1].

**ثامنا: أنها سبب لخروج البركات من السماء والأرض:** كالأمطار والنباتات والأشجار والثمار، وهذه ثمرة تحصل لكل بلدة غلب على أهلها التقوى والاستقامة، فقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الأعراف: ٩٦].

**تاسعا: أن الله يتولى عباده المتقين،** فينصرهم ويؤيدهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، فإن الله عز وجل قال: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الأنفال: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الجاثية: ١٩].

**عاشرا: التوفيق للتفريق بين الحق والباطل،** فمن اتقى الله تعالى يؤته نورا يُفرّق به بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والمعروف والمنكر، مصداقا لقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الأنفال: ٢٩].

**الحادي عشر: العاقبة الحميدة الحسنة في الدنيا والآخرة:** وقد قرر هذه الثمرة للمتقين في مواضع متعددة من كتابه، فقال: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [سورة طه: ١٣٢]، وقال: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة هود: ٤٩]، وقال على لسان موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٢٨]، وقال: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة القصص: ٨٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١١٠).

**الثاني عشر: أن التقوى سبب للرزق وتيسير الأمور والمخرج من المضايق والكروب،** فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [سورة الطلاق: ٢ – ٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾ [سورة الطلاق: ٤].

**الثالث عشر: أن التقوى سبب لتعظيم شعائر الله؛** فإن التقوى تبعث صاحبها على تعظيم أعلام الدين الظاهرة وإجلالها، والقيام بها على أحسن ما يقدر عليه العبد، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ۝٣٢﴾ [سورة الحج: ٣٢].

**الرابع عشر: البشارة بالخير في الدنيا والآخرة،** فإن الله عز وجل قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٤﴾ [سورة يونس: ٦٢ – ٦٤]، فأما البشرى في الحياة الدنيا، فهي البشرى بكل ما يترتب على التقوى من كل الخيرات التي تُعجَّل لهم في الدنيا، كالبشارة بالنصر، وبحسن العاقبة في كل أمر، وبتمكينهم في الأرض ما أقاموا شرع الله ونصروا دينه وأعلوْا كلمته[(١)]، ويشمل ذلك أيضا: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرّؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به، وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوئ الأمور[(٢)].

**أثر معرفة السنن الإلهية في الأمة:**

إن معرفة السنن الكونية والاجتماعية والتاريخية مما يساعد الإنسان على معرفة الكون وأحوال المجتمعات وحركة التاريخ، ثم التكيّف معها وإعمالها في عمارة الأرض وبناء الحضارة[(٣)].

---

(١) ينظر تفسير المنار (١١/ ٣٤٢)، وتفسير المراغي (١١/ ١٣٠). وينظر التحرير والتنوير (١١/ ٢١٩).

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٦٨)، وزهرة التفاسير (٧/ ٣٦٠٥)، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث (٤/ ١١٣).

(٣) ينظر مقال "علم السنن وأهميته في الآفاق والأنفس"، أ. د. محمد أمحزون، مجلة البيان، العدد ٢٠٧، (ص٢٥).

وإذا أخذت الأمة بناصية العلوم التي تكشف سنن الله في الخلق واستثمرتها كما يرام، فسيكون لذلك آثار عظيمة: على رأسها أنه سيمنح الأمة القدرة المادية التي تمكنها من تسخير هذه المخلوقات في شؤونها، وتطويع الطبيعة لحاجاتها؛ وفق الطريقة القويمة التي يرضاها الله عز وجل، وستوجه قدراتها إلى مزيد من الاكتشافات والاختراعات، وسيجعلها تحرز تقدما هائلا في مضمار المدنية، وتخرج من وهدة التخلف الحضاري، وسيؤثر ذلك في تطور الحياة الإنسانية تأثيراً بالغاً[1].

ومن آثار التعمق في فهم السنن الكونية القدرة على كشف أسرار المخترعات الجديدة بصورة أسرع بكثير مما كان يجري في الماضي، ويمكنهم من فهم السنن للتعجيل بتحويل أفكارهم الفطرية إلى تطبيقات عملية.

ومن ثمار الكشف عن السنن الطبيعية: أنها تفسح المجال للإنسان باستخدام نتائج البحث العلمي في تطوير أساليب العمليات الإنتاجية، واستغلال البيئة المحيطة بالإنسان، وتطويع ما فيها من مواد وطاقة لإقامة مصالحه: الضرورية والحاجية والتحسينية، وبصورة عامة فهي توفر الوسائل التي تتيح للمجتمع حياة مادية آمنة رغيدة، ولكن من منطلقات وغايات تعبدية وإنسانية، تقوم على تنفيذ إرادة الله ـ تعالى ـ وأوامره في النظر في الكون والآفاق.

وهذا يفيد من جهتين:

الأولى: تعميق الطاقة الإيمانية عند الإنسان المسلم؛ إذ تؤدي العلوم الطبيعية إلى مزيد من الخشية لله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر: ٢٨].

(١) ينظر: أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في الخلق، د. أحمد محمد كنعان، (ص ٣٥)، ومقال "علم السنن وأهميته في الآفاق والأنفس"، مرجع سابق.

والثانية: الانتفاع بالمعرفة السُّنَنِية في التطبيقات العلمية التقنية والصناعية، وهو الأمر الذي يؤدي إلى أن يكون المجتمع المسلم هو الأقوى سياسياً واقتصادياً وعسكرياً واجتماعياً وتعليمياً وصحياً[(١)].

ومن آثار فهمنا لطبيعة السنن: ترسيخ الإيمان، فالكون ما كان له أن يقوم على هذه الصورة البديعة من التناسق والجمال والتوازن والاستقرار لو لم يكن خالقه رباً واحداً حكيماً عالماً مريداً، خبيراً، قوياً، عظيماً، محيطاً بكل شيء، وقادراً على كل شيء[(٢)].

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن التوجيهات الإلهية للمؤمنين للتفكر في الخلق توجيهاتٌ دقيقة للعقل المؤمن ليتفتح على رصد الوقائع واستقراء الظواهر لمعرفة قوانين المادة والكشف عن أسرار الكون؛ ومن هنا كان العقل المسلم فاعلاً متوهجاً تواقاً للمغامرة العلمية، والريادة في رصد الأفلاك، وتشريح الأعضاء، ودراسة الظواهر في العصور الإسلامية الذهبية[(٣)].

ومن آثار الفهم الصحيح للسنن على الأمة أن إيمان المسلمين بأن كل أمر في هذا الوجود خاضع لسنّةٍ من سنن الله سوف يعينهم على الخروج من متاهة الاختلاف والنزاع والتشتت؛ لأن كشف السنة التي تحكم أمراً من الأمور، سيجعل النظرة إلى هذا الأمر نظرة واقعية موضوعية، وينقل التعامل معه من نطاق الفرضيات والنظريات القابلة للأخذ والردّ والاختلاف إلى آفاق العلم الذي لا جدال فيه ولا اختلاف[(٤)].

وكذلك من آثار الاستفادة من السنن الكونية: الحرية، فبفهم الإنسان لطبيعة بعض السنن استطاع أن ينفذ من الأرض إلى السماء، ويكتسب هامشاً جديداً من الحرية؛ إذ تحرر

---

(١) التنمية بين المشروع الحضاري الغربي والمشروع الحضاري الإسلامي، نبيل السمالوطي (ص ٤٤).

(٢) أزمتنا الحضارية (ص ١٠٥).

(٣) ينظر الإسلام والوعي الحضاري، أكرم العمري، (ص ١٠٧).

(٤) أزمتنا الحضارية (ص ٣٥).

من قيد الجاذبية الأرضية، وتحرر من قيد السرعة التي منحت له فطرةً، وهي سرعة مشيه على قدميه، فأصبح قادراً على الحركة بسرعة مذهلة تتجاوز سرعة الصوت[(١)].

وعلى الصعيد الاجتماعي؛ فإن الاستفادة من السنن الاجتماعية والتاريخية تقدم للمسلمين عبراً ودروسا، تجنبهم ما وقع لمنْ قبلهم من العقوبات والمثُلات، أو تنقذهم إذا هم وقعوا فيها، وتكسبهم في أقل الأحوال صلابة وثباتا، لأن موقف من يرى السنن يختلف عن نظر وموقف من يجهل مصدر الأحداث[(٢)].

كما أن إعمال السنن الاجتماعية يعد أمرا ضروريا لإحداث أي حراك اجتماعي طبيعي في أي مجتمع يعاني من التخلف أو الركود الحضاري، أو يُراد له تصحيح مسار حركته[(٣)].

وتكاد تلتحم السنن الاجتماعية والتاريخية مع أحكام الهداية القرآنية التي يمكنها بطبيعتها الإيمانية أن تشحن الطاقة الروحية للإنسان، وتجعل من إرادته وقدرته قوة محركة لسنن الأنفس والتاريخ والمجتمع؛ مما يغيّر الموازين والمقاييس الوضعية المتعارف عليها.

ومن خلال السنن التاريخية المبثوثة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم نفهم التاريخ، ونفسر أحداثه تفسيراً ينفعنا في تقييم حاضرنا وبنائه، واستشراف المستقبل؛ إذ نعرف عوامل البناء والأمن والاستقرار والصحة والرفاهية، كما نعرف عوامل الهدم والخوف والفقر، ونضع أيدينا على أسباب الاضمحلال والسقوط. وبمعرفة ذلك كله والعمل في ضوئه سيتجنب المسلمون بإذن الله التخلف الحضاري والخلل الاقتصادي.

ومن آثار معرفة السنن الإلهية التفاؤل بنصر المسلمين ودحر أعدائهم؛ فإذا وافق المسلمون السنن الإلهية في التغيير واستيفاء شروط النصر، فأخذوا بالأسباب، واستكملوا الإعداد للجهاد؛ فإن الله تعالى سيمكن لهم في الأرض، ولن يضرهم تفوق أعدائهم عليهم، ولو كانوا

---

(١) أزمتنا الحضارية (ص ١٠٨).

(٢) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد (ص ١٧٣).

(٣) "نحو وعي سُنني"، خالد أبو الفتوح، مجلة البيان، العدد ٨٩ (ص ٢٦).

أكثر كفاءة منهم وأحسن تخطيطًا وأعلى تنظيمًا وأعظم قوة؛ لأن سنة أخرى تتدخل، وهي وعد الله بالتمكين والنصرة لعباده المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الروم: ٤٧]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [سورة غافر: ٥١].

وقد يتأخر ويبطئ نصر الله لحكمة ما، ولكنه آتٍ في نهاية المطاف لا محالة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [سورة يوسف: ١١٠][(١)].

**آثار الأخذ بالجهاد المشروع:**

لا شك أن للجهاد القتالي المشروع بكل صوره آثارا عظيمة، فهو ذروة سنام الإسلام كما وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم[(٢)].

ولكن الجهاد في حقيقته يشمل كل مجاهدةٍ لنُصرة دين الله ومحاربة أعدائه وإعلاء كلمته في الأرض، فالجهاد قد يكون عسكريًّا، وقد يكون فكريًّا، أو سياسيًّا، أو تربويًّا، وقد يكون بالقلم، وقد يكون باللسان، وقد يكون بالإعلام، وقد يكون إن اضطر المسلمون بالسلاح.

فمن آثار الجهاد الداخلي الذي يتم داخل المجتمع المسلم وبين أفراده، بالدعوة إلى الله، والتواصي بالحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم:

---

(١) "العلم بالسنن الربانية"، ج ٢، بقلم: د. محمد أمحزون، مجلة البيان، العدد ١١٦ (ص ٤٨).

(٢) وذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: ((ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد)). أخرجه أحمد في المسند (٢٣١/٥، رقم ٢٢٠٦٩)، والترمذي في سننه: (كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، ح ٢٦١٦، ٥/ ١١ – ١٢)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وابن ماجه في سننه: (كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، ح ٣٩٧٣، ٢/ ١٣١٤ – ١٣١٥). والحاكم (٤٤٧/٢، رقم ٣٥٤٨)، وقال: (صحيح على شرط الشيخين). وهو صحيح بمجموع طرقه، ينظر إرواء الغليل (٢/ ١٣٨ – ١٤١، رقم ٤١٣)، والسلسلة الصحيحة (٣/ ١١٥).

تجديدُ الدين، وإزالة ما تلبس به المسلمون من انحرافات ومخالفات في العقائد والعبادات والمعاملات[1]، وحفظُ الناس من السموم الفكرية والانحرافات العقدية والرذائل الخلقية.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمانة للبيئة من التلوث الفكري والأخلاقي، وهذا النوع من التلوث لا يقل خطورة وفتكاً عن التلوث الحسي الذي ينجم -مثلاً- عن الحرب الجرثومية أو غيرها من أسباب التلوث[2].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعامتان قويتان لبقاء الأمة وعزتها ووحدتها، حتى لا تتفرق بهم الأهواء وتتشتت بها المسالك، ولذلك حين أمر الله الأمةَ بانتصاب طائفة لهذا الشأن فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٠٤]، حذّر من التفرق فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٠٥]. فلولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتفرَّق الناس شيعاً، وتمزقوا كل ممزق، كل حزب بما لديهم فرحون[3].

ومن آثاره أنه يظهر الدين، ويخرج الناس بإذن ربهم من الظلمات إلى النور، ولذلك كان من أحب الأعمال إلى الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٣].

أما الجهاد العسكري فله آثار جليلة منها:

الأول: أن القتال وسيلةٌ لرفع الذل والظلم عن المستضعفين من أهل الإيمان، فالله قد أذن لهم بالقتال لهذا السبب، فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [سورة الحج: ٣٩]. وفتح لهم باب الأمل بالنصر بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الحج: ٣٩]، وبيَّن

(١) ينظر "أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية" (٢/ ٦٩٦).

(٢) ينظر "حتى لا تغرق السفينة"، للشيخ سلمان العودة (ص٢٢-٢٤).

(٣) ينظر مجالس شهر رمضان، لابن عثيمين (ص ٩٧).

مظلمتهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [سورة الحج: ٤٠][(١)]. وقد استنهض الإسلام عزائمَ المؤمنين للدفاع عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، فقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥﴾ [سورة النساء: ٧٥].

فمن مقاصد القتال في سبيل الله نصرةُ المستضعفين وحمايتُهم وإنقاذُهم من ظلم الظالمين وبطش المعتدين، فإن كان هؤلاء المستضعفون من المسلمين فقد جاءهم بهذه النصرة العزُّ والتمكين والتأييد؛ وإن كان المستضعفون من الكافرين فقد أزيل عنهم بطشُ الظالمين وسلطانُ المتجبرين الذين يصدونهم عن معرفة الحق والاهتداء به، ثم لا يجبرهم المسلمون بعد ذلك على الإسلام، وإنما يبينون لهم الحق ويدْعونهم إلى اتباعه؛ فمن شاء منهم الإيمان آمن، ومن أبى تُرك ودينه، وأَمِن على ماله ونفسه وعرضه[(٢)].

ثانياً: أنه به يدفع شر الكفار الذي يعملون على فتنة الناس عن الحق، والإفساد في الأرض، وإيذاء المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [سورة البقرة: ١٩٣، والأنفال: ٣٩].

فإعمال الجهاد المشروع يزيل كل ما يجعل الناس يُفتَنون عن دينهم ويصرِفهم عن سبيل ربهم. ومن جهة أخرى فإن تعطيل الجهاد يؤدي إلى قوة الكفار وظهورهم على المسلمين، فتحصل الفتنة بهم ومنهم، فيرتد بعض المسلمين عن دينهم، أو يفتنوا حتى يتركوه، وهذه مفسدة أعظم من مفسدة إزهاق روحه[(٣)]. والجهاد يحفظ المسلمين من ذلك كله، فيعز دين الله، ويقوى جانبه، ويهابه أعداؤه، فلا يجرؤوا على التعرض للناس بالأذى والفتنة.

---

(١) ينظر أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية (٢/ ٦٦٤).

(٢) ينظر مقال "إنه دعوة للخلود"، محمد بن شاكر الشريف، مجلة البيان، العدد ٢٢٧ (ص ٤).

(٣) ينظر أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية (٢/ ٦٦٨).

ومن آثار الجهاد: إزالة الأنظمة التي تحول بينهم وبين الاستجابة لدعوة الحق، وفتح الطريق أمام الدعوة الإسلامية لتصل إلى الناس كافّةً من غير تشويه أو تحريف، فيؤدي ذلك إلى انتشار التوحيد والعدل في الأرض، واتساع رقعة الإسلام، وعموم الخير لجميع الناس.

ثالثاً: أنه بإقامة الجهاد يكون الدين كله لله[1]، في كل أرض الله، فيجتمع الناس على عبادة الله وحده بلا شريك، ويحكّمون شريعته في جميع أمورهم، ويزول سلطان الجاهليات والأديان الباطلة، والفساد الذي زينته الأفكار المنحرفة والأهواء المضلة للناس، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [سورة الأنفال: ٣٩].

فينعم العباد بحكم الشريعة العادل، وتعاليمها السمحة، ويخرجون بهذا الدين القويم من ضيق الدنيا إلى سعة الإسلام، ومن عبادة الخلق إلى عبادة الخالق سبحانه، ومن ظلم الجبابرة إلى عدل الشريعة وأحكامها الرشيدة[2].

وتصير المجتمعات متوجهة لله، يعبد الله وحده دون سواه، ويتم تحرر الناس كل الناس من جور السلطان، وعسف الطغيان، وعبادة الشيطان.

ومن آثار الجهاد المشروع حفظُ الدين واستبقاءُ الشعائر التعبدية وحمايةُ أماكن العبادة، فلولا الجهاد في سبيل الله لتصدّع بنيان الدين وتهدّمت أركانه، ولولاه لمنع كثير من الناس من عبادة ربهم ولهدمت المعابدُ فوق رؤوسهم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج: ٤٠ – ٤١].

رابعا: أن إقامة الجهاد يتطلب إعداد القوة مسبقا لكي يؤتي ثماره، وهذا الإعداد يتطلب تقوية الجانب الاقتصادي، مما يجعل الأمة تجتهد في تطوير قدراتها الاقتصادية.

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٦٩٦).

(٢) ينظر الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى (٢/ ٥٢٥).

خامسا: أن إقامة الجهاد في سبيل الله، وتكاتف الأمة في الإعداد له والإنفاق بسخاء على ذلك، يمكن لها في الأرض، ويُعلي شأنها، ويكسر شوكة أعدائها، فتأخذهم الرهبة منها، وبذلك تبقى حصون الدولة الداخلية آمنةً من مكرهم، قويةً بقوة الأمة، عزيزةً بعزتها[(١)].

سادسا: أن إقامة الجهاد يؤدي إلى إيجاد المجتمع المؤمن العابد المحقق لخلافة الله في الأرض، الذي تقام فيهم الصلاة وتؤتى فيهم الزكاة ويشيع فيها المعروف ويقل المنكر. وإذا وجد مثل هذا المجتمع، فإنه ستكون الأمة الوسط التي تطمح الأمم للوصول إلى مستواها، والأمة الشاهدة على البشرية جمعاء، باعتبار ما لها من علو حضاري في مختلف الجوانب[(٢)].

**آثار إشاعة العدل ونبذ الظلم:**

إن إشاعة العدل في جميع جوانب الحياة وتجنب الظلم بكل صوره تترتب عليه آثار عظيمة، منها:

١ – إن المجتمع الذي يشيع فيه العدلُ يشعر أفراده بالاطمئنان على حقوقهم؛ لأن قانون الشريعة يكون مع المحق وإن كان ضعيفًا، لا مع المبطل وإن كان قويًّا، أما إذا شاع الظلم وغاب العدل أحس الأفراد بالقلق الدائم على حقوقهم، وزال عنهم الأمن والاطمئنان، وكان ذلك إيذانًا بدمار هذا المجتمع[(٣)].

٢ – العدل يجعل الضعيفَ قويًّا ما دام محقًّا، ولا يضيره ضعفه؛ لأنَّ قوة المجتمع المؤمن والقانون الشرعي معه، وفي المقابل يجعل القوي ضعيفا، فلا تغني عنه قوته ما دام مبطلًا؛ لأنَّ قوة المجتمع والقانون ضده، ولهذا كان أبو بكر –رضي الله عنه– يقول: (والضعيف فيكم قوي

(١) أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية (٢/ ٦٩٦ – ٦٩٧).

(٢) مجلة مجمع الفقه الإسلامي (٧/ ١٩٢٩).

(٣) أصول الدعوة، للدكتور عبد الكريم زيدان (ص: ١١١).

عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله)[1].

٣ – العدل دعامة من الدعامات القوية التي يقوم عليها بناء المجتمع: ذلك أنه إذا شاع الظلمُ وغارت معاني العدل، كثر المظلومون الذين لا يرَون في هذا المجتمع حمايةً لهم ولا حفظًا لحقوقهم، وإنما يرون فيه هضمَ حقوقِهم، وهذا يجرُّهم إلى عدم الاهتمام به وببقائه، وهذا قد يجرّهم إلى المعاونة على تخريبه، وهذا يؤدّي في نهاية المطاف إلى دمار المجتمع وهلاكه، والعدل هو الذي يحميه من ذلك، لأن الأفراد يحرصون على بقاء المجتمع العادل، ورَدِّ كل ما يفسده ويدمره؛ لأنهم يرونه كالبيت الذي يُؤْويهم، فيكون بذلهم للجهود لبقائه سببًا في بقائه[2]. وقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أثر التفريط بالعدل، وكيف يؤدي بالأمة إلى الهلاك، فقال: ((إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))[3].

٤ – أنه سبب للبركة في الأرزاق، وازدهار الاقتصاد، وقصة يوسف عليه السلام في تدبيره لشأن الزروع في مصر وطريقة توزيعها تدل على أن (سيادة العدل تأتي بالخير الوفير، وأن الظلم لا يأتي إلا بالشر المستطير)[4]. فإذا اطمأن الناس على أرزاقهم، وعرفوا أنه لن تؤخذ منهم ظلما وعدوانا، وأيقنوا أن الموارد ستقسم بينهم بالعدل، فإنهم سينشطون في تجاراتهم وحرفهم، وسيجتهدون في طلب الرزق، فيعود ذلك بالفائدة على المجتمع كله.

---

(١) رواه ابن إسحاق بسنده كما في سيرة ابن هشام (٢/ ٦٦١)، وصحح إسناده ابن كثير في البداية والنهاية (٦/ ٣٣٣).

(٢) ينظر أصول الدعوة (ص: ١١١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: (كتاب الأنبياء، باب ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾، ح ٣٢٨٨، ٣/ ١٢٨٢)، واللفظ له، وأخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، ح ١٦٨٨، ٣/ ١٣١٥).

(٤) زهرة التفاسير (٧/ ٣٨٠٣).

٥ – أن العدل سبب استقرار الدول والمجتمعات، قال ابن تيمية: (أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ليس ذنبٌ أسرعَ عقوبةً من البغي وقطيعة الرحم))[(١)]، فالباغي يُصرَع في الدنيا وإن كان مغفورا له مرحوما في الآخرة، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أُقِيم أمر الدنيا بعدلٍ قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلَاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة)[(٢)].

٦ – أن العدل موصل إلى محبة الله سبحانه وتعالى، فهو سبحانه عدلٌ، ويحب أهل العدل، ومحبة الله لعباده سبب لكل خير، قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [سورة الحجرات: ٩].

---

(١) رواه أبو بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه مرفوعا بلفظ: ((ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم))، أخرجه البخاري في الأدب المفرد: (باب عقوبة عقوق الوالدين، ح ٢٩، ص ٢٧)، وأخرجه أبو داود في سننه (كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، ح ٤٩٠٢، ٥/ ٢٠٨)، والترمذي في سننه: (كتاب صفة القيامة، باب ٥٨، ح ٢٥١١)، ٤/ ٦٦٤)، وقال: (حسن صحيح)، وأخرجه ابن ماجه في سننه: (كتاب الزهد، باب البغي، ح ٤٢١١، ٢/ ١٤٠٨)، وأخرجه الحاكم في المستدرك: (كتاب التفسير، باب تفسير سورة النحل، ح ٣٣٥٩، ٢/ ٣٨٨)، وصحح إسناده، وأقره الذهبي، وأخرجه أيضا من طريقين في: (كتاب البر والصلة، ح ٧٢٨٩، ٤/ ١٧٩)، وقال: (صحيح الإسناد ولم يخرجاه).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٤٥ – ١٤٦).

## الخاتمة

بعد التطواف في جوانب رياض هذه السورة المونقة، واقتطاف ثمارها اليانعة، أختم هذه الرحلة القرآنية ببيان أهم النتائج وبعض التوصيات.

**أهم النتائج:**

من النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث:

– تتميز سورة الحج بأن لها اسما توقيفيا واحدًا، ولا يوجد لها اسم آخر، وهو مُعْرَبٌ عن ركنٍ من أركان الإسلام، ألا وهو "الحج"، ولا توجد في القرآن الكريم سورة باسم عبادة من العبادات غيرها، وذلك يوحي بعظم عبادة الحج وأثرها في غرس التقوى.

– تختص سورة الحج دون غيرها من سور القرآن الكريم بأنها تتضمن سجدتين من سجدات التلاوة، وهذه الخصيصة توحي بتأكيد ما تتضمنه هذه السورة من معاني التعظيم والخضوع لله عز وجل.

– سورة الحج نزل بعضها قبل الهجرة، وبعضها في بداية الفترة المدنية، حيث كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يتصدَّى لبناء المجتمع الإسلامي الجديد ووضع نواة الأمة الإسلامية الجديدة، ومن ثم فإنها ترسم الطريق إلى بناء المجتمع الإسلامي والأمة المسلمة.

– سورة الحج من أعاجيب السور على حد تعبير بعض العلماء، فبعضها مكيٌّ، وبعضها مدنيٌّ، وهي تجمع بين المسائل الاعتقادية والأحكام التشريعية، وبين التوحيد الاعتقادي والتوحيد العملي، وبيان أمور الدنيا وأحوال الآخرة.

وتتضمن هذه السورة عدة موضوعات، أبرزها: التوحيد، والتخويف من قيام الساعة، وإثبات البعث، وإبطال الشرك، ومشاهد القيامة، وآيات الله المبثوثة في صفحات الكون. وإلى جوارها بيان أحكام الحج وحِكَمه، والإذن بالقتال، وحماية الشعائر، والوعد بالنصرة والتمكين، وتأييد المظلومين، والأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والجهاد في سبيل الله.

أما الظلال الواضحة في جو السورة كلها فهي ظلال القوة والشدة والرهبة والتحذير والترهيب، واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والتسليم.

– مقصد سورة الحج على وجه الإجمال هو "الدعوة إلى تقوى الله تعالى ظاهرا وباطنا"، واسم السورة مناسب لهذا المقصود، مرتبط بسائر المواضيع التي تضمنتها. والملحوظ أن عرض أحكام الحج فيها تتميز عن طريقة عرضها في سورة البقرة بأن هذه السورة ركزت على أعمال الباطن في الحج، بخلاف آيات البقرة، فقد ركزت على أعمال الجوارح.

ومقصد سورة الحج تفصيلا هو: **دعوة الناس إلى توحيد الله وتقواه، والتوجهِ إليه بالقلب خشيةً وتعظيمًا، والتقربِ إليه بالحجّ وسائر العبادات، استعداداً ليوم القيامة.** ومدار ذلك كله على الدعوة إلى التقوى.

– معظم الهدايات الكلية في هذه السورة تتعلق بالتعريف بالله وصفاته وما يجب على العباد تجاهه من توحيده وتعظيمه وطاعته وتقواه والإخلاص له في عبادته والجهاد في سبيله. ومن مميزات هذه السورة أن فيها ثمان آيات متتابعة، ختمت كل منها بصفتين من صفات الله تعالى.

– من الهدايات الكلية لسورة الحج الدلالة على قواعد وأساليب دعوية يلزم أن يتقيد بها الدعاة، وهي ملْأى بالإشارات التي تدل على ذلك، ولذلك اختصها بعض الباحثين بدراسة حول الدعوة إلى الله في هذه السورة.

– من أهم الهدايات الكلية للسورة الدعوة إلى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ولزوم طاعته بجميع مظاهره ومراتبه: جهاد النفس على الطاعات، وجهاد وساوس الشيطان وشبهاته، وجهاد أعداء الله ومدافعتهم باللسان والسيف، والجهاد في سبيل نشر المعروف وإزالة المنكر.

– ثمة أصناف من الهدايات الكلية في هذه السورة، فمنها هدايات كلية استخرجت من السورة كاملةً، وهي التي استخرجت من معظم آياتها. ومنها هدايات كلية استخرجت من مجموع آيات متتالية في موضع واحد من السورة. ومنها هدايات كلية استخرجت من آيات متعددة متفرقة في السورة، وهي تجتمع على معنى كلي واحد، ومنها هدايات كلية وردت في آية

أو جزء من آية من آيات السورة، ولم يتكرر ذكره فيها بعينها، ولكن تواردت على معناها الكلّي آياتٌ متعددة في سور أخرى من القرآن الكريم.

– سورةُ الحج مناسبة لسورة الأنبياء التي تقدمتها، ولسورة "المؤمنون" التي لحقتْها، وأوجه التناسب التي بينها تدل على أن ترتيب المصحف الشريف ينطوي على أسرار عظيمة، وتؤكد قول الجمهور: إن ترتيب السور توقيفي، وهو مبني على الترتيب الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ وفقه في معارضته للقرآن مع جبريل عليه السلام.

– من خصائص سورة الحج أنه اجتمع فيها من المتقابلات ما لم يجتمع في غيرها، فهي تجمع بين خصائص السور المكية وخصائص السور المدنية، وبين خطاب المؤمنين، ومخاطبة الناس أجمعين، وبين مجادلة المنكرين وتوجيه المؤمنين، وتجمع في أسلوبها بين إقناع العقل وإثارة العواطف، وفيها ما هو اعتقادي وما هو تشريعي، وما هو سلمي وما هو حربي، وفيها إشارة إلى أخبار الماضين في الدنيا، وإشارة إلى الأحوال المستقبلة في الآخرة، وفيها ترغيب وترهيب، ووصفٌ لنعيم أهل الجنة، ووصف لعذاب أهل النار، وفيها وعد بالثواب الدنيوي، ووعد بالثواب الأخروي، ووعيد بعذاب الدنيا، ووعيد بعذاب الآخرة.

– تتميز سورة الحج بكثرة الصور التي تعرضها من خلال الأمثال والتشبيهات والاستعارات، بما يتلاءم مع موضوعاتها التي اختصت بها. ولإيصال هذه المعاني جاءت فيها مجموعة من الأساليب التعبيرية والفنون البلاغية، ومن أهمها أسلوب التصوير الذي يعتمد تجسيم المعاني والتخييل الحسي.

– من الملحوظات التي بيّنها البحث مشابهة سورة الحج لسورة النساء في عدة جوانب، فالنساء هي السورة الرابعة في النصف الأول من المصحف الشريف، والحج هي السورة الرابعة من النصف الثاني منه، وقد افتتحتا بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾. ومطلع سورة النساء يشرح أمر مبدأ الخلق، ومطلع سورة الحج يشرح أمر المعاد. وكلاهما يتحدثان عن التقوى، وجاء في ختام كل واحدة منهما ما تكون به التقوى.

– تميزت سورة الحج بكثرة الحديث عن الناس من أكثر من جانب، فقد خوطبوا في مستهلّها ووسطها وختامها، وتحدثت السورة عن أنواع الناس من مقلِّدين ومُضلّين ومنافقين ومؤمنين ومرسلين.

– تنوعت الهدايات التي استخرجت من هذه السورة، بين هدايات اعتقادية، وتعبدية، وخلقية، وتربوية، ودعوية.

– من خصائص سورة الحج التي تتعلق بهداياتها: تقريرها لأصول الإيمان كلها، وجمعها بين أصول الدين وفروعه، ودلالتها على توحيد الله تعالى في العمل والقصد، وتنبيهها إلى الجانب الباطني القلبي في عبادة الحج، ودعوتها إلى تعظيم الله تعالى وشعائره وحرماته، وعنايتها بشأن القلوب وبيانها لأنواعها، وبيانها لفضل التقرب إلى الله تعالى بالأضاحي والأنعام، وبيانها لأصناف الناس ومواقفهم من هدى الله تعالى المنزل على رسله، وتضمنها لأقوى البراهين في إثبات البعث وإبطال الشرك.

– تتضمن سورة الحج عددا من الأدوية للأمراض والعلل التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية المعاصرة في جانب العقيدة والسلوك، وتقدم – لمن تدبر – السبل الناجعة لإصلاح الأمة وإخراجها مما هي فيه.

– من أهم ما يستفاد من السورة العناية بإصلاح القلوب وتطهيرها وتنويرها وتزكيتها بالأعمال القلبية من إخلاص وخشية وتوكل وإخبات وتعظيم لله تعالى، وتحقيق ذلك في واقع المسلمين سيؤثر على أحوالهم صلاحا واستقامة، وستحسن عبادتهم لله، ومعاملتهم للخلق، وسيسعدون في الحياة، وتسعد الحياة بهم.

**أهم التوصيات:**

– مواصلة استخراج الهدايات من سور القرآن الكريم كلها، لأنها كنز عظيم سينفع الأمة كلها إذا عرفتها وعلمت بها.

– استيفاء هدايات هذه السورة من خلال استقصاء ما كتبه العلماء والمفكرون والباحثون عن أي آية من هذه السورة، وإضافتها إلى ما تضمنه البحث، لنستوعب ما تتضمنه السورة من هدايات حسب الطاقة البشرية.

– تصنيف هدايات هذه السورة وغيرها من السور، من هدايات إيمانية، وهدايات تشريعية، وهدايات أخلاقية، وهدايات نفسية، وهدايات اجتماعية، وهدايات إدارية، وهدايات سياسية، وهدايات عسكرية. وجمع كل صنف من الهدايات على حدة، وتنقيحها وتهذيبها وترتيبها، وتقديمها في أشكال متعددة ووسائل متنوعة تقرِّب هدى القرآن الكريم إلى الناس وتبعثهم على اتباعه والعمل به.

– العمل على ترجمة الهدايات التي تلائم غير المسلمين، لتصحيح عقائدهم، واجتذابهم إلى الإسلام، وإقناعهم بعظمة هذا الدين.

وبعد، فإني أحمد الله تعالى حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه أن أعانني لإكمال هذا البحث، وأرجو أن أكون قد قدمت فيه علمًا ينفعُ هذه الأمة وأنتفع بثوابه، ولا أدعي أنني قد بلغت الكمال، وإنما جهد المقلّ، ولكن أرجو أن يوفقني الله تعالى لأعمل فيه يد التنقيح والتصحيح والتهذيب، حتى يخرج في أحسن صورة، فإن كنت قد أصبت فذلك من فضل الله تعالى وعظيم توفيقه، وإن كنت قد أخطأت، فمنّي ومن الشيطان الرجيم، وأسأل الله العظيم أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به ويرزقه حسن القبول، إنه خير مسؤول وأعظم مأمول.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

# الفهارس

وتشمل

(١) فهرس الآيات القرآنية

(٢) فهرس الأحاديث النبوية

(٣) فهرس الأعلام

(٤) فهرس المصادر والمراجع

(٥) فهرس الموضوعات

# - فهرس الآيات القرآنية

| م | طرف الآية | رقم الآية | رقم الصفحة |
|---|---|---|---|
| | ١-سورة الفاتحة | | |
| ١ | ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ | ٣ | ٩٠٨ |
| | ٢-سورة البقرة | | |
| ٢ | ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ...﴾ | ٢٦ | ١٠٥ |
| ٣ | ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ ...﴾ | ٢٨ | ٩١٣ |
| ٤ | ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ...﴾ | ٦٢ | ٤٥٧ |
| ٥ | ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ | ٧٤ | ٤٦٢ |
| ٦ | ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ ...﴾ | ٩٨ | ٩٥٣ |
| ٧ | ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ | ٩٩ | ٩٣٧ |
| ٨ | ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ ...﴾ | ١١٣ | ٤٥٨ |
| ٩ | ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ | ١٩٠ | ١٤، ١٩ |
| ١٠ | ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ ...﴾ | ١٩٤ | ٨٧٤، ٨٧٦ |
| ١١ | ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ | ٢١٦ | ٣٦ |
| ١٢ | ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ ...﴾ | ٢١٧ | ٢٣ |
| ١٣ | ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٢٢٠﴾ | ٢٢٠ | ٩٥٠ |
| ١٤ | ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ | ٢٢٢ | ١٠ |
| ١٥ | ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٢٣٤﴾ | ٢٣٤ | ٨٩٧ |
| ١٦ | ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ...﴾ | ٢٤٦ | ٢٢ |
| ١٧ | ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم ...﴾ | ٢٥١ | ٣٣, ٣٤، ٢٤, ٣٤, ٣٥ |
| ١٨ | ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ | ٢٥٥ | ٨٩١ |

| م | طرف الآية | رقم الآية | رقم الصفحة |
|---|---|---|---|
| | ٣-سورة آل عمران | | |
| ١٩ | ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ...﴾ | ٧ | ١٠٣ |
| ٢٠ | ﴿قُلِ ٱللَّٰهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ...﴾ | ٢٦ | ١٠٩ |
| ٢١ | ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ | ٣٢ | ٧ |
| ٢٢ | ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ | ١٠٢ | ٩٦٨ |
| ٢٣ | ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ ...﴾ | ١١٩ | ٤٤٥ |
| ٢٤ | ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن ...﴾ | ١٢٠ | ٤٥٠ |
| ٢٥ | ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ | ١٤٦ | ٦ |
| ٢٦ | ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ...﴾ | ١٦٠ | ٣٨ |
| ٢٧ | ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ | ١٦٩ | ١١٦ |
| ٢٨ | ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ...﴾ | ١٩٤ | ٣٥٤ |
| | ٤-سورة النساء | | |
| ٢٩ | ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ | ٧٦ | ٩٢ |
| ٣٠ | ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ...﴾ | ١٠٠ | ١١٥ |
| ٣١ | ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ...﴾ | ١٣٩ | ٣٩ |
| ٣٢ | ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ | ١٤٣ | ٤١٦ |
| ٣٣ | ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ ...﴾ | ٩٧-٩٩ | ١١٣ |
| | ٥-سورة المائدة | | |
| ٣٤ | ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ...﴾ | ٣٣ | ٢٣ |
| ٣٥ | ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى ...﴾ | ٤٤ | ٨٧ |
| ٣٦ | ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ | ٧٢ | ٩٣٦ |
| | ٦-سورة الأنعام | | |

| م | طرف الآية | رقم الآية | رقم الصفحة |
|---|---|---|---|
| ٣٧ | ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ | ١٨ | ٨٩٧ |
| ٣٨ | ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ | ١٩ | ٤٦٠ |
| ٣٩ | ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا ...﴾ | ٤٤ | ٧٧ |
| ٤٠ | ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا ...﴾ | ٤٨ | ٨٠ |
| ٤١ | ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ ...﴾ | ٥٥ | ٤٥٢ |
| ٤٢ | ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ ...﴾ | ٩٩ | ٣٩٢ |
| ٤٣ | ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ ...﴾ | ١٢١ | ٣٦٠ |
| ٤٤ | ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ | ١٢٤ | ٩٥٥ |
| ٤٥ | ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ ...﴾ | ١٢٥ | ٩٧٤ |

٧-سورة الأعراف

| ٤٦ | ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ ...﴾ | ٥٧ | ٣٩٣ |
|---|---|---|---|
| ٤٧ | ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ | ٩٤ | ٨٧ |
| ٤٨ | ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ...﴾ | ١٧٩ | ٦٤ |
| ٤٩ | ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ | ١٨٠ | ٤٠، ٩٨ |
| ٥٠ | ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ ...﴾ | ٢٠٤ | ٩٤٣ |

٨-سورة الأنفال

| ٥١ | ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ...﴾ | ٦٠ | ٣٣، ٨٧٦ |
|---|---|---|---|

٩-سورة التوبة

| ٥٢ | ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ ...﴾ | ١٤ | ٣ |
|---|---|---|---|
| ٥٣ | ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ...﴾ | ٣٦ | ١٩ |
| ٥٤ | ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا ...﴾ | ٩١ | ٩٧٤ |
| ٥٥ | ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ | ١١٤ | ١٢٨ |

| م | طرف الآية | رقم الآية | رقم الصفحة |
|---|---|---|---|
| ٥٦ | ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾ | ١٢٢ | ٩٦٦ |

١٠-سورة يونس

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٥٧ | ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ ...﴾ | ٢٢ | ٩٠٤ |
| ٥٨ | ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ ...﴾ | ٤١ | ٩٢٦ |
| ٥٩ | ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ ...﴾ | ١٠٧ | ٤٤٩ |

١١-سورة هود

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٦٠ | ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ | ١٧ | ٤٦٨ |
| ٦١ | ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ ...﴾ | ١٠٢ | ٥٣، ٨٧٨ |
| ٦٢ | ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ...﴾ | ١١٢ | ١٠٦ |
| ٦٣ | ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا ...﴾ | ١٢٠ | ٥٢ |

١٢-سورة يوسف

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٦٤ | ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ | ١٠٠ | ٨٩٦ |

١٣-سورة الرعد

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٦٥ | ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا ...﴾ | ٨ | ٣٧٥، ٣٧٩ |
| ٦٦ | ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ | ٩ | ٨٩١ |
| ٦٧ | ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ ...﴾ | ٢٧ | ٤٥٤ |
| ٦٨ | ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ...﴾ | ٣٢ | ٥٥، ٥٦، ٥٦ |
| ٦٩ | ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ | ٣٩ | ٩٢٩ |

١٤-سورة إبراهيم

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٧٠ | ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ ...﴾ | ٥ | ٤٢١ |
| ٧١ | ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ...﴾ | ٢٢ | ٣٦٢ |

١٥-سورة الحجر

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٧٢ | ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ ...﴾ | ٢٦ | ٣٦٥ |

| م | طرف الآية | رقم الآية | رقم الصفحة |
|---|---|---|---|
| | ١٦-سورة النحل | | |
| ٧٣ | ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ ...﴾ | ٢ | ٩٥٢ |
| ٧٤ | ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ ...﴾ | ٦ | ٨٩٥ |
| ٧٥ | ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ...﴾ | ١٤ | ٩٠٤ |
| ٧٦ | ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ...﴾ | ٤٨ | ٤٦٣ |
| ٧٧ | ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ...﴾ | ٧٨ | ٣٧٨, ٣٨٤ |
| ٧٨ | ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً ...﴾ | ٩٣ | ٤٥٣ |
| ٧٩ | ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ...﴾ | ٤٨–٤٩ | ٤٦١ |
| ٨٠ | ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ ...﴾ | ١١٨ | ٤١٥ |
| ٨١ | ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ | ١٢٥ | ٣٥٦, ٤٠٢ |
| ٨٢ | ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا ...﴾ | ١٢٦ | ٨٧٦ |
| | ١٧-سورة الإسراء | | |
| ٨٣ | ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ | ١٥ | ٤١٦ |
| ٨٤ | ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ | ٦٧ | ٩١٥ |
| ٨٥ | ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ ...﴾ | ٧٢ | ٦٦ |
| ٨٦ | ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن...﴾ | ٨٩ | ٤٦٨ |
| | ١٨-سورة الكهف | | |
| ٨٧ | ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ | ٤٩ | ٤١١ |
| ٨٨ | ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ ...﴾ | ٥٦ | ٣٥٥ |
| | ١٩-سورة مريم | | |
| ٨٩ | ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا ...﴾ | ٣٦ | ١٠٥ |
| | ٢٠-سورة طه | | |
| ٩٠ | ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ...﴾ | ١٢٣ | ٣٦١ |

| م | طرف الآية | رقم الآية | رقم الصفحة |
|---|---|---|---|
| | ٢١-سورة الأنبياء | | |
| ٩١ | ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي ...﴾ | ١ | ٧٢ |
| ٩٢ | ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ ...﴾ | ٧٩ | ٤٦٢ |
| ٩٣ | ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ ...﴾ | ٩٧ | ٣٥٣ |
| ٩٤ | ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ | ١٠٤ | ٣٦٩ |
| | ٢٢-سورة الحج | | |
| ٩٥ | ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ | ٢ | ٣٥٣ |
| ٩٦ | ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ ...﴾ | ٣ | ٣٥٤ |
| ٩٧ | ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ ...﴾ | ٥ | ٣٦٣، ٣٨٥, ٣٨٧ |
| ٩٨ | ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ | ٦ | ٨٨٨ |
| ٩٩ | ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ ...﴾ | ٣-٤ | ٣٥٥ |
| ١٠٠ | ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ...﴾ | ٨ | ٣٩٩ |
| ١٠١ | ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ ...﴾ | ٩ | ٤٠٤ |
| ١٠٢ | ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ ...﴾ | ١١ | ٤١١ |
| ١٠٣ | ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ...﴾ | ٦-٧ | ٣٩٤ |
| ١٠٤ | ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ | ١٤ | ٤٣٣ |
| ١٠٥ | ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ...﴾ | ١٦ | ٤٥١ |
| ١٠٦ | ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ...﴾ | ١٨ | ٤٦٠ |
| ١٠٧ | ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا ...﴾ | ١٢-١٣ | ٤٢٧ |
| ١٠٨ | ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ ...﴾ | ٤٠ | ١١، ٤٤٤ |
| ١٠٩ | ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ | ٤١ | ٤٠ |
| ١١٠ | ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا ...﴾ | ٤٥ | ٥٦, ٥٧ |

| م | طرف الآية | رقم الآية | رقم الصفحة |
|---|---|---|---|
| ١١١ | ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ ...﴾ | ٤٦ | ٦٠ |
| ١١٢ | ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ...﴾ | ٤٧ | ٦٧ |
| ١١٣ | ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ ...﴾ | ٤٩ | ٩١٦ |
| ١١٤ | ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ...﴾ | ٥١ | ٨٤ |
| ١١٥ | ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا ...﴾ | ٥٢ | ٨٧ |
| ١١٦ | ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ...﴾ | ٥٤ | ١٠١ |
| ١١٧ | ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ...﴾ | ٥٥ | ١٠٦، ٩١٩ |
| ١١٨ | ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ ...﴾ | ٥٦ | ١٠٩ |
| ١١٩ | ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ...﴾ | ٥٩ | ١٢٥ |
| ١٢٠ | ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا ...﴾ | ٦٠ | ٨٧٤، ٨٧٥ |
| ١٢١ | ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ ...﴾ | ٦١ | ٨٨٣, ٨٨٩ |
| ١٢٢ | ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ ...﴾ | ٦٢ | ٨٨٧ |
| ١٢٣ | ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ...﴾ | ٦٤ | ٨٩٨ |
| ١٢٤ | ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ...﴾ | ٦٥ | ٩٠١ |
| ١٢٥ | ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ ...﴾ | ٦٧ | ٩١٦ |
| ١٢٦ | ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ...﴾ | ٦٩ | ٩٢٦ |
| ١٢٧ | ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ...﴾ | ٧٠ | ٩٢٧ |
| ١٢٨ | ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ ...﴾ | ٧١ | ٩٣٢، ٩٧٥ |
| ١٢٩ | ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ ...﴾ | ٧٢ | ٩٣٧ |
| ١٣٠ | ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ ...﴾ | ٧٣ | ٩٤١ |
| ١٣١ | ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ ...﴾ | ٧٤ | ٩٤٨ |
| ١٣٢ | ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ ...﴾ | ٧٦ | ٩٥٨ |

| م | طرف الآية | رقم الآية | رقم الصفحة |
|---|---|---|---|
| ١٣٣ | ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ ...﴾ | ٧٧ | ٩٥٩ |
| ١٣٤ | ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ...﴾ | ٧٨ | ٩٦٥ |
| ١٣٥ | ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا ...﴾ | ٤٥–٤٦ | ٦٦ |
| ١٣٦ | ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ ...﴾ | ٦٨–٦٩ | ٩٢٣ |
| ١٣٧ | ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ...﴾ | ٦٣ – ٦٦ | ٨٩٣ |

٢٣–سورة المؤمنون

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٣٨ | ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ | ١٤ | ٣٨١ |
| ١٣٩ | ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ ...﴾ | ١٨ | ٨٩٧ |
| ١٤٠ | ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ ...﴾ | ١١٥ | ٣٨٢ |

٢٤–سورة النور

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٤١ | ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ ...﴾ | ٢١ | ٣٦١ |
| ١٤٢ | ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ...﴾ | ٢٢ | ٨٧٩ |
| ١٤٣ | ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ...﴾ | ٤١ | ٤٦١, ٤٦٥ |
| ١٤٤ | ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ ...﴾ | ٥٥ | ٣٦، ٣٨, ٤٨ |

٢٥–سورة الفرقان

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٤٥ | ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ ...﴾ | ٤٤ | ٦٣ |
| ١٤٦ | ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ ...﴾ | ٥٢ | ٩٦٥ |

٢٧–سورة النمل

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٤٧ | ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ | ٦٠ | ٣٩٢ |
| ١٤٨ | ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ...﴾ | ٨٧ | ٣٥٣ |

٢٨–سورة القصص

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٤٩ | ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ...﴾ | ١٤ | ٣٨٠ |
| ١٥٠ | ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ...﴾ | ٥٦ | ٤٥٥ |

| م | طرف الآية | رقم الآية | رقم الصفحة |
|---|---|---|---|
| ١٥١ | ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ ...﴾ | ٦٨ | ٩٥٤ |

٢٩-سورة العنكبوت

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٥٢ | ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ...﴾ | ٣ | ٤٢٤ |
| ١٥٣ | ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ ...﴾ | ٤٣ | ٩٤٢ |
| ١٥٤ | ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ ...﴾ | ٤٥ | ٩٨٠ |
| ١٥٥ | ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ ...﴾ | ٦٩ | ٩٦٧ |

٣٠-سورة الروم

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٥٦ | ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ ...﴾ | ٩ | ٦٠ |
| ١٥٧ | ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ ...﴾ | ٤٢ | ٦١ |
| ١٥٨ | ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ...﴾ | ٤٨ | ٣٩٠ |

٣١-سورة لقمان

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٥٩ | ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ ...﴾ | ٧ | ٤٠٧ |
| ١٦٠ | ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ | ١٨ | ٤٠٤ |
| ١٦١ | ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ﴾ | ٣٤ | ٣٧٤ |

٣٢-سورة السجدة

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٦٢ | ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ ...﴾ | ٨ | ٣٦٨ |

٣٣-سورة الأحزاب

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٦٣ | ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ﴾ | ٥٦ | ٤٧٥ |
| ١٦٤ | ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا ...﴾ | ٧٢ | ٩١٥ |

٣٤-سورة سبأ

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٦٥ | ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ | ١٣ | ٩١٥ |
| ١٦٦ | ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ...﴾ | ٣٨ | ٨٥ |

٣٥-سورة فاطر

| م | طرف الآية | رقم الآية | رقم الصفحة |
|---|---|---|---|
| ١٦٧ | ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ | ٤ | ٥٠ |
| ١٦٨ | ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ...﴾ | ٨ | ٤٥٦ |
| ١٦٩ | ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ | ١٠ | ٣٩، ٩٥٠ |
| ١٧٠ | ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ...﴾ | ١٥ | ٩٠٠ |

٣٦-سورة يس

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٧١ | ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ ...﴾ | ٣٣ | ٣٨٨ |
| ١٧٢ | ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾ | ٦٨ | ٣٨٢ |
| ١٧٣ | ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن ...﴾ | ٧٧ | ٣٦٨ |

٣٧-سورة الصافات

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٧٤ | ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾﴾ | ١١ | ٣٦٥ |
| ١٧٥ | ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾﴾ | ١٠١ | ١٢٨ |
| ١٧٦ | ﴿إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ | ١٧٢ | ١ |

٣٨-سورة ص

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٧٧ | ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ | ٨ | ٩٥٧ |
| ١٧٨ | ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا ...﴾ | ١٠-١١ | ٤٤٦ |
| ١٧٩ | ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ | ٥٤ | ١٢٢ |

٣٩-سورة الزمر

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٨٠ | ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ | ٣٦ | ٣٧ |
| ١٨١ | ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا ...﴾ | ٤٢ | ٩١٣ |
| ١٨٢ | ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ | ٥٣ | ٨٨٠ |

٤٠-سورة غافر

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٨٣ | ﴿۞ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ ...﴾ | ٢١ | ٦٠ |

٤١-سورة فصلت

| م | طرف الآية | رقم الآية | رقم الصفحة |
|---|---|---|---|
| ١٨٤ | ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ...﴾ | ٦ | ١٠٦ |
| ١٨٥ | ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا ...﴾ | ١١ | ٤٦٣ |
| ١٨٦ | ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ...﴾ | ٣٩ | ٣٦٩ |
| ١٨٧ | ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ ...﴾ | ٥١ | ٤٠٥ |
| ١٨٨ | ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ ...﴾ | ٥٣ | ٣٧٥، ٣٩٤ |

٤٢-سورة الشورى

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٨٩ | ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ ...﴾ | ١٥ | ٩٢٤ |
| ١٩٠ | ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ | ٢٥ | ٨٧٩ |
| ١٩١ | ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ ...﴾ | ٣٣ | ٩٠٣ |
| ١٩٢ | ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ | ٤٠ | ٨٧٥، ٨٨٠ |
| ١٩٣ | ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا ...﴾ | ٤١ | ٨٨١ |
| ١٩٤ | ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ | ٤٣ | ٨٨٠ |

٤٣-سورة الزخرف

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٩٥ | ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ ...﴾ | ١٣ | ٩٠٢ |
| ١٩٦ | ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ﴾ | ٥٨ | ٣٥٦ |
| ١٩٧ | ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن ...﴾ | ٦٦ | ١٠٧ |

٤٤-سورة الدخان

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٩٨ | ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ...﴾ | ٤٩-٥٠ | ٤١٤ |

٤٥-سورة الجاثية

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٩٩ | ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ | ١٣ | ٩٠٢ |
| ٢٠٠ | ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ...﴾ | ٣٧ | ٨٩٢ |

٤٦-سورة الأحقاف

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٠١ | ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا ...﴾ | ٨ | ٩٢٧ |

| م | طرف الآية | رقم الآية | رقم الصفحة |
|---|---|---|---|
| ٢٠٢ | ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ...﴾ | ٣٥ | ٥١ |

٤٧-سورة محمد

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٠٣ | ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ ...﴾ | ٧ | ٣٦, ٣٧ |
| ٢٠٤ | ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ ...﴾ | ٤—٥ | ١٧ |
| ٢٠٥ | ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ ...﴾ | ١٥ | ٤٣٥ |
| ٢٠٦ | ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ ...﴾ | ٢٤ | ٦٥ |

٤٩-سورة الحجرات

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٠٧ | ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ ...﴾ | ١٣ | ٤٥٧ |

٥١-سورة الذاريات

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٠٨ | ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ ...﴾ | ٤٩ | ٣٩١ |
| ٢٠٩ | ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ | ٥٦ | ٣٨٠ |
| ٢١٠ | ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ...﴾ | ٥٨ | ٩٤٩ |

٥٢-سورة الطور

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢١١ | ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ...﴾ | ١٤—١٦ | ٤١٤ |
| ٢١٢ | ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا ...﴾ | ٤٤ | ٩٠٥ |

٥٣-سورة النجم

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢١٣ | ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم ...﴾ | ٢٣ | ٨٨٨ |
| ٢١٤ | ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ...﴾ | ٣١ | ٤١٤ |

٥٤-سورة القمر

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢١٥ | ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ ...﴾ | ٤٢ | ٧٩ |

٥٥-سورة الرحمن

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢١٦ | ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤﴾ | ١٤ | ٣٦٥ |

٥٦-سورة الواقعة

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢١٧ | ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ٤ وَبُسَّتِ ...﴾ | ٤—٦ | ٣٤٤ |

| م | طرف الآية | رقم الآية | رقم الصفحة |
|---|---|---|---|
| | ٥٧-سورة الحديد | | |
| ٢١٨ | ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا ...﴾ | ٢٢ | ٩٢٨ |
| | ٦١-سورة الصف | | |
| ٢١٩ | ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ | ٥ | ٤٧٣ |
| ٢٢٠ | ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ...﴾ | ١٣ | ١ |
| | ٦٣-سورة المنافقون | | |
| ٢٢١ | ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ...﴾ | ٥ | ٤٠٤, ٤٠٦ |
| ٢٢٢ | ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ | ٨ | ٤٠ |
| | ٦٥-سورة الطلاق | | |
| ٢٢٣ | ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن ...﴾ | ٤ | ٣٧٤ |
| ٢٢٤ | ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ ...﴾ | ١١ | ١٢٢ |
| ٢٢٥ | ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ...﴾ | ٨–٩ | ٥٨ |
| | ٦٦-سورة التحريم | | |
| ٢٢٦ | ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ...﴾ | ٦ | ٩٦٩ |
| | ٦٧-سورة الملك | | |
| ٢٢٧ | ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ ...﴾ | ١٠ | ٦٣, ٦٤ |
| | ٦٨-سورة القلم | | |
| ٢٢٨ | ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ | ١ | ٩٣٠ |
| ٢٢٩ | ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ | ١٠ | ٤٠٩ |
| | ٦٩-سورة الحاقة | | |
| ٢٣٠ | ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا ...﴾ | ٤٤–٤٦ | ٩٣ |
| | ٧٠-سورة المعارج | | |
| ٢٣١ | ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ | ٦–٧ | ٧٢ |
| | ٧١-سورة نوح | | |

| م | طرف الآية | رقم الآية | رقم الصفحة |
|---|---|---|---|
| ٢٣٢ | ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ ...﴾ | ٢–٣ | ٨١ |

٧٢–سورة الجن

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٣٣ | ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ...﴾ | ٢٦–٢٧ | ٩٥٥ |

٧٥–سورة القيامة

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٣٤ | ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦﴾ | ١٦ | ٩٤ |

٧٩–سورة النازعات

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٣٥ | ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ...﴾ | ٦–٩ | ٣٤٤ |

٨٢–سورة الانفطار

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٣٦ | ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ...﴾ | ١–٢ | ٩٠٧ |

٨٣–سورة المطففين

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٣٧ | ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ إِذَا ...﴾ | ٤–٦ | ٤١١ |
| ٢٣٨ | ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤﴾ | ٢٤ | ٩٣٨ |

٨٥–سورة البروج

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٣٩ | ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ ...﴾ | ٢١–٢٢ | ٩٢٩ |

٨٧–سورة الأعلى

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٤٠ | ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ...﴾ | ٦–٧ | ٩٣ |

٩٥–سورة التين

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٤١ | ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ | ٥–٦ | ٣٨٧ |

٩٩–سورة الزلزلة

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٤٢ | ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ...﴾ | ١–٤ | ٣٤٤ |

١٠٠–سورة العاديات

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٤٣ | ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦﴾ | ٦ | ٩١٥ |

١١١–سورة المسد

| | | | |
|---|---|---|---|
| ٢٤٤ | ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ۝١﴾ | ١ | ٤٠٩ |

# - فهرس الأحاديث النبوية


| م | طرف الحديث | الصفحة |
|---|---|---|
| ١ | ((...لا تقتلوا شيخا فانيا، ولا طفلا ولا صغيرا ولا امرأة...)) | ١٥ |
| ٢ | ((أتدري أين تذهب هذه الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت)) | **خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.** |
| ٣ | ((إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج. ثم تلا ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾)) | ٧٧ |
| ٤ | ((إذا مرّ بالنطفة ثِنْتان وأربعون ليلةً بعث الله إليها ملَكا، فصورها، وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب، أذكر أم أنثى؟)) | ٣٨١ |
| ٥ | ((اركبوها سالمةً، ودَعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرُبَّ مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكرا لله تبارك وتعالى منه)) | ٤٦٨ |
| ٦ | ((أسألُكَ الأمنَ يومَ الوعيدِ)) | **خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.** |
| ٧ | ((أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضوع قدم إلا وفيه ملك قائم أو ساجد)) | ٩٠٥ |
| ٨ | ((اغتنم خمسًا قبل خمس)) | **خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.** |
| ٩ | ((أما مررت بوادي أهلك محْلا، قال: بلى. قال: ثم مررت به يهتز خَضِرا؟ قال: بلى. قال: فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه)) | ٣٩٢ |
| ١٠ | ((إن أبغض الرجال إلى الله الألَدُّ الخَصِم)) | **خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.** |
| ١١ | ((إن أحدكم يُجمَع خلقُه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح...)) | ٣٧٤ |
| ١٢ | ((إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)) | ٩٥٢ |
| ١٣ | ((إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب)) | ٣٩٣ |
| ١٤ | ((إن الله تعالى قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب...)) | ٦ |

| م | طرف الحديث | الصفحة |
|---|---|---|
| ١٥ | ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة)) | ٥٣ |
| ١٦ | ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة)) | ٨٧٨ |
| ١٧ | ((إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته)) | ٧٧ |
| ١٨ | ((إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي)) | ٨٩٩ |
| ١٩ | ((إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب؛ قال يا رب؛ وماذا أكتب قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)) | ٩٢٨ |
| ٢٠ | ((إن فيك لخصلتين يحبهما الله عز وجل الحلم، والأناة)) | ١٢٨ ,٧١ |
| ٢١ | ((إن لله آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبها إليه ألينها وأرقها)) | ١٠٣ |
| ٢٢ | ((إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، وإنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن)) | ٣١ |
| ٢٣ | ((أن يهوديا رض رأس جارية بين حجرين... فأخذ اليهودي، فاعترف، فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم، فرض رأسه بين حجرين)) | ٨٧٥ |
| ٢٤ | ((أنت من الأولين)) | ١١٥ |
| ٢٥ | ((انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة)) | ١٢١ |
| ٢٦ | ((إنما الأعمال بالنيات، – وفي رواية بالنية – وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)) | ١١٣ |
| ٢٧ | ((إنما أنا لكم مثل الوالد)) | ٩٧٥ |
| ٢٨ | ((إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم. قيل لسعد وكم نصف ذلك اليوم قال خمس مئة سنة)) | ٧٠ |
| ٢٩ | ((بينما رجل يمشي في حُلة تُعْجِبُهُ نفسُه، مُرَجِّلٌ رأسَهُ، يختال في مِشْيَتِهِ، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة)) | ٤١٢ |
| ٣٠ | ((تكفل الله لمن جاهد في سبيله – لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته – بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو | ١٢١ |

| م | طرف الحديث | الصفحة |
|---|---|---|
| | غنيمة)) | |
| ٣١ | ((ثلاث مائة وثلاثة عشر)) | ٨٧ |
| ٣٢ | ((ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين)) | ٨٧٧ |
| ٣٣ | ((ثم يرسل الله - أو قال ينزل الله - مطرا كأنه الطَّل أو الظل فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون)) | ٣٩٦ |
| ٣٤ | ((الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء)) | ٩٠٩ |
| ٣٥ | ((شبابَك قبل هرَمِك)) | **خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.** |
| ٣٦ | ((الشهداء على بارق – نهر بباب الجنة – في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا)) | ١١٧ |
| ٣٧ | ((العجلة من الشيطان)) | ٩٥ |
| ٣٨ | ((فأي الجهاد أفضل قال من جاهد المشركين بماله ونفسه. قيل فأي القتل أشرف قال من أهريق دمه وعقر جواده)) | ١١٩ |
| ٣٩ | ((فرأى الناس مجتمعين على شيء، فبعث رجلا، فقال انظر علام اجتمع هؤلاء فجاء، فقال على امرأة قتيل، فقال ( ما كانت هذه لتقاتل. قال وعلى المقدمة خالد بن الوليد، فبعث رجلا فقال [قل لخالد لا يقتلن امرأة ولا عسيفا)) | ١٤ |
| ٤٠ | ((فيرسل الله ماء من تحت العرش كمنِيّ الرجال، فتنبت لُحمانهم وجُسمانهم من ذلك الماء، كما ينبت الأرض من الثرى)) | ٣٩٦ |
| ٤١ | ((قال الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور)) | ٩١٣ |
| ٤٢ | ((كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم- إذا بلغه عن الرجل شيء، لم يقل: ما يقول فلان؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟)) | ٦٤٥ |
| ٤٣ | ((الكبرياء ردائي، والعزة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما ألقيه في النار)) | ٩٥١ |
| ٤٤ | ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال وعرشه على الماء)) | ٩٢٩ |
| ٤٥ | ((كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون)) | ٨٣ |
| ٤٦ | ((كلمة حق عند سلطان جائر)) | ٩٦٩ |
| ٤٧ | ((لا يدخُلُ الجنةَ من كان في قلبِه مثقالُ ذرّةٍ مِنْ كِبْر)) | ٤١٠ |

| م | طرف الحديث | الصفحة |
|---|---|---|
| ٤٨ | ((لا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة)) | ١٢٣ |
| ٤٩ | ((لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة. قالوا: ولا أنت؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضلٍ ورحمة)) | ٤٤١ |
| ٥٠ | ((اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني)) | ٨٧٩ |
| ٥١ | ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء)) | ٤٤٠ |
| ٥٢ | ((ما كانت هذه لتقاتل)) | ١٤ |
| ٥٣ | ((ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي، وقطيعة الرحم)) | ٧٦ |
| ٥٤ | ((ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم)) | ٨٧٨ |
| ٥٥ | ((مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي)) | ٨٧ |
| ٥٦ | ((من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتا في الجنة)) | ٢٩ |
| ٥٧ | ((من خرج من بيته مجاهدا في سبيل الله – وأين المجاهدون – فخر عن دابته ومات فقد وقع أجره على الله، أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله، ومن قتل قعصا فقد استوجب المآب)) | ١١٥ |
| ٥٨ | ((من دخل دار أبي سفيان فهو آمن...)) | ٢٠ |
| ٥٩ | ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل)) | ٩٦٦ |
| ٦٠ | ((من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)) | ٢٤ |
| ٦١ | ((من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد)) | ٢٢ |
| ٦٢ | ((من مات مرابطا أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق، وأمن الفتانين، واقرأوا إن شئتم ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾ إلى قوله)) | ١١٦ |
| ٦٣ | ((من مات مرابطا في سبيل الله أجرى الله عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمله، وأجرى عليه رزقه، وأمن من الفتان، وبعثه الله يوم القيامة آمنا من الفزع)) | ١١٩ |
| ٦٤ | ((المؤمن القوي خير أو أفضل وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير...)) | ٣٩ |

| م | طرف الحديث | الصفحة |
|---|---|---|
| ٦٥ | ((ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع)) | ١٥ |
| ٦٦ | ((يدخل المَلَك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول: يا رب، أشقي أو سعيد؟)) | ٣٨١ |
| ٦٧ | ((يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمس مئة عام)) | ٧٠ |
| ٦٨ | ((يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال يا ابن آدم، هل رأيت خيرا قط هل مر بك من نعيم قط فيقول لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له يا ابن آدم، هل رأيت بؤس | ٧٣ |

# - فهرس الأعلام


| م | العلم | الصفحة |
|---|---|---|
| ١ | إبراهيم – عليه السلام – | ٤٠٤, ٤٥٧, ٤٨١، ٩٠٨, ٩٧٥, ٩٧٦, ٩٧٧، ٩٠٨, ٩٧٦ |
| ٢ | ابن أبي حاتم | ٢, ٣, ٢٥, ٣٢, ٣٥, ٦٣, ٧١, ٨٣, ٨٨, ١٠٨, ١١٧، ٨٧٤, ٩١٤, ٩١٥, ٩١٧, ٩٢٨, ٩٣٢, ٩٦٧, ٩٧٣ |
| ٣ | ابن أبي زمنين | ٢ |
| ٤ | ابن إسحاق | ١١٦, ١١٧ |
| ٥ | ابن الجوزي = جمال الدين ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي | ٩٠٢, ٩٨٢ |
| ٦ | ابن العربي | ١١, ٢٠, ٨٩، ٩٦٧, ٩٦٩ |
| ٧ | ابن المنذر | ٩٦٧ |
| ٨ | ابن تيمية = أحمد بن عبد الحليم راجع العلم | ٤٣, ٥٩, ٦٣, ٦٥, ٨٨, ٩٣ |
| ٩ | ابن جريج | ٨٣, ٩٩، ٨٧٥ |
| ١٠ | ابن جزي | ١١٩، ٩٣٥ |
| ١١ | ابن حبان = محمد بن حبان بن أحمد | ١٤, ١٥, ٢٩, ٧٦, ٨٧, ١١٦, ١١٧، ٨٧٧, ٩٠٩ |
| ١٢ | ابن حجر | ١٥, ١١٦، ٩٧٣ |
| ١٣ | ابن خزيمة = محمد بن إسحاق بن خزيمة | ٢٩ |
| ١٤ | ابن دقيق العيد =أبو الفتح تقي الدين محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري | ٨٧٧ |
| ١٥ | ابن زيد | ٢٤, ٣٥ |
| ١٦ | ابن سلام | ٢ |
| ١٧ | ابن شهاب | ٨٨ |
| ١٨ | ابن عامر | ١٢, ١١٥ |
| ١٩ | ابن عبد البر= يوسف بن عبد الله بن محمد | ٩٤٣ |
| ٢٠ | ابن عبد الهادي = محمد بن أحمد بن عبد الهادي | ٨٧٩ |

| م | العلم | الصفحة |
|---|---|---|
| ٢١ | ابن عرفة = محمد بن محمد ابن عرفة | ٤, ٦٢, ١٢٢، ٩١٢, ٩١٥, ٩١٦, ٩٢٧, ٩٣٣, ٩٣٥ |
| ٢٢ | ابن عطية | ٢٦, ٣٥، ٩٠٥, ٩١٧, ٩٦٧, ٩٨٠ |
| ٢٣ | ابن فارس | ٩١٦ |
| ٢٤ | ابن قتيبة | ١١١ |
| ٢٥ | ابن قيم الجوزية | ٢٧, ٣٢, ٤٣, ٦٥، ٩٦٩, ٩٨٢ |
| ٢٦ | ابن كثير = إسماعيل بن عمر | ١, ١٢, ١٣, ١٧, ٣٠, ٣٧, ٤٣, ٥٣, ٥٧, ٦٩, ٧١, ٨٦, ٨٨, ١٠٨, ١٠٩, ١١١, ١١٧، ٨٨٦, ٨٩٧, ٩٢٥, ٩٢٧, ٩٣٧, ٩٤٣, ٩٨٠, ٩٨٢ |
| ٢٧ | ابن ماجة=أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني | ٧٠ |
| ٢٨ | ابن مردويه | ١١٧، ٩٢٨ |
| ٢٩ | أبو الدرداء | ٢٦ |
| ٣٠ | أبو العالية | ٣, ٣٢, ٤٧, ٤٨ |
| ٣١ | أبو بكر بن العربي = محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي | ٨٠، ٩٦٥ |
| ٣٢ | أبو حنيفة = النعمان بن ثابت | ٢١, ٢٨ |
| ٣٣ | أبو حيان = محمد بن يوسف بن علي | ٣١، ٩١٤, ٩٣٧ |
| ٣٤ | أبو داود = سليمان بن الأشعث السجستاني | ١٤, ١٥, ٢١, ٢٢, ٦٦, ٧٠, ٧٦, ١١٩، ٩٠٩, ٩٢٩, ٩٥١ |
| ٣٥ | أبو ذر الغفاري ﷺ | ٢٩, ٨٧ |
| ٣٦ | أبو سعيد الخدري | ٩٧٨ |
| ٣٧ | أبو سفيان | ٢١ |
| ٣٨ | أبو علي الفارسي=الحسن بن أحمد | ١٢, ٧٤ |
| ٣٩ | أبو نعيم = أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني | ١١٧ |
| ٤٠ | أبو هريرة = عبد الرحمن بن صخر ﷺ | ٣٩، ٨٧٧, ٩٧٦ |
| ٤١ | أحمد شاكر | ٢٩، ٩٠٩, ٩٥١, ٩٧٦ |
| ٤٢ | الأخفش | ٧٤ |
| ٤٣ | آدم – عليه السلام – | ٣٤٣, ٣٦٥, ٣٦٦, ٣٦٧, ٤٨١ |

| م | العلم | الصفحة |
|---|---|---|
| ٤٤ | الألباني | ٧٠, ١٠٣, ١١٧ ،٩٠٩, ٩٥١, ٩٦٩, ٩٧٣ |
| ٤٥ | الآلوسي | ٤٧, ١١٦, ١٢٤ ،٩٣٤, ٩٤٧ |
| ٤٦ | أمية بن أبي الصلت | ٨٩٧ |
| ٤٧ | أنس بن مالك | ١١٥ |
| ٤٨ | البخاري | ٦, ١٣, ٢٤, ٢٩, ٥٣, ٧٦, ١١٣, ١١٥, ١٢١, ١٢٢ ،٨٧٦, ٩١٣, ٩٦٠, ٩٦٦, ٩٧٨ |
| ٤٩ | بديل بن ورقاء الخزاعي | ٩١٩ |
| ٥٠ | البغوي = الحسين بن مسعود | ٩, ١٣, ٢٠, ٦٦, ١١٦ ،٨٨٥, ٩٠٢, ٩١٤, ٩٣٣, ٩٣٦, ٩٣٨, ٩٦٨, ٩٨٢ |
| ٥١ | البقاعي= إبراهيم بن عمر | ١٣, ١٠٣ ،٨٨٠, ٩٢٤, ٩٦٠ |
| ٥٢ | بقية بن الوليد | ١٠٣ |
| ٥٣ | البوصيري = محمد بن سعيد الصنهاجي | ١٤, ٢٩, ١١٧, ١١٩ |
| ٥٤ | البيضاوي | ١٦, ٤٧, ٤٩, ٩٦, ١١٥ ،٨٨٠, ٨٨٤, ٨٨٦, ٨٨٧, ٨٩٢, ٩٠٥, ٩١٩, ٩٣٠, ٩٣٧, ٩٥٤, ٩٥٥, ٩٦١, ٩٦٣, ٩٦٤, ٩٦٧, ٩٧١, ٩٧٦, ٩٨١, ٩٨٢ |
| ٥٥ | البيهقي = أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي | ١٤, ١٥, ٢١, ٢٩, ٦٩, ٧٧, ٨٧, ١١٦, ١١٧ ،٩٢٩, ٩٦٩ |
| ٥٦ | الترمذي =أبو عيسى محمد بن عيسى | ٢٢, ٧٠, ٧١, ٧٦, ٩٥ ،٨٧٧, ٨٧٩, ٩٠٥, ٩٠٩, ٩٢٩, ٩٥٢ |
| ٥٧ | الثعلبي = أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي | ١٢, ٨٣, ٩٦ ،٩٦٦ |
| ٥٨ | الثوري | ٩٤٣ |
| ٥٩ | الجاحظ=أبو عثمان عمرو بن بحر | ٨٧ |
| ٦٠ | جبريل عليه السلام | ٩٤، ٩٥٣ |
| ٦١ | جريج | ٨٣, ٩٩ ،٨٧٥ |
| ٦٢ | الجصاص | ٢١, ٢٧, ٤٧, ٤٨, ٩٤ ،٩١٧, ٩٧٣ |
| ٦٣ | جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين | ٩٤٤, ٩٧٠ |

| م | العلم | الصفحة |
|---|---|---|
| ٦٤ | الحاكم | ١٤, ٢١, ٧٦, ٨٧, ١١٦, ١١٧ ٨٧٩، ٩٠٥, ٩٠٩ |
| ٦٥ | الحسن البصري | ٢, ٢٣, ٢٧, ٤٣، ٩١٥ |
| ٦٦ | حمزة | ١٢, ١٣ |
| ٦٧ | خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي – رضي الله عنه – | ١٤ |
| ٦٨ | الخفاجي | ٩٧١ |
| ٦٩ | الدارقطني = أبو الحسن علي بن عمر راجع العلم | ٢١ |
| ٧٠ | الدارمي | ١١٩، ٩٧٦ |
| ٧١ | الديلمي=شهردار بن شيرويه بن شهردار الديلمي | ٩٢٨ |
| ٧٢ | الرازي | ١, ٧, ١٠, ١٦, ٢٦, ٣٧, ٤٧, ٤٨, ٥١, ٥٣, ٥٥, ٦٣, ٦٤, ٧٢, ٧٣, ٨١, ٨٢, ٨٣, ٨٥, ٨٦, ٨٧, ٩١, ٩٢, ٩٦, ٩٩, ١٠٠, ١٠٤, ١٠٧, ١٠٨, ١٠٩, ١١٢, ١١٨, ١١٩, ١٢١, ١٢٣, ١٢٤, ١٢٥, ١٢٩، ٨٧٥, ٨٧٨, ٨٨٠, ٨٨١, ٨٨٢, ٨٨٥, ٨٨٦, ٨٨٨, ٨٩٦, ٨٩٨, ٩٠٢, ٩٠٣, ٩٠٤, ٩١١, ٩١٤, ٩١٥, ٩١٧, ٩٢١, ٩٢٤, ٩٢٩, ٩٣٠, ٩٣٣, ٩٣٦, ٩٣٧, ٩٣٩, ٩٤٣, ٩٤٩, ٩٥٣, ٩٥٥, ٩٥٨, ٩٦٢, ٩٦٣, ٩٦٤, ٩٦٦, ٩٦٧, ٩٦٨, ٩٧١, ٩٧٥, ٩٧٦, ٩٨٢ |
| ٧٣ | الرّاغبُ =الحسين بن محمد المفضل الأصفهاني أبو القاسم | ٢٥ |
| ٧٤ | زغلول | ٩٤٦ |
| ٧٥ | الزمخشري =أبو القاسم جار الله محمود بن عمر | ١٠٤، ٩٠٢, ٩٣٣ |
| ٧٦ | الزهري = محمد بن مسلم بن شهاب | ٨٨ |
| ٧٧ | زيد بن عمرو | ٨٩٧ |

| م | العلم | الصفحة |
|---|---|---|
| ٧٨ | السخاوي = محمد بن عبد الرحمن | ٩٠٩ |
| ٧٩ | سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه - | ٨٩٩، ٣٨٦ |
| ٨٠ | السعدي | ١٢٥ ,٨٧ |
| ٨١ | سعيد بن منصور | ٣٨٧ |
| ٨٢ | سفيان الثوري | ٩٤٣ |
| ٨٣ | سفيان بن عيينة | ٣٧٧ |
| ٨٤ | سلمان الفارسي- ﷺ - | ١١٦ |
| ٨٥ | السمرقندي | ٩, ١٢, ٨٦، ٨٧٧, ٨٨٢, ٨٨٨, ٨٩٢, ٩٠٠, ٩٢١, ٩٣٣, ٩٤٩, ٩٥١, ٩٥٢, ٩٥٦, ٩٦٧, ٩٧٣, ٩٧٦, ٩٨١ |
| ٨٦ | السمعاني | ١٢٢، ٨٩١, ٩٠٠, ٩٠٢, ٩١٤, ٩٤٤, ٩٦١, ٩٧٦ |
| ٨٧ | سهل بن سعد | ٩٥ |
| ٨٨ | سهل بن عبد الله | ٤٣ |
| ٨٩ | سيد قطب | ٩٠٦, ٩٦٣ |
| ٩٠ | السيوطي= عبد الرحمن بن محمد | ٨٨, ١١٧، ٩١٥, ٩٢٨ |
| ٩١ | الشافعي | ٢١, ٢٨, ٥٩، ٨٧٥, ٩٦٠, ٩٧٥ |
| ٩٢ | شريح | ٧٠ |
| ٩٣ | شريح بن عبيد | ٧٠ |
| ٩٤ | الشنقيطي | ٤٨, ٨٧, ١٢٨ |
| ٩٥ | الشوكاني = محمد بن علي | ٢, ٥١، ٩١٤, ٩١٩, ٩٢٠, ٩٣٩, ٩٥٢ |
| ٩٦ | صفوان بن أمية | ٢١ |
| ٩٧ | الضحاك | ٣١, ٤٢, ٧١، ٨٧٥ |
| ٩٨ | الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني أبو القاسم | ٣١ |
| ٩٩ | طارق بن شهاب | ٩٦٩ |
| ١٠٠ | الطبراني =أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير | ١٤, ١٥, ٢٩, ٧٧, ١٠٣, ١١٦, ١١٧ |
| ١٠١ | الطبري = محمد بن جرير | ١, ٨, ٩, ٢٤, ٢٥, ٣١, ٣٥, ٤٧, |

| م | العلم | الصفحة |
|---|---|---|
| | | ٥٤, ٧٠, ٧١, ٨٣, ٨٥, ٨٩, ٩٦, ٩٩, ١٠٠, ١٠٩, ١١١, ١١٢, ١١٥, ١١٧, ١٢٣, ١٢٦, ١٢٩، ٨٧٤, ٨٨٥, ٨٨٦, ٨٨٨, ٨٩٠, ٨٩١, ٨٩١, ٨٩٨, ٩٠٠, ٩١٦, ٩١٧, ٩٢٨, ٩٣٠, ٩٣٢, ٩٣٦, ٩٤٨, ٩٤٩, ٩٥٢, ٩٥٤, ٩٥٧, ٩٦٣, ٩٦٦, ٩٦٧, ٩٧٣, ٩٧٤, ٩٧٦, ٩٧٧, ٩٨٢ |
| ١٠٢ | الطيالسي =أبو الوليد هشام بن عبد الملك الباهلي | ٢٩ |
| ١٠٣ | الطيبي | ٧٤ |
| ١٠٤ | عبادة بن الصامت- رضي الله عنه - | ١١٦، ٩٢٩ |
| ١٠٥ | عبد الجبار | ٩٤٤ |
| ١٠٦ | عبد الرحمن بن أبي ليلى | ٣٥٤ |
| ١٠٧ | عبد الرحمن بن حسن | ١٢٠ |
| ١٠٨ | عبد الرحمن بن ناصر السعدي | ٤٥٩ |
| ١٠٩ | عبد الله بن المبارك | ٩٦٦ |
| ١١٠ | عبد الله بن عمرو | ٩٠٩ |
| ١١١ | عبد الله بن مسعود | ٣٩٢, ٤٠٦, ٤٨١ |
| ١١٢ | عبد بن حميد | ٨٨، ٤٦٢ |
| ١١٣ | عبيد بن عمير | ٣٤٣ |
| ١١٤ | عثمان بن عفان - رضي الله عنه - | ٤٨ |
| ١١٥ | عطية العوفي | ٤٢٢ |
| ١١٦ | العقيلي | ٢١ |
| ١١٧ | عكرمة | ٧٠، ٩٣٢ |
| ١١٨ | عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - | ٢١, ١٠٢ |
| ١١٩ | عمر بن عبد العزيز | ٤٤ |
| ١٢٠ | عمرو بن دينار | ٢١ |
| ١٢١ | عمرو بن عبيد | ٦٩ |
| ١٢٢ | عمرو بن عبيد المعتزلي | ٦٩ |

| م | العلم | الصفحة |
|---|---|---|
| ١٢٣ | عيسى – عليه السلام – | ٩١٨ |
| ١٢٤ | فرعون | ٥٣ |
| ١٢٥ | القاسمي | ٩٠, ١٠٢ |
| ١٢٦ | قتادة | ٢, ٢٥, ٦٣, ٨٥, ١٠٨, ١٠٩، ٩١٧ |
| ١٢٧ | القرافي= أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن | ٢٠, ٣٠ |
| ١٢٨ | القرطبي | ٢, ٢١, ٢٣, ٢٦, ٢٧, ٤٢, ٤٣, ٥١, ٩٦, ١١٤, ١١٥, ١١٩، ٨٨٢, ٨٨٨, ٨٨٩, ٨٩٠, ٨٩١, ٨٩١, ٨٩٤, ٩١٤, ٩١٥, ٩١٧, ٩٢٤, ٩٣١, ٩٤٤, ٩٤٥, ٩٦٧, ٩٧١, ٩٧٥ |
| ١٢٩ | القرظي | ٩٦ |
| ١٣٠ | القشيري= عبد الكريم بن هوازن | ٩٠٢, ٩٨٠ |
| ١٣١ | الكسائي | ١٢, ١٣ |
| ١٣٢ | الكلبي | ٩٢٤ |
| ١٣٣ | الكيا الهراس | ٤٧ |
| ١٣٤ | اللالكائي | ٩٢٨ |
| ١٣٥ | الماتريدي | ١, ٩, ١١, ٢٦, ٢٧, ٣٦, ٤٨, ٤٩, ٥٤, ١٢٠, ١٢٣, ١٢٩، ٨٧٥, ٨٨٥, ٨٨٧, ٨٨٨, ٨٩٠, ٨٩٢, ٨٩٤, ٩٠٠, ٩١٤, ٩١٧, ٩٢٨, ٩٣١, ٩٣٢, ٩٣٥, ٩٤٧, ٩٤٨, ٩٤٩, ٩٥٠, ٩٥١, ٩٥٥, ٩٥٩, ٩٦١, ٩٦٦, ٩٦٨, ٩٧٣, ٩٧٤, ٩٧٦, ٩٧٧, ٩٨٠, ٩٨٣ |
| ١٣٦ | الماوردي | ٣, ٤٣, ٦٤, ٨٧، ٩٧٦, ٩٧٨ |
| ١٣٧ | محمد الأمين الشنقيطي | ١٢٨ |
| ١٣٨ | محمد الغزالي= محمد بن محمد الغزالي | ٥٩ |
| ١٣٩ | محمد بن إدريس الشافعي | ٩٦٠, ٩٧٥ |
| ١٤٠ | محمد بن كعب | ٨٣, ٩٦ |
| ١٤١ | المراغي | ٦, ٣٠, ٦٧, ٧٨, ٨٠, ٩٧, ١٠٤, |

| م | العلم | الصفحة |
|---|---|---|
| | | ١٢٥ ،٨٩٠, ٨٩٩, ٩٢٠, ٩٣٠, ٩٥٩, ٩٨٢ |
| ١٤٢ | مريم | ٧٠ |
| ١٤٣ | معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصارى الخزرجى | ٣٩٩, ٤٨١ |
| ١٤٤ | معاوية بن مالك | ٩٠٦ |
| ١٤٥ | مقاتل بن حيان | ٩٧٣ |
| ١٤٦ | مقاتل بن سليمان | ٤٤٤ ،٨٧٤, ٩٤٤ |
| ١٤٧ | المقري | ٨٠ |
| ١٤٨ | ملك الموت | ٩٥٢ |
| ١٤٩ | النسائي | ١٤, ٢٢, ٧٠, ١١٩ ،٩٦٩, ٩٧٦ |
| ١٥٠ | النسفي | ٦٠, ٨٧, ٩١, ١٠٤, ١٢٧ ،٨٨١, ٨٨٦, ٨٩٢, ٩٠٠, ٩٥١, ٩٥٤, ٩٥٩ |
| ١٥١ | النضر بن الحارث | ٤٠٩ |
| ١٥٢ | نعيم بن حماد | ٣٩٣ |
| ١٥٣ | نوح – عليه السلام – | ٨١ |
| ١٥٤ | النووي = يحيي بن شرف بن مري | ٢١ |
| ١٥٥ | الهراسي | ٤٧ |
| ١٥٦ | هشام بن عروة | ٨٣ |
| ١٥٧ | الواحديُّ | ٣, ١٣, ٦٩, ١٢٢, ١٢٥, ١٢٦ ،٨٨٥, ٨٨٧, ٨٩٠, ٩٠٢, ٩١٤, ٩١٧, ٩٢٤, ٩٤٤, ٩٥٢, ٩٥٤, ٩٥٦, ٩٥٧, ٩٦١, ٩٨٢ |
| ١٥٨ | الوليد بن المغيرة | ٩٦ |
| ١٥٩ | يحيى بن سلام | ٢, ٢٣, ٢٦ ،٩٣٨, ٩٤٨ |

## فهرس المصادر والمراجع


١) **مصحف المدينة النبوية:** برواية الإمام حفص بن سليمان الأسدي الكوفي عن الإمام عاصم بن أبي النجود الكوفي. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٢) **الإبانة الكبرى:** أبو عبد الله عبيد الله بن محمد العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة. حققه مجموعة من المحققين. دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض. ١٤١٥هـ.

٣) **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر:** أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي. طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.

٤) **إتحاف المُطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع:** عبد السلام بن عبد القادر بن سودة، تنسيق وتحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٥) **الإتقان في علوم القرآن:** عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة: ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٦) **إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر:** شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي. تحقيق: أنس مهرة. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٧) **الآثار:** أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم. تحقيق أبي الوفا. دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٣٥٥هـ

٨) **الآثار:** محمد بن الحسن الشيباني. ط الهند. د.ت.

٩) **أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة،** لعبد الله بن عبد الرحمن الجربوع: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

١٠) **أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير – الاستِشراق – الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه** (ودراسة منهجية شاملة للغزو الفكري). عبد الرحمن حسن حَبَنَّكَة الميداني. دار القلم – دمشق. ط٨، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.

١١) **الأجوبة المرضية فيما سئل السخاوي عنه من الأحاديث النبوية:** شمس محمد بن عبد الرحمن السخاوي.
١٢) المحقق: د. محمد إسحاق محمد إبراهيم. دار الراية للنشر والتوزيع. ط١، ١٤١٨ هـ.
١٣) **الآحاد والمثاني:** أبو بكر بن أبي عاصم. تحقيق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة. دار الراية، الرياض. ط١، ١٤١١هـ – ١٩٩١م.
١٤) **الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما:** ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي. دراسة وتحقيق: الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش. دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان. ط ٣، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.
١٥) **الإحاطة في أخبار غرناطة:** أبو عبد الله بن سعد بن أحمد السلماني، لسان الدين ابن الخطيب. تحقيق: د. يوسف علي طويل. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ١، ٢٠٠٣ هـ – ١٤٢٤ هـ.
١٦) **أحكام أهل الذمة:** شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: يوسف بن أحمد البكري، وشاكر بن توفيق العاروري. رمادي للنشر، الدمام. ط١، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.
١٧) **الأحكام السلطانية والولايات الدينية:** أبو الحسن الماوردي. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢م.
١٨) **الإحكام في أصول الأحكام:** أبو الحسن علي بن محمد الآمدي. تحقيق: سيد الجميلي. دار الكتاب العربي، بيروت. سنة ١٤٠٤هـ.
١٩) **أحكام القرآن:** أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي. حققه: عبد السلام محمد علي شاهين. دار الكتب العلمية بيروت – لبنان. ط١، ١٤١٥هـ -١٩٩٤م.
٢٠) **أحكام القرآن:** أبو بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالجصاص. دار الفكر. بيروت. ط ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.
٢١) **أحكام القرآن:** أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري، المعروف بالكيا الهراسي الشافعي. حققه: موسى محمد علي، وعزة عبد عطية. دار الكتب العلمية، بيروت. ط٢، ١٤٠٥هـ.

٢٢) **أحكام القرآن:** أبو بكر بن العربي. راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ٣، ١٤٢٤ هـ — ٢٠٠٣م.
٢٣) **أحكام القرآن:** أبو محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم المعروف بابن الفرس. تحقيق: د/ طه بن علي بو سريح، ود/ منجية بنت الهادي النفري السوايحي، وصلاح الدين بو عفيف. دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت — لبنان. ط١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٢٤) **إحياء علوم الدين:** لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي. دار المعرفة، بيروت. د.ت.
٢٥) **أخبار أئمة الأبصار:** أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر النمري. بعناية: د. محمد سعيد الغازي. دار المفيد، توزيع دار ابن حزم، بيروت، لبنان. ط ١، ١٤٣٤هـ — ٢٠١٣م.
٢٦) **إخبار العلماء بأخبار الحكماء:** جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي. تحقيق: إبراهيم شمس الدين. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٢٧) **أخبار القضاة:** أبو بكر محمد بن خلف الضبي البغدادي الملقب بوكيع. صححه وعلق عليه وخرّج أحاديثه: عبد العزيز مصطفى المراغي. المكتبة التجارية الكبرى، بمصر. ط ١، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.
٢٨) **أخبار مكة:** محمد بن إسحاق الفاكهي. تحقيق: د. عبد الملك عبد الله دهيش. دار خضر، بيروت. ط ٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٢٩) **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار:** أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي. تحقيق: رشدي الصالح ملحس. دار الأندلس، بيروت. ط٣، ١٤٠٣هـ — ١٩٨٣م.
٣٠) **أخلاق أهل القرآن:** أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ. حققه وخرج أحاديثه: الشيخ محمد عمرو عبد اللطيف بإشراف المكتب السلفي لتحقيق التراث. دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان. ط٣، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
٣١) **أخلاق النبي وآدابه:** أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني. تحقيق: صالح بن محمد الونيان. دار المسلم للنشر والتوزيع. ط ١، ١٩٩٨م.

٣٢) **أدب الدنيا والدين**: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي. دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت. ط ١، ١٤١٥ هـ — ١٩٩٥م.
٣٣) **الأدب المفرد**: محمد بن إسماعيل البخاري. ترتيب وتقديم: كمال يوسف الحوت. عالم الكتب، بيروت. ١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥م.
٣٤) **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**: أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني. المطبعة الكبرى الأميرية، مصر. ط ٧، ١٣٢٣هـ.
٣٥) **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**: أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي. دار إحياء التراث العربي، بيروت. د.ت.
٣٦) **أركان الإسلام الخمسة (أحكامها وأثرها في بناء الفرد والمجتمع)**: **رفعت فوزي عبد المطلب**. الطبعة ٣، ٢٠١٣م.
٣٧) **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**: محمد ناصر الدين الألباني. إشراف: زهير الشاويش. المكتب الإسلامي، بيروت. ط٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٣٨) **أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**: د. أحمد محمد كنعان . دار النفائس، ١٩٧٩م.
٣٩) **أساس البلاغة**: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري. تحقيق: محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان. ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٤٠) **الأساس في التفسير**: سعيد حوّى. دار السلام، القاهرة. ط ٦، ١٤٢٤هـ.
٤١) **أساليب بلاغية، الفصاحة – البلاغة – المعاني**: أحمد مطلوب. وكالة المطبوعات — الكويت. ط١، ١٩٨٠م.
٤٢) **أسباب نزول القرآن**: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري. حققه: عصام بن عبد المحسن الحميدان. دار الإصلاح، الدمام. ط ٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
٤٣) **الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من المعاني والآثار**: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي. تحقيق د. عبد المعطي قلعجي، مؤسسة الرسالة، دمشق. ط ١، ١٤١٣هـ — ١٩٩٣م.
٤٤) **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري. تحقيق: علي محمد البجاوي. دار الجيل، بيروت. ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٤٥) **أسد الغابة في معرفة الصحابة:** أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن الجزري، عز الدين ابن الأثير. تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود. دار الكتب العلمية. ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٤٦) **الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه:** الأستاذ عبد القادر عودة. الاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية IIFSO، ط٥، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.

٤٧) **الإسلام والوعي الحضاري:** أكرم ضياء العمري، بيروت- ١٤٠٨ هـ.

٤٨) **الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية:** نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوي الطوفي الصرصري. تحقيق: محمد حسن إسماعيل. دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان. ط١، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

٤٩) **الإشراف على نكت مسائل الخلاف:** القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي. تحقيق: الحبيب بن طاهر. دار ابن حزم. ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٥٠) **الإصابة في تمييز الصحابة:** أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلى محمد معوض. دار الكتب العلمية — بيروت. ط ١، ١٤١٥هـ- ١٩٨٦م.

٥١) **أصول الدعوة:** عبد الكريم زيدان. مؤسسة الرسالة. ط٩، ١٤٢١هـ.-٢٠٠١م.

٥٢) **أصول المنهج الإسلامي،** دراسة معاصرة في العقيدة والأحكام والآداب: عبد الرحمن بن عبد الكريم العُبيِّد. دار الذخائر، الدمام، ١٤١٤هـ.

٥٣) **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن:** محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان. ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٥٤) **أضواء على الثقافة الإسلامية:** الدكتورة نادية شريف العمري. مؤسسة الرسالة. ط٩، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٥٥) **إعراب القراءات السبع وعللها:** الحسين بن أحمد بن خالويه. مكتبة الخانجي، القاهرة. ط١، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م.

٥٦) **إعراب القرآن:** أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي النحوي. وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم. منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ.

٥٧) **إعراب القرآن وبيانه:** محيي الدين درويش. دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية، دار اليمامة – دمشق – بيروت، دار ابن كثير – دمشق — بيروت. ط٤، ١٤١٥هـ.
٥٨) **إعراب القراءات السبع وعللها:** أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه، مكتبة الخانجي، القاهرة. ط١، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م.
٥٩) **الأعلام:** خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي. دار العلم للملايين. ط ١٥، مايو ٢٠٠٢م.
٦٠) **الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام:** العباس بن إبراهيم المراكشي السملالي. تحقيق: عبد الوهاب بن منصور. ط المطبعة الملكية، الرباط. ١٣٩٣هـ – ١٩٧٤م.
٦١) **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر):** عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي. دار ابن حزم – بيروت، لبنان. الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩م.
٦٢) **أعلام الحديث في شرح البخاري:** للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي. دراسة وتحقيق: محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود. جامعة أم القرى. ط ١، ١٤٠٩هـ–١٩٨٨م.
٦٣) **إعلام الموقعين عن رب العالمين:** محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم. دار الكتب العلمية — بيروت. ط١، ١٤١١هـ – ١٩٩١م.
٦٤) **أعلام النبوة:** أبو الحسن علي بن محمد الماوَرْدي. تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي. دار الكتاب العربي، بيروت. ط ١، ١٩٨٧م.
٦٥) **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان:** شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية. حققه: محمد عزير شمس. خرج أحاديثه: مصطفى بن سعيد إيتي. دار عالم الفوائد، مكة المكرمة. ط١، ١٤٣٢ هـ.
٦٦) **اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم:** أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية. تحقيق: محمد حامد الفقي. المكتب الثقافي السعودي بالمغرب. د.ت.
٦٧) **اقتضاء العلم العمل:** أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي. دراسة وتحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض. ط١، ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠٢ م.

٦٨) **الإكليل في استنباط التنزيل:** جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب. دار الكتب العلمية، بيروت.١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٦٩) **إكمال المعلم شرح صحيح مسلم:** العلامة القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي. تحقيق: الدكتور يحي إسماعيل. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر. ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٧٠) **الأم:** محمد بن إدريس الشافعي. دار المعرفة، بيروت. ١٤١٠هـ -١٩٩٠م.

٧١) **الأمثال في القرآن:** محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. مكتبة الصحابة - مصر- طنطا. تحقيق: أبو حذيفة إبراهيم بن محمد. ط١٤٠٦،١ هـ - ١٩٨٦ م.

٧٢) **الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله:** عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع. عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٧٣) **الانتصار لنقل القرآن:** أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني. تحقيق: د. محمد عصام القضاة. دار الفتح، عمّان، ودار ابن حزم، بيروت. ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٧٤) **إنكار الجن من شطحات التفسير الموضوعي للقرآن:** مصطفى الوراق إبراهيم. الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. السنة الرابعة عشرة، العدد الثالث والخمسون المحرم، صفر، ربيع الأول ١٤٠٢هـ/١٩٨١م.

٧٥) **أنِيسُ السَّاري في تخريج وَتحقيق الأحاديث التي ذكرها الحَافظ ابن حَجر العسقلاني في فَتح البَاري:** نبيل بن منصور بن يعقوب البصارة مؤسَّسَة السَّماحة، مؤسَّسَة الريَّان، بيروت – لبنان. ط١، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٧٦) **أهداف التربية الإسلامية:** د ماجد عرسان الكيلاني. دار القلم. الطبعة: الأولى.

٧٧) **الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف:** محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري. تحقيق: أبو حماد صغير أحمد بن محمد حنيف. دار طيبة، الرياض، السعودية. ط ١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥.

٧٨) **أوضح التفاسير:** محمد عبد اللطيف الخطيب. المطبعة المصرية ومكتبتها. ط٦، رمضان ١٣٨٣ هـ - فبراير ١٩٦٤ م.

٧٩) **إيجاز البيان عن معاني القرآن**: أبو القاسم، نجم الدين محمود بن أبى الحسن النيسابوري. تحقيق: الدكتور حنيف بن حسن القاسمي. دار الغرب الإسلامي – بيروت. ط١ - ١٤١٥ هـ.

٨٠) **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**: أبو بكر جابر الجزائري. مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية. ط٥، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م.

٨١) **الإيضاح في علوم البلاغة**: جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني. تحقيق الشيخ بهيج غزاوي. دار إحياء العلوم، بيروت. ط ٤، سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨.

٨٢) **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**: إسماعيل بن محمد أمين البغدادي. دار الكتب العلمية، بيروت. ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

٨٣) **إيضاح الوقف والابتداء**: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري. تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان. مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق. سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م.

٨٤) **الإيمان**: أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنْدَه العبدي. تحقيق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي. مؤسسة الرسالة – بيروت. ط٢، ١٤٠٦هـ.

٨٥) **الإيمان**: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، عمان، الأردن. ط٥، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٨٦) **باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن**: أبو القاسم، محمود بن أبي الحسن النيسابوريّ الغزنوي. تحقيق: سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي. جامعة أم القرى - مكة المكرمة. ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

٨٧) **البحر الرائق شرح كنز الدقائق**: زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المصري. دراسة وتحقيق: أحمد عزو عناية الدمشقي. دار احياء التراث العربي. ط١، ١٤٢٢ هـ -٢٠٠٢ م.

٨٨) **البحر الزخار = مسند البزار**: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار. تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله. مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ومكتبة العلوم والحكم، المدينة. سنة ١٤٠٩م.

٨٩) **بحر العلوم**: أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي. تحقيق: الشيخ علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والدكتور زكريا عبد المجيد النوتي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

٩٠) **البحر المحيط في أصول الفقه**: بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي. حققه عبد الستار أبو غدة. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت. ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٩١) **البحر المحيط في التفسير**: أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف ابن حيان الأندلسي. تحقيق: صدقي محمد جميل. دار الفكر، بيروت. ط ١٤٢٠هـ.

٩٢) **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني. تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان. نشره الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة. ١٤١٩ هـ

٩٣) **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**: علاء الدين أبو بكر بن مسعود الكاساني الحنفي. تحقيق وتعليق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ١، ١٤١٨هـ — ١٩٩٧م.

٩٤) **بدائع الفوائد**: محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية. تحقيق: علي بن محمّد العمران (إشراف: بَكر بن عَبدِ اللَّهِ أَبُو زَيْد). دار عالم الفوائد، مكة المكرمة. ط١، ١٤٢٥ هـ.

٩٥) **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**: أبو الوليد بن رشد الحفيد. المكتب الثقافي السعودي بالمغرب. تنفيذ دار المعارف. الرباط، المغرب. د.ت.

٩٦) **البداية والنهاية**: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي. تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٩٧) **البدر الطالع لمحاسن من بعد القرن السابع**: محمد بن علي الشوكاني. دار المعرفة، بيروت. د.ت.

٩٨) **البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير**: سراج الدين عمر بن علي ابن الملقن. حققه: مصطفى أبو الغيط وعبد الله بن سليمان وياسر بن كمال. دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية. ط ١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٩٩) **البدع والنهي عنها:** أبو عبد الله محمد بن وضاح القرطبي. تحقيق ودراسة: عمرو عبد المنعم سليم. مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مكتبة العلم، جدة. ط ١، ١٤١٦هـ.

١٠٠) **البرهان في أصول الفقه:** أبو المعالي الجويني. حقق وقدمه وصنع فهارسه: د. عبد العظيم الديب. دار الوفاء، المنصورة، مصر. ط ٤، ١٤١٨هـ.

١٠١) **البرهان في ترتيب سور القرآن:** أبو جعفر بن الزبير، تحقيق محمد شعباني، منشورات وزارة الأوقاف، المغرب، ١٩٩٣م.

١٠٢) **–البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان:** محمود بن حمزة بن نصر، الكرماني، المعروف بتاج القراء. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا. مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض. دار الفضيلة.

١٠٣) **البرهان في علوم القرآن:** بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي. حقق نصوصه: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعرفة، بيروت، د ت. طبعة مصورة عن طبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة. ط ١، ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م.

١٠٤) **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز:** مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. حققه: محمد علي النجار. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة. طبع على أجزاء من ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م، إلى: ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣م.

١٠٥) **بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث:** (الحارث بن أبي أسامة البغدادي) لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي. تحقيق: د. حسين أحمد صالح الباكري. مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة. ط ١، ١٤١٣ – ١٩٩٢م.

١٠٦) **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس:** أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، مطبعة روبس، ١٨٨١م.

١٠٧) **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة:** جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة صيدا، لبنان. ط ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

١٠٨) **البلاغة الصافية في المعاني والبيان والبديع:** حسن الجناجي. المكتبة الأزهرية للتراث القاهرة – مصر. سنة ٢٠٠٦م.

١٠٩) **البلاغة العربية:** عبد الرحمن حسن حَبَنَّكَة الميداني. دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت. ط١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.

١١٠) **بلغة السالك لأقرب المسالك = حاشية الصاوي على الشرح الصغير للدردير:** أحمد الصاوي. ضبطه وصححه: محمد عبد السلام شاهين. دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١١١) **البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة:** مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي. تحقيق: محمد المصري، دار سعد الدين للطباعة والنشر. ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١١٢) **بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب:** شمس الدين محمود بن عبد الرحمن الأصفهاني. تحقيق: محمد مظهر بقا. دار المدني، السعودية. ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١١٣) **بيان المعاني:** عبد القادر مُلا حُويش آل غازي العاني. مطبعة الترقي – دمشق. ط١، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٥م.

١١٤) **البيان والتحصيل لما تضمنته المدونة والمستخرجة والعُتبية من التوجيه والتعليل:** محمد بن أحمد بن رشد القرطبي. تحقيق: مجموعة من الباحثين بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط ٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١١٥) **بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام:** أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك الفاسي، المعروف بابن القطان. تحقيق: د. الحسين آيت سعيد. دار طيبة – الرياض. ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١١٦) **تاج التراجم:** أبو الفداء زين الدين قاسم بن قُطلُوبغا السودوني الجمالي. تحقيق: محمد خير رمضان يوسف. دار القلم – دمشق. ط١، ١٤١٣ هـ -١٩٩٢م.

١١٧) **تاج العروس من جواهر القاموس:** محمد مرتضى الحسيني الزبيدي. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج. دار إحياء التراث العربي، بيروت. ط ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

١١٨) **تاريخ الإسلام ووَفيات المشاهير والأعلام:** شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف. دار الغرب الإسلامي. ط١، ٢٠٠٣م.

١١٩) **تاريخ بغداد:** أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، الخطيب البغدادي المحقق: الدكتور بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م.

١٢٠) **تاريخ دمشق**: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر. تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م.
١٢١) **التاريخ الكبير**: لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، طبع تحت مراقبة: د. محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند.
١٢٢) **تأملات وتدبرات لسورة الحج**، الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم، الجهة الشرقية.
١٢٣) **تأويل مشكل القرآن**: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. صححه: إبراهيم شمس الدين. دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان.
١٢٤) **التبصرة**: علي بن محمد الربعي، أبو الحسن، المعروف باللخمي. دراسة وتحقيق: الدكتور أحمد عبد الكريم نجيب. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر. ط ١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
١٢٥) **التبصرة في أصول الفقه**: أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي الشيرازي. تحقيق د. محمد حسن هيتو. دار الفكر، دمشق. سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
١٢٦) **التبصرة في القراءات السبع**: مكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: محمد غوث الندوي. الدار السلفية، الهند. ط ٢، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
١٢٧) **التبيان في إعراب القرآن**: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري. تحقيق: علي محمد البجاوي. عيسى البابي الحلبي وشركاه.
١٢٨) **التبيان في أقسام القرآن**: شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية. تحقيق: أبي يحيى محمد بن سعيد الناقد. دار التقوى للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة. ط ١، ١٤٣٢هـ- ٢٠١٢م.
١٢٩) **التبيان في تفسير غريب القرآن**: أبو العباس، أحمد بن محمد ابن الهائم. تحقيق: د ضاحي عبد الباقي. دار الغرب الإسلامي — بيروت. ط١ - ١٤٢٣ هـ.
١٣٠) **تبييض الصحيفة بأصول الأحاديث الضعيفة**: محمد عمرو عبد اللطيف. مكتبة التوعية الإسلامية لإحياء التراث الإسلامي، القاهرة — مصر. ط١، ١٤١٠ هـ.
١٣١) **تحبير التيسير في القراءات العشر**: شمس الدين محمد بن محمد بن يوسف ابن الجزري. حقق: د. أحمد محمد مفلح القضاة. دار الفرقان - الأردن / عمان. ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٣٢) **تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة:** ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي. تحقيق: لجنة مختصة بإشراف نور الدين طالب. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت. ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م.

١٣٣) **تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي:** محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري. راجع أصوله وصححه عبد الرحمن محمد عثمان. المكتبة السلفية، المدينة المنورة. سنة ١٣٨٧هـ — ١٩٦٤م.

١٣٤) **تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب:** أبو حيان محمد بن يوسف ابن حيان الأندلسي. تحقيق: سمير المجذوب. المكتب الإسلامي. ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٣٥) **تحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر ابن الحاجب:** أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي. دار ابن حزم، بيروت. ط ٢، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٣٦) **التحقيق والبيان في شرح البرهان في أصول الفقه:** علي بن إسماعيل الأبياري. تحقيق: د. علي بن عبد الرحمن بسام. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر. ط ١، ١٤٣٤ — ٢٠١٣م.

١٣٧) **تخريج أحاديث إحياء علوم الدين:** العِراقي، وابن السبكي، والزبيدي. استِخرَاج: أبي عبد اللَّه مَحمُود بِن مُحَمّد الحَدّاد. دار العاصمة للنشر — الرياض. ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.

١٣٨) **تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري:** جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي. تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد. دار ابن خزيمة — الرياض. ط١، ١٤١٤هـ.

١٣٩) **التدريب وأهميته في العمل الإسلامي:** مُحَمَّد مُوسَى الشَّرِيْف. الدار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية. ط٤، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

١٤٠) **تذكرة الحفاظ:** محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. دراسة وتحقيق: زكريا عميرات. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

١٤١) **تذكرة الحفاظ:** محمد بن طاهر القيسراني. حققه: عبد المجيد حمدي إسماعيل السلفي. دار الصميعي، الرياض. ط ١، ١٤١٥هـ.

١٤٢) **التذكار في أفضل الأذكار**: أبو عبد الله القرطبي. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ٣، ١٤٠٨ هـ — ١٩٨٨م.
١٤٣) **تراث أبي الحسن الحَرَالِّي المراكشي في التفسير**: أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَسَنٍ التُّجِيْبِيُّ الحَرَالِّيُّ. تقديم وتحقيق: محمادي بن عبد السلام الخياطي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي — الرباط. ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
١٤٤) **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**: القاضي عياض بن موسى اليحصبي. تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط ١. ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
١٤٥) **الترغيب والترهيب**: عبد العظيم المنذري. تحقيق: إبراهيم شمس الدين. دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ.
١٤٦) **التسهيل لعلوم التنزيل = تفسير ابن جزي**: أبو القاسم، محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي الغرناطي. المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي. شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم — بيروت. الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ.
١٤٧) **التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه**: يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي البصري ثم الإفريقي القيرواني. قدمت له وحققته: هند شلبي. الشركة التونسية للتوزيع. عام: ١٩٧٩م.
١٤٨) **التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية**: علي صبح. المكتبة الأزهرية للتراث.
١٤٩) **التعريفات**: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني. ضبطه وصححه جماعة من العلماء. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط ١، سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
١٥٠) **تعظيم الله في هدايات القرآن الكريم**: أ.د. طه عابدين طه، ود. ياسين حافظ قاري، ود. فخر الدين الزبير علي. مكتبة المتنبي، ١٤٤١هـ — ٢٠٢٠م.
١٥١) **التعليق على الموطأ في تفسير لغاته وغوامض إعرابه ومعانيه**: أبو الوليد هشام بن أحمد الوقشي. حققه وقدم له وعلق عليه: الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين. مكتبة العبيكان، الرياض - المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
١٥٢) **تغليق التعليق على صحيح البخاري**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: سعد عبد الرحمن موسى القزقي. المكتب الإسلامي ببيروت، ودار عمار بعمان. ط ١، ١٤٠٥هـ.

١٥٣) **تفسير آيات الأحكام:** محمد علي السايس. تحقيق: ناجي سويدان. المكتبة العصرية للطباعة والنشر.٢٠٠٢م.
١٥٤) **تفسير الإمام الشافعي:** أبو عبد الله محمد بن إدريس المطلبي القرشي. جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد بن مصطفى الفرَّان. دار التدمرية، المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤٢٧ - ٢٠٠٦م.
١٥٥) **تفسير الإيجي = جامع البيان في تفسير القرآن:** محمد بن عبد الرحمن الحسني الحسيني الإيجي. دار الكتب العلمية – بيروت. ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
١٥٦) **التفسير البسيط:** أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، النيسابوري. أصله ١٥ رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ط ١، ١٤٣٠هـ.
١٥٧) **التفسير البياني للقرآن الكريم:** عائشة بنت الشاطئ. دار المعارف – القاهرة. ط٧.
١٥٨) **تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل:** ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي. دار الفكر، بيروت. د. ت.
١٥٩) **التفسير بالبيان المتصل في القرآن الكريم:** إعداد: بسمة بنت عبد الله بن حمد الكنهل. إشراف: أ. د. يوسف بن عبد العزيز الشبل. رسالة ماجستير: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية – كلية أصول الدين – قسم القرآن وعلومه: ١٤٣٨ – ١٤٣٩هـ.
١٦٠) **تفسير ابن أبي حاتم = تفسير القرآن العظيم:** لابن أبي حاتم الرازي: حققه: أسعد محمد الطيب. مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية. ط ٣، ١٤١٩هـ.
١٦١) **تفسير ابن باديس = مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير:** عبد الحميد بن باديس. علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين. دار الكتب العلمية بيروت– لبنان. ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
١٦٢) **تفسير ابن برَّجان = تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم:** عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد ابن برَّجان اللخمي الإشبيلي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط١، ١٤٣٤هـ -٢٠١٣م

١٦٣) **تفسير ابن رجب الحنبلي = روائع التفسير**: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد. دار العاصمة – المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

١٦٤) **تفسير ابن عرفة**: محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي. تحقيق: جلال الأسيوطي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط١، ٢٠٠٨م.

١٦٥) **تفسير ابن كثير = تفسير القرآن العظيم**: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي. تحقيق: سامي بن محمد سلامة. دار طيبة للنشر والتوزيع. ط ٢، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

١٦٦) **تفسير ابن المنذر = تفسير القرآن**: أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري. قدم له الأستاذ الدكتور: عبد الله بن عبد المحسن التركي، وحققه وعلق عليه الدكتور: سعد بن محمد السعد. دار المآثر، المدينة النبوية. ط ١، سنة ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

١٦٧) **تفسير البغوي= معالم التنزيل في تفسير القرآن**: أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي. تحقيق : عبد الرزاق المهدي. دار إحياء التراث العربي –بيروت. ط١، ١٤٢٠هـ.

١٦٨) **تفسير التحرير والتنوير**: محمد الطاهر بن عاشور. الشركة التونسية للتوزيع، تونس. ط ١، ١٩٨٥م.

١٦٩) **تفسير الثوري**: أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. ط١، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م.

١٧٠) **تفسير جزء عم**: محمد بن صالح العثيمين. إعداد وتخريج: فهد بن ناصر السليمان. دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض. ط٢، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢م.

١٧١) **تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن**: محمد الأمين بن عبد الله العلوي الهرري. إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي. دار طوق النجاة، بيروت – لبنان. ط ١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١م.

١٧٢) **التفسير الحديث**: محمد عزت دروزة. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة. ١٣٨٣هـ – ١٩٦٢هـ.

١٧٣) **تفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التنزيل**: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم الشيحي المعروف بالخازن. تصحيح: محمد علي شاهين. دار الكتب العلمية – بيروت. ط١، ١٤١٥هـ.

١٧٤) **تفسير الراغب الأصفهاني**: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني. من أول سورة آل عمران حتى الآية ١١٣ من سورة النساء. تحقيق ودراسة: د. عادل بن علي الشِّدِي. دار الوطن – الرياض. ط١. ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٧٥) **تفسير الرازي = مفاتيح الغيب**: محمد بن عمر بن الحسن الملقب بفخر الدين الرازي. إعداد مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي. دار إحياء التراث العربي، بيروت. ط ٣، ١٤٢٠هـ.

١٧٦) **تفسير السلمي = حقائق التفسير**: أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين النيسابوري السلمي. تحقيق: سيد عمران. دار الكتب العلمية. ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

١٧٧) **تفسير السمرقندي = بحر العلوم**: أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي.

١٧٨) **تفسير السمعاني = تفسير القرآن**: أبو المظفر، منصور بن محمد المروزي السمعاني التميمي. تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم. دار الوطن، الرياض – السعودية. الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

١٧٩) **تفسير الشعراوي**: محمد متولي الشعراوي. مطابع أخبار اليوم، القاهرة. نشر عام ١٩٩٧م.

١٨٠) **تفسير الطبري = جامع البيان في تأويل القرآن**: محمد بن جرير بن يزيد الآملي، أبو جعفر الطبري. تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م. وهي الطبعة المعتمدة.

١٨١) **تفسير الطبري المسمى جامع البيان لتأويل آي القرآن**: أبو جعفر بن جرير الطبري. حققه: أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة. ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م. (أحيل عليها عند ذكر أحكام شاكر على بعض الروايات).

١٨٢) **تفسير عبد الرزاق الصنعاني**: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني. دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ١، سنة ١٤١٩هـ.

١٨٣) **تفسير العز بن عبد السلام = تفسير القرآن:** عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي. تحقيق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي. دار ابن حزم – بيروت. ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

١٨٤) **تفسير الفاتحة والبقرة:** محمد بن صالح العثيمين. دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤٢٣هـ.

١٨٥) **التفسير القرآني للقرآن:** عبد الكريم يونس الخطيب. دار الفكر العربي، القاهرة. د.ت.

١٨٦) **تفسير القرآن من الجامع لابن وهب:** أبو محمد عبد الله بن وهب المصري القرشي. تحقيق: ميكلوش موراني. دار الغرب الإسلامي. ط١، ٢٠٠٣ م.

١٨٧) **تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن:** أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية – القاهرة. ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

١٨٨) **تفسير الكتاب العزيز وإعرابه:** ابن أبي الربيع القرشي الإشبيلي. تحقيق: علي بن سلطان الحكمي. الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. الأعداد ٨٥ - ١٠٠ السنوات ٢٢ - ٢٥ المحرم ١٤١٠ هـ - ذو الحجة ١٤١٣هـ.

١٨٩) **تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة:** أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي. تحقيق: د. مجدي باسلوم. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

١٩٠) **التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون:** الدكتور مأمون حموش. ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

١٩١) **التفسير المحرر للقرآن الكريم:** إعداد: القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية.

١٩٢) **تفسير المدينة المنورة:** نخبة من العلماء، مركز تعظيم القرآن الكريم، المدينة المنورة، دار الصميعي، الرياض، ط ١، ١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥م.

١٩٣) **تفسير المراغي:** أحمد بن مصطفى المراغي. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. ط١، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.

١٩٤) **التفسير المظهري:** محمد ثناء الله المظهري، حققه: غلام نبي التونسي. مكتبة الرشدية، الباكستان. ط ١٤١٢هـ.

١٩٥) **تفسير مقاتل بن سليمان:** أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى. تحقيق: عبد الله محمود شحاته. دار إحياء التراث – بيروت. الطبعة: الأولى – ١٤٢٣ هـ.
١٩٦) **تفسير المنار = تفسير القرآن الحكيم:** محمد رشيد رضا الحسيني. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٩٠م.
١٩٧) **تفسير المنتصر الكتاني:** محمد المنتصر بالله الكتاني الإدريسي. دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.
١٩٨) **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج:** د. وهبة الزحيلي. دار الفكر المعاصر، دمشق. ط٢، ١٤١٨هـ.
١٩٩) **التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم:**
٢٠٠) **تفسير النسفي = (مدارك التنزيل وحقائق التأويل):** أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي. حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي. راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو. دار الكلم الطيب، بيروت. ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
٢٠١) **التفسير الواضح:** محمد محمود الحجازي. دار الجيل الجديد، بيروت. ط١٠، ١٤١٣هـ.
٢٠٢) **التفسير الوسيط للقرآن الكريم:** مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية. ط ١، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.
٢٠٣) **التفسير الوسيط للقرآن الكريم:** محمد سيد طنطاوي. دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة. ط ١. (جزء ٥) يونيو ١٩٩٧م.
٢٠٤) **التفسير والبيان لأحكام القرآن:** عبد العزيز بن مرزوق الطريفي. اعتنى به عبد المجيد بن خالد المبارك. مكتبة دار المنهاج .٢٠١٧م – ١٤٣٨هـ.
٢٠٥) **التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث:** الدكتور فضل حسن عبَّاس. دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن. ط١، عام ١٤٣٧ هـ – ٢٠١٦ م.
٢٠٦) **التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا:** محمد بن رزق طرهوني الكعبي. دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ.
٢٠٧) **تفسير يحيى بن سلام:** يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة الإفريقي القيرواني. تقديم وتحقيق: الدكتورة هند شلبي. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. ط١، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م.

٢٠٨) **تقريب التهذيب**: أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني. تحقيق: محمد عوامة. دار الرشيد، حلب، سوريا. ط١، ١٤٠٦هـ — ١٩٨٦م.
٢٠٩) **التقرير والتحبير على التحرير**: محمد بن محمد بن حسن الحنفي المعروف بابن أمير الحاج. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٢١٠) **التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**: أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط ١، سنة ١٤١٩هـ - ١٩٨٩م.
٢١١) **تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل**: القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني. تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر. مؤسسة الكتب الثقافية — لبنان. ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٢١٢) **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**: أبو عمر يوسف بن عبد البر النمَري. حققه وصححه وعلق على حواشيه: مصطفى بن أحمد العلوي، وباحثون آخرون. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب، وطبعت أجزاؤه مفرقة من سنة ١٩٨٢ إلى ١٩٩٢م.
٢١٣) **تناسق الدرر في تناسب السور**: جلال الدين السيوطي. تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م.
٢١٤) التناسق الموضوعي في سورة الأنبياء
٢١٥) **تنزيه القرآن عن المطاعن**: القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني المعتزلي. دار النهضة الحديثة — بيروت، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
٢١٦) **تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق**: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي. تحقيق: مصطفى أبو الغيط عبد الحي عجيب. دار الوطن — الرياض. الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م.
٢١٧) **تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق**: شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي. تحقيق: سامي بن محمد بن جاد الله، وعبد العزيز بن ناصر الخباني. أضواء السلف، الرياض. ط ١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
٢١٨) **التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِعِ الصَّغِيرِ**: محمد بن إسماعيل الصنعاني، الأمير. تحقيق: د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم. مكتبة دار السلام، الرياض. ط١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
٢١٩) **تهذيب الأسماء واللغات**: أبو زكرياء يحيى بن شرف النووي. دار الفكر، بيروت. ط ١، ١٩٩٦م.

٢٢٠) **تهذيب التهذيب:** ابن حجر العسقلاني. دار الفكر، بيروت. ط ١، ١٤١٤هـ – ١٩٨٤م.
٢٢١) **تهذيب الكمال في أسماء الرجال:** أبو الحجاج، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، المزي. تحقيق: د. بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة – بيروت. ط١، ١٤٠٠ – ١٩٨٠م.
٢٢٢) **تهذيب اللغة:** محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي. حققه: محمد عوض مرعب. دار إحياء التراث العربي، بيروت. ط ١، ٢٠٠١م.
٢٢٣) **التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد:** أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد ابن مَنْدَه العبدي. حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: الدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي. مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ودار العلوم والحكم، سوريا. ط ١، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.
٢٢٤) **توشيح الديباج وحلية الابتهاج:** بدر الدين محمد بن يحيى القرافي، تحقيق: أحمد الشتيوي. دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط ١، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
٢٢٥) **توضِيحُ الأحكَامِ مِن بلوغ المرام:** أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن البسام. مكتَبة الأسدي، مكّة المكرّمة. ط٥، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م.
٢٢٦) **التوضيح في شرح المختصر الفرعي لابن الحاجب:** خليل بن إسحاق الجندي. د. أحمد بن عبد الكريم نجيب. مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث. ط١، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.
٢٢٧) **توفيق الرحمن في دروس القرآن:** فيصل بن عبد العزيز المبارك. حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل محمد. دار العاصمة، المملكة العربية السعودية – الرياض، دار العليان للنشر والتوزيع، القصيم – بريدة. الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.
٢٢٨) **التوقيف على مهمات التعاريف:** زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي الحدادي المناوي. عالم الكتب –القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ–١٩٩٠م.
٢٢٩) **التوكل:** للدكتور يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة. ط١، ١٤١٦هـ– ١٩٩٥م.

٢٣٠) **تيسير البيان لأحكام القرآن:** محمد بن علي بن عبد الله بن إبراهيم بن الخطيب اليمني الشافعي المشهور بـ «ابن نور الدين». بعناية: عبد المعين الحرش. دار النوادر، سوريا. ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٢٣١) **التيسير في القراءات السبع:** أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني. دراسة وتحقيق: د. خلف حمود سالم الشغدلي. دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل - المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٢٣٢) **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان:** عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي. تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. مؤسسة الرسالة. ط ١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

٢٣٣) **تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن:** عبد الرحمن بن ناصر السعدي. وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤٢٢هـ.

٢٣٤) **الثقات:** محمد بن حبان بن أحمد بن حبان البُستي. طبع بإعانة: وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، تحت مراقبة: الدكتور محمد عبد المعيد خان. دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند. ط ١، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

٢٣٥) **جامع الأصول في أحاديث الرسول:** مجد الدين أبو السعادات المبارك ابن الأثير الجزري. تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، وأتمه بشير عيون. مكتبة الحلواني، ومطبعة الملاح، ومكتبة دار البيان. طبع على مراحل من سنة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م، إلى سنة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

٢٣٦) **جامع بيان العلم وفضله:** أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد القرطبي. تحقيق: أبي الأشبال الزهيري. دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية. ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢٣٧) **جامع البيان في القراءات السبع:** أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني. تحقيق: محمد صدوق الجزائري. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٣٨) **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم:** زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الدمشقي، الحنبلي. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس. مؤسسة الرسالة — بيروت. ط ٧، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٣٩) **الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور:** نصر الله بن محمد الشيباني، الجزري، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب. تحقيق: مصطفى جواد. مطبعة المجمع العلمي. عام: ١٣٧٥هـ.

٢٤٠) **الجرح والتعديل**: عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الحنظلي المشهور بابن أبي حاتم الرازي. مجلس دائرة المعارف العثمانية، بحيدر آباد الدكن، الهند. ط ١، ١٢٧١هـ - ١٩٥٢م.

٢٤١) **الجزء المتمم لطبقات ابن سعد** (الطبقة الخامسة في من قبض رسول الله ﷺ. وهم أحداث الأسنان): أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري المعروف بابن سعد. تحقيق: محمد بن صامل السلمي. مكتبة الصديق، الطائف. ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٢٤٢) **جمال القراء وكمال الإقراء**: أبو الحسن، علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني علم الدين السخاوي. دراسة وتحقيق: عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي. مؤسسة الكتب الثقافية — بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.

٢٤٣) **جماليات المفردة القرآنية**: أحمد ياسوف. دار المكتبى، دمشق. ط٢، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م.

٢٤٤) **جمهرة أنساب العرب**: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي. تحقيق: لجنة من العلماء. دار الكتب العلمية — بيروت. ط١، ١٤٠٣/١٩٨٣م.

٢٤٥) **جمهرة اللغة**: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي. المحقق: رمزي منير بعلبكي. دار العلم للملايين، بيروت. ط ١، ١٩٨٧م.

٢٤٦) **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية. تحقيق: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد. دار العاصمة، السعودية. ط٢، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

٢٤٧) **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. دار المعرفة — المغرب. ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٢٤٨) **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**: أحمد الهاشمي. ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي. المكتبة العصرية، بيروت.

٢٤٩) **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي. تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود. دار إحياء التراث العربي — بيروت. ط١، ١٤١٨ هـ.

٢٥٠) **الجواهر المُضِية في طبقات الحنفية**: أبو محمد عبد القادر بن أبي الوفاء محمد بن أبي الوفاء القرشي. مير محمد كتب خانه. كراتشي، باكستان. د.ت.

٢٥١) **حاشية ابن القيم على سنن أبي داود:** محمد بن أبي بكر الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ٢، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٢٥٢) **حاشية ابن المنير على الكشاف = الانتصاف من الكشاف:** ناصر الدين أحمد ابن المنيّر. مطبوع بهامش الكشاف. دار الكتب العلمية، بيروت. ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٢٥٣) **حاشية الدسوقي على الشرح الكبير:** محمد عرفه الدسوقي. صححه محمد عليش، دار الفكر، بيروت. د.ت.
٢٥٤) **حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع:** حسن بن محمد بن محمود العطار. دار الكتب العلمية، د.ت.
٢٥٥) **حتى يغيروا ما بأنفسهم:** جودت سعيد. مؤسسة الإسراء للنشر والتوزيع. مصر. . الطبعة. ٨.
٢٥٦) **الحِسبة والسياسة الشرعية:** أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الدمشقي. ضمن مجموع الفتاوى.
٢٥٧) **الحج في القرآن دراسة موضوعية:** عبد الفتاح عاشور: مطبعة الحضارة العربية. ١٩٧٨هـ -١٣٩٨هـ .
٢٥٨) **حجة القراءات:** أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد ابن زنجلة. حقق الكتاب وعلق حواشيه: سعيد الأفغاني. دار الرسالة.
٢٥٩) **الحجة للقراء السبعة:** أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ. المحقق: بدر الدين قهوجي وبشير جويجابي. راجعه ودققه: عبد العزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق. دار المأمون للتراث - دمشق/ بيروت. ط ٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.
٢٦٠) **حجج القرآن:** أبو العباس أحمد بن محمد، بدر الدين الرازيّ الحنفي. تحقق: أحمد عمر المحمصاني الأزهري. دار الرائد العربي — لبنان. ط٢، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
٢٦١) **حسن التنبه لما ورد في التشبه:** نجم الدين محمد بن محمد العامري الغزي. تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب. دار النوادر، سوريا. ط١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٢٦٢) **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة:** عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، محمد أبو الفضل إبراهيم دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر. ط ١، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

٢٦٣) **الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم:** عبد الرحمن حسن حَبَنَّكَة الميداني. دار القلم- دمشق. ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

٢٦٤) **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء:** أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني. دار الكتب العمية، بيروت، لبنان. ط ١، ١٤٠٩هـ — ١٩٨٨م.

٢٦٥) **الحماسة البصرية:** صدر الدين أبو الحسن علي بن أبي الفرج بن الحسن، البصري. تحقيق: مختار الدين أحمد. عالم الكتب — بيروت.

٢٦٦) **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب:** عبد القادر بن عمر البغدادي. تحقيق: محمد نبيل طريفي، وإميل بديع يعقوب. دار الكتب العلمية، بيروت. ١٩٩٨م.

٢٦٧) **خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني:** محمد محمد أبو موسى. مكتبة وهبة، القاهرة. ط٧.

٢٦٨) **خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية:** عبد العظيم المطعني. مكتبة وهبة. ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٢٦٩) **خصائص القرآن الكريم:** فهد بن سليمان الرومي.

٢٧٠) **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر:** محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبي الدمشقي. دار صادر — بيروت. د. ت.

٢٧١) **خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام:** أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي. حققه وخرج أحاديثه: حسين إسماعيل الجمل. مؤسسة الرسالة - لبنان — بيروت. الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٢٧٢) **خلاصة البدر المُنير:** سراج الدين عمر بن علي ابن الملقن المصري. مكتبة الرشد للنشر والتوزيع. ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٢٧٣) **الخلاصة في تدبر القرآن الكريم:** د. خالد بن عثمان السبت. دار الحضارة للنشر والتوزيع. ط١، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦ م.

٢٧٤) **دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه:** إسحاق بن عبد الله السعدي. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر. ط١، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.
٢٧٥) **دراسات في علوم القرآن الكريم:** د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي. ط١٢، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٢٧٦) **الدراية في تخريج أحاديث الهداية:** ابن حجر العسقلاني. صححه وعلق عليه السيد عبد الله هاشم اليماني المدني. دار المعرفة، بيروت. توزيع: عباس أحمد الباز، مكة المكرمة.
٢٧٧) **درء تعارض العقل والنقل:** تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني. تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
٢٧٨) **درة التنزيل وغرة التأويل:** أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي. دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين. جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي. ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.
٢٧٩) **دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآيِ والسُّور:** أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني. تحقيق: طلعت صلاح الفرحان، ومحمد أديب شكور أمرير. دار الفكر - عمان، الأردن. ط١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م.
٢٨٠) **درة الحجال في أسماء الرجال:** أبو العباس أحمد بن محمد بن القاضي المكناسي. تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة. ط ١، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
٢٨١) **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون:** أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي. حققه: الدكتور أحمد محمد الخراط. دار القلم، دمشق. ٢٠١١م.
٢٨٢) **الدر المنثور في التفسير بالمأثور:** عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي. دار الفكر، بيروت. ١٩٩٣م.
٢٨٣) **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة:** الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني. تحقيق: محمد عبد المعيد ضان. نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند. ط٢، سنة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

٢٨٤) **دعاوى الطاعنين في القرآن الكريم في القرن الرابع عشر الهجري والرد عليها:** عبد المحسن بن زبن بن متعب المطيري. دار البشائر الإسلامية، بيروت – لبنان. ط١، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م.

٢٨٥) **الدعوة الإصلاحية في بلاد نجد على يد الإمام محمد بن عبد الوهاب وأعلامها من بعده:** عبد الله بن محمد بن عبد المحسن المطوع. دار التدمرية. ط٣، السنة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

٢٨٦) **دلائل الإعجاز في علم المعاني:** عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني. تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر

٢٨٧) الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة. ط٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٢٨٨) **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة:** أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي. دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث. ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٨٩) **دلائل النظام:** عبد الحميد الفراهي الهندي. المطبعة الحميدية، ط ١، سنة ١٣٨٨هـ.

٢٩٠) **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب:** برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري. تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور. دار التراث، القاهرة. ١٩٧٦م.

٢٩١) **الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه:** عطية صقر. مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، جمهورية مصر العربية. ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

٢٩٢) **ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب:** تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه. دار المعارف، القاهرة – مصر. الطبعة: الثالثة.

٢٩٣) **الذخيرة:** شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي. تحقيق: محمد حجي. دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط١، سنة ١٩٩٤م.

٢٩٤) **ذم الكلام وأهله:** أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي. تحقيق: عبد الرحمن عبد العزيز الشبل. مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة. ط١، ١٤١٨هـ -١٩٩٨م.

٢٩٥) **ذيل تذكرة الحفاظ:** شمس الدين أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني. دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٢٩٦) **ذيل طبقات الحنابلة:** زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي. تحقيق: د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين. مكتبة العبيكان، الرياض. ط ١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

٢٩٧) **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة:** محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي. حققه وعلق عليه: د. إحسان عباس، ود. محمد بن شريفة، ود. بشار عواد معروف. دار الغرب الإسلامي. ط ١، ٢٠١٢م.

٢٩٨) **رحلة الصديق إلى البلد العتيق:** محمد صديق خان البخاري القِنَّوجي. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر. ط١، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

٢٩٩) **الرد على المنطقيين:** تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني. دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٣٠٠) **رفع الإصر عن قضاة مصر:** شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد العسقلاني. تحقيق: د. علي محمد عمر. مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر. ط ١، سنة ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

٣٠١) **روائع البيان تفسير آيات الأحكام:** محمد علي الصابوني. مكتبة الغزالي - دمشق، مؤسسة مناهل العرفان — بيروت. ط٣، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٣٠٢) **روح البيان:** المولى أبو الفداء إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي. دار الفكر، بيروت. د. ت.

٣٠٣) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني:** شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي. حققه: علي عبد الباري عطية. دار الكتب العلمية — بيروت. ط١، ١٤١٥هـ.

٣٠٤) **روضة الطالبين وعمدة المفتين:** أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي. تحقيق: زهير الشاويش. المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق- عمان. ط٣، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

٣٠٥) **روضة المحبين ونزهة المشتاقين:** محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٣٠٦) **الرَّوض البسام بترتيب وتخْريج فوائد تَمَّام:** أبو سليمان جاسم بن سليمان حمد الفهيد الدوسري. دَارُ البَشَائِر الإسْلَاميَّة، بيروت، لبنان. ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٣٠٧) **زاد المعاد في هدي خير العباد:** محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. مؤسسة الرسالة، بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت. ط ٢٧، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٣٠٨) **الزاهر في معاني كلمات الناس:** أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري. تحقيق: د. حاتم صالح الضامن. مؤسسة الرسالة – بيروت. ط١، ١٤١٢ هـ -١٩٩٢م.

٣٠٩) **الزهد:** أبو السَّرِي هَنَّاد بن السَّرِي التميمي الدارمي الكوفي. تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي. دار الخلفاء للكتاب الإسلامي – الكويت. الطبعة: الأولى، ١٤٠٦م.

٣١٠) **الزهد:** أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السِّجِسْتاني. تحقيق: أبو تميم ياسر بن ابراهيم بن محمد، وأبو بلال غنيم بن عباس بن غنيم وقدم له وراجعه: فضيلة الشيخ محمد عمرو بن عبد اللطيف. دار المشكاة للنشر والتوزيع، حلوان. الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٣١١) **الزهد والرقائق:** عبد الله بن المبارك الحنظلي المرْوزي. حبيب الرحمن الأعظمي. دار الكتب العلمية – بيروت.

٣١٢) **زهرة التفاسير:** محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي. ١٩٨٧م.

٣١٣) **زهر الآداب وثمر الألباب:** أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحُصري القيرواني. تحقيق: أ. د. يوسف على طويل، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان. ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

٣١٤) **السباق إلى العقول:** الدكتور عبد الله قادري الأهدل. الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية. د.ت.

٣١٥) **السبعة في القراءات:** أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي. تحقيق: د. شوقي ضيف. دار المعارف، القاهرة. ط ٢، ١٤٠٠هـ.

٣١٦) **السراج في بيان غريب القرآن:** محمد بن عبد العزيز الخضيري. مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

٣١٧) **السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير:** شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي. مطبعة بولاق الأميرية، القاهرة. عام ١٢٨٥هـ.

٣١٨) **سلسلة التفسير لمصطفى العدوي**: أبو عبد الله مصطفى بن العدوي شلباية المصري. دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية: http://www.islamweb.net.

٣١٩) **سلسلة الآثار الصحيحة أو الصحيح المسند من أقوال الصحابة والتابعين**: جمعها وخرّجها أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي. دار الفاروق، لبنان. ج١ سنة ٢٠٠٣م، وج٢ سنة ٢٠٠٦م.

٣٢٠) **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض. ط١. ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٣٢١) **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**: محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف، الرياض. المملكة العربية السعودية. ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٣٢٢) **السنة**: أبو بكر بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت. ط ١، ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠م.

٣٢٣) **سنن أبي داود**: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني. دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت. (وهي المعتمدة في التخريج).

٣٢٤) **سنن أبي داود**: أبو داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني. حققه: شعَيب الأرناؤوط، ومحمَّد كامِل قره بللي. دار الرسالة العالمية. ط ١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٣٢٥) **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد**: عبد الكريم زيدان. مؤسسة الرسالة.

٣٢٦) **سنن ابن ماجه**: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، محمَّد كامل قره بللي، عَبد اللّطيف حرز الله. دار الرسالة العالمية. ط ١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٣٢٧) **سنن الترمذي**: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي. تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين. دار إحياء التراث العربي، بيروت. د.ت.

٣٢٨) **سنن الدارقطني**: أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني. حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم. مؤسسة الرسالة، بيروت — لبنان. ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٣٢٩) **سنن الدارمي**: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي. تحقيق: حسين سليم أسد الداراني. دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية. ط ١، ١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م.

٣٣٠) **سنن سعيد بن منصور**: أبو عثمان سعيد بن منصور الخراساني. حققه وعلق عليه: حبيب الرحمن الأعظمي. الدار السلفية – الهند. ط١، ١٤٠٣هـ -١٩٨٢م.

٣٣١) **السنن الكبرى للبيهقي**: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. عبد المعطي أمين قلعجي. جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي . باكستان. ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٣٣٢) **السنن الكبرى**: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي. حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي. أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط. قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة، بيروت. ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٣٣٣) **سنن النسائي (المجتبى)**: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب. ط ٢، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

٣٣٤) **سير أعلام النبلاء**: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي. تحقيق: مجموعة من المحققين، وتخريج شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت. ط ١١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٣٣٥) **سير السلف الصالحين**: إسماعيل بن محمد الأصبهاني الملقب بقوام السنة. تحقيق: د. كرم حلمي فرحات. دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.

٣٣٦) **السيرة النبوية لابن هشام**: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري. تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. ط٢، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

٣٣٧) **شأن الدعاء**: أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي. تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق. دار الثقافة العربية. ط٣، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٣٣٨) **شجرة النّور الزكية في طبقات المالكية**: محمد بن محمد مخلوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٣٣٩) **شذرات الذهب في أخبار من ذهَب:** عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري، المعروف بابن العِماد الحنبلي، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط. دار بن كثير، دمشق. ١٤٠٦هـ.

٣٤٠) **شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية:** أبو الفتح محمد بن علي بن وهب القشيري، المعروف بابن دقيق العيد. مؤسسة الريان. ط٦، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٣٤١) **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة:** أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي. تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي. دار طيبة، السعودية. ط ٨، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٣٤٢) **شرح التلقين:** أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التَّمِيمي المازري. حققه: الشيخ محمَّد المختار السّلامي. دار الغرب الإِسلامي. ط١، ٢٠٠٨ م.

٣٤٣) **شرح الزرقاني على الموطأ:** محمد بن عبد الباقي الزرقاني. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ١، ١٩٩٠م.

٣٤٤) **شرح صحيح البخاري:** أبو الحسن علي بن خلف ابن بطال. تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم. مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ط ٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٣٤٥) **شرح العقيدة الأصفهانية:** تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني. تحقيق: محمد بن رياض الأحمد. المكتبة العصرية – بيروت. ط١ - ١٤٢٥هـ

٣٤٦) **شرح العقيدة الطحاوية:** صدر الدين محمد بن عليّ ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي. تحقيق: أحمد شاكر. وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد. ط١ - ١٤١٨ هـ.

٣٤٧) **شرح مختصر المنتهى الأصولي لابن الحاجب:** عضد الدين عبد الرحمن الإيجي. وعليه حاشية سعد الدين التفتازاني، وحاشية السيد الشريف الجرجاني. المحقق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. ط١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

٣٤٨) **شرح مشكل الآثار:** أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة. ط١. ١٤١٥هـ، ١٤٩٤م.

٣٤٩) **شرح معاني الآثار:** أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي. تحقيق محمد زهري النجار. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٧م.

٣٥٠) **شرح النووي على صحيح مسلم = المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي. دار إحياء التراث العربي، بيروت. ط٢، ١٣٩٢م.
٣٥١) **الشريعة**: أبو بكر محمد بن الحسين الآجُرِّيُّ. تحقيق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي. دار الوطن، الرياض، السعودية. ط ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٣٥٢) **شعاع من المحراب**: د. سليمان بن حمد العودة. دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية.
٣٥٣) ط٢، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.
٣٥٤) **شعب الإيمان**: أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي. حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد. أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي. مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند. ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
٣٥٥) **الشعر والشعراء**: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. دار الحديث، القاهرة. ١٤٢٣هـ.
٣٥٦) **الشفا بتعريف حقوق المصطفى - مذيلا بحاشية الشمني**: أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي.
٣٥٧) وصاحب الحاشية: أحمد بن محمد بن محمد الشمني. دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع. ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
٣٥٨) **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**: شمس الدين ابن قيم الجوزية. دار المعرفة، بيروت، لبنان. ط: ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
٣٥٩) **الشكر**: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا. تحقيق: بدر البدر. المكتب الإسلامي - الكويت. ط ٣، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
٣٦٠) **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**: نشوان بن سعيد الحميري اليمني. تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري، ومطهر بن علي الإرياني، و د. يوسف محمد عبد الله. دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية). ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٣٦١) **الصارم المسلول على شاتم الرسول:** شيخ الإسلام ابن تيمية. حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الكتب العربية، بيروت. سنة ١٩٧٨م.
٣٦٢) **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية:** أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين – بيروت. ط٤، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٣٦٣) **صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري:** حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني. دار الصديق للنشر والتوزيع. ط ٤، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٣٦٤) **صحيح البخاري:** محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي. ضبطه ورقمه الدكتور مصطفى ديب البُغا. نشر دار ابن كثير ودار اليمامة، دمشق. ط ٣، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٣٦٥) **صحيح ابن حبان = الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان:** لمحمد بن حبان التميمي البُستي، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي. حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت. ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٣٦٦) **صحيحُ ابن خُزَيمة:** أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري. حَققهُ وعَلّق عَلَيه وَخَرّجَ أحَاديثه وَقدَّم له: الدكتور محمد مصطفى الأعظمي. المكتب الإسلامي. ط٣، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٣٦٧) **صحيح الترغيب والترهيب:** محمد ناصر الدين الألباني. مكتَبة المعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض – المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
٣٦٨) **صحيح الجامع الصغير وزيادته:** محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت. ط ٣، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
٣٦٩) **صحيح سنن أبي داود:** الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت. الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
٣٧٠) **موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور:** أ. د. حكمت بشير ياسين. دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة- المدينة النبوية. ط١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.
٣٧١) **صحيح مسلم:** مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. حققه محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي، بيروت. د.ت.
٣٧٢) **صفة الصفوة:** جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي. مكتبة مصر. ط ١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.

٣٧٣) **صفوة التفاسير**: محمد علي الصابوني. دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة. ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

٣٧٤) **الصلة في تاريخ الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم**: أبو القاسم خلف بن عبد الملك المعروف بابن بَشْكُوال. عني بنشره وصححه وراجع أصله عزت عطار الحسني، ١٣٧٤ هـ – ١٩٥٥م.

٣٧٥) **الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة**: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله. دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤٠٨هـ.

٣٧٦) **صيد الخاطر**: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي. بعناية: حسن المساحي سويدان. دار القلم – دمشق. ط١. ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٣٧٧) **ضعيف الأدب المفرد للإمام البخاري**: حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني. دار الصديق للنشر والتوزيع. ط ٤، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٣٧٨) **ضعيف الجامع الصغير وزيادته**: محمد ناصر الدين الألباني. أشرف على طبعه: زهير الشاويش. المكتب الإسلامي.

٣٧٩) **الضعفاء الكبير**: أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي. دار المكتبة العلمية، بيروت. ط ١، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.

٣٨٠) **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان. د.ت.

٣٨١) **طبقات ابن سعد = الطبقات الكبرى**: محمد بن سعد بن منيع، المعروف بابن سعد. تحقيق: إحسان عباس. دار صادر، بيروت. ط ١، ١٩٦٨م.

٣٨٢) **طبقات الحضيكي**: محمد بن أحمد الحضيكي. تقديم وتحقيق: أحمد بومزگو. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء. ط ١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٣٨٣) **طبقات الشافعية الكبرى**: تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، دار إحياء الكتب العربية. ط ١، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.

٣٨٤) **طبقات الشافعيين:** أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي. تحقيق: د. أحمد عمر هاشم، د محمد زينهم محمد عزب. مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة. سنة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.

٣٨٥) **طبقات فحول الشعراء:** محمد بن سلّام الجمحي. تحقيق: محمود محمد شاكر. دار المدني – جدة.

٣٨٦) **طبقات الفقهاء:** أبو إسحاق الشيرازي. تحقيق: خليل الميس. دار القلم، بيروت، د.ت.

٣٨٧) **طبقات الفقهاء الشافعية:** أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة. تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان. عالم الكتب، بيروت. ط ١، ١٤٠٧هـ.

٣٨٨) **الطبقات الكبرى:** محمد بن سعد. دار بيروت ودار صادر. بيروت. سنة ١٣٣٧هـ - ١٩٥٧م.

٣٨٩) **طبقات المفسرين:** جلال الدين السيوطي. تحقيق: علي محمد عمر. مكتبة وهبة، ط ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

٣٩٠) **طبقات المفسرين:** شمس الدين محمد بن علي الداودي. راجع النسخة وضبط أعلامها لجنة من العلماء بإشراف الناشر. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٩١) **طبقات النحويين واللغويين:** أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي الإشبيلي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. ط٢.

٣٩٢) **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز:** يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي. المكتبة العصرية – بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

٣٩٣) **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية:** أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية. تحقيق: نايف بن أحمد الحمد. دار عالم الفوائد - مكة المكرمة. ط١، ١٤٢٨هـ.

٣٩٤) **طرق العلماء في استخراج الهدايات القرآنية وصياغتها:** د. طه عابدين طه حمد. مكتبة المتنبي. الدمام، المملكة العربية السعودية. ١٤٤١هـ – ٢٠٢٠م.

٣٩٥) **طريق الهجرتين وباب السعادتين:** محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. دار السلفية، القاهرة، مصر. ط٢، ١٣٩٤هـ.

٣٩٦) **العبادات في الإسلام وأثرها في إصلاح المجتمع**: محمود السيد شيخون. الجامعة الإسلامية، السنة العاشرة، العدد الأول، جمادى الأخرة ١٣٩٧هـ مايو - يونية ١٩٧٧ م.
٣٩٧) **العبودية**: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني. محمد زهير الشاويش. المكتب الإسلامي — بيروت. الطبعة السابعة المجددة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٣٩٨) **العجاب في بيان الأسباب**: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني. حققه: عبد الحكيم محمد الأنيس. دار ابن الجوزي.
٣٩٩) **العَذْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ**: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي. تحقيق: خالد بن عثمان السبت. دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة. ط٢، ١٤٢٦ هـ.
٤٠٠) **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**: أبو حامد، أحمد بن علي بن عبد الكافي، بهاء الدين السبكي. تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي. المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت — لبنان. ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
٤٠١) **عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة**: أبو محمد جلال الدين عبد الله بن نجم بن شاس الجذامي السعدي. دراسة وتحقيق: أ. د. حميد بن محمد لحمر. دار الغرب الإسلامي، بيروت — لبنان. ط١، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.
٤٠٢) **العقوبات**: أبو بكر عبد الله بن محمد البغدادي الأموي المعروف بابن أبي الدنيا. تحقيق: محمد خير رمضان يوسف. دار ابن حزم، بيروت — لبنان. ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
٤٠٣) **العلل**: لابن أبي حاتم الرازي. تحقيق: فريق من الباحثين، بإشراف وعناية: د. سعد بن عبد الله الحميد و د. خالد بن عبد الرحمن الجريسي. مطابع الحميضي. ط١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٤٠٤) **العلل المتناهية في الأحاديث الواهية**: جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي. حققه: إرشاد الحق الأثري. إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، باكستان. ط ٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
٤٠٥) **العلل الواردة في الأحاديث النبوية**: أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني. تحقيق وتخريج: محفوظ الرحمن زين الله السلفي. دار طيبة، الرياض. ط ١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٤٠٦) **العلل ومعرفة الرجال**: أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني. تحقيق: وصي الله بن محمد عباس. دار الخاني، الرياض. ط ٢، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٤٠٧) **علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة**: مجموعة بحوث أُلقيت في المؤتمر العالمي الأول عن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة الذي انعقد في إسلام آباد، سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م. مأخوذ من موقع القرآن الكريم للجميع: http://www.quran-for-all.com.
٤٠٨) **علم البديع**: عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان. د.ت.
٤٠٩) **علم المعاني**: عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان. ط١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
٤١٠) **علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع**: أحمد مصطفى المراغي. دار الكتب العلميّة. ط ٤. عام ١٤٢٢ هـ.
٤١١) **علوم القرآن الكريم**: نور الدين عتر. مطبعة الصباح – دمشق. ط١، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
٤١٢) **الاعتصام**: أبو إسحاق الشاطبي. تحقيق ودراسة: د. محمد بن عبد الرحمن الشقير، و د. سعد بن عبد الله آل حميد، و د. هشام بن إسماعيل الصيني. دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية. ط ١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
٤١٣) **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي. المحقق: محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية. ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
٤١٤) **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**: بدر الدين محمود بن أحمد العيني الحنفي. دار إحياء التراث العربي، بيروت. ١٩٩٨م.
٤١٥) **عِناية القاضي وكِفاية الرَّاضي**: حاشية على تفسير البيضاوي. لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي. دار صادر، بيروت. د.ت.
٤١٦) **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**: أبو العباس الغبريني. حققه وعلق عليه: عادل نويهض. منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٤١٧) **عون المعبود شرح سنن أبي داود**: أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي مع شرح ابن القيم. دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٤١٨) **العين**: الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري. تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي. دار ومكتبة الهلال. د.ت.
٤١٩) **غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام**: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي – بيروت. ط٣، ١٤٠٥هـ.
٤٢٠) **غاية النهاية في طبقات القراء**: شمس الدين ابن الجزري. طبعة جديدة مصححة اعتمدت على الطبعة الأولى للكتاب التي عني بنشرها سنة ١٩٣٢ ج. برجستراسر. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٤٢١) **غرائب القرآن ورغائب الفرقان = تفسير النيسابوري**: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري. تحقيق: الشيخ زكريا عميرات. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٤١٦هـ.
٤٢٢) **غرائب التفسير وعجائب التأويل**: برهان الدين محمود بن حمزة الكرماني. دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت.
٤٢٣) **غريب الحديث**: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. تحقيق: د. عبد الله الجبوري. مطبعة العاني – بغداد. ط١، ١٣٩٧هـ.
٤٢٤) **غريب الحديث**: أبو عُبيد القاسم بن سلاّم الهروي. تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان. مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن. ط ١، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
٤٢٥) **غريب الحديث**: أبو سليمان حمد بن محمد البستي المعروف بالخطابي. تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي. خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي. دار الفكر – دمشق. ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
٤٢٦) **غريب القرآن**: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. تحقيق: أحمد صقر. دار الكتب العلمية. السنة: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
٤٢٧) **غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب**: محمد بن عُزير السجستاني، أبو بكر العُزيري. تحقيق : محمد أديب عبد الواحد جمران. دار قتيبة – سوريا. ط١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

٤٢٨) **الغريبين في القرآن والحديث**: أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي. تحقيق ودراسة: أحمد فريد المزيدي. قدم له وراجعه: أ. د. فتحي حجازي. مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩م.

٤٢٩) **الفائق في غريب الحديث والأثر**: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري. تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعرفة، لبنان. د.ت.

٤٣٠) **الفتاوى الكبرى**: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني. دار الكتب العلمية، لبنان. ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

٤٣١) **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني. حققه وصحح أصوله محب الدين الخطيب، ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وذكر أطرافها: محمد فؤاد عبد الباقي محمد فؤاد عبد الباقي. دار المعرفة، بيروت. سنة ١٣٧٩هـ.

٤٣٢) **فتحُ البيان في مقاصد القرآن**: صديق خان بن حسن بن علي البخاريّ القِنَّوجي. عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري. المكتبة العصريّة للطباعة والنشر، صَيْدا، بَيروت. ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

٤٣٣) **فتح القدير**: كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي، المعروف بابن الهمام. دار الفكر. د.ط. د.ت.

٤٣٤) **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في التفسير**: محمد بن علي الشوكاني. دار ابن كثير، دمشق، ودار الكلم الطيب، بيروت. ط ١، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

٤٣٥) **الفتح المبين بشرح الأربعين**: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي. عني به: أحمد جاسم محمد المحمد، وقصي محمد نورس الحلاق، وأبو حمزة أنور بن أبي بكر الشيخي الدّاغستاني. دار المنهاج، جدة – المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٨م.

٤٣٦) **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب**: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي. قدم له إياد محمد الغوج. تحقيق: د. جميل بني عطا. جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم. ط ١، ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م.

٤٣٧) **الفصل والوصل في القرآن الكريم**: منير سلطان. منشأة المعارف بالإسكندرية. ط٢.

٤٣٨) **الفصول في السيرة:** أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي. تحقيق وتعليق: محمد العيد الخطراوي، محيي الدين مستو. مؤسسة علوم القرآن. ط٣، ١٤٠٣هـ.
٤٣٩) **فضائل رمضان:** أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد البغدادي الأموي المعروف بابن أبي الدنيا. حققه وخرج أحاديثه: عبد الله بن حمد المنصور. دار السلف، الرياض – السعودية. ط ١، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.
٤٤٠) **فضائل الصحابة:** أحمد بن حنبل الشيباني. تحقيق وصي الله محمد عباس. مؤسسة الرسالة، بيروت. ط ١، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣م.
٤٤١) **فضائل القرآن:** أبو عبد الله محمد بن أيوب بن الضريس البجلي. تحقيق: غزوة بدير. دار الفكر، دمشق. ط ١، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧م.
٤٤٢) **فضائل القرآن ومعالمه وآدابه:** أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين. دار ابن كثير (دمشق – بيروت). ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م.
٤٤٣) **الفقه الإسلاميّ وأدلته:** د. وهبة الزحيلي. دار الفكر، دمشق، سوريَّة. ط ١٢.
٤٤٤) **فقه الأسماء الحسنى:** عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر. دار التوحيد للنشر – الرياض. ط١، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨م.
٤٤٥) **فقه الأولويات دراسة جديدة في ضوء الكتاب والسنة:** د. يوسف القرضاوي. مكتبة وهبة، ط ١٩٩٢م.
٤٤٦) **فقه السيرة:** محمد الغزالي. تخريج محمد ناصر الدين الألباني. دار الريان للتراث. ط ١، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
٤٤٧) **فقه قراءة القرآن الكريم:** أبو خالد سعيد عبد الجليل يوسف صخر. مكتبة القدسى – القاهرة. ط١، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م.
٤٤٨) **الفقيه والمتفقه:** أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي. حققه عادل بن يوسف العزازي. مكتبة التوعية الإسلامية، مصر. سنة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٦م.
٤٤٩) **فلسفة الشريعة:** مصطفى إبراهيم الزلمي. التفسير للنشر والاعلان، ط٢، ٢٠١٤م.
٤٥٠) **الفهرست:** أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق المعروف بابن النديم. تحقيق: إبراهيم رمضان. دار المعرفة بيروت – لبنان. الطبعة: الثانية ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

٤٥١) **الفوائد:** محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية – بيروت. ط٢، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م.

٤٥٢) **الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية:** الشيخ علوان: نعمة الله بن محمود النخجواني، دار ركابي للنشر - الغورية، مصر. ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٤٥٣) **فوات الوفيات:** محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي. تحقيق: إحسان عباس. دار صادر، بيروت. ط ١، سنة ١٩٧٣ و١٩٧٤م.

٤٥٤) في **رحاب التفسير:** الشيخ عبد الحميد كشك. المكتب المصرى الحديث، ١٩٨٧م.

٤٥٥) **فيض القدير شرح الجامع الصغير:** عبد الرؤوف المناوي. المكتبة التجارية الكبرى، مصر. ط١، ١٣٥٦م.

٤٥٦) **في ظلال القرآن:** سيد قطب. دار الشروق، القاهرة، مصر. ط٩. ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٤٥٧) **القاموس المحيط:** مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي. مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان. ط٨، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٤٥٨) **القدر وما ورد في ذلك من الآثار:** أبو محمد عبد الله بن وهب المصري القرشي. تحقيق: د. عبد العزيز عبد الرحمن العثيم. دار السلطان، مكة المكرمة. ط ١، ١٤٠٦هـ.

٤٥٩) **القراءات وأثرها في علوم العربية:** محمد محمد سالم محيسن. مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة. ط١، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م.

٤٦٠) **القطع والائتناف:** أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النَّحَّاس. تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي. دار عالم الكتب - المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٤٦١) **القضاء والقدر:** عمر سليمان الأشقر. دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن. ط١٣، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

٤٦٢) **القواعد الحسان لتفسير القرآن:** عبد الرحمن بن ناصر السعدي. مكتبة الرشد، الرياض. ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٤٦٣) **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل**: عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٨٩م.
٤٦٤) **قواعد العقائد**: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي. تحقيق: موسى محمد علي. عالم الكتب – لبنان. ط٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٤٦٥) **الكامل في ضعفاء الرجال**: أبو أحمد بن عدي الجرجاني. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، وشارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط ١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
٤٦٦) **الكامل في اللغة والأدب**: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربي، القاهرة. ط٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٤٦٧) **الكاشف عن حقائق السنن = شرح الطيبي على مشكاة المصابيح**: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي. تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي. مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة – الرياض. ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٤٦٨) **كتاب الأفعال**: علي بن جعفر بن علي السعدي، أبو القاسم، المعروف بابن القَطَّاع الصقلي. عالم الكتب.
٤٦٩) ط١، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.
٤٧٠) **كتاب الألفاظ**: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق ابن السكيت. تحقيق: د. فخر الدين قباوة. مكتبة لبنان ناشرون. ط١، ١٩٩٨م.
٤٧١) **كتاب الفتن**: نعيم بن حماد الخزاعي المروزي. تحقيق: سمير أمين الزهيري. مكتبة التوحيد، القاهرة. ط١، ١٤١٢م.
٤٧٢) **كتاب القدر**: أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن الفِرْيابِي. حققه: عبد الله بن حمد المنصور. أضواء السلف، السعودية. ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٤٧٣) **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد الفاروقي الحنفي التهانوي. تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم. تحقيق: د. علي دحروج. نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي. الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني. مكتبة لبنان ناشرون، بيروت. ط ١، ١٩٩٦م.

٤٧٤) **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:** جار الله محمود بن عمر الزمخشري. دار الكتاب العربي، بيروت. ط ٣، سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٤٧٥) **كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة:** نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. مؤسسة الرسالة، بيروت.
٤٧٦) **كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي:** عبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري. تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ١، ١٤١٨هـ -١٩٩٧م.
٤٧٧) **كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون:** مصطفى بن عبد الله القسطنطيني، المعروف بحاجّي خليفة. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م. (وهي مصورة عن طبعة مكتبة المثنى، بغداد).
٤٧٨) **كشف المشكل من حديث الصحيحين:** جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي. تحقيق: علي حسين البواب. دار الوطن – الرياض.
٤٧٩) **كشف المعاني في المتشابه من المثاني:** بدر الدين بن جماعة. تحقيق: الدكتور عبد الجواد خلف. دار الوفاء، المنصورة. ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٤٨٠) **الكشف والبيان عن تفسير القرآن:** أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور. مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي. دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان. الطبعة: الأولى. ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م.
٤٨١) **الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية:** أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي. تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري. مؤسسة الرسالة، بيروت. ط ٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٤٨٢) **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال:** علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان الشهير بالمتقي الهندي. تحقيق: بكري حياني وصفوت السقا. مؤسسة الرسالة، لبنان. ط ٥، ١٤٠١هـ -١٩٨١م.
٤٨٣) **الكنز في القراءات العشر:** المقرئ تاج الدين عبد الله بن عبد المؤمن ابن المبارك الواسطيّ. تحقيق: د. خالد المشهداني. مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة. ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٤٨٤) **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة:** نجم الدين محمد بن محمد الغزي. تحقيق: خليل المنصور. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٤٨٥) **اللباب في علوم الكتاب:** أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي. تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط١، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م.
٤٨٦) **لباب النقول في أسباب النزول:** عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي. ضبطه وصححه: الاستاذ أحمد عبد الشافي. دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.
٤٨٧) **لسان العرب:** جمال الدين محمد بن مكرم بن علي، ابن منظور الأنصاري. دار صادر، بيروت. ط ٣، ١٤١٤هـ.
٤٨٨) **اللغات في القرآن:** أبو أحمد عبد الله بن الحسين بن حسنون، السامري. حققه ونشره: صلاح الدين المنجد. مطبعة الرسالة، القاهرة. ط١، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.
٤٨٩) **لطائف الإشارات = تفسير القشيري:** أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري. تحقيق: إبراهيم البسيوني. الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر. ط٣.
٤٩٠) **لمحات في الثقافة الإسلامية:** عمر عودة الخطيب. مؤسسة الرسالة. ط١٥، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
٤٩١) **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية:** أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي. مؤسسة الخافقين ومكتبتها – دمشق. ط٢، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
٤٩٢) **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين:** أبو الحسن الندوي. مكتبة الإيمان، المنصورة – مصر.
٤٩٣) **مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام:** مجلة البيان. الرياض، ط١، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.
٤٩٤) **مباحث في التفسير الموضوعي:** مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٨٩م.
٤٩٥) **مباحث في علوم القرآن:** صبحي الصالح. دار العلم للملايين، ط ١٧، ١٩٨٨م.
٤٩٦) **مباحث في علوم القرآن:** مناع القطان. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. ط ٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٤٩٧) **المبسوط:** شمس الأئمة محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي. دار المعرفة، بيروت. ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
٤٩٨) **المبسوط في القراءات العشر:** أبو بكر أحمد بن الحسين بن مِهْران النيسابوريّ، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي. مجمع اللغة العربية – دمشق، عام: ١٩٨١ م.
٤٩٩) **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر:** ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة. دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة.
٥٠٠) **مجاز القرآن:** أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري. تحقيق: محمد فواد سزگين. مكتبة الخانجى – القاهرة الطبعة: ١٣٨١ هـ.
٥٠١) **مجالس ثعلب:** أبو العباس أحمد بن يحيى، المعروف بثعلب. شرح وتحقيق: عبد السلام هارون. سلسلة ذخائر العرب. النشرة الثانية. دار المعارف بمصر. سنة ١٩٦٠م.
٥٠٢) **المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين:** أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البُستي. تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب. ط ١، ١٣٩٦هـ.
٥٠٣) **مجمع الأمثال:** أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري. تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد. دار المعرفة – بيروت، لبنان.
٥٠٤) **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد:** أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي. تحقيق: حسام الدين القدسي. مكتبة القدسي، القاهرة. ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٥٠٥) **مجمل اللغة:** أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي. دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان. مؤسسة الرسالة، بيروت. ط٢. ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٥٠٦) **مجموع رسائل ابن رجب:** زين الدين عبد الرحمن بن أحمد البغدادي الحنبلي. حققه: أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني. الفاروق الحديثة للطباعة والنشر. ط٢، ٢٠٠٣م.
٥٠٧) **مجموعة رسائل التوجيهات الإسلامية لإصلاح الفرد والمجتمع:** محمد بن جميل زينو. دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية. ط٩، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م
٥٠٨) **المجموع شرح المهذب في الفقه الشافعي:** أبو زكرياء يحيى بن شرف النووي. حققه محمد نجيب المطيعي. مكتبة الإرشاد، جدة. د.ت.

٥٠٩) **مجموع الفتاوى:** تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني. تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية. ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٥١٠) **المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث:** محمد بن عمر بن أحمد الأصبهاني المديني. حققه: عبد الكريم العزباوي. جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع، جدة – المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، جـ :١ ١٤٠٦هـ، وج ٢، ٣: ١٤٠٨هـ.

٥١١) **محاسن التأويل:** محمد جمال الدين القاسمي. تحقيق: محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٤١٨هـ.

٥١٢) **محاضرات في علوم القرآن:** غانم قدوري حمد. دار عمار – عمان. ط١، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م.

٥١٣) **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها:** أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي. وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ط ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٥١٤) **المحرر في الحديث:** شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي. تحقيق: د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي، محمد سليم إبراهيم سمارة، جمال حمدي الذهبي. دار المعرفة – لبنان / بيروت. ط٣، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

٥١٥) **المحرر في علوم القرآن:** د مساعد بن سليمان الطيار. مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي. الطبعة الثانية، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

٥١٦) **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:** أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي المحاربي. حققه: عبد السلام عبد الشافي محمد. دار الكتب العلمية – بيروت. ط ١، ١٤٢٢هـ.

٥١٧) **المحلى بالآثار:** علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم الأندلسي. لجنة إحياء التراث العربي. دار الآفاق الجديدة، بيروت. د.ت.

٥١٨) **المحكم والمحيط الأعظم:** أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي. تحقيق: عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

٥١٩) **مختصر سنن أبي داود:** الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري. خرج أحاديثه وضبط نصه وعلق عليه ورقم كتبه وأحاديثه: محمد صبحي حلاق. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.

٥٢٠) **المختصر في تفسير القرآن الكريم:** جماعة من علماء التفسير. إشراف: مركز تفسير للدراسات القرآنية. ط٣، ١٤٣٦ هـ.

٥٢١) **مختصر منهاج القاصدين:** أبو العباس، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي. قدم له: الأستاذ محمد أحمد دهمان. مكتَبَةُ دَارِ البَيَانْ، دمشق: ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م.

٥٢٢) **المخصص:** أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي. تحقيق: خليل إبراهيم جفال. دار إحياء التراث العربي، بيروت. ط١، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

٥٢٣) **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين:** للعلامة ابن قيم الجوزية. حققه: محمد المعتصم بالله البغدادي. دار الكتاب العربي، بيروت. ط٣، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

٥٢٤) **المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي:** أحمد بن محمد بن الصدّيق الغُمَارِي الحسني. دار الكتبي، القاهرة – جمهورية مصر العربية. ط١، ١٩٩٦م.

٥٢٥) **مدخل إلى القرآن الكريم:** محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، د. ت.

٥٢٦) **المدخل إلى السنن الكبرى:** أبو بكر احمد بن الحسين بن علي البيهقي. تحقيق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي. دار الخلفاء، الكويت.

٥٢٧) **مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد:** محمد بن عمر نووي الجاوي. تحقيق: محمد أمين الصناوي. دار الكتب العلمية — بيروت. ط١ – ١٤١٧هـ.

٥٢٨) **المراسيل:** أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس التميمي المعروف بابن أبي حاتم الرازي. المحقق: شكر الله نعمة الله قوجاني. مؤسسة الرسالة، بيروت. ط ١، ١٣٩٧م.

٥٢٩) **المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز:** أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة. تحقيق: طيار آلتي قولاج. دار صادر، بيروت. سنة ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥م.

٥٣٠) **مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح:** تأليف: أبي الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان الرحماني المباركفوري. إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الجامعة السلفية، بنارس، الهند. ط٣، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

٥٣١) **المستدرك على الصحيحين**: أبو عبد الله الحاكم النيسابوري المعروف بابن البيّع. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ١، ١٤١١ – ١٩٩٠.
٥٣٢) **المستصفى من علم الأصول**: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي. دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٨٣م.
٥٣٣) **مسند أبي يعلى**: أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي. تحقيق: حسين سليم أسد. دار المأمون للتراث، دمشق. ط ١، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.
٥٣٤) **مسند الإمام أحمد بن حنبل**: الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني. مؤسسة قرطبة، مصر. د.ت. (وهي المعتمدة في التخريج).
٥٣٥) **مسند الإمام أحمد بن حنبل**: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل. حققه أحمد محمد شاكر. دار الحديث، القاهرة. ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
٥٣٦) **مسند الإمام أحمد بن حنبل**: للإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني. حققه: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، وآخرون. إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة. ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٥٣٧) **مسند الإمام الشافعي**: أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المطلبي. رتبه: سنجر بن عبد الله الجاولي. حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: ماهر ياسين فحل. شركة غراس للنشر والتوزيع، الكويت. ط ١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٥٣٨) **مسند البزار (المعروف باسم البحر الزخار)**: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي المعروف بالبزار. تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، (من ج١ إلى ج٩)، وعادل بن سعد (من ج١٠ إلى ج١٧)، وصبري عبد الخالق الشافعي (ج ١٨). مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة. ط ١، بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م.
٥٣٩) **المسنَد الصَّحيح المُخَرّج عَلى صَحِيح مُسلم**: أبو عَوانة يَعقوب بن إسحَاق الإسفرَاييِنيّ. تحقيق وتنسيق وإخراج: فريق من الباحثين بكليَّةِ الحديث الشَّريف والدراسات الإسلاميَّة بالجامعة الإسلاميَّة، المدينة المنورة، المملَكة العربية السعودية. ط ١، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.
٥٤٠) **مسند الطيالسي**: أبو داود سليمان بن داود الطيالسي الفارسي البصري. دار المعرفة، بيروت. د.ت.

٥٤١) **مسند الفردوس = الفردوس بمأثور الخطاب**: شيرويه بن شهردار أبو شجاع الديلميّ الهمذاني. تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول. دار الكتب العلمية – بيروت. ط١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

٥٤٢) **مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار**: أبو حاتم، محمد بن حبان التميمي، البُستي. حققه ووثقه وعلق عليه: مرزوق على إبراهيم. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع – المنصورة. ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٥٤٣) **مشكاة المصابيح**: ولي الدين محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي. حقق أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت. ط ٣، ١٩٨٥م.

٥٤٤) **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**: برهان الدين البقاعي، تحقيق عبد السميع محمد أحمد حسنين. مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٩٨٧م.

٥٤٥) **مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه**: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري. حققه: محمد المنتقى الكشناوي. دار العربية، بيروت. ط ٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٥٤٦) **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي. المكتبة العلمية، بيروت. د.ت.

٥٤٧) **مصنف ابن أبي شيبة = الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**: أبو بكر بن أبي شيبة العبسي. حققه: كمال يوسف الحوت. مكتبة الرشد، الرياض. ط ١، ١٤٠٩م.

٥٤٨) **مصنف عبد الرزاق = المصنف**: عبد الرزاق بن همام الصنعاني: تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. المكتب الإسلامي، بيروت. ط ٢، ١٤٠٣هـ.

٥٤٩) **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية**: أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني. تحقيق مجموعة من الباحثين. تنسيق: د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري. دار العاصمة ودار الغيث، السعودية. ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٥٥٠) **المطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد**: عبد الرحمن بن حسن التميمي. دار الهداية للطباعة والنشر والترجمة. ط١ .١٤١١هـ ١٩٩١م

٥٥١) **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول:** حافظ بن أحمد بن علي الحكمي. تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر. دار ابن القيم – الدمام. ط١، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

٥٥٢) **معالم السنن شرح سنن أبي داود:** أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي. منشورات المكتبة العلمية، بيروت. ط ٢، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م.

٥٥٣) **معالم في الطريق:** سيد قطب. دار الشروق. الطبعة: الأولى.

٥٥٤) **معاني القراءات:** أبو منصور: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي. مركز البحوث في كلية الآداب – جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.

٥٥٥) **معاني القرآن:** أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط. تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة. مكتبة الخانجي، القاهرة. ط١، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠م.

٥٥٦) **معاني القرآن:** أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس. حققه: محمد علي الصابوني. جامعة أم القرى، مكة المكرمة. ط١، ١٤٠٩هـ.

٥٥٧) **معاني القرآن:** أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمي الفراء. تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي. دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر. ط١.

٥٥٨) **معاني القرآن وإعرابه:** إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج. تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي. عالم الكتب – بيروت. ط ١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

٥٥٩) **معترك الأقران في إعجاز القرآن:** جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط ١. ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

٥٦٠) **المعجزة الكبرى القرآن:** محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي. د.ت.

٥٦١) **المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة:** أحمد عمر أبو شوفة. دار الكتب الوطنية – ليبيا. عام: ٢٠٠٣م.

٥٦٢) **معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب:** شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي. تحقيق: إحسان عباس. دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط١، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣م.

٥٦٣) **المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم**: د. محمد حسن جبل. مكتبة الآداب – القاهرة. ط١، ٢٠١٠م.
٥٦٤) **المعجم الأوسط**: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب، الطبراني. تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني. دار الحرمين، القاهرة. ١٤١٥هـ.
٥٦٥) **معجم البلدان**: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي. دار صادر، بيروت. ط ٢، ١٩٩٥م.
٥٦٦) **معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي**: الدكتور أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل. عالم الكتب، القاهرة. ط١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
٥٦٧) **معجم علوم القرآن**: إبراهيم محمد الجرمي. دار القلم – دمشق. ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
٥٦٨) **معجم الفروق اللغوية**: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري. تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي. مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم». الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
٥٦٩) **معجم لغة الفقهاء**: محمد رواس قلعجي وحامد صادق قنيبي. دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع. ط٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
٥٧٠) **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**: عمر رضا كحالة. مؤسسة الرسالة، بيروت. ط ٧، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٥٧١) **المعجم الكبير**: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي. مكتبة العلوم والحكم، الموصل، العراق. ط ٢، ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٣م.
٥٧٢) **معجم اللغة العربية المعاصرة**: تأليف: د أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل. عالم الكتب، بيروت. ط ١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
٥٧٣) **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري. عالم الكتب، بيروت. ط ٣، ١٤٠٣هـ.
٥٧٤) **معجم المؤلفين: تراجم مصنفي الكتب العربية**: عمر رضا كحالة. مؤسسة الرسالة. ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٥٧٥) **معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»**: عادل نويهض. مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت – لبنان. الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨م.

٥٧٦) **معجم مقاييس اللغة**: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر. ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٥٧٧) **معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن**: حسن عز الدين الجمل. الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر. ط١، ٢٠٠٣ – ٢٠٠٨م.

٥٧٨) **المعجم الوسيط**: مجمع اللغة العربية بالقاهرة. (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار). دار الدعوة.

٥٧٩) **معرفة السنن والآثار**: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. حققه: عبد المعطي أمين قلعجي. دار قتيبة دمشق، بيروت. ط ١، ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.

٥٨٠) **معرفة القراء الكبار**: شمس الدين الذهبي. تحقيق: بشار عواد معروف، وشعيب الأرناؤوط، وصالح مهدي عباس. مؤسسة الرسالة، دمشق. ط ١، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

٥٨١) **المُعْلم بفوائد مسلم**: أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التَّمِيمي المازري. حققه: الشيخ محمد الشاذلي النيفر. الدار التونسية للنشر. ط ٢، سنة ١٩٨٨م.

٥٨٢) **المُغْرِب في ترتيب المعرب**: أبو الفتح، برهان الدين الخوارزمي المطَرِّزِيّ. دار الكتاب العربي. د. ط. د. ت.

٥٨٣) **المغني**: موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي. دار الفكر، بيروت. ط ١، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٤م.

٥٨٤) **مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني**: محمد بن أبي المحاسن الكرماني، دراسة وتحقيق: عبد الكريم مصطفى مدلج. دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان. الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

٥٨٥) **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية – بيروت.

٥٨٦) **مفتاح العلوم**: يوسف بن أبي بكر السكاكي. ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. ط٢، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

٥٨٧) **المفردات في غريب القرآن**: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني. تحقيق: صفوان عدنان الداودي. دار القلم، الدار الشامية – دمشق/ بيروت. ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٥٨٨) **مفردات القرآن – نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية**: عبد الحميد الفراهي الهندي. حققه: د/ محمد أجمل أيوب الإصلاحي. دار الغرب الإسلامي. الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢م.

٥٨٩) **المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم**: لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي. حققه وعلق عليه: محيي الدين ديب مستو، أحمد محمد السيد، يوسف علي بديوي، ومحمود إبراهيم بزال. دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق - بيروت. ط ١، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

٥٩٠) **مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر**: د مساعد بن سليمان الطيار. دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية. ط٢، ١٤٢٧هـ.

٥٩١) **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي. تحقيق: محمد عثمان الخشت. دار الكتاب العربي، بيروت. ط١، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.

٥٩٢) **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي. تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي. الجفان والجابي – قبرص. ط١، ١٤٠٧ – ١٩٨٧م.

٥٩٣) **المقفى الكبير**: تقي الدين المقريزي. تحقيق: محمد اليعلاوي. دار الغرب الاسلامي، بيروت – لبنان. الطبعة: الثانية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٥٩٤) **مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة – مفهوم، ونظر، وتطبيق**: د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني. مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض.

٥٩٥) **مكارم الأخلاق للطبراني** (مطبوع مع مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا): أبو القاسم سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني. كتب هوامشه: أحمد شمس الدين. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. ط١، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

٥٩٦) **مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها:** أبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي. تقديم وتحقيق: أيمن عبد الجابر البحيري. دار الآفاق العربية، القاهرة. ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٥٩٧) **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل:** أبو جعفر بن الزبير الغرناطي، تحقيق: سعد الفلاح، دار الغرب الإسلامي. ط ١. ١٩٨٣م.

٥٩٨) **مناسك الحج والعمرة في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة** - مفهوم، وفضائل، ومنافع، وفوائد، وشروط، وأركان، وواجبات، وآداب، ومسائل، وحِكَمٌ، وأحكامٌ: د. سعيد بن على بن وهف القحطاني. مركز الدعوة والإرشاد، القصب. ط٢، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

٥٩٩) **المنتخب في تفسير القرآن الكريم:** لجنة من علماء الأزهر. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - مصر، طبع مؤسسة الأهرام. ط١٨، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.

٦٠٠) **مناهل العرفان في علوم القرآن:** الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٤٠٩هـ — ١٩٨٨م.

٦٠١) **من بلاغة القرآن:** أحمد أحمد بدوي. نهضة مصر — القاهرة. عام: ٢٠٠٥م.

٦٠٢) **منبهة الإمام المقرئ أبي عمرو الداني:** أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني الأندلسي. دراسة وتحقيق وتعليق: د. الحسن بن أحمد وگاگ. مراكش، د. ط. ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٦٠٣) **المنتقى:** أبو الوليد الباجي. دار الكتاب العربي، بيروت. مصورة عن طبعة دار السعادة بالقاهرة، سنة ١٣٣١هـ.

٦٠٤) **المنتخب من مسند عبد بن حميد:** عبد الحميد بن حميد بن نصر الكَسّي. تحقيق: الشيخ مصطفى العدوي. دار بلنسية للنشر والتوزيع. ط ٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٦٠٥) **منجد المقرئين ومرشد الطالبين:** محمد بن محمد بن يوسف ابن الجزري. تحقيق: حبيب الله الشنقيطي وأحمد محمد شاكر. دار الكتب العلمية، بيروت. ١٩٨٠م.

٦٠٦) **المُنَجَّد في اللغة:** علي بن الحسن الهُنائي الأزدي، الملقب بـ«كُراع النمل». تحقيق: الدكتور أحمد مختار عمر، والدكتور ضاحي عبد الباقي. عالم الكتب، القاهرة. ط٢، ١٩٨٨م.

٦٠٧) **من روائع القرآن – تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل:** محّمد سَعيد رَمضان البوطي. مؤسسة الرسالة – بيروت. ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م.
٦٠٨) **منهاج السنة النبوية:** أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية. تحقيق: محمد رشاد سالم. مؤسسة قرطبة، ط ١، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.
٦٠٩) **المنهاج الواضح للبلاغة:** حامد عوني. المكتبة الأزهرية للتراث.
٦١٠) **منهج الاستنباط من القرآن الكريم:** فهد بن مبارك بن عبد الله الوهبي. إشراف: د. محمد بن عبد الرحمن الشايع.
٦١١) منهجيات الإصلاح والتغيير في سورتي الأنبياء والحج
٦١٢) **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي:** يوسف بن تغري بردي الحنفي. حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد محمد أمين، تقديم: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٦١٣) **المهذب في فقه الإمام الشافعي:** أبو اسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي. دار الكتب العلمية.
٦١٤) **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان:** نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي. تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٦١٥) **الموافقات في أصول الشريعة:** أبو إسحاق الشاطبي. شرحه وخرج أحاديثه عبد الله دراز، ووضع تراجمه الأستاذ محمد عبد الله دراز، وخرج آياته وفهرس موضوعاته عبد السلام عبد الشافي محمد. دار الكتب العلمية، بيروت. د. ت.
٦١٦) **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة:** محمد راتب النابلسي. دار المكتبي – سورية – دمشق. ط٢، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.
٦١٧) **موسوعة أعلام المغرب:** تنسيق وتحقيق: محمد حجي. دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط ١، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.
٦١٨) **موسوعة فضائل سور وآيات القرآن – القسم الصحيح، الجزء الثاني:** محمد بن رزق بن طرهوني. مكتبة العلم، جدة. ط٢، ١٤١٤ هـ.
٦١٩) **الموسوعة القرآنية المتخصصة:** مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر. عام: ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م.

٦٢٠) **موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام:** أحمد بن سليمان أيوب، ونخبة من الباحثين. فكرة وإشراف: د. سليمان الدريع. دار إيلاف الدولية للنشر والتوزيع. ط١، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.

٦٢١) **الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة:** جمع وإعداد: وليد بن أحمد الحسين الزبيري، إياد بن عبد اللطيف القيسي، مصطفى بن قحطان الحبيب، بشير بن جواد القيسي، عماد بن محمد البغدادي. مجلة الحكمة، مانشستر – بريطانيا. ط١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٦٢٢) **الموضوعات:** أبو الفرج بن الجوزي. حقق نصوصه وعلق عليه: نور الدين بن شكري بن علي بويا جيلار. دار أضواء السلف، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٦٢٣) **الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي:** للإمام مالك بن أنس الأصبحي. صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي، بيروت. سنة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٥م.

٦٢٤) **موطأ الإمام مالك:** مالك بن أنس بن مالك بن عامر. تحقيق: بشار عواد معروف، ومحمود خليل. مؤسسة الرسالة. ١٤١٢هـ.

٦٢٥) **موطأة الفصيح نظم فصيح ثعلب:** مالك بن عبد الرحمن أَبُو الحَكَم، ابن المرَحَّل السبتي. حققه وعلق عليه: عبد الله بن محمد (سفيان) الحَكَمي. راجعه وصححه وزاد عليه: الشيخ محمد الحسن الدَّدَو الشِّنقِيطي. دار الذخائر للنشر والتوزيع – الرياض. الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٦٢٦) **ميزان الاعتدال في أسماء الرجال:** شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط ١، ١٩٩٥م.

٦٢٧) **الناسخ والمنسوخ:** أبو القاسم هبة الله بن سلامة البغدادي المقري. تحقيق: زهير الشاويش، ومحمد كنعان. المكتب الإسلامي – بيروت. ط١، ١٤٠٤هـ.

٦٢٨) **الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم:** أبو بكر بن العربي المعافري. تحقيق: الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري. مكتبة الثقافة الدينية. ط١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م.

٦٢٩) **النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن:** محمد عبد الله دراز، دار الثقافة، الدوحة، قطر. ط ١، ١٩٨٥م.

٦٣٠) **نبذة في العقيدة الإسلامية** (مطبوع ضمن كتاب الصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين): محمد بن صالح العثيمين. دار الثقة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة. ط١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٦٣١) **نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار:** ابن حجر العسقلاني. تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. دار ابن كثير، دمشق، ط ١، ١٤٢١ — ٢٠٠٠م.

٦٣٢) **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم:** محمد الغزالي، دار الشروق، ط ١٩٩٢م.

٦٣٣) **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر:** جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي. حققه: محمد عبد الكريم كاظم الراضي. مؤسسة الرسالة - لبنان/ بيروت. ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٦٣٤) **نزهة الألباء في طبقات الأدباء:** أبو البركات، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري. تحقيق: إبراهيم السامرائي. مكتبة المنار، الزرقاء — الأردن. ط٣، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

٦٣٥) **النشر في القراءات العشر:** شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن يوسف ابن الجزري. تحقيق: علي محمد الضباع. دار الكتاب العلمية، بيروت، مصور عن طبعة المطبعة التجارية الكبرى بمصر.

٦٣٦) **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني:** لمحمد بن الطيب القادري. تحقيق: محمد حجي وأحمد توفيق، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، المغرب. ١٩٨٢م.

٦٣٧) **نصب الراية لأحاديث الهداية:** جمال الدين عبد الله بن يوسف الزيلعي. المكتبة الإسلامية، ط ٢، ١٣٩٣هـ — ١٩٧٣م.

٦٣٨) **نصيحة من الإمام أبي حامد الغزالي:** عناية: رمزي سعد الدين دمشقية. دار البشائر الاسلامية . بيروت . لبنان. ط٣، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

٦٣٩) **نظرية التقريب والتغليب وتطبيقها في العلوم الإسلامية:** د. أحمد الريسوني. دار الكلمة، مصر. ط ١، ١٤١٨هـ — ١٩٩٧م.

٦٤٠) **النظم البلاغي بين النظرية والتطبيق**: حسن الجناجي. دار الطباعة المحمدية القاهرة، مصر. ط١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.
٦٤١) **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البِقاعي. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة. ١٤٠٤هـ — ١٩٨٤م.
٦٤٢) **النظم الفني في القرآن**: عبد المتعال الصعيدي. مكتبة الآداب للنشر والتوزيع القاهرة: د.ت.
٦٤٣) **النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام**: أحمد محمد بن علي بن محمد الكَرَجي القصَّاب. تحقيق: علي بن غازي التويجري، وإبراهيم بن منصور الجنيدل، وشايع بن عبده بن شايع الأسمري. دار القيم - دار ابن عفان. ط١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
٦٤٤) **النكت والعيون في تفسير القرآن الكريم**: أبو الحسن علي بن محمد البصري، الشهير بالماوردي. تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٦٤٥) **نهاية السول شرح منهاج الوصول**: جمال الدين عبد الرحيم الإسنوي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط ١، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
٦٤٦) **النهاية في غريب الحديث والأثر**: أبو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد بن محمد بن الأثير الجزري. تحقيق: محمود محمد الطناحي، وطاهر أحمد الزاوي. المكتبة العلمية، بيروت. سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٦٤٧) **النَّوادر والزيادات على مَا في المدَوَّنة من غيرها من الأُمهات**: أبو محمد عبد الله بن أبي زيد النفزي، القيرواني. تحقيق: جماعة من المحققين. دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط ١، ١٩٩٩م.
٦٤٨) **النور السافر عن أخبار القرن العاشر**: محي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العَيْدَرُوس. دار الكتب العلمية — بيروت. ط١، ١٤٠٥هـ.
٦٤٩) **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**: أبو العباس أحمد بن أحمد المعروف ببابا التنبكتي. عناية وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس الغرب. الجماهيرية الليبية. ط ١، ١٩٨٩م.

٦٥٠) **الهدايات القرآنية: دراسة تأصيلية:** د. طه عابدين طه حمد. و د. ياسين بن حافظ قاري. ود. فخر الدين الزبير علي. مكتبة المتنبي. الدمام. المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤٣٨هـ- ٢٠١٧م.

٦٥١) **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه:** أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني. مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة. ط١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٦٥٢) **الهداية في تخريج أحاديث البداية:** أحمد بن محمد بن الصدّيق الغُماري. تحقيق: جماعة من المحققين. دار عالم الكتب، بيروت — لبنان. ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٦٥٣) **الهداية في شرح بداية المبتدي:** علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الفرغاني المرغيناني. تصحيح: طلال يوسف. دار احياء التراث العربي - بيروت — لبنان.

٦٥٤) **الوابل الصيب من الكلم الطيب:** محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية. تحقيق: سيد إبراهيم. دار الحديث، القاهرة. ط ٣، ١٤٢٩هـ - ١٩٩٩م.

٦٥٥) **الوافي بالوفيات:** صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي. تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى. دار إحياء التراث — بيروت. ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

٦٥٦) **الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية:** د. رفعت فوزي عبد المطلب، دار السلام، القاهرة، ط ١، ١٩٨٦م.

٦٥٧) **الوجوه والنظائر:** أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري. حققه وعلق عليه: محمد عثمان. مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة. ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٦٥٨) **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:** أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، النيسابوري، تحقيق: صفوان عدنان داوودي. دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

٦٥٩) **الوسيط في تفسير القرآن المجيد:** أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، النيسابوري. تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس. قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي. دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان. الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

٦٦٠) **وظيفة الصورة الفنية في القرآن:** عبد السلام أحمد الراغب. فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب.
٦٦١) ط ١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
٦٦٢) **الوفيات:** أبو العباس أحمد بن حسن بن الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني. تحقيق: عادل نويهض. دار الآفاق الجديدة، بيروت. ط٤، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
٦٦٣) **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان:** شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
٦٦٤) **ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن:** أبو عمر الزاهد المطرز المعروف بغلام ثعلب. حققه وقدم له محمد بن يعقوب التركستاني. مكتبة العلوم والحكم - السعودية/ المدينة المنورة. ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٦٦٥) **المجلات:**
٦٦٦) مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد الرابع، ذو الحجة ١٤٢٨. معالم الاستنباط في التفسير، نايف الزهراني.
٦٦٧) مجلة البيان.
٦٦٨) مجلة البيان، العدد ٦، "التجديد في الإسلام: صحوة الجهاد" (٦).
٦٦٩) مجلة البيان، العدد ٣١، "الجيل الذي نريد"، أم زياد المالكي.
٦٧٠) مجلة البيان، العدد ٣١، مفهوم السببية عند أهل السنة (٣)، طارق عبد الحليم.
٦٧١) مجلة البيان، العدد ٤٦، مقال " كيف تبني نفسك تربوياً؟"، عبد الله بن مبارك آل السيف.
٦٧٢) مجلة البيان، العدد ٥١، "كلمات في الولاء والبراء"، عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف.
٦٧٣) مجلة البيان، العدد ٧٦، "واجبنا في زمن الانهزام"، د. محمد بن عبد الله الشبابي.
٦٧٤) مجلة البيان، العدد ٨٩، "نحو وعي سُنني"، خالد أبو الفتوح.
٦٧٥) مجلة البيان، العدد ٩٨، "من ثمرات اليقين باليوم الآخر"، الجزء ١: عبد العزيز بن ناصر الجليل.

٦٧٦) مجلة البيان، العدد ٩٩، "من ثمرات اليقين باليوم الآخر"، الجزء ٢، بقلم: عبد العزيز بن ناصر الجليل.
٦٧٧) مجلة البيان، العدد ١٠٥، حتى يكون حجنا مبرورا"، بقلم: فيصل بن علي البعداني.
٦٧٨) مجلة البيان، العدد ١٠٧، "تأملات في فقه الجهاد" (١)، بقلم: د. محمد بن عبد العزيز الشبانى.
٦٧٩) مجلة البيان، العدد ١١٦، "العلم بالسنن الربانية"، ج ٢، بقلم: د. محمد أمحزون.
٦٨٠) مجلة البيان، العدد ١٣٢. دوافع تقديس القبور والأضرحة وآثارها، ج ٢، خالد أبو الفتوح.
٦٨١) مجلة البيان، العدد ١٥٧. نحو تفعيل أفضل لانتفاضة الأقصى"، د. يوسف الصغير.
٦٨٢) مجلة البيان، العدد ١٥٩. جذور العلمانية والتغريب في العالم الإسلامي، خالد أبو الفتوح.
٦٨٣) مجلة البيان، العدد ١٦٧، "العولمة مقاومة واستثمار"، د. إبراهيم بن ناصر الناصر.
٦٨٤) مجلة البيان، العدد ١٧٧، "دروس مستفادة من جهاد خطاب"، هيثم بن جواد الحداد.
٦٨٥) مجلة البيان، عدد ١٩٠، مقال "بين منابر اليأس وينابيع الأمل"، سلمان بن عمر السنيدي.
٦٨٦) مجلة البيان، العدد ٢٠٣، "الإسلاميون.. كيف ينظرون إلى المستقبل؟" (٢)، إعداد: أحمد فهمي.
٦٨٧) مجلة البيان، العدد ٢٠٥، التناقض بين العبادة والسلوك، د. أسامة مشعل.
٦٨٨) مجلة البيان، العدد ٢٠٧، "علم السنن وأهميته في الآفاق والأنفس"، أ. د. محمد أمحزون.
٦٨٩) مجلة البيان، العدد ٢٢٠، "نحن أولى بحقوق المرأة"، التحرير.
٦٩٠) مجلة البيان، العدد ٢٢٩، لماذا لا يُغيِّر رمضان من واقعنا؟"، محمد بن عبد الله الدويش،
٦٩١) مجلة البيان، العدد ٢٣٠، "منهج التغيير"، د. محمد أمحزون.
٦٩٢) مجلة البيان، العدد ٢٣٢، "الدعوة في الحج أمانة"، فيصل بن علي البعداني.
٦٩٣) مجلة البيان، العدد ٢٣٤، تعظيم حرمات الله، د. عبد الرحمن بن صالح المحمود.
٦٩٤) مجلة البيان، العدد ٢٣٨، "الفارغ.. عندما يكون فرصة!"، التحرير.
٦٩٥) مجلة البيان، العدد ٢٣٦، "غلو في التكفير"، د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف.

٦٩٦) مجلة البحوث الإسلامية: "أهمية دراسة التوحيد"، للدكتور: محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الجهني، مجلة البحوث الإسلامية.
٦٩٧) مجلة البحوث الإسلامية: العدد ٢ "تحول العبادات إلى عادات وأثره في حياة المسلمين"، محمد أبو الفتح البيانوني.
٦٩٨) مجلة البحوث الإسلامية "التصوف من صور الجاهلية"، للشيخ محمد أمان بن علي الجامي.
٦٩٩) مجلة البحوث الإسلامية. العدد: ع ٨٦، ضوابط قيم السلوك مع الله عند ابن قيم الجوزية، لفضيلة الدكتور مفرح بن سليمان بن عبد الله القوسي.
٧٠٠) مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٣٤، وسطية أهل السنة في القدر"، الدكتور: عواد بن عبد الله المعتق.
٧٠١) مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٧٦. وسطية أهل السنة والجماعة في باب القدر: الدكتور عبد الله بن سليمان الغفيلي.
٧٠٢) مجلة البحوث الإسلامية، العدد ١٤٨. "من منافع الحج وآدابه"، الدكتور صالح بن فوزان الفوزان.
٧٠٣) مجلة التربية والعلم، المجلد ١٤، العدد ٢ لسنة ٢٠٠٧م: التفسير البلاغي لآيات الحج، معن توفيق دحام.
٧٠٤) مجلة الترتيل، العدد الأول، مسالك الكشف عن مقاصد السورة القرآنية: رشيد الحمداوي.
٧٠٥) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة السنة الخامسة، العدد الرابع، ربيع ثاني ١٣٩٣هـ، مايو ١٩٧٣م الأسماء والصفات نقلا وعقلا: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي.
٧٠٦) مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ١٥، "الإسلام والحياة منهج القرآن في تحرير العقل والفكر"، للشيخ أحمد عبد الرحيم السايح.
٧٠٧) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٢٩، "توحيد الله"، للشيخ عبد الله أحمد قادري،

٧٠٨) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عدد ٣٧. نظرات في كتاب الله الكريم، للشيخ محمد حسين المصري.
٧٠٩) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٣٨،"معالم أصول التربية الإسلامية من خلال وصايا لقمان لابنه": د. عبد الرحمن بن محمد عبد المحسن الأنصاري.
٧١٠) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤٤ "الذكر وأثره في حياة المؤمن"، للدكتور عبد الرحمن بله علي.
٧١١) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤٤، مرتكزات التربية الإسلامية"، للدكتور عباس محجوب.
٧١٢) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤٥،"مفهوم الأسماء والصفات"، للشيخ سعد ندا.
٧١٣) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة: العدد ١١٦، السنة ٣٤، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م. التربية الإبداعية في منظور التربية الإسلامية. خالد بن حامد الحازمي.
٧١٤) مجلة جامعة أم القرى، العدد (٢١). العام: ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م. "الرضا بالقضاء"، د. سالم بن محمد القرني.
٧١٥) مجلة جامعة الإمام، العدد ٣٨، سنة ١٤٢٣هـ، الثواب والعقاب في سورة الحج: دراسة موضوعية، د. عبد الله بن إبراهيم الوهيبي،
٧١٦) مجلة جامعة دمشق للعلوم القانونية والاجتماعية. المجلد ٢٧، العدد الأول، سنة ٢٠١١م، "الحج في دراسة السياق القرآني": د. عماد الدين رشيد.
٧١٧) مجلة العربي، ع/٢٢٦، رمضان ١٣٩٧هـ، "تأملات في حقيقة أمر أولياء الله الصالحين"، حسين أحمد أمين.
٧١٨) مجلة مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي. تصدر عن منظمة المؤتمر الاسلامي بجدة.

**المواقع الإلكترونية:**

- موقع ملتقى أهل التفسير: مفهوم التدبر في ضوء القرآن والسنة وأقوال السلف وأحوالهم.
- موقع الألوكة: https://www.alukah.net/sharia/0/126154/#ixzz5ljOXf6yE.

- موقع الدرر السنية.
- مقال "مقاصد سورة الحج"، للشيخ عبد البديع أبو هاشم، وكتبها ونشرها أحمد الجوهري عبد الجواد، موقع الألوكة: https://www.alukah.net/sharia/0/126154/#ixzz5ljOXf6yE.
- مدونة في رحاب التنزيل: نفحات في سورة الحج:
- http://rehabtanzyl.blogspot.com/2012/11/blog-post_7.html
- مقال "مثل العاجز عن خلق الذباب": الأستاذ محمد عتوك: https://quran-m.com/.
- مقال "السورة العجيبة"، عصام العويد: https://www.feqhweb.com/vb/t21311.html.
- مقال "حرب تنصير المسلمين وواجبنا نحوها": https://ar.islamway.net/article/3056/.
- موقع الإسلام اليوم: سرعة الضوء في القرآن الكريم: د. محمد بن إبراهيم دودح: https://www.islamtoday.net/bohooth/artshow-86-7147.htm

## فهرس الموضوعات


المقدمة: ٣

أولا: أهمية الموضوع: ٤

ثانيا: أسباب اختيار الموضوع: ٤

ثالثا: أهداف البحث: ٥

رابعا: حدود البحث: ٦

خامسا: الدراسات السابقة للموضوع: ٦

سادسا: الإضافة التي يقدمها هذا البحث: ٧

سابعا: المنهج المتبع في هذا البحث: ٧

ثامنا: خطة البحث: ٩

تاسعا: صعوبات الموضوع: ١٠

التمهيد ١٢

**المبحث الأول: التعريف بالهدايات القرآنية.** ١٢

المطلب الأول: تعريف الهداية في اللغة والاستعمال الشرعي: ١٢

**١ – مفهوم الهداية في اللغة:** ١٢

المطلب الثاني: استعمال مشتقات الهدى في القرآن الكريم: ١٧

المطلب الثالث: الفرق بين الهدى والهداية والاهتداء في اللغة والقرآن الكريم: ٢٦

١ – الفرق بين الهداية والهدى: ٢٦

ب – الفرق بين الهداية والإرشاد: ٢٧

ج – الفرق بين الهداية والاهتداء: ٢٨

المطلب الرابع – تعريف الهدايات القرآنية اصطلاحا: ٣٠

المطلب الخامس: الفرق بين مفهوم الهدايات والمصطلحات المقاربة له: ٣٤

**١ – العلاقة بين التفسير والهدايات القرآنية:** ٣٤

**٢ – العلاقة بين الاستنباط والهدايات القرآنية:** ٤١

**٣ – العلاقة بين التدبر والهدايات القرآنية:** ٤٥

**المبحث الثاني: أهمية الهدايات القرآنية.** ٥٠

المطلب الأول: موضوع الهدايات القرآنية: ٥٠
المطلب الثاني: صفات الهدايات القرآنية: ٥١
المطلب الأول: موضوع الهدايات القرآنية: ٥٦
**أولا: إخراج الناس من الظلمات إلى النور:** ٥٦
**ثانيا: هداية العباد للتي هي أقوم:** ٥٧
**ثالثا: تحقيق الشفاء لأمراض الفرد والجماعة.** ٦٠
**رابعا: سد حاجة الأمة إلى الهدايات القرآنية:** ٦٢
المطلب الرابع: أثر الهدايات القرآنية: ٦٥
**ا – أثر الهدايات القرآنية على الفرد:** ٦٥
**ب – أثر الهدايات القرآنية على المجتمع:** ٦٦
**المبحث الثالث: منهج العلماء في استخراج الهدايات القرآنية.** ٦٨
المطلب الأول: الطرق المتعلقة بالمفردة القرآنية: ٦٨
**١ – النظر في دلالات الألفاظ:** ٦٨
**الأولى: دراسة معاني الكلمة في اللغة.** ٦٩
**الثانية: دراسة الكلمة في السياق الموضعي.** ٧٣
**الثالثة: دراسة ما يترتب على تلك المعاني وما يتفرع عنها.** ٧٦
**٢ – النظر في اختلاف القراءات:** ٧٧
**الاختلاف في الكلمة:** ٧٨
**الاختلاف في تصريف الكلمة:** ٧٩
**٣ – النظر في الرسم القرآني:** ٨٠
المطلب الثاني: الطرق المتعلقة بالجملة القرآنية: ٨٢
أولا: تنوع الأساليب: ٨٣
ثانيا: تنوع أوجه الدلالة: ٨٨
ثالثا: النظر في دلالة السياق: ٩١
رابعا: النظر في المناسبات: ٩٦
خامسا: التأمل في ورود أسماء الله الحسنى وختمها للآيات: ٩٩

سادسا: النظر في أوجه الإعراب المحتملة: ١٠١
المطلب الثالث: الطرق المتعلقة بأصول فهم الوحي: ١٠٤
**الأول: استنباط هداية من مجموع أدلة متفرقة.** ١٠٤
**الثاني: استنباط هداية من مجموع أدلة متوالية.** ١٠٧
**الرابع: استنباط هداية من مجموع أدلة متفرقة ظاهرها التعارض.** ١٠٨
**الخامس: استنباط هداية من مجموع أدلة القرآن والسنة.** ١١٠
٣ –الاستفادة من آثار الصحابة والتابعين: ١١٢
المطلب الرابع: الطرق المتعلقة بقرائن الوحي: ١١٤
١ – العلم بأحوال النزول: ١١٥
٢ – تأمل الآيات من خلال مكتشفات العلوم التطبيقية: ١١٧
٣ – الاستفادة من الوقائع في استخراج الهدايات: ١٢١
المطلب الخامس: الطرق المتعلقة بمقاصد القرآن وأصول التشريع وحكمه: ١٢٨
أولا: مقاصد القرآن: ١٢٨
ثانيا: الصدور عن أصول الشريعة: ١٣١
النظر في حكم التشريع وأسراره: ١٣٢
**المبحث الرابع: إطلاقات العلماء للهدايات القرآنية وطرق تناولهم لها.** ١٣٤

**القسم الأول: الهدايات القرآنية في سورة الحج من الآية الأولى إلى آخر السورة.** **١٤١**

**الباب الأول: مقدمات تفسيرية لدراسة هدايات السورة.** **١٤٢**
الفصل الأول: اسم السورة, وفضلها, وأحوال نزولها. ١٤٣
المبحث الأول: اسم السورة. ١٤٣
المطلب الأول: تسمية السورة: ١٤٣
المطلب الثاني: وجه تسمية سورة الحج بهذا الاسم: ١٤٥
المطلب الثالث: مناسبة اسم سورة الحج لمقصودها ومضمونها: ١٥٣
المبحث الثاني: فضائل السورة. ١٥٤
المطلب الأول: فضل سورة الحج ١٥٤

المبحث الثالث: أحوال نزول السورة. ١٦٠
المطلب الأول: مكان نزول آيات سورة الحج: ١٦٠
المطلب الثاني: آيات سورة الحج التي نزلت بالمدينة النبوية: ١٧٠
المطلب الثالث: الصبغة العامة لآيات سورة الحج: ١٧٩
الفصل الثاني: معاني السورة ومقاصدها. ١٨٣
المبحث الأول: مقاصد السورة العامة ومدى دلالتها على هداياتها. ١٨٣
المطلب الأول – تعريف مقاصد السور: ١٨٣
١ – تعريف المقاصد في اللغة: ١٨٣
٢ – تعريف السورة في اللغة والاصطلاح: ١٨٤
٣ – تعريف مقاصد السور في الاصطلاح: ١٨٧
المطلب الثاني: مقصود سورة الحج: ١٩١
المطلب الثالث: مواضيع السورة الرئيسية: ٢٠٤
**المبحث الثاني: معاني مفردات سورة الحج ومدى دلالتها على هداياتها:** ٢٠٩
المطلب الأول: معاني مفردات الربع الأول من سورة الحج ٢٠٩
المطلب الثاني: معاني مفردات الربع الثاني من سورة الحج ٢٣٤
المطلب الثالث: معاني مفردات الربع الثالث من سورة الحج ٢٧٧
المطلب الرابع: معاني مفردات الربع الأخير من سورة الحج ٣٠٧
**المبحث الثالث: المعنى الإجمالي لآيات سورة الحج بما يتوافق مع هداياتها:** ٣٢٣
المطلب الأول: مقاطع سورة الحج الرئيسية ٣٢٣
المطلب الثاني: التفسير الإجمالي لسورة الحج ٣٢٨

**الباب الثاني: دراسات تطبيقية في هدايات سورة الحج, وربط ذلك بواقع الأمة** **٣٤٣**
الفصل الأول: الهدايات الجزئية والكلية في آيات السورة. ٣٤٤
المبحث الأول: الهدايات الجزئية في آيات السورة. ٣٤٤
المطلب الأول: الهدايات الجزئية الخاصة بالربع الأول من سورة الحج: ٣٤٤
**المطلب الثاني: الهدايات الجزئية الخاصة بالربع الثاني من سورة الحج:** ٤٨٠
المطلب الثالث: الهدايات الجزئية الخاصة بالربع الثالث من سورة الحج: ٧٤٧

المطلب الرابع: الهدايات الجزئية الخاصة بالربع الأخير من سورة الحج: ٨٧٧
المبحث الثاني: الهدايات الكلية في آيات السورة. ٩٨٧
المطلب الأول: الهدايات الكلية المستخرجة من سورة الحج كاملةً ٩٨٧
المطلب الثاني: الهدايات الكلية المستخرجة من مجموع آيات متتالية من سورة الحج: ٩٩٢
الهداية الأولى: الدعوة إلى حج بيت الله الحرام القائم على الإخلاص لله تعالى وتعظيمه والتقرب إليه بالقلب والجوارح: ٩٩٢
الهداية الثانية: التعريف بالصفات العليا لله تعالى: ٩٩٦
المطلب الثالث: الهدايات الكلية المستخرجة من مجموع آيات متفرقة من سورة الحج: ٩٩٩
١ – الهداية الأولى: وجوب معرفة العباد لربهم عز وجل من خلال أسمائه الحسنى وصفاته العلى. ٩٩٩
٢ – الهداية الثانية: وجوب تعظيم العباد لله تعالى وتعظيم حرماته وشعائره. ١٠٠٤
٣ – الهداية الثالثة: لزوم اقتران الإيمان بالله تبارك وتعالى بالعمل الصالح. ١٠٠٧
٤ – الهداية الرابعة: وجوب العناية بالقلب وتطهيره وتزكيته، والحذر من قسوتها، ومداوته من أمراضه، والمجاهدة على الطاعات القلبية. ١٠٠٩
٥ – الهداية الخامسة: وجوب الاستناد إلى العلم المأخوذ من الوحي أو المبني على الاستدلال العقلي. ١٠١٢
٦ – الهداية السادسة: الاطمئنان إلى أن الله تعالى مُظهرٌ للدين، مدافعٌ عن المؤمنين، ناصرٌ للمظلومين. ١٠١٧
٧ – الهداية السابعة: وجوب الإيمان بوحدانية الله، وتوحيده وإفراده بسائر وجوه العبادة، وتجنب الشرك بجميع صوره الجلية والخفية. ١٠١٨
٨ – الهداية الثامنة: وجوب الاعتقاد بأن الآخرة هي دار الجزاء وموعد الفصل بين الناس أجمعين، وأن الدنيا دار ابتلاء، وما ينطوي عليه من الدعوة إلى الخوف من سوء الحساب. ١٠٢٠
٩ – الهداية التاسعة: تقرير أصول الإيمان الستة: ١٠٢٢
١٠ – الهداية العاشرة: الدعوة إلى أداء العبادات، والتنبيه على أنه لا يتم تقوى الله إلا بها. ١٠٢٧
١١ – الدلالة على منازل السير إلى الله تعالى: ١٠٢٩
١٢ – الإيمان بأن لله تعالى سُننًا في الكون لا تتبدل ولا تتخلف. ١٠٣٥
١٣ – الدعوة إلى التفكر في الكون والتأمل في تصريف الله لشؤونه والاعتبار بها. ١٠٣٨

١٤ – التحذير من كيد الشيطان وجنده لهذا الدين وحملته وأهله: ١٠٤٠
١٥ – تذكير الناس بنعم الله عليهم وتنبيههم على شكره تعالى عليها. ١٠٤١
١٦ – استحباب التقرب إلى الله تعالى بذبح الأنعام والتنبيه إلى أحكامها والحِكَم المقصودة منها: ١٠٤٢
١٧ – التنبيه على أسس الدعوة إلى الله وبعض القواعد والأساليب الدعوية التي يلزم الدعاة أن يتقيدوا بها: ١٠٤٥
١٨ – التحذير من عاقبة الظلم وبيان مصير الظالمين. ١٠٥١
١٩ – الندب إلى ذكر الله تعالى ببيان فضله: ١٠٥٢
٢٠ – بيان شرف الصلاة والدعوة إلى إقامتها وتوفية أركانها: ١٠٥٤
٢١ – بيان فضل المسجد الحرام والدعوة إلى تعظيمه وتطهيره والعناية به وعمارته بالطاعات: ١٠٥٦
٢٢ – تشريع القتال في سبيل الله لإعلاء دين الله ورفع الظلم عن عباده المستضعفين: ١٠٥٨
٢٣ – الدعوة إلى الاقتداء بإبراهيم عليه السلام الذي جعله الله إماما للناس وأبا للرسل والأنبياء: ١٠٥٩
٢٤ – تبشير المؤمنين بثمرات الإيمان في الدنيا والآخرة: ١٠٥٩
٢٥ – ترهيب العباد من عواقب الشرك والكفر في الدنيا والآخرة: ١٠٦١
المطلب الرابع: الهدايات الكلية المستخرجة من آية أو جملة من سورة الحج: ١٠٦٣
الهداية الكلية الأولى: عبادة الله تعالى بجميع أنواع العبادات: ١٠٦٣
الهداية الكلية الثانية: فعل جميع أنواع الخيرات: ١٠٦٥
الهداية الكلية الثالثة: الاجتهاد في طاعة الله ونصرة دينه ومجاهدة ما يصرف الإنسان عنها من أعداء الدين الظاهرة والباطنة: ١٠٦٧
الهداية الكلية الرابعة: يسر الشريعة ورفع الحرج عن المكلف عند الأعذار والظروف الطارئة: ١٠٧٢
الفصل الثاني: مناسبات السورة وخصائصها وأساليبها في عرض هداياتها. ١٠٧٧
المبحث الأول: المناسبات المتعلقة بهدايات آيات السورة. ١٠٧٧
المناسبات: تعريفها، وأنواعها: ١٠٧٧
مناسبة سورة الحج لسابقتها: ١٠٧٩
مناسبة سورة الحج لما بعدها: ١٠٨٧

مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها: ١٠٩١
المناسبات بين موضوعات السورة: ١٠٩٣
المناسبة بين المقطع الأول والمقطع الثاني: ١٠٩٩
المناسبة بين المقطع الثاني والمقطع الثالث: ١١٠٠
المناسبة بين المقطع الثالث والمقطع الرابع: ١١٠٣
المناسبة بين المقطع الرابع والمقطع الخامس: ١١٠٨
المناسبة بين المقطع الخامس والمقطع السادس: ١١١٤
المناسبة بين المقطع السادس والمقطع السابع: ١١٢٠
المناسبة بين المقطع السابع والمقطع الثامن: ١١٢٣
المناسبة بين المقطع الثامن والمقطع التاسع: ١١٢٧
المناسبة بين المقطع التاسع والمقطع العاشر: ١١٢٩
المناسبة بين المقطع العاشر والمقطع الحادي عشر: ١١٣٢
المناسبة بين المقطع الحادي عشر والمقطع الثاني عشر: ١١٣٤
المناسبة بين المقطع الثاني عشر والمقطع الثالث عشر: ١١٣٧
المناسبة بين المقطع الثالث عشر والمقطع الرابع عشر: ١١٣٩
المبحث الثاني: خصائص هدايات آيات السورة. ١١٤٢
تعريف الخصائص: ١١٤٢
الفرق بين الخصائص العامة للقرآن الكريم وخصائص السور القرآنية: ١١٤٣
خصائص عامة لسورة الحج: ١١٤٦
خصائص سورة الحج المتعلقة بمعانيها وهداياتها: ١١٧١
المبحث الثالث: أساليب السورة في عرض هداياتها. ١١٨٧
تعريف الأساليب: ١١٨٧
النوع الأول: الأساليب التعبيرية التي تعرض بها الهدايات في السورة: ١١٩٠
أسلوب التصوير: ١١٩٠
أسلوب الاستدلال المنطقي: ١٢٠٤
أسلوب الترغيب والترهيب: ١٢٠٧
أسلوب التحدّي والتعجيز. ١٢١٠

النوع الثاني: الفنون البلاغية التي تعرض بها الهدايات في السورة ١٢١١
الاستفهام: ١٢١٢
أسلوب التوكيد: ١٢١٦
أسلوب التقديم والتأخير. ١٢٢٥
أسلوب التكرار: ١٢٣٤
أسلوب القصر: ١٢٣٧
الالتفات: ١٢٣٩
العدول عن الماضي إلى المضارع وعكسه: ١٢٤١
العدول عن صيغة إلى صيغة أخرى: ١٢٤٢
الإظهار في مقام الإضمار، وعكسه: ١٢٤٥
ذكر الخاص بعد العام أو العام بعد الخاص: ١٢٥٠
التفصيل بعد الإجمال: ١٢٥٢
الحذف: ١٢٥٣
الاكتفاء: ١٢٥٧
التنكير: ١٢٥٩
المبالغة: ١٢٦٠
الاحتراس: ١٢٦٤
المقابلة: ١٢٦٥
الفصل الثالث: واقع الأمة في ضوء هدايات آيات السورة, وأثر ذلك عليها. ١٢٦٧
المبحث الأول: واقع الفرد والمجتمع من هدايات آيات السورة. ١٢٦٧
تمهيد: ١٢٦٧
واقع الأمة في جانب توحيد الله والإيمان به: ١٢٧٤
واقع الأمة في جانب الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى: ١٢٨١
واقع الأمة في جانب الإيمان بالغيب: ١٢٨٢
واقع الأمة في جانب الإيمان بالقضاء والقدر: ١٢٨٤
واقع الأمة في معرفة سنن الله تعالى في خلقه: ١٢٨٦
واقع الأمة في جانب العمل الصالح: ١٢٨٨

واقع الأمة في جانب التقوى: ١٢٩٠
واقع الأمة في جانب تعظيم الله ودينه: ١٢٩١
واقع الأمة في جانب تعظيم المشاعر المقدسة: ١٢٩٣
واقع الأمة في جانب تعظيم البلد الحرام والمسجد الحرام: ١٢٩٦
واقع الأمة في شأن أداء العبادات عموما: ١٢٩٩
واقع الأمة في شأن الصلاة: ١٣٠٤
واقع الأمة في شأن عبادة الحج: ١٣٠٥
واقع الأمة في شأن ذكر الله تعالى: ١٣٠٧
واقع الأمة في شأن التصدق والإنفاق في سبيل الله: ١٣٠٨
واقع الأمة في شأن الأضاحي: ١٣٠٩
واقع الأمة في شأن أعمال القلوب: ١٣١٠
واقع الأمة في منازل السير إلى الله: ١٣١٢
واقع الأمة في عبادة التفكر: ١٣١٣
واقع الأمة في أخذ العلم من مصادره، لا من التقليد: ١٣١٣
واقع المسلمين في جانب العدالة والظلم: ١٣١٤
واقع المسلمين في جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ١٣١٦
واقع المسلمين في جانب الجهاد المشروع: ١٣١٨
**المبحث الثاني: سبل تحقيق هدايات آيات السورة في واقع الأمة** ١٣٢٢
تمهيد: ١٣٢٢
السبل التفصيلية لتحقيق هدايات السورة: ١٣٢٤
إشاعة العلم الشرعي: ١٣٢٥
غرس الإيمان بالله وباليوم الآخر في النفوس: ١٣٣١
الاهتمام بتزكية النفوس وتطهير القلوب: ١٣٣٦
ربط الناس بالقرآن الكريم تلاوة وتدبرا وعملا: ١٣٤٣
تربية الناشئة على هدي القرآن: ١٣٤٥
ربط المسلمين بسيرة السلف الصالح: ١٣٤٧
الاهتمام بالعلوم التي تكشف السنن الإلهية في الكون والتاريخ والاجتماع: ١٣٥١

استثمار وسائل الإعلام والاتصال الحديثة: ١٣٥٣
**المبحث الثالث: أثر تطبيق هدايات آيات السورة على واقع الأمة** ١٣٥٨
مقدمة: ١٣٥٨
آثار التمسك بتوحيد الله والإيمان به: ١٣٥٨
آثار الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى: ١٣٦٧
آثار الإيمان بالقضاء والقدر: ١٣٧٣
آثار الإيمان باليوم الآخر: ١٣٧٨
آثار الجمع بين الإيمان والعمل الصالح: ١٣٨٤
آثار تعظيم حرمات الله وشعائره: ١٣٨٧
آثار الأخذ بالمفهوم الشامل للعبادة: ١٣٨٩
آثار أداء أمهات العبادات: ١٣٩٢
آثار التقوى: ١٤٠١
أثر معرفة السنن الإلهية في الأمة: ١٤٠٤
آثار الأخذ بالجهاد المشروع: ١٤٠٨
آثار إشاعة العدل ونبذ الظلم: ١٤١٢
الخاتمة ١٤١٥
أهم النتائج: ١٤١٥
أهم التوصيات: ١٤١٨
الفهارس ١٤٢٠

**- فهرس الآيات القرآنية ١٤٢١**

**- فهرس الأحاديث النبوية ١٤٣٥**

**- فهرس الأعلام ١٤٤٠**
فهرس المصادر والمراجع ١٤٤٨
فهرس الموضوعات ١٥١٣